

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا

بِأَخْبَارِ دَارِ الْمُصْطَفَى

ثَابِتٌ

نُورُ الدِّينِ قَاسِمُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَصْرِيِّ، السُّمُورِيِّ، نَزِيلُ دَارِ الْهَجْرَةِ

الْمُرُوفِيِّ فِي عَامِ ٩١١ هـ مِنَ الْهَجْرَةِ

حَقَّقَهُ، وَفَضَّلَهُ، وَعَلَنَ حَوَاشِيَهُ

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الْحَكِيمِ

وَلَدَهُ

إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

بِكُرْتِ بَلْبَاسَانَ

وفاء الوفا

بأخبار دار المصطفى

تأليف

نور الدين علي بن أحمد ، المصري ، السهمودي ، نزيل دار الهجرة

المتوفى في عام ٩١١ من الهجرة

حَقَّقَهُ ، وفَصَّلَهُ ، وعلقَ حَوَاشِيَهُ

محمد مجي إبراهيم

عفا الله تعالى عنه !

الجزء الأول

يطلب من دار احياء التراث العربي - بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً يكافئ موفور نعمته ، والشكر له سبحانه على سوابغ فضله وعظيم
مُنِّته ، وصلاة الله وسلامه على سيد ولد آدم ومُصْطَفَاهُ من بَرِيَّتِهِ ، محمد بن عبد الله
ابن عبد المطلب ، وعلى آله وصحبه وعترته .

أما بعد ، فهذا ثانی ثلاثة كتب صنفها الشيخ العلامة نور الدين علي بن أحمد
السمهودي ، المصري ، نزيل المدينة المنورة ، المتوفى في عام ٩١١ من الهجرة ،
وموضوع الكتب الثلاثة واحد :

أولها : كتاب مُفَصَّل ذكر فيه ما أمكنه الوقوف عليه من تواريخ المدينة
المدورة ، وما عاينه من أمور لم يظفر بها أحد من مؤرخيها ، وسلك فيه « طريقة
الاستيعاب » ، وجمع ما اختلف من معاني تلك الأبواب ، وتلخيص مقاصد جميع
تواريخ المدينة التي وقف عليها ، وإضافة ما اقتضى الحال أن يضاف إليها « وهو
يسمى هذا الكتاب في مطلع الكتاب الثاني « اقتفاء الوفا » ، بأخبار دار المصطفى »
وكذلك يسميه صاحب شذرات الذهب ، ولكن حاجي خليفة يسميه « الوفا » ،
بما يجب لحضرة المصطفى « والمؤلف نفسه يسميه في ثانيا كتابه الثاني وفي مطلع
الثالث « الوفا » . ولم يظفر هذا الكتاب بالإتمام فضلاً عن الظهور والتداول ،
فقد كان المؤلف تركه في المسجد النبوي وسافر إلى مكة المكرمة فاحترق
الكتاب فيما احترق بحريق أما كن من المسجد الشريف .

وثانيها : كتاب وَسِيطٌ صنفه استجابة لمن « طاعته غُنى ، ومخالفته غُرم »
وقصد به أن يختصر كتابه الأول « مع توسط غير مُفْرط » و « مع ما رأى في
ذلك من الإتحاف بأمور لا توجد في غيره من المختصرات بل ولا المبسوطات ،
سيما فيما يتعلق بأخبار الهجرة الشريفة ، ومعالمها المنيفة ، فقد استفاد ذلك عياناً ،

وعلم أخبارها إيقاناً ، بسبب ما حدث في زمانه من العماره ؛ لاشتغالها على تجديد ما كاد أن يهوى في الحجرة الشريفة من الأركان ، وإحكام ما أحاط بها من البنيان ، وتشرفه بالخدمة في إعادة بنيانها ، وحظوته بالوقوف على عرصتها ، وتمتعه بانتشاق تربتها .

وهذا الكتاب هو الذي تقدمه بين يدي القارئ ، واسمه « وفاء الوفا » ، بأخبار دار المصطفى « بعد تحقيق أصله ، وتفصيله ، وضبط غرائبه ، والتعليق عليه تعليقا وجيزا يبين ما لا بد للقارئ المتوسط من معرفته من شرح كلمة غريبة أو بيان موضع أصبح اسمه في ذمة التاريخ ، أو إشارة إلى خطأ وقع في الأصول التي اعتمدناها في إخراج هذا الكتاب ، أو نحو ذلك مما يعرض لنا .

وثالثها : كتاب مختصر « في نحو نصف وفاء الوفا » ، مع جمع مقاصده وتحسين وصفه « واسم هذا الكتاب « خلاصة الوفا » ، بأخبار دار المصطفى .

وقد طبع الكتابان الثاني - وهو هذا - والثالث ، مراراً ، طبعا غير مفصل ولا مضبوط ، وذلك شأن الوراقين في كل ما كانوا ينشرونه من كتب العلم والأدب والتاريخ ، ولما أراد الشيخ محمد المنذكاني نزيل المدينة المنورة والكتبي بها أن يعيد طبع كتاب « الوفا » رغب إلى في تحقيقه وتفصيله ، وصادف ذلك منى رغبة خالصة لوجه الله تعالى ، رجاء أن يتقبل سبحانه هذا العمل الذي أحبت أن أتقرب به إليه وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقامت بضبط غرائبه ، وتفصيل عباراته بوضع علامات الترقيم الحديثة ، ووضع عناوين موجزة على هامش النسخة ، والله سبحانه المرجو أن يجعل هذا العمل في سجل الحسنات ، وأن ينفع به النفع المرغوب فيه ، إنه ولي ذلك كله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ما كتبه أبو رجاء ، المعتر بالله تعالى

محمد بن محمد الدين عبد الحميد

سلح جمادى الأولى سنة ١٣٧٤
الموافق ٢٣ من يناير ١٩٥٥

عن مصر الجديدة في

ترجمة مؤلف الكتاب

الشيخ العلامة علي بن أحمد السمهودي ، رحمه الله !

(١) هو الإمام ، القدوة ، الحجة ، المقتن ، نور الدين ، أبو الحسن علي بن القاضي عفيف الدين عبد الله ، بن أحمد بن علي بن عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد ابن عيسى بن جلال الدين أبي العلياء بن أبي الفضل جعفر بن علي بن أبي الطاهر ابن الحسن بن أحمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن حسن بن محمد بن إسحاق ابن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن الأكبر بن علي بن أبي طالب ، الحسني ، ويعرف بالسمهودي . نزيل المدينة المنورة ، وعالمها ، ومفتيها ، ومدرسها ، ومؤرخها ، الشافعي .

(٢) وُلد في صفر الخير من سنة ٨٤٤ أربع وأربعين وثمانمائة ، في سمهود ، وشأ بها ، وحفظ القرآن الكريم ، والمنهاج القرعي ، وكتبها ، ولازم والده حتى قرأ عليه المنهاج بحثاً مع شرحه لجلال الدين المحلى ، وشرح البهجة ، وجمع الجوامع ، وسمع عليه بعض كتب الحديث ، وقدم القاهرة معه غير مرة ، ولازم الشمس الجوجري في الفقه وأصوله والعربية ، وقرأ على الجلال المحلى بعض شرحه على المنهاج وجمع الجوامع ، ولازم الشريف المناوي وقرأ عليه الكثير ، وألبسه خرقة التصوف ، وقرأ على النجم بن قاضي عجّلون تصحيحه للمنهاج ، وعلى الشيخ زكريا في الفقه والفرائض ، وعلى السعد الديري وأذن له في التدريس هو والياي والجوجري ، وقرأ على مَنْ لَا يُحْصَى مالا يُحْصَى ، وكان على خير كثير .

(٣) قطن بالمدينة المنورة من سنة ثلاث وسبعين ، ولازم فيها الشهاب الأبيطي ، وقرأ عليه تصانيفه وغيرها ، وأذن له في التدريس ، وأكثر من السماع هناك على أبي الفرج المراغي ، وسمع بمكة من كمالية بنت النجم المرجاني وشقيقها الكمال ، والنجم عمر بن فهد ، في آخرين .

(٤) انتفع به جماعة الطلبة في الحرمين الشريفين ، وألّف عدة تأليف ، منها « جواهر العقدين ، في فضل الشرفين » ومنها كتاب « اقتفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » الذي ذكرناه في التصدير ، وبيننا أنه احترق قبل تمامه ، ومنها « الوفا ، بأخبار دار المصطفى » وهو الكتاب الذي نعاني إخراجَه اليوم ، ومنها « خلاصة الوفا ، بأخبار دار المصطفى » ومنها حاشية على الإيضاح في مناسك الحج للامام النووي سماها « الإفصاح » ومنها حاشية على الروضة في فقه الشافعي سماها « أمنية المعتنين ، بروضة الطالبين » وصل فيها إلى باب الربا ، وجمع فتاويه في مجلد ، وحصل كتبنا نفيسة احترقت كلها وهو بمكة في سنة ست وثمانين .

(٥) زار بيت المقدس ثم عاد إلى المدينة المنورة مستوطنا ، وتزوج بها عدة زوجات ، ثم اقتصر على السّرّارى ، وملّك الدور ، وعمرّها .

(٦) قال الحافظ السخاوى : قلّ أن يكون أحد من أهل المدينة لم يقرأ عليه

(٧) وفي الجملة هو إمام مفنن ، متميز في الأصول والفقه ، مديم دراسة العلم

والتأليف ، متوجه للعبادة والمباحثة والمناظرة ، قوى الجلادة ، قوى اليقين .

(٨) توفى بالمدينة المنورة يوم الخميس ثامن عشر ذى القعدة من عام أحد

عشر وتسعمائة من الهجرة ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وأسبغ عليه ذيول فضله وكرمه ، آمين .

فهرس الجزء الأول

من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى »

لنور الدين على بن أحمد السمهودي المتوفى في عام ٩١١ هـ

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١	خطبة المؤلف	٩٢	الفصل التاسع في بيان جبلها غير وثور
٢	ثبت الكتاب	٩٦	الفصل العاشر ، في ذكر أحاديث
٨	الباب الأول في ذكر أسماء هذه البلدة الشريفة		تقتضى زيادة حرم المدينة على التحديد المشهور .
٢٨	الباب الثاني في فضائلها ، وبدء شأنها ، وما يشول إليه أمرها ، وفيه ستة عشر فصلا	٩٨	الفصل الحادي عشر ، في بيان ما في الأحاديث المذكورة من الألفاظ المتعلقة بالتحديد ، وذكر من ذهب إلى مقتضاها من العلماء
٢٨	الفصل الأول ، في تفضيلها على غيرها من البلاد	١٠٢	الفصل الثاني عشر ، في حكمة تخصيص هذا المقدار المعين بالتحريم
٣٩	الفصل الثاني ، في الحث على الإقامة بها ، والصبر على لأوائها وشدتها ، وكونها تنفي الحبث والدنوب ، ووعيد من أرادها وأهلها بسوء أو أحدث بها حدثاً	١٠٥	الفصل الثالث عشر ، في أحكام هذا الحرم ، وفيه مسائل :
٤٧	الفصل الثالث ، في الحث على حفظ أهلها وإكرامهم والتحريض على الموت بها ، واتخاذ الأصل	—	المسألة الأولى ، القول في تحريم الصيد وقطع الشجر
٥٢	الفصل الرابع ، في بعض دعاء الرسول (ص) لها ولأهلها ، وما كان بها من الوباء ، ونقله عنها	١١٠	المسألة الثانية ، في بيان ما يستثنى مما يحرم
٦١	الفصل الخامس ، في عصمتها من الدجال والطاعون	١١٢	المسألة الثالثة ، في أخذ ثوب من ذلك للدواء
٦٧	الفصل السادس ، في الاستشفاء بترابها ، وبتمرها	١١٣	المسألة الرابعة ، دية القتل الخطأ في المدينة مغلظة
٧٣	الفصل السابع ، في سرد خصائصها التي لا تنحصر	١١٣	المسألة الخامسة ، حكم لقطة حرم المدينة
٨٩	الفصل الثامن ، في الأحاديث الواردة في تحريمها	١١٣	المسألة السادسة في حكم المقاتلة في حرم المدينة
		١١٤	المسألة السابعة ، حكم الاستنجاء بحجارة الحرم
		—	المسألة الثامنة ، حكم نقل تراب الحرم المدني

ص	الموضوع	ص	الموضوع
١١٨	الفصل الرابع عشر ، في ذكر بدء شأنها وما يثول إليه أمرها	٢٢٨	الفصل الثامن ، في حديث العقبة الكبرى
١٢٢	الفصل الخامس عشر ، في ذكر وقوع ما أخبر به النبي (ص) من خروج أهلها وتركها ، وذكر واقعة الحرة المقتضية لذلك	٢٣٥	الفصل التاسع ، في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليها
١٣٩	الفصل السادس عشر ، في ظهور نار الحجاز التي أئذربها النبي (ص) فظهرت بأرض المدينة وأطفأها الله عند وصولها إلى حرمها	٢٤٤	الفصل العاشر ، في دخول النبي (ص) إلى المدينة ، وتأسيسه مسجد قباء
١٥٦	الباب الثالث ، في أخبار سكانها في سالف الزمان ، ومقدم النبي (ص) إليها ، وما كان من أمره بها في سني الهجرة ، وفيه اثنا عشر فصلاً	٢٥٤	الفصل الحادي عشر ، في قدوم النبي (ص) باطن المدينة ، وسكنها بدار أبي أيوب الأنصاري
—	الفصل الأول ، في سكانها بعد الطوفان ، وما ذكر في سبب نزول اليهود بها ، وبيان منازلهم	٢٧٠	الفصل الثاني عشر ، فيما كان من أمره (ص) بها في سني الهجرة إلى انتقاله للرفيق الأعلى ، مختصراً ، مرتباً على السنين
١٦٦	الفصل الثاني ، في سبب سكني الأنصار بها	—	السنة الأولى : بناء المسجد النبوي موت أسعد بن زرارة - وموت البراء بن معرور - الزيادة في صلاة الحضر - وعك المهاجرين ودعاؤه (ص) بنقل وبأها - مولد عبدالله بن الزبير - أول راية عقدت في الإسلام - زواجه (ص) بعائشة ، وعقده على سودة بنت زمعة - إسلام عبدالله بن سلام
١٧٣	الفصل الثالث ، في نسب الأنصار	٢٧٤	السنة الثانية من الهجرة : صوم عاشوراء - زواج علي بفاطمة - غزوة الأبواء (ودان) التوجه إلى الكعبة - غزو بني قينقاع - غزوة السويق
١٧٧	الفصل الرابع ، في تمكثهم بالمدينة وظهورهم على اليهود ، وما اتفق لهم مع تبع	٢٧٩	السنة الثالثة من الهجرة : مقتل كعب بن الأشرف ، غزوة الكدر ، غزوة أنمار ، غزوة ذي أمر ، سرية القردة ، غزوة أحد ، مقتل
١٩٠	الفصل الخامس ، في منازل قبائل الأنصار بعد إذلال اليهود ، وشيء من آطامهم		
٢١٥	الفصل السادس ، فيما كان بينهم من حرب بعث		
٢٢٠	الفصل السابع ، في مبدأ إكرام الله تعالى لهم بالنبي (ص) وحديث العقبة الصغرى		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
	ومنازل المهاجرين ، واتخاذ السور ، وفيه سبعة وثلاثون فصلاً :		أبي بن خلف ، أبو عزة الجمحي ومقتله ، تحريم الحمر
٣٢٢	الفصل الأول ، في أخذه (ص) لموضع مسجده ، وكيفية بنائه	٢٩٦	السنة الرابعة من الهجرة : بثر معونة ، غزوة الرجيع ، غزو بني النضير ، زواج أم سلمة ، غزوة ذات الرقاع
٣٣٩	زيادة النبي (ص) بعد أن فتح الله عليه خير في مسجده	٣٠٠	السنة الخامسة من الهجرة : غزوة الحنديق ، إسلام نعيم بن مسعود ، غزوة بني قريظة
٣٤٠	الفصل الثاني : في ذرع المسجد النبي وحدوده التي يتميز بها عن سائر المسجد اليوم	٣١٠	السنة السادسة من الهجرة : غزوة ذي قرد ، قصة العرينين ، غزوة بني المصطلق (المريسيع) فرض الحج
٣٥٩	الفصل الثالث ، في المقام الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم به في الصلاة : قبل تحويل القبلة ، وبعد ما جاء في تحويلها	٣١٥	السنة السابعة من الهجرة : زواج صفية بنت حي
٣٦٢	تاريخ تحويل القبلة	٣١٦	السنة الثامنة من الهجرة : غزوة مؤتة
—	مدة الصلاة إلى بيت المقدس	—	السنة التاسعة من الهجرة : هجر النبي (ص) نساءه ، تتابع الوفود ، حج أبي بكر بالمسلمين ، نزول براءة ، غزوة تبوك
٣٦٤	أول صلاة صليت إلى الكعبة	٣١٧	السنة العاشرة من الهجرة : قدوم وفد طيء ، مرضه (ص) في بيت ميمونة أو زينب بنت جحش
—	إلى أي جهة كانت الصلاة بمكة قبل الهجرة ؟	٣٢٢	الباب الثالث : فيما يتعلق بأمر مسجدها الأعظم ، والحجرات المنيفات ، وما كان مطيفاً به من الدور والبلاط ، وسوق المدينة ،
٣٦٥	كيف حررت قبلة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم		
٣٧٠	محراب المسجد النبوي ، ومتى صنع ؟		
٣٨٠	العود الذي كان في المصلى الشريف		
٣٨٣	هل كان مصلى النبي (ص) على عين القبلة أو على جهتها ؟		
٣٨٤	خاتمة الجزء الأول		

وقد تمت فهرست الجزء الأول من كتاب « وفاة الوفا » للعلامة السهمودي ، والحمد
لله تعالى في مبدأ أمورنا كلها وفي خواتيمها ، ونسأله جلّت قدرته - أن يوفق لإكمالها ، وأن
يسدد خطانا ، ويحملنا بفضل من المقبولين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه .

خطبة
المؤلف

﴿أما بعد﴾ حمد الله على آلائه^(١) ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف أنبيائه ، وعلى آله وأصحابه وأصفياؤه ؛ فقد سألني مَنْ طاعته غُفْرٌ ، ومخالفته غُرمٌ ، أن أختصر تأليفي المسمى بـ «اقتفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى» - صلى الله عليه وسلم ! وزاده شرفاً وفضلاً لديه ! - اختصاراً مع توسطٍ غير مُفرط ، هذا مع كونه بعدُ لم يقدر إتمامه بتكامل أقسامه ؛ لسلوكي فيه طريقة الاستيعاب ، وجمع ما افترق من معاني تلك الأبواب ، وتلخيص مقاصد جميع تواريخ المدينة التي وقفت عليها ، وإضافة ما اقتضى الحال أن يضاف إليها ، مع عروض الموانع ، وترادف الشواغل والقواطع ، فأجبتُه إلى سؤاله ؛ لما رأيت من شغفه^(٢) بذلك وإقباله ، مع ما رأيت في ذلك من الإتحاف بأمور لا توجد في غيره من المختصرات بل ولا المبسوطات ، سيما فيما يتعلق بأخبار الحجرة الشريفة ، ومعالمها المنيفة ، فإني قد استفدتُه عياناً ، وعلمت أخبارها إيقاناً ، بسبب ما حدث في زماننا من العماره التي سنشير إليها ، ونقف في محلها عليها ؛ لاشتغالها على تجديد ما كاد أن يهَي^(٣) في الحجرة الشريفة من الأركان ، وإحكام ما أحاط بها من البنيان . وتشرفت بالخدمة في إعادة بنيانها ، وتجنبت شهود نقض أركانها ، وحظيت بالوقوف على عرصتها ، وتمتعت بانتشاق^(٤) ترابها ، ونعمت العين بالاحتفال

(١) الآلاء : النعم ، واحدها إلى ، بوزن رضا ، ومعنى الإلى : النعمة .

(٢) الشغف - بالتخريك - المحبة التي تخالط شغاف القلب .

(٣) وهى يهى - بوزن وعى يعى - ومعناه : سقط . (٤) انتشق التربة : شمها .

بأرضها الشريفة ، ومحالاً الأجساد المنيفة ، فامتلاً القلب حياء ومهابة ، واكتسى من ثياب الذال أثوابه ، هذا وقد جُبِلَت القلوب^(۱) على الشغف بأخبار هذا المحل وأحواله ، كما هو دأب كل محب مغرم وآله^(۲) ، والله در القائل :

أَمْلِيَانِي حَدِيثَ مَنْ سَكَنَ الْجَزْ عَ وَلَا تَسْكُتُبَاهُ إِلَّا بِدَمْعِي
فَاتَنِي أَنْ أَرَى الدِّيَارَ بِطَرْفِي فَلَعَلِّي أَرَى الدِّيَارَ بِسَمْعِي

ولعمري إن الاعتناء بذاك وضبطه وإفادته من مهمات الدين ، وإن النظر فيه مما يزيد في الإيمان واليقين ؛ لما فيه من معرفة معاهد دار الإيمان ، ونشر أعلامها المرغمة للشيطان ، وتذكراياتها الواضحة التبيان ، والمرجؤ من الله تعالى أن يكون كتابنا هذا تحفة لمحبي دار الأبرار ، ومن سكن بها من الأخيار ، ووفد عليها من الوفاد ، وقد بذلت الجهد في تهذيبه وتقريبه ، رجاء دعوة تمحو الأوزار^(۳) ، وتُقِيل العثار ، ونظرة قبول من المصطفى المختار ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأطهار ، وصحابته الأخيار ! .

وسميته « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » صلى الله عليه وسلم ، وشرف وعظم !
ورتبته على أبواب :

الباب الأول : في أسماء هذه البلدة الشريفة .

الباب الثاني : في فضائلها ، وبدء شأنها ، وما يؤول إليه أمرها ، وما يتعلق بذلك ، وفيه ستة عشر فصلا : الأول : في تفضيلها على غيرها من البلاد ، الثاني : في الحث على الإقامة بها ، والصبر على لأوائها^(۴) وشدتها ، وكونها تنفي الخبث

أبواب
الكتاب

(١) جبِلَت القلوب : فطرت وطبعت ، يريد أن ذلك طبيعتها وجبلتها وفطرتها التي فطرها الله تعالى عليها .

(٢) الواله : الذي اشتد حبه حتى قارب الجنون .

(٣) الأوزار : الذنوب ، واحدها وزر ، بكسر الواو وسكون الزاي .

(٤) اللأواء : الشدة ؛ فعطف الشدة عليه عطف تفسير .

والذنوب ، ووَعِيدٍ من أرادها وأهلها بسوء أو أحدث بها حَدَّثًا أو آوى مُخَدَّنًا ،
 الثالث : في الحث على حفظ أهلها وإكرامهم ، والتحريض على الموت بها ،
 واتخاذ الأصل^(١) ، الرابع : في بعض دعائه صلى الله عليه وسلم لها ولأهلها ، وما كان
 بها من الوَبَاءِ ، ودعائه بنقله ، الخامس : في عصمتها من الدجال والطاعون ،
 السادس : في الاستشفاء بترابها وتمرها ، السابع : في سَرْدِ خصائصها ، الثامن :
 في صحيح ماورد في تحريمها ، التاسع : في بيان عَظِيمِ وثَوْرِ الذين وقع تحديدُ الحرم
 بهما ، العاشر : في أحاديث أُخَرِ تقتضي زيادة الحرم على ذلك التحديد وأنه مقدر
 بغيره ، الحادي عشر : في بيان ما في هذه الأحاديث من الألفاظ المتعلقة بالتحديد ،
 ومن ذهب إلى مقتضاها ، الثاني عشر : في حكمة تخصيص هذا المقدار المعين
 بالتحريم ، الثالث عشر : في أحكام هذا الحرم الكريم ، الرابع عشر : في بدء
 شأنها ، وما يؤول إليه أمرها ، الخامس عشر : فيما ذكر من وقوع ما ورد
 من خروج أهلها وتركهم لها ، السادس عشر : في ظهور نار الحجاز التي
 أُنذِر بها النبي صلى الله عليه وسلم فظهرت من أرضها ، وانطفأها عند وصولها
 إلى حرمها .

الباب الثالث : في أخبار سكانها في سالف الزمان ، ومَقْدَمِهِ صلى الله عليه
 وسلم إليها ، وما كان من أمره بها في سِنِي الهجرة ، وفيه اثنا عشر فصلاً : الأول :
 في سكانها بعد الطوفان ، وما ذكر في سبب سكنى اليهود بها ، وبيان منازلهم ،
 الثاني : في سبب سكنى الأنصار بها ، الثالث : في نسبهم ، الرابع : في ظهورهم
 على اليهود ، وما اتفق لهم مع تُبَّع ، الخامس : في منازلهم بعد إذلال اليهود ، وشيء

(١) المراد بالأصل هنا المال ، وسيأتي تعليقه بأن المال يحمل الإنسان على البقاء ؛
 فكان المقصود من اتخاذ الأصل الإقامة الدائمة بها .

من آطامهم^(١) وحرورهم ، السادس : في ما كان بينهم من حرب بُغَاث ، السابع : في مبدأ إكرام الله لهم بهذا النبي الكريم ، وذكر العقبة الصغرى ، الثامن : في العقبة الكبرى وما أفضت إليه^(٢) ، التاسع : في مبدأ هجرته صلى الله عليه وسلم ، العاشر : في دخوله صلى الله عليه وسلم أرض المدينة وتأسيس مسجد قباء ، الحادى عشر : في قدومه باطن المدينة المنيفة ، وسكناه بدار أبي أيوب الأصارى ، وخبر هذه الدار ، ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ، الثانى عشر : في ما كان من أمره صلى الله عليه وسلم بها في سنين الهجرة^(٣) .

الباب الرابع : فيما يتعلق بأمر مسجد الأَعْظَم ، والحِجَرَات المنيفات ، وما كان مُطِيفاً بها من الدور والبلاط ، وسوق المدينة ، ومنازل المهاجرين ، واتخاذ السور ، وفيه سبعة وثلاثون فصلاً : الأول : في أخذه صلى الله عليه وسلم لموضع مسجده الشريف ، وكيفية بنائه ، الثانى : في ذُرْعِهِ وحدوده التى يتميز بها عن سائر مسجده اليوم ، الثالث : في مَقَامِهِ الذى كان يقوم به قبل تحويل القبلة وبعده ، وما جاء فى تحويلها ، الرابع : فى خبر الجَذْع ، واتخاذ المنبر . وما اتفق فيه ، الخامس : فى فضل المسجد الشريف ، السادس : فى فضل المنبر المنيف والروضة الشريفة ، السابع : فى الأساطين^(٤) المنيفة ، الثامن : فى الصِّفَّة وأهلها ، وتعليق الأقناء^(٥) لهم بالمسجد ، التاسع : فى حُجْرِهِ صلى الله عليه وسلم ، وبيان إحاطتها بمسجده إلا من جهة المغرب ، العاشر : فى حجرة ابنته فاطمة رضى الله عنها ، الحادى عشر : فى الأمر بسد الأبواب ، وبيان ما استثنى من ذلك ، الثانى عشر : فى زيادة عمر رضى الله عنه فى المسجد ، الثالث عشر : فى البطيحاء ، التى بناها

(١) الآطام : الحصون ، واحدها أطم ، بضم الهمزة والطاء جميعاً ، ووزانه عنق وأعناق .

(٢) أفضت إليه : آلت إليه ، يريد آثارها التى ترتبت عليها .

(٣) كذا ، والفصيح « فى سنى الهجرة » .

(٤) الأساطين : جمع أسطوانة ، والمراد الأعمدة . (٥) الأقناء : جمع قنوء .

بناحيته ، ومنعه من إنشاد الشعر ورفع الصوت فيه ، الرابع عشر : في زيادة عثمان رضى الله عنه ، الخامس عشر : في المقصورة التي اتخذها به ، السادس عشر : في زيادة الوليد على يد عمر بن عبد العزيز ، السابع عشر : فيما اتخذ عمر فيها من الحراب والشرفات والمنارات والحرس ، ومنعهم من الصلاة على الجنائز فيه ، الثامن عشر : في زيادة المهدي ، التاسع عشر : فيما كانت عليه الحجرة المنيفة الحاوية للقبور الشريفة في مبدأ الأمر ، العشرون : في عمارتها بعد ذلك ، والحائز^(١) الذى أدير عليها ، الحادى والعشرون : فيما روى في صفة القبور الشريفة بها ، وأنه بقى هناك موضع قبر لعيسى عليه الصلاة والسلام ، وتنزل الملائكة حافين بالقبر الشريف ، وتعظيمه ، والاستسقاء به ، الثانى والعشرون : فيما ذكر من صفتها وصفة الحائز الدائر عليها ، وما شاهدناه مما يخالف ذلك ، الثالث والعشرون : في عمارة اتفقت بها بعد ما تقدم ، على ما نقله بعضهم ، وما نقل من الدخول إليها وتأزيرها بالرخام ، الرابع والعشرون : في الصندوق الذى فى جهة الرأس الكريم والمسار الفضة المواجه للوجه الشريف ، ومقام جبريل عليه السلام ، وكسوة الحجرة وتحليتها ، الخامس والعشرون : في قناديلها ومعاليقها ، السادس والعشرون : في الحريق الأول القديم المستولى على تلك الزخارف المحدثه بها وبالمسجد وسقفها وما أعيد من ذلك ، السابع والعشرون : في اتخاذ القبة الزرقاء تمييزاً للحجرة الشريفة والمقصورة الدائرة عليها ، الثامن والعشرون : في عمارتها المتجددة في زماننا ، على وجه لم يخطر قط بأذهاننا ، وما حصل من إزالة هدم الحريق من ذلك والمحل الشريف ، ومشاهد وضعه المنيف ، وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة ، التاسع والعشرون : في الحريق الحادث فى زماننا بعد العمارة السابقة ، وما ترتب عليه ألحقته هنا مع إلحاق ما تقدمت الإشارة إليه فى الفصول ؛ لحدوثه بعد الفراغ من مسودة كتابنا هذا ، وفى آخره خاتمة فيما نقل من عمل نور الدين الشهيد

(١) الحائز : المراد به جدار يحيط بالحجرة .

لخندق مملوء من الرصاص حَوْلَ الحجرة ، الثلاثون : في تحصيب المسجد^(١) ، وأمر
البزاق فيه ، وتخليقه^(٢) ، وإجماره ، وشيء من أحكامه ، الحادى والثلاثون : فيما
احتوى عليه من الأروقة والأساطين والبلوعات والسقايات والخواصل ، وغير ذلك ،
الثانى والثلاثون : فى أبوابه وخوخاته ، وما يميزها من الدور المحاذية لها ، الثالث
والثلاثون : فى خوخة آل عمر رضى الله عنه ، الرابع والثلاثون : فيما كان مطيفاً
به من الدور ، الخامس والثلاثون : فى البلاط وما حوله من منازل المهاجرين ،
السادس والثلاثون : فى سوق المدينة ، السابع والثلاثون : فى منازل القبائل من
المهاجرين ، وما حدث من اتخاذ السور .

الباب الخامس : فى مُصَلَّى النبی صلی الله عليه وسلم فى الأعياد ، وغير ذلك
من مساجد المدينة التى صلى فيها النبی صلی الله عليه وسلم أو جلس مما علمتُ عَيْنَهُ
أوجِهَتَهُ ، وفضل مقابرها ، ومن سمى ممن دفن بها ، وفضل أحدٍ والشهداء به ،
وفيه سبعة فصول : الأول : فى مُصَلَّى الأعياد ، الثانى : فى مسجد قباء ، وخبر
مسجد الضَّرَّار ، الثالث : فى بقية المساجد المعلومة العين فى زماننا ، الرابع : فيما
علمت جهته من ذلك ، ولم يعلم عينه ، الخامس : فى فضل مقابرها ، السادس :
فى تعيين بعض من دفن بالبقيع من الصحابة وأهل البيت رضوان الله عليهم ،
والمشاهد المعروفة بها ، السابع : فى فضل أحدٍ والشهداء به .

الباب السادس : فى آبارها المباركات ، والعين والغراس والصدقات ، التى
هى للنبي صلى الله عليه وسلم منسوبات ، وما يُعزى إليه^(٣) من المساجد التى صلى فيها
فى الأسفار والغزوات ، وفيه خمسة فصول : الأول : فى الآبار المباركات ، وفيه
تتمة فى العين المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، والعين الموجودة فى زماننا ،
الثانى : فى صدقاته صلى الله عليه وسلم وما غرَسَه بيده الشريفة ، الثالث : فيما

(١) تحصيب المسجد : فرش به بالحصباء ، وهى صغار الحصى .

(٢) تخليقه : أى مسه بالخلوق - بفتح الحاء - وهو ضرب من الطيب ، والمراد

تطيب المسجد ، والمراد بإجماره تبخيره . (٣) يعزى : ينسب .

ينسب إليه من المساجد التي بين مكة والمدينة بالطريق التي كان يسلكها صلى الله عليه وسلم ، الرابع : في بقية المساجد التي بينهما بطريق ركب الحاج في زماننا ، وطريق المشيان^(١) ، وما قرب من ذلك ، الخامس : في بقية المساجد المتعلقة بغزواته وعمره صلى الله عليه وسلم .

الباب السابع : في أوْدِيَّتِهَا وَأَحْمَائِهَا^(٢) وبقاعها وجبالها وأعمالها ومضافاتها ، ومشهور ما في ذلك من المياه والأودية ، وضبط أسماء الأماكن المتعلقة بذلك ، وفيه ثمانية فصول : الأول : في فضل وادي العقيق وعرضته وحدوده ، الثاني : فيما جاء في إقطاعه وابتناء القصور به وطريق أخبارها ، الثالث : في العرصة وقصورها ، وشيء مما قيل فيها وفي العقيق من الشعر ، الرابع : في جماداته ، وأرض الشجرة ، وكثيرة الشريد ، وغيرها من جهاته ، وفيه خاتمة في سرد ما يدفع فيه من الأودية وما به من الغدران ، الخامس : في بقية أوْدِيَةِ المدينة ، السادس : فيما سمي من الأحماء ومن حماها وشرح حال حمى النبي صلى الله عليه وسلم بالنقيع ، السابع : في شرح بقية الأحماء ، وأخبارها ، الثامن : في بقاع المدينة وأعراضها وأعمالها ومضافاتها وأندِيَّتِهَا وجبالها وتلاعها^(٣) ، ومشهور ما في ذلك من الآبار والمياه والأودية ، وضبط أسماء الأماكن المتعلقة بذلك وبالمساجد والآطام والغزوات ، وشرح حال ما يتعلق بجهات المدينة وأعمالها من ذلك ، على ترتيب حروف الهجاء .

الباب الثامن : في زيارته صلى الله عليه وسلم ، وفيه أربعة فصول : الأول : في الأحاديث الواردة في الزيارة نصا ، الثاني : في بقية أدلتها ، وبيان تأكد مشروعيّتها ، وقربها من درجة الوجوب ، حتى أطلقه بعضهم عليها ، وبيان حياة النبي صلى الله عليه وسلم في قبره ، وشدة الرّحال إليه ، وصحة نذر زيارته ، والاستئجار للسلام عليه ، الثالث : في توسّل الزائر ، وتشفّعه به صلى الله عليه وسلم

(١) كذا ، ولعله « المشاة » جمع ماش ، بزنة قاض وقضاة ورام ورماة .

(٢) الأحماء : جمع حمى . (٣) التلاع : جمع تلعة ، وهي ما ارتفع من الأرض

إلى رَبِّهٖ تَعَالَى ، واستقباله له صلى الله عليه وسلم في سلامه وتوسله ودعائه ، الرابع : في آداب الزيارة والمجاورة ، والتبرك بتلك المساجد والآثار ، وهذا الباب وإن كان من حقه التقديم ، لكنه لما كان كنتيجة الكتاب ، ومقدماته ما تقدمه من الأبواب ، ختمت به أقسامه ؛ ليكون المسك ختامه ، وسِرُّ الوجود تمامه ، وتفاوتاً بأن يفتح لي به ثمانية أبواب الجنة ، ويعظم لي بسببه سوابغ المنة ^(١) ، وبالله لا سواه أعتمد ، وأسأله العصمة مما يصم ^(٢) ، فهو حسي ونعم الوكيل .

الباب الأول

في أسماء هذه البلدة الشريفة

أعلم أن كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمى ، ولم أجد أكثر من أسماء هذه البلدة الشريفة ، وقد استقصيتها بحسب القدرة حتى إنى زدت على شيخ مشايخنا المجدد الشيرازي اللغوي - وهو أعظم الناس في هذا الباب - نحو ثلاثين اسماً ، فرقمت على ذلك صورة لتمييزوها ، وأنا أوردتها مرتبة على حروف المعجم .

أثر

الأول : أثرب - كمسجد ، بفتح الهمزة وسكون المثلثة وكسر الراء وباء موحدة - لغة في « يثرب » الآتي ، وأحد الأسماء كالملم ويللم ، قيل : سميت بذلك لأنه اسم مَنْ سكنها عند تفرق ذرية نوح عليه السلام في البلاد ، وهل هو اسم للناحية التي منها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو للمدينة نفسها ، أو لموضع مخصوص من أرضها ؟ أقوال ، الأول لأبي عبيدة ، والثاني عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ومشى عليه الزمخشري ، والثالث هو المعنى بقول محمد بن الحسن أحد أصحاب مالك ويعرف بابن ^(٣) زباله : وكانت يثرب أم قرى المدينة ، وهي ما بين طرف قناة

(١) المنة : العطية ، وسوابغها : جزييلها وعظيمها ، وأصل السابغ الثوب يغطى

الجسم كله . (٢) وصمه يصمه - بوزن وصفه يصفه - أي عابه ونقصه .

(٣) زباله - بزنة سحابة - اسم موضع منه محمد بن الحسن المعروف بابن زباله قاله في القاموس ، ويقال له أيضاً « الزبالي » على النسبة ، وهو ممن روى عن مالك ابن أنس إمام دار الهجرة ، لكنه ليس بثقة ، قاله في تهذيب التهذيب ٩ / ١١٥ .

إلى طرف الجرف ، وما بين المال الذي يقال له البرنى إلى زبالة ، وقد نقل ذلك الجمل المطرى عنه ، وزاد في النقل أنه كان بها ثلاثمائة صائغ من اليهود ، وابن زبالة إنما ذكر أن ذلك كان بزهوة ، وقد غايرَ بينها وبين يثرب ، وكأن الجمل فهم اتحادها ، وقد قال عقب نقله لذلك عنه : وهو يعنى يثرب معروفة اليوم بهذا الاسم ، وفيها نخيل كثيرة ملك لأهل المدينة وأوقاف للفقراء وغيرهم ، وهى غربى مشهد سيدنا حمزة ، وشرقى الموضع المعروف بالبركة مصرف عين الأزرق ، ينزلها الحاج الشامى فى وروده وصدوره ، وتسميها الحجاج عيون حمزة ، وهى إلى اليوم معروفة بهذا الاسم ، أعنى يثرب ، وربما قالوا فيها « أثارب » بصيغة الجمع ، وبه عبر البرهان ابن فرحون فى مناسكه ، فلك أن تعده اسما آخر ، وهذا الموضع يثرب قال المطرى : كان به منازل بنى حارثة بطن ضخم من الأوس ، قال : وفيهم نزل قوله تعالى فى يوم الأحزاب : « وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ^(١) » ورجح به القول الثالث ، وذلك أن قريشا ومن معهم نزلوا يوم الأحزاب ويوم أحد أيضا على ما ذكره المطرى برومة وما والاها بالقرب من منازل بنى حارثة من الأوس ومنازل بنى سلمة من الخزرج ، وكان الفريقان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مركز الحرب ، ولذلك خافوا على ذراريهم وديارهم العدو يوم أحد ؛ فنزل فيها « إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِّنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ^(٢) » قال عقلاؤهم : ما كرهنا نزولها لتولى الله إيانا ، ودفع الله عنهم ببركة النبى صلى الله عليه وسلم وصدق نياتهم ، وقيل : إن القائل لبنى حارثة « يا أهل يثرب لا مقام لكم » هو أوس بن قَيْظَى ومن معه ، وقيل : غير ذلك

قلت : ويرجح القول الثالث أيضا قول الحافظ عمر بن شبة النخري ^(٣) : قال

(١) من سورة الأحزاب من الآية ١٣ (٢) من سورة آل عمران من الآية ١٢٢
(٣) عمر بن شبة - بفتح الشين وتشديد الباء الموحدة مفتوحة - بن غبيدة ، واسم شبة زيد ، البصرى ، النخري ، الأخبارى ، النحوى ، الأديب ، الحافظ ، وثقه الدارقطنى ، مات فى سنة ٢٦٢ من الهجرة ، وله ترجمة فى تهذيب التهذيب (٧/ ٤٦٠) وفى خلاصة الخزرجى (٢٨٣ بولاق) .

أبو غسان : وكان بالمدينة في الجاهلية سوق بزبالة في الناحية التي تدعى يثرب ،
 انتهى . ولا شك في إطلاق يثرب على المدينة نفسها ، كما ثبت في الصحيح ،
 وشواهدُه أشهر من أن تذكر ، وسيأتى في الفصل الرابع عشر من الباب الثاني
 ما يقتضى أن الله تعالى سماها قبل أن تعمّر وتسكن ، فإما أن يكون موضوعا لها ،
 أو هو من باب إطلاق اسم البعض على الكل ، أو من باب عكسه على الخلاف المتقدم .
 وروى ابن زبالة وابن شبة نَهْيَهُ صلى الله عليه وسلم عن تسمية المدينة يثرب ،
 وفي تاريخ البخارى حديث « مَنْ قَالَ يَثْرِبُ مَرَّةً فَثَقُلَ الْمَدِينَةُ عَشْرَ مَرَّاتٍ »
 وروى أحمد وأبو يعلى حديثا « مَنْ سَمَى الْمَدِينَةَ يَثْرِبَ فَلَيْسَتْ غَفْرُ اللَّهِ ، وَهِيَ طَابَةُ »
 ورجاه ثقات ، وفي رواية « فَلَيْسَتْ غَفْرُ اللَّهِ ثَلَاثًا » ولهذا قال عيسى بن دينار : من
 سَمَى الْمَدِينَةَ يَثْرِبَ كَتَبَتْ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ ، وكره بعض العلماء تسميتها بذلك ، وما وقع
 في القرآن من تسميتها به إنما هو حكاية عن قول المنافقين ، وَوَجْهُ كَرَاهَةِ ذَلِكَ
 إما لأنه مأخوذ من الثَّرَب — بالتحريك — وهو الفساد ، أو لكرهه التثريب
 وهو المؤاخذة بالذنب . أو لتسميتها باسم كافر ، وقد يفتزع في الكراهة بما في حديث
 الهجرة في الصحيحين من قوله صلى الله عليه وسلم « فَذَهَبَ وَهْلِي ^(١) إِلَى الْيَمَامَةِ
 أَوْ هَجَرَ ، فِإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ » وحديث مسلم « إِنَّهُ وَجَّهَتْ إِلَى أَرْضِ ذَاتِ
 النَّخْلِ لَا أَرَاهَا إِلَّا يَثْرِبُ » وكذا جاء في غيرها من الأحاديث ، وقد يجاب بأن
 ذلك كان قبل النبي .

أرض الله

الثاني « أرض الله » قال الله تعالى : « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا
 فِيهَا ^(٢) » ذكر مقاتل والثعالبي وغيرهما أن المراد به المدينة ، وفي هذه الإضافة من
 مَزِيدِ التَّعْظِيمِ مَا لَا يَخْفَى .

أرض الهجرة

الثالث « أرض الهجرة » كما في حديث « الْمَدِينَةُ قُبَّةُ الْإِسْلَامِ » .

(١) الوهل — بفتح الواو وسكون الهاء — الوهم .

(٢) من سورة النساء من الآية ٩٧ .

الرابع « أكلة البلدان » لتسلطها على جميع الأمصار ، وارتفاعها على سائر أكلة البلدان بلدان الأقطار ، وافتتاحها منها على أيدي أهلها فغنموها وأكلوها .

الخامس « أكلة القرى » لحديث الصحيحين « أمرت بقرية تأكل القرى » أكلة القرى وقد استدل به مثبتو الاسم قبله ، وهو أصرح في هذا ؛ للفرق بين البلدة والقرية .

السادس « الإيمان » قال الله تعالى مُنْذِيًا عَلَى الْأَنْصَارِ « وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ » ^(۱) وأسند ابن زبالة عن عثمان بن عبد الرحمن وعبد الله بن جعفر قالا : سَمَّى اللهُ الْمَدِينَةَ الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ، وَأَسْنَدُ ابْنِ شَبَّةٍ عَنِ الثَّانِي فَقَطْ . وَقَالَ الْبَيْضاوِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ : قِيلَ سَمَى اللهُ الْمَدِينَةَ بِالْإِيمَانِ لِأَنَّهَا مَظْهَرُهُ وَمَصِيرُهُ . وَرَوَى أَحْمَدُ الدِّينَوْرِيُّ فِي كِتَابِهِ الْمَجَالِسَةَ فِي قِصَّةِ طَوِيلَةٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ « أَنَّ مَلَأَكَ الْإِيمَانَ قَالَ : أَنَا أَسْكُنُ الْمَدِينَةَ ، فَقَالَ مَلَأَكَ الْحَيَاءَ : وَأَنَا مَعَكَ » فَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْحَيَاءَ بِلَدِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَسَيَأْتِي فِي حَدِيثٍ « الْإِيمَانُ يَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا » ^(۲) .

السابع « البارة » ، الثامن « البرة » هما من قولك : امرأة بارة وبررة ، أى كثيرة البر ، سميت بذلك لكثرة برها إلى أهلها خصوصا وإلى جميع العالم عموما ؛ إذ هى منبع الأسرار وإشراق الأنوار ، وبها العيشة الهنية ، والبركات النبوية . التاسع « البحيرة » بفتح أوله وسكون المهملة . العاشر « البحيرة » تصغير ما قبله . الحادى عشر « البحيرة » بفتح أوله — نقلت ثلاثتها عن منتخب كراع ، والأولان عن معجم ياقوت ، والاستبحار : السعة ، ويقال : هذه بحرتنا ، أى أرضنا أو بلدتنا ، سميت بذلك لكونها فى متسع من الأرض ، وفى الصحيح قول سعد فى قصة ابن أبى ^(۳) « وَلَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوَجَّوهُ » رواه

البحيرة
والبحيرة

(۱) من سورة الحشر من الآية ۹ .

(۲) الإيمان يأرز : المراد يلجأ إليها ويعتصم بها ، وأرزت الحية إلى جحرها : أى لادت به .

(۳) ابن أبى : هو عبد الله بن أبى ابن سلول ، أبوه أبى ، رسول أمه ، وهو

رأس المنافقين ، والذي يشير إليه هذا الحديث أن أهل المدينة كانوا قد أجمعوا قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يجعلوه ملكا عليهم .

ابن شبة بلفظ « أهل هذه البحيرة » وقال عياض في المشارق : البحيرة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، ويروى البحيرة ، والبحيرة : بضم الباء مصغراً وافتحها على غير التصغير ، وهي الرواية هنا ، ويقال « البحر » أيضاً بغير تاء ساكن الحاء ، وأصله القرى ، وكل قرية بحيرة . انتهى .

البلاط

الثاني عشر : « البلاط » بالفتح — نقل عن كتاب ليس لابن خالويه ، وهو لغة الحجارة التي تفرش على الأرض ، والأرض المفروش بها والمستوية الملاء ، فكأنها سميت به لكثرة فيها ، أو لاشتغالها على مواضع تعرف به كما سيأتي في الباب الرابع إن شاء الله تعالى .

البلد

الثالث عشر : « البلد » قال تعالى « لا أقسم بهذا البلد^(١) » قال الواسطي فيما نقله عن عياض : أي يحلف لك بهذا البلد الذي شرفته بمكانك فيه حياً وبركتك ميتاً ، يعني المدينة ، وقيل : المراد مكة ، ونقل عن ابن عباس ، وبه استدلال من ذكر في أسماؤها ، ورجحه عياض لكون السورة مكية ، والبلد لغة صدر القرى .

بيت الرسول

الرابع عشر : « بيت الرسول » صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق^(٢) » ، قال المفسرون : أي من المدينة لأنها مأوى جبره ومسكنه [فهي] في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه ، أو المراد بيته بها .

تندر وتندر

الخامس عشر : « تندر » بالمشناة الفوقية والنون وإهمال الدالين . السادس عشر : « تندر » براء بدل الدال الأخيرة مما قبله ، وسيأتي دليلهما في يندر ويندر بالمشناة التحتية ، وأن المجد صَوَّبَ حذف ما عدا يندر بالتحتية .

الجبرة

السابع عشر : « الجبرة » لعمدة في حديث « للمدينة عشرة أسماء » سميت به لأنها تجبر الكسير ، وتغني الفقير ، وتجبر^(٣) على الإذعان لمطالعة بركاتها ، وشهود آياتها ، وجبرت البلاد على الإسلام .

(١) من سورة البلد ، الآية ١ . (٢) من سورة الأنفال من الآية ٥

(٣) تجبر هنا بمعنى تقهر ، وأما التي قبلها فمن قولهم « جبرت الكسير » أي أصلحت ما فسد منه .

الثامن عشر « جَبَّارٍ » كَحَذَّائِم ، رواه ابن شعبة بدل الجابرة في الحديث . جبار المذكور .

التاسع عشر « الجبارة » نقله صاحبُ كتاب أخبار النواحي مع الجابرة الجبارة والمجبورة عن التوراة .

العشرون « جزيرة العرب » قال ابن زبالة : كان ابن شهاب يقول : جزيرة جزيرة العرب العربية المدينة ، وسيأتي في حديث ابن عباس « خرجتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ، فالتفتَ إليها وقال : إن الله برأ هذه الجزيرة من الشرك » ونقل الهروي عن مالك أن المراد من حديث « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » المدينة خاصة ، والصحيح عن مالك كقولنا أن المراد الحجاز .

الحادي والعشرون « الجُنَّةُ الحصينة » بضم الجيم ، وهي الوقاية ؛ لما حكاه بعضهم من قوله صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد « أنا في جُنَّةٍ حصينة — يعني المدينة — دَعَوْهُمْ يَدْخُلُونَ نَفَاتِلَهُمْ » وروى أحمد رجال الصحيح حديث « رأيت كأني في درع حصينة ، ورأيت بقرًا تنجر ، فأولتُ الدرع الحصينة المدينة » وهذا هو المذكور في كتب السير .

الثاني والعشرون « الحبيبة » حبه لها صلى الله عليه وسلم ، وقال « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينةَ كحبنا مكةَ أو أشد » وسيأتي مزيد بيان لذلك في اسمها الحبيبة .

الثالث والعشرون « الحرم » بالفتح بمعنى الحرام ؛ لتحريمها ، وفي حديث مسلم « المدينة حرم » وفي رواية « إنها حرم آمن » .

الرابع والعشرون « حَرَمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم » لأنه الذي حرمها ، وفي الحديث « مَنْ أَخَافَ أَهْلَ حَرَمِي أَخَافَهُ اللهُ » ، وروى ابن زبالة حديث « حَرَمُ إبراهيم مكةَ وَحَرَمِي المدينة » .

حسنة الخمس والعشرون « حَسَنَةٌ » بلفظ مقابل السيئة ، قال تعالى : « آمَنُوا نَسْتُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ^(١) » قال المفسرون : مَبَاءة حسنة ^(٢) ، وهي المدينة ، وقيل : حسنة اسم المدينة ، وقد اشتملت على الحُسْن الحسنى والمعنوى .

السادس والعشرون « الْخَيْرَةُ » بتشديد امثلة التحتية كالنيرة .

الخيرة السبع والعشرون « الْخَيْرَةُ » كالذي قبله إلا أن الياء مخففة ، تقول : رجل خَيْرٌ وخَيْرٌ ، و امرأة خَيْرَةٌ وخَيْرَةٌ ، بالتشديد والتخفيف ، بمعنى ، وهو الكثير الخير ، وإذا أردت التفصيل قلت : فلان خَيْرُ الناس . وفي الحديث « والمدينة خَيْرٌ نَهْمُ نَوْكَائِيَعَمُونَ » وسيأتي حديث « المدينة خَيْرٌ من مكة » .

الثامن والعشرون « الدَّارُ » لقوله تعالى : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ^(٣) »

عني ما سبق في الإيمان ، سميت به لأمنيتها والاستقرار بها وجمعها البناء والعُرْصَة .

الدَّارُ الْأَبْرَارُ السبع والعشرون « دار الأبرار » . الثلاثون « دار الأخيار » لأنها دار

المصطفى المختار ، ولها جرين والأَنْصَارُ ، ولأنها تَنْفِي شِرَارَهَا وَمَنْ أَقَامَ بِهَا مِنْهُمْ فَيَسَتْ فِي الْحَقِيقَةِ لَهُ دَارٌ . وربما نقل منها بعد الدفن على ما جاء في بعض الأخبار .

دار الإيمان الحدى والثلاثون « دار الإيمان » كما في حديث « المدينة قُبَّةُ الْإِسْلَامِ »

ودار الإيمان « إذ منها ظهوره وانتشاره ، وسيأتي في حديث « الإيمان يَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَةُ إِلَى جُحْرِهَا » ^(٤) .

دار السنة والنحوها الثاني والثلاثون « دار السنة » . الثالث والثلاثون « دار السلامة » . الرابع والثلاثون « دار الفتح » . الخامس والثلاثون « دار الهجرة » ؛ ففي صحيح البخارى قول عبد الرحمن

لعمر رضى الله عنهما « حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة » وفي رواية

(١) من سورة النحل من الآية ٤١

(٢) المباءة : المنزل ، وتقول : تبوأ فلان المكان ، تريد أنه اتخذ محلاً يقيم فيه ، وبوأته إياه : أحلته

(٣) من سورة الحشر من الآية ٩ .

(٤) انظر الهامشة ٢ في ص ١١ .

الكشميين «والسلامة» وقد فتحت منها مكة وسائر الأمصار، وكانت بها عصابة الأنصار، ومهاجرة النبي المختار^(١)، صلى الله عليه وسلم، والمهاجرين الأبرار، ومنها انتشرت السنة في الأقطار.

السادس والثلاثون «ذات الحُجر» لاشتغالها عليها، قال أبو بكر رضى الله عنه مُثْنِيَا عَلَى الْأَنْصَارِ: مَا وَجَدْتُ لَنَا وَلِهَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ مَثَلًا إِلَّا مَا قَالَ طَفِيلُ الْغَنَوِيِّ:

أَبَوْا أَنْ يَمْلُونَا وَلَوْ أَنَّ آمَنَّا تَلَاقِي الَّذِي يَلْقَوْنَ مِنَّا لَمَلَّتْ
هُمْ خَلَطُونَا بِالنَّفُوسِ وَأَوْجَلُوا إِلَى حُجَرَاتٍ أَدْفَاتِ وَأَظَلَّتْ

السابع والثلاثون «ذات الحرار» لكثرة الحرار بها، وفي قصة خنافر ابن التوأم الحميري الكاهن^(٢) عن رَأْيِهِ مِنَ الْجَنِّ وَقَدْ وَصَفَ لَهُ دِينَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ خَنَافَرٌ: مِنْ أَيْنَ أَبْغَى هَذَا الدِّينَ؟ قَالَ: مِنْ ذَاتِ الْأَحْرَيْنِ، وَالنَّفَرِ الْمَيَّامِينَ، أَهْلِ الْمَاءِ وَالطِّينِ، قُلْتُ: أَوْضَحْ، قَالَ: الْحَقُّ يَثْرِبُ ذَاتِ النَّخْلِ وَالْحَرَّةِ ذَاتِ النَّعْلِ، قَالَ الْأَسْمَعِيُّ: أَحَرُّونَ وَحِرَارٌ جَمْعُ حَرَّةٍ.

الثامن والثلاثون «ذات النخل» وهو وذات الحجر مما استعمله المتأخرون في ذات النخل أشعارهم، وقد نسجت على منوالهم حيث قلت في مطلع قصيدة:

أَشْجَانُ قَلْبِي بِذَاتِ النَّخْلِ وَالْحُجْرِ وَأَخْتِهَا تِلْكَ ذَاتِ الْحِجْرِ وَالْحَجَرِ
تَقْسَمُ الْقَلْبُ بَيْنَ الْبَلَدَتَيْنِ؛ فَلَا أَنْفَكَ مِنْ لَهَبِ الْأَشْوَاقِ فِي سَعْرِ

وفي أحاديث الهجرة «أريت دار هجرتي ذات نخل وحرّة»^(٣)، وقال عمران ابن عامر الكاهن يصف البلاد لقومه: وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ الرِّاسَخَاتِ فِي الْوَحْلِ، الْمُطْعِمَاتِ فِي الْمَخْلِ^(٤)، فليلق بالحرّة ذات النخل. وروى كما سيأتي: يَثْرِبُ ذَاتِ النَّخْلِ

(١) المراد أنها موضع هجرته صلى الله عليه وسلم. (٢) انظر حديثه في ترجمته

في الإصابة رقم (٢٣٤٢). (٣) الحرّة — بفتح الحاء وتشديد الراء

المهملتين — الأرض ذات الحجارة السود التي كأنها محروقة بالنار.

(٤) المحل — بفتح الميم وسكون الحاء المهملّة — الجذب والقحط.

السلفة

التاسع والثلاثون « السلفة » ذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الإقشيري في أسمائها المنقولة عن التوراة ، ولم نضبطة ، وهو محتمل لفتح اللام وكسرها ، والسَّاقُ بالتحريك : القاعُ الصَّفْصَفُ^(١) ، وسَلَقْتُ البيضَ : أغليتته بالنار ، والمِسْلَاقُ : الخطيبُ البليغ ، وربما قيل للمرأة السليطة : سَلِقة — بكسر اللام — فتسميتها بذلك لاتساعها وبعدها عن جبالها ، أو لأوائها ، أو لشدة حرها وما كان بها من الحمى الشديدة ، أو لأن الله تعالى سَلَطَ أهلها على سائر البلاد فافتتحوها الأربعون « سيدة البلدان » لما أسنده الديلمي من الحلية لأبي نعيم عن ابن عمر مرفوعاً « يا طيبة يا سيدة البلدان »

سيدة البلدان

الشافية

الخادي والأربعون « الشافية » لحديث « تراها شفاء من كل داء » وذكر الجذام والبرص . ولقد شاهدت من استشفى بترابها من الجذام فنفعه الله به ، والاستشفاء بتربة صُعَيْب^(٢) من الحمى مشهور ، كما سيأتي ، ولما صح في الاستشفاء بتمرها ، وذكر ابن مسدي الاستشفاء من الحمى بكتابة أسمائها وتعليقها على المحموم ، وسيأتي أسما تنفي الذنوب فتشفى من دائها .

طابة وطيبة

الثاني والأربعون « طَابَة » بتخفيف الموحدة . الثالث والأربعون : « طَيْبَة » بسكون المثناة التحتية . الرابع والأربعون « طَيْبَة » بتشديد ها . الخامس والأربعون « طَائِب » ككاتب ، وهذه الأربعة مع اسمها المطيبة أخوات لفظاً ومعنى ، مختلفات صيغة ومبنى ، وقد صحَّ حديث « إن الله سمي

(١) القاع : الأرض السهلة المطمئنة التي قد انفرجت عنها الجبال ، والصفصاف — بوزن جعفر — المستوى .

(٢) في خلاصة الوفا (ص ٢٨ ط الحلبي) نقلاً عن طاهر بن يحيى العلوي « صعيب : وادي بطحان دون الماشونية — أي الحديقة المعروفة اليوم بالمدشونية — وفيه حفرة مما يأخذ الناس منه . وهو اليوم إذا وبىء إنسان أخذ منه » اه وفي معجم ما استعجم للبكري (ص ٨٣٤) « صعيب — على لفظ تصغير صعب — موضع في ديار بلحارث » اه وانظر ما يأتي في الفصل الرابع من هذا الباب في الاستشفاء بترابها وبتمرها وما جاء فيه .

المدينة طابة « وفي رواية « إن الله أمرني أن أسمى المدينة طابة » وروى ابن شبة وغيره: كانوا يسمون يثرب، فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبة، وفي حديث « للمدينة عشرة أسماء هي المدينة وطيبة وطابة » ورواه صاحب النواحي بلفظ طابت بدل طيبة، وعن وهب بن منبه: والله إن اسمها في كتاب الله - يعني التوراة - طيبة وطابة، ونقل عن التوراة تسميتها بالمطيبة أيضا، وكذا بطابة والطيبة، وتسميتها بهذه الأسماء إما من الطيب بتشديد المثناة، وهو الطاهر؛ لطهارتها من أدناس الشرك، أو لموافقتها من قوله تعالى « بريح طيبة^(١) » أو لخلول الطيب بها صلى الله عليه وسلم، أو لكونها كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها، وإيمان الطيب - بسكون المثناة - لطيب أمورها كلها، وطيب رائحتها، ووجود ريح الطيب بها، قال ابن بطّال: مَنْ سَكَنَهَا يَجِدُ مِنْ تَرَبُّثِهَا وَحَيْطَانِهَا رَائِحَةً حَسَنَةً، وقال الإشبيلي: لتربة المدينة نَفْحَةٌ، ليس طيبها كما عهد من الطيب، بل هو عجب من الأعاجيب، وقال ياقوت: من خصائصها طيب ريحها، والله طر فيها رائحة لا توجد في غيرها، وما أحسن قول أبي عبد الله العطار:

بِطِيبِ رَسُولِ اللَّهِ طَابَ نَسِيمُهَا فَمَا الْمِسْكُ مَا الْكَافُورُ مَا الْمَنْدَلُ الرَّطْبُ
السادس والأربعون « ظباب » ذكره ياقوت، ولم يضبطه، وهو إما بكسر المهملة أو بفتح المعجمة؛ فالأول بمعنى القطعة المستطيلة من الأرض، والثاني من ظب^(٢) وظبّب إذا حُمّ؛ لأنها كانت لا يدخلها أحد إلا حُمّ، قاله المجد.

ظباب

العاصمة

السابع والأربعون « العاصمة » لأنها عَصَمَتِ المهاجرين ووقّتهم أذى المشركين، ولما تقدم في « الجنّة الحصينة » ويحتمل أن يكون بمعنى المعصومة اعصمتها قديماً بجيوش موسى وداود عليهما السلام المبعوث إلى مَنْ كان بها من الجبابرة، وحفظها حديثاً نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم حتى صارت حرماً آمناً، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون، وَمَنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ أَذَاهُ اللَّهُ.

(١) من سورة يونس من الآية ٢٢ . (٢) لم أجد أول هذين الفعلين .

(٢ - وفاة ١)

الغبراء الثامن والأربعون « الغبراء » بإهمال أوله وإعجام ثانيه . منقول عن التوراة ، سميت به لحفظها من وطء العدو القاهر في سالف الزمان ، إلى أن تسلمها مالكها الحقيقي سيد الأنام ، مع صعوبتها وامتناعها على الأعداء ، ولذلك سميت البكر بالغبراء .

العراء التاسع والأربعون « العراء » بإهمال أوله وثانيه وتشديده ، بمعنى الذي قبله ، قال أئمة اللغة : العراء الجارية الغبراء . كأنها شبيهت بالناقاة العراء التي لا سنام لها وصغر سنامها كصغر نهْد الغبراء أو عدمه ؛ فيجوز أن يكون تسمية المدينة بذلك لعدم ارتفاع أبنيتها في السماء .

العروض الخمسون « العروض » كصَبُور . وقيل : هو اسم لها ومناحولها ؛ لانخفاض مواضع منها ومسائل أودية فيها ، وقال الخليل : العَرُوض : طريق في عرض الجبل ، وعَرَضَ الرجل إذا أتى المدينة^(١) ؛ فإن المدينة سميت عروضاً لأنها من بلاد نجد ، ونجد كلها على خط مستقيم طولاني والمدينة معترضة عنها ناحية على أنها نجدية .

الغراء الحادي والخمسون « الغراء » بالغين المعجمة — تأنيث الأغر ، وهو ذوالغرّة من الخيل : أي المياض في مُقَدَّم وجهه ، والغرة أيضاً : خيار كل شيء ، وغرّة الإنسان : وجهه ، والأغر : الأبيض من كل شيء ، والذي أخذت اللحية جميع وجهه إلا القليل ، ومن الأيام الشديد الحر ، والرجل الكريم ، والغراء : نبت طيب الرائحة ، والسيدة الكبيرة في قبيلتها ؛ فسميت المدينة بذلك لشرف معالمها ، ووضوح مكارمها ، واشتهارها ، وسطوع نورها ، وبياض نورها ، وطيب رائحتها ، وكثرة نخيلها ، وسيادتها على القرى ، وكرم أهلها ، ورفعة محلها .

غلبة الثاني والخمسون « غلبة » محرّكة بمعنى الغلب ؛ لظهورها واستيلائها على سائر البلاد ، وهو اسم قديم جاهلي ، قال ابن زبالة : حدثني داود بن مسكين

(١) ومنه قول عبد يغوث بن وقاص الحارثي ، وكان قد أسر في يوم كلاب :

أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ قَبْلَغَنُ نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانِ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

الأَنْصَارِي عن مشيخته قالوا : كانت يثرب في الجاهلية تدعى غَلْبَة ، نزلت اليهود على العماليق فغلبتهم عليها ، ونزلت الأَوْسُ والخَزْرَجُ على اليهود فغلبوهم عليها ، ونزل الأعاجم على المهاجرين فغلبوهم عليها ، كذا في النسخة التي وقفتُ عليها من كتاب ابن زَبَّالَة ، ونقله المجد عن الزبير بن بكار راوى كتاب ابن زَبَّالَة ، وقال فيه بدل قوله ونزل الأعاجم : ونزل المهاجرون على الأَوْس والخَزْرَج فغلبوهم عليها .

الثالث والخمسون « الفاضحة » بالقاء والصاد المعجمة والحاء المهملة — نقله بعضهم عن كِرَاع ، وما أخذها ماسيأتى في معنى كونها تنفى خَبَثَها من أنها تميزه وتظهره فلا يُبْطِنُ بها أحدٌ عقيدةً فاسدةً أو يضمراً مراً إلا ظهر عليه ، وافتضح به ، بخلاف غيرها من البلاد ، وقد شاهدنا ذلك كثيراً بها .

الرابع والخمسون « القاصمة » بالقاف والصاد المهملة — نقل عن التوراة سميت به لِقَصْمِها كل جبار عنها^(١) ، وكسر كل متمرد أتاها ، ومن أرادها بسوء أذابه الله .

الخامس والخمسون « قبة الإسلام » لحديث « المدينة قبة الإسلام » .
السادس والخمسون « قرية الأنصار » قال ابن سيدة : القرية — بفتح القاف وكسرها — المصرُ الجامعُ ، من قرَّيتِ الماءَ في الحوض ، إذا جمعتَه ، وقال أبو هلال العسكري : العربُ تسمى كل مدينةً صغرت أو كبرت قريةً ، قلت : وسيأتى في معنى « المدينة » ما يقتضى أنه يعتبر في مسماها زيادتها على القرية ونقصها على المصر ، وقيل : يطلق عليه ، والأَنْصار : واحدُهم ناصر ، سموا بذلك لنصرهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وإيوائهم له وللمهاجرين ، فمدَّحهم الله بقوله : « والذين آوَوْا وَنَصَرُوا^(٢) » فسماهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ، وكان يقال لهم قبل ذلك الأَوْسُ والخَزْرَجُ ، وفي الحديث عن غِيْلان بن جرير

(١) عنها : قصدها ، والمراد قصدها بسوء ، ووقع في المخطوطات « عتاها »

(٢) من سورة الأنفال من الآية ٧٢ .

قال : قلت لأنس بن مالك : أرايتم اسم الأنصار ، كنتم تسمون به أم سماكم الله ؟ قال : بل سمانا الله . وسيأتى فى حديث « إن الله قد طهر هذه القرية من الشرك » فلك أن تعدد اسما آخر .

السابع والخمسون « قرية رسول الله صلى الله عليه وسلم » لما سيأتى فى عصمتها من الدجال من قوله صلى الله عليه وسلم « ثم يسير حتى يأتى المدينة ، ولا يأذن له فيها ؛ فيقول : هذه قرية ذاك الرجل » يعنى النبي صلى الله عليه وسلم .

قرية
رسول الله

الثامن والخمسون « قلب الإيمان » أورده ابن الجوزى فى الوفاء فى حديث « المدينة قبة الإسلام » .

قلب الإيمان

التاسع والخمسون « المؤمنة » إما لتصديقها بالله حقيقة كذوى العقول ؛ إذ لا بُدَّ فى خلق الله تعالى قوة فى الجهاد قامةً للتصديق والتكذيب^(١) ، وقد سمع تسبيح الحصى فى كفه صلى الله عليه وسلم ، أو مجازاً لاتصاف أهلها بذلك ، ولا انتشار الإيمان منها ، وأشماتها على أوصاف المؤمنين من النفع والبركة وعدم الضرر والمسكنة ، وإما لإدخالها أهلها فى الأمان من الأعداء ، وأمنهم من الدجال والطاعون ، وروى ابن زبالة فى حديث « والذي نفسى بيده إن تربتها مؤمنة » وروى « أنها مكتوبة فى التوراة مؤمنة » .

المؤمنة

الستون « المباركة » ؛ لأن الله تعالى بارك فيها بدعائه صلى الله عليه وسلم لحديث « اللهم اجعل بالمدينة ضعفتى ما جعلت بمكة من البركة » وغيره من الأحاديث الصحيحة الكثيرة ، وآثار تلك الدعوات من الأمور الظاهرات .

المباركة

الحادى والستون « مَبُوءٌ الحلال والحرام » رواه الطبرانى فى حديث « المدينة قبة الإسلام » والتبوء : التمكن والاستقرار ، سميت به لأنها محل تمكّن هذين الحكيم واستقرارهما ، وفى بعض النسخ « مَثْوَى » بالمثلثة الساكنة بدل

مبوء
الحلال والحرام

(١) وقد قيل فى قوله تعالى من سورة فصلت من الآية ١١ (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) : إنه سبحانه قد خلق فى السماء وفى الأرض قوة الإدراك وفهم الخطاب وإيهما أجابتا ، ولهذا قال سبحانه (طائعين) وعبر عنهما كما يعبر عن العقلاء .

الموحدة ، والأول هو الذى رأيتہ بخط الحافظ أبى الفتح المراغى .

الثنائى والستون « مبین الحلال والحرام » رواه ابن الجوزى والسيد أبو العباس القرافى فى حديث « المدينة قبة الإسلام » بدل الذى قبله ، سميت به لأنها المحل الذى ابتداء فيه بيان الحلال والحرام .

الثلث والستون « المحبورة » بالجيم - ذكره فى حديث « للمدينة عشرة أسماء » ونقل عن الكتب المتقدمة ، وسميت به لأن الله تعالى جبرها بسكنى نبيه وصفيه صلى الله عليه وسلم حيا وضمها لأعضائه الشريفة ميتاً بعد نقل حياها ، وتطيب مغناها ، والحث على سكنها ، وتنزل البركات بمدّها وصاعها ؛ فهى بهذا السر الشريف مسرورة ، وبهذه المنح العظيمة محبورة ، تسحب ذيل الفخار ، على سائر الأقطار .

الرابع والستون « المحبة » بضم الميم وبالحاء المهملة وتشديد الموحدة - نقل عن الكتب المتقدمة .

الخامس والستون « المحببة » بزيادة موحدة على ما قبله .

السادس والستون « المحبوبة » نقل عن الكتب المتقدمة أيضاً . وهذه ثلاثة مع ما تقدم من اسمها الحبيبة من مادة واحدة ، سميت بذلك لما تقدم من حبه صلى الله عليه وسلم لها ودعائه بذلك . وجاء ما يقتضى أنها أحب البقاع إلى الله تعالى ، ويؤيده أنه تعالى اختارها لحبيبه صلى الله عليه وسلم حياً وميتاً ؛ فهى محبوبة إلى الله تعالى ورسوله وسائر المؤمنين ، ولهذا ترتاح النفوس لذكرها ، وتهيم القلوب لشهود سرها .

السابع والستون « المحبورة » من الحَبَرِ ، وهو السرور ، وكذلك الحُبْرُ والحُبُورُ والحَبْرَةُ : ما تقدم فى المحبورة^(۱) ، أو هو من الحَبْرَةِ بمعنى النعمة ، والحَبْرَةُ^(۲)

(۱) لم يسبق هذا الاسم ؛ فاعمل المؤلف ، ذكره فى كتابه الأول الذى جمع أطرافه فى هذا الكتاب ، أو لعله محرف عن « المحبورة » بالجيم ، وهذا عندنا أقرب .
(۲) قال المجد فى القاموس « والحبرة بالفتح : السماع فى الجنة ، وكل نعمة حسنة ، والمبالغة فيما وصف بجميل » اهـ .

أيضا المبالغة فيما وصِفَ^(١) بجميل ، والمُخْبَار من الأرض : السريعةُ النباتِ
الكثيرة الخيرات .

المحرمة

الثامن والستون « المحرمة » لما سيأتى فى تحريمها .

المحفوفة

التاسع والستون « المحفوفة » لأنها محفوفة بالبركات ، وملائكة السموات ،
محفوظة من المخاوف والأوجال ، وعلى أبوابها وأنقابها^(٢) الملائكة يُخْرِسُونَهَا من
الطاعون والدجال ، وسيأتى حديث « المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة ، على كل
نَقَبٍ منها مَلَكٌ ، لا يَدْخُلُهَا الدجال ولا الطاعون » .

المحفوفة

السبعون « المحفوظة » لأن الله تعالى حفظها من الدجال والطاعون وغيرها ،
وفى حديث « القرى المحفوظة أربع » وذكر المدينة منها ، وفى حديث آخر
رويناه فى فضائل المدينة للفضل الجندى « المدينة مشتبكة بالملائكة ، على كل
نَقَبٍ^(٣) منها مَلَكٌ يحرسها » فلك أن تسميها المحروسة أيضا .

المختارة

الحادى والسبعون « المختارة » لأن الله تعالى اختارها للمختار من خلقه فى حياته ومماته .

مدخل صدق

الثانى والسبعون « مدخل صدق » قال الله تعالى « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي
مُدْخَلَ صِدْقٍ^(٣) » الآية ، قال بعض المفسرين : مدخل صدق : المدينة ، ومخرج
صدق : مكة ، وسلطاناً نصيراً : الأنصار ، وروى ذلك عن زيد بن أسلم ،
ويدلُّ له ما رواه الترمذى وصححه فى سبب نزول الآية .

للمدينة، ومدينة
الرسول

الثالث والسبعون « المدينة » . الرابع والسبعون « مدينة الرسول صلى
الله عليه وسلم » من مَدَنَ بالمكان إذا أقام ، أو من دَانَ إذا أطاع ، فاليم زائدة ؛
لأن السلطان يسكن المدن فتقام له طاعة فيها ، أو لأن الله تعالى يُطَاع فيها ،
والمدينة : أحياء مجتمعة كثيرة تجاوز حد القرى كثرة وعمارة ، ولم تبلغ حد الأمصار ،
وقيل : يقال لكل مصر . والمدينة وإن أطلق على أما كن كثيرة فهو علم مدينة

(١) فى المطبوعات « المبالغة فيما وصفه بجميل » تطبيع ، وقرأ عبارة المجد التى
أثرناها لك فى تفسير كلمة « الحبرة » فى ص ٢١ . (٢) الأتقاب : جمع نقب ، والنقب
- بفتح أو بضم فسكون - الطريق فى الجبل . (٣) من سورة الإسراء من الآية ٨٠ .

الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهُجِرَ كونهَ علماً في غيرها ، بحيث إذا أطلق لا يتبادر إلى الفهم غيرها ؛ ولا يستعمل فيها إلا معرفة ، قيل : لأنه صلى الله عليه وسلم سكنها ، وله دانت الأمم ولأمته ، والنكرة اسم لكل مدينة ، وقد نسبوا لكل مَدِينِي ، وإلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم مَدَنِي ، للفرق ، وتسميتها بذلك متكررة في القرآن العظيم ، ونقل عن التوراة .

الخامس والسبعون « المرحومة » نقل عن التوراة ، سميت به لأنها دار المبعوث رحمة للعالمين ، ومحل تنزيل الرحمة من أرحم الراحمين ، وأول بلد رحمت بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

السادس والسبعون « المرزوقة » لأن الله تعالى رَزَقَهَا أَفْضَلَ الخلق فسكنها ، أو المرزوق أهلها أرزاقاً حسية ومعنوية ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولا يخرج أحد منها رغبةً عنها إلا أبدلها الله خيراً منه كما جاء في الحديث .

السابع والسبعون « مسجد الأقصى » نقله التادلي في منسكه عن صاحب المطالع . مسجد الأقصى

الثامن والسبعون « المسكينة » نقل عن التوراة ، وذكر في حديث « للمدينة عشرة أسماء » وروى عن علي يرفعه « إن الله تعالى قال للمدينة : يا طيبة ، يا طابة يا مسكينة ، لا تقبلي الكنوز ، أرفع أجاجيرك^(۱) على أجاجير^(۱) القرى » عن كعب أنه وجد ذلك في التوراة ، والأجاجير : السطوح ، وأصل المسكنة الخضوع ، فسميت بذلك إما لأن الله تعالى خَلَقَ فيها الخضوع والخشوع له ، وإما لأنها مسكنُ المساكين ، سكنها كل خاضع وخاشع ، وفي الحديث « اللهم أخيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، وأحشُرني في زُمرَةِ المساكين » .

التاسع والسبعون « المسلة » كالمؤمنة ، وقد قدمناه ، والإسلام يطلق على المسلة

(۱) الأجاجير : جمع إجار أو إجارة - بكسر الهمزة وتشديد الجيم ، وآخره راء مهملة - وهو السطح الذي لا سترة عليه ، ويقال في الجمع « أجاجرة » ويقال في المفرد « إنجار » بإبدال أول الجيمين نوناً .

الانقياد والانقطاع إلى الله تعالى ، فسميت بذلك إما لأن الله تعالى خلق فيها الانقياد والانقطاع إليه ، وإما لانقياد أهلها بالطاعة والاستسلام ، وفتح بلدهم بالقرآن ، لا بالسيف والسهم ، وانقطاعهم إلى الله ورسوله ، وتبثثهم لنصره وتحصيل سؤله^(١) .

مضجع الرسول الثمانون « مَضْجَعُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » لما سبأني في حفظ أهلها وإكرامهم من قوله صلى الله عليه وسلم « المدينة مُهَاجِرِي وَمَضْجَعِي فِي الْأَرْضِ » .
المطية
المقدسة
الثاني والثمانون « الْمُطَيَّة » بضم أوله وفتح ثانيه — تقدم مع أخواته في الطيبة يتبرك بها ويتطهر عن أرجس الذنوب والآثام .

المقر الثالث والثمانون « مَقَرٌّ » بالقاف : من القرار كما رأيت في بعض كتب اللغة وسبأني في دعائه صلى الله عليه وسلم لها قوله « اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا بِهَا قَرَارًا وَرِزْقًا حَسَنًا »
المسكنان الرابع والثمانون « الْمَسْكَنَانِ » قال سعد بن أبي سرح في حصار عثمان :
أَرَى الْأَمْرَ لَا يَزْدَادُ إِلَّا تَفَاقُمًا وَأَنْصَارُنَا بِالْمَسْكَنَيْنِ قَلِيلُ
وقال نصر بن حجاج فيما كتب به إلى عمر رضي الله عنه بعد نفيه إياه من المدينة لما سمع امرأة تترنم به في شعرها الجمال :

حَقَّقَتْ بِي الظَّنَّ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ مُقَامٌ ؛ فَمَا لِي بِالْنَدَى كَلَامُ
وَأَصْبَحْتُ مَنْفِيًّا عَلَى غَيْرِ رِيْبَةٍ وَقَدْ كَانَ لِي بِالْمَسْكَنَيْنِ مُقَامُ
والظاهر أن المراد المدينة ؛ لأن قصة عثمان ونصر بن حجاج كانتا بها ، وأطلق ذلك لانتقال أهل مكة أو غالبهم إليها وانضمامهم إلى أهلها ، وقد ذكر البرهان القيراطي المسكتين في أسماء مكة ، قال التقى القاسي : ولعله أخذه من قول ورقة بن نوفل :

(١) السؤل — بضم السين — أصله السؤل ، خفف بقلب الهمزة واوا ، وفي القرآن الكريم في سورة طه من الآية ٢٦ : (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) والسؤل والسؤل والسؤل بمعنى واحد .

* بيطن المكتين على رجائي *

قال السهيلي : ثَنَّى مكة - وهى واحدة - لأن لها بَطَاحاً وظَوَاهِر^(١) ، وإنما مقصد العرب فى هذه الإشارة إلى جانبى كل بلدة ، أو أعلى البلد وأسفلها ، فيجعلونها اثنين على هذا المعنى ، انتهى . ويحتمل أن تكون التثنية فيما استشهدنا به من قبيل التغليب^(٢) وأن المراد مكة والمدينة ، فيسقط الاستشهاد به .

الخامس والثمانون « الْمَكِينَةُ » لتمكنها فى المكانة والمنزلة عند الله تعالى .
السادس والثمانون « مُهَاجِرُ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم » ؛ لقوله :
« المدينة مُهَاجِرِي^(٣) » .

السابع والثمانون « الْمُؤَفِّيَّة » بتشديد الفاء - من التوفية ، ويجوز تخفيفها ، إذ التوفية والإيفاء بمعنى ؛ سُمِّيت به لتوفيتها حقَّ الواردين ، وإحسانها نُزُلَ الوافدين حساً ومعنى ، أو لأن سكانها من الصحابة الْمُؤَفُّونَ بما عَاهَدُوا الله عليه .

الثامن والثمانون « النَاجِيَّة » بالجميم من نجا إذا خَلَصَ أو أسرع ، أو من نَجَاهُ وَنَاجَاهُ سَارَّهُ^(٤) ، أو من النَّجْوَةِ للأرض العالية ، سميت بذلك لنجاتها من العُتَاة والطاعون والدَّجَالِ ، ولإسراعها فى الخيرات ، وسَبْقِهَا إلى حيازة السبق بأشرف المخلوقات ، ولارتفاع شأنها بين الورى ، ورفع أجَاجِيرِهَا^(٥) على أجاجير القرى .

التاسع والثمانون « نِبَالٌ » نقل من كراع ، وأظنه بفتح النون وسكون الموحدة ممدودا ، من النَّبْلِ - بالضم والسكون - وهو الفضل والنجاة ، ويقال : امرأة نبيلة فى الحسن ، بَيِّنَةُ النَّبَالَةِ ، وَأَنْبَلُ النَّخْلِ : أَرْطَبُ ، وَالثَّنْبَلَةُ - بالضم - الثواب والجزاء والعطية التسعون « النحر » بفتح النون وسكون الحاء المهملة - سميت به إما لشدة

(١) الظواهر : ظهر مكة ، والبطاح : باطنها ، ويقال « قريش الظواهر » لمن سكن منهم ظاهرها ، و« قريش البطاح » لمن سكن منهم باطنها .

(٢) فى المطبوعات « التغليب » تطبيع

(٣) المهاجر - بضم الميم وفتح الجيم - موضع الهجرة .

(٤) فى المطبوعات « أو من نجاه ونجاء » تطبيع (٥) انظر الهامشة ١ فى ص ٢٣

حرها ، كما يقال : نَحَرُ الظهيرة ، ولذا شاركتها مكة فيه ، وإما لإطلاق النحر على الأصل ، وهما أساس بلاد الإسلام وأصلها .

الهذراء. الحادى والتسعون « الهذراء » ذكره ابن النجار بدل العذراء نقلا عن التوراة ، وتبعه جماعة كالطبرى ؛ فلذلك أثبتناه ، وإن كان الصواب إسقاطه كما بيناه فى الأصل ، وقد روينا فى كلام مَنْ أثبتته بالذال المعجمة ، فالتسمية به لشدة حرها ، يقال : يوم هاذر شديد الحر ، أو لكثرة مياهها وسوانيتها المصوتة عند سواقها ، يقال : هذر فى كلامه ، إذا أكثره ، والهذر - محركا - الكثير الردى ، ويحتمل أن يكون بالمهملة من « هذر الحمام » إذاصوت ، والماء انصب وانهمر ، والعُشب طال ، وأرض هادرة : كثيرة النبات .

يثرب الثانى والتسعون « يثرب » لغة فى أثرب ، وقد تقدم الكلام عليه فيه ، وليست المذكورة فى قول الشاعر :

وَعَدَّتْ وَكَانَ الْخُلْفُ مِنْكَ سَجِيَّةً مَوَاعِيدَ عُرْقُوبٍ أَخَاهُ بِيَثْرِبٍ^(١)
لأن المجد فال : أجمعوا فيه على تثنية التاء وفتح الراء ، وقال : هى مدينة محضرموت ، قيل : كان بها عرقوب صاحب المواعيد ، مع أن المجد صحح أنه من قدماء يهود مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفى مشارق عياض قيل : إن يثرب المذكورة فى البيت مثل يثرب المدينة النبوية ، وقيل : قرية باليمامة ، وقيل : إنما هى يثرب بمثناة فوقية وراء مفتوحة اسم تلك القرية ، وقيل : اسم قرية من بلاد بنى سعد من تميم ، كما اختلف فى عرقوب هذا ؛ فقيل : رجل من الأوس من أهل المدينة ، وقيل : من العماليق أهل اليمامة ، وقيل : من بنى سعد المذكورين اهـ . وأما قول هند بنت عتبة :
لَنَهْبِطَنَّ يَثْرِبَةَ * بِغَارَةِ مُنْشَعِبَةٍ

(١) السجية : الطبيعة والخلقة ، والمواعيد : جمع ميعاد ، وهو الوعد ، و« أخاه » منصوب بمواعيد لأنه جمع المصدر الميمى ، وهو يعمل عمل فعله بإجماع المعتد بهم من النحاة ، وفعله ينصب المفعول به ؛ يقال « وعدته أعدده وعداً وموعداً وميعاداً » .

فالظاهر أن الهاء فيه للسكت ، فليس اسماً آخر .

الثالث والتسعون « يندد » ذكره كراع هكذا بالمشناة التحتية ودالين ، وهو يندد إما من الندّ وهو الطيب المعروف ، وقيل : العنبر ، أو من الندّ للتل المرتفع ، أو من الناد وهو الرزق^(۱) .

الرابع والتسعون « يندر » بإبدال الدال الأخيرة من الاسم قبّله راء ، ذكره المجدُّ عند سرّد الأسماء ، ولم يتكلم عليه بعد ، لما سنذكره ، وإنباته لوقوعه كذلك في حديث « للمدينة عشرة أسماء » في بعض الكتب ، وفي بعضها بمشناة فوقية ودالين ، وفي بعضها كذلك مع إبدال الدال الأخيرة راء ؛ فتحرر من مجموع ذلك أربعة أسماء : اثنان بالمشناة التحتية ، واثنان بالفوقية ، وذلك المستند في تقديمها في محلها ، وقال المجد : إن ذلك كله تصحيف ، وإن الصواب يندد بالمشناة التحتية ودالين^(۲) ، وفيه نظر ؛ لأن الزركشي عند ذكر أسماء المدينة جمع بين اثنين من هذه الأربعة وقال : ذكرهما البكري ؛ فيحتمل ثبوت الأخيرين ، وحديث « للمدينة عشرة أسماء » رواه ابن شبة من طريق عبد العزيز بن عمران ، وسرّدها فيه ثمانية فقط ، ثم روى من طريقه أيضاً عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب سمى الله المدينة الدار والإيمان ، قال : وجاء في الحديث الأول ثمانية أسماء ، وجاء في هذا اسمان ، فالله أعلم أهما تمام العشرة أم لا اه . ورواه ابن زبالة كذلك إلا أنه سرّد تسعة فزاد اسم الدار ، وأسقط العاشر ، ونقل ابن زبالة أن عبد العزيز بن محمد الدراوردي قال : بلغني أن للمدينة في التوراة أربعين اسماً ، والله أعلم .

(۱) يقال « ليس لهؤلاء ناد » أي رزق ، قاله المجد .

(۲) قال المجد في (ندد) ما نصه « ويندد : موضع ، ومدينة النبي صلى الله عليه وسلم »

وقال في (ندر) ما نصه « ويندر كحيدر : من أسماء المدينة ، أو هو بدالين » اه .

الباب الثاني

في فضائلها ، و بدء شأنها وما يؤل إليه أمرها ، وظهور النار المذّر بها من أرضها ، وانطفائها عند الوصول إلى حرمها ، وفيه ستة عشر فصلا

الفصل الأول

في تفضيلها على غيرها من البلاد

مكة أفضل
أم المدينة

قد انعقد الإجماع على تفضيل ما ضمّ الأعضاء الشريفة ، حتى على الكعبة المنيفة . وأجمعوا بعدُ على تفضيل مكة والمدينة على سائر البلاد ، واختلفوا أيهما أفضل : فذهب عمر بن الخطاب وابنه عبد الله ومالك بن أنس وأكثر المدنيين إلى تفضيل المدينة ، وأحسن بعضهم فقال : محلّ الخلاف في غير الكعبة الشريفة ، فهي أفضل من المدينة ماعدا ما ضمّ الأعضاء الشريفة إجماعا ، وحكاية الإجماع على تفضيل ما ضمّ الأعضاء الشريفة نقله القاضي عياض ، وكذا القاضي أبو الوليد^(١) الباجي رحمه الله كما قال الخطيب ابن جملة ، وكذا نقله أبو اليمن ابن عساكر وغيرهم ، مع التصريح بالتفضيل على الكعبة الشريفة ، بل نقل التاج السبكي عن ابن عقيل الحنبلي أن تلك البقعة أفضل من العرش .

وقال التاج الفاكهي : قالوا : لا خلاف أن البقعة التي ضمت الأعضاء الشريفة أفضل بقاع الأرض على الإطلاق حتى موضع الكعبة ، ثم قال : وأقول أنا : أفضل بقاع السموات أيضا ، ولم أرَ من تعرض لذلك ، والذي أعتقد أنه ذلك لو عرض على علماء الأمة لم يختلفوا فيه ، وقد جاء أن السموات تشرفت بمواطء قدميه صلى الله عليه وسلم ، بل لو قال قائل إن جميع بقاع الأرض أفضل من جميع بقاع السماء شرفها لكون النبي صلى الله عليه وسلم حالاً فيها لم يبعد ، بل هو عندى الظاهر المتعين

(١) في خلاصة الوفا (ص ١٠) « أبو الوليد الناجي » بالنون .

قلت : وقد صرح بما بحثه من تفضيل الأرض على السماء ابنُ العِمَادِ نقلاً عن الأرض أفضل أم السماء؟
الشيخ تاج الدين إمام الفاضلية

قال : وقالوا : إن الأَكْثَرِينَ عليه ؛ لأن الأنبياء خُلِقُوا مِنَ الْأَرْضِ وَعَبَدُوا اللَّهَ فِيهَا ، وَدَفَنُوا بِهَا اهـ .

وقال النووي : المختار الذي عليه الجمهور أن السموات أفضل من الأرض ، وقيل : إن الأرض أشرف ؛ لأنها مُسْتَقَرٌّ^(١) الأنبياء وَدَفَنَهُمْ ، وهو ضعيف

قلت : وكأن وجه تضعيفه للثاني أن الكلام عن مطلق الأرض ، ولا يلزم من تفضيل بعضها لكونها مدفنَ الأنبياء تفضيلُ كلها ، وضعف أيضاً بأن أرواح الأنبياء في السموات والأرواح أفضل من الأجساد ، وجوابه ما سنحققه إن شاء الله تعالى من حياة الأنبياء في قبورهم ، صلوات الله وسلامه عليهم

وقال شيخنا المحققُ ابنُ إمام الكاملية في تفسير سورة الصف : والحق أن مواضع الأنبياء وأرواحهم أشرفُ من كل ما سواها من الأرض والسماء ، ومحالُ الخلافِ في غير ذلك كما كان يقرره شيخ الإسلام البلقيني

قال الزركشي : وتفضيلُ ماضم الأعضاء الشريفة للمجاورة ، وهذا يحرم للمحدث مس جلد المصحف^(٢) .

قال القرافي : ولما خفي هذا المعنى على بعض الفضلاء أنكر حكاية الإجماع على تفضيل ماضم الأعضاء الشريفة ، وقال : التفضيلُ إنما هو بكثرة الثواب على الأعمال ، والعملُ على قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم محرم ، قال : ولم يعلم أن أسباب التفضيل أعم من الثواب ، والإجماع منعقد على التفضيل بهذا الوجه

(١) المستقر : مكان الاستقرار . واستقرار الأنبياء في الأرض أما في حياتهم فلائها موطن دعوتهم والحاجة إليهم فيها ، وأما بعد وفاتهم فلائ مدفنهم بها .

(٢) قاس ماضم الأعضاء على جلد المصحف ، فكأعطى جلد المصحف حكم المصحف لعله المجاورة أعطى ماضم الأعضاء حكم الأعضاء لعله المجاورة ، والقرافي جعل العلة هي كثرة الثواب فلم يصح عنده هذا القياس .

عود لتفضيل مكة أو المدينة

لا بكثرة الثواب ، ويلزمه أن لا يكون جندُ المصحف — بل ولا المصحف نفسه — أفضلَ من غيره لتعذر العمل فيه ، وهو خرق للإجماع قلت : وما ذكره من التفضيل بالمجاورة مُسَلِّمٌ ، لكن ما اقتضاه من عدم التفضيل لكثرة الثواب في ذلك ممنوع لما سنحققه .

كلام للعز ابن عبد السلام وأصل الإشكال لابن عبد السلام فإنه قال في أماليه : تفضيل مكة على المدينة أو عكسه معناه أن الله يرتب على العمل في إحداها من الثواب أكثر مما يرتبه على العمل في الأخرى ؛ فيشكل قول القاضي عياض : أجمعت الأمة على أن موضع القبر الشريف أفضل ؛ إذ لا يمكن أحد أن يعبد الله فيه .

كلام للثقي السبكي قال الثقي السبكي : وقد رأيت جماعة يستشكلون نقل هذا الإجماع ، وقال لي قاضي القضاة السروجي الحنفى : طُلتُ في مذهبنا خمسين تصنيفاً فلم أجده فيها تعرضاً لذلك ، قال السبكي : وقد وقفت على ما ذكره ابن عبد السلام من أن الأزمان والأماكن كلها متساوية ، ويفضلان بما يقع فيهما . لا بصفات قائمة بها ، ويرجع تفضيلها إلى ما يُنبئُ اللهُ العبادَ فيهما ، وأن التفضيل الذى فيهما أن الله يحود على عباده بتفضيل أجر العاملين فيهما ، قال السبكي : وأنا أقول : قد يكون التفضيل لذلك ، وقد يكون لأمر آخر فيهما ، وإن لم يكن عمل ؛ فإن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة ، وله عند الله من المحبة ، ولسا كنهه ماتقصر العقول عن إدراكه ، وليس ذلك لمكان غيره ، فكيف لا يكون أفضل الأماكن ؟ وليس محل عمل لنا ، فهذا معنى غير تضعيف^(١) الأعمال فيه ، وأيضاً باعتبار ما قيل : إن كل أحد يدفن بالموضع الذى خلق^(٢) منه ، وأيضاً فقد تكون الأعمال مضاعفة فيها باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم حى ، وأن أعماله مضاعفة أكثر من كل أحد ؛ فلا يختص التضعيف بأعمالنا نحن

(١) تضعيف الأعمال : أراد به تضعيف ثوابها ، بأن يعطيه الله على العمل فيهما أضعاف ما يعطيه على هذا العمل في غيرها (والله يضاعف لمن يشاء) .
(٢) سيأتى ذكر هذه المسألة والاستدلال عليها ، انظر ص ٣٢ الآتية .

قلت : وهذا من النفاسة بمكان ، على أنى أقول : الرحمت والبركات النازلة بذلك المحل يعم قِيَضُهَا الأمة ، وهى غير متناهية ؛ لدوام ترقياته عليه الصلاة والسلام ، وما تناله الأمة بسبب نبينا هو الغاية فى الفضل ، ولذا كانت خَيْرَ أمةٍ بسبب كون نبينا خيرا الأنبياء^(١) ، فكيف لا يكون القبر الشريف أفضل البقاع مع كونه مُنْبَعٌ فيض الخيرات ؟ ألا ترى أن الكعبة على رأى مَنْ منع الصلاة فيها ليست محل عملنا ، أفيقول عاقل بتفضيل المسجد حولها عليها لأنه محل العمل مع أن الكعبة هى السبب فى إنالة تلك الخيرات ؟ وأيضا فاهتمامه صلى الله عليه وسلم بأمر أمته معلوم ، وإقبال الله عليه دائم ، وهو بهذا المحل الشريف ، فتكثر شفاعته فيه لأمرته وأمداده إياهم ، وقد ورد فى حديث « وَفَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ » [وجاء] بيان ذلك بأن « أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَى ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ خَيْرًا حَمَدْتَ اللَّهَ ، وَإِنْ رَأَيْتَ غَيْرَ ذَلِكَ اسْتَغْفَرْتَ لَكُمْ » وفى رواية « اسْتَوْهَبْتُ اللَّهَ ذُنُوبَكُمْ » وله شواهد تُقَوِّيه ، وسيأتى فى الباب الثامن أن المجيء المذكور فى قوله تعالى « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ^(٢) » الآية حاصل بالمجىء إلى قبره الشريف أيضا ، فزيارته والمجاورة عنده من أفضل القربات ، وعنده تجاب الدعوات ، وتحصل الطلبات ، فقد جعله الله تعالى سببا فى ذلك أيضا ، فهو رَوْضَةٌ من رياض الجنة ، بل أفضل رياضها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « لَقَابُ قَوْسٍ^(٣) أَحَدُكُمْ فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » بل لو تعلق متعلق بما قررناه من كون القبر الشريف منبع جميع الخيرات وهو بالمدينة فتكون هى أفضل لكان له وجه

وقد قال الحكيم الترمذى فى نوادره : سمعتُ الزبير بن بكار يقول : صَنَّفَ بعضُ أهل المدينة فى المدينة كتابا ، وصنف بعض أهل مكة فى مكة كتابا ، فلم

(١) وهذا ينص الكتاب الكريم ، قال الله تعالى فى سورة آل عمران من الآية

١١٠ (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) .

(٢) من سورة النساء من الآية ٦٤ .

(٣) قاب قوس : مقداره .

یزل کل واحد منهما یدکر بقعته بفضیلة ، یرید کل واحد منهما أن یرز^(۱) علی صاحبه بها ، حتی یرز المدنی علی المسکی فی خلّة واحدة^(۲) عجز عنها المسکی ، وان المدنی قال : إذ کل نفس إنما خلقت من تربته التي یدفن فیها بعد الموت ، وكان نفس الرسول إنما خلقت من تربة المدينة ؛ فحينئذ تلك التربة لها فضیلة بارزة علی سائر الأرض قلت : ویدل لما ذکر من أن النفس تخلق من تربة الدفن ما رواه الحاکم فی مستدرکه وقال صحیح وله شواهد صحیحة عن أبی سعید ، قال : « مرّ النبی صلی الله علیه وسلم عند قبر ، فقال : قَبْرُ مَنْ هَذَا ؟ فقالوا : فلان الحبشی یا رسول الله ، فقال : لا إله إلا الله ، سيق من أرضه وسمائه إلى التربة التي منها خلق » ورواه الحکیم الترمذی بنحوه عن أبی هريرة ، ورواه البزار عن أبی سعید بنحوه ، وفيه عبد الله والد ابن المدینی وهو ضعيف ، وروی الطبرانی فی الأوسط بنحوه عن أبی الدرداء ، وفيه الأحوص بن حکیم ، وثقه العجلی ، وضعفه الجمهور ، وروی فی الکبیر أيضا بنحوه عن ابن عمر ، وقال الذهبي فی بعض رواته : ضعفه ، وأسند ابن الجوزی فی الوفاء عن کعب الأحبار : لما أراد الله عز وجل أن یخلق محمدا صلی الله علیه وسلم أمر جبریل فأتاه بالقبضة البيضاء التي هی موضع قبره صلی الله علیه وسلم ، فعُجِنَتْ بماء التَّسْنِيمِ ، ثم غُمِسَتْ فی أنهار الجنة ، وطِيفَ بها فی السموات والأرض ، فعَرَفَتِ الملائكة محمدا وفضله قبل أن تعرف آدم علیه السلام ، وسيأتی لهذا مزيدُ بیانٍ فی سرِّد خصائصها .

یخلق
الإنسان من
تربة الأرض
التي یدفن فیها

وقال الحکیم الترمذی فی حدیث « إذا قضی الله لعبده أن یموت بأرض جعلَ له إليها حاجة » : إنما صار أجله هناك لأنه خُلق من تلك البقعة ، وقد قال الله تعالى : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ »^(۳) الآية ، قال : فإنما يُعاد المرء من حيث بدىء منه ، قال : وروی أن الأرض عَجَّتْ^(۴) إلى ربها لما أخذت تربة آدم علیه السلام ، فقال لها : سَأَرُدُّهَا إِلَيْكَ ، فإذامات دُفِنَ فی البقعة التي منها تربته

(۲) الخلّة - بفتح الخاء - الخلّة .

(۱) یرز : یتفوق .

(۳) من سورة طه من الآية ۵۵ . (۴) عجت : رفعت صوتها كأنها تصرخ .

وعن يزيد الجريري قال : سمعت ابن سيرين يقول : لو حلفتُ حلفت صادقاً باراً غير شك ولا مُستثنٍ أن الله تعالى ما خلق نبيه صلى الله عليه وسلم ولا أباً بكر ولا عمر إلا من طينة واحدة ثم ردهم إلى تلك الطينة

وروى ابن الجوزي في الوفاء عن عائشة قالت : لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اختلفوا في دفنه ؛ فقالوا : أين يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال علي : إنه ليس في الأرض بقعة أكرمُ على الله من بقعة قبض فيها نفس نبيه صلى الله عليه وسلم ، وروى يحيى أن علياً قال لما اختلفوا : لا يُدفنُ إلا حيث توفاه الله عز وجل ، وأنهم رضوا بذلك .

قلت : ويؤخذ مما قاله على مستند نقل الإجماع السابق^(۱) على تفضيل القبر الشريف ؛ لسكوتهم عليه ، ورجوعهم إلى الدفن به .

ولما قال الناس لأبي بكر رضي الله عنه : يا صاحب رسول الله ، أين يدفن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : في المكان الذي قبض الله تعالى روحه فيه ؛ فإن الله لم يقبض روحه إلا في مكان طيب ، رواه الترمذي في شمائله ، والنسائي في الكبرى ، وإسناده صحيح ، ورواه أبو يعلى الموصلي ، ولفظه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يقبضُ النبيُّ إلا في أحب الأماكن إليه » .

قلت : وأحبها إليه أحبها إلى ربه ؛ لأن حبه تابع لحب ربه إلا أن يكون حبه عن هوى نفس ، وما كان أحبَّ إلى الله ورسوله كيف لا يكون أفضل . ولهذا أخذت تفضيل المدينة على مكة من قوله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح « اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » أي بل أشد ، أو وأشد ، كما روى به ، ومن إجابة دعوته صلى الله عليه وسلم كان يحرك دابته إذا رآها من حبيب .

(۱) أي لكونه رضي الله تعالى عنه قد قال عبارة تدل على أن أكرم بقعة في الأرض هي التي قبضت فيها نفسه صلى الله عليه وسلم ، وقد دفن صلوات الله عليه حيث قبضت نفسه .

(۳ - - وفاء ۱)

وقد روى الحاكم في مستدرکه حديث «اللهم إنيك أخرجتني من أحب البقاع إلى ، فاسكنني في أحب البقاع إليك » وفي بعض طرقه أنه صلى الله عليه وسلم قاله حين خرج من مكة ، وفي بعضها أنه وقف بالحزورة^(۱) ، وفي بعضها بالحجون فقائه ، وقد ضعفه ابن عبد البر

قيل : ولو سلمت صحته فالمراد أحب البقاع إليك بعد مكة ؛ لحديث « إن مكة خير بلاد الله » وفي رواية « أحب أرض الله إلى الله » ولأنه قد صح لمسجد مكة من المضاعفة زيادة على ما صح لمسجد المدينة كما سيأتي

قلت : فيما قدمناه من دعائه صلى الله عليه وسلم بحبها أشد من حب مكة مع ما أشرنا إليه من إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم ، ومن أنه تعالى لا يجعلها أحب إلى نبيه إلا بعد جعلها أحب إليه تعالى غنية عن صحة هذا الحديث ، وكون مراد منه ما ذكر خلاف الظاهر ، وما ذكر لا يصلح مستندا في الصرّف عن الظاهر ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قصّد به الدعاء للدار التي تكون هجرته إليها ، فطلب من الله أن يصيرها أحب البقاع إليه تعالى ، والحب من الله تعالى إنالة الخير والتعظيم للمحبوب ، وهذا يمكن تجرده بعد أن لم يكن ، وقوله « إن مكة خير بلاد الله وأحبها إليه » محمول على أنه صلى الله عليه وسلم قاله في بدء الأمر قبل ثبوت الفضل للمدينة ، فلما طالت إقامته صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأظهر الله دينه ، وتجدد لها ما سيأتي من الفضائل حتى عاد نفعها على مكة ، فافتتحها الله وسائر بلاد الإسلام منها ؛ فقد أنالها الله تعالى وأنال بها من الخير ما لم يُناله غيرها من البلاد ، وظهر إجابة الدعوة الكريمة ، وأنها صارت خير أرض الله وأحبها إليه بعد ذلك ، ولهذا لم يعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد فتحها .

(۱) الحزورة - بفتح فسكون - كانت سوق مكة ، ثم دخلت في المسجد الحرام لما زيد فيه ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم «وقف بالحزورة ، فقال : يا بطحاء مكة ما أطيبك من بلدة ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك » والحجون : جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها .

فإن قيل : إنما لم يعد إليها لأن الله افترض عليه المقام بدار هجرته .
قلنا : لم يكن الله ليفترض عليه المقام بها إلا وهى أفضل ؛ لكرامته عنده ،
وقد حثَّ صلى الله عليه وسلم على الاقتداء به فى سكناها والإقامة بها ، وقال :
« والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » .

فإن قيل : قال التقي الفاسى : ظن بعض أهل عصرنا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن مكة خير بلاد الله » حين خرج من مكة للهجرة ، وليس كذلك ؛
لأن فى بعض طرق الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ذلك وهو على راحلته
بالحزورة ، وهو لم يكن بهذه الصفة حين هاجر ؛ لأن الأخبار تقتضى أنه خرج من
مكة مستخفياً ، ولوركب بالموضع المشار إليه - وهو الذى يقول له عوام مكة
عزوة - لأشعر ذلك بسفره .

قلنا : جاء فى رواية لابن زبالة أن النبى صلى الله عليه وسلم حين أمره الله
بالخروج قال : « اللهم إنك أخرجتني » الحديث ، وقد وقع فى رواية لابن حبان
فى حديث الهجرة « فركبا - يعنى هو وأبو بكر - حتى أتيا الغار - وهو ثور -
فتوارياً فيه » وسيأتى فى أحاديث الهجرة ما يقتضى أنهما توجها إلى الغار ليلاً بعد
أن ذرَّ صلى الله عليه وسلم تراباً على رؤوس جماعة من الكفار كانوا يرصدونه ،
وقرأ أوائل يس يستتر بها منهم ، فلم يروهُ ، فلا يمتنع أن يكون راكبا
فى هذا الموضع .

وأما أمر مزيد المضاعفة لمسجد مكة ، فجوابه أن أسباب التفضيل لا تنحصر
فى المضاعفة ، ألا ترى أن فعل الصلوات الخمسة للمتوجه إلى عرفات وظهر يوم النحر
بمنى أفضل من فعلها بمسجد مكة ، وإن اشتمل فعلها بالمسجد على المضاعفة إذ فى
الاتباع ما يربو عليها ، ولهذا قال عمر رضى الله عنه بمزيد المضاعفة لمسجد مكة
كما سيأتى مع قوله بتفضيل المدينة ، وغايته أن المفضول مزية ليست للفاضل ،
ويؤيد ذلك ما سيأتى من أن المضاعفة تعم الفرض والنفل ، وأن النفل بالبيت

أفضل ، على أنه إن أريد بالمسجد الحرام في حديث المضاعفة الكعبة فقط كما ستأتي الإشارة إليه ، فالجواب أن الكلام فيما عداها ، مع أن دعاءه صلى الله عليه وسلم المدينة بضعفي ما بمكة من البركة ، ومع البركة بركتين شامل للأموال الدينية والدنيوية ، وقد يبارك في العدد القليل فيربو^(۱) نفعه على الكثير ، ولهذا استدل به على تفضيل المدينة لأكثرية المدعو به لها من البركة الشاملة .

ولا يرد على ما قررناه ما جاء في فضل الكعبة الشريفة : إذ الكلام فيما عداها ، ولهذا روى مالك في الموطأ^(۲) أن عمر رضي الله عنه قال لعبد الله بن عياش المخزومي : أنت القائل بمكة خير من المدينة ؟ فقال عبد الله : هي حرم الله وأمنه ، وفيها بيته ، فقال عمر : لا أقول في حرم الله ولا في بيت الله شيئاً ، ثم قال عمر : أنت القائل بمكة خير من المدينة ؟ فقال عبد الله : هي حرم الله وأمنه ، وفيها بيته ، فقال عمر : لا أقول في حرم الله ولا في بيت الله شيئاً ، ثم انصرف ، وفي رواية لرزين : فاشتد على ابن عياش ، فانصرف

ولا يرد أيضاً ما بمكة من مواضع النسك ؛ لتعلق النسك بالكعبة ، وأيضاً فقد عوض الله المدينة عن العمرة ما سيأتي في مسجد قباء ، وعن الحج ما سيأتي مرفوعاً « مَنْ خَرَجَ لَا يَرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِي حَتَّى يُصَلِّيَ فِيهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ حُجَّةٍ » ، وهذا أعظم ؛ لكونه أيسر ، ويتكرر في اليوم والليلة مراراً ، والحج لا يتكرر ، ويؤخذ منه أنه يضاف إلى ما جاء في المضاعفة بمسجدها الحجة لمن أخلص قصده للصلاة

ولا يرد أيضاً كونه صلى الله عليه وسلم أقام بمكة بعد النبوة أكثر من إقامته بالمدينة ، على الخلاف فيه ؛ لأن إقامته بالمدينة كان سبباً في إعزاز دين الله وإظهاره ، وبها تقررت الشرائع ، وفرضت غالب الفرائض ، وأكمل الله الدين ، واستقر بها صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة .

(۱) يربو : يزيد . (۲) انظر الموطأ (ص ۸۹ ط الحلبي سنة ۱۳۷۰)

وقد ثبت في محبته صلى الله عليه وسلم للمدينة ما لم يثبت مثله لمكة ، وحَثَّ عَلَى الإقامة والموت بها ، والصبر عَلَى لأوائها وشدتها ، كما ستقف عليه ، وسيأتى حديث « اللهم لا تجعل مَنَآيَنَا بِمَكَّة » وحديث « مَا عَلَى الأَرْض بقعة أَحَبُّ إِلَى من أن يكون قبرى بها منها » يعنى المدينة ، قالها ثلاث مرات .

وقد شرع الله لنا أن نحب ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه ، وأن نعظم ما كان يعظمه ، وإذا ثبت تفضيل الموت بالمدينة ثبت تفضيل سكنائها ، لأنه طريقه . هذا ، وقد روى الطبرانى فى الكبير والمفضل الجندى فى فضائل المدينة وغيرها عن رافع بن خديج رضى الله عنه قال : أشهد سمعت — وفى رواية « لسمعت » — رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المدينة خير من مكة » ، وفى إسناده محمد بن عبد الرحمن الرداد ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : كان يخطئ ، وقال أبو حاتم : ليس بقوى ، وقال أبو زرعة : لين ، وقال الأزدي : لا يكتب حديثه ، وقال ابن عدى : روايته ليست محفوظة ، ولهذا قال ابن عبد البر : هو حديث ضعيف ، وفيما قدمناه غنية عنه .

وفى الصحيحين حديث « إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » ويأرز كمسجد^(١) أى ينقبض ويجتمع وينضم ويلتجى ، وقد رأينا كل مؤمن له من نفسه سائق إلى المدينة لحبه فى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيشمل ذلك جميع الأزمنة ؛ لأنه فى زمنه صلى الله عليه وسلم للتعليم منه ، وفى زمن الصحابة والتابعين للاقتداء بهم ، ومن بعد ذلك لزيارته ، وفضل بلده ، والتبرك بمشاهدة آثاره ، والاتباع له فى سكنائها .

ورويننا فى فضائل المدينة للجندى حديث « يوشك الإيمان أن يأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها » يعنى يرجع إليها الإيمان .

(١) قوله « كمسجد » الأولى أن يقال « كيضرب » ، وانظر ص ١١

الهامشة رقم ٢ .

وَأَسَدُ بْنُ زَبَالَةَ حَدِيثُ « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحَازَ الْإِيمَانُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا يَحُوزُ السَّيْلُ الدَّمَنَ » .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْأَسْمَاءِ ^(۱) حَدِيثُ الصَّحِيحِينَ « أَمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقَرْيَ ، يَقُولُونَ يَتْرَبُ وَهِيَ الْمَدِينَةُ » قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ : يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِأَكْلِهَا الْقَرْيَ غَلَبَةً فَضْلُهَا عَلَى فَضْلِ غَيْرِهَا ؛ فَمَعْنَاهُ أَنَّ الْفَضَائِلَ نَضْمَحِلُّ فِي جَنْبِ عَظِيمِ فَضْلِهَا حَتَّى تَكَادَ تَكُونُ عَدَمًا ، وَهَذَا أَبْلَغُ مِنْ تَسْمِيَةِ مَكَّةَ « أُمَّ الْقَرْيِ » ؛ لِأَنَّ الْأُمُومَةَ لَا تَنْمُحِي مَعَهَا مَا هِيَ لَهُ أُمٌ ، لَكِنْ يَكُونُ لَهَا حَقُّ الْأُمُومَةِ ، انْتَهَى . وَجِزْمُ الْقَاضِي عَبْدِ الْوَهَّابِ بِهَذَا الْإِحْتِمَالِ .

وَرَوَى الْبَزَارُ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدِيثُ « إِنْ الشَّيَاطِينُ قَدْ يَثُتْ أَنْ تَعْبُدَ بِلَدِي هَذَا » يَعْنِي الْمَدِينَةَ « وَبِحَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَلَكِنْ التَّحْرِيشُ بَيْنَهُمْ » وَلَهُ أَصْلٌ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ .

وَرَوَى أَبُو يَعْلَى بِسَنَدٍ فِيهِ مَنْ اخْتَلَفَ فِي تَوَثُّقِهِ وَبَقِيَّةُ رَجَالِهِ نَقَاتٍ عَنِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمَدِينَةِ فَالْتَفَتَ إِلَيْهَا وَقَالَ : « إِنْ اللَّهُ قَدْ بَرَّأَ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ مِنَ الشَّرِكِ » وَفِي رِوَايَةٍ « إِنْ اللَّهُ قَدْ طَهَّرَ هَذِهِ الْقَرْيَةَ مِنَ الشَّرِكِ » ، إِنْ لَمْ تَضْلَهُمُ النُّجُومُ ، قَالَ : يُنْزِلُ اللَّهُ الْغَيْثَ ، فَيَقُولُونَ : مُطَرِّئًا بِنَوَاءٍ ^(۲) كَذَا وَكَذَا » وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْأَسْمَاءِ تَسْمِيَتُهَا بِالْمُؤْمِنَةِ وَالْمُسَلِّمَةِ ، وَأَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ إِجْرَائِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ فَهُوَ مُقْتَضٍ لِلتَّفْضِيلِ ، سِيَمَا وَسَبَبِهِ مَا سَبَقَ مِنْ كَوْنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُلِقَ مِنْ تَرَبُّتِهَا .

وَقَدْ اسْتَدَلَّ أَبُو بَكْرٍ الْأَبْهَرِيُّ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ عَلَى تَفْضِيلِهَا عَلَى مَكَّةَ بِمَا سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَخَافِقُ مِنْ تَرَابِ الْمَدِينَةِ ، وَهُوَ أَفْضَلُ الْبَشَرِ ، فَكَانَتْ تَرَبُّتُهُ أَفْضَلُ التَّرَبِّ . قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ : وَكَوْنُ تَرَبُّتِهِ أَفْضَلَ التَّرَبِّ لَا نِزَاعَ فِيهِ ، وَإِنَّمَا النِّزَاعُ هَلْ يَلْزِمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ الْمَدِينَةُ أَفْضَلَ مِنْ

(۱) انظر ص ۱۱ السطر ۳ .

(۲) النوء : أن يسقط نجم في المغرب مع الفجر ويطلع رقبته من ساعته .

مكة لأن المجاور للشيء لو ثبت له جميع مزاياه لكان لجار ذلك المجاور نحو ذلك ؛
فيلزم أن يكون ما جاور المدينة أفضل من مكة ، وليس كذلك اتفاقاً ، كذا
أجاب به بعض المتقدمين ، وفيه نظر ، انتهى .

قلت : لم يبين وجه النظر ، ولعل وجهه أن الأفضل لقوة أصالته في الفضل
يفيد مجاوره الأفضلية لمزية هذه المجاورة الخاصة ، وهي منتفية عن مجاور المجاور ،
الأتري أن جلد المصحف قد ثبت له مزية التعظيم للمجاورة ، ولم يلزم من ذلك
ثبوت نحوها لمجاوره ، وأيضاً فالمقتضى لتفضيل المدينة خلقه صلى الله عليه وسلم
من تربتها ، وهذا لا يوجد لمجاورها ، والله أعلم .

الفصل الثاني

في الحث على الإقامة بها ، والصبر على لأوائها وشدتها ، وكونها تنفي الخبث
والذنوب ، ووعد من أرادها وأهلها بسوء أو أحدث بها حدثاً أو آوى محدثاً .

روينا في الصحيحين حديث « مَنْ صَبَرَ عَلَى الْأَوَائِهَا وَشَدَّتْهَا كُنْتُ لَهُ شَهِيداً » وعد من صبر
أو شفيعاً يوم القيامة .

وفي صحيح مسلم عن سعيد مولى المهري أنه جاء إلى أبي سعيد الخدري ليألى
الحرة ، فاستشاره في الجلاء من المدينة ، وشكا إليه أسعارها وكثرة عيالها ، وأخبره
أن لا صَبْرَ له على جَهْدِ المدينة ولأوائها ، فقال : ويحك ! لا آمرك بذلك ، إني
سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يصبر » وفي رواية « لا يثبت أحدٌ على
لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة » وفي رواية « فقال أبو سعيد :
لا تفعل ، الزم المدينة » وذكر الحديث بزيادة قصة .

وفي مسلم وفي الموطأ والترمذي عن يُحَنَسٍ^(١) مولى مصعب بن الزبير أنه كان

(١) يحنس : بضم الياء المثناة وفتح الحاء المهملة ، وبعدها نون مشددة مكسورة
أو مفتوحة ، وآخره سين مهملة أو شين معجمة ، ووقع في المطبوعات « يحيس »
تطبيع (وانظر الموطأ ٨٨٥ وخلاصة الخزر جى ٤٤٢)

جالساً عند ابن عمر في الفتنة، فأتته مولاة [له] تسلم عليه، فقالت : إني أردت الخروج
يا أبا عبد الرحمن ، اشتدَّ علينا الزمان ، فقال لها عبدُ الله : اقعدى لكاع^(١) ،
ولفظ الترمذى : اصبرى لكاع^(١) . فإني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول : « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً
يوم القيامة » .

فإن قيل : ما معنى التردد في قوله « شفيعاً أو شهيداً » ؟ وما معنى هذه الشفاعة
مع عموم شفاعته صلى الله عليه وسلم ؟

قلنا : ذكر عياض ما ملخصه أن بعض مشايخه جعل «أو» للشك من الراوى ،
وأن الظاهر خلافه لكثرة روايته بذلك ، بل الظاهر أنه من لفظه صلى الله عليه وسلم ،
فإما أن يكون أعلم بهذه الجملة هكذا ، وإما أن تكون «أو» للتقسيم ، ويكون شفيعاً
للعاصين وشهيداً للمطيعين ، أو شهيداً لمن مات في حياته وشفيعاً لمن مات بعده ،
قال : وهذه الشفاعة أو الشهادة زائدة على الشفاعة للمذنبين أو للعاملين في القيامة
وعلى شهادته على جميع الأمم ، فيكون لتخصيصهم بذلك مزية وزيادة منزلة وحظوة
قال : ويحتمل أن يكون «أو» بمعنى الواو ، قلت : ويدل له ما رواه البراء بن رباح
الصحيح عن عمر رضى الله عنه بلفظ « فمن صبر على لأوائها وشدتها كنت له شفيعاً
وشهيداً يوم القيامة » وأسند ابن النجار بلفظ « كنت له شفيعاً وكنت له شهيداً
يوم القيامة » وأسنده المفضل الجندى في فضائل المدينة عن أبي هريرة أيضاً بلفظ
« لا يصبر أحد على لأواء المدينة » وفي نسخة « وحرها إلا كنت له شفيعاً وشهيداً »
قال القاضي : وإذا جعلنا «أو» للشك فإن كانت اللفظة شهيداً فالشهادة أمر زائد على
الشفاعة المجردة المدخرة لغيرهم من الأمة ، وإن كانت اللفظة شفيعاً فهذه شفاعة غير
العامة تكون لأهل المدينة بزيادة الدرجات أو تخفيف الحساب أو بإكرامهم يوم

(١) لكاع : كلمة تدكر لسبب الأثني ، وهى مبنية على الكسر ، ومعناها :
يا حمقاء ، أو يامن لا تتجهين لمنطق ولا غيره ، وفي الموطأ (٨٨٦) « اقعدى لكع »

القيامة بأنواع من الكرامات كما يوافقهم في ظلّ العرش أو كونهم في روح^(١) وعلى منابر أو الإسراع بهم إلى الجنة أو غير ذلك من خصوص الكرامات . قلت : ويحتمل أن يجمع لهم ببركة شفاعته صلى الله عليه وسلم أو شهادته الخاصة بين ذلك كله ؛ فالجاء عظيم ، والكرم واسع ، وتأكيده الوصية بالجار يؤيد ذلك ، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد مع ذلك البشرى بموتهم على الإسلام ؛ لأن شفاعته وشهادته صلى الله عليه وسلم المذكورة خاصة بالمسلمين ، وكفى بذلك نعمة ومزية ، وسيأتي الإشارة إلى نحو ذلك في أول الباب الثامن .

وفي الموطأ والصحيحين حديث « تفتح اليمن فيأتي قوم يبدشون فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » الحديث . وقوله « ييسون » بفتح المثناة التحتية أوله وضم الباء الموحدة وكسرهما ، ويقال أيضاً بضم المثناة وكسر الموحدة — يسوقون بهائمهم سوقاً شديداً ، وقيل : البس : سرعة الذهاب .

وفي مسلم حديث « يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه أو قريبه : المدينة هلم إلى الرخاء ، هلم إلى الرخاء ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، والذي نفسي بيده لا يخرج أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه ، ألا إن المدينة كالـكـير^(٢) تخرج الخبث ، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد » .

وفي الصحيحين « أمرت بقرية تأكل القرى ، يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد » وفي رواية لابن زبالة « إن المدينة تنفي خبث الرجال » وفي رواية « خبث أهلها كما ينفي الكير خبث الحديد » .

(١) الروح — بفتح الراء وسكون الواو — الراحة والرحمة ، وقوله « على منابر » أي من نور كما ورد في حديث .

(٢) الكير — بكسر الكاف — زق ينفع فيه الحداد (المنفاخ)

وفي صحيح البخارى حديث « إنها طيبة تنفى الذنوب كما ينفى الكبر خبث الفضة » .

وفي الصحيحين قصة الأعرابي الذى جاء من الغد محموما فقال : أِقْلَنِي بيعتى ، فأبى صلى الله عليه وسلم ، فخرج الأعرابي ، فقال صلى الله عليه وسلم « إنما المدينة كالكبر تنفى خبثها وتنصع طيبها » .

قوله « أقلنى بيعتى » أى انقض العهد حتى أرجع إلى وطنى ، وكأنه كان قد بايع على هجرة الإقامة . وقوله « تنفى خبثها » يحتمل أن يكون بمعنى الطرد والإبعاد لأهل الخبث ، وقصة الأعرابي المذكور ظاهرة فيه ، وخصه ابن عبد البر بزمه صلى الله عليه وسلم ، والظاهر كما قال النووى عدم التخصيص ؛ ففى الصحيح « لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شرارها » يعنى عند ظهور الدجال ، وسيأتى فى الفصل الخامس فى حديث أحمد وغيره برجال الصحيح قصة خروج من بالمدينة من المنافقين إلى الدجال ، ثم قال « وذلك يوم التخليص ، ذلك يوم تنفى المدينة الخبث » وقال عمر بن عبد العزيز مشفقاً إذ خرج منها من معه : أتخشى أن نكون ممن نفت المدينة ؟ وقد طهرها الله تعالى ممن كان بها من أرباب الأديان المخالفين لدين الإسلام ، وأهلك من كان بها من المنافقين ، وهؤلاء هم أهل الخبث الكامل ، ومن عداهم من أهل الخبث والذنوب قد يكون طرده وإبعاده إن استمر على ذلك بآخرة الأمر بنقل الملائكة له إلى غيرها من الأرض كما أشار إليه الأقرشى قال : ويكون قوله « تنفى خبثها ، وتنفى الذنوب » أى أهل ذلك ، على طريقة حذف المضاف ، ويحتمل أن يكون بمعنى طرد أهل الخبث الكامل ، وهم أهل الشقاء والكفر ، لا أهل السعادة والإسلام ؛ لأن القسم الأول ليس قابلاً للشفاعة ولا المغفرة ، وقد وعد صلى الله عليه وسلم من يموت بها بالشفاعة [لهذا] ^(١) وجب انتفاء القسم الأول منها ، ويحتمل أن يكون بمعنى تخليص النفوس من شرها وميلها إلى اللذات

(١) زيادة يستدعيها اتساق الكلام

بما فيها من اللأواء والشدة ، ويؤيده رواية « إنها طيبة تنفى الذنوب » الحديث ، ويكون نفيها للذنوب على ظاهره ، سيما وقد اشتملت على عظيم المضاعفات ، وتنوع المثوبات ، وتوالي الرحمت ، وقد قال تعالى : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ »^(١) مع ما لأهلها من الشفاعة والشهادة الخاصة ، وما بها من تضاعف البركات ، ويحتمل أن يكون بمعنى أنه لا يخفى حال من انطوى فيها على خبث ، بل تظهر طويته كما هو مُشاهد بها ، ولم أر الآن مَنْ نَصَّ على هذا الاحتمال ، وهو في حفظي قديماً ، ويؤيده ما في غزوة أحد في الصحيح من أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى أحد رَجَعَ ناس من أصحابه - أى وهم المنافقون - فقال صلى الله عليه وسلم : « المدينة كالِكَبِيرِ » الحديث ، ولهذا سميت بالفاضحة كما قدمته ، مع أن الذى ظهر لى من مجموع الأحاديث واستقراء أحوال هذه البلدة الشريفة أنها تنفى خبثها بالمعاني الأربعة .

وقوله « وتنصع » بالفوقانية المفتوحة والنون والمهملتين كتنصع - أى تخلص ، والناصع : الخالص الصافى ، و « طيبها » بفتح الطاء والتشديد منصوباً على أنه مفعول هذا هو المشهور فيه ، والله أعلم .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر فى تحريم المدينة مرفوعاً « ولا يريدُ وعيد من أراد أهلها بسوء »
أحدُ أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله فى النار ذوب الرصاص ، أو ذوب الملح فى الماء .

قال عياض : قوله « فى النار » يدفع إشكال الأحاديث التى لم تذكر فيها هذه الزيادة ، ويبين أن هذا حكمه فى الآخرة . قال : وقد يكون المراد به أن مَنْ أرادها فى حياة النبی صلى الله عليه وسلم كفى المسلمون أمره ، وضمحل كيده كما يضمحل الرصاص فى النار . قال : ويحتمل أن يكون المراد مَنْ كادها اغتيالاً

(١) من سورة هود من الآية ١١٤ .

وطلبنا لغرتها فلا يتم له أمر ، بخلاف مَنْ أتى ذلك جهاراً . قال : وقد يكون في اللفظ تقديم وتأخير : أى أذابه الله كذب الرصاص في النار ، ويكون ذلك لمن أرادها في الدنيا فلا يمهله الله ولا يمكن له سلطاناً ، بل يذهب عنه قرب ، كما انقضى شأن مَنْ حاربها أيام بنى أمية مثل مسلم بن عقبة^(١) ، فأهلك في منصرفه منها . ثم هلك يزيد بن معاوية مُرسِله على أثر ذلك ، وغيرها ممن صنع صنيعهما ، انتهى .

وهذا الاحتمال الأخير هو الأرجح ، وليس في الحديث ما يقتضى أنه لا يتم له ما أراد منهم ، بل الوعد بإهلاكه ، ولم يزل شأن المدينة على هذا حتى في زماننا هذا لما تظاهرت طائفة العياشى بإرادة السوء بالمدينة الشريفة لأمر اقتضى خروجهم منها حتى أهلك الله تعالى عُتَاتهم مع كثرتهم في مدة يسيرة

وقد يقال : المراد من الأحاديث الجمع بين إذابته بالإهلاك في الدنيا وبين إذابته في النار في الأخرى ، والمذكور في هذا الحديث هو الثانى ، وفي غيره الأول ؛ ففي رواية لأحمد برجال الصحيح من جملة حديث « من أرادها بسوء » يعنى المدينة « أذابه الله كما يذوب الملح في الماء » وكذا في مسلم أيضاً ، وفي فضائل المدينة للجندي حديث « أيما جَبَّارٍ أراد المدينة بسوء أذابه الله تعالى كما يذوب الملح في الماء » وفي رواية لمسلم « مَنْ أراد أهل هذه البلدة بسوء - يعنى المدينة - أذابه الله تعالى كما يذوب الملح في الماء » وفي رواية له أيضاً « مَنْ أراد أهل هذه البلدة بدَّهْمٍ أو بسوء » ، وروى البزار بإسناد حسن حديث : « اللهم أكفهم مَنْ

(١) مسلم بن عقبة المرى : هو الذى سموه فيما بعد « مسرفاً » وهو الذى أرسله يزيد بن معاوية لحرب أهل المدينة ، وكانوا قد دخلوا يزيد ، وأخرجوا عامله عثمان بن محمد بن أبى سفيان ، وأمروا عليهم عبيد الله بن حنظلة ، ووقعة مسلم بأهل المدينة تسمى « وقعة الحرة » وقد مات بالمشلل - وقيل : بثنية هرشى - منصرفه عن المدينة قاصداً مكة لقتال عبد الله بن الزبير بن العوام ، في سنة ٦٤ من الهجرة .

دَهَمَهُمْ بِأَسْ « يعنى أهل المدينة » ولا يريد بها أحدٌ بسوء إلا أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء .

وقوله « دَهَمَهُمْ » محركا أى غشيهم بسرعة ، وقوله فى الحديث قبله « بدهم » بفتح أوله وإسكان ثانيه - أى بغائلة وأمر عظيم ، ولذا قيل : المراد غازيا مُغيرا عليها .

وفى البخارى حديث « لا يكيد أهل المدينة أحدٌ إلا انماع ^(١) » كما ينماع الملح فى الماء « وأسند ابن زبالة عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف على المدينة فرفع يديه حتى رأى عُفْرَةَ إِبْطِيهِ ثُمَّ قَالَ « اللَّهُمَّ مَنْ أَرَادَنِي وَأَهْلَ بَلَدِي بِسُوءٍ فَعَجَّلْ هَلَاكَهُ » وروى الطبرانى فى الأوسط برجال الصحيح حديث « اللَّهُمَّ مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَأَخَافَهُمْ فَأَخِفْهُ وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ ^(٢) وَلَا عَدْلٌ » وفى رواية لغيره « مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَخَافَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَغَضِبَ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ صَرْفًا ^(٣) وَلَا عَدْلًا » وروى النسائى حديث « مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ظَالِمًا لَهُمْ أَخَافَهُ اللَّهُ . وَكَانَتْ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ » الحديث ، ولابن حبان نحوه ، وروى أحمد برجال الصحيح عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما أن أميرا من أمراء الفتن قدم المدينة . وكان قد ذهب بصرف جابر ، فقبل لجابر : لو تنحيت عنه ^(٣) ، فخرج يمشى بين ابنيه . فنكب ، فقال : تَعِسَ مَنْ أَخَافَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! فقال ابنه ، أو أحدهما : يَا أَبَتِ ، فَكَيْفَ أَخَافَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ مَاتَ ؟ فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَقَدْ أَخَافَ مَا بَيْنَ جَنْبَيَّ » .

(١) انماع ينماع : ذاب يذوب .

(٢) الصرف - بفتح فسكون - التوبة ، أو الفدية ، أو النافلة ، وسيأتى للشارح

تفسيره ص ٤٧ . (٣) تنحيت عنه : ابتعدت .

قلت : والظاهر أن الأمير المُشار إليه هو بُسر بن أرطاة

بسر بن أرطاة
يغزو المدينة

قال القرطبي : ذكر في رواية ابن عبد البر أن معاوية رضى الله عنه بعد تحكيم الحكيم
أرسل بُسر بن أرطاة في جيش ، فقدموا المدينة ، وعامِلها يومئذٍ على رضى الله عنه
أبو أيوب الأنصاري - رضى الله عنه ! - فقرأ أبو أيوب وحقق بعلي ، ودخل بُسر المدينة ،
وقال لأهلها : والله لو لا ما عهد إلى أمير المؤمنين ما تركت فيها محتلماً ^(١) إلا قتلته ،
ثم أمر أهل المدينة بالبيعة معاوية ، وأرسل إلى بني سلمة فقال : ما لكم عندى أمان
ولا مبايعة حتى تأتونى بجبر بن عبد الله ، فأخبر جابر ، فانطلق حتى جاء أم سلمة
زوجة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : ماذا ترى فى ابني أخشى أن أقتل . وهذه
بيعة ضلال . فقالت : أرى أن تبائع . وقد أمرت ابني عمر بن أبي سلمة أن
يبائع . فأتى جابر بُسراً فبايعه ، وهدم بسر دوراً بالمدينة ، ثم انطلق .

وفي رواية ستأتي في الفصل الخامس عشر أن أهل المدينة فرّوا يومئذٍ حتى
دخلوا الحرّة حرّة بني سليم ^(٢) ، والله أعلم .

وفي الكبير للطبراني حديث « مَنْ آذَى أَهْلَ الْمَدِينَةِ آذَاهُ اللَّهُ ، وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ
اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ » .
وروى ابن النجار حديث « مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ ظُلْمًا أَخَافَهُ اللَّهُ ، وَعَلَيْهِ
لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا »
والأحاديث في هذا الباب كثيرة .

وفي الصحيحين في أحاديث تحريم المدينة « فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَّثًا أَوْ آوَى
مُحَدِّثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا
حَدَّثًا

وعيد من
أحدث بها
حدثاً

(١) محتملاً : أى بالغاً .

(٢) وقع في كل المطبوعات « بسر بن أرطاة » بالشين المعجمة في كل المواضع
- تطبيع ، وانظر ابن الأثير (الكامل ١٦٦/٣ بولاق) .

ولا عدلاً» ولفظ البخارى « لا يُقْبَلُ منه صرف ولا عدل » قيل : الصَّرْفُ الفريضة ، والعدل التطوع ، ونقل عن الجمهور ، وقيل عكسه ، وقيل : الصرف التوبة ، والعدل الفدية ، قيل : والمعنى لا يقبل الله فريضته وناقلته أو توبته قبول رِضاً ، ولا يجد في القيامة فداء يفتدى به من يهودى أو نصرانى ، بخلاف سائر المذنبين ، وقيل غير ذلك ، ومعنى هذا اللعن المبالغة في الإبعاد عن رحمة الله تعالى والطرد عن الجنة أول الأمر لأنه كلعن الكفار .

قال القاضى : ومعنى قوله « مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَّثًا إِلَى آخِرِهِ » من أتى فيها إثماً أو آوى مَنْ أتاها وضمه إليه وحماه ، وآوى بالمد والقصر ، قال : واستدلوا به على أن ذلك من الكبائر ؛ لأن اللعنة لا تكون إلا في كبيرة .

قلت : فيستفاد منه أن إثم الصغيرة بها كإثم الكبيرة بغيرها ؛ لِصِدْقِ الإِثْمِ بها ، بل نقل الزركشى عن مالك رحمه الله ما يقتضى شمول الحديث المذكور المكروه كما بيناه في الأصل ، وذلك لأن الإساءة بحضور الملك ليست كالإساءة في أطراف المملكة ، وفقنا الله تعالى لحسن الأدب في هذه الحضرة الشريفة بمنه وكرمه !!

الفصل الثالث

في الحث على حفظ أهلها ، وإكرامهم ، والتحريض على الموت بها واتخاذ الأصل^(١) .

روينا في كتاب ابن النجار عن مَعْقِل بن يَسَار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدينة مُهَاجَرِي ، فيها مَضْجَعِي ، ومنها مَبْعَثِي ، حَقِيقٌ عَلَى أُمَّتِي حفظ جيرانى ما اجتنبوا الكبائر ، مَنْ حفظهم كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة ، ومن لم يحفظهم سُقِيَ من طينة الخبال » قيل للمزنى : ما طينة الخبال ؟ قال : عُصارة أهل النار . قلت : قال بعضهم : المراد بالمزنى مَعْقِل بن يسار ، وتفسير طينة الخبال بذلك رفعه مسلم ، والحديث في الكبير للطبرانى بسند فيه متروك ،

(١) الأصل : المال ، وانظر ص ٣ الهامشة ١

ولفظه « المدينة مهاجری ^(١) ومضجعی فی الأرض ، حق علی أمتی أن یکرّموا جیرانی ما اجتنبوا الکبائر ، فمن لم یفعل ذلك سقاه الله من طینة الخبال » قلنا : یا أبا یسار، وما طینة الخبال ؟ قال : عصارة أهل النار .

وروی القاضی أبو الحسن علی الهاشمی فی فوائده عن خارجة بن زید عن أبیه قال : قال رسول الله صلی الله علیه وسلم « المدينة مهاجری ^(١) وفيها مضجعی ، ومنها مخرجی . حق علی أمتی حفظ جیرانی فیها ، من حفظ وصیتی كنت له شهیداً یوم القيامة ، ومن ضیعها أوردده الله حوض الخبال . قیل : وما حوض الخبال یا رسول الله ؟ قال : حوض من صدید أهل النار .

وروی ابن زبالة عن عطاء بن یسار وغیره حدیث « إن الله جعل المدينة مهاجری ^(١) ، وبها مضجعی . ومنها مبعثی ، فحق علی أمتی حفظ جیرانی ما اجتنبوا الکبائر ، فمن حفظ فیهم حرمتی كنت له شفیعاً یوم القيامة ، ومن ضیع فیهم حرمتی أوردده الله حوض الخبال » . وفی رواية له « المدينة مهاجری ^(١) ، وبها وفاتی ، ومنه محشری ، وحقیق علی أمتی أن یحفظوا جیرانی ما اجتنبوا الکبیرة . من حفظ فیهم حرمتی كنت له شهیداً أو شفیعاً یوم القيامة » .

وفی مدارک عیاض قال محمد بن مسلمة : سمعت مالکاً یقول : دخلت علی المهدي فقال : أوصنی . فقلت : أوصیک بتقوی الله وحده ، والعطف علی أهل بلد رسول الله صلی الله علیه وسلم وجیرانه ؛ فإنه بلغنا أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قال « المدينة مهاجری ^(١) ، ومنها مبعثی ، وبها قبری ، وأهلها جیرانی ، وحقیق علی أمتی حفظ جیرانی ؛ فمن حفظهم فی كنت له شفیعاً أو شهیداً یوم القيامة ، ومن لم یحفظ وصیتی فی جیرانی سقاه الله من طینة الخبال » .

(١) مهاجری - بضم المیم وفتح الجیم - موضع هجری

وروى مالك في الموطأ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان جالساً وقبرٌ يُحْفَرُ بالمدينة ، فاطَّلَعَ رجل في القبر فقال : بئس مضجع المؤمن ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بئس ما قلت » قال الرجل : إني لم أرد هذا ، إنما أردتُ القتلَ في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا مثْلَ للقتل في سبيل الله ، ما على الأرض بُقْعَةٌ أحب إليّ من أن يكون قبري بها منها » يعني المدينة ، ثلاث مرات (١) .

وروى ابن شَبَّه في أخبار مكة عن سعيد بن أبي هند قال : سمعت أبي يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان إذا دخل مكة قال : اللهم لا تجعل منايانا (٢) بمكة حتى نخرج منها » ورواه أحمد في مسنده برجال الصحيح عن ابن عمر مرفوعاً ، إلا أنه قال « حتى تُخْرِجَنَا منها » .

وروى مالك والبخاري ورزّين العبدري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : اللهم ارزقني شهادةً في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسولك ، زاد رزين أن ذلك كان من أجل (٣) دعاء عمر .

وسَبَقَ ما جاء في أن الإنسان يُدْفَن في التربة التي خلق منها ؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم وأكثَر أصحابه وأفضلهم خلقوا من تربة المدينة ، وقد ثبت حديث « من مات بالمدينة كنت له شفيعاً يوم القيامة » ورواه البيهقي بلفظ « من استطاع أن يموت بالمدينة فَلَيِّمْتُ ، فمن مات بالمدينة كنت له شفيعاً وشهيداً » وفي رواية له « فإنه مَنْ يَمُتْ بها أَشْفَعُ له ، أو أشهد له » وقد ذكر هذه الرواية ابن حبان في صحيحه .

وروى الترمذي وابن حبان في صحيحه وابن ماجّة والبيهقي وعبد الحق

(١) انظر الموطأ (ص ٦٢ ط الحلبي) قال ابن عبد البر : هذا الحديث لا أحفظه مسنداً ، ولكن معناه موجود من رواية مالك وغيره .

(٢) الناي : جمع منية ، وهي الموت . (٣) أجل دعاء عمر : أكثره وأعظمه .

وصححه حديث « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها ، فإنى أشفع لمن يموت بها » ولفظ ابن ماجه « فإنى أشهد » بدل « فإنى أشفع » ورواه الطبرانى فى الكبير بسند حسن ، ولفظه « من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليمت ؛ فإنه من مات بها كنت له شهيداً - أو شفيعاً - يوم القيامة » ورواه ابن رزین بنحوه ، وزاد « وإنى أول من تَنَشَّقُ عنه الأرض ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم آتى أهل البقيع فيحشرون ، ثم أنتظر أهل مكة فأحشر بين أهل الحرمين » وفى روايه لابن النجار « فأخرج أنا وأبو بكر وعمر إلى البقيع فيبعثون ، ثم يبعث أهل مكة » . وروى الطبرانى حديث « أول من أشفع له من أمتى أهل المدينة ، ثم أهل مكة ، ثم أهل الطائف » وأخرجه الترمذى بالواو بدل ثم ، وسيأتى فى فضل البقيع زيادة تتعلق بذلك .

وبالجملة فالترغيب فى الموت فى المدينة لم يثبت مثله لغيرها ، والسكنى بها وُصلة إليه ؛ فيكون ترغيباً فى سكنائها ، وتفضيلاً لها على غيرها ، واختيار سكنائها هو المعروف من حال السلف ، ولا شك أن الإقامة بالمدينة فى حياته صلى الله عليه وسلم أفضل إجماعاً ، فنستصحب ذلك بعد وفاته حتى يثبت إجماع مثله برفعه . وأسند ابن شبة فى أخبار مكة عن إسماعيل بن سالم قال : سألت عامراً عن فتياً أفتى بها حبيب بن أبى ثابت ، فقال : ألا يفتى حبيب نفسه حيث نزل مكة وهى قرية أعرابية ، ولأن أنزل دوران^(۱) أحب من إلى من أن أنزل مكة ، وهى قرية هاجر منها النبى صلى الله عليه وسلم .

وعن الشعبى أنه كان يكره المقام بمكة ، ويقول : هى دار أعرابية ، هاجر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : ألا يفتى حبيب نفسه حيث يجاور بمكة وهى دار أعرابية ، وقال عبد الرزاق فى مصنفه : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحجون ثم يرجعون ، ويعتَمرون ثم يرجعون ، ولا يجاورون .

(۱) دوران كوران : عند طرف قديد ، ذكره المصنف فى خلاصة الوفا ۲۱ .

قلت: ولم أظفر عن السلف بنقل في كراهة المجاورة بالمدينة الشريفة ، بخلاف مكة ، لكن اقتضى كلام النووي في شرح مسلم حكاية الخلاف فيها ، وكأنه قاس المدينة على مكة من حيث إن علة الكراهة وهي خوف الملل وقلة الحرمة للأنس وخوف ملابس الذنوب لأن الذنب بها أقبح ، ونحوه موجود بالمدينة ، ولهذا قال : والمختار أن المجاورة بهما جميعاً مستحبة إلا أن يغلب على ظنه الوقوع في المحذورت المذكورة .

وقال الزركشي عقب نقل كلام النووي : إن الظاهر ضعف الخلاف في المدينة : أى لما قدمناه من الترغيب فيها ، ولأن كل من كره المجاورة بمكة استدل بترك الصحابة الجوار بها ، بخلاف المدينة فكانوا يحرسون على الإقامة بها ، وقد روى الطبراني في الأوسط حديث « من غاب عن المدينة ثلاثة أيام جاءها وقلبه مُشربٌ جَفْوَةً » وأسند ابن أبي حثمة حديث « من كان له بالمدينة أصل فليتمسك به ، ومن لم يكن له بها أصل فليجعل له بها أصلاً ولو قصرَةً » قال ابن الأثير: القصرة محرّكة أصل الشجرة ، أى ولو نخلة واحدة ، والقصرة أيضاً : العنق ، وقال الخطابي: القصرة النخلة ، وقرأ الحسن « إنها ترمى بشرر كالقصر » وفسروه بأعناق النخل ، ورواه الطبراني في الكبير بلفظه إلى قوله « فليجعل له بها أصلاً » وقال عقبه : « فليأتين على الناس زمان يكون الذى ليس له بها أصل كالخارج منها المجتاز إلى غيرها » ورواه ابن شبة أيضاً بنحوه ، ثم أسند عن الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لاتتخذوا الأموال بمكة ، واتخذوها فى دار هجرتكم ؛ فإن المرء مع ماله » وأسند أيضاً عن ابن عمر حديث « لاتتخذوا من وراء الروحاء مالا ، ولا تردوا على أعقابكم بعد الهجرة ولا تُنكِحُوا بناتكم طَلقاء أهل مكة ، وأنكحوهن بأترابهن فأترابهن » أى مستويات فى السن فى ثلاث وثلاثين سنة .

وهذا كله متضمن للحث على سكنى المدينة وتفضيله على سكنى مكة ، وهى جديرة بذلك ؛ لأن الله تعالى اختارها لنبيه صلى الله عليه وسلم فرّارا ، وجعل أهلها

شيعة له وأنصارا ، وكانت لهم أوطانا ، ولو لم يكن إلا جواره صلى الله عليه وسلم بها وقد قال صلى الله عليه وسلم « ما زال جبريل يوصيني بالجار » الحديث (١) ، ولم يخص جارا دون جار ، ولا يخرج أحد عن حكم الجار وإن جار ، ولهذا اخترت تفضيل سكنها على مكة ، مع تسليم مزيد المضاعفة لمكة ؛ إذ جهة الفضل غير منحصرة في ذلك ؛ فذلك لها مزيد العدد ، ولهذا تضاعف البركة والمدد ، وتلك جوار بيت الله ، ولهذا جوار حبيب الله وأكرم الخلق على الله ، سر الوجود ، والبركة الشاملة لكل موجود

قال عياض في المدارك : قال مُصْعَب : ما قدم المهدي المدينة استقبله مالك وغيره من أشرافها على أميان ، فلما بصر بمالك انحرف المهدي إليه فعانقه وسلم عليه وسأله ، فالتفت ملك إلى المهدي فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك تدخل الآن المدينة فتعمر بقوم عن يمينك ويسارك ، وهم أولاد المهاجرين والأنصار ، فسلم عليهم ؛ فإنه ما على وجه الأرض قوم خير من أهل المدينة ، ولا خير من المدينة ، قال : ومن أين قلت ذلك يا أبا عبد الله ؟ فقال : إنه لا يعرف قبر نبي اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن كان قبر محمد صلى الله عليه وسلم عندهم فينبغي أن يعرف فضلهم على غيرهم ، ففعل المهدي ما أمره به ، فأشار ملك - رحمه الله - إلى أن المقتضى للتفضيل هو وجود قبر النبي صلى الله عليه وسلم بها ، ومجاورة أهلها له

الفصل الرابع

في بعض دعائه صلى الله عليه وسلم لها ولأهلها ، وما كان بها من الوباء ، ونقله رويناه في الصحيحين حديث « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد » ورواه رزين العبدري والجندي بالواو بدل «أو» مع أن أوفى تلك الرواية بمعنى بل ، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم في محبة المدينة ما لم يرد مثله لمكة ؛ ففي صحيح

حب النبي
صلى الله
عليه وسلم
للمدينة

(١) تتمته « حتى ظننت أنه سيورثه » .

البخاری وجامع الترمذی حدیث « کان رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أو وضع راحلته^(۱) ، وإن كان على دابةٍ حركها من حبها » وفي روايه لابن زبالة « تباشراً بالمدينة » ، وفي رواية له « كان إذا أقبل من مكة فكان بالأثنية طرح رداءه عن منكبيه وقال : هذه أرواح طيبة » وقد تكرر دعاؤه صلی اللہ علیہ وسلم بتحييب المدينة إليه كما سيأتي ، والظاهر أن الإجابة حصلت بالأول ، والتكرير لطلب الزيادة ، وفي كتاب الدعاء للمحاملي وغيره عن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلی اللہ علیہ وسلم أنه « كان إذا قدم من سفر من أسفاره فأقبل على المدينة يسير أتم السير ، ويقول : اللهم اجعل لنا بها قراراً ، ورزقاً حسناً »

وفي الصحيحين حديث « اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة » . وفي مسلم « اللهم بارك لنا في تمرنا ، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ، وبارك لنا في مدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليك ونبيك ، وإني عبدك ونبيك ، وإني دعائك لمكة ، وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعائك لمكة ومثله معه » وفيه أيضاً « اللهم بارك لنا في مدينتنا ، اللهم بارك لنا في صاعنا ، اللهم بارك لنا في مدنا ، اللهم بارك لنا في مدينتنا ، اللهم اجعل مع البركة بركتين » وفيه أيضاً وفي الترمذی حدیث « كان الناس إذا رأوا أول الثمرة جاءوا به إلى النبي صلی اللہ علیہ وسلم ، فإذا أخذه قال : اللهم بارك لنا في تمرنا ، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ، وبارك لنا في مدنا » الحديث ، وهو يقتضي تكرار هذا الدعاء بتكرار ظهور الثمرة والإتيان بأولها ، وفي الترمذی - وقال : حسن صحيح - عن علي رضي الله عنه « خرجنا مع رسول الله صلی اللہ علیہ وسلم حتى إذا كنا بحرة السقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص ، فقال رسول الله صلی اللہ علیہ وسلم : اثنوني بوضوء ، فتوضأ ثم قام فاستقبل القبلة فقال : اللهم إن إبراهيم كان عبدك

دُعَاةُ صَلي اللّٰه
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لِلْمَدِينَةِ بِالْبَرَكَةِ

(۱) الإيضاح : الإسراع ، والمراد أنه كان يحملها على السرعة .

وخليلك ، ودعاك لأهل مكة بالبركة ، وأنا عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدّهم وصاعهم مثلي ما باركت لأهل مكة ، مع البركة بركتين» ورواه ابن شبة في أخبار مكة بنحوه ، إلا أنه قال : « حتى إذا كنا بالحرّة بالسقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتّوني بوضوء ، فلم توضحاً قام فاستقبل القبلة ثم قال » الحديث بنحوه ، ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد ، ولفظه « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كنا عند السقيا التي كانت لسعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إن إبراهيم عبدك و خليلك دعاك لأهل مكة بالبركة ، وأنا محمد عبدك ورسولك وإني أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في صاعهم ومدّهم مثل ما باركت لأهل مكة ، واجعل مع البركة بركتين » هكذا في النسخة التي وقعت لنا ، ولعله « مثلي » كما في الرواية السابقة ، ويؤخذ منه الإشارة إلى أن المدعو به ستة أضعاف ما بمكة من البركة ، وفي حديث رواه ابن زبالة عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم « خرج إلى ناحية من المدينة ، وخرجت معه ، فاستقبل القبلة ورفع يديه حتى إني لأرى بياض ما تحت منكبيه ، ثم قال : اللهم إن إبراهيم نبيك و خليلك دعاك لأهل مكة ، وأنا نبيك ورسولك أدعوك لأهل المدينة ، اللهم بارك لهم في مدّهم وصاعهم ، وقليلهم وكثيرهم ، ضعفي ما باركت لأهل مكة ، اللهم من ههنا وههنا وههنا ، حتى أشار إلى نواحي الأرض كلها ، اللهم من أرادهم بسوء فأذبه كما يذوب الملح في الماء » وفي الأوسط للطبراني ورجاله ثقات عن ابن عمر قال : « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر ، ثم أقبل على القوم فقال : اللهم بارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في مدنا وصاعنا » الحديث ، وفي الكبير له ورجاله ثقات عن ابن عباس نحوه ، وروى أحمد والبزار وإسناده حسن عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر يوماً إلى الشام فقال : اللهم أقبل بقلوبهم ، ونظر إلى العراق فقال : اللهم مثل ذلك ، ونظر قبل كل أفق ففعل ذلك ، وقال :

اللهم ارزقنا من ثمرات الأرض ، وبارك لنا في مدنا وصاعنا » وفي الصحيحين حديث « اللهم بارك لهم في مكيالهم ، وبارك لهم في صاعهم ، وبارك لهم في مدهم » قال القاضي في الكلام عليه : البركة هنا بمعنى النُّمُو والزيادة ، وتكون بمعنى الثبات ، فقيل : يحتمل أن تكون هذه البركة دينية ، وهى ما تتعلق بهذه المقادير في الزكاة والكفارات ؛ فتكون بمعنى الثبات لثبات الحكم بها وبقائه ببقاء الشريعة ، ويحتمل أن تكون دنيوية من تكثير الكيل والقدر بهذه الأكيال حتى يكفي منه مالا يكفي من غيره في غير المدينة ، أو ترجع البركة إلى كثرة ما يكال بها من غلاتها وثمراتها ، وفي هذا كله ظهر إجابة دعوته صلى الله عليه وسلم ، وقال النووي : الظاهر أن المراد البركة في نفس المكيل في المدينة ، بحيث يكفي المد فيها لمن لا يكفيه في غيرها . قلت : هذا هو الظاهر فيما يتعلق بأحاديث الكيل ، وأما غيرها فعلى عمومها في سائر الأمور الدينية والدنيوية . وروينا في فضائل المدينة للجندى حديث : « اللهم حبِّبْ إلينا المدينة ، كحبنا مكة وأشده ، وصحِّحْهَا لنا ، وبارك لنا في مدَّهَا وصاعها ، وانقل حُجَّاهَا ، واجعلها بالْجُحْفَةِ » وروى أحمد برجال الصحيح عن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم « صَلَّى بِأَرْضِ سَعْدٍ بِأَصْلِ الْحَرَّةِ عِنْدَ بَيْوتِ السَّقِيَا ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَكَ وَعَبْدَكَ وَنَبِيَّكَ دَعَاكَ لِأَهْلِ مَكَّةَ ، وَأَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ أَدْعُوكَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مِثْلَ مَا دَعَاكَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِمَكَّةَ ، أَدْعُوكَ أَنْ تَبَارِكَ لَهُمْ فِي صَاعِهِمْ وَمَدِّهِمْ وَثَمَارِهِمْ ، اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَّيْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ ، واجعل ما بها من وباء ^(۱) بِنَحْمٍ » الحديث ، وقوله « بنحْم » بضم الخاء المعجمة وتشديد الميم - مكان قرب الجحفة كما سيأتى في موضعه ، وروى ابن زبالة حديث « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وَوَعِكَ فِيهَا أَصْحَابَهُ » وفيه « فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، ثم رفع يده ، ثم قال : اللهم انقل عنا الوباء » فلما أصبح قال :

(۱) في القاموس : « وغدير خم موضع على ثلاثة أميال بالجحفة بين الحرمين ، أو خم اسم غيضة هناك بها غدير ماء سم لم يولد بها أحد فعاش إلى أن يحتلم إلا أن ينتقل منها » .

أتيت هذه الليلة بالحمى ، فإذا بعجوز سوداء مُكْتَبَةٌ في يَدَي الذي جاء بها ، فقال :
هذه الحمى ، فما ترى فيها ؟ فقلت : اجعلوها بُحْمً .

الدعاء بنقل
وبأها

وفي مسلم حديث عن عائشة رضى الله عنها : « قدمنا إلى المدينة وهي وريية
فاشكى أبو بكر ، واشتكى بلال ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوى
أصحابه قال : « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كما حبيت مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك
لنا في صاعها ومدّها ، وَخَوِّلْ حَمَاهَا إلى الجُحْفَةِ » .

وهو في البخارى بلفظ « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وَوَعِكَ
أبو بكر وبلال - رضى الله عنهما ! - وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول :
كُلُّ امرئ مُصَبِّحٌ في أهله والموت أدنى من شرِّك تَعْلِيهِ
وكان بلال إذا قلع عنه يرفع عَقِيرَتَهُ ^(١) ويقول :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَيْتَنَ لَيْلَةً بَوَادٍ وَحَوْلَى إِذْخِرَ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرَدَنَ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ وَهَلْ يَبْدُونَ لِي شَمَةً وَطَفِيلُ

اللهم أَلَمَنْ شَيْبَةُ بن ربيعة وَعُتْبَةُ بن ربيعة وَأُمَيَّة بن خلف كما أخرجونا من
أَرْضنا إلى أَرْض الوباء ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم حَبِّبْ إلينا
المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم بارك لنا في صاعنا وفي مُدَّنَا ، وصححها لنا ،
وانقل حَمَاهَا إلى الجُحْفَةِ » قالت : وقدما المدينة وهي أوبأ أرض الله ، وكان
بطحان يجرى نجلا ، تعنى ماء آجنا ^(٢) .

ورواه في الموطأ بزيادة : « وكان عامر بن فهيرة يقول :
قَدْ ذُفْتُ طَعْمَ الْمَوْتِ قَبْلَ ذَوْقِهِ إِنْ الْجَبَانَ حَتَفَهُ مِنْ فَوْقِهِ
ورواه ابن إسحاق بزيادة أخرى ، ولفظه « لما قَدِمَ رسول الله صلى الله عليه
وسلم المدينة قَدِمَهَا وهي أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء
وسَقَمٌ ، وصرفه الله عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، قالت : فكان أبو بكر وعامر

(١) قلع ع : ذهب عنه بجران الحمى ، ورفع عقيرته : رفع صوته .

(٢) بطحان : واد بالمدينة ، والماء الآجن : المتغير لونه وطعمه .

ابن فہیرۃ و بلال مولى أبى بكر مع أبى بكر فى بیت واحد ، فأصابتهما الحمى ، فدخلتُ عليهم أعودُهُم ، وذلك قبل أن يُضربَ الحجاب ، ولهم مالا يعلمه إلا الله من شدّة الوَعَكِ ، فدنوت من أبى بكر ، فقلت : كيف تجدك يا أبت ؟ أى كيف تجد نفسك ، فقال * كل امرئ * البيت المتقدم ، فقلت : والله ما يدري أبى ما يقول ، ثم دنوتُ إلى عامر بن فہیرۃ ، فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدتُ الموتَ قبل ذوقِهِ إن الجبانَ حَتَفَهُ من فوقِهِ
كل امرئ ، مجَاهِدٌ بطوْقِهِ كالثورٍ يحمى جِلْدَهُ برَوْقِهِ ^(۱)
قالت : فقلتُ ما يدري عامر ما يقول ، وقالت : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بقاء البيت ثم رفع عَمِيرَتَهُ وقال : * ألا ليت شعرى * البيتين .
ورواه ابن زبالة بلفظ « لما قدِمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وَوَعَكَ أصحابه ، فخرج يعود أبابكر ، فوجده يَهْجُرُ ^(۲) ، فقال : يا رسول الله * لقد لقيتُ الموتَ قبل ذوقِهِ * البيت المتقدم ، فخرج من عنده ، فدخل على بلال فوجده يَهْجُرُ وهو يقول * ألا ليت شعرى * البيتين المتقدمين ، ودخل على أبى أحمد بن جَحْش فوجده مَوْعُوكًا ، فلما جلس إليه قال :

واحبذا مَكَّةُ من وادى أرض بها تكثرُ عَوَادى
أرضٌ بها تُضربُ أوتادى أرض بها أهلى وأولادى
* أرض بها أمشى بلا هادى *
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا أن يُنْقَلَ الوُكَّاءُ من المدينة فيجعل به نخم .

وفى رواية له أنه « أمرَ عائشة بالذهاب إلى أبى بكر ومَوِّ لَيْمِهِ ، وأنها رجعت

(۱) روق الثور - بفتح الراء وسكون الواو - قرنه . وسيد كره المؤلف .

(۲) يهجر - بوزن ينصر - أى يهذى ويخلط فى كلامه .

وأخبرته بحالهم ، فـكره ذلك ، ثم عمد إلى بقيق الخيل - وهو سوق المدينة^(١) - فقام فيه ووجهه إلى القبلة ، ورفع يديه إلى الله فقال : « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم بارك لأهل المدينة في سُوْقِهِمْ ، وبارك لهم في صاعِهِمْ ، وبارك لهم في مُدَّهِمْ ، اللهم انقل ما كان بالمدينة من وباء إلى مهيعة »

قوله « رفع عقيرته » أى صوته ، وقوله « بواد » روى « بفتح » وهو وادى الزاهر ، والجليل - بالجيم - الثمام ، ومجنة - بكسر الميم وفتحها - سوق بأسفل مكة ، وقال الأصمعي : بمر الظهران ، وشامة وطفيل : جبلان يُشْرِفَانِ على مجنة ، قاله ابن الأثير ، قال : ويقال « شابة » بالباء الموحدة ، وهو جبل حجازى ، قال المحب الطبرى : وروايته بالباء الموحدة بخط شيخنا الصاغاني ، وكتب عليها صح ، وقال الطبرى : والأشهر أنهما جَبَلَانِ على مراحل من مكة من جهة اليمن ، وقال الخطابى : عينان . وقوله « بطَوْقِهِ » أى بطاقته ، وقوله « برَوْقِهِ » أى بقرنه ، و « مهيعة » هى الجحفة أحدُ المواقيت المشهورة ، وخم : بقربها ، وإمادعا صلى الله عليه وسلم بنقل الحمى إليها لأنها كانت دار شرك ، ولم تزل من يومئذ أكثر بلاد الله حمى ، قال بعضهم : وإنه لِيَتَقَى شرب الماء من عينها التى يقال لها عين خم ، فقلَّ مَنْ شرب منها إلا حُمَ .

وروى البيهقي حديث عائشة من طريق هشام بن عروة عن أبيه ، وفيه « قال هشام : فكان المولود يُولدُ بالجحفة فلا يبلغ الحلم حتى تُضْرِعَهُ الحمى^(٢) » وقال الخطابى : كان أهل الجحفة إذ ذاك يهودا ، وقيل : إنه لم يبق أحد من أهلها إلا أخذته الحمى .

قال النووى : وهذا عِلْمٌ من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، فإن الجحفة من يومئذ وَبِيَّةٌ ، ولا يشرب أحد من مأثها إلا حم .

(١) بقيق الخيل ، وهو سوق المدينة ، هو الذى يعرف اليوم بسوق المناخة (مكى)

(٢) تضربه : تخضعه وتذله ، والمراد أنها تضعفه أشد الضعف .

و بطحان : من أودية المدينة كما سيأتي ، والماء الآجن : المتغير الطعم واللون .
واتفق أهل الأخبار أن الوباء بالمدينة كان شديداً ، حتى روى ابن إسحاق
عن هشام ابن عروة قال : كان وباؤها معروفاً في الجاهلية ، وكان الإنسان إذا دخلها
وأراد أن يسلم من وبائها قيل له : انهق ، فينهق كما ينهق الحمار .

الوباء بالمدينة
جاهلي قديم

وفي دلائل النبوة من طريق هشام عن أبيه عن عائشة قالت : « قدم رسول الله
صلى الله عليه وسلم المدينة وهي أو بأرض الله ، وواذنيها بطحان نجلى يجرى عليه الأثل »
قال هشام : وكان وباؤها معروفاً في الجاهلية ، وكان إذا كان الوادي وبياً فأشرف
عليه الإنسان قيل له : انهق نهيق الحمار ، فإذا فعل ذلك لم يضره وباء ذلك الوادي ،
قال الشاعر حين أشرف على المدينة :

لعمري لئن عشت من خيفة الردى * نهيق الحمار إني لجـزوع
قالت عائشة : فاشتكى أبو بكر ، الحديث .

ثنية الوداع

وروى ابن شبة عن عامر بن جابر قال : كان لا يدخل المدينة أحد إلا من
طريق واحد ، من ثنية الوداع ، فإن لم يعشربها - أي : ينهق - كالحمار عشرة
أصوات في طلق واحد - مات قبل أن يخرج منها ، فإذا وقف على الثنية قيل : قد
ودع ، فسميت ثنية الوداع ، حتى قدم عروة بن الورد العباسي ، فقيل له : عشبها ،
فلم يعشرب ، وأنشأ يقول :

لعمري لئن عشت من خشية الردى * نهيق الحمار إني لجـزوع
ثم دخل فقال : يا معشر يهود ، ما لكم وللتعشير ؟ قالوا : إنه لا يدخلها أحد
من غير أهلها فلم يعشربها إلا مات ، ولا يدخلها أحد من غير ثنية الوداع إلا قتله
الهزال ، فلما ترك عروة التعشير تركه الناس ودخلوا من كل ناحية .

تحويل الوباء
من دلائل
النبوة

وتحويل الوباء من أعظم المعجزات ؛ إذ لا يقدر عليه جميع الأطباء ، وفي
البخاري حديث « رأيت امرأة سوداء نائرة الرأس خرجت من المدينة حتى نزلت
مهيعة ، فتأولتها أن وباء المدينة نقل إلى مهيعة » وفي الأوسط للطبراني نحوه ، وفي

كتاب ابن زبالة «أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ، فجاءه إنسان كأنه قهرل من ناحية طريق مكة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هل لقيت أحداً ؟ قال : لا ، إلا امرأة سوداء عُرْيَانَةً نائرة الشعر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الحمى ، وإن تعود بعد اليوم أبداً » وفيه أيضاً حديث « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة ، وانقل وباءها إلى مبيعة ، وما بقى منه فاجعله تحت ذنب مشعط » وحديث « إن كان الوباء في شيء من المدينة فهو في ظل مشعط » . قال المجد : هو جبل أو موضع بالمدينة . قلت : سيأتي عن ابن زبالة في المنازل أن بنى حُدَيْلَةَ ابْتَنَوْا أُطْمِئِن أَحَدُهُمَا يُقَالُ لَهُ « مشعط » كان موضعه في غربي مسجد بنى حُدَيْلَةَ ^(١) ، وفي موضعه بيت يُقَالُ لَهُ بيت أنى نبيه ، ثم أورد عقبه الحديث المذكور ، فأفاد أنه هو المراد ، وفيه أيضاً حديث « أصح المدينة من الحمى ما بين حرّة بنى قريظة والعريض » وهو يؤذن ببقاء شيء من الحمى بالمدينة ، وأن الذي نقل عنها أصلاً ورأساً سلطانها وشدتها ووباءها وكثرتها بحيث لا يعد ما بقى بالنسبة إليه شيئاً ، ويحتمل أنها رفعت أولاً بالكلية ، ثم أعيدت خفيفة لثلاث يفوت ثوابها كما أشار إليه الحافظ ابن حجر ، ويدل له ما روى أحمد ورجال الصحيح وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه عن جابر « استأذنت الحمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : مَنْ هَذِهِ ؟ فقالت : أُمِّ مِلْدَم ، فأمر بها إلى أهل قباء ، فَلَقُوا مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، فَأَتَوْهُ فَشَكُوا ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فقال : ما شئتم ، إن شئتم دعوت الله ليكشفها عنكم ، وإن شئتم تكون لكم طهُوراً ، قالوا : أو تفعل ؟ قال : نعم ، قالوا : فدَعَهَا » ورواه الطبراني بنحوه ، وقال فيه « إن شئتم تركتموها وأسقطت بقية ذنوبكم ، قالوا : فدَعَهَا يارسول الله » وروى أحمد ورجاله ثقات حديث « أتاني جبريل بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة ، وأرسلت الطاعون بالشام ، فالطاعون شهادة لأمتي ورحمة لهم ورجزٌ على الكفار » والأقرب أن هذا كان في آخر الأمر بعد نقل

(١) مسجد بنى حُدَيْلَةَ : داخل البقيع على يمين الداخل من بابه متصل بسورة ؛ يكون في زقاق سيدنا إسماعيل (مكي) .

الحمى بالكلية ، لكن قال الحافظ ابن حجر : لما دخل صلى الله عليه وسلم المدينة كان في قلة من أصحابه ، فاختار الحمى لقلّة الموت بها على الطاعون لما فيها من الأجر الجزيل ، وقضيتها إضعاف الأجساد ، فلما أمر بالجهاد دعا بنقل الحمى إلى الجحفة ، ثم كانوا من حينئذ من فاتته الشهادة بالطاعون ربما حصلت له بالقتل في سبيل الله ، ومن فاتته ذلك حصلت له الحمى التي هي حظ المؤمن من النار ، ثم استمر ذلك بالمدينة ، يعني بعد كثرة المسلمين تمييزاً لها على غيرها ، انتهى ، وهو يقتضى عود شيء من الحمى إليها بآخرة الأمر ، والمشاهد في زماننا عدم خاوها عنها أصلاً ، لكنه كما وصف أولاً ، بخلاف الطاعون ، فإنها محفوظة عنه بالكلية كما سيأتي ، والأقرب أنه صلى الله عليه وسلم لما سأل ربه تعالى لأمتيه أن لا يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعه ذلك فقال في دعائه « يحمى إذا أو طاعوناً » أراد بالدعاء بالحمى للموضع الذي لا يدخله طاعون كما سنشير إليه في الفصل الآتي ؛ فيكون ما بالمدينة اليوم ليس هو حمى الوباء ، بل حمى رحمة بدعائه صلى الله عليه وسلم كما سنوضحه ، والله أعلم .

الفصل الخامس

في عصمتها من الدجال والطاعون

حرسه من
الدجال
والطاعون

روينا في الصحيحين وغيرهما حديث « على أنقاب المدينة ^(١) ملائكة يحرسونها . لا يدخلها الطاعون ولا الدجال » وفيهما أيضاً حديث « ليس من بلد إلا سيطره الدجال ، إلا مكة والمدينة ، ليس نقب ^(١) من أنقابها إلا عليه ملائكة صافين يحرسونها ، فينزل السبخة ، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، فيخرج إليه كل كافر ومنافق » وفي رواية « فيأتي سبخة الجرف ، فيخرج إليه كل منافق ومنافقة » وفي البخاري حديث « لا يدخل المدينة رُعبُ المسيح ، لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب مَلَكَانِ » وفي مسلم حديث « يأتي المسيح من قبل المشرق

(١) الأنقاب : جمع نقب ، وهو الطريق في الجبل .

وهمة المدينة حتى ينزل دبر أحد ، ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام ، وهناك يهلك » وفي الصحيحين « قصة خروج الرجل الذي هو خير الناس ، أو من خير الناس ، من المدينة إلى الدجال إذا نزل بعض سباخها فيقول له : أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » الحديث بطوله .

قال معمر فيما رواه أبو حاتم : يرون هذا الرجل هو الخضر عليه السلام . وروى أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح عن جابر بن عبد الله قال : « أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على فَلَاقٍ ^(١) من أفلاق الحرة ونحن معه ، فقال : نعم الأرض المدينة ، إذا خرج الدجال ، على كل نقب من أنقابها مَلَكٌ لا يدخلها ، فإذا كان ذلك رجفت المدينة بأهلها ثلاث رجفات لا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، وأكثرم - يعني من يخرج إليه - النساء ، وذلك يوم التخيض ، ذلك يوم تنفي المدينة الخبث كما ينفي الكبير خبث الحديد ، يكون معه سبعون ألفاً من اليهود ، على كل رجل منهم ساج وسيف محلى ؛ فيضرب قبته بهذا المضرب الذي بمجتمع السيول » الحديث بطوله ، ولفظ الطبراني « يا أهل المدينة ، ذكروا يوم الخلاص ، قالوا : وما يوم الخلاص ؟ قال : يُقْبَلُ الدجال حتى ينزل بذياب ، فلا يبقى في المدينة مشرك ولا مشركة ، ولا كافر ولا كافرة ، ولا منافق ولا منافقة ، ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه ، ويخلص المؤمنون ، فذلك يوم الخلاص » وروى أحمد رجال الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يوم الخلاص ، وما يوم الخلاص ؟ ثلاثاً ، فقليل له : وما يوم الخلاص ؟ قال : يحىء الدجال فيصعد أحداً فيقول لأصحابه : أترون هذا القصر الأبيض ؟ هذا مسجد أحمد ، ثم يأتي المدينة فيجد بكل نقب منها ملكاً مُصَلِّتاً ، فيأتي سبخة الجرف ، فيضرب رواقه ، ثم ترجف المدينة ثلاث رجفات ، فلا يبقى منافق ولا منافقة ولا فاسق ولا فاسقة إلا خرج إليه ، فذلك يوم الخلاص » وقال الحافظ

(١) الفلاق - بالتحريك - المطمئن من الأرض بين ربوتين ، ويجمع على فلقان .

ابن حجر : إن أحمد والحاكم أخرجا من رواية محجن بن الأدرع رفعه « يحيى الدجال فيصعد أحدا فيطلع فينظر إلى المدينة فيقول لأصحابه : ألا ترون إلى هذا القصر الأبيض ؟ هذا مسجد أحمد ، ثم يأتي المدينة فيجد في كل نقب من أنقابها مَلَكًا مُضَلَّتًا سِفَهَ » وبقية بلفظ الحديث المذكور ، إلا أنه قال في آخره : « فتخلص المدينة ، فذلك يوم الخلاص » والمراد بالرواق الفُسْطَاط ، ولابن ماجه من حديث أبي أمامة « ينزل عند الطريق الأحمر عند منقطع السبخة » ولأحمد من حديث ابن عمر « ينزل الدجال في هذه السبخة بِمَرْقَنَاءَ » أى ممرها ، وفي عتيق المدينة للزبير بن بكار عن أبي هريرة « ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجتمع السيول ، فقال : ألا أخبركم بمنزل الدجال من المدينة ؟ ثم قال : هذا منزله ، يريد المدينة ، لا يستطيعها ، يجدها متمنقة بالملائكة ، على كل نقب من أنقابها ملك شاهر سلاحه ، لا يدخلها الدجال ولا الطاعون ، فيزلزل بالمدينة وبأصحاب الدجال زلزلة ، لا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، وأكثر من يتبعه النساء ، فلا يعجز الرجل أن يمسك سفيته » .

قلت : يستفاد منه أن المراد من قوله في الأحاديث المتقدمة : فترجف المدينة يعنى بسبب الزلزلة ؛ فلا يشكل بما تقدم من أنه لا يدخل المدينة رُعبُ المسيح الدجال فيستغنى عما جمع به بعضهم من أن الرعب المنفى هو أن لا يحصل لمن بها بسبب قربها منها خوف ، أو هو عبارة عن غايته ، وهو غلبته عليها ، والمراد بالرجفة إشاعة مجيئه وأن لا طاقة لأحد به ؛ فيتسارع حينئذ عليه مَنْ كان يتصف بالنفاق أو الفسق ، قاله الحافظ ابن حجر ، وما قدمناه أولى .

وفي الأوسط للطبراني حديث « ينزل الدجال حَذَوَ المدينة ^(١) » ، فأول من يتبعه النساء والإماء » وفي حديث رواه أحمد والطبراني واللفظ له ورجاله ثقة في وصف الدجال « ثم يسير حتى يأتي المدينة ، ولا يؤذن له فيها ، فيقول : هذه قرية ذاك

(١) حذو المدينة - بفتح الحاء وسكون الدال - إزاءها .

الرجل ، ثم يسير حتى يأتى الشام فيهلكه الله عز وجل عند عقبة أفيق^(١)» وروى أبو يعلى حديث الجساسة المشهور فى الصحيح بإسنادين أحدهما رجاله رجال الصحيح وزاد فيه « هو المسيح تطوى له الأرض فى أربعين يوما ، إلا ما كان من طيبة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وطيبة المدينة ، ما باب من أبوابها إلا ومالك مُصلت سيفه بمنعه ، وبمكة مثل ذلك» وفى البخارى والترمذى حديث « المدينة يأتىها الدجال فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله تعالى . وروى أحمد ورجاله ثقة وابن شبة برجال الصحيح حديث « المدينة رمكة محفوتن بالملائكة ، على كل نقب منها ملك لا يدخلها الدجال ولا الطاعون » ، وروى أحمد مرسلًا وابنه متصلًا وكذا الطبرانى ورجاله ثقة حديث « ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجل خرج من بعض الأرياف ، حتى إذا كان قريبًا من المدينة ببعض الطريق أصابه الوباء : ففرغ الناس ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لأرجو أن لا يطلع علينا نقابها » يعنى المدينة ؛ ونقابها وأنقابها : طرقها وفجاجها ؛ واحدها نقب ، بكسر النون^(٢) .

وقوله فى الرواية المتقدمة « فلا يقربها الدجال ولا الطاعون » فيقتضى جواز دخول الطاعون المدينة ، ويرده الجزم فى سائر الأحاديث ، والصواب حفظها منه كما هو المشاهد

وقد استشكل قرن الدجال بالطاعون مع أن الطاعون شهادة ورحمة فكيف يتمدح بعدمه ؟

والجواب من وجوه : أحدها : أن كونه كذلك ، ليس لذاته ، وإنما المراد ترتب ذلك عليه ، وقد ثبت تفسيره من رواية أحمد « بوخر أعدائكم من الجن » ؛ فيكون الإشارة بذلك إلى أن كفار الجن وشياطينهم ممنوعون من الطعن ، كما

(١) أفيق - بالهمزة أوله مفتوحة - قرية من حوران فى طريق الغور فى أول العقبة التى تعرف بعقبة أفيق ، والعامة تقول « فيق » بغير همزة ، والغور : هو الأردن .
(٢) الذى فى القاموس أنه بفتح النون

أن الدجال ممنوع منها ، ألا ترى أن قتل الكافر المسلم شهادة ، ولو ثبت للحل أن الكفار لا تُسلط عليه لحاز بذلك غاية الشرف ، ثانيها : أن أسباب الرحمة لم تنحصر في الطاعون ، وقد عوضهم صلى الله عليه وسلم عنه الحمى حيث اختارها عند ما عُرِضاً عليه كما تقدم ، وهى مطهرة للمؤمن وحظه من النار ، والطاعون يأتى فى بعض الأعوام ، والحمى تتكرر فى كل حين ، فيتعادلان ، وفيه نظر ؛ لأن تكثير أسباب الرحمة مطلوب ، ولأنه لا يدفع إشكال التمدح بعدمه ، ثالثها : أنه وإن اشتمل على الرحمة والشهادة فقد ورد أن سببه أشياء تقع من الأمة كظهور بعض المعاصى ، وقد روى أحمد بأسانيد حسنة وصحاح عن شرحبيل بن حسنة وغيره « أنه - يعنى الطاعون - رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم » وروى أحمد أيضاً تفسير كونه دعوة نبيكم عن أبى قلابة بأنه صلى الله عليه وسلم « سأل ربه عز وجل ألا يهلك أمته ب ستة ، فأعطىها ، وسأله ألا يسلب عليهم عدوا من غيرهم ، فأعطىها ، وسأله ألا يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض ، ففعله ، فقال صلى الله عليه وسلم فى دعائه : فحمى إذا أو طاعوناً » كرره ثلاثاً ؛ فقد تضمن الطاعون نوعاً من المؤاخذه ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم دعا به ليحصل كفاية إذاقة بعضهم بأس بعض ، ويكون هلاكهم حينئذ بسبب لا يعصون به ، بل يثابون ؛ فحفظ الله تعالى بَلَدَ نبيه صلى الله عليه وسلم من الطاعون المشتعل على الانتقام إكراماً لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وجعل لهم الحمى المضعفة للأبدان عن إذاقة بعضهم بأس بعض والمطهرة لهم ؛ فقوله صلى الله عليه وسلم « فحمى إذا » أى للموضع الذى لا يدخله الطاعون ، بل عصم منه وهو جواره الشريف ، وقوله « أو طاعونا » أى للموضع الذى لم يعصم منه ، وهو سائر البلاد ، هذا ما ظهر لى فى فهم هذه الأحاديث ، وهو يقتضى شرف الحمى الواقعة بالمدينة وفضلها ؛ لأنها دعوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ورحمة ربنا أيضاً ؛ لأنها من لازم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولأنها جعلت فى مقابلة

الطاعون الذي هو رحمة لغيرهم ؛ فتكون الحمى رحمة لهم ؛ فهي غير حمى الوباء
الذاهبة من المدينة ، رابعها - ذكره الحافظ ابن حجر نقلا عن القرطبي - وهو أن
المعنى لا يدخل إلى المدينة من الطاعون مثل الذي وقع في غيرها كطاعون عَمَواس^(١) ،
قال الحافظ ابن حجر : وهو يقتضي أن الطاعون يدخلها في الجملة ، وليس كذلك ؛
فقد جزم ابن قتيبة وتبعه جمع جَمْعٌ من آخرهم النووي بأن الطاعون لا يدخل المدينة
أصلا ، ولا مكة أيضا ، لكن نقل جماعة أنه دخل مكة في الطاعون العام سنة
تسع وأربعين وسبعمائة ، بخلاف المدينة فلم يذكر أحد قط أنه دخلها أصلا ، ثم
ذكر الحافظ ابن حجر الحديث المتقدم المشتمل على ذكر مكة أيضا ، ثم قال : وعلى هذا
فالذي نقل أنه وجد بمكة ليس كما ظن ناقله كونه طاعونا ، بل وباء ، وهو أعم
من الطاعون ، أو يجاب بجواب القرطبي المتقدم ، قال : ولعله بنى جوابه على أن
الطاعون ما ينشأ عن فساد الهوى فيقع به الموت الكثير ، وليس كذلك ؛ ففي
الصحیح قولُ أبي الأسود : قدمت المدينة وهم يموتون بها موتا ذريعا ؛ فهذا
وقع بالمدينة وهو وباء ، ولكن الشأن في تسميته طاعونا ، قال : والحق أن المراد
بِالطاعون في هذه الأحاديث الذي ينشأ عن طعن الجن فيميج به الدم في البدن
فيقتل ، فهذا لا يدخل المدينة قط . قلت : نقل الزركشي عن القرطبي أنه فسر
الطاعون بأموت العام الغاشي ، وهو صريح في أنه أراد ما فهمه عنه الحافظ ابن
حجر ، ويرده قوله في الحديث المتقدم « حتى إذا كان قريبا من المدينة ببعض
الطرق أضابه الوباء فأفرغ الناس » فإن المراد فيه بالوباء الطاعون المعروف
بعلاماته عندهم ، وإلا فموت الشخص الواحد لا يفرغ ولا يسمى موتا عاما ، ويبعد
جعل الموت العام بمجرد شهادة ، وقد أخبر بعض الأولياء بمشاهدة الجن يقظة
يطعنون الناس في بعض سني الطاعون ، ورأيت أنه كذلك مناما ، ورأيت أن بيني
(١) عمواس - بفتح العين والميم جميعه ، أو بكسر العين وسكون الميم - كورة من فلسطين
القرب من بيت المقدس ، ومنها كان ابتداء الطاعون في أيام عمر بن الخطاب ، ثم فشا
في بلاد الشام ومات به خلق كثير منهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح .

و بينهم حائلا ، فحمانى الله منه فى تلك السنة ، على أنه لو سلم أن المراد ما ذكره القرطبي فالإشكال المتقدم باق ؛ إذ يقال : لم لم يكثر بالمدينة وهو رحمة ؟ فالحق ما قدمناه ، وهذا - كما قال بعضهم - من المعجزات العظيمة المستمرة التى هى من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم لأن الأطباء بأجمعهم قد عجزوا عن دفع الطاعون عن بلد ما فى دهر من الدهور ، وقد امتنع الطاعون عن المدينة هذه الدهور الطويلة ، مع أنه يقع بالحجاز الشريف ، ويدخل قرية ينبع وجدة والفرع والصفراء والخيف وغير ذلك من الأماكن القريبة من المدينة ، ولا يدخلها هى كما شاهدنا ذلك فى طاعون أواخر سنة إحدى وثمانين وثمانمائة مع أوائل التى بعدها ؛ فإنه عم أكثر الأماكن القريبة من المدينة ، وكثر بجدة ، واختلف فى دخوله مكة ، والذي تحقناه كثرة الموت بها فى ذلك الزمان ، وكثرت الحمى بالمدينة ، لكن لم يكثر بها موت ، وبالجملة فهى محفوظة منه أتم الحفظ ؛ فله الحمد والمنة .

الفصل السادس

فى الاستشفاء بترابها ، وبتمرها ، وما جاء فيه

روينا فى كتاب ابن النجار والوفاء لابن الجوزى حديث « غبار المدينة شفاء من الجذام » ما جاء فى أن
 وفى جامع الأصول لابن الأثير وبيضا لخرجه عن سعد^(١) رضى الله عنه قال
 « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك تلقاه رجال من المخلفين من المؤمنين ، فأناروا غباراً ، فحمر - أو فغطى - بعض من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفه ، فأزال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللثام عن وجهه ، وقال : والذي نفسى بيده إن فى غبارها شفاء من كل داء » قال : وأراه ذكر « ومن الجذام والبرص » وقد أورده كذلك رزين العبدى فى جامعه ، وهو مستند ابن الأثير فى إirاده ، قال الحافظ المذرى : ولم أره فى الأصول .

(١) عبارة « وبيضا لخرجه عن سعد » ليست فى نسخة خلاصة الوفا للمؤلف المطبوعة ، وقد جاء فى تعليقات المسكى « عن سعد رضى الله عنه قال للمارجع ، كذا فى هامش نسخة بخط ثقة »

وروى رزين أيضاً عن ابن عمر نحوه ، إلا أنه قال « فمدَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يده فأماطه عن وجهه ، وقال : أما علمت أن عَجْوَةَ المدينة شفاء من السَّقم ، وغبارها شفاء من الجذام » ورواه ابن زبالة مختصراً عن صيفي بن أبي عامر ، ولفظه « والذي نفسى بيده إن تربتها لمؤمنة ، وإنها شفاء من الجذام » وروى أيضاً عن أبي سامة : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « غبار المدينة يطفى الجذام » قلت : وقد رأينا من استشفى بغبارها من الجذام ، وكان قد أضرَّ به كثيراً ؛ فصار يخرج إلى السكومة البيضاء ببطحان بطريق قباء ويتمرغ بها ويتخذ منها في مرقده ، فتنفعه ذلك جداً . وروى ابن زبالة ويحيى بن الحسن ابن جعفر العلوى وابن النجار كلاهما من طريقه « أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بأحارث ، فإذا هم رَوَّي (١) ، فقال : ما لكم يا بني الحارث رَوَّي ؟ قالوا : أصابتنا يا رسول الله هذه الحمى ، قال : فإين أنتم عن صُعَيْب ؟ قالوا : يا رسول الله مانصنع به ؟ قال : تأخذون من ترابه فتجعلونه في ماء ، ثم يتفل عليه أحدكم ويقول : بسم الله ، ترابُ أرضنا ، بريق بعضنا ، شفاء لمريضنا ، بإذن ربنا ، ففعلوا ، فتركتهم الحمى » قال ابن النجار عقبه : قال أبو القاسم طاهر بن يحيى العلوى : صعيب : وادى بطحان دون الماششونية ، وفيه حفرة مما يأخذ الناس منه ، وهو اليوم إذا وبأ إنسان أخذ منه . قلت : قد رأيت ذلك في نسخة كتاب يحيى التى رَوَّاهما ابنه طاهر بن يحيى عنه ، والماششونية هى الحديقة المعروفة اليوم بالمدشونية ، وقال ابن النجار عقبه : وقد رأيت أنا هذه الحفرة اليوم ، والناس يأخذون منها ، وذكروا أنهم قد جربوه فوجدوه صحيحاً ، قال : وأخذت أنا منه أيضاً . قلت : وهذه الحفرة موجودة اليوم ، مشهورة سلفاً عن خلف ، يأخذ الناس منها وينقلونه للتداوى ، وقد بعثت منها لبعض الأصحاب أخذاً مما ذكروه فى أخذ نبات الحرم لتدارى ، ثم رأيت الزركشى قد قال : ينبغى أن يستثنى من منع نقل تراب الحرم (١) روى : جمع روبان ، مثل عطشان وعطشى وسكران وسكرى ؛ وهو

لاستشفاء
بتراب صعيب

الخائر النفس الشديد الإعياء المختلط العقل .

تربة حمزة رضى الله عنه ؛ لإطباق السلف والخلف على نقلها للتداوى من الصداق، فقلت عند الوقوف عليه : أين هو من تراب صُعَيْب لما قدمناه فيه ؟ بخلاف ما ذكره إذ لا أصل له ، وذكر المجد أن جماعة من العلماء ذكروا أنهم جربوا تراب صُعَيْب للحمى فوجدوه صحيحا ، قال : وأنا بنفسى سقيته غلاما لى مريضاً من نحو سنة تواظبه الحمى ، فانقطعت عنه من يومه ، وذكر المجد أيضاً فى موضع آخر كيفية الاستشفاء به أنه يجعل فى الماء ويغتسل به ، وكذا ذكره الجلال المطرى عند ذكر صُعَيْب فقال : وفيه حفرة يؤخذ من ترابها ويجعل فى الماء ويغتسل به من الحمى . قلت : فينبغى أن يجعل فى الماء ثم يتفل عليه ، وتقال الرقية الواردة ، ثم يجمع بين الشرب والغسل منه ، ويستأنس للغسل بما رويناه عن جزء وأبى مسعود بن الفرات الرازى عن ثابت بن قيس « أن النبى صلى الله عليه وسلم عاده وهو مريض فقال : أَذْهَبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ ^(١) » ، عن ثابت بن قيس بن شماس ، ثم أخذ كفا من بطحاء ، فجعله فى قدح من ماء ، ثم أمر فصب عليه « وفى الصحيحين حديث « كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى الإنسانُ أو كانت به قرصة أو جرح قال بأصبعه هكذا ، ووضع سفيانُ سَبَّابته بالأرض ثم رفعها ، وقال : بسم الله ، تربة أرضنا ، بريق بعضنا ، يشفى سقيمنا ، بإذن ربنا » ورواه أبوداود بنحوه ، وفى رواية « يقول بريقه ، ثم قال به فى التراب : تربة أرضنا » وروى ابن زَبَّالة « أن رجلا أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجله قرحة ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم طرف الحصير ، ثم وضع أصبعه التى تلى الإبهام على التراب بعد ما مسحها بريقه ، وقال : بسم الله ، ريق بعضنا ، بتربة أرضنا ، ليشفى سقيمنا ، بإذن ربنا ، ثم وضع أصبعه على القرحة ، فكأنما حلَّ من عقالٍ » وروى أيضاً حديث « تراب أرضنا ، شفاء لقرحنا ، بإذن ربنا » وأن أم سلمة كانت تنعت من القرحة تراب الضبة .

(١) الباس : الشدة ، وأصله البأس - بالهمز - فسهلت الهمزة بقلبها ألفاً

لأنفتاح ما قبلها ، وهى لغة قريش

ما جاء في أن
تمرها شفاء

وفي مسلم حديث « مَنْ أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح لم يضره شيء حتى يمسي » وفي الصحيحين حديث « من تصبّح بسبع تمرات عَجْوَة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر » ورواه أحمد برجال الصحيح بلفظ « مَنْ أكل سبع تمرات عَجْوَة مما بين لابتي المدينة على الريق لم يضره يومه ذلك شيء حتى يمسي » قال فليح : وأظنه قال « وإن أكلها حين يُمسي لم يضره شيء حتى يصبح » ورواه ابن زبالة بلفظ « من تصبّح بسبع تمرات من العجوة » لا أعلمه إلا قال « من العالية لم يضره يومئذ سم ولا سحر » وفي صحيح مسلم حديث « إن في عَجْوَة العالية شفاء، أو إنها ترياق أول البكرة » وروى أحمد برجال الصحيح حديثاً فيه « واعلموا أن الكمأة دواء العين، وأن العجوة من فاكهة الجنة » وروى النسائي وأبو داود الطيالسي والطبراني في الثلاثة بسند جيد حديث « الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وهي شفاء من السم » وقد صح في سنن أبي داود عن سعد بن أبي وقاص قال « مرضتُ مرضاً، فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعوذني، فوضع يده بين يدي حتى وجدت بردها على فؤادي، فقال : إنك رجل ممّود، أنت الخارث ابن كدّة أخا ثقيف فإنه رجل يتطبّب، فليأخذ سبع تمرات من عَجْوَة المدينة، فليجأهن^(١) ثم ليكذلك بهن » ورواه الطبراني لکن عن سعد بن أبي رافع .

قوله « فليجأهن » أي فليدقهن، قال عياض : وقال ابن الأثير فليجأهن أي فليدقهن، وبه سميت الوجيئة، وهو تمر يبل بلبن ثم يدق حتى يلتئم^(٢)، ومنه الحديث « أنه دعا سعداً فوصف له الوجيئة » وقوله « ثم ليلدك » أي يسقيك، يقال : لدّه باللدود، إذا سقاه الدواء في أحد جانبي الفم .

وفي كامل ابن عدي حديث « ينفع من الدُّؤام أن يأخذ سبع تمرات من عَجْوَة المدينة كل يوم يفعل ذلك سبعة أيام » وفي غريب الحديث للخطابي عن عائشة رضي الله عنها

(١) في مجمع البحار « فليجأهن مع نواهن : أي يدقهن مع النوى حتى يتكسر النوى ويعجن »

(مكي) (٢) قال المجد « الوجيئة : تمر أو جراد يدق ويلت بسمن أو زيت فيؤكل » .

« أنها كانت تأمر للدُّوَام والدُّوَارِ بسبع تمرات عجوة في سبع غدوات على الريق » والدُّوَام والدُّوَار: ما يأخذ الإنسان في رأسه فيدومه ، ومنه تدويم الطائر ، وهو: أن يستدير في طيرانه ، قال الخطابي : كون العجوة عُودَةً من السم والسحر إنما هو من طريق التبرك بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا لأن طبعها يفعل شيئاً ، وقال النووي : في تخصيصها دون غيرها وعدد السبع من الأمور التي علمها الشارع ، ولا نعلم نحن حكمها ؛ فيجب الإيمان بها ، واعتقاد فضلها ، وما ذكره المازري والقاضي في هذا باطل ، وقصدت بذلك التحذير من الاغترار به ، انتهى . وأشار به لقول القاضي في أثناء تعليل ذلك : إنه لتأثير في الأرض أو الهواء ، ولقول المازري : لعل ذلك كان لأهل زمنه صلى الله عليه وسلم خاصة ، أولاً أكثرهم ؛ إذ لم يثبت استمرار وقوع الشفاء في زمننا غالباً ، وإن وجد ذلك في الأكثر حُمِلَ على أنه أراد وصف غالب الحال ، انتهى . وقد جعله ابن التين احتمالاً ، وزاد عليه آخر أعجب منه ، فقال : يحتمل أن يكون المراد نخلاً خاصاً من المدينة لا يعرف الآن ، ويحتمل أن يكون ذلك خاصاً بزمانه صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

وهو مردود ؛ لأن سَوَقَ الأحاديث وإيراد العلماء لها وإطباق الناس على التبرك بعجوة المدينة وتمرها يرد التخصيص بزمنه صلى الله عليه وسلم ، مع أن الأصل عدمه ، ولم تزل العجوة معروفة بالمدينة يأتريها الخلف عن السلف ، يعلمها كبيرهم وصغيرهم علماً لا يقبل التشكيك .

وقال الداودي : هي من أوسط التمر كما هو المشاهد اليوم . وقال غيره : هي من أجود تمر المدينة ، ومراده أنها ليست من رديه . وقال ابن الأثير : العجوة ضرب من التمر أكبر من الصَّيْحَانِي يضرب إلى السواد ، وهو مما غرسه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بالمدينة . وذكر هذا الأخير البزار أيضاً ، فاعل الأوداء ^(١) التي كاتب سلمان الفارسي أهله عليها وغرسها صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة بالفقير أو غيره من العالمة

(١) الأوداء : جمع ودي - على زنة غني وعلى - وهو صغير النخل .

كانت عجوة ، والعجوة^(١) توجد بالفقير إلى يومنا هذا ، ويبعد أن يكون المراد أن هذا النوع إنما حدث بغرسه صلى الله عليه وسلم وأن جميع ما يوجد منه من غرسه كالأخفى . وروى ابن حبان عن ابن عباس ل « كان أحب التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العجوة » وفي حديث ضعيف « خير تمر كم البرني ، يخرج الداء ، ولا داء فيه » ورواه ابن شبة بنحوه خطاباً لوفد عبد القيس في ثمارهم ، وكذا الحاكم في مستدركه ، وفي مسلم حديث « يا عائشة بيت لا تمر فيه جياغ أهله » قالها مرتين أو ثلاثاً ، وفيه أيضاً حديث « لا يجوع أهل بيت عندهم التمر » وفي الكبير والصغير للطبراني ورجال الصغير رجال الصحيح عن ابن عباس « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالبواكير من الثمار وضعها على عينيه ثم قال : اللهم كما أطعمتنا أوله فأطعمنا آخره ، ثم يمر به له ولود من أهله » ولفظ الكبير « كان إذا أتى بالبواكير من التمر قبّلها وجعلها على عينيه » الحديث ، وفي نوادر الحكم الترمذي عن أنس بن مالك قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالبواكير من كل شيء قبّلها ووضعها على عينه اليمنى ثلاثاً ، ثم على عينه اليسرى ثلاثاً ، ثم يقول : اللهم » الحديث بنحوه .

وروى البزار بسند فيه ضعيف حديث « يا عائشة إذا جاء الرطب فهينني » ورويناه في الغيلانيات ، وفيها أيضاً حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يُفطر على الرطب في أيام الرطب ، وعلى التمر إذا لم يكن رطب ، ويختم بهن ، ويجعلهن وتراً ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً » وفيها حديث « كلوا التمر على الريق ؛ فإنه يقتل الدود »

وأأنواع تمر المدينة كثيرة ، ذكرنا ما أمكن جمعه منها في الأصل فبلغ مائة و بضعاً وثلاثين نوعاً : منها النوع المسمى بالصّيحاني^(٢) ، وقد أسند

(١) لعل هذا النوع كان في زمن المؤلف ، وأما في زماننا فهي غير معروفة .
والناس مختلفون فيها ؛ فبعضهم يقول : هي الجلية ، وبعضهم يقول : هي الجادي ،
وبعضهم يعين نوعاً آخر (مكي) (٢) هذا النوع غير معروف اليوم (مكي)

الصَّدرُ إبراهيم بن محمد بن مؤيد الحموی فی کتابه فضل أهل البيت عن جابر رضى الله عنه قال « كنت مع النبی صلی الله علیه وسلم یوما فی بعض حیطان المدينة ، ویدُ علیّ فی یده ، قال : فمررنا بنخل ، فصاح النخل : هذا محمد سید الأنبیاء ، وهذا علیّ سید الأولیاء أبو الأئمة الطاهرين ، ثم مررنا بنخل فصاح النخل : هذا محمد رسول الله ، وهذا علیّ سیف الله ، فالتفت النبی صلی الله علیه وسلم إلى علیّ ، فقال له : یا علی سَمِّهِ الصَّیْحَانِی ، فسمی من ذلك الیوم الصیحانی » وهو حدیث غریب ؛ فكان هذا سبب تسمیة ذلك النوع بهذا الاسم ؛ لأن تلك النخلات كانت منه ، ویحتمل أن یكون المراد تسمیة ذلك الحائط بهذا الاسم ، وبالمدينة الیوم موضع بحفاف یعرف بالصیحانی .

وروی بعضهم هذا الحدیث عن علی بالفاظ فیها نكارة ، وفی آخره « یا علی سَمِّ نخل المدينة صیحانیا لأنهن صیحنَ بفضلی وفضلک » .

الفصل السابع

فی سرِّدِ خصائصها

وهی كثيرة لا تكاد تنحصر ، وها أنا ذا کر ما حضرنی منها الآن وإِن شاركتها مكة فی بعضه ، فأقول وبالله التوفیق :

الخاصة الأولى : ما تقدمت الإشارة إليه من كونه صلی الله علیه وسلم خلق من طينتها ، وكذا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وأكثر الصحابة والسلف ممن دفن بها وروی أن الله تعالى بعث جبریل وميكائیل ليقبضا قبضةً من الأرض ، فأبت ، حتى بعث الله تعالى عزرائیل فقبض منها قبضة ، وكان إبليس قد وطئ الأرض بقدمیه ، فصار بعضُ الأرض بین قدمیه وبعضُ الأرض موضع أقدامه ، فخلقت النفسُ مماساً قدم إبليس ؛ فصارت مأوى الشر ، ومن التربة التي لم یصل إليها قدم إبليس أصل الأنبیاء والأولیاء .

قال في العوارف : وكانت درة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يمسها قدم إبليس .

وقيل : [كذا] ^(١) خاطب الله السموات والأرض بقوله « اثنيان طوعاً أو كرهاً »^(٢) الآية أجاب من الأرض موضع الكعبة ومن السماء ما يحاذيها .

وعن ابن عباس : أصل طينة النبي صلى الله عليه وسلم من سرّة الأرض بمكة ، يعنى الكعبة ، وهو مُشعر بأن ما أجاب من الأرض درته صلى الله عليه وسلم . ومن الكعبة دحيت الأرض ؛ فصار صلى الله عليه وسلم هو الأصل في التكوين .

قال في العوارف عقبه : وتربة الشخص مدفنه ، فكان مقتضى ذلك أن يكون مدفنه هناك ، لكن قيل : لما تموج ماء رمى الزبد إلى النواحي ، فوقعت جوهرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يحاذي تربته الشريفة بالمدينة . فكان مكيا مدنياً .

قلت : فمكة الفضل بالبداية ، وللمدينة بالاستقرار والنهاية .

الثانية : اشتغالها على البقعة التي انعقد الإجماع على تفضيلها على سائر البقع ، كما تقدم تحقيقه .

الثالثة : دفن أفضل الأمة بها والكثير من الصحابة الذين هم خير القرون .

الرابعة : أنها محفوفة بأفضل الشهداء الذين بذلوا نفوسهم في ذات الله بين يدي نبيه صلى الله عليه وسلم ؛ فكان شهيداً عليهم

ونقل عياض في المدارك وابن الجوزي في منسكه أن مالكا كان يقول في فضل المدينة : هي دار الهجرة والسنة ، وهي محفوفة بالشهداء ، وبها خيار الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) زيادة يحتاج إليها اتساق الكلام (٢) من سورة فصلت من الآية ١١ .

الخامسة : أن الله تعالى اختارها داراً وقراراً لأفضل خلقه وأكرمهم عليه صلى الله عليه وسلم .

السادسة : أن الله تعالى اختار أهلها للنصرة والإيواء .

السابعة : أن سائر البلاد افتتحت بالسيف ، وافتتحت هي بالقرآن ، كما هو مروي عن مالك ، ورفع ابن زبالة من طريقه .

الثامنة : أن الله تعالى افتتح منها سائر بلاد الإسلام ، حتى مكة المشرفة ، وجعلها مظهر دينه القويم .

التاسعة : ما ذكره عياض من الاتفاق على وجوب الهجرة إليها قبل فتح مكة ، ووجوب سكنها لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم ومواساته بالأنفس ، قال : ومن هاجر قبل الفتح فالجمهور على منعه من الإقامة بمكة بعد الفتح ، ورخص له في الإقامة ثلاثة أيام بعد قضاء نسكه .

العاشر : أنه يبعث أشراف هذه الأمة يوم القيامة منها ، على ما نقله عياض في المدارك عن مالك في ضمن أشياء في فضل المدينة ، قال : وهذا لا يقوله مالك من عند نفسه .

الحادية عشرة : ما تقدم في الأسماء من تسميتها بالمؤمنة والمسلمة ، وإن ترتبها لمؤمنة ، وأنه لا مانع من أن الله خلق ذلك فيها .

الثانية عشرة : إضافتها إلى الله تعالى في قوله : « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً »^(١) على ما تقدم في الأسماء ، وقد جاءت الأرض غير مضافة إلى الله تعالى والمراد بها مكة ، وذلك في قوله تعالى : « وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ »^(٢) .

الثالثة عشرة : إضافة الله إياها إلى رسوله بلفظ البيت في قوله : « كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ »^(٣) على ما تقدم في الأسماء .

(١) من سورة النساء من الآية ٩٧ (٢) من سورة الأنفال من الآية ٢٦

(٣) من سورة الأنفال من الآية ٥

الرابعة عشرة : إقسام الله تعالى بها في قوله «لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ^(١)» على ما سبق في الأسماء ، أي نحلّف لك بهذا البلد الذي شرفته بك ، و «لا» زائدة للتأكيد ، ويدل عليه قراءة الحسن والأعمش «لَا أُقْسِمُ» .
الخامسة عشرة : أن الله بدأ بها في قوله : «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ^(٢)» فمدخل صدق هي ، ومخرجه مكة كما تقدم ، مع أن القياس البداءة بالمخرج لموافقة الواقع . فإن قيل : التقديم للاهتمام بأمر المدخل ، قلنا : في الاهتمام به كفاية .

السادسة عشرة : تسميتها في التوراة بالمرحومة ونحوه ، ومخاطبة الله إياها كما تقدم .
السابعة عشرة : دعاؤه صلى الله عليه وسلم بحبها كمكة وأشد ، وتسميتها بالحبيبة وغيره مما تقدم ، ودعاؤه أن يجعل الله له بها قراراً ورزقاً حسناً .
الثامنة عشرة : تحريكه صلى الله عليه وسلم دابته أو إيضائها إذا أبصر جدرانها عند قدومها ، وأنه كان إذا أقبل من مكة فكان بالأثنية^(٣) طرح رداءه عن منكبيه وقال «هذه أرواح طيبة» كما تقدم .

التاسعة عشرة : اهتمامه صلى الله عليه وسلم بأمر الدعاء لها بالبركة وغير ذلك .
العشرون : تحريمها على لسان أفضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه إكراماً له ، وكونه لاجزاء فيها على القول به دليل عظيم حرمتها حيث لم يشرع فيها جابر .
الحادية والعشرون : تأسيس مسجد الشریف على يده صلى الله عليه وسلم ، وتعلّمه فيه بنفسه ، ومعه خير الأمة المهاجرون الأولون والأنصار المقدمون .
الثانية والعشرون : اختصاصها بالمسجد الذي أنزل الله فيه «لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ^(٤)» .

الثالثة والعشرون : كون ما بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة ، وفي

(١) من سورة البلد من الآية ١ (٢) من سورة الإسراء من الآية ٨٠

(٣) الأثنية : موضع بين مكة والمدينة فيه مسجد نبوى ، أو بئر دون العرج

عليها مسجد نبوى (٤) من سورة التوبة من الآية ١٠٨

رواية « ما بين منبري وهذه الحُجَرِ » يعنى حُجَرَه صلى الله عليه وسلم ، وسيأتى بيان أن ذلك يعم مسجده صلى الله عليه وسلم على ما هو المشهور بين الناس في تحديد المسجد الشريف ؛ ولهذا قال بعضهم : هذا المسجد هو المسجد الذى لا تُعرف بقعة فى الأرض من الجنة غيره .

الرابعة والعشرون : كون منبره الشريف على تُرعة من تُرَع الجنة ، وأن قوائمه رواتب فى الجنة ، وفى رواية « ومنبري على حوضى » .

الخامسة والعشرون : ما ورد فى مسجده الشريف من المضاعفة الآتى بيانها .
السادسة والعشرون : حديث « مَنْ صَلَّى فى مسجدى هذا أربعين صلاة كتب له براءة من النار ، وبرائة من العذاب ، وبرىء من النفاق » رواه الطبرانى فى الأوسط .

السابعة والعشرون : ماسيأتى أن مَنْ خرج على طُهر لا يريد إلا الصلاة فيه كان بمنزلة سَجَّة ، وأن الخارج إليه من حين يخرج من منزله فرجلٌ تكتب حسنةً ورجلٌ تحط خطيئة .

الثامنة والعشرون : أن إتيان مسجد قباء يعدل عمرة كما سيأتى .
التاسعة والعشرون : حديث « صيام شهر رمضان فى المدينة كصيام ألف شهر فيما سواها ، وصلاة الجمعة فى المدينة كألف صلاة فيما سواها » فسائر أفعال البر كذلك كما قيل به فى مكة ، وبه صرح أبو سليمان داود الشاذلى فى الانتصار ، ثم رأيت فى الإحياء ، قال : إن الأعمال فى المدينة تتضاعف ، قال صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا » الحديث ، ثم قال : فكذلك كل عمل بالمدينة بألف انتهى ، وقال ابن الرفعة فى المطلب : وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الصيام بالمدينة أفضل من الصلاة ، والصلاة بمكة أفضل من الصيام ، مراعاة لنزول فرضيتهما^(۱) . انتهى

(۱) يريد أن الصلاة شرعت بمكة فيكون فعلها بها أفضل من الصيام بها ، وأن الصيام شرع فى المدينة ففعله بها أفضل من الصلاة بها .

قلت : ویؤخذ من هذه العلة أن كل عبادة شرعت بالمدينة فهي بها أفضل منها بمكة ، ولك أن تعد هذا خاصة مستقلة .

الثلاثون : حديث « لا یسمعُ النداءُ فی مسجدی هذا ثم یمخرج منه إلا الحاجة ثم لا یرجع إلیه إلا منافق » .

الحادية والثلاثون : تأکید التعلم والتعليم بمسجدها كما سیأتی .
الثانية والثلاثون : اختصاصه بمزید الأدب وخفض الصوت ؛ لكونه بحضرة سید المرسلین^(۱) ، واختصاصه عند بعضهم بمنع آكل الثوم ونحوه من دخوله ؛ لاختصاصه بملائكة الوحي .

الثالثة والثلاثون : أنه لا یجتهد فی محرابه ؛ لأنه سواب قطعاً ؛ فلا یجبال لاجتمه د فیہ حتی بالیئمة والیسرة ، بخلاف محاریب المسلمین ، والمراد مكان مُصَلِّاه صلی الله علیه وسلم ، قال الرافعی : وفی معناه سائر البقاع التي صلی فیها صلی الله علیه وسلم إذا ضبط المحراب ، قلت : وفی ضبطه بغيرها عسر أو تعذر .

الرابعة والثلاثون : أن ما بین منبره صلی الله علیه وسلم ومسجد المصلی روضة من ریاض الجنة ، وهذا جانب کبیر من هذه البلدة .

الخامسة والثلاثون : حديث « أخذ علی ترعة من ترع الجنة » وحديث « أخذ جبل یحبنا ونحبه » .

السادسة والثلاثون : حديث « إن بُطْحَانَ علی ترعة من ترع الجنة » .
السابعة والثلاثون : وصف العقیق بالوادی المبارك ، وأنه صلی الله علیه وسلم یحبه ، وفی رواية « یحبنا ونحبه » .

الثامنة والثلاثون : حثه صلی الله علیه وسلم علی الإقامة بها .
التاسعة والثلاثون : حثه علی اتخاذ الأصل بها .
الأربعون : حثه علی الموت بها ، والوعد علی ذلك بالشفاعة أو الشهادة أوها .

(۱) یشیر إلی قوله تعالی : (لا ترفعوا أصواتکم فوق صوت النبی ، ولا تجهروا له بالقول کجهر بعضکم لبعض) من سورة الحجرات من الآیة ۲ .

الحادية والأربعون : حرصه صلى الله عليه وسلم على موته بها .
الثانية والأربعون : كون أهلها أول من يشفع لهم ، واختصاصهم بمزيد
الشفاعة والإكرام كما تقدم .

الثالثة والأربعون : بعث الميت بها من الأمنين على ماسياتي .
الرابعة والأربعون : أنه يبعث من بقيعها سبعون ألفاً على صورة القمر
يدخلون الجنة بغير حساب ، ومثله في مقبرة بنى سلمة ، وتوكل ملائكة بمقبرة
البقيع كلهم امتلأت أخذوا بأطرافها فكفوها في الجنة .

الخامسة والأربعون : بعث أهلها من قبورهم قبل سائر الناس .
السادسة والأربعون : شهادته - أو شفاعته - صلى الله عليه وسلم لمن صبر
على لأوائها وشدتها .

السابعة والأربعون : وجوب شفاعته صلى الله عليه وسلم لمن زاره بها .
الثامنة والأربعون : استجابة الدعاء بها عند القبر الشريف ، ويقال : إنه
مستجاب عند الأسطوان المخلق ، وعند المنبر ، وفي زاوية دار عقيل بالبقيع ،
وبمسجد الفتح بعد صلاة الظهر يوم الأربعاء ، واستجابة الدعاء بمسجد الإجابة
ومسجد السقيا وبالمصلى عند القدوم ، وعند بركة السوق في يوم العيد ، وعند
أحجار الزيت وبالسوق ، لما سيأتي عند ذكر هذه الأماكن من ورود ذلك عنه
صلى الله عليه وسلم بها .

التاسعة والأربعون : كونها تنفي خبثها .
الخمسون : كونها تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الفضة .
الحادية والخمسون : الوعيد الشديد لمن ظلم أهلها أو أخافهم .
الثانية والخمسون : من أرادها وأهلها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء .
وفي رواية أذابه الله في النار ، ويؤخذ من ترتيب الوعيد على الإرادة مساواة
المدينة لحرم مكة في هذا ، وفيه قال تعالى : « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بَظْمٌ »^(١) الآية ،

(١) من سورة الحج من الآية ٢٥ .

ويتمسك للمساواة أيضاً بقوله صلى الله عليه وسلم « كما حرم إبراهيم مكة » فقول ابن مسعود : ما من بلدة يؤخذ العبد فيها بالهم قبل الفعل إلا مكة وتلا الآية مُشْكِلٌ ، وأيضاً فالهمُّ العارضُ الوارد من غير عَزْمٍ لا مؤاخذه به مطلقاً بالاتفاق ، وأما الثابت الذي يصحبه التَّضْمِيمُ فالعبد مؤاخذه به بمكة وبغيرها ، وإنما خصوصية الحرم تعظيمُ العذاب لمن همَّ فيه لجرائته ؛ ولذا روى أحمد في معنى الآية بإسناد صحيح مرفوعاً « لو أن رجلاً همَّ فيه بإلحاد وهو بعدن أبين^(١) لأذاقه الله عذاباً أليماً » .

الثالثة والخمسون: الوعيد الشديد لمن أحدث بها حدثاً أو آوى محدثاً ، وتقدم تفسير الحديث بالإثم مطلقاً ، وأنه دالٌّ على أن الصغيرة بها كبيرة ؛ وللوعيد الشديد في ذلك ؛ لأنها حصرةُ أشرف المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وسوء الأدب على بساط الملك ليس كالإساءة في أطراف المملكة .

قال بعض السلف : إياك والمعصية فإن عصيت ولا بد فليكن في مواضع الفجور ، لا في مواضع الأجور ؛ لئلا يتضاعف عليك الوزر ، أو تعجل لك العقوبة . فإن قيل : هذا قول بتضعيف السيئات في الحرم ، والراجح خلافه ؛ لقوله تعالى « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا^(٢) » .

قلنا : تحرير النزاع أن القائل بالمضاعفة أراد مضاعفة مقدارها : أي عظمها ، لا العدد ، فإن السيئة جزاؤها سيئة ، لكن السيئات قد تتفاوت عقوبتها باختلاف الأشخاص والأماكن ، كما أن تقدير كل أحد بما يليق به في الزجر ، فجزاء السيئة مثلها ، ومن المماثلة رعاية ما اقترن بها مما دُلَّ على جرأة مرتكبها ، ولا تكتب إلا واحدة ، والله أعلم .

الرابعة والخمسون : الوعيد لمن يُكرم أهلها وأن إكرامهم وحفظهم حقٌّ على

(١) عدن أبين - على الإضافة - جزيرة باليمن ، أقام بها أبين ، وعدن لاعة :

قرية بقربه . (٢) من سورة الأنعام من الآية ١٦٠

الامة ، وأنه صلى الله عليه وسلم شفيح — أو شهيد — لمن حفظهم فيه .
الخامسة والخمسون : حديث « من أخاف أهل المدينة فقد أخاف ما بين جنبي » .

السادسة والخمسون : حديث « مَنْ غاب عن المدينة ثلاثة أيام جاءها وقلبه مُشْرَبٌ جَفْوَةً ^(۱) » وإنه « لا يخرج أحد منها رغبة عنها إلا أخلف الله تعالى فيها خيراً منه » كما في حديث مسلم ، قال المحب الطبري : فيه إشعار بدم الخروج منها ، وذهب بعضهم إلى أنه مخصوص بمدة حياته صلى الله عليه وسلم ، فأما بعد وفاته فقد خرج نفر كثير من كبار الصحابة ، وذهب آخرون إلى أنه عام أبداً ، قال الطبري : وهو ظاهر اللفظ ، نعم هو مخصوص بالمستوطن ، لا مَنْ نَوَى الإقامة بها مدة ثم ينقلب ^(۲) إلى وطنه .

السابعة والخمسون : إكرام الله لها بنقل وبائها وتحويل حَمَّاهَا .

الثامنة والخمسون : الاستشفاء بترابها ، وما تقدم في ثمارها .

التاسعة والخمسون : عصمتها من الطاعون .

الستون : عصمتها من الدجال ، وخروج الرجل الذي هو خير الناس — أو من خير الناس — إليه منها ، وقوله له : أشهد أنك الدجال ، وأنه لا يُسَلِّطُ عليه بآخرة الأمر ، وبهذا تتميز على مكة ، والسرفية أن سيد المرسلين — وهو حجة الله على العباد — بالمدينة .

الحادية والستون : ما في حديث الطبراني من قوله صلى الله عليه وسلم « وحق على كل مسلم زيارتها » .

الثانية والستون : سماعه صلى الله عليه وسلم سلام من سلم وصلاة من صلى عليه عند قبره الشريف ، وردده عليه .

الثالثة والستون : اختصاصها بملك الإيمان والحياء ، كما تقدم في الأسماء .

(۱) مشرب جفوة — على زنة اسم المفعول — أي خالطه - إناء .

(۲) ينقلب : يرجع ويعود

الرابعة والستون : كون الإيمان يَأْزُرُ إليها .
الخامسة والستون : اشتبا كها بالملائكة وحراستهم لها .
السادسة والستون : كونها أول أرضٍ اتخذها مسجداً لعامة المسلمين في هذه الأمة .

السابعة والستون : كون مسجدها آخرَ مساجدِ الأنبياء ، وآخر المساجد التي تشدُّ إليها الرِّحالُ ، وكونه أحق المساجد أن يزَارَ كما سيأتى .
الثامنة والستون : كثرة المساجد والمشاهد والآثار بها ، بل البركة عامة منبثةً بها . ولهذا قيل مالك : أيما أحب إليك المقام هنا يعنى المدينة أو بمكة ؟ فقال : ههنا ، وكيف لا أختار المدينة وما بها طريق إلا سلك عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عليه السلام ينزل عليه من عند رب العالمين فى أقل من ساعة ؟ .
التاسعة والستون : ما يوجد بها من رائحة الطيب الزكية ، على ما تقدم فى الأسماء .

السبعون : طيبُ العيش بها ، على ما تقدم هناك أيضاً .
الحادية والسبعون : استحقاق مَنْ عاب تربتها للتعزير ؛ فقد أفتى مالك فيمن قل « تربة المدينة رديئة » بأن يضرب ثلاثين درَّةً ، وأمر بحبسه ، وكان له قدر ، وقال : ما أحوَجَه إلى ضرب عنقه ، تربة دُفِن فيها النبي صلى الله عليه وسلم يزعم أنها غير طيبة ؟

الثانية والسبعون : الوعيد الشديد لمن حلف يميناً فاجرة عند منبرها .
الثالثة والسبعون : استحبابُ الدخول لها من طريق والرجوع فى أخرى ، لما سيأتى فى مسجد المعرَّس^(۱) .

الرابعة والسبعون : استحباب الاغتسال لدخولها .
الخامسة والسبعون : استحباب الدعاء والطلب من الله الموتَ بها .

(۱) المعرَّس — بزة المكرم — هو والتعريس بمعنى النزول ليلاً .

السادسة والسبعون : أنها دار إسلام أبداً ؛ لحديث « إن الشياطين قد يُئْسَتُ أن تعبد ببلدى هذا » .

السابعة والسبعون : أنها آخر قرى الإسلام خرابا ، رواه الترمذى وقال : حسن غريب ، ورواه ابن حبان بلفظ « آخر قرية في الإسلام خرابا المدينة »

الثامنة والسبعون : تخصيص أهلها بأبعد المواقيت وأفضلها ؛ تعظيماً لأجورهم .

التاسعة والسبعون : ذهب بعض السلف إلى تفضيل البداءة بالمدينة قبل مكة ، وهى مسألة عزيزة ، ومن نص عليها ابن أبى شيبه فى مُصنّفه فروى عن علقمة والأسود وعمرو بن ميمون أنهم بدؤوا بالمدينة قبل مكة ، وأن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يبدؤون بالمدينة ، وفى المناسك الكبير للإمام أحمد رواية ابنه عنه : سُئِلَ عن يبدأ بالمدينة قبل مكة ، فذكر بإسناده عن عبد الرحمن بن يزيد وعطاء ومجاهد قالوا : إذا أردت مكة فلا تبدأ بالمدينة وأبدأ بمكة ، فإذا قضيت حجتك فامرر بالمدينة إن شئت ، وعن إبراهيم النخعى ومجاهد : إذا أردت مكة للحج والعمرة فاجعل كل شىء لها تبعاً ، ثم روى أن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يبدؤون بالمدينة إذا حجوا ، يقولون : نبدأ من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت : وهذا أرجح ؛ لتفضيل ميقات المدينة ، وإتيان المدينة أولاً وُصلةً إليه ، مع ما فيه من البداءة بزيارة النبي صلى الله عليه وسلم وإشارتها ، ولعله السبب عند مَنْ بدأ بالمدينة ممن تقدم ذكره من التابعين كما قال السبكي . ونقل الزركشى عن العبدى شارح الرسالة من المالكية أنه قال : المشى إلى المدينة لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من الكعبة ومن بيت المقدس ، انتهى . والخلاف فيما إذا لم تكن المدينة على طريقه ؛ لأن مأخذ مَنْ رجّح البداءة بمكة المبادرة إلى قضاء الفرض ، ولهذا قال الموفق ابن قدامة : قال أحمد : وإذا حج الذى لم يحج قط — يعنى من غير طريق

الشام - لا يأخذ على طريق المدينة ؛ لأنى أخاف أن يحدث به حدث ، فينبغى أن يقصد مكة من أقصر الطرق ولا يتشاغل بغيره ، قال السبكي : وهو فى العمرة متجه ؛ لإمكان فعلها متى وصل ، وأما الحج فله وقت مخصوص فإذا كان متسعا لم يفت بمروره بالمدينة شىء . قلت : ومع ذلك فهو فى الفرض ، ولهذا قال فى الفصول : نقل صالح وأبو طالب : إذا حج للفرض لم يمر بالمدينة ؛ لأنه إن حدث به حدث الموت كان فى سبيل الحج ، وإن كان تطوعا بدأ بالمدينة ، انتهى . وممن نص على المسئلة أيضا الإمام أبو حنيفة على ما نقله أبو الليث السمرقندى ، وقال : إن الأحسن البداء بمكة .

الثمانون : اختصاص أهلها فى قيام رمضان بستة وثلاثين ركعة ، على المشهور عند الشافعية ، قال الرافعى والنووى : قال الشافعى : رأيت أهل المدينة يقومون بتسع وثلاثين ركعة ، منها ثلاث للوتر ، قال أصحابنا : وليس لغير أهل المدينة ذلك ؛ لشرفهم بمجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبره . ثم قال الرافعى : وسبب فعل أهل المدينة ذلك أن الركعات العشرين خمس تروى بحات ، وكان أهل مكة يطوفون بين كل تروى تحتين أسبوعا^(١) ، ويصلون ركعتي الطواف أفرادا ، وكانوا لا يفعلون ذلك بين الفريضة والتراوىح ولا بين التراوىح والوتر ، فأراد أهل المدينة أن يساووهم فى الفضيلة ، فجعلوا مكان كل أسبوع - أى مع كل ركعتيه - تروىحة ؛ فحصل أربع تروىحات هى ستة عشر ركعة ، انتهى .

ونقل الرويانى فى البحر هذا السبب عن الشافعى . وقال القاضى أبو الطيب الطبرى : قال الشافعى : لا يجوز لغير أهل المدينة أن يماروا أهل مكة ولا ينافسوه لأن الله فضلهم على سائر البلاد ، انتهى . وحاصل التوجيه أن الحسد فى الخير مطلوب ، وهو فى الحقيقة غبطة كما حسد المهاجرون - لما لم يكن لهم ما يتصدقون به - الأنصار فقالوا : ذهب أهل الدُّثُور بالأجور^(٢) ، فأثبت أهل المدينة هذا العدد

(١) يريد سبعة أشواط (٢) يعنى ذهب الأغنياء بالثواب ؛ لأنهم يتمكنون من الصدقة بسبب مالهم ، وهى مستوجبة للأجر ، ولا يستطيعها الفقراء .

بضرب من الاجتهاد ليلحقوا بأهل مكة ، وقد تشارك البلدان في الفضائل حتى اختلف في تفضيل كل منهما على الأخرى ، وجعل لأهل المدينة ما يحصل به ثواب الاعتبار والحج ، وامتازت المدينة بالمهاجر والقبر ، فجعل لأهلها طريق إلى تحصيل تلك الفضيلة السابقة مع إقامتهم بها ، ولعله لو لم يشرع لهم ذلك لملتزم الرغبة في الخير على الانتقال إلى مكة ، وسكنى المدينة مطلوب ، وأما غيرهم فليس له شيء من هذا الفضل ، فكيف يتأتى له مساواة أهل مكة ؟ فلم يشرع لهم ذلك ، هذا ، وإجماع أهل المدينة حجة عند مالك ، والقيام بهذا العدد بالمدينة باقٍ إلى اليوم إلا أنهم يقومون بعشرين ركعة عقب العشاء ، ثم يأتون آخر الليل فيقومون بستة عشر^(١) ركعة ، فوقع لهم خلل في أمر الوتر نبهنا عليه في كتاب « مصابيح القيام ، في شهر الصيام » وكنت قد ذكرت لهم ما يحصل به إزالة ذلك ، ففعلوه مدة ، ثم غابت الحظوظ النفسية على بعضهم فعاد الأمر كما كان .

الحادية الثمانون : زيادة البركة بها ، على مكة المشرفة ، وقد قدمنا حديثاً يشير إلى أن المدعوبه لها ستة أضعاف ما بمكة من البركة ، والمصرح به في الأحاديث « ضعفي ما جعلت بمكة من البركة » وفي بعضها « مثل ما جعلت بمكة من البركة ومع البركة بركتين » .

الثانية والثمانون : نقل عن مالك أن خبر الواحد إذا عارضه إجماع أهل المدينة قزم إجماعهم ، ولهذا روى حديث خيار المجلس ثم قال : وليس لهذا عندنا حدم معلوم ولا أمر معمول به ؛ لما اختص^(٢) به أهل المدينة من سكناتهم مهبط الوحي ومعرفتهم بالناسخ والمنسوخ ، فمخالفتهم تقتضى علمهم بما أوجب ترك العمل من ناسخ أو دليل راجح ، والمحققون على أن البقاع لا أثر لها في ذلك ، وقد بلغ ابن أبي ذئب - وهو من أقران مالك - مخالفة الحديث فأغلظ في ذلك لأن العصمة إنما

(١) كذا ، وحق العربية أن يقول « بست عشرة ركعة » .

(٢) هذا تعليل لتقديم إجماع أهل المدينة .

ثبت في إجماع جميع الأمة ، ويؤخذ من كلام مالك اختصاص ذلك بعمل أهل ذلك العصر من أهل المدينة^(١) .

الثالثة والثمانون : حديث النسائي والبخاري والحاكم واللفظه « يوشك الناس أن يضربوا أكباد الإبل فلا يجدوا عالماً أعلم من عالم المدينة » وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقد كان ابن عيينة يقول : نرى هذا العالم مالك بن أنس ، انتهى . قال الزركشي : وفيما حكاه عن سفيان نظر ؛ ما في صحيح ابن حبان أن إسحاق بن موسى قال : بلغني عن ابن جريح أنه كان يقول : نرى أنه مالك ابن أنس ، فذكرت ذلك لسفيان بن عيينة فقال : إنما العالم من يخشى الله ، ولا نعلم أحداً كان أخشى لله من العمرى ، قال التوربشتي في شرح النصيب : يعني عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب ، كان من عباد الله الصالحين المشائين في بلاده وعباده بالنصيحة . بلغنا أنه كان يخرج إلى البادية ليتفقد أهلها شفقة عليهم وأداء الحق للنصيحة فيهم ، وقد أخرج الترمذي الحديث وحسنه ، وتكلم ابن حزم فيه ، ثم قال : ولم يتعين هذا في مالك ؛ لأنه كان في عصره جماعة لا يفضل على واحد منهم ، وكان بالمدينة من هو أجل منه كسعيد بن المسيب ؛ فهذا الحديث أولى به . وقال ابن عينة : لو سئل : أي الناس أعلم ؟ لقالوا : سفيان الثوري ، قال ابن حزم : وإن صح هذا الحديث فإنما يكون إذا قرب قيام الساعة وأررز الإيمان إلى المدينة وغلب الدجال على الأرض خلا مكة والمدينة ، وأما حتى الآن فلم يأت صفة ذلك الحديث ؛ لأن الفقه انقطع من المدينة جملةً ، واستقر في الآفاق ، انتهى . ولا يخلو عن نزاع .

الرابعة والثمانون : تحريم نقل أحجار حرمها وترا به كما سيأتي بيانه .

(١) لأن أهل ذلك العصر هم الذين شاهدوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأوا ما يفعلون وما يتركون ؛ فإذا اتفقوا على فعل شيء أو تركه دل على أنه لم يكن في الصحابة من يخالف ذلك ، وإلا لوجد من يعمل على غرار عمل المخالف من الصحابة .

الخامسة والثمانون : لو نذر تطيبَ مسجد المدينة وكذا الأقصى ففيه تردد لإمام الحرمين ؛ لأننا إن نظرنا إلى التعظيم ألحقناهما بالكعبة ، أو إلى امتياز الكعبة بالفضل فلا ، وكلام الغزالي في آخر باب النذر يقتضي اختصاصه بالمسجدين كما فرضناه ، لافي غيرهما من المساجد ، والإمام طردّه في الكل ، وحيث كان الملحظ ما ذكر فينبغي أن لا يتوقف فيما لو نذر تطيب القبر الشريف .

السادسة والثمانون : إذا نذر زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم لزمه الوفاء بذلك وجهاً واحداً ، وفي وجوب الوفاء في زيارة قبر غيره وجهان ، قاله ابن كجب ، وأقره عليه الرافعي والنووي وغيرهما .

السابعة والثمانون : قيامُ مسجدِها مقام المسجد الأقصى كالمسجد الحرام فيما لو نذر الصلاة أو الاعتكاف في الأقصى ؛ فإن الأصح لزومه به ، وأجزأ مسجد المدينة لزيادة فضله ، ولو نذرهما بمسجد المدينة لم يحجزه فعل ذلك بالأقصى ويجزيه بالمسجد الحرام .

الثامنة والثمانون : الاكتفاء بزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن نذر إتيان مسجد المدينة ، كما قال الشيخ أبو علي تفريعاً على القول بلزوم إتيانه كما قاله الشافعي والبويطي وعلى أنه لا بد من ضم قرربة إلى الإتيان كما هو الأصح تفريعاً على اللزوم ، وعلمه الشيخ أبو علي بأن زيارته صلى الله عليه وسلم من أعظم القربات ، وتوقف في ذلك الإمام من جهة أنها لا تتعلق بالمسجد وتعظيمه ، قال : وقبائسه أنه لو تصدق في المسجد أو صام يوماً كفاه ، وفيه نظر ، على أن الصحيح مانع عليه في المختصر من عدم لزوم الإتيان ، وإن كان اللزوم أرجح دليلاً ، ورجح الرافعي تفريعاً على اللزوم ضم صلاة أو اعتكاف ، وكذا إذا نذر إتيان الأقصى ، فإن نفس المرور لما لم يكن في نفسه مزية انصرف النذر إلى ما يقصد فيه من القرب وبهذا يترجح ما قاله الشيخ أبو علي ؛ لأن إتيان مسجد المدينة يقصد للصلاة والاعتكاف والزيارة بخلاف غيره

التاسعة والثمانون : قال ابن المنذر: إذا نذر أن يمشى إلى مسجد الرسول والمسجد الحرام لزم، الوفاء به لأنه طاعة ؛ ومن نذر أن يمشى إلى بيت المقدس كان بالخيار: إن شاء مشى إلى المسجد الأقصى ، وإن شاء مشى إلى المسجد الحرام ؛ لحديث أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إني نذرت إن فتح الله عليك مكة أن أصلي في مسجد بيت المقدس ، قال صلى الله عليه وسلم «صَلِّ هُنَا ، ثَلَاثًا» انتهى . ويعلم مما تقرر في أجزاء مسجد المدينة عن الأقصى في الإتيان والصلاة إجزاؤه هنا كالمسجد الحرام ، والذي اقتضاه كلام البغوي تصحيح عدم لزوم المشى في مسجد المدينة والأقصى ، وهو الذي رجحوه .

التسعون : قوله صلى الله عليه وسلم في أحاديث تحريمها « ولا يَحْمَلُ فِيهَا سِلَاحٌ لِقِتَالٍ » .

الحادية والتسعون : قوله فيها أيضاً « ولا تَلْتَقِطْ لِقَطْتَهُ إِلَّا مَنْ أَشَادَ بِهَا ^(١) » .
الثانية والتسعون : إذا قلنا بضمان صيده، وقطع شجرها فالصحيح أنه يُسَلَبُ الصائد كما يسلب قَتِيلُ الكفار ، وهذا أبلغ في الزجر من الجزاء ^(٢) .
الثالثة والتسعون : جواز نقل ترابها للتداوى .

الرابعة والتسعون : ظهور نار الحجاز التي أخبر بها صلى الله عليه وسلم ، ما حولها ؛ لأنها للإنذار ، فاختصت ببلد النذير ، ثم لما بلغت الحرم وكان مُحَرَّمَةً المبعوث بالرحمة خمدت وطفئت ، على ماسياتي .

الخامسة والتسعون : دعاؤه صلى الله عليه وسلم بالبركة في سوقها .
السادسة والتسعون : ماسياتي في سوقها من أن الجالب إليه كالمجاهد في سبيل الله .

السابعة والتسعون : أن المحتكر فيه كالمحدد في كتاب الله .
الثامنة والتسعون : ماسياتي في بئر غرس من أنه صلى الله عليه وسلم « رأى

(١) أشاد بها : عرفها ونوه بها ، والمراد أنه لا يجوز التقاطها للتملك .

(٢) قد شرع الله جزاء لمن قتل صيد مكة وهو محرم .

أنه أصبح على بئر من آبار الجنة ، فأصبح على بئر غرس « ورؤيا الأنبياء حق ، عليهم الصلاة والسلام ! .

التاسعة والتسعون : ما سبق في ثمارها من أن العَجْوَة من الجنة ؛ فقد اشتملت المدينة على شيء من أرض الجنة ومياها وثمارها ، والله أعلم .

الفصل الثامن

في الأحاديث الواردة في تحريمها ، وهي كثيرة

روينا في الصحيحين منها حديث عبد الله بن زيد « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها » ، وفي لفظ « ودعا لأهلها » ، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة » الحديث .

وفي البخاري حديث أبي هريرة رضي الله عنه « حرم ما بين لا بتي ^(١) المدينة على لساني » قال : وأتى النبي صلى الله عليه وسلم بني حارثة فقال : « أراكم يا بني حارثة قد خرجتم من الحرم ، ثم التفت فقال : بل أنتم فيه » وسيأتي بيان منازلهم ^(٢) ، وفيه أيضاً عنه : لو رأيت الظباء بالمدينة ترتع ما ذعرتُها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بين لا بتيها ^(١) حرام » وهو في مسلم بزيادة ، ولفظه « حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين لا بتي ^(١) المدينة » قال أبو هريرة : فلو وجدت الظباء ما بين لا بتيها ^(١) ما ذعرتُها ، وجعل اثني عشر ميلاً حول المدينة رحى .

وفي مسلم أيضاً عن عاصم الأحول : « سألت أنسا أحرمت رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ؟ قال : نعم ، هي حرام : لا يُخْتَلَى خَلَاها ^(٣) ، فمن فعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

وفيه أيضاً حديث رافع بن خديج رضي الله عنه « إن إبراهيم حرم مكة ، وإني أحرمت ما بين ^(١) لا بتيها » يريد المدينة .

(١) اللابتان : مثني لابة ، وهي الحرة على ماسياتي للمؤلف (ص ٩١) .

٢ انظر ص ٩١ .

(٣) لا يُخْتَلَى : أي لا يجز ولا يقطع ، والخلى : الرطب من النبات .

وفيه أيضاً حديث جابر « إن إبراهيم حرم مكة ، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها : لا تقطع عِصَاهُهَا ، ولا يصاد صيدها » .

وفيه أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري « اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراماً ، وإني حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها ، أن لا يهراق فيها دم ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال ، ولا يخبَطَ^(١) فيها شجرة إلا لعلف » الحديث .
وفيه أيضاً من حديث أنس « اللهم إني أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم إبراهيم عليه السلام مكة » .

قلت : المراد بجبليها غير وثور ، وهما المعبر عنهما في الحديث قبله بمأزميها على ما صوّبه النووي ، ونسبة تحريم مكة لإبراهيم عليه السلام دليل لما ذهب إليه جماعة من أنها لم تزل حلالاً كغيرها إلى زمن إبراهيم عليه السلام ، فحرمت ، والثاني — وصححه النووي ، ونقل عن الأكثرين — أنها لم تزل حراماً منذ خلق الله السموات والأرض ، ثم أظهر الله تعالى ذلك على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام . قال الزركشي : وفيه جمع بين الأحاديث . قلت : الأحكام قديمة ؛ لأنها خطاباته تعالى ، والحادث إنما هو تعلقاتها بالمكلفين ، فإذا كان ظهور تحريمها على لسان إبراهيم عليه السلام فذلك أول تعلق الحكم التكليفي ، فما معنى ما يقوله الثاني من تحريمها يوم خلق الله السموات والأرض مع انتفاء التعلق التكليفي حينئذ ؟ ويجوز أن يكون بمعنى أن الله تعالى أظهر ذلك للملائكة يوم خلق السموات والأرض وعرفهم به ، وتأخر تعلق التكليف به حتى ظهر على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام وهذا لا ياباه القول الأول ، بل يسلمه ، وهو حسن ، وبه يجتمع معنى الأحاديث ، ولا يخفى أن خطاب الله تعالى بتحريم المدينة قديم أيضاً ، وتأخره من حيث التكليف إلى أن أظهره النبي صلى الله عليه وسلم ليس فيه حط لرتبتها ، بل دليل كمالها حيث ادّخر الله ذلك حتى جعله على لسان أشرف المرسلين صلوات الله

(١) لا يخبَط شجرها : أي لا تشد أغصانها وينفض ورقها .

وسلامه عليه ، مع أنهم ذكروا في معنى تحريم إبراهيم لها احتمالين : أحدهما : أنه بأمر الله تعالى له ، والثاني : أنه دعاً لها فحرمها الله بدعوته ، ويقال مثله في تحريمه صلى الله عليه وسلم للمدينة .

وقوله : « ما بين لا بتيها » أي حرّتيها الشرقية والغربية والمدينة بينهما ، ولها أيضاً حرّة بالقبلة وحرّة بالشام ، لكنهما يرجعان إلى الشرقية والغربية لاتصالهما بهما ، ولهذا جمعها صلى الله عليه وسلم كلها في اللابتين كما نبه عليه الطبري .

قال النووي : وهو حد الحرم من جهة لمشرق والمغرب ، وما بين جبلتها بيان لحده من جهة الجنوب والشمال ، قال : ومعنى قوله « ما بين لا بتيها » اللابتان وما بينهما ، والمراد تحريم المدينة ولا بتيها .

قلت : ويؤيده أن اللابتين شرقاً وغرباً في محاذة أحد الجبلين الآتي بيانهما ، وأن منازل بني حارثة في محاذة اللابة الغربية على ما اقتضاه كلام المطري فيما قدمناه عنه من الباب الأول في ترجمة أثرب ، والذي ترجح عندي أن منازلهم كانت باللابة الشرقية مما يلي العريض وما قارب ذلك ؛ لأن الإسماعيلي روى الحديث المتقدم بلفظ « ثم جاء بني حارثة وهم في سَنَد الحرة » أي الجانب المرتفع منها ، وسيأتي في منازلهم ما يبين أن المراد الحرة الشرقية ، وليس الموضع الذي ذكره المطري في سَنَد واحدة من الحرتين ، والله أعلم . ويؤيد أيضاً ما قاله النووي أن البيهقي روى في المعرفة حديث الصحيفة عن علي بن أبي طالب « إن إبراهيم حرم مكة ، وإنني أحرم المدينة ما بين حرتيها وجمامها ^(١) : لا يُخْتَلَى خَلاَهَا ، ولا يَنْفَرُ صَيْدُهَا ، ولا يلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها » يعني أنشد « ولا يقطع شجرها إلا أن يعلف

(١) جمام المدينة - بكسر الجيم في أوله - هي ثلاثة أجبل في وادي العقيق على عيمين الناهب إلى مكة ويسار الناهب في المسيل إلى جهة القبليتين والجرف ، وهي مشهورة بالجموات (مكي) .

رجل بعيرا ، ولا يحمل فيها سلاح لقتال » الحديث ، ورواه أحمد كذلك أيضاً ، وهو حديث صحيح ، وجمام المدينة ثلاثة كما سيأتي ، وهي مما يلي حرثها الغربية من جهة المغرب والحرث بين الجمام والمدينة .

وروى مسلم حديث الصحيفة بلفظ « المدينة حَرَم ما بين عَيْر إلى ثَوْر » والبخارى بلفظ « المدينة حرم ما بين عاير إلى كذا » وأبو داود بلفظ « المدينة حرام ما بين عاير إلى ثور » ثم زاد فيه وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يَخْتَلِي خَلَاَهَا ، ولا يَنْفِر صَيْدَهَا ، ولا يَلْقُظ لَقْظَهَا إلا من أشاد بها ، ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال ، ولا أن يقطع منها شجرة إلا أن يعلمف رجل بعيره » ورواه الطبراني برجال موثقين مختصرا ، ولفظه عن أبي جحيفة أنه دخل على علي رضي الله عنه فدعا بسيفه ، فأخرج من بطن السيف أدما عربيا ، فقال : ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا غير كتاب الله الذي أنزل إلا وقد بلغته غير هذا ، فإذا : بسم الله الرحمن الرحيم ، محمد رسول الله قال : « لكل نبي حَرَم وحرَم المدينة » .

الفصل التاسع

في بيان عَيْر وثور

وهما المراد بجبلية كما تقدم .

أما عَيْر — بفتح العين المهملة وسكون الياء آخر الحروف بلفظ العير مرادف الحمار ، ويقال : عاير — فجبل كبير مشهور في قبلة المدينة بقرب ذي الحليفة ميقات المدينة .

موقع
جبل عير

وأما ثور — بالمثلثة بلفظ الثور فَحَلَّ البقر — فجبل صغير خاف أحد كما سنحقه ، فإنه خفي على جماعة من فحول العلماء فاستشكلوا الحديث ، وقالوا : ليس بالمدينة ثور ، إنما هو بمكة ، ولهذا في أكثر روايات البخارى من عاير إلى كذا ، وفي بعضها من عير إلى كذا ، ولم يبين النهاية ، فكأنه يرى أن ذكر ثور وهم فأسقطه ،

موقع
جبل ثور

وترك بعض الرواة موضع ثور بياضا ليتبين الوهم ، وضرب آخرون عليه .

الاختلاف
في وجود جبل
ثور بالمدينة

وقال المازري : نقل بعض أهل العلم أن ذكر ثور هنا وهم من الراوى ؛ لأن ثورا بمكة ، والصحيح « إلى أحد » .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : غير وثور جبلان بالمدينة ، وأهل المدينة لا يعرفون بها جبلا يقال له ثور ، وإنما ثور بمكة ، قال : فإذا نرى أن الحديث أصله « ما بين غير إلى أحد » .

قلت : وكذا رواه الطبراني برجال ثقات ، بلفظ « ما بين غير وأحد حرام ، حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم » وهو كذلك في رواية لابن زبالة .

وقال الحازمي : الرواية الصحيحة « ما بين غير إلى أحد » وقيل : « إلى ثور » وليس له معنى ، وتكلف بعضهم فقال : إلى بمعنى مع ، كأنه جعل المدينة مضافة إلى مكة في التحريم لأن ثورا بها .

وقال الموفق بن قدامة : يحتمل أن المراد تحريم قَدْر ما بين ثور وغير الذين بمكة ، أو سمى النبي صلى الله عليه وسلم الجَبَيْنِ الذين بطرفي المدينة غيرا وثورا أرتجالا ، انتهى . وهو يقتضى إنكار وجود غير بالمدينة أيضا .

وقد قال الزركشي : نقل عياض عن بعضهم أنه ليس بالمدينة ولا ما يقرب منها جبل يعرف بأحد هذين الاسمين ، أعنى غيرا وثورا . قال ياقوت في معجمه : وهذا وهم ، فإن غيرًا جبل مشهور بالمدينة ، وقال ابن السّيد : غير جبل بقرب المدينة ، وعبارة عياض في المشارق : غير وعابر المذكوران في حرّم المدينة في أكثر الروايات غير ، وفي حديث عليّ عابر ، قال الزبير بن بكار : هو جبل بالمدينة ، وقال عمه مصعب : لا يعرف بالمدينة غير ولا ثور ، انتهى .

وقال في المطالع : أكثر رواة البخاري ذكروا غيرا ، وأما ثور فمنهم من كنى عنه بكذا ، ومنهم من ترك مكانه بياضا ، والأصل في هذا التوقف قول

مصعب الزبيري. ليس بالمدينة غير ولا ثور، وأثبت غيره غيرا، وواقفه على إنكار ثور.
قلت: سيأتي في ترجمة غير من فصل البقاع عن مصعب الزبيري ما يقتضي
إثباته له، وشهرة غير غير خافية بين العلماء، إنما الغرابة في ثور.

وقال النووي عقب نقل الحازمي المتقدم: ويحتمل أن ثورا كان اسما لجبل
هناك: إما أحد، وإما غيره، فحفي اسمه.

وقال صاحب البيان والانتصار: قد صحت الرواية بلفظ ثور؛ فلا ينبغي
الإقدام على توهيم الرواة بمجرد عدم العرفان، فإن أسماء الأماكن قد تتغير،
أو تنسى ولا يعلمها كثير من الناس، قال: وقد سألت بمكة عن وادي
مُحَسَّر وغيره من أَمَا كُنْ تتعلق بالنُّسْك، فلم أخبر عنها مع تكرر مجيء الناس
إليها. فإظنك غيرها؟ وأيضا فقد يكون للشيء اسمان فيعرف أحدهما دون الآخر.
وقال المجد: لا أدري كيف وقعت المسارعة من هؤلاء الأعلام إلى إثبات
وهم في الحديث المتفق على صحته، بمجرد ادعاء أن أهل المدينة لا يعرفون جبلا
يسمى ثورا. وذكر احتمال طرق التغيير في الأسماء والنسيان لبعضها، قال: حتى
إني سألت جماعة من فقهاء المدينة وأمرائها وغيرهم من الأشراف عن فِدَاك^(١) ومكانها
فكلهم أجابوا بعدم معرفة موضع يسمى بذلك في بلادهم، مع أن هذه القرية
لم تبرح في أيدي الأشراف والخلفاء يتداولونها إلى أواخر الدولة العباسية، فكيف
بجبل صغير لا يتعلق به كبير أمر، مع أنه معروف بين أهل العلم بالمدينة، ونقل
بعض الحفاظ وصفه بذلك خلفا عن سلف؟ اهـ.

قلت: قد حكى البيهقي في المعرفة قول أبي عبيد: أهل المدينة لا يعرفون جبلا يقال له
ثور، ثم قال البيهقي: وبلغني عن أبي عبيدة أنه قال في كتاب الجبال: بلغني أن
بالمدينة جبلا يقال له ثور، انتهى.

(١) فِدَاك: قرية كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي التي طالبت فاطمة
الزهراء أبا بكر الصديق بأن يورثها إياها؛ فروى لها حديث «نحن معاشر الأنبياء
لا نورث ما تركناه صدقة».

وتقل المجد في ترجمة عير عن نصر أنه قال : عير جبل يقابل الثنية المعروفة بشعب الجوز ، وثور جبل عند أحد ، انتهى . فدل على أن ما اشتهر في زماننا وقبله من وجود ثور بالمدينة له أصل في الزمن القديم ، وإن خفي على بعضهم ، وقد أخبرني بوجوده جماعة كثيرة من الخواص ، وأروني إياه خلف أحد ، ونقل جماعة عن المحدث أبي محمد عفيف الدين عبد السلام بن مزروع البصري نزول المدينة المشرفة أنه رآه غير مرة ، وأنه لما خرج رسولا من صاحب المدينة إلى العراق كان معه دليل يذكر له الأماكن والأجبل ، فلما وصل إلى أحد إذا بقرة به جبل صغير ، فسأله : ما اسم هذا الجبل ؟ فقال له : يسمى ثورا ، وقد حكى عنه نحو هذا القطب الحلبي في شرح البخاري ، وقال المحب الطبري : أخبرني الثقة الصدوق الحافظ العالم المجاور بحرم رسول صلى الله عليه وسلم عبد السلام البصري أن حذاء أحد عن يساره جانحا إلى ورائه جبل صغير يقال له ثور ، وأخبر أنه تكرر سؤاله عنه لطوائف من العرب العارفين بتلك الأرض وما فيها من الجبال ، فكل أخبر أن ذلك الجبل اسمه ثور ، قال الطبري : فعلمنا بذلك أن ما تضمنه الحديث صحيح ، وعدم علم أكابر العلماء به لعدم شهرته وعدم بحثهم عنه ، انتهى .

وقد رد الجمال المطري في تاريخه على من أنكر وجود ثور ، وقال : إنه خلف أحد من شماليه ، صغير مدور ، يعرفه أهل المدينة خلف عن سلف . وقال الأقسري : وقد استقصينا^(١) من أهل المدينة تحقيق خبر جبل يقال له ثور عندهم ، فوجدنا ذلك اسم جبل صغير خلف جبل أحد يعرفه القدماء دون المحدثين من أهل المدينة ، والذي يعلم حجة على من لا يعلم ، اه . وقال العلامة أبو العباس بن تيمية : عير جبل عند الميقات يشبه العير ، وهو الحمار ، وثور جبل في ناحية أحد ، وهو غير جبل ثور الذي بمكة .

وروى بعض شراح المصابيح أن الله تعالى لما كلم موسى عليه السلام على الجبل

(١) استقصينا : تنقنا ، يريد أنه بالغ في سؤالهم عنه فعلم من أجوبتهم أن القدماء هم العارفون بموضعه .

تقطع سِتَّ قطع ، فصارت ثلاث بمكة : حراء ، و ثَمِير ، و ثور ، وثلاث بالمدينة : عير ، و ثور ، و رَضْوَى ، و كأن ثورا سمى باسم فَحْلِ البَقَرِ لشبهه به ، وهو إلى الحمرة أقرب ، وقد صح بما قدمناه أن أحداً من الحرم ؛ لأن ثورا حده من جهة الشام كما أن عيرا حده من جهة القبلة ، ويقوم ذلك على الرواية التي فيها ذكر أحد بدل ثور ، لما في ذلك من الزيادة عليها ، وأنها من باب ذكر فردٍ مما شمله ذلك العموم بحكم العموم فلا تخصص ، مع إفادتها لإدخال ما حاذى أطراف أحدٍ شرقاً وغرباً ، وما وقع في الشرحين والروضة وغيرهما من التحديد بما بين اللابتين و بما بين عَيْرٍ وأحد مبنى على ما تقدم من أن الرواية الصحيحة « أحد » لعدم وجود ثور ؛ فقد اتضح الحال ، والله الحمد .

الفصل العاشر

في أحاديث تقتضي زيادة الحرم
على ذلك التحديد ، وأنه مقدر يريد

أعلم أن قوله في حديث مسلم « وجعل اثني عشر ميلاً حول المدينة حِمْيَ » ظاهر في التحريم لذلك القدر ؛ إذ حول المدينة إنما هو حرمها ، وحمى النبي صلى الله عليه وسلم الذي ليس بحرم لم يكن حول المدينة على ما سيأتى بيانه ، ولأن التقي السبكي قال : إن في سنن أبي داود تحديد حرم المدينة بريد من كل ناحية ، قال : وإسناده ليس بالقوى ، والذي رأيته في أبي داود عن عدى بن يزيد « حَمَى رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ناحية من المدينة بريداً بريداً ، لا يُخْبِطُ شجره ، ولا يُعْضَدُ إلا ما يساق به الجمل » رواه البزار بنحوه ، ورواه ابن زبالة بلفظ « حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم شجر المدينة بريداً في بريد منها ، وأذن في المسد^(١) والمنجدة ومنازع الناضح أن يقطع منه » والمنجدة : عصا الناضح^(٢)

وروى المفضل الجندی عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال ، في

(١) المسد : مرود البكرة ، وسيفسره المؤلف بهذا في الفصل التالي .

(٢) المنجدة : عصا صغيرة تحث بها الدابة على السير ، أو ينفش بها الصوف ، وعود يحشى به حقيبة الرجل .

قصة العبد الذي وجدته يعضد - أو يخبط - عضاها بالعقيق : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَنْ وجد من يعضد أو يخبط ^(١) شيئاً من عِصَاهِ المدينة يريد أن يريده فله سَلَبُهُ ، فلم أكن لأرد شيئاً أعطانيه رسول الله صلى الله عليه وسلم » وروى البزار عن جابر قال : « حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يريد من نواحيها » .

وفي الأوسط للطبراني - وفيه ضعيف - عن كعب بن مالك قال : « حَرَّمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الشجر بالمدينة يريد أن يريده ، وأرسلني فأعلمت على الحرم : على شرف ذات الجيش ، وعلى شريب ، وعلى أشراف مخيض » . ورواه ابن النجار ملفظ « حَرَّمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يريد أن يريده ، وأرسلني فأعلمت على الحرم : على شرف ذات الجيش ، وعلى مشرب ، وعلى أشراف المجتهر ، وعلى تيم » ورواه ابن زبالة بهذا اللفظ ، إلا أنه أسقط أشراف المجتهر ، وأبدل تيم بثيب ، وزاد « وعلى الحفيا ، وعلى ذى العشرة » . وروى أيضاً عن كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم « حمى الشجر ما بين المدينة إلى وعيرة ، وإلى ثنية المحدث ، وإلى أشراف مخيض ، وإلى ثنية الحفيا ، وإلى مضرب القبة ، وإلى ذات الجيش : من الشجر أن يقطع ، وأذن لهم في متاع الناضح أن يقطع من حمى المدينة »

وروى أيضاً عن سلمان بن كعب الديناري أن النبي صلى الله عليه وسلم « نَزَلَ بِمَضْرِبِ القبة وقال : ما بيني وبين المدينة حمى لا يُعْضَدُ ، فقالوا : إلا المسد ، فأذن لهم في المسد » . وروى أيضاً من طريق مالك بن أنس عن أبي بكر بن حزم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الحمى : « إلى مضرب القبة » قال مالك : وذلك نحو من يريد ^(٢) .

(١) يعضد : يقطع ويجز ، ويخبط : يؤخذ ورقه ، وهذا هو الفرق بين اللفظين في المعنى ، والعصاه : كل شجر عظيم له شوك .

(٢) سيتكلم المؤلف في الفصل التالي عن أسماء الأماكن التي في هذه الأحاديث

وروی ایضا عن جابر مرفوعاً « كل دافعة دفعت علينا من هذه الشَّعَابِ
فهي حرام أن تعضد - أو تحبب ، أو تقطع - إلا لعصفورٍ قَتَبٍ أو مَسَدٍ مَحَالَةٍ
أو عصا حديدة »^(۱) .

وفي الأوسط للطبرانی بإسناد حسن عن الحسن بن رافع أنه سأل جابر بن
عبد الله فقال : لنا غنم وغلماں ، ونحن وهم بثرير ، فهم يخبطون على غنمهم هذه
الثمره ، يعنى الحُبْلَةَ - قال خارجة : وهى ثمر السَّعْرِ - قال جابر : لا يخبط
ولا يعضد حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن هشوا هشا ، ثم قال جابر :
إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لينع أن يقطع المَسَدَ ، قال خارجة : والمسد
مرود البكرة .

وروى ابن زبالة عن أبي سعيد الخدري قال : بعثتني عمتي إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم تستأذنه في مَسَدٍ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ
عمتك السلام ، وقل لها : لو أذنت لكم في مَسَدٍ طلبتم ميزابا ، ولو أذنت لكم في
ميزاب طلبتم خشبة ، ثم قال : حمای من حيث استأقت »^(۲) بنو فزارة لقاحی .

الفصل الحادى عشر

في بيان ما في هذه الأحاديث من الألفاظ المتعلقة بالتحديد ، وَمَنْ ذهب إلى مُقْتَضَاهَا
قوله : « شرف ذات الجيش » قال ابن زبالة : ذات الجيش : لقب ثنية الحفيرة من
طريق مكة والمدينة ، وقال المطري : هى وسط البيداء ، والبيداء هى التى إذا رَحَلَ
الحُجَّاج من ذى الحُلَيْفَةِ استقبلوها مُصْعِدِينَ إلى جهة الغرب ، وهى على جَادَةِ الطريق .
قلت : ويؤيده قول ياقوت : ذات الجيش موضع بعقيق المدينة ، أراد
بقربه ، أولأن سَيِّلَهَا يدفع فيه كما سيأتى ، وقد رأيتُه يُطْلَقُ ذلك على

ذات الجيش

(۱) القتب : رحل البعير ، وعصفوره : أحد أعواده ، والمسد : مرود البكرة كما
قال المؤلف ، أو جبل مفتول من لحاء الشجر ، وعصا الحديدية : مثل خشبة الفأس والقدوم
(۲) في المطبوعات هنا « من حيث اتسقت » وفيما يأتى (ص ۱۰۱) « من
حيث ابتسقت » وكلاهما تطبيع فيما نرى .

ما يدفع في العقيق وإن بُعد عنه . وقال أبو عبد الله محمد بن أحمد الأسدي في وصف الطريق بين مكة والمدينة : إن من ذى الحليفة إلى الحفيرة ستة أميال ، قال : وهي متعشا ، وبها بئر طيبة وحوض ، وعمر بن عبد العزيز هو الذى حفر البئر ، وبها أبيات ومسجد ، اه . ومقتضاه أن يكون ثنية الحفيرة بعد البئر ، فلعلها ثنية الجبل المسمى اليوم بمفرح ، وهناك وادٍ قبل وادى تربان يسمونه سُهمان ينطبق عليه الوصف المذكور ، وهو موافق لقول من قال : ذات الجيش وادٍ بين ذى الحليفة وتربان . فأطلق اسمها على الوادى التى هى فيه ، ولقول عياض : ذات الجيش على بريد من المدينة ، وهو ظاهر رواية الطبرانى المتقدمة ، لكنه مخالف لما سيأتى فى معنى التحديد بالبريد ، وهناك حُبس النبىُّ صلى الله عليه وسلم فى ابتغاء عَقْد عائشة رضى الله عنها ، ونزلت آية التيمم ، والترديد فى حديث عائشة « حتى إذا كنا بالبيداء [أو] بذات الجيش » كأن سببه قرب الموضعين ، وهو ظاهر فى المغيرة بينهما . وقال أبو على الهجرى : ذات الجيش : شعبة على يمين الخارج إلى مكة بحذاء الحفيرة ، قال : وصدر الحفيرة وما قبل من الصُّلُصُلين يدفع فى بئر أبى عاصية ، ثم يدفع فى ذات الجيش ، وما دبر منها يدفع فى البطحاء ، ثم تدفع البطحاء من بين الجبلين فى وادى العقيق ، وذات الجيش تدفع فى وادى أبى كبير ، وهو فوق مسجد الحرم والمعرس ، وطرف أعظم الغربى يدفع فى ذات الجيش ، وطرفه الثانى يدفع فى البطحاء .

قلت : وأعظم - ويقال عظم كما سيأتى - جبل معروف اليوم على جادة مكة ، قال المطرى : وهو فى شامى ذات الجيش ، ويشهد له ما سبق عن الهجرى . قوله « شريب » الظاهر أنه مشرب تصغير مشرب كما فى الرواية الأخرى ، وهو ما بين جبال فى شامى ذات الجيش ، بينها وبين خلائق الضبوعة ، والضبوعة منزل عند يَلِيل^(۱) .

شريب

(۱) يليل - بفتح الياءين بينهما لام ساكنة - موضع قرب وادى الصفراء .

أشرف مخيض قوله : « أشرف مخيض » بلفظ المخيض من اللبن - هي جبال مخيض من طريق الشام ، قاله ابن زبالة ، وقال الهجرى : مخيض وادٍ يصب في أضمر على طريق الشام من المدينة ، انتهى ؛ فكأنه يطلق على الجبال وواديها ، وقال المطرى : جبل مخيض هو الذى على يمين القادم من طريق الشام ، حين يُفْضَى من الجبال إلى البركة التى هى مَوْرِدُ الحجاج من الشام ، ويسمونها عيون حمزة .

أشرف المجهر قوله : « أشرف المجهر » كذا رواه ابن النجار ، وتبعه المطرى ، ولم يبيناه ، وقال المجد : هكذا وقع بالجيم والهاء المفتوحة ، فإن صح فهو اسم موضع بالمدينة ، وإلا فيحتمل أن يكون تصحيف « المحصر » بالحاء والصاد المهملتين تصغير « المحصر » موضع قريب من المدينة . قلت : الأقرب أنه تصحيف المخيض ؛ لمحيته بدله فى بقية الروايات .

الحفيا قوله « الحفيا » قال ابن زبالة : هى بالغابة فى شامى المدينة ، وقال الهجرى : وراء الغابة بقليل ، وسيأتى فى ترجمتها أن بينها وبين المدينة نحو ستة أميال .

ذوالعشيرة قوله : « ذى العشيرة » تصغير عشرة من العدد ، قال ابن زبالة : شرقى الحفيا ، وقال المطرى : نقب فى الحفيا .

ثيب قوله : « ثيب » بفتح المثناة ثم مثناة تحتية ساكنة ثم موحدة - كذا فى النسخة التى وقعت عليها من ابن زبالة ، وقال : إنه جبل فى شرقى المدينة ، وكذا هو فى العقيق للزبير بن بكار ، وكذا رأيت مضبوطاً بالقلم فى أصل معتمد من تهذيب ابن هشام ؛ فإنه قال فى غزوة السويق : فخرج أبو سفيان حتى نزل بصّدر قنّاة إلى جبل يقال له ثيب من المدينة على بريد أو نحوه ، وكذا هو فى العقيق لأبى على الهجرى ، إلا أنه قال عقبه : ثيب كتيعب ، فاقتضى أن الباء الساكنة بعدها همزة ، ويشهد لذلك ما سيأتى فى أسماء البقاع فى ترجمة الشظاة من شعر عباس بن مرداس ، وفى كتاب ابن شبة فى حديث سلمة الآتى أول الباب السابع : فقلت يارسول

الله ، تباعد الصيد ، فأنا أصيد بصدور قناة نحو تيب ، كذا رأيت مضبوطاً بالقلم من غير همزة ، لكنه بالمثلثة من فوق ، ووقع في كتاب ابن النجار وتبعه المطري تيم بفتح المنة الفوقية والتحتية وبالميم . قلت : وفي شرق المدينة جبل يعرف اليوم بهذا الاسم ، وقال المجد : إنه تصحيف ، والصواب يتيب ، بلفظ مضارع تاب^(١) إذا رجع ، فهو بالتاء المنة من فوق ، ولذا ذكره في مادتها من القاموس ، وقال في مادتها أيضاً تيأب كفعل موضع ، ولم يتعرض لذلك في التاء المثلثة .

قوله : « وَعِيرة » - بفتح أوله من الوعورة ، وهي خشونة الأرض - جبل شرقية
ثور ، وهو أكبر من ثور وأصغر من أحد .

وقوله : « ثنية المحدث » لم أر من تكلم عليه من مؤرخي المدينة وغيرهم ،
والعجب من المجد كيف أهمله مع إirاده الحديث في كتابه .

قوله : « مضرب القبة » قال المجد كالمطري : ليس اليوم معروفاً ، ولا تعلم
جهته ، قال : والذي يظهر [أنه] ما بين ذات الجيش من غربى المدينة إلى مخيض .
قلت : قال أبو على الهجرى : مضرب القبة بين أعظم وبين الشام نحو ستة أميال ، أى
من المدينة ، وقد تقدم قول مالك عقب التحديد به : وذلك نحو من بريد ، ولعله
يريد مجموع الحرم .

قوله : « بشرير » لم أر من تكلم عليه حتى المجد .

قوله : « من حيث استاقت^(١) بنو قزارة لقاحى » كانت لقاحه صلى الله عليه غزوة ذى قرد
وسلم ترعى بالغابة وما حولها ، فأغار عليها عيينة بن حصن الفزارى يوم ذى
قرد ، وانفق لسامة بن الأكوع ما اتفق من استنقاذ اللقاح ووصول الفرسان
إليه وهو يقاتلهم ويرميهم بالنبل ، وتسميت غزوة ذى قرد بالموضع الذى كان
فيه القتال .

والتحديد بهذه الأما كن مؤيد لكون مجموع الحرم بريداً ، ولذلك قال

(١) لو كان مضارع تاب بمعنى رجع لقل « يتوب »

(٢) فى المطبوعات هنا « ابتسقت » تطبيع ، وانظر (ص ٩٨)

ابن زبالة عقب ما تقدم عنه : وذلك كله يشبه أن يكون بريداً في بريد ، انتهى .
ويحمل عليه قول أبي هريرة في حديث مسلم « وجعل اثني عشر ميلاً حول
المدينة حمى » لأن ذلك هو البريد : أى ستة أميال من جهة قبلتها ، وستة أميال
من جهة شاميتها ، وكذلك في المشرق والمغرب ، ومثله حديث « حمى كل ناحية
من المدينة بريداً » أى من القبلة إلى الشمال بريداً ، ومن المشرق إلى المغرب بريداً ،
وقد أخذ بذلك مالك رحمه الله ، لكن فرّق بين حرم الشجر وحرم الصيد ، وجعل
البريد حرم الشجر ، وما بين اللابتين حرم الصيد .

قال عياض في الإكمال : قال ابن حبيب : تحريم ما بين اللابتين مخصوص
بالصيد ، قال : وأما قطع الشجر فبريد في بريد في دور المدينة كلها ، بذلك أخبرني
مطرف عن مالك ، وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن وهب . انتهى . وحكى
الباجي في المنتقى مثله عن ابن نافع ، ونقل ابن زبالة عن مالك أنه قال : الحرم
حرمان ؛ فحرم الطير والوحش من حرة واقم - أى وهى الحرة الشرقية - إلى
حرة العقيق - أى وهى الغربية - وحرم الشجر بريد في بريد ، وقال البرهان
ابن فرحون : حرم الصيد ما بين حرارها الأربع ، وسماها أربعاً لوجود الحرتين
المذكورتين في الجهات الأربع ؛ لانعطاف بعض الشرقية والغربية من جهة الشمال
والقبلة ، ولم يُعَوَّل أصحابنا في تحديد الحرم على البريد مع ما فيه من الزيادة ؛ لأن
أدلته ليست بالقوية ، فعولوا على ما اشتملت عليه الأحاديث الصحيحة من الجبلين
واللابتين ، على أن إطلاق أحاديث التحريم مقتضى لعدم الفرق بين حرم الشجر
وحرم الصيد ، سواء كان الحرم بريداً أو دونه ، غير أن في أحاديث البريد ما يشعر
بأنه للشجر ، مع أن ابن زبالة - ومجّله من الضعف معلوم^(١) - روى عن ابن بشير
المازنى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحرّم ما بين لابتيهما - يعنى المدينة - من

(١) انظر ما تقدم لنا عنه في (ص ٣٥٨)

الصيد ، وعن أبي هريرة وغيره نحوه ، وفي رواية له «من الطير أن يُصَادَ بها» وقد يقال : هو من باب إفراد فردٍ مما حرم بالذكر .

فإن قيل : قوله في حديث مسلم « حرم ما بين لا بَتَّيْهَا ، وجَعَلَ اثْنِي عَشَرَ ميلاً حول المدينة حِمًى » دال على الفرق المذكور .

قلنا : ممنوع ؛ لأن غايته أن يراد بالحمى الحرم ، فكأنه قال : وجعل اثني عشر ميلاً حولها حرماً ؛ إذ ليس فيه أنه جعله حمى الشجر .

مقدار
البريد
والفرسخ
والميل

تنمة : البريد أربع فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال ، والميل ثلاثة آلاف ذراع وخمسة ذراع بذراع اليد على الأصح ، كما صححه ابن عبد البر وغيره ، وهو الموافق لاختيار ما ذكره من المسافات في الحرم المكي وغيره ، وذراع اليد — على ما ذكره المحب الطبراني والنووي وغيرهما — أربعة وعشرون أصبعاً ، كلُّ أصبع ست شعيرات مضمومة بعضها إلى بعض ، وغلظ النووي القلعي في قوله « ثلاث شعيرات » ومقدار الذراع المذكور من ذراع الحديد المستعمل في القماش بمصر الآن ذراع إلا ثمن ذراع ، كما اعتبرته أنا وغيري ، ومشى عليه التقى الفاسي في تاريخ مكة المشرفة ، وليكن ذلك على ذكرٍ منك إذا مررت بشيء مما ضبطناه في المسافات في كتابنا هذا ، وقيل : الميل ستة آلاف ذراع ، ومشى عليه النووي ، وهو بعيد ، ولعل قائله هو الذي يجعل الإصبع في الذراع ثلاث شعيرات فقط ، وقيل : الميل ألفا ذراعاً ، والصواب ما قدمناه ، والله أعلم .

الفصل الثاني عشر

في حكمة تخصيص هذا المقدار المعين بالتحريم

حكمة
التخصيص

اعلم أن المفهوم من تحريم ذلك تشریفُ المدينة الشريفة وتعظيمها به لحلول أشرف المخلوقين صلوات الله وسلامه عليه ، وانتشار أنواره وبركاته بأرضها ، وكما

أن الله تعالى جعل لبيته حرماً تعظيماً له جعل لحبيبه وأكرم الخلق عليه ما أحاط بمحله حرماً : تلتزم أحكامه ، وتندل بركاته ، ويوجد فيه من الخير والبركة والأنوار المنتشرة والسلامة العاجلة والآجلة ما لا يوجد في غيره ، ولهذا حث النبي صلى الله عليه وسلم بنى حارثة على الكون به كما أشار إليه بقوله « أراكم يا بنى حارثة قد خرجتم من الحرم » ثم التفت فقال « بل أنتم فيه » وذلك لخصوصية الكون فيه على الكون خارجه ، وتخصيص ذلك المقدار إما أن يكون ما شاهده صلى الله عليه وسلم فيه من أمر رباني ، وسر روحاني بشه الله فيه إلى تلك الحدود المتقدمة ، وقد ذكر أهل الشهود أنهم يشاهدون الأنوار منبثة في الحرم وأهله إلى حدوده ، ولها منابع تفيض عنها ، وذلك في الحرمين جميعاً ، فترتبت الأحكام الظاهرة على تلك الحقائق الباطنة ، ولهذا ما بلغت النار الآتي ذكرها طرف هذا الحرم الشريف صفت كما سيأتي ، وإما أن يكون بمقتضى أمر إلهي ، ووحى رباني لا ندركه نحن : إذ العقول البشرية قاصرة عن إدراك معاني الأحكام المتقدمة عن النبوة ، وإنما يظهر لها لايحه من شوارق مطاعها عند التأييد والتسديد ، هدايا الله لإدراكها بمنه وكرمه .

وقد قيل في حكمة تحديد الحرم المكى أشياء يمكن مثلها هنا ؛ فقل : ما أهبط آدم إلى الأرض أرسل الله ملائكة حفوا بمكة من كل جانب ووقفوا في موضع أنصاب الحرم يحرسون آدم عليه السلام ، فصار ذلك حرماً . وقيل : ما وضع الخليل عليه السلام الحجر الأسود في الكعبة حين بناها -- وهو من أحجار الجنة -- أضواء الحجر من الجهات الأربع ، فحرم الله تعالى الحرم من حيث انتهى النور . وقيل : إن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن ينزل بياقوتة من الجنة ، فنزل بها ، فمسح بها رأس آدم ، فتناثر الشعر منه ، فحيث بلغ نورها صار حرماً ، وهو من جنس ما قبله . وقيل غير ذلك ؛ وحينئذ فيحتمل أن تكون الملائكة الموكلة بحراسته صلى الله عليه وسلم وحراسة بلده الشريف قائمة بتلك الحدود ، فأنتهى الحرم

وجوه
تذكر في حكمة
التحديد

إليها ، ويحتمل أن درته الشريفة التي خلق منها لما كان مأخذها موضع قبره الشريف ، وهو أعظم رياض الجنة ، واشتمل مسجده أيضاً على روضة من رياض الجنة ، انبثت الأنوار من ذلك إلى ما لا يعلم غايته إلا الله ، ولكن أبصار الناظرين لها غايات ؛ فقد يكون انتهاؤها إلى تلك الحدود فانتهى الحرم إليها ، ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم يوم قدومه إلى المدينة انتشرت الإضاءة ، وشوهد وصولها إلى تلك الحدود ، وسيأتى قول أنس بن مالك في وصف يوم قدومه صلى الله عليه وسلم : ما رأيت مثل ذلك اليوم قط ، والله لقد أضاء منها كل شيء ، يعنى المدينة ، والله أعلم .

الفصل الثالث عشر

القول في
تحريم الصيد
وقطع الشجر

في أحكام هذا الحرم الشريف ، وفيه مسائل

الأولى : اتفق الشافعى ومالك وأحمد على تحريم صيد حرم المدينة ، واصطياده ، وقطع شجره . وقال أبو حنيفة : لا يحرم شيء من ذلك ، والأحاديث الصحيحة الصريحة حجة عليه ، وقد قدمنا جملة منها ، ولو لم يكن إلا قوله صلى الله عليه وسلم « كما حرم إبراهيم مكة » لكان كفاية ؛ فإنه يتمسك به في كل ما لم يقم دليل على افتراق الحرمين فيه . وروى أبو داود^(١) — وسكت عليه ، قال النووي : وهو صحيح أو حسن ، أى كما هو قاعدته فيما سكت عليه — أن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أخذ رجلاً يصيد في حرم المدينة الذى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلبه ثيابه ، فجاء مواليه فكلموه فيه ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم « حرّم هذا الحرم » ، وقال : من أخذ أحداً يصيد فيه فلنسلبه فلا أرد عليكم طعمة أطعمنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن إن شئتم

(١) قد أثر المؤلف حديث سعد رضى الله تعالى عنه عن المفضل الجندى ،

(وانظر ص ١٠٦ وما بعدها) .

دفعت إليكم ثمنه» وسيأتى عنه نحوه فى قطع الشجر ، وفى الموطأ عن أبى أيوب الأنصارى أنه وجد غلماناً قد أجنبوا ثعلباً إلى زاوية ، فطردهم عنه ، قال مالك : لا أعلم إلا أنه قال : أفى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع^(١) هذا ؟ وروى الطبرانى رجال الصحيح مثله عن زيد بن ثابت بدل أبى أيوب ، وفى الموطأ أيضاً أن رجلاً قال : دخل على زيد بن ثابت وأنا بالأسواف^(١) ، وقد اصطدت نُهساً^(٢) فأخذه من يدي ، فأرسله^(١) . ورواه الطبرانى أيضاً مع تسمية المبهمة ، ولفظه : عن شرحبيل بن سعيد قال : أخذت نُهساً^(٢) — يعنى طائراً — بالأسواف ، فأخذه منى زيد بن ثابت فأرسله ، وقال : أما علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّم ما بين لابتيها . وفى رواية له «أتانا زيد بن ثابت ونحن فى حائط لنا ، ومعنا فخاخ ننصب بها ، فصاح وطرّدنا ، وقال : ألم تعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيدها . ورواه أحمد أيضاً — وكذا الشافعى فى حرمة — عن شرحبيل بن سعد ، وقد وثقه ابن حبان وضعفه غيره . ولفظه : دخل علينا زيد بن ثابت حائطاً ونحن غلمان ننصب فخاخاً للطير ، فطرّدنا وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيدها . ورواه ابن زبالة بلفظ : كنت مع بنى زيد بن ثابت بالأسواف^(١) ، فأخذوا نُهساً^(٢) ، فاستفتح زيد بن ثابت وهو فى أيديهم ، فدفعوه فى يدي وفرّوا ، فدخل زيد ، فأخذه من يدي فأرسله ، ثم لطم فى قفّاي وقال : لا أم لك ، ألم تعلم ، وذكر الحديث المتقدم . وروى الطبرانى عن حاجب مولى زيد بن ثابت قال : دخل على زيد بن ثابت وأنا بالأسواف^(١) قد اصطدت نُهساً^(٢) ، فأخذ بأذنى من قفّاي وقال : تصيد هاهنا وقد حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين لابتيها ؟ والنهس ، كصرد : طائر يشبهه^(٢) وليس بالصرد ، وقيل : إنه اليمام .

وفى الكبير للطبرانى رجال ثقات عن عبد الله بن عباد الزرقى — قال الهيثمى :

(١) انظر موطأ الإمام مالك (٨٩٠ ط الحلبي) والأسواف : موضع ببعض أطراف المدينة بين الحرتين . (٢) النهس : هو أبو براقش .

ولم أجد من ترجمه — قال : كنت أصيد العصافير في بئر أهاب ، وكانت لهم ، قال : فرآني عبادة بن الصامت وقد أخذت العصفور ، فینزعه مني فیرسله ، ویقول : ای بُنَى ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم ما بین لا بتیها كما حرم إبراهيم مكة .

وروی ابن زبالة ومن طريقه البزار عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال : اصطدت طيرا بالقنبلة^(۱) ، فلقيني أبي عبد الرحمن ، فَعَرَكْ أذني ، ثم أخذه مني فأرسله ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم صيد ما بین لا بتیها . وفي أبي داود عن مولى لسعد ، أن سعداً وجد عبداً من عبید المدينة یقطعون شجراً من شجر المدينة ، قال : فأخذ متاعهم ، وقال یعنی لموالیهم : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم « یَنْهَى أَنْ يُقَطَعَ مِنْ شَجَرِ الْمَدِينَةِ شَيْءٌ » ، وقال : مَنْ قَطَعَ شَيْئاً فَلَمْ يَأْخُذْهُ سَلْبُهُ « ورواه مسلم عن إسماعيل بن محمد بن عامر بن سعد ، ولفظه : أن سعداً ركب إلى قصره بالعقيق ، فوجد عبداً یقطع شجراً ، أو یخبطه ، فـلـبـه ، فلما رجع سعد جاءه أهل العبد فكلّموه أن یرد علی غلامهم — أو علیهم — ما أخذ من غلامهم ، فقال : « معاذ الله أن أرد شيئاً نفلني رسول الله صلى الله عليه وسلم » ورواه الفضل الجندی عنه ، ولفظه : أن سعداً ركب إلى قصر له بالعقيق ، فوجد عبداً یقطع شجرة ، فأخذ سلبه ، وذكره بنحوه . ورواه أيضاً عن عبد الله بن عمر ، ولفظه : أن سعداً وجد إنساناً یَعْضِدُ ، أو یخبط ، عِصَاهَا بالعقيق ، فأخذ فأسه ونِطْعَهُ وشيئاً سوى ذلك ، فاطلع العبد إلى ساداته فأخبرهم الخبر ، فركبوا إلى سعد فقالوا : الغلام غلامنا ، فاردد إلیه ما أخذت منه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر ما قدمناه عنه في الفصل العاشر ، وقال في آخره « فلم أكن لأرد شيئاً أعطانيه رسول الله صلى الله عليه وسلم » ورواه ابن زبالة من طرق بنحوه . وفي بعضها أن سعد بن أبي وقاص وجد جارية لعاصية السلمي تقطع الحمى

(۱) القنبلة — بضم القاف والباء بينهما نون ساكنة — مصيدة یصطاد بها النمس

— وزن صرد — وهو أبو براقش .

فضربها وسلبها شملة لها وفأسا كانت معها ، فدخلت عاصية السامية إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستعدت على سعد ، فقال : اردد إليها يا أبا إسحاق شملتها وفأسها ، فقال : « لا ، والله لا أرد إليها غنيمتها رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعته يقول : مَنْ وجدتموه يقطع الحمى فاضربوه واسلبوه » واتخذ من فأسها مسحة في زال يعمل بها حتى لقي الله . وفي بعضها : أخذ سعد بن أبي وقاص جارية لعاصية السامية تقطع شجراً بالعقيق ، فنزع سلبها ، وذكر نحوه . وروى أيضا عن سعد قال : غَنِمْنَا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ وجدناه يقطع من شجر حرم المدينة الرطب منه . وعن زيد بن أسلم نحوه . وروى الجندی عن عبد الكريم بن أبي المخارق قال : أتى عمر بن الخطاب ناحية من المدينة فوجد غلاما لبعضهم في حائط ، فقال : هل يأتيك ههنا أحد يخطب ؟ قال : نعم ، فقال له عمر : إن رأيت منهم أحدا فخذ فأسه وحبله ، قال : وثوبه ؟ قال : فأبى ، وفي نسخة فأفتى ، وفي رواية عنه : أن عمر قال لغلام قدامة بن مظعون : أنت على هؤلاء الخطابين ، فمن وجدته احتطب فيما بين لابتي المدينة فلك فأسه وحبله ، قال : وثوباه ؟ قال عمر : ذلك كثير . وقد اختلف القائلون بالتحريم في حرم المدينة بالنسبة إلى الضمان بالجزاء ، فعن أحمد روايتان ، وللشافعي أيضا قولان كالروايتين : الجديدُ منهما عدمُ الضمان وهو قول مالك ؛ لأنه ليس بمحل نُسك ، فأشبهه مواضع الحمى ووجع الطائف ^(١) ، والقديمُ الضمان ، وهو المختار كما قاله النووي وغيره ؛ لحديث سعد المتقدم ، والجواب عنه مشكل ، وعلى هذا فالأصح أنه يسلب الصائد وقاطع الشجر والكلاء كما يسلب القتل من الكفار حتى يؤخذ فرسه وسلاحه ، وقيل : الثياب فقط ، ويكون ذلك للسالب على الأصح ، وقيل : لفقراء المدينة كما أن جزاء صيد مكة لفقرائها ، وقيل : يوضع في بيت المال وسيله سبيل السهم المرصود للمصالح . قال الشيخ أبو محمد : ويعطى المسلوب إزارا يستر به عورته ، فإذا قدر على ما يستر به

(١) وج : واد بالطائف ، كما قاله المجد ، وقيل : هو الطائف نفسه ، وقيل : واد بينه وبين مكة .

عورته أخذه منه ، واختار الروياني أنه يترك له ، وصوبه النووي . قال الرافعي :
والذي يسبق إلى الفهم من الحديث وكلام الأئمة أنه يسلب إذا اصطاد ، ولا يشترط
الإتلاف ، ولفظ الغزالي في الوسيط : لا يسلب حتى يصطاد أو يرسل الكلب ،
ويحتمل التأخير إلى الإتلاف ، انتهى . ولا فرق في هذا بين صيد وصيد ، ولا بين
شجرة وشجرة ، وكأن السلب في معنى العقوبة لمعاطى ذلك . قال السراج
البلقيني : ولو كان الصائد أوقاطع الشجر في حرم المدينة عبداً هل يسلب ثيابه كما
اتفق لسعد بن أبي وقاص ؟ قال : والذي يقتضيه النظر أنه لا يسلب العبد ؛ فإنه
لا ملك له ، وكذلك لو كان على الصائد ثوب مستأجر أو مستعار فإنه لا يسلب ،
ولم أر من تعرض له ، انتهى . قلت : التحقيق التفصيل بين ما إذا أمر السيد أو من
في معناه بذلك وبين ما إذا لم يأمره ، ويُحتمل ما اتفق لسعد على الأول ، ولو كان على
الصائد والمحتطب ثياب مغبوبة لم تسلب بلا خلاف ، كما نقله في شرح المذهب ،
ونقله في المطلب عن البحر ، ثم قال : وينبغي أن تكون المستعارة كذلك ، ولو لم
يشاهده أحد يصطاد فالظاهر أنه يجب عليه حمل السلب إلى نائب الإمام ، ولو
تحدث بحضرة أحد فسمعه فهل يجوز له أن يسلبه ؟ الظاهر عندي لا ، انتهى . ولو
أدخل إلى حرم المدينة صيدا لم يلزمه إرساله ، وله ذبحه به اتفاقاً ، وكذا حرم مكة
عندنا . وقد روى البيهقي أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقدمون
مكة فيرون بها في الأقفاص القماري واليعاقيب^(١) ، وهذا محمل حديث «يا أبا عمير ،
ما فعل النغير^(٢)» أو أنه كان قبل تحريم المدينة ؛ لأنه في أول الهجرة ، وتحريم
المدينة كان بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من خيبر ، كما أوضح ذلك الحافظ ابن
حجر . وقد تمسك أبو حنيفة بقصة أبي عمير فيما ذهب إليه من عدم تحريم صيد
المدينة ؛ لذهابه في حرم مكة إلى وجوب الإرسال على من أدخل إليه صيداً من
خارجه ، قال : فلو حرم النبي صلى الله عليه وسلم صيد المدينة لما أقر النغير في يد أبي
(١) القماري : جمع قمرى ، وهو ضرب من الحمام ، واليعاقيب : جمع يعقوب ، وهو ذكر
الحجل . (٢) النغير : مصغر النفر - بزنة صرد - وهو طائر يشبه العصفور أحمر المنقار ،
وأبو عمير : أخو أنس .

عمیر . وجوابه ما تقدم ، قال البيهقي : والذاهب إلى عدم تحريم الصيد وغيره بالمدينة زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أراد بقاء زينة المدينة وبهجتها لتستوطن كما منع من هدم أطام المدينة لذلك ، قال أبو هريرة رضي الله عنه : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هدم أطام المدينة ، وقال : إنها زينة المدينة ، أي قاله للنهي للتنزيه . قال البيهقي : والنهي عندنا على التحريم حتى تقوم دلالة على التنزيه ، قال : واستدل المخالف بحديث سلمة « أما إنك لو كنت تصيد بالعقيق لشيّعتك إذا ذهبت وتلقيتك إذا جئت ، فإني أحب العقيق » قال البيهقي : وهو حديث ضعيف ، ومن يدعي العلم بالآثار لا ينبغي له أن يعارض الأحاديث الثابتة في حرم المدينة لهذا الحديث الضعيف ، وقد يجوز أن يكون الموضع الذي كان سلمة يصيد فيه خارجاً من حرم المدينة ، والموضع الذي رأى فيه سعد بن أبي وقاص غلاماً يقطع شجراً من حرم المدينة داخله ، حتى لا يتنافيان ، ولو اختلفا كان الحكم لرواية سعد لصحة حديثه وثقة رجاله ، دون حديث سلمة . قلت : مع أن الذي في الصحيح من حديث سعد لا تعرض فيه لأن القطع كان بالعقيق ، وركوبه إلى قصره بالعقيق لا يقتضي أن القطع كان به ، بل يقتضي أن القطع في موضع من الحرم خارج ، على أن ما يلي ذا الحليفة من العقيق ليس من الحرم عندنا لخروجه عما بين اللابتين ، والمالكية وإن اعتبروا البريد لحرم الصيد عندهم ما بين اللابتين كما تقدم ، مع امتداد العقيق إلى النقيع^(۱) ؛ فبعضه خارج عن الحرم بكل حال ، فصح ما قاله البيهقي ، وقصر سعد مع قصور العقيق في الطرف الداخل منه في الحرم عندنا ؛ لكونه بالحرة الغربية . هذا ، مع احتمال حديث سلمة لكونه كان قبل تحريم المدينة ، والله أعلم .

الثانية — استثنى المطري تبعاً لابن النجار جواز أخذ ما تدعو الحاجة إليه للارحل — بالحاء المهملة — والوسائد ، من شجر حرم المدينة ، وما تدعو الحاجة

ما يستثنى
مما يحرم

(۱) النقيع : موضع قريب من المدينة كان يستنقع فيه الماء أي يجتمع ، وقد حمى عمر رضي الله عنه غرز النقيع لنعم الفء وخيل المجاهدين فلا يرعاه غيرها .

ليه من حشيشه للعلف ، بخلاف مكة ، هكذا قالاه ، وسبقهما إليه ابن الجوزي من الحنابلة فقال في منسكه : إن المدينة تفارق مكة في أنه يجوز أن يؤخذ من شجر المدينة ما تدعو الضرورة إليه للرحل وشبهه ، انتهى ، ومأخذهم في ذلك ما تقدم في الفصل العاشر في بعض تلك الأحاديث المشتملة على الترخيص في ذلك ومحوه ، مع ما رواه ابن زبالة من حديث : يا رسول الله ، إنا أصحاب عمل ونضح ، وإنا لا نستطيع أن ننتاب أرضاً ، فرخص لهم في القأمتين والوسادة والعارضة والأسنان ، فأما غير ذلك فلا يعضد ولا يخبط ، والكلام أولاً في توجه الاستدلال بذلك من حيث الإسناد ، مع أننا قدمنا في غضون تلك الأحاديث ما يقتضي المنع ، سيما حديث الطبراني بإسناد حسن إذ فيه قول جابر : لا يخبط ولا يعضد حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن هُشُوا هشا ، ثم قال جابر : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمنع أن يقطع المسد . قال خارجة : والمسد مرود البكرة ، ومن تأمل كلام أصحابنا الشافعية لا يفهم منه سوى استواء الحرمين في ذلك ؛ لقولهم : إنه يجوز أخذ حشيش حرم مكة لعلف الدواب على الأصح . وقد قال النووي في الكلام على قوله صلى الله عليه وسلم في حديث مسلم المتقدم « ولا يخبط شجره إلا لعلف » : إن فيه جواز أخذ أوراق الشجر للعلف ، بخلاف خبط الأغصان وقطعها فإنه حرام ، انتهى . وقد قال هو وغيره في شجر مكة : إنه يجوز أخذ أوراقها لكنها لا تهش حاراً من أن يصيب لحاها . وفي شرح المذهب : يجوز أخذ ورقها والأغصان الصغيرة للسواك ونحوه ، انتهى ؛ فقد استوى الحرمان في ذلك . وقد قال الغزالي في البسيط والوسيط في حرم مكة : إنه لو قطع منه للحاجة التي يقطع لها الإذخر^(۱) كتسقيف البيوت ونحوه ففيه الخلاف في قطعه للدواء : أي والأصح جوازه ، وتبعه على ذلك صاحب الحاوي الصغير ؛ فجوز القطع للحاجة مطلقاً ، ولم ينخص الدواء ، وقل من تعرض للمسألة ، ومنه يؤخذ جواز ما استثناه المطري ، لكن

(۱) الإذخر : حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب .

مع استواء الحرمين في ذلك . وقال القاضي عياض : قال المهلب : قطع النبي صلى الله عليه وسلم النخل من المدينة حين بنى مسجده ، وذلك يدل على أن النهي لا يتوجه لقطع شجرها للعمارة وجهة الإصلاح ، وأن يقطع شجرها ليتخذ موضعه جنازاً وعمارة ، وأن توجه النهي إنما هو لقطع الإفساد واستبقاء بهجة المدينة^(١) وخضرتها في عين الوارد إليها ، انتهى . ونحوه ما روى ابن زبالة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبني حارثة في طرف من الحمى « أعطاكم على أنه من قطع شجرة غرس مكانها نخلة » ومحل ابن زبالة من الضعف معروف ، والنبي صلى الله عليه وسلم إنما قطع النخل وهو شجر يستنبته الآدميون ، وفيه خلاف ؛ فالذي ذهب إليه المالكية والحنفية جواز قطعه في حرم مكة فضلاً عن المدينة ، وهو أحد القولين عندنا ، لكن الأصح إلحاقه بالذي ينبت بنفسه ، والجواب عنه باحتمال كونه قبل تحريم المدينة ، أو أنه قطعه لحاجة العمارة ؛ فإن المتجه جوازه كما تقدم عن الغزالي ، ولم يزل أهل المدينة يسقفون بيوتهم بما يقطعون من نخلها . وقد نقل الواقدي في الحرم المكي عن ابن الزبير الترخيص في قطع شجر الحرم المكي للعمارة لكن مع الفداء ، على أن الماوردي قال فيما يستنبته الآدميون : محل الخلاف فيما أنبت في مَوَات الحرم ، فإن أنبت في أملاكه لم يحرم بلا خلاف ، انتهى . وأما ما يستنبت من غير الشجر كالحنطة والخضروات فيجوز قطعه بلا خلاف ، وكذا ما يتغذى به مما ينبت بنفسه كالرجلة المسماة بالبقلة الحقاء ونحو ذلك ؛ لأنه في معنى الزرع ، صريح باستثنائه الحب الطبري في شرح التنبيه ، وهو ظاهر ؛ لأنه إذا جاز الأخذ لإطعام البهائم فالآدمي أولى .

الثالثة — ما ذكره في الأخذ للدواء ونحوه يتناول تحصيله وادخاره لذلك الغرض ، وإن لم يكن السبب قائماً ، إلا أن عبارة الروضة : ولو احتيج إلى شيء من نبات الحرم للدواء . وفي شرح المهذب أنه يجوز أخذ النبات للعلف ، ولو

(١) في المطبوعات « واستبقاء لهجة المدينة - إلخ » تطبيع

أخذه لبيعه ممن يعلف به لم يجز ، ومقتضاه أن الدواء كذلك ، وظاهر إطلاق
الماوردى الجواز مطلقاً ، وهو ظاهر استناد بعضهم إلى نقل السنا المكي من
غير نكير .

الرابعة — تُغَلَّظُ الدية في الخطأ على القاتل في حرم المدينة كمكة في وجه
الصحيح خلافه ، وما أخذهُ عموم قوله « كما حرم إبراهيم مكة » .
دية القتل
الخطأ في المدينة
مغلظة

وقد اختار السراج البلقبى هذا الوجه ، قال : لأن الخلاف في ذلك مبنى
على الخلاف في ضمان صيدها ، والمختار عند النووى ضمان صيدها بسلب الصائد .
قلت : وما قاله متجه ؛ لعموم قوله « كما حرم إبراهيم مكة » وإنما اختصت مكة
بمنع الكافر من دخولها مطلقاً ، بخلاف المدينة فيجوز أن يدخلها بإذن الإمام
أو نائبه للمصلحة ؛ لأن المشركين أخرجوا منها رسول الله صلى الله عليه وسلم
فعاقبهم الله بالمنع من دخولها بكل حال تعظيماً لرسوله صلى الله عليه وسلم ،
واستحسن الرويانى في البحر التسوية بين مكة والمدينة في أن مَنْ مات من الكفار
بهما يخرج ويدفن خارجهما ، وعلى القول باختصاصه بمكة موجبُهُ ما قدمناه .

الخامسة — سوى صاحب الانتصار من أصحابنا بين حرم مكة والمدينة في
أن لقطتهما لا تحل للتملك ، بل للحفظ أبداً ، وقال الدارمى : لا تلحق لقطه حرم
المدينة بحرم مكة في ذلك . قلت : والذي يقتضيه الدليل ترجيح الأول ؛ للنص على
ذلك في الأحاديث المتقدمة في الفصل الثامن ، وإن كان الأصحاب خصوا
مكة بالذكر .

السادسة : مقتضى قوله صلى الله عليه وسلم في الأحاديث المتقدمة أيضاً « ولا يحمل
فيها سلاح لقتال » أن يأتى فيها ما نقل من الخلاف في حرم مكة من أن المقاتلة
الجائزة في غيره تحرم فيه كقتال البغاة به ^(١) ، بل يضيق عليهم إلى أن يخرجوا

(١) البغاة : جمع باغ ، والبغاة : جماعة من المسلمين لهم شوكة خرجوا عن
طاعة الإمام على تأويل لهم .

أَوْ يَفِيؤُا^(۱) كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ . وَقَالَ الْجُمْهُورُ : يَقَاتُلُونَ ؛ لِأَنَّ هَذَا الْقِتَالُ مِنْ حَقِّ قَوْلِ اللَّهِ ، وَحِفْظِهَا فِي الْحَرَمِ أَوَّلَى ، وَالْحَرَمُ لَا يَعْزِذُ عَاصِيَا . وَذَهَبَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ إِلَى أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ السِّلَاحَ بِمَكَّةَ ؛ لِلنَّهْيِ عَنِ الْقِتَالِ فِيهِ ، فَلَا يَحْمِلُ مَا هُوَ مِنْ أَسْبَابِهِ ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ السِّلَاحَ بِمَكَّةَ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

حكم الاستنجاء : السابعة : حكى الماوردي وجهين في جواز الاستنجاء بحجارة الحرم ، قال : بحجارة الحرم ظاهر المذهب سقوط الفرض بذلك مع تأنيبه . قلت : ينبغى حملة على مَنْ نقله من الحرم ليستنجى به في الحل مثلا ، وإلا فهو مشكل ؛ إذ لا خلاف في إباحة البول في الحرم ، فالاستنجاء بالحجارة كذلك ، وعبارة شرح المذهب في النقل عن الماوردي بعد حكاية الوجهين في سقوط فرض الاستنجاء بالمذهب والديباج : وطردهما الماوردي في الاستنجاء بحجارة الحرم ، انتهى . وهي محتملة لما قررناه ، وقد نقل النووي عدم جواز الأكل في الأواني المعمولة من تراب الحرم ، على ما قاله الدميري ، ولا شك أنه إنما عني به المنع منه من أخرجها من الحرم كما لا يخفى .

الثامنة : جزم النووي بتحريم نقل تراب الحرم المدني وأحجاره ، اكتفاء بما ذكره من الخلاف في الحرم المكي ، وصحح فيه التحريم ، والرافعي الكراهة ، ونقلها النووي عن كثيرين أو الأكثرين ، ونقلها القاضي أبو الطيب عن نص الشافعي في القديم ، ونقل التحريم عن نصه في الجامع الكبير ؛ وقال في الأم في حجارة الحرم وترابه : لا خير في أن يخرج منها شيء إلى الحل ، لأن له حرمةً بآيَنَ بها ما سواها من البلدان ، فلا أرى - والله أعلم - أن جائزا لأحد أن يزيله من الموضع الذي بآيَنَ به البلدان ؛ إذ يصير كغيره .

وروى الشافعي عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما كراهة ذلك . قال الشافعي : وقال غير واحد من أهل العلم : لا ينبغى أن يُخْرَجَ من الحرم شيء إلى (۱) يَفِيؤُا : يرجعوا إلى الطاعة .

حكم
نقل تراب
الحرم المدني

غيره . وحكى الشافعى عن أبى يوسف أنه قال : سألت أبا حنيفة عن ذلك فقال : لا بأس به . قال أبو يوسف : وحدثنا شيخ عن رُزَيْن مولى على بن عبد الله بن عباس أن ثَمِيًّا كتب إليه أن يبعث إليه بقطعة من المروة^(١) فيتخذهُ مُصَلًّى يسجد عليه ، ونقل القاضى أبو الطيب عن الشافعى أنه قال : رخص بعضُ الناس فى ذلك ، واحتج بشراء البرام من مكة ، وهو غلط ؛ فإن البرام ليست من حجارة الحرم ، بل تحمل من مسيرة يومين وثلاثة من الحرم ، وحكى فى شرح المذهب اتفاق الأصحاب على أن الأولى أن لا يحمل تراب الحِلِّ وأحجاره إلى الحرم ؛ لئلا يحدث لها حرمة لم تكن ، قال : ولا يقال « إنه مكروه » مع إطلاقه فى الروضة والمناسك كراهته ، فكأنه أراد بها معنى خلاف الأولى . وقولُ صاحب البيان « قال الشيخ أبو إسحاق : لا يجوز إدخالُ شىء من تراب الحل وأحجاره إلى الحرم » محمولٌ على نفي الإباحة بمعنى استواء الطرفين ، كما وقع مثله فى مواضع ، وبناء آدم البيت من أجبلٍ ليست من الحرم كلبُنان وطور سيناء : إما لأن تحريم الحرم إنما تعلق حكمه وظهر على لسان إبراهيم عليه السلام ، وإما لأن شرعه اقتضى ذلك ، مع أن الظاهر استثناء نقل حجارة الحل لمصلحة يقتضيها الحال ، وما نقله أهل السير من أنهم كانوا يأخذون من تراب قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمرت عائشة رضى الله عنها بجدارٍ فُضِرَ عليهم ، لا مُتَمَسِّكٍ فيه ؛ إذ لم يعرف الفاعل ، بل الظاهر أنه ممن لا يحتج بفعله ، وأمرُ عائشة بضرب الجدار يقتضى المنع من ذلك ، على أنه ليس فيه أنه كان يؤخذ للنقل من الحرم ، وقد نقل أبو المعلى السبتي - وكذا خليل والتادلى المالكيون - كلامَ النووى فى المنع من نقل تراب الحرم وأقرُّوه ؛ فالظاهر أنه جارٍ على قواعدهم ؛ إذ منها سدُّ الذرائع . وقد قيل فى سبب عبادة الأصنام : إن بعضهم كان يصحب معه الحجر من الحرم ليتبرك به ، واستشكله البرهان بن فرحون بأمور : منها ما تقدمت الإشارة إلى جوابه ، ومنها

(١) المرو : الحجارة البيض البراقة ، واحدها مروة .

الإجماع على نقل ماء زمزم واستهداء النبي صلى الله عليه وسلم له من سُهَيْل بن عمرو فبعث إليه منه ، وجوابه أن ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم ، مع أنه يخلف ؛ فأشبهه الحشيش الذي يخلف ، ولهذا قال الشافعي : فأما ماء زمزم فلا أكره الخروج به ، والماء ليس بشيء يزول ولا يعود ، انتهى . مع أن المحذور المتقدم في الأحجار لا يتوقع مثله في الماء ؛ إذ المقصود من نقله شُرْبُهُ وهو ظاهر ، بخلاف الحجر وشبهه ؛ فإن القصد التبرك به ، وهو شيء لم يأذن به الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولذا أقول : إن من نقل من فحار الحرم كالكراريز^(۱) لحاجة استعمالها جاز له ، ويحمل كلام من أطلق المنع على ما يراد للتبرك أو مع عدم الحاجة إليه ، وإذا جاز أخذ حشيش الحرم للتداوي فهذا أولى ، وإذا كان الاحتياج إلى آنية الذهب والفضة يجوز استعمالها فهذا أولى ، فإن أريد نقل ذلك لحاجة متوقعة في المستقبل فينبغي تخريجه على ما تقدم في أخذ نبات الحرم للدواء ونحوه ، وقد قدمنا فيما جاء في ترابها استثناء تربة صُعَيْب لما جاء فيها من التداوي ، وأن الزركشي استثنى تربة حمزة رضي الله عنه لإطباق الناس على نقلها للتداوي بها من الصُّدَاع ، وحكى البرهان ابن فرحون عن الإمام العالم أبي محمد عبدالسلام بن إبراهيم بن ومصال الحاحاني ، قال : نقلت من كتاب الشيخ العالم أبي محمد صالح الهزميري قال : قال صالح بن عبدالحليم : سمعت أبا محمد عبدالسلام بن يزيد الصنهاجي يقول : سألت أحمد بن يَكُوت عن تراب المقابر الذي كان الناس يحملونه للتبرك هل يجوز أو يمنع ؟ فقال : هو جائز ، وما زال الناس يتبركون بقبور العلماء والشهداء والصالحين ، وكان الناس يحملون تراب قبر سيدنا حمزة بن عبد المطلب في القديم من الزمان . قال ابن فرحون عَقِبَهُ : والناس اليوم يأخذون من تربة قريبة من مشهد سيدنا حمزة ، ويعملون منها خرزا يشبه السبيح ، واستدل ابن فرحون بذلك على جواز نقل تراب المدينة ، وقد علمت مما تقدم أن نقل تربة حمزة رضي الله عنه إنما هو للتداوي ؛

(۱) الكراريز : جمع كراز - بزة رمان ، ويقال بتخفيف الراء أيضا بزة دخان - وهو القارورة ، وقيل : كوز ضيق الرأس ، قال ابن دريد : تكلموا به ولا أدري أعربى أم عجمي .

ولهذا لا يأخذونها من نفس القبر ، بل من المسيل الذي عنده المسجد^(۱) ، ولئن صح مشروعية التبرك بتراب قبور الصالحين فهو أمر خاص بها لا دلالة فيه على جواز نقل مطلق تراب الحرم ، وهو أمر لم يأذن به الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم ، والخير كله في الاتباع ، وقد قالت الحنابلة أيضاً : يكره نقل حصي الحرم وترابه إلى غيره ، ولا يدخل غيره إليه ، وتقلوا عن أحمد أنه قال : الإخراج أشد ، انتهى . ويجب على من أخرج شيئاً من تراب الحرم أو حجره أن يرده إليه ، ولا ضمان عليه في ترك الرد ، قال السكال الدميري : وإذا نقل تراب أحد الحرمين إلى الآخر هل يزول التحريم - أي فينقطع وجوب الرد - أو يفرق بين نقله للأشرف وعكسه ؟ فيه نظر ، والله أعلم .

الفصل الرابع عشر

في ذكر بدء شأنها ، وما يؤول إليه أمرها

روى ابن لهيعة بسنده إلى عائشة مرفوعاً « إن مكة بلد عظمه الله ، وعظم حرمة ، خلق مكة وحفها بالملائكة قبل أن يخلق شيئاً من الأرض كلها بألف عام ، ووصلها بالمدينة ، ووصل المدينة ببيت المقدس ، ثم خلق الأرض كلها بعد ألف عام خلقاً واحداً » قال العلامة المقدسي في بعض تأليفاته : هذا حديث غريب جداً ، بل منكر .

وعن سليمان عن أبي عمرو الشيباني عن علي رضي الله عنه : كانت الأرض ماء ، فبعث الله ريحاً فمسحت الأرض مسحاً ، فظهرت على الأرض زبدة ، فقسمها أربع قطع ، خلق من قطعة مكة ، والثانية المدينة ، والثالثة بيت المقدس ، والرابعة الكوفة . وهو أثر واهٍ .

وروي في الكبير للطبراني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله

(۱) المسيل الذي كان به مصرع حمزة رضي الله عنه هو المسيل الذي من جهة أحد ، لا من القبلة (مكي) .

عز وجلّ اطلع إلى أهل المدينة وهي بطحاء قبل أن تعمّر ليس فيها مدر ولا بشر، فقال : يا أهل يثرب ، إني مشترط عليكم ثلاثاً وسائق إليكم من كل الثمرات : لا تعصى ، ولا تعلى ، ولا تكبرى ، فإن فعلت شيئاً من ذلك تركتك كالجزور لا يمنع من أكله .

وأخرج النسائي من رواية يزيد بن أبي مالك عن أنس في حديث الإسراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أُرِيتُ بدابة فوق الحمار ودون البغل » الحديث ، وفيه « فركبت ومعى جبريل ، فسرت فقال : انزل فصلّ ، ففعلت ، فقال : أتدرى أين صليت ؟ صليت بطيبة وإليها المهاجر » يعنى بفتح الجيم . ووقع في حديث شداد بن أوس عند البزار والطبراني أنه [قال] « أول ما أُسْرِيَ به صلى الله عليه وسلم مرّاً بأرض ذات نخل ، فقال له جبريل : انزل فصلّ ، فنزل فصلى ، فقال : صليت بيثرب » الحديث .

وروى رزين عن أنس يرفعه « لما تجلّى الله لجبل طور سيناء تشظّى ستة أشطّاظ^(۱) » وفي رواية غير رزين « شطايا ، فنزلت بمكة ثلاثة : حرّاء ، وثبير ، وثور ، وفي المدينة : أحد ، وعير ، وورقان » وفي رواية « ورَضَوَى » بدل عير ، ولا يشكّل ذلك بكون رَضَوَى بينبع : لأنّ الينبع من توابع المدينة ومضافاتها كما سيأتى ، ورواه بعضُ شراح المصاييح بلفظ « عير ، وثور ، ورضوى » ومنه يؤخذ حكمة أخرى في تحديد الحرم بعير وثور ، وسيأتى بيان أول من سكنها بعد الطوفان في أخبار سكانها .

وروي في الأم للشافعي حديث « أسكنت أقل الأرض مطراً ، وهي بين عيني السماء عين الشام وعين اليمن » ورواه ابن زبالة بزيادة « فاتخذوا الغنم على خمس ليال من المدينة » .

وروى أيضاً حديث « يامعشر المهاجرين إنكم بأقلّ الأرض مطراً ، فأقلوا من الماشية ، وعليكم بالزرع ، وأكثروا فيه من الجاجم » .

(۱) تشظى : تفرق شطايا ، والأشطّاظ : الفلق كل فلق شظ أو شظية كقضية .

وروی الشافعی أيضاً حديث «توشك المدينة أن تمطر مطراً لا يكون أهلها»^(۱)
البيوت، ولا يكنهم إلا مظال الشعر .

وروی أيضاً «توشك المدينة أن يصيبها مطر أربعين ليلة لا يكون أهلها»^(۱)
بيت من مدر .

وروی ابن زبالة حديث « كيف بك يا عائشة إذا رجع الناس بالمدينة
وكانت كالرمانة المحشوة؟ قالت: فمن أين يأكلون يا نبي الله؟ قال: يطعمهم الله من
فوقهم ومن تحت أرجلهم ومن جنات عدن .

وأورد المرجاني في كتابه أخبار المدينة عن جابر مرفوعاً « ليعودن هـذا
الأمر إلى المدينة كما بدأ منها، حتى لا يكون إيمان إلا بها » الحديث .

وروی أحمد برجال ثقات « يوشك أن يرجع الناس إلى المدينة حتى يصير
مسالحهم بسلاح » ومسالحهم : جمع مسلح ، وهم القوم الذين يحفظون الثغور .
ومسلح - كقطام - موضع بقرب خيبر^(۲) .

وفي مسلم حديث، « تبلغ المساكن أهاب أو يهاب » بكسر المنة التحتية .
وروی أحمد في حديث طويل أنه صلى الله عليه وسلم « خرج حتى أتى بئر
الأهاف ، قال : يوشك البنيان أن يأتي هذا المكان » وبئر أهاف : سيأتي أنها
بالحرة الغربية .

وروی أبو يعلى عن زيد بن وهب قال : حدثني أبو ذر رضي الله عنه قال :
قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا بلغ البناء - أي بالمدينة - سلعاً فارتحل
إلى الشام » فلما بلغ البناء سلعاً قدمت الشام .

وروی ابن زبالة حديث « ليوشكن الدين أن ينزوى إلى هذين المسجدين ،
ويوشكن أن يتشاخوا على موضع الوتد بالحمى كشح أحدكم أن ينقص من داره

(۱) لا يمكنهم : لا يسترهم ولا يقيهم .

(۲) والمعنى على ذلك : حتى يصير القوم الذين يرقبون عدوهم مقيمين في هذا
الموضع ؛ لاتساع رقعة المدينة وكثرة أهلها .

إلى جانب المسجد ، وليوشكن أن يبلغ بنيانهم يهيقاً » قالوا : يا رسول الله ، فمن أين يأكلون ؟ قال « من هنا وههنا » يشير إلى السماء والأرض .

ويهيقاً أوله آخر الحروف : موضع بقرب المدينة على ماسياتى عن المجد آخر الباب السابع وذكّر ابن زبالة الشجرة التي يضاف إليها مسجد ذى الحليفة ، ثم روى عن أبي هريرة رضى الله عنه « لا تقوم الساعة حتى يبلغ البناء الشجرة » .

وروى أيضاً عنه « أَرَيْتَكَ شَرَفَ السَّيَالَةِ وَشَرَفَ الرُّوحَاءِ ؛ فَإِنَّهُ مَنَازِلُ أَهْلِ الْأُرْدُنِّ إِذَا أُجِيزَ النَّاسُ إِلَى الْمَدِينَةِ » .

وفي الكبير للطبراني حديث « سيبلغ البناء سلماً ، ثم يأتي على المدينة زمان يمر السَّفَرُ^(۱) على بعض أقطارها فيقول : قد كانت هذه مدةً عامرةً من طول الزمان وعفو الأثر » .

وروى النسائي عن أبي هريرة حديث « آخر قرية من قرى الإسلام خراباً المدينة » ورواه الترمذى بنحوه ، وقال : حسن غريب ، ورواه ابن حبان بلفظ « آخر قرية في الإسلام خراباً المدينة » .

وروى أبو داود عن معاذ مرفوعاً « عُمُرَانُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ خَرَابٌ يَثْرِبُ ، وَخَرَابٌ يَثْرِبُ خُرُوجَ الْمَلْحَمَةِ ، وَخُرُوجُ الْمَلْحَمَةِ فَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدِّجَالِ » .

وروى أبو داود أيضاً عنه مرفوعاً « الْمَلْحَمَةُ الْكُبْرَى وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَخُرُوجُ الدِّجَالِ فِي سَبْعَةِ أَشْهُرٍ » .

وفي ابن شبة عن أبي هريرة « لِيُخْرِجَنَّ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ خَيْرَ مَا كَانَتْ ، نَصْفَازَهُوَ^(۲) ، وَنَصْفَارْطَبَا ، قِيلَ : مَنْ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ قَالَ : أَمْرَاءُ السُّوءِ » .

وفيه أيضاً عن أبي هريرة رضى الله عنه مرفوعاً نحوه ، وأن عبد الله بن عمر كان يردُّ عليه ، فقال له أبو هريرة : لِمَ تَرُدُّ عَلَيَّ ؟ فَوَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَنَا وَأَنْتَ فِي

(۱) السفر : الجماعة المسافرون ، ونظيره ركب وتجر وشرب

(۲) الزهو : البسر الملون .

بيت حين قال النبي صلى الله عليه وسلم « يخرج منها أهلها خير ما كانت » فقال ابن عمر : أجل ، قد كنت أنا وأنت في بيت ، ولكن لم يقله ، إنما قال «أمر ما كانت » ولو قال « خير ما كانت » لكان ذلك وهو حي وأصحابه ، فقال أبو هريرة : صدقت والذي نفسى بيده ، وفيه عنه أيضاً « ليحيئنَّ الثعلبُ حتى يقيلَ في ظل المنبر ، ثم يروح لا ينهنهه ^(۱) أحد » .

وفي رواية عنه « لا تقوم الساعة حتى يحىء الثعلبُ فَيَرِيضَ على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينهنهه أحد ^(۱) » وفيه أيضاً عن شريح بن عبيد أنه قرأ كتاباً لكعب « ليغشينَّ أهل المدينة أمرٌ يفزعهم حتى يتركوها وهى مُذَلَّة ^(۲) ، وحتى يبول السنانيرُ على قطايف الخز ما يروعها شيء ، وحتى يخرق الثعالب في أسواقها ما يروعها شيء » .

وفي الصحيحين حديث « لتتركون المدينة » ولفظ مسلم « لتتركنَّ المدينة على خير ما كانت مذلة ^(۲) » ثمّارها لا يغشاها إلا العوافى « يريد عوافى الطير والسباع » وآخر من يحشُرُ منها راعيان من مُزَيِّنَةٍ يُرِيدَانِ المدينة ينعمقان بغنمهما فيجدانها وحوشاً » ولفظ مسلم « حتى إذا بلغا ثنية الوداع خَرَا على وجوههما » وهو في الموطأ بلفظ « لتتركنَّ المدينة على أحسن ما كانت حتى يدخل الكلبُ أو الذئب فيغذى على بعض سوارى المسجد » .

ورواه ابن شعبة ولفظه « فيغذى على سوارى المسجد أو المنبر » ويغذى - بالغين والذال المعجمتين - أى يبول عليها دفعة دفعة ، يقال : غذت المرأة ولدها بالتشديد ، إذا أبالته ، وبالتخفيف إذا أطعمته .

وفي ابن زبالة - وتبعه ابن النجار - حديث « لا تقوم الساعة حتى يغلب على مسجدي هذا الكلابُ والذئابُ والضباع فيمر الرجل ببابه فيريد أن يصلى فيه فما يقدر عليه » .

(۱) ما ينهنه : ما يخيفه وما يفزعه وما يردعه .

(۲) مذلة : سهلة لا شقة في العيشة بها .

وفی ابن شہبة بسند صحیح حدیث « أما والله لَتَدْعُهَا مَذَلَّةُ أَرْبَعِينَ عَامًا
لِلْعَوَافِي ، أَتَدْرُونَ مَا الْعَوَافِي ؟ الطَّيْرُ وَالسَّبَاعُ » ورواه ابن زبالة بنحوه .
وروی أحمد برجال الصحیح أن النبی صلی اللہ علیہ وسلم « صَعَدَ أُحُدًا ،
فَأَقْبَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ وَقَالَ : وَيْلَ أُمِّهَا قَرْيَةٍ ، يَدْعُهَا أَهْلُهَا كَأَنَّمَا تَكُونُ »
الحدیث ، وفی رواية له « وَيْلَ أُمِّكَ قَرْيَةٍ ، يَدْعُكَ أَهْلُكَ وَأَنْتَ خَيْرُ مَا تَكُونُ »
وروی أيضًا بإسناد حسن حدیث للبشیر بن راکب فی حب وادی المدینة
« فَلْيَقُولَنَّ تَقْدَرُ كَانَ فِي هَذِهِ مَرَّةٍ حَاضِرَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

وروی أيضًا برجل ثقات حدیث « الْمَدِينَةُ يَتْرَكُهَا أَهْلُهَا وَهِيَ مُرْطَبَةٌ ، قُلُوبًا :
فَمَنْ يَتْرَكُهَا ؟ قَالَ : السَّبَاعُ وَالْعَافِي » .

الفصل الخامس عشر .

فیم ذکر من وقوع ما أخبر به صلی اللہ علیہ وسلم
من خروج أهلها وتركها ، وذكر كائنة الحرية المقتضية لذلك
قد اختلف الناس : متى يكون هذا الترك ؟ فقال القاضي عياض : إن هذا
جَرَى فِي الْعَصْرِ الْأَوَّلِ ، وإنه من المعجزات ^(۱) ، فقد تركت المدينة على أحسن
ما كانت حين انتقلت الخلافة إلى الشام والعراق ، وذلك أحسن ما كانت من
حيث الدين والدنيا : أما الدين فلكثرة العلماء بها ، وأما الدنيا فلعمارتها واتساع
حال أهلها ، قال : وذكر الأخباريون في بعض الفتن التي جرت بالمدينة وخاف أهلها أنه
رَحَلَ عَنْهَا كَثَرُ النَّاسِ ، وبقيت ثمارها للعوافي ^(۲) ، وخلت مدة ، ثم تراجع الناس إليها .
وحكى البدر ابن فرحون في شرح الموطأ ، ومن خطه نقلت ، عن القاضي
أيضاً أنه قال : وقد حكى قوم كثيرون أنهم رأوا ما أنذر به النبي صلی اللہ علیہ
وسلم من تغذية الكلاب على سَوَارِي مَسْجِدِهَا ، انتهى .

(۱) أي لكونه إخباراً من النبي صلی اللہ علیہ وسلم عما سيكون من بعده
بإعلام الله تعالى إياه .

(۲) العوافي : المراد الطير ، كما في الأحاديث التي مرت قريباً .

وقال النووي : الظاهر المختار أن الترك للمدينة يكون آخر الزمان عند قيام الساعة ، ويوضحه قصة الراعيين من مُزَيْنَة ، فإنهما يَخْرُجَانِ على وجوههما حين تدركهما الساعة ، ولفظ مسلم واضح في ذلك ؛ فإنه قال « ثم يحشر راعيان » ويؤيده كونها آخر قرى الإسلام خرابا .

قلت : ويؤيده رواية ابن شبة المتقدمة « لِيَدْعُنَّهَا مَذَلَّةُ أَرْبَعِينَ عَامًا لِلْعَوَافِي » وهذا لم يقع اتفاقا ، على أنه ورد ما يقتضى أن الترك للمدينة يكون متعديداً ، فلعل ما ذكره القاضى هو المرة الأولى ، وبقي الترك الذى يكون آخر الزمان ؛ لأن ابن شبة روى حديث « لِيَخْرُجَنَّ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ لِيَعُودُنَّ إِلَيْهَا ، ثُمَّ لِيَخْرُجَنَّ مِنْهَا ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهَا ، وَلِيَدْعُنَّهَا وَهِيَ خَيْرُ مَا يَكُونُ مَوْنَةً ^(١) » . وروى أيضا عن عمر مرفوعا « يَخْرُجُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنْهَا ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَيْهَا فَيَعْمُرُونَهَا حَتَّى تَمْتَلِئَ وَتَبْنَى ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا فَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهَا أَبَدًا » .

وروى ابن شبة عن أبي هريرة قال : « آخِرُ مَنْ يَحْشُرُ رَجُلَانِ رَجُلٌ مِنْ جَهَنَّمَ وَآخِرُ مَنْ مُزَيْنَةٌ فَيَقُولَانِ : أَيْنَ النَّاسُ ؟ فَيَأْتِيَانِ الْمَدِينَةَ فَلَا يَرَيَانِ إِلَّا الثَّلَبَ ، فَيَنْزِلُ إِلَيْهِمَا مَلَكٌ فَيَسْحَبُهُمَا عَلَى وَجُوهِهِمَا حَتَّى يُلْحَقَهُمَا النَّاسُ » . وروى أيضا عن حذيفة بن أسيد قال : « آخِرُ النَّاسِ مُحْشَرًا رَجُلَانِ مِنْ مُزَيْنَةٍ يَفْقِدَانِ النَّاسَ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : قَدْ فَقَدْنَا النَّاسَ مِنْذُ حِينَ أَنْطَلَقْنَا بِنَا إِلَى شَخْصٍ مِنْ بَنِي فُلَانٍ ، فَيَنْطَلِقَانِ فَلَا يَجِدَانِ بِنَا أَحَدًا ^(٢) . ثُمَّ يَقُولُ : انْطَلِقْ بِنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَيَنْطَلِقَانِ فَلَا يَجِدَانِ بِنَا أَحَدًا ، ثُمَّ يَقُولُ : انْطَلِقْ بِنَا إِلَى مَنْزِلِ قَرِيشَ بِبَقِيعِ الْعَرَقَدِ ، فَيَنْطَلِقَانِ فَلَا يَرِيَانِ إِلَّا السَّبَاعَ وَالثَّلَبَ . فَيُوجِهَانِ نَحْوَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ » .

قلت : وكأنهما إذا توجهتا نحو البيت الحرام ينزل إليهما الملاك قبل ذهابهما ؛ فلا يخالف ما تقدم ، فالظاهر أن ما ذكره القاضى هو الترك الأول ، وسببه فيما

(١) مونة : اسم الفاعل من « أَيْعَ الزَّرْعَ » إذا أدرك وغطاب وحن قطافه .

(٢) كذا ، ولعل كلمة « بها » مقحمة في هذا الموضع .

يظهر كائنة الحرة ، وقد تقدم من حديث أبي هريرة أنه قيل له : مَنْ يخرجهم منها يا أبا هريرة ؟ قال : أمراء السوء ، وروى الشيخان — واللفظ لمسلم — عن أبي هريرة مرفوعاً « يهلك أمتي هذا الحى من قریش ، قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : لو أن الناس اعتزلوهم » .

وروى مسلم عن حذيفة رضى الله عنه قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ » الحديث ، وفي رواية عنه : أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بما هو كائن إلى أن تقوم القيامة ، فما من شيء إلا قد سألته ، إلا أني لم أسأله ما يُخْرِجُ أهل المدينة من المدينة ، وروى الترمذي حديثاً « إذا مشت أمتي المطيطا ، وخدمتهم بنات فارس والروم ، ردَّ الله بأسهم بينهم ، وسلَّط شرارهم على خيارهم » . وروى ابن شبة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « والذي نفسي بيده ليكوننَّ بالمدينة مَلْحَمَةٌ يقال لها الحالقة ، لا أقول حالقة الشعر ، ولكن حالقة الدين ، فاخرُجُوا من المدينة ولو على قدر بريد » .

وروى ابن أبي شبة عنه أنه قال : اللهم لا تدركني سنة ستين ، ولا إمرة الصبيان ، يشير إلى أن أول الأغيمة كان في سنة ستين ، وهو كذلك ، كما قاله الحافظ ابن حجر ؛ فإن يزيد بن معاوية استُخْلِفَ فيها ، فأشار إلى دولة يزيد وفيها كانت وقعت الحرة ، وتسمى حرّة واقم ، وحرّة زهرة

وروى الواقدي في كتاب الحرة عن أيوب بن بشير المعادي أن النبي صلى الله عليه وسلم « خَرَجَ سَفَرًا مِنْ أَصْفَارِهِ ، فَلَمَّا مَرَّ بِحَرَّةِ زَهْرَةَ وَقَفَ وَاسْتَرْجَعَ ، فَنَسِيَ بِذَلِكَ مَنْ مَعَهُ ، فَظَنُّوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ بِسْفَرِهِمْ ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الَّذِي رَأَيْتَ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمَا إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ سَفَرِكُمْ هَذَا ، قَالُوا : فَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْحَرَّةِ خِيَارُ أُمَّتِي بَعْدَ أَصْحَابِي » .

(۱) المطيطاء — بفتح الميم وكسر الطاء ممدودا — والمطيطى — بضم ففتح ممدودا أو

مقصورا — التبخر ومد اليدين في المشى .

وروی ایضا عن سفیان بن أبی أحمد قال : کان رسول الله صلی الله علیه وسلم إذا أشرف علی بنی عبد الأشهل أشار بیده ، فقال : « یقتل بهذه الحرّة خيار أمتی » وروی ایضا عن کعب قال : نجد فی التوراة أن فی حرّة شرقیّ المدینة مقتلة تضىء وجوههم يوم القيامة صنعا » وروی ایضا أنه ذکر عند ابن عباس قتلی الحرّة ، فقال ابن عباس : یرحمهم الله ، قال رسول الله صلی الله علیه وسلم « یقتل بحرة زهرة خيار أمتی » .

وروی البیهقی فی الدلائل خبر أبیوب بن بشیر المتقدم ، ثم قال : هذا مرسل وقد روى عن ابن عباس فی تأویل قوله تعالى « وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا ^(۱) » قال : لأعطوها ، یعنی إدخال بنی حارثة أهل الشام علی أهل المدینة . ورواه بالسند إلى ابن عباس وقال : إنه مؤکد لمرسل ابن بشیر ، وسیأتی فی حرّة واقم ما رواه ابن زبالة من أن السماء مطرت علی عهد عمر رضی الله عنه ، فخرج مع أصحابه حتی أتوا حرّة واقم وشراجها تطرد ، فقال کعب : أما والله یا أمیر المؤمنین لتسیلن هذه الشراج بدماء الناس كما تسیل بهذا الماء ، فدنا منه ابن الزبیر فقال : یا أبا إسحاق ومتی ذلك ؟ فقال : إیاک أن تكون علی رجلک أویدک ! .

وروی ابن زبالة عن کعب ایضاً : إنا نجد فی کتاب الله : حرّة شرقیّ المدینة یُقتلُ بها مقتله تضىء وجوههم يوم القيامة كما یضى القمر لیلة البدر .

قلت : وسیاق کلام القرطبی یقتضی أنها هی السبب فی خروج أهل المدینة المذكور فی کلام عیاض ؛ فإنه ذکر نحو کلام عیاض ، وقال : فلما انتهى حالها — یعنی المدینة — کلاً وحسناً تناقص أمرها إلى أن أقفرت جهاتها . وتوالت الفتن فیها ؛ فخاف أهلها ، فارتحلوا عنها ، ووجه یزید بن معاویة مسلم بن عقبة المری فی جيش عظیم من أهل الشام ، فنزل بالمدینة ، فقاتل أهلها ، فہزمهم

(۱) من سورة الأحزاب من الآية ۱۴

تلهم بحرة المدينة قتلا ذريعا^(۱)، واستباح المدينة ثلاثة أيام، فسميت وقعة الحرة لذلك. ويقال لها: حرة زهرة، وكانت الوقعة بموضع يعرف بواقم على ميل من المسجد النبوي، فقتل بقايا المهاجرين والأنصار وخيار التابعين، وهم ألف وسبعمائة، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان، وقتل بها من حملة القرآن سبعائة رجل، ومن قريش سبعة وتسعون قتلوا ظمًا في الحرب صبرًا، قال: روى الإمام الحافظ ابن حزم في المرتبة الرابعة: وجالت الخيل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالت، وراثت بين القبر والمنبر أدام الله تشریفها وأكرهوا الناس أن يبايعوا يزيد على أنهم عبيد له إن شاء باع وإن شاء أعتق، وذكر أنه يزيد بن عبد الله بن زمعة البيعة على حكم القرآن والسنة، فأمر بقتله، فطربت عنقه صبرًا، وذكر الأخباريون أنها خلت من أهلها، وبقيت ثمارها للعوافي كما قال صلى الله عليه وسلم، وفي حال خلائها غدت الكلاب على سوارى المسجد. انتهى كلام القرطبي.

وروى الطبراني في خبر طويل عن عروة بن الزبير قال: لما مات معاوية سبب نقمة يزيد بن معاوية على أهل المدينة رضي الله عنه تشاقل عبد الله بن الزبير عن طاعة ابنه يزيد، وأظهر شتمه، فبلغ ذلك يزيد، فأقسم لا يؤتى به إلا مغلولًا، وإلا أرسل إليه، فقبل لابن الزبير: ألا نضع لك أغلالًا من فضة تلبس عليها الثوب وتبرقسه فالصلح أجمل بك؟ قال: فلا أبرأ الله قسمه، ثم قال:

ولا ألينُ لغير الحق أسأله * حتى يلينَ لِضُرِّسِ الماضِ الحَجَرُ
ثم دعا إلى نفسه، فوجه إليه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المري في جيش أهل الشام، وأمرهم بقتال أهل المدينة، فإذا فرغ من ذلك صار إلى مكة، قال: فدخل مسلم بن عقبة المدينة، وهرب منه يومئذ بقايا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعاث فيها^(۲)، وأسرف في القتل، ثم خرج منها، فلما كان في بعض

(۱) قتل ذريعا: شديدا كثيرا مع فظاعة (۲) عاث: أفسد

الطريق مات واستخلف حصين بن نمير الكندي ، ثم ذكر حصاره ابن الزبير ، ورَمِيَه بالمنجنيق ، واحتراق السكبة ، قال : وبلغ حصين بن نمير موت يزيد ابن معاوية فهرب .

قلت : وسببُ أمر يزيد بقتال أهل المدينة ما ذكره الإمام ابن الجوزي قال : لما دخلت سنة اثنين وستين ولى يزيدُ عثمان بن محمد بن أبي سفيان المدينة ، فبعث إلى يزيد وفداً من المدينة ، فلما رجع الوفد أظهروا شتمَ يزيد ، وقالوا : قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطناير ، ويلعب بالكلاب ؛ وإنا نشهدكم أننا قد خلعناه . وقال المنذر : أما والله لقد أجازني مائة ألف درهم ، ولا يمنعني ما صنع أن أصدقكم عنه ؛ والله إنه يشرب الخمر ، وإنه ليسكر حتى يدع الصلاة ؛ ثم بايعوا لعبد الله بن حنظلة الغسيل ؛ وأخرجوا عثمان ابن محمد عامل يزيد ؛ وكان ابن حنظلة يقول : يا قوم ؛ ما خرجنا على يزيد حتى خِفْتُ أن نُرمَى بالحجارة من السماء ؛ والله لو لم يكن معي أحدٌ من الناس لأبليتُ الله فيه بلاء حسناً ؛ وكانت قصة الحرة سنة ثلاث وستين ؛ وفي هذه السنة أخرج أهل المدينة عامل يزيد المتقدم ذكره .

قلت : وفي كتاب الحرة للواقدي ما ملخصه : أن أول ما هاج أمر الحرة أن ابن ميناء كان عاملاً على صَوافي^(١) المدينة - وبها يومئذ صواف كثيرة - حتى كان معاوية يجدُ بالمدينة وأعراضها مائة ألفِ وَسْقٍ وخمسين ألفِ وَسْقٍ ، ويخصد مائة ألفِ وَسْقٍ حنطة ، واستعمل يزيدُ على المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان ؛ وأن ابن ميناء أقبل بشرح له من الحرة يريد الأموال التي كانت معاوية ؛ فلم يزل يسوقه ولا يصدّه عنه أحد حتى انتهى إلى بلحارث بن الخزرج ، فنقب النقيب فيهم ، فقالوا : ليس ذلك لك ، هذا حدث وضرر علينا ، فأعلم الأمير عثمان بن محمد ذلك ، فأرسل إلى ثلاثة من بلحارث ، فأجابوه إلى أن يمر به ، فأعلم ابن ميناء فغداً برأيه .

(١) الصوافي : جمع صافية ، وهي النخلة الكثيرة الحمل . لكن المستعمل المنصوص عليه في كتب اللغة الصفية وجمعها الصفايا . مثل قنينة وقضايا .

فَذَبُّوهُمْ^(۱)، فرجع إلى الأمير فقال: اجمع لهم مَنْ قَدَرْتُ، وبعث معه بعض جند، وقال: مر به ولو على بطونهم، فغدا ابن ميناؤا مُتَطَاوِلًا عليهم، وعدا من يذهبهم من الأنصار، ورفدَتهم قریش^(۲) فَذَبُّوهُمْ حتى تفاسم الأمر؛ فرجع ولم يعمل شيئاً. وكتب عثمان بن محمد إلى يزيد يخبره بذلك، ويحرضه على أهل المدينة جميعاً؛ فاستشاط غضباً؛ وقال: والله لأبعثن إليهم الجيوش، ولأوطئنها الخيل: انتهى. وقال ابن الجوزي: قال أبو الحسن المدايني — وكان من الثقات —: أتى أهل المدينة المنبر فحلموا يزيد، فقال عبد الله بن أبي عمرو بن حفص المخزومي: قد خلعت يزيد كما خلعت عمامتي، ونزعها عن رأسه، إني لأقول هذا وقد وصَلَنِي وَأَخْسَنَ جَانِزَتِي، ولكن عدو الله سَكَّير. وقال آخر: قد خلعت كما خلعت نعلي؛ حتى كثرت العمام والنعال.

ثم وَلَّوْا على قریش عبد الله بن مطيع؛ وعلى الأنصار عبد الله بن حنظلة. ثم حاصر القوم مَنْ كان بالمدينة من بني أمية في دار مروان. فكتب مروان ومن معه إلى يزيد: إنا قد حَصِرْنَا وَمُنِعْنَا العذب، فيا غَوَّثَاهُ. فوصل الكتاب إليه. فبعث إلى مسلم بن عُبَيْة — وهو شيخ كبير — فجاء حتى دخل عليه، وقال له: اخرجْ وَسِرْ بالناس، فخرج مناديه، فنادى: أَنْ تَسِيرُوا إِلَى الْحِجَازِ عَلَى أَخَذِ أَعْطِيَاتِكُمْ كَمَلًا وَمَعُونَةَ مِائَةِ دِينَارٍ تَوْضِعُ فِي يَدِ الرَّجُلِ مِنْ سَاعَتِهِ. فانتدب لذلك اثنا عشر ألف رجل. وكتب يزيد إلى ابن مَرْجَانَةَ^(۳) أَنْ اغْزُ ابْنَ الزَّيْبِرِ، فقال: لَا وَاللَّهِ لَا أَجْعَلُهَا لِلْفَاسِقِ أَبَدًا قَتَلَ ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِغْرَاءَ الْبَيْتِ. وقال يزيد لمسلم: إِنْ حَدَّثَ بِكَ حَدَّثَ فَاسْتَخْلَفَ حُصَيْنَ بْنَ نَمِيرٍ السَّكُونِي. وقال له: ادْعُ الْقَوْمَ ثَلَاثًا، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ وَإِلَّا فَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ فَأَنْجَحْهَا ثَلَاثًا بِمَا فِيهَا مِنْ مَالٍ أَوْ سِلَاحٍ أَوْ طَعَامٍ فَهُوَ لِلْجَنْدِ، فَإِذَا مَضَتْ الثَّلَاثُ فَانْكَفِ.

(۱) ذَبُّوهُمْ: منعوهم وطردهوهم. (۲) رفدتهم: أعانهم.

(۳) ابن مرجانة: هو عبید الله بن زياد بن أبيه، وكان على الجيش الذي قتل الحسين بن علي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عنهم ، وانظر على بن الحسين فاستَوْص به ؛ فإنه لم يدخل في شيء مما دخلوا فيه ، فلما بلغ أهل المدينة إقبالُ الحصين وثبوا على من كان محصوراً من بني أمية ، وقالوا : لا نكف عنكم حتى نضرب أعناقكم أو تعطونا عهد الله وميثاقه ألا تبغوا غائلة^(۱) ، ولا تدلُّوا لنا على عورة ، ولا تظاهروا علينا عدوا ، فأعطوهم العهد على ذلك ، فأخرجوهم من المدينة ، فخرجوا حتى لقوا مسلم بن عقبة ، وأرسل إليه مروان ابنه عبد الملك فأشار عليه أن يأتيهم من ناحية الحرة ، وأن ينتظرهم ثلاثاً ففعل ، فلما مضت الثلاث قال : يا أهل المدينة ، ماتصنعون؟ قالوا : نحارب ، قال : لا تفعلوا وادخلوا في الطاعة ، قالوا : لا نفعل ، وكانوا قد اتخذوا خندقاً ، فنزل منهم جماعة ، وحمل ابن الغسل^(۲) على الخيل حتى كشفها ، وقتلوا قتلاً شديداً ، وجعل مسلم يمرض أصحابه ، وكان به مرض ؛ فنصب له سرير بين الصفين وقال : قاتلوا عن أميركم ؛ وأباح مسلم المدينة ثلاثاً يقتلون الناس ويأخذون الأموال ، ورفعوا على النساء ؛ وقاتل عبد الله بن مطيع حتى قتل هو وبنون له سبعة ؛ وبعث برأسه إلى يزيد ؛ فأفزع ما جرى من المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونقل الواقدي أن القوم لما قربوا تشاور أهل المدينة في الخندق خندق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وشكروا المدينة بالبنين من كل ناحية ؛ وعملوا في الخندق خمسة عشر يوماً ، وكان لقريش ما بين راتج إلى مسجد الأحزاب ، والأنصار ما بين مسجد الأحزاب إلى بني سلمة ، وللهو إلى ما بين راتج إلى بني عبد الأشهل ، فلما وصل القوم عسكرهم بالجرف ، وبعثوا رجالاً من رجالهم ، فأخذوا بالمدينة من كل ناحية ، فما يجدون مدخلاً ، والناس متلبسون السلاح قد قاموا على أفواه الخنادق يرمون بالنبل والحجارة ، وجلس مسلم بناحية واقم ، فرأى أمراً هائلاً ، فاستعان بمروان وكان وعده بوجه في ذلك لما لقيه بوادي القرى ؛ فخرج مروان

(۱) الغائلة : الداهية والفساد والشر . (۲) في المطبوعات كلها « وحمل ابن

القتيل » تطبيع ، وابن الغسيل : هو عبدالله بن حنظلة الذي ولاه الأنصار عليهم .

(۹ - - وفاة ۱)

حتى جاء بني حارثة ، فكلّم رجلا منهم ورغبه في الصنيعة^(۱) ، وقال : تفتح لنا طريقا فأكتب بذلك إلى يزيد فيصّل أرحامكم ، ففتح لهم طريقا من قبلهم حتى أدخل له الرجال من بني حارثة إلى بني عبد الأشهل ، وجاء الخبير عبد الله بن حنظلة وكان بناحية الصوريين في أصحابه . وأقبل عبد الله بن مطيع وكان من ناحية ذباب . وأقبل ابن هريرة في الموالى يطوف بهم على الخنادق ، وأقبل ابن ربيعة وكان من ناحية بطحان . فاجتمعوا جميعا من حيث يدخل أهل الشام ، قال محمود ابن أبيس : قد حضرت يومئذ . فلما أتينّا من قومنا بني حارثة ، وكان مروان حين أخرج عمل به عمل قبيل ، فكلّم رجلا فأدخله ومعه فارس ثم جعلت الخيل تنحدر على أثره . وقد وقفنا بيني عبد الأشهل فقاللنا ما وجدنا حتى عاينا الموت وكثرت القوم وتفرق الناس فقتلوا في كل وجه .

وروى الواقدي أيضا أن قصر بني حارثة كان أمانا من أراد أهل الشام أن يؤمنوه ، وكانت بنو حارثة آمنين . وأول دار انتهت والحرب بعد لم ينقطع دار بني عبد الله الأشهل ، انتهى .

وأخرج ابن أبي خيثمة بسند صحيح إلى جويرية بن أسماء : سمعت أبا شيخ أهل المدينة يتحدثون أن معاوية رضى الله عنه لما احتضر دعا يزيد فقال له : إن لك من أهل المدينة يوما ، فإن فعلوا فأرهم بمسلم بن عقبة فإني عرفت نصيحته ، فلما ولي يزيد وفد عليه عبد الله بن حنظلة وجماعة ، فأكرمهم وأجازهم ، فرجع فخرّض الناس على يزيد ، وعابه ، ودعاهم إلى خلع يزيد ، فأجابوه ، فبلغ ذلك يزيد ، فجهز إليهم مسلم بن عقبة ، فاستقبلهم أهل المدينة بجمع كثيرة ، فهابهم أهل الشام وكرهوا قتالهم ، فلما نشب القتال سمعوا في جوف المدينة التكبير ؛ وذلك أن بني حارثة أدخلوا قوما من الشاميين من جانب المدينة ، فترك أهل المدينة القتال ، ودخلوا المدينة خوفا على أهلهم ، فكانت الهزيمة ، وقتل من

(۱) الصنيعة : أصلها الإحسان ، ويقال « فلان صنيعة فلان » أي أنه هو الذي

خرجه ورباه واختصه بالجميل .

قتل ، وبايع مسلم الناس على أنهم خول^(۱) يزيد يحكم في دماءهم وأموالهم وأهلهم بما شاء ، انتهى .

وأخرج يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند صحيح عن ابن عباس قال : جاء تأويل هذه^(۲) الآية على رأس ستين سنة « ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها » يعنى إدخال بنى حارثة أهل الشام على أهل المدينة في وقعة الحرة ، قال يعقوب : وكانت وقعة الحرة سنة ثلاث وستين ، اه .

قالوا : وكلت امرأة مسلم بن عقبة في ولدها ، وقالت : أنا مولاتك ، وابني في الأسر ؛ فقال : عجلوه لها ؛ فضربت عنقه وقال : أعطوها رأسه ، أمانت ضين أن لا تقتلى حتى تسلمى في ابنك ؟ ! .

قلت : وسموه مسرفاً لإسرافه في القتل .

وتقل الواقدي في كتاب الحرة أن يزيد دخل على مسرف وكان قد جعله في علية لمرضه ؛ فقال له : لولا مرضك لكنت أنت صاحب هذا الأمر ، لما أعرف نصيحتك ، قال مسرف : أنشدك الله يا أمير المؤمنين ألا^(۳) تولى أمرهم غيري ؛ فإني والله أنا صاحبهم ، رأيت في النوم شجرة غرقده تصيح بأغصانها : يا ثارات عثمان ، فأقبلت وجعلت الشجرة تقول : على يدى مسلم بن عقبة ، حتى جثتها فأخذتها ، فعبرت ذلك أنى أكون القائم بأمر عثمان ؛ فهم قتلته ، قال يزيد : فسر إليهم على بركة الله ، فأنت صاحبهم ، وانظر إذا قدمت المدينة ، فمن عاقلك عن دخولها أو نصب لك حرّاً بالسيف السيف ، لا تُبقي فيهم ، وأنهبها ثلاثاً ، وأجهز على جريرهم ، واقتل مذبرهم ، وإياك أن تُبقي عليهم ، وإن لم يعرضوا لك فامض إلى ابن الزبير . وروى ابن الجوزى من طريق المدايني عن جويرية أن مسلماً نظر إلى قتلى الحرة فقال : آئن دخلت النار بعدها إني لشقي^(۴) ، وأسر أسرى فحبسهم ثلاثة

(۱) الخول — بالتحريك — الخدم والعبيد .

(۲) من سورة الأحزاب من الآية ١٤ (۳) في المطبوعات « أن تولى أمرهم

غيري » تطبيع (۴) في المطبوعات « لأن دخلت النار بعدها ولا إني لشقي » تطبيع وانظر ص ١٣٦ .

أيام لم يطعموا ، وجاءوا بسعيد بن المسيب^(۱) فقالوا : بايع ، فقال : أباع على سيرة أبي بكر وعمر ، فأمر بضرب عنقه ، فشهد رجل أنه مجنون ، فحلى عنه .

عدد القتلى في وقعة الحرة كانت القتلى يوم الحرة ؟ قال : سبعمائة من وجوه الناس قریش والأنصار والمهاجرين ، وعن المدائني أيضاً عن شيخ من أهل المدينة قال : سألت الزهري : كم ومن وجوه الموالى ومن لا يعرف من عبد وحر وامرأة عشرة آلاف ، وكانت الوقعة لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين .

وفي كتاب الحرة للواقدي قال : حدثني عبد الله بن جعفر قال : سألت الزهري : كم قتل من الناس يومئذ ؟ قال : أما من وجوه الدس فأكثر من سبعمائة من قریش والأنصار ووجوه الموالى ، ثم عدّد على من قتل حتى ما كنت أرى أنه بقي أحد إلا قتل يومئذ ، ثم قال الزهري : ولقد قتل ممن لا يعرف من الموالى والعبيد والصبيان والنساء أكثر من عشرة آلاف ، ودخلوها لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وستين .

قلت : وقال القرطبي لليلتين بقيتا من ذى الحجة ، وعن الأقسهري عن أبي معشر والواقدي أنها يوم الأربعاء لليلتين خلتا من ذى الحجة ، قلت : ولم أره في كتاب الواقدي ، ولعله سبق قلم ، والله أعلم .

وذكر المجد أنهم سبّوا الذرية ، واستباحوا الفروج ، وأنه كان يقال لأولئك الأولاد من النساء اللاتي حملن : أولاد الحرة ، قال : ثم أخضر الأعيان لمبايعه يزيد ، فلم يرض إلا أن يبايعوه على أنهم عبيد يزيد ، فمن تلكا أمر بضرب عنقه ، وجاءوا بعلي بن عبد الله بن عباس ، فقال الحصين بن نمير : يا معشر اليمى عليكم ابن اختكم ، فقام معه أربعة آلاف رجل ، فقال لهم مسلم : أخلعتم أيديكم من الطاعة ؟ فقالوا : أما فيه فنعم ، فبايعه على أنه ابن عم يزيد ، انتهى .

وعن المدائني أيضاً عن محمد بن عمر قال . قال ذكوان مولى مروان : شرب

(۱) سعيد بن المسيب : رأس علماء التابعين وفردهم وفقههم ، مات في سنة ۹۳ ،

وقال الواقدي : في سنة ۹۴ من الهجرة .

مسلم بن عقبة دواء بعد ما أنهب المدينة ، ودعا بالغداء ، فقال له الطيب : لا تعجل
فإني أخاف عليك إن أكلت قبل أن تكمل الدواء ، قال : ويحك ! إنما كنت
أحبُّ البقاء حتى أشفى نفسي من قتلة عثمان ، فقد أدركت ما أردت ، فليس شيء
أحب إلي من الموت على طهارتي ؛ فإني لا أشك أن الله قد طهرني من ذنوبي
بقتل هؤلاء الأرجاس .

قلت : هذا من عظيم حقه ، قاتله الله وأشقاه ! فإن هذا مما يزيد في عظيم جرمه .

ومن قتل صبوا يومئذ من الصحابة : عبد الله بن حنظلة الغسيل - قال ابن
حزم : قتل مع ثمانية من بنيهِ - وعبد الله بن زيد حاكمي وضوء النبي صلى الله
عليه وسلم ، ومعقل بن سنان الأشجعي - وكان شهد فتح مكة ، وكان معه راية
قومه يومئذ - وفيه يقول الشاعر :

ألا تلکمُ الأنصارُ تبکی سرانها وأشجعُ تبکی معقل بن سنان
ومحمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ، وقد ذكر ابن جرير الطبري الإمام أن
عبد الله بن الغسيل كان يقول :

بعدا لمن رام الفساد وطغى وجانب القصد وأسباب الهدى
لا يبعد الرحمن إلا من عصي

ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، وقتل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت بن قيس بن
شماس الأنصاري ، وأبوه كان خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ورد
وفد تميم ، وجعل مسلم بن عقبة يطوف على القتلى ومعه مروان بن الحكم ، حتى
مر على عبد الله بن الغسيل وهو ماض أصبغ السبابة ، فقال مروان : أما والله
لئن نصبت لها ميتاً لطلما نصبتها حياً .

وروى عن محمد بن كعب القرظي^(۱) قال : قال مروان لعبد الله بن حنظلة

(۱) في المطبوعات « محمد بن كعب القرظي » تطبيع ، ومحمد بن كعب القرظي ،
أحد العلماء الأكابر ، مدني ، كوفي ، قال ابن سعد : كان ثقة ورعا كثير الحديث ،
مات في سنة ۱۱۹ ، وقيل : في سنة ۱۲۰ من الهجرة .

الغسيل وقد رآه مشيراً بأصبعه وقد يبست : لئن أشرتَ بها ميتاً لطلما دعوتَ وتضرعتَ بها إلى الله تعالى ، فقال رجل من أهل الشام : إن كان هو^(١) كما تقول فما دعوتنا إلا لقتل أهل الجنة ، فقال مروان : خالفوا ونكثوا .

وفى الذيل على ابن النجار للعراقى : ذكر محمد بن سعد فى الطبقات أن مروان ابن الحكم كان يحرّضُ مسلم بن عقبة على أهل المدينة ، وجاء معه معيناً له حتى ظفر بهم ، وانتهبت المدينة ، فلما قدم مروان على يزيد شكر له ذلك وأدناه . وروى ابن الجوزى بسنده إلى سعيد بن المسيب قال : ما أصلى الله تعالى صلاة إلا دعوت على بنى مروان

وبسنده أيضاً إليه قال : لقد رآني ليلى الحرة ما فى المسجد أحداً من خلق الله غيرى ، وإن أهل الشام ليدخلون زمرّاً يقولون : انظروا إلى هذا الشيخ المجنون ، ولا يأتى وقت صلاة إلا سمعتُ أذاناً من القبر ، ثم أقيمت الصلاة فتقدمت فصليت وما فى المسجد أحد غيرى .

وبسنده أيضاً إلى المداينى عن أبى قرّة قال : قال هشام بن حسان : ولدت بعد الحرة ألف امرأة من غير زوج .

وعن المداينى أيضاً عن أبى عبد الرحمن القرشى عن خالد الكندى عن عمته أم الهيثم بنة يزيد قالت : رأيت امرأة من قریش تطوف ، فعرض لها أسود فعاثته وقبلته ، فقلت : يا أمة الله ، أتفعلن هذا بهذا الأسود ؟ فقالت : هو ابنى ، وقَعَ على أبوه يوم الحرة .

ونقل العراقى فى ذيله عن شيخه أبى المظفر السمعانى أنه روى بسنده إلى أبى غزوة الأنصارى قال : كان قوم من أهل المدينة يجتمعون فى مجلس لهم بالليل يسهرُونَ فيه ، فلما قتل الناس قتلوا ونجا منهم رجل فجاء إلى مجلسه فلم يحسّ منهم أحداً ، ثم جاء الليلة الثانية فكذلك ، ثم جاء الثالثة فكذلك ، فتمثل بهذا البيت :

(١) فى المطبوعات « إن كان مولا كما تقول » تطبيع لا معنى له .

أَلَا ذَهَبَ الْكُفَاةُ وَخَلَّفُونِي كُنِي حَزَنًا بِذِكْرِي لِلْكُفَاةِ

قال : فنودي من المجلس :

فَدَعَّ عَنْكَ الْكُفَاةَ فَقَدْتَوَلَّتْ وَنَفْسُكَ فَأَبِكِيهَا قَبْلَ الْمَاتِ
فَكُلُّ جَمَاعَةٍ لَا بَدَّ يَوْمًا يُفَرِّقُ بَيْنَهَا شَعْبُ الشَّتَاتِ

وروى الطبراني عن أبي هارون العبدى قال : رأيت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه مُمَعِّطَ اللحية ^(۱) ، فقلت : تعبت بلحيتك ؟ قال : لا ، هذا ما بقيت من ظلمة أهل الشام ، دخلوا من الحرة ، فأخذوا ما كان في البيت من متاع أو خروثي ^(۲) ، ثم دخلت طائفة أخرى فلم يجدوا في البيت شيئا فأسفوا أن يخرجوا بغير شيء ، فقالوا : أضجعوا الشيخ ، فجعل كل يأخذ من لحيتي خصلة .

حرق
مسلم بن عقبة
والخلاف فيه

وروى أيضا عن محمد بن سعيد خبرا قال فيه : فلما جاء يزيد خلافاً ابن الزبير ودعاؤه ^(۳) إلى نفسه دعا مسلم بن عقبة المري وقد أصابه الفالج وقال : إن أمير المؤمنين — يعني أباه — عهد إلى في مرضه إن رأيت من أهل الحجاز ريب أن أوجهك إليهم ، وقد رايتني ، فقال : إني كما ظن أمير المؤمنين ، أعقد لي وعب الجيوش . قال : فورد المدينة فأباحها ثلاثا ، ثم دعا إلى بيعة يزيد على أنهم أعبد له قن في طاعة الله ومعصيته ، فأجابوه إلى ذلك ، إلا رجلا واحدا من قریش أمه أم ولد . فقال له : بايع ليزيد على أنك عبد في طاعة الله ومعصيته . قال : بل في طاعة الله ، فأبى أن يقبل ذلك منه ، فقتله ، فأقسمت أمه قسما لئن أمكنها من مسلم حي أو ميتا أن تحرقه بالنار ، فلما خرج مسلم بن عقبة من المدينة اشتدت عنته فأت فخرجت أم القرشي بأعبد لها إلى قبر مسلم ، فأمرت به أن ينبش من عند رأسه فلما وصلوا إليه إذا بشعبان قد التوى على عنقه قابضا بأرنبته أنفه يمضها . قال : فَكَاعَ ^(۴) القوم عنه ، وقالوا : يا مولانا نصر في فقد كفاك الله شره ، وأخبروه ، فقالت : لأوفين الله بما وعدته ، ثم قالت : أنبشوه من عند الرجلين ، فنبشوا ، فإذا

(۱) ممعط اللحية : ساقط شعرها (۲) الخروثي : أردأ المتاع .

(۳) في المطبوعات « ودعا به إلى نفسه » تطبيع (۴) كاعوا : نكسوا وتأخروا

بالثعبان لاو ذنبه برجليه ، قال : فتذجّت وصلت ركعتين ، ثم قالت : اللهم إنك تعلم [أبى] إنما غضبت على مسلم بن عقبة اليوم لك فخل بيني وبينه ، ثم تناولت عوداً فمضت إلى ذنب الثعبان فأنسلّ من مؤخر رأسه فخرج من القبر ، ثم أمرت به ؛ فأخرج من القبر ثم أحرق بالنار .

قلت : وفي كتاب الحرة للواقدي أن الثابت بالبلد عندنا أن مُسْرِفاً لما دفن بشية المشلل^(۱) وكانت أم ولد ليزيد بن عبد الله بن ربيعة تسير وراء العسكر بيومين أو ثلاثة حتى جاءها الخبر بذلك ، فانتهمت إليه ، فنبشته ثم صلبته على المشلل^(۱) ، قال الضحّاك : فحدثني من رآه مَصْنُوباً يُرْمَى كما يرمى قبر أبي رغال^(۲) .

وحدثني عبد الرحمن بن أبي الزناد عن عبد الرحمن بن الحارث قال : والله ما خلصت إليه ، ولقد نبشت عنه ولكنها لما انتهت إلى لَحْدِهِ وجدت أسوداً من الأساود مَنْطُوباً على رقبته فاتحاه ، فانصرفت عنه .

وقال ابن الجوزي : لما دخلت سنة أربع وستين - وقد فرغ مسلم من قتال أهل المدينة - سارمتوجها إلى مكة ، واستخلف على المدينة روح بن زنباع ، وسار إلى ابن الزبير ؛ فمات في الطريق .

قلت : وذلك مُصْدَق ما جاء في مَنْ يَقْصِدُ أهل المدينة بسوء ؛ فأهلكه الله سريعاً . قال القرطبي : أهلكه الله مُنْصَرَفَهُ عن المدينة ، ابتلاه الله بالماء الأصفر في بطنه ؛ فمات بقديد بعد الوقعة بثلاث ليال .

وقال الطبري : مات بِهَرَشَى بعد الوقعة بثلاث ليال ، وكان لحاقته الموفرة يقول عند موته : اللهم إني لم أعمل عملاً قط بعد شهادة أن لا إله إلا الله أحب إليّ من قتال أهل المدينة ، ولئن دخلت النار بعدها إني لشقي ، ثم دعا حصين ابن نمير السكوني وقال له : أمير المؤمنين وَلَّاكَ بعدى ، فأسرِع السير ، ولا تؤخر

(۱) المشلل : جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر .

(۲) في المطبوعات «أبى دغال» تطبيع ، وقبر أبي رغال في طريق الطائف ، وانظر القاموس (رغل - غمس) وفي شعر جرير يهجو الفرزدق :
إذا مات الفرزدق فارجوه كما يرمون قبر أبي رغال

ابن الزبير ، وأمره أن ينصب المجانيق على مكة ، وقال : إن تَعَوَّذُوا بِالْبَيْتِ فَأَرْمِهِ ، وحاصر مكة أربعة وستين يوماً جرى فيها قتال شديد ، وقذفت الكعبة بالمجانيق يوم السبت ثالث ربيع الأول ، وأخذ رجل قبساً في رأس رُمح فطارت به الريح فاحترق البيت ، فجاءهم نعي يزيد بن معاوية إهلالاً ربيع الآخر ، وكان بين الحرة وبين موته ثلاثة أشهر ، وقال القرطبي : دون ثلاثة أشهر ؛ لأنه توفي بالذبح وذات الجنب في نصف ربيع الأول ، فلقد ذاب ذوب الرصاص ، واجترأ أهل المدينة وأهل الحجاز على أهل الشام ، فذلوا حتى كان لا ينفرد منهم رجل إلا أخذ بلجام دابته فنكس عنها ، فقال لهم بنو أمية : لا تبرحوا حتى تحملونا معكم إلى الشام ، ففعلوا ، ومضى ذلك الجيش حتى دخلوا الشام وكانت وقعة الحرة ، وقتل الحسين ، ورمى الكعبة بالمنجنيق من أشنع شئ جرى في أيام يزيد .

وقال عبد الرحمن بن سعيد بن زيد أحد العشرة رضى الله عنهم :
 فَإِنْ تَقْتُلُونَا يَوْمَ حَرَّةٍ وَاقِمِ فنحنُ على الإسلام أولُ مَنْ قُتِلَ
 ونحن قتلناكم بيدِ أذلةٍ وأبناً بأسلاب لنا منكم نفلُ
 فَإِنْ يَنْجُ مِنْهَا عَائِدُ الْبَيْتِ سَالِماً فكلُّ الذي قد نابنا منكم جَلَلُ^(۱)
 يعنى بعائد البيت عبد الله بن الزبير .

وهذه الكائنة غير الإغزاء المذكور في حديث البيداء ؛ ولهذا روى ابن شبة عن أبي المهزم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : نجى جيش من قبل الشام حتى يدخل المدينة ، فيقتلون المقاتلة ، ويَبْقَرُونَ بطون النساء ، ويقولون : الحبل في البطن : اقتلوا صُبابَةَ الشر ، فإذا علوا البيداء من ذى الحليفة خسف بهم فلا يدرك أسفلهم أعلاهم ولا أعلاهم أسفلهم ، قال أبو المهزم : فلما جاء جيش ابن ذبحمة قلنا : هم ، فلم يكونوا هم^(۲) .

(۱) جلال ، هنا : بمعنى يسير سهل ، وهو من الأضداد .

(۲) في هذا الخبر ألفاظ لم يستقم لى أمرها .

قلت : وقد جاء في بعض الأخبار ببيان أن ذلك الجيش جيش السفيناني ،
يبعثه لقتال المهدي .

وقال يحيى بن سعيد : لم تترك الصلاة في هذا المسجد منذ كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة أيام : يوم قتل عثمان ، ويوم الحرة ، قال مالك : ونسبت
الثالث ، وفي العتبية عن مالك أنه بلغه ذلك عن سعيد بن المسيب بمعناه ، قال
ابن رشد : واليوم الثالث الذي ذكر مالك أنه نسيه ، قال محمد بن عبد الحكم :
هو يوم خرج به أبو حمزة الخارجي ، وكان خروجه - فيما ذكروا - في دولة مروان بن
محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية .

قال خليفة بن خياط^(۱) : سار أبو حمزة في أول سنة ثلاثين ومائة ، يُريدُ
المدينة ، واستخلف على مكة إبراهيم بن الصباح الحميري ، وجعل على مُقدمته
فلاح بن عقبة السعدي ، وخرج أهل المدينة والنقوا بقُدَيْد يوم الخميس لتسع خبون
من صفر سنة ثلاثين ومائة ، وفلاح في ثلاثين ألف فارس ، فقال لهم : خلُّوا طريقنا
فإننا هؤلاء الذين بَعَوْا علينا وجاروا في الحكم فإنا لا نريد قتلكم ، فأبوا ؛ فقاتلهم
فانهزم أهل المدينة ، وجاءهم أبو حمزة فقال له علي بن الحصين : اتبع هؤلاء القوم ،
وأنحن على جريهم ، فإن لكل زمان حكما ، والإنحان في مثل هؤلاء أمثل ،
قال : ما أرى ذلك ، ومضى أبو حمزة إلى المدينة فدخلها يوم الاثنين لثلاث عشر
خلت من صفر ، ففي يوم دخوله إياها - والله أعلم - خَلَّى مسجد النبي صلى الله عليه
وسلم من أن يجمع فيه ، وأصيب من قریش يومئذ ثلثمائة رجل ، ومن آل الزبير
اثناعشر رجلا ، فما سمع الناس بَوَاكِى أوجع للقلوب من بواكى قُدَيْد ، ما بقي
بالمدينة أهل بيت إلا فيهم بكاء ، وقالت نائحة تبكيهم :

ما للزمان ومآليهِ أفنى قديد رجاليهِ
فلأبكين سريرةً ولأبكين علائهِ

(۱) انظر خبر هذه الواقعة في تاريخ الطبري (۱۰۶/۹ ط الحسينية) وتاريخ
ابن الأثير (۱۵۷/۵) والبداية لابن كثير (۳۵/۱۰) والنجوم الزاهرة (۳۱۱/۱) .

مسير
أبى حمزة
إلى المدينة

قلت : وذكر الذهبي عن خليفة بن خياط في خبر أبي حمزة هذا ما ملخصه :
أن عبد الله بن يحيى الأعور الكندي المسمى طالب الحق - بعد أن ملك حضرموت
وصنعاء - بعث إلى مكة أبا حمزة الخارجي الأباضي المذكور ، فخاف عبد الواحد
ابن سليمان بن عبد الملك - وكان والياً على مكة والمدينة - وخذله أهل مكة ،
ففارقها في نفر الأول ، وقصد المدينة ، فغلب أبو حمزة على مكة ، ثم سار منها
بعد أن استخلف عليها ، فلقى بقديد الجيش الذي أرسله عبد الواحد بن سليمان
لقتاله ، فظفر أبو حمزة ، وسار إلى المدينة فدخلها ، وقتل فيها جماعة منهم أربعون
رجلاً من بني عبد العزى ، وجهز إليه مروان عسكراً ، فلقى بوادي القرى فاجأ ،
وهو على مقدمة أبي حمزة ، فاقتتلوا ، فقتل فلح وعامة أصحابه ، ثم أدركوا
أبا حمزة بمكة ، فقتلوه في خلق من أصحابه ، ثم ساروا لطالب الحق فقتلوه ،
انتهى ملخصاً .

قلت : ويحتمل أن ما نقل عن الأخباريين في الخروج من المدينة إنما كان
في هذه الكائنة أو قبل ذلك كله في كائنة بُسْر^(١) بن أرطاة ، فإن القرطبي قال :
وذكر أبو عمرو الشيباني قال : لما وجه معاوية رضي الله عنه بسر بن أرطاة لقتل
شيعة على رضي الله عنه سار إلى أن أتى المدينة ، فقتل ابن عبيد الله بن العباس
رضي الله عنهما ، وفر أهل المدينة حتى دخلوا الحرة حرة بني سليم ، ولكنه بعيد ،
والأقرب ما قدمناه ، والله أعلم .

الفصل السادس عشر

في ظهور نار الحجاز التي أنذر بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فظهرت بأرض
المدينة وأطفاها الله تعالى عند وصولها إلى حرمها ، كما سنوضحه .

روينا في مسند أحمد برجال ثقات عن أبي ذر قال : أقبلنا مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم في هذه النار

(١) في المطبوعات كلها «بسر بن أرطاة» بالشين المعجمة - تطبيع .

الله عليه وسلم ، فرأينا ذا الحليفة ، فتعجل رجال إلى المدينة ، وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبتنا معه ، فلما أصبح سأل عنهم ، فقيل : تعجلوا إلى المدينة ، فقال : « تعجلوا إلى المدينة والنساء ، أما إنهم سيدعونها أحسن ما كانت » ثم قال : « ليت شعري متى تخرج نار بأرض اليمن من جبل الوراق تضيء منها أعناق الإبل ببصري بروكا كضوء النهار » ورواه ابن شبة من غير ذكر « بأرض اليمن » ولفظه « ليتكنها أحسن ما كانت ، ليت شعري متى تخرج نار من جبل الوراق تضيء لها أعناق الإبل ببصري بروكا كضوء النهار » .

وأخرج الطبراني في آخر حديث لحذيفة بن أسد : وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من رومان - أو ركوبة - تضيء منها أعناق الإبل ببصري » .

قلت : وركوبة كما سيأتي : ثنية قريبة من ورقان ، ونعله المراد بجبل الوراق ، قال الحافظ ابن حجر : ورومان لم يذكره البكري . ولعل المراد رومة البئر المعروفة بالمدينة ، ثم نقل عن البكري أن ركوبة بين المدينة والشام ، وسيأتي رده .

وهذه النار مذكورة في الصحيحين في حديث « لا تقوم الساعة حتى تظهر نار بالحجاز » ، ولفظ البخاري : « تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصري » .

وروى الطبراني بسند فيه ضعف عن عاصم بن عدي الأنصاري قال : سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثان ما قدم ، فقال : « أين حبس سيل^(١) ؟ » قلنا : لا ندري ، فمر بي رجل من بني سليم ، فقلت : من أين جئت ؟ فقال : من حبس سيل^(١) ، فدعوت بنعلي ، فأنحدرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله ، سألتنا عن حبس سيل^(١) ، فقلنا : لا علم لنا به ، وإنه

(١) في المطبوعات كلها كما في خلاصة الوفا « حبس وسيل » تطبيع ، والصواب بغير واو كما في مجمع البحار ، ومعجم البلدان ، ونهاية ابن الأثير ، وقع فيها سيأتي (في ص ١٤٢) على الصواب ، وقرأ الهامشة الآتية في ص ١٤١ .

مرَّ بي هذا الرجل فسألته فزعم أن به أهله ، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أين أهلك » ؟ فقال : بحبس سيل^(١) ، فقال : « أخرج أهلك منها ؛ فإنه يُوشك أن تخرج منه نار تضيء أعناق الإبل ببصرى » .

وحديث « يوشك نار تخرج من حبس سيل^(١) تسير سائر بطيئة الإبل ، تسير النهار وتقيم الليل » الحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى من رواية رافع بن بشير السامي عن أبيه . قال الحافظ الهيثمي : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد رجال الصحيح ، غير رافع ، وهو ثقة ، انتهى .

وفي مسند الفردوس عن عمر حديث « لا تقوم الساعة حتى يسيل وادي من أودية الحجاز بالنار يضيء له أعناق الإبل ببصرى » وأخرجه ابن عدي في كامله من طريق عمر بن سعيد التنوخي عن ابن شهاب عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رفعه ، وعمر بن سعيد ذكره ابن حبان في الثقات ، وكتبه ابن عدي والدارقطني وقد ظهرت هذه النار بالمدينة الشريفة كما سنبينه ، ولا إشكال في كون المدينة حجازية ، وأما كونها يمانية فقد نص عليه الشافعي . قال البيهقي في المعرفة : قال الشافعي : ومكة والمدينة يمانيتان . قلت : وقد ذكر الشافعي في الأم حديث « أتاكم أهل اليمن هم أئبن قابوا » الحديث ، ثم روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على ثنية تبوك فقال : ما ههنا شام ، وأشار بيده إلى جهة الشام ، وما ههنا يمن » ، وأشار بيده إلى جهة المدينة « هكذا نقلته من الأم بهذا اللفظ ، وهو في مسند الشافعي بلفظ « ما ههنا شام ، وأشار بيده إلى الشام ، ومن ههنا يمن » ، وأشار بيده إلى جهة المدينة » قال ابن الأثير في شرحه : الغرض منه بيان حد الشام واليمن ، وقد جعل المدينة من اليمن ، اهـ . والعجب أن النووي قال في فتاويه :

(١) في المطبوعات « حبس وسيل » والصواب « حبس سيل » بغير واو ، قال ياقوت : قال الزمخشري : الحبس - بالضم - جبل لبني قرة ، وقال غيره : الحبس بين حرة بني سليم والسوارقية ، وفي حديث عبدالله بن حبشي : تخرج نار من حبس سيل ، قال أبو الفتح نصر : حبس سيل - ورواه بالفتح - إحدى حرتي بني سليم ، وهما حرتان بينهما فضاء كلتا هما أقل من ميلين ، اهـ . وانظر أيضا النهاية لابن الأثير (١/١٩٦) .

بيان أن المدينة
يمانية كما أنها
حجازية

مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ليست يمانية ولا شامية ، بل هي حجازية ، قال :
وهذا لا خلاف فيه بين العلماء ، وكأنه لم يقف على هذا

وأما حبس سيل فقد قيل : إن حبس - بالضم ثم السكون - بين حرة بني
سليم والسوارقية ، وقد كان إقبال هذه النار من المشرق في جهة طريق السوارقية
كما سيأتي ، وقال نصر : حبس سيل - بالفتح - إحدى حرتي بني سليم . قلت :
وأهل المدينة اليوم يسمون السد الآتي وصفه فيما أحدثته هذه النار بالحبس .
وفي كلام يقرت ما يقتضى أنه كان يسمى بالسد قبل هذه النار ؛ فإنه لم يدركها ،
ومع ذلك قال : إن أعلى وادي قناة عند السد يسمى بالشظاة ، اهـ .

وظهور النار المذكورة بالمدينة الشريفة قد اشتهر اشتهارا بلغ حد التواتر عند
أهل الأخبار ، وكان ظهورها لإصدار العباد بما حدث بعدها ؛ فلهذا ظهرت على
قرب مرحلة من بلد النذير صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدمها زلازل مهولة ،
وقد قال تعالى : « وما نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ^(١) » وقال تعالى : « ذلك يخوف
الله به عباده يا عباد فاتقون ^(٢) » ولما ظهرت النار العظيمة الآتي وصفها ، وأشفق
منها أهل المدينة غاية الإشفاق ، والتجؤوا إلى نبيهم المبعوث بالرحمة ، صُرِفَتْ عنهم
ذات الشمال ، وزاحت عنهم الأوجال ، وظهرت بركة تربيته صلى الله عليه وسلم
في أمته ، وأعل الحكمة في تخصيصها بهذا المحل - مع ما قدمناه من كونه حضرة
النذير - الرحمة لهذه الأمة فإنها لو ظهرت بغيره وسلطان القهر والعظمة التي هي من
آثاره قائم لربما استولت على ذلك القطر ولم تجد صارفا ؛ فيعظم ضررها على الأمة ،
فظهرت بهذا المحل الشريف لحكمة الإنذار ، فإذا تمت قابليتها الرحمة فجعلتها برءا
وسلاما ، إلى غير ذلك من الأسرار

وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة الشريفة مُسْتَهْلَلٌ بِجُمَادَى الْآخِرَةِ أَوْ آخِرِ جُمَادَى
الْأُولَى سنة أربع وخمسين وستائة ، لكنها كانت خفيفة لم يدركها بعضهم مع
تكررها بعد ذلك ، واشتدت في يوم الثلاثاء على ما حكاه القطب القسطلاني ،

ابتداء الزلزلة
التي حدثت
بالمدينة

(١) من سورة الإسراء من الآية ٥٩ (٢) من سورة الزمر من الآية ١٦ .

وظهرت ظهورا عظيما اشترك في إدراكه العام والخاص ، ثم لما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر أو رابعه في الثالث الأخير من الليل حدث بالمدينة زلزلة عظيمة أشفق الناس منها ، وانزعجت القلوب لهيبتها ، واستمرت تزلزل بقية الليل ، واستمرت إلى يوم الجمعة ولها دوى أعظم من الرعد ، فتموج الأرض ، وتتحرك الجدارات ، حتى وقع في يوم واحد دون ليلة ثمانية عشر حركة على ما حكاه القسطلاني

وقال القرطبي : قد خرجت نار بالحجاز بالمدينة ، وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العتمة الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستائة ، واستمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة فسكنت ، وظهرت بقريظه بطرف الحرة ، ترى في صفة البلد العظيم ، عليها سور محيط عليه شراريف وأبراج وموادن ، وترى رجال يقودونها ، لا تمر على جبل إلا دكته وأذابته ، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دوى كدوى الرعد ، يأخذ الصخور بين يديه ، وينتهى إلى محط الركب العراقي ، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم ، فانتهدت النار إلى قرب المدينة ، ومع ذلك فكان يأتي المدينة نسيم بارد ، وشوهد لهذه النار غلمان كغليان البحر ، وقال لي بعض أصحابنا : رأيتها صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام ، وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى ، اه .

وقال النووي : تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام

ونقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضي المدينة الشريفة وغيره أن في ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة حدث بالمدينة في الثالث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها وباتت في تلك الليلة تزلزل ، ثم استمرت تزلزل كل يوم وليلة مقدار عشر مرات - وفي كتاب بعضهم أربع عشرة^(١) مرة - قال : والله لقد زلزلت مرة ونحن حول الحجرة فاضطرب لها المنبر إلى أن سمعنا منه صوتا للحديد الذي فيه ، واضطربت قناديل الحرم الشريف ، زاد القاشاني : ثم في اليوم الثالث - وهو يوم الجمعة - زازت الأرض زلزلة عظيمة ، إلى أن اضطربت منام

(١) في الأصل «أربعة عشر مرة» والعربية تقتضى ما أثبتناه .

المسجد، وسمع اسقف المسجد صرير^(۱) عظیم، قال القطب : فلما كان يوم الجمعة نصف النهار ظهرت تلك النار، فثار من محل ظهورها في الجود خان متراكم غشي الأفق سواده، فلما تراكت الظلمات وأقبل الليل سَطَعَ شعاعُ النار، فظهرت مثل المدينة العظيمة في جهة المشرق . والحكمة في ظهورها في يوم الجمعة غير خافية، ففي الحديث « من أفضل أيامكم يوم الجمعة : فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا على من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة على » الحديث، وفي الحديث أيضاً « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة : فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وما من دابة إلا وهي مُصِيخة^(۲) حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة، إلا الجن والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه » رواه أبو داود، وهو اليوم الذي أخره الله لهذه الأمة، وأكمل فيه دينهم؛ فأراد الله أن يخوف عباده فيه بذلك ليردهم إليه، فتلک النار نعمة في صورة نقمة، ولهذا وجبت^(۳) منها القلوب وأشفقت، وأيقن الناس أن العذاب قد أحاط بهم . قال القاضي سنان : وطلعت إلى الأمير - وكان عز الدين منيف بن شيحة - وقلت له : قد أحاط بنا العذاب، أرجع إلى الله، فأعتق كل مماليكه، ورد على الناس مظالمهم - زاد القاشاني : وأبطل المكس - ثم هبط الأمير للنبي صلى الله عليه وسلم، وبات في المسجد ليلة الجمعة وليلة السبت، ومعه جميع أهل المدينة حتى النساء والصغار، ولم يبق أحد في النخل إلا جاء إلى الحرم الشريف، وبات الناس يتضرعون ويبكون، وأحاطوا بالحجرة الشريفة كاشفين رؤسهم مُقرِّين بذنوبهم مبتهلين مستجيرين بنبيهم صلى الله عليه وسلم . قال القطب : ولما عين أمير المدينة ذلك أقلع عن المخالفة، واعتبر، ورجع عما كان عليه من المظالم وانزجر، وأظهر التوبة والإنابة، وأعتق جميع مماليكه، وشرع في رد المظالم، وعزم أهل المدينة

(۱) الصرير : الصوت (۲) مصيخة : منصتة .

(۳) وجلت القلوب توجل : خافت أشد الخوف .

على الإقلاع عن الإصرار وارتكاب الأوزار ، وفَزِعُوا إلى التضرع والاستغفار ، وهبط أميرهم من القلعة مع قاضيهم الشريف سنان وأعيان البلد ، والتجؤوا إلى الحجرة الشريفة ، وباتوا بالمسجد الشريف بأجمعهم حتى النساء والأطفال ؛ فصرف الله تعالى عنهم تلك النار العظيمة ذات الشمال ، ونجوا من الأوجال ، فسادت تلك النار من مخرجها وسالت ببحر عظيم من النار ، وأخذت في وادي أُحْيَلَيْن وأهل المدينة يشاهدونها من دورهم كأنها عندهم ، ومالت من مخرجها إلى جهة الشمال واستمرت مدة ثلاثة أشهر على ما ذكره المؤرخون .

وذكر القطب القسطلاني^(١) في كتاب أفرده لهذه النار ، وهو ممن أدركها ، مدة النار لكنه كان بمكة فلم يشاهدها : أن ابتداءها يوم الجمعة السادس من شهر جمادى الآخرة ، وأنها دامت إلى يوم الأحد السابع والعشرين من رجب ، ثم خمدت ، فجعله ما أقامت اثنان وخمسون يوماً ، لكنه ذكر بعد ذلك أنها أقامت منطقية أياماً ، ثم ظهرت ، قال : وهي كذلك تسكن مرة وتظهر أخرى ؛ فهي لا يؤمن عودُها ، وإن طفيء وقودها ، انتهى ؛ فكان ما ذكره المؤرخون من المدة باعتبار انقطاعها بالكلية ، وطالت مدتها اشتهر أمرها فينجزر بها عامة الخلق ويشهدوا من عظمها عنوان النار التي أنذرهم بها حبيب الحق .

وذكر القسطلاني^(٢) عمن يثق به أن أمير المدينة أرسل عدة من الفرسان إلى هذه النار للاتيان بخبرها ، فلم تجسر الخيل على القرب منها ، فترجّل أصحابها وقربوا منها ، فدكروا أنها ترمى بشرر كالقصر ، ولم يظفروا بحلقة أمرها ، فجرد عزمه للاحاطة بخبرها ، فذكر أنه وصل منها إلى قدر غلوتين بالحجر ولم يستطع

(١) من نافلة القول أن نذبه هنا إلى أن قطب الدين القسطلاني الذي ينقل عنه المؤلف غير شهاب الدين القسطلاني شارح البخاري ؛ فإن شارح البخاري متأخر عن المؤلف ؛ إذ وفاة شارح البخاري في سنة ٩٢٣ - ويقال : ٩٢٢ من الهجرة - وذلك بعد وفاة السهمودي بأحد عشر ، أو - اثني عشر - عاماً ، ثم إن النار كانت في سنة ٦٥٤ ، والقسطلاني المنقول عنه قد أدركها ، والمؤلف يصرح في غير موضع بذلك .

(١٠ - ١١ - ١٢)

أن يجاوز موقفه من حرارة الأرض وأحجار كالمسامير تحتها نار سارية ومقابله ما يتصاعد من اللهب ، فعان ناراً كالجبال الراسيات ، والتلال المجتمعة السائرات ، تقذف بزبد الأحجار كالبحار المتلاطمة الأمواج ، وعقد لهيبها في الأفق قتاما حتى ظن الظان أن الشمس والقمر كسفا إذ سلبا بهجة الإشراق في الآفاق ، ولولا كفاية الله كفتها لأكلت ما تقدم عليه من الحيوان والنبات والحجر ، انتهى .

وذكر الجمال المطري ما يخالف بعض هذا ؛ فإنه قال : أخبرني علم الدين سنجر العزى من عنقاء الأمير عز الدين منيف بن شيحة صاحب المدينة قال : أرسلني مولاي الأمير عز الدين بعد ظهور النار بأيام ، ومعى شخص من العرب . وقال لنا ونحن فارسان : أقربا من هذه النار ، وانظرا هل يقدر أحد على القرب منها ، فإن الناس يهابونها لعظمتها ، فخرجت أنا وصاحبي إلى أن قربنا منها ؛ فلم نجد لها حراً ، فنزلت عن فرسى ، وسرت إلى أن وصلت إليها ، وهى تأكل الصخر والحجر ، فأخذت سهماً من كنانتي ، ومددت به يدي إلى أن وصل النصل إليها فلم أجد لذلك ألماً ولا حراً ، فعرق النصل ولم يحترق العود ، فأدّرت السهم وأدخلت فيها الريش فاحترق الريش ولم يؤثر في العود .

وذكر المطري قبل ذلك أنها كانت تأكل كل ما مرت عليه من جبل وحجر ، ولا تأكل الشجر ، قال : وظهر لى فى معنى ذلك أنه لتحریم النبی صلی الله عليه وسلم شجرة المدينة ؛ فمنعت من أكل شجرها لوجوب طاعته صلی الله عليه وسلم على كل مخلوق .

قلت : وذكر القسطلانى أن هذه النار لم تزل مارة على سبيلها حتى اتصلت بالحرّة ووادی الشّطّاة ، وهى تسحق ما والاها^(١) ، وتذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر والحصى من قوة اللظى ، وأن طرفها الشرقى أخذ بين الجبال فحالت دونه ثم وقفت ، وأن طرفها الشامى — وهو الذى يلى الحرم — اتصل بجبل يقال له وعيرة

(١) والاها : دنا منها ، وفى المطبوعات « ماوالها » تطبيع .

على قرب من شرق جبل أحد ، ومَضَتْ في الشَّظَاة الذي في طرفه وادي حمزة رضى الله عنه ، ثم استمرت حتى استقرت تُجَاه حرم النبي صلى الله عليه وسلم فطفئت ، قال : وأخبرني شخص أعتد عليه أنه عين حَجراً ضخماً من حجارة الحرة كان بعضه خارجاً عن حد الحرم ، فعلقت بما خرج منه ، فلما وصلت إلى ما دخل منه في الحرم طفئت وخمدت ، انتهى .

وهذا أولى بالاعتماد من كلام المطري ؛ لأن المطري لم يدرك هذه النار وإن أدرك مَنْ أدركها ، بخلاف القطب فإنه أدركها ، واعتنى بجمع أخبارها ، وأفردها بالتصنيف ، ولم يقف عليه المطري ، وهذا أبلغ في الإعجاز ، حيث لم تدخل هذه النار حرمة الشريف ؛ إذ هي للانذار والتخويف وهو نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم .

وقد نقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب القاضي سنان الحسيني أن سيل النار ضوء النار انحدر مع وادي الشَّظَاة حتى حاذى جبل أحد ، وكادت النار تقارب حرة العريض وخاف الناس منها خوفاً عظيماً ، ثم سكن قَعِيرُهَا الذي يلي المدينة ، وطفئت مما يلي العريض بقدره الله تعالى ، فرجعت تسير في الشرق ، وهو مؤيد لما ذكره القطب ، ومشاهدة آثارها اليوم تقضي بذلك .

قال المطري : وأخبرني بعض من أدركها من النساء أنهن كن يغزلن على ضوءها بالليل على أسطح البيوت بالمدينة الشريفة .

وقال القسطلاني : إن ضوءها استوى على ما بَطَن من القيعان^(١) ، وظهر من القلاع ، حتى كأن الحرم النبوي عليه الشمس مشرقة ، وجملة أما كن المدينة بأنوارها محدقة ، ودام على ذلك هبها حتى تأثر له النيران ، وصار نور الشمس على الأرض تعتريه ضُفْرَة ، ولونها من تصاعد الاتهاب يعتريه حمرة ، والقمر كأنه قد كسف من اضمحلال نوره ، قال : وأخبرني جمع ممن توجه للزيارة على طريق

(١) القيعان : جمع قاع ، وهو أرض سهلة مطمئة .

المشيان أنهم شاهدوا ضوءها على ثلاثة مراحل للمجد ، وآخرون أنهم شاهدوها من جبال ساية .

قلت : نقل أبو شامة عن مشاهدة كتاب الشريف سنان قاضي المدينة أن هذه النار رؤيت من مكة ومن الفلاة جميعها ، ورآها أهل ينبع .

قال أبو شامة : وأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدوها بالمدينة أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوءها الكتب .

وقال المجد : والشمس والقمر في المدة التي ظهرت بها ما يطلعان إلا كاسفين .

قال أبو شامة : وظهر عندنا بدمشق أثر ذلك الكسوف من ضعف النور على الخيطان ، وكنا حيارى من سبب ذلك ، إلى أن بلغنا الخبر عن هذه النار ، وكل من ذكر هذه النار يقول في آخر كلامه : وعجائب هذه النار وعظمتها يكل عن وصفها البنان والأقلام^(١) ، وتجل عن أن يحيط بشرحها البيان والكلام ؛ فظهر بظهورها معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم لوقوع ما أخبر به وهي هذه النار ؛ إذ لم تظهر من زمنه صلى الله عليه وسلم قبلها ولا بعدها نار مثليها .

وقال القسطلاني : إن جاء من أخبر برؤيتها ببصرى فلا كلام ، وإلا فيحتمل أن يكون ذكر ذلك في الحديث على وجه المبالغة في ظهورها ، وأنها بحيث ترى ، وقد جاء من أخبر أنه أبصرها بتيماء ، وبصرى منها مثل ما هي من المدينة في البعد .

قلت : قد تقدم عن القرطبي أنه بلغه أنها رؤيت من جبال بصرى ، وصرح الشيخ عماد الدين بن كثير بما يقتضي أنه أضاءت من هذه النار أعنان الإبل ببصرى ، فقال : أخبرني قاضي القضاة صدر الدين الحنفى قال : أخبرني والدي الشيخ صفي الدين مدرس مدرسة بصرى أنه أخبره غير واحد من الأعراب

(١) يكل : يضعف ويعجز .

صبيحة الليلة التي ظهرت فيها هذه النار من كان يحضره ببلد بصرى أنهم رأوا صفحات أعناق إبليس في ضوء تلك النار ، فقد تحقق بذلك أنها الموعود بها ، والحكمة في إنارتها بالأما كن البعيدة من هذا المظهر الشريف حصول الإنذار ، ليتم به الانزجار ، كما اتفق لأهل المدينة ، وفي هذا المعنى يقول قائلهم :

يا كاشف الضرر صفحاً عن جرائمنا	لقد أحاطت بنا يا رب بأساء
نشكو إليك خطوباً لا تطيق لها	خملاً ونحن بها حقا أحقاء ^(١)
زلازلاً تخشع الصم الصلاب لها	وكيف تقوى على الزلزال شماء ^(٢)
أقام سباعاً يرج الأرض فانصدعت	عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار تجرى فوقه سفن	من الهناب لها في الأرض إرساء
ترمي لها شرراً كالقصر طائشة	كأنها ديمة تنصب هطلاء
تنشق منها بيوت الصخر إن زفرت	رعباً ، وترعد مثل السعف أضواء
منها تكاثف في الجو الدخان إلى	أن عادت الشمس منه وهي دهماء
قد أثرت سعة في البدر لفحتها	فليلة التم بعد النور عمياء
تحدث النيرات السبع ألسنها	بما تلاقى بها تحت الثرى الماء
وقد أحاط لظاها بالبروج إلى	أن صار يلفحها بالأرض أهواء
فباسمك الأعظم المكنون إن عظمت	منا الذنوب وساء القلب أسواء
فاسمخ وهب وتفضل بالرضى كرما	وارحم فكل لفرط الجهل خطاء
فقوم يونس لما آمنوا كشف التعميز عنهم وعمم القوم نعماء	
ونحن أمة هذا المصطفى ، ولنا	منه إلى عفوك المرجو دعاء
هذا الرسول الذي لولاه ما سلكنا	محجة في سبيل الله بيضاء
فارحم وصل على المختار ما خطبت	على علا منبر الأوراق ورقاء

(١) أحقاء : جمع حقيق ، ومعناه مستحق

(٢) شماء : أراد الجبال .

مبدأ ظهور النار
قال المؤرخون : وكان ظهور هذه النار من صدر وادٍ يقال له وادى الأحيليين وقال البدر ابن فرحون : إنها سالت في وادى أحيليين ، وموضعها شرقى المدينة على طريق السوارقية مسيرة من الصبح إلى الظهر

قال القطب القسطلانى : ظهرت في جهة المشرق على مرحلة متوسطة من المدينة في موضع يقال له قارع الهلاء على قرب من مساكن قريظة شرقى قباء ، فهي بين قريظة وموضع يقال له أحيليين ، فثارت من هذا القاع ، ثم امتدت فيه آخذةً في الشرق إلى قريب من أحيليين ، ثم عرجت واستقبلت الشام سائلة إلى أن وصلت إلى موضع يقال له قرين الأرنب بقرب من أحدٍ ، فوقت وانطفت وانصرفت ، انتهى .

من فوائد هذه النار
قال المؤرخون : واستمرت هذه النار مدة ظهورها تأكل الأحجار والجبال ، وتسيل سيلاً ذريعاً في وادٍ يكون طوله مقدار أربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال وعمقه قامة ونصف ، وهي تجري على وجه الأرض والصخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك^(١) ، فإذا خمد اسودَّ بعد أن كان أحمر ، ولم يزل يجتمع من هذه الحجارة المذابة في آخر الوادى عند منتهى الحرة حتى قطعت في وسط وادى الشظاة إلى جهة جبل وعيرة ، فسدت الوادى المذكور بسد عظيم من الحجر المسبوك بالنار ولا كسد ذى القرنين ، يعجز عن وصفه الواصف ، ولا مَسْلَكٌ لإنسان فيه ولا دابة .

قلت : وهذا من فوائد إرسال هذه النار ؛ فإن تلك الجهة كثيراً ما يطرق منها المفسدون لكثرة الأعراب بها ؛ فصار السلوك إلى المدينة متعسراً عليهم جداً .

قال القسطلانى : أخبرني جمع ممن أركنُ إلى قولهم أن النار تركت على الأرض من الحجر ارتفاع رمح طويل على الأرض الأصلية .

(١) الآنك - بمد الهمزة وضم النون - الرصاص ، وهو مفرد وليس بجمع

قال المؤرخون : وانقطع وادي الشظاة بسبب ذلك ، وصار السيل إذا سال
ينحبس خلف السد المذكور حتى يصير بحراً مَدَّ البصر عرضاً وطولاً^(١) ، فانخرق من
تحتة في سنة تسعين وستمائة لتكاثر الماء من خلفه ، فجرى في الوادي المذكور
سنتين كاملتين ، أما السنة الأولى فكان قد ملأ ما بين جانبي الوادي ، وأما الثانية
فدون ذلك ، ثم انخرق مرة أخرى في العشر الأول بعد السبعماية فجرى سنة كاملة
أو أزيد ، ثم انخرق في سنة أربع وثلاثين وسبعماية وكان ذلك بعد تواتر أمطار
عظيمة في الحجاز ، فسكث الماء وعلا من جانبي السد ومن دونه مما يلي جبل وعيرة
وتلك النواحي ، فجاء سيل طام لا يوصف ، ولوزاد مقدار ذراع في الارتفاع وصل
إلى المدينة ، وكان أهل المدينة يقفون خارج باب البقيع على التل الذي هناك
فيشاهدونه ويسمعون خريراً تَوَجَّل القلوب دونه ، فسبحان القادر على ما يشاء ! .

المذرا الحادثة
في عام النار
والذي يليه

ومن العجائب أن في السنة التي ظهرت فيها هذه النار احترق المسجد
الشریف النبوی^(٢) بعد انطفائها كما سيأتي ، وزادت دجلة زيادة عظيمة فغرق أكثر
بغداد وتهدمت دار الوزير ، وكان ذلك إنذاراً لهم ، وليتهم اتعظوا .

ثم في أول السنة التي تلي هذه السنة وقعت الطامة الكبرى ، وهي أخذ
التار لبغداد وقتل الخليفة المستعصم وبعده المسامون ، وبذل السيف ببغداد نيفاً
وثلاثين يوماً ، وأخرجت الكتب فألقيت تحت أرجل الدواب ، وشوهد بالمدرسة
المستنصرية معالف الدواب مبنية بالكتب موضع اللابن^(٣) ، وخلت بغداد من أهلها ،
واستولى عليها الحريق على ما ذكره سعيد الذهلي ، واحترقت دار الخلافة ، وعم
الحريق أكثر الأماكن حتى القصور البرانية وترب الرصافة مدفن ولادة الخلافة ،
وشوهد على بعض حيطان منها مكتوب :

(١) وهو اليوم غدير يسمى بالعاقول (مكي) .

(٢) هذا هو الحريق الأول

(٣) اللابن - بفتح اللام وكسر الباء - الطوب النبي .

إن تُرِدْ عِبْرَةً فِهَذِي بنو العباس دارت عليهم الدائراتُ
استنبيحَ الحريم إذ قتل الأحياء منهم وأحرقَ الأمواتُ
ثم كثر الموت والفناء ببغداد ، وطوى بساط الخلافة منها من ذلك الزمان ،
فله الخلق والأمر ! .

وقد نظم بعضهم خروج هذه النار وغرق بغداد ، وأصلحه أبو شامة منها على
أن الأمرين في سنة بقوله :

سبحان من أصبحت مشيئته جارية في الوري بمقدار
في سنة أغرق العراق ، وقد أحرق أرض الحجاز بالنار
قال المجد : ومما يناسب هذه النار ويضاهيها ما حكاه ابن جبير أنه رأى مَنْ
أخبره أن في بحر رومية جزيرتين يخرج منهما النار دائماً ، قال : وأبصرنا الدخان
صاعداً منهما ، وتظهر بالليل نار حمراء ذات ألسن تصعد في الجو ، قال : وأعلمنا
أن خروجها من جبلين يصعد منهما نفس ناري شديد ، وربما قذف فيها الحجر
فتلقى به مسوداً إلى الهواء بقوة ذلك النفس ، وتمنعه من الانتهاء إلى القعر ، قال :
وأما الجبل الشامخ الذي بالجزيرة المعروف بجبل النار فشأنه أيضاً عجيب ، وذلك
أن ناراً تخرج منه في بعض السنين كالسيل العرم ؛ فلا تمر بشيء إلا أحرقتة ، حتى
تنتهي إلى البحر فتترك ثبجته^(١) طائراً على صفحته حتى تغوص فيه .

بعض
ما يناسب
هذه النار

قلت : وأقرب من ذلك في مناسبة هذه النار ما ذكره ابن شبة في أخبار
المدينة - عند ذكر خالد بن سنان العبسي الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءته
بنته « هذه ابنة نبي ضيعه قومه » - فروى ابن شبة في خبره من طرق مملخصه
أنه كان بأرض الحجاز نار يقال لها نار الحدثان (حرة بأرض بني عبس) تعشى
الإبل^(٢) بضوئها من مسيرة ثمانى ليال ، وربما خرج منها العنق فذهب في الأرض

شأن
خالد بن سنان
العبسي

(١) ثبج البحر - بفتح الثاء والباء جميعاً - معظمه ، وأراد موجه

(٢) تعشى : مضارع من العشا ، وهو ضعف البصر

فلا يُبْقِي شَيْئًا إِلَّا أَكَلَهُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ حَتَّى يَعُودَ إِلَى مَكَانِهِ ، وَإِنْ اللَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ إِلَيْهَا خَالِدَ بْنَ سَنَانٍ ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمُ ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَطْفِئَ هَذِهِ النَّارَ الَّتِي قَدْ أَضْرَتْ بِكُمْ فَلْيَقُمْ مَعِيَ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ رَجُلٌ ، فَخَرَجَ بِهِمْ حَتَّى انْتَهَى إِلَى النَّارِ فَنَظَرَ عَلَيْهِمْ خَطَايَاهُمْ قَالَ : إِيَّاكُمْ أَنْ يَخْرُجَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ هَذَا الْخَطِّ فَيَحْتَرِقَ ، وَلَا يَنْوَهَنَّ بِاسْمِي فَأَهْلَكَ ، وَجَعَلَ يَضْرِبُ النَّارَ وَيَقُولُ : بَدَأَ بَدَأَ^(۱) كُلَّ هَدَى اللَّهِ مُودًّا ، حَتَّى عَادَتْ مِنْ حَبْثٍ جَاءَتْ ، وَخَرَجَ يَتَّبِعُهَا حَتَّى أَلْجَأَهَا فِي بَثْرِ فِي وَسْطِ الْحَرَةِ مِنْهَا تَخْرُجُ النَّارُ ، فَانْحَدَرَ فِيهَا خَالِدٌ . وَفِي دَرَةِ الْغَوَاصِ : فَإِذَا هُوَ بِكَلَابٍ تَحْتَهَا فَرَضَهُنَّ بِالْحِجَارَةِ ، وَضَرَبَ النَّارَ حَتَّى أَطْفَأَهَا اللَّهُ عَلَى يَدِهِ ، وَمَعَهُمُ ابْنُ عَمِّ لَهُ ، فَجَعَلَ يَقُولُ : هَلَكَ خَالِدٌ ، فَخَرَجَ وَعَلَيْهِ بَرْدَانُ يَنْطَفِئَانِ^(۲) مِنَ الْعَرَقِ وَهُوَ يَقُولُ : كَذَبَ ابْنُ رَاعِيَةِ الْمَعْزَى لِأَخْرَجَنَّهُ مِنْهَا وَثِيَابِي تَنْدَى ، فَسَمَوْا بِبَنِي ذَلِكَ الرَّجُلِ « بَنِي رَاعِيَةِ الْمَعْزَى » إِلَى الْيَوْمِ ، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّ قَوْمَهُ سَأَلَتْ عَلَيْهِمْ نَارٌ مِنْ حَرَةِ النَّارِ فِي نَاحِيَةِ خَيْرٍ ، وَالنَّاسُ فِي وَسْطِهَا ، وَهِيَ تَأْتِي مِنْ بَاحِثَتَيْنِ جَمِيعًا ، فَخَافَهَا النَّاسُ خَوْفًا شَدِيدًا . وَفِي رِوَايَةٍ : وَهِيَ تَخْرُجُ مِنْ شَقِّ جَبَلٍ مِنْ حَرَةِ يُقَالُ لَهَا حَرَةُ أَشْجَعٍ ، فَقَالَ لَهُمْ خَالِدُ بْنُ سَنَانٍ : ابْعَثُوا مَعِيَ إِنْسَانًا حَتَّى أَطْفِئَهَا مِنْ أَصْلِهَا ، فَخَرَجَ مَعَهُ رَاعِي غَنَمٍ ، وَهُوَ ابْنُ رَاعِيَةٍ ، حَتَّى جَاءَ غَارًا تَخْرُجُ مِنْهُ النَّارُ . وَفِي رِوَايَةٍ : أَنَّهَا كَانَتْ تَخْرُجُ مِنْ بَثْرِ ، ثُمَّ قَالَ خَالِدٌ لِلرَّاعِي : أَمْسِكْ ثَوْبِي ، ثُمَّ دَخَلَ فِي الْغَارِ . وَفِي رِوَايَةٍ : أَنَّهُ انْطَلَقَ فِي نَاسٍ مِنْ قَوْمِهِ حَتَّى أَتَوْهَا ، وَقَالَ لَهُمْ : إِنْ أَبْطَأَتْ عَنْكُمْ فَلَا تَدْعُونِي بِاسْمِي ، فَخَرَجَتْ كَأَنَّهَا خَيْلٌ شُقْرٌ يَتَّبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَاسْتَقْبَلَهَا خَالِدٌ فَجَعَلَ يَضْرِبُهَا بِعَصَاهُ وَيَقُولُ : هَدَايَا هَدَا^(۳) ، كُلُّ نَهَبٍ مُودِي ، زَعَمَ ابْنُ رَاعِيَةِ الْمَعْزَى ، أَنِّي لَا أَخْرُجُ مِنْهَا وَثِيَابِي تَنْدَى ، حَتَّى دَخَلَ مَعَهَا الشَّعْبُ ، فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَوْ كَانَ حَيًّا لَخَرَجَ إِلَيْكُمْ ، فَقَالُوا : إِنَّهُ قَدْ نَهَانَا أَنْ نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ ، قَالَ :

(۱) بدا بدا : مصدر يراد به الأمر ، أى تبددى وتفرقى

(۲) ينطفان : يسيلان ماء ، وهو العرق (۳) كذا ، ولعله « هدا هدا »

ادعوه باسمه ، فوالله لو كان حياً لخرج إليكم بعد ، فدَعَوْهُ باسمه ، فخرج وهو آخذ برأسه : فقال : ألم أنْهَيْكُمْ أَنْ تَدْعُونِي بِاسْمِي ؟ قد والله قتلتموني ، احملوني وادفنونني ، فإذا مرت بكم نُحْرُ معها حماراً بتر ، وفي رواية فإذا دفنتموني وأتى علي ثلاثة أيام فأتوا قبري ، فإذا عرضت لكم عانة^(۱) من نُحْر وحش وبين يديها عِرقان يشوني فإني أقوم فأخبركم ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فأتوا القبر بعد ثلاث وسَنَحَت لهم الحمر ، فَرَادُوا نَبْشَهُ ، فَمَنَعَهُمْ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَقَالُوا : لَا نَدْعُكُمْ تَنْبِشُونَ صاحباً فَمَنَعُوا بِذَلِكَ ، وفي رواية : فيكون سبة علينا ، فتركوه .

وفي رواية لابن القعقاع بن خليلد العباسي عن أبيه عن جده ، قال : بعث الله خالداً بن سنان نبياً إلى بني عبس ، فدَعَاهُمْ فَكَذَّبُوهُ ، فَقَالَ قَيْسُ بْنُ زَهْرٍ : إِنْ دَعَوْتَ فَاسْمِلْ عَلَيْنَا هَذِهِ الْحَرَّةَ نَاراً اتَّبَعْنَاكَ : فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَخُوفُ بِالذَّرِّ ، وَإِنْ لَمْ تَسْمِلْ نَاراً كَذَبْنَاكَ ، قَالَ : فَذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِي وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِرِسَالَتِي إِلَّا أَنْ تَسْمِلَ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْحَرَّةَ نَاراً ، فَسَمَّيْتُهَا عَلَيْهِمْ نَاراً ، قَالَ : فَطُلِعَ مِثْلُ رَأْسِ الْحَرِيشِ^(۲) ، ثُمَّ عَظُمَتْ حَتَّى عَرَضَتْ أَكْثَرَ مِنْ مِيلٍ ، فَسَالَتْ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : يَا خَالِدُ أَرُدْ دُهَا فَإِنَّا مُؤْمِنُونَ بِكَ ، فَتَنَاولَ عَصاً ثُمَّ اسْتَقْبَلَهَا بَعْدَ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَدَخَلَ فِيهَا فَضْرِبَهَا بِالْعَصَا ، فَلَمْ يَزَلْ يَضْرِبُهَا حَتَّى رَجَعَتْ ، قَالَ : فَرَأَيْنَا نَعْشَى الْإِبِلَ عَلَى ضَوْءِ نَارِهَا ضُلْعاً الرَبْدَةَ^(۳) وَبَيْنَ ذَلِكَ ثَلَاثَ لَيَالٍ .

وروى له ابن شبة أخباراً أخرى مع قومه ، وروى البيهقي في دلائل النبوة في باب « ما جاء في الكرامة التي ظهرت على تميم الدارزي شرفاً للمصطفى صلى الله عليه وسلم وتنوياً باسم مَنْ آمَنَ به ، عن معاوية بن حرملة ، وذكر خبراً في قدومه

قف
على كرامة
تميم الدارزي

(۱) العانة : الجماعة من حمر الوحش ، والعير - بفتح العين - الحمار

(۲) الحريش - بفتح الحاء - دويبة قدر الإصبع بأرجل كثيرة ، وهي التي

يسمونها العامة « أم أربعة وأربعين » (۳) لم تستقم لي هذه العبارة

المدينة ، وقول عمر له : اذهب إلى خير المؤمنين فانزل عليه ، ثم قال : فبينما نحن ذات يوم إذ خرجت نار بالحَرَّة ، فجاء عمر رضى الله عنه إلى تميم الدارى رضى الله عنه ، فقال : قم إلى هذه النار ، فقال : يا أمير المؤمنين ومن أنا ؟ وما أنا ؟ قال : فلم يزل به حتى قام معه ، قال : وتبعتهما فانطلقا إلى النار ، فجعل تميم يحوشها^(۱) بيده حتى دخلت الشعب ، ودخل تميم خلفها ، فجعل عمر يقول : ليس من رأى كمن لم يرَ ، قالها ثلاثا ، والله أعلم .

(۱) يحوشها : أصله قولهم « حاش فلان الصيد يحوشه حوشاً » إذا جاءه من حواله ليصرفه إلى الجباله ، وقولهم « حاش فلان الإبل » إذا جمعها وساقها

الباب الثالث

في أخبار سكانها في سالف الزمان ، ومقدمه صلى الله عليه وسلم إليها ،
وما كان من أمره بها في سنين الهجرة^(١) ، وفيه اثنا عشر فصلا

الفصل الأول

في سكانها بعد الطوفان ، وما ذكر في سبب نزول اليهود بها ، وبيان منازلهم
أسند الكلبي عن ابن عباس أن مخرج الناس من السفينة نزلوا طرف بابل ،
وكانوا ثمانين نفساً ، فسمى الموضع سوق الثمانين ، قال : وطول بابل مسيرة عشرة
أيام واثني عشر فرسخاً ، فمكثوا بها حتى كثروا ، وصار ملكهم نمرود بن كنعان
ابن حام ، فلما كفروا بآلهة آبائهم ، فتفرقت ألسنتهم على اثنين وسبعين لساناً ،
فهم الله العربية منهم عمليق وطشم ابني لوزا بن سام ، وعادا وعبيل ابني عوص
ابن أرم بن سام ، وثمود وجديس ابني جائق بن أرم بن سام ، وقنطور بن عابر
ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام ، فنزلت عبيل يثرب ، ويثرب اسم ابن عبيل ،
ثم أخرجوا منها فنزلوا الجحفة ، فجاءهم سيل أجحفهم فيه ، فلهاذا سميت جحفة ،
فرثاهم رجل منهم فقال^(٢) :

نزل
عبيل يثرب

عين حودي على عبيل وهل ير جمع من فات بيضها بالسحام ؟
عمرؤا يثربا وليس بها شفر ولا صارخ ولا ذو سنام
غرسوا لينها بمجرى معين ثم حفوا النخيل بالآجام
وقال أبو القاسم الزجاجي : أول من سكن المدينة عند التفرق يثرب بن قانية^(٣)
ابن مهلائيل بن أرم بن عبيل بن عوص بن أرم بن سام بن نوح عليه السلام ،
وبه سميت يثرب ، وروى عن ابن عباس ما يدل له .

أول من
سكن يثرب

(١) كذا ، والعربية الفصحى أن يقال « في سني الهجرة » وليكن ما بالأصل لغة
(٢) أقمنا ميل هذه الأبيات بعد أن كانت محرفة وناقصة في الأصول
(٣) في ياقوت « قانية »

سكنى العماليق
المدينة

وقال ياقوت : كان أول من زرع بالمدينة ، واتخذ بها النخل ، وعمر بها الدور والآطام ، واتخذ بها الضياع ، العماليق ، وهم بنو عملاق بن أرفخشذ بن سام ابن نوح ، وكانت العماليق ممن انبسط في البلاد ، فأخذوا ما بين البحرين وعمان والحجاز كله إلى الشام ومصر ، وجبارة الشام وفراغة مصر منهم ، وكان منهم بالبحرين وعمان أمة يسمون جاسم ، وكان ساكن المدينة منهم بنوهف^(١) وبنو مطرويل ، وكان ملكهم بالحجاز الأرقم بن أبي الأرقم .

وأُسند ابن زبالة عن زيد بن أسلم أن ضُبعا رؤيت وأولادها رابضة في حِجَاجٍ عَيْنِ رجلٍ من العماليق - والحِجَاجُ ، بكسر أوله وفتح هـ : العَظْمُ الذي ينبت عليه الحَاجِبُ - قال زيد بن أسلم : وكان تمضي أربعمئة سنة وما يُسَمَّعُ بجنارة .

وأُسند رزين عن أبي المنذر^(٢) الشرقي قال : سمعت حديث تأسيس المدينة من قوم من اليهود سليمان بن عبيد الله بن حنظلة الغسيل ، قال : وسمعت أيضاً بعض ذلك من رجل ينزلون المدينة من قریش عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عمار بن ياسر^(٣) ، قال : لُجِعت حديثهما لكثرة اتفاقه وقلة اختلافه ، قالوا : بلغنا أنه لما حجَّ موسى صلوات الله عليه حج معه أناس من بني إسرائيل ، فلما كان في انصرافهم أتوا على المدينة ، فرأوا موضعها صفة بلد نبي يجدون وصفه في التوراة بأنه خاتم النبيين ، فاشدورت طائفة منهم على أن يتخلفوا به ، فنزلوا في موضع سوق بني قَيْنُقَاع ، ثم تألفت إليهم أناس من العرب فرجعوا على دينهم ، فكانوا أول من سكن موضع المدينة . وذَكَرَ بعض أهل التواريخ أن قوماً من العمالة سكنوه قبيلهم ، قلت : وهو الأرجح .

(١) عبارة ياقوت ٤٢٧/٧ : « وكان ساكنو المدينة منهم بنوهفان وسعد بن هفان وبنو مطرويل ، وكان بنجد منهم بنو بديل بن راحل وأهل تيماء ونواحيها . وكان ملك الحجاز الأرقم بن أبي الأرقم » .

(٢) في المطبوعات « عن ابن المنذر الشرقي » وسيأتي على الصواب في ص ١٧٠

(٣) كذا ، وأبو عبيدة اسمه محمد وأبوه محمد بن عمار

داود النبی
یغزو سکان
المدينة

وأُسند ابن زبالة مُصَدِّراً به كتابه في بدء من سكنها عن مشيخة من أهل المدينة قالوا : كان ساكن المدينة في سالف الزمان صعل وفالج ، فغزاهم داود النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخذ منهم مائة ألف عذراء ، قالوا : وسلط الله عليهم الدود في أعناقهم فهلكوا ، فقبورهم هذه التي في السهل والجبل ، وهي التي بناحية الجرف ، وبقيت امرأة منهم تعرف بزهرة ، وكانت تسكن بها ، فأكثر من رجل وأرادت الخروج إلى بعض تلك البلاد ، فلما دنت لتركب غشيتها الدود ، فتميل لها : إنا لنرى دوداً يغشاك ، فقالت : بهذا هلك قومي ، ثم قالت : رَبِّ جسد مَصُون ، ومال مدفون ، بين زهرة ورائون ، قالوا : وقتلها الدود .

قمت : وداود بعد موسى عليهما السلام ، وكان يدعو إلى شريعته .

وقد عبر ابن النجار عما سبق بقوله : قال أهل السير : أول من نزل المدينة بعد غرق قوم نوح قومٌ يقال لهم صعل وفالج ، وذكر قصة داود ملخصة ، ثم قال : قالوا : وكان قومٌ من الأمم يقال لهم بنو هف وبنو مطر وبنو الأزرق فيما بين مخيض إلى غراب الضائلة إلى القصاصين إلى طرف أحد ؛ فتلک آثارهم هنالك . وروى ابن زبالة عند ذكر جماء أم خالد بوادي العقيق عن عثمان بن عبد الرحمن قال : وجد قبر في الجماء عليه حجر مكتوب فيه فهبط بالحجر فقرأه رجل من أهل اليمن ، فإذافيه : أنا عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان بن داود إلى أهل يثرب ، وأنا يومئذ على الشمال .

وروى أيضاً عن عمر بن سليم الزرقى قال : رقينا الجماء فوجدنا قبراً إرمياً على رأسها عنده حجران مكتوبان لا تقرأ كتابتهما ، فحملناها ، فثقل علينا أحدهما فرمينا في الجماء ، وأخذت الآخر ، فكان عندي ، فعرضته على أهل التوراة من يهود فلم يعرفوه ، ثم عرضته على أهل الإنجيل من النصارى فلم يعرفوه ، فأقام عندي حتى دخل المدينة رجلاً من أهل ماه ، فسألتهما : هل كان لكم كتاب ؟ قالوا : نعم ، فأخرجت إليهما الحجر ، فقرأه فإذا فيه : أنا عبد الله الأسود رسول

رسول الله عيسى بن مريم إلى أهل قرى عريضة ، وقالوا : نحن كنا أهل هذه القرية في أس^(١) الدهر ، وسيأتي بقية ما جاء في ذلك في رابع فصول الباب السابع .

وأُسند ابن زبالة أيضاً عن عروة بن الزبير قال : كانت العماليق قد انتشروا مهلك العماليق في البلاد ، فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله ، وَعَتَوُا عَتُوًّا كبيراً ، فلما أظهر الله موسى عليه السلام على فرعون وطيء الشام وأهلك مَنْ بها ، يعنى من الكنعانيين وقيل : بعث إليهم بعثاً ، فأهلك من كان بها منهم ، ثم بعث بعثاً آخر إلى الحجاز للعماليق ، وأمرهم أن لا يستَبَقُوا أحداً منهم بلغ الحِلْمُ ، فقدموا عليهم ، فأظهرهم الله فقتلهم ، حتى انتهوا إلى ملكهم الأرقم بن أبي الأرقم فقتلوه ، وأصابوا ابنائهم — وكان شاباً من أحسن الناس — فضنوا به عن القتل ، وقالوا : نستحييه حتى نقدم به على نبي الله موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم ، فقبض الله موسى قبل قدوم الجيش ، فلما سمع بهم الناس تلقوهم فسألوهم فأخبروهم بالفتح ، وقالوا : لم نستبق منهم إلا هذا الفتى ، فإننا لم نر شاباً أحسن منه ، فتركناه حتى نقدم به على نبي الله موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه ، فقالت لهم بنو إسرائيل : إن هذه لعصية منكم لما خالفتم أمر نبيكم ، لا والله لا تدخلون علينا بلادنا أبداً ، فقال الجيش : ما بلد إذ منعمت بلادكم بخير من البلد الذي خرجتم منه ، وكان الحجاز إذ ذاك أشجرَ بلاد الله وأظهره ماء ، قال : وكان هذا أول سكنى اليهود الحجاز بعد العماليق .

وفي الروض الأنف عن أبي الفرج الأصبهاني أن السبب في كون اليهود بالمدينة — وهي وسط أرض العرب — أن بنى إسرائيل كانت تغير عليهم العماليق من أرض الحجاز ، وكانت منازلهم يثرب والجحفة إلى مكة ، فشكت بنو إسرائيل ذلك إلى موسى ، فوجه إليهم جيشاً ، وذكر نحو ما تقدم ، ثم قال : وأصبح من

(١) الأس — بضم الهمزة وتشديد السين — الأصل ، يريد في قديم الزمان

هذا ما ذكره الطبري أن نزول بني إسرائيل بالحجاز كان حين وطىء بختنصر بلادهم بالشام وخرب بيت المقدس ، انتهى .

وحكى ابن النجار عن بعض العلماء أن سببه أن علماءهم كانوا يجدون صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة ، وأنه يهاجر إلى بلده فيه نخل بين حرتين ، فقبلوا من الشام يطلبون الصفة ، فلما رأوا تيماء وفيها النخل نزلها طائفة منهم ، وظن طائفة أنها خير فزلوها ، ومضى أشرفهم وأكثرهم فلما رأوا يثرب سبخة وحره وفيها النخل قالوا : هذه البلد التي تكون مهاجر النبي العربي عليه الصلاة والسلام ، فنزل النضير بطحان ، ثم حكى ماسياً من نزول قريظة والنضير بمذنيب ومهزور . وحكى ياقوت عن بعض علماء الحجاز من يهود أن سبب نزولهم الحجاز أن ملك الروم حين ظهر على بني إسرائيل ومثك الشام خطب إلى بني هرون ، وفي دينهم أن لا يزوجوا النصارى ، فحافوه وأنعموا له : وسألوه أن يشرفهم بإتيانه إليهم ، فأتاهم ، ففتكوا به وبمن معه ، ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز فأقاموا بها ، وزعم بنو قريظة أن الروم لما غلبوا على الشام خرج قريظة والنضير وهذل هاربين من الشام يريدون من كان بالحجاز من بني إسرائيل ، فوجه ملك الروم في طلبهم : فأعجزوا رسله ، وانتهى الرسل إلى ثمد^(۱) بين الحجاز والشام فماتوا عنده عطشاً ، فسمى الموضع « ثمد الروم » وهو معروف بذلك ، والله أعلم أى ذلك كان . وروى بعض أهل السير عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال : بلغنى أن بني إسرائيل لما أصابهم ما أصابهم من ظهور بختنصر عليهم وفرقتهم وذلتهم تفرقوا ، وكانوا يجدون محمداً صلى الله عليه وسلم منعتاً في كتابهم ، وأنه يظهر في بعض هذه القرى العربية في قرية ذات نخل ، ولما خرجوا من أرض الشام كانوا يعبرون كل قرية من تلك القرى العربية بين الشام واليمن يجدون نعتها نعت يثرب ، فينزل بها طائفة منهم ، ويرجون أن يلقوا محمداً فيتبعونه ، حتى نزل من بني

(۱) أصل الثمد - بفتح الثاء وميمه مفتوحة أو ساكنة - ماء المطر يبقى محققاً تحت رمل ، فإذا كشف عنه أدته الأرض ، وقيل : هو الماء القليل لامادة له .

هرون ممن حمل التوراة يثرب منهم طائفة ، فمات أولئك الآباء وهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه جاء ، ويحثون أبناءهم على اتباعه إذا جاء ، فأدركه من أدركه من أبنائهم فكفروا به وهم يعرفونه : أى حسداً للأنصار حيث سبقوهم إليه .
وقال ابن زبالة عقب ما قدمناه عنه من عود الجيش من بنى إسرائيل إلى الحجاز وسكنائهم المدينة : فركحوا منها حيث شاؤا - أى تفسحوا وتبوءوا - فكان جميعهم بزهرة ، وكانت لهم الأموال بالسافلة ، وزهرة ثيرة - أى أرض سهلة بين الحرة والسافلة مما يلي القف - ونزل جمهورهم بمكان يقال له يثرب بمجتمع السيول مما يلي زغابة ، قالوا : وكانت يثرب سقيفة طويلة فيها بغايا يضرب إليهن من البلدان ، وكانوا يروحون في قرية يثرب ثمانين جملاً جَوْنًا^(١) سوى سائر الألوان .
ثم أسند عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : وخرجت قريظة وإخوانهم بنو هذل وعمر وأبناء الخزرج بن الصريح بن السبط بن اليسع بن سعد بن لاوى ابن جبر بن النحام بن عازر بن عيرز بن هرون بن عمران عليه السلام والنضير بن النحام بن الخزرج بن الصريح بعدهؤلاء ، فتبعوا آثارهم ، فنزلوا بالعالية على واديين يقال لهما مذيئيب ومهزور^(٢) ، فنزلت بنو النضير على مذيئيب واتخذوا عليه الأموال فكانوا أول من احتفر بها - أى بالعالية - الآبار وغرس الأموال ، قال : ونزل عليهم بعض قبائل العرب فكانوا معهم ، فاتخذوا الأموال ، وابتنوا الآطام والمنازل .
وأسند هو وابن شبة أيضاً عن جابر مرفوعاً : أقبل موسى وهارون حاجئين فمرا بالمدينة ، فخافا من يهود ، فخرجا مستخفيين ، فنزلا أحداً ، فغشى هارون

(١) الجون : الأسود .

(٢) قال ياقوت (٣٤٧/٧) : «مذيئيب واد بالمدينة ، وقيل : مذيئيب يسيل بماء المطر خاصة ، وقد روى مالك في موطئه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في سيل مهزور ومذيئيب : يمسك حتى الكعبين ثم يرسل الأعلى على الأسفل» اهـ . وقد ذكرنا أن مذيئيبا يصدر من جبلين كبيرين بخذاء جبل الأغوات على نحو سبعة أميال من المدينة . ويصب في زغابة ، وكانت عليه مساكن بنى النضير ، فلما غدروا بالرسول أجلاهم بعد الخندق ، ثم قسم أملاكهم على المهاجرين . وأمام مهزور فصدره من حرة واقم . ويعرف اليوم باسم «العاوى»

(١١ — و ١٠)

الموت ، فقام موسى فحفر له ولحد ، ثم قال : يا أخى إنك تموت ، فقام هارون فدخل فى لحده ، فقبص ^(۱) عليه موسى التراب .

قلت : وإسناد ابن شبة لا بأس به ، غير أن فيه رجلاً لم يُسم . وسماء ابن زبالة ، وذلك المسمى لا بأس به أيضاً ، لكن ابن زبالة لا يُعتمد عليه فى ذلك ، وهو دال على أن اليهود نزلوا المدينة فى زمن موسى عليه السلام ، وطالت مدتهم بها فى حياته ، حتى وقع منهم ما يقتضى خوفه منهم عند مروره ، وهو إنما يتأتى على ما قدمناه من أنه لما حجَّ ومعه ناس من بنى إسرائيل فرأوا موضع المدينة صفة بلد خاتم النبيين ، فاشتوَّرت طائفة منهم على أن يتخلفوا به ، ويكون ما اتفق لموسى وهارون عليهما السلام فى حجة أخرى بعد ذلك ، وسيأتى فى مسجد عرق الظبية بالروحاء حديث « ولقد مرَّ به موسى بن عمران حاجاً ومعتماً فى سبعين ألفاً من بنى إسرائيل » ومن الغريب ما نقل الحافظ ابن حجر عن كتاب الأنواء لعبد الملك بن يوسف قال : إن قربطة كانوا يزعمون أنهم من ذرية شعيب نبي الله عليه السلام ، وإن ذلك محتمل ؛ فإن شعيباً كان من بنى جذام القبيلة المشهورة - قال الحافظ ابن حجر : وهو بعيد جداً - ونقل ابن زبالة ما حاصله أن ممن كان من العرب مع يهود قبل الأنصار بنو أنيف حى من بلى ، ويقال : إنهم بقية من العماليق ، وبنو مريد حى من بلى ، وبنو معاوية بن الحارث بن بهثة بن سليم ، وبنو الجذماء حى من اليمن ، وكانت الآطام عزاً أهل المدينة ومنعتهم التى كانوا يتحصنون فيها من عدوهم ، وروى حديث النهى عن هدم آطام المدينة ، قال : وكان لبني أنيف بقاء : الأجش عند البئر التى يقال لها لاوة ، وأطمان فيما بين المال الذى يقال لها المائة والمال الذى يقال له القائم ، وآطام عند بئر عذق وغيرها ، قال شاعرهم فيها :

وَلَوْ نَطَقَتْ يَوْمًا قَبَاءُ لَخَبَرَتْ بَأْنَا نَزَلْنَا قَبْلَ عَادٍ وَتُبَّعَ

(۱) يقال : حثا التراب محثوه ، وحشاه يحثيه ، إذا صبه وأهاله .

بقايا اليهود
بالمدينة

وآطامنا عاديةٌ مُشْمَخِرَةٌ تلوح فتسكى من نعاى وتمنع
وكان ممن بقى من اليهود — حين نزلت عليهم الأوس والخزرج —
جماعات منها بنو القصيص وبنو ناغصة كانوا مع بنى أنيف بقاءً ، وكان بقاء
رجلٍ من اليهود يقال « إنه من بنى النضير » كان له أطمٌ يقال له «عاصم» كان
في دار ثوبة بن حسين بن السائب بن أبي لبابة ، وفيه البئر الذى يقال لها بقاء ،
وقيل : إن بنى ناغصة حى من اليمن كانت منازلهم في شعب بنى حرام حتى
نقلهم عمر بن الخطاب إلى مسجد الفتح ، ومنها بنو قريظة في دارهم المعروفة بهم
اليوم ، وكان لهم بها آطام : من ذلك أطمُ الزبير بن باطا القرظي ، كان موضعه في
موضع مسجد بنى قريظة ، وأطمُ كعب بن أسد يقال له بلحان بالمال الذى يقال له
الشجر ، وله يقول الشاعر :

من سره رطبٌ وماء باردٌ فليأتِ أهلَ المجدِ من بلحان

وكان مع قريظة في دارهم إخوتهم بنو هذل وبنو عمرو المقدم ذكرهم ، وإنما
سمى هذلاً بهذل كان في شفته ، ومن ولده ثعلبة وأسد ابنا سعيّة وأسد بن عبيد
ورقاعة بن سموأل وسُخيت ومنبه ابنا هذل ، ومنها بنو النضير في النواعم ، ومنهم
كعب بن الأشرف ، وكان لهم عامة أطم في المال الذى يقال له فاضجة ، وأطمُ
في زقاق الحارث دبر قصر ابن هشام دون بنى أمية بن زيد كان لعمر بن جحاش ،
وأطم البويلة ، وغير ذلك ، هذا ما ذكره ابن زبالة

ونقل ابن عساكر عن الواقدي أنه قال : كانت منازل بنى النضير بناحية الغرس
قلت : والظاهر أنهم كانوا بالنواعم ، وتمتد منازلهم وأموالهم إلى ناحية
الغرس وإلى ناحية الصافية وما معها من صدقات النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعض
منازلهم كانت بجفاف ؛ لأن فاضجة به ، ورأيت بالحرة في شرقي النواعم آثار
حصون وقرية بقرب مذيئيب يظهر أنها من جملة منازلهم ، وأن ما في قبلة ذلك
في شرقي العهن من منازل بنى أمية بن زيد كما سيأتى ، ومنها بنو مرير في بنى

خطمة وناعمة إبراهيم بن هشام ، وكان لهم أطم يعرف بهم فيه بئر ، ومنها بنو معاوية بن بنى أمية بن زيد ، ومنها بنو ماسكة بقرب صدقة مروان بن الحكم مما يلي صدقة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لهم الأطمان اللذان في القف في القرية ، ومنها بنو محمد في المكان الذي يقال له بنو محمد ، وكان لهم المال الذي يقال له خنافة ، معروف اليوم ، وكان رجل منهم قَطَعَ يدَ رجلٍ في الجاهلية فقال المقطوع : أُعْطِنِي خنافة عَقْلاً بيدي ، فأبى ، وحفر للذي قَطَعَهُ كوة في خنافة ، ثم أخرج يده منها من وراء الحائط وقال : اقطع ، فقطع يده ، فقال حين قطع يده :

الآن قد طابت ذرى خنافة طابت فلا جوع ولا مخافة

ومنها بنو زُغُوراء عند مشربة أم إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهم الأطم الذي عندها ، وكان الأطم الذي في مال جحاف لبعض مَنْ كان هناك من اليهود ، ومنها بنو زيد اللات ، قال ابن زبالة : وهم رهط عبد الله بن سلام ، كانوا قريباً من بنى غصينة ، ومنها بنو قَيْنُقَاع عند منتهى جسر بطحان مما يلي العالية ، وكان هناك سوف من أسواق المدينة ، وكان لهم الأطمان اللذان عند منقطع الجسر على يمينك وأنت ذاهب من المدينة إلى العالية إذا سلكت الجسر ، وغير ذلك ، وفي صحيح البخاري عن ابن عمر أن بنى قَيْنُقَاع هم رهط عبد الله بن سلام ، خلاف ما تقدم عن ابن زبالة ، قال الحافظ ابن حجر : وهم من ذرية يوسف الصديق عليه السلام ، ومنها بنو حُجْر عند المشربة التي عند الجسر ، ولهم أطم يعرف بهم ، ومنها بنو ثعلبة وأهل زهرة بزهرة ، وهم رهط الفُطَيَّوْن ، وهو ملكهم الذي كان يفتض نساء أهل المدينة قبل أن يدخن على أزواجهن ، وكان لهم الأطمان اللذان على طريق العريض حين يهبط من الحرة ، وكانت زهرة جُماع من اليهود وكانت من أعظم قرى المدينة ، وقد بلدوا ، ومنها ناس كانوا بالجوانية - بفتح الجيم وتشديد الواو والياء المثناة من تحت : موضع بقرب أحد في شمالي

المدينة كما سيأتى - ولهم أطمأن صاراً لبني حارثة بن الحارث وهما صرار والريان ،
ولذلك يقول نزيك بن سياف :

لعل صراراً أن تعيش بياره ويسمع بالريان تبني مشاربه

وكانت بنو الخدماء المتقدم ذكرهم - وهم حى من اليمين - ما بين مقبرة بنى
عبد الأشهل وبين قصر ابن عراك ، ثم انتقلوا إلى رائج ، ومنها بنو عكوة فى
يماني بنى حارثة ، ومنها بنو مرابة فى شامى بنى حارثة ، ولهم الأطم الذى يقال له
الشبعان فى ثمغ صدقة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومنها ناس برائج ، وهو
أطم سميت به الناحية ، وهو الذى يقول له قيس بن الخطيم :

ألا إنا بين الشرعى ورائج ضراباً كتحديم السبال المعضد

ومنها ناس بالشوط والعنابس والوالج وزبالة إلى عين فاطمة حيث كان يطبخ
الآجر لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان لأهل الشوط الأطم الذى يقال
له الشرعى ، وهو الأطم الذى دون ذباب ، وقد صار لبني جشم بن الحارث بن
الحزرج أى الأصغر يعنى إخوة بنى عبد الأشهل ، وكان لأهل الواج أطم بطرفه
مما بلى قناة ، وكان لبعض من هناك من اليهود الأطمأن اللذان يقال لهما الشيخان
بمفضاها المسجد الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار إلى أحد ،
وكان لأهل زبالة الأطمأن عند كومة أبى الحمراء الرابض والذى دونهما ، ومنها
أهل يثرب ، وكانوا جماعاً من اليهود بها. وقد بادوا فلم يبق منهم أحد .

قلت : ونقل رزين عن الشرق أن يهود كانوا نيفاً وعشرين قبيلة ، وقال
ابن النجار : إن آطامهم كانت تسعة وخمسين أطماً ، وللعرب النازلين عليهم قبل
الأنصار ثلاثة عشر أطماً ، وقد ذكر ابن زبالة أسماء كثير منها حذفناه لعدم معرفته
فى زماننا .

فهذا علم من سكن المدينة بعد الطوفان إلى قدوم الأوس والحزرج .

الفصل الثانی

فی سبب سُکْنی الأنصار بها

قصة مأرب
وسیل العرم

نقل ابن زبالة وغيره أن اليهود لم تزل هي الغالبة بالمدينة ، الظاهرة عليها ، حتى كان من أمر سَئِل العَرَم ما كان وما قص الله من قصته في مائه يعني قصة أهل مأرب ، ومأرب ميموز : أرض سبأ المعنية بقوله تعالى : « بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ »^(۱) عن ابن عباس أنها كانت أخصب البلاد وأطيبها ، تخرج المرأة وعلى رأسها المسكَل فتعمل بيديها أي بمغزلها وتسير بين ذلك الشجر ، فيمتليء مما يتساقط فيه من الثمر ، فطفوا ، وقيل : بعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً يدعوهم إلى الله ، ويذكروهم نعمة الله عليهم ، فكذبوهم ، وقالوا : ما نعرف الله نعمة ، قال المسعودي : وكان طول بلدكم أكثر من شهرين للراكب المجد ، وكذلك عَرْضُها ، وكان أهلها في غاية الكثرة مع اجتماع الكلمة والقوة ، وكانوا كما قص الله من خبرهم بقوله : « وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » يعني قرى الشام « قُرَى ظَاهِرَةٌ »^(۲) يعني متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها ، فكانوا آمنين في بلادهم ، تخرج المرأة لا تتزود شيئاً ، تبيت في قرية ، وتَقِيلُ في أخرى حتى تأتي الشام ، فقالوا : « رَئَيْنَا بَاعِدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا »^(۳) لأنهم يَطْرَوُا النعمة ومَلَوْهَا ، وقالوا : لو كان جَنَى جَنَاتِنَا أَبَدًا كَانَ أَجْدَرَ أَنْ نَسْتَهِيه ، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوِزَ ليركبوا الزواحل فيها ويتزودوا الأزواد ، فجعل الله لهم الإجابة كما قال : « فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ »^(۴) وعن الضحاك أنهم كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فسلط عليهم سَئِل العرم ، قيل : العرم : المطر الشديد ، وقيل : جُرْدٌ^(۵) أعْمى فنَقَبَ عليهم السد ، وكان فرسخاً في فرسخ بناء لقمان الأكبر العادي ، وكان بناء للدهر على زعمه ، وكان يجتمع إليه مياه اليمن ثم تتفرق في مجارى على قدر حاجة جناتهم ، وقيل : بناء سَبَأ بن يَشْجُب

(۱) من سورة سبأ من الآية ۱۵ (۲) من سورة سبأ من الآية ۱۸

(۳) من سورة سبأ من الآية ۱۹ (۴) من سورة سبأ من الآية ۱۹

(۵) الجرذ - بضم الجيم - صرب من الفُردان

ابن يعرب بن قحطان ، وساق إليه سبعين وادياً ، ومات قبل أن يكمله فأكمله بعده
ملوك حمير ، وكان أولاد حمير بن سبأ وأولاد كهلان بن سبأ سادة اليمن في ذلك
الزمان ، وكان كبيرهم وسيدهم جد الأنصار عمرو مزقياء بن عامر ماء السماء ^(١)
ابن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد ، ويقال : الأسد ، بن
الغووث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ،
ذكر نسبه كذلك ابن هشام وابن حزم وابن الكلبي فيما نقله عنه ابن عبد البر ،
ونقل غيره عنه أنه جعل ثعلبة بين حارثة وبين امرئ القيس ، وكانت الأنصار
تقول : سمى عمرو مزقياء لأنه كان يلبس في كل يوم حلتين ثم يمزقهما لثلاً يلبسهما
أحد بعده ، وقيل لأبيه « ماء السماء » لجوده وقيامه عند الجدب مقام الغيث ،
وكان لعمر مزقياء أخ كاهن لم يُعقب يسمى عمران ، وكانت زوجة عمرو مزقياء
يقال لها طريفة من حمير ، وكانت كاهنة ، فولدت له ثلاثة عشر رجلاً ، ولدت
ثعلبة وهو الذي أخرج جرهم من مكة هو وأخوته ، ومن انخرع معه من الأزد
على ما نقله رزين ، ونقل أن والد ثعلبة — وهو عمرو بن عامر — توفي قبل غلبة ثعلبة
لجرهم ، وثعلبة أبو الأوس والخزرج ، وولدت له أيضاً حارثة والد خزاعة على
ما سيأتي ، وقيل غير ذلك ، وولدت له أيضاً جفنة والد غسان ، سُموا باسم ماء
نزلوا عليه يقال له غسان ، والأشهر أنهم بنو مازن بن الأزد بن الغوث ، وولدت له
أيضاً وداعة ، وأبا حارثة ، والحارث ، وعوفا ، وكعبا ، ومالكا ، وعمران ،
هؤلاء أعقبوا كلهم ، والثلاثة الباقون لم يعقبوا

وقال ابن حزم : إن غسان هم بنو الحارث وجفنة ومالك وكعب بن عمرو
مزقياء ، شربوا كلهم من ماء غسان ، بخلاف بقية ولد عمرو مزقياء فلم يشربوا
من ذلك الماء ، فليسوا غسان ، وكان لعمر بن عامر بمأرب من القصور والأموال
مالم يكن لأحد .

(١) في المطبوعات « ماء السماء مزقياء بن حارثة » تطبيع ، وفيه وفي ماء السماء
يقول شاعرهم : أنا ابن مزقيا عمرو ، وجدى أبوه عامر ماء السماء

أول خبر
سيل العرم

ونقل رزين أنه كان أول شيء وقع بمأرب من أمر سيل العرم أن عمران بن عامر رأى في كهناته أن قومه سيمزقون ويباعدون بين أسفارهم ، وأن بلادهم ستخرب ، فذكر ذلك لأخيه عمرو بن عامر ؛ فكان بين التصديق والتكذيب ، فبينما طريفة امرأته ذات يوم نائمة إذ رأت فيما يرى النائم أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ، فذعرت ذُعراً شديداً ، فسكنوها ، فقالت : يا عمرو بن عامر ، الذي رأيت في النعم . أذهب عني النوم . رأيت غماً أرعد وأبرق ، طويلاً ثم أصعق ، فما وقع على شيء إلا احترق ؛ فما بعده إلا الفرق^(١) ، فلما رأوا ما بها خفضوها^(٢) حتى سكنت ، ثم إن عمرو بن عامر دخل حديقة ومعه جاريتان له ، فبلغ ذلك طريفة فخرجت نحوه ، فما خرجت من بيتها عارضها ثلاث مناجذ - وهي دواب تشبه اليرابيع - منتصبات على أرجلهم واضعت أيديهن على أعينهن ، فلما رأتهن طريفة وضعت يدها على عينها وقعدت على الأرض ، فلما ذهبت المناجذ خرجت مسرعة ، فلما عارضها خليج الحديقة التي فيها عمرو وثبت من الماء سلحفاة فوقعت في الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم الانقلاب^(٣) وتستعين بيدها فلا تستطيع ، فتحذف التراب على نفسها ، وتقذف بالبول من تحتها ، فلما رأت طريفة ذلك جلست على الأرض حتى عادت السلحفاة إلى الماء ، ثم مضت طريفة حتى دخلت الحديقة التي فيها عمرو بن عامر حين انتصف النهار في ساعة شديدة حرّها ، وإذا الشجرة من غير ريح تتسكفاً ، فمرت حتى دخلت على عمرو ، فلما رآه قال : هلمى يا طريفة ، فقالت : والنور والظلاء ، والأرض والسماء ، إن الماء اغتر ، وإن الشجر لهالك ، فقال عمرو : ومن أخبرك بذلك ؟ قالت : أخبرتنى المناجذ ، بسنين شدائد ، يقطع فيها الولد الوالد ، وسلحفاة تحذف بالتراب حذفاً ، وتقذف بالبول قذفاً ، ورأيت الشجر من غير ريح ولا مطر تسكفاً ، قال : وما ترين ذلك ؟ قالت : داهية وكيمة^(٤) ، وأمور جسيمة ، قال : أما إن كان ذلك فلك الويل . قالت : أجل ، وما لعمرو

(١) الفرق : الخوف ، ولعله « الفرق » بالغين المعجمة والراء المهملة .

(٢) خفضوها : هداؤها وسكنوا خوفها وأزالوا ما نزل بها من هم .

(٣) تروم : تطلب (٤) وكيمة : محزنة

ففيها من نيل ، مما يجيء به السيل ، فألقى بنفسه على الفراش وقال : ما هذا الذي تقولين إلا أمر جليل ، وخلف قليل ، وأخذُ القليل خيرٌ من تركه ، قال عمرو : وما علامة ماتدكرين ؟ قالت : إذا رأيت جُرَذاً يكثر في السد الحفَر ، ويقلب منه يديه الصخر ، فاعلم أن قد وقع الأمر . فانطلق عمرو إلى السد ينظر فإذا جُرَداً يقلب يديه ورجليه الصخرة ما يقلها^(۱) خمسون رجلاً من أسد ، فرجع إلى طريقه فأخبرها . ثم رأى عمرو رؤيا أنه لا بد من سيل العرم ، وقيل : إن آية ذلك أن ترى الحصى قد ظهر في شربِ النخل ، فذهب فرأى ذلك ، فعرف أن ذلك واقع ، وأن بلادهم ستخرب ، فكتّم ذلك وأخفاه ، وأجمع على أن يبيع كل شيء له بأرض سبأ ويخرج منها هو وولده ، فخشى أن يستنكر الناس ذلك ، فاحتال في الأمر ، فأمرَ يابل فنحرت ، وبغتم فذبحت ، وصنع طعاماً واسعاً ، وبعث إلى أهل مأرب بأجمعهم ، وكان فيمن دعا يتيماً كان ربّاه وأنكحه ، وقال له فيما بينه وبينه : إذا أنا جلستُ أُطعمُ الناسَ فاجلس بجنبي ثم نازعني الحديث وارددُ عليّ مثل ما أقول لك ، وافعل بي مثل ما أفعل بك ، فكلّمه عمرو في شيء ، فردّ عليه ، فضرب عمرو وجهه وشتمه ، ففعل اليتيم به مثله ، فصاح عمرو : واذلّاه ، اليوم ذهب فخر عمرو ومجده ، فحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا به حتى تركه ، وقال : والله لا أقيم ببلدة صنع بي هذا فيه أبداً ، ولأبيعنّ أموالى كلها وأرحلُ عنكم ، فاغتم الناسُ غضبه واشتروا منه أمواله ، فباع جميع عقّاره ، وتبعه ناس من الأزْد فباعوا أموالهم ، ولما كثر البيع استنكر الناس ذلك ، فأمسكوا ، فلما اجتمع عند عمرو بن عامر أثمانُ أمواله أخبر الناس بأمر سيل العرم ، فخرج من مأرب ناس كثير ، وأقام بها مَنْ قُضى عليه بالهلاك ، هذا ما نقله رزين في تاريخه وقد اقتفيت أثره في ذلك في كتابي .

وذكر ابن هشام في سيرته نحوه ، وقال : إن الأسد يعني الأزْد قالوا : لا تتخلف

(۱) ما يقلها : ما يستطيع أن يرفعها .

عن عمرو بن عامر ، فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، وقيل : كانت طريفة زوجة ثعلبة ، وإنه صاحب القصة والمحتال في بيع ماله .

وقال ياقوت : إن عمرو بن عامر مات قبل سيل العرم ، وصارت الرئاسة إلى أخيه عمران بن عامر الكاهن ، وكان عاقراً لا يُؤَلِّد له ، وإنه صاحب القصة مع طريفة الكاهنة ، وإنها أقبلت عليه يوماً وقالت : والظلمة والضياء ، والأرض والسماء ، ليقبلن إليكم الماء ، كالبحر إذا طما ، فیدع أرضكم فلا يسف عليها انصبا ، وذكر القصة ، وأنه احتال لبيع أمواله بأن قال لحارثة أحد أولاد أخيه عمرو بن عامر : إذا اجتمع الناس إلى فإني سأمرُك بأمرٍ فأظهر فيه العصيان فإذا ضربت رأسك بالعصا فقم إلى والطمئي ، فقال : وكيف يلطم الرجل عمه ؟ فقال : افعل يا بني فإن في ذلك صلاحك وصلاح قومك ، وذكر القصة ، قال : فجاء بعد رحيلهم بمديدة^(۱) السيل وقد خرب الجرذ السد فلم يجد مانعاً ، ففرق البلاد حتى لم يبق من جميع الأرضين والكروم إلا ما كان في رؤس الجبال والأمكنة البعيدة مثل ذمار^(۲) وحضرموت وعدن ، وذهبت الضياع والحدائق والجنان ، وجاء السيل بالرمل وطمها ، فمضى على ذلك إلى اليوم ، وباعد الله بين أسفارهم كما سألوا .

ونقل رزين أن عمرو بن عامر الكاهن قال لهم عند خروجهم : سأصف لكم البلاد ، فقال : مَنْ كان منكم ذا هم بعيد ، وجمل شديد ، ومراد حديد ، فليلحق بقصر عُمان المشيد ؛ فسكنها أزد عمان . قال : ومن كان منكم ذا هم غير بعيد ، وجمل غير شديد ، ومراد غير حديد ؛ فليلحق بالشعب من كرود - وهي من أرض همدان - فكان الذين سكنوه وداعة بن عمرو بن عامر فانتسبوا في همدان . قال : ومن كان منكم ذا هم مدن ، وجمل معن^(۳) ، فليلحق بالثني من شن ، وهو بالسراة ، فسكنه أزد شنوة . قال : ومن كان منكم ذا جلد وبصر ، واه صبر على أزمت الدهر ، فليلحق ببطن مر ، فسكنته خزاعة . قال : ومن كان منكم يريد

عمرو بن عامر
يصف البلاد
لقومه

(۱) في المطبوعات « بهديدة » تطبيع .

(۲) ذمار - بوزن قطام - قرية على مرحلتين من صنعاء .

(۳) في المطبوعات « جمل معني » .

الراسخات في الوَحْل ، المطاعم في المحْل ، فليلحق بالحرّة ذات النخل ؛ فكان الذين سكنوها الأوس والخزرج . قال : ومن كان يريد الحمر والخمير ، والديباج والحريز ، والأمر والتأثير ، فليلحق بِصُرَى وسَدِير - وهما من أرض الشام - فكان الذين سكنوه آل جَفْنَةَ بن غَسَّان . قال : ومن كان يريد الثياب الرقاق ، والخيل العتاف ، والكنوز من الأرزاق ، فليلحق بالعراق ؛ فكان الذين لحقوا بالعراق جَذِيمَةَ الأبرش ومن كان بالحيرة من غَسَّان .

قلت : وقيل : إن الذي سَجَّعَ لهم بذلك طريقة الكاهنة ، وإنها قالت : ومن كان منكم يريد الراسخات في الوَحْل ، المطاعم في المحْل ، فليلحق بيثرب ذات النخل . وروى ابن زبالة سَجَّعَ عمرو بن عامر في المدينة بلفظ : من كان يريد الراسيات في الوَحْل ، المطاعم في المحْل ، المدركات بالذَّحْل^(١) ، فليلحق بيثرب ذات النخل ؛ فلما سمعوا ذلك القول خرج عمرو بن عامر بجميع ولده ومن معه من الأزديريد أرضا يقيمون بها ، ففارقهم وداعة بن عامر فسكن همدان ، ثم سار عمرو حتى [إذا] كان بين السراة^(٢) ومكة أقام هنالك ناس من الأزدي ، وأقام معهم عمران بن عمرو بن عامر ، ثم سار عمرو في باقي ولده وفي ناس من بني مازن من الأزدي حتى نزلوا ماء يقال له غسان ، وغلب عليهم اسمه حتى قال شاعرهم :

إِنَّمَا سَأَلْتُ فَإِنَّا مَعْشَرُ نَجْبٍ الْأَزْدُ نَسَبُهَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ^(٣)

قال أبو المنذر الشرقي : ومن ماء غسان أَخْزَعَ لِحَى - واسمه ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن حارثة - فأتى مكة فتزوج بنت عامر الجرهمي ملك جرهم ، فولدت له عمرو بن لحي الذي غيّر دين إبراهيم ، فسمى ولده خزاعة لأن أباهم أَخْزَعَ من غسان وقال غيره ما يخالف ذلك ؛ فروى الأزرق أن عمرو بن عامر سار هو وقومه لَا يَطَوُّنَ بِلْدًا إِلَّا غَلَبُوا عَلَيْهِ ، فلما انتهوا إلى مكة - وأهلها جرهم قد قهرروا الناس

(١) الذحل - بالفتح - الثأر

(٢) في المطبوعات « السراة » تطبيع . وإنه ليقال « أزدي السراة »

(٣) حفظي « الأزدي نسبتنا والماء غسان »

وحازوا ولاية البيت على بنى إسماعيل وغيرهم - أرسل إليهم ثعلبة بن عمرو بن عامر يقول : يا قوم إنا خرجنا من بلادنا ، فلم نزل بلدا إلا فسح أهلُه لنا فنقيم معهم حتى نرسل رؤادنا إلى الشام والمشرق ، فحيث ما قيل لنا إنه أمثل لحقنا به ، فأبَت جرم ذلك ، فأرسل إليهم ثعلبة : إنه لا بد لي من المقام ، فإن تركتموني نزلت وحدثكم وواسيتكم في الماء والمرعى ، وإن أبيتم أمت على كرهكم ثم لم ترتعوا معي إلا فض - لا ولا تشربوا إلا رنقا - يعنى الكدر - فإن قاتلتكموني قاتلتكم ، ثم إن ظهرت عليكم سببت النساء وقتلت الرجال ، ولم أترك أحداً منكم ينزل الحرم أبداً ، فأبَت جرمهم ، فاقتتلوا ثلاثة أيام ، ثم انهزمت جرمهم ، فلم ينفلت منهم إلا الشريد ، وأقام ثعلبة بمكة وما حولها بعساكره حولاً ، فأصابتهم الحمى ، وكانوا يبذل لا يدرون فيه ما الحمى ، فدَعَوْا طريفة الكاهنة فشكَّوْا إليها الذى أصابهم ، فقالت : قد أصابني الذى تشكون ، ثم ذكر الأزرق مَجْعَهَا في أمر الدلالة على البلاد في هذا المحل [و] ^(۱) هو غير سجع عمران بن عامر عند تفرقهم من سبأ ، ثم ذكر لحوق كل فرقة منهم ببلدها على النحو الذى قدمناه ، وأن الأوس والخزرج ابني حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر - وهم الأنصار - نزلوا بالمدينة ، ثم قال : وانخرعت خزاعة بمكة ، فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو أحمي ، فولى أمر مكة ، فهذا يقتضى أنهم إنما افرقوا من مكة ، ولا شك أن منها افرق الذين وصلوا إليها .

وقال ياقوت : إنهم لما ساروا من اليمن عطف ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السما بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة البهلول ابن مازن الراد ^(۲) بن الغوث نحو الحجاز ، فأقام ما بين الثعلبية إلى ذى قار ، وباسمه سميت الثعلبية ، فنزلها بأهلها وولده ومن تبعه ، فأقام هناك يتبع مواقع القطر ، فلما كثر ولده وقوى ركنه سار بهم نحو المدينة وبها يهود فاستوطنوها ؛ فأقاموا بها بين قريظة والنضير وخيبر وتيماء ووادي القرى ، ونزل أكثرهم بالمدينة .

نزول ثعلبة
ابن عمرو
في المدينة

(۱) زيادة يلتم بها الكلام .

(۲) كذا ، وفي التاج «مازن البراح» وليس في ياقوت لقب مازن .

الفصل الثالث

في نسبهم

قد قدمنا انتسابهم إلى عمرو مُزَيَّقِيَاء ، وانتساب عمرو إلى قحطان .
وقال ابن رزين نقلاً عن الشرقي : أصل الأنصار الأوس والخزرج وهما من
ولد ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن
الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن قحطان ، وكأنه سقط
من النسخة بعد الغوث « بن نبت » فإنه بين مالك والغوث كما قدمناه ، وجماع فبائل
اليمين تنتهي إلى قحطان ، وقحطان اختلف في نسبه ، فالأكثر قولوا : إنه عابر نسب قحطان
ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وقيل : هو من ولد هود نفسه ، وقيل :
ابن أخيه ، ويقال : قحطان أول من تكلم بالعربية ، وهو والد العرب المتعربة ،
وأما إسماعيل فهو والد العرب المستعربة ، وأما العرب العاربة فكانوا قبل ذلك
كعاد وثمود وطسم وجديس وعملق وغيرهم ، وقيل : إن قحطان أول من قيل له :
أَيُّتَ اللَّغْنِ^(١) ، وعِمَّ صَبَّاحَا . وذهب الزبير بن بكار إلى أن قحطان من ذرية
إسماعيل عليه السلام ، وأنه قحطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل عليه
السلام ، ويدل له تبويب البخاري بأن نسبة اليمين إلى إسماعيل ، وأورد فيه
الحديث المتضمن لمخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بنى أسلم بأنهم من بنى إسماعيل ،
وأسلم هو ابن أفضى بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس
صاحب النسب المتقدم ، فدل على أن اليمين بنى قحطان من بنى إسماعيل ، وهو
ظاهر قول أبي هريرة في الصحيحين في قصة هاجر « فتلك أمكم يا بنى ماء
السماء » يخاطب الأنصار ؛ لأن جدهم عامراً والد عمرو كان يلقب بذلك ، كما

(١) هي من تحايا الملوك ، ومعناها : أبيت أن تفعل شيئاً تسب به .

تقدم ، أو أراد أبو هريرة رضى الله عنه العرب كلهم ؛ لكثرة ملازمتهم القلوات
التي بها مواقع القطر ، وهذا مُتَمَسِّكٌ مَنْ ذهب إلى أن جميع العرب من ولد
إسماعيل عليه السلام .

قال ابن حبان في صحيحه : كل من كان من ولد إسماعيل يقال له «ابن ماء
السماء» لأن إسماعيل ولد هَاجَرَ ، وقد ربي بماء زمزم وهى من ماء السماء، ورجح
عياض أن مراد أبي هريرة الأنصار خاصة ، ونسبتهم إلى جدهم المعروف بماء
السماء ، انتهى . ودلالته على أن قبائل اليمن كلها من ولد إسماعيل ظاهرة .^(١)

قال الحافظ ابن حجر : وهو الذى يترجح فى نقدى ، وقد ذكر ابن عبد البر من طريق
القمعاق بن أبى حذر أن النبى صلى الله عليه وسلم «مرَّ بناس من أسلم وخزاعة وهم يتناضلون
فقال : ارموا بنى إسماعيل» وأسلم وخزاعة قد تقدم نسبهما فى قبائل اليمن التى جماع
نسبتهم قحطان ، ومما يؤيد ذلك قول المنذر بن عمرو جد حسان بن ثابت الأنصارى :

ورثنا من البهلول عمرو بن عامر وحارثة الغطريف مجذاً مؤثلاً
مآثر من آل ابن نبت بن مالك ونبت بن إسماعيل ما إن تحوَّلاً

وأول ذلك كله المخالفون بتأويلات بعيدة ، بل الذى أميل إليه أن العرب
كلهم من ولد إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه ، وإن لم يتم ذلك فالعرب الذين
لهم الشرف بالتقديم فى الكفاءة وغيرها شرعاً هم بنو إسماعيل ، ويدل له قول
بعض أصحابنا فى الإمامة : إذا لم يوجد قرشى مستجمع للشروط نُصِبَ كَنَانِي ،
فإن لم يكن فرجل من ولد إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه ، فإن تعذر انتقلنا
إلى العجم ، ولم يقولوا انتقلنا إلى بقية العرب ، لكن فى التتمة للمتولى : فإن لم
يُوجَد من ولد إسماعيل عليه السلام يولَّى جُرْهُمى ، وجرهم أصل العرب ، فإن
لم يوجد فرجل من ولد إسحاق عليه السلام ، اه . وهو مخالف لقول البغوى فى

(١) خلاصة هذا الكلام أن كلمة «ماء السماء» قد تطلق ويراد بها معنى العلم ، وهو
لقب عامر بن حارثة خاصة ، وقد تطلق ويراد بها اسم الجنس على معنى يابنى الماء ، سواء كان
ماء المطر أم كان ماء زمزم ، وعلى الإطلاق الأول لا يقال إلا لمن اتصل نسبه بعامر بن الحارث ،
على الثانى تطلق على كل عربى ، بل ويجوز أن تطلق على كل من يعيش عيش البدو .

التهديب : فإن لم يوجد ولد إسماعيل فمن العجم ، وأيضاً فالمتولى جعل جرهما متأخرين عن ولد إسماعيل ، وجعل لهم فضلاً في الجملة على العجم ، كذا قدم بعض العجم على بعض ، وإسماعيل أبو العرب الذين شرف نسبهم بمشاركة نسبة أشرف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ، وهو الأس في ذلك ، وعربي اللسان لا عبرة به ، على أن في مستدرك الحاكم من حديث ابن عباس « أول من نطق بالعربية إسماعيل » لكن في الصحيح أن إسماعيل تعلم العربية من جرهم الذين نزلوا مع أمه .

قال ابن إسحاق : وكان جرهم وأخوه قطورا ابنا قحطان أول من تكلم بالعربية أول من تكلم بالعربية عند تبلبل الألسن .

قلت : وهو جارٍ على رأى من يقول : إن العرب كلها ليست من ولد إسماعيل .

وروى الزبير بن بكار في النسب من حديث عليّ بإسناد حسن قال : أول من فتق الله لسانه بالعربية المبينة إسماعيل ؛ فهذا القيد يجمع بين الخبر المتقدم وبين ما في الصحيح ، فيكون أوليته في ذلك بحسب الزيادة في البيان ، لا الأولية المطلقة ، فيكون بعد تعلم أصل العربية من جرهم ألهمه الله العربية الفصيحة المبينة ؛ فعلى تقدير تسليم أن العرب كلهم ليسوا من ولد إسماعيل فالمستحق للشرف إنما هو عربية إسماعيل ، فيمتاز بنوه بما تقدم .

وقال ابن دريد في الوشاح : أول من نطق بالعربية يعرب بن قحطان ، ثم إسماعيل ، ونقل ابن هشام عن الشرقى أن عربية إسماعيل كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان وبقايا حمير وجرهم ، وكله جارٍ على خلاف ما قدمناه من أن العرب كلها من ولد إسماعيل ، والله أعلم .

وأم الأنصار في قول الكلبي : قَيْلَة بنت عمرو بن جفنة ، وقال ابن حزم : أم الأنصار هي بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء ، ويقال : بنت كاهل بن ونسبها

عذرة من قضاة ، وقضاة من حمير عند الأكثر ، واشتهرت الأنصار ببنی قيلة
ولهم يقول القائل :

بِهَائِلٍ مِنْ أَوْلَادِ قَيْلَةٍ ، لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمْ خَلِيطٌ مِنْ مَخَالِطَةِ عَتَبَا
مَطَاعِيمٍ فِي الْمَقَرَى ، مَطَاعِينَ فِي الْوَعَى ، يَرَوْنَ عَلَيْهِمْ فَعْلَ آبَائِهِمْ نَحْبًا^(۱)
وذكر رزين عن الشرقي عقب ما قدمناه عنه من أن الأنصار أصلهم الأوس
والخزرج وهما من ولد ثعلبة بن عمرو ، فقال : فَوُلِدَ لثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَارِثَةَ
الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ ، وَأُمَّهُمَا قَيْلَةٌ ؛ فَوُلِدَ الْأَوْسُ مَالِكًا ، وَمِنْ مَالِكٍ قَبَائِلُ الْأَوْسِ
كُلُّهَا ، فَوُلِدَ لِمَالِكٍ عَمْرٍو وَعُوفٌ وَصَرَّةٌ ، وَيُقَالُ لَهُمْ أَوْسُ اللَّهِ ، وَهُمْ الْجَعَادِرَةُ ، سَمَوْا
بِذَلِكَ لِقَصْرِ فِيهِمْ .

قلت : وسيأتي ما يخالف هذا مع بيان قبائل الأوس المنتشرة من هؤلاء .
وروى الخرائطي أنه لما حضرت الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو الوفاة
اجتمع عليه قوم — ، فقالوا : قد حضر من أمر الله ما ترى ، وقد كنا نأمرك في
شبابك أن تتزوج فتاة ، وهذا أخوك الخزرج له خمسة بنين وليس لك ولد غير
مالك ، فقال : لن يهلك هالك ، ترك مثل مالك ، إن الذي يخرج النار من الرينة^(۲)
قادر أن يجعل لمالك نسلا ، ورجالا بسلا ، وكل إلى موت ، ثم أقبل على مالك
فقال : أي بُنَيَّ ، المنية ولا الدنية ، وذكر حكماً سجع بها ، قال : ثم
أنشأ يقول :

شَهِدْتُ السَّبَايَا يَوْمَ آلٍ مُحَرَّقٍ وَأَدْرَكَ عُمرِي صَيِّحَةُ اللَّهِ فِي الْحَجَرِ
فَلَمْ أَرِذَا مُلْكٍ مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا وَلَا شَوْقَهُ إِلَّا إِلَى الْمَوْتِ وَالْقَبْرِ
فَعَلَّ الَّذِي أَرَدَى ثَمُودًا وَجُرْهُمَا سَيِّقِيبُ لِي نَسْلًا عَلَى آخِرِ الدَّهْرِ
تَقَرَّبَهُمْ مِنْ آلِ عَمْرٍو بْنِ عَامِرٍ عَمِيرُونَ لَدَى الدَّاعِي إِلَى طَلْبِ الْوَتْرِ
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ أَبْدَيْنَ جِدَّتِي وَشَيْنَ رَأْسِي وَالْمَشِيبُ مَعَ الْعَمْرِ

(۱) المقری : اسم مکان من القرى ، وهو الضیافة ، والنحب ، بالفتح ، النذر
أراد أنهم یرون الاقتداء بآبائهم نذراً یجب الوفاء به . (۲) کذا

فإن لنا رباً علا فوق عرشِهِ عليماً بما يأتي من الخير والشر
 ألم يأت قومي أن الله دَعَاوَةٌ يفوز بها أهلُ السعادة والبرِّ
 إذا بُعِثَ المبعوث من آل غالب بمكة فيما بين زمزم والحِجْرِ
 هنالك فابغُوا نصرَه ببلادكم بنى عامر؛ إن السعادة في النصر^(١)
 ثم قضى من ساعته .

وقال ابن حزم : إن بنى عامر بن عمرو بن مالك بن الأوس كانوا كلهم بعمان
 لم يكن منهم بالمدينة أحد ؛ فليسوا من الأنصار .
 قال الشرقى : وولد الخزرج بن حارثة أخو الأوس أيضاً خمس بنين ، وتفرقوا
 بطوناً كثيرة .

قلت : وهم عمرو ، وعوف ، وجشَم ، وكعب ، والحارث ، وسيأتى بيان
 ما انتشر من قبائلهم .

وقال ابن حزم : إن عقب السائب بن قطن بن عوف بن الخزرج لم يكن
 منهم أحد بالمدينة ، كانوا بعمان ؛ فليسوا من الأنصار ، وذكر نحو ذلك فى بعض
 بنى الحارث بن الخزرج الأكبر كما سيأتى ، وذكر أيضاً أن بعض بنى جَفَنَةَ بن
 عمرو مزيقياء كانوا بالمدينة فى عداد الأنصار ، والله أعلم .

الفصل الرابع

فى تمكّنهم بالمدينة ، وظهورهم على يهود ، وما اتفق لهم مع تبع
 قال الشرقى : لما قدمت الأوس والخزرج المدينة تفرقوا فى عاليّتها وسافلتها ،
 ومنهم من نزل مع قوم من بنى إسرائيل فى قراهم ، ومنهم من نزل وخذّه لا مع
 بنى إسرائيل ولا مع العرب الذين كانوا قد تألفوا إلى بنى إسرائيل ، وكانت
 الثروة فى بنى إسرائيل ، كانوا نيفاً على عشرين قبيلة ، ولهم قُرَى أعدّوا بها
 الآطام ، فنزلت الأوس والخزرج بينهم وحواليهم .

(١) ابغوا : اطلبوا ، يأمرهم إذا بعث النبي العربى أن ينصروه ويؤيدوه .

إقامة الأوس
والخزرج مع
اليهود

وقال ابن زبالة عن مشيخة من أهل المدينة قالوا : أقامت الأوس والخزرج بالمدينة ، ووجدوا الأموال والآطام والنخيل في أيدي اليهود ، ووجدوا العدد والقوة معهم ، فمكثت الأوس والخزرج ما شاء الله ، ثم إنهم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً يأمن به بعضهم من بعض ، ويمتنعون به من سواهم ، فتعاقدوا وتحالفوا واشتركووا وتعاملوا ، فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلاً ، وأمرت^(١) الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد ، فمارأت قريظة والنضير حالهم خافوهم أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم ، فتمروا لهم حتى قطعوا الحلف الذي كان بينهم ، وكانت قريظة والنضير أعداء^(٢) وأكثر ، وكان يقال لها الكاهن ، وبنو الصريح ، وفي ذلك يقول قيس بن الخطيم مثنياً عليهم :

كنا إذا رامنا قسوم بمظمة شدت لنا الكاهنان الخيل واعتزموا
نسوا الزهون وآسوة بأنفسهم بنو الصريح فقد عفووا وقد كرموا

قصة الفطيون
ملك اليهود
الطاغية

فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم خائفين أن تجزيهم يهود ، حتى نجم^(٣) منهم مالك بن العجلان أخو بني سالم بن عوف بن الخزرج وسودده^(٤) الحيان الأوس والخزرج ، وكان الفطيون — أي بالقاء مكسورة ، وقال ياقوت : الفيطوان — ملك اليهود بزهرة ، وكانت لا تهدي عروس يثرب من الحيين الأوس والخزرج حتى تدخل عليه ، فيكون هو الذي يفتضا قبل زوجها ، فتزوجت أخت مالك بن العجلان رجلاً من قومها ، فبينما مالك في نادى قومه إذ خرجت أخته فضلاً ، فنظر إليها أهل المجلس ، فشق ذلك على مالك ، ودخل فمَنَّفَهَا وأنبها ، فقالت : ما يُصنع بي غداً أعظم من ذلك ، أهدى إلى غير زوجي ، فلما أمسى مالك اشتعل على السيف ودخل على الفطيون متكرراً مع النساء ، فلما خفَّ من^(٥) عنده عدا عليه فقتله وانصرف إلى دار قومه ، ثم بعث هو

(١) أمرت - بكسر الميم - زادت وكثرت . (٢) أعد : أكثر عدداً
(٣) نجم : ظهر . (٤) سودده : صيره سيدياً عليهم . (٥) خف من عنده : ذهبوا

وجماعة من قومه إلى مَنْ وقع بالشام من قومهم يخبرونهم بحالهم ويشكون إليهم غلبة اليهود ، وكان رسولهم الرمق بن زيد بن امرئ القيس أحد بني سالم بن عوف بن الخزرج ، وكان قبيحاً دميماً شاعراً بليغاً ، فمضى حتى قدم على أبي جُبَيْلَة أحد بني جُشَم بن الخزرج الذين ساروا من يثرب إلى الشام ، وقال بعضهم : كان أبو جُبَيْلَة من ولد جَفْنَة بن عمرو بن عامر قد أصاب ملكاً بالشام وشرافاً . قلت : قد تقدم أن أبناء جَفْنَة من غَسَّان ، وكانوا بالشام ملوكاً .

ولم ذكر ابن حزم^(١) بني جُشَم بن الخزرج قال : فولد جُشَم غضب ، فولد غضب مالك ، فولد مالك عبد حارثة ، فولد عبد حارثة حبيب ، فولد حبيب عبد الله ، فولد عبد الله أبا جُبَيْلَة الملك الغساني الذي جَلَبه مالكُ بن العَجْلان لقتل اليهود ، انتهى .

وفيه نظر ؛ إذ ليس من بطون الخزرج غساني كما يؤخذ مما قدمناه عن ابن حزم أيضاً ، والمشهور ما قدمناه ، قالوا : فشكا إليه حالهم وغلبة اليهود عليهم ، وما يتخوفون منهم ، وأنهم يخشون أن يخرجوهم . وأنشده من شعره . فتعجب من شعره وبلاغته وقبحه ودمايته ، وقال : عَسَل طيب في وعاء خبيث . فقال الرمق : أيها الملك ، إنما يُحْتَاج من الرجل إلى أَصْغَرَيْهِ لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ . فقال : صدقت ؛ وأقبل أبو جُبَيْلَة في جمع كثير لنصرة الأوس والخزرج . كذا قاله ابن زبالة .

وقد نقل رزين عن الشرقي ما يقتضي أن مالك بن العجلان هو الذي توجه بنفسه ، وأن ما ذكر من سيرة الفُطَيَّوْن في افتضاض الأبقار إنما كانت في غير الأوس والخزرج ، وأنه أراد أن يسير فيهم بذلك ، فقتله مالك بن العجلان ، فإنه قال : إن الفُطَيَّوْن كان قد شَرَطَ أن لا تدخل امرأة على زوجها حتى تدخل عليه ، فلما سكن الأوس والخزرج المدينة أراد أن يسير فيهم بتلك السيرة ؛ فزوجت أخت مالك بن العجلان رجلاً من بني سليم ، فأرسل الفُطَيَّوْنُ رسولا في ذلك

(١) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٣٣٦

وكان مالك أخوها غائباً ، فخرجت تطلبه ، فمرت بقوم أخوها فيهم ، فنادته ، فقال أخوها : لقد جئت بسببة يا هنتاه ، تنادينني ولا تستحي ؟ فقالت : الذي يراد بي أكبر ، فأخبرته ، فقال لها : أكفيك ذلك ، فقالت : وكيف ؟ فقال : أنزياً بزى النساء وأدخل معك عليه بالسيف فأقتله ، ففعل ، ثم خرج حتى قدم الشام فنزل على أبي جُبَيْلَة . وكان نزها حين نزلوا هم المدينة ، فجيش جيشاً عظيماً ، وأقبل كأنه يريد اليمن واختفى معهم مالك بن العَجْلَان ، فجاء فنزل بذي حُرْض ، وأرسل إلى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتوا إليه فوصلهم وأعطاهم ، ثم أرسل إلى بني إسرائيل - يعنى اليهود - وقال : مَنْ أراد الحياء ^(١) من الملك فليخرج إليه . وإنما فعل ذلك خيفة أن يتحصنوا في الحصون فلا يقدر عليهم ، فخرج إليه أشراف بني إسرائيل كلهم ، فأمرهم بطعام حتى اجتمعوا ، فقتلهم من عند آخرهم ، فلما فعل ذلك صار الأوس والخزرج أعز أهل المدينة : ففي ذلك يقول النبوى يمدح مالكاً فيما فعل :

فليشهدنَّ بما أقولُ عصابةً بَلَوِيَّةٌ وعصابة من سالم
هل كان لافطيمون عُقرنساكم حكم النصيب وليس حكم الحاكم
حتى حباه مالكٌ عن عرسِهِ حمراء تضحك عن نجيع قائم

ثم ذكر أبياتاً نسبها إلى أبي يزيد بن سالم أحد بني سالم بن عوف بن الخزرج مدح بها أبا جُبَيْلَة ونسبها ابنُ زبالة للرمق فإنه قال : إن الأوس والخزرج قالوا لأبي جُبَيْلَة لما قدم لنصرهم : إن علم القوم ما تريد تحصنوا في أطامهم فلم تقدر عليهم ، ولكن ادعهم للقائك وتلطفهم حتى يأمنوك ويطمئنوا فتستمكن منهم ، فصنع لهم طعاماً وأرسل إلى وجوههم ورؤسائهم ، فلم يبق من وجوههم أحد إلا أتاه ، وجعل الرجل منهم يأتي بحامته وحشمه ^(٢) رجاء أن يحبهم ، وكان قد بنى لهم حيزاً وجعل فيه قوماً فأمرهم أن يقتلوا مَنْ دخل عليهم منهم ، ففعلوا حتى أتوا على

(١) الحياء - بزنة الكتاب - العطاء

(٢) حامة الرجل : خاصته من أهله وولده ، والحشم : كالخدم وزنا ومعنى

وجوههم ورؤسائهم ، فعزت الأوس والخزرج بالمدينة ، واتخذوا الديار والأموال والآطام ، فقال الرمق يثنى على أبي جُبَيْلَة :

لم تقض دينك من حسان وقد عنيت وقد عنينا
قضيت همك في الحسان فقد عنيت وقد عنينا

وفي رواية رزين :

الراشقات المرشقات تالجات بماجزينا
أمثال غزلان الصَّرا ثم يأتزرن ويرتدنا
الرَّيْطَ والديباجَ والـ حلى المفصل والبرينا^(١)
وأبو جُبَيْلَة خير من يمشى ، وأوفاه يمينا
وأبرئهم براً وأءـ لهمم بهدى الصالحينا
القائد الخيل الصوا نع بالكُماة المعلمينا
أبقت لنا الأيام والـ حَرْبُ الملة تغترينا
كَبْشاً له در يغفل متونها الذكر السميننا
ومعاقلاً شُماً وأسـ يافا يقمن وينحنينا
ومحولة زوراء تجحف بالرجال الظالمينا

وفي بعض الروايات أن مالك بن العجلان لما قتل الفُطَيْيُونَ قصد اليمن إلى تبَّع الأصغر ؛ فشكا إليه ما كان الفُطَيْيُونَ يسرفيهم ، فعاهد أن لا يقرب امرأة ولا يمس طيباً ولا يشرب خمرأ حتى يسير إلى المدينة ويدل مَنْ بها من اليهود ؛ ففعل ذلك .

وذكر ابن قتيبة في معارفه تبَّع بن حسان ، قال : وهو تبع الأصغر آخر التبابعة ، وذكر أنه صار إلى الشام وملوكها غسان فأطاعته ، قال : وصار إلى ابن أخيه الحارث وهو بالمستقر من ناحية هَجْر فأتاه قوم كانوا وقعوا إلى يثرب ممن

(١) البرين : جمع برة - بضم الباء ، وفتح الراء مخففة - كل حلقة من سوار أو قرط أو خلخال ، وتجمع أيضاً على برى مثل مدى

خرج مع عمرو مُزَيَقِيَاءَ وَحَافُوا الْيَهُودَ يَثْرِبَ - أَيْ وَهُمْ الْأَنْصَارُ - فَشَكُّوا الْيَهُودَ ، وَذَكَرُوا سُوءَ مَجَاوِرَتِهِمْ ، وَنَقَضَهُمُ الشَّرْطَ الَّذِي شَرَطُوهُ لَهُمْ عِنْدَ نَزْوِهِمْ ، وَمَثُّوا^(١) إِلَيْهِ بِالرَّحِمِ ، فَأَحْفَظَهُ ذَلِكَ^(٢) ، فَصَارَ إِلَى يَثْرِبَ وَنَزَلَ فِي سَفْحِ أَحَدٍ ، وَبَعَثَ إِلَى الْيَهُودِ ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ رَجُلًا صَبْرًا ، وَأَرَادَ خَرَابَهَا ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ أَتَتْ عَلَيْهِ مِائَتَانِ وَخَمْسُونَ سَنَةً فَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، مِثْلُكَ لَا يَقْتُلُ عَلَى الْغَضَبِ ، وَأَمْرُكَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَطِيرَ بِكَ بَرْقٌ أَوْ يَسْرَعَ بِكَ لُجَاجٌ ، فَإِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْرِبَ هَذِهِ الْقَرْيَةَ ، قَالَ : وَلَمْ ؟ قَالَ : لِأَنَّهَا مُهَاجَرَتِي مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ يُخْرِجُ مِنْ عِنْدِ هَذِهِ الْبَيْتَةِ ، يَعْنِي الْبَيْتَ الْحَرَامَ ، فَكَفَّ تَبِعَ وَمَضَى وَمَعَهُ هَذَا الْيَهُودِيُّ وَرَجُلٌ آخَرٌ مِنَ الْيَهُودِ عَالِمٌ ، وَهُمَا الْخَبْرَانِ ، فَأَتَى مَكَّةَ ، وَكَسَا الْبَيْتَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْيَمَنِ وَمَعَهُ الْخَبْرَانِ وَقَدْ دَانَ بَدِينَهُمَا وَأَمَّنَ بِمُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، اهـ .

فَلَعَلَّ مَالِكُ بْنُ الْعِجْلَانَ كَانَ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَى جِهَةِ مَلِكِ غَسَّانَ وَبِهَا تَبَعَ الْمَذْكُورَ فَوَقَعَ مِنْ كُلِّ مَنِهْمَا نَصْرُهُ ، فَأَضَافَهُ قَوْمٌ إِلَى تَبِعَ ، وَقَوْمٌ إِلَى أَبِي جُبَيْلَةَ الْغَسَّانِي .

قَالُوا : وَلَعْنَتُ الْيَهُودُ مَالِكُ بْنُ الْعِجْلَانَ فِي كِنَائِهِمْ وَبُيُوتِ عِبَادَتِهِمْ ، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ :

تَحَامَى الْيَهُودُ بِتَلْعَانِيَا تَحَامَى الْحَمِيرُ بِأَبْوَالِهَا^(٣)
وَمَاذَا عَلَى بَأْسٍ يَلْعَنُوا وَتَأْتِي الْمَنَايَا بِإِذْلَالِهَا

وَقَالَتْ سَارَةُ الْقُرْظِيَّةُ تَرْتِي مِنْ قَتْلٍ مِنْ قَوْمِهَا :

بِأَهْلِي رِمَّةٌ لَمْ تَغْنِ شَيْئًا بِذِي حَرَضٍ تَغْفِيهَا الرِّيحُ
كَهَوْلٍ مِنْ قَرِيظَةٍ أَتَلَفْتَهُمْ سَيُوفُ الْخَزَرْجِيَّةِ وَالرَّمَاخُ
وَلَوْ أَذْنُوا بِأَمْرِهِمْ كَلَّاتِ هُنَالِكَ دُونَهُمْ حَرْبُ رَدَاحٍ^(٤)

قَالَ أَهْلُ السَّيْرِ : ثُمَّ انْصَرَفَ أَبُو جُبَيْلَةَ رَاجِعًا إِلَى الشَّامِ ، وَقَدْ ذَلَّلَ الْحِجَازَ وَالْمَدِينَةَ ، وَمَهَّدَهَا لِلْأَوْسِ وَالْخَزَرِجِ .

(١) تقول: مت فلان إلى فلان بأصرة، تريد أنه وصل نفسه به (٢) أحفظه: أغضبه

(٣) التلعان: اللعن (٤) حرب رداح - بزنة سحاب - ثقيلة تضم كتائب جرارة

ونقل المجد عن ياقوت أن تُبْعَاً كان بالمدينة ، فإنه قال : وعكس ياقوت قصة افتضاض الأبقار ؛ فجعل أنها كانت باليمامة ، وأن أهل المدينة مع تُبْعٍ هم الذين أزالوا هذه الفضيحة من اليمامة ، ثم أورد كلام ياقوت ، وليس مضمونه ما ذكره ؛ بل مضمونه أن مَنْ كان يُفْعَلُ فيهم هذه الفضيحة باليمامة احتالوا في دفعها وقتلوا من كان يفعل بهم ذلك وغلبوا عليهم ، فهرب منهم شخص ولحق بتبع فنصره تبع مع أهل المدينة ، وهو خبر ممتنع فلم يورده تبع المجد ، قال ياقوت : إن طَسْماً وجَدِيساً من ولد لاوذ بن إرم بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام أقاموا باليمامة ، وكثروا بها ، حتى ملكوا عليهم عمليق الطَّسْمِي - وكان جباراً غشوماً ، وكان قد قضى بقضاء جائر بين امرأة وزوجها من جدِيس ، فأنشدت المرأة أبياتاً بلغته ، فأمر ألاَّ لا تُزَوَّجَ بكر من جدِيس حتى تدخل عليه فيكون هو الذي يفتريها^(١) - ولقوا منه ذلاً ، حتى زوجت منهم أخت الأسود بن غفار سيد جدِيس ، وكان جلدًا ، فلما كانت ليلة الإهداء خرجت والقيان^(٢) حولها التحمل إلى عمليق وهن يضربن بمعازفهن ويقلن :

أَبْدَى بِعَمَلِيقُ وَقَوْمِي فَارَكْبِي وَبَادِرِي الصَّبْحَ بِأَمْرِ مَعْجَبِ
فَسَوْفَ تَلْقَيْنَ الَّذِي لَمْ تَطْلُبِي وَمَا لِبَكْرٍ دُونَهُ مِنْ مَهْرَبِ
ثم أدخلت على عمليق فافتريها ، وقيل : كانت أَيْدَةً^(٣) ، فامتنعت عليه ، فخاف العار فَوَجَّأَهَا^(٤) بحديدة في قُبْلِهَا فأدماها ، فخرجت وقد تقاصرت إليها نفسها فشَقَّتْ ثوبها من خلفها ودماؤها تسيل ، فمرت بأخيها في جمع من قومه وهي تبكي وتقول :

لَا أَحَدًا أَذَلَّ مِنْ جَدِيسٍ أَهْلُكَذَا يَفْعَلُ بِالْعُرُوسِ^(٥)

في أبيات ، فأغضب ذلك أخاها ، ووقفها على نادى قومه ، وهي تقول :

(١) يفتريها : يفتضها ويزيل بكارتها (٢) القيان : جمع قينة ، وهي الجارية المغنية

(٣) أَيْدَةً : شديدة قوية (٤) وَجَّأَهَا : ضربها ووخزها

(٥) ذكر ياقوت مع هذا البيت بيتين آخرين (٧/٨ ٥)

أَجْمَلُ أَنْ يَأْتِيَنِي إِلَى فَتَيَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ رَجَالٌ فِيكُمْ عَدَدُ الرَّمْلِ (۱)
 أَجْمَلُ تَمْشِي فِي الدِّمَا فَتَيَاتِكُمْ صَبِيحَةً زُفَّتْ فِي الْعِشَاءِ إِلَى بَقْلِ (۲)
 فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَغْضَبُوا بَعْدَ هَذِهِ فَكُونُوا نِسَاءً لَا تَغِبُ مِنَ الْكَحْلِ
 وَدُونَكُمْ ثُوبَ الْعُرُوسِ فَإِنَّهَا خُلِقَتْ لِلْأَثْوَابِ الْعُرُوسِ وَاللَّغْسِ
 فَلَوْ أَنْتُمْ كُنَّا رَجَالًا وَكُنْتُمْ نِسَاءً لَكُنَّا لَا نَقْرُ عَلَى الذِّلِّ
 فَمُوتُوا كَرَامًا أَوْ أُمِيتُوا عَدُوَكُمْ وَكُونُوا كَنَارٍ شَبَّ بِالْحَطَبِ الْجَزَلِ
 وَإِلَّا فَخَلَوْا بَطْنَهُمَا وَتَحَمَّلُوا إِلَى بَلَدٍ قَفَرٍ وَهَزَلٍ مِنَ الْهَزَلِ
 فَلَمُوتَ خَيْرٌ مِنْ مَقَامٍ عَلَى أَذَى وَلِلْفَقْرِ خَيْرٌ مِنْ مَقَامٍ عَلَى تُكُلٍ (۳)
 فَذَبُّوا إِلَيْهِ بِالصَّوَارِمِ وَالْقَنَاقِنِ وَكُلْ حُسَامٌ مُخَدَّثَ الْعَهْدِ بِالصَّقْلِ
 وَلَا تَجْزَعُوا لِلْحَرْبِ قَوْمِي فَإِنَّمَا يَقُومُ رَجَالٌ لِلرَّجَالِ عَلَى رَجُلٍ
 فِيهِلَكَ فِيهَا كُلُّ وَغْلٍ مَوْا كُلِّ وَبَسْلَمٍ فِيهَا ذُو الْجِلَادَةِ وَالْفَضْلِ

فَامْتَلَأَتْ جَدِيسٌ غَيْظًا ، وَنَكَسُوا رُءُوسَهُمْ حَيَاءً ، وَتَشَاوَرُوا فِي الْأَمْرِ ، فَقَالَ
 الْأَسْوَدُ : أَطِيعُونِي فَإِنَّهُ عِزُّ الدَّهْرِ ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَصْنَعَ لِلْمَلِكِ طَعَامًا ثُمَّ أَدْعُوهُ
 وَقَوْمَهُ ، فَإِذَا جَاؤُنَا قَتَلْتَ الْمَلِكَ ، وَقَامَ كُلُّ مَنْكُمُ إِلَى رَئِيسٍ مِنْهُمْ فَقَتَلَهُ ، فَلَا يَبْقَى
 لِلْبَاقِينَ قُوَّةٌ ، فَهَنَّتَهُمْ أُخْتُ الْأَسْوَدِ عَنِ الْغَدْرِ ، وَقَالَتْ : نَاجِزُوهُمْ فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ
 يَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ لِظُلْمِهِمْ ؛ فَعَصَوْهَا فَقَالَتْ :

لَا تَغْدِرُنَّ فَإِنَّ الْغَدْرَ مَنَقَصَةٌ وَكُلُّ عَيْبٍ يُرَى عَيْبًا وَإِنْ صَغُرَا
 إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ تِلْكَ غَدَاً وَفِي الْأُمُورِ تَدَايِيرٌ لِمَنْ نَظَرَا
 حُشُّوا سَعِيرًا لَهُمْ فِيهَا مُنَاجَزَةٌ فَكَلِّمُوا بِاسِلًا أَرْجُو لَهُ الظَّفَرَا (۴)
 فَأَجَابَهَا أَخُوهَا :

شَتَانُ بَاغٍ عَلَيْنَا غَيْرُ مَتَدٍّ يَغْشَى الظَّلَامَةَ لَا يَبْقَى وَلَنْ يَذْرَا
 إِنَّا لَعَمْرُكَ لَا نَبْدِي مُنَاجَزَةً نَخَافُ مِنْهَا صُرُوفَ الدَّهْرِ مِنْ ظَفَرَا

- (۱) حفظي من عهد الطلب « أجمل ما يؤتي إلى فتياتكم »
 (۲) حفظي « وتصبح تمشي في الدماء عفيرة » (۳) في ياقوت « وللهزل خير من مقام على تكل »
 (۴) حش النار : أوقدها ، وفي المطبوعات « جيشوا » وفي ياقوت « حسوا »
 وكلاهما تطبيع .

إني زعيم بطسم حين تحضرنا عند الطعام بضرب يهتك الفقرا^(١)
وصنع الأسود الطعام ، ودفن كل منهم سيفه تحته في الرمل مجرّداً ، فلما
جلس الملك وقومه للأكل وثبت عليهم جديس حتى أبادوهم ، ثم قتلوا باقيهم ،
فهرب رجل من طسم حتى لحق بتبع تبان أسعد بن كلبيكرب ، وقيل :
بحسان بن تبع الحميري وكان بالمدينة ، فاستغاثه ، وذكر أبياتا فيها غدر جديس
بهم ، فوعده بنصره ، ثم رأى منه تباطؤاً فقال :

إني طلبت لأوتاري ومظلمتي بآل حسان آل العز والكرم
المنعمين إذا ما نعمة ذكرت والواصلين بلا قرني ولا رحم

قصة
زرقاء اليمامة

في أبيات أخرى ، فسار تبع من المدينة في جيوشه ، حتى [إذا] كان عند جبل على
ليلة من اليمامة قال له الطسمى : توقف أيها الملك فإن لي أختا متزوجة في جديس
يقال لها يمامة أبصر خلق الله على بعد ، وإني أخاف أن ترانا فتندبرهم بنا ، فأقام
تبع ، وأمر رجلا فصعد الجبل ليرى ما هناك ، فدخل في رجله شوكة بالجبل ،
فأكب يستخرجها ، فأبصرته اليمامة ، وكانت زرقاء العين ، فقالت لهم : إني أرى
على الجبل الفلاني رجلا وما أظنه إلا عينا^(٢) ، فقالوا : ما يصنع ؟ فقالت : إما نخسف^(٣)
نغلا أو ينهش كنفنا ، فكذبوها ، ثم قال الطسمى لتبع : إن بصرها بالليل أنفذ
فر أصحابك ليقطعوا من الشجر أغصانا ليستروا بها فيشبهوا^(٤) عليها الأمر . ففعلوا ،
حتى إذا دنوا من اليمامة ليلا ؛ فنظرت اليمامة فقالت : يا جديس سارت إليكم
الشجر ، أو جاءكم أوائل خيل حمير ، فكذبوها ، فصعبحتهم حمير ، فهرب
الأسود في نفر من قومه لجبل طي . وفتح أهل المدينة حصون اليمامة ، وامتنع
عليهم حصن زرقاء اليمامة ؛ فصابره تبع حتى افتتحه ، وقبض عليها ، وسألها :
كيف أبصرتهم ؟ فأخبرته بخبر الذي صعد الجبل ، فسأله تبع ، فقال : صعدت
فانقطع شراك نعلي وأصابتنى شوكة ؛ فعالجت إصلاحها وإصلاح قبالي بقمي ،

(١) الفقر : جمع فقرة ، وهي الواحدة من خرزات الظهر

(٢) العين ، هنا : الجاسوس (٣) نخسف : يرقع (٤) يشبهوا عليها : يلبسوا عليها الأمر

فقال لها: أنى لك هذا^(۱)؟ قالت: كنت آخذ حجرا أسود فادقته وأكتحل به: فكان يقوى بصرى، فيقال: إنها أول من اكتحل بالإثمد، فأمر تبع بقلع عينيها ليرى ما فيها، فوجد عروقها كلها محشوة بالإثمد، وخربت اليمامة يومئذ؛ لأن تبعاً قتل أهلها، ولم يخلف بها أحدا، ورجع إلى المدينة.

هذا ما ذكره المجد عن ياقوت باختصار، وليس فيه عكس القضية: فيجوز أن يقع بكل من اليمامة والمدينة مثل هذا. والظاهر أن قصة اليمامة كانت بعد قصة المدينة.

ونقل رزين عن الشرقى أن أباجبيلة لما فرغ من نصر أهل المدينة رجع إلى الشام؛ فأقبل تبع الأخير - وهو كرب بن حسان بن أسعد الحميرى، والتبابعة كلهم من حمير - يريد المشرق كما كانت التبابعة تفعل؛ فمرَّ بالمدينة، فخلف فيها ابنا له ومضى حتى قدم الشام، ثم سار حتى قدم العراق، فلما كان بالعراق قتل ابنه بالمدينة غيلة^(۲) فأقبل راجعا يريد تخريب المدينة، فنزل بسفح أحد، فاحتفر بئرا ثم أرسل إلى أشراف المدينة، فلما جاءهم الرسول قال بعضهم: إنما أراد أن يملكنا على قومنا، وقال أحبيحة: والله ما دعاكم خير، وكان لأحبيحة رأى من الجن^(۳) فخرجوا وخرج أحبيحة معه بقينة وخمر وخباء، فضرب الخباء وجعل فيه القينة والخمر، ثم دخل على تبع أول الناس. فتحدث معه، ففطن بالشر، ثم قال: إن أصحابي يصلونك إلى الظهر، فاستأذن في الخروج إلى الخيمة، فأذن له، فشرب وجعلت القينة تُغنيه بأبيات صنعها لها تقول:

-
- (۱) أنى لك هذا: من أين لك هذا، وفي القرآن الكريم: (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله)
- (۲) قتله غيلة: أى غدرأ من غير أن يظهر القاتل له ويناجزه.
- (۳) كان أهل الجاهلية يعتقدون أن لكل كاهن صاحباً من الجن يسترق له السمع ويلقى عليه ما يسمعه، وقد حكى القرآن الكريم استراق السمع على لسان الجن.

لتبكني قينة ومزهرها وتبكني قهوة وشاربها
وتبكني عصبه إذا اجتمعت لا يعلم الناس ما عواقبها

وهو يقلُّ من الشراب ، وجاء أصحابه قريبا من الليل ، فأمر لهم تبع بضيافة ، فلما كان في جوف الليل أرسل إليهم ليقتلهم ، ففطن أحبيحة ، فقال للقينة : أنا سائر إلى أهلي ، فإذا طلبني الملك فقولى : هو نائم ، فإذا ألحوا فقولى : يقول لك : أما أحبيحة فقد ذهب فاغدير بقينته أو دغ ، وانطلق فتحصن في حصنه ، فحاصروه ثلاثا يقاتلهم بالنهار ، وإذا كان بالليل يرمى إليهم بتمر ويقول : هذا ضيافتكم . فأخبروا تبعا أنه في حصن حصين ، فأمرهم أن يحرقوا نخله ، واشتعلت الحرب بين تبع وأهل المدينة من اليهود والأوس والخزرج ، وتحصنوا في الآطام ، فخرج رجل من أصحاب تبع حتى جاء بني عدي بن النجار ، فدخل لهم حديقة ، فرقى على عذق منها . فأخذ يجده ^(١) ، فنزل إليه صاحب العذق فقتله وجره إلى بئر وألقاه فيها ، وهو يقول :

جانا يجدُ نخيلنا وكان الجداد لمن قد أبره ^(٢)

فزاد ذلك تبعا حنقا ^(٣) ، وجرد إلى بني النجار خيلا ، فقاتلهم بنو النجار ورؤسهم يومئذ عمرو بن طلحة أخو بني معاوية بن مالك بن النجار ، ورمى عسكر تبع حصون الأنصار بالنبل ، فلقد جاء الإسلام والنبل فيها ، وجزع في القتال فرس تبع خلف لا يبرح حتى يخر بها بزعمه ، فسمع بذلك أحبار من اليهود فنزلوا إليه وقالوا : أيها الملك إن هذه البلدة محفوظة ، فإننا نجد اسمها في الكتاب طيبة ، وإنها مهاجرة نبي ^(٤) من بني إسماعيل من الحرم ، وهي تكون قراره فلن تسلط عليها ، فأعجب تبع بقولهم ، فصرف تبع نيته عنها ، وأمر أهل المدينة فتبايعوا مع العسكر ، وكان تبع قد استوبا

(١) يجده : يقطعه ، والعذق ، بالكسر : سباطة النخل

(٢) أبر النخل يأبره - من باب ضرب - أصلحه ، والبيت لا يستقيم صدره مع عجزه

(٣) الحنق - بالتحريك - الغضب (٤) مهاجرة نبي : مكان هجرته

بئرہ^(۱) التي حفر، فمريض، فجاءته امرأة من بنی زریق اسمها فكهة براوية^(۲) من بئر رومة فأعجبه فاستلذه، فلما كان رحيله قال لها: يافكهة ماترك في موضعنا من شيء إذا رحلنا فهو لك، فأخذت ذلك، فاستغنت منه، وخرج تبع يريد اليمن رمعه من الأخبار الذين نهوه عن خراب المدينة رجلان أو ثلاثة، فقال لهم: تسيرون معي أياما آنسُ بحدیثکم، فكانوا يحدثونه عن الكتاب وعن قصة النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يتركهم حتى وصلوا معه إلى اليمن؛ فهم كانوا أول يهودی دخل اليمن، واتفق في مسيره قصة إكسائه الكعبة.

وقد قدمنا في بعض الروایات أن مالك بن العجلان لما قتل ملك اليهود قصد اليمن إلى تبع الأصغر، وأنه الذي نصرهم على يهود، ولعل هذا مراد ياقوت لقوله «إن يهود كانوا أهل المدينة حتى أتاهم تبع فأزل معهم بنی عمرو بن عوف» لكن نقل المجد وغيره عن المبتدأ لابن إسحاق أنه قال في بيت أبي أيوب الذي نزلہ النبي صلى الله عليه وسلم متمدمة^(۳) المدينة: إن تبعاً الأول بناء ما مربالمدينة، قال في المبتدأ: واسمه تبيان أسعد بن كل-كيس كرب، وكان معه أربعائة عالم، فتعاقدوا على أن لا يخرجوا منها، فسألهم تبع عن سر ذلك، فقالوا: إنا نجد في كتبنا أن نبياً اسمه محمد هذه دار مهاجرة؛ فنحن نقيم لعل أن نلقاه، فأراد تبع الإقامة معهم، ثم بنى لكل واحد من أولئك دارا واشترى له جارية وزوجها منه وأعطاه مالا جزيلا، وكتب كتاباً فيه إسلامه، ومنه:

شهدت على أحمد أنه رسول من الله باري النسم^(۴)

فلو مدد عمرى إلى عمره لكنت وزيراً له وابن عم

وختمه بالذهب ودفعه إلى كبيرهم، وسأله أن يدفعه إلى النبي صلى الله عليه

(۱) استوبأه: وجده وبيثا (۲) الراوية: المزايدة مملوءة ماء

(۳) مقدمة المدينة: يعنى في وقت قدومه إليها.

(۴) الباري: أصله الباري، ومعناه الخالق، والنسم: جمع نسمة

وسلم إن أدركه ، وإلا فَمَنْ أدركه من ولده أو ولد ولده ، وَبَنَى للنبي صلى الله عليه وسلم دارا لينزلها إذا قدم المدينة ، فتداول الدارَ الملاكُ إلى أن صارت لأبي أيوب وهو من ولد ذلك العالم ، وأهل المدينة الذين نصره كلهم من أولاد أولئك العلماء ، انتهى .

زاد غير المجد : ويقال : إن الكتاب الذي فيه الشعر كان عند أبي أيوب حين نزل عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فدفعه له ، وهو غريب ، وكتب التواريخ متظاهرة^(۱) على ما قدمناه في أمر الأنصار ونسبهم .

وقد ذكر السهيلي إيمان تَبَعَ بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر البيتين ، وروى حديث « لا تَسُبُّوا تبعاً فإنه كان مؤمناً » .

وروى عبد الرزاق عن وهب بن منبه قال : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن سب أسعد وهو تبع . قال وهب : وكان على دين إبراهيم .

وروى أحمد من حديث سهل بن سعيد رفعه « لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم » وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس مثله ، وإسناده أصح من إسناد سهل ، وأما مارواه عبد الرزاق عن أبي هريرة مرفوعاً « لا أدري تبع كان لعينا أم لا » فمحمول على أنه صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم بحاله .

وقال المرجاني : إن أبا كرب بن أسعد الحميري آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعائة سنة ، وقال : * شهدت على أحمد — البيتتين المقدمين * وإن أباه أسعد هو تَبَعَ الذي كسا الكعبة ، ونقله عن حكاية ابن قتيبة ، والذي رأيته في المعارف^(۲) لابن قتيبة أن أسعداً أبا كرب الحميري هو الموصوف تماذكروه .

(۱) متظاهرة : متساندة يقوى بعضها بعضاً ؛ لأنها متفقة في هذا الذي يذكره .

(۲) انظر المعارف لابن قتيبة (طبع الإسلامية في سنة ۱۳۵۳ ص ۲۷۴) وقد

أشار إلى خلاف فيمن كسا البيت أهو تبع الأوسط أم تبع الآخر ، ولكنه لم يذكر خلافاً في أن الذي آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم هو أسعد أبو كرب بن كليكرب ، كما ذكر أن الذي ذهب إلى جديس هو حسان بن تبع

وروى ابن زبالة أن تبعاً لما قدم المدينة وأراد إخراجها جاءه خبر أن من قريظة يقال لها مسحيت ومنبه فقالا : أيها الملك انصرف عن هذه البلدة فإنها محفوظة ، وإنها مهاجرة نبي من بني إسماعيل اسمه أحمد يخرج في آخر الزمان ، فأعجبه مسمع منهما ، فصدقهما وكف^(١) عن أهل المدينة .

الفصل الخامس

في منازل قبائل الأنصار بعد إذلال اليهود ، وشيء من آطامهم ، وما دخل بينهم من الحروب ، وهو دفع في معرفة جهات المساجد التي لا تعرف اليوم ، وغير ذلك .
اعلم أن ابن زبالة نقل ما حاصله أن الأوس والخزرج بعد انصراف أبي جهميلة وانصرفوا تفرقوا في عالية المدينة وسافلتها ، واتخذوا الأموال والآطام ، فنزل بنو عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج الأصغر وبنو حارثة بن الحارث ابن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس بن حارثة فكلأهما من الأوس دار بني عبد الأشهل قبل دار بني ظفر مع طرف الحرة الشرقية ، قاله المطري ، والذي يظهر لي أن منازلهم كانت قريبة من منازل بني ظفر في شاميها وتمتد إلى الحرة المعروفة اليوم بدشم وما حولها ، بل سيأتي في ترجمة الخنادق ما يقتضي أن منازلهم كانت بالقرب من الشيخين^(٢) . وابتنى بنو عبد الأشهل أطماً يقال له « واقع » وبه سميت الناحية واقماً ، وكان لحضير بن سمالك ، وله يقول شاعرهم :
نحن بنينا واقماً بالحرة بلأزب الطين وبالأصرة

وله يقول خفاف بن نذبة :

(١) كف عنهم : تركهم

(٢) قال ياقوت (٣١٩/٥) : « شيخان بلفظ ثنية شيخ : كان فيه معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة خرج لقتال المشركين بأحد ، وهناك عرض الناس فأجاز من رأى ورد من رأى ، قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : كنت ممن رد من الشيخين يوم أحد ، وقيل : هما أطمان ، سميا به لأن شيخاً وشيخة كانا يتحدثان هناك » اهـ

لَوْ أَنَّ الْمَنَایَا جُزْنَ عَنْ ذِي مَهَابَةٍ لَهُبْنَ حَضِيْرًا يَوْمَ أَغْلَقَ وَأَقَامَ^(١)
يَطِيْفُ بِهِ حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ جَنَّتْهُ تَبَوَّأَ مِنْهُ مَضْجَعًا مَتَنَاغَمًا
وَأَطْمَأ يَقَالُ لَهُ « الرَّعْلُ » بِالْمَالِ الَّذِي يَقَالُ لَهُ وَاسِطَ لَصْخَرَةٍ أُمِّ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ،
وَلَهُ يَقُولُ شَاعِرُهُمْ يَوْمَ بُعَاثَ :

* نَحْنُ بَنُو صَخْرَةٍ أَرْبَابُ الرَّعْلِ *

وَأَطْمَأ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَابْتَنَى بَنُو حَارِثَةَ أَطْمَأَ اسْمُهُ « الْمَسِيرُ » صَارَ لِبَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ
بَعْدَ خُرُوجِ بَنِي حَارِثَةَ مِنْ دَارِهِمْ ؛ فَإِنَّ بَنِي حَارِثَةَ تَحَوَّلُوا مِنْ دَارِهِمْ هَذِهِ إِلَى
غَرْبِي مَشْهَدٍ سَيِّدِنَا حَمْزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ الْيَوْمَ بِبَثْرَبَ ؛ فَكَانَتْ
بِهَا مَنَازِلُهُمْ عَلَى مَا قَدَمْنَاهُ عَنْ الْمَطَرِيِّ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ . وَالَّذِي تَحَرَّرَ لِي مِنْ
مَجْمُوعِ كَلَامِ الْوَأَقْدِيِّ وَابْنِ زَبَالَةَ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ مَنَازِلَهُمْ الَّتِي اسْتَقَرُّوا بِهَا وَجَاءَ الْإِسْلَامُ
وَهُمْ فِيهَا كَانَتْ فِي شَامِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ بِالْحَرَةِ الشَّرْقِيَّةِ . وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا سَيَأْتِي
فِي تَرْجَمَةِ الْخَنْدَقِ مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَّهُ مِنْ أَجْمَةِ الشَّيْخِينَ طَرَفَ
بَنِي حَارِثَةَ كَمَا رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ .

وَقَدْ قَالَ الْمَطَرِيُّ كَمَا سَيَأْتِي عَنْهُ : الشَّيْخَانِ : مَوْضِعٌ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَبَيْنَ جَبَلِ
أَحَدَ ، عَلَى الطَّرِيقِ الشَّرْقِيَّةِ مَعَ الْحَرَةِ إِلَى جَبَلِ أَحَدَ . وَيُؤَيِّدُهُ أَيْضًا أَنَّ الْمَطَرِيَّ قَدْ
ذَكَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَا إِلَى أَحَدَ يَوْمَ وَقَعَتْهُ عَلَى الطَّرِيقِ الشَّرْقِيَّةِ
الْمَذْكُورَةِ ، وَسَيَأْتِي أَنَّهُ بَاتَ بِالشَّيْخِينَ .

وَفِي الْمَعَارِفِ لِابْنِ قَتِيبَةَ عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ : فَلَمَّا سَارَتْ قَرِيشٌ لِحَرْبِ رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ حَتَّى نَزَلُوا
بُيُوتَ بَنِي حَارِثَةَ ، فَأَقَامُوا بِقِيَّةِ يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ . ثُمَّ خَرَجَ فِي غَدٍ . وَذَكَرَ
الْخَزَالُ^(١) عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي ؛ فَتَحَرَّرَ أَنَّ بُيُوتَ بَنِي حَارِثَةَ عِنْدَ الشَّيْخِينَ
وَفِي نَاحِيَّتِهِمَا .

(١) جَزَنَ عَنْهُ : تَجَاوَزَنَهُ وَلَمْ يَنْزِلْ بِهِ ، وَذَوِ الْمَهَابَةِ : الَّذِي يَهَابُهُ النَّاسُ وَيَخَافُونَهُ ،
وَهُبْنَ حَضِيْرًا : خَفَنَهُ ، وَوَقَعَ فِي الْمَطْبُوعَاتِ « لَهُبْنَ حَضِيْرًا » تَطْبِيعٌ .

(٢) الْخَزَالُ : تَخَاذُلُ وَرَجْعٌ عَنِ الْحَرْبِ

وقد ذكر ابن إسحاق وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز ذلك اليوم في حائط لمربع بن قبيظ ، واتفق له معه ما سيأتي ذكره ، ومربع هذا من بني حارثة وأيضاً فقد قدمنا في الفصل الرابع في تحريمها قول أبي هريرة في رواية الإسماعيلي: ثم جاء — يعني النبي صلى الله عليه وسلم — بني حارثة وهم في سدة الحرة . اهـ . وليس الموضع الذي ذكره المطري في سدة الحرة . بخلاف الموضع الذي قدمناه ، مع أنه يحتمل أن بعض منازل بني حارثة كانت بالموضع الذي ذكره المطري أيضاً .

قال ابن زبالة : وابتنوا بها — أي بدارهم الثانية — أطا يقال له « الريان » عند مسجد بني حارثة كان لبني مجذعة بن حارثة ، وسبب خروج بني حارثة من دار بني عبد الأشهل حرب كانت بينهم وبين بني عبد الأشهل . ووالى بنو ظفر بني عبد الأشهل ، ثم هزمهم بنو حارثة وقتلوا سمالك بن رافع وكان باغياً ، قتله مسعود أبو محيصة الحارثي ، وظفرت بهم بنو حارثة فأجلوهم أولاً ؛ فلحقوا بأرض بني سليم ، فسار حضير بن سمالك بنى سليم حتى قاتل بني حارثة ، فقتل منهم ، واشتد عليهم الحصار بأطعمهم المسير المتقدم ذكره في دار بني عبد الأشهل . فسارت بنو عمرو بن عوف وبنو خطمة إليهم ، وقالوا : إما أن تخلصوا سبيلهم ، وإما أن تأخذوا عقل^(۱) صاحبكم ، وإما أن تصالحوهم ، فاختاروا أن يخلصوهم ، فخرج بنو حارثة إلى خيبر فكانوا بها قريباً من سنة ، ثم رقب لهم حضير وطلب صلحهم ، فخرجت الشفراء في ذلك حتى اصطلحوا ، وأبى بنو حارثة أن ينزلوا دارهم مع بني عبد الأشهل ، ونزلوا الدار المعروفة بهم اليوم ، اهـ .

ونزل بنو ظفر وهو كعب بن الخزرج الأصغر بن عمرو بن مالك بن الأوس دارهم شرق البقيع عند مسجدهم : أي المعروف بمسجد البغلة بجوار بني عبد الأشهل .

(۱) العقل : الدية ، سموها بذلك لأنها كانت تؤخذ من الإبل ونحوها ، وكانت قبيلة القائل تأتي بالإبل فتعقلها بفناء دار القليل أو حولها ، ومعنى تعقلها تربطها

وذكر ابن حزم في الجمهرة أن بطون بني عمرو بن مالك بن الأوس [وهم]^(١) النبيت : منهم ظفر ، وحارثة ، وبنو عبد الأشهل ، وبنو زَعُورَا بن جُشَم ابن الحارث أخى عبد الأشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك ابن الأوس .

ولم يذكر ابن زبالة بنى زعورا في هذه البطون ، بل ولا في بطون الأنصار كلها .

وذكر ابن حزم أن منهم مالك بن التيهان وبنى أوس بن عتيك وغيرهم ، وقال في موضع آخر : فولد جُشَم عبد الأشهل ، بطن ضخم ، وزعورا بطن ، وهم أهل رائج .

ونزل بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس قباء ؛ فاستنوا أطما يقال له « الشَّنِيف » عند دار أبي سفيان بن الحارث بين أحجار المراء وبين مجلس بنى الموالى ، كان لبني ضبيعة بن زيد بن مالك بن عوف ، وأطما في دار عبد الله بن أبي أحمد ، كان لكثوم بن الهدم من بنى عبید بن زيد بن أظلم أخى بنى عبید ابن زيد بن مالك ، وأطما يقال له واقم كان بقاء لأحيحة بن الجلاح الجحجبي ثم صار لبني عبد المنذر بن رفاعه في دية جدهم رفاعه بن زرب بن زيد بن أمية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف ، وله يقول كعب بن مالك :

فلا تهذد بالوعيد سَفَاهَةً وأوعِدْ شُنَيْفًا إن عصيت وواقما

وكان في رحبة بنى زيد بن مالك بن عوف أربعة عشر أطما يقال لها الصَّيَاصى ، وكان لهم أطم بالمسكبة شرقى مسجد قباء ، وأطم يقال له « المستظل » كان موضعه عند بئر غرس ، كان لأحيحة ثم صار لبني عبد المنذر في دية جدهم رفاعه ، ثم خرجت بنو جحجبا بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف من قباء حين قتلوا

(١) هذه الكلمة عن جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص ٣١٩) وظفر عنده ابن الخزرج بن عمرو بن مالك ، واسمه كعب ، وأما جشم وحارثة فمن ولد الحارث ابن الخزرج ، وزعورا وعبد الأشهل ابنا جشم بن الحارث بن الخزرج

رفاعة بن زر وغنما أخا بني عمرو بن عوف فسكنوا العصبه ، وهى غربى مسجد
قباء ، قال سعد بن عمرو الجحجبي لبشر بن السائب : تدرى لم سكنوا العصبه ؟
قال : لا ، قال : لأننا قتلنا قتيلا منكم فى الجاهلية ، فقال بشر : والأمانة لوددت
أنكم قتلتم منا آخر وأنكم وراء عَيْر ، يعنى الجبل الذى غربى العصبه .

وابتنى أحيحة بن الجلاح بالعصبه أطما يقال له «الضحيان» وهو الأطم الأسود
الذى بالعصبه ، وكان عرضه قريباً من طوله ، بَنَاهُ أُولَا مِنْ بَثْرَةِ بِيضَاءُ^(۱)
فسقط ، يعنى من حجارة الحرار البيض . وكان يرى من المكان البعيد ، وفيه
يقول أحيحة :

وَقَدْ أَعَدَدْتُ لِلْجِدْثَانِ حَصْنًا لَوْ أَنَّ الْمَرْءَ تَنَفَّعَهُ الْعَقْلُ—وَل

طَوِيلَ الرَّأْسِ أَبْيَضَ مُشْمَخِرٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَيْفٌ صَقِيلٌ

وابتنوا هم وبنو مجدعة أطما يقال له «الهجيم» عند المسجد الذى صلى فيه
النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم أن بنى أنيف كانوا مع اليهود بقباء ، وأنهم
حى من بلى ؛ فذلك لم يذكر أن زبالة منازلهم هنا ، وسيأتى فى المساجد عن
المطرى وتبعه المجد أن بنى أنيف بطن من الأوس ، وأن منازلهم كانت بين
بنى عمرو بن عوف وبين العصبه ، ومأخذ المطرى فى نسبتهم إلى الأوس قول أهل
السيرة فى المغازى : شهد من الأوس كذا وكذا رجلا ، ثم يذكر فىهم بعض
بنى أنيف ؛ وذلك لأنهم حلفاء الأوس ، لا لأنهم منهم ، نبه عليه ابن إسحاق
حيث قال : شهد بداراً من الأوس بضع وستون رجلا ، فذكر من بنى جحجبا
جماعة ، ثم قال : ومن حلفائهم من بنى أنيف أبو عقييل ، ثم نسبته إلى بلى بن عمرو
ابن الحاف بن قضاة ، لكن استفدنا من كلام المطرى أن منازلهم بين العصبه
وقباء ، ويستفاد مما قدمناه عن ابن زبالة أن من منازلهم بئر عذق وما حولها والمال
الذى يقال له القائم ، وذلك معروف بقباء .

(۱) بَثْرَةُ بِيضَاءُ : أى حجارة بيض ، كما سيصرح به .

وخرجت بنو معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف فسكنوا دارهم التي وراء بقيع الغرقد المعروفة بهم ، ولا يشكل عليه ما سيأتي في دور بني النجار من الخزرج من أن حُدَيْلَةَ^(١) لقب لمعاوية بن عمرو بن مالك بن النجار للاشتراك في الاسم ، ولكن الشهرة ببني معاوية لهؤلاء ، وأولئك يعرفون ببني حُدَيْلَةَ^(١) ، وقد اشتبه ذلك على المطري فقال في مسجد بني معاوية - وهو مسجد الإجابة - مالفظه : هو مسجد بني معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ، ثم قال في دور بني النجار : إن بني حُدَيْلَةَ^(١) هم بنو معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار ، ودارهم عند بئر حاء . ثم قال : ودار بني دينار بين دار بني معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار أهل مسجد الإجابة ، ودار بني حُدَيْلَةَ^(١) ، فذكر أولاً أنهم هم ، ثم غاير بينهما ، والصواب المغيرة ، وأن بني حُدَيْلَةَ^(١) من الخزرج ، وبني معاوية من الأوس ، وقد صرح بتغايرهما أهل السير ، ونسبوهما كما ذكرنا ، ومسجد الإجابة لبني معاوية من الأوس ، والذي أوقع المطري في هذا ما سيأتي عن عياض في بني حُدَيْلَةَ^(١) إن شاء الله تعالى .

ومن بني معاوية هؤلاء حاطبُ بن قيس ، وفيه كانت حرب حاطب كما ذكره ابن حزم .

وخرجت بنو السميعة - وهم بنو لوزان بن عمرو بن عوف - فسكنوا عند زقاق ركيح ، وابتنوا أطماً يقال له « السعدان » وموضعه في الربيع (حائط هناك) ذكره ابن زبالة ، ولعل الربيع هو الحديقة المعروفة اليوم بالربيع ، وكان بنو السميعة يدعون في الجاهلية بنو الصماء ، فسماهم النبي صلى الله عليه وسلم بني السميعة . ونزل بنو واقف والسلم ابنا امرئ القيس بن مالك بن الأوس عند مسجد الفضيل ، فكانا هنالك وولدهما .

وابتني بنو واقف أطماً يقال له « الزيدان » وله يقول قيس بن رفاعه :

(١) وقع في المطبوعات « بنو جديلة » بالجيم - في كل المواضع ، وهو كذلك في الخلاصة ، والصواب أنه بالحاء المهمل المضمومة ، على زنة المصغر

وكيف أرجو لذيد العيش بعدهم وبعد من قد مضى من أهل زيدان
كان لهم عامة موضعه في قبلة مسجد الفضيخ ، وأطما كان موضعه عند بئر
عائشة الواقفي ، وغير ذلك ، ثم كان بنو السلم وواقف كلام ، فلطم واقف وهو
الأكبر عين السلم - وكان شرساً - خلف لا يساكنه ، فنزل السلم على بنى عمرو
ابن عوف ، فلم ينزل ولده فيهم ، (ومن بقيتهم سعد بن خيثمة بن الحارث) ثم
انقضوا سنة تسع وتسعين ومائة .

وكان لبنى السلم حصن شرقي مسجد قباء ، ذكره ابن زبالة ، وقد ذكر ابن
حزم انقراض جميع بنى السلم ، قال : وكان قد بلغ عددهم في الجاهلية
ألف مقاتل .

قلت : وفي قبلة مسجد الفضيخ عند الحديفة المعروفة بالأشرفية والسابور آثار
آطام وقرية وحصن عظيم ، فهي منازل بنى واقف .

ونزل بنو وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس في
دارهم المعروفة بهم ، وابتنوا أطما يقال له « الموجا » كان موضعه في مسجد بنى وائل
ونزل بنو أمية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس في
دارهم المعروفة بهم التي بها الكبا يمر فيها سيل مذنيب بين بيوتهم ثم يلتقي هو
وسيل بنى قريظة بفضاء بنى خطمة ، ويؤخذ مما ذكره ابن زبالة في منازل بنى
النضير بالنواغم قرية منزل بنى أمية بن زيد منهم .

وفي صحيح البخاري عن عمر رضي الله عنه قال : كنت أنا وجار لي من
الأنصار في بنى أمية بن زيد ، وهي من عوالى المدينة ، تتناوب النزول على رسول
الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن زبالة : وابتنوا أطما يقال له « أطم العذق » كان عند الكبا المواجهة
مسجد بنى أمية ، وأطما كان في دار آل رُوَيْفَع التي في شرقي مسجد بنى أمية .
ونزل بنو عطية بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك بن الأوس

بَصْفَنَةَ فوق بنى الحُبْلَى ، وصفنة - كجفنة - بإهمال أوله سميت بذلك لارتفاعها عن السيول فلم تشرب بشيء منها ، وابتنوا فيها أطما اسمه «شاس»^(١) «كان لشاس بن قيس أخى بنى عطية بن زيد ، وهو الذى على يسارك فى رَحْبَةِ مسجد قباء مستقبل القبلة ، ووائل وأمّية وعطية بنو زيد هم الجمادِرة»^(٢) ، سموا به لأنهم [كانوا] إذا أجاروا جارا قالوا له : جعدر حيث شئت : أى اذهب حيث شئت ، فلا بأس عليك ، فقال الرمق بن زيد :

وإن لنا بين الجوارى وليدة مقابلة بين الجمادر والكسر
متى تدعُ فى الزيد بن زيد بن مالك وزيد بن قيس تأتها عزّة النصر
قالوا : والكسر أمّية وعبيد وضبيعة بنو زيد بن مالك بن عوف ، كان يقال لهم كسر الذهب وذلك أراد الرمق بقوله « والكسر » كذا قاله ابن زبالة ، ونقل رزين أن الجمادِرة الأوس كلهم فإنه قال فيما نقل عن الشرقى : فولد الأوس مالكا ومن مالك قبائل الأوس كلها ، فولد لمالك عمرو وعوف ومرة ، ويقال لهم : أوس الله ، وهم الجمادِرة ، سموا بذلك لقصر فيهم ، اهـ .

قلت : وسيأتى عن ابن إسحاق فى آخر الفصل السابع ما يقتضى أن أوس الله هم بنو أمّية بن زيد ووائل وواقف وخطمة ، والله أعلم .

ونزل بنو خطمة - وخطمة هو عبد الله بن جُشم بن مالك بن الأوس - دارهم المعروفة بهم ، وابتنوا بها الآطام ، وغرسوا النخيل ، فابتنوا بها أطما يقال له « صع ذرع » ليس فيه بيوت ، جعلوه كالحصن الذى يتحصنون فيه للقتال ، وكان لخطمة كلها ، وكان موضعه عند مھراس بنى خطمة ، وإنما سمي « صع ذرع » لأنه كان عند بئر بنى خطمة التى يقال لها ذرع ، وابتنى أمّية بن عامر بن خطمة أطما كان موضعه فى مال الماجشون الذى يلى صدقة أبان بن أبى حدير .

(١) فى خلاصة الوفا « شاش » بشينين معجمتين

(٢) فى المطبوعات « الجمادِرة » بالذال المعجمة ، وفى القاموس « والجمادِرة :

بنو مرة بن مالك بن الأوس » بالذال مهملة

قلت : والظاهر أنه المسمى اليوم « بالمجشونية » فإن اسمه الأصلي « الماجشونية »
على ما تقدم في تربة صُعب .

وقال المطري : منازل بني خطمة لا يعرف مكانها اليوم ، إلا أن الأظهر أنهم
كانوا بالعـوالى شرقى مسجد الشمس ؛ لأن تلك النواحي كلها ديار الأوس ،
وما سفلَ من ذلك إلى المدينة ديار الخزرج ، اهـ .

وفي قوله « وما سفل إلخ » نظر ، والذي يظهر أن أول منازل الخزرج في هذه
الجهة منازل بني الحارث كما سيأتى ، وفوقها بنو خطمة ، وسيأتى في وادى بُطحان
ووادى مهزور ما يؤيد ذلك .

وكان بنو خطمة متفرقين في أطامهم ، لم يكن في قصبة دارهم منهم أحد ،
فلما جاء الإسلام اتخذوا مسجدهم ، وابتنى رجل منهم عند المسجد بيتاً سكنه ،
فكانوا يسألون عنه كل غداة مخافة أن يكون السبع عدّاً عليه ، ثم كثروا في
الدار حتى كان يقال لهم غزاة ، تشبيهاً بغزاة الشام بن كثرة أهلها
وقد انتهى الكلام في منازل الأوس وهذه منازل الخزرج .

قال ابن زبالة : ونزل بنو الحارث بن الخزرج الأَكبر بن حارثة وهم بلحارث
دارهم المعروفة بهم بالعـوالى : أى شرقى وادى بُطحان وتربة صُعب ، يعرف
اليوم بالحارث بإسقاط بنى ، وابتنوا أطاماً كان لبنى امرى القيس بن مالك ،
وخرج جشم وزيد ابنا الحارث بن الخزرج وهما التوءمان فسكنا السنج ، وهذا هو
المراد بقول ابن حزم : كان سكنى بنى الحارث بالسُّنح^(۱) على ميل من مسجد الرسول
صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

قال ابن زبالة : وابتنوا أطاماً يقال له « السُّنح^(۱) » وبه سميت الناحية ، ويقال

(۱) قال ياقوت (۱۴۸/۵) « سنج : بضم أوله وسكون ثانية وآخره حاء
مهملة ، إحدى محال المدينة ، كان بها منزل أبى بكر الصديق حين تزوج مليكة —
وقيل حبيبة — بنت خارجة بن زيد بن زهير بن مالك بن امرى القيس » اهـ

بل اسمه « الريان » انتهى . وبالسُّنْح كان منزل أبي بكر الصديق رضي الله عنه
بزوجته بنت خارجه بن زيد ، قاله عياض ، قال : وهو منازل بني الحارث بن
الخزرج بعوالي المدينة ، وبينه وبين منزل النبي صلى الله عليه وسلم ميل ، انتهى .
فكان السُّنْح - وهو كما قال عياض وغيره بالسَّين المهملة ثم النون - بالقرب من
منازل بني الحارث بالعوالي^(١) . وخرج عتبة بن عمر بن خديج بن عامر بن جُشَم بن
الحارث بن الخزرج فسكن الشوط وكوم الكومة يقال لها « كومة أبي الحمراء »
ثم رجع في السُّنْح . وخرجت بنو خُدْرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج حتى
سكنوا الدار التي يقال لها « جرار سعد » مما يلي سوق المدينة ، وخرجت بنو الأجر
وهو خُدْرة بن عوف بن الحارث بن الخزرج وهم بنو خُدْرة أخوة بني خُدْرة
فسكنوا دارهم المعروفة ببني خُدْرة ، وابتنوا أطما يقال له « الأجرد » وهو الأطم
الذي يقال لبئر البصة ، كان لمالك بن سنان جد أبي سعيد الخدري ، وذكر
ابن حزم للحارث بن الخزرج الأكبر ابناً اسمه الخزرج بن الحارث ، وقال فيه :
فولد الخزرج كعباً ، فسار بعض بنيهِ إلى الشام مع غسان ، فليس من الأنصار ،
ثم سمي مَنْ بقي منهم الأنصار .

ونزل سالم وغنم ابنا عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر الدار التي
يقال لها « دار بني سالم » على طرف الحرة الغربية غربى الوادى الذى به مسجد
الجمعة ببطن رانونا ، وابتنوا أطاما : منها « المزدلف » أطم عتبان بن مالك ، قاله
المطري ، وقال : المزدلف هو الأطم الذى بناه عتبان بن مالك ، كان لمالك بن
العجلان السالمى ، وله يقول مالك * إني بنيتُ للحروب المزدلف * ومنها
« الشماخ » كان خارجاً عن بيوت بني سالم من جهة القبلة ، ومنها أطم « القواقل »
وهو الذى فى طرف بيوت بني سالم مما يلي ناحية العصبة ، كان لبني سالم بن
عوف ، وتسميته بذلك يرجح ما ذكره ابنُ سيد الناس من أن القواقل^(٢) بنو غنم

(١) فى الخلاصة « أول العالية »

(٢) فى القاموس « القواقل : اسم أبى بطن من الأنصار لأنه كان إذا أتاه إنسان
يستجير به أو يثرب قال له : قواقل فى هذا الجبل وقدأمنت ، أى ارتقى ، وهم القواقلة »

وبنو سالم ابني عوف ، سموا بذلك لأنهم كانوا إذا أجاروا جارا قال له : قوئل
حيث شئت ، وأفهم سياق بعضهم أن القواقل بعض بني سالم بن غنم ، وهم
بنو الحبلى ، وما قدمناه هو الظاهر ؛ لما سيأتى فى خروجه صلى الله عليه وسلم من قباء
إلى المدينة . وقال ابن حزم : ولد عوف بن عمرو سالم بطن ، وغنم بطن ، وعز بطن ،
وهو قوئل ، وذكر من ولده عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة
ابن قوئل بن عوف بن عمرو .

ونزل بنو غصينة حى من كلى حلفاء لبني سالم عند مسجد بني غصينة .

ونزل بنو الحبلى — بلفظ المرأة الحبلى — واسمه مالك بن سالم بن غنم بن عوف بن
عمرو بن عوف بن الخزرج الأكبر الدار المعروفة بهم بين قباء وبين دار ابني الحارث بن
الخزرج التى شرقى وادى بطحان وصعيب ، كذا قاله المطرى ، وأظن مستنده
ما تقدم فى منازل الأوس من قول ابن زبالة : ونزل بنو عطية بن زيد بن قيس
بصفنة فوق بني الحبلى إلى آخره ، وقال ابن حزم : كانت دار بني الحبلى بين دار
بني النجار وبين بني ساعدة .

قلت : وسيأتى فى خروجه صلى الله عليه وسلم من قباء إلى المدينة ما يؤيده ،
وكذلك مروره صلى الله عليه وسلم بعبد الله بن أبيّ فى ذهابه لعيادة سعد بن عبادة ،
وما ذكره من أن الحبلى اسمه مالك بن سالم ذكره ابن زبالة ، وقال ابن هشام :
الحبلى سالم بن غنم بن عوف ، وإنما سمي الحبلى لعظم بطنه ، انتهى .

وذكر ابن حزم نحوه ، والظاهر أن الحبلى كان يطلق على سالم والد مالك
المذكور ، ثم اشتهر به ابنه هذا من بين بنيه ، وحيث قد يحمل ما تقدم عن ابن
زبالة فى نزول بني عطية بن زيد بصفنة فوق بني الحبلى ، على أن المراد دار سالم
ابن غنم فى دار بني سالم ؛ لكونه ذكر فى آطام بني الحبلى هؤلاء ما يوافق كلام
ابن حزم فى نزولهم قرب دار بني ساعدة ، فقال : وابتنوا آطاماً منها « مزاحم »
بين ظهران بيوت بني الحبلى ، وهو لعبد الله بن أبيّ بن سلول . ومنها أطم كان

بين مال عمارة بن نعيم البياضي وبين مال ابن زمانة . ومنها أطم كان في جوف بيوتهم . انتهى . وسيأتي في منازل بني ساعدة ذكر الحماسة ، وهي مذكورة في منازل بني كَيَاضة ، وقد صرح ابن حزم وغيره من أهل السير وعلماء النسب بأن عبد الله بن أبي من بني الحُبلي من الخزرج ؛ فالظاهر أن ما وقع للحافظ ابن حجر في حديث زوجة ثابت بن قيس بن شماس^(١) في الخلع من أن عبد الله بن أبي من بني مَغَالَة من بني النجار وَهُمْ . نعم داره غربي المسجد قريبة من دار بني مَغَالَة فيما يظهر . والله أعلم .

ونزل بنو سَلَمَة بن سعد بن علي بن أسد بن شاردة بن يزيد (بالثناة من فوق) بن جُشَم بن الخزرج الأكبر ما بين مسجد القبلتين إلى المذاد أطم بني حرام في سَنَد تلك الحرة ، وكانت دارهم هذه تسمى خُرْبِي . قال ابن زبالة : فسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلحة » كذا هو في نسخة ابن زبالة بالطاء ، ونقله عنه الزين المراغى أيضاً كذلك كما رأيت بخطه . ولعل الصواب ما ذكره المجد في تاريخه أن النبي صلى الله عليه وسلم سماها « صَلْحَة » بضم الصاد المهملة وسكون اللام ، وقال في قاموسه : خُرْبَا كحبل : منزلة كانت لبني سَلَمَة غَيْرَهَا صلى الله عليه وسلم وسماها صالحة .

ونزل بنو سواد بن غنم بن كعب بن سَلَمَة عند مسجد القبلتين إلى أرض ابن عبيد الديناري ، ولهم مسجد القبلتين ، قاله ابن زبالة ، وهو يرد ماسيأتي عن المطري وغيره من أن المسجد لبني حَرَام ، وابتنوا أطما يقال له « الأغلب » كان على المهد الذي عليه الأحجار التي يستريح عليها السقاؤون حين يُفِيضُونَ من زقاق رُومَة إلى بُطْحَان ، وأطما يقال له « خيط » في شرقي مسجد القبلتين على شرف الحرة وعند منقطع السهل من أرض بني سلمة ، وأطما يقال له « منيع » في يمانى مسجد القبلتين على ظهر الحرة يمين الحزن الذي في أرض ابن أبان أو دون ذلك قليلا .

(١) في المطبوعات « بن شماس » بشينين معجمتين - تطبيع

ونزل بنو عبید بن عدی بن غنم بن کعب بن سلمة عند مسجد الخربة إلى الجبل الذي يقال له الدويخل جبل بنی عبید ، ولهم مسجد الخربة ، وابتنوا « الأشنق » وهو المواجه لمسجد الخربة ، كان للبراء بن مفرور صخر بن حسان ابن سنان بن عبید ، وابتنوا « الأطول » عند قبلة مسجد الخربة أو عن يسارها . ونزل بنو حرام بن کعب بن غنم بن کعب بن سلمة عند مسجد بنی حرام الصغير الذي بالقاع بين الأرض التي كانت لجابر بن عتيك والأرض التي كانت لمعبد بن مالك ، وكانوا بين مقبرة بنی سلمة إلى المذاد ، والمذاد : هو الذي يقول له كعب بن مالك :

فليأت مأسدةً تسن سـيوفها بين المذاد وبين جزع الخندق وهو أطم لهم سميت به الناحية ، وابتنوا أطما يقال له « جاعس » كان في السهل بين الأرض التي كانت لجابر بن عتيك وبين العين التي عملها معاوية بن أبي سفيان ، كان لعمر بن الجُمُوح جد جابر بن عبد الله بن عمرو . قلت : وهذه العين لعلها التي ذكر ابن النجار أنها تأتي إلى النخل الذي بأسفل المدينة حوالى مسجد الفتح ، يعنى فى غربيه ، ويعرف ذلك الموضع بالسَّيِّح — بالسَّين المهملة والمثناة التحتية — كما قال المطري ، والله أعلم .

وابتنى بنو مر^(۱) بن كعب بن سلمة — وهم حلفاء بنی حرام — أطما يقال له « أخنس » وهو الأسود القائم فى بنی سلمة فى غربى الحائط الذى كان لجابر بن عتيك مما يلي جبل بنی عبید ، ذكره ابن زبالة .

وقوله « عند مسجد بنی حرام الصغير » يفهم أن لهم مسجداً آخر كبيراً ، وهو الآتى فى منزلهم الثانى بشعب سلع ، وسيأتى فى المساجد وصف مسجد بنی حرام الذى صلى فيه النبى صلى الله عليه وسلم بأنه بالقاع ، وأنه لم يصل فى مسجدهم الأكبر . وكل هؤلاء بنو سلمة ، وكانوا بهذه الدور ، وكلتهم واحدة ، وملكوا عليهم

(۱) فى المطبوعات كلها « بنو مري بن كعب » تطبيع

أمة بن حرام ، فلبث فيهم زماناً حتى هلك رجل من بني عبيد ذو أموال كثيرة ، له ولد واحد اسمه صخر ، فأراد أمة أن ينزع طائفة من أمواله فيقسمها في بني سلمة ، فعظم ذلك على صخر ، وشكا ذلك على بني عبيد وبنو سواد ، وقال : إن فعل أمة ذلك لأضر بنه بالسيف ، وسألهم أن يمنعوه إن هو فعل ، فأطاعوا له ، فلما فعل أمة ذلك ضربه صخر فقطع حبل عاتقه ، وقامت دونه بنو عبيد وبنو سواد ، فنذر أمة أن لا يؤويه ظل بيت ماعاش حتى يقتل بنو سلمة صخرأ أو يأتوه به فيرى فيه رأيه ، وجلس أمة عند الضرب الذي فوق مسجد الفتح مما يلي الجرف في الشمس ، فمرت به وليدة خطابة فقالت : مالك يا سيدي هنا في الشمس ؟ فقال :

إن قومي أجمعوا لي أمرهم ثم نادوا لي صخرأ فضرب
إني آليت لا يستترني سقف بيت من حر وروكبت
أبدا مادام صخر آمناً بينهم يمشي ولا يخشى العطب

فذهبت الجارية ، فأخبرتهم ، فربطوا صخرأ ثم أتوه به ، فعفا عنهم وأخذ الذي كان يريد أن يأخذ من أمواله ؛ فهذا خبر ما دخل بين بني سلمة .

وروى ابن شبة عن جابر بن عبد الله أن بني سلمة قالوا : يا رسول الله ، نبيع دورنا ونتحول إليك ؛ فإن بيننا وبينك واديا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اثبتوا فإنكم أوتادها ، وما من عبد يخطو إلى الصلاة خطوة إلا كتب الله له أجراً » .

وروى أيضاً عن يحيى بن عبد الله بن أبي قتادة قال : شكا أصحابنا - يعني بني سلمة - وبنو حرام - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن السبيل يحول بينهم وبين الجمعة ، وكانت دورهم مما يلي نخيلهم ومزارعهم في مسجد القبلتين ومسجد الخربة ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم « وما عليكم لو تحوّلتم إلى سفح الجبل » يعني سلماً ، فتحولوا ؛ فدخلت حرام الشعب^(۱) ، وصارت سواد وعبيد إلى السفح .

(۱) قال المؤلف في الخلاصة : والمعروف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم « اثبتوا فإنكم أوتادها » وإنما نقل بني حرام إلى الشعب المعروف بهم عمر بن الخطاب اهـ

قلت : وشعب بنی حرام معروف بسَلْع ، وهناك آثار منازلهم وآثار مسجدهم في غربي جبل سَلْع على يمين السالك إلى مساجد الفتح من الطريق القبلية ، وعلى يسار السالك إلى المدينة وعلى مقربة من محاذاته في جهة المغرب حصن خل .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن جابر بن عبد الله قال : كان السيلُ يحول بين بنی حرام وبين مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنقلهم عمر بن الخطاب إلى الشعب ، وكلمَ قوما كانوا فيه من أهل اليمن يقال لهم بنو ناغضة ، فانتقلوا إلى الشعب الذي تحت مسجد الفتح ، فأثارهم هناك ، واشترت بنو حرام غلاما روميا من أعطياتهم ، وكان ينقل الحجارة من الحرة وينقشها ، فبنوا مسجدهم الذي في الشعب وسقفوه بخشب وجريد ، وكان عمر بن عبد العزيز زاد فيه مداما كين من أعلاه ، وطابق سقفه ، وجعل فيه زيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وآثار خرز أساطينه وما تكسر منها موجود اليوم فيه ، يعرف محله بالشعب المذكور .

وقد روى المجد في فضل المساجد الخبر المتقدم ، إلا أنه قال : وجعل فيه زيت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : والذيت الساج الذي يظهر على الحائط ، انتهى . ولم يضبطه غير أنه بالذال في كتابه ، والذي في كتاب ابن زبالة ويحيى ما قدمناه ، والله أعلم .

ونزل بنو بياضة وزريق ابنا عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ابن جُشَم بن الخزرج الأكبر ، وبنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ، وبنو عذارة^(١) وهم بنو كعب بن مالك بن غضب ، وبنو اللين وهم بنو عامر بن مالك ابن غضب ، وبنو أجدع^(٢) وهم بنو معاوية بن مالك بن غضب دار بني كياضة .

(١) في الخلاصة « بنو عذارة »

(٢) في الخلاصة « وبنو جدع » بغير ألف هنا ، وبألف فيما يأتي .

قال المطري : فيما بين دار بنى سالم بن عوف بن الخزرج التي عند مسجد الجمعة إلى وادي بَطْحَان قبليّ دار بنى مازن بن النجار .

قلت : الذي يترجّح عندي أن دارهم كانت في شامي دار بنى سالم بن عوف وقبلي دار بنى مازن ، ممتدة في الحرة الغربية ، حتى إن في كلام ابن زباله ما يقتضي أن بعض منازلهم تمتد إلى منازل بنى ساعدة لما سذكروه .

وابتنوا بدارهم الآطام ، وروى ابن زباله أنه كان بدارهم تسعة عشر أطمًا ، وأن الذي أحصاه لبنى أمية بن عامر بن بياضة خاصة ثلاثة عشر أطمًا : منها أطم أسود في يمانى أرض فراس بن ميسرة ، كان في الحرة ، ومنها « عقرب » كان في شامي المزرعة المسماة بالرحابة في الحرة على الفقارة ، ومنها « سويد » كان في شامي الحائط الذي يقال له الحماسة ، وأصاحبه كانت الحماسة ، وسيأتي ذكر الحماسة في منازل بنى ساعدة ، لكن يبعد أن يكون هي المراد هنا ، ومنها « اللواء » كان موضعه في حد السرارة بينه وبين زاوية الجدار الشامي الذي يحيط على الحماسة عشرون ذراعًا ، ومنها أطم كان في السرارة ، والسرارة : ما بين أرض ابن أبي قليب إلى منتهى الحماسة ، وما بين الأطم الذي يقال له اللواء إلى الجدار الذي الذي يقال له بيوت بنى بياضة ، والجدار الذي بناه زياد بن عبيد الله لبركة السوق وسط السرارة ، قاله ابن زباله ، وهو يقتضي أن السرارة قرب سوق المدينة ، ويؤيده ذكر الحماسة في منازل بنى ساعدة ، لكن الظاهر أن المراد ببركة السوق هنا بركة كانت مما يلي سيل بَطْحَان ورانونا ؛ لأن ابن شَبَّه قال في سيل رانونا : إنه يقترب بذي صلب ، يعني موضع مسجد الجمعة ، ثم يستبطن السرارة حتى يمر على قعر البركة ، ثم يفترق فرقتين ، إلى آخر ما سيأتي عنه .

ونقل رزين أن السرارة بين بنى بياضة والحماسة . ثم ذكر ابن زباله بقية آطامهم ، وذكر ما يقتضي أن ما حول السرارة هو أقصى بيوت بنى بياضة .

ثم قال : وابتنى بنو حبيب بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج الأظم لدى في أدنى بيوت بنى بياضة الذى دونه الجسر الذى عند ذى ريش .
ثم قال : فلبث بنو غضب بن جشم بن الخزرج - أى الفرق المذكورين كلهم - في دار بنى بياضة ، وأمرهم جميعاً ، ثم إن زريق بن عامر هلك فأوصى بينه إلى عمه حبيب بن عبد حارثة ، فكان حبيب يكلفهم النصح بأيديهم ، فلما اشتد عليهم عروا عليه فقتلوه ، فحلف بنو حبيب بنى بياضة على نصرهم على بنى زريق . فخافت بنو زريق أن يكثروهم^(۱) . وكانت بنو بياضة حينئذ أثرى من بنى زريق ، فخرجوا من دار بنى بياضة حتى حلوا دارهم المعروفة بهم قبل المصلى وسور المدينة موجود اليوم وداخله بالموضع المعروف بذروان وما والاه ، وابتنوا آطاما منها أطم في زاوية دار كبير بن الصلت بالمصلى ، وأطما يقال له « الريان » عند سقيفة آل سراقبة التى يقال لها « سقيفة الريان » وأقام بنو عمرو بن عامر بن زريق مع بنى بياضة ، ولهم الأظم الذى في شامى أرض فراس بن ميسرة في أدنى بيوت بنى بياضة مما يلي السبخة ، فلبثوا هناك حتى انتقل رافع بن مالك هو وولده قبيل الإسلام فسكنوا طرف السبخة ما بين الأساس إلى طرف السبخة إلى الدار التى فيها يسكن إسحاق بن عبيد بن رفاع ، وكان يقال لرافع بن مالك « الكامل » لأن أهل الجاهلية كانوا يقولون لمن كان كاتباً شاعراً « الكامل » وانتقل سائر بنى عمرو بن عامر بعد ذلك ، فاشترؤا من بنى عوف بن زريق بعض دورهم وحقوقهم ، وخرجت بنو عوف بن زريق قبيل الإسلام إلى الشام ؛ فيزعمون أن هنالك ناساً منهم ، ولبت بنو بياضة وبنو حبيب زماناً لا يقاتلون بنى زريق ، والرسل تجرى بينهم ، وبنو زريق يدعونهم إلى الصلح والدية ، وعرضوا على بنى حبيب أن يقطعوا لهم طائفة من ديارهم ، فقبلوا ذلك ، ووضعوا الحرب ، وسمى الزقاق الذى دفعوه لهم « زقاق الدية »

(۱) يكثروهم: يزيدوا عليهم في العدد .

وانتقل بنو مالك بن زيد بن حبيب بن عبد حارثة من بنى بياضة ، ونزلوا الناحية التي ودَّت بنو زريق ، وابتنوا أطمًا كان لبني المعلى بن لوزان ، وتحلف بنو الصَّمَّة ابن حارثة بن الحارث بن زيد بن حبيب في بنى بياضة ، فابثت بنو المعلى بن لوزان في بنى زريق ما شاء الله .

ثم إن عبيد بن المعلى قتل حصن بن خالد الزُرْقِيّ، فأراد بنو زريق أن يقتلوه، ثم بدا لهم أن يدّوا حصن بن خالد من أموالهم عن عبيد على أن يحالفهم بنو المعلى، ويقطعون حلفهم مع بنى بياضة ، ففعلوا ، وكان عامر بن زريق بن عبد حارثة والد زريق و بياضة لما حضرته الوفاة أوصى ابنه بياضة بالصبر في الحروب وشدة البأس ، وأوصاه بأخيه زريق وكان أصغرهما ، فقال بعض شعرائهم في ذلك :

* بالصَّـبْرِ أوصى عامرٌ بياضة *

ويقال للأوس والخزرج : أبطالهم فرّة وأسرعهم كرة بنو بياضة و بنو زريق و بنو ظفر ، وإن الأوس والخزرج لم يلتقوا في موطن قطُّ إلا كان لهذه القبائل فضل بين على غيرهم من بطون الأوس والخزرج .

وأما بنو عذارة^(١) بن مالك بن غضب بن جُشم فكانوا أقل بطون بنى مالك ابن غضب عددا ، وكانوا قوما ذوى شراسة وشدة أنفُس ، فقتلوا قتيلا من بعض بطون بنى مالك بن غضب إما من بنى اللين أو بنى أجدع ، وأبى أهل القتيل الدية ، وذهبوا إلى بنى بياضة ليعينوهم على بنى عذارة حتى يعطوهم القاتل ، فكلمت بنو بياضة بنى عذارة^(٢) في ذلك ، فأبوا أن يخلوا بينهم وبينه ، فأرادت بنو بياضة أن يأخذوه غنوة^(٣) ، فخرجوا من دار بنى بياضة حتى نزلوا قباء على بنى عمرو بن عوف فحالفوهم وصاهروهم ، وامتنعوا من بنى بياضة ، ثم إنه دخل بين بنى عذارة وبين بنى عمرو بن عوف قبيل الإسلام أمر ، فأجمعوا أن ينتقلوا من عندهم إلى بنى زريق ، وكرهوا أن يرجعوا إلى بنى بياضة ، فجاؤهم وذكروا لهم

(١) في الخلاصة بنو غدارة (٢) غنوة - بفتح العين المهملة وسكون النون - أى قوة وغلبة

ذلك ، فَلَقَّوْهُمْ بِمَا يُحِبُّونَ ، وَسَدَّدُوا رَأْيَهُمْ ^(١) ، وَأَتَوْا أَبَا عُبَيْدَةَ سَعِيدَ بْنِ عَثْمَانَ الزُرْقِيَّ فَذَكَرُوا لَهُ ذَلِكَ ، فَرَحَّبَ بِهِمْ وَذَكَرَ شَرَفَهُمْ وَفَضْلَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : إِنِّي أَشِيرُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَرْجِعُوا إِلَى أَخْوَالِكُمْ — يَعْنِي بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ — وَلَا تَنْتَقِلُوا إِلَى بَنِي زُرَيْقٍ ، فَإِنْ فِي أَخْلَاقِكُمْ شَرَّاسَةٌ وَفِي أَخْلَاقِ بَنِي زُرَيْقٍ مَثَابَةٌ ، فَتَفَرَّقُوا عَنْ رَأْيِهِ ، فَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ إِلَى أَنْ فَرَضَ الْمَهْدِيُّ لِلْأَنْصَارِ سَنَةً سِتِينَ وَمِائَةً ، فَانْتَقَلُوا بِدِيَارِهِمْ إِلَى بَنِي بَيَاضَةَ ، وَكَانَ بَطْنَانِ مِنْ بَطُونِ بَنِي مَالِكِ بْنِ غَضَبٍ مِنْ كَانَ بَدَارِ بَنِي بَيَاضَةَ — لَا نَدْرِي أَهْمَ مِنَ اللَّيْنِ أَمْ مِنْ أَجْدَعٍ — كَانَ بَيْنَهُمْ مِيرَاثٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَاشْتَجَرُوا فِيهِ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَقِيمُونَ فِيهِ عَلَى أَمْرٍ تَدَاعَوْا إِلَى أَنْ يَدْخُلُوا حَدِيقَةً كَانَتْ فِي بَنِي بَيَاضَةَ فَيَقْتُلُوا فِيهَا ، فَدَخَلُوا جَمِيعًا ثُمَّ أَغْلَقُوهَا ، فَاقْتُلُوا حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ عَيْنٌ تَطْرَفُ . فَسَمِيتَ تِلْكَ الْحَدِيقَةُ « حَدِيقَةُ الْمَوْتِ » وَكَانَ بَنُو مَالِكِ بْنِ غَضَبٍ سِوَى بَنِي زُرَيْقٍ أَلْفَ مُقَاتِلٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَمَّا بَنُو أَجْدَعٍ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَأَمَّا بَنُو اللَّيْنِ فَكَانَ بَقِيَ مِنْهُمْ رَجُلَانِ ثُمَّ انْقَرَضَا لَا عَقِبَ لِهَمَا

وَذَكَرَ ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَبِيبٍ بْنَ عَبْدِ حَارِثَةَ بْنَ مَالِكِ بْنِ غَضَبٍ الْمُتَقَدِّمَ ذَكَرَ بَنِيهِ كَانَ لَهُ أَخٌ ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَبِيبٍ ، وَأَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَبِيبٍ هَذَا وَلَدُ ^(٢) أَبِي جَبِيلَةَ الْغَسَّانِي الَّذِي جَلَبَهُ مَالِكُ بْنُ الْعَجْلَانِ لِقَتْلِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ كَمَا قَدَّمْنَا الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَنَزَلَ بَنُو سَاعِدَةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ الْخَزْرَجِ الْأَكْبَرِ مُفْتَرِقِينَ فِي أَرْبَعِ مَنَازِلَ : فَنَزَلَ بَنُو عَمْرٍو وَبَنُو ثَعْلَبَةَ ابْنَا الْخَزْرَجِ بْنِ سَاعِدَةَ دَارَ بَنِي سَاعِدَةَ الَّتِي بَيْنَ السُّوقِ — أَيْ سِوَى الْمَدِينَةِ — وَبَيْنَ بَنِي ضَمْرَةَ ؛ فَهِيَ فِي شَرْقَى سِوَى الْمَدِينَةِ مِمَّا يَلِي الشَّامَ . وَقَالَ الْمَطْرِيُّ : قَرْيَةُ بَنِي سَاعِدَةَ عِنْدَ بَثْرَ بَضَاعَةَ ، وَالْبَثْرُ وَسَطُ بَيْوتِهِمْ . قَالَ ابْنُ زُبَالَةَ : فَابْتَنَوْا أَطْمًا يُقَالُ لَهُ « مُعْرَضٌ » فِي الدَّارِ الْمُوَاجِهَةِ مَسْجِدِ بَنِي سَاعِدَةَ ، وَهُوَ

(١) سَدَّدُوا رَأْيَهُمْ : صَوَّبُوهُ (٢) فِي الْمَطْبُوعَاتِ « وَالِدُ أَبِي جَبِيلَةَ — إِنْخ » تَطْبِيعُ

آخر أطمُ بنى بالمدينة ، وقدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يبنونه ، فاستأذنوه في إتمامه ، فأذن لهم فيه ، وله يقول شاعرهم :

ونحن حَمِينًا عن بُضَاعَةٍ كُلِّهَا ونحن بَنِينًا معرضًا فهو مُشْرِفُ
فأصبح معموراً طويلاً فِدَى لَهُ وتحرب أطام بها وتصفصف
وأطماً في دار أبي دُجَانَةَ^(١) الصغرى التى عند بُضَاعَةٍ ، ونزلت بنوقشبة - واسم قشبة
عامر بن الخزرج بن ساعدة - قريباً من بنى حُدَيْلَةَ ، وابتنوا أطماً عند خوخة
عمرو بن أمية الضمري .

قلت : فمزلهم في شرقى بنى ضمرة ، والمنزل المذكور قبل ، والله أعلم .
ونزلت بنو أبي خزيمة بن ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة -
وهم رهط سعد بن عبادة الدار التى يقال لها جرارُ سعدٍ وهى جرار كان يسقى
الناس فيها الماء بعد موت أمه . قال ابن زبالة : عرض سوق المدينة ما بين المصلى
إلى جرار سعد بن عبادة .

قلت : فهى مما يلي السوق ، فإما أن يكون من جهة المشرق والمصلى حده
من جهة المغرب ، فيشهد ذلك لأنها الموضع المعروف اليوم بين أهل درب السويقة
بسقيفة بنى ساعدة ، ويكون إطلاق السقيفة على ذلك المحل صحيحاً ، لا كما قال
المطري : إنها بقرية بنى ساعدة عند بئر بُضَاعَةٍ ؛ لأن سعد بن عبادة لم يكن
هناك ، وإنما كان مع رهطه في منزلهم ، والسقيفة كانت عند منزله ، وإما أن
يكون جرارُ سعدٍ مما يلي السوق من جهة الشام ، ويكون المصلى حده القبلى ،
وهذا هو الأرجح ؛ لأن الجهة التى بالمشرق مما تقدم إنما هى من منازل بنى
زريق ، والله أعلم .

قال ابن زبالة : فابتنوا أطماً يقال له واسط ، وقد تقدم أن بنى خدادة نزلوا
بجرار سعد أيضاً ، فكانت منزلها ، وبنو خدادة من بنى الحارث بن الخزرج
كما تقدم ، فدارهم المرادة في حديث عبيدة سعد بن عبادة في بنى الحارث بن

(١) دجانة : بضم الدال ، واسم أبي دجانة سماك بن خرمة

الخزرج ، لا دار بنى الحارث المعروفة بهم لبعدها جداً عن منازل بنى ساعدة ، وليسوا قوم سعد إلا من حيث إن الكل من الخزرج .

وفى حديث عائشة فى الصحيح بعد قول عُرْوَة لها : ما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم جيران من الأنصار كانت لهم مناجح ، الحديث .

قال الحافظ ابن حجر فى بيان ذلك : جيرانه صلى الله عليه وسلم من الأنصار سعد بن عبادة وعبد الله بن عمرو بن حزم وأبو أيوب وسعد بن زُرارة ؛ فيبعد كون سعد بن عبادة فى دار بنى الحارث لعدّه فى الجيران ، ومأخذ الحافظ ابن حجر فى ذلك ما رواه ابن سعد عن أم سلمة قالت : كان الأنصار يُكثِرُونَ إِيَّاهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم : سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، وعمارة ابن حزم ، وأبو أيوب ، وذلك لقرب جوارهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى ، والله أعلم .

ونزلت بنو وقش وبنو عنان ابنا ثعلبة بن طريف بن الخزرج بن ساعدة الدار التى يقال لها « بنو ساعدة » ويقال لها أيضاً « بنو طريف » وهى بين الحمضة وجِرَّار سعد ، وسيأتى فى ترجمة الشوط ما يقتضى أن لبنى ساعدة منزلاً فى شامى مسجد الراية ، والظاهر أنه هذا المنزل ، والله أعلم .

ونزل بنو مالك بن النجار دارهم المعروفة بهم ، فابتنى بنو غنم بن مالك أطمأ يقال له « فويرع » وفى موضعه دار حسن بن زيد بن حسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ! .

قلت : وهى الدار المقابلة لدار جعفر الصادق التى فى قبلة المدرسة الشهابية ، كما سيأتى نقله عن ابن شبة .

وابتنى بنو مغالة - وهم بنو عدى بن عمرو بن مالك ، ومغالة أم عدى - أطمأ يقال له « فارع » وهو الأطم الذى يواجه دور بنى طلحة بن عبيد الله ، ودخل

فی دار [جعفر] بن یحیی بن خالد بن برمک ، وله يقول حسان بن ثابت :
أرقت لتوماض البروق اللوامع ونحن نشاوی بین سلع وفارع
قاله ابن زبالة .

وقال الزین المرافی : إن هذا الأطم كان لثابت والد حسان بن ثابت ، وإنه
دخل فی الدار المواجهة لباب الرحمة التي كانت دار عاتكة ، ومأخذه فی ذلك أن
دار عاتكة من جملة دار جعفر بن یحیی ، لكن سیأتی من كلام ابن زبالة ویحیی
عند ذكر أبواب المسجد أن دار جعفر بن یحیی دخل فیها بیت عاتكة وفارع أطم
حسان بن ثابت ، وینما محله هناك فی شامی الدار المذكورة ، أغنی دار عاتكة ،
وفارع هذا هو الأطم الذي كانت به صفیة عمة رسول الله صلى الله علیه وسلم يوم
الخنديق وعندها حسان .

وفی مسلم فی حدیث ابن صیاد « فوجده عند أطم بنی مغالة » .
قال عیاض : بنو مغالة كل ما كن علی یمینك إذا وقفت آخر البلاط
مستقبل المسجد النبوی .

وابتنی بنو حُدَیلة (بضم الحاء المهملة^(۱)) وهو — كما قال ابن زبالة وغيره —
لقب معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار أطما يقال له « مشعط » كان فی غربی
مسجدهم الذي يقال له « مسجد أبي » یعنی أبي بن كعب ، وفی موضعه بیت
يقال له « بیت أبي نبيه » وقد أسند ابن زبالة عقب ذكره الحدیث المتقدم « إن
كان الوباء فی شيء فهو فی ظل مشعط » وذكر ابن شبة قصر بنی حُدَیلة ، وقال :
بناه معاوية بن أبي سفيان رضی الله عنه لیكون حصناً ، قال : وله بابان : باب
شارع علی خط بنی حُدَیلة ، وباب فی الزاوية الشرقية الیمانية عند دار محمد
ابن طلحة التیمی ، وفی وسطه بئر حاء ، انتهى .

وقال عیاض فی المشارق : بئر حاء : موضع يعرف بقصر بنی حُدَیلة ، وقد قال
ابن إسحاق : بنو عمرو بن مالك بن النجار هم بنو حُدَیلة ، أي لأن حُدَیلة بطن

(۱) كذا وقع هنا وفيما يلي (ص ۲۱۲ س ۸) وضبطت فی الخلاصة بالجیم

منهم ؛ لما قدمناه من أنه لقب أبيهم معاوية بن عمرو بن مالك .
قلت : فليس بنو حُدَيْلَة هؤلاء بنى معاوية من الأوس أهل مسجد الإجابة
كما قدمناه ، ولكن الاشتراك في الاسم أوجب الوهم ، فقد وقع للقاضي عياض في
المشارك ما يخالف كلام عامة الناس ، فقال : قال الزبير : كل ما كان من المدينة عن
يمينك إذا وقفت آخر البلاط مستقبل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بنومغالة ،
والجهة الأخرى أى التى على يسارك بنو حُدَيْلَة ، وهم بنو معاوية وهم من الأوس .
قال الجوهري : هى قرية من قرى الأنصار ، قال القاضي : هم بطن من
الأنصار سميت جهتهم بهم ، وهم أيضاً بنو حُدَيْلَة (بحاء ودال مهملتين) وحُدَيْلَة
أهمهم ، انتهى .

والذى نقله غيره عن الزبير أن بنى حُدَيْلَة من بنى النجار من الخزرج ،
وبنو معاوية من الأوس غيرهم ، وقد قدمناه عن ابن زبالة شيخ الزبير ، وقد ذكر
ابن حزم فى الجمهرة معاوية من الأوس ، وذكر بنى حُدَيْلَة من الخزرج ، فقال :
وولد مالك بن النجار معاوية وأمه حُدَيْلَة فنسب إليها ، والظاهر أن قول القاضي
« وهم من الأوس » ليس من كلام الزبير فى هذا الموضع ، ولكن القاضي لما
رأى قوله « وهم بنو معاوية » ظن أنهم بنو معاوية من الأوس ، وهذا موجب
ما وقع للمطري من الخلط فى هذا المحل ، حيث غاير بينهما مرة وجعلهما متحدتين
أخرى ، ولا يصح الجمع بما ذكره المراجع من احتمال أن يكون بنو معاوية بطناً
أولخذاً من بنى حُدَيْلَة ؛ لما قدمناه .

وابتنى بنو مبدول^(۱) - واسمه عامر بن مالك بن النجار - أطماً يقال له « السلج »
وأطماً كان فى دار آل حُيَّ بن أخطب كان لبنى مالك بن مبدول ، وأطماً كان فى
دار سرجس مولى الزبير التى إلى بقيع الزبير كان لآل عبيد بن النعمان أخى
النعمان بن عمرو بن مبدول ، وبقيع الزبير ذكر فى أما كن يؤخذ منها أنه كان

(۱) وقع فى المطبوعات « مبدول » بالدال المهملة ، تطبيع

فی شرقی الدور التي تلی قبۃ المسجد النبوی إلى بنی زریق، وإلى بنی غنم، وإلى البقال^(۱) كما سیأتی .

ونزل بنو عدی بن النجار دارهم المعروفة بهم غربی المسجد النبوی ، علی ما قاله المطری ، وكان بها الأطم الذي فی قبلة مسجدهم ، وابتنوا أطمًا یقال له « أطم الزاهرية » امرأة سكنته كان فی دار النابغة عند المسجد الذي فی الدار .

ونزل بنو مازن بن النجار دارهم المعروفة بهم قبلی بئر البصة ، وتسمى الناحية اليوم أبو مازن ، غیّرَها أهل المدينة .

قال المطری : وابتنوا بها أطمین أحدهما یقال له « واسط » قلت : والذي یؤخذ من كلام ابن شبة الآتی فی منازل القبائل أن منازل بنی مازن كانت فی قبلة المدينة شرقی منازل بنی زریق قریبة منها ، والله أعلم .

ونزل بنو دینار بن النجار دارهم التي خلف بطحان المعروفة بهم ، وابتنوا أطمًا یقال له « المنیف » عند مسجدهم الذي یقال له مسجد بنی دینار ، قاله ابن زبالة ، وقال المطری فی بیان هذا المسجد : ودار بنی دینار بن النجار بین دار بنی حذیلة ودار بنی معاوية أهل مسجد الإجابة ، ودار بنی حذیلة عند بئرحاء ، اه ولا أدری من أين أخذ هذا ، وما ذكره ابن زبالة أقرب وأولی بالأعتماد لأمرٍ سند کرها فی بیان مسجدهم .

قال ابن زبالة : وزعم بنو دینار أنهم نزلوا أولا دار أبي جهم بن حذیفة العدوی ، وكانت امرأة منهم هنالك ، وكان لها سبعة إخوة ، فوقفت علی بئرهم بدار أبي جهم ومعها مدری لها من فضة فسقط منها فی البئر ، فصرخت بإخوتها ، فدخل أولهم یخرجه فأمر ، فاستغاث ببعض إخوته حتی دخلوا جميعًا فماتوا فی تلك البئر ، فهذه منازل بنی النجار .

قال المطری وتبعه من بعده : إن دار النابغة المتقدمة فی بنی عدی كانت غربی مسجد الرسول ، وهی دار بنی عدی بن النجار ، ومسجد الرسول صلی الله

(۱) البقال : بفتح الباء ، وتشدید القاف ، وهو اسم موضع

عليه وسلم وما يليه من جهة الشرق دار بنى غانم بن مالك بن النجار ، ودور بنى النجار بالمدينة وما حولها من الشمال إلى مسجد الإجابة ، والنجار : هو تيم الله بن ثعلبة ، وسمى بذلك لأنه ضرب رجلا فنجّره ، فقيل له : النجار ، وفي دور بنيه هؤلاء قال النبي صلى الله عليه وسلم «خير دور الأنصار بنو النجار ثم بنو عبد الأشهل» وهم من الأوس كما سبق . وفي رواية أخرى «ألا أخبركم بخير دور الأنصار؟ قالوا : بلى ، قال : بنو عبد الأشهل ، وهم رهط سعد بن معاذ ، قالوا : ثم من يارسول الله؟ قال : ثم بنو النجار» وراويهما واحد ، وقد صححنا ، فاختلف عليه ، وتقديم بنى النجار روى عن أنس من غير اختلاف عليه ، ولها مؤيدات أخرى ، وهم أخوال عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم^(۱) ، ولذلك نزل عليهم صلى الله عليه وسلم كما سيأتي ، ثم ذكر في الرواية المذكورة بعد بنى عبد الأشهل بنى الحارث ابن الخزرج أى الأكبر «ثم بنو ساعدة» وقال في هذه الرواية أيضا «وفي كل دور الأنصار خير» وكأن المفاضلة وقعت بحسب السبق إلى الإسلام ، وبحسب مساعيهم في إعلاء كلمة الله

قال ابن زبالة عقب ذكر جميع منازل الأنصار المتقدمة : ونزل بنو الشطبة حين قدموا من الشام ميطان ، فلم يوافقهم ، فتحولوا قريبا من جذمان ، ثم تحولوا فنزلوا براتج ، فهم أحد قبائل راتج الثلاث ، وقد ذكر راتج في منازل يهود فقال : وكان براتج ناس من اليهود ، وكان راتج أطا سميت به تلك الناحية ، ثم صار لبنى الجذماء ، ثم صار بعد لأهل راتج الذين كانوا حلفاء بنى عبد الأشهل ، وهو الذى يقول له قيس ابن الخطيم :

* ألا إن بين الشر عبي وراتج * البيت

وقد قدمنا عن ابن حزم أن أهل راتج هم بنو زعورا بن جشم أخى عبد الأشهل بن جشم ، وذكر أيضا أن من أهل راتج بنى سعد بن مرة بن مالك ابن الأوس .

(۱) ويقال إن عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم مدفون في «دار النابغة»

وقال المطري : راتج جبيل صغير غربى وادى بَطْحَان ، وبجنبه جبيل آخر صغير يقال له جبل بنى عبید ، انتهى . وسيأتى ما يَنَازِع فيه مع بيان أن راتجا فى ناحية مسجد الراية

الفصل السادس

فما كان بينهم من حرب بُعَاث

نقل رزين عن الشرقى أن الأوس والخزرج لبثوا بالمدينة ما شاء الله وكنتمهم واحدة ، ثم وقعت بين الأوس والخزرج حروب كثيرة حتى لم يُسَمَّع قطُّ فى قوم أكثرُ منها ولا أطول

الحروب
قبل بعث

أولها : حرب سُمَيْر ، وسببه رجلٌ من بنى ثعلبة كان حليفاً لمالك بن العَجْلَان ، قتله رجل من الأوس يقال له سُمَيْر بالمهمة مصغرا . ثم حرب كعب بن عمرو ، ثم يوم السَّراة ، وهو موضع بين بنى بَيَاضة والحماضة ، ثم يوم الديك ، وهو موضع أيضاً ، ثم حرب بُعَاث ، وهو كان آخرها ، قتل فيه مَرَاةُ الأوس والخزرج ورؤساؤهم .

قلت : فى كلام بعضهم أنه كان بين الأوس والخزرج وقائع من أشهرها يوم السَّراة ، ويوم فارع ، ويوم الفَجَّار الأول والثانى ، وحرب حضير بن الأسلت ، وحرب حاطب بن قيس ، إلى أن كان آخر ذلك يوم بُعَاث ، فقول الخطابى « يوم بعث يوم مشهور كانت فيه مَقْتَلَةٌ عظيمة للأوس على الخزرج ، وبقيت الحرب قائمة مائة وعشرين سنة إلى الإسلام على ما ذكره ابن إسحاق وغيره » مؤول بأن حروب الأوس والخزرج كلها قبل بُعَاث وبعده مكثت هذه المدة ، وإلا فهو مردود ، وسيأتى تعيين تاريخ يوم بُعَاث

سبب
حرب بعث

وكان سببه أن الحروب المتقدمة كلها كان الظَّفَرُ فى أكثرها للخزرج على الأوس ، حتى ذهبت الأوس لتحالف قُرَيْظَةَ ، فأرسلت إليهم ^(١) الخزرج : لئن

(١) إليهم : أى إلى بنى قريظة

فعلتم فأذنوا بحرب ، ففرقوا وأرسلوا إلى الخزرج : إنا لا نحالفهم ، ولا ندخل بينكم ، فقالت الخزرج لليهود : فأعطونا رهائن ، وإلا فلا نأمنكم ، فأعطوهم أربعين غلاماً من بينهم ، ففرقتهم الخزرج في دورهم ، فلما أيسست الأوس من نصرة اليهود حالفت بطوناً من الخزرج منهم بنو عمرو بن عوف ، وقال سائرهم : والله لا نصالح حتى ندرك ثأرنا ، فتقاتلوا ، وكثر القتلى في الأوس لما خذلهم قومهم ، وخرج سعد بن معاذ الأشهلي ، فأجاره عمرو بن الجموح الحرامى ، فلما رأت الأوس أن أمرهم إلى قل عزموا على أن يكونوا حلفاً للخزرج في المدينة ، ثم استمروا في أن يحالفوا قريشاً ، فأظهروا أنهم يريدون العمرة ، وكان بينهم أن من أراد حجاً أو عمرة لم يعرض له ، فأجار أموالهم بعدهم البراء بن معرور ، فأتوا مكة فحالفوا قريشاً ، ثم جاء أبو جهل - وكان غائباً - فنقض حلف قريش بحيلة احتالها .

قلت : روى ابن شبة عن فلاح بن سعيد ما يخالفه في نسبة ذلك لأبي جهل مع بيان الحيلة ، فقال : خرجت الأوس جالية من الخزرج حتى نزلت على قريش بمكة فحالفتها ، فلما حالفتهم قال الوليد بن المغيرة : والله ما نزل قوم قط على قوم إلا أخذوا شرفهم وورثوا ديارهم ، فاقطعوا حلف الأوس ، فقالوا : بأي شيء ؟ قال : إن في القوم حمية ، قولوا لهم : إنا نسينا شيئاً لم نذكره لكم ، إنا قوم إذا كان النساء بالبيت فرأى الرجل امرأة تعجبه قبلها ولمسها بيده ، فلما قالوا ذلك للأوس نفرت وقالوا : اقطعوا الحلف بيننا وبينكم ، فقطعوه ، انتهى

فلما لم يتم لهم الحلف ذهبت النبيت إلى خيبر - قلت : أراد بالنبيت بعضهم ، وهم بنو حارثة ؛ لما قدمناه من أن النبيت يطلق عليهم وعلى بنى عبد الأشهل وبنى ظفرو بنى زعورا ، والذي انتقل من هؤلاء إلى خيبرهم بنو حارثة فقط كما سبق ، إلا أن يريد غيره - فأقاموا بها سنة ، ومات منهم عجزوز فقالوا « أهون حادث موت عجزوز في سنة » فذهب مثلاً ، فلما رأت الخزرج أن قد ظفرت

بالأوس افتخروا عليهم في أشعارهم ، وقال عمرو بن النعمان البياضي : يا قوم إن بياضة بن عمرو أنزلكم منزل سوء ، والله لا يمس رأسي غسلا حتى أنزلكم منازل بني قريظة والنضير وأقتل رهنهم ، وكان لهم غزار المياه وكرام النخل ، وقال رجل منهم أيضاً شعراً يتغنى به يذكر جلاء النبيت إلى خير وأخذهم الرهن من اليهود :

هَلُمَّ إِلَى الْأَحْلَافِ إِذْ رَقَّ عَظْمُهُمْ وَإِذَا أَصْلَحُوا مَالًا لَجُذْمَانِ ضَائِعًا
إِذَا مَا أَمْرُؤُهُمْ أَسَاءَ عِمَارَةً بَعَثْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ بَنِي الْعِيرِ جَادِعًا
فَأَمَّا الصَّرِيحُ مِنْهُمْ فَتَحَمَّلُوا وَأَمَّا الْيَهُودُ فَاتَّخَذْنَا بَضَائِعًا
وَذَاكَ بَأَنَا حِينَ نَلْقَى عَدُوَّنَا نَصُولُ بَضْرِبٍ يَتْرُكُ الْعِزَّ خَاشِعًا

فبلغ قولهم قريظة والنضير وهم المعنيون بالصريح لأنهم من بني الكاهن بن هارون ، وبلغ ذلك أيضاً مَنْ كان في المدينة من الأوس ، فمشوا إلى كعب بن أسد القرظي ، فدعوه إلى المحالفة على الخرج ، ففعل ، ثم تحالفوا مع قريظة والنضير ، ثم أرسلوا بذلك إلى النبيت فقدموا فأخذت الخرج في قتل الرهن ، فقال لهم كعب بن أسد القرظي : إنما هي ليلة ثم تسعة أشهر وقد جاء الخلف ، وأرسلوا إلى الأوس وقالوا لهم : انهمضوا إلينا ، فنأتيهم بأجمعنا ، فجاءت الخرج إلى عبدالله ابن أبي فقالوا : مالك لا تقتل الرهن ؟ فقال : لا أغدرهم أبداً ، وأنتم البغاة ، وقد بلغني أن الأوس تقول : منعونا الحياة فيمنعونا الموت ، والله ما يموتون أو تهلكون عامتكم ، فقال له عمرو بن النعمان : انتفخ والله سحرُك ، فقال : إني لا أحضركم ولكاني أنظر إليك قتيلاً يحملك أربعة في كساء .

فاجتمع الخرج ورأسوا عليهم عمرو بن النعمان - قلت : الذي ذكره ابن حزم أن رئيس الخرج يومئذ هو والد النعمان ، وهو رحيلة بن ثعلبة البياضي ، والله أعلم - فاقتتلوا في بُعَاث ، وهو موضع عند أعلى قوري ، وكانت الدبرة على الخرج ، وقتل عمرو بن النعمان ، وجيء به تحمله أربعة كما قال له ابن أبي ، وحلفت اليهود لتهدمن حصن عبدالله بن أبي ، وكان أبو عمرو الراهب مع الأوس ،

وكانت تحته جميلة بنت أبيّ ، وهى أم حنظلة الغسيل ، فلما أحاطوا بالحصن قال لهم عبد الله : أما أنا فلم أحضر معهم ، وهؤلاء أولادكم الذين عندي فإننى لم أقتل منهم أحدا ، ونهيتُ الخزرج فعصوني ، وكان جل من عنده من الرهن من أولاد بنى النضير ، ففرحوا حين سمعوا بذلك ، فأجاروه من الأوس ومن قريظة ، فأطلق أولادهم وحالفهم ، ولم يزل حتى ردهم حلفاء الخزرج بحيل تحيّل بها ، وكان رئيس الأوس فى هذه الحرب حُضَيْر الذى يقال له « حضير الكتاب » والدُ أسيد بن حُضَيْر ، وبها قتل ، وقال خُفّاف بن نَدْبَة يرثى حُضيرا :

أتانى حديث فكذبته وقالوا : خليلك فى المرّمسِ

فيأعين بكى حُضَيْر الندى حضير الكتاب والمجلس

وكان رئيس الخزرج عمرو بن النعمان البياضى كما تقدم أيضا ، قال بعضهم : وكان النصر فيها أولا للخزرج ، ثم ثبت حُضَيْرُ الأوس فرجعوا وانتصروا . وذكر أبو الفرج الأصبهاني أن سبب ذلك أنه كان من قاعدتهم أن الأصيل لا يقتل بالخليف ، فقتل رجل من الأوس حليفا للخزرج ، فأرادوا أن يُقيدوه فامتنعوا ، ف وقعت بينهم الحرب لأجل ذلك .

وكان يوم بعث قبل الهجرة بخمس سنين على الأصح ، وقيل : بأربعين سنة ، وقيل : بأكثر ، وهو اليوم الذى نقول فيه عائشة رضى الله عنها كفى الصحيح « كان يوم بعث يوم أقدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى دخولهم فى الإسلام ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملوئهم وقتلت سرائهم » يعنى الأوس والخزرج ، ومعناه أنه قتل فيه من أكابرهم من كان لا يؤمن أن يتكبر ويأنف أن يدخل فى الإسلام لتصلبه فى أمر الجاهلية ولشدة شكيمته حتى لا يكون تحت حكم غيره ، وقد كان بقى منهم من هذا النمط عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وقصته فى ذلك مشهورة ، وكذلك أبو عامر الراهب الذى سماه النبي صلى الله عليه وسلم بالفاسق ، قال أهل السير : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيد أهلها عبد الله بن أبيّ بن

سلول ، كان من الخزرج ثم من بني عوف بن الخزرج ثم من بني الحنبل ، لا يختلف في شرفه في قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الإسلام غيره ، ومعه في الأوس رجل هو في قومه من الأوس شريف مطاع أبو عامر بن صيفي بن النعمان أحد بني ضبيعة بن زيد ، وهو أبو حنظلة الغسيل ، وكان قد ترهب ولبس المسوح ، فشقياً بشرفهما : أما عبد الله بن أبي فلما انصرف عنه قومه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن ، فكان رأس المنافقين ، وإليه يجتمعون ، وهو القاتل في غزوة بني المصطلق «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»^(١) وأما أبو عامر فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام . وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة فقال : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ قال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم ، قال : فأنا عليها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك لست عليها ، قال : إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها ، قال : ما فعلت ، ولكني جئت بها بيضاء نقية ، قال : الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل ، فمن كذب ففعل الله ذلك به ، فكان هو ذاك عدو الله : خرج إلى مكة مفارقاً الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقولوا الراهب ، ولكن قولوا الفاسق » فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، فمات بها طريداً غريباً وحيداً .

وروى بعضهم أنه لم يكن في الأوس والخزرج رجل أو صف لمحمد صلى الله عليه وسلم من أبي عامر المذكور ، وكان يألف اليهود ويسألهم فيخبرونه بصفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج إلى يهود تيماء وإلى الشام ، فسأل النصارى

(١) من سورة المنافقين من الآية ٨

فأخبروه بذلك ، فرجع وهو يقول : أنا على دين الحنيفية ، وترهبَ ولبسَ المُسُوحَ ، وزعم أنه ينتظر خروجَ النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ظهر بمكة لم يخرج إليه ، فلما قدم المدينة حسَدَ و بَغى ، وذكر إتيانه النبي صلى الله عليه وسلم بنحو ما سبق ، إلا أنه قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكاذب أماته الله وحيداً طريداً » قال : آمين ، ثم ذكر خروجه إلى مكة ، وزاد : فكان مع قريش يتبع دينهم وترك ما كان عليه ؛ فهذا مصداق ما ذكرت عائشة رضى الله عنها .

الفصل السابع

فى مبدأ إكرام الله لهم بهذا النبي صلى الله عليه وسلم

وذكر العقبة الصغرى

اعلم أن تلك الحروب المتقدمة لم تزل بين الأوس والخزرج حتى أكرمهم الله باتباعه صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرض نفسه فى كل موسم من مواسم العرب على قبائلهم ، ويقول : ألا رجل يحملنى إلى قومه ؟ فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ كلام ربي ، فيأبونه ويقولون : قوم الرجل أعلم به .

وذكر ابن إسحاق عرضه عليه الصلاة والسلام نفسه على كندة وعلى كلب وعلى بنى حنيفة ، قال : ولم يكن أحد من العرب أقبح ردّاً عليه منهم ، وقال موسى بن عقبة عن الزهرى : فكان فى تلك السنين - أى التى قبل الهجرة - يعرض نفسه على القبائل ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم إلا أن يؤووه ويمنعوه ، ويقول : لا أكره أحداً منكم على شيء ، بل أريد أن تمنعوا من يؤذنى حتى أبلغ رسالة ربي ، فلا يقبله أحد .

وذكر الواقدى دُعاه صلى الله عليه وسلم بنى عبس إلى الإسلام ، وأنه أتى غسّان فى منازلهم بعكاظ وبنى محارب كذلك ، ولم يزل صلى الله عليه وسلم يدعُو إلى دين الله ، ويأمر به كل من لقيه وراه من العرب ، إلى أن قدم سويد بن

الصامت أخو بني عمرو بن عوف من الأوس ، وكان يسمى « الكامل » لجلده وشعره ، وهو الفائل :

فَرَشَنِي بِخَيْرِ طَالَمَا قَدْ بَرَيْتَنِي فَخَيْرُ الْمَوَالِي مَنْ يَرِيشُ وَلَا يَبْرِي
فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يَبْعُدْ وَلَمْ يَجِبْ ، ثُمَّ
انصرف إلى يثرب ، فلم يلبث أن قتل يوم بُعَاث .

قال ابن إسحاق : فإن كان رجال من قومه ليقولون : إنا نراه قد قتل وهو
مسلم ، وقدم مكة أبو الحيسر^(۱) أنس بن رافع وهو في فتية من قومه بني عبد الأشهل
يطالبون الحلف ، فدعاهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَجُلٌ
مِنْهُمْ اسْمُهُ إِيَّاسُ بْنُ مَعَاذٍ وَكَانَ شَابًا : هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا قَدَمْنَا لَهُ ، فَضْرَبَهُ
أَبُو الْحَيْسَرِ^(۱) وَانْتَهَرَهُ ، فَسَكَتَ ، ثُمَّ لَمْ يَتِمَّ لَهُمُ الْحَلْفُ ، فَانصرفوا إلى بلادهم ،
وَمَاتَ إِيَّاسُ بْنُ مَعَاذٍ فَقِيلَ : إِنَّهُ مَاتَ مُسْلِمًا .

وقال رزين في ذكر هذه القصة : ثم جاءت الأوس تطلب أن تحالف قريشا ،
فجاءهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعرض نفسه عليهم ، وقال : اسمعوا
مني ، هل لكم في خير مما جئتم له ؟ وتلا عليهم القرآن ، ثم قال : بايعوني
واتبعوني ؛ فَإِنَّكُمْ سَتُجْمَعُونَ بِي ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْجَوْحِ : هَذَا أَيْ قَوْمِ وَاللَّهِ
خَيْرٌ لَكُمْ مِمَّا جئتم له ، فانتهروه ، وقالوا : ما جئنا لهذا ، وَلَمْ يُقْبَلُوا عَلَيْهِ ، ثُمَّ
انصرفوا ، فكانت وقعة بُعَاث .

وقال ابن زبالة : إنه صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل فيأبونه ،
حتى سمع بنفر من الأوس قدموا في المنافرة التي كانت بينهم ، فأتاهم في رحالهم ،
فقالوا : مَنْ أَنْتَ ؟ فَانْتَسَبَ لَهُمْ ، وَأَخْبَرَهُمْ خَبْرَهُ ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ، وَذَكَرَ أَنَّهُمْ
أَخْوَالُهُ ، وَسَأَلَهُمْ أَنْ يُؤْوُوهُ وَيَمْنَعُوهُ حَتَّى يَبْلُغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ ، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى
بَعْضٍ وَقَالُوا : وَاللَّهِ هَذَا صَادِقٌ ، وَإِنَّ لِلنَّبِيِّ الَّذِي يَذْكُرُ أَهْلَ الْكِتَابِ وَاسْتَفْتَحُونَ

(۱) في المطبوعات كلها « أبو الحيسر » تطبيع ، وما أثبتناه عن سيرة ابن هشام

به عليكم ، فَاغْتَنِمُوهُ وَأَمْنُوا بِهِ ، فقالوا : أنت رسول الله ، قد عَرَفْنَاكَ وَأَمْنَا بِكَ وَصَدَقْنَاكَ ، فمرنا بأمرك فَإِنَّا لَن نَعصِيكَ ، فَسُرَّ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجَعَلَ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِمْ ، وَيَزْدَادُونَ فِيهِ بِصِيرَةً ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَدْعُوا قَوْمَهُمْ إِلَى دِينِهِمْ ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرْتَحِلَ مَعَهُمْ ، فَقَالَ : حَتَّى يَأْذَنَ لِي رَبِّي ، فَلَحَقُوا بِأَهْلِهِمُ الْمَدِينَةَ ، ثُمَّ شَخَّصُوا إِلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ فَكَانَ مِنْ أَمْرِ الْعَقَبَةِ مَا كَانَ ، وَهُوَ مُخَالَفٌ لِمَا تَقْدِمُ مِنْ أَنْ النَّفَرُ مِنَ الْأَوْسِ لَمْ يَقْبَلُوا .

وَقَدْ أَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى قِبَائِلِ الْعَرَبِ وَخَرَجَ وَأَنَا مَعَهُ وَأَبُو بَكْرٍ إِلَى مَنَى حَتَّى دَفَعْنَا إِلَى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْعَرَبِ ، وَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ وَكَانَ نَسَابَةً ، فَقَالَ : مَنْ الْقَوْمُ ؟ قَالُوا : رَبِيعَةٌ ، فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا فِي مُرَاجَعَتِهِمْ وَتَوَقُّفِهِمْ أَخِيرًا عَنْ الْإِجَابَةِ ، ثُمَّ قَالَ : ثُمَّ دَفَعْنَا إِلَى مَجْلِسِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، وَهُمْ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَنْصَارَ ، لَكُونَهُمْ أَجَابُوهُ إِلَى إِيْوَاثِهِ وَنَصَرَهُ ، قَالَ : فَمَا نَهَضْنَا حَتَّى بَايَعُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي ذِكْرِ الْعَقَبَةِ الْأُولَى : لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِظْهَارَ دِينِهِ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَوْسِمِ الَّذِي لَقِيَ فِيهِ النَّفَرَ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَعَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى قِبَائِلِ الْعَرَبِ كَمَا كَانَ يَصْنَعُ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ ، فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَ الْعَقَبَةِ لَقِيَ رَهْطًا مِنَ الْخَزْرَجِ ، قَالَ : أَمِنْ مَوَالِي^(۱) يَهُودٍ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : أَفَلَا تَجْلِسُونَ أَكَلَكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى ، فَجَلَسُوا مَعَهُ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ، وَكَانَ مِمَّا صَنَعَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ أَنْ يَهُودَ كَانُوا مَعَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ ، وَكَانُوا أَهْلَ عِلْمٍ وَكِتَابٍ ، وَكَانُوا هُمْ أَهْلُ شَرْكِ أَصْحَابِ أَوْثَانٍ ، وَكَانُوا قَدْ غَزَوْهُمْ فِي بِلَادِهِمْ ، فَكَانُوا إِذَا كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ قَالُوا لَهُمْ : إِنْ نَبِيًّا مَبْعُوثٌ قَدْ أَظْلَمَ زَمَانُهُ تَتَّبِعُهُ نَقْتُلُكَ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمٍ ، فَلَمَّا كَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَئِكَ النَّفَرَ وَدَعَاهُمْ

(۱) الموالى : جمع مولى ، وهو هنا بمعنى الحليف

إلى الله قال بعضهم لبعض : تَعَلَّمُوا^(۱) إنه للنَّبِيِّ الذي تَوَدَّكُمْ به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقالوا له : إنا تركنا قومنا ، ولا قومَ بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فإن يجمعهمُ الله عليك فلا رَجُلَ أعز منك ، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم لِيَدْعُوا قومهم ، فلما جاؤهم لم يبقَ دار من دور قومهم إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وهم - يعني أصحاب العقبة الأولى - فيما ذكر لي ستة نفر من الخزرج ، وهم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، كلاهما من بني غنم بن مالك بن النجار ، ورافع بن مالك بن العجلان الزرقى ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وجابر بن عبد الله بن رثاب ، وعقبة بن عامر ابن نابی ، وهؤلاء الثلاثة من بني سلمة .

وقال موسى بن عقبة عن الزهري وأبي الأسود عن عروة : هم أسعد بن زرارة ، ومعاذ بن عفراء وهى أمه ، وهو ابن عمرو بن الجموح من بني غنم بن مالك بن النجار أيضا ، ورافع بن مالك ، ويزيد بن ثعلبة البلوى ، ثم من بني غصينة حليفهم ، وأبو الهيثم مالك بن التيهان الأوسى ، ثم من بني جُشَم أخى عبد الأشهل بن جشم ، وعُوَيم بن ساعدة الأوسى ، ثم من بني أمية بن زيد ، ويقال : كان فيهم عبادة بن الصامت الخزرجى ثم من بني غنم أخى سالم بن عوف ، وذكوان الزرقى ، فيكونون ثمانية ، ومنهم من عدَّهم سبعة فأسقط جابر ابن عبد الله أو عبد الله بن زيد ، وقيل : إنما أسلم في العام الأول اثنان فقط ، هما أسعد بن زرارة وذكوان .

قال ابن إسحاق في ذكر العقبة - يعنى الثانية لما قدمه ، وبعضهم يسميها الأولى - : فلما كان الموسم - يعنى من العام المقبل - وافاه منهم اثنا عشر رجلا ، فذكر الستة الذين قدمهم غير جابر بن عبد الله ، وزاد : ذكوان الزرقى ، وعبادة ابن الصامت ، ويزيد بن ثعلبة ، والعباس بن عبادة بن نضلة الغنمى السالمى الخزرجى ،

(۱) تعلموا هنا بمعنى اعلما

ومعاذ بن عفراء ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وعويم بن ساعدة ، قال : فبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة على بيعة النساء : أى على وفق بيعة النساء التى نزلت بعد الفتح ، على أن لا يشركوا بالله شيئاً إلى آخر الآية^(۱) ، ولم يكن أمر بالقتال بعد ، بل كان جميع ذلك قبل نزول الفرائض ما عدا التوحيد والصلاة ، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مُصْعَبَ بن عُمَيْرَ ليفقههم فى الدين ويعلمهم الإسلام ، فكان يصلى بهم ، وقيل : بعثه إليهم بعد ذلك بطلبهم ليعلمهم ويفرّثهم القرآن ، فكان يسمى «المقرئ» وهو أول من سمى به ، فنزل على أسعد بن زرارة ، وقيل : بعث إليهم مُصْعَبُ بن عمير وابن أم مكتوم ؛ فكان مصعب بن عمير يؤمهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض ، فجمعَ بهم أول جمعة فى الإسلام - وفى الدارقطنى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كتب إلى مُصْعَبِ بن عمير أن يجمعَ بهم فجمعَ بهم وكانوا اثني عشر - .

قال الزهرى : وعند ابن إسحاق أول من جمعَ بهم أبوأمامة أسعد بن زرارة ، وفى أبى داود من طريق عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كان أبى إذا سمع الأذان للجمعة استغفر لأسعد بن زرارة ، فسأله ، فقال : كان أول من جمعَ بنا فى هَرَمِ النبى من حرّة بنى بَيَاضَة فى نقيع الخضات . قلت : كم أنتم يومئذ ؟ قال : أربعون . قال البيهقى : ولا يخالف هذا ما روى عن الزهرى من تجميع مصعب بن عمير بهم وأنهم كانوا اثني عشر ؛ إذ مراد الزهرى أنه أقام الجمعة بمعونة الزفر الاثنى عشر الذين بايعوا فى العقبة وبعثه صلى الله عليه وسلم فى صحبتهم أو على أثرهم حين كثر المسلمون ، ومنهم أسعد بن زرارة ، فالزهرى أضاف التجمع إلى مصعب لكونه الإمام ، وكعب أضافه إلى أسعد لنزول مصعب أولاً عليه ونصره له وخروجه به إلى دور الأنصار يدعوم إلى الإسلام ، وأراد الزهرى

(۱) أراد الآية الكريمة التى فى سورة النساء الصغرى (المتحنة) ، رقم ۱۲

بالاثني عشر عدد الذين خرجوا به ، وكانوا له ظَهْرًا^(۱) ، ومرادُ كعب جميع مَنْ صَلَّى معه ، هذا وقولُ كعب متصل ، وقولُ الزهري منقطع ، اهـ .

وروى الطبراني مرسلًا في خبر طويل قال فيه عن عروة : ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابْعَثْ إلينا رجلاً من قبلك يدعو الناس بكتاب الله ؛ فإنه أدنى أن يُتَّبَعَ^(۲) ؛ فبعث إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار ، فنزل في بني غنم على أسعد بن زُرارة ، فجعل يدعو الناس ، ويفشو الإسلام ، وهم في ذلك مستخفون بدعائهم ، ثم إن أسعد بن زُرارة أقبل هو ومُصعب بن عُمير حتى أتيا مرقاً أو قريباً منها ، فجلسا هنالك ، وبعثا إلى رَهْط من أهل الأرض ، فأتوهم مُسْتَخْفِينَ ، فبينما مصعب بن عمير يحدثهم ويقصُّ عليهم القرآن أخبر بهم سعد بن معاذ ، فاتاهم في لَأْمَتِهِ^(۳) ومعه الرُّمُحُ حتى وقف عليه فقال : غلام يأتينا في دارنا ، هذا الوحيد الفريد الطريد الغريب لِيُسَفَّهُ ضِعْفَانَا بالباطل ويدعوهم ، لا أراكما بعد هذا بشيء من جوارنا ، فرجعوا ، ثم إنهم عادوا الثانية بيئر مرق أو قريباً منها فأخبر بهم سعد بن معاذ الثانية ، فتوعدهم بوعيد دون الأول ، فلما رأى أسعد منه اللين قال : يا ابن خالة ، اسمع من قوله ، فإن سمعت منكراً فاردده بأهدى منه ، وإن سمعت خيراً فأجِبْ إليه ، فقال : ماذا يقول ؟ فقرأ عليه مصعب « حُمُ » ، والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون^(۴) » فقال سعد : وما أسمع إلا ما أعرف ، فراجع وقد هداه الله ، ولم يظهر أمر الإسلام حتى رجع إلى قومه ، فدعا بني عبد الأشهل إلى الإسلام وأظهر إسلامه ، وقال : مَنْ شَكَّ فيه من صغير أو كبير فليأتنا بأهدى منه ، فوالله لقد جاء أمر لتُحزَّنَ فيه الرقابُ ، فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلامه ودعائه إلا مَنْ لا يذکر فكانت أول دارٍ من دور الأنصار أسلمت بأسرها ، ثم إن بني النجار اشتدوا على أسعد بن زُرارة ، وأخرجوا مُصعب بن عُمير ، فانتقل إلى سعد بن معاذ ، فلم

(۱) كانوا له ظهرا : أي أعوانا مساعدين (۲) أدنى أن يتبع : أقرب

(۳) اللأمة : السلاح كله (۴) من سورة الزخرف الآيات ۱ - ۳

یزل يدعو ويهدي على يديه ، حتى قلّ دارٌ من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناسٌ ،
وأسلم أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجموح ، وكسرت أصنامهم ، فكان المسلمون
أمر أهلها ، ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اه .
وقد روى هذه القصة ابنُ إسحاق تَمَحَّنَ سَمِي من شيوخه بزيادة ونقص ،
فقال : إن أسعد بن زُرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل
ودار بني ظَفَر ، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفر على بئر يقال لها بئر مرق ،
فجلسا فيه واجتمع إليهما رجالٌ ممن أسلم ، فلما سمع بذلك سعدُ بن معاذ وأُسَيد بن
حُضَيْر — وهما يومئذ سيدا قريتهما بني عبد الأشهل — وكلاهما مُشْرِك ، قال
سعد لأُسَيد : لا أبالك ! انطلق إلى هـ — ذين الرجلين الذين أتيا دارينا ليسفها
ضعفاءنا ، فازجرهما وانتههما عن أن يأتيا دارينا ؛ فإنه لولا أن أسعد بن زُرارة منى
حيث قد علمت كفيتهك ذلك . هو ابن خالتي ، فأخذ أُسَيد حرّبه ثم أقبل إليهما
فلما رآه أسعد بن زُرارة قال مُصْعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ،
قال : فوقف عليهما متشمتاً^(۱) ، فقال : ما جاء بكما إلينا تُسفّهان ضعفاءنا ، اعزّ لنا
إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب : أو تجلس فتسمع ؛ فإن رضيت
أمراً قبلته ، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره ، قال : أنصفت ، ثم ركز حرّبه وجلس
إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما يذكر عنهما : والله
لعرّفنا في وجه الإسلام قبل أن يتكلم ، ثم قال : ما أحسن هذا وأجمله ! كيف
تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ قالوا له : تغتسل فتطهر ، وتطهر ثيابك
ثم تتشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ، فقام ففعل ذلك ، ثم قال لهما : إن وراني رجلاً
إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرسله إليكما الآن سعدُ بن معاذ ، ثم
انصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال :
أحلف بالله لقد جاءكم أُسَيدٌ بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما وقف على النادى قال

(۱) في نسخة «متسمتا» بالسین المهملة . ووقع كذلك في الخلاصة

له سعد : ما فعلت ؟ قال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما
فقالا : نفعل ما أحببت ، وقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرارة
ليقتلوه ، وذلك أنهم عرفوا أنه ابنُ خالتك ليخفروك ، فقام سعد مُغضباً مبادراً
متخوفاً للذى ذكر له ، فأخذ الحربة من يده ثم قال : والله ما أراك أغيت شيئاً ،
ثم خرج إليهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما ،
فوقف عليهما متشتماً ثم قال : يا أبا أمّامة ، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة
مارئت هذا مني ، أتغشانا في دارينا بما نكره ، وقد قال أسعد لمصعب بن عمير
أي مُصعب ، جاءك والله سيدُ مَنْ وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك
منهم اثنان ، فقال له مصعب : أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته
وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال سعد : أنصفت ، ثم ركز الحربة فجلس ،
فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالوا : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل
أن يتكلم لإشراقه وتسهله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ؟ فذكر له
ما تقدم ، ففعله ، ثم أقبل عاصراً إلى نادى قومه ومعه أسيدُ بن حُضير ، فلما رآه قومه
مقبلاً قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما وقف
عليهم قال : يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا ، أفضّلنا
رأياً ، وأيمننا نقيّة^(۱) ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم حرام علىّ حتى تؤمنوا بالله
ورسوله ، قال : فوالله ما أمسى في دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً
أو مسلمة ، ورجع مصعب إلى منزل أسعد بن زُرارة ، فأقام عنده يدعو الناس
إلى الإسلام ، حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ،
إلا ما كان من دار بنى أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف ، وتلك أوس الله ،
وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن صيّف بن الأسلات ، وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون

(۱) فلان ميمون النقيّة : يراد به أنه مظفر المطالب ، والنقيّة : النفس ، أو هي
الطبيعة والخلقة

منه ويطيعون ، فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى بدر واحد والخنديق ، ثم أسلموا كلهم .
وفي التاريخ الأوسط للبخارى أن أهل مكة سمعوا هاتفاً يهتف قبل إسلام سعد بن معاذ :

فإن يُسَلِّمِ السَّعْدَانِ يُصْبِحَ مُحَمَّدٌ بِمَكَّةَ لَا يَخْشَى خِلَافَ الْمُخَالِفِ
فيا سَعْدُ سَعْدَ الْأَوْسِ كُنْ أَنْتَ نَاصِرَا وَيَا سَعْدُ سَعْدَ الْخَزْرَجِينَ الْغَطَارِفِ
أَجِيبَا إِلَى دَاعِي الْهَدَى وَتَمَنِّيَا عَلَى اللَّهِ فِي الْفَرْدَوْسِ مُنِيَّةَ عَارِفِ
في أبيات أخرى .

وذكر لها رزين سبباً آخر كما سيأتى ، وهذا أصح ، ولم يذكر ابن إسحاق في الخبر المتقدم إسلام عمرو بن الجموح ، بل ذكره بعد ذكر العقبة الآتية كما سند كره ، نعم ابنه معاذ شهد العقبة .

الفصل الثامن في العقبة الكبرى

وبعضهم يسميها العقبة الثانية ، ومقتضى ما قدمناه أن تسمى الثالثة .
قال ابن إسحاق : ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة وخرج مَنْ خَرَجَ من الأنصار من المسلمين للقائهم النبي صلى الله عليه وسلم ومبايعته في الموسم مع حُجَّاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق ، حين أراد الله بهم ما أراد : من كرامته ، والنصر لنبية ، وإعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله .
وروى ابن إسحاق وصححه ابن حبان من طريقه عن كعب بن مالك قال :
خرجنا حُجَّاجاً جامع مشركي قومننا ، وقد صلينا وفقهنا^(۱) ، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا ، فذكر شأن صلاته إلى الكعبة ، قال : فلما وصلنا إلى مكة ولم نكن رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، فسألنا عنه ، فقيل : هو مع العباس في
(۱) الفقه : العلم ، والمراد أنهم علموا ما أرسل الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم

المسجد ، فدخلنا فجلسنا إليه ، فسأله البراء عن القبلة ، ثم خرجنا إلى الحج وواعدناه العقبه ، فلما كانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ، وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا ومعنا عبد الله بن عمرو والد جابر ، ولم يكن أسلم قبل ، فعرّفناه أمر الإسلام ، فأسلم حينئذ وصار من النقباء^(۱) ، قال : فَمِنَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ فِي قَوْمِنَا فِي رِحَالِنَا ، حَتَّى إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ خَرَجْنَا مِنْ رِحَالِنَا لِمِعَادِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلُلُ الْقَطَا مُسْتَخْفِينَ ، فَاجْتَمَعْنَا فِي الشَّعْبِ^(۲) عِنْدَ الْعُقْبَةِ ثَلَاثَةَ وَسَبْعِينَ رَجُلًا ، وَمَعْنَا امْرَأَتَانِ : أُمُّ عِمَارَةَ بِنْتُ كَعْبٍ إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي مَازِنَ ، وَأَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَرَ بْنِ عَدَى إِحْدَى نِسَاءِ بَنِي سُلَيْمَةَ ، قَالَ : فَجَاءَ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ ، فَتَكَلَّمَ فَقَالَ : إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا مِنْ حَيْثُ عَلِمْتُمْ ، وَقَدْ مَنَعْنَاهُ ، وَهُوَ فِي عِزٍّ ، وَقَدْ أَبَى إِلَّا الْأَنْحِيَازَ إِلَيْكُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنْكُمْ وَأَقْوَنَ لَهُ بِمَا دَعَاكُمْ إِلَيْهِ وَمَانَعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ فَإِنَّكُمْ وَذَلِكَ ، وَإِلَّا فَمِنْ الْآنَ ، قَالَ : فَقُلْنَا : قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ ، فَتَكَلَّمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَخُذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ ، فَتَكَلَّمَ ، فَدَعَا إِلَى اللَّهِ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ ، وَرَغِبَ فِي الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ قَالَ : أَبَايَكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ ، قَالَ : فَأَخَذَ الْبِرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ بِيَدِهِ ، فَقَالَ : نَعَمْ وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا تَمْنَعُ مِنْهُ أَرْوَاحَنَا ، فَبَايَعَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَنَحْنُ وَاللَّهُ أَصْحَابُ الْحُرُوبِ وَأَهْلُ الْحَلَقَةِ وَرِثَاهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، فَاعْتَرَضَ الْقَوْلَ وَالْبِرَاءُ يَكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرِّجَالِ - يَعْنِي الْيَهُودَ - حِيبًا لَا وَنَحْنُ قَاطِعُوهَا ، فَهَلْ عَسَيْتَ إِنْ نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللَّهُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى قَوْمِكَ وَتَدْعَانَا ، قَالَ : فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ : بَلِ الدَّمُ الدَّمُ وَالْهَدْمُ الْهَدْمُ^(۳) ، أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنِّي ،

(۱) النقباء : جمع نقيب ، وهو كالعريف على القوم المقدم الذي يتعرف أخبارهم

(۲) شعب مبايعة العقبه يقع على يسار الداهب إلى منى (مكة) وانظر ص ۲۳۲

(۳) الهدم : يروى بتحريك الدال وبسكونها ؛ فأما المحرك فمعناه القبر ، يعنى أنى

أقبر حيث تقبرون ، وقيل : هو المنزل ، والمعنى منزلكم منزلى ، وأما المسكن فمعناه

إهدار دم القتل ، والمراد على هذا إن طاب دمكم فقد طاب دمي ، وإن أهدر دمكم

فقد أهدر دمي ؛ لاستحكام الألفة بيننا ، قاله ابن الأثير .

أحارب مَنْ حاربتم وأسلم من سلمتم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أَخْرِجُوا إِلَىٰ مِنْكُمْ اثْنِي عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَىٰ قَوْمِهِمْ بِمَا فِيهِمْ ، فَأَخْرِجُوا مِنْهُمْ
اثْنِي عَشَرَ نَقِيبًا ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس : فمن الخزرج أسعد بن
زُرَّارة نقيب بني النجار ، وسعد بن الربيع وعبد الله بن رَوَاحَة نقيب بني الحارث
ابن الخزرج ورافع بن مالك بن العَجْلان نقيب بني زُرَيْق ، والبراء بن معرُور
وعبد الله بن عمرو بن حرام نقيب بني سلمة ، وعُبَادَة بن الصامت. نقيب القبائل
وفي الطبراني أنه نقيب بني عدى من الخزرج ، فكأنه نقيب الجميع ، وسعد بن
عبادة ، والمزدر بن عمرو نقيب بني سَاعِدَة - ومن الأوس أُسَيْد بن حُضَيْر
نقيب بني عبد الأشهل ، وسعد بن خَيْثَمَة ورفاعة بن عبد المزدر نقيب بني
عمرو بن عوف .

قال ابن إسحاق : وأهلُ العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ، ولا يعدون رفاعة
قلت : فيكون أبو الهيثم نقيباً ثانياً لبني عبد الأشهل فإنه منهم ، وقد
صرحوا به .

وجعل صلى الله عليه وسلم النقباء على عدة الأسباط ، وروى أنه نقب على
النقباء أسعد بن زُرَّارة ، فتوفي بعدُ والمسجدُ النبوي يُبْنَى ، قيل : فاجتمعت
بنو النجار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسألوه أن يجعل منهم شَخْصاً بدله
نقيباً عليهم ، فقال لهم : أنتم أخوالي ، وأنا فيكم ، وأنا نقيبكم ، وكره صلى الله عليه
وسلم أن يخص بها بعضهم دون بعض ، فكان ذلك من فضل بني النجار
الذي يَعُدُّون .

قال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال للنقباء : أنتم كُفَلَاء على قومكم كِفَالَةَ الْخَوَارِجِ لِعِيسَى بن
مريم ، قالوا : نعم .

وحدث عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن

عبادة بن نضلة أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ، هل تدرون على م تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت^(۱) أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتكموه إليه على ما ذكرت لكم فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإننا نأخذه على ما قلت ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفيناً ؟ قال : الجنة ، قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعوه .

قال عاصم : ما قال ذلك العباس إلا ليشدَّ العقدَ في أعناقهم ، وقال غيره : أواد التأخير تلك الليلة رجاء أن يحضر عبدُ الله بن أبي بن سلول فيكون أقوى للأمر .

قال ابن إسحاق : فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من بايع أول من ضرب على يده ، وبنو عبد الأشهل يقولون : بل أبو الهيثم بن التيهان ، وفي حديث كعب المتقدم أنه البراء ابن معرور ، ثم بايع القوم .

وفي المستدرک عن ابن عباس : كان البراء بن معرور أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة ، وعند أحمد عن جابر وعند الحاكم في الإكليل عن كعب بن مالك : قال عبد الله بن رَوَاحَة : يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ، قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : الجنة ، قالوا : ربح البيع ، لا نُقِيل ولا نَسْتَقِيل ، فنزل « إِنْ أَنَا اشْتَرَيْتُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ »^(۲) الآية .

وفي حديث كعب المتقدم بعد ذكر ضراخ الشيطان أن العباس بن نضلة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غداً

(۱) نهكت أموالكم مصيبة : استأصاتها ، وأصله قواكم « نهكت الناقة حلباً » إذا لم تبق في ضرعها لبناً
(۲) من سورة التوبة من الآية ۱۱۱

بأسيافنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : لم أومرَ بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكُم ، فرجعنا إلى مضاجعنا فنامنا عليها ، فلما أصبحنا غدت علينا جِلَّةٌ قریشٍ حتى جاؤنا فی منازلنا فقالوا : یامعشر الخزرج ، إنه بلغنا أنکم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بین أظهرنا وتبايعونه علی حربنا ، وإنه والله مامن حی من العرب أبغض إلینا أن تُشبَّ الحربُ بیننا و بینهم منکم ، فانبعث منْ هناك من مشرکی قومنا یحلفون بالله ما کان من هذا شیء ، وما علمناه ، ولقد صدقوا لم یعلموه .

وفی حدیث غیر کعب أنهم أتوا عبدَ الله بن أبی ، فقال لهم : إن هذا الأمرُ جَسیمٌ ، ما کان قومی لیتَفَوَّتُوا علیّ بمثل هذا ، وما علمته کان ، وروی أن مشرکی الأنصار الذین حجوا فی ذلك العام کانوا خمسائة نفر ، وأن أهل العقبة کانوا سبعین نفرا .

وفی لفظ عن ابن إسحاق : من الأوس أحد عشر رجلا : ومن القبائل أربعة نفر حلفاء الخزرج ، وکان من بنی الحارث بن الخزرج اثنان وستون رجلا ، فکأنه أدخل فی الخزرج حلفاءهم الأربعة ، وإلا فتزید العدة علی ثلاثة وسبعین أربعة .

عدة أهل
البيعة

وروی رزین أن أهل العقبة کانوا سبعین رجلا وامرأتان ؛ فإنه روى حدیث العقبة هذه عن عبادة بن الصامت بنحو حدیث کعب المتقدم ، فقال : قال عبادة بن الصامت : فلما کان العام المقبل أتینا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ونحن سبعون رجلا وامرأتان من قومنا ، فواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند مسجد شِعْبِ العقبة ، عن يسارك وأنت ذاهب إلى منى ، فلما توافينا عنده جاء رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس ، وقال : یامعشر الخزرج ، وهذا الاسم یغلب علی الأوس والخزرج جميعاً إذ ذاك ، إن محمداً منا حیثُ علمتم ،

وقد منعناه كما بلغكم ، فإن كنتم تعلمون أنكم تقدرون على منعه ، وإلا فذرّوه فهو مع قومه في عز ومنعة ، فقام البراء بن معرور فقال : قد سمعنا ما قلت ، وإنا ما ضربنا إليه أكباد الإبل إلا وقد علمنا أنه نبي ، فبايعنا يا رسول الله ، واشترط لنفسك ولربك ما شئت ، فحمد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم ، فأخذ البراء بيده ، وقال : نعم والذي بعثك بالحق نبياً لمنعك مما تمنع منه أزوانا ، ونحن أهل الحلاقة والحصون والحروب ، فقام أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبلا ، ونحن قاطعوها ، فهل عسيت إن نصرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل الدم الدم والهدم الهدم ، الحيا محياكم ، والمات مماتكم ، وأحارب من حاربكم ، وأسلم من سلمكم ، أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيبا يكونوا نقباء على الناس ، فأخرجوا تسعة من الخرج وثلاثة من الأوس ، فبينما هم في ذلك إذ صرخ الشيطان يقول : يا أهل الجباب ، وهي المنازل ، هل لكم في الصبابة^(۱) قد اجتمعوا على حربكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أزب العقبة لأفرغن لك أي عدو الله ، ارجعوا إلى رحالكم ، نصركم الله ، فقال له العباس بن عباد بن نضلة : والذي بعثك بالحق نبياً لئن شئت لنميتن بأسيا فنادى على مني ، فقال له : لم أومر بذلك ، ثم ذكر قصة كلام قريش في ذلك وحلف مشركي قومهم لهم عن ذلك ، قال : ثم إنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج معنا ؟ قال : ما أمرت به .

قال رزين : وقد قيل إنه وقع بين قريش والأنصار كلام في سبب خروج النبي صلى الله عليه وسلم معهم ، ثم ألقى الرعب في قلوب قريش فقالوا : ليس يخرج معكم إلا في بعض أشهر السنة ، ولا يتحدث العرب بأنكم غلبتمونا ، فقالت الأنصار : الأمر في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن سامعون لأمره ، فأنزل

(۱) الصبابة : جمع صابىء ، وكان مشركو مكة يسمون الرسول وأصحابه بذلك

لأنهم خرجوا عن دينهم

الله على رسوله « وإن يريدوا أن يَحْدُثُوا فَيَنْحَدُّوكَ فَإِنْ حَسْبَكَ اللَّهُ ^(١) » أى : إن كان كفار قريش يريدون المكر بك فسيمكر الله بهم ، فانصرفت الأنصار إلى المدينة .

وقيل : إن قريشاً بداهم فخرجوا في آثارهم ، فأدركوا منهم رجلين كانا تخلفا في أمر. فردوها إلى مكة : المنذر ، وعباس بن عباد ، فأدركهما جُبَيْر بن مُطْعِم والحارث بن أمية ، فخلصاها ولحقا أصحابهما .

قلت : والذي ذكره غيره أن الرجلين هما المنذر وسعد بن عباد ، فأما المنذر فعجز القوم ونجا ، وأما سعد فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رَحْلِهِ ، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضر بونه ويجذبونه بجُمَّتِهِ ، وكان ذا شعر كثير ، ثم خلصه منهم جُبَيْر بن مُطْعِم والحارث بن أمية ؛ لأنه كان يجير لهما تجارهما ويمنعهم أن يظلموا ببلده .

وذكر رزين عقب ما تقدم عنه إسلام عمرو بن الجموح كما ذكره أهل السير عقب ذلك أيضاً ، وكان عمرو شيخاً كبيراً من سادات بني سلمة ، وشهد معاذ ابنه العقبة ، وكان لعمرو في داره صنم من خشب يعبدونه يدعى مَنَاة ، فكان معاذ ابنه ومعاذ بن جبل وفتيان بني سلمة يدلون بالليل على صنم عمرو فيطرحونه في بعض حُفَرِ بني سلمة وفيها عذر الناس منكساً على رأسه ، فإذا أصبح قال عمرو : مَنْ عدا على إلهنا هذه الليلة ؟ ثم يغدو يلتمسه ، حتى إذا وجده غسَّاه وطَّيَّبه ثم يقول : والله لو أعلم مَنْ فعل هذا بك لأخزيتك ، فتكرر ذلك ، فطهره يوماً وطَّيَّبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ثم قال : إني والله لا أعلم مَنْ يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع فهذا السيف معك ، فلما نام أخذوا السيف وقرَّعوا كلباً ميتاً بالصنم بحبل ثم ألقيوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر ، فلم يجده عمرو في

إسلام عمرو
ابن الجموح

(١) من سورة الأنفال من الآية ٦٢

مكانه ، فخرج حتى وجده كذلك ، فلما أبصر ما به وكلمه مَنْ أسلم من قومه
فأسلم وحسن إسلامه ، وقال في ذلك :

والله لو كنت إلهاً لم تكن أنت وكذب وسط بئر في قرن
أف للملقات إلهاً مستدث الآن فتشناك عن سوء الغبن
الحمد لله العلى ذى المنن الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذى أنقذنى من قبل أن أكون فى ظلمة قبر مرتهن

الفصل التاسع

فى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إليها

رؤيا النبى
دار هجرته

روينا فى الصحيحين حديث « رأيت أنى أهاجر من مكة إلى أرض بها
نخل ، فذهب وهلى^(١) إلى اليمامة أو هجر ، فإذا هى المدينة يثرب » ووقع للبيهقى من
حديث صهيب « أريت دار هجرتكم سبخة بين ظهراى حرّتين ، فإما إن يكون
هجر أو يثرب » ولم يذكر اليمامة ، وللترمذى من حديث جرير « أوحى إلى :
أى هؤلاء الثلاثة نزلت فى دار هجرتك ، المدينة أو البحرين أو قسرين »
واستغربه ، وفيه نظر ؛ لخالفته لما فى الصحيح من ذكر اليمامة ، وأما هجر فيصح
التعبير بها عنها لكونها من بلاد البحرين ، وأما قسرين فهى من أرض الشام ،
ويمحتمل أن يكون أرى ما فى الصحيح وأوحى إليه بالتخير قبل أو بعد ،
فاختار المدينة

وقال ابن التين : أرى النبى صلى الله عليه وسلم أولا دار هجرته بصفة تجمع
المدينة وغيرها ، ثم أرى الصفة المختصة بالمدينة فتعينت .

إذن النبى
لأصحابه
فى الهجرة

ثم أذن النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى الهجرة إلى المدينة ، وأقام بمكة ينتظر أن يؤذن
له فى الخروج ، فتوجه بين العقبتين جماعة منهم ابن أم مكتوم ، ويقال : إن أول مَنْ هاجر إلى

(١) الوهل ، بفتح فسكون : الظن والوهم ، وانظر ص ١٠

المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي زوج أم سلمة ، وذلك أنه أودى لما رجع من الحبشة ، فعزم على الرجوع إليها ، ثم بلغه قصة الاثنى عشر من الأنصار فتوجه إلى المدينة ، فقدمها بكرة ، وقدم بعده عامر بن ربيعة عشيّة ، ثم توجه مصعب بن عمير ليفقه من أسلم من الأنصار كما تقدم ، ثم توالى خروجهم بعد العقبة الأخيرة ، فخرجوا أرسالا : منهم عمر بن الخطاب ، وأخوه زيد ، وطلحة بن عبيد الله ، وصهيب ، وحزمة بن عبد المطلب ، وزيد بن حارثة ، وعبيدة ابن الحارث ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، وعثمان بن عفان ، وغيرهم ، حتى لم يبق معه صلى الله عليه وسلم بمكة إلا على بن أبي طالب والصدّيق رضي الله عنهما ، كذا قاله ابن إسحاق وغيره ، والظاهر أن المراد لم يبق من أعيانهم ؛ لما روى من أن من كان بمكة ممن يطيق الخروج من المسلمين خرجوا بعد خروجه صلى الله عليه وسلم من مكة ، فطلبهم أبو سفيان وغيره من المشركين ، فردّوهم وسجنوهم ، فافتن منهم ناس ؛ ففي هذا دلالة على بقاء جماعة غير الصدّيق وعلى رضي الله عنهما مع النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ ، فلما رأت قريش ذلك علموا أن أصحابه قد أصابوا منّة ، ونزلوا دارا ، فحذروا^(۱) خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فاجتمعوا بدار الندوة ليأتمروا في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم أبو جهل ، وزعم ابن دريد في الوشاح أنهم كانوا خمسة عشر رجلا ، وفي المولد لابن دحية كانوا مائة رجل ، وجاءهم إبليس في صورة شيخ نجدى فقال : أدخلوني معكم ، فلن تعدموا مني رأيا ، فأدخلوه ، فقال بعضهم : نخرجه من بين أظهرنا ، وقال آخرون : بل نحسبه ولا يقطع حتى يموت ، فقال أبو جهل : قد رأيت أضلح من رأيكم : أن يعطى خمس رجال من خمس قبائل سيفاً سيفاً فيضربونه ضرباً رجل ، فيتفرق دمه في هذه البطون ، فلا يقدر لكم بنو هاشم على شيء ، فقال النجدى : لا أرى غير هذا ، فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه

(۱) حذروا خروجه : أى ظنوه وقدروه

وسلم ، فأنزل الله على نبيه « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين ^(۱) » فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلی : نعم على فراشي وتسج ببردی فان يخلص إليك منهم أمر ، فترد هذه الودائع إلى أهلها ؛ لأن كفار قريش كانت تودع عنده لأمانته ، وكان اسمه عندهم الأمين الصادق ، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق فأعلمه ، وقال : قد أذن لي ، فقال : الصحبة يارسول الله ، وكان إنما حبس نفسه عليه لما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر لأصحابه رؤياه المتقدمة هاجر من هاجر منهم قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي ، فقال له : وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي ؟ قال : نعم ، فحبس نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحبه ، وكان عمره قد تقدم إلى المدينة ، وعاف أبو بكر راحلتين كانتا عنده الخبط ^(۲) أربعة أشهر ، فعرض على النبي صلى الله عليه وسلم إحداهما ، فقال : بالثمن ، وفي رواية ابن إسحاق قال : لا أركب بعيرا ليس هولي ، فقال : فهو لك ، قال : لا ولكن بالثمن الذي ابتعتها به ، قال : أخذتها بكذا وكذا ، قال : قد أخذتها بذلك ، قال : هي لك ، والحكمة فيه - كما أفاده بعضهم - أنه صلى الله عليه وسلم أحب أن لا تكون هجرته إلا من مال نفسه ، وذكر ابن إسحاق أن الناقة التي أخذها هي الجدعاء ، وأنها كانت من إبل بني الحريش ، وكذا في رواية أخرجه ابن حبان ، وأنها الجدعاء ، وأفاد الواقدي أن الثمن كان ثمان مائة درهم ، وأن المأخوذة هي القصوى ، وأنها كانت من نعم بني قشير ، وأنها عاشت حتى ماتت في خلافة الصديق ، وكانت مرسلة ترعى في النقيع ، وفي طبقات ابن سعد أن ثمنها ثمان مائة درهم ، اشتراها أبو بكر من نعم بني قشير ، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم منه القصوى بثمنها ، وسيأتي

(۱) من سورة الأنفال الآية ۳۰

(۲) الخبط - بفتح الخاء والباء جميعا - ورق الشجر الذي يتساقط إذا ضرب بالعصا

من رواية يحيى الحسيني أيضا أنها القصوى . وجاء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أذن له في الهجرة إلى المدينة بقوله تعالى « وقل رب أدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ، وأُخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ ، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا ^(۱) » أخرجه الترمذی وصححه هو والحاكم ، فذهب أبو بكر إلى عبد الله بن أريقط قاله ابن عتبة . وفي تهذيب ابن هشام « عبد الله بن أرقط » وفي رواية الأموي عن ابن إسحاق « ابن أريقط » وفي الغنية عن مالك اسمه « رقيط من بني الديل من كنانة » فاستأجره ، وكان هديا خريتا ^(۲) : أي ماهرا بالهداية ، وكان على دين الكفار . قال النووي : لا نعلم له إسلاما ، فأمره أن يأتيهما بعد ثلاث في غار ثور ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله ، فجاءه على رضى الله عنه ، واجتمعت قريش على باب الدار ليقتلوه بزعمهم ، فقال لهم أبو جهل : لا تقتلوه حتى يجتمعوا ، يعنى الخمسة من القبائل الخمس ، وجعل يقول لهم : هذا محمد كان يزعم لكم أنكم إن تابعتموه كنتم معك العرب والعجم ، ويكون لكم في الآخرة جنات تأكلون منها ، وإن لم تتبعوه يكون له فيكم ذبح في الدنيا ، ويوم القيامة نار تحرقون فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم والله كذا أقول ، وكذا يكون ، وأنت أحدهم ، ثم أخذ حَفَنَةً من تراب فرماها في وجوههم ، فأخذ على أبصارهم ولم على أضمختهم فجعل على رأس كل رجل منهم ترابا وهو يقرأ أول سورة يس يستتر بها منهم إلى « فهم لا يبصرون » وتلا « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ^(۳) » ثم أتى منزل أبي بكر ، فخرجا من خُوخَةٍ كانت له ، وأتيا غار ثور ، وأقام المشركون ساعة ، فجعلوا يتحدثون ، فجاءهم رجل كان إذ ذاك بعيدا منهم فقال لهم : وما تنتظرون ؟ فقالوا : أن نصبح فنقتل محمدا ، قال : قبحكم الله وخيبكم ، أو ليس قد خرج عليكم وجعل على رؤوسكم التراب ، قال

(۱) من سورة الإسراء الآية ۸۰ (۲) الحرير - بوزن سكين - الماهر الحاذق بالطرق

(۳) من سورة الإسراء الآية ۴۵

أبوجهل : أو ليس هو ذاك مُسَجَّى ببرده ؟ الآن كلنا ، فلما أصبحوا قام على من الفراش ، فقال أبوجهل : صدقنا ذلك المخبر ، فاجتمعت قريش ، وأخذت الطُّرق ، وجعلت الجمائل^(۱) لمن جاء به ، فانصرفت أعينهم ولم يجدوا شيئا ، فجاء الديلي بعد ثلاث بالراحلتين ، ولا ينافي هذا ما وقع في رواية هشام بن عُروة عند ابن حبان حيث قال : فركبا حتى أتيا الغار فتواريا ؛ لاحتمال أنهما ركبا غير هاتين الراحلتين ، أو هما ثم ذهب بهما عامر بن فهيرة إلى الديلي .

وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب في الحديث المتقدم أن عليا رقد على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم يورى عنه ، وباتت قريش تحلف وتأنمر ، أيهم يهجم على صاحب الفراش فيوثقه ، حتى أصبحوا فإذا بعلي ، فسألوه فقال : لا علم لي ، فعلموا أنه فرّ منهم .

وروى أحمد بإسناد حسن عن ابن عباس في قوله تعالى : « وإذ يتكبر بك الذين كفروا » الآية فذكر تشاور قريش ثم قال : فبات على علي فراشه صلى الله عليه وسلم ، وخرج هو حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى ينتظرونه حتى يقوم فيفعلون به ما اتفقوا عليه ، فلما أصبحوا ورأوا عليا رد الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري ، فاقْتَصَوْا أثره^(۲) ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل ، فرروا بالغار ، فأروا على بابه نَسْجَ العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال ، وذكر نحوه موسى بن عقبة عن الزهرى ، وكله مقتضى لأن الخروج إلى الغار كان في بقية تلك الليلة ، وكان ذلك بعد العقبة بشهرين وليال ، وقال الحاكم : بثلاثة أشهر أو قريبا منها ، ويرجح الأول ما جزم به ابن إسحاق من أنه خرج أول يوم من ربيع الأول ؛ فيكون بعد العقبة بشهرين و بضعة عشر يوما ، وكذا جزم به الأموى ، فقال : خرج لهلال

(۱) الجمائل : جمع جعالة ، مثل سحابة وسحاب ، وهى الأجرة

(۲) اقتصوا أثره : تتبعوه

ربيع الأول ، وقدم المدينة لاثني عشر خَلَتْ منه ، وعلى هذا كان خروجه يوم الخميس ، وهو الذي ذكره محمد بن موسى ، لكن قال الحاكم : تواترت الأخبار بأن الخروج كان يوم الاثنين ، وجمع الحافظ ابن حجر بأن خروجه من مكة كان يوم الخميس : أى فى أثناء ليلته لما قدمناه ، وخروجه من الغار - يعنى غار ثور - ليلة الاثنين : لأنه أقام فيه ثلاث ليال ، ومن روى ليلتين لعله لم يحسب أول ليلة ، وأما حديث الحاكم « اثبت مع صاحبي » يعنى أبا بكر « فى الغار بضعة عشر يوما ، ما لك طعام إلا ثمر البرير » أى الأراك ، فقال الحاكم : معناه مكثنا مختفين من الكفار فى الغار وفى الطريق بضعة عشر يوما ، وقال الحافظ ابن حجر : الذى يظهر أنها قصة أخرى ، لما فى الصحيح من أن عامر بن فهيرة كان يروح عليهما فى الغار بالبن ، وكذا قصة نزولهما بحَيِّمة أم معبد ، وغير ذلك ، وكان مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بمكة بعد النبوة بضع عشر سنة . وقال عروة : عشرا ، وقال ابن عباس : خمس عشر سنة ، وفى رواية عنه : ثلاث عشرة ، ولم يعلم بخروجه إلا على وآل أبي بكر ، وكان من قصة نسج العنكبوت وغيره من أمر الغار ما كان ، وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، ومعهما عامر بن فهيرة يخدمهما يردفه أبو بكر ويعقبه ، والدليل ، فأخذ بهم فى أسفل مكة حتى أتى بهما طريق السواحل أسفل من عُسْفَان ، ثم عارض الطريق على أَمَج^(١) ، ثم نزل من قديد خيام أم معبد الخزاعية من بنى كعب ، وبقية المنازل إلى قباء ذكرها ابن زبالة ، وقد أوضحناه فى الأصل ، واتفق فى مسيرهم قصة سُرَاقَة عارضهم يوم الثلاثاء بقديد على ما ذكره ابن سعد وغيرها من القصص المشتملة على الآيات البينات .

قال رزين : وأقامت قريش أياما لا يدرون أين أخذ محمد صلى الله عليه وسلم . لم يسمعوا صوتا على أبي قبيس وهو يقول :

فإن يُسَلِّم السَّعْدَانِ يصبح محمد من الأمن لا يخشى خلاف المخالف

(١) أَمَج : بفتح الهمزة والميم جميعا - مكان بعينه بين مكة والمدينة

فقلت قریش : لو علمنا من السعدان ، فقال :

أَيَسْعُدُ سَعْدَ الْأَوْسِ كُنْ أَنْتَ مَانِعَا وَيَا سَعْدُ سَعْدَ الْخَزْرَجِينَ الْغَطَارِفِ
أَجِيبَا إِلَى دَاعِي الْهَدَى وَتَبَوَّآ مِنْ اللَّهِ فِي الْفَرْدَوْسِ زَلْفَةَ عَارِفِ
فَعَلِمُوا إِذْ ذَاكَ أَنَّهُ أَخَذَ طَرِيقَ الْمَدِينَةِ .

قلت : والأقرب ما تقدم من إنشاد هذه الأبيات قبل ذلك ؛ لأن السعدين كانا قد أسلما قبل ، ثم سمعوا قائلاً بأسفل مكة لا يرى يقول :

جَزَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ رَفِيقَيْنِ قَالَا : خَيْمَتِي أُمُّ مَعْبِدِ
قلت : وروى هذا مع الأبيات الآتية مما سمع حينئذ ، وقيل : سمعوا هاتفا على أبي قُبَيْسٍ يقول :

جَزَى اللَّهُ خَيْرًا وَالْجَزَاءُ بِكَفِّهِ رَفِيقَيْنِ قَالَا خَيْمَتِي أُمُّ مَعْبِدِ
هَما رَحَلا بِالْحَقِّ وَانْزَلَا بِهِ فَقَدْ فَازَ مِنْ أُمْسَى رَفِيقُ مُحَمَّدِ
فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ
وَأَكْسَى لُبُزٍ الْخَالِ قَبْلَ ابْتِدَالِهِ وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّامِحِ الْمُتَجَدِّدِ
لِيَهْنُ بَنِي كَعْبٍ مَكَانُ فَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ

قصة أم معبد

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مرَّ بأم معبد ، فاستسقاها لبنًا ، فقالت : ما عندنا من لبن ، ونحن في سنة^(۱) ، فنظر إلى شاة قد نحلت عجفاء من الهزال ، فقال : قَرَّبِي لِي هَذِهِ الشَّاةُ ، ففَرَّبَتْهَا ، فَمَسَحَ ضَرْعَهَا بِيَدِهِ الْمُبَارَكَةِ وَسَمَّى وَدَعَا ، ثُمَّ قَالَ : هَاتِ قَدَحًا ، فَجَاءَتْ بِقَدَحٍ ، فَحَلَبَ فِيهِ حَتَّى امْتَلَأَ ، فَأَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يَشْرَبَ ، فَقَالَ : بَلْ أَنْتَ فَاشْرَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : سَاقَى الْقَوْمِ آخِرَهُمْ شَرِبَا ، فَشَرَبَ أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ حَلَبَ فَشَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ حَلَبَ فَشَرِبَتْ أُمُّ مَعْبِدَ ، ثُمَّ حَلَبَ فَقَالَ : أَرْفَعِي هَذَا لِأَبِي مَعْبِدَ إِذَا جَاءَكَ ، ثُمَّ رَكِبُوا وَسَارُوا ، فَلَمَّا أَتَى أَبُو مَعْبِدَ أَخْبَرَتْهُ بِمَا رَأَتْ ، وَسَقَتْهُ اللَّبَنَ ، فَعَلِمَ

(۱) يطلق العرب لفظ «السنة» على الجذب

أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فركب راحلته وخرج في أثره يطلب أن يسلم ،
فقليل : إنه قال في طريقه :

جزى الله ربُّ الناس خيراً جزائه رفيقَيْنِ قالا خيمَتِي أم معبد
هما نزلاًها بالهدى فاهتَدَتْ به فقد فاز مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّد
فيا لَقْصَى ما زَوَى الله عنكمُ به من فعال لا تجارى وسُودِدِ
لِيَهْنِ بنى كعب مكانُ فتاتهم ومَقْعُدُهَا للمؤمنين بمرصد
سَلُوا أختكم عن شاتها وإناؤها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دَعَاها بشاةٍ حائل فتَحَلَّبت له بصريح ضرة الشاة مزبد
فغادرَها رَهْناً لديهم — الحالب يرددها في مصدري ثم مورد
وقال الشرقى : بلغنى أن أبا معبد أدركهما بطن ريم ، فبايع رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وانصرف .

قلت : وذكر غير رزين هذه الأبيات كلها فيما سَمِعَ بأسفل مكة من القائل
الذى لا يدرون ؛ فلما سمع حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم
بذلك جعل يجاوب الهاتف ويقول :

لقد خاب قومٌ زال عنهم نبيهم وقد سَمَنَ مَنْ يسرى إليهم ويغتدى
ترحلَ عن قومٍ فضلت عقولهم وحلَّ على قوم بنورٍ مُجدِّد
هداهم به بعد الضلالة ربهم وأرشدَهم ؛ مَنْ يَتَّبِعِ الحقَّ يرشُدِ
وهل يستوى ضلالُ قوم تسكعوا عَمَى وهُدَاةٌ يهتدون بمهتد^(۱)
لقد نزلت منه على أهل يثرب ركاب هُدًى حَلَّتْ عليهم بأشعِدِ
نبي يرى مالا يرى الناسُ حوله ويتلو كتابَ الله في كل مسجد
وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم أوفى ضجى غدِ
لِيَهْنِ أبا بكر سعادةً جَدَّه بصُحْبَتِهِ ؛ مَنْ يُسْعِدِ اللهُ يسعِدِ

(۱) تسكعوا : خيروا ، قاله ابن الأثير .

خروج
أبي بريدة
لاستقبال
الرسول
صلى الله عليه
وسلم

قال أبو سليمان الخطابي : لما شرف النبي صلى الله عليه وسلم المدينة لقيه بريدة الأسلمي في سبعين من قومه بنى أسلم ، فقال : مَنْ أنت ؟ قال : بريدة فقال لأبي بكر : برد أمرنا وصلاح ، ثم قال : مَنْ ؟ قال : من أسلم ، قال : سلمنا ، ثم قال : ممن ؟ قال : من بنى سهم ، قال : خرج سهمنا^(١) .

وقد روى ابن الجوزي في شرف المصطفى من طريق البيهقي موصولا إلى بريدة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يتطير ، وكان يتفأل ، وكانت قريش جعلت مائة من الإبل لمن يأخذ نبي الله صلى الله عليه وسلم فيرده إليهم حين توجه إلى المدينة ، فركب بريدة في سبعين راكبا من أهل بيته من بنى سهم ، فلقى نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أنت ؟ قال : أنا بريدة ، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال : يا أبا بكر ، برّد أمرنا وصلاح ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : ممن أنت ؟ قال : من أسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : سلمنا ، ثم قال : ممن ؟ قال : من بنى سهم ، قال : خرج سهمك^(٢) ، فقال بريدة للنبي صلى الله عليه وسلم : من أنت ؟ قال : أنا محمد بن عبد الله رسول الله ، فقال بريدة : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فأسلم بريدة وأسلم مَنْ كان معه جميعا ، فلما أصبح قال بريدة^(٣) للنبي صلى الله عليه وسلم : لا تدخل المدينة إلا ومعلك لواء ، فحلّ عمامته ثم شدّها في رُمح ثم مشى بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله تنزل على مَنْ ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن ناقتي هذه مأمورة ، قال بريدة : الحمد لله الذي أسلمت بنو سهم طائعين .

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجارا قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياب بياض .

(١) خرج سهمك : كناية عن ظفرت وقلجت (٢) وقع في المطبوعات

«أبو بريدة» مرارا ، و«بريدة» مرارا أخرى ، والصواب «بريدة» وهو بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث بن الأعرج ، الأسلمي ، وله ترجمة في الإصابة (١/١٥٠ رقم ٦٣٢)

وروى أن طلحة كان قدم من الشام ومعه ثياب أهداها لأبي بكر من ثياب الشام ، فلما لقيه أعطاه ، فلبس منها النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر . قال الحافظ ابن حجر : فيحتمل أن كلا من طلحة والزبير أهدى لها ، والذي في السير هو طلحة ؛ فالأولى الجمع ، وعند ابن أبي شيبة ما يؤيده ، وإلا فما في الصحيح أصح .

الفصل العاشر

في دخوله صلى الله عليه وسلم أرض المدينة ، وتأسيس مسجد قباء
كان المسلمون بالمدينة قد سمعوا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانوا يخرجون كل يوم إلى الحرّة أول النهار فينتظرونه ، فما يردّهم إلا حرّ الشمس ، فبعد أن رجعوا يوماً أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين ، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته : يا بني قَيْلَة - يعني الأنصار - وفي رواية : يا معشر العرب ، هذا جدّكم ، يعني حظكم - وفي رواية : صاحبكم الذي تنتظرونه - فثار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرّة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف بقباء على كلثوم بن الهدم ، قيل : وكان يومئذ مشركا ، وبه جزم ابن زبالة ، وقال رزين : نزل في ظل نخلة ، ثم انتقل منها إلى دار كلثوم أخي بني عمرو بن عوف ، وفي « أخبار المدينة » ليحيى الحسيني جدّ أمراء المدينة اليوم في النسخة التي رواها ابنه طاهر بن يحيى عنه من طريق محمد بن معاذ ، قال : حدثنا مجّمع بن يعقوب عن أبيه وعن سعيد بن عبد الرحمن ابن رقيش عن عبد الرحمن بن يزيد بن حارثة قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر حرّتنا ، ثم ركب فأنّخ إلى عِدْقٍ عند بئر غرس قبل أن تبرز الشمس ^(١)

(١) تبرز الشمس : تظهر

وما يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبي بكر ، عليهما ثياب متشابهة ، فجعل الناس يقفون عليهم حتى بزغت الشمس من ناحية أطعمهم الذي يقال له « سُئِف » فأمهل أبو بكر ساعة حتى خيل إليه أنه يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحرّ الشمس ، فقام فستر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بردائه ، فعرف القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا يأتون فيسلمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت لمجمع بن يعقوب : إن الناس يرون أنه جاء بعد ما ارتفع النهار وأحرقتهم الشمس ، قال مجمع : هكذا أخبرني أبي وسعيد ابن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن يزيد قال : ما بزغت الشمس إلا وهو جالس في منزله صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولم أر هذا الخبر في النسخة التي رواها ولد ابن يحيى عن جده ، وقوله « عند بئر غرس » الظاهر أنه تصحيف ، ولعله « بئر عذق » لبعد بئر غرس من منزله صلى الله عليه وسلم بقبأ ، بخلاف بئر عذق ، وإلا فهو قادح فيما يعرفه الناس اليوم من أن بئر غرس هي المعروفة بمحلها الآتي بيانه

وفي كتاب يحيى أيضا عن محمد بن إسماعيل بن مجمع قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على كُثُوم بن الهدم هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة قال : يا نجيح ، لمولى له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والتفت إلى أبي بكر : أنجحت ، أو أنجحتنا ، فقال : أطعمنا رطباً ، قال : فأتوا بتمن من أم جرذان فيه رطب منصف وفيه زهُو^(١) ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما هذا ؟ قال : عذق أم جرذان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم بارك في أم جرذان ، وقد أخرجه أبو سعيد في شرف المصطفى من طريق الحاكم ، وقال قوم بمنزله صلى الله عليه وسلم على سعد ابن خيثمة . وقد رواه يحيى أيضا ، قال رزين : والأول أصح اه .

(١) المنصف : الذي صار نصفه رطباً ، والزهُو - بفتح فسكون - الذي قد

احمر أو اصفر من البلع

وقال الحاكم : إنه الأرجح ، قال : وقد قاله ابن شهاب وهو أعرف بذلك من غيره ، وقال بعضهم : كان سعد عزابا ، فكان صلى الله عليه وسلم يجلس مع أصحابه في بيته ، فلذلك قيل : إنه نزل عنده ، ويشهد له ما نقله ابن الجوزي عن ابن حبيب الهاشمي قال : نزل النبي صلى الله عليه وسلم على كلثوم ، وكان يتحدث في منزل سعد بن خيثمة ، ويسمى « منزل العزاب » وفي الصحيح : فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة ، فعُدل بهم^(١) ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف ، وفي رواية له : عن المدينة وقبَاء معدودة من العلية ، وكان حكمته التفاؤل له ولدينه بالعلو ، وذلك يوم الاثنين نهرا عند الأكثر ، قال الحافظ ابن حجر : وهو المعتمد ، وشذ من قل يوم الجمعة . قلت : لعل مراد هذا القائل القدوم الآتي للمدينة نفسها بعد الخروج من قبَاء ، وقيل : ليلة الاثنين ؛ لقوله في مسلم « ليلا » قال الحافظ ابن حجر : ويجمع بأن القدوم كان آخر الليل ، فدخل نهرا . قلت : وفيه نظر ، وكان ذلك أول ربيع الأول على مارواه موسى ابن عقبة عن ابن شهاب ، وقيل : لثان خلون منه . وفي الإكليل عن الحاكم : تواترت الأخبار بذلك ، وفي رواية جرير بن حازم عن ابن إسحاق : قدمها لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول ، ونحوه عن أبي معشر ، ولكن قال : ليلة الاثنين ، ومثله عن ابن البرقي ، وثبت كذلك في أواخر صحيح مسلم ، وفي رواية إبراهيم ابن سعد عن ابن إسحاق : لا ثنتي عشرة ليلة خلت منه حين اشتد الضحى ، وهذا ما جزم به الكلبي فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر . وحكاه ابن الجوزي في شرف المصطفى عن الزهري فقال : قال الزهري : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، وبه جزم النووي في السير من الروضة ، وكذا ابن النجار ، ونقل المراغي هذا عن النووي وابن النجار فقط ، وتعجب من عدم موافقته لشيء من الأقوال ، وكأنه فهم أن مرادها

(١) عدل بهم : مال بهم

اختلاف
العلماء في تاريخ
مقدمة المدينة

المدينة نفسها بعد الخروج من قُبَاء ، وليس ذلك مرادها ؛ فإن ابن النجار عبر بقوله :
فعدل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن
عوف ، وذلك يوم الاثنين لاثني عشر من شهر ربيع الأول ، وأما النووي وإن
عبر بالمدينة فليس مراده سوى ذلك ، والعلماء كلهم يطلقون على ذلك قدوم المدينة .
وفي شرف المصطفى لابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ولد رسول
الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ، واستُئني يوم الاثنين ، ورفع الحجر يوم الاثنين ،
وخرج مهاجرا من مكة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وقبض يوم
الاثنين . وفي روضة الأقبهرى : قال ابن الكلبي : خرج من الغار ليلة الاثنين
أول يوم من ربيع الأول ، وقدم المدينة يوم الجمعة لاثني عشرة ليلة خلت منه .
قال أبو عمر : وهو قول ابن إسحاق إلا في تسمية اليوم . وعند أبي سعيد في شرف
المصطفى من طريق أبي بكر بن حزم : قدم لثلاث عشرة من ربيع الأول ، وهذا
الجمع بينه وبين الذي قبله بالحمل على الاختلاف في رؤية الهلال . وعنده من
حديث عمر : ثم نزل على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ربيع
الأول ، ولعل الرواية خلتا ليوافق ما تقدم . ونقل ابن زبالة عن ابن شهاب أن
ذلك كان في النصف من ربيع الأول ، وقيل : كان قدومه في سابعه . وحزم ابن
حزم بأنه خرج من مكة لثلاث ليال بقين من صفر ، وهذا يوافق قول هشام بن
الكلبي إنه خرج من الغار ليلة الاثنين أول يوم من ربيع الأول ، فإن كان
محفوظا فلعل قدومه قُبَاء كان يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ، وإذا ضم ذلك إلى
ما سيأتي عن أنس أنه أقام بقُبَاء أربع عشرة ليلة خرج منه أن دخوله المدينة نفسها
كان لاثني وعشرين منه ، لكن الكلبي حزم بأنه دخلها لاثني عشرة خلت
منه ؛ فعلى قوله تكون إقامته بقُبَاء أربع ليال فقط ، وبه حزم ابن حبان ؛ فإنه
قال : أقام بها الثلاثاء والأربعاء والخميس ، يعني وخرج يوم الجمعة ، فلم يعتد بيوم
الخروج ، وكذا قال موسى بن عقبة : إنه أقام فيهم ثلاث ليال ؛ فكأنه لم يعد

يوم الدخول ولا الخروج . وعن قوم من بنى عمرو بن عوف أنه أقام فيهم اثنين وعشرين يوما ، حكاه ابن زبالة . وفي البخارى من حديث أنس « أقام فيهم أربع عشرة ليلة^(١) » وهو المراد في رواية عائشة بقولها « بضع عشرة ليلة^(٢) » وقال موسى ابن عقبة عن ابن شهاب : أقام فيهم ثلاثا ، قال : وروى ابن شهاب عن مجمع بن حارثة أنه أقام اثنين وعشرين ليلة . وقال ابن إسحاق : أقام فيهم خمسا ، وبنو عمرو بن عوف يزعمون أكثر من ذلك . قال الحافظ ابن حجر : أنس ليس من بنى عمرو بن عوف ؛ فإنه من الخزرج ، وقد جزم بأربع عشرة ليلة ، فهو أولى بالقبول ، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتأريخ فكتب من حين الهجرة في ربيع ، رواه الحاكم في الإكليل ، وهو مُعْضَل ، والمشهور أن ذلك كان في خلافة عمر رضى الله عنه ، وأن عمر قال : الهجرة فَرَقَتْ بين الحق والباطل ، فأرخ بها ، وابتدأ من المحرم بعد إشارة على وعثمان رضى الله عنهما بذلك ، وقد ذكرنا ما قيل في سببه في الأصل ، وأفاد السهيلي أن الصحابة رضى الله عنهم أخذوا التأريخ بالهجرة من قوله تعالى « لَمَسْجِدٍ أُسَسِّدْ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ^(٣) » وفي الصحيح أنهم لما قدموا قام أبو بكر للناس : أى يتلقاهم ، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ يَحْبِي أَبَا بَكْرٍ ، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل أبو بكر حتى ظَلَّلَ عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتا ، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الْأَنْصَارِ مَنْ لَمْ يَكُنْ رَأَاهُ يَحْسِبُهُ أَبَا بَكْرٍ ، حتى إذا أصابته الشمس أقبل أبو بكر بشيء أظله به ، وفي رواية ابن إسحاق : حتى رأينا أبا بكر يَنْحَازُ له عن الظل ، فعرفناه بذلك

ابتداء التأريخ
من الهجرة

(١) في المطبوعات «أربع عشرة ليلة» و«بضع عشرة ليلة» تطبيع

(٢) من سورة التوبة من الآية ١٠٨

ونزل أبو بكر رضى الله عنه على حبيب^(١) بن إساف أحد بني الحارث بن الخزرج بالسُّنَح ، ويقال : على خارجة بن زيد منهم .
وأقام على رضى الله عنه بعد مخرجه صلى الله عليه وسلم أياما ، قال بعضهم : ثلاثة ، حتى أدّى للناس ودائعهم التي كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم وخلفه ردها ، ثم خرج فلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء ، فنزل على كلثوم بن الهدم ، قال فيمارواه رزين : فيينا أنا بائت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا برجل يضرب باب امرأة ، فخرجت فأعطاها شيئا وانصرف ، ثم فعل ذلك ليلة ثانية أيضا ، فذكرت ذلك لها فقالت : هذا سهل بن حنيف يغدو كل ليلة على أصنام قومه فيكسرها ثم يأتي بها لأوقدها حطباً ، وقد علم أن ليس لي من الحطب شيء .

وروى يحيى عن عبد العزيز بن عبيد الله بن عثمان بن حنيف قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم [على] بنى عمرو بن عوف ، وقد كان بين الأوس والخزرج ما كان من العداوة ، وكانت الخزرج تخاف أن تدخل دار الأوس ، وكانت الأوس يخاف أن تدخل دار الخزرج ، وكان أسعد بن زُرارة قتل نبتل بن الحارث يوم بُعَاث ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين أسعد بن زُرارة ؟ فقال سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد المنذر ورفاعة بن عبد المنذر : كان يارسول الله أصاب منا رجلا يوم بُعَاث ، فلما كانت ليلة الأربعاء جاء أسعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُتَقَنَّعاً بين المغرب والعشاء ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا أبا أمية ، جئت من منزلك إلى هنا وبينك وبين القوم ما بينك ؟ قال أبو أمية : لا والذي بعثك بالحق ما كنت لأسمع بك في مكان إلا جئت ، ثم بات عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح ، ثم غدا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن خيثمة ورفاعة ومبشر ابني عبد المنذر : أجبروه ، قالوا : أنت يارسول الله فأجره فجوارنا في جوارك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجبره

(١) حبيب بن إساف الخزرجي : اختلف في ضبط اسمه ؛ فذكره الطبراني وابن عبد البر بالحاء المهملة كما هنا ، وقال ابن حجر : وهو تصحيف ، والصواب أنه «حبيب» بالحاء المعجمة مصغرا

بعضكم ، فقال سعد بن خيثمة : هو في جوارى ، ثم ذهب سعد بن خيثمة إلى أسعد ابن زُرارة في بيته فجاء به مُخَاصِرَةً يَدُهُ في يده ظُهُراً حتى انتهى به إلى بني عمرو ابن عوف ، ثم قالت الأوس : يا رسول الله كلنا له جار ، فكان أسعد بن زُرارة بعدُ يغدو ويروح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

وكان لكثوم بن الهمد بقُبَاء مرَّ بَد ، والمربد : الموضع الذي يبسط فيه التمر ليبس ، فأخذه منه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فأسَّسه وبنَّاه مسجداً كما رواه ابن زبالة وغيره .

وفي الصحيح عن عروة : فلبث في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسَّس المسجد الذي أسس على التقوى^(۱) ، وفي رواية عبدالرزاق عنه قال : الذين بنى فيهم المسجد الذي أسس على التقوى هم بنو عمرو بن عوف ، وكذا في حديث ابن عباس عند ابن عابد ، ولفظه : ومكث في بني عمرو بن عوف ثلاث ليالٍ ، واتخذ مكانه مسجداً فكان يصلي فيه ، ثم بنَّاه بنو عمرو بن عوف ؛ فهو الذي أسس على التقوى .

وروى يونس بن بكير في زيادات المغازي عن المسعودي عن الحكم بن عتيبة قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم فنزل بقُبَاء قال عمار بن ياسر : ما لرسول الله صلى الله عليه وسلم بُدٌّ من أن يجعل له مكاناً يستظل به إذا استيقظ ويصلي فيه ، فجمع حجارة فبنى مسجد قُبَاء ، فهو أول مسجد بُنى ، يعني لعامة المسلمين أو للنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وهو في التحقيق أول مسجد صلى فيه بأصحابه جماعة ظاهراً ، وإن كان قد تقدم بناء غيره من المساجد ، فقد روى ابنُ أبي شبة عن جابر قال : لقد لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سنتين نعلم المساجد ونقيم الصلاة ، ولذا قيل : كان المتقدمون في الهجرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنصار بقُبَاء قد بنَّوا مسجداً يصلون فيه ، يعني هذا (۱) الإشارة إلى قوله تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه)

المسجد ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وورد قُبَاءَ صلى بهم فيه إلى بيت المقدس ، ولم يُحَدِّث فيه شيئاً : أى فى مبدأ الأمر ؛ لأن ابن شبة روى ذلك ، ثم روى أنه صلى الله عليه وسلم بنى مسجد قُبَاءَ وقدم القبلة إلى موضعها اليوم ، وقال : جبريل يؤم بى البيت ، وقد اختلف فى المراد بقوله تعالى « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » فالجمهور على أن المراد به مسجد قُبَاءَ ، ولا ينافيه قوله صلى الله عليه وسلم لمسجد المدينة « هو مسجدكم هذا » إذ كل منهما أسس على التقوى على ما سيأتى. إيضاحه .

وفى الكبير للطبرانى — وفيه ضعيف — عن جابر بن سمرة قال : لما سأل أهل قُبَاءَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أن يبنى لهم مسجداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لِيَقُمْ بَعْضُكُمْ فِيرَكِبُ النَّاقَةَ » فقام أبو بكر رضى الله عنه فركبها فخر كها فلم تنبعث ، فرجع فقعد ، فقام عمر رضى الله عنه فركبها فلم تنبعث ، فرجع فقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « لِيَقُمْ بَعْضُكُمْ فِيرَكِبُ النَّاقَةَ » فقام على رضى الله عنه فلما وضع رجله فى غَرْزِ الرِّكَابِ وثبت به ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَرْخِ زِمَامَهَا ، وَابْنُوا عَلَى مَدَارِهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ » .

وروى الطبرانى — وفيه من لم يعرف — عن جابر أيضاً قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال لأصحابه « انطلقوا بنا إلى أهل قُبَاءَ نسلم عليهم ، فاتاهم فسلم عليهم ، فرحبوا به ، ثم قال : يا أهل قُبَاءَ ائمنوني بأحجار من هذه الحرة ، فجمعت عنده أحجار كثيرة ، ومعه عَنَزَةٌ له ^(۲) ، فخط قبلتهم ، فأخذ حجراً فوضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أبا بكر ، خذ حجراً فضمه إلى حَجَرِي ، ثم قال : يا عمر خذ حجراً فضمه إلى جنب حَجَرِ أَبِي بَكْرٍ ، ثم قال : يا عثمان خذ حجراً فضمه إلى جنب حجر عمر ، ثم التفت إلى الناس فقال : لِيَضَعُ كُلُّ رَجُلٍ حَجَرَهُ حَيْثُ أَحَبَّ عَلَى ذَلِكَ الْخَطِّ .

(۱) يعنى يقصد بى جهة بيت الله الحرام ، والمراد أنه يحمر له القبلة إلى جهته ، وانظر ماسياتى للمؤلف فى ص ۲۵۳

(۲) العنزَة — بفتح الحاء — عصا مثل نصف الرمح لها سنان مثل سنان

متى في
مسجد قباء

قلت : وهو يقتضى أن هذا البنيان لم يكن عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى قُباء ، بل بعد قدوم عثمان رضى الله عنه من الحبشة ؛ فإنه كان قد هاجر إلى أرض الحبشة فاراً بدينه مع زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أول خارج إليها ، ثم هاجر الهجرة الثانية إلى المدينة ؛ فيمكن أن النبي صلى الله عليه وسلم أسَّسه عند قدومه ، ثم بناه بعد ذلك ، وإلا فلم يكن عثمان رضى الله عنه حاضراً ، كذا نبه عليه بعضهم ، ولهذا قال السهيلي : أول مَنْ وضع حجراً رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أبوبكر ، ثم عمر ، ولم يذكر عثمان ، ثم قال : وصلى فيه نحو بيت المقدس قبل أن يأتى المدينة ، انتهى . وسيأتى عند ذكره في المساجد عن عمر رضى الله عنه أنه قال : والذي نفسى بيده لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وأصحابه تنقل حجارتهم على بطوننا ، ويؤسس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجبريل يؤم به البيت ^(١) ، ولم أر من نبه على تعيين زمان قدوم عثمان من الحبشة ، وسيأتى فى بنائه صلى الله عليه وسلم لمسجد المدينة أخبار تقتضى حضور عثمان له ، وهو محتمل أيضاً للبناء الأول والثانى ، وسبق فى الفصل قبله عدُّ عثمان فيمن قدم المدينة قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إليها ، وهو كذلك فى كلام ابن إسحاق .

وقال المحب الطبرى : الظاهر أن قدوم عثمان من الحبشة كان قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم أو بعدها وقبل وقعة بدر ؛ لأنه صحَّ أنه كان فى وقعة بدر متخلفاً بالمدينة على زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة ، ووقعة بدر فى الثانية ، وكان قدوم أكثر مهاجرى الحبشة فى السابعة كما سيأتى ، والله أعلم .

وفى الكبير للطبرانى ورجاله ثقات عن الشَّموُس بنت النعمان قالت : نظرتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم ونزل وأسس هذا المسجد مسجد قُباء ،

(١) انظر الهامشة ١ فى ص ٢٥١ وانظر ماسيأتى للمؤلف فى ص ٢٥٣

فرايته يأخذ الججر أو الصخرة حتى يهصره الحجر ، وأنظر إلى بياض التراب على بطنه أو سُرَّته ، فيأتى الرجل من أصحابه ويقول : أبى وأمى يا رسول الله أعطينى أكفك ، فيقول : لا ، خذ مثله ، حتى أسسه ، ويقول : إن جبريل عليه السلام هو يؤم الكعبة ، قالت : فكان يقال : إنه أقوم مسجد قبله .

قلت : قد صح أنه صلى الله عليه وسلم كان يستقبل بيت المقدس حتى نسخ ذلك ، وجاءت القبلة وهم في صلاة الصبح فأخبرهم ، وكانت وجوههم إلى الشام ، فاستداروا إلى الكعبة ؛ فيحتمل أن جبريل عليه السلام كان يؤم به البيت ليستدل به على جهة بيت المقدس لتقابل الجهتين ، ولعلمه بما يؤول إليه الأمر من استقبال الكعبة ، أو أنه صلى الله عليه وسلم كان مخيراً في ابتداء الهجرة في التوجه إلى بيت المقدس أو إلى الكعبة كما قاله الربيع فأم به جبريل البيت لذلك ، واختياره الصلاة لبيت المقدس أولاً لاستمالة اليهود ، أو أن استقبال الكعبة كان مشروعاً في ذلك الوقت ثم نسخ ببيت المقدس ثم نسخ بالكعبة ، لما قاله ابن العربى وغيره من أن القبلة نسخت مرتين ، أو أن ذلك تأسيس آخر غير التأسيس الأول ، ويدل لهذا الأخير ما قدمناه من رواية ابن شبة .

وقوله في حديث الشموس المتقدم « حتى يهصره الحجر » أى يميله . وأورده المجد من رواية الخطابى بلفظ آخر ، فقال : وروى الخطابى عن الشموس بنت النعمان قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بنى مسجد قباء يأتى بالحجر قد صهره ^(١) إلى بطنه فيضعه ، فيأتى الرجل يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدعه ويأخذ غيره ، ثم قال : صهره وأضره إذا ألصقه بالشئ ، ومنه اشتقاق الصهر في القرابة .

وروى ابن شبة أيضاً أن عبد الله بن رَوَاحَة كان يقول وهم يبنون في مسجد قباء :

(١) أشار ابن الأثير إلى رواية « كان يؤسس مسجد قباء فيصهر الحجر العظيم

إلى بطنه » أى يدنيه ويقربه

* أَفْلَحَ مَنْ يَعَالِجُ الْمَسَاجِدَا *

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « الْمَسَاجِدَا » فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ :

* وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَائِمًا وَقَاعِدًا *

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « وَقَاعِدًا » فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ :

* وَلَا يَبِيتُ اللَّيْلَ عَنْهُ رَاقِدًا *

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « رَاقِدًا » وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الحادى عشر

فِي قَدُومِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاطْنِ الْمَدِينَةِ ، وَسَكْنَاهُ بِدَارِ أَبِي أَيُّوبَ
الْأَنْصَارِيِّ ، وَأَمْرِهِ هَذِهِ الدَّارَ ، وَمَا آتَى إِلَيْهِ ، وَمَا وَقَعَ مِنَ الْمُوَاخَاةِ بَيْنِ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .

قَالَ أَهْلُ السَّيْرِ : ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرْسِلَ إِلَى مَلَأُ
بَنِي النَّجَارِ ، فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِينَ بِالسِّيُوفِ ، وَكَانُوا أَخُوَالَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ هَاشِمَ
ابْنَ عَبْدِ مَنْفٍ تَزَوَّجَ مِنْهُمْ امْرَأَةً ، وَهِيَ سَلْمَى بِنْتُ عَمْرِو ، فَجَاءَهُ مِنْهَا وَلَدٌ ،
فَلَمَّا مَاتَ هَاشِمٌ وَكَبُرَ الْغَلَامُ مَرَّ بِهِ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَأَبْصَرُوهُ وَقَدْ تَرَعَّرَ وَهُوَ يَنْتَضِلُ^(۱)
وَيَقُولُ : أَنَا الْقُرَشِيُّ ، فَجَاءُوا وَأَخْبَرُوا عَمَّهُ الْمُطَّلِبَ بْنَ عَبْدِ مَنْفٍ ، فَذَهَبَ فَجَاءَ
بِهِ ، فَدَخَلَ بِهِ مَكَّةَ وَهُوَ رِدْفُهُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُ السَّفَرِ ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ : هَذَا
عَبْدُ الْمُطَّلِبِ ، فَغَلَبَ عَلَيْهِ هَذَا الْأَسْمُ ؛ فَلِذَلِكَ كَانَ أَخُوَالَهُ بَنِي النَّجَارِ ، فَقَالُوا
لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ارْكَبُوا آمَنِينَ مُطَاعِينَ .

وَفِي الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ : قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَزَلَّ
فِي حَيٍّ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، فَأَقَامَ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، ثُمَّ أُرْسِلَ إِلَى
بَنِي النَّجَارِ فَجَاءُوا بِالسِّيُوفِ ، ثُمَّ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ بِلَفْظٍ آخَرَ ، فَقَالَ : قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

(۱) يُقَالُ « اتَّضَلَّ الْقَوْمُ » أَيْ تَرَامُوا بِالسَّهَامِ لِلْسَبْقِ

عليه وسلم فنزل جانب الحرّة، ثم بعث إلى الأنصار فجاؤا النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب حتى نزل جانب دار أبي أيوب . قال الحافظ ابن حجر : تقديره فنزل جانب الحرّة فأقام بقبَاء المدة التي أقام بها وبنى بها مسجده ، ثم بعث إلى آخره .

وفي التاريخ الصغير للبخارى عن أنس أيضاً قال : إني لأشعّى مع الغلمان إذ قالوا : محمد جاء ، فننطلق فلا نرى شيئاً ، حتى أقبل وصاحبه^(١) ، فكمننا^(٢) في بعض جوانب المدينة ، وبعثنا رجلاً من أهل البادية يؤذن بهما^(٣) ، فاستقبله خمسمائة من الأنصار ، فقالوا : انطلقا آمنين مطاعين ، الحديث ، ففيه طى لذكر قصة قبَاء ، إلا أن يريد أن ذلك وقع في مبدأ الأمر عند نزوله صلى الله عليه وسلم بقبَاء ، وهو ما اقتضاه رواية رزين ، فإنه قال : عن أنس قال : كنت إذ قدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ابن تسع سنين ، فسمع الغلمان والولائد يقولون : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنذهب فلا نرى شيئاً ، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، فكمننا في خرب^(٤) في طرف المدينة ، وأرسلنا رجلاً يؤذن^(٥) لهما الأنصار ، فاستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار ، حتى انتهوا إليهما ، قال : فما رأيتُ مثل ذلك اليوم قط ، والله لقد أضاء منها كل شيء ، ونزلا على كلثوم بن الهدم ، ثم ذكر تأسيس مسجد قبَاء ، ثم قال : ثم خرج منهار رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد المدينة ، فلا يمر بدار من دور الأنصار إلا عرّضوا عليه ، وذكروا ما سيأتى ؛ فهو صريح في أن ذلك كان عند مقدّمه صلى الله عليه وسلم في بدء الأمر .

وكان خروجه صلى الله عليه وسلم من قبَاء يوم الجمعة ، ونعيينه من الشهر مرتب على ما تقدم في قدومها .

(١) الأفصح في العربية «أقبل هو وصاحبه»

(٢) كمننا : استترا (٣) يؤذن بهما : يعلم ويخبر

(٤) ذكر ابن الأثير أنه يروى «خرب» بخاء معجمة مفتوحة وراء مهملة مكسورة

على أنه جمع خربة ، ويروى بخاء مهملة وآخره ثاء مثناة ، وهو الموضع المحروث للزراعة

وروی یحییٰ اُنہ صلی اللہ علیہ وسلم لما شَخَصَ : اُی من قباء ، اجتمعت بنو عمرو بن عوف فقالوا : یا رسول اللہ اُخْرَجْتَ مَلالاً لِنَا اُم ترید داراً خیراً من دارنا ؟ قال : اِنی اُمِرْتُ بِقَرِیةٍ تَأْکُلُ الْقَرِی ، فخلوها - اُی ناقتہ - فاینہا مأمورة فخرج صلی اللہ علیہ وسلم من قُبا ، فعرض له قبائل الأنصار کلُّہم یدعوه ویعدُّوہ النصرۃ والمنعۃ ، فیقول : خلوها فاینہا مأمورة ، حتی أدركتہ الجمعة فی بنی سالم ، فصلی فی بطن الوادی الجمعة وادی ذی صلب .

قلت : قیل كانت ہذہ اول جمعة صلاھا رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم بالمدينة ، وقیل : اِنہ کان یصلی الجمعة فی مسجد قُبا فی إقامتہ هناك ، واللہ اعلم .

وروی أیضا عن عمارۃ بن خزیمة قال : لما کان یوم الجمعة وارتفع النہار دَعَا رسولُ اللہ صلی اللہ علیہ وسلم بِراحلتہ ، وَحَشَدَ الْمَسْلُومِ ، وَلَبَسُوا السِّلَاحَ ، وَرَكِبَ رسولُ اللہ صلی اللہ علیہ وسلم ناقتہ القصوی ، والناس معہ عن یمینہ وعن شمالہ وخلفہ : منهم الماشی والراکب ، فاعترضنا الأنصارُ فما یمر بدار من دورہم إلا قالوا ہلم یا رسول اللہ إلی العز والمنعۃ والثروة ، فیقول لہم خیراً ، یدعو ، ویقول : اِنہا مأمورة ، خلوا سبیلہا ، فمر بنی سالم ، فقام إلیہ عِثْبَانُ بن مالک ، ونوفل ابن عبد اللہ بن مالک بن العجلان وهو آخذ بزمام راحلتہ یقول : یا رسول اللہ أنزل فینا فإن فینا العدد والعدة والحلقة ، ونحن أصحاب العصا ^(۱) والحدائق والدرك ، یا رسول اللہ قد کان الرجل من العرب یدخل ہذہ البَحْرَةَ خائفاً فیلجأ إلینا فنقول لہ : قوئل حیث شئت ، فجعل رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم یتبسم ویقول : خلوا سبیلہا فاینہا مأمورة ، فقام إلیہ عُبَادَةُ بن الصامت وعباس ابن الصامت بن نَضْلَةَ بن العَجْلان فجعلا یقولان : یا رسول اللہ أنزل فینا ، فیقول النبی صلی اللہ علیہ وسلم : باریک اللہ علیکم ، اِنہا مأمورة ، فلما اُنی

(۱) فی المطبوعات « ونحن أصحاب الفضاء » وما أثبتناہ عن الخلاصة

مسجد بنی سالم—وهو المسجد الذي في الوادي—فَجَمَعَ بِهِمْ فخطبهم ، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يمين الطريق حتى جاء بنى الحُبْلَى ، فأراد أن ينزل على عبد الله بن أبيّ ، فلما رآه ابن أبيّ وهو عند مزاحم أي الأطم مُحْتَبِيّاً قال : اذهب إلى الذين دَعَوْكَ فانزل عليهم ، فقال سعد بن عبادَةَ لَا تَجِدُ^(۱) يارسول الله في نفسك من قوله ، فقد قدمت علينا والخزرج تريد أن تملكك عليها ، ولكن هذه داري ، فمر بيني ساعدة فقال له سعد بن عبادَةَ والمنذر بن عمرو وأبو دجاجة : هلم يارسول الله إلى العز والثروة والقوة والجلد ، وسعد يقول : يارسول الله ليس من قومي أَكْثَرُ عِزّاً^(۲) وَلَا فَم يَثْرَمَنِي مع الثروة والجلد والعدد والحلقة ؛ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بَارَكَ اللهُ عَلَيْكُمْ ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يَا أَبَا ثَابِتٍ خَلِّ سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ ، فمضى ، واعترضه سعد بن الربيع وعبدُ الله بن رَوَاحَةَ وبشير بن سعد فقالوا : يارسول الله لَا تُجَاوِزْنَا فَإِنَّا أَهْلُ عِدَدٍ وَثَرَةٍ وَحَلَقَةٍ ، قال : بَارَكَ اللهُ فِيكُمْ ، خلوا سبيلها فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ ، واعترضه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو — أي من بنى بَيَاضَةَ — يقولان : يارسول الله هلم إلى المواساة والعز والثروة والعدد والقوة ، نحن أهل الدرك يارسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلوا سبيلها فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ ، ثم مرَّ بيني عَدِيّ بن النجار — وهم أخواله — فقام أبو سَليط وصرمَة بن أبي أنيس في قومهما فقالا : يارسول الله نحن أخوالك هلم إلى العدد والمنعة مع القرابة ، لَا تُجَاوِزْنَا إِلَى غَيْرِنَا يارسول الله ، ليس أحد من قومنا أولى بك منا لقرابتنا بك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلوا سبيلها فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ ، ويقال : إن أول الأنصار اعْتَرَضَهُ بنو بَيَاضَةَ ، ثم بنو سالم ، ثم مال إلى ابن أبيّ ، ثم مر على بنى عدي بن النجار ، حتى انتهى إلى بنى مالك بن النجار .

قلت : وقول بنى عدي بن النجار « نحن أخوالك » لأنهم أقاربه من جهة

(۱) لَا تَجِدُ : لَا تَغْضِبُ ، أَوْ لَا تَحْزَنُ .

(۲) أَرَادَ أَكْثَرَ نَحْلًا ، وَهُوَ كَانَ ثَرَوَةً أَهْلُ الْمَدِينَةِ .

الأمومة ؛ لأن سلمى بنت عمرو أحد بنى عدی بن النجار كانت أم جده عبدالمطلب ، وقول البراء فی حدیث الصحیح « إن النبی صلی اللہ علیہ وسلم کان أول ما قدم المدينة نزل علی أجداده ، أوقال أخواله ، من الأنصار » فیہ تجوز من حیث إنه صلی اللہ علیہ وسلم إنما نزل علی إخوانهم بنی مالک بن النجار ، أو أراد أنه نزل بخطه بنی النجار لتقارب منازلهم الجمیع ومنهم بنو عدی .

وقال الحفظ ابن حجر فی المقدمة فی الکلام علی الحدیث المذكور : هم من بنی عمرو بن عوف من الخزرج ، وكانت أم عبد المطلب جد النبی صلی اللہ علیہ وسلم منهم ، واسمها سلمی ؛ فبهم أجداده حقیقة ، وأخواله مجازا ، والشک من راوی الخبر ، انتهى .

وهو وهم ، سببه اشتباه النزول الأول بقباء بهذا النزول الذی وقع فیہ الاستقرار ، وليس بنو عمرو بن عوف ممن یوصف بذلك ، وقد تنبه له فی الشرح ؛ فذكره علی الصواب كما قدمناه ، واللہ أعلم .

وروی رزین أنه صلی اللہ علیہ وسلم سار من قباء ومعه جماعة من الأنصار فی السلاح وجمیع المهاجرین ، وذكر صلاة الجمعة ، قال : ثم ركب فجاء بنی الحُبلی فأراد أن ینزل علی عبد اللہ بن أبی بن سلول ، وكان جالسا محتبیا عند أطم له ، فقال : اذهب إلی الذین دعوك فانزل علیهم ، فقال سعد بن عبادة لرسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم : لا تجذ علیہ ، فإن أهل هذه البخرة كانوا قد أجمعوا علی أن یُعَصَّبُوهُ ویَتَوَجَّوْهُ^(۱) ، فلما رد اللہ علیہ ذلك بالحق الذی أعطاك شرق لذلك^(۲) .

قلت : الذی فی الصحیح ذکر سعد لذلك فی قصة عیادته صلی اللہ علیہ وسلم له من مرض بعد سکناه بالمدينة ، والذی فی کتب السیر عن ابن إسحاق أن الجمعة أدركته فی وادی رانونا فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة ، وكانوا أربعین ، وقیل : مائة ، فأتاه عتبان بن مالک فی رجال من بنی سالم فقالوا : یا رسول اللہ أقم عندنا

(۱) أى یلبسوه التاج والعصابة ، والمراد أنهم كانوا أرادوا تمليكه علیهم .

(۲) شرق لذلك : کنایة عن أن صدره قد ضاق بسببه .

فی العدَد والعدَّة والمنعة ، قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، لناقته ، فخلَّوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنی بياضة تلقاه زياد بن لبید وفروة بن عمرو فی رجال من بنی بياضة ، فأجابهم بمثل ماتقدم ، فخلوا سبيلها ، حتى إذا وازنت دار بنی الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربیع وخارجة بن زید وعبد الله بن رَواحة فی رجال من بلجَارث ، فأجابهم بما تقدم ، فخلَّوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا مرت بدار عدی بن النجار - وهم أخواله دُنیاً - اعترضهم سليط بن قيس فی رجال منهم ، فأجابهم بمثل ماتقدم ، حتى إذا أتت دار بنی مالک بن النجار برَكت علی باب مسجده صلی الله علیه وسلم ، ثم وثبتت وسارت غیر بعيدٍ ورسولُ الله صلی الله علیه وسلم واضعٌ لها زمامها لا یثنیها به ، ثم التفتت خلفها فرجعت إلى مَبرَکها أول مرة فبرکت فيه ، ثم تلحلت وأرزمت ^(۱) ووضعت جِراً ^(۲) عنها رسول الله صلی الله علیه وسلم ، وفي رواية أنها لما وثبتت من مبرکها الأول برکت علی باب أبي أيوب الأنصاري ، ثم ثارت منه وبرکت فی مبرکها الأول ، وفي رواية فقال رسول الله صلی الله علیه وسلم : هذا المنزل إن شاء الله .

وذكر ابن سید الناس بعد قصة بنی سالم أن راحلته انطلقت حتى وازنت دار بنی بياضة ، فذكر قصتهم - ثم قال : فانطلقت حتى إذا مرت بدار بنی ساعدة اعترضه سعد بن عبادة ، وذكر قصتهم ، ثم قال : فانطلقت حتى إذا وازنت دار بنی الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن الربیع ، وذكر قصتهم ، ثم ذكر القصة كما قدمناه .

وذكر يحيى فی رواية أخرى أنه صلی الله علیه وسلم بعد أن سار من بنی سالم تيامن ، فاتى منزل ابن أبي ، ثم مضى فی الطريق والطريق يومئذٍ فضاء حتى انتهى إلى سعد بن عبادة ، ثم اعترضت له بنو بياضة عن يساره ، ثم مضى حتى أتى بنی عدی ابن النجار ، ثم أتى إلى بنی مازن بن النجار ، فقامت إليه وجوههم ، ثم مضى حتى

(۱) فی المطبوعات « تلحلت ورزمت » وما أثبتناه عن ابن الأثير ، وتلحلت - بتقديم اللام علی الحاء - تحركت ، وأرزمت : صوتت من غیر أن تفتح فمها .
(۲) الجران - بزنة الكتاب - باطن العنق .

انتہی إلى باب المسجد وقد حشدت^(۱) بنو مالک بن النجار فہم قیامٌ ينتظرونہ إلى أن طلع فہش إلیہ أسعد بن زُرارة وأبو أيوب وعمارة بن حزم وحاتثة بن النعمان يقول : یا رسول اللہ قد علمت الخزرجُ أنه ليس ربیع أوسع من ربیعی، قال : فبرکت بین أظهرهم ، فاستبشروا ، ثم نهضت كأنها مذعورة ترجع الحنین^(۲) ، فساءم ذلك ، وجعلوا یعدونَ بجنبہا حتی أتت إلى زقاق الحبشی بیئر جمل فبرکت والنبی صلی اللہ علیہ وسلم علیہا مُرَّخٍ لها زِمَامَها ثم قامت عَوْدَها علی بَدْئِها تزد فی المشی حتی برکت علی باب المسجد وضربت بِجَرَائِہا وعدلت ثِفَنَاتِہا^(۳) ، وجاء أبو أيوب والقومُ یكلمونه فی النزول علیہم ، فأخذ رَحْلَہ فأدخلہ ، فنظر رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم إلى رَحْلَہ وقد حط فقال « المرء مع رحلہ » .

وذکر رزین اعتراض بنی سالم لہ وقولہ « خلوا سبیلہا فإنہا مأمورة » ثم قال : فمر بنی بیاضة فکذلك ، ثم بنی ساعدة فکذلك ، ثم بدار بنی الحارث بن الخزرج فکذلك ، ثم مر بدار عدی بن النجار فکذلك ، فمضت حتی إذا أتت دار بنی مالک بن النجار برکت علی باب المسجد الیوم ، ولم یُنزل رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم حین برکت ، ثم وثبت فسارت غیرَ بعيدٍ ثم التفتت خلفہا فرجعت إلى مبرکہا الأول ، فنزل إذ ذاک رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم فقال : أئی الدور أقرب ؟ فقال أبو أيوب : داری ، هذا بابی ، وقد حَطَطْنَا رَحْلَکَ فیہا ، فقال « المرء مع رَحْلِہ » فمضت مثلاً .

وروی ابن زبالة أنها لما برکت بیاب أبی أيوب جعل رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم یرید أن یُنزل فتحلحل^(۴) فیطیف حولہا أبو أيوب فیجد جبَّار بن صخر أخا بنی سلمة ینخسہا برجلہ ، فقال أبو أيوب : یاجبار عن منزلی تنخسہا؟ أما والذي بعثہ بالحق لولا الإسلام لضربتک بالسيف ، فنزل رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم فی منزل أبی أيوب ، وقرَّ قرَّارہ ، واطمأنت دارہ ، ونزل معہ زید بن حارثة .

(۱) حشدت : اجتمعت (۲) ترجع الحنین : تردده

(۳) الثفنات : جمع ثفنة - بفتح فکسر - وهی ما یلی الأرض من کل ذات أربع

عند بروکها ویحصل فیہ غلظ من أثر البروک . (۴) أنظر ھ ۱ ص ۲۵۹

وعند الحاكم عن أنس : جاءت الأنصار فقالوا : إلينا يارسول الله ، فقال : دعوا الناقة فإنها مأمورة ، فبركت على باب أبي أيوب .

وروى الطبراني في الأوسط وفيه صديق بن موسى - قال الذهبي : ليس بالحجة - عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فاستناخت راحلته بين دار جعفر بن محمد بن علي ودار الحسن بن زيد ، فأتاه الناس فقالوا : يارسول الله المنزل ، فانبعثت به راحلته ، فاستناخت ثم تحلجت^(۱) ، وللناس ثم عريش كانوا يرشونه ويعمرونه ويبردون فيه ، حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن راحلته فأوى إلى الظل فنزل فيه ، فأتاه أبو أيوب فقال : يارسول الله منزلي أقرب المنازل إليه [أ] فأنقل رحلك ؟ قال : نعم ، فذهب برحله إلى المنزل ، ثم أتاه آخر فقال : يارسول الله انزل علي ، فقال : إن الرجل مع رحله حيث كان ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في العريش اثنتي عشرة ليلة حتى بنى المسجد قلت : دار جعفر بن محمد هي التي في قبلة دار أبي أيوب ملاصقة لها ، ودار الحسن بن زيد تقابلها من جهة المغرب ، بينهما الشارع .

وعند ابن عائد وسعيد بن منصور أن ناقتة صلى الله عليه وسلم استناخت به أولا ، فجاءه ناس فقالوا : المنزل يارسول الله ، فقال : دعوها ، فانبعثت حتى استناخت عند موضع المنبر من المسجد ، ثم تحلجت^(۱) ، فنزل عنها ، فأتاه أبو أيوب فقال : منزلي أقرب المنازل فأذن لي أن أنقل رحلك ، قال : نعم ، وأناخ الناقة في منزله وقال الواقدي : أخذ أسعد بن زرارة بزمام راحلته فكانت عنده ، ونقله الجافظ ابن حجر عن ابن سعد ونقل الأقرشي في روضته عن ابن نافع صاحب مالك في أثناء كلامه نقله عن مالك أن ناقتة صلى الله عليه وسلم لما أتت موضع مسجده بركت وهو عليها ، وأخذ الذي كان يأخذه عند الوحي ، ثم ثارت من غير أن تزجر وسارت غير بعيد ، ثم التفتت ، ثم عادت إلى المكان الذي

(۱) انظر الهامشة رقم ۱ في ص ۲۵۹

برکت فيه أول مرة فبرکت ، فسرّی عنه ، فأمر أن يحط رحله ، وفي بعض الروايات أن القوم لما تنازعوا أيهم ينزل عليه قال : إني أنزل على أخوال عبد المطلب أكرمهم بذلك وفي البخارى من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم أقبل يسير حتى نزل جانب دار أبى أيوب ، فقال : أى بيوت أهلنا أقرب ؟ أى أخوال جده ، فقال أبو أيوب : أنا يا نبي الله ، هذه دارى ، وهذا بابى ، قال : فانطلق فهبى لنا مقيلاً^(۱) . وفي رواية لابن زبالة : اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه ، فنزل منزله وتخيّره ، وأراد أن يتوسط الأنصار كلها .

قال المطرى : وهو غير مناف لما تقدم من قوله « دَعُوها فإنها مأمورة » ؛ لأن الله اختار له ما كان يختار لنفسه .

وفرّح أهل المدينة بمقدمه صلى الله عليه وسلم إليهم فرحاً شديداً ؛ ففي البخارى من حديث البراء « مارأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم » الحديث ، وروى أبوداود أن الحبشة لعبت بحرابهم فرحاً بقدمه صلى الله عليه وسلم .

قال رزين : وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير^(۲) يقلن :

طلع البدر علينا من ثنّيات الودّاع
وجبّ الشكر علينا ما دعا لله داع

وفي رواية :

أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
والعلمان والولائد يقولون : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرحاً به .
وفي شرف المصطفى : لما بركت الناقة على باب أبى أيوب خرج جوار من بنى النجار يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جار

(۱) المقيّل : الموضع الذى تقضى فيه القيولة ، هذا أصله .

(۲) الأجاجير : جمع إجار ، وهو سطح المنزل .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَتُحِبُّبْنَانِي ؟ قلن : نعم يا رسول الله ، فقال : والله وأنا أحبكن ، قالها ثلاثا ، وفي رواية « يعلم الله إني أحبكن » . وأخرج الحاكم من طريق إسحاق بن أبي طلحة : فخرجت جوارٍ من بنى النجار يضر بن بالدف وهن يقلن ، وذكر البيت المتقدم .

وروى عن أنس قال : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة أظلم منها كل شيء ، فلما دخل المدينة أضاء منها كل شيء ، ورواه ابن ماجة بلفظ : لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شيء . ورواه أبو داود بلفظ : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة لعبت الحبشة بحراهم فرحا بقدمه صلى الله عليه وسلم ، وما رأيت يوما كان أحسنَ ولا أضوأ^(١) من يوم دخل علينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، أضاء منها كل شيء ، الحديث . ورواه ابن أبي خيثمة عنه بلفظ : شهدت يوم دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلم أر يوما أحسن منه ولا أضوأ^(١)

وروى يحيى عن عبد الله بن سلام : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس^(٢) إليه ، وقيل : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنجت أنظر ، فلما تبينت وجهه علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شيء سمعته يتكلم قال : أيها الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلون الجنة بسلام ، وهذا الحديث بنحوه فى الترمذى وصححه

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة وأبارافع إلى مكة أعطاهما خمسمائة درهم وبعيرين ، فقدا عليه بفاطمة وأم كلثوم بنتيه وسودة زوجته وأم

(١) أضوأ : أشد ضوءا

(٢) انجفل الناس إليه : ذهبوا نحوه مسرعين ، يقال : جفل ، وأجفل ، وانجفل .

أَيْمَنَ زَوْجَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، وَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ مَعَهُمْ بَعِيَالِ
أَبِي بَكْرٍ فِيهِمْ عَائِشَةُ وَأَخْتُهَا أَسْمَاءُ زَوْجُ الزَّيْبِرِ وَأُمُّهَا أُمُّ رُومَانَ، فَلَمَّا قَدَمُوا الْمَدِينَةَ
أَنْزَلَهُمْ فِي بَيْتِ حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ.

وَقَالَ رَزِينٌ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَرْسَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَرْيَقِطٍ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ لِيَأْتِيَهُ
بِعَائِشَةَ وَأُمِّ رُومَانَ أُمِّهَا وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ

قَالَ بَعْضُهُمْ: وَوَجَدُوا طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ عَلَى خُرُوجٍ، فَخَرَجَ مَعَهُمْ،
فَقَدَمُوا كُلُّهُمْ.

وَرَوَى ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِي نَزَلَ فِي السُّفْلِ وَأَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ فِي الْعُلُوِّ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا نَبِيَّ
اللَّهُ، يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنِّي أَكْرَهُ وَأَعْظِمُ أَنْ أَكُونَ فَوْقَكَ وَتَكُونَ تَحْتِي، فَظَهَرَ
أَنْتَ فَكُنْ فِي الْعُلُوِّ وَنَزِلْ نَحْنُ فَنَكُونَ فِي السُّفْلِ، فَقَالَ: يَا أَبَا أَيُّوبَ إِنْ أُرْفِقُ
بُنَا وَبِمَنْ يَغْشَانَا أَنْ نَكُونَ فِي سُفْلِ الْبَيْتِ، قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُفْلِهِ، وَكُنَّا فَوْقَهُ فِي الْمَسْكَنِ، فَلَقَدْ انْكَسَرَ حُبٌّ لَنَا^(۱) فِيهِ مَاءٌ،
فَقَمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ بِقَطِيفَةٍ لَنَا مَالْنَا لِحَافٍ غَيْرَهَا نَنْشَفُ بِهَا الْمَاءَ تَخَوُّفًا أَنْ يَقْطُرَ
عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ شَيْءٌ فَيُؤْذِيهِ.

قُلْتُ: وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ سَبَبُ سُكْنَاهُ فِي الْعُلُوِّ بَعْدَ ذَلِكَ، وَالَّذِي
فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ عَلَيْهِ، فَنَزَلَ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السُّفْلِ وَأَبُو أَيُّوبَ فِي الْعُلُوِّ، فَانْتَبَهَ أَبُو أَيُّوبَ لَيْلَةً فَقَالَ: نَمَشَى فَوْقَ
رَأْسِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فَتَنَحَّوْا^(۲) وَبَاتُوا فِي جَانِبٍ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: السُّفْلُ أَرْفَقُ، فَقَالَ: لَا أَعْلُو سَقِيفَةً
وَأَنْتَ تَحْتَهَا، فَتَحْوِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعُلُوِّ وَأَبُو أَيُّوبَ فِي السُّفْلِ

(۱) الحب - بضم الحاء المهملة - الحايبة (۲) تنحوا: ابتعدوا

وقد قدمنا^(١) في آخر الفصل الرابع أن ابن إسحاق ذكر أن هذا البيت بنَاهُ
تُبَّعُ الأول لما مر بالمدينة للنبي صلى الله عليه وسلم ينزله إذا قدم المدينة ، فتداولَ
البيتَ المَلَكُ إلى أن صار لأبي أيوب ، وأن أبا أيوب من ذرية الحَبَر الذي أسلمه
تبع كتابه .

وقد نقل الحافظ ابنُ حجر ذلك عن حكاية ابن هشام في التيجان ، قال :
وأورده ابن عساكر في ترجمة تبع ، فما نزل صلى الله عليه وسلم إلا في بيته ، وقد
ابتاع المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بيتَ أبي أيوب هذا من ابن
أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري بألف دينار ، فتصدق به ، وهو في شرقِ المسجد
المقدس كما سيأتي في الدور المطيفة بالمسجد

وقد اشترى الملكُ المظفر شهابُ الدين غازي بن الملك العادل سيف الدين
أبي بكر بن أيوب بن شادي عَرَصَةَ دار أبي أيوب هذه ، وبنها مدرسة للمذاهب
الأربعة ، ووقف عليها أوقافاً بمِائَتَيْ فارقين^(٢) التي هي دار مُلكه ، وبدمشق لها وقف
آخر أيضاً ، ولها بالمدينة الشريفة أيضاً وقف من النخيل وغيرها ، غير أنه شمل
ذلك ماعم الأوقاف ، وكان بها كتب كثيرة نفيسة ففرقت أيدي سبأ . وآل
حالُ هذه المدرسة إلى التعطيل ، فسكنها بعض نظارها ، فتشاءمت على عياله ،
واتصل ذلك بسلطان مصر فخرج منها ، والمدرسة قاعتان : كبرى ، وصغرى . وفي
إيوان الصغرى الغربى خزانة صغيرة جدا ، فما يلي القبلة فيها محراب

قال المطري : يقال إنها مَبْرَكُ ناقة النبي صلى الله عليه وسلم
وكانت إقامته صلى الله عليه وسلم بهذه الدار كما أفاده ابن سعد سبعة أشهر :
أى بتقديم السين على الباء ، حتى بنى مساكنه . وقال رزين : أقام عند أبي أيوب
من شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الثانية ، وقال الدولابي : شهراً . وفي كتاب
يحيى عن زيد بن ثابت : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب

(١) انظر ص ١٨٨ وما بعدها من هذا الجزء

(٢) مِائَتَا فارقين : مدينة بديار بكر (ياقوت ٢١٤/٧)

لم يدخل منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم هديةً أولُ من هدية دخلتُ بها عليه قصعة مثرودة خبز بروسمننا ولبنا فأضعها بين يديه ، فقلت : يا رسول الله أرسلت بهذه القصعة أمي ، فقال : بارك الله فيها ، ودعا أصحابه فأكلوا ، فلم أرمِ الباب^(١) حتى جاءت قصعة سعد بن عبادَةَ على رأس غلام مُغطاة ، فأقف على باب أبي أيوب فأكشف غطاءها لأنظر ، فرأيت ثريداً عليه عراق ، فدخل بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال زيد : فقد كنا في بني مالك بن النجار ما من ليلة إلا على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم منا الثلاثة والأربعة يحملون الطعام ويتناوبون بينهم ، حتى تتحوَّل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من بيت أبي أيوب ، وكان مقامه فيه سبعة أشهر ، وما كانت تخطئه جفنة سعد بن عبادَةَ وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة

وفيه أنه قيل لأم أبي أيوب : أي الطعام كان أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم عرفتم ذلك لمقامه عنكم ؟ قالت : ما رأيته أَمَرَ بطعام فصنع له بعينه ، ولا رأيناه أتى بطعام قطُّ فعابه

وقد أخبرني أبو أيوب أنه تَعَشَّى عنده ليلة من قَصْعَةٍ أرسل بها سعدُ بن عبادَةَ طَفَيْشَل^(٢) فقال أبو أيوب : فرأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ينهل تلك القدر ما لم أره ينهل غيرها ، فكنا نعملها له ، وكنا نعمل له الهريس وكانت تعجبه ، وكان يحضر عَشَاءُهُ خمسة إلى ستة عشر كما يكون الطعام في الكثرة والقلة .

وفيه عن أبي أيوب أنهم تَكَاَفَّوْا له طعاماً فيه بعضُ هذه البقول ، فلما أتوه به كرهه وقال لأصحابه : كُلُّوا فَإِنِّي لست كأحدكم ، إني أخاف أن أُوذِيَ صاحبي^(٣)

وفي كتاب رزين عنه بعد ذكر نزوله عليه قال : وما مرت ليلة من نحو السنة إلا وتأتيه جَفَنَةُ سعدِ بن مُعَاذٍ ثم سائر الناس ، يتناوبون ذلك نُوباً ، قال أبو

(١) لم أرمِ الباب : لم أفارقه (٢) طفيشل - بزنة سفرجل - ضرب من المرق

(٣) صاحبه : الملك الذي يلازمه ، والمراد بالبقول نحو الكراث والبصل والثوم

كما سيأتي في رواية رزين التالية .

أيوب : فصنعتُ له ليلةً طعاماً ، وجعلت فيه ثُوماً ، فلم يأكل منه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ففرغت فنزلت إليه فقلت له : أحرامٌ هو؟ فقال : إني أناجى ، وأنا أكرهه لذلك ، وأما أنتم فكلوه ، قال : فقلت : فإني أكره ما تكره يارسول الله .

المواخاة
بين الأنصار
والمهاجرين

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود^(١) ، وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، واشترط لهم ، وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال فيما بلغنا : تآخَوْا في الله أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخى .

قلت : كانت هذه المواخاة بعد مقدّمه صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر ، وقيل : ثمانية ، وهو بينى المسجد ، وقيل : بعده ، وقيل : قبله ، وذكره أبو حاتم في السنة الأولى ، والظاهر أن ابتداءها كان فيها ، واستمرت على حسب مَنْ يدخل في الإسلام أو يحضر ، كما يعلم من تفاصيلها ، قيل : وكانوا تسعين رجلاً من كل طائفة خمسة وأربعون ، وقيل : مائة ، آخى بينهم على الحق والمواساة والتوارث ، وكانوا كذلك إلى أن نزل بعد بدر « وأولو الأرحام »^(٢) الآية . وقال الواقدي : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة آخى بين المهاجرين ، وآخى بين المهاجرين والأنصار .

وقال ابن عبد البر : كانت المواخاة مرتين : الأولى قبل الهجرة بمكة بين المهاجرين ، فآخى بين أبي بكر وعمر ، وهكذا حتى بقى على رضى الله عنه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما ترضى أن أكون أخاك ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : فأنت أخى في الدنيا والآخرة ، والمواخاة الثانية ما تقدم من مواخاة

(١) وادع فيه يهود : هادئهم وصالحهم . (٢) من سورة الأنفال من الآية ٧٥ .

المهاجرين والأنصار ، وهى المرادة بقول الحسن : كان التوارث بالحلف^(١) ؛ فنسخ بآية الموارث .

ولأبى داود عن أنس بن مالك : حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فى دارنا ، وحديث « لا حلف فى الإسلام » معناه حلف التوارث ، والحلف على ما منع الشرع منه ، وعبر رزين عن المواخاة بين المهاجرين والأنصار فيما نقله عن أبى حاتم بقوله : ثم آخى بين أصحابه ، ودعا لكل واحد منهم دعوة ، وقال : أبشروا أنتم فى أعلى غرف الجنة ، وقال لعلى : ما أخرجتكم إلا لنفسى ، أنت أخى ووارث لى ، وأنت معى فى الجنة فى قصرى مع ابنتى ، وقصة المواخاة الأولى أقربها الحسبك ؛ فذكر المواخاة بين أبى بكر وعمر ، وذكر جماعة ، ثم قال : فقال لعلى : يا رسول الله ، إنك آخيت بين أصحابك فمَنْ أخى ؟ قال : أنا أخوك .

وقد أنكر ابن تيمية فى الرد على ابن المطهر الرافضى المواخاة بين المهاجرين خصوصاً مواخاة النبی لعلی ، قال : لأنها شرعت للارفاق والتألف ؛ فلا معنى لها بينهم ، وهو رد للنص وغفلة عن حقيقة الحكمة فى ذلك ، مع أن بعضهم كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة ، والارتفاق ممكن ، وقد كان النبی صلى الله عليه وسلم يقوم بعلی من عهد الصبا ، واستمر ذلك .

وأخرج الحاكم وابن عبد البر بسند حسن أنه صلى الله عليه وسلم «آخى بين الزبير وابن مسعود» وهما من المهاجرين .

والتأم شمل الحيين الأوس والخزرج ببركته صلى الله عليه وسلم ، فمر شاس بن قيس - وكان شيخاً من اليهود شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم - على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فقال : قد

اليهود
تحاول الإفساد
بين الأوس
والخزرج

(١) يعنى أن الحلف كان معدوداً من أنواع العصبية فى أول الإسلام بالمدينة ،

برث به الحليف حليفه بعد مرتبة أهل الفروض والعصبية ، ثم نسخ التوارث به بالآية

اجتمع ملأً بنی قبیلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرّار ، فأمر شابا من یهود كان معه فقال : أجلس إليهم ثم اذكر يوم بُعث ، وما كان فيه ، وأنشدّهم بعض ما كانوا تقولوا فيه من الأشعار ، ففعل الشاب ذلك ، فتنازع القومُ وتفاخروا ، حتى توائب رجالان من الحیین علی الركب ، وهما أوس بن قیظی وجبّار بن صخر ، فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شتم رددناها الآن جذعة ، وغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة ، وهی الحرة ، فخرجوا إليها ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله علیه وسلم ، فخرج إليهم فیمن معه من المهاجرین حتى جاءهم فقال : یا معشر المسلمین ، الله الله ، أبدعوی الجاهلیة وأنا بین أظهرکم بعد أن هداکم الله للإسلام ، وأكرمکم به ، وقطع به عنکم أمر الجاهلیة ، واستنقذکم به من الکفر ، وألف به بینکم ؟ فعرف القوم أنها نزغة من الشیطان ، וכید من عدوهم ، فبکّوا ، وعانق الأوسُ والخزرجُ بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله علیه وسلم سامعین مطیعین قد أطفأ الله عنهم کید عدو الله شاس بن قیس ، فأنزل الله فی شأنه : « قل یا أهل الکتاب لم تکفرون بآیات الله والله شهید علی ما تعملون ، قل یا أهل الکتاب لم تصدّون عن سبیل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ^(۱) » ، وأنزل الله فی الذین صنعوا ما صنعوا من الحیین : « یا أيها الذین آمنوا إن تطیعوا فريقا من الذین أوتوا الکتاب » إلى قوله : « كذلك یبین الله لکم آیاته لعلکم تهتدون ^(۲) » .

وكان حیی بن أخطب ^(۳) وأخوه أبو یاسر من أشدیهود للعرب حسداً لما خصهم الله برسوله صلى الله علیه وسلم ؛ فكانا جاهدین فی رد الناس عن الإسلام بما استطاعا فأنزل الله تعالی فیهما : « ود كثير من أهل الکتاب لو یردونکم » إلى قوله : « حتی یأتی الله بأمره إن الله علی کل شیء قدير ^(۴) » .

(۱) من سورة آل عمران الآيتين ۹۸ و ۹۹ (۲) من سورة آل عمران الآيات

۱۰۰ - ۱۰۳ (۳) فی المطبوعات « یحیی بن أخطب » وسیأتی علی الصواب

(۴) من سورة البقرة الآية ۱۰۹

وحدثت صفية بنت حُيَی رضی اللہ عنہا قالت : كنت أحبّ ولدِ أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر ، لم ألقهما قطّ مع ولدهما إلا أخذاني دونه ، فلما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينة غدا عليه أبي وعمي مُغَلَّسَيْنِ^(۱) ، فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهويناء ، فهششت إليهما كما كنت أصنع . فوالله ما التفت إلى واحدٍ منهما ، مع ما بهما من الغم ، وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وثبته ؟ قال : نعم ، قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت ، فشقياً بحسدهما ، والله أعلم .

الفصل الثاني عشر

فإذا كان من أمره صلى الله عليه وسلم بها في سني الهجرة إلى أن توفاه الله عز وجل مختصراً .

وقد نلخصه رزين من تاريخ أبي حاتم ، فزدت فيه نفائس ميزتها ، فأقول في أولها « قلت » وفي آخرها « والله أعلم » وقد أقام صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد الهجرة عشر سنين بالإجماع كما حكاه النووي^(۲) .

السنة الأولى

السنة الأولى - وقد تقدم بعض ما فيها من بناء مسجد قباء وغيره .

وقال أبو حاتم : كان فيها بناء المسجد النبوي ، ومات أسعد بن زرارة والمسجد يُبنى : فكان أول من دفن بالبقيع من المسلمين .

قلت : ومن هذا يعلم أن عثمان بن مظعون أول من دفن به من المهاجرين ، جمعا بين النقلين ، ومات كلثوم بن الهدم قبل أسعد بن زرارة ؛ فهو أول من مات من الأنصار بعد مقدّم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : توفي أسعد بن زرارة في الثانية ، والله أعلم .

ومات البراء بن معرور قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(۱) مغلسين : في وقت الغلس ، وهو الوقت بين الفجر وسطوع النور .

(۲) وقد جعلنا زيادة المؤلف مستقلة تبدأ من أول سطر بكلمة « قلت » وتنتهي بكلمة « والله أعلم » ثم يبدأ تلخيص رزين من أول سطر جديد وهكذا .

وأوصى أن يُوجَّه إلى الكعبة ، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره ، وكانت الأنصار يتقربون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدايا رجالهم ونسائهم ، وكانت أم سليم تتأسف على ذلك ، وما كان لها شيء ، فجاءت بابنها أنس ، وقالت : يَخْدُمْكَ أنس يا رسول الله ؟ قال : نعم .

قلت : الذي في الصحيح عن أنس « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ليس له خادم ، فأخذ أبو طلحة بيدي ، فانطلق بي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إن أنسا غلام كَيْسٌ ^(١) فليخدمك ، قال : فخدمته ، الحديث ، وقد يجمع بأنها جاءت به أولا ، وانطلق به أبو طلحة ثانيا ؛ لأنه واه وعَصَبَتُهُ ، وهذا غير محيئه به لخدمته صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر كما يفهمه لفظ الحديث ، والله أعلم .

ثم زيد في صلاة الحضر ركعتين بعد مقدمه المدينة بشهر ^(٢) .

قلت : قال السهيلي : إن ذلك كان بعد الهجرة بعام أو نحوه ، والذي عليه الأكثر أن الصلاة نزلت بتمامها من بدء الأمر ، والله أعلم .

وَوُعِدَ أصحابه فدعا بنقلٍ وبائها إلى الجحفة ، وقال : « اللهم حبب إلينا المدينة » ثم آخى بين أصحابه كما سبق ، ثم مات الوليد بن المغيرة بمكة ، ووُلِدَ عبدُ الله بن الزبير ، جاءت أمه أسماء بعد الهجرة فنُفِسَتْ به في قُبَاء في شوال ، فكان أول مولود ولد في الإسلام بها بعد الهجرة ، وكان أول شيء دخل جوفه ريقُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تَفَلَّ في فيه .

قلت : سيأتي في مسجد دار سعد بن خَيْثَمَةَ من المساجد التي لا تعلم عينها أن الذهبي قال : إن عبد الله ولد في الثانية ، والله أعلم .

ثم عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء لابن عمه عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب

(١) كَيْس : وصف من الكياسة ، وهي الخدق وحسن التأني للامور .

(٢) فرضت الصلاة ركعتين ركعتين ، إلا المغرب . ثم زيدت في الحضر وأقرت في السفر ، هكذا ورد في حديث عائشة .

أول
راية عقدت
في الإسلام

على ستين من المهاجرين ليس فيهم أنصاري، وهي أول راية عقدت في الإسلام، ورمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهم، فكان أول سهم رُمِيَ به في الإسلام، فالتقى مع أبي سفيان بن حرب، وقيل عكرمة بن أبي جهل، وكان في مائة من المشركين بطن رابع ويعرف بَوَدَّانَ فأنحاز إلى المسلمين من المشركين المقداد بن عمرو بن الأسود وعتبة بن غزوان، وكان حامل اللواء لعبيدة مصلح بن أثانة.

قالت: وذكر أبو الأسود في مغازيه عن عروة، ووصله ابن عائذ من حديث ابن عباس «أن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى الأبواء^(١) بعث عبيدة بن الحرث في ستين رجلاً» وذكر القصة، فيكون ذلك في السنة الثانية، وبه صرح بعض السير، والله أعلم.

ثم عقد لواء لعمه حمزة على ثلاثين من المهاجرين - قيل: ومن الأنصار - ليتعرض غير قريش، فلقى أبا جهل في ثلاثمائة راكب، فحجب بينهم كجدي ابن عمرو، وكان حليفاً للفرقيين، وانصرفوا من غير قتال، وكان حامل لواء حمزة يومئذ أبو مرثد.

قلت: قدم بعضهم هذه على سرية عبيدة، وقال: إن لواء حمزة أول لواء عقد في الإسلام، ورجح ابن إسحاق الأول، وقال: إنما أشكل أمرها أن النبي صلى الله عليه وسلم شيعها جميعاً، وذكر أبو عمر أن أول راية عقدت لعبد الله بن جحش. وقيل: إن سرية حمزة هذه كانت في السنة الثانية، والله أعلم.

ثم بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة وهي بنت تميم، وكان عقد بها في مكة قبل الهجرة بثلاث وهي بنت تميم.

زواج عائشة

قلت: وعقد على سودة بنت زمعة بعد عائشة - وقيل: قبلها، وبني بها بمكة - وكان بناؤه بعائشة على رأس تسعة أشهر - وقيل: ثمانية، وقيل ثمانية عشر شهراً - من قدومه، والله أعلم.

زواج

سودة بنت زمعة

(١) الأبواء: قرية بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، وقيل: جبل على يمين آرة ويمين الطريق للمصعد إلى مكة من المدينة (ياقوت ١/ ٩٢) وانظر تحديدها للمؤلف في ص ٢٧٤ س ١٥.

ثم عقد لواء لسعد بن أبي وقاص في عشرين يريدون عسير قريش في ذى القعدة ، فخرجوا على أقدامهم يَكْمُنُونَ^(۱) بالنهار ويسرون بالليل ، وكان حامل اللواء لسعد المقداد بن عمرو ، فلم يجدوا شيئاً ، ثم جاء أبو قيس بن الأسلت ليسلم ، فلقبه ابن أبي ابن سلول ، فقال : تَرَبَّصْ^(۲) حتى ترى ، فرجع فمات كافراً .

قلت : وأسلم عبدالله بن سلام في أول قدومه صلى الله عليه وسلم ؛ ففي البخاري إسلام عبد الله من حديث عائشة التصريح بأنه جاء قبل دخوله صلى الله عليه وسلم دار أبي أيوب ابن سلام لما سمع بقدومه صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع إلى أهله ، ثم قال صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب : اذهب فـهـيـي ؛ لـنـا مـقـيـلـا ، فقال : قوماً على بركة الله ، أي هو وأبو بكر ، قالت : فلما جاء نبي الله صلى الله عليه وسلم جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله وأنت قد جئت بحق ، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم ، فسألهم عنى قبل أن يعلموا أني قد أسلمت ؛ فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا في ما ليس في ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر اليهود ، ويلكم ! اتقوا الله ، فوالذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً ، وأنى جئتكم بحق ، فأسلموا ، قالوا : مانعنا ، قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أفرايتم إن أسلم ، قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم ، قال : أفرايتم إن أسلم ، قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم ، كرر عليهم ذلك ثلاثاً فيقولون له ذلك ، قال : يا ابن سلام اخرج عليهم ، فخرج عليهم ، فقال : يا معشر اليهود ، اتقوا الله فوالذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه جاء بحق ، فقالوا : كذبت ، فأخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي رواية أن عبد الله بن سلام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء ، فلما أعلمه بها أسلم ، وفي هذه الرواية ذكر

(۱) يَكْمُنُونَ : يختفون ويستترون (۲) تَرَبَّصْ : انتظر وتمعّل

قصة اليهود المتقدمة ، وأن عبد الله بن سلام لما خرج إليهم وتشهدوا قالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقصوه ؛ فقال : هذا كنت أخاف يا رسول الله ، ونصبت أحبار اليهود العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا : منهم حُيُّ بن أخطب ، وأبو رافع الأعور ، وكعب بن الأشرف . وعبد الله بن سوريا ، والزبير بن باطا ، وشمويل ، ولييد بن الأعصم ، وغيرهم ، ودخل منهم جماعة في الإسلام نقاقا ، وانضاف إليهم من الأوس والخزرج منافقون ، وأرى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه الأذان ، وقيل : كان ذلك في السنة الثانية عند ما شاور صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما يجمعهم به للصلاة ؛ إذ كان اجتماعهم قبل بمناذر « الصلاة جامعة » والله أعلم .

السنة الثانية
من الهجرة

السنة الثانية - فلما جاء العاشر من المحرم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصومه ، وقال : « نحن أحق بموسى من اليهود » ثم زوج عليا بفاطمة .

قلت : وذلك قبل بدر ، في رجب على الأصح ، وبني بها في ذي الحجة كما سيأتي ، وكان لها خمس عشرة سنة ، وقيل : ثمان عشرة ، وقيل : تزوجها بعد أحد ، والله أعلم .

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه إلى الأبواء^(١) وهي من ودان على ستة أميال مما يلي المدينة .

قلت : ولتقاربهما أطلق عليها « غزوة ودان » والله أعلم .

واستخلف على المدينة سعد بن عبادة ، وكان حامل لوائه سعد بن أبي وقاص ، ثم رجع ، ولم يلق كيذا ، فانصرف بعد ما وادع مجدي بن عمرو الضمري ، ثم غزا في مائتين من أصحابه إلى ناحية رضى ، وحامل لوائه سعد بن أبي وقاص ، ثم رجع ولم يلق كيذا .

قلت : وهي غزوة « بواط » خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد تجار قريش

(١) انظر الهامشة رقم ١ في ص ٢٧٢

أيضاً ، حتى بلغ بواط من ناحية رَضَوَى ، وقال ابن هشام : واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون ، وفي نسخة السائب بن مظعون ، وقال الواقدي : سعد بن معاذ^(١) ، والله أعلم .

ثم أغار على سَرَحِ المدينة كُرْزُ بن جابر الفَهْرِيُّ ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثره في المهاجرين ، وحاملُ لوائه على بن أبي طالب ، فانتهى إلى بدر ، وفاته كُرْزُ ، وهذه بدر الأولى .

قلت : ذكر ذلك ابن إسحاق بعد « العشيرة » بليال ، والله أعلم .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جَحْشٍ في سَرِيَّةٍ ، وهم الذين قتلوا في الشهر الحرام في اثني عشر نفساً ، فأضل عتبة بن غزوان وسعد بن أبي وقاص راحلتيهما ، فتخلفا عنهم ، ومضى العشرة حتى لقوا جماعة من قريش : منهم عثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وافتدى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحكم ابن كيسان ، أسلم ، وقتلوا عمرو بن الحضرمي .

قلت : ذكرها بعضهم بعد العشيرة ، ووصلوا نَحْلَةَ على يوم وليلة من مكة ، فمرت بهم عِيرُ قُرَيْشٍ تحمل زيبا وأدماً من الطائف معها الجماعة المذكورون في آخر يوم من رجب ، فاستأسروا الأسيرين ، وقتلوا عمرا ، واستاقوا العير^(٢) ، وكانت أول غنيمة في الإسلام ، والله أعلم .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العشيرة ، فوَدَعَ بني مُذَلْجٍ وحلفاءهم ، ثم رجع .

قلت : وكان خروجه فيها يعترض عيراً لهريش ، ففاته بأيام ، واستخلف أبا سلمة بن عبد الأسد ، والله أعلم .

قال أبو حاتم : وبلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يُوجَّهَ إلى الكعبة ، فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مُصَلًّى

التوجه إلى
الكعبة

(١) في المطبوعات « سعيد بن معاذ » (٢) العير - بالكسر - الإبل تحمل الميرة

فدعا الله تعالى ، فأُنزل « قد نرى تَقَلُّبَ وجهك » إلى قوله « وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره »^(١) وقت صلاة الظهر يوم الثلاثاء النصف من شعبان ثمانية سني الهجرة .

قلت : سيأتى ما فيه من الخلاف فى الفصل الثالث من الباب بعده ، والله أعلم .

ثم نزلت فريضة الصوم فى شعبان ، فصاموا رمضان ، فلما فرض رمضان لم يأمرهم بصيام عاشوراء ولا نهارهم .

ثم كانت غزوة بدر فى رمضان لاثنين عشرة ليلة خلت منه ، وقيل : يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة منه ، وقيل : صبيحة أربع وعشرين منه ، وكان المسلمون ثلاثمائة وبضعة عشر^(٢) .

قلت : الراجح القول الثانى ، وخرجت الأنصار معه صلى الله عليه وسلم فيها ، ولم تسكن قبل ذلك خرجت معه ، ومعهم ثلاثة أفراس ، وكان المشركون ألفا ، ويقال : تسعمائة وخمسين رجلا معهم مائة فرس ، وهذه بدر الثانية لما تقدم ، والله أعلم .

ثم قتلَ عميرُ بن عدى الخطمى العصماء امرأة من الأنصار ، وهى زوج يزيد الخطمى ، كانت تؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعر ، فقتلها ، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينتطح فيها عنزان » .

قلت : قال فى الاكتفاء : إن العصماء هذه نافقت لما قتل أبو علفك (بالفاء وإهمال أوله) وقالت شعرا تعيب الإسلام وأهله ، وتؤنب الأنصار فى أتباعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن عميرا رجع إلى قومه بعد قتالها وهم يومئذ كثيرٌ مَوَّجُهُم^(٣) فى شأنها ، ولها بنون خمسة رجال ، فقال : يا بنى خطمة ، أنا قتلت

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ . (٢) فى المطبوعات «وبضع عشرة» تطبيع

(٣) كثير مَوَّجُهُم : يريد أن الحديث فى شأنها كان كثيرا مضطربا

بنت مروان، يعني العصماء، فسكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون، فذلك اليوم أول ماءٍ الإسلام في دار بني خطمة، وكان يستخفي بإسلامه فيهم من أسلم، ويومئذ أسلم رجال منهم لما رأوا من عز الإسلام، انتهى. والذي رواه ابن سيد الناس عن ابن سعد أنه قال بعد ذكر قتل عمير للعصماء: ثم في شوال كانت سرية سالم بن عمير إلى أبي علفك اليهودي، وكان أبو علفك من بني عمرو بن عوف شيخاً قد بلغ عشرين ومائة، وكان يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول الشعر، فقال سالم بن عمير وهو أحد البكائين وممن شهد بدراً: على نذر أن أقتل أبا علفك أو أموت دونه، وذكر قتله إياه، وهو مخالف لما قدمناه عن الاكتفاء من تقديم قتل أبي علفك على قتل العصماء، وذكر ابن سعد أيضاً أن قتل العصماء كان خمس ليالٍ بقين من شهر رمضان، وأن عميراً كان ضريّر البصر، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم البصير^(١)، قيل: وكان أول من أسلم من بني خطمة، وكان إمام قومه وقارئهم، وكان يدعى «القاريء» والله أعلم.

ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الفطر بيومين يُعَلِّم الناس زكاة الفطر

قلت: وقيل: في أول شوال، وصلى صلاة الفطر، وفيها فرضت زكاة الأموال أيضاً، وقيل: في الثالثة، وقيل: في الرابعة، وقيل: قبل الهجرة، وثبتت بعدها، والله أعلم.

ثم غزا بني قينقاع في شوال.

قلت: قد تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد وادع اليهود، وكانوا يرجعون إلى ثلاث طوائف: بني قينقاع، والنضير، وقرينة، فنقض الثلاثة العهد طائفة بعد طائفة، فأول من نقض منهم بنو قينقاع فحاربهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد بدر في شوال، فألقى الله الرعب في قلوبهم، فبرزوا على حكمه، فأراد قتلهم،

(١) من سنن العرب أن تسمى الشيء باسم ضده، مثل تسميتهم الصحراء «مفازة» وتسميتهم اللدنيغ «السلام» ولا يزال هذا يجري في لسان العامة إلى اليوم

فاستوهمهم منه عبدُ الله بن أبيّ وكانوا حلفاءهُ فوهبهم له ، وأخرجهم من المدينة إلى أذرعَات ، وفي الا كتفاء : وكان منشأ أمرهم ، يعني في نقض العهد ، أن امرأة من العرب قدمت بجَلَب^(١) لها ، فباعته بسوق بني قَيْنُقَاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يربدونها على كَشْف وجهها ، فأبَت ، فعمد الصائغ إلى طَرَف ثوبها فقَدَه إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سَوَاتِهَا ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فوقع الشر بينهم وبين المسلمين ، فحاصروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه .

وروى أن ابن أبيّ قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، أحسن في موالى ، فأعرض عنه ، وأنه قال : أربعائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غَدَاة واحدة ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم لك ، وقال مغلطاي في غزوة بني قَيْنُقَاع : قال الحاكم : هذه وبنو النضير واحد ، ور بما اشتبهتا على من لا يتأمل ، وقال الحافظ ابن حجر بعد ذكر أنهم أول من نقض العهد : فغزاهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم بنو النضير ، وأغرب الحاكم فزعم أن إجلاء بني قَيْنُقَاع وإجلاء بني النضير كان في زمن واحد ولم يوافق على ذلك ؛ لأن إجلاء بني النضير كان بعد بدر بستة أشهر على قول عروة ، أو بعد ذلك بمدة طويلة على قول ابن إسحاق ، وذكر الواقدي أن إجلاء بني قَيْنُقَاع كان في شوال سنة اثنتين ، يعني بعد بدر بشهر ، ويؤيد ما روى ابن إسحاق بإسناد حسن عن ابن عباس قال : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر جمع يهود في سوق بني قَيْنُقَاع فقال : يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشاً ، فقالوا : إنهم كانوا لا يعرفون القتال ، ولو قاتلتنا لعرفت أنا الرجال ؛ فأنزل الله « قل للذين كفروا استغلبون وتحشرون »^(٢) »

(١) الجلب : اسم لما تجلبه من البادية لتبيعه في المدينة

(٢) من سورة آل عمران من الآية ١٢

فأخذها ، وأسر فرات بن حيان ، وبلغ الخمس من تلك الغنيمة عشرين ألفا
قلت : والقرادة ماء من مياه نجد ، فإن قرشا بعد بدر خافوا طريقهم التي
كانوا يسلكون إلى الشام ، فسلکوا طريق العراق ، وكان في هذه العير
أبوسفیان بن حرب ومعه فضة كثيرة هي عظم تجارتهم ، والله أعلم .
ثم كانت أحد

قلت : كانت في شوال سنة ثلاث باتفاق الجمهور ، وشذ من قال : سنة أربع ،
وقال ابن إسحاق : لإحدى عشرة ليلة خلت منه ، وقيل : لسبع ليال ، وقيل : لثمان ؛
وقيل : لتسع ، وقيل : في نصفه ، وقال مالك : كانت بعد بدر بسنة ، وفيه تجوز ،
لأن بدرا كانت في رمضان باتفاق ، فهي بعدها بسنة وشهر لم يكمل ، ولهذا قال
مرة أخرى : كانت بعد الهجرة بإحدى وثلاثين شهرا^(۱)

وكان السبب فيها أنه لما قتل الله من قتل من كفار قریش يوم بدر ورجع
من بقي منهم إلى مكة ورجع أبوسفیان بعيرهم ، فكلّموا أبوسفیان ومن
له في العير مال في الاستعانة بها على حرب النبي صلى الله عليه وسلم ففعلوا ، وقيل :
كان المال خمسين ألف دينار ، فسلم إلى أهل العير رؤس أموالهم ، وعزلت الأرباح ،
وكانوا يربحون في تجارتهم الدينار ديناراً ، وجّهزوا الجيش بذلك ، وحرکوا من
أطاعهم من القبائل ، وخرجوا بأحايشهم ومن تابعهم من بني كنانة وأهل
تهامة ، وخرجوا معهم بالظعن^(۲) لثلايفروا ، فخرج أبوسفیان — وكان قائدهم —
بهند بنت عتبة ، وكذلك سائر أشرافهم خرجوا بنسائهم ، وكان جُبیر بن مُطعم
أمر غلامه وَحْشِيّاً الحبشي بالخروج مع الناس ، وقال له : إن قتلت حمزة عم محمد
صلى الله عليه وسلم بعى طعمة بن عدى فانت عتيق ، فأقبلوا حتى نزلوا بعينين^(۳)
جبل بيطن السبخة من قنّاة على شفير الوادي مقابل المدينة ، قاله ابن إسحاق ،
ووادي قنّاة خلف عينين بينه وبين أحد ، فإن عينين في مقابلة أحد ، فنزلوا هم أمام

(۱) كذا (۲) الظعن : جمع ظعينة ، وهي المرأة مطلقاً ، أو مادامت في الهودج

(۳) جبل عينين : هو جبل الرماة الذي عليه البيوت قبلى قبة حمزة (مكى) .

عینین مما یلی المدینة وفي غریه لجة بئر رومة ؛ فلا یخالف ماسیاتی عن المطری ، ونقل ابن عقیبة أن أبا سفیان سار یجمعه حتی طلوعوا من بئر الجمّاونین ، ثم نزلوا بیطن الوادی الذی قبل أحد ، وكان رجال من المسلمین أسفوا علی ما فاتهم من مشهد بدر ، وتمنوا لقاء العدو ، وأری رسول الله صلی الله علیه وسلم لیلة الجمعة رؤیا ، فلما أصبح قال : رأیت البارحة فی منامی بقرّاً تذبح ، والله خیر ، ورأیت سیفی ذا الفقار انقص من عند ظبته ^(۱) ، أو قال به فلول ، فکرهته وهما مصیبتان ، ورأیت أنى فی درع حصینة ، وأنى مُردِف کبشا ، قالوا : ما أولتها ؟ قال : أولت البقر بقرا یكون فینا ، وأولت الکبش کبش الکتیبة ^(۲) ، وأولت الدرع الحصینة المدینة ، فامکثوا فإن دَخَلَ القومُ الأزقة قاتلناهم ورموا من فوق البیوت ، ونقل ابن إسحاق أیضا أن عبد الله بن أنى قال : یارسول الله ، أقم بالمدينة ، ولا تخرج إلیهم ، فوالله ما خرجنا منها إلی عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلنا علینا إلا أصبنا منه ، فدَعَوْهُمْ ، فقال أولئك القوم : یا بنی الله کنا نتمنى هذا البوم ، وأنى کثیر من الناس إلا الخروج ، فلما صلی الجمعة وانصرف دعا بالأمة فلبسها ، ثم أذن فی الناس بالخروج ، فندم ذوو الرأى منهم ، فقالوا : یارسول الله امکث كما أمرتنا ، فقال : ما ینبغى لنبی إذا أخذ لأمة الحرب أن یرجع حتی یقاتل ، فخرج بهم وهم ألف رجل ، وكان المشرکون ثلاثة آلاف . وقال المطری : إن نزول قریش یوم أحد بالمدينة کان یوم الجمعة ، قال : وقال ابن إسحاق : یوم الأربعاء .

قال المطری : فنزلوا برومة من وادی العقیق ، وصلى النبی صلی الله علیه وسلم الجمعة بالمدينة ، ثم خرج هو وأصحابه علی الحرة الشرقیة حرة واقم ، وبات بالشیخین موضع بین المدینة و بین جبل أحد علی الطریق الشرقیة مع الحرة إلی جبل أحد ، وغدا أصبح یوم السبت إلی أحد ، انتهى . ونقل الأقشهری أنه صلی الله علیه وسلم

(۱) ظبة السیف — بضم الظاء وفتح الباء مخففة — طرفه

(۲) فی ابن هشام « فأما البقر فهی ناس من أصحابی یقتلون ، وأما الثلم الذی رأیت فی ذباب سیفی فهو رجل من أهل بیتی یقتل » .

دعا بثلاثة أرماع فعقد ثلاثة ألوية ؛ فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى الحُبَاب بن المنذر بن الجَمُوح ، وقيل : إلى سعد بن عبادَة ، ولواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب ، وقيل : إلى مُصْعَب بن عمير ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم ، ثم ركب فرسه ، وتقلد القوس ، ثم أخذ قناته بيده ، وفي المسلمين مائة دارع ، وخرج السعدان أمامه سعد بن معاذ وسعد بن عبادَة والناس على يمينه وشماله ، فمضى حتى إذا كان بالشيخين — وهما أطمان — التفت فنظر إلى كتيبة حسنة لها زَجَل^(۱) ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : حلفاء ابن أبي من يهود ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نستنصر بأهل الشرك ، فلما بلغوا الشوط انخزل عبد الله بن أبي بثلاث الناس ، انتهى .

وفي الاكتفاء أن مُخَيَّرِيقًا كان من أحرار يهود ، فقال لهم يومئذ : لقد علمتم إن نصر محمد عليكم لحق ، فتعللوا بسببتهم ، فقال لهم : لا سببت لكم ، وأخذ سيفه وعدته فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقاتل معه حتى قتل بعد أن قال : إن أصبت فإلى محمد يصنع فيه ما شاء ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مخيريق خير يهود » انتهى .

وروى الطبراني في الكبير والأوسط برجال ثقات عن أبي حميد الساعدي أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج يوم أحد حتى إذا جاوز ثديّة الدّاع فإذا هو بكتيبة حسناء ، فقال : من هؤلاء ؟ قالوا : عبد الله بن أبي في ستمائة من مواليه من اليهود من بنى قَيْنُقَاع ، فقال : وقد أسلموا ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : مروهم فليرجعوا ، فإننا لا نستعين بالمشركين على المشركين .

قال الأقرشي عقب كلامه السابق : وعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرض وردّ من ردّ في ذلك الموضع ، يعني بالشيخين ، وأذن بلال المغرب فصلى النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه ، وبات بذلك الموضع صلى الله عليه وسلم ، واستعمل على الحرس في تلك الليلة محمد بن مسلمة في خمسين يطوفون بالعسكر ،

(۱) لها زجل : أى صوت

وأذْلَجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في السحر وهو يرى المشركين ودليله أبو خيثمة الحارثي ، فانتهى إلى موضع القنطرة ، فحانت الصلاة فصلى بأصحابه الصبح صفوفاً عليهم السلاح ، قال : وقال مجاهد والكلبي والواقدي : غدا رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزل عائشة على رجله إلى أحد ، فجعل يصف أصحابه للقتال كما يَقُومُ القِدْحُ ، وقال ابن إسحاق : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد حتى إذا كان بالشوط انخزل عبد الله بن أبي في ثلاثمائة ، وفي رواية بثلاث الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني ، وقال ابن عقبة : فبقى صلى الله عليه وسلم في سبعمائة ، فلما رجع عبد الله بن أبي سقط في أيدي طائفتين من المؤمنين - وهما بنو حارثة وبنو سلمة - وقال الأقرشي : فبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعمائة ، ومعه فرسه وفرس لأبي بردة بن نيار ، وهذه رواية الواقدي ، والذي رواه ابن عقبة - كما سيأتي - أنه لم يكن مع المسلمين فرس ، وفي الاكتفاء بعد ذكر انخزال ابن أبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مضى حتى سلك في حرة بني حارثة ، ثم قال : مَنْ رجل يخرج منا على القوم من كَثَب ، أي من قُرْب ، من طريق لا يمر بنا عليهم ؟ فقال أبو خيثمة أخو بني حارثة : أنا يا رسول الله ، فنفذ به في حرة بني حارثة وبين أموالهم حتى سلك في مال لمربع بن قَيْظَى ، وكان منافقاً ضريراً البصر ، فلما سمع حس رسول الله صلى الله عليه وسلم وَمَنْ معه قام فَحَنّاً في وجوههم التراب ويقول : إن كنت رسول الله فإني لأحِلُّ لك أن تدخل حائطي ، وذكر أنه أخذ حَفْنَةً من تراب ، ثم قال : والله لو أعلم أنني لأصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، فابتدره القوم ليقتلوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر ، فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد ، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد . وقال الأقرشي : وجعل أحداً خلف ظهره ، واستقبل المدينة ، وجعل عَيْنَيْنِ ^(۱) الجبل عن

(۱) في المطبوعات «عَيْنَيْنِ الجبل» وقد مضى على الصحة وسيأتي على الصحة أيضاً .

يساره ، وقال ابن عقبة : وصَفَ المسلمون بأصل أحد ، وصف المشركون بالسبخة ، وتعبوا للقتال ، وعلى خيل المشركين - وهى مائة فرس - خالد بن الوليد ، وليس مع المسلمين فرس ، وصاحب لواء المشركين طلحة بن عثمان ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جبير على الرُّمّة وهم خمسون رجلاً ، وعهد إليهم أن لا يتركوا منازلهم . ونقل الأقرشي أنه جعلهم على جبل عينين . وفى الاكتفاء أنه صلى الله عليه وسلم قال لأميرهم : أنضح الخيل عنا لا يأتونا من خلفنا ، إن كان لنا أو علينا فأثبت مكانك لأنوثتين من قبلك ، وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين ، وتعباً قریش ، وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائة فرس قد جَنَّبُوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى اليسرة عكرمة بن أبى جهل ، وقد كان أبو عامر الراهب من الأوس خرج عن قومه إلى مكة مُبَاعِداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يعدّ قریشاً أن لولقى قومه لم يختلف عليه منهم رجلان ، فلما التقى الناس كان أول من لقيهم هو فى الأحابيش وعبدان أهل مكة . فنادى : يا معشر الأوس أنا أبو عامر ، قالوا : فلا أنعم الله بك عيناً يافاسق ، وبذلك سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يسمى فى الجاهلية الراهب ، فلما سمع ردهم عليه قال : لقد أصاب قومى بعدى شر ، ثم قاتلهم قتلاً شديداً ، ثم راضخهم بالحجارة ، انتهى .

وروى البزار - ورجاله ثقات - عن الزبير بن العوام قال : عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً يوم أحد فقال : مَنْ يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام أبو دجانة فقال : يا رسول الله أنا آخذه بحقه ، فأعطاه إياه ، فخرج ، فأتبعته فجعل لا يمر بشيء إلا أفراه^(۱) وهتكه ، حتى أتى نسوة فى سفح الجبل ومعهن هند وهى تقول :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق
والدر فى الخناق والمسك فى المفارق^(۲)

(۱) أفراه وفراه : مزقه

(۲) الخناق : النحور ، أى الأعناق ، والمفارق : جمع مفرق ، وهو موضع فرق

الشعر من الرأس

إِنْ تُقْبِلُوا نَعَانِقُ ونفـرش النـمارق
أَوْ تُذْـبِرُوا نَفَارِقُ فِرَاقَ غَـيْرِ وَاقٍ^(۱)

يعنى تَحَرَّضُهم بذلك ، قال : فحمل عليها ، فنادت بالصحراء فلم يجبها أحد ، فانصرف عنها ، فقلت له : كل سيفك رأيتـه فأعجبني غير أنك لم تقتل المرأة ، قال : فإنها نادى فلم يجبها أحد ، فسكرت أن أضرب بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة لا ناصر لها .

وفى الاكتفاء : ذكر الزبير رضى الله عنه أن سيف عبد الله بن جحش انقطع يوم أحد ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عُرْجُونًا ، فعاد فى يده سيفًا قائمًا منه ، فقاتل به ؛ فكان ذلك السيف يسمى العرجون ، ولم يزل بعد يتوارث حتى بيع من بُعَا التركى بمائتى دينار .

وروى البزار رجال الصحيح عن بريدة أن رجلا قال يوم أحد : اللهم إن كان محمد على الحق فاخسف به ، قال : فحسف به .
وقال ابن إسحاق : قتل أصحاب لواء المشركين وهم تسعة بأحد واحد بعد واحد .

وقال غيره : أَحَدَ عشر آخرهم غلام لبني طلحة .

وقال ابن عقبة : وكان صاحب لواء المسلمين مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار ، فبارز طلحة بن عثمان من بنى عبد الدار فقتله ، وحمل المسلمون على المشركين حتى أَجْهَضُوهم^(۲) ، وحملت خيل المشركين فنضجهم الرماة بالنبل ثلاث مرات ، فدخل المسلمون عسكر المشركين فانتهبوه ، فرأى ذلك الرماة ، فتركوا مكانهم ، ودخلوا العسكر ، فأبصر ذلك خالد ومن معه ، فحملوا على المسلمين فى الخيل ، فمزقوهم ، وصرخ صارخ : قتل محمد ، أخراكم ، فعطف المسلمون يقتل بعضهم بعضا وهم لا يشعرون ، وانهزم طائفة منهم وتفرق سائرهم ، ووقع فيهم القتل ، وثبت نبي الله حين

(۱) الواق : المحب ، ومقه يمقه مقه ، على مثال وصفه بصفه صفة

(۲) أَجْهَضُوهم : غلبوهم ونحوهم وأبعدوهم .

انكشفوا عنه وهو يدعوهم في آخرهم ، حتى رجع إليه بعضهم وهو عند المهراس في الشعب ، وتوجه النبي صلى الله عليه وسلم يلتزم أصحابه ، فاستقبله المشركون فرموا وجهه فأدموه وكسروا رءوسهم ، فمر مصعباً^(١) في الشعب ومعه طلحة والزبير ، وقيل : معه طائفة من الأنصار منهم سهل بن بيضاء والحارث بن الصمة ، واشتغل المشركون بقتلى المسلمين يمثلون بهم يقطعون الآذان والأنوف والفروج ويثقبون البطون ، وهم يظنون أنهم أصابوا النبي صلى الله عليه وسلم وأشراف أصحابه ، فقال أبو سفيان يفتخر بالله « أَعْلُ هُبَلُ » فناداه عمر : الله أعلى وأجل ، ورجع المشركون إلى أئقالمهم .

قال ابن إسحاق : كان أول من عرّف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ، وتحدث الناس بقتله ، كعب بن مالك الأنصاري ، قال : عرفت عينيه يزهران تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتي : يامعشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلى أن أنصت ، فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشعب معه أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير والحارث بن الصمة ورهط من المسلمين ، فلما أمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أين محمد ؟ لانبجوت إن نجأ ، فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال : دعوه ، فلما دنا تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة ، يقول بعض القوم : فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأداً منها^(٢) عن فرسه مرارا ، وكان أبي بن خلف يلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فيقول : يا محمد إن عندي العود فرسا أعلفه كل يوم فرقا^(٣) من ذرة أقتلك عليه ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما رجع إلى قریش وقد خدشه في عنقه خدشا غير كبير فاحتقن الدم ، قال : قتلني والله محمد ، فقالوا :

(١) مصعبا : صاعدا راقيا في الجبل .

(٢) تدأداً منها : تمایل (٣) الفرق — بالفتح — مكیال یسع ثلاثة أصع

ذَهَبَ وَاللّٰهُ فَوَادَكَ ، وَاللّٰهُ اِنْ يَّكَ بِأَسْ^(۱) ، قَالَ : اِنَّهٗ قَدْ كَانَ ، قَالَ بِمَكَّةَ : اَنَا اَقْتُلَكَ ، فَوَاللّٰهُ لَوْ بَصَقَ عَلَيَّ لَقَتَلَنِي ، فَمَاتَ عَدُوُّ اللّٰهِ بِسَرَفٍ وَهُمْ قَافِلُونَ^(۲) إِلَى مَكَّةَ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَالَهُ يَوْمَئِذٍ : اَشْتَدَّ غَضَبُ اللّٰهِ عَلَى رَجُلٍ قَتَلَهُ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : لَمَّا كَانَ يَوْمُ أَحَدَ هَزَمَ الْمُشْرِكُونَ هَزِيمَةً بَيْنَهُ ، فَصَاحَ إِبْلِيسُ : أَيُّ عِبَادِ اللّٰهِ ، أَخْرَأَكُمْ ، فَرَجَعْتَ أَوْلَاهُمْ ، فَاجْتَلَدْتَ مَعَ أَخْرَأِهِمْ ، فَنَظَرَ حَذِيفَةَ فَإِذَا هُوَ بِأَبِيهِ فَنَادَى : أَيُّ عِبَادِ اللّٰهِ ، أَبِي أَبِي ، فَقَالَتْ : فَوَاللّٰهِ مَا احْتَجَزُوا حَتَّى قَتَلُوهُ ، فَقَالَ حَذِيفَةُ : يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ .

وَنَقَلَ الْأَقْشَهْرِيُّ أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ قَالَ يَوْمَئِذٍ لِبَنِي عَبْدِ الدَّارِ : إِسْكُمُ ضِعْتُمُ اللَّوَاءَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَأَصَابَنَا مَا رَأَيْتُمْ ، فَادْفَعُوا اللَّوَاءَ إِلَيْنَا نَكْفِيكُمْ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ تَحْرِيطَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَالثَّبَاتِ ، فَغَضِبُوا وَأَغْلَظُوا لَهُ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ : مَنْ يَحْمِلُ لَوَاءَ الْمُشْرِكِينَ ؟ قِيلَ : عَبْدُ الدَّارِ ، قَالَ : نَحْنُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ مِنْهُمْ ؟ أَيْنَ مُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ ؟ فَقَالَ : هَا أَنَا ، قَالَ : خُذِ اللَّوَاءَ ، فَأَعْطَاهُ اللَّوَاءَ ، وَإِنْ حَمَزَةُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ كَحَمَلٍ عَلَى عِثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ حَامِلِ لَوَاءِ الْمُشْرِكِينَ فَقَطَعَ يَدَهُ وَكَتَفَهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مُؤْتَزَرِهِ^(۳) ، ثُمَّ إِنَّ أَصْحَابَ اللَّوَاءِ قَتَلُوا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، فَانْكَشَفَ الْمُشْرِكُونَ مِنْهَزِمِينَ ، وَنَسَاؤُهُمْ يَدْعُونَ بِالْوَيْلِ وَالثَّبُورِ ، وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ يَضَعُونَ فِيهِمُ السَّلَاحَ ، وَوَقَفُوا يَأْخُذُونَ الْغَنَائِمَ ، فَلَمَّا رَأَى الرَّمَاةُ ذَلِكَ أَقْبَلَ جَمَاعَةً مِنْهُمْ وَخَلَوْا الْجِبَالَ ، فَكَّرَ خَالِدُ بْنُ الْخَلِيلِ ، فَتَبِعَهُ عِكْرَمَةُ ، فَحَمَلُوا عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنَ الرَّمَاةِ فَقَتَلُوهُمْ وَقَتَلُوا أَمِيرَهُمْ عَبْدَ اللّٰهِ بْنَ جُبَيْرٍ ، وَانْتَقَضَتْ صُفُوفُ الْمُسْلِمِينَ ، وَنَادَى إِبْلِيسُ : قَتَلَ مُحَمَّدٌ ، وَثَبَتَ رَسُولُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَزُولُ ، يَرْمِي عَنْ قَوْسِهِ حَتَّى صَارَتْ شَطَايَا ، وَيَرْمِي بِالْحِجَارَةِ ، وَثَبَتَ مَعَهُ عَصَابَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ عَشَرَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَسَبْعَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، اهـ

(۱) اِنْ يَّكَ بِأَسْ : أَيُّ مَا يَكُونُ بِأَسْ (۲) قَافِلُونَ : رَاجِعُونَ

(۳) مُؤْتَزَرُهُ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَلْبَسُ فِيهِ الْإِزَارَ

وروی النسائی عن جابر قال : لما ولى الناس يوم أُحُدٍ كان النبي صلى الله عليه وسلم في اثني عشر رجلا من الأنصار فيهم طلحة .

ووقع عند الطبرى من طريق السدى قال : تفرق الصحابة فدخل بعضهم المدينة ، وانطلق بعضهم فوق الجبل ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الله ، فرماه ابن قتيبة بحجر فكسر أنفه ورَبَاعِيته وشَجَّه في وجهه فأنقله ، فترجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثون رجلا ، فجعلوا يذُبُون عنه ^(۱) ، فحمله منهم طلحة وسهل بن حنيف ، فرمى طلحة بسهم فبيست يده ، وقال بعض من فر إلى الجبل : ليت لنا رسولا إلى عبدالله بن أبي يستأمن لنا من أبي سفيان ، فقال أنس بن النضر : يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، ثم ذكر قصة قتله ، وقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم الجبل ، فأراد رجل من أصحابه أن يرميه بسهم ، فقال : أنا رسول الله ، فلما سمعوا ذلك فرحوا به ، واجتمعوا حوله ، وتراجع الناس .

وروى أحمد عن سعد بن ^(۲) أبي وقاص قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يوم أُحُدٍ رجلين ^(۳) عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ، ما رأيتهما قبل ولا بعد ، وقد أخرجه الشيخان ، وفي رواية لمسلم : يعنى جبريل ومكائيل ، وقول مجاهد « لم تقاتل الملائكة يومئذ ولا قبله ولا بعده ، إلا يوم بدر » . قال البيهقي : أراد به أنهم لم يقاتلوا يوم أُحُدٍ عن القوم حين عصوا الرسول ولم يصبروا على ما أمرهم به .

وعن عروة بن الزبير : كان الله وعدهم على الصبر والتقوى أن يُمدَّهم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمين ، وكان قد فعل ، فلما عصوا أمر الرسول وتركوا مَصَافَهُمْ وتركوا الرماة عَهْدَهُ إليهم وأرادوا الدنيا رفع عنهم مَدَد الملائكة ،

(۱) يذبون عنه : يدفعون عنه . (۲) في المطبوعات « أسعد بن أبي وقاص »

(۳) في المطبوعات « رجلا » .

وأنزل الله « لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ^(۱) » فصدق الله وعده ، وأراهم الفتح ، فلما عصوا أعقبهم البلاء .

وعند ابن سعد : ثبت معه صلى الله عليه وسلم سبعة من الأنصار وسبعة من قريش .

وفي مسلم من حديث أنس : أفرد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش طلحة وسعد .

وقال ابن إسحاق : حدثني حميد الطويل عن أنس قال : كسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ، وشج في وجهه ، فجعل يسيل الدم على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يُفْلِحُ قوم خَضَبُوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله تعالى « ليس لك من الأمر شيء ^(۲) » الآية .

وروى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبي وقاص قال : ما حَرَضْتُ على قتل رجل قط حرَصِي على قتل أخى عُتْبَةَ بن أبي وقاص لما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكر ابن هشام في حديث أبي سعيد الخدري أن عُتْبَةَ بن أبي وقاص أخا سعد هو الذي كسر رباعية النبي صلى الله عليه وسلم السفلى ، وجرح شفته السفلى ، وأن عبد الله بن شهاب هو الذي شجَّه في جبهته ، وأن عبد الله بن قميئة جرحه في وَجْنَتِهِ ، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته ، وأن مالك بن سنان مَصَّ الدَّم من وجهه ، ثم اَزْدَرَدَهُ ^(۳) ، فقال له : ان تَمَسَّكَ النار .

وفي الطبراني من حديث أبي أمامة قال : رمى عبدُ الله بن قميئة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فَشَجَّ وجهه ، وكسر رباعيته ، وقال : خذها وأنا ابن قميئة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمسح الدم عن وجهه : مَالَكَ أَمَّاكَ الله ، فسلط الله عليه تَيْسَ جَبَل ، فلم يزل يَنْطَاحُه حتى قَطَعَهُ قطعة قطعة .

(۱) من سورة آل عمران من الآية ۱۵۲ (۲) من سورة آل عمران من الآية ۱۲۸

(۳) ازدرده : ابتلعه

وقال السهيلي : الذي كسر رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم عُتْبَةُ بن أبي وقاص أخو سعد ، لم يولد من نسله ولد فبلغ الحلم إلا وهو أنجرأ وأهتم ، يُعرف بذلك في عقبه .

وروى ابن الجوزي عن محمد بن يوسف الفريابي قال : لقد بلغني أن الذين كسروا رباعية النبي صلى الله عليه وسلم لم يولد لهم صبي فنبئت له رباعية .
وقيل : كان سبب الهزيمة أن ابن قمئة الليثي قتل مُضْعَب بن عمير ، وكان مضعب إذا لبس لأمتته يشبه النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما قتله ظن أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع إلى قریش وقال : قد قتلت محمداً ، فازدادوا جرأة وصاح إبليس من العقبة : قتل محمد ، فلما سمع المسلمون ذلك وهم متفرقون كانت الهزيمة ، فلم يَلَوْ أحد على أحد^(۱) .

والصواب أن السبب مخالفة الرماة للأمر ، وهذا مؤكد له ومتمم ، مع أن الأصل في ذلك - مع إرادة الله تعالى - ما اتفق ببدر من أخذ الفداء ، فقد أخرج الترمذي^(۲) والنسائي عن علي أن جبريل هبط فقال : خيّرهم في أسارى بدر القتل أو الفداء على أن يقتل منهم من قابل مثلهم ، قالوا : الفداء ويقتل منا ، وقال الترمذي : حسن ، وذكر غيره له شواهد تقويه ، ولهذا جاء في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة ، وقتلوا سبعين ، وأسروا سبعين . وفيه أيضاً أن المشركين أصابوا يوم أحد من المسلمين سبعين ، ولفظه من حديث البراء قال : لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله بن جُبَيْر ، وقال : لا تبرحوا ، فإن رأيتمونا ظهرنا عليهم^(۳) فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهوروا علينا فلا تعينونا ، فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتدْنَ في الجبل رفعن عن سؤقهن قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة ، فقال عبد الله :

(۱) لم يلو أحد على أحد : أي لا يلتفت إليه ولا يعطف عليه . (۲) انظر ۱۰/ ۲۹۷ بولاق

(۳) ظهرنا عليهم : غلبناهم ، ولا تبرحوا : لا تفارقوا مكانكم .

عهد إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا ، فأبوا ، فلما أبوا صرّف الله وجوههم ، فأصيب سبعون قتيلا

ووقع عند مسلم من طريق ابن عباس عن عمر في قصة بدر قال : فلما كان يوم أحد قتل منهم سبعون وفروا ، وكسرت رّباعية النبي صلى الله عليه وسلم ، وهُشِمَت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله تعالى : « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ^(۱) » الآية ، والمراد بكسر الرّباعية - وهى السن التى تلى الثّنية والنبأ - أنها كسرت فذهب منها فلقة ، ولم تقلع من أصلها ، وقوله « وفروا » أى بعضهم ، أو أطلق ذلك باعتبار تفرقهم ، والواقع أنهم صاروا ثلاث فرق : فرقة استمروا فى المزيمة إلى قرب المدينة ، فما رجعوا حتى انقضى القتال ، وهم قليل ، وهم الذين نزل فيهم « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ^(۲) » وفرقة صاروا حيارى لما سمعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل ، فصار غاية الواحد منهم أن يذُبَّ عن نفسه ، أو يستمر على نصرته فى القتال إلى أن يقتل ، وهم أكثرهم ، وفرقة بقيت مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم تراجع إليهم القسم الثانى شيئا فشيئا لما عرفوا أنه حى ، وما ورد من الاختلاف فى العدد محمول على تعدد المواطن فى القصة .

ووقع عند أبي يعلى فى حديث عمر المتقدم : فلما كن عام أحد عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون .

وفى الاكتفاء : أنه لما قتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء على بن أبي طالب ، فقاتل فى رجال من المسلمين ، ولما اشتد القتال جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ تحت راية الأنصار ، وأرسل إلى على أن قدم الراية ، فتقدم فقال : أنا أبو القصم ، فناداه أبوسعّد بن أبي طلحة : هل لك يا أبا القصم فى البرّاز ^(۳) من حاجة ؟ قال : نعم ، فبرزوا بين الصفين ، فأختلفا ضربتين :

(۱) من سورة آل عمران من الآية ۱۶۵ (۲) من سورة آل عمران من الآية ۱۵۵

(۳) البراز : القتال

فضربه علیّ فصرعه، ثم انصرف ولم يُجهزْ عليه^(۱)، فقال له أصحابه : أفلا أجهزت عليه ؟ فقال : إنه استقبلني بعورته ، فعطفتني عليه الرحم ، وعرفت أن الله قد قتله .

وقد قيل : إن سعد بن أبي وقاص هو الذي قتل أبا سعد هذا وروى الطبرانی رجال الصحيح عن ابن عباس قال : دخل علی بن أبي طالب علی فاطمة يوم أحد فقال : خذی هذا السیف غیرَ ذَمیم ، فقال النبی صلی الله علیه وسلم : لئن كنت أحسنت القتالَ فقد أحسنه سهلُ بن حنیف وأبودجانة ابن خرشة .

وذکر فی الاکتفاء دخول الحلفتین من حاق المَغْفَر فی وَجنته صلی الله علیه وسلم ، وأنه وقع فی حُفْرَة من الحفر التي عمل أبو عامر الراهب ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون ، فأخذ علیّ بيده ، ورفع طلحة حتى استوى قائماً ، ومَصَّ مالك ابن سنان والدُ أبي سعيد الخدري الدم من وجهه ، ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلفتین من وجهه صلی الله علیه وسلم فسقطت ثَدْيَتُهُ ، ثم نزع الأخرى وسقطت ثنيتُهُ الأخرى ، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله صلی الله علیه وسلم ، قال سعد : فلقد رأيته يُنَاوِلُنِي النَّبِيَّ ويقول « ازِم فِدَاكَ أبا وأُمی » ، وأصيب يومئذٍ عينُ قتادة بن النعمان فردّها رسولُ الله صلی الله علیه وسلم بيده ، فكانت أحسنَ عينيه ، وأصيب فم عبد الرحمن بن عوف فهِمَ ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر أصابه بعضها في رجله فخرج ، فلما انتهى رسول الله صلی الله علیه وسلم إلى الشَّعْب ومعه أولئك النَّفَرُ من أصحابه ، فبيناهم في الشَّعْب إذ علت عالية من قریش : الجبل ، فقال : اللَّهُمَّ إنه لا ينبغي لهم أن يعلمونا . فقاتل عمر بن الخطاب ورَهْطُ معه من المهاجرين حتى أهبطهم من الجبل ، ونهض رسول الله صلی الله علیه وسلم إلى صخرة من الجبل ليملأها فلم يستطع ، وقد كان بَدَنٌ^(۲) وظاهر بين

(۱) أجهز على الجريح : تم قتله حتى زهقت روحه .

(۲) بدن : سمن وعلاه الشحم ، وذلك أثر من آثار السن .

درعین^(۱)، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أَوْجَبَ طَلْحَةُ^(۲)» وصلى النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ الظهر قاعداً من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعوداً.

وفي الصحيح من حديث البراء أن أباسفيان - حين أراد الانصراف - قال: «لنا العزى ولا عزى لكم» فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

وفيه أيضاً أن أباسفيان أشرف يوم أحد فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: لا تجيبوه، قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فلما لم يجبه أحد قال: إن هؤلاء قتلوا، ولو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، قد أبى الله لك ما ينجز بك.

قال ابن إسحاق: فلما أجاب عمر أباسفيان قال له: هلم إلى يا عمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: انتبه فانظر ماشأته، فجاء، فقال له أبوسفيان: أنشدك بالله يا عمر أقتلنا محمداً، فقال عمر: اللهم لا، وإنه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت أصدق عندي من ابن قبيصة وأبر، ثم نادى أبوسفيان: إيه قد كان في قتلاكم مثل، والله مارضيت وما سخطت، وما أمرت وما نهيت، ولما انصرف أبوسفيان ومن معه نادى: إن مواعدكم بدر العام القابل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه «قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد» ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب فقال: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم، فخرج على فراهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة، وفرزع الناس اقتلاهم،

(۱) ظاهر بين درعین: جمع بينهما.

(۲) أوجب طلحة: أراد استحق الجنة ثواباً على جميل صنعه.

وانتسروا يبتغونهم ، وسيأتى خبرهم وتعيينهم إن شاء الله تعالى فى الفصل السادس من الباب الخامس ، وبكى المسلمون يومئذ على قتلاهم ، فسرَّ المنافقون ، وظهر غشُّ اليهود ، وفارت المدينة بالنفاق .

قال العلماء : وكان فى قصة أحد من الحكم والفوائد أشياء عظيمة . الحكم التى منها : تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية ، وشؤم ارتكاب النهى ؛ لما وقع فى قصة أحد من الرماة .

ومنها : أن عادة الرسل أن تُبتلى وتكون لها العاقبة .
ومنها : إظهار أهل النفاق حتى عرف المسلمون أن لهم عدوا بين أظهرهم .
ومنها : أن فى تأخير النصر هُضمًا للنفس .
ومنها : أن الله هياً لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لا تبلغها أعمالهم ، فسبَّبَ لهم ذلك ليبلغوها .
ومنها : أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء ، فساقها لهم بين يدي الرسول ليكون شهيداً عليهم .

قال ابنُ إسحاق : وفى شأن أحد أنزل الله ستين آية من آل عمران .
وروى ابن أبي حاتم من طريق المسور بن مخرمة قال : قلت لعبد الرحمن ابن عوف : أخبرنى عن قصتكم يوم أحد ، قال : اقرأ العشرين ومائة من آل عمران تجدها « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » إلى قوله « أَمَنَةً نُّعَاسًا » (١) .

أبو عزة
الجمحي
ومقتله

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الواقعة مرهباً لعدوه حتى انتهى إلى حمراء الأسد ، فأخذ فى وجهه ذلك أبا عزة الجمحي ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد من عليه يوم بدر بغير فداء ، وأخذ عليه أن لا يظاهر (٢) عليه أحد ، وكان شاعراً ، فقال له صفوان بن أمية : إنك امرؤ شاعر فأعنا بلسانك ، ولم يزل به

(١) من سورة آل عمران الآيات من ابتداء الآية ١٢١ .

(٢) لا يظاهر أحداً عليه : لا يعين أحداً عليه .

حتى خرج معهم ، فلما أَخَذَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْلَنِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَاللَّهِ لَا تَمْسَحُ عَارِضِيكَ بِمَكَّةَ تَقُولُ : خَدَعْتُ مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ ، أَضْرِبْ عُنُقَهُ يَا زَبِيرُ ، فَضْرِبَ عُنُقَهُ .

وفى رواية أنه قال له « إن المؤمن لا يُدْعَغُ من جُحْرِ مَرَّتَيْنِ ، اضْرِبْ عُنُقَهُ يَا عَاصِمُ بْنُ قَابَتٍ » فَضْرِبَ عُنُقَهُ .

وفي هذه السنة أيضاً حرمت الحمر ، ويقال : فى التى بعدها ، وقال الحافظ ابن حجر : الذى يظهر أن تحريمها كان عام الفتح سنة ثمان ، واستدل بشيء فيه نظر .

وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما فى شعبان على الأصح ، وقيل : فى التى قبلها ، وزينب بنت خزيمة أم المساكين فى رمضان ، مكثت عنده شهرين أو ثلاثة ، وقيل : ثمانية أشهر ، وماتت ، وولد الحسن بن على فى منتصف رمضان ، وعلقت أمه بالحسين بعد خمسين ليلة : وتزوج عثمان أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

السنة الرابعة - وكانت بئر معونة أولها فى المحرم .

السنة الرابعة
من الهجرة

قلت : فى الصحيح من رواية أنس قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم أتاه رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان ، فزعموا أنهم قد أسلموا ، واستمدّوه على قومهم ، فأمدهم النبي صلى الله عليه وسلم بسبعين من الأنصار ، قال أنس : كنا نسميهم القراء ، يَحْطِبُونَ بالنهار وَيُصَلُّونَ بالليل ، فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة غَدَرُوا بهم وقتلوه ، ففَقَنْتَ شهرا يدعو على رعل وذكوان وبنى لحيان ، وفى بعض الروايات ما يقتضى أن الذين استمدوا لم يُظْهِرُوا الإسلام ، بل كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد ، وأنهم غير الذين قتلوا القراء لكنهم من قومهم ، وهو الذى فى كتب السير وقد بيّن ابن إسحاق فى المغازى وكذلك موسى بن عقبة عن ابن شهاب أسماء الطائفتين ، وأن أصحاب العهد هم بنو عامر ورأسهم أبو براء

عامر بن مالك بن جعفر ، المعروف بمَلَّاعِبِ الأَسِنَّةِ ، وأن الطائفة الأخرى من بنى سليم ، وأن عامر بن أخى ملاعب الأسننة أراد الغدر بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا بنى عامر إلى قتالهم ، فامتنعوا وقالوا : لا نَخْفِرُ^(١) ذمة أبى ترء ، فاستصرخ عليهم عصية وذكوان من بنى سليم ، فأطاعوه وقتلوه ، قالوا : ومات أبو ترء بعد ذلك أسفا على ما صنع به عامر بن الطفيل ، وقيل : أسلم أبو ترء عند ذلك ، وقاتل حتى قتل ، وعاش عامر بن الطفيل حتى مات كافراً بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، أصابته غدة كغدة البعير^(٢) ، ولم يكن القراء المذكورون كلهم من الأنصار ، بل كان بعضهم من المهاجرين مثل عامر بن فهيرة مولى أبى بكر ونافع بن ورقاء الخزاعي وغيرها ، كما يؤخذ من الصحيح أيضاً ، والله أعلم .

ثم كانت غزوة الرجيع فى صفر .

قلت : ذكرها ابن إسحاق فى الثالثة قبل بئر معونة ، والرجيع : موضع ببلاد غزوة الرجيع هذيل ، والله أعلم .

ثم كانت غزوة بنى النضير .

قلت : ذكرها بعضهم فى الثالثة قبل أحد ، وقال الزهرى : كانت على رأس غزوة بنى النضير ستة أشهر من وقعة بدر قبل أحد ، وذكرها ابن إسحاق فى الرابعة بعد بئر معونة وأن سببها أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءهم يستعينهم فى دية ، وجلس إلى جنب جدار لهم ، فخلا بعضهم ببعض ، وأمروا عمرو بن جحاش أن يرقى فيلقى عليه صخرة ، فأتاه الخبر من السماء ، فقام مظهرأ أنه يقضى حاجة ، وقال لأصحابه : لا تبرحوا ، ورجع مسرعاً إلى المدينة ، فأمر بحربهم والمسير إليهم ، وأمر بقطع النخل والتحريق ، قال : وحاصرهم ست ليالٍ ، فسألوا أن يُجَاوَأَ من أرضهم على أن لهم ما حملت الإبل ، فصولحوا على ذلك ، فاحتملوا إلى خيبر وإلى الشام ؛ فكانت أموالهم له

(١) «لا نخفر ذمته» تقول «خفرت ذمة فلان» إذا حفظتها ورعتها ، وإذا نقضتها ، ضد

(٢) يروى أنه مرض فى الطريق ، فمال إلى بيت امرأة من سلول ، فلما اشتد به المرض كان يقول « غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية » .

صلى الله عليه وسلم خاصة ، ووافق ابن إسحاق على ذلك جلُّ أهل المغازي ، وأصح منه ما رواه ابن مردويه بسند صحيح أنهم أجمعوا على الغدر ، فبعثوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم : اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتبعناك ، فاشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر ، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار مُسلم تخبره بأمر بني النضير ، فأخبر أخوها النبي صلى الله عليه وسلم بأمر بني النضير قبل أن يصل إليهم ، فرجع وصَبَّحهم بالكتائب ، فحصرهم يومه ، ثم غدا على بني قريظة فحصرهم ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم إلى بني النضير فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما أقلت الإبل^(١) إلا السلاح ، فاحتملوا أبواب بيوتهم ؛ فكانوا يخرّبون بيوتهم فيهدمونها ويحملون ما يوافقهم من خشبها ، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام .

ورواه أيضا عبد بن حميد في تفسيره ، وروى أيضا من طريق عكرمة أن غزوتهم كانت صبيحة قتل كعب بن الأشرف ، وروى أن قريشا كتبوا لبني النضير يحثونهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأضرموا الغدر بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولما حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم نخلهم قال حسان رضي الله عنه يعير قريشا من أبيات :

وهان على سرة بني لوى حريق بالبؤيرة مُستَطيِرُ

فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ولم يكن أسلم حينئذ :

أدام الله ذلك من صنيع وحرّق في نواحيها السعير

ستعلم أيننا منها بنزّه وتعلم أي أرضينا تضرّ

أي ستعلم أيننا منها يبعد ، وأي الأرضين أرضنا أو أرضكم يحصل لها الضر : أي الضرر ؛ لأن بني النضير إذا خربت أضرت بما جاورها وهو أرض الأنصار لا أرض قريش ، ونقل ابن سيد الناس عن أبي عمرو الشيباني أن الذي قال البيت المتقدم المنسوب لحسان هو أبو سفيان بن الحارث ، وأنه لما قال :

(١) ما أقلت الإبل : ما حملته ، وبهذا اللفظ روى في الرواية السابقة .

* وَعَزَّ عَلَى سِرَاةِ بَنِي لُؤَى *

بدل « هان » قال : و يروى « بالبويلة » بدل « بالبويرة » وأن المجيب له
بالبيتين المتقدمين هو حسان ، وما قدمناه هو رواية البخارى .
قال ابن سيد الناس : وما ذكره الشيبانى أشبه .

قلت : كأنه استبعد أن يدعو أبو سفيان في حالة كفره على أرض بني النضير ،
وقد قدمنا وجهه ، وكان أشراف بني النضير بنو الحقيق وُحَيِّ بن أخطب ،
فكانوا في مَنْ سار إلى خيبر ، فدَان^(۱) لهم أهلها ، وأسلم منهم يامين بن عمير
وأبواسعد بن وهب ، فأحرزا أموالهما .

وروى ابن شبة عن الكلبي قال : لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم على أموال
بني النضير قال للأَنْصار : إن إخوانكم من المهاجرين ليست لهم أموال ، فإن
شئتم قسمت هذه الأموال بينهم وبينكم جميعاً ، وإن شئتم أمسكتُم أموالكم فقسمت
هذه فيهم ، قالوا : بل أقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئتم ، فنزلت
(وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(۲)) . وقال ابن إسحاق : قسمها
صلى الله عليه وسلم في المهاجرين إلا سهل بن حنيف وأبو دجانة ، ذكرا فقراً
فأعطاهما منها ، والله أعلم .

ثم ولد الحسين بن علي .

قلت : المشهور في ولادته أنها في الثالثة كما قدمناه ، والله أعلم .

ثم كانت بدر الموعود .

قلت : هي بدر الثالثة لما تقدم ، والله أعلم .

ثم كان مقتل سلام^(۳) بن مشكم أي أبي رافع ، ويقال : عبد الله بن أبي الحقيق
وهي سرية عبيد الله بن عتيك . ثم رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهوديين
الذين كان يحنى أحدهما على الآخر .

(۱) دان لهم أهلها : خضعوا وانقادوا (۲) من سورة الحشر من الآية ۹
(۳) كذا في الأصول وفي الخلاصة ، وفي نسخة « ابن سلام بن مشكم » وهو الصواب

قلت : وفيها في شوال تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة هند -
 وقيل : رملة - بنت أبي أمية ، وهي أول من هاجر مع زوجها أبي سلمة إلى الحبشة
 ثم هاجرت إلى المدينة ، كذا ذكر بعض أهل السير ، وقال أبو عمر : تزوجها صلى
 الله عليه وسلم سنة اثنتين بعد بدر في شوال

زواج
 أم سلمة
 هند بنت
 أبي أمية

وفيها غزوة ذات الرقاع بعد بني النضير بشهرين عند ابن إسحاق ، وقيل :
 في الخامسة . بذكرها البخاري بعد خيبر لما في الصحيح من حضور أبي موسى
 الأشعري فيها ، وهو من أصحاب السفينة ، ولأمانع من التعداد ، والله أعلم .
 السنة الخامسة - ثم فك رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمان من الرق ،
 من الهجرة ثم خرج إلى دومة الجندل ، فرجع ولم يلق كيداً . ثم توفيت أم سعد بن عبادة .
 ثم كسف القمر في جمادى الآخرة ؛ فصلى بهم كصلاة كسوف الشمس

قلت : وجعلت اليهود يضربون بالطساس ، ويقولون : سحر القمر . وروى
 ابن حبان في صحيحه أنه صلى الله عليه وسلم صلى لكسوف القمر ، والله أعلم
 ثم أصابت قريشا شدة ، فبعث إليهم بنضة يتألفهم بها . ثم وفد بلال بن
 الحارث المزني ، فكان أول وافد مسلم إلى المدينة . ثم قدم ضمام بن ثعلبة ، ثم غزا
 المريسيع في شعبان ، وفيها أنزلت آية التيمم بسبب عقد عائشة رضي الله عنها .
 قلت : وسيأتي أن الأشبه أن بني المصطلق هي هذه ، والله أعلم .

ثم غزوة الخندق

غزوة الخندق

قلت : هكذا ذكره ابن إسحاق ، وهو المعتمد ، وقال موسى بن عقبة :
 كانت في شوال سنة أربع ، وصححه النووي في الروضة ، مع قوله بأن بني قريظة
 في الخامسة ، وهو عجيب ؛ لما سيأتي من أنها كانت عقيب الخندق ، سميت بذلك
 لحفر النبي صلى الله عليه وسلم الخندق بإشارة سلمان الفارسي ، وتسمى بالأحزاب
 لاجتماع طوائف من المشركين فيها على الحرب ، وهم الذين سماهم الله تعالى
 الأحزاب ، وأنزل الله في ذلك صدر سورة الأحزاب ، وذلك أن حبي بن
 أخطب في نفر من بني النضير خرجوا من مكة ، فحرضوا قريشا على

الحرب ، وخرج كنانة بن أبي الحقيق يسقى في بني غطفان ويحضرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لهم نصف ثمر خيبر ، فأجابه عيينة بن حصن الفزاري ، وكتبوا إلى حلفائهم من بني أسد فأقبل إليهم طليحة بن خويلد فيمن أطاعه ، وخرج أبو سفيان بن حرب بقريش ، فنزلوا مَرَّ الظَّهْرَانِ ، فجاءهم مَنْ أجابهم من بني سليم ، وكانوا قد استمدوهم فصاروا في جمع عظيم — ذكر ابن إسحاق بأسانيد أن عدَّتْهم عشرة آلاف ، قال : وكان المسلمون ثلاثة آلاف — وقيل : كان المسلمون ألفا ، والمشركون أربعة آلاف ، — وذكر موسى بن عقبة أن مدة الحصار كانت عشرين يوما ، ونزلت قریش بمجتمع السيول من رُومَة بين الجرف وزُغابة ، وغطفانُ ومن تبعهم من أهل نجد بذنب نقي إلى جانب أحد .

وفي رواية ابن مردويه عن ابن عباس : ونزل عُيَيْنَةُ في غطفان ومن معهم من أهل نجد إلى جانب أحد بباب نعمان ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع ، والخذقُ بينه وبين القوم ، وجعل النساء والذراري في الآطام .

وقال ابن إسحاق : نزلت قریش بمجتمع السيول في عشرة آلاف من أحايشهم ومن تبعهم من بني كنانة وتهامة ، ونزل عُيَيْنَةُ في غطفان ، وذكر ما تقدم من رواية ابن عباس المذكورة .

وروى الطبراني ورجاله ثقات عن رافع بن خديج قال : لم يكن حصن أخَصَنَ من حصن بني حارثة ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم النساء والصبيان والذراري فيه ، وقال : إن لم يكن أحد فالمن بالسيف ، فجاءهن رجل من بني ثعلبة بن سعد يقال له «نجدان» أخذ بني جحاش على فرس حتى كان في أصل الحصن ، ثم جعل يقول للنساء : أنزان إلى خير لكن^(١) ، فركن السيف ، فأبصره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتدر الحصن^(٢) قوم فيهم رجل من بني حارثة يقال له : ظفر

(١) في المطبوعات « خير لكم » تطبيع (٢) ابتدره : أسرع إليه

ابن رافع ، فقال : يا نجدان ابرز ، فبرز إليه ، فحمل عليه فقتله ، وأخذ رأسه فذهب به إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وروى البزار بإسناد ضعيف عن الزبير بن العوام رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج للخنزق جعل نساءه وعمته صفية في أطم يقال له «فارغ» وجعل معهم حسان بن ثابت ، فرقى يهودى حتى أشرف على نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عمته ، فقالت صفية : يا حسان قم إليه حتى تقتله ، قال : لا ، والله ما ذاك فيّ ، ولو كان في الخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت صفية : فاربط السيف على ذراعى ، ثم تقدّمت إليه حتى قتلتته ، وقطعت رأسه ، فقالت له : خذ الرأس فارم به على اليهود ، قال : ما ذاك فيّ ، فأخذت هي الرأس فرمته به على اليهود ، فقالت اليهود : قد علمنا أن لم يك يترك أهله خوفاً ليس معهم أحد ، ففترقوا وذهبوا .

وروى أحمد بإسناد قوى عن عبد الله بن الزبير قال : كانت صفية في حصن حسان بن ثابت يوم الخندق : أى وهو المسمى بفارغ ، فذكر الحديث في قتلها اليهودى وقولها لحسان : أنزل فاسلبه^(۱) ، فقال : مالى بسلبه حاجة .

وروى الطبرانى هذه القصة عن صفية رضى الله عنها في غزوة أحد ، وفي إسناده اثنان ، قال الهيثمى : لم أعرفهما ، وبقية إسناده ثقات ، والمذكور فى كتب السير أن هذه القصة فى الخندق ، وأن بعضهم كان بحصن بنى حارثة ، وبعضهم بفارغ ، وأن صفية رضى الله عنها لما فرغت من قتل اليهودى ورجعت إلى الحصن قالت لحسان : أنزل فاسلبه^(۱) ، فإنى لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل ، قال : مالى بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب .

قال السهيلي : يحمل هذا الحديث عند الناس أن حسان كان جبّانا شديداً الجبن ، وقد دفع بعض العلماء هذا وأنكره ، وقال : لو صح هذا لهجى حسان به ،

(۱) اسلبه : خذ مامعه من مال وأداة ، والسلب - بالتحريك - اسم لما يأخذه

القاتل من قتيله

فإنه كان يُهاجى الشعراء ، وكانوا يردُّون عليه فما عَيَّره أحدٌ مجبن ، وإن صح فلعل حسان كان معتلاً في ذلك اليوم بعله منعتة من شهود القتال ، انتهى .

وروى الطبرانى رجال الصحيح عن عروة مرسلاً أن النبي صلى الله عليه وسلم أَدْخَلَ نِساءه يوم الأحزاب أطماً من أطام المدينة ، وكان حسان بن ثابت رجلاً جَبَاناً ، فأدخله مع النساء ، فأغلق الباب ، وذكر القصة .

ومن ذكر القصة في الخندق ابنُ إسحاق ، ويؤيده أن اليهود إنما غدروا في الخندق ، وذلك أن حُيَّيَّ بن أخطب توجه إلى بنى قُرَيْظَةَ ، فلم يزل بهم حتى غدروا ، وبلغ المسلمين غدرهم ، فاشتد بهم البلاء والحصار حتى تكلم معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف وأوس بن قَيْظَى أخو بنى حارثة وغيرها من المنافقين بالنفاق ، وأنزل الله تعالى : « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مَرَضٌ ۖ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ^(۱) » الآيات . قال ابن عباس : وكان الذين جاءوهم من فوقهم بنو قُرَيْظَةَ ، ومن أسفل منهم قریش وغطفان ، وكان حيي بن أخطب أتى كعب ابن أسد صاحبَ عَقْدِ بنى قُرَيْظَةَ وعهدهم ، فأغلق باب حصنه دونه ، وقال : لم أر من محمد إلا وفاء وصدقا ، فقال له : إني جئتُك بعز الدهر ، جئتُك بقریش وغطفان على قادتَهما وسادتَهما قد عاهدوني وعاهدوني أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه ، فقال له كعب : جئتُني والله بِذُلِّ الدهر ، وبجَهَامٍ قد هَرَّاقَ ^(۲) ماءه فهو يُرْعِدُ وَيُبرِقُ وليس فيه شيء ، فلم يزل حتى نقض كعبُ عهده وبرىء مما كان بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم ، فاشتد الخوف بالمسلمين .

قال ابن إسحاق : ولم يقع بينهم حرب إلا مُرَامَةً بالنبل ، ولكن كان عمرو ابن عبدودَّ العامري اقتحم هو ونفر معهم خيولهم من ناحية ضيقة من الخندق ، فبارزه على فقتله ، وبرز نَوْفَلُ بن عبد الله بن المغيرة المخزومي ، فبارزه الزبير فقتله ، ويقال : قتله على ، ورجعت بقية الخيول منهزمة ، وقيل : اقتتلوا ثلاثة أيام قتالاً

(۱) من سورة الأحزاب الآية ١٢

(۲) الجهام - بالفتح - السحاب لامطرفيه ، وهراق : أراق وأفرغ

شديداً حتى يحجز الليل بينهم ، سيما في اليوم الثالث ، حتى شغلهم القتال عن صلاة العصر والمغرب - وقيل : والظهر - وذلك قبل أن ينزل قوله تعالى : « فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ^(١) » قال مالك : ولم يستشهد يوم الخندق إلا أربعة أو خمسة ، وذكر غيره ستة ، وهم : سعد بن معاذ كما سيأتى ، وأنس بن أوس بن عتيك ، وعبد الله بن سهيل ، وهم من بنى عبد الأشهل ، وثعلبة بن غنمة ، والطفيل بن النعمان ، وهما من بنى سلمة ، وكعب بن زيد من بنى دينار بن النجار

وكان من المناوشات بين الفريقين أن مات بعض بني عمرو بن عوف من أهل قباء ، فاستأذن أقرباؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدفنوه ، فأذن لهم ، فلما خرجوا إلى الصحراء إدفن ميتهم وافقوا دِرَارَ بْنَ الْخَطَّابِ وَجَمَاعَةً مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَعْثَهُمْ أَبُو سَفْيَانَ لِيَتَارَوْا لَهُ مِنْ قُرْبَى عَلَى إِبِلٍ لَهُ ، فحملوا على بعضها قمحا ، وعلى بعضها شعيرا ، وعلى بعضها تمرا وتبنا للعلف ، فلما رجعوا وبلغوا ساحة قباء وافقوا الذين كانوا يدفنون ميتهم ، فناهضهم المسلمون وغلبوهم ، فخرج ضرار جراحات ، فهرب هو وأصحابه ، وساق المسلمون الإبل بما عليها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان للمسلمين في ذلك سعة من النفقة

ثم أتى نعيم بن مسعود الأشجعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُسْلِماً ، ولم يعلم به قومه ، فقال له : خذل عنا ^(٢) ، فمضى إلى بني قريظة ، وكان نديماً لهم ، فقال : قد عرفتم محبتي ، قالوا : نعم ، فقال : إن قريشا وغطفان ليست هذه بلادهم ، وإنهم إن رأوا فرصة انتهزوها ، وإلا رجعوا إلى بلادهم وتركوكم في البلاد مع محمد ، ولا طاقة لكم به ، قالوا : فما ترى ؟ قال : لا تقايلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنًا ، فقبلوا رأيهم ، فتوجه إلى قريش فقال لهم : إن اليهود ندموا على القدر بمحمد ، فراسلوه في الرجوع إليه ، فراسلهم بأننا لا نرضى حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رهنًا فأقتلهم ، ثم جاء غطفان بنحو ذلك ، فلما أصبح أبو سفيان بعث عكرمة

إسلام
نعيم بن مسعود
الأشجعي

(١) من سورة البقرة من الآية ٢٣٩

(٢) خذل عنا : احمل أعداءنا على الخذلان والفشل وترك القتال

ابن ابی جہل إلى بنی قریظۃ بأنا قد ضاق بنا المنزل ، ولم نجد مرعى ، فاغدوا للقتال حتى تناجز محمدا ، فأجابوهم إن اليومَ يومُ السبت ، ولا نعمل فيه شيئا ، ولا بد لنا من الرُّهْنِ منكم لثلاث غدروا بنا ، فقالت قريش : هذا ما حذرکم نعيم ، فراسلوهم ثانيا : إنا لا نعطيکم رهنًا ، فإن شئتم أن نخرجوا فافعلوا ، فقالت قريظۃ : هذا ما أخبرنا نعيم ، ثم بعث الله عليهم الريحَ فما تركت لهم بناء إلا هدمته ، ولا إناء إلا أكفته ، لا تقر لهم قرارا ولا نارا ولا بناء ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، والله ما أصبحتم بدار مُقام^(۱) ، لقد هلك الكراعُ والخف ، وأخلفتنا بنو قريظۃ ، ولقينا من شدة الريح ماترون ، فارتحلوا فإني مرتحل ، فتحملت قريش وإن الريح لتغلبهم على بعض أمتعتهم ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا^(۲) راجعين إلى بلادهم ، وقال صلى الله عليه وسلم « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا » .

وفى الذيل على أخبار المدينة لابن النجار لصاحبه العراقي عن الكلبي أنه قال : إن الملائكة اتَّبَعُوا الأحزاب حتى بلغوا الرِّوْحَاءَ يَكْرُونَ في أدبارهم ، فهربوا لا يَلُوْنَ على شيء^(۳) ، والله أعلم

ثم كانت غزوة بنی قريظۃ .

غزوة
بنی قريظۃ

قلت : قال أبو الربيع الكلاعي في الاكتفاء : ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة ومعه المسلمون ، فلما كانت الظهر أتاه جبريل - ويقولون فيما ذكر ابن عقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في الغتسل عند ما جاءه جبريل ، وهو يُرَجِّلُ رأسه^(۴) ، قد رجَّلَ أحد شقيه ، فجاءه جبريل على فرس عليه اللأمة وأثرُ الغبار ، حتى وقف بباب المسجد عند موضع الجنائز ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له جبريل : غفر الله لك ! قد وضعت السلاح ؟ قال : نعم ، قال جبريل : ما وضعت الملائكة

(۱) دار مقام : دار إقامة (۲) انشمروا راجعين : مضوا في جد وسرعة

(۳) لا يلوون على شيء : لا يلتفتون لشيء ولا يهتمون له

(۴) يرجل رأسه : يصرح شعره وينظفه

السلاح بعدُ ، وما رجعتُ إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة ، فإني عامد إليهم فمززل بهم ، اه

وفي رواية أخرى أنه قال : انهض إليهم فلاضعضنهم ، فأدبر جبريل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار ، وأصله في البخاري في باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب من رواية أنس ، قال : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْغُبَارِ سَاطِعًا فِي سَكَّةِ بَنِي غَنَمٍ [من] موكب جبريل

ورواه ابن سعد من طريق حميد بن هلال مطولا ، لكن ليس فيه أنس وأوله : كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين بني قريظة عهد ، فلما جاءت الأحزاب نقضوه وظاهروهم ، فلما هزم الله الأحزاب تحصنوا ، فجاء جبريل فقال : يا رسول الله ، انهض إلى بني قريظة ، فقال : إن في أصحابي جهداً ، قال : انهض إليهم فلاضعضنهم ، قال : فأدبر جبريل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم من الأنصار

قلت : زقاقهم هو عند موضع الجنائز في شرقي المسجد ، كما علم من ذكر منازلهم وفي رواية : لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق والمسلمون ، ووضعوا السلاح ، أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم مُتَعَجِّراً بِعِمَامَةٍ^(۱) من استبرقٍ على بَغَّةٍ عليها قُطَيْفَةٌ من ديباج ، فقال : أَوَقَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال : نعم ، فقال : ما وضعت الملائكة السلاح بعدُ ، وما رجعتُ إلا من طلب القوم ، إن الله يأمرك بالسير إلى بني قريظة ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بلالا فأذن في الناس : مَنْ كَانَ سَامِعًا مَطِيعًا فَلَا يُصَلِّينَ الْعَصْرَ إِلَّا قِيَّ بَنِي قَرِظَةَ ، وقدم علي بن طالب برأيه إلى بني قريظة ، وابتدَرَهَا النَّاسُ ، وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة في رواية ، وفي أخرى خمس عشرة ، وعند ابن سعد عشرة ، حتى أجهدَهم الحصار ، وقُدِفَ في قلوبهم الرعبُ ، فعرض

(۱) «اعتجر فلان بعمامته» الاعتجار: أن يلفها على رأسه ويرد طرفها على وجهه ولا يجعل منها شيئا تحت ذقنه .

عليهم رئيسهم كعب بن أسد وقال لهم : إما أن تؤمنوا بمحمد فوالله إني
أو تقتلوا نساءكم وأبناءكم وتخرجوا مستقتلين ليس وراءكم ثقل^(١) وتبيتوا المسلمين ليلة
السبت ، فقالوا : لا تؤمن ولا نستحل السبت ، وأي عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا ؟
وأرسلوا إلى أبي ألبابة بن عبد المنذر أخى بنى عمرو بن عوف من الأوس ، وكانوا
حلفاءهم ، فاستشاروه في النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار
إلى حلقه ، يعنى الذبح ، ثم ندم ، فتوجه إلى المسجد النبوى ، وأرتبط بسارية
تُعرف به اليوم حتى تاب الله عليه ، واستشهد من المسلمين خلاد بن سويد من
بنى الحارث بن الخزرج ، طرحت عليه امرأة من بنى قريظة رحى فقتلته ، وأمر
صلى الله عليه وسلم بقتلها بعد ذلك ، ومات في الحصار أبو سنان بن محسن الأسدى
أخو عكاشة بن محسن ، فدفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقبرة بنى قريظة
التي تدفن فيها المسلمون لما سكنوها ، ولم يُصَبْ غير هذين ، فلما اشتد بهم الحصار
أذعنوا^(٢) أن ينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الأوس : قد فعلت
في موالى الخزرج - أى بنى قينقاع - ما علمت ، فقال : ألا ترضون أن يحكم فيهم
رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فذلك إلى سعد بن معاذ ، وكان سعد قد أصابه
سهم في أكتفه^(٣) يوم الخندق ، فأتاه قومه ، فسلموه على حمار ، ثم أقبلوا معه
يقولون : يا أبا عمرو ، أحسن في مواليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما
ولاك ذلك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله
لومة لأثم ، فجاء سعد فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم إليه ، فقال سعد :
فإني أحكم فيهم أن يُقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة
أزقة : سموات ، ثم استنزلوا ، فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ،
ثم خرج صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق ، ثم بعث إليهم ،

(١) الثقل - بالتحريك - متاع المسافر (٢) أذعنوا : خصموا

(٣) الأكل : عرق في وسط الذراع يكثر فصده

فَضْرَبَ أَعْنَاقَهُمْ فِي تِلْكَ الْخَنَادِقِ وَفِيهِمْ عَدُوُّ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْطَبٍ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ عَاهَدَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ لَثْنِ رَجَعَتْ قَرِيشٌ وَغَطَفَانٌ لِأَدْخُلَنَّ مَعَكَ فِي حَصْنِكَ حَتَّى يَصِيدَنِي مَا أَصَابَكَ ، فَلَمَّا رَجَعَتْ الْأَحْزَابُ دَخَلَ مَعَهُ فِي حَصْنِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَتْلِ مَنْ أَنْبَتَ مِنْهُمْ ، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ اسْتَحْيَاهُ ، وَلَمْ يَقْتُلْ مِنْ نِسَائِهِمْ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً كَانَتْ طَرَحَتْ رَحَى عَلَى خِلَادِ بْنِ سُوَيْدٍ كَمَا سَبَقَ

وَعِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ مِنْ مَرْسَلِ حُمَيْدِ بْنِ هَلَالٍ : أَنَّ سَعْدَ بْنَ مَعَاذٍ حَكَمَ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ دَارُهُمْ لِلْمُهَاجِرِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ ، فَلَامَهُ الْأَنْصَارُ ، فَقَالَ : أَحْبَبْتُ أَنْ يَسْتَغْنَوْا عَنْ دُورِكُمْ

وَاخْتَلَفَ فِي عِدَّتِهِمْ ؛ فَعِنْدَ ابْنِ إِسْحَاقَ كَانُوا سِتْمِائَةً ، وَعِنْدَ ابْنِ عَائِذٍ مِنْ مَرْسَلِ قَتَادَةَ كَانُوا سَبْعِمِائَةً ، وَقَالَ السَّهِيلِيُّ : الْمَكْثَرُ يَقُولُ : لَهُمْ مَا بَيْنَ الثَّمَانِمِائَةِ إِلَى السَّبْعِمِائَةِ ، وَفِي النَّسَائِيِّ وَابْنِ مَاجَةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ أَنَّهُمْ كَانُوا أَرْبَعِمِائَةً مُقَاتِلٍ ، وَكَانَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَاطِلَةَ الْقُرْظِيُّ قَدْ مَرَّ عَلَى ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَوْمَ بُعَاثَ ، فَجَاءَهُ ثَابِتٌ لَمَّا قَتَلَ بَنُو قَرِظَةَ وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ، وَذَكَرَهُ بِذَلِكَ ، ثُمَّ ذَهَبَ فَاسْتَوْهَبَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَوَهَبَهُ إِيَّاهُ ، فَأَتَاهُ فَقَالَ : شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا أَهْلَ لَهُ وَلَا وَلَدَ ، فَمَا يَصْنَعُ بِالْحَيَاةِ ؟ فَاسْتَوْهَبَ لَهُ امْرَأَتَهُ وَوَلَدَهُ ، ، فَقَالَ : أَهْلُ بَيْتٍ بِالْحِجَازِ لَا مَالَ لَهُمْ ، فَمَا بَقَاؤُهُمْ ؟ فَاسْتَوْهَبَ لَهُ مَالَهُ ، فَأَتَاهُ فَأَعْنَمَهُ ، فَقَالَ : أَيْ ثَابِتُ مَا فَعَلَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، وَصَارَ يَذْكُرُ قَوْمَهُ وَيَصِفُهُمْ ، فَقَالَ لَهُ : قَتَلُوا ، قَالَ : فَإِنِّي أَسْأَلُكَ يَا ثَابِتُ بِيَدِي عِنْدَكَ إِلَّا الْحَقَّتَنِي بِالْقَوْمِ ، فَوَاللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مِنْ خَيْرٍ ، فَقَدَّمَهُ ثَابِتٌ فَضْرَبَ عُنُقَهُ

ثُمَّ قَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْوَالَ بَنِي قَرِظَةَ وَنِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَأَسْنَمَهُمْ لِلْخَيْلِ ، فَكَانَ أَوَّلَ فَيْءٍ وَقَعَتْ فِيهِ الشُّهُمَانُ^(۱) ، وَأَخْرَجَ مِنْهُ

(۱) السُّهُمَانُ - بَضْمٌ فَسْكَوْنٌ - جَمْعُ سَهْمٍ ، وَهُوَ النَّصِيبُ ، وَيَجْمَعُ السَّهْمُ أَيْضًا

عَلَى أَسْهَمٍ وَسَهَامٍ

الخمس ، واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة إحدى نساء بني عمرو بن قريظة ، فكانت عنده حتى توفى ، وكان يحرص عليها أن يتزوجها ، فقالت : تتركنى فى ملكك فهو أحق على عليك ، فتركها ، وقد كانت حين سبأها كرهت الإسلام ، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك من أمرها ، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال : إن هذا لثعلبة بن شعبة يبشرنى بإسلام ريحانة ، فكان كذاك ، وقيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم أعتقها وتزوجها ، وإنها ماتت فى حياته مَرَجَعَهُ من حجة الوداع ، وهذا الأثبت عند الواقدي ، وبعضهم يقول : هى من بنى النضير ولما انقضى شأن بنى قريظة انفجر جَرَحُ سعد بن معاذ فمات شهيدا

وفى البخارى ما يقتضى أن قريظة كانوا قد حاربوا قبل ذلك مع بنى النضير ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم من عليهم ، ولم أر التصريح بذلك ، ولم يتعرض له الحافظ ابن حجر فى شرحه ، وقد قدمنا فى بنى النضير من رواية ابن مردويه ما يشهد له ، ولفظ البخارى : عن ابن عمر قال : حاربت النضير وقريظة ، فأجلى بنى النضير ، وأقر قريظة ومن عليهم ، حتى حاربت قريظة ، فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأموالهم وأولادهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحقوا بالنبى صلى الله عليه وسلم فأمنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة كلهم : بنى قينقاع وهم رهط عبد الله ابن سلام ، ويهود بنى حارثة ، وكل يهودى بالمدينة ، اهـ

ورواه أبو داود بنحوه ، إلا أنه قال : حتى حاربت قريظة بعد ذلك ، يعنى بعد محاربتهم الأولى وتقريرهم ، ويؤخذ من ذلك أن إجلاء من بقى من طوائف اليهود بالمدينة كان بعد قتل قريظة .

وفى البخارى أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : بينما نحن فى المسجد خرج النبى صلى الله عليه وسلم فقال : انطلقوا إلى يهود ، فخرجنا حتى إذا جئنا بيت المدراس^(١) قال : أسلموا تسلموا ، واعلموا أن الأرض لله ولرسوله وأنى

(١) بيت المدراس : البيت الذى يتدارس فيه اليهود توراتهم

أريد أن أجليكم من هذه الأرض ، فمن يجد منكم بماله شيئاً فليبعه ، وإلا فاعلموا أن الأرض لله ولرسوله ، وهو مقتص لأن ذلك كان بعد خير ؛ لأن إسلام أبي هريرة بها في السنة السابعة ، والله أعلم

ثم كانت سرية عبید الله بن أنیس إلى سفيان بن خالد الهذلي ثم للحياضي بِعُرْنَةَ^(١) ، وفيها سقط رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فرسه^(٢) فجحش ، وفيها دَفَّتْ دَافَةُ العرب^(٣) ، فنهى عن ادِّخَارِ لحوم الأضاحي فوق ثلاث .

قلت : وتزوج زَيْنَبَ بنت جَحْش ، وهي بنت عمته أميمة ، وقيل : في الثالثة ، وبسببها نزلت آية الحجاب ، وأسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، والله أعلم .

السنة السادسة من الهجرة - في أولها أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثامة بن أنال أسيراً ، ثم كسفت الشمس ثانية بعد الكسوف الذي كان يوم مات ابنه إبراهيم .

قلت : لعل في النسخة خلافاً منذ كره من ولادة إبراهيم في الثامنة ووفاته في العاشرة ، فالكسوف في السادسة هو الكسوف الأول ، وفيها نزل حكم الظهار ، والله أعلم .

وفيها قتل المشركون سرية محمد بن مسلمة فلم يُفْلِتْ منهم غيره ، وكانوا عشرة ، ثم كانت سرية علي بن أبي طالب إلى فدك في مائة رجل . ثم كانت سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دُومَةِ الْجَنْدَل ، فظهر عليهم ، فزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمَاضَ بنت الإصبع بن عمرو الكلبي وهو ملكهم ، ثم أُجْدَبَ الناس فاستسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان في موضع المصلي فسُقُوا ، ثم أرسل زيد بن حارثة في سرية ، فسبي سلمة بن الأكوع في تلك السرية بنت مالك بن حذيفة ، ثم كانت الحُدَيْبِيَّة ، ثم أغار عيينة بن حصن^(٤) الفزاري على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستنقذها .

(١) عُرْنَةُ - بضم العين وفتح الراء - موضع عند الموقف بعرفات

(٢) في المطبوعات « عن فرسه فجحش » تطبيع ، والثابت في السنة « فجحش

شقّه » أي انخدش جلده (٣) دفت دافة : أي ورد قوم من الأعراب المدينة

(٤) في المطبوعات « عيينة بن حصين » تطبيع

قلت : قد قدمنا في حدود الحرم أن لقاحه صلى الله عليه وسلم كانت ترعى بالغابة وما حولها ، فأغار عليها عُيَيْنَةُ يوم ذى قَرَد^(۱) ، وهو الموضع الذي كان فيه القتال ، سميت الغزوة به ، وتسمى أيضاً غزوة الغابة .

غزوة
ذى قرد

قال ابن إسحاق : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة بنى لَحْيَانَ وكان في شعبان سنة ست ، لم يُقَمَّ إلا ليالى قلائل حتى أغار عُيَيْنَةُ في خيل من غَطَفَانَ على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة ، وفيها رجل من بنى غفار وامراته ، فقتلوا الرجل ، واحتملوا المرأة في اللقاح ، وكان أول من نُذِرَ بهم سَلَمَةُ ابن الأكوع ، غدا يريد الغابة مُتَوَشِّحًا قوسه ونبله حتى إذا علا ثَمِيَّةُ الْوَدَاعِ نظر إلى بعض خيولهم ، فأشرف في ناحية سَلَمَ ، ثم صرخ : وَاصْبَاخَاهُ ، ثم خرج يشتد في آثار القوم حتى لحقهم ، فجعل يردهم بالنبل ويقول إذا رمى : خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ الْأَكْوَعِ ، واليومُ يومُ الرُّضْعِ ، فإذا وجهت الخيل نحوه هرب ، ثم عارضهم ، وهكذا ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صياحه ، فصرخ بالمدينة : الْفَزَعُ ، الْفَزَعُ ، فترامت الخيل إليه ، فلما اجتمعوا أمر عليهم سعد بن زيد الأشهلي ، وقال : اخْرُجْ فِي طَلَبِ الْقَوْمِ حَتَّى أَلْحَقَكَ فِي النَّاسِ ، فَقَتَلَ أَبُو قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَبِيبَ بن عُيَيْنَةَ بن حصن وغشاه برده ، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسلمين ، فإذا حبيبٌ مُسَجًى بِبِرْدِ أَبِي قَتَادَةَ وَلَكِنَّهُ قَتِيلٌ ، فَظَنُّوه هُوَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَيْسَ بِأَبِي قَتَادَةَ وَلَكِنَّهُ قَتِيلٌ لَهُ ، وَأَدْرِكُ عُكَّاشَةَ بن محصن رضى الله عنه أوبارا وابنه عمر بن أوبار ، وهما على بعير واحد ، فانتظمهما بالرمح ، فقتلها جميعاً ، واستنقذوا بعض اللقاح ، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بالخليل من ذى قَرَدِ ، وتلاحق به الناس ، وأقام عليه يوماً وليلة ، وقال له سلمة : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ سَرَّحْتَنِي فِي مِائَةِ رَجُلٍ لَأَسْتَنْقَذْتُ بَقِيَّةَ السَّرْحِ وَأَخَذْتُ بِأَعْنَاقِ الْقَوْمِ ، فَقَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(۱) ذو قرد - بفتح القاف والراء جميعاً - ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر ، ويقال «ذو القرد» بضم القاف وفتح الراء - قاله ابن الأثير (۲۴۰ / ۳)

إنهم ليقرون في غطفان ، فقسم صلى الله عليه وسلم في أصحابه في كل مائة جزورا ، وأقاموا عليها . ثم رجع ، وأفلتت امرأة الغفاري على ناقة من اللقاح حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته الخبر ، وقالت : إني نذرتُ الله أن أنحرها إن أنجاني اللهُ عليها ، فتبسم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : بئس ما جزيتها أن تحملك الله عليها ونجأك بها ثم تنحرينها ، إنه لا نذرَ في معصية الله ولا فيما لا تملكين ، هذه رواية ابن إسحاق ، وقد ذكر فيها قتل اثنين من المسلمين .

وخرج مسلم القصة عن سلمة مطولة ومختصرة ، وخالف ما ذكره ابن إسحاق في مواضع : منها أنها كانت بعد انصرافه صلى الله عليه وسلم من الحديبية ، وجعلها ابن إسحاق قبلها ، ومنها : أن فيه أن اللقاح كانت ترعى بذى قرَد ، وكذا هو في البخاري ، وقال ابن إسحاق : بالغابة ، وكذا هو في حديث سلمة الطويل ، ولهذا قال عياض : إن الأول غلط ، ويمكن الجمع بأنها كانت ترعى تارة هنا وتارة هناك ، ومنها : أنه قال فيه : خرجت قبل أن يؤذن بالأولى فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال : أخذتُ لقاحُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصرخت ثلاث صرخات : يا صباحاه ، فأسمعت ما بين لابتي المدينة ، ثم اندفعت على وجهي حتى أدركتهم وقد أخذوا بذى قرَد يسقون من الماء ، وفي رواية لمسلم ما يقتضي أن سَلَمَة كان مع السَّرْح^(۱) لما أُغِير عليه ، وأنه قام على أكمة^(۲) وصاح : يا صباحاه ، ثلاثاً ، وهذا يرجح أن السرح كان بالغابة ، ويبعد كونه بذى قرَد ، ولو كان بذى قرَد لما أمكنه لحوقهم ، ومنها : أن فيه أنه استنقذ سرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بجملته ، ومنها : أنه قال فيه : فرجعنا إلى المدينة ، فوالله ما لبثنا بها إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى

(۱) السرح — بالفتح — الماشية ، ويقال لها أيضا : سارح ، وسارحة

(۲) الأكمة — بفتحات — الراية ، وهي المكان المرتفع

خَئِيرَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : لَا يَخْتَلِفُ أَهْلُ السَّيَرَانِ غَزْوَةَ ذِي قَرْدٍ كَانَتْ قَبْلَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، انْتَهَى .

وَمَا فِي الصَّحِيحِ مِنَ التَّارِيخِ لَهَا أَصَحُّ مِمَّا فِي السَّيَرِ ، وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بِتَكَرُّرِ الْوَاقِعَةِ ، وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ الْحَاكِمَ ذَكَرَ فِي الْإِكْلِيلِ أَنَّ الْخُرُوجَ إِلَى ذِي قَرْدٍ تَكَرَّرَ ؛ فَنَفَى الْأَوَّلَى خَرَجَ إِلَيْهَا زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ قَبْلَ أَحَدٍ ، وَفِي الثَّانِيَةِ خَرَجَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ خَمْسٍ ، وَالتَّالِيَةِ هِيَ الْمُخْتَلَفُ فِيهَا ، انْتَهَى . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ثُمَّ كَانَتْ قِصَّةُ الْعُرْتَيْنِ .

قِصَّةُ
الْعُرْنَيْنِ

قُلْتُ : ^(١) وَذَلِكَ أَنَّ ثَمَانِيَةَ مِنْهُمْ ، وَفِي رِوَايَةٍ مِنْ عَدَّائِهِ ، قَدِمُوا فَأَسْلَمُوا وَاجْتَنَبُوا الْمَدِينَةَ ^(٢) ، وَقَالُوا : إِنَّا كُنَّا أَهْلَ ضَرْعٍ وَلَمْ نَكُنْ أَهْلَ رَيْفٍ ، فَبِعَثَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى لِقَاحِهِ ، وَفِي رِوَايَةٍ « إِبِلُ الصَّدَقَةِ » وَكَأَنَّهَا كَانَا مَعًا ، فَصَحَّ الْإِخْبَارُ بِالْبَعْثِ لِكُلِّ مِنْهُمَا ، لِيُشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا ، فَلَمَّا صَحَّوْا قَتَلُوا الرَّاعِيَ وَاسْتَأْقَوْا الْإِبِلَ ، فَبِعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي طَلَبِهِمْ كُرْزَ بْنَ خَالِدِ الْفَهْرِيِّ فِي عَشْرِينَ ، فَأَتَى بِهِمْ ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ وَتَمْلِيقِ أَعْيُنِهِمْ وَطَرْحِهِمْ فِي الْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَلَا يُسْقَوْنَ ، حَتَّى مَاتُوا ، هَذَا مُحْصَلُ مَا فِي الصَّحِيحِ ، وَذَكَرَ أَهْلُ السَّيَرِ أَنَّ اللَّقَاحَ كَانَتْ تَرْعى نَاحِيَةَ الْجَمَّالَاتِ ، وَفِي رِوَايَةٍ بِذِي الْجَدْرِ غَرْبِي جَبَلٍ غَيْرَ عَلَى سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ ، وَذَكَرَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ ابْنِ عَقْبَةَ أَنَّ أَمِيرَ الْخَيْلِ يَوْمَئِذٍ سَعِيدُ بْنُ زَيْدٍ أَحَدُ الْعَشَرَةِ ، فَأَدْرَكَوهُمْ فَرَبَطَوْهُمْ وَأَرْدَفُوهُمْ عَلَى خَيْلِهِمْ ، وَرَدُّوا الْإِبِلَ ، وَلَمْ يَفْقِدُوا مِنْهَا إِلَّا لِقِيحَةً وَاحِدَةً مِنْ لِقَاحِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَدْعَى الْحَنَّا ، فَسَأَلَ عَنْهَا ، فَقِيلَ : نَحَرُوهَا ، فَلَمَّا دَخَلُوا بِهِمْ الْمَدِينَةَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْغَابَةِ .

(١) اجْتَنَبُوا الْمَدِينَةَ : أَيُّ أَصَابِهِمُ الْجَوَى ، وَهُوَ الْمَرَضُ وَدَاءُ الْجَوْفِ إِذَا تَطَاوَلَ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَمْ يَوَاقِفْهُمْ هَوَاءُ الْمَدِينَةِ وَاسْتَوْخَمَوْهَا .

قال بعضهم : وذلك مرجعه من غزوة ذي قرد ، فخرجوا بهم ، نحوه ، فلقوه بالزغابة . فقطعت أيديهم وأرجلهم وُسِمَتْ أعينهم وصلبوا هناك ، والله أعلم .
ثم غزا بني المصطلق ، ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم في انصرافه على المريسيع . وفيها كانت قصة الإفك .

غزوة

بني المصطلق
(المريسيع)

قلت : قد قدم غزوة المريسيع في السنة الخامسة ، وذكر أن فيها أنزلت آية التيمم ، وقد اقتضى كلامه أن المريسيع وقعت مرتين : في الأولى التيمم ، وفي الثانية الإفك ، وفيه جمع بين ما ذكره كثير من أهل السير من أن المريسيع سنة خمس وبين ما نقله البخاري عن ابن إسحاق أنها سنة ست ، لكن قد ثبت في الصحيح أن سعد بن معاذ تنازع هو وسعد بن عباد في أصحاب الإفك ؛ فلو كانت المريسيع التي هي غزاة بني المصطلق سنة ست مع كون الإفك كان فيها لكان ما وقع في الصحيح من ذكر سعد بن معاذ غلطا ؛ لأن سعد بن معاذ مات أيام قريظة ، وكانت سنة خمس ، وقيل : أربع ؛ فالأشبه أن بني المصطلق والمريسيع واحد ، كلاهما في سنة خمس .

وقد ذكر ابن عبد البر في التمهيد أن التيمم كان في غزاة بني المصطلق ، وجزم به في الاستذكار ، وسبقه إليه ابن سعد وابن حبان .

وفي البخاري « غزوة بني المصطلق » ، وهي غزوة المريسيع « وفي الطبراني حديث : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة المريسيع غزوة بني المصطلق ، وبني المصطلق بطن من خزاعة ، وكان رئيسهم الحارث بن أبي ضرار ، وكان معه عليه الصلاة والسلام بَشْر كثير ، خرج بهم إليهم لما بلغه أنهم يجمعون له ، وكان معه ثلاثون فرسا وأم سَلَمَة وعائشة ، فهزمهم وأسر من الكفار جمعا عظيما ، وتزوج جُوَيْرِيَة بنت الحارث رئيسهم ، فأعتق الناس ما بأيديهم من الأسرى لمكانها ، وفي هذه الغزاة قال ابن أبي ه لئن رجَعْنَا ^(١) إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعز

(١) من سورة المنافقين من الآية ٨

منها الأذل» وقال « لا تُنفِقُوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضوا^(١) » وذلك أن ابن أبيّ خرج في عصابة من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوا أن الله قد نصرَ رسوله وأصحابه أظهروا قولاً سيئاً ، واقتتل رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار ، فظهر عليه المهاجري ، فقال ذلك ابن أبيّ لقومه ، فأخبر زيد بن أرقم بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فأجهد ابن أبيّ يمينه ما فعل ، فحزن زيد بن أرقم لذلك ، فأنزل الله تصديقه ، واستأذن عبد الله بن عبد الله بن أبيّ النبي صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه فيما رواه عروة بن الزبير ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تقتل أباك ، ولما كان بينهم وبين المدينة يوم تعجل عبد الله بن عبد الله بن أبيّ حتى أناخ على مجامع طرق المدينة حتى جاء أبوه فقال له ابنه : لا والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعلم اليوم من الأعز [و] من الأذل ، فقال له : أنت من بين الناس ؟ فقال : نعم ، أنا من بين الناس ، فانصرف عبدُ الله حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستكى إليه ما صنع ابنه ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنه « أن كُحلَّ عنه » فدخل المدينة ، رواه ابن شبة .

وفي هذه السنة فرض الحج على الصحيح ، كما سيأتي ، والله أعلم .
 السنة السابعة — فيها قصة أبي سفيان مع هرقل في الشام ، وفي أولها كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وبعث إليهم رسله ، ثم كانت خيبر .
 قلت : واستصفي صفية بنت حُيَّ بن أخطب من المغنم ، فأعتقها وتزوجها ، وجاءته مارية القبطية هدية وبغلة دلدل ، وأسلم أبو هريرة ، وسمته صلى الله عليه وسلم زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم ، ثم صار النبي صلى الله عليه وسلم إلى وادي القرى ، فحاصر أهله ليالي وأصاب غلامه مدغم سهمهم غرب^(٢) فقتله ،

(١) من سورة المنافقين من الآية ٧

(٢) سهم غرب : لا يعرف راميهِ ، ويقال بالإضافة وبالوصف ، ووقع في

المطبوعات « وأصاب غلامه مدغم بينهم غرب » تطبيع

وفي رجوعه إلى المدينة كان النوم عن صلاة الصبح ، وروى بعضهم أنه كان في الرجوع من غزوة تبوك ، وقال الواقدي : وفي المحرم منها جاء رؤساء اليهود إلى لبيد بن الأعصم — وكان حليفاً في بني زريق ، وكان ساحراً — فقالوا له : يا أبا الأعصم ، أنت أسحرنا ، وقد سحرنا محمداً فلم نصنع شيئاً ، ونحن نجعل لك جُلاً على أن تسحره لنا سحراينكوه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير ، وذكر قصة سحره ، وفي رواية عن الزهري بإسناد صحيح أن المدة التي مكث النبي صلى الله عليه وسلم فيها في السَّحَر سنة ، وفي رواية أربعين ليلة ، والله أعلم .

وفيها جاءت أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وتزوج بها ، ثم كانت عُمرَةُ القُضَيْيَّة وتزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية .

سنة الثامنة
من الهجرة

السنة الثامنة — فيها كانت مُوْتة ، ثم كان الفتح ، ثم غزوة هوازن ، ثم غزوة الطائف ، وأمر على مكة عتاب بن أسيد ، وأسلم مالك بن عوف النَّضْرِي ، وتآلف المؤلفة من غنائم هوازن ، ثم انصرف إلى المدينة في آخر ذي القعدة .

قلت : وفي هذه السنة وُلد ابنه إبراهيم من مارية القبطية ، وحلق رأسه يوم سابعه ، وتصدق بزنة شعره فضة ، وعَقَّ عنه بكبشين^(١) ، ومات في عاشر ربيع الأول من السنة العاشرة وسنه عام ونصف ، وقيل : عام وثلاث ، وفي الثامنة أيضاً توفيت ابنته زينب ، وهي أكبر أولاده ، وكانت زَوْجَ أبي العاص بن الربيع بن عبد العزَّى بن عبد شمس الذي أثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم في صهارته ، تزوجها قبل البعثة ، ولما قدم عليها مسلماً ردّها النبي صلى الله عليه وسلم بالنكاح الأول على الصحيح لقدمه عقب تحريم المسلمات على المشركين ، وذلك بعد صلح الحديبية ، والله أعلم .

السنة التاسعة
من الهجرة

السنة التاسعة — فيها هَجَرَ نساءه شهراً ، ثم تتابعت الوفود ، ثم فرض الحج . قلت : قد اختلف في وقته ، فقيل : قبل الهجرة ، وهو غريب ، والمشهور

(١) العقيقة : ما يذبح يوم سابع الغلام ، والسنة أن يذبح عن الجارية شاة وعن الغلام شاتان

بعدها ، فقليل : سنة خمس ، وجزم به الرافعي في موضع ، وقيل : ست ، وصححه الرافعي في موضع آخر ، وكذا النووي ، وقيل : سبع ، وقيل : ثمان ، وقيل : تسع ، وصححه عياض ، والله أعلم .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج أبا بكر رضى الله عنه ، ثم نزلت براءة ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رضى الله عنه ؛ لينبذ إلى الناس عهدهم .

قلت : وفيها في شهر رجب كانت غزوة تبوك ، وهى آخر غزواته صلى الله عليه وسلم على ما ذكره ابن إسحاق ، والله أعلم .

السنة العاشرة — فى أولها قدم عدي بن حاتم بوفد طيء ، ثم قدم وفد بنى حنيفة ، ثم وفد غسان ، ثم وفد تجران الذين كانت فيهم قصة المبالغة ، ثم جاء جبريل يعلم الناس دينهم ، ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوكا .

قلت : وهو مخالف لما قدمناه عن ابن إسحاق من كونها فى التاسعة ، والله أعلم .

ثم أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس بالحج فى حجة الوداع ورجع ، ثم مرض فى صفر لعشر بقين منه ، وتوفى صلى الله عليه وسلم لاثنتى عشرة ليلة خات من ربيع الأول يوم الاثنين ، انتهى ما ذكره رزين عن أبى حاتم .

قلت : وشهر ربيع هذا من الحادية عشرة ، وكان ابتداء مرضه فى بيت ميمونة ، وقيل : زينب بنت جحش ، وقيل : ريمانة ، وذكر الخطابي أن ابتداءه يوم الاثنين ، وقيل : السبت ، وقيل : الأربعاء ، وحكى فى الروضة قولين فى مدته ، فقليل : أربعة عشر ، وهو الذى صدّر به ، وقيل : ثلاثة عشر ، وعليه الأكثر ، وقيل : عشرة ، وبه جزم سليمان التيمي ، ومقتضى ما تقدم أن المدة تزيد على عشرين يوما ، ولم أر من صرح به ، ولا خلاف فى أن الوفاة كانت يوم الاثنين ، وكونه من ربيع الأول ، كاد يكون إجماعا ، لكن فى حديث ابن مسعود عند

البزار : في حادي عشر رمضان ، وكونها في ثاني عشر ربيع الأول هو ما عليه الجمهور ، وذهب جماعة إلى أنها في أوله ، ورواه يحيى عن ابن شهاب ، وقال : حين زاغت الشمس ، وعن أسماء بنت أبي بكر أنه توفي للنصف من ربيع الأول ، وقيل : ثانيه ، ورجحه السهيلي ، واستشكل قول الجمهور بأنهم اتفقوا على أن الوقفة في حجة الوداع كانت الجمعة ، فأول ذي الحجة الخميس ، فمهما فرضت الشهور الثلاثة توأمًا أو نواقص أو بعضها ، لم يصح كون الوفاة يوم الاثنين مع كونه ثاني عشر ربيع الأول ، وأجاب البارزي باحتمال وقوع الثلاثة كوامل ، واختلاف أهل مكة والمدينة في هلال ذي الحجة : فرآه أهل مكة ليلة الخميس ، ولم يره أهل المدينة إلا ليلة الجمعة ، فحصلت الوقفة برؤية أهل مكة ، ثم رجعوا إلى المدينة فأرخوا برؤية أهلها ، فكان أول ذي الحجة الجمعة ، وهو وما بعده كوامل ، فأول ربيع الأول الخميس ، وثاني عشره الاثنين ، ولا يخفى بعد هذا الجواب ، وقد جزم سليمان التيمي أحد الثقات بأن بدء مرضه صلى الله عليه وسلم كان يوم السبت الثاني والعشرين من صفر ، ومات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول ، ومنه يعلم أن صفر كان ناقصا ، ولا يمكن أن يكون أول صفر السبت إلا إن كان ذو الحجة والحرم ناقصين ؛ فيلزم عليه نقص ثلاثة أشهر متوالية ، وأما على قول من قال : « أول ربيع الأول » ؛ فيكون اثنان ناقصين وواحد كاملا ، وكذا على قول من قال : « للنصف منه »

وقال البدر ابن جماعة : يحمل قول الجمهور لائنتي عشرة ليلة خلت : أي بأيامها ، فيكون موته في اليوم الثالث عشر ، وتفرض الشهور كوامل ؛ فيصح قول الجمهور ، ويعكز عليه ما فيه من مخالفة أهل اللسان في قولهم « لائنتي عشرة » فإنهم لا يفهمون منها إلا مضي الليالي ، وأن ما أرخ بذلك يكون واقعا في الثاني عشر .

قال الحافظ ابن حجر : فالعتمد قول أبي مخنف أنه في ثاني ربيع الأول ، وكان

سبب غلط غيره تغيير ذلك إلى الثاني عشر ، وتبع بعضهم بعضا في الوهم .
 وغسله صلى الله عليه وسلم على بوصيته ، والعباسُ وابنه الفضلُ يعينانه ،
 وقُثمُ وأسماءُ وشقرانُ يَصُبُّون الماء ، وكفن في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيَّة ليس
 فيها قميص ولا عمامة — وسجول : بلدة باليمن — وعن جعفر بن محمد عن أبيه :
 كفن في ثوبين صحاريين مما يصنع بعمان من كُرْسَف^(١) وبرد حَبْرَةَ ، وفي
 الإكليل ورواه يحيى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه : كفن في سبعة
 أثواب ، وصلى عليه في حُجْرَتِهِ بغير إمام ؛ ونقل الأَقْشَرِيُّ عن الحسين بن محمد
 الصدفي أنه صلى الله عليه وسلم صلى عليه في وسط الروضة من مسجده ، ثم حمل
 إلى بيته ودفن فيه .

قلت : هذا إنما هو معروف في أئى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وفي مستدرک
 الحاكم ومُسْنَدُ البزار بسند ضعيف أنه صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُصَلَّوْا عليه
 أرسالا بغير إمام ، ودفن صلى الله عليه وسلم ليلة الأربعاء ، وقيل : يومها ، وقيل :
 يوم الثلاثاء بعد أن عرف الموت في أظفاره ، وقال قائلون : ندفنه بمسجده ،
 وآخرون بالبقيع ، ثم اتفقوا على دفنه ببيته ، فحمل بالفراش ، وحفر له في موضع
 الفراش ، وروى يحيى عن ابن أبي مليكة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما هلاك
 نبي إلا دفن حيث تقبض روحه ، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه
 بإخراج المشركين من جزيرة العرب كما في الصحيح من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه
 وسلم أمر بذلك ، ولفظه : وأمرهم بثلاث ، فقال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ،
 وأجيزوا الوفد بحوم ما كنت أجيزهم » والثالثة إما سكت عنها ، وإما أن قالها
 فنسيها . قال سفيان : هذا — أى قوله والثالثة إلى آخره — من قول سليمان :
 أى شيخ سفيان ، قال الداودى : الثالثة هى الوصية بالقرآن ، وقال المهلب :
 بل هى تجهيز جيش أسماء ، وقوّاه ابن بطال بأن الصحابة لما اختلفوا على

(١) الكرسف — بوزن قنفذ — الملقطن

أبي بكر في تنفيذ جيش أسامة ، قال لهم أبو بكر : إن النبي صلى الله عليه وسلم عهد بذلك عند موته .

وقال عياض : يحتمل أن يكون^(۱) قوله : « لا تتخذوا قبرى وثناً » فإنها ثبتت في الموطأ مقرونة بالأمر بإخراج اليهود ، ويحتمل أن يكون ما وقع في حديث أنس أنها قوله : « الصلاة وما ملكت أيمانكم »

والذى أجلى المشركين من جزيرة العرب هو عمر رضى الله عنه ؛ ففي الصحيح من حديث ابن عمر أن عمر بن الخطاب أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل خيبر أراد أن يخرج اليهود منها ، وكانت الأرض لما ظهر عليها لله وللرسول وللمؤمنين ، فسأل اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتركهم على أن يكفوا العمل ولهم نصف الثمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نقرمكم على ذلك ما شئنا » فأقرؤوا حتى أجلاهم عمر في إمارته إلى تيماء وأريحاء .

وفي الصحيح أيضاً عن ابن عمر : لما فدع^(۲) أهل خيبر عبد الله بن عمر قام عمر خطيباً ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عاملاً يهود خيبر على أموالهم وقال : « نقرمكم على ما أقرمكم الله ، وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك ، فعُدَى عليه من الليل ، فقد عت يداه ورجلاه ، وليس لنا هناك عدو غيرهم ، هم عدونا ونهمتنا ، وقد رأيت إجلالهم ، فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بنى الحقيق ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنخرجنا وقد أقرنا محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وعاملنا على الأموال ، وشرط ذلك لنا ، فقال عمر : أظننت أنى نسيت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف بك إذا أخرجت من خيبر تعدو بك قلوبك ليلة بعد ليلة » فقال : كانت هذه هزيلة من أبي القاسم صلى الله عليه

(۱) أى يحتمل أن الثالثة هى قوله « لا تتخذوا قبرى وثناً »

(۲) الفدع — بالتحريك — زيغ بين القدم وبين عظم الساق ، وكذلك فى

اليد ، وهو أن تزول المفاصل عن أما كنها

وسلم ، فقال : كذبت يا عدو الله ، فأجلاهم عمر ، وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا وإبلا وعُرُوضاً من أقتاب وحبال وغير ذلك .

وظاهر هذا أن عمر رضى الله عنه إنما استند في إجلائهم لهذه القصة .
وروى ابن زبالة عن مالك عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يبقى دينان في جزيرة العرب » .

قال ابن شهاب : ففحص عن ذلك عمر بن الخطاب حتى أتاه الثلج^(۱) واليقين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يبقى دينان في جزيرة العرب » فأجلى يهود خيبر ، قال مالك : وقد أجلى عمر بن الخطاب يهود نَجْرَان وفدك .

وروى البيهقي من حديث عمر مرفوعاً « لئن عشتُ إلى قابل لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب » وخرجه مسلم بدون « لئن عشت » وفي مسند أحمد والبيهقي عن أبي عبيدة قال : كان آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم « أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب » الحديث .

وروى أحمد بسند جيد عن عائشة قالت : آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال « لا يترك بجزيرة العرب دينان » .

قال الجَوْنِي والقاضي حسين من أصحابنا : الجزيرة هي الحجاز ، والمشهور أن الحجاز بعض الجزيرة .

ولما مات النبي صلى الله عليه وسلم لم يتفرغ أبو بكر رضى الله عنه لإخراجهم ، فأجلاهم عمر رضى الله عنه وهم زُهَاءُ أُرْبَعِينَ أَلْفًا ، ولم ينقل أن أحداً من الخلفاء أجلاهم من اليمن مع أنها من الجزيرة ؛ فدل على أن المراد الحجاز فقط .

وحكى أن بعض اليهود أظهر كتاباً ، وادعى أنه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم بإسقاط الجزية عن أهل خيبر ، وفيه شهادة الصحابة ؛ فعرض على أبي بكر الخطيب البغدادي فقال : هذا مُزَوَّر ؛ لأن فيه شهادة معاوية ، وهو أسلم عام الفتح ، فلم يحضر ما جرى ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، وقد مات في بني قُرَيْظَةَ بسهم أصابه في الخندق ، وذلك قبل خيبر بسنتين ، وذلك من فوائد علم التاريخ ، والله أعلم .

(۱) الثلج الاظمثنان ، وفعله من بابي فرح وخرج (۲۱ — وفاة)

الباب الرابع

فما يتعلق بأمر مسجدھا الأعظم النبوی ، والحجرات المنیفات ، وما كان مُطیفاً به من الدور والبلاط ، وسوق المدينة ، ومنازل المهاجرین ، واتخاذ السور ، وفيه سبعة وثلاثون فصلاً .

الفصل الأول

فی أخذه صلى الله عليه وسلم موضع مسجده الشريف ، وكيفية بنائه تقدم أن ناقتہ صلى الله عليه وسلم لما برکت عند باب المسجد قال صلى الله عليه وسلم « هذا المنزل إن شاء الله » وفي كتاب يحيى عن الزهري أنها برکت عند مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين ، وكان مرءياً^(١) لغلामين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين برکت راحلته : هذا إن شاء الله المنزل ، وقال : اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ، قاله أربع مرات .

وروى رزين نحوه عن أنس ، ولفظه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا المنزل إن شاء الله » ثم أخذ في النزول فقال « رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين » ولم يقل قاله أربعاً .

وفي كتاب يحيى عن الزهري أيضاً أن المرء^(١) كان لسهل وسهيل ، وأنهما كانا في حجر أبي أمامة أسعد بن زرارة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال حين نزلت به راحلته « هذا المنزل إن شاء الله » ثم دعا الغلامين ، فسأوا منهما بالمرء^(١) ليتخذ مسجداً ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله هبةً حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً .

(١) المرء - بزنة منبر - الموضع الذي تحبس فيه الإبل والغنم ، وأصل اشتقاقه من « ربد بالمكان » إذا أقام فيه ، أو من « ربه » أي حبسه .

قال يحيى تبعاً لابن زبالة : وقال بعضهم : كان لفلانين يتيمين لأبي أيوب هاسهل وسهيل ابنا عمرو ، فطلب المربد من أبي أيوب ، فقال أبو أيوب : يا رسول الله المربد ليتيمين ، وأنا أرضيهما ، فأرضاهما ، فأعطاه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتخذاه مسجداً . وعند ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لمن هذا ؟ يعني المربد ، فقال له معاذ بن عفراء : هو لسهل وسهيل ابني عمرو يتيمان لي ، وسأرضيهما منه ، فاتخذاه مسجداً ، فأمر به أن يبنى . ويؤيده أنه وقع في مرسل ابن سيرين عند أبي عبيد في الغريب أنهما كانا في حجر مُعَاذ بن عفراء . والذي في صحيح البخاري أنهما كانا في حجر أسعد بن زرارة ، كذا هو في رواية الجميع إلا أبا ذر ، ففي روايته سعد بإسقاط الألف ، ورواية الجماعة هي الوجه ؛ إذ كان أسعد من السابقين إلى الإسلام ، وهو المكنى بأبي أمامة ، وأما أخوه سعد فتأخر إسلامه .

وقد يجمع باشتراك من ذكر في كونهما كانا في حجورهم ، أو بانتقال ذلك بعد أسعد إلى من ذكر واحداً بعد واحد ، سيما وقد روى ابن زبالة عن ابن أبي فديك قال : سمعت بعض أهل العلم يقولون : إن أسعداً توفي قبل أن يبنى المسجد ، فاتباعه النبي صلى الله عليه وسلم من ولي سهل وسهيل .

وروى ابن زبالة في خبر : كان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم لسهل وسهيل ابني أبي عمرو من بني غنم ، فأعطياه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبناه مسجداً . وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل إلى ملاء بني النجار بسبب موضع المسجد ، فقال : يا بني النجار ، ثامنوني^(١) بحائطكم هذا ، فقالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله . وعند الإسماعيلي « إلا من الله » وهو ظاهر في أنهم لم يأخذوا له ثمناً .

وفي رواية في باب الهجرة من الصحيح بعد ذكر تأسيس مسجد قباء : ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته ، فسار يمشي معه الناس حتى بركت

(١) ثامنوني : ساوموني في ثمنه ، والحائط : الحديقة

عند مسجد الرسول بمدينة . وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربداً للتمر لسهال وسهيل غلامين يتييمين في حجر أسعد بن زرارۃ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين برکت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل^(۱) ، ثم دعا الغلامين فسوّمهم ، بأمر بد ليتخذ مسجداً ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجداً .

ووقع في رواية ابن عيينة : فكم عمرهما — أى الذى كانا في حجره — أن يتبناه منهما ، فطلبه منهما فقالا : ما تصنع به ؟ فلم يجداً بداً من أن يصدقهما ، فأخبرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد ، فقالا : نحن نعطيه إياه ، فأعطياه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبناه . أخرجه الجندى . وطريق الجمع بين ذلك — كما أشير إليه الحافظ ابن حجر — أنهم لما قالوا لا نطلب ثمنه إلا إلى الله سأل عن من يختص بمسك منهم ، فعينوا له الغلامين ، فابتاعه منهما أو من وليهما أن كان غير بالغين . وحينئذ فيحتمل أن الذين قالوا « لا نطلب ثمنه إلا إلى الله » تحمّلوا عنه للغلامين بالثمن ، فقد نقل ابن عقبة أن أسعد عوض الغلامين عنه بخلاله في بنى بياضة . وتقدم أن أبا أيوب قال : هو ليتيمين لى ، وأنا أرضيهما ، فأرضاهما ، وكذلك معاذ بن عفراء ، فيكون ذلك بعد الشراء . ويحتمل أن كلا من أسعد وأبى أيوب وابن عفراء أرضى اليتيمين بشيء ، فنسب ذلك لكل منهم . وقد روى أن اليتيمين امتنعا من قبول عوض ، فيحمل ذلك على بدء الأمر ، لكن يشكل على هذا ما نقل عن التاريخ الكبير لابن سعد أن الواقدي قال : إنه صلى الله عليه وسلم اشتراه من ابني عفراء بعشرة دنانير ذهباً ، دفعها أبو بكر الصديق ، وقد يقال : إن الشراء وقع من ابني عفراء لأنهما كانا وليين لليتيمين ، ورغب أبو بكر في الخير كما رغب فيه أسعد ، وأبو أمامة ومعاذ بن عفراء ، فدفع لهم أبو بكر العشرة ، ودفع كل من أولئك ما تقدم ، ولم يقبله صلى الله عليه وسلم بلا

(۱) المنزل : موضع النزول

ثمن أولاً لكونه لليتيمين ، لكن ابن سيد الناس نقل عن البلاذري أنه قال عقب كلامه الآتي : فعرض — يعني أسعد — على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأخذها ويغرم لليتيمين ثمنها ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وابتاعها منه بعشرة دنانير أداها من مال أبي بكر ، انتهى ؛ فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم أخذ أولاً بعض المربد ، ثم أخذ بعضاً آخر ؛ لما سيأتي من أنه زاد فيه مرة أخرى ؛ فليست القصة متحدة . ورأيت بخط الأقسهري في كلام نقله عن أبي جعفر الداوودي عن عبد الله بن نافع صاحب مالك أن المسجد كان مربداً لابني عفراء

قلت : يحتمل نسبته إليهما لولايتهما على اليتيمين ، أو أن لليتيمين أمماً تسمى عفراء ، وأما ابنا عفراء المشهوران فهما معاذ ومعوذ ابنا الحارث ، والذي في الصحيح من تسمية الغلامين سهل وسهيل أصح ، والله أعلم .

وفي كتاب يحيى ما يقتضى أن أسعد بن زرارة كان قد بنى بهذا المربد مسجداً قبل مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : حدثنا بكر ثنا محمد بن عمر ثنا معاذ بن محمد عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة قال : سمعت أم سعد بنت سعد بن الربيع تقول : أخبرني النوار بنت مالك أم زيد ابن ثابت أنها رأت أسعد بن زرارة قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس الصلوات الخمس ، ويجمع بهم في مسجد بناه في مربد سهل وسهيل ابني رافع بن أبي عمرو بن عائذ بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار ، قالت : فأنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم صلى بهم في ذلك المسجد وبناه ، فهو مسجده اليوم .

ونقل ابن سيد الناس عن ابن إسحاق أن الناقة بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذ ليتيمين من بني مالك بن النجار في حجر معاذ بن عفراء سهل وسهيل ابني عمرو ، ثم قال : وذكر أحمد بن يحيى البلاذري ، قال :

فنزّل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أبي أيوب ، ووهبت له الأنصار كل فضل كان في خططها ، وقالوا : يا نبي الله إن شئت فخذ منازلنا ، فقال لهم خيراً ، قالوا : وكان أبو أمامة أسعد بن زرارة يُجَمِّعُ بمن يليه في مسجد له ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيه ، ثم إنه سأل أسعد أن يبيعه أرضاً متصلة بذلك المسجد كانت في يده ليتيمين في حجره يقال لهما سهل وسهيل ابنا رافع بن أبي عمرو ابن عائذ بن ثعلبة بن غنم ، كذا نسبهما البلاذري ، وهو يخاف ما سبق عن ابن إسحاق وغيره ، والأول أشهر ، انتهى ، وتشهيره للأول — وهو كون الغلامين ابني عمرو — تقدم ما يقتضيه ، لكن تقدم أيضاً ما يقتضيه الثاني ، وهو الأرجح فقدم صرح ابن حزم في الجمهرة ، ورواه ابن زبالة عن ابن شهاب ، وكذا ذكره ابن عبد البر . وذكر السهيلي فيما نقله عنه الذهبي ما يحصل به الجمع ويرفع الخلاف إلا أن فيه بعض مخالفة ما تقدم ، فقال : سهل بن عمرو الأنصاري النجاري أخو سهيل صاحب المربد ، وكانا في حجر أسعد بن زرارة ، ينسبن إلى جدّهما ، وهما ابنا رافع بن عمرو بن أبي عمرو بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن النجار ، انتهى . فعلى هذا يكون سقط من الرواية المتقدمة ابن عمرو بين رافع وأبي عمرو ، وتصحف عبيد بعائذ ، والله أعلم .

وقال المجد : ذكر البيهقي المسجد فقال : كان جداراً مُجَدَّراً ليس عليه سقف ، وقبلته إلى القدس ، وكان أسعد بن زرارة بَنَاهُ ، وكان يصلي بأصحابه فيه ، ويُجَمِّعُ بهم فيه الجمعة قبل مقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنخل التي في الحديقة والغرقَد أن يُقَطَّعَ ، وكان فيه قبور جاهلية ، فأمر بها فنبشت ، وأمر بالعظام أن تُغَيَّبَ ، وكان في المريد ماء مسحل فسيره حتى ذهب — والمسحل : ممشي ماء المطر ، انتهى . ولم أره في المعرفة للبيهقي ، ولا في السنن الكبير ، ولا في الدلائل ، والمعروف أنه كان مربدا للتمر : أي يُجَفَّفُ فيه التمر ، وكأنه سماه حديقة لاشتماله على نخل ؛ ففي الصحيحين أن

النبي صلى الله عليه وسلم « لَمَّا أَخَذَهُ كَانَ فِيهِ نَخْلٌ وَقُبُورُ الْمُشْرِكِينَ وَخَرِبٌ ، فَأَمَرَ
النبي صلى الله عليه وسلم بالنخل ففُتِقَ ، وَبِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَتُبِشَتْ ، وَبِالْخَرِبِ
فَسُوِّيَتْ ، فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةً لَهُ ، وَجَعَلُوا عِضَادَتِيهِ حِجَارَةً » وَقَدْ قَدَمْنَا الْكَلَامَ
عَلَى قِطْعِ هَذَا النَّخْلِ فِي أَحْكَامِ الْحَرَمِ ، وَكَأَنَّ مَعْنَى صِفِّ النَّخْلَ قِبْلَةً لَهُ جَعَلَهَا
سَوَارِيَّ فِي جِهَةِ الْقِبْلَةِ لِيَسْقِفَ عَلَيْهَا كَمَا فِي الصَّحِيحِ « كَانَ الْمَسْجِدُ عَلَى عَهْدِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْنِيًّا بِاللَّيْلِ ، وَسَقْفُهُ الْجَرِيدُ ، وَعُمْدُهُ خَشَبُ النَّخْلِ »
وَسَيَأْتِي فِيمَا أَسْنَدُ يَحْيَى أَنَّهُ كَانَ فِي جَوْفِ الْأَرْضِ - أَيْ أَرْضِ الْمَرْبِدِ - قُبُورٌ
جَاهِلِيَّةٌ ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالقُبُورِ فَتُبِشَتْ ، فَرُمِيَ بِعِظَامِهَا ،
فَأَمَرَ بِهَا فَفُتِيتْ ، وَكَانَ فِي الْمَرْبِدِ مَسْتَنْجِلٌ ^(۱) فَسِيرَ حَتَّى ذَهَبَ » وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ
عُطَافِ بْنِ خَالِدٍ عِنْدَ ابْنِ عَائِذٍ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « صَلَّى فِيهِ وَهُوَ عَرِيشٌ اثْنَى عَشَرَ
يَوْمًا ، ثُمَّ بَنَاهُ وَسَقَفَهُ » وَسَيَأْتِي مَا يَشْهَدُ لَهُ .

وَأَسْنَدُ ابْنُ زُبَيْلٍ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : بَنَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَعْنِي
الْمَسْجِدَ - أَوَّلَ مَا بَنَاهُ بِالْجَرِيدِ ، قَالَ : وَإِنَّمَا بَنَاهُ بِاللَّيْلِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ بِأَرْبَعِ سَنِينَ .
قُلْتُ : وَهُوَ وَاهٍ أَوْ مُؤَوَّلٌ ، وَالْمَعْرُوفُ خِلَافُهُ .

وَأَسْنَدُ أَيْضًا عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ : لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أَنْ يَحْجَرَ بِنَاءَ الْمَسْجِدِ قِيلَ لَهُ : عَرِيشُ كَعْرِيشِ أَخِيكَ مُوسَى سَبْعَ أَذْرَعٍ ، وَأَسْنَدُهُ
يَحْيَى مِنْ غَيْرِ طَرِيقِهِ عَنْ شَهْرِ أَيْضًا بِلَفْظٍ : لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ
يَبْنِيَ الْمَسْجِدَ ، وَأُورِدَهُ رَزِينَ بِلَفْظٍ : لَمَّا أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَاءَ الْمَسْجِدِ
قَالَ : قِيلَ لِي : عَرِيشُ كَعْرِيشِ أَخِيكَ مُوسَى سَبْعَةَ أَذْرَعٍ ، ثُمَّ الْأَمْرُ أُعْجِلَ مِنْ
ذَلِكَ . وَأَسْنَدُ يَحْيَى عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : لَمَّا قَدَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ قَالَ :

(۱) فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا « وَكَانَ وَادِيهَا يَجْرِي أَنْجَالًا » تَرِيدُ وَادِيَ
الْمَدِينَةِ ، وَالنَّجْلُ : النَّزْلُ ، وَيَجْمَعُ عَلَى أَنْجَالٍ ، وَاسْتَنْجَلُ الْمَاءَ : صَارَ نَزْلًا قَلِيلًا

ابنوا الى مسجداً عريشاً كعريش موسى ، ابنوه لنا من لبن . وأورده رزين بلفظ :
 لما أخذ في بناء المسجد قال : ابنوا الى عريشاً كعريش موسى ، ثَمَامَات وَخَشَبَات
 وَظِلَّة كظِلَّة موسى ، والأمر أعجل من ذلك ، قيل : وما ظِلَّة موسى ؟ قال : كان
 إذا قام فيه أصاب رأسه السقف ، وعمل فيه بنفسه صلى الله عليه وسلم ، ترغيباً لهم ؛
 ففي الرواية المتقدمة في الصحيح عقب قوله « حتى ابتاعه منهما » وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ
 صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن في ثيابه ، ويقول وهو ينقل اللبن :
 هَذَا الْحَمَالُ لَا حِمَالُ خَيْرٌ هَذَا أَمْرٌ رَبَّنَا وَأُطَهِّرُ

ويقول :

اللهم إني الأخر أجراً الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

قال ابن شهاب : فتمثال صلى الله عليه وسلم بشعر رجل من المسلمين ، ولم
 يبلغنا في الأحاديث أنه تمثال بيت شعر تام غير هذه الأبيات ، زاد ابن عائذ في
 آخره : التي كان يرتجزهن وهو ينقل اللبن لبناء المسجد .

والحمل مخفف بمهملة مكسورة : أي هذا المحمول من اللبن أبر عند الله من
 حمل خبير ، أي ذات التمر والزبيب . وقوله « رَبَّنَا » أي ياربنا . وأُسند يحيى
 عن الزهري في معنى قوله « هذا الحمل لا حمل خبير » قال : كانت يهود إذا
 صرمت نخلها جاءتهم الأعراب بركايبهم فيحملون لهم عروة بعروة إلى القرى ،
 فيبيعون ، يكون لهذا نصف الثمن ولهؤلاء نصفه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم
 ذلك . وفي الرواية المتقدمة في الصحيح عقب قوله « وجعلوا عضادتيه حجارة » فجعلوا
 ينقلون ذلك الصخر وهم يرتجزون ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، يقولون :
 اللهم لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

(۱) قال ابن الأثير : « وفي حديث بناء مسجد المدينة هذا الحمل لا حمل خبير
 الحمل بالكسر من الحمل ، والذي يحمل من خبير التمر ، أي أن هذا في الآخرة
 أفضل من ذلك وأحمد عاقبة ، كأنه جمع حمل أو حمل ، ويجوز أن يكون مصدر
 حمل أو حامل » اه بحروفه .

ويذكر أن هذا البيت لعبد الله بن رواحة .
وعن الزهري : بلغني أن الصحابة كانوا يرتجزون به ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم ويقول :
اللهم لا خير إلا خير الآخرة فارحم المهاجرين والأنصار
وكان لا يقيم الشعر، قال الله تعالى : «وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ^(۱)»
وفعل ذلك احتساباً وترغيباً في الخير ؛ ليعمل الناس كلهم ، ولا يرغب أحد بنفسه
عن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا أسند ابن زبالة عن مجمع بن يزيد
أنه قال عقب ذلك : وعملوا فيه ودأبوا ، فقال قائل من المسلمين :
لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ذَاكَ إِذَا لَلْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ
وأسند أيضا أن علي بن أبي طالب كان يرتجز وهو يعمل فيه يقول :
لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ الْمَسَاجِدَا يَدَأْبُ فِيهَا قَائِمًا وَقَاعِدَا
* وَمَنْ يَرَى عَنِ الْغُبَارِ حَائِدَا *

وأسند هو أيضا ويحيى من طريقه والمجدد ، ولم يخرجه ، عن أم سلمة
رضي الله عنها قالت : بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده ، فقرب اللبنة
وما يحتاجون إليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع رِداءه ، فلما رأى
ذلك المهاجرون الأولون والأنصار ألقوا أرديتهم وأكسيتهم ، وجعلوا يرتجزون
ويعملون ويقولون :

* لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ * البيت

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه رجلا نظيفا متنظفا ، وكان يحمل اللبنة
فيجافي بها عن ثوبه ، فإذا وضعها نفّض كمه ، ونظر إلى ثوبه ، فإن أصابه شيء
من التراب نفّضه ، فنظر إليه علي بن أبي طالب فأنشأ يقول :
* لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ الْمَسَاجِدَا * الأبيات المتقدمة .

(۱) من سورة يس من الآية ۶۹

فسمعها عمار بن ياسر ، فجعل يرتجز بها وهو لا يدري مَنْ يعنى بها ، فمر
بعثمان فقال : يا ابن سُمية ، ما أعرَفني بمن تعرض ، ومعه جريدة فقال : لتكفَنَّ
أو لأعرضَنَّ بها وجهك ، فسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل بيتي ،
يعنى أم سلمة ، وفي كتاب يحيى « في ظل بيته » — فغضب رسول الله صلى الله
عليه وسلم ثم قال : إن عمار بن ياسر جِلْدَةٌ ما بين عيني وأنفي ، فإذا بلغ ذلك من
المرء فقد بلغ ، ووضع يده بين عينيه ، فكفَّ الناسُ عن ذلك ، ثم قالوا لعمار :
إن النبي صلى الله عليه وسلم قد غضب فيك ، ونحاف أن ينزل فينا القرآن ،
فقال : أنا أرضيه كما غضب ، فقال : يا رسول الله مالي ولأصحابك ؟ قال : مالك
وما لهم ؟ قال : يريدون قتلى ، يحملون ابنةً لبنةً ويحملون على اللبنتين والثلاث ،
فأخذ بيده فطاف به في المسجد ، وجعل يمسح وفرَّتَه^(۱) بيده من التراب ويقول :
يا ابن سُمية لا يقتلك أصحابي ، ولكن تقتلك الفئة الباغية .

وقد ذكر ابن إسحاق القصة بنحوه كما في تهذيب ابن هشام ، قال : وسألتُ
غيرَ واحد من أهل العلم بالشعر عن هذا الرجز فقالوا : بلغنا أن علي بن أبي طالب
ارتجز به ، فلا ندري أهو قائله أم غيره ، وإنما قال ذلك على رضى الله عنه مطاوعة
ومباشرة كما هو عادة الجماعة إذا اجتمعوا على عمل ، وليس ذلك طعنا .

وأخرج ابن أبي شيبة من مرسل أبي جعفر الخطمي قال : كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يبنى المسجد وعبد الله بن رواحة يقول :

* أفلح من يعالج المساجدا *

فيقولها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول ابن رواحة :

* يتلو القرآن قائما وقاعدا *

فيقولها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي الصحيح في ذكر بناء المسجد : وكنا نحمل لبنة لبنة وعمارُ لبنتين

(۱) الوفرة : شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن

لَبْنَتَيْنِ ، فَرَأَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَجَعَلَ يَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ وَيَقُولُ : « وَنَحْ عَمَارٍ تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى النَّارِ » وَقَالَ : يَقُولُ عَمَارُ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ .

وَأَسْنَدُ ابْنِ زُبَالَةَ وَيُحْيَى عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : رَأَاهُمُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ يَحْمِلُونَ الْحِجَارَةَ عَلَى عَمَارٍ ، وَهُوَ يَبْنِي الْمَسْجِدَ ، فَقَالَ : « مَا لَهُمْ وَلِعَمَارٍ ؟ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى النَّارِ ، وَذَلِكَ فَعَلَ الْأَشْقِيَاءُ الْأَشْرَارَ » .

وَأَسْنَدُ الثَّانِي أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ يَبْنُونَ الْمَسْجِدَ ، فَجَعَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْمِلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ لَبْنَةً لَبْنَةً وَعَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ لَبْنَتَيْنِ لَبْنَةً عَنْهُ وَلَبْنَةً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ظَهْرَهُ وَقَالَ : « يَا ابْنَ سُمَيَّةَ لَكَ أَجْرَانِ وَلِلنَّاسِ أَجْرٌ ، وَآخِرُ زَادِكَ مِنَ الدُّنْيَا شَرْبَةٌ مِنْ آبٍ ، وَتَقْتُلُكَ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ » .

وَفِي الرُّوضِ لِلْسَّهِيلِيِّ : أَنَّ مَعْمَرَ بْنَ رَاشِدٍ رَوَى ذَلِكَ فِي جَامِعِهِ بِزِيَادَةٍ فِي آخِرِهِ ، وَهِيَ : فَلَمَّا قُتِلَ يَوْمَ صِفِّينَ دَخَلَ عَمْرُو عَلَى مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَزِعَا فَقَالَ : قُتِلَ عَمَارُ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : فَمَاذَا ؟ فَقَالَ عَمْرُو : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ » فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : دَحَضْتُ ^(۱) فِي بَوَاكٍ ، أَنَحْنُ قَتَلْنَاهُ ؟ إِنَّمَا قَتَلَهُ مَنْ أَخْرَجَهُ .

وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّامِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو ابْنَ الْعَاصِ يَقُولُ لِأَبِيهِ عَمْرُو : قَدْ قَتَلْنَا هَذَا الرَّجُلَ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ مَا قَالَ ، قَالَ : أَيُّ رَجُلٍ ؟ قَالَ : عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ ، أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ بَنَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ ؟ فَكُنَّا نَحْمِلُ لَبْنَةً لَبْنَةً ، وَعَمَارُ يَحْمِلُ لَبْنَتَيْنِ لَبْنَتَيْنِ ، فَمَرَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « تَحْمِلُ

(۱) قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : « وَفِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِ عَمْرٍو : لَا تَزَالُ تَأْتِينَا بِهِنَا تَدْحِضُ بِهَا فِي بَوَاكٍ ، أَيُّ تَزْلُقُ ، وَيُرْوَى بِالصَّادِ : أَيُّ تَبْحَثُ فِيهَا بِرَجْلِكَ » اهـ

لبنتين لبنتين وأنت ترحض^(۱) ، أما إنك ستقتلك الفئة الباغية ، وأنت من أهل الجنة » فدخل عمرو على معاوية فقال : قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ، فقال : اسكت ، فوالله ما تزال تدحض في بولك ، أنحن قتلناه ؟ إنما قتلناه على وأصحابه ، جاءوا به حتى ألغوه بيننا .

قال : وهو يقتضى أن هذا القول لعمار كان في البناء الثانى للمسجد ؛ لأن إسلام عمرو كان في الخامسة كما سبق .

وأُسند ابن زبالة عن حسن بن محمد الثقفى قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى في أساس مسجد المدينة ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ، فمر به رجل فقال : يا رسول الله مامعك إلهؤلاء الرّهط ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هؤلاء ولالة الأمر من بعدى .

وروى أبو يعلى رجال الصحيح إلا أن التابعى لم يُسم عن عائشة رضى الله عنها قالت : لما أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد المدينة جاء بحجر فوضعه ، وجاء أبو بكر بحجر فوضعه ، وجاء عمر بحجر فوضعه ، وجاء عثمان بحجر فوضعه ، قالت : فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : هذا أمر الخلافة من بعدى .

وتقدم في تأسيس مسجد قباء نحو ذلك من غير ذكر أمر الخلافة وقال الأقسهرى في روضته : روى صاحبُ السيرة ولم يسمه أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا محمد ، إن الله يأمرك أن تبني له بيتا ، وأن ترفع بنيانه بالرهص والحجارة — والرهص : الطين الذى يتخذ منه الجدار — فقال : كم أرفعه يا جبريل ؟ قال : سبعة أذرع ، وقيل : خمسة أذرع ، ولما ابتدأ في بنائه أمر بالحجارة وأخذ حجرا فوضعه بيده أولا ، ثم أمر أبا بكر فجاء بحجر

(۱) ترحض : أى تسيل عرقا ، مأخوذ بن الرحضاء ، وهو عرق يغسل الجلد لكثرة ، وكثيراً ما يستعمل في عرق الحمى والمرض .

فوضعه إلى جنب حجر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم عمر كذلك ، ثم عثمان كذلك ، ثم عليا ، انتهى ما ذكره الأقرشي ومن خطه نقلته .

وروى البيهقي في الدلائل عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما بنى النبي صلى الله عليه وسلم المسجد وضع حجرا ، ثم قال : ليضع أبو بكر حجره إلى جنب حجري ، ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبي بكر ، ثم قال : ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هُوَ لَأَءِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِي » .

وأُسند يحيى عن أسامة بن زيد عن أبيه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حجر ، فلقية أسيد بن حضير فقال : يا رسول الله أعطنيها ، فقال : اذهب فاحتمل غيره ، فليست بأفقر إليه مني .

وعن مكحول قال : لما كثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : اجعل لنا مسجدا ، فقال : خَشَبَاتٌ وَتُمَامَاتٌ ، عَرِيشٌ كَرِيشٌ أَخِي مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، الأمر أعجل من ذلك .

ورواه رزين ، وزاد فيه : فَطَفِقُوا يَنْقُلُونَ اللَّيْلَ وَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْقُلُ مَعَهُمْ ، فلقية رجلٌ ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنة فقال : أعطنيها يا رسول الله ، فقال : اذهب فخذ غيرها ، فليست بأفقر إلى الله مني .

ونقل المجد عن رواية محمد بن سعد نحوه ، قال : وجاء رجل يحسن عجن الطين ، وكان من حضر موت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رَحِمَ اللَّهُ امراً أحسن صنعته ، وقال له : الزم أنت هذا الشغل فإني أراك تحسنه .

وفي كتاب يحيى من طريق ابن زبالة عن الزهري : كان رجل من أهل اليمامة يقال له طلق من بني حنيفة يقول : قدمتُ على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبني مسجده ، والمسلمون يعملون فيه معه ، وكنتُ صاحبَ علاجٍ وخلط

طین ، فأخذت المسحاة أخلط الطین والنبی صلی اللہ علیہ وسلم ينظر إلى ویقول :
إن هذا الحنفی لصاحب طین .

وروی أحمد عن طلق بن علی قال : بنیت المسجد مع النبی صلی اللہ علیہ وسلم ، فكان یقول : قربوا الیما من الطین فإنه أحسنکم له مسکا وأشدکم منکبا .
وعنه أيضا قال : جئت إلى النبی صلی اللہ علیہ وسلم وأصحابه یبنون المسجد ،
قال : فکأنه لم یعجبه عملهم ، قال : فأخذت المسحاة فخلطت بها الطین ، فکأنه
أعجبه أخذی المسحاة وعملی فقال : دَعُوا الحنفی والطین فإنه من أصنعکم للطین .
وأُسند ابن زبالة ویحیی من طریقہ فی أثناء کلامہ عن ابن شہاب فی قصة
أخذ المرءید ، قال : فبناه مسجدا ، وضرب لَینَہ من بقیع الخبْخبة ناحیة بئرأبی
أیوب بمناصع والخبْخبة : شجرة کانت تنبت هناك .

وأُسند یحیی من طریق عبد العزیز بن عمر عن یزید بن السائب عن خارجة
ابن زید بن ثابت قال : بنی رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم مسجده سبعین فی ستین
ذراعا أو یزید ، وَلَئِنَّ لَینَہ من بقیع الخبْخبة ، وجعله جدارا ، وجعل سَوَارِیہ
خشبا شقة شقة ، وجعل وسطه رحبة ، وبی بیتین لزوجتیہ .

قال عبد العزیز : فسألت زیدا : أين بقیع الخبْخبة ؟ قال : بین بئرأبی
أیوب وتلك الناحیة ، وهذا بقیع الغرقد لبقیع المقبرة ، وقال : سألت عبد العزیز
عن بقیع الخبْخبة فقال : هی - أی الخبْخبة - يسار بقیع الغرقد حین تقطع الطريق
وتلقاها عند مسجد یحیی ، فقلت : ومن یحیی صاحب المسجد الذی ذكرت ؟ فقال :
یحیی بن طلحة بن عبید اللہ .

قلت : بقیع الخبْخبة لا یعرف الیوم كما ذکره شیخ مشایخنا الزین المراحی ،
لکن الخارج من درب البقیع إذا مشی فی البقیع لجهة مشهد سیدنا عثمان بن عفان
رضی اللہ عنه وصار مشهد سیدنا إبراهیم بن رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم علی یمینہ
یکون علی يساره طریق تمر بطرف الکومة ، فإذا سلكها انتهى بعد رأس

العطفة التي على يمينه إلى حديقة تعرف قديما بأولاد الصيفى بها بئر ينزل إليها بدرج تعرف ببئر أيوب قديما وحديثا ، وعن يسار الخارج من درب البقيع أيضا إذا سلك طريق سيدنا حمزة في شامى الحديقة المعروفة بالرومية حديقة تعرف بالباطية وقف رباط اليمنة بها بئر . قال المراغى : تعرف ببئر أبواب أيضا ، يتبرك بها الناس ، وهى بالقرب من الحديقة المعروفة بدار فحل ، وهى عن يسار بقيع الغرقد أيضا ، قال الزين المراغى : واعلمها أقرب إلى المراد

قلت : والذي يظهر أن الأولى هى المراد ، لما سمينه فى الآبار .

وفى كتاب رزين مالفظه : عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان بناء مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسमित لَبِنَةً على لبنة ، ثم بالسعيدة لبنة ونصف أخرى ، ثم كثروا فقالوا : يا رسول الله لو زيد فيه ، ففعل ، فبنى بالذكر والأُنثى ، وهى لبنتان مختلفتان ، وكانوا رفعوا أساسه قريبا من ثلاثة أذرع بالحجارة ، وجعلوا طوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، وكذا فى العرض ، وكان مربعا . وفى رواية جعفر : ولم يسطح ، فشكوا الحر فجعلوا خشبه وسواريه جُدُوعا ، وظلّوا بالجريد ثم بالخصف ، فلما وكف^(۱) عليهم طينوه بالطين ، وجعلوا وسطه رحبة ، وكان جداره قبل أن يُظَلَّلَ قامة وشيئا ، انتهى . والظاهر أنه ليس جميعه من كلام جعفر ؛ بدليل قوله فى الأثناء « وفى رواية جعفر »

وقد ذكر ابن زبالة ويحيى من غير طريقه كلام جعفر متمحضا فأسندا عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بناء مسجده بالسमित لبنة لبنة ، ثم إن المسلمين كثروا فبناه بالسعيدة ، فقالوا : يا رسول الله لو أمرت من يزيد فيه ، فقال : نعم ، فأمر به فزيد فيه ، وبنى جداره بالأُنثى والذكر ، ثم اشتد عليهم الحر فقالوا : يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فظُلِّلَ ، قال : نعم ، فأمر به فأقيمت فيه سواري

(۱) وكف عليهم : أراد نزل المطر وتقاطر من سقفه . تقول : وكف المطر

يكف — مثل وعد يعد — إذا وقع ونزل

من جُذُوع النخل ، ثم طرحت عليها العوارض والخَصَفُ والإذخر ، فعاشوا فيه ، وأصابتهم الأمطار ، فجعل المسجد يَكِفُ عليهم ، فقالوا : يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فُطِّين ، فقال : لا ، عريش كعريش موسى ، فلم يزل كذلك حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جداره قبل أن يُظَلَّلَ قامة ، فكان إذا فاء الفى ، ذراعاً وهو قدمان يصلى الظهر ، فإذا كان ضِعْفَ ذلك صلى العصر ، ثم نقل عنه تفسير السميط والسعيدة والآتى والذكر بما تقدم ، ولم يذكرا ذراعاً .

وفى الإحياء عن الحسن مرسل : لما أراد صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال : ابْنِ سَبْعَةَ أَذْرَعٍ طَوْلاً فى السماء ، ولا تزخرفه ، ولا تنقشه ، انتهى .

وتقدم فيما نقله الأقرشورى عن صاحب السيرة عن جبريل عليه السلام فى ارتفاعه سبعة أزرع ، وقيل : خمسة .

وأُسند يحيى عن أسامة بن زيد عن أبيه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه حجر ، فلقى أسيد بن حضير ، وذكر ما قدمناه ، ثم قال : قال — يعنى زيدا — ورفعوا الأساس قريباً من ثلاثة أذرع على الأرض بالحجارة ، وكان فى جوف الأرض قبور جاهلية ، فأمر بالقبور فنُشِيت فرمى بعظامها ، وأمر بها فغُيبت ، وكان فى المربد ماء مستنجل فسَرَّ به حتى ذهب ، وكان الذين أسسوا المسجد جعلوا طوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، وفى الجانبين الآخرين مثل ذلك فهو مربع ، ويقال : إنه كان أقل من مائة ذراع ، وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب : باب فى مؤخره ، أى وهو فى جهة

(۱) العوارض : أراد بها قطع الخشب ، والخصف : جمع خصفة ، وهى الجلة التى يكثر فيها الثمر ، وتكون من الخوص ، وكأن المراد هنا ما قدم من ذلك حتى صار لا يصلح للاستعمال ، والإذخر : حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب

القبلة اليوم ، وباب عاتكة الذى يدعى باب عاتكة ويقال باب الرحمة ، والباب الذى كان يدخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو باب آل عثمان اليوم ، وهذان البابان لم يُغَيَّرَا بعد أن صُرِفَت القبلة ، ولما صُرِفَت القبلة سَدَّ النبي صلى الله عليه وسلم الباب الذى كان خلفه وفتح هذا الباب ، وحذاء هذا الباب - أى ومحاذيه - هذا الباب الذى سُدَّ . وعبر ابن النجار عن ذلك بقوله : ولما صُرِفَت القبلة سد الباب الذى كان خلفه وفتح بابا حذاءه . قال المجد : أى تجاهه ، انتهى وذكر الأتشمري في خبر عن ابن عمر ما يخالف هذا ، فإنه قال : وعن عبد الله بن عمر قال : كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمانه من اللَّيْنِ ، وَسَقْفُهُ من غصن النخل ، وله ثلاثة أبواب : باب في مؤخره ، وباب عاتكة وهو باب الرحمة ، والباب الذى كان يدخل منه وهو باب عثمان ، وهو الذى يسمى اليوم باب جبريل ، ولما صُرِفَت القبلة سد الباب الذى خلفه وفتح الباب الآخر ، وهو الذى يسمى باب النساء ، انتهى . وهو غريب ، ولعل قوله « وهو الذى يسمى باب النساء » مِنْ تصرفه وفهمه في معنى الخبر ، ولذلك أورد عقبه حديث أبي داود مرفوعا « لو تركنا هذا الباب للنساء » لكن أبو داود يَبَيِّنُ أن الأصح أنه من قول عمر كما سيأتي ، وعلى ما ذكره فلم يجعل للمسجد بعد التحويل بابا خلفه ، ويرده قول يحيى عقب ما تقدم عنه « فكان المسجد له ثلاثة أبواب : باب خلفه ، وباب عن يمين المصلى ، وباب عن يسار المصلى ، ثم انتهوا إلى البناء باللين ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل معهم اللين في ثيابه ويقول :

* هذا الحمال لا حمال خبير * الرجز المتقدم

وروى أحمد عن أبي هريرة أنهم كانوا يحملون اللين إلى بناء المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، قال : فاستقبلت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عارض لبنة على بطنه ، فظننت أنها شَقَّتْ عليه ، فقلت : ناولنيها يا رسول الله ، قال : خذ غيرها يا أبا هريرة فإنه لا عيش إلا عيش الآخرة

قلت : وهذا في البناء الثاني ، أي لأن أبا هريرة لم يحضر البناء الأول : لأن

قدومه عام فتح خيبر

وأُسند ابن زبالة من طريق ابن جريج عن جعفر بن عمرو قال : كان المرْبَدُ
لسهل وسهيل ابني عمرو فأعطياه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبناه ، وأعان
أصحابه أو بعضهم بنفسه في عمله ، وكان علي بن أبي طالب يرتجز وهو يعمل فيه ،
قال : وبناه النبي صلى الله عليه وسلم مرتين : بناء حين قدم أقل من مائة في
مائة ، فلما فتح الله عليه خيبر بناء وزاد عليه مثله في الدور

زيادة النبي
في مسجده

وروى الطبراني بإسناد فيه ضعيف عن أبي المليح عن أبيه قال : قال النبي
صلى الله عليه وسلم لصاحب البقعة التي زِيدَتْ في مسجد المدينة - وكان صاحبها من
الأنصار - فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لك بها بيت في الجنة » قال : لا ،
فجاء عثمان فقال له « لك بها عشرة آلاف درهم » فاشتراها منه ، ثم جاء عثمان
إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله اشتري مني البقعة التي اشتريتها من
الأنصاري ، فاشتراها منه بيت في الجنة ، فقال عثمان : إني اشتريتها بعشرة آلاف
درهم ، فوضع النبي صلى الله عليه وسلم لبنه ، ثم دعا أبا بكر فوضع لبنه ، ثم دعا عمر
فوضع لبنه ، ثم جاء عثمان فوضع لبنه ، ثم قال للناس « ضَعُوا » فوضعوا

وروى الترمذي وحسنه في حديث قصة إشراف عثمان على الناس يوم الدار^(۱)
عن ثمامة بن حزن القشيري أن عثمان رضي الله عنه قال : أنشدكم بالله
و بالإسلام هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
مَنْ يَشْتَرِ بَقْعَةَ آلِ فُلَانٍ فَيَزِيدُهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ ؟ فاشتريتها
من صُلُبِ مَالِي ، فَأَنْتُمْ الْيَوْمَ تَمْنَعُونَنِي^(۲) أَنْ أَصْلِيَ فِيهَا رَكْعَتَيْنِ ، قَالُوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ ،
الْحَدِيثَ ، وَأَخْرَجَهُ الدَّارِ قُطْنِي أَيْضًا ، وَكَذَا أَحْمَدُ بْنُ حَوْه .

وأخرجنا أيضًا حديثا طويلا عن الأحنف بن قيس فيه : أن عثمان رضي الله عنه

(۱) يريد إشرافه على الخارجين عليه في خلافته حين حاصروه ومنعوه الخروج

إلى المسجد للصلاة فيه (۲) في المطبوعات « تمنعوني »

قال : أهenna على ؟ قالوا : نعم ، قال : أهenna طلحة ؟ قالوا : نعم ، قال : أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمّن يبتاع مِرْبَدَ بنى فلان غفر الله له ، فابتعته بعشرين ألفاً أو خمسة وعشرين ألفاً ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : قد ابتعته ، فقال : أجمعه في مسجدنا وأجره لك ، قالوا : اللهم نعم .

وأخرج خيثمة بن سليمان في فضائل عثمان عن قتادة قال : كانت بقعة إلى جنب المسجد فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ يشتريها ويوسعها في المسجد له مثلها في الجنة ، فاشترها عثمان ، فوسعها في المسجد .

وأُسند ابن زبالة عن خالد بن معدان قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبدالله بن رَوَاحَة وأبي الدرداء ومعهما قَصَبَة يَذْرَعَان بها المسجد ، فقال : ما تصنعان ؟ فقالا : أردنا أن نبني مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بنيان الشام ، فيقسم ذلك على الأنصار ، فقال : هاتياها ، فأخذ القَصَبَة منهما ، ثم مشى بها حتى أتى الباب ، فدَحَا^(۱) بها ، وقال : كلا ، ثمَام وخُشَبَات وظُلَّة كظلة موسى ، والأمر أقرب من ذلك ، قيل : وما ظلة موسى ؟ قال : إذا قام أصاب رأسه السقف .

وروى البيهقي في الدلائل من طريق يَعْلَى بن شداد عن عُبَادَة أن الأنصار جَمَعُوا مالا فأتوا به النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ابنِ بهذا المسجدَ وزَيْنَهُ ، إلى متى نصلى تحت هذا الجريد ؟ فقال : ما بى رغبة عن أخى موسى ، عريش كعريش موسى .

وروى البيهقي أيضاً عن الحسن في بيان عريش موسى قال : إذا رفع يده بلغ العريش ، يعنى السقف .

وعن ابن شهاب : كانت سَوَارَى المسجد في عهد رسول الله صلى الله عليه

(۱) دحا بها : رمى بها وألقاها

وسلم جذوعاً من جذوع النخل ، وكان سقفه جريداً وخصوصاً ليس على السقف كثير طين ، إذا كان المطر امتلاً المسجد طيناً ، إنما هو كهيئة العريش .

وفي الصحيح في ليلة القدر : وإني أريتُ أني أسجد في ماء وطين ، فمن كان اعتكف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فابرجع ، فرجعنا وما نرى في السماء قزعة^(١) فجاءت سحابة فمطرت حتى سال سقف المسجد ، وكانت من جريد النخل ، وأقيمت الصلاة ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد في الماء والطين ، حتى رأيت أثر الطين في جبهته .

الفصل الثاني

في ذرعه وحدوده التي يتميز بها عن سائر المسجد اليوم .
 اعلم أن الذراع حيث أطلق فالمراد به ذراع آدمي ، وقد قدمنا في تحديد الحرم أنه^(٢) ذراع غير ثمن من ذراع الحديد المستعمل بمصر وبمكة ، وهو شبران تقريباً ، وقد تحصلنا كما تقدم في ذراع المسجد على أربع روايات : الأولى : سبعون ذراعاً في ستين أو يزيد ، والثانية : مائة ذراع في مائة ، وأنه مربع ، والثالثة : أنه أقل من مائة ذراع ، وهذا صادق بالأولى فليحمل عليها ، الرابعة : أنه بناء أولاً أقل من مائة في مائة ، ثم بناه وزاد عليه مثله في الدور ، ولا يصح أن يراد بذلك الأذرع قطعاً ؛ لأنها تقتضي أنه بعد البناء الثاني صار أحد امتداديه إما الطول أو العرض نحو مائتي ذراع ، والامتداد الآخر نحوها ، ولا شك أن حدَّ مسجده صلى الله عليه وسلم من جهة المشرق غايته الحجرة الشريفة ، فعرضه من جدارها إلى جدار المسجد الغربي ، وذرع هذا القدر اليوم بعد الزيادات المجمع عليها لا تبلغ مائة وخمسين ذراعاً كما اختبرته ، بل تنقص أزيد من ستة أذرع ، وقد أجمع المؤرخون على أن عمر وعثمان رضي الله عنهما زادا في المسجد من هذه الجهة ، ثم غيرها من الخلفاء ؛

(١) القزعة — بفتحات — القطعة من الغيم ، وجمعها قزع

(٢) أي ذراع آدمي

فالظاهر أن المراد من هذه الرواية الأشبار لا الأذرع ، فيقتضى أن المسجد النبوى بعد البناء الثانى صار أحد امتداديه مائتى شبر ، والامتداد الآخر نحوها ؛ فيوافق رواية مائة ذراع فى مثلها ، على أن ما ذكره المتأخرون من التحديد بالأمور الآتية يقتضى أنه لم يكن مائة ذراع ؛ فهو مقتضى لترجيحهم الرواية الأولى ، وهى سبعون ذراعا فى ستين ، وتكون السبعون للطول والستون للعرض .

وقد نقل النووى ذلك فى منسكه عن خارجة بن زيد أحد فقهاء المدينة السبعة ، ولفظه : بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده سبعين ذراعا فى ستين أويزيد ، وهو الذى جزم به ابن النجار قتال : بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده مربعا ، وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وطوله سبعين ذراعا فى ستين ذراعا أويزيد ، انتهى .

هذا ، وقد قال يحيى قبيل ما جاء فى حُجَر أزواج النبیّ صلى الله عليه وسلم : حدثنى هارون قال : حدثنا محمد بن يحيى — يعنى صاحب مالك — قال : فيما كان انتهى إلينا من ذرع مسجده النبى صلى الله عليه وسلم من القبلة إلى حده الشامى أربعة وخمسون ذراعا وثلاثا ذراع ، وحده من المشرق إلى المغرب ثلاث وستون ذراعا ، يكون ذلك مكسرا ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وأربعين ذراعا ، انتهى .

وقال ابن النجار : أعلم أن حدود مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم — أى الذى كان فى زمنه — من القبلة الدرايزينات التى بين الأساطين التى فى قبلة الروضة ، ومن الشام الخشبَتان المغروزان فى صحن المسجد ، وأما من المشرق إلى المغرب فهو من حجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى الأسطوان الذى بعد المنبر ، وهو آخر البلاط ، انتهى .

وفى ذكره ابن النجار مناقشة : أما ما ذكره من التحديد بالدرايزينات من جهة القبلة وبالخشبَتين من جهة الشام ، فالخشبَتان اليوم غير معروفَتين ، وقد نبه

على فَقَدِهَا الزينُ المِراغى ، وكلام المطرى يفهمه ، ولم أر لها ذكرا فى كلام المتقدمين ، نعم ذكر ابن زبالة كلاما فيه غموض يقتضى تحديداً بعض جهات المسجد بَعُودَيْنِ عِلَّا الكبسُ على أحدها ، وأن الآخر كان موجودا فى زمانه ، فلعل ذلك مأخذ ابن النجار ، وعبارة ابن زبالة تنبؤ^(۱) عن ذلك ؛ إذ لم يذكرها فى حد جهة الشام ، والحد من هذه الجهة اليوم - على ما يعرف فى زماننا - الحَجَرَانِ الآتِى ذكرهما فى صحن المسجد ، وسيأتى ما يقتضى رد ذلك

وذكر ذلك ابن جماعة فى منسكه فقال: قد عرّف المتأخرون مقدار المسجد الذى كان عليه أولا فقالوا: كان على التربع من الحجرة المقدسة إلى مكان السارية السابعة من جهة المغرب ، ومن موضع الدرازين الذى هو بين الأساطين المتصل بالصندوق أمام المصلّى الشريف إلى موضع الحَجَرَيْنِ المغروزين فى صحن المسجد الشريف ، انتهى . ومستنده فى ذلك قول المطرى فى الحجرين المذكورين يذكر أنهما حد المسجد من جهة الشام والمغرب ، قال : لكنهما ليسا على سمت المنبر الشريف ، بل هما داخلان إلى جهة المشرق بمقدار أربعة أذرع أو أقل ، وكذا متقدمان إلى القبلة بمثل ذلك ، قال : لأنى اعتبرت ذلك بالذرع فوجدتهما ليسا على ذرع المسجد الأول .

قلت : كونهما داخلين عن سمت المنبر إلى جهة المشرق بما ذكر لا يقدر فى كونهما الحد المذكور؛ لأن المراد أن جهة المغرب هناك فى سمتهما ، كما أن المراد أن جهة الشام فى سمتهما ، لا أنها ما يحاذى الحجرين فقط ، ووقع الاستغناء عن تحرير ابتداء جهة المغرب بما تقدم له نقلا عن ابن النجار من الأسطوانة التى تلى المنبر من تلك الجهة ، كما استغنى بكون الحجرة الشريفة حده من جهة المشرق ؛ إذ لم يذكر حد لجهة المشرق مما يلى الحجرين فى جهة الشام ، وفى الحقيقة لم يقصد بهما سوى بيان جهة الشام ، عَلَى أنه يحتمل أن مقدم المسجد كان أعرض من

(۱) تنبؤ : تبعد ، وأراد أنها لا توافق

مؤخره كما هو موجود اليوم ، فيكون الحجران حده من جهة المغرب حقيقة ،
وأما قوله إنهما متقدمان إلى القبلة بأربعة أذرع وإنهما ليسا على ذرع المسجد
الأول يعنى السبعين التى ذكرها ابن النجار فقد بناء على ما قاله أيضا من أن
الدرابزينات التى ذكرها ابن النجار من جهة القبلة متقدمة على موضع الحائط
القبلى ؛ لأن الحائط القبلى كان محاذيا لمصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وإنما جعل هذا الصندوق الذى فى قبلة المصلى الشريف أى بين المصلى والدرابزينات
سترة بين المقام الشريف وبين الأسطوانات ، قال : وورد أيضا أنه كان بين
الحائط القبلى وبين المنبر ممر الشاة ، وبين المنبر والدرابزين اليوم مقدار أربعة
أذرع وربع ذراع ، والمنبر لم يغير من جهة القبلة ، وكذا المصلى الشريف ، انتهى .
فلم يعتبر الذرع من الدرابزينات

وقد اختبرت أنا ذلك بنفسى من الدرابزينات المذكورة إلى الحجرين
المذكورين فكان سبعين ذراعا بذراع اليد المتقدم ذكره ، وقد قال ابن جماعة :
إنه اختبر ذلك بذراع العمل فكان ستة وأربعين ذراعا وثلاث ذراع ؛ فهو
موافق لذرعنا ، بل يرجح قليلا ؛ لأن ذراع العمل ذراع ونصف راجح من
ذراع اليد .

وأما ما ذكره المراجع فى كتابه من الذراع فغير موافق لذرعنا ؛ لأنه اعتمد
فى ذلك كما صرح به على ذراع المدينة الشريفة اليوم ، وقد اختبرته فوجدته يزيد
على ذراع اليد الذى حررناه بأكثر من قيراط ، وقول المطرى « إن بين المنبر
والدرابزين اليوم مقدار أربعة أذرع وربع » مخالف لما اختبرناه ؛ فإن بينهما
ثلاثة أذرع ونصف بالذراع الذى حررناه ، لكن سيأتى أن المنبر اليوم ليس هو
ذلك ، وأنه قد اتضح لنا عند الحفر لتأسيس المنبر الرخام الآتى ذكره صحة ما قاله
المطرى ، وأن المنبر الذى أدركناه قديم عن محل المنبر الأصيل لجهة القبلة أزيد من
نصف ذراع ، كما سنوضحه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر ابن زبالة ويحيى من طريقة نقلا عن غير واحد من أهل العلم تحديد المسجد الشريف من هذه الجهة فقالا : وعلامته في القبلة حروف المرمر الذي المنبر وسطه ، وعلامته من الشام أربعة طيقان من ناحية المشرق والمغرب ، وعلامة الطيقان الأربع أنهم مخضرات الأجواف بالفُسَيْفِساء كلهن .

قلت : والمرمر اليوم لا يظهر منه شيء . لكن يؤخذ من كلام ابن زبالة في وصف هذا المرمر أنه كان دكة مرتفعة حول المنبر قدر الذراع ، وأنه ممتد من المغرب قدر ثلاثة أذرع ، ومن المشرق ثلاثة ، ومن القبلة ثلاثة ، فإنه قال : حدثني محمد بن إسماعيل قال : رأيت طُمْفِسة^(١) كانت لعبد الله بن حسن بن حسن تطرح قبالة المنبر على مرمر كان هناك ، قال : فحبس عبد الله بن حسن سنة أربعين ومائة ، وبقيت الطنفسة بعده أياما ، ثم رفعت ، قال : ثم إن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي رضي الله عنهم لما ولي المدينة سنة خمسين ومائة في خلافة أبي جعفر نقض المرمر ووسعه من جوانبه كلها حتى ألحقه بالسواري ، فكلّمه أبو مودود عبد العزيز بن أبي سليمان أن يدع له مَصَلّاه فتركه ولم يلحق المرمر بالأساطين المقدمة ؛ فالمرمر اليوم هو الذي عمل الحسن بن زيد ، والمرمر الذي حوّل المنبر المرتفع عن المرمر الذي عمل الحسن بن زيد بين ستة أساطين ثلاثة أذرع من قبل القبلة وثلاثة أذرع من قبل المشرق وثلاثة أذرع من قبل المغرب ، وهو مرتفع عن الأرض نحو من ذراع ، انتهى .

وقال في موضع آخر : عَرَضُ المرمر الذي حول المنبر ثمانية أذرع ، وطوله ثمانى عشرة ذراعا ، وسماه في موضع آخر رخاما ، وهو يطلق عليه لغة ، وسيأتى ذكر هذه الدكة التي المنبر في وسطها عن ابن النجار حيث قال : وارتفاع الدكة التي المنبر عليها شبر وعقد ، فكان الكبس علا ؛ فإنها كانت ذراعا في زمن ابن زبالة ، وفي زمن ابن النجار شبرا وعقدا ، ثم علا الكبس فلم يوجد اليوم ،

(١) الطنفسة - بكسر فسكون فكسر - البساط .

وقد ظهر أثرها وأثر الرخام المذكور عند حَفَر ما حول المنبر الشريف ، وشاهدتُ الرخام الذى فى قبلته كما سيأتى ، وتلخص من هذا أن الممر كان فى جهة القبلة ثلاثة أذرع بعد المنبر ، والظاهر أن عَرَضَ جدار المسجد الشريف أدخل فى ذلك من جهة القبلة ؛ فقد روى يحيى فى ترجمة ما جاء فى زيادة الوليد أن عمر بن عبد العزيز أَحْضَرَ رجلاً من قریش فَأَرَوْهُ مُسَجِّدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، [و] الذى زاد فيه عمر ، والذى زاد فيه عثمان ، فعلم عمر بن عبد العزيز المسجد الأول الذى كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان جدار القبلة من وراء المنبر ذراعاً وأكثر من ذراع . وروى ابن زبالة أخباراً تتضمن أن جدار القبلة كان بينه وبين المنبر قدر ممر العَنَزِ ، وفى العتبية ممر الرجل منحرفاً ، وفى الصحيح عن سهل : كان بين مصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الجدار ممر الشاة . وفيه أيضاً عن سلمة : كان جدار المسجد عند المنبر ما كادت الشاة تجوزه ؛ فتعين ما أشرنا إليه من إدخال جدار المسجد فى ذلك الممر الذى جعل علامة فى جهة القبلة ، وأما الطاقات الأربع التى ذكرها علامة لنهاية المسجد من جهة الشام فغير معروفة اليوم ، إلا أنه سيأتى فيما نقله المرجانى عن الحارث المحاسبى ما يبين محلها .

وأما الجواب على ما ذكر المطرى من كون الدرازينات متقدمة فالظاهر أن ابن النجار فهم أن المراد إدخال عرض الجدار الذى كان موجوداً فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، لما تقرر عندنا من أن جدار المسجد من جملة المسجد ، ويؤيده ما تقدم من التحديد بالمرص من تلك الجهة ، وما سيأتى فى الفصل الثانى عشر من رواية أحمد عن نافع أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد من الأسطوانة — أى التى عند المصلّى الشريف — إلى المقصورة ؛ لأن ذلك هو الرواق الذى بين الأساطين التى فى قبلة الروضة وبين الأساطين التى تليها فى القبلة . وقد قال المراغى : إن الذى ظهر له أن الصندوق الذى فى قبلة المصلّى الشريف جعل فى

مكان الجدار القديم ، ويشهد له ماسياتى عن يحى فى ذرع ما بين المصلى الشريف وجدار القبلة اليوم ، لكن عرض هذا الصندوق ذراعان ، وبينه وبين الدرابزين أرجح من نصف ذراع ، وذلك فيما يظهر أزيد من عرض الجدار القديم بنحو الذراع ؛ لأنى شاهدت لبناً أخرج من جدران الحجرة الشريفة فى العمارة التى أدركناها أولاً يزيد فى الطول على الذراع ، وعرضه نصف ذراع ، وسمكه ربع ذراع ، وفيه شئ مرتفع طوله وعرضه وسمكه واحد ، وكل اثنين منه طول لبنة مما قدمناه ، والذي يظهر أنه كان من بقايا لبن الحجرة الشريفة التى كانت مبنية به أولاً جعل للتبرك لأنه أتى غير مستوي ، والجدار مبنى بالحجارة الوجوه المحكمة وبالقصة ؛ فلا يناسبه وضع ذلك فيه ، ولهذا جعل بين الحجارة الوجوه فى أعالي الجدار ، وقد تقدم أن الذى استقر عليه عرض الجدار فى زمنه صلى الله عليه وسلم الأثنى والذكر ، وهما لبنتان مختلفتان ، واللبنتان المختلفتان من هذا اللبن الذى رأيناه أو اللبنة ونصف الأخرى وهو السعيدة يزيد على ذراع ونصف يسيراً ، فيكون ذلك هو عرض الجدار فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، ويشهد له ما شاهدناه أيضاً فى عرض جدار الحجرة الشريفة على ما سنذكره ، ثم اتضح الحال بظهور المرمر الذى فى قبلة المنبر ؛ فإننا وجدنا بينه وبين الدرابزين المذكور أرجح من ذراع ، وبينه وبين طرف محل المنبر الأصى من جهة القبلة ثلاثة أذرع سواء ، كما ذكر ابن زبالة ؛ فذلك هو عرض الجدار مع ما كان بين المنبر وبينه .

وأما ما ذكره ابن النجار من التحديد بالأسطوانة التى تلى المنبر من جهة المغرب وأنها آخر البلاط وبالحجرة الشريفة من جهة المشرق ؛ فالبلاط الذى ذكره لا يوجد اليوم ، وكأنه يريد به الرخام الذى كان المنبر وسطه ، وقد عبر عن ذلك ابن جماعة كما تقدم بقوله : من الحجرة إلى مكان السارية السابعة من جهة المغرب ، فإن السابعة من صف الأساطين المذكورة هى التى تلى المنبر من

المغرب إن عَدَدَنَا الأسطوان الملائق للحجرة ، ولم أر لما ذكره ابن جماعة مستنداً في كلام المؤرخين سوى ما ذكره ابن النجار ؛ فيتعين الحمل على الأسطوان المذكورة ، وقد ذَرَعْتُ ما بين الأسطوانة التي تلي المنبر عند ظهره من المغرب إلى حائز عمر بن عبد العزيز الذي داخله الحجرة الشريفة بمقط ؛ فكانت مساحته سبعة وخمسين ذراعاً ونصف ذراع راجح ، وعرض الحائز المذكور ذراع وربع راجح ، كما تحرر لي عند عمارة ما نقض منه ، وليس بينه وبين جدار الحجرة من هذه الجهة فضاء أصلاً ، بل هو لاصق به ليس بينهما مغرز إبرة خلاف ما ذكره المؤرخون ؛ فيكون ما بين الأسطوانة المذكورة والحجرة الشريفة تسعة وخمسون ذراعاً ينقص يسيراً ، وكأنَّ ابن النجار جرى على قول من تقدمه من المؤرخين في أن بين الحائز وجدار الحجرة فضاء من هذه الجهة ، وظن أن عرض الحائز أكثر مما ذكرناه ؛ فجعل نهاية قولهم في عرض المسجد ستين ذراعاً أو يزيد إلى الأسطوانة التي تلي المنبر أو أن ذلك القدر الناقص لتفاوت الأذرع ، على أن الظاهر أن ابن جماعة لم يستبر الأسطوانة اللاصقة بالحجرة ، وأنه جعل السارية السابعة هي التي تلي السارية التي تلي المنبر في جهة المغرب ، وهي الثانية من المنبر في تلك الجهة ، فإنه قال : إنه ذَرَعَ ما بين الأسطوانة السابعة إلى حائز الحجرة الشريفة فكان ذلك اثنين وأربعين ذراعاً وثلاثي ذراع بذراع العمل .

قلت : وقد اعتبرت ما ذكره من الذراع بذراع العمل فرأيت أنه ينتهي إلى الأسطوانة الثانية من المنبر في جهة المغرب ، وذرعته بذراع اليد الذي حررناه فكان خمساً وستين ذراعاً ، وهو مطابق لما قاله ابن جماعة ولما اختبرناه بذراع العمل ؛ لأن ذراع العمل ذراع وثلاث من ذراع الحديد المستعمل بمصر ، وذلك اثنان وثلاثون قيراطاً ، والذراع الذي حررناه أحد وعشرون قيراطاً ، فذراع العمل ذراع ونصف قيراط بالذراع الذي حررناه ، وقد مال المراعى إلى اعتبار التحديد بهذه الأسطوانة — أعني الثانية من المنبر — فإنه ذكر عدم وجود البلاط اليوم ،

ثم قال : لكنني اعتبرت ذرعَه من المشرق إلى المغرب على رواية يحيى ثلاثة وستين ، وهي من أقل الروايات ؛ فكان من جدار الحجرة الشريفة يعني الحائز الظاهر إلى الاسطوانة الثانية من المنبر لا التي بعده ستون ذراعا تقريبا ، قال : وعلى هذا يكون عرض جدار عمر بن عبد العزيز وما بينه وبين جدار الحجرة الشريفة الأصلي ثلاث أذرع تقريبا ، انتهى . ولا يخفى ما فيه ؛ لأنه جعل المسافة المذكورة ستين ذراعا تقريبا وهي خمسة وستون تحريرا ، وتبع من تقدمه من المؤرخين في ثبوت فضاء بين حائز عمر بن عبد العزيز وجدار الحجرة ، فحمن أن ذلك مع عرض الحائز ثلاثة أذرع ، وقد علمت أن عرض الحائز ذراع وربع يرجح يسيرا ، وليس بينه وبين جدار الحجرة شيء .

وقد روى ابن زبالة ويحيى من طريقه أشياء في تحديد المسجد وذرعَه يقتضي أن جدار المسجد الشريف في زمنه صلى الله عليه وسلم من جهة المشرق لم ينته إلى حائز عمر ابن عبد العزيز ، بل الحائز وبعض ما يليه من المغرب في موضع حجرة عائشة رضي الله عنها ، وأن جدار حجرة عائشة كان فيما بين الأساطين اللاصقة بجدار القبر وبين لأساطين التي بينها المقصورة الدائرة على الحجرة الشريفة ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان قد بنى المسجد أولا وجعله ثلاث أساطين عن يمين المنبر في المغرب وثلاث أساطين عن يساره في المشرق ، وأن نهايته من جهة المشرق كانت أولا أسطوان التوبة ؛ لأنها تكون في موضع الجدار بعد الأساطين الثلاث ، وأن مساحة ذلك من المشرق إلى المغرب ثلاث وستون ذراعا ، وقيل : خمس وخمسون ، وأنه زاد فيه بعد ذلك من المشرق والمغرب ، ومع ذلك لم ينته زيادته في المشرق إلى موضع حائز عمر بن عبد العزيز ، وأنه لم يزد فيه من جهة القبلة ولا من جهة الشام

قلت : وهو موافق لما روى أنه كان مائة ذراع كما سنبينه ، ويرجح عندي أن المنبر الشريف يكون حينئذ متوسطا للمسجد ؛ إذ يبعد أنه صلى الله عليه وسلم لا يتوسط أصحابه ويقف على منبر في طرفهم ، وكون المسجد النبوي لا ينتهي

إلى موضع حائز عمر بن عبد العزيز كما قدمناه خلاف ما عليه متأخرو المؤرخين ، لكنه حسن ؛ إذ يبعد أن يبنى عمر بن عبد العزيز حائزه في شئ من المسجد ، وينتقص الروضة الشريفة به ، حاشاه من ذلك ، والذي صرح أن محل القبور الشريفة في صفة بيت عائشة ، ولا بد للصفة من مرافق ، فيظهر أن الحائط الذي في جوف الحائز هو حائط الصفة ، والحائز فيما خرج عنها من بقية البيت

ثم ظفرت في كلام المرجاني نقلا عن الحارث المحاسبي بما يصرح بذلك ، لما سيأتى من أنه ذكر في تحديد المسجد ستة أساطين من جهة شرق المنبر ، ثم قال : والروضة ما بين القبر والمنبر ، فما كان منها في الأسطوانة السادسة التي حددت لك عن يمين المنبر فليس من المسجد الأول ، وإنما كان من حجرة عائشة رضى الله عنها فوسع به المسجد ، وهو من الروضة ، انتهى

ولنورد عبارة ابن زبالة فإن يحى روى ذلك عنه من غير زيادة ولا مخالفة مع ما فيها من أشياء لا تعرف اليوم ، ولكن إفادة هذه الأمور الغريبة التي لم يذكرها متأخرو المؤرخين اقتضت إيرادنا لذلك فنقول : أسند ابن زبالة عن عبيد بن عمر بن حفص بن عاصم أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ثلاث أساطين مما يلي المشرق ، وثلاث أساطين مما يلي المغرب ، سوى ما خرج في الرحبة أى الأساطين المصنوفة من الرحبة إلى القبلة ، ولولا ما سيأتى من التصريح بأن هذه الست كانت ثلاثة منها على يمين المنبر وثلاثة عن يساره — يعنى في البناء الأول — لحلنا ذلك على أن ابتداء هذه الست من الأسطوانة التي تلى المنبر ؛ فيكون نهايتها الأسطوان التي يلي أسطوان التوبة ، ويكون جدار الحجرة بعدها ، فيوافق التحديد المتقدم ، لكنه قال عقبه : وقال جمهور الناس من أهل العلم وغيرهم : هو إلى الفرضتين اللتين في الأسطوانتين اللتين دون المربعتين الغربية والتي في القبر

قلت : لاتعرف اليوم في المسجد القديم مربعة غربية ، غير أن الذي ظهر لي — من مقابلتها بمربعة القبر ومما سيأتي في بيان الخائز الذي عمل لمنع ماء المطر أن يغشى المسقف القبلي — أنها الأسطوانة العظيمة المثلثة اليوم في المسقف القبلي ، فإنها كانت ركن رحبة المسجد في هذا المسقف من جهة المغرب ، كما أن مربعة القبر كانت ركن الرحبة في جهة المشرق ، قبل زيادة الرواقين اللذين ذكرهما في المسقف القبلي كما يؤخذ من مواضع في كلام ابن زبالة ويحيى ، والذي يظهر أن تثمين الأسطوانة المذكورة حادِث ، وإنما كانت مربعة ، كما ثمنوا ما ظهر من مربعة القبر وما بلى الخجرة منها باقٍ على تربيعة ، ومربعة القبر هي التي في نهاية الصفحة الغربية من الخائز الدائر على الخجرة من جهة الشام ، وتعرف بأسطوان مقام جبريل عليه السلام كما سيأتي إيضاحه ، والأسطوان التي دونها هي الملاصقة بالشباك الدائر على الخجرة اليوم ، وهي بين المربعة وبين أسطوان الوفود ؛ فيكون جدار الخجرة على هذا كان فيما بين مربعة القبر والتي يليها

قال ابن زبالة عقب ما قدمناه عنه : واحتجوا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعتكف في المسجد في موضع مجلس بنى عبدالرحمن بن الحارث ، وأن عائشة رضي الله عنها كانت تُرَجِّلُ رأسه وهو معتكف في المسجد وهي في بيتها ، وكان مالك بن أنس يقول : الجدار من المشرق في حد القناديل التي بين الأساطين التي في صفها أسطوان التوبة وبين الأساطين التي تلي القبر، وأرفقة^(١) عمر بن عبدالعزيز من ورائها في الأسطوانة التي تلي القبر

قلت : ما نقله عن مالك صريح فيما قدمناه من أن جدار المسجد المشرق كان فيما بين الأساطين اللاصقة بالقبر وبين الأساطين المقابلة لها ؛ فيكون في محاذة القناديل الآخرة من القبلة إلى الشام فيما بين هذه الأساطين ، ويكون عمر بن

(١) الأرفقة — بالضم — هي الحد بين الأرضين ، وعدم معرفة المصنف معنى هذه الكلمة كما سيذكره (ص ۳۵۲) دليل على أن قراءتها تصحفت عليه .

عبد العزيز أخره إلى الأسطوان اللاصق بجدار القبر ، وسيأتي ما يصرح بذلك من كلام المحاسبي أيضا وأما قوله « واحتجوا إلى آخره » فوجه الاحتجاج أن معتكفه صلى الله عليه وسلم كان لاصقاً بحجرته ، بحيث إن عائشة رضى الله عنها كانت ترجل رأسه وهو في مُعْتَكَفِهِ وهي في بيتها ، ولهذا أورد ابن زبالة عقبه حديث « كان يدنو مني وأنا حائض فأرجله وهو في المسجد » ومجلس بن عبد الرحمن بن الحارث الذي ذكره ابن زبالة لا يعرف اليوم ، وروى ابن زبالة ويحيى في بيان معتكفه صلى الله عليه وسلم أشياء سند كرها إن شاء الله تعالى ، والمناسب لما نحن فيه منها : أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم سرير من جريد فيه سَعْفُهُ يوضع بين الأسطوان التي وُجَاهَ القبر^(۱) وبين القناديل ، كان يضطجع عليه صلى الله عليه وسلم وقوله « التي وُجَاهَ القبر » يريد به المواجهة له ، وهي اللاصقة بشباك الدائر على الحجرة اليوم في صف أسطوان التوبة ، بل قيل : إنها أسطوان التوبة كما سيأتي ، وهذا مطابق لما ذكره مالك من أن الجدار كان في حد القناديل المذكورة .

وأسند ابن زبالة أيضاً عن غير واحد من أهل العلم أن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ثلاث أساطين عن يمين المنبر وأنت مستقبل القبلة في موضع معتكف حسن بن زيد الذي كان يعتكف فيه ، ومن الشق الآخر إلى أسطوان التوبة ، وكان ذرعه من المشرق إلى المغرب ثلاثة وستين ذراعاً ، وقال عبد الرحمن ابن سعد عن أشياخه : كان خمسين في خمسين .

قلت : فيكون الحجر التي في شرق المسجد أدخلت بعد أو بعضها في الزيادة الآتية أو أنها لم تستقر في شرقيه إلا بعد ذلك .

ثم قال ابن زبالة : قالوا : وعلامة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم — أي الذي بنى عند مقدمه من مكة — وذكر علامات كانت في السقف المحترق والفسيفساء التي زالت فلا تعرف اليوم ، ثم قال : وعلامة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بنى عند مقدمه من خير قالوا : ترك رسول صلى الله عليه وسلم المسجد من القبلة في تلك البنية على حده الأول ، وزاد فيه من ناحية المشرق إلى الأسطوان التي دون

(۱) وجاه القبر : في مواجهته

المربعة التي عند القبر، وعلامة تلك الأسطوان أن لها نجافاً^(١) طالعا في الرحبة من بين الأساطين، ومن المغرب إلى الأسطوان التي تلي المربعة التي لها نجاف^(٢) أيضاً من بين الأساطين، وظهر ذلك أي حد المسجد بحجارة، وعبارة يحجي: وقد صمد بحجارة تحت الحصباء، منها أرفة عند الأسطوان التي بين أسطوان التوبة وبين القبر في صف الأسطوان التي لها نجاف، ومن المغرب مثل ذلك بأرفة حجارة في الأرض مبنية، وترك مما يلي الشام لم يزد فيه، انتهى كلام ابن زباله بحروفه.

وقوله «ومن المغرب مثل ذلك» أي ظهر الحد بأرفة حجارة في الأرض، ولا أدري معنى قوله بأرفة^(٣).

وذكر ابن زباله أيضاً في موضع آخر ذرع مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان في زمنه، يعني ما استقر عليه في آخر الأمر، ثم قال: وحده من شرقي المنبر أربع أساطين، ومن غربيه أربع أساطين، انتهى.

والعجب من ابن النجار فَمَنْ بعده من المؤرخين حيث لم يتعرضوا لهذا، لكن ابن النجار اعتذر في أول كتابه بأنه كان مجاوراً بالمدينة، ولم تكن كتبه حاضرة عنده، وذكر ما يقتضي أنه كتب ذلك مما علق بفكره، والمطري جرى على منواله، وابن زباله ويحيى عمدة في ذلك؛ فإنهما أقدم من أرخ للمدينة لأن ابن زباله هو محمد بن الحسن أحد أصحاب الإمام مالك بن أنس، ويؤخذ من كلامه أنه وَضَعَ كتابه في صفر سنة تسع وتسعين ومائة، وأما يحيى فهو من أصحاب أصحابه، وكانت وفاته سنة سبع وسبعين ومائتين عن ثلاث وستين سنة، وأما ابن شبة فكان معاصراً ليحيى وقبله بيسير، ولم أظفر من كتابه بهذا الحل المشتمل على ذكر المسجد، ولو ظهرت به لكان الشفاء؛ فإنه يوضح الأمور إيضاحاً تاماً، وهو إمام ثقة، وابن زباله وإن كان ضعيفاً لكن اعتضد بموافقة يحيى له وروايته لكلامه من غير تعقيب:

(١) أصل النجاف - بزنة الكتاب - عتبة الباب؛ فالمراد هنا أن لهذا

الأسطوان دكا في الأرض تعتمد عليه وتعرف به

(٢) قد ذكرنا لك أن الأرفة بضم الهمزة الحد الذي تحده الأرضون

ثم ظفرتُ في كلام المرجاني نقلا عن المحاسبي بما يوافق كلامه ؛ فهو
العمدة عندي .

قال المرجاني : قال الحارث بن أسد المحاسبي : حد المسجد الأول ستة أساطين
في عرضه عن يمين المنبر إلى القناديل التي حذاء الخوجة ، وثلاث سَوَارٍ عن
يساره من ناحية المنحرف منه ، ومنتهى طوله من قبلته إلى مؤخره حذاء تمام
الرابع من طيقات المسجد اليوم : أى في زمنه ، وما زاد على ذلك فهو خارج
عن المسجد الأول ، قال - يعنى المحاسبي - : وقد روى عن مالك أنه قال : مؤخر
المسجد بحذاء عضادة الباب الثانى من الباب الذى يقال له باب عثمان ، أعنى العضادة
الآخرة السفلى ، وهو أربع طيقتان من المسجد ، ثم قال : والروضة ما بين القبر
والمنبر ، إلى آخر ما قدمناه عنه .

وقوله « عن يمين المنبر » أى في جهة المشرق ، لما سبق عنه خلاف ما تقدم
في كلام ابن زبالة ، فإنه عنى يمين مستقبل المنبر ، والطيقتان التي ذكرها لها ذكر
في كلام ابن زبالة ويحيى كما تقدم ، وهى غير موجودة اليوم ، والباب الثانى من
باب عثمان هو المعروف اليوم بباب النساء ؛ فهو صريح في ردّ ما تقدم من تحديد
جهة الشام بالحجرين الموجودين اليوم في صحن المسجد ، ومؤيد للرواية المتقدمة
في الذرع ، وهى رواية مائة ذراع في مائة ذراع ؛ لأنه يقرب من ذلك .

وقد تحصّلنا من هذا مع ما تقدم عن المتأخرين على خلاف في نهاية المسجد
النبوى من جهة المغرب .

فأحد الأقوال : أنه إلى الأسطوانة التي تلى المنبر من تلك الجهة ، وهو الذى
عَوَّلَ عليه ابن النجار ومن اتبعه .

والثانى : أنه إلى التي تليها ، وهى الثانية من المنبر من تلك الجهة أيضا ،
وهما بعيدان .

والثالث : أنه إلى الأسطوانة الثالثة من المنبر في تلك الجهة ، وقد اقتضى كلام ابن زبالة أن ذلك حد المسجد قبل زيادة النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، خلاف ما يظهر من كلام المحاسبي .

والرابع : أنه إلى الأسطوانة الرابعة من المنبر ؛ لما تقدم من أنه كان على ثلاثة أساطين عن يمين المنبر ؛ فيكون جداره الغربي في موضع الأسطوانة الرابعة في صفها من جهة القبلة أسطوان مربع من أسفله رفع عن الأرض بقدر الجلسة ، وفي صفه من جهة الشام أسطوان محراب الحنفية المحدث .

والخامس : أنه إلى الأسطوانة الخامسة من المنبر ؛ لما تقدم من أن النبي صلى الله عليه وسلم زاد فيه بعد فتح خيبر من جهة المغرب بقدر أسطوان آخر ، كما يؤخذ مما تقدم ، ولما صرح به ابن زبالة كما قدمناه أيضا حيث قال في حده : وعن غريبه أربع أساطين ؛ فينتهي حده إلى الأسطوانة الخامسة من المنبر ، وهي التي تلي الأسطوانة المذكورة في جهة المغرب في صفها ، وهي مربعة من أسفلها بقدر الجلسة أيضا ، وفي صفها من جهة الشام الأسطوان التي تلي محراب الحنفية من جهة المغرب ، فهاتان المربعتان هما اللتان يتردد فيما يكون منهما في مواراة حد المسجد النبوي من جهة المغرب ، وقد ذهب تربيعهما في العمارة المتجددة في زماننا بعد الحريق ؛ والمربعة الثانية - أعني الخامسة من المنبر - هي التي يترجح عندي أيضا ؛ لأن تجاهها في حائط القبلة طراز آخذ من السقف نازل إلى العصابة السفلى الظاهرية ، لكنه انقشر بعضه عند إصلاح العصابة العليا وتبييض الجدار في العمارة التي أدركناها أولا ، وذهب منه ما كان بين العصابتين ، وبعض ما فوق العليا ، وبقي منه ما بين العصابة العليا والسقف ، ثم ذهب بقيته في الحريق الحادث في زماننا ، وبقي موضعه أصباغ ملونة في الجدار من صناعة الأقدمين ، وقد ذهب ذلك عند هدم الجدار القبلي ؛ فالظاهر أنه علامة نهاية

المسجد النبوي من هذه الجهة ، خلاف ما سيأتي عن المطري في جَفَلِهِ علامةً
لنهاية زيادة عثمان رضى الله عنه ؛ لوجوه :

الأول : أنى ذَرَعْتُ من الأسطوان التي المنبر إلى الأسطوان المحاذية لهذا
الطراز ؛ فكان ذلك سبعا وثلاثين ذراعا ، فإذا أضفنا ذلك إلى الذَّرْع المتقدم
فيما بين الأسطوان التي تلي المنبر وبين الحجرة الشريفة ، وهو نحو الستين ذراعا
كما تقدم ، قاربَ ذلك المائة التي تقدمت الرواية بها .

الثاني : أنه يبعد أن يجعل هذا الطراز لزيادة عثمان رضى الله عنه كما
زعمه المطري ، ويترك التعليم للمسجد الأصلي والاعتناء به أشد . وقد قال
ابن زبالة : إن له علامات في الفسيفساء ، والظاهر أن الفسيفساء لما زالت
جعل هذا بدلها .

الثالث : أنه سيأتي أن عمر لما زاد في المسجد جعل عرضه مائة وعشرين
ذراعا ، وأنه لم يزد فيه من جهة المشرق شيئا ؛ فيكون نهاية المسجد في زمنه من
جهة المشرق الحجرة الشريفة ، وقد علمت أن من الحجرة الشريفة إلى ما يحاذي
الطراز المذكور ينقص عن المائة ، فكيف يكون نهاية زيادة عثمان ؟ وعثمان قد
زاد أسطوانا من جهة المغرب على زيادة عمر ، فلو كان ذلك الطراز نهاية زيادة
عثمان لزم أن يكون عرض المسجد في زمن عمر نحو التسعين ، ولا قائل به .

الرابع : أنه سيأتي أن عثمان رضى الله عنه لم يزد في جهة المغرب غير أسطوانة
واحدة ، وأن زيادة الوليد من المغرب أسطوانتان ، ولا شك أن من الأسطوانة
التي تحاذي الطراز المذكور إلى جدار المسجد الغربي خمس أساطين ، فإذا سقط
منها ثلاث أساطين لعثمان رضى الله عنه وللوليد بقى أسطوانتان لزيادة عمر
رضى الله عنه ، وهما يقربان من عشرين ذراعا التي زادها عمر رضى الله عنه على
المائة كما سيأتي .

الخامس : أن موضع المنبر لم يغير كما سيأتي ، ويبعد كل البعد أن يجعل النبي صلى الله عليه وسلم موضع منبره في طرف مسجده ولا يتوسط أصحابه في حال قيامه .

السادس : أنه سيأتي أن عمر رضى الله عنه زاد في المسجد شيئا من دار العباس وأن ما بقى منها زاد عثمان رضى الله عنه بعضه ، وما بقى دخل في دار مروان بن الحكم . وروى يحيى في قصة زيادتها ما يصرح بأنها كانت ملاصقة بجدار المسجد النبوى ، بل روى أنه كان لها ميزاب يصب فيه ، وقد نقل يحيى أنها كانت فيما بين الأسطوان المربعة التي تلى دار مروان بن الحكم ، أى والباب الذى يلى دار مروان ابن الحكم ؛ لما تقدم من دخول بعضها في دار مروان ؛ فوجب أن تكون المربعة المذكورة أول دار العباس وآخر المسجد النبوى .

السابع : ما قدمناه من أن المربعة الغربية إذا أطلقت ، فالمراد بها الأسطوانة التي كانت ركن صحن المسجد في المغرب عند نهاية المسقف القبلى قبل زيادة الرواقين الآتين فيه ، وهى المثمنة اليوم ؛ فهى المرادة بما تقدم عن الجمهور من أن المسجد النبوى كان إلى الفرضتين اللتين فى الأسطوانتين اللتين دون المربعتين الغربية والتي فى القبر كما نقله ابن زبالة ، ولا شك أن الأسطوانة الخامسة من المنبر فى جهة المغرب دون المربعة المذكورة ؛ لأن المربعة المذكورة هى السادسة من المنبر ، فوضح أنها المراد بذلك ، فيكون الجمهور على رواية أن المسجد كان مائة فى مائة ، ومما يرجح هذه الرواية أيضا ما تقدم عن الحاشى من تحديد مؤخر المسجد الأول نقلا عن مالك بمضادة الباب الثانى من باب جبريل - وهو باب النساء - وما سيأتى من أن باب الرحمة - ويعرف بباب عاتكة - لم يغيره عمر رضى الله عنه ، يعنى أنه نقله فأخره فقط وجعله فى تجاه الباب الأول ، لأنه زاد فى المسجد من جهة المغرب ، وبين باب الرحمة وبين الحجرين اللذين ذكر أنهما أحد المسجد

من جهة الشام تفاوت ظاهر ؛ لتأخره عن موازاتهما كثيرا ، وكأنهما إنما جعلتا هناك
تميذا لفوهتى بالوعة عندهما الحبران المذكوران هناك ؛ فالذى يترجح فى التقدير رواية المائة
وما ذكرناه من التحديد ، ويحتمل أن ابن النجار لما رأى اختلاف الروايات أراد
الأخذ بالأقل لأنه المحقق فذكر التحديد المتقدم ، وتبعه مَنْ بعده ، على أنه اعتذر
فى أول كتابه بغيبة كتبه ، وأن الحفظ قد يزيد وينقص ، ولما اتضح ذلك للمقر
الشجاعى شاهين الجمالى ناظر الحرم الشريف النبوى وشاد عمائر وشيخ خدامه
اتخذ لأعلى الأسطوانة الخامسة من المنبر من صف الأساطين التى فى قبلة المنبر
طرازاً متصلاً بالسقف منقوشاً فيه أن ذلك هو الذى استقر عليه الأمر فى نهاية
المسجد النبوى وحده ، فالله تعالى يوفقه للمداومة على حفظ الحدود ، ويلحقه
بالمقر بين الشهود .

ويتفرع على ذلك مسألة ذكرها النووى فقال فى شرح مسلم والمناسك
وغيرها : إن الصلاة إنما تتضاعف فى المسجد الذى كان فى زمنه صلى الله عليه
وسلم دون بقية الزيادات ، ولم يحك غيره ، لكن الخطيب بن حملة نقل عن المحب
الطبرى أن المسجد المشار إليه فى حديث المضاعفة هو ما كان فى زمنه صلى الله
عليه وسلم مع ما زيد فيه ، لأخبار وآثار وردت فى ذلك ، واستحسنه ابن حملة
على ما ذهب إليه النووى فى كتبه من التخصيص ، مع أن البرهان ابن فرحون
نقل فى شرحه لابن الحاجب القرعنى أنه لم يخالف فى هذه المسألة غير النووى ، وأن
الشيخ محب الدين الطبرى نقل فى كتابه الإحكام أن النووى رجع عن ذلك ،
قال : ونقل أبو عبد الله بن فرحون فى شرح مختصر الموطأ أنه وقف على كتاب
من كتب المالكية فيه أن مالكاً سئل عن ذلك فقال : ما أراه عليه السلام أشار
بقوله : « فى مسجدى هذا » إلا لما سيكون من مسجده بعده ، وأن الله أطلعه
على ذلك ، انتهى .

قلت : أما قوله « إنه لم يخالف في ذلك إلا النووى » فمننوع ؛ فقد نقل ذلك ابنُ الجوزى في الوفاء عن ابن عقيل الحنبلى ، وأما ما نقله عن الإحكام للطبرى فقد راجعتها فرأيت أنه ترجم لبيان أن مسجده صلى الله عليه وسلم المشار إليه بالفضيل هو الموجود في زمنه مع ما زيد فيه ، وأورد بعض الأخبار الآتى ذكرها في آخر الفصل الثانى عشر ، ثم قال : وقد يتوهم بعض من لم يبلغه ذلك قصر الفضيلة على الموجود في زمنه صلى الله عليه وسلم لمكان الإشارة ، وقد وقع ذلك لبعض أئمة العصر ، فلما رويت له ما سبق جَنَحَ إليه وتلقاه بالقبول ، انتهى .

فكان ابن فرحون فهم أن المراد من قولهم « بعض أئمة العصر »

النووى .

وأما ما حكاه عن مالك فقد نقله الأقسهرى في روضته عن عبد الله بن نافع صاحب مالك عن مالك ، ولفظه في أثناء كلامه : قيل له — أى مالك — فخذ المسجد الذى جاء فيه الخبر هو على ما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم أو على ما هو الآن ؟ قال : بل هو على ما هو الآن ، قال : لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بما يكون بعده ، وزُوِيَتْ له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها ، وتحدث بما يكون بعده ، فحفظ ذلك مَنْ حفظه في ذلك الوقت ، ونسى ذلك من نسيه ، ولولا هذا ما استجاز الخلفاء الراشدون المهديون أن يزيدوا فيه بحضرة الصحابة ولم ينكر عليهم ذلك منكر ، انتهى .

قلت : و متمسك مَنْ ذهب إلى التخصيص الإشارة في قوله « مسجدى هذا » ولعله صلى الله عليه وسلم إنما جاء بها ليدفع توهم دخول سائر المساجد المنسوبة إليه بالمدينة غير هذا المسجد ، لا لإخراج ما سيزاد فيه ، وقد سلم النووى أن المضاعفة في المسجد الحرام تعم ما زيد فيه ، فليكن مسجد المدينة كذلك ، كما أشار إليه

ابن تیمیہ ، قال : وهو الذى يدل عليه كلامُ الأئمة المتقدمين وعملهم ، وكان الأمر عليه فى عهد عمر وعثمان رضى الله عنهما ، فإن كلا منهما زاد فى قبلة المسجد ، وكان مقامه فى الصلوات الخمس فى الزيادة وكذلك مقام الصف الأول الذى هو أفضل ما يقام فيه ، ويمتنع أن تكون الصلاة فى غير مسجده أفضل منها فى مسجده ، وأن يكون الخلفاء والصفوفُ الأول كانوا يصلون فى غير مسجد [هـ] ، قال : وما بلغنى عن أحد من السلف خلاف هذا ، إلا أن بعض المتأخرين ذكر أن الزيادة ليست من مسجده ، وما علمت له سلفاً فى ذلك .

وسياتى فى زيادة عمر بن الخطاب ما ورد من الأخبار والآثار المقوية لذلك وليست مسألة الحلف على أن لا يدخل هذا المسجد فزيد فيه من هذا القبيل ، لأن الأيمان مَبْنَاهَا على العرف .

الفصل الثالث

فى مقامه الذى كان يقوم به صلى الله عليه وسلم فى الصلاة قبل تحويل القبلة ، وبعد ما جاء فى تحويلها .

روينا فى البخارى عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُصَلِّى نحوَ بيت المقدس ستةَ عشرَ أو سبعةَ عشرَ شهراً ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يُوجَّهَ إلى الكعبة ، فأنزل الله تعالى « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ » ^(١) فتوجَّه نحوَ الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود « مَاؤَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ^(٢) فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم رجل ، ثم خرج بعد ما صلى ، فرأى قوم من الأنصار فى صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال : هو يشهد أنه صَلَّى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه توجَّه نحو الكعبة ، فتحرَّفَ القومُ حتى توجهوا نحو الكعبة .

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤

(٢) من سورة البقرة من الآية ١٤٢

وَأَسْنَدَ يَحْيَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا وَقَفَ يَصَلِّي أُنْتَظَرَ أَمْرَ اللَّهِ فِي الْقِبْلَةِ ، وَكَانَ يَفْعَلُ أَشْيَاءَ مِمَّا لَمْ يُؤْمَرْ بِهَا وَلَمْ يُنَهَ عَنْهَا مِنْ فَعَلَ أَهْلَ الْكِتَابِ ، قَالَ : فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِّي ، فَأَشَارَ لَهُ جَبْرِيلُ : يَا مُحَمَّدُ صَلِّ إِلَى الْبَيْتِ ، وَصَلَّى جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْبَيْتِ ، قَالَ : فَدَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْبَيْتِ ، قَالَ : فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّنَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا » إِلَى « وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ »^(۱) قَالَ : فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : حَنَّ مُحَمَّدٌ إِلَى أَرْضِهِ وَقَوْمِهِ ، وَقَالَ الْمُشْرِكُونَ : أَرَادَ مُحَمَّدٌ أَنْ يَجْعَلَنَاهُ قِبْلَةً ، وَأَنْ يَجْعَلَنَاهُ وَسِيلَةً ، وَعَرَفَ أَنَّ دِينَنَا أَهْدَى مِنْ دِينِهِ ، وَقَالَتِ الْيَهُودُ لِلْمُؤْمِنِينَ : مَا صَرَفَكُمْ إِلَى مَكَّةَ وَتَرَكْتُمْ قِبْلَةَ مُوسَى وَيَعْقُوبَ وَالْأَنْبِيَاءَ ؟ وَاللَّهُ مَا أَنْتُمْ إِلَّا تَغَبُّثُونَ ، وَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ : لَقَدْ ذَهَبَ مِنْ أَقْصَا مَا نَدْرِي أَكُنَّا نَحْنُ وَهُمْ عَلَى قِبْلَةٍ أَمْ لَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ « سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ » إِلَى قَوْلِهِ « إِنْ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرْؤُوفٌ رَحِيمٌ »^(۲) .

وَرَوَى ابْنُ زُبَيْلٍ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا وَقَفَ يَصَلِّي أُنْتَظَرَ أَمْرَ اللَّهِ فِي الْقِبْلَةِ ، وَكَانَ يَفْعَلُ أَشْيَاءَ مِمَّا لَمْ يُؤْمَرْ بِهَا وَلَمْ يُنَهَ عَنْهَا مِنْ فَعَلَ أَهْلَ الْكِتَابِ ، فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِّي الظُّهْرَ فِي مَسْجِدِهِ قَدْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ فَأَشَارَ إِلَيْهِ أَنْ صَلِّ إِلَى الْبَيْتِ ، وَصَلَّى جَبْرِيلُ إِلَى الْبَيْتِ ، وَذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ .

وَأَسْنَدَ يَحْيَى عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ قَالَ : صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَكْعَتَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ فِي مَسْجِدِهِ بِالْمَسْلَمِينَ ، وَأَمَرَ أَنْ يُوجَّهَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَاسْتَدَارَ ، قَالَ رَافِعٌ : فَأَتَانَا آتٍ وَنَحْنُ نَصَلِّي فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ فَقَالَ : إِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَمَرَ أَنْ يُوجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ ، قَالَ : فَأَدَارَنَّا إِمَامِنَا إِلَى الْكَعْبَةِ وَدُرْنَا مَعَهُ .

(۱) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، الْآيَةُ ۱۴۴ .

(۲) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ الْآيَتَيْنِ ۱۴۲ وَ ۱۴۳ .

وعن ابن عمر قال : بينما نحن في صلاة الصبح بقُبَاءَ جاءهم رجل فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة ، ألا فاستقبلوها ، وكانت قبة الناس إلى الشام ، فاستداروا وتوجهوا إلى الكعبة ، وهو في الصحيحين بلفظ : كانت وجوههم إلى الشام ، فاستداروا إلى الكعبة ، وفي لفظ : كانوا ركوعاً في صلاة الصبح .

وعن عثمان بن محمد بن الأخنس أنه صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه فيه - يعني في مسجد القبلتين - الظهر ، فلما صلى ركعتين أمر أن يُوجه إلى الكعبة ، فاستدار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ، واستقبل الميزاب .
وعنه أيضاً نحوه ، وأن الفريضة كانت الظهر ، وأنها يومئذ كانت أربع ركعات .

وعن سعيد بن المسيب قال : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، وصُرفت القبلة قبل بدرٍ بشهرين ، والثبت عندنا أنها صُرفت في الظهر في مسجد القبلتين .

وفي رواية أخرى عنه : صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الله بعد أن قدم المدينة نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، ثم حولت القبلة قبل بدرٍ بشهرين .
وعن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده قال : صُرفت القبلة يوم الاثنين النصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً .

وفي مسلم عن البراء بن عازب : صَلَّيْتُ مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً حتى نزلت الآية التي في البقرة « وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ^(١) » فنزلت بعد ما صلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فانطلق رجل من القوم فمر بناسٍ من الأنصار وهم يصلون ، فحدثهم بالحديث ، فولَّوا وجوههم قبل البيت .

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

تاریخ
تحويل القبلة

وفی رواية له عنه أيضاً : ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، على الشك .
وعند الزمخشري : صُرِفَت القبلة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم في مسجد
بنی سَلَمَةَ — یعنی مسجد القبلتین — وقد صلى بأصحابه ركعتین من صلاة
الظهر ، فتحول في الصلاة ، واستقبل الميزاب ، وحول الرجال مكان النساء والنساء
مكان الرجال .

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره من طريق توبة بنت أسلم قالت : صليتُ
الظهر والعصر في مسجد بنی حارثة ، فاستقبلت مسجد إيلياء ، فصليتُا سجدةً
أى ركعتين . ثم جاءنا مَنْ يُخبرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت
الحرام . فتحول النساء مكان الرجال ، وأرجال مكان النساء ، فصليتُا السجدةً
الباقيتين إلى البيت الحرام .

قال الحافظ ابن حجر : وهذه القصة المرادة بقوله في الحديث المتقدم « فمر
على قوم من الأنصار يصلون في صلاة العصر نحو بيت المقدس » فهؤلاء القوم هم
بنو حارثة ، والمار عباد بن بشر ، ووصل الخبر وقت الصبح إلى أهل قباء ، فلا
منافاة بين الحديثين .

وسأني في مسجد القبلتين أن ابن زبالة نقل أن القبلة صُرِفَت ونَقَر من
بنی سَلَمَةَ يصلون الظهر في مسجد القبلتين ، فأتاهم آتٍ فأخبرهم وقد صلوا ركعتين
فاستداروا حتى جعوا وجوههم إلى الكعبة ، فبذلك سمي مسجد القبلتين .
قال المجد : فعلى هذا كان مسجد قباء أولى بهذه التسمية .

وعند أبي القاسم القشيري في لطائف التفسير : صلى رسولُ الله صلى الله عليه
وسلم إلى بيت المقدس بعد قدومه المدينة مهاجراً ستة عشر شهراً عن قتادة ، وقيل :
سبعة عشر شهراً عن ابن عباس ، وقال أنس : كان تسعة أشهر أو عشرة أشهر ،
وقال معاذ بن جبل : ثلاثة عشر شهراً استماله لقلوب اليهود أن يصلوا إلى قبلتهم
ربما يرغبون في دينه ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم كره موافقتهم في أمر القبلة لما

مدة
الصلاة إلى
بيت المقدس

قالوا : لولا أن ديننا حق لما صلى إلى قبلتنا ، ولما استنَّ بسنتنا ، فقال صلى الله عليه وسلم لجبريل : وَدِدْتُ أن ربي صرَّفني عن قبلة اليهود إلى غيرها ، فقال جبريل : إنما أنا مَلَكٌ عبد ، لا أملك شيئاً ، فَسَلْ ربك ، فصعد جبريل السماء ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصحراء نحو أحدٍ يصلي ههنا ركعتين وههنا ركعتين ، ويدعو الله أن يُجيز له في ذلك ، فلم يزل كذلك يديم النظر إلى السماء ، حتى دخل ناحية أحد ، فأنزل الله تعالى في رجب بعد زوال الشمس قبل الظهر « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ^(١) » الآية ، وصُرِفَت القبلة ، وذلك قبل بدر بشهرين ، وفي السير لابن حبان : حوت بعد سبعة عشر شهراً وثلاثة أيام ، وحديث البراء المتقدم رواه ابن خزيمة في صحيحه « ستة عشر شهراً » على الجزم كرواية مسلم الأولى ، وقال الشيخ شرف الدين الدمياطي : حوت القبلة نصف رجب بعد خمسة عشر شهراً ونصف ، ونقل النووي في سير الروضة عن محمد بن حبيب الهاشمي أن التحويل يوم الثلاثاء النصف من شعبان من السنة الثانية . ونقل المجد عن ابن حبيب أنها حوت في النصف من شعبان في الركعة الثالثة ، وقيل : في صلاة العصر . وعند النحاس بعد بضعة عشر شهراً . وعن عبد الرحمن ابن عبد الله بن كعب بن مالك : صُرِفَت في جمادى ، قال : وهو أولى الأقوال بالصواب . وقال ابن جرير عن مُعَاذٍ : بعد ثلاثة عشر شهراً من مقدّمه المدينة ، قال : وعن أنس عشرة أو تسعة أشهر ، انتهى ما نقله المجد .

وقال ابن سعد : يقال : إنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين ، ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام ، فاستدار ودار معه المسلمون ، ويقال : زار النبي صلى الله عليه وسلم أمّ بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة وصنعت له طعاماً ، وحانت الظهرُ فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه ركعتين ، ثم أمر فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب ، فسمى مسجد

(١) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

القبليتين . قال ابن سعد : قال الواقدي : هذا أثبت عندنا .

أول صلاة إلى الكعبة
وفي الصحيح أن أول صلاة صلاها - أي متوجها إلى الكعبة - صلاة العصر .

قال الخافظ ابن حجر : التحقيق أن أول صلاة صلاها في بني سَلَمَةَ الظهر ، وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوي العصر . قال : وأسانيد الروايات المتقدمة - أعني رواية ثلاثة عشر شهرا وتسعة عشر شهرا ونحوها - شاذة . قال : وأما رواية الصحيح فطريق الجمع بين رواية سبعة عشر شهرا وستة عشر ، ورواية الشك في ذلك : أن مَنْ جَزَمَ بِسِتَّةِ عَشْرَ لَفَقَ مِنْ شَهْرِ الْقُدُومِ وَشَهْرِ التَّحْوِيلِ شَهْرًا ، وَأُلْغِيَ الْآيَامُ الْوَارِثَةُ ، وَمَنْ جَزَمَ بِسَبْعَةِ عَشْرَ شَهْرًا عَدَّهَا مَعًا ، وَمِنْ شَكِّ تَرَدَّدَ فِي ذَلِكَ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقُدُومَ كَانَ فِي شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ بِلاَ خِلاَفٍ ، وَكَانَ التَّحْوِيلُ فِي نِصْفِ شَهْرِ رَجَبٍ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ عَلَى الصَّحِيحِ ، وَبِهِ جَزَمَ الْجُمْهُورُ ، وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَوْلُ ابْنِ حِبَّانَ : « سَبْعَةُ عَشْرَ شَهْرًا وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْقُدُومَ كَانَ فِي ثَانِي عَشْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ .

وقال الربيع : كان النبي صلى الله عليه وسلم في ابتداء الهجرة مخيرا في التوجه إلى بيت المقدس أو الكعبة ، إلا أنه أمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس ، فكان التوجه إليه فرضا ، وإن كان مخيرا فيه كالخير في كفارة اليمين أي واحد اختار فهو فرض عليه ، وقال ابن عباس : بل كان الفرض التوجه إلى بيت المقدس ثم نسخ .

وقال ابن العربي وغيره : نسخت القبلة مرتين .

وقال ابن رشد في البيان : ولم يختلف في أن صلاته صلى الله عليه وسلم كانت بالمدينة إلى بيت المقدس حتى حولت القبلة ، وإنما اختلف في صلاته بمكة قبل قدومه المدينة ، فروى أنها كانت إلى الكعبة ، وروى أنها كانت إلى بيت المقدس ، وروى أنه كان يصلي إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه - أي بين الركنين

إلى أي جهة كانت الصلاة بمكة قبل الهجرة

اليمانين — وحكى ابن عبد البر الاختلاف في صلاته صلى الله عليه وسلم بمكة : هل كانت إلى الكعبة ، أو بيت المقدس ؟ ثم قال : وأحسن من ذلك قول من قال : كان يصلى بمكة مستقبل القبلتين يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس .

وروى الطبرى وغيره عن ابن عباس قال : لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة واليهود أكثر أهلها يستقبلون بيت المقدس أمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يستقبل قبلة إبراهيم ، فكان يدعو وينظر إلى السماء فنزلت ، وهو ظاهر في أن استقبال بيت المقدس كان بوحي ، لا باجتهاد من النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه إنما وقع بعد الهجرة ، لكن أخرج أحمد عن ابن عباس : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه » فيجمع بأنه لما هاجر أمر بأن يستمر على الصلاة لبيت المقدس .

وروى الطبرى أيضا من طريق ابن جريح قال : صلى النبي صلى الله عليه وسلم أول ما صلى إلى الكعبة ، ثم صُرف إلى بيت المقدس وهو بمكة ، وصلى ثلاث حجج ، وهاجر فصلى إليه بعد قدومه المدينة ستة عشر شهرا ، ثم وَجَّهَهُ اللهُ إلى الكعبة .

وقال ابن النجار : وصلى النبي صلى الله عليه وسلم فيه — أى فى مسجده — كيف حررت
إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا ، ثم أمر بالتحول إلى الكعبة ، فأقام رهطا
على زوايا المسجد ليعدل القبلة ، فأناه جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله
ضع القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة ، ثم قال بيده هكذا ، فأماط كلَّ جبل
بينه وبينها ، فوضع القبلة وهو ينظر إلى الكعبة لا يحول دون نظره شيء ،

فَمَا فَرَّغَ قَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَكَذَا ، فَأَعَادَ الْجِبَالَ وَالشَّجَرَ وَالْأَشْيَاءَ عَلَى حَالِهَا ، وَصَارَتْ قِبَلَتُهُ إِلَى الْمِيزَابِ .

وَأَسْنَدُ يَحْيَى مِنْ طَرِيقِ ابْنِ زُبَالَةَ وَغَيْرِهِ عَنِ الْخَلِيلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَزْدِيِّ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقَامَ رَهْطًا عَلَى زَوَايَا الْمَسْجِدِ يُعْمَلُ الْقِبْلَةُ ، فَأَنَّهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ضَعِ الْقِبْلَةَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ إِلَى السَّكْعَةِ ، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا ، فَأَمَّا كُلُّ جَبَلٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ ، فَوَضَعَ تَرْبِيعَ الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى السَّكْعَةِ لَا يَتَحَوَّلُ دُونَ نَظَرِهِ شَيْءٌ ، فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَدِهِ هَكَذَا ، فَأَعَادَ الْجِبَالَ وَالشَّجَرَ وَالْأَشْيَاءَ عَلَى حَالِهَا ، وَصَارَتْ قِبَلَتُهُ إِلَى الْمِيزَابِ .

وَعَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرٍ مِنْ طَرِيقِ مَرْفُوعَا : مَا وَضَعْتُ قِبْلَةَ مَسْجِدِي هَذَا حَتَّى رُفِعَتْ إِلَى السَّكْعَةِ فَوَضَعْتُهَا أُؤْمِنُهَا ^(۱) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : وَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبْلَةَ مَسْجِدِهِ وَجَبْرِيلُ فَأَمَّا يَنْظُرُ إِلَى السَّكْعَةِ ، ثُمَّ كَشَفَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا .
وَعَنْ ابْنِ شِهَابٍ مَرْفُوعَا : مَا وَضَعْتُ قِبْلَةَ مَسْجِدِي هَذَا حَتَّى فَرَجَ لِي مَا بَيْنِي وَبَيْنَ السَّكْعَةِ فَوَضَعْتُهَا أُؤْمِنُهَا ^(۱) .

وَأَسْنَدُ الْعِرَاقِي فِي ذَيْلِهِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ شَاذَانَ بِسَنَدِهِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ دِينَارٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ قَالَ : قَالَ ابْنُ عَمْرٍو : وَضَعَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقِبْلَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ ، تَفَرَّدَ بِهِ عَنْ مَالِكٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ — قُلْتُ : وَهُوَ ثَقَّةٌ .

وَفِي الْعُتْبِيَّةِ : قَالَ مَالِكٌ : سَمِعْتُ أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الَّذِي أَقَامَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ ، انْتَهَى .

(۱) أُؤْمِنُهَا : أَقْصَدُهَا .

وأُسند ابن زبالة عن أبي هريرة قال : كانت قبلة النبي صلى الله عليه وسلم الشام ، وكان مُصَلَّاهُ الذي يصلى فيه بالناس إلى الشام في مسجده أن تضع موضع الأسطوان المخلَّق اليوم خَلْفَ ظَهْرِكَ ثم تَمْشِي إلى الشام ، حتى إذا كنت بيمين باب آل عثمان كانت قبلته ذلك الموضع .

قال الذهبي : هذه القبلة كانت في شمالى المسجد ، فلما حولت القبلة بَقِيَ حائط القبلة الأولى مكان أهل الصفة ، انتهى . والأسطوانة المخلَّقة هي التي تدعى أسطوان عائشة رضي الله عنها فيما قاله المطري ، وسيأتى ما نقله ابن زبالة فيها من أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى إليها المكتوبة بضعة عشر يوما بعد أن حولت القبلة ، ثم تقدم إلى مُصَلَّاهُ الذي وَجَّاه الحراب في الصف الأوسط ، هذا لفظه بحروفه .

وقوله : « وجاه الحراب » يريد الحراب العثماني الكائن في جدار القبلة .

وقال المطري : إن الحائط القبلي — أى الأول — كان مُحَاذِيَا لمصلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لما ورد أن الواقف في مُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكون رمانة المنبر الشريف حَذَوَ منكبه الأيمن ، قال : فمقام النبي صلى الله عليه وسلم لم يغير بانفاق ، وكذلك المنبر لم يؤخر عن منصبه الأول : أى من جهة القبلة ؛ لما سيأتى أنه زيدَ فيه من جهة الشام ، قال : وإنما جعل هذا الصندوق الذى قبالة مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سترة بين المقام وبين الأسطوانات ، انتهى .

وسيأتى في ذكر الجذع الذى كان يخطب النبي صلى الله عليه وسلم إليه اختلافٌ في محله : هل هو عن يمين المصلى الشريف أو عن يساره لجهة القبر الشريف ؟

وسيأتى ما عبر به ابن النجار في حكاية الرواية الأولى حيث قال : كان في موضع الأسطوانة المخلَّقة التي عن يمين محراب النبي صلى الله عليه وسلم عند الصندوق

والرواية الثانية هي المرادة بما أسنده يحيى عن ابن أبي الزناد وغيره من علماء المدينة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جذع في المسجد كان موضعه عند الأسطوانة المخلقة التي تلي القبر : أى في جهة القبر التي عن يسار الأسطوانة المخلقة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي عندها التي هي عند الصندوق ، هذا لفظه ، والغرض من إيرادنا هنا قوله : « التي عن يسار الأسطوانة المخلقة .. إلى آخره » فهذه الأسطوانة المشار إليها — أعني التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي إليها — هي التي عن يمين الواقف في المصلى الشريف من جهة القبلة ، وعلم أن وضع الصندوق هناك كان من الزمن القديم ، لكنه كان صندوق مصحف كما سيأتي ، ووصفها بالمخلقة لا بشكل عليك بما استمر من وصف أسطوانة المهاجرين — وهي أسطوانة عائشة — بالمخلقة ، فلو وصف بالمخلقة يطاق على أساطين متعددة كما سنوضحه ، ولهذا اشتمل هذا الكلام على وصف كل من هاتين الأسطوانتين بهذا الوصف .

ونقل المرجاني أن في العتبية ما لفظه : أَحَبُّ مواضع التنفل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مُصَلَّاه حيث العمود المخلق ، انتهى . وقال ابن القاسم : أَحَبُّ مواضع الصلاة في مسجده صلى الله عليه وسلم في النفل العمود المخلق ، وفي الفرض في الصف الأول ، قال ابن رشد : في كون العمود المخلق كان قبلة النبي صلى الله عليه وسلم أو أقرب إلى قبلته صلى الله عليه وسلم قول ابن القاسم وسماعه .

قلت : وهو دال على أن العمود المخلق هو الذي عند المصلى الشريف ، ولهذا رَوَى ابن وهب عن مالك أنه سئل عن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل له : أى المواضع أحب إليك الصلاة فيه ؟ قال : أما النافلة فموضع مصلاه ، وأما المكتوبة فأول الصفوف ، انتهى . فعبر هنا عن العمود المخلق بمُصَلَّاه . ورأيت في جامع العتبية من البيان لابن رشد ما لفظه : قال مالك : ليس العمود المخلق قبلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبلة النبي صلى الله عليه وسلم هو حذو قبلة الإمام ،

وإنما قدمت القبلة حَذْوَ قِبلة النبي صلى الله عليه وسلم سواء .
قال ابن رشد عقبه : وقد مر في كتاب الصلاة عن ابن القاسم أن مُصَلَّى
النبي صلى الله عليه وسلم هو العمود المخلَّق ، خلاف قول مالك هنا ، انتهى . وقول
مالك « وإنما قدمت القبلة » يشير به إلى الحراب الذي في جدار القبلة بزيادة عثمان
رضي الله عنه ، وهذا الذي ذكره يكاد أن يكون قَطْعِيًّا ، وليس مراد ابن القاسم
إلا أن العمود المخلَّق أقرب شيء إلى قبلة النبي صلى الله عليه وسلم فيعرف به ،
ولهذا نقل ابن النجار عن مالك ما يقتضي أن الأسطوانة المذكورة علم لمُصَلَّى
النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : قال مالك بن أنس : أرسل الحجاج
ابن يوسف إلى أمهات القرى بمصاحف ، فأرسل إلى المدينة بمصحف منها
كبير ، وكان في صندوق عن يمين الأسطوانة التي عملت علماً لمقام النبي صلى الله
عليه وسلم .

وقال ابن زبالة فيما سيأتي عنه : إن الخَيْرَانِ لما أمرت بأن تخلق المسجد
أشار عليهم إبراهيم بن الفضل فزادوا في خَلْق أسطوانة التوبة والأسطوان التي
هي علم عند مصلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فخلقوها حتى بلغوا بهما أسفلهما ، وزادوا
في الخَلْق في أعلاهما ، انتهى . وقد توهم جماعة أن المراد من كلام ابن القاسم ،
وما نقل عن مالك ، الأسطوانة المعروفة اليوم بالمحلقة ، وهي التي بأوسط الروضة ،
وهو مردود ؛ لأن الأسطوانة المذكورة ليست علماً على مصلى الرسول عليه السلام
اتفاقاً ، ومنشأ الوهم ظنهم اختصاصها بوصف المحلقة ، وممن اعتقد ذلك الحافظ
ابن حجر فقال في الكلام على قول يزيد بن عبيد « كنت آتى مع سلمة بن
الأكوع فيصلى عند الأسطوانة التي عند المصحف » ما لفظه : هذا دل على أنه
كان المصحف موضع خاص به ، ووقع عند مسلم بلفظ : يصلى وراء الصندوق ،
وكأنه كان للمصحف صندوق يوضع فيه ، قال : والأسطوانة المذكورة ختَقَ لنا
بعض مشايخنا أنها المتوسطة في الروضة ، وأنها تعرف بأسطوانة المهاجرين ،

وأُسرت بها عائشة لابن الزبير، ثم وجدت ذلك في تاريخ المدينة لابن النجار، وذكره قبله محمد بن الحسن في أخبار المدينة، هذا كلام الحافظ ابن حجر، ومراده بمحمد بن الحسن ابن زبالة، وليس في كلامه ولا في كلام ابن النجار ما يقتضى أن الأسطوانة التي عند الصندوق هي أسطوانة المهاجرين، إلا من حيث وصف كل منهما بالخلق، فتوهم اتحادهما، وليس كذلك، والله أعلم.

محراب المسجد النبوي، ومتى صنع؟

وسياتى أن المسجد الشريف لم يكن له محراب في عهده صلى الله عليه وسلم ولا في عهد الخلفاء بعده، وأن أول من أخذه عمر بن عبد العزيز في عمارة الوليد، نوزعهم الأقشهرى في روضته أن مصلى النبي صلى الله عليه وسلم في موضع الصندوق، وفي موضعه اليوم المحراب المرخم المرتفع عن المصلى الشريف وبنائه، فإنه قال ومن خطه نقلت: إنه قيل: إن منبر النبي صلى الله عليه وسلم لم يتغير تقدماً ولا تأخيراً؛ فالزيادة وقعت في المنبر شمالاً لا غير، وحد المنبر الأصلي اليوم مساوية مع مصلى الإمام، ومصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامه في موضع الصندوق اليوم فهو خارج عن حد المنبر، انتهى. واستنتج من ذلك أن يكون ما حاذى الصندوق يميناً ويسرة، قال: وهو بمازاده عمر روضة من رياض الجنة، قال: لأن المصلى الشريف روضة بلا شك، أى فما حاذاه كذلك، وهو عجيب لم أر من سبقه إليه، وما زعمه من أن حد المنبر - يعنى من القبلة - مساوٍ لمصلى الإمام اليوم، يريد به أن نهاية مصلى الإمام اليوم مساوية لنهاية المنبر من جهة القبلة، فإنه صور ذلك بخطه كما ذكرناه، وكأنه توهم أن مصلاه صلى الله عليه وسلم كان في محراب بارز عن سمت المسجد؛ لأنه جعل ما عن يمينه ويساره من زيادة عمر رضى الله عنه، ولم يقل به أحد، مع أن ما زعمه من الاستواء لا يشهد له عقل ولا نقل؛ لأن المنبر الذى كان في زمنه هو المنبر الذى كان في زمن المطرى، فإنهما متعاصران، وقد سبق عن المطرى في الفصل قبله أن بين المنبر والدرازين الذى

فی القبلة مقدار أربع أذرع وربع ، وأنه اتضح لنا صحة ما قاله ، وذلك هو محل المنبر النبوی كما سنوضحه ، وعرض الصندوق المذكور وما بعده إلى الدرازين المذكور ذراعان ونصف راجح ، والمنبر الذي أدركناه أولاً لم يكن بينه وبين الدرازين القبلي سوى ثلاثة أذرع ونصف راجحة ، ومع ذلك فخذ المنبر متأخر عن حد مصلى الإمام من جهة القبلة بنحو الذراع ، وعلى ما ذكره المطري - وهو الصواب - يكون متأخراً بأزيد من ذلك ، وذلك فيما يظهر هو القدر الوارد فيما كان بين المنبر والجدار القبلي ، وأوضح من ذلك في الرد عليه أن يحيى نقل في كتابه عن محمد بن يحيى صاحب مالک قال : وجدنا ذرعاً ما بين مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان بعهدہ إلى جدار القبلة اليوم الذي فيه الحراب عشرين ذراعاً وربعا ، وهذه هي الزيادة التي زیدت بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

قال المراغي : وقد اعتبرته من وجه ستره مصلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى جدار القبلة فكان كذلك ، وبه يظهر أن المصلى الشريف لم يغير عن مكانه ، وأن الصندوق إنما جعل في مكان الجدار الأول ، انتهى .

وقد اعتبرت ما ذكره من جدار المسجد القبلي إلى طرف المصلى الشريف المجاذي لطرف صندوق السترة ، فكان ذلك إحدى وعشرين ذراعاً ونصف^(۱) وربع يرجح قيراطاً ، فإذا أسقط من ذلك عرض الجدار - وهو ذراع ونصف راجح - كان الباقي عشرين ذراعاً وربعا كما ذكره يحيى ، وقد علمت أن الصندوق المذكور له أصل قديم هناك ، فكيف يكون في موضع المصلى الشريف ولا ينبه عليه أحد ؟ بل يذكرون ما يدل على خلافه ، بل كيف يمكنون من ذلك ، ويحرمون المسلمين التيمن بمكانه صلى الله عليه وسلم ؟ هذا مما يكاد العقل يُحيله .

(۱) الصواب عربية أن يقول «ونصفاً وربعاً يرجح قيراطاً» .

وقال النووي في مناسكه مالفظه : وفي إحياء علوم الدين أنه - أى المصلى - يجعل عود المنبر حذاء منكبه الأيمن ، ويستقبل السارية التى إلى جانبها الصندوق ، وتكون الدائرة التى فى قبلة المسجد بين عينيه ، فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

قلت : وكأن المراد من استقبال السارية المذكورة جعلها عن جهة اليمين كما عليه وضع المصلى اليوم . وقد ذكر ابن زبالة هذه الأسطوانة ثم قال : حدثني إبراهيم بن محمد عن غير واحد منهم خارجة بن عبد الله بن كعب بن مالك قال : إذا عدلت عنها - أى عن الأسطوانة المذكورة - قليلاً وجعلت الجزعة التى فى المقام بين عينيك والرمانة التى فى المنبر إلى شحمة أذنك قمت فى مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأن الرمانة المذكورة كانت فى أعلى عمود المنبر النبوى ، ولذا عبر به فى الإحياء .

وسياتى أنه لما حفر بعد الحريق الثانى لتأسيس المنبر الرخام وجدوا محل المنبر الأصلى شبه حوض من حجر ، وفى جانبيه من المشرق والمغرب فرضتان منقورتان فى الحجر بهما شئ من الرصاص بحيث لا ينحفي على من أحاط علماً بصفة المنبر النبوى أنهما محل عموديه كانا محكمين بالرصاص فيهما ، وقد وقعت فى المصلى الشريف مما يلي مؤخره ، وتأملت الفرضة التى مما تلى الروضة فوجدتها فى محاذة يمينى ، فظهر أنها المرادة .

وأما الجزعة فذكر المطرى أن هذه الجزعة كانت فى الحراب القبلى المقابل للمصلى الشريف ، وأنها أزيلت منه ، قال : وما حققه الغزالي عند ذكر المصلى الشريف بقوله « إذا وقف المصلى فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم تكون رمانة المنبر حذو منكبه الأيمن ويجعل الجزعة التى فى القبلة بين عينيه فيكون واقفاً فى مصلى النبى صلى الله عليه وسلم إنما كان قبل حريق المسجد ، وقبل أن يجعل هذا

اللوح القائم في قبلة مصلى النبي صلى الله عليه وسلم : أى فإنه صار يحجب عن مشاهدة ما في الحراب القبلى ، قال : وإنما جعل بعد حريق المسجد ، قال : وكان يحصل بتلك الجزعة فتنة كبيرة وتشويش على من يكون بالروضة الشريفة من المجاورين وغيرهم .

وذلك أنه كان يجتمع إليها الرجال والنساء ، ويقال : هذه خرزة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت عالية لا تُنال بالأيدى ، فتقف المرأة لصاحبته حتى ترقى على ظهرها وكتفها حتى تصل إليها ، وربما وقعت المرأة وانكشفت عورتها ، وربما وقعتا معا .

فلما كان سنة إحدى وسبعمئة جاور صاحبُ زينُ الدين أحمد بن محمد المعروف بابن حنا المصرى ، فرأى ذلك ، فاستعظمه وأمر بقلع الجزعة ، فقلعت ، قال : وهى الآن فى حاصل الحرم ، ثم توجه إلى مكة فى أثناء السنة فرأى أيضاً ما يقع من الفتنة عند دخول البيت الحرام ، وتعلق الناس بعضهم ببعض ، وتحمل النساء على أعناق الرجال للاستمسك بالعروة الوثقى فى زعمهم ، فأمر بقلع ذلك المثل ، وزالت تلك البدعة أيضاً ، والله الحمد .

قلت : والظاهر أن هذه الجزعة هى التى ذكرها ابن جُبَيْر فى رحلته فى سنة ثمان وسبعين وخمسائة لما قدم المدينة ، قال : رأيت على الحراب مسماراً مُثبتاً فى جداره فيه شُبُه حُقَّ صغير لا يعرف من أى شىء هو يزعمون أنه كناس كسرى ، وشاهدت على رأس الحراب حجراً مربعاً أصفر قدر شبر فى شبر ظاهر البريق والبصيص ، يقال : إنه مرآة كسرى ، والله أعلم بحقيقة ذلك كله ، انتهى .

ثم رأيت فى العِقْدِ لابن عبد ربه - وهو أقدم من ابن جُبَيْر - أن على ترس يعنى الحراب العثمانى فضة ثابتة غليظة فى وسطها مرآة مربعة ذكر أنها كانت لعائشة

رضي الله عنها ، ثم فوقه إزار رخام فيه نقوش صفائح ذهب مثمثة فيها جزعة مثل
جمجمة الصبي الصغير مسمرة ، ثم تحتها إلى الأرض إزار رخام مُخَنَّقٌ بِالْخُلُوقِ فِيهِ
الْوَتْدُ الَّذِي كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ فِي الْحَرَابِ الْأَوَّلِ ، انتهى

قلت : وقد سألت عن هذه الجزعة المتولَّى لأمر حاصل الحرم الشريف
وخازِنَ دارِهِ - وكان قديم الهجرة - وغيرهما ، فقالوا : إنه ليس عندهم بالحاصل شيءٌ
من ذلك ، ولعل ذلك ذهب فيما أخذه الأمير جواز عند كسر حاصل الحرم الشريف ،
وقد وسع المحراب القبلي عما كان عليه وزيد في طوله بعد هدم الجدار القبلي
بعد الحريق الثاني

وقال ابن زبالة : إن ذَرَعَ ما بين المنبر ومقام النبي صلى الله عليه وسلم الذي
كان يصلي فيه حتى توفي صلى الله عليه وسلم أربعة عشر ذراعاً وشبراً
قلت : وقد ذَرَعْتُ ما بين المنبر الموجود قبل الحريق الثاني وأعلى الحفرة الذي
ينزل منه إلى درجتها من ناحية مؤخر المصلى الشريف ، فكان أربعة عشر ذراعاً ،
وعرض الدرجة شبر راجح ؛ فصح ذلك ، وأما حده من جهة المشرق فسيأتي أن
جعله على هذه الهيئة الموجودة اليوم أمر حادث

وقد قال ابن زبالة : إن ذَرَعَ ما بين مُصَلَّى النبي صلى الله عليه وسلم من
مسجده الأول وبين أسطوان التوبة سبع عشرة ذراعاً ، وأسطوان التوبة في جهة
المشرق ، وقد ذَرَعْتُ ما بينها وبين درجة الحفرة الشرقية فكانت ست عشرة
ذراعاً ، فعلمنا بذلك أن المصلى الشريف في جانب الحفرة الغربي ، وأن ما يلي
المشرق منها ليس منه ، ويشهد له ما سبق من كلام مالك والإحياء لذكرهما السارية
التي عندها الصندوق ، بل في خط الأقبشهرى في مصنفه في الزيادة ضبط قول ابن
زبالة فيما بين المصلى الشريف وأسطوان التوبة تسع عشرة ذراعاً - بتقديم التاء
على السين - وقد ذرعت ما بين طرف أسطوان التوبة الشرقى وبين طرف الحفرة

الغربي فكان كذلك

ونقل الأقتسهرى أيضا عن أنى غسان أحد أصحاب مالك أن ما بين الحجرة الشريفة ومقام النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يقوم فيه ثمانية وثلاثون ذراعا ، وأن ما بينه وبين المنبر الشريف مثل ما سبق عن ابن زبالة ، وقد اختبرت ما بين طرف الحفرة الغربي ورُخَام جدار الحجرة الشريفة فكان ثمانية وثلاثين ذراعا ، فعلمنا أن المحافظَ عليه في حد المصلى الشريف هو طرف الحفرة الغربي ، ولم تكن هذه الحفرة في الزمن القديم ، ولهذا قال المجد : حكى ابن النجار الإجماع على أن المصلى الشريف لم يغير بتقديم وتأخير ، وإنما غيرت هيئته في هذا العصر الأخير بجعل المصلى شبه حفير أو حوض صغير منخفض عن موقف المأمومين نحو ذراع بسبب ترخيمه وتكاثر الرمل المقروش به الروضة

قلت : وهو الآن شبه حوض مربع ينزل إليه بدرجة طوله ذراعان ونصف وثمان ، وعرضه ذراعان ونصف ونصف ثمن ، لكن زاد وافي طوله في العمارة الحادثة بعد الحريق أرجح من نصف ثمن ذراع ونحوه في العرض

قال البدر ابن فرحون وغيره : وما زال العلماء الأئمة يتحَرَّجون من ذلك ، وفي أيام القاضي السراج - وهو أول قاضٍ ولي لأهل السنة - فمن بعده كانت ترفع تلك الحفيرة بالرمل حتى تزول الكراهة ، إلى أيام الشرف الأسيوطي ، فأراد طمس الحفرة أو رفعها وإزالة الخشب المنقوش أمامها الآتي ذكره ، فقام عليه بعض الناس من الخدام ، واستعانوا عليه بالأشراف ، فكف وانتقل عن المحراب ، وصار يصلى إلى الأسطوانة التي تقابل أسطوانة الوفود - أى من مقدم الروضة - ولزمها إلى أن مات ، وصار من الفقهاء من يرفع الكراهة بما يحصل من القرب إلى مقامه صلى الله عليه وسلم وموضع قدمه ، وهذه نزغة ؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الموقف سواء ، فمن خالف سنته بالهوى فقد غوى

قلت : وهذه الحفرة بعيدة من موقف النبي صلى الله عليه وسلم لعلو الأرض ؛ لما سيأتى عن البدر ابن فرحون أنهم وجدوا عند تجديد المنارة التى بباب السلام باب مروان وتحصيب المسجد الشريف القديم بعد حفر قامة ، ولما اتضح لنا فى العمارة الآتى ذكرها ؛ فقد اعتبرت أرض الحجرة الشريفة وأرض المسجد ، فكان بينهما من التفاوت ذراعان ونصف وأزيد ، لكن مقتضى ما ظهر من الرخام الذى وصفه ابن زبالة حول المنبر ومشاهدتنا لما انكشف منه فيما بين المنبر والأساطين التى خلفه عدم بعض أرض هذه الحفرة من محل الموقف الشريف فى ذلك العصر ؛ لأن نسبة ما بين هذه الحفرة والرخام المذكور أقل من نصف ذراع ، وقد حققت مسألة انخفاض المصلى الشريف فى كتابي الموسوم « بكشف الجلباب والحجاب عن القدوة فى الشباك والرحاب » ولم يتحرر لى ابتداء ترخيم المصلى الشريف وجعله على هذه الهيئة ، وسماه ابن جبير فى رحلته بالروضة الصغيرة ، وقال : إن الإمام يصلى بالروضة الصغيرة المذكورة إلى جانبها الصندوق ، وقال قبل ذلك فى وصفها : وبازائها الجهة القبلة عمود مطبق يقال : إنه على بقية الجذع الذى حنّ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى حافتها فى القبلة منها الصندوق ، انتهى .

ولم يذكر فيها ترخيم ولا انخفاضاً ، مع ذكره لذلك فى المحل الذى عليه المنبر كما سيأتى ، والظاهر أن حدوث انخفاض المصلى الشريف بما حوله تجدد بعد الحريق الأول ، وقد اقتضى رأى متولى العمارة الحادثة بعد الحريق الثانى أن يخفض أرض المسجد حتى تكون مساوية للمصلى الشريف ، فقطع من الأرض نحو ذراع ؛ فكانوا يجدون طبقة من التراب ، وتليها طبقة من الرمل ، حتى وصلوا إلى الأرض المساوية للمصلى الشريف ، وظهر لهم الرخام الذى كان عليه المنبر الشريف بعد حفر نحو نصف ذراع ، وحصل بذلك إزالة هذه البدعة ، والله الحمد والمنة .

وكان فى قبلة المصلى الشريف صندوق خشب بديع الصنعة يعلوه محراب قد

أُمتج الصنّاع فيه نتائج مبدعة من صنعة النجارة ، والمحرابُ المذكور شبه باب نقنطر لموضع لطيف على ظهر الصندوق المذكور مكتوب في داخله أمام مُسْتَقْبِلِهِ بعد البسملة آية الكرسي^(١) ، وعلى ظاهر الباب النقنطر بعد البسملة « قد نَرَى تَقَلُّبَ وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها^(٢) » الآية ، وفيه صنعة عجيبة وصبغ باللأز وَرْدٍ وتذهيبٌ عجيب يشغل الخاطر ، ويفرق القلب الحاضر ؛ إذ لا قلب أجمع وأعلى وأرفع من قلب سيد الأنام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، وقد قال في شأن الخميصة من أجل تلك الأعلام « اذهبوا بخميصتي^(٣) هذه إلى أبي جهنم واثبتوني بأنبجانية أبي جهنم ، فإنها ألهتنى آثفا عن صلاتي » وسيأتى أنه لما قال عمر بن عبد العزيز بعد زخرفة المسجد لعمر بن عثمان رضى الله عنه : بناؤنا أحسن أم بناؤكم ؟ فقال له : بنيناه بناء المساجد ، وبنيتموه بناء الكنائس

وقال مالك فيما نقله عنه صاحب التبصرة : كره الناس ما فعل في قبلة المسجد بالمدينة من التزاويق ؛ لأنه يشغل الناس في صلاتهم ، وأرى أن يُزال كل ما يشغل الناس عن الصلاة ، وإن عَظُمَ ما كان أنفق فيه فالله تعالى يبعث لهذا المصلي الشريف مَنْ يزيل عنه هذه الزخارف ويسويه كما كان في زمن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقد أذعم^(٤) هذا المحراب الخشبي من ورائه بدعامة شبه التاج العظيم حتى اتصل بالدرازين الذي بين الأساطين في قبلة الروضة ، وبرز عنها ، وجعل في أعلاه وعن يمينه وشماله مع امتداد الروضة مغازز لفرخات القناديل المسماة بالبراقات تسرج في ليالى الزيارات ، وفي داخله كسوة جليلة من الحرير من جنس كسوة الحُجْرة الشريفة ذات طراز منسوج ، وقد احترق ذلك كله في الحريق الثانى الآتى ذكره ، وذلك بعد تمام هذا التأليف ، فاقتضى رأى متولى العمارة الحادثة بعد ذلك إبداله بمحراب مُرَحَّمٍ في دعامة تبنى في محل الصندوق المذكور ، فحفروا هناك

(١) هي الآية ٢٥٥ من سورة البقرة (٢) من سورة البقرة من الآية ١٤٤ .

(٣) الخميصة : ثوب مخطط من خز أو صوف ، وقيل : الأسود المخطط خاصة .

(٤) في المطبوعات «وقد أوهم» تطبيع .

لأساسها نحو القامة ، فوجدوا هناك قبرا بدا لحدده مسدودا باللبن أخرجوا منه بعض العظام ، ووجدوا الأقدمين لما أسسوا الأسطوانة التي عنده حرقوا أساسها عنه قليلا ، فتركوه على حاله ، وأسسوا المحراب المذكور ، ورخموه بالرخام الملون ترخيمًا بديعًا فيه صبغ ذهبي وعيبره ، وهو أبهى منظرا من الأول ، وجهلوا أرض المحراب المذكور مرتفعة قليلا على المصلى الشريف ؛ لأنه إنما جعل في محل الصندوق الذي كان أمام المصلى الشريف ، فليتنبه لذلك ، والله أعلم .

تنبيهات — الأول : قال البخارى فى صحيحه « باب قدركم ينبغى أن يكون بين المصلى والسترة » ثم روى عن سهل بن سعد قال : كان بين مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الجدار ممر الشاة ، ثم روى عن سلمة — يعنى ابن الأكوع — قال : كان جدار المسجد عند المنبر ما كادت الشاة ، تجوزها : أى المسافة ، وهى ما بين المنبر والجدار ، وقوله فى الحديث الأول « كان بين مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى مقامه فى صلاته ، وكذا هو فى رواية أبى داود ، وقوله « وبين الجدار » أى جدار المسجد مما يلى القبلة كما صرح به من طريق ابن غسان فى الاعتصام ، ومنه يعلم ما فى قول النووى فى شرح مسلم : يعنى بالمصلى موضع السجود ، والحديث الثانى رواه الإسماعيلى بلفظ : كان المنبر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بينه وبين حائط القبلة إلا قدر ما تمر العنز . قال الكرمانى فى بيان مطابقته للتبويب : إن ذلك من حيث إنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم بجانب المنبر : أى ولم يكن لمسجده محراب ، فيكون مسافة ما بينه وبين الجدار نظير ما بين المنبر والجدار ، فكأنه قال : الذى ينبغى أن يكون بين المصلى وسترته قدر ما كان بين منبره صلى الله عليه وسلم وجدار القبلة

قلت : وكأن الكرمانى بنى ذلك على ما عهده فى غالب المساجد من أن مصلى الإمام يكون إلى جانب المنبر ، وقد تقدم بيان ما بينهما من المسافة وحكاية الإجماع على أنه لم يغير ، وأيضا فلا يلزم من كونه صلى الله عليه وسلم كان يصلى

إلى جانب المنبر أن يكون بينه وبين الجدار نظير ما بين المنبر والجدار كما لا يخفى، وأوضح مما ذكره — كما قال الحافظ ابن حجر — ما ذكره ابن رشد من أن البخارى أشار إلى حديث سعد بن سهل الذى فى باب الصلاة على المنبر فإن فيه أنه صلى الله عليه وسلم « قام على المنبر حين عمل ، وصلى عليه » فاقضى ذلك أن ما بين المنبر والجدار يؤخذ منه موضع قيام المصلى .

قلت : لكن يلزم من ذلك التأخر عند السجود ؛ لأن ذلك المقدار لا يتأتى فيه السجود ، وقد ثبت رجوعه صلى الله عليه وسلم القهقرى^(۱) من أجل السجود لما صلى على المنبر لعدم تأتیه عليه .

وقال ابن بطلال : هذا أقل ما يكون بين المصلى وسترته ، يعنى قدر ممر الشاة ، وقيل : أقل ذلك ثلاثة أذرع ؛ لحديث بلال أن النبى صلى الله عليه وسلم « صلى فى الكعبة وبينه وبين الجدار ثلاثة أذرع » كما فى الصحيح ، وجمع الداودى بأن أقله ممر الشاة ، وأكثره ثلاثة أذرع ، وجمع بعضهم بأن الأول فى حال القيام والقعود ، والثانى فى حال الركوع والسجود ، قاله الحافظ ابن حجر .

قلت : ويلزمه التأخر عن موقفه الأول عندهما كما قدمناه ، وهو متعين ؛ إذ لا يتأتى السجود فى أقل من ثلاثة أذرع ، ولهذا كان حريم المصلى الذى يكون بينه وبين سترته ثلاثة أذرع عندنا .

وقال ابن الصلاح : قدروا ممر الشاة بثلاث أذرع^(۲) .

قال الحافظ ابن حجر : ولا يخفى ما فيه .

قلت : الظاهر أن البخارى إنما أورد حديث سلمة المشتمل على بيان ما بين المنبر والجدار ليستدل به على مقدار ممر الشاة ، فإن ما بينهما كان معلوما عندهم ، وقد تقدم عن العتبية أنه كان بينهما قدر ما يمر الرجل منعرجا ، والذى يقتضى حمل

(۱) رجع القهقرى : أى إلى خلف .

(۲) هذا نوع آخر من الجمع بين حديث ممر العنز وحديث ثلاث الأذرع وملخصه أن العبارتين مترادفتان ، لكنه ليس بمسلم ، كما أشار إليه ابن حجر ، وأوضحه المؤلف بعده .

ابن الصلاح ممر الشاة على ما ذكره أن ذلك هو القدر الذي يتأتى فيه السجود مع الاستمرار في الموقف .

وقد قال البغوى : استحبَّ أهلُ العلمِ الدُّنُوَّ من السترة بحيث يكون بينه وبينها قدر إمكان السجود ، وكذلك بين الصفوف ، وقد ورد الأمر بالدنو من السترة مع بيان حكمة ذلك ، وهو ما رواه أبو داود وغيره مرفوعاً : « إذا صلى أحدكم إلى سترة فليدن منها لا يقطع ^(۱) الشيطان عليه صلاته » ، قال الحافظ ابن حجر : وهو حديث حسن ، والله أعلم .

التنبیه الثانی — فی العود الذى كان فى المصلّى الشريف .

روينا فى كتاب يحيى عن مصعب بن ثابت قال : طلبنا علم العود الذى كان فى مقام النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم نقدر على أحد يذكر لنا فيه شيئاً ، قال مصعب : حتى أخبرنى محمد بن مسلم بن السائب صاحب المقصورة قال : جلس إلى أنس بن مالك ، فقال : تدرى لم صنِّعَ هذا العود ؟ وما أسأله عنه ، فقلت : لا والله ما أدرى لم صنع ، فقال أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع عليه يمينه ثم يلتفت إلينا فيقول : استَوُوا ، واعدلوا صفوفكم .

وعن أنس بن مالك قال : لما سُرِقَ العود الذى كان فى الحراب فلم يجده أبو بكر حتى وجده عمر رضى الله عنهما عند رجل من الأنصار بقبأ قد دُفِنَ فى الأرض أكلته الأرضة ، فأخذ له عوداً ، فشقه فأدخله فيه ، ثم شَعَبَهُ ^(۲) ، فردّه فى الجدار ، وهو العود الذى وضعه عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى القبلة ، وهو الذى فى الحراب اليوم باقٍ فيه .

وعند أبى داود عن محمد بن أسلم صاحب المقصورة قال : صَلَّيْتُ إلى جنب أنس بن مالك يوماً فقال : هل تدرى لم صنع هذا العود ؟ فقلت : لا والله ،

(۱) يقطعها بالمرور فى المكان المتروك ، أو يحمل من يمر فيها فيكون مروره قاطعاً للصلاة .

(۲) شعبه : أصلحه .

قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليه فيقول : « استووا واعدلوا صفوفكم » .

قلت : سيأتى فى الكلام على الجذع أن الأسطوانة المتقدم ذكرها التى هى علم المصلّى الشريف كان بها خشبة ظاهرة محكمة بالرصاص ، يقول الناس : إنها من الجذع الذى حَنَّ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأن المطرى قال : إن الأمر ليس كذلك ، وإن العز ابن جماعة أمر بإزالتها ، فأزيلت عام خمس وخمسين وسبعائة .

قال المجد : ورأى بعض العلماء أن إزالتها كانت وهما منهما ، وذلك أن إتقان هذه الخشبة ، وترصيصها بين حجارة الأسطوان وإبرازها لم يكن سُدًى^(١) ، وإنما شاهد الحال يشهد بأنه كان من عمل عمر بن عبد العزيز ؛ فالظاهر أنه كان من الجذع .

قلت : بل الظاهر أنها ليست منه ؛ إذ لم ينقل بقاء شئ منه ، بل الظاهر أنها من هذا العود المذكور ؛ لما قدمناه فيه ، ولما سيأتى عن ابن النجار .

وقول الزينى المراغى : « إن احتمال ذلك كان يمكن تسليمه قبل حريق المسجد ، أما بعده فمردود ؛ لأنه بقى من حريق المسجد بقايا خشب كثيرة كما سنحققه » .

وقول المؤرخين : « إنه لم يبق ولا خشبة واحدة » مردود ؛ فقد شاهدت عند إزالة هدم الحريق من الحجرة الشريفة ما لا يحصى من أطراف الخشب المحترق ، حتى ميزاب الحجرة الشريفة رأيت من عَرَعَر^(٢) فيما أظن احترق بعضه وبقى منه قَدْرُ الذراع ، وأخذ الناس كثيراً من تلك الأخشاب ، واتخذ متولى العمارة وغيره منها سُبْحاً كثيرة ، وعبارة ابن النجار صريحة فيما ذكرناه من كون العود المذكور كان بالأسطوانة المذكورة ، فإنه ترجم عليه بقوله : « ذكر العود الذى

(١) لم يكن سدى : أى لم يكن بغير سبب ، وفى بعض النسخ « لم يكن أسداً » تحريف ، وفى المطبوعات « لم يكن سداً » خطأ فى الكتابة .

(٢) العرعر - بفتح العينين وسكون الراء بينهما - شجر السرو ، وذكر المجد أنها فارسية .

في الأسطوانة التي عن يمين القبلة » ، ثم روى عن أهل السير خبر مُصَتَّب بن ثابت المتقدم .

وشيوعُ أن تلك الخشبة من الجذع قديم ، فقد قال ابن جُبَيْر في رحلته : إن بإزاء الروضة — يعنى المصلى الشريف منها — لجهة القبلة عمودا مطبقا يقال : أنه على بقية الجذع الذي حَنَّ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقطعة منه وسط العمود ظاهرة يقبلها الناس ويبادرون للتبرك بلمسها ومسح خدودهم فيها ، وعلى حافتها في القبلة منها الصندوق ، انتهى .

واستفيد منه أيضا أن وضع الصندوق هناك كان قبل حريق المسجد في زمنه ، وسبب الشيوع المذكور في تلك الخشبة ما سيأتى من أن الجذع كان قريبا من محل الأسطوانة المذكورة ؛ فالظاهر أن الخشبة المذكورة كانت قريبا منه في الجدار ، فجمعت في تلك الأسطوانة لقربها من المحل الأول ؛ فقد روى يحيى أيضا عن أنس ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يَسْتَمْسِكُ بعود كان في القبلة ، ثم يلتفت عن يمينه وعن شماله ، فإذا استوت الصفوف كبر » .

وروى ابن زبالة عن عمرو بن مسلم قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم حين أَسَنَّ قد جُعِلَ له العود الذي في المقام ، إذا قام في الصلاة توكأ عليه ، قال : ثم ألصق إليه عود معه ، وروى أيضا هو ويحيى من طريقه عن مسلم بن خباب قال : لما قدم عمر رضي الله عنه القبلة فَقَدَ العود الذي كان مغروسا في الجدار ، فطلبوه ، فذُكِرَ لهم أنه في مسجد بني عمرو بن عَوْفٍ أخذوه فجعلوه في مسجدهم ، فأخذه عمر فردّه إلى المحراب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة أمسكه بكفه يعتمد عليه ، ثم يلتفت في شقه الأيمن فيقول : عَدَّلُوا صفوفكم ، ثم يلتفت إلى الأيسر فيقول مثل ذلك ، ثم يكبر للصلاة ، وذلك العود من طَرَفَاءِ الغابة ^(١) .

(١) الطرفاء : اسم لأربعة أنواع من الشجر : أولها الأثل ، وواحدته طرفاء ، وطرفة ، وبها لقب طرفة بن العبد البكري ، وفي الشعراء أربعة غيره سموها بهذا الاسم .

التنبیه الثالث — أسند یحیی عقب ما تقدم عن ابن عباس قال : كنت أرى
صفحة خذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الیمنی فی مسجده یتّیامن .
وعن عروة : كان الزبیر بن العوام وأناس من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم یتّیامنون ویقولون : إن البیت تهامی ، قال یحیی : وسمعت غسیر واحد
من مشایخنا ممن یقتدی به یقول : المنبر علی القبلة .

هل مصلاه
صلى الله
عليه وسلم على
عين القبلة أو
جهتها ؟

قلت : لعل ما ذكره من التیامن فی غیر المصلی الشریف ، والذي ذكره
أصحابنا أنه لا یجتهد فی محراب النبی صلى الله عليه وسلم لأنه صواب قطعاً ؛ إذ
لا یقرّ علی خطأ ؛ فلا مجال للاجتهاد فیہ حتی لا یجتهد فی الیمنة والبصرة ، بخلاف
محارِب المسلمین ، سیمّا وقد تقدم أنه وضعه وجبریل يؤمُّ به البیت ، والمراد بمحارِب
صلى الله عليه وسلم مكان مُصَلّاه ، فإنه لم یكن فی زمنه صلى الله عليه وسلم محراب ،
نعم إن ثبت تيامنه صلى الله عليه وسلم فی مكان مصلاه فما نقله متجه ، ویؤیدہ
أن الدكة التي ظهرت فی محل المنبر ووجد فیها آثار قوائم المنبر النبوی كما سیأتی
متیامنة ، ولذا حرّضت علی بقائها علی ما وجدت علیہ فبقیت علی حالها ، إلا أنهم
وضعوا المنبر علیها غیر متیامن فصار محرفاً عنها ، وعبارة النووی فی التحقيق :
وكل موضع صلى فیہ رسول الله صلى الله عليه وسلم وضبط موقفه تعین ، ولا یجتهد
فیہ بقیامن ولا تیاسر ، انتهى .

وقال الشیخ محب الدین الطبری فی شرح التنبیه ، ومن خطه نقلت : إن
قلیل محرابه صلى الله عليه وسلم علی عین الكعبة ؛ إذ لا یجوز فیہ الخطأ ، فیلزم
مما قلتم أنه لا یصح صلاة من بیئنه وبیئنه من أحد جانبیه أكثر من سمت
الكعبة إلا مع الانحراف .

قلنا : من أين لكم أنه علی یمین الكعبة ؟ فیجوز أن یكون ذلك ولا خطأ
بناء علی أن الفرض^(۱) الجهة ، نعم إن روى فی الصحیح أنه نصب علی العین فنقول :

(۱) یرید أن فرض الاستقبال فی الصلاة هو جهة القبلة ، وهو قول من أقوال
معتبرة للفقهاء ، والثانی أن الفرض هو عین القبلة ، والثالث الفرق بین من یصلی
عند الكعبة یتعین علیہ الاتجاه إلى عینها ، ومن یصلی بعیداً ففرضه جهتها

مقتضى الدليل ما ذكرتموه على القولين ، أما على العين فظاهر ، وأما على الجهة فإنما ذلك عند عدم المشاهدة ، وهذا المحراب منزل منزلة الكعبة فشاهد كمشاهداتها ، إلا أن إجماع الصحابة رضى الله عنهم على بناء مسجد النبي صلى الله عليه وسلم واسعاً وصلاتهم في أقطاره من غير أن ينقل الانحراف عنهم دليل على طرد حكم البعد في كل مكان ، سواء تحقق صوب عين الكعبة أم لا ، توسعة وتعميماً للحكم ، وتحقيقاً للقول بأن فرض البعيد هو الجهة مطلقاً ، ولا أعلم أحداً تكلم في هذه المسألة ، والظاهر فيها ما ذكرته ، انتهى .

وفيه نظر ، بل صلاة مَنْ بينه وبين المصلى الشريف أكثر من سمت الكعبة صحيح ، واعتبار العين من غير انحراف لما تقرر من أن المسامحة تصدق مع البعد، ألا ترى أن الدائرة إذا عظمت اتسعت الخطوط فيسامت الخط الخارج من جبين المصلى الكعبة ظناً ، وهو المكلف به في البعد ، نعم هذا يقتضى جواز الاجتهاد بالتيامن والτίαςر لمن بينه وبين المصلى الشريف أكثر من سمت الكعبة إلا أن ينقل عدمه عن الصحابة في زمنه صلى الله عليه وسلم مع إقراره صلى الله عليه وسلم لهم على ذلك ، والله أعلم .

قد تم — بمعونة الله تعالى وحسن توفيقه — الجزء الأول من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى » تأليف العلامة المحقق ، والمؤرخ المدقق ، نور الدين على السمعوري ، أحد علماء القرن العاشر الهجري ، ويليه — إن شاء الله تعالى — الجزء الثاني منه ، وأوله « الفصل الرابع ، في خبر الجذع الذي كان يخطب إليه النبي صلى الله عليه وسلم — إلخ » نسأل الله الذي بيده تتم الصالحات أن يعين على إكماله ، بمنه وفضله ؛ إنه لامعين سواء ، ولا يوفق للخير غيره .

وَقَاءُ الْوَقَا

بأخبار دار المصطفى

تأليف

نور الدين علي بن أحمد السمهودي
المتوفى في عام ٩١١ من الهجرة

حَقَّقَهُ ، وَفَصَّلَهُ ، وَعَلَّقَ حَوَاشِيَهُ

محمد مجي الدين بن عبد الحميد

عفا الله تعالى عنه !

الجزء الثاني

الطبعة الأولى

في سنة ١٣٧٣ من الهجرة — ١٩٥٤ من الميلاد

الطبعة الثانية

١٣٩٣ هـ ١٩٧١ م

يطلب من دار احياء التراث العربي - بيروت

الحمد لله الذى اختار رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من أطيب الارومات ،
والصلاة والسلام الأتمنان الأكملاَن على أشرف الكائنات ، وعلى آله وصحبه
الذين فدَوْهُ بالأنفُس والأموال والآباء والأمهات . وعلى مَنْ اتبعه واتبعهم
بإحسانٍ إلى يوم الدين .

الفصل الرابع

الروایات
فی حنین
الجدع

فی خبر الجَدْع الذی کان یخطب إلیه صلی اللہ علیہ وسلم
واتخاذہ المنبر ، وما اتفق فیہ ، وما جعل بدّ له بعد الحریق ، واتخاذہ الکسوة له
روینا فی صحیح البخاری عن ابن عمر قال : کان النبی صلی اللہ علیہ وسلم
یخطُبُ إلی جَدْعٍ ، فلما اتخذ المنبرَ تحول إلیه ، فحنَّ الجَدْعُ ، فأتاه فمسح یدہ علیہ
وفیہ عن جابر أن النبی صلی اللہ علیہ وسلم « کان یقومُ یومَ الجمعة إلی شجرة
أو نخلة ، فقالت امرأة من الأنصار ، أوجُل : یا رسول اللہ ، ألا نجعل لك منبرا ؟
قال : إن شئتم ، فجعلوا له منبرا ، فلما کان یوم الجمعة رفع إلی المنبر ، فصاحت النخلة
صیاح الصبی ، ثم نزل رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم ، فضمَّه إلیه وهو یئنُّ أنینَ
الصبی الذی یسکن ، قال : كانت تبکی علی ما كانت تسمع من الذکر عندها .
وفیہ أيضا عنه : کان المسجد مستقوفا علی جُدوع من نخل ، فكان النبی
صلی اللہ علیہ وسلم إذا خطب یقوم إلی جَدْع منها ، فلما صُنِعَ له المنبر فكان علیہ
فسمعنا لذلك الجَدْع صوتا کصوت ^(۱) العِشار ، الحدیث .

وعند النسائی فی الکبری عن جابر : اضطربت تلك الساریة کحنین الناقة
انخلُوج : أی التی انتزع ولدها منها
وعند ابن خزيمة عن أنس : فحنَّت الخشبة حنین الوالده ^(۲) .

وفی روايته الأخری عند الدارمی : خَار ^(۳) ذلك الجَدْع کخوار الثور .
وفی حدیث أبی بن کعب عند أحمد والدارمی وابن ماجه : فلما جاوزہ خار
الجدع حتی تصدع وانشق .
وفی حدیثه : فأخذ أبی بن کعب ذلك الجَدْع لما هدم المسجد فلم یزل عنده
حتى بلی وعاد رُفَاتا ^(۴) .

(۱) العِشار : جمع عِشراء - بضم العین وفتح الشین - وهی الناقة الحامل ،
وفی القرآن الکریم : (وإذا العِشار عطلت) .

(۲) الوالده : وصف من الوله ، وهو ذهاب العقل حيرة من عشق أو حزن أو نحوهما .

(۳) خار : صوت . / (۴) عاد : صار ، والرفات - بضم الراء - الهشيم .

وفي حديث أبي سعيد عند الدارمی : فأمر به أن يُحْفَرَ له وَيُدْفَنَ ، وسيأتي أحاديث بذلك ، ولا تنافي بين ذلك ؛ لاحتمال أن يكون ظَهَرَ بعد الهدم عند التنظيف ، فأخذه أبي بن كعب .

وقال أبو اليمین بن عساكر في تحفته : وفي رواية فلما جلس عليه أي المنبر حنت الخشبة حنين الناقة على ولدها ، حتى نزل النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها ، فلما كان من الغد رأيته قد حُوِّلتُ ، فقلنا : ما هذا ؟ قال : جاء النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فحولوها ، انتهى .

وفي مسند الدارمی من حديث بريدة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب قام فأطال القيام ، فكان يَشُقُّ عليه قيامه ، فأتى بجذع نخلة ، فحفر له وأقيم إلى جنبه قائماً للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب فطال القيام عليه استند فأتى كى عليه ، فبصر به رجل كان ورَدَ المدينة فرآه قائماً إلى جنب ذلك الجذع ، فقال لمن يليه من الناس : لو أعلم أن محمداً يحمدي في شيء يرفق به لصنعت له مجلساً يقوم عليه ، فإن شاء جلس ماشاء ، وإن شاء قام ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اثرتني به ، فأتوه به ، فأمر أن يصنع له هذه المراقى الثلاث أو الأربع ، هي الآن في مسجد المدينة ؛ فوجد النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك راحة ، فلما فارق النبي صلى الله عليه وسلم الجذع وعمد إلى هذه التي صنع له جَزَعَ الجذع فحنَّ كما تحنُّ الناقة ، حين فارقه النبي صلى الله عليه وسلم ، فزعم ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم حين سمع حنين الجذع رجع إليه فوضع يده عليه ، وقال : اختَرْتُ أن أعرسك في المكان الذي كنت فيه فتكون كما كنت ، وإن سأت أن أغرسك في الجنة ، فتشرب من أنهارها وعيونها فتحسن زينتك ، وتثمر ، فتأكل أولياء الله من ثمرتك وتخلد ؛ فَعَلْتُ ؛ فزعم أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول له : نعم قد فعلت ، مرتين ، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اختار أن أغرسه في الجنة .

ولفظه عند عياض : إن شئت أردك إلى الحائط^(۱) الذي كنت فيه تُنبتُ لك عروقتك، ويكمل خلقك، ويجدد لك خوص وثمره، وإن شئت أغرسك في الجنة فتأكل أولياء الله من ثمرك، ثم أصغى له النبي صلى الله عليه وسلم بسمع ما يقول، فقال : بل تغرسني في الجنة فيأكل مني أولياء الله وأكون في مكان لا أبلى فيه فسمعه من يليه، قال صلى الله عليه وسلم : قد فعلت، ثم قال : اختار دار البقاء على دار الفناء، فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى وقال : يا عباد الله، الخشبة تحنُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقاً إليه لمكانه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه، وهو في كتاب يحيى بنحوه، وفي حديث سهل بن سعد عند أبي نعيم : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألا تعجبون من حنين هذه الخشبة، فأقبل الناس عليها فسمعوها من حنينها حتى كثر بكاءؤهم .

وفي لفظ عند ابن عبد البر : فلما جاوزه خار الجذع حتى تصدع وانشق، فرجع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسحه بيده حتى سكن، ثم رجع إلى المنبر، قال : فكان إذا صلى صلى إليه، فلما هُدم المسجد أخذ ذلك الجذع أبو بن كعب فلم يزل عنده حتى أكلته الأرضة وعاد رُفَاتَا . وهذا يبعد ما قدمناه من التأويل ؛ إذا ظاهره أنه لم يدفن . ويحتمل أن ذلك كان بعد دفنه، ومشى يصلي إليه قريباً منه ؛ لأنه كان عند مُصَلَّاه كما سنحققه .

وفي كتاب يحيى عن أبي سعيد : كان صلى الله عليه وسلم يخطب إلى جذع نخلة، فأتاه رجل رومي، فقال : أصنع لك منبراً تخطب عليه، فصنع له منبره الذي ترون، فلما قام عليه فخطب حنَّ الجذع حنيناً الناقة إلى ولدها، فنزل إليه النبي صلى الله عليه وسلم فضمه فسكن، وأمر به النبي صلى الله عليه وسلم أن يدفن ويحفر له .

(۱) الحائط : الحديقة والبستان من النخيل إذا كان عليه جدار

وعن عائشة رضی اللہ عنہا : کان رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم یخطب إلى جذع یتساند إلیه ، فمر رومی فقال : لو دعانی محمد لعملت له ما هو أرفق له من هذا ، فذكروا ذلك لرسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم ، فأرسل إلیه ، فدعاه ، فجعل له المنبر ، ثم ذکر حنین الجذع وتخیر النبی صلی اللہ علیہ وسلم له ، قال : فقالت : فسمعنا النبی صلی اللہ علیہ وسلم وهو یقول : فنعیم ، فقار^(۱) الجذع فذهب .

وعن أنس أن النبی صلی اللہ علیہ وسلم کان یخطب إلى الجذع ، فلما اتخذ المنبر وعدل إلیه حن الجذع حتی أتاه فاحتضنه فسکن ، وقال : لو لم أفعل هذا الحنّ إلى یوم القیامة . و ذکر الإسفرایینی أن النبی صلی اللہ علیہ وسلم دعاه إلى نفسه ، فجاء یخرق الأرض ، فالتزمه ، ثم أمره فعاد إلى مكانه .

وفی کتاب ابن زبالة عن خالد بن سعید مرسلًا أن تمیم الداری کان یرى رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم یشتدّ علیہ وجمع کان یجده فی فخذیه یقال له الزجر^(۲) ، فقال له تمیم : یا رسول اللہ ألا أضنع لك منبرا تقوم علیہ ، فإنه أهون علیك إذا قمت وإذا قعدت ؟ قال : وكيف المنبر ؟ قال : أنا یا رسول اللہ أضنعه لك ، قال : فخرج إلى الغابة فقطع منها خشباتٍ من أثلٍ ، فعمل له درجتین : أی غیر المقعد ، فتحول رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم عن الخشبة التي کان یستند إلیها إذا خطب ، ثم ذکر حنینها ، وقال : بلغنا أنها دفنت تحت المنبر .

وعن المطلب بن حنطب أنه صلی اللہ علیہ وسلم أمر بالجذع فحفر له تحت المنبر فدفن هنالك ، قال : والذي عمل المنبر غلام نصیبة الخزومی ، وكان المنبر من أثلة كانت قریباً من المسجد .

وعن سهل بن سعد الساعدی نحو ما فی الصحیح أن رجلاً أتوا سهلاً وقد امتروا^(۳) فی المنبر یمّ عودُهُ ، فسألوه عن ذلك ، فقال : واللہ إنی لأعرف یمّ هو ،

(۱) فقار الجذع : أراد فغاص فی الأرض .

(۲) الزجر : هكذا وقع هذا اللفظ فی الأصول كلها ، ولم أتحققه علی ما أحب .

(۳) امتروا : شكوا

ولقد رأيته أول يومٍ وُضِعَ ، وأول يوم جلس عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلانة امرأة من الأنصار قد سماها سهل : مرى غلامك النجار ، أن يعمل لي أعواداً أجلس عليها إذا كلمت الناس ، فأمرته فعملها من طرَفاء الغابة ، ثم جاء بها فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بها فوضعت ههنا ، ثم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى عليها وكبر وهو عليها ، ثم ركع وهو عليها ، ثم نزل القَهْقَرَى فسجد في أصل المنبر ، هذا لفظ الصحيح ، وزاد فيه ابن زبالة : وقطعتُ خشب المنبر بيدي مع الذي بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحملت إحدى الدرجات .

ورواه يحيى بلفظ : عمل من أنل ، يعني المنبر ، وكنت ممن حمل درجته هذه ، ثم ذكر حنين الجذع ، وفي رواية للبخاري في كتاب الهبة « فجاؤا به — يعني المنبر — فاحتمله النبي صلى الله عليه وسلم ، فوضعه حيث ترون » .

وقال الحافظ ابن حجر : صحف بعض الرواة قوله إلى فلانة امرأة من الأنصار فقال إلى علانة (بالعين المهملة والمثلثة) وهو خطأ ، والمرأة لا يعرف اسمها ، ونقل ابن التين عن مالك أن النجار كان مولى لسعد بن عباد ؛ فيحتمل أنه كان في الأصل مولى امرأته ، ونسب إليه مجازاً ، واسم امرأته فكيهة بنت عبيد بن دليم ، وهي ابنة عمه ؛ فيحتمل أن تكون هي المرأة ، لكن رواه ابن راهوييه عن ابن عينة وقال : مولى لبني بياضة ، ووقع عند الكرماني قيل : اسمها عائشة ، وأظنه صحَّفَ المصحَّفَ ، ثم وجدت في الأوسط للطبراني من حديث جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي إلى سارية في المسجد ، ويخطب إليها ، ويعتمد عليها ، فأمرت عائشة ، فصنعت له منبره هذا ، فذكر الحديث ، وإسناده ضعيف ، ولو صح لما دل على أن عائشة هي المرادة في حديث سهل هذا إلا بتعسف ، والله أعلم .

وأُسند ابن سعد في الطبقات من حديث أبي هريرة ، ورجاله ثقاتٌ إلا الواقدي أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يخطب وهو مستند إلى جذع ، فقال : إن القيام قد شقَّ عليَّ ، فقال تميم الداري : ألا أعمل لك منبراً كما رأيتُ يصنع بالشام ؟ فشاور النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين في ذلك ، فرأوا أن يتخذوه ، فقال العباس ابن عبد المطلب : إن لي غلاماً يقال له كلاب أعمل الناس ، فقال : مره أن يعمل » الحديث .

وأُسند يحيى منقطعاً عن ابن أبي الزناد وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب يوم الجمعة إلى جذع في المسجد كان موضعه عند الأسطوانة المخلقة التي تلي القبر التي عن يسار الأسطوانة المخلقة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي عندها التي هي عند الصندوق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن القيام قد شقَّ عليَّ ، وشكا صلى الله عليه وسلم ضعفاً في رجله ، قالوا : فقال تميم الداري — وكان رجلاً من نخم من أهل فلسطين — يا رسول الله أنا أعمل لك منبراً كما رأيت يصنع بالشام ، قالوا : فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذو الرأي من أصحابه على اتخاذه قال العباس بن عبد المطلب : إن لي غلاماً يقال له كلاب أعمل الناس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مره يعمل ، فأرسله إلى أثلة بالغابة فقطعها ثم عملها درجتين ومجلساً ، ثم جاء بالمنبر فوضعه في موضعه اليوم ، ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة ، فلما جاوز الجذع يريد المنبر حنَّ الجذع ثلاث مرات كأنه خوار بقره ، حتى ارتاع^(۱) الناس ، وقام بعضهم على رجله ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مَسَّه بيده ، فسكن ، فما سَمِعَ له صوت بعد ذلك ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنبر فقام عليه ، فلم يزل كذلك في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر ، فلما هدم عثمان المسجد اختلف في الجذع ، فمنهم من قال : أخذه أبي بن كعب ، فكان عنده حتى أكلته

(۱) ارتاع الناس : أخذهم الروع ، وهو الخوف .

الأرضة ، ومنهم من قال : دفن في موضعه .

شہرۃ حدیث
حنین الجذع
وقال عیاض : حدیثُ حنین الجذع مشہور منتشر ، والخبر بہ متواتر ،
أخرجه أهل الصحيح ، ورواه من الصحابة بضعة عشر .

وقال البيهقي : قصة حنین الجذع من الأمور الظاهرة التي حتمت الخلف عن
السلف ، ورواية الأخبار الخاصة فيها كالتكلف ، وفيه دليل على أن الجمادات قد
يخلق الله لها إدراكاً كأشرف الحيوان .

وقد نقل ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي عن أبيه عن عمرو بن سواد عن
الشافعي قال : ما أعطى الله نبياً ما أعطى محمداً ، فقلت : أعطى عيسى إحياء الموتى ،
قال : أعطى محمداً حنين الجذع حتى سمع صوته ؛ فهذا أكبر من ذلك .

الموضع الذي
دفن فيه الجذع
ونقل ابن زبالة اختلافاً في دفن خشبته ؛ فمن عثمان بن محمد : دفنت
دوين المنبر عن يسار ، وقال بعضهم : دفنت شرق المنبر إلى جنبه ،
وقال بعضهم : دفنت تحت المنبر ، وتقدم في رواية أنه دفن في موضعه الذي
كان فيه ، ومحصل الرواية المتقدمة في كلام يحيى أنه كان في جهة المشرق يسار
المُصلَّى الشريف .

ونقل ابن زبالة عن عبد العزيز بن محمد أن الأسطوان المُلطَّخ بالخلوق ثلثاها
أو نحو ذلك محرابها موضع الجذع الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إليه ،
بينها وبين القبلة أسطوان ، وبينها وبين المنبر أسطوان .

قلت : وهذه الأسطوانة هي التي تقدم أنها علم المصلَّى الشريف عن يمينه ،
ولهذا روى عقبه ما قدمناه من القيام بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة
لمن عدل عنها قليلاً ، وهذا مستند المطري في قوله : وكان هذا الجذع عن يمين
مُصلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصقاً بجدار المسجد القبلي في موضع كرسي
الشمعة اليمنى التي توضع عن يمين الإمام المُصلَّى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم ،
والأسطوانة التي قبلي الكرسي متقدمة عن موضع الجذع ؛ فلا يعتمد على قول

مَنْ جَعَلَهَا فِي مَوْضِعِ الْجَذَعِ ، قَالَ : وَفِيهَا خَشْبَةٌ ظَاهِرَةٌ مُثَبَّتَةٌ بِالرِّصَاصِ ^{بدعة اصطنعها} سِدَادَةٌ لِمَوْضِعِ كَانِ فِي حَجَرٍ مِنْ حِجَارَةِ الْأُسْطُوَانَةِ مَفْتُوحٌ قَدْ حَوَّطَ عَلَيْهِ ^{الناس بسبب الجذع} بِالْبَيَاضِ وَالْخَشْبَةِ ظَاهِرَةٌ ، تَقُولُ الْعَامَّةُ : هَذَا الْجَذَعُ الَّذِي حَنَّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ هُوَ مِنْ جَمَلَةِ الْبَدْعِ الَّتِي يَجِبُ إِزَالَتُهَا لِثَلَاثِ مَقَامَاتٍ بِهَا النَّاسُ ، كَمَا أُزِيلَتِ الْجُرْزَعَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْحَرَابِ الْقَبْلِيِّ ، وَذَكَرَ قِصَّةَ الْجُرْزَعَةِ الَّتِي قَدَمْنَاهَا .

وَقَالَ الْمَجْدُ : إِنْ الْخَشْبَةُ الْمَذْكُورَةُ كَانَتْ يُزْدَحَمُ عَلَى زِيَارَتِهَا وَالتَّمَسُّحِ بِهَا ، وَيَعْتَقِدُ النَّاسُ عَامَةً أَنَّهَا الْجَذَعُ ، فَظَنَّ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ أَنَّ هَذَا مِنَ الْمَذْكُورِ الَّذِي يَتَعَيَّنُ إِزَالَتُهُ ، وَصَرَّحَ بِهِذَا فِي كِتَابِهِ ، إِلَى أَنْ وَافَقَ عَلَى ذَلِكَ شَيْخُنَا الْعَزِيزُ بْنُ جَمَاعَةَ فَأَمَرَ بِإِزَالَتِهَا ، إِلَى آخِرِ مَا قَدَمْنَاهُ عَنْهُ . قَالَ : وَكَانَ مَوْضِعُ الْخَشْبَةِ مِنَ الْأُسْطُوَانِ الْمَذْكُورِ عَلَى مِقْدَارِ ذِرَاعَيْنِ مِنَ الْأَرْضِ ارْتِفَاعًا ، وَقَدْ طُلِيَ عَلَيْهِ بِالْقِصَّةِ ، وَلَا عَيْنٌ مِنْهُ وَلَا أَثَرٌ .

قُلْتُ : الَّذِي يَظْهَرُ - كَمَا قَدَمْتُهُ - أَنَّ هَذِهِ الْخَشْبَةُ كَانَتْ مِنَ الْعُودِ الَّذِي كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضَعُ يَدَهُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ : عَدَلُوا صَفُوفَكُمْ ، كَمَا تَقْدُمُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَنَقَلَ ابْنُ زُبَايَةَ الْاِخْتِلَافَ فِي الَّذِي عَمِلَ الْمَنْبِرَ ، فَقِيلَ : غَلَامٌ نَصِيبِيَّةُ الْحَزْرَوِيِّ ، وَقِيلَ : غَلَامٌ لِلْعَبَّاسِ ، وَقِيلَ : غَلَامٌ لِسَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ يُقَالُ لَهُ بِأَقُولِ (بِمَوْحِدَةٍ وَقَافٍ مَضْمُومَةٍ) وَقِيلَ : غَلَامٌ لَامْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي سَاعِدَةَ ، أَوْ لَامْرَأَةٍ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِينَا ، وَقَوْلُهُ « يُقَالُ لَهُ مِينَا » يَحْتَمِلُ الْمَوْلَى وَزَوْجَ الْمَرْأَةِ ، لَسَكُنَ عِنْدَ يَحْيَى قَالَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : الَّذِي عَمِلَ الْمَنْبِرَ غَلَامٌ الْأَنْصَارِيَّةِ وَاسْمُهُ مِينَا ، وَعِنْدَ ابْنِ بَشْكُوَالِ عَنْ أَبِي بَنْ أُوَيْسَ : عَمِلَ الْمَنْبِرَ غَلَامٌ لَامْرَأَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي سَاعِدَةَ أَوْ امْرَأَةٍ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِينَا ، وَهَذَا مُحْتَمِلٌ كَالْأَوَّلِ ،

عود إلى
الاختلاف في
صانع المنبر

وقيل : عمله تميم الداری ، هذا حاصل ما ذكره ابن زبالة ، وفي رواية ليحيى : عمل المنبر صُبَّاح غلام العباس (بضم الميم) بعدها موحدة خفيفة) وتقدم تسميته كلاباً ، ونقل المرائی عن بعض شیوخه أن الذي عمله باقوم (بالميم) باني الكعبة لقریش ، وفي الاستيعاب عن باقوم الرومی قال : صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم منبراً من طَرَفَاء له ثلاث درجات : المقعدة ، ودرجتيه ، قال ابن عبد البر : وإسناده ليس بالقائم^(۱) .

وفي طبقات ابن سعد أن الصحابة قالوا : يا رسول الله إن الناس قد كثروا ، فواتخذت شيئاً تقوم عليه إذا خطبت ، قال صلى الله عليه وسلم : ما شئتم ، قال سهل رضي الله عنه : ولم يكن بالمدينة إلا نجار واحد ، فذهبت أنا وذاك النجار إلى الغابة فقطعنا هذا المنبر من أثلة ، وفي لفظ : فحمل سهل منهن خشبة ، قال المجد : إسنادهما صحيح ، وعند قاسم بن أصبغ : وكان بالمدينة نجار واحد يقال له ميمون ، فذكر الحديث ، وعند الطبرانی عن سهل : كنت جالساً مع خال لي من الأنصار ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أخرج إلى الغابة وأتني من خشبها فاعمل لي منبراً ، الحديث . وأخرج الطبرانی بإسناد فيه متروك أن اسم صانع المنبر إبراهيم ، وفي أسماء الصحابة لابن شبة مرسل : اسمه قبيصة أو قصيبة بتقديم الصاد ، الخزومي ، مولاہم . وعند أبي داود بإسناد جيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بدّن قال تميم الداری : يا رسول الله ألا تتخذ لك منبراً يحمل - أو يجمع - عظامك ، قال صلى الله عليه وسلم : بلى ، فاتخذ له منبراً مرقأتين : أي غير المقعدة .

قال الحافظ ابن حجر : وليس في الروايات التي سمي فيها النجار قوى السند إلا هذا ، وليس فيه تصريح بأن الذي اتخذ المنبر تميم ، بل قد تبين من رواية ابن

(۱) قال المؤلف في الخلاصة : إن أشهر الأقوال في تسمية صانع المنبر أن اسمه « باقوم » بالميم ، وسيبين هنا بعد قليل أن اشتهاره لا ينافي ضعف إسناده (انظر ص ۳۹۷)

سعد المتقدمة أن تميا لم يعمل ، وأشبه الأقوال بالصواب أنه ميمون ؛ لكون الإسناد من طريق سهل ، ولا اعتداد بالأقوال الأخرى لكونها واهية .
قلت : ولا ينافيه قوله في مقدمة الشرح « باقوم أشهر الأقوال » فقد يشتهر الواهي^(١) .

وفي التحفة لابن عساكر : روينا من حديث أبي كبشة السلولى عن معاذ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنِ اتَّخَذَ مَنْبَرًا فَقَدْ اتَّخَذَهُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَإِنِ اتَّخَذَ الْعَصَا فَقَدْ اتَّخَذَهَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ . »

وأُسند ابن النجار من حديث أنس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة إلى جنب خشبة مُسْنِدًا ظهره إليها ، فلما كثر الناسُ قال : ابْنُوا لِي مَنْبَرًا ، فَبَنَوْا لَهُ مَنْبَرًا لَهُ عَتَبَتَانِ ، وَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّ الْمَنْبَرَ كَانَ بِنَاءً ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ أَطْلَقَ عَلَى تَأْلِيفِهِ مِنَ الْأَخْشَابِ اسْمَ الْبِنَاءِ ، لَكِنْ قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ : حَكَى بَعْضُ أَهْلِ السَّيَرِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « كَانَ يَخْطُبُ عَلَى مَنْبَرٍ مِنْ طِينٍ قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَ الْمَنْبَرَ الَّذِي مِنْ خَشَبٍ » وَيَعَكِّرُ عَلَيْهِ مَا تَقَدَّمَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَنْدُ إِلَى الْجَذَعِ إِذَا خَطَبَ .

قلت : يحتمل أن ذلك المنبر المتخذ من الطين كان إلى جانب الجذع ، وكأنه كان بناءً مرتفعاً فقط ، وليس له درج ومقعدة بحيث يكمل الارتفاق به ؛ فلا ينافي ما تقدم في سبب اتخاذ المنبر من خشب ، ويؤيد ذلك ما ورد في حديث الإفك في الصحيحين عن عائشة قالت : فثار الحيان الأوس والخزرج حتى كادوا أن يقتلوا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، الحديث ، وهذه القصة متقدمة على اتخاذ المنبر من الخشب ؛ فقد جزم ابن النجار بأن عمله كان سنة ثمان ، وجزم ابن سعد بأنه كان في السنة السابعة ، على أن ذكر تميم والعباس في عمله كما تقدم

(١) قد نبهناك إلى هذا في هوامش ص ٣٩٦ .

يقتضى تأخره عن ذلك أيضاً ؛ فقد كان قدومُ العباس بعد الفتح في آخر سنة ثمان ،
وقدومُ تميم سنة تسع ، وفي بعض طرق الحديث : كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يجلس بين أصحابه ، فيجىء الغريب فلا يدري أيهم هو ، فطلبنا إليه أن
نعمل له مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه ، فبينما له دكاناً^(١) من طين كان يجلس عليه ،
الحديث . وفي بعض طرقه أنه جاء والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب : أي على
ذلك الدكان ، والله أعلم .

وروى يحيى عن ابن أبي الزناد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجلس على
المجلس ، ويضع رجله على الدرجة الثانية ، فلما ولي أبو بكر قام على الدرجة
الثانية ، ووضع رجله على الدرجة السفلى ، فلما ولي عمر قام على الدرجة السفلى ،
ووضع رجله على الأرض إذا قعد ، فلما ولي عثمان فعل ذلك ست سنين من
خلافه ؛ ثم علا إلى موضع النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم قال : قالوا فلما استخلف معاوية زاد في المنبر ، فجعل له ست درجات ،
وكان عثمان أول من كسا المنبر قُبْطِيَّةً^(٢) .

قالوا : فلما قدم معاوية عام حَجَّ حَرَّكَ المنبر ، وأراد أن يخرج به إلى الشام ،
فكسفت الشمس يومئذ ، حتى بدت النجوم ، فاعتذر معاوية إلى الناس ، وقال :
أردت أنظر إلى ماتحتي ، وخَشِيتُ عليه من الأرضة . قال بعضهم : وكساه
يومئذ قُبْطِيَّةً أولينة . ثم أسند عن سعيد بن عمرو قصة تحريك معاوية للمنبر ،
وأن الشمس كسفت ، واعتذاره بأنه خشي عليه الأرضة ، وأنه كساه يومئذ
قُبْطِيَّةً يكون عليه أولينة ، فكان يقال : هو أول من كساه ، قال يحيى : وأثبتهما
عندنا أن عثمان هو أول من كساه ، وقد نقل ذلك ابن النجار عن الواقدي عن
ابن أبي الزناد ، قال : فسرت الكسوة امرأة ، فأتى بها عثمان ، فقال لها : هل
سرت ؟ فولى لا ، فاعترفت ، فقطعها ، واتفق لامرأة مع ابن الزبير مثل ذلك .
وفي تاريخ الواقدي : أراد معاوية رضي الله عنه سنة خمسين تحويل منبر

أراد معاوية
أن ينقل المنبر
إلى الشام

(١) الدكان : المكان المرتفع ، شبه الدكة ، ويسمى في ريف مصر (مصطبة)

(٢) القبطية - بضم القاف وسكون الباء - الثوب الرقيق الأبيض من ثياب مصر

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دمشق ، فكسفت الشمس يومئذ ، وكله أبو هريرة رضى الله عنه فيه ، فتركه ، فلما كان عبد الملك أراد ذلك فكلمه قبيصة فتركه ؛ فلما كان الوليد أراد ذلك فأرسل سعيد بن المسيب إلى عمر بن عبد العزيز فكلمه فيه فتركه ، فلما كان سليمان قيل له في تحويله قال : لا ؛ ها الله ، أخذنا الدنيا ونعمد إلى علم من أعلام الإسلام نريد تحويله ؟ ذاك شيء لا أفعله ؛ وما كنت أحب أن يذكر هذا عن عبد الملك ولا عن الوليد ! مالنا ولهذا ؟

وأُسند ابن زبالة عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه قال : بعث رفع المنبر ست معاوية رضى الله عنه إلى مروان يأمره أن يحمل إليه منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمربه أن يُقلعَ ، فأظلمت المدينة ، وأصابتهم ريح شديدة ، قال : فخرج عليهم مروان فخطبهم ، وقال : يا أهل المدينة إنكم تزعمون أن أمير المؤمنين بعثَ إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمير المؤمنين أعلم بالله من أن يغير منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ما وضعه عليه ، إنما أمرني أن أكرمه وأرفعه ، قال : فدعا نجارا فزاد فيه الزيادة التي هو عليها اليوم ، ووضعها موضعه اليوم . وفي رواية له عن ابن قطن : قلع مروان بن الحكم منبر رسول الله ، وكان درجتين والمجلس ، وأراد أن يبعث به إلى معاوية ، قال : فكسفت الشمس حتى رأينا النجوم ، قال : فزاد فيه ست درجت ، وخطب الناس فقال : إني إنما رفعته حين كثر الناس

وعند يحيى في رواية أخرى : كتب معاوية رضى الله عنه إلى مروان وهو على المدينة أن أرسل لي بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج مروان فقلعه ، فأصابتنا ريح مظلمة بدت فيها النجوم نهارا ، ويلقى الرجل الرجل يصُكُّه^(۱) فلا يعرفه ، وذكر اعتذار مروان المتقدم ، وقال : إنما كتب إليّ يأمرني أن أرفعه من

(۱) يصكه : أراد أن أحدهما يصطدم بالآخر دون أن يراه .

الأرض ، فدعا له النَّجَّاجِرَةَ^(١) ، فعمل هذه الدرجات ورفعوه عليها ، ومى - أى الدرجات التى زادها - ستُّ درجاتٍ ، قال : ثم لم يزد فيه أحد قبله ولا بعده . وقال ابن زبالة عقب حديث رواه من طريق سفيان عن كثير بن زيد عن المطلب مالفظه : والذى زاد فى درج المنبر معاوية بن أبى سفيان .

قال سفيان : قال كثير : فأخبرنى الوليد بن رباح قال : كسفت الشمس يوم زاد معاوية فى المنبر حتى رؤيت النجوم .

وروى ابن النجار زيادة مروان فيه ، وأنه صار تسع درجات بالمجلس^(٢) ، عن ابن أبى الزناد ، ثم قال : ولما قدم المهدي المدينة سنة إحدى وستين ومائة ، فقال لمالك بن أنس : إني أريد أن أعيد منبر النبي صلى الله عليه وسلم على حاله ، فقال له مالك : إنما هو من طرفاء ، وقد سُمرَ إلى هذه العيدان وشُدَّ ، فمتى نزعته خِفْتُ أن يتهافت ويهلك ، فلا أرى أن تغيره ، فانصرف المهدي عن تغييره . وروى ابن شبة قصة المهدي عن محمد بن يحيى عن محمد بن أبى فديك .

قلت : وجميع ما قدمناه من كلام المؤرخين مقتضى لاتفاقهم على أن منبره صلى الله عليه وسلم كان درجتين غير المجلس^(٣) ، ونقله ابن النجار عن الواقدي ، لكن سبق فى رواية الدارمي « هذه المراقى^(٤) الثلاث أو الأربع » على الشك ، وفى صحيح مسلم « هذه الثلاث درجات » من غير شك ، وقال الكمال الدميرى فى شرح المنهاج : وكان صلى الله عليه وسلم منبره ثلاث درج غير الدرجة التى تسمى المستراح^(٥) ، ولعل مأخذه ظاهر ذلك مع حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم رقى المنبر فلما رقى الدرجة الأولى قال : آمين ، ثم رقى الدرجة الثانية فقال : آمين ، ثم رقى الدرجة الثالثة فقال : آمين ، فقالوا : يا رسول الله سمعناك قلت آمين ثلاث مرات ، قال : لما

عدد
درجات
المنبر

(١) النجاجة : جمع نجار . (٢) المجلس : الموضع الذى يجلس عليه .

(٣) المراقى : جمع مرقاة ، وهى الدرجة من درجات السلم ، سميت بذلك لأنه يرقى بها

(٤) المستراح : اسم للمكان الذى يستراح فيه ، وهو الذى سمي فى بعض الروايات

بالمجلس وفى بعضها الآخر بالمقعد . ووجه التسمية فى كل رواية ظاهر لا يحتاج إلى تنبيه .

رَقِيتُ الدرجةَ الأولى جاء جبريل عليه السلام فقال : شَقِيَ عبد أدرك رمضان فانسُخ عنه فلم يغفر له ، قلت : آمين ، ثم قال : شَقِيَ عبد ذُكِرَتْ عنده فلم يصلْ عليك ، قلت : آمين ، ثم قال : شَقِيَ عبد أدرك والديه أو أَحَدَهُمَا فلم يدخله الجنة ، فقلت : آمين ، رواه يحيى بن الحسن عن جابر ، ورواه الحاكم عن كعب بن عجرة^(١) وقال : صحيح الإسناد ، ولفظه : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احضروا المنبر ، فحضرنا ، فلما رُقِيَ درجة قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثانية قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال : آمين ، فلما نزل قلنا : يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه ، قال : إن جبريل عَرَضَ لِي فَقَالَ : بَعْدَ مَنْ أَدْرَكَ رمضان فلم يغفر له ، قلت : آمين ؛ فلما رَقِيتُ الثانية قال : بَعْدَ مَنْ ذُكِرَتْ عنده فلم يصل عليك ، فقلت : آمين ، فلما رَقِيتُ الثالثة قال : بَعْدَ مَنْ أَدْرَكَ أبوه الكبر عنده أو أَحَدَهُمَا فلم يدخله الجنة ، قلت : آمين ، ويمكن حمله على أنه صلى الله عليه وسلم ارتقى حينئذ على المجلس وهي الدرجة الثالثة .

قال ابن زبالة : وطولُ منبر النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ذراعان في السماء ، مساحه المنبر وعرضه ذراع في ذراع ، وتربيعة سواء ، وفيه مما كان يلي ظهره إذا قَعَدَ ثلاثة أعوادٍ تدور ، ذَهَبَ إحداهن ، وانقلعت إحداهن سنة ثمان وتسعين ومائة ، وأمر به داود بن عيسى فأعيد ، وفيما عمل مروان في حائط المنبر الخشب عشرة أعواد لا يتحركن ، وطول منبر النبي صلى الله عليه وسلم مرتفع في السماء مع الخشب الذي عمله مروان — أي الأعواد المتقدمة — ثلاث أذرع ونصف .

وقال عقب كلامه الآتي في ذرع ما عليه المنبر اليوم ، يعني زمنه ، ما لفظه : وطول المجلس — أي مجلسه صلى الله عليه وسلم — شبران وأربع أصابع في مثل ذلك . مربع ؛ فقوله أولاً : « وعرضه ذراع في ذراع » إنما أراد به مقعد المنبر ؛

(١) كعب بن عجرة : ابن أمية بن عدي ، أبو محمد ، القضاعي ، البلوي ، المدني ، حليف القواقل ، روى عنه البخاري ومسلم ، مات سنة إحدى وخمسين .

لما قاله هنا في وصف المقعد بدون درجتيه ؛ ولأنه قال هنا عقب ما تقدم : وما بين أسفل قوائم منبر النبي صلى الله عليه وسلم الأول الى رُمَّاتِه خمسة أشبار وشيء ؛ وعرض درَجِه شبران ، وطولها شبر ، وطوله من ورائه — يعني محل الاستناد — شبران وشيء ؛ فيؤخذ من ذلك أن امتداد المنبر النبوي من أوله — وهو ما يلي القبلة — إلى ما يلي آخره في الشام أربعة أشبار وشيء ؛ لقوله : إن عرض درجه شبران ، وإن المجلس شبران وأربع أصابع ، وقوله : « وما بين أسفل قوائم منبر النبي صلى الله عليه وسلم — إلى آخره » معناه أن من طرف المنبر النبوي الذي يلي الأرض إلى طرف رُمَّاتِه التي يضع عليها يده الكرسي خمسة أشبار وشيء ؛ وذلك نحو ذراعين ونصف ، وقد تقدم أن ارتفاع المنبر النبوي خاصة ذراعان ؛ فيكون ارتفاع الرمانة نحو نصف ذراع

وقال ابن النجار : طول منبر النبي صلى الله عليه وسلم ذراعان وشبر وثلاث أصابع ، وعرضه ذراع راجح ، وطول صدره — وهو مستند النبي صلى الله عليه وسلم — ذراع ، وطول رُمَّاتِ المنبر اللتين كان يمسكهما بيده الكرسيين إذا جلس شبر وأصبعان ، وعرضه ذراع في ذراع ، يريد وتربيعة سواء ، ولا يخفى ما فيه من المخالفة لكلام ابن زبالة .

وقال ابن زبالة في الكلام على فضل ما بين القبر والمنبر ، بعد ذكر المرمر الذي حول المنبر ، مالفظة : وفي المنبر من أسفله إلى أعلاه سبع كوى^(١) مستطيرة من جوانبه الثلاث ، وفي جنبه الذي عمل مروان من قبل المشرق ثمان عشرة كوة^(٢) مستديرة شبه المربعة ، ومن قبل المغرب ثمان عشرة كوة مثل ذلك ، وكان فيه خمسة أعواد تدور ، فذهب بعضها وبقي اثنان منها ، فسقط أحدهما في سلطان داود بن عيسى على المدينة في سنة ثمان وتسعين ومائة ، فأمر به فأعيد .

وقال في موضع آخر : وفيما عمل مروان في حائط المنبر الخشب عشرة أعواد

(١) الكوة — بفتح الكاف أو ضمها وتشديد الواو — أصله الحرق في الحائط ، والمراد به هنا الحرق مطلقا ، والجمع : كوى ، وكواء ، بضم الكاف في الجمع .

لا يتحركن ، ثم قال : وفي منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة خمسة أعوادٍ من جوانبه الثلاث ، فذهب بعضها .

وقال بعد ما تقدم عنه في ذرع منبره صلى الله عليه وسلم ما لفظه : وذرع طول المنبر اليوم أربع أذرع ، وعرضه ذراع وشيء يسير ، وما بين الرمانة المؤخرة والرمانة التي كانت في منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم القديم ذراع وشيء ، وما بين رمانة منبر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرمانة المحدثه في مقدم المنبر ذراعان وعظم الذراع ، وما بين الرمانة والأرض ثلاث أذرع وشيء ، وطول المنبر اليوم من أسفل عتبه إلى مؤخره سبع أذرع — أى بتقديم السين — وشبر ، وطوله في الأرض إلى مؤخره ست أذرع ، هذه عبارته بحروفها ، ويتعين حمل كلامه على أن امتداد المنبر في الأرض من أسفل عتبه الرخام التي أمامه إلى مؤخر المنبر سبعة أذرع وشبر ، وطول امتداده وهو في الأرض إلى مؤخره مع إسقاط العتبة ست أذرع ، حتى يلتئم كلامه ، وقد ذكر فيما قدمناه عنه أن حول المنبر مرمر مرتفع^(١) قدر الذراع ، وفيه شيء مُحَدَّث غير مرتفع زاده الحسن بن زيد .

وقال في موضع آخر : والمنبر مبنى فوق رخام ، وهو في وسط الرخام ، فسمى المرمر رُخَامًا ، وقال : إن هذا الرخام حَدُّهُ من الأسطوانتين اللتين في قبلة المنبر — أى خلفه — إلى الأسطوانتين اللتين تليانها مما يلي الشام — أى أمام المنبر — وقد سمي ابن النجار هذا الرخام الذي عليه المنبر دِكَّةً ، وقال : إن طولها شبر وعقد ، يعنى في الارتفاع ، وسمى ذلك أبو الحسين بن جبير في رحلته حَوْضًا ، وكأنه أخذ هذه التسمية مما ورد في أن المنبر على الحوض ، وذكر في طول هذا الرخام وعرضه ما يقرب مما قدمناه في حدود المسجد النبوى ، قال : وارتفاعه شبر ونصف .

قلت : ولما حفر متولى العمارة في زماننا أرض المسجد الشريف وسواها بأرض المصلّى الشريف وجد هذا الرخام المذكور ، وارتفاعه عن أرض المصلّى (١) كذا ، والعريفة تقتضى «مرمرًا مرتفعًا» .

الشریف نحو ما ذكره ابن الفجار وابن جُبَيْر ؛ ثم لما أوردوا تأسيس المنبر الرخام الآتي ذكره حَفَرُوا حول الدكة المذكورة فظهر أنها منخفضة عن أرض المصلّى الشریف التي استقر عليها الحالُ اليومَ يسيرا ، وخلفها من جهة القبلة إفریز نحو ثلث ذراع ، وطولها سبع أذرع ، بتقديم السين ، وشبر ، وهي مجوّفة شبيهة بالحوض ، فصح ما ذكره ابن جُبَيْر في تسميتها حوضا ، وصح أيضا ما سيأتي عنه من أن سَعَة المنبر خمسة أشبار ؛ لأن جوف هذا الحوض الذي وجدناه بما دخل من عمودي المنبر في أحجاره خمسة أشبار ، وقولُ ابن زبالة أولا « وذرع طول المنبر اليوم أربع أذرع » مرادهُ ارتفاعه في الهواء مع الدرج الست التي زادها مروان ؛ فيكون طول الدرج الست ذراعين ؛ فتكون كل درجة ثلث ذراع ، فيقرب مما قدمه ابن زبالة في طول درج منبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي تقتضيه المناسبة

ونقلَ الزين المراغى عن ابن زبالة أنه قال : طول منبر النبي صلى الله عليه وسلم بما زيد فيه أربعة أذرع ، ومن أسفل عتبه إلى أعلاه تسعة أذرع وشبر .

قلت : كذا رأيته بخط الزين ، وضبط قوله « تسعة أذرع » بتقديم التاء الفوقية ، وهو غلط في النسخة التي وقعت له ؛ لأن الذي قدمناه عن ابن زبالة إنما هو من أسفل عتبه إلى مؤخره ، وقررناه بما تقدم ، وإنما قضينا على ذلك بالغلط لأنه حينئذ لا يلتزم أطرافُ كلامه ، ولأنه يقتضى أن يكون ارتفاع المنبر في الهواء تسعة أذرع ، بتقديم التاء ، وشبرا ، فإذا قام عليه القائم يقرب من سقف المسجد ، ويبعد كل البعد كون منبر في ذلك الرُمان ارتفاعه هذا القدر ، وأيضا فابن زبالة قد صرح بأن الذي زاده مروان ست درج ، فيلزم أن يكون كل درجة ذراعاً وشيئا ، وهو في غاية البعد ، وما نقلناه عن ابن زبالة يقرب مما ذكره ابن الفجار ؛ فإنه قال عقب ما قدمناه عنه في وصف منبر النبي صلى الله عليه وسلم

مالفظه : وطول المنبر اليوم ثلاثة أذرع وشبر وثلاث أصابع ، والدكة التي عليها من رخام طولها شبر وعقد ، ومن رأسه - أي المنبر - دون دكته إلى عتبه خمسة أذرع وشبر وأربع أصابع ، وقد زيد فيه اليوم عتبتان وجعل عليه باب يفتح يوم الجمعة ، انتهى ؛ فهو قريب مما ذكره ابن زبالة من أن طول المنبر - يعني في الهواء - أربعة أذرع ، وأمداده هو خاصة في الأرض من عتبه إلى مؤخره ستة أذرع ، ويوافق أيضا ما ذكره الفقيه أبو الحسين محمد بن جبير من حديث القدر ، فإنه قال : رأيت منبر المدينة الشريف في عام ثمان وسبعين وخمسمائة ، وأرتفاعه من الأرض نحو القامة أو أزيد ، وسعته خمسة أشبار ، وطوله خمس خطوات ، وأدراجة ثمانية ، وله باب على هيئة الشباك مقل يفتح يوم الجمعة ، وطوله - أي الباب - أربعة أشبار ونصف شبر ، وهذا المنبر هو الذي وصفه ^(١) ابن النجار فيما يظهر ؛ لأنه وضع تاريخه سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، وتوفي قبل حريق المسجد سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، وكان احتراق المسجد كما سيأتي سنة أربع وخمسين وستمائة ، وفيه احترق هذا المنبر ، وفقد الناس بركته .

وقد زاد ابن جبير على ابن النجار في وصف هذا المنبر فقال : وهو مغطى بعود الآبنوس ، ومقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعلاه ظاهر قد طبق عليه لوح من الآبنوس غير متصل به يصونه من القعود عليه ؛ فيدخل الناس أيديهم إليه ، ويمسحونه بها تبركا بلمس ذلك المقعد الكريم ، وعلى رأس رجل المنبر الأيمن حيث يضع الخطيب يده إذا خطب حلقة فضة محوطة مستطيلة تشبه حلقة الخياط التي يضعها في أصبعه إلا أنها أكبر منها ، وهي لآلة تستدير في موضعها ، انتهى . والظاهر أن هذا المنبر غير الذي وصفه ابن زبالة لأنه لم يصفه بذلك ، ويوضح ذلك ما ذكره في الطراز لسند من المالكية حيث قال : إن منبر النبي صلى الله عليه

(١) في المطبوعات كلها « وضعه » وما أثبتناه هو الذي يقتضيه المقام ، وهو الذي يعينه قول المؤلف بعد قليل « في وصف هذا المنبر » وغيره من العبارات

وسلم جعل عليه منبر كالغلاف ، وجعل في المنبر الأعلى طاق مما يلي الروضة ، فدخل الناس منها أيديهم لمسحون منبر النبي صلى الله عليه وسلم ويتبركون بذلك ، انتهى ؛ فهذا شيء حدث بعد ابن زبالة .

وقد قال المطري : حدثني يعقوب بن أبي بكر من أولاد المجاورين ، وكان أبوه أبو بكر فراشاً من قوائم المسجد ، وهو الذي كان حريق المسجد على يده ، أن المنبر الذي زاده معاوية ورفع منبر النبي صلى الله عليه وسلم عليه تهافت على طول الزمان ، وأن بعض خافاء بني العباس جدّده ، واتخذ من بقايا أعواد منبر النبي صلى الله عليه وسلم أمشاطاً للتبرك ، وعمل المنبر الذي ذكره ابن النجار فيما تقدم .

قال يعقوب : سمعت ذلك من جماعة بالمدينة ممن يوثق بهم ، وأن المنبر المحترق هو الذي جدده الخليفة المذكور ، وهو الذي أدركه ابن النجار ؛ لأن وفاته قبل الحريق .

قلت : وظاهر كلام ابن عساكر في تحفته أنه كان قد بقي من المنبر الشريف بقايا فقط إلى احتراق المسجد ، وهو ممن أدرك حريقه ، وأورد في كتابه ما ذكره شيخه ابن النجار ، ولفظه : وقد احترقت بقايا منبر النبي صلى الله عليه وسلم القديمة ، وفات الزائر لمس رمانة المنبر التي كان صلى الله عليه وسلم يضع يده المقدسة المكرمة عليها عند جلوسه عليه ، ولمس موضع جلوسه منه بين الخطبتين وقبلهما ، ولمس موضع قدميه الشريفتين بركة عامة ونفع عائد ، وفيه صلى الله عليه وسلم عوض من كل ذهاب ودرك من كل فائت ، انتهى . وهو صريح في بقاء ما ذكره إلى حين الحريق ، ويؤيده ما تقدم عن رحلة ابن جبير وصاحب الطراز ، بل ظفرنا بما يشهد لصحة ذلك ؛ فإنه لما أراد متولى العمارة تأسيس المنبر الرخام الآتي ذكره حفروا على الدكة التي تقدم أن المنبر كان عليها فوجدت مجوفة كالحوض ، وبه عبر ابن جبير عنها ، فوجدوا فيما يلي القبلة منها قطعاً كثيرة من أخشاب المنبر المحترق - أعنى الذي كان فيه بقايا منبر النبي صلى الله عليه وسلم - فوضعها الأقدمون

في جوف ذلك المحل جِرساً على البركة ، وَبَنَوْا فوقها بِالْأَجْرِ بحيث سدوا جوف ذلك الحوض كله ، فصار دكة مستوية ، ووضعوا المنبر الآتي ذكره عليها ، وشاهدت آثار قائمتي المنبر الشريف اللتين كان بأعلاهما رُمَاتُهُمَا قد نُحِتَ لهما في الحجر المحيط بالحوض المذكور على نحو ذراع وثلاث من طرف باطن الحوض المذكور مما يلي القبلة ، وَسَعَةُ الحوض المذكور خمسة أشبار كما ذكره ابنُ جُبَيْرٍ في سعة المنبر ، وعرضُ جدار الحوض المذكور خلف المنبر نحوُ نصفِ ذراع ، وقد حرصتُ على وَضْعِ ما وجد من تلك الأخشاب في محلها ، فوضع ما بقي منها في محله من الحوض المذكور ، وبنوا عليه كما سيأتي ، والله أعلم .

ولما احترق المنبر المذكور في جملة الحريق أرسل الملك المظفر صاحب اليمن في سنة ست وخمسين منبراً له رُمَاتَانِ مِنَ الصَّنَدَلِ ، فنُصِبَ في موضع منبر النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكره المطري فمن بعده ، قال : ولم يزل يخطب عليه عشر سنين ، فلما كان في سنة ست وستين وسبعمائة أرسل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري هــ هذا المنبر الموجود اليوم : أي زمن المطري ، فقلع منبر صاحب اليمن ، وحمل إلى حاصل الحرم ، ونصب هذا المنبر مكانه ، وطوله أربع أذرع في السماء ، ومن رأسه إلى عتبه سبع أذرع يزيد قليلاً ، وعدد درجاته ثمان مائة .

قال المجد : وله باب بمصرعين ، في كل مصراع رمانة من فضة ، ومكتوب على جانبه الأيسر اسم صانعه « أبو بكر بن يوسف النجار » وكان من أكابر الصالحين الأخيار ، وهو الذي قدم بالمنبر إلى المدينة ، فوضعه في موضعه ، فأحسن وضعه ، وأتقن نجارته وصنعتة ، ثم انقطع في المدينة .

قال الزين المراغى : وبقي منبر الظاهر بيبرس يُخَطَّبُ عليه من سنة ست وستين وسبعمائة إلى سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، فكانت مدة الخطبة عليه مائة سنة واثنين وثلاثين سنة ، فبدأ فيه أكل الأرضة ؛ فأرسل الظاهر برقوق صاحب

مصر هذا المنبر الموجود اليوم : أى زمن المراغى ، أرسله فى آخر سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، وقلع منبر الظاهر ببيرس ، انتهى .

قلت : ولم يزل هذا المنبر موجودا إلى ما بعد العشرين وثمان مائة ، كما أخبرنى به جماعة من مشايخ الحرم منهم الشيخ صالح المعمر الجمال عبد الله بن قاضى القضاة عبد الرحمن بن صالح ، قال : فأرسل سلطان مصر الملك « المؤيد شيخ » هذا المنبر الموجود اليوم عام اثنين وعشرين وثمان مائة .

ثم رأيت فى كلام الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر أن المنبر الموجود اليوم أرسله المؤيد سنة عشرين وثمان مائة ؛ فهذا هو المعتمد ، لكن لم يطلع ابن حجر على ما ذكره المراغى من منبر الظاهر برقوق ، وجعل إتيان منبر المؤيد هذا بدلا عن منبر الظاهر ببيرس ، وكلام المراغى أولى بالاعتماد فى ذلك ؛ فإنه كان بالمدينة حينئذ ، وعلى هذا فمدة الخطبة على منبر الظاهر برقوق ثلاث وأربع وعشرون سنة ، ثم وضع منبر المؤيد .

وأخبرنى السراج النقطى أنه صنعهُ أهلُ الشام ، وجاؤا به المؤيدَ ليُجعله بمدرسته المؤيدية ، فوجدوا أهلَ مصر قد صنعوا لها منبرا ، فجهز المؤيد منبر أهل الشام إلى المدينة الشريفة ، وقال لى الجمال عبد الله بن صالح : شاهدتُ وضعه موضع المنبر الذى كان قبله .

قلت : ويدل على صحة ذلك ما قدمناه من اختبار ذراع ما بينه وبين المصلّى الشريف ؛ إذ المنقول أن بينهما أربعة عشر ذراعاً وشبراً ، وقد اختبرتهُ من ناحية المصلّى الشريف إلى ما حاذاه من المنبر فى المغرب فكان كذلك ؛ فوضعهُ من هذه الجهة صحيح لا شك فيه ، وأما من جهة القبلة فقد قال المطرى : إن المنبر الذى أدركه بينه وبين الدرابزين الذى فى قبلة الروضة مقدار أربعة أذرع وربع ذراع ، وقد ذكر الزين المراغى فى كتابه ما ذكره المطرى من الذراع ، ولم يتعقبه ؛ فافتضى أن المنبر الذى تقدم وضعه فى زمنه وضع موضع المنبر الذى كان فى زمان المطرى ، وأقر أيضا قول المطرى فى حدود المسجد أن المنبر لم يغير عن منصبه الأول .

وقد ذكر ابن جماعة أيضا ذراع ما بين المنبر والدرابزين ، وهو يعني المنبر الموجود زمن المطري ، فقال : إن بينهما ثلاثة أذرع بذراع العمل ، وهو أزيد مما ذكره المطري بربع ذراع راجح ؛ لأن ذراع العمل كما تقدم ذراع ونصف ، وكأن المطري يعني ذراع المدينة اليوم كما يؤخذ من كلام المراغي فيوافق كلام ابن جماعة ، والذي بين هذا المنبر الموجود اليوم وبين الدرابزين المذكور ذراعان وثلاث بذراع العمل ، وذلك ثلاثة أذرع ونصف من الذراع الذي قدمنا أنه المراد عند الإطلاق ؛ فيحتمل أن يكون هذا المنبر مقدم الوضع لجهة القبلة على المنبر الذي كان قبله ، وهو مقتضى ما نقله الأثبات ، لكنني أستبعده للأخبار ممن لقيناه بوضعه موضع ذاك

ثم تبين عند انكشاف الدكة التي تقدم ذكرها من آثار المنبر المحترق قديما ما علمنا به صواب ما ذكره المطري وغيره أن هذا المنبر مقدم الوضع على الذي قبله من جهة القبلة بما يقرب من ذراع ، وكذا ظهر زيادته من جهة الشام أيضا على الدكة الأصلية المتقدم وصفها بقريب من ذراع ، ووجد محرفا عنها من طرفه الشامي نحو المغرب قدر شبر لما فيها من التيامن الذي تقدمت الإشارة إليه في التنبيه الثالث من الفصل قبله ، وكنت قد أيدت وضعه بكونه أقرب إلى ماورد فيما كان بين المنبر والجدار القبلي كما سيأتي فأنكشف الحق لدى عيني ، والذي لقيناه وأخبر بوضعه موضع المنبر الذي كان قبله هو الجمال بن صالح في آخر عمره ، وكان غير تام الضبط حينئذ ، وكنت قد أيدت خبره بأنا قد قدمنا إلى الصندوق الذي في قبلة المصلّى الشريف في عرض الجدار ، وأن المصلّى الشريف لم يغير باتفاق ، وأن منبر النبي صلى الله عليه وسلم كان بينه وبين الجدار القبلي ممر الشاة أو ممر الرجل منحرفا ، وأقصى ما قيل فيه ذراع وشيء كما قدمناه ، فإذا أسقطت قدر ما بين طرف المصلّى الشريف والدرابزين الذي أمامه مما بين المنبر اليوم والدرابزين المذكور وهو ثلاثة أذرع ونصف بقي ذراع ، وهو نحو القدر المنقول فيما بين المنبر القديم وجدار المسجد

الشریف ، ثم تبين لنا مما سبق في حدود المسجد النبوی وبانکشاف المرمر الذی فی قبلة المنبر تقدم الدرايزن المذكور عن ابتداء المسجد النبوی بأزید من ذراع كما قدمناه فی حدود المسجد النبوی ؛ فالصواب ما ذكره المطری ومن تبعه .

وطول هذا المنبر فی السماء سوى قبتہ وقوائمه ، بل من الأرض إلى محل الجلوس ، ستة أذرع وثلاث ، وارتفاع الخافقتين اللتين يمين المجلس وشماله ذراع وثلاث ، وامتداد المنبر فی الأرض من جهة بابه إلى مؤخره ثمانية أذرع ونصف راجحة ، وعدد درجته ثمانية ، وبعدها مجلس ارتفاعه نحو ذراع ونصف ، وقبته مرتفعة ، ولها هلال قائم عليها يرتفع أيضاً ، وما أظن منبرا وضع قبله فی موضعه أرفع منه ، وله باب بصريعتين .

وقد احترق هذا المنبر فی حريق المسجد الثاني الحادث فی رمضان عام ستة وثمانين وثمان مائة ، فكانت مدة الخطبة عليه نحو سبع وستين سنة .

ولما نظف أهل المدينة محله جعلوا فی موضعه منبرا من آجر مَظْلِي بالنورة ، واستمر يخطب عليه إلى أثناء شهر رجب سنة ثمان وثمانين ، فهدم رابع الشهر المذكور ، وحفروا لتأسيس المنبر الرخام الموجود اليوم ظاهر الدكة المتقدم ذكرها ، فوجدت على النحو المتقدم ، ونقضوا من بعضها قريب القامة فلم يبلغوا نهايتها ، ووجدوها محكمة التأسيس فی الأرض ، فأعادوها كما كانت ، إلا ما كان فوقها من نحو أزيد من نصف ذراع من الآجر ، وسوّوا ما وجد بحوضها كالحوض بالبنايا بعد وضع ما تقدم ذكره مما وجد بمقدمها من بقايا المنبر القديم المحترق فی الحريق الأول بمقدمها أيضا ، وكانوا قد سألوني عن ابتداء حد المنبر القديم من جهة القبلة والروضة فأخبرتهم بذلك ، وأن ذلك الحوض وما به من محل قوائم المنبر الأصلي إمام يقتدى به لموافقته ما ذكره المؤرخون قديما وحديثا ، فشرعوا فی وضع رخام المنبر عليها على سمت ما ظهر من الفرضة التي وجدوها فی الحوض المذكور على الاستقامة من غير انحراف ، وبينها وبين طرف الدكة الشرقي خمسة أصابع ،

لما ظهر من أن المنبر الأصلي كان بالحوض المذكور ، ومشاهدة محل قوائمه نقرأ في الحجر وبقايا الرصاص الذي كانت القوائم مثبتة به ، وما وصفه المؤرخون في أمر المنبر الأصلي شاهدٌ لذلك ، ومعلوم أن الحوض الموجود في باطن تلك الدكة لا يمكن وضع المنبر فيه إلا على الاستقامة ، سيما وقد طابقت سمته ما ذكره ابن جبير في سعة المنبر الأصلي ، وإحكام تلك الدكة بحيث إنهم حفروا منها قرب القامة ، ولم يدركوا آخرها ، وإتقان فرضتي الحوض المذكور بالرصاص ، وترخيم تلك الدكة قديماً ، كَلَّه قاضٍ يجعل السلف لها من أجل وضع المنبر فيها ، كما صرح به المؤرخون ، ولم يكن السلف مع عظيم إتقانهم يجعلونها لوضع المنبر ويحرفونها عن وضعه ؛ لأن وضعها تابع لوضعه إذ جعلت من أجله ، وقد كان وضعه مشاهداً لهم ؛ لوجود المنبر النبوي بين أظهرهم وإتقانها وما سبق من المتقدمين في ذكر ترخيمها شاهد بعملها في عمارة عمر بن عبد العزيز للمسجد إن لم يكن من زمن معاوية رضي الله عنه عند تحريكه المنبر كما سبق ، ولم أرَ تب عند مشاهدتها في وضع المنبر بها كذلك ، وتيامن حوضها الذي كان المنبر به يسيرٌ جداً لا يخرج صدر المستقبل عن القبلة ، وقد أشار يحيى فيما قدمناه عنه في التنبيه الثالث إلى تصويب وضعه ، وأيضاً فقد يكون النبي صلى الله عليه وسلم وضعه متيامناً لما أوضحناه في الرسالة الموسومة بالنصيحة ، والمنبرُ جمادٌ ليس بمصل حتى يحزر أمره في الاستقبال ويترك ما وجد من حدوده الأصلية المجمع عليها في الأعصر الماضية المترتب عليها حدود الروضة الشريفة ، فشرعوا في وضع رُخَام المنبر المذكور على النحو الذي ذكرته ، غير أنهم جعلوا جداره من جهة القبلة على الأحجار التي خلف الحوض من جهة القبلة ؛ لاقتضاء نظرهم ذلك ، ولو كان لي من الأمر شيء ما وافقت عليه .

ثم وقع من بعض ذوى النفوس ما أوضحناه في الرسالة الموسومة (بالنصيحة الواجبة القبول ، في بيان وضع منبر الرسول) صلى الله عليه وسلم .

والحاصل أنهم نقضوا ما سبق ، وزادوا خلف أحجار الدكة المذكورة نحو ربع ذراع العمل حتى ساوى ذلك محل المنبر المحترق من جهة القبلة ، وحرفوه على تلك الدكة لجهة المغرب أزيد من تحريف المنبر المحترق ، وجعلوا هذا المنبر في محل المحترق من جهة القبلة ومساوٍ لطرفها الشرقى مما يلي القبلة أيضاً ، وزعموا أنه لا يعول على كلام من قدمناه من الأئمة ، ويتحرر مما سبق أنه مقدم على محل المنبر الأصلي لجهة القبلة بعشرين قيراطاً من ذراع الحديد ، وهو نحو ذراع اليد ، وأن المنبر النبوي لم يقع في محله تفسير إلا من تاريخ وضع المنبر المحترق في زماننا لأنه خفي على واضعه ما في جوف الدكة المذكورة ، ولم يدركه أحد من مؤرخي المدينة ، وكان مفترط الطول بحيث كان قاطعاً للصف الباقي من الروضة ، وقد اقتدى به واضع هذا المنبر لكونه من آبائه ، ولم يبال ولي الأمر بتفويته المنقبة العظيمة في إعادة وضع منبر الرسول صلى الله عليه وسلم على ما كان عليه ، وهذا المنبر - أعني الرخام - أقصر من امتداد المنبر المحترق في الأرض بنحو ثلاثة أرباع ذراع ، وعدد درجه مع مجلسه كالمحترق ، ومحل عود المنبر الأصلي منه مما يلي الروضة وهو الذي كان بأعلاه رمانة المنبر النبوي قبل عمود هذا المنبر بأزيد من قيراط ، وذلك على نحو ذراعين وشئ من طرف المنبر المذكور من القبلة .

وقد اشتهر محله من أحجار الدكة المذكورة بسبب تحريف المنبر المذكور بحيث تغيرت حدود الروضة الشريفة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
وفي يوم الجمعة يجعل على باب المنبر ستر من حرير أسود مرقوم بحرير أبيض وقد قدمنا أول من كسا المنبر .

كسوة المنبر

وأسند ابن زبالة عن هشام بن عروة أن ابن الزبير كان يلبس منبر النبي صلى الله عليه وسلم القباطي فسرقَت امرأة قُبْطِيَّة ففقطعها ، وقال ابن النجار : ولم نزل الخلفاء إلى يومنا هذا يرسلون في كل سنة ثوباً من الحرير الأسود له علم

ذهب يُكسَى به المنبرُ ، قال : ولما كثرت الكسوة عندهم أخذوها فجعلوها ستوراً على أبواب الحرم .

ستور الأبواب

قلت : قد استقر الأمر بعد قتل الخليفة المستعصم على تحل الكسوة من مصر كما قاله الزين المراغى ، قال : والأبواب مستقلة اليوم بستور ، قال : وإنما يظهرونها في أوقات المهمات كقدوم أمير المدينة ، وذكر ما سيأتى في كسوة الحجر من وقف قرية بمصر على ذلك وعلى كسوة الكعبة الشريفة ؛ فالكعبة تكسى كل عام مرة ، والحجرة والمنبر في كل ست سنين مرة .

وقال المجد : والمنبر يحمل له في كل سبعة أعوام أو نحوها من الديار المصرية كسوة معظمة ملوكية يُكسَاهَا من الجمعة إلى الجمعة ، ورايتان سوداوان يُنسَجَان أبدع نسج يرفعان أمام وجه الخطيب في جانبي المنبر قريباً من الباب .

قلت : في زماننا تمضى السبع سنين والعشر وأكثر من ذلك ولا تصل كسوة ، والذي يجعل اليوم على المنبر إنما هو الستر المتقدم ذكره مع الرايتين اللتين ذكرهما المجد ، والله أعلم .

الفصل الخامس

في فضائل المسجد الشريف

قال الله تعالى «لَسَجِدُ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ^(١)» .

روينا في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدرى قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت لبعض نسائه ، فقلت : يا رسول الله ، أى المسجدين الذى أسس على التقوى ؟ قال : فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض ، ثم قال : هو مسجدكم هذا ، لمسجد المدينة .

المسجد الذى أسس على التقوى

(١) من الآية ١٠٨ من سورة التوبة

ولأحمد والترمذی من وجه آخر عن أبي سعيد : اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فسألاه عن ذلك ، فقال : هو هذا ، وفي ذلك - يعني مسجد قباء - خير كثير ، وأخرجه أحمد من وجه آخر مرفوعاً ، وفي العتبية عن مالك مالفظة : وقال : المسجد الذي ذكر الله عز وجل أنه أسس على التقوى من أول يوم الآية هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ، أي مسجد المدينة ، ثم قال : أين كان يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أليس في هذا ؟ ويأتونه أولئك من هنالك .

وقد قال الله سبحانه وتعالى : « وإذا رأوا تجارة أولهواً أنفضوا إليها وتركوك قائماً » ^(۱) فإنما هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال عمر بن الخطاب : لولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سمعته يريد أن يقدم القبلة ، وقال عمر بيده هكذا ، ما قدمتها ، ثم قدمها عمر موضع المنصورة الآن ، انتهى .

قال ابن رشد في بيانه : ما ذهب إليه مالك مروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء ، فاستدلوا بما روي أن الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم خيراً ، الحديث ، قال : ولا دليل فيه ؛ لأن أولئك كانوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان معموراً بالمهاجرين والأنصار ومن سواهم ، قال : واستدلال مالك بقول عمر المتقدم ظاهر ؛ لأن الله تعالى لما ذكر فيه أنه أسس على التقوى لم يستجز نقض بنائه وتبديل قبلته ، إلا بما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك ورآه قد أراد أن يفعله .

(۱) من الآية ۱۱ من سورة الجمعة .

قلت : ما ذكره مالك من كون مسجد المدينة هو المراد هو ظاهر ما قدمناه ، لكن قوله تعالى « من أول يوم » يقضى أنه مسجد قباء ؛ لأنه ليس المراد أول أيام الدنيا ، بل أول أيام حُلُولِهِ صلى الله عليه وسلم بدار الهجرة ، وذلك هو مسجد قباء ، إلا أن يدعى أن النبي صلى الله عليه وسلم شرع في تأسيس مسجد المدينة أيضاً من أول يوم قدومه لها ، أو يقال : المراد من أول يوم تأسيسه ، وسيأتي في مسجد قباء أشياء صريحة في أنه المراد ؛ فتعين الجمع بأن كلا منهما يصدق عليه أنه أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه كما هو معلوم ، وأنهما المراد من الآية ، لكن يشكك عليه كون النبي صلى الله عليه وسلم أجاب عند السؤال عن ذلك بتعيين مسجد المدينة ، وجوابه أن السر في ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أراد به رفع توهم أن ذلك خاص بمسجد قباء كما هو ظاهر ما فهمه السائل ، وتنويعها بمزية مسجده الشريف لمزيد فضله ، والله أعلم .

وفي الصحيحين حديث أبي هريرة « لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد : فضل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجدى ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » . وعند مسلم « إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد : الكعبة ، ومسجدى ، ومسجد إيلياء » .

وعند أبي داود بلفظ « ومسجدى هذا » .

وفي الكبير والأوسط للطبراني برجال ثقات عن ابن عمر ، ورجال الصحيح عن أبي الجعد الضمري « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » ، وذكر نحو رواية الصحيحين .

وفي صحيح ابن حبان ومسنده أحمد والأوسط للطبراني وإسناده حسن من حديث جابر « خير ما رُكِبَتْ إليه الرواحلُ مسجدى هذا والبيت العتيق » .

وهو عند البزار بلفظ « خير ما ركبت إليه الرواحل مسجد إبراهيم ومسجد محمد صلى الله عليه وسلم » ورجاله رجال الصحيح إلا عبد الرحمن بن أبي الزناد وقد وثقه غير واحد .

فضل الصلاة
في مسجد
الرسول
صلى الله عليه
وسلم

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِي مَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» هذا لفظ البخاري، زاد مسلم «فَإِنِّي آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنْ مَسْجِدِي آخِرُ الْمَسَاجِدِ».

قلت: يريد آخر مساجد الأنبياء كما نقله الحب الطبري عن أبي حاتم، وإلا فهو من أول مساجد هذه الأمة، وإذا كانت الألف واللام هنا للمعهود — وهو مساجد الأنبياء — فالألف واللام أيضا في قوله «فَمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ» للعهد، والمراد مساجد الأنبياء؛ فيتحصل من معناه أن الصلاة في مسجده أفضل من الصلاة في سائر مساجد الأنبياء بألف صلاة إلا المسجد الحرام؛ فيقتضي ذلك أن تكون الصلاة بمسجده أفضل من ألف صلاة في بيت المقدس؛ لأنه من جملة مساجد الأنبياء، ولم يُسْتَمَنَّ، ويدل على ذلك ما رواه البزار عن أبي سعيد قال: وَدَّعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ لَهُ: أَيْنَ تَرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِي غَيْرِهِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَأَسْنَدُهُ يَحْيَى بِزِيَادَةِ تَسْمِيَةِ الرَّجُلِ فَقَالَ: عَنْ الْأَرْقَمِ أَنَّهُ تَجَهَّزَ يَرِيدُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ جِهَازِهِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوَدِّعُهُ، وَقَالَ فِيهِ: فَجَلَسَ الْأَرْقَمُ وَلَمْ يَخْرُجْ، وَأَسْنَدُهُ ابْنُ النَّجَّارِ عَنْ الْأَرْقَمِ بَلْفَظِهِ: إِنِّي أُرِيدُ الْخُرُوجَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَلَمْ؟ قُلْتُ: لِلصَّلَاةِ فِيهِ، قَالَ: هَهُنَا أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ هُنَاكَ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِرِجَالٍ ثِقَاتٍ عَنْ الْأَرْقَمِ بَلْفَظِهِ: صَلَاةٌ هَهُنَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ نَحْمَ.

وقد روى أبو يعلى برجال ثقات عن ميمونة قالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفْتِنَا فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ: أَرْضُ الْحَشْرِ، وَأَرْضُ الْمَنْشَرِ، ائْتُوهُ فَصَلُّوا فِيهِ، فَإِنْ صَلَاةٌ فِيهِ كَأَلْفِ صَلَاةٍ — أَيْ فِي غَيْرِهِ مِنْ مَسَاجِدِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ، وَمَسَاجِدِ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مَا عَدَا الْمَسْجِدَيْنِ — لِقِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ؛ فَتَكُونُ الصَّلَاةُ بِمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ

خيرا من ألف ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام والمسجد الأقصى،
فأما المسجد الأقصى فإنها أفضل من ألف صلاة فيه فقط ، ولا يعلم قدر زيادتها
في الفضل على ذلك إلا الله تعالى ، ولمثل هذا تضرب آباطُ الإبل ، وتُستحق
الرحلة ، ولا يعكر على ذلك ما رواه أحمد برجال الصحيح عن أبي هريرة وعائشة
قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدى خير من ألف صلاة
فيما سواه من المساجد إلا المسجد الأقصى » لأن المحفوظ إنما هو استثناء المسجد
الحرام ، وحديث أبي هريرة في الصحيح خلا قوله « إلا المسجد الأقصى » وهو
معارض بما تقدم ، ولأن الهيثمي أورده في مجمع الزوائد ثم قال : رواه أحمد ،
وأعاده بعد هذا بسنده فقال : إلا المسجد الحرام ، فاتضح بذلك ما قلناه .

وأما المسجد الحرام فاختلف الناس في معنى استثناءه ، فذهب مالك في رواية
أشهب عنه - وقاله ابن نافع صاحبه وجماعة من أصحابه - إلى أن معنى الاستثناء أن
الصلاة في مسجد الرسول أفضل من الصلاة في سائر المساجد بألف صلاة ، إلا المسجد
الحرام فإن الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من الصلاة فيه بدون
الألف ، وذهب بعضهم إلى أن الصلاة في مسجد المدينة أفضل من الصلاة في
مسجد مكة بمائة صلاة ، وحمل على ذلك الاستثناء في الحديث المتقدم ، واحتجوا
برواية سليمان بن عتيق عن ابن الزبير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه « صلاة
في المسجد الحرام خير من مائة صلاة في ما سواه » فيأتي فضيلة مسجد الرسول
عليه بتسعمائة ، وعلى غيره بألف ، وتُعقَّب بأن المحفوظ بالإسناد المتقدم « صلاة في
المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، إلا مسجد الرسول فإنما فضله
عليه بمائة صلاة » .

قلت : وروى الطبراني في الأوسط عن عائشة مرفوعا « صلاة في المسجد
الحرام أفضل من مائة صلاة في غيره » لكن فيه سويد بن عبد العزيز ، قال
(٣ - وفاء ٢٠٠)

البخارى : فى حديثه نظر لا يَحْتَمَل . وقد صح ما يقتضى رد ما ذهب إليه هؤلاء ؛ فقد روى أحمد والبخارى وابن خزيمة رجال الصحيح من طريق حبيب المعلم عن عطاء عن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى هذا » زاد ابن خزيمة « يعنى فى مسجد المدينة » لكن لفظ البخارى « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام فإنه يزيد عليه بمائة » وهى محتملة لأن يكون الضمير فى « فإنه يزيد » لمسجده أو للمسجد الحرام ، وقد صحح ابن عبد البر حديث أحمد ، وقال : هو الحجة عند النزاع ، نص فى موضع الخلاف ، قاطع له عند من ألهم رشده ، ولم تمل به العصبية ، قال : ولما طعن فيه إلا تشعشع لا يعرج على قوله فى حبيب ، وقد كان الإمام أحمد يدرجه ، ويوثقه ، ويثبته عليه ، وكان عبد الرحمن بن مَهْدِي يحدث عنه ، ولم يرو عنه القطان ، وروى عنه أئمة ثقات يُقْتَدَى بهم ، ومنهم من أعلّه باختلاف على عطاء ؛ لأن قوما يروونه عنه عن ابن الزبير ، وآخرين يروونه عنه عن ابن عمر ، وآخرين عنه عن جابر ، ومن العلماء من يجعل مثل هذا علة فى الحديث ، وليس كذلك ؛ لأنه يمكن أن يكون عن عطاء عنهم ، والواجب أن لا يُدْفَعَ خبر نقله العدول إلا بحجة .

قال البخارى : هذا الحديث قد روى عن عطاء ، واختلف على عطاء فيه ، ولا نعلم أحداً قال بأنه يزيد على مسجد المدينة مائة إلا ابن الزبير ، وقد تابعه حبيب المعلم الربيع بن صُبَيْح ؛ فرواه عن عطاء عن ابن الزبير ، ورواه عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء عن ابن عمر ، ورواه ابن جُرَيْج عن عطاء بن أبى سلمة عن أبى هريرة أو عائشة ، ورواه ابن أبى ليلي عن عطاء عن أبى هريرة ، انتهى .

وقال الذهبي فى مختصر سنن البيهقي : إسناده صالح ، ولم يخرج به أصحاب السنن .

قلت : هذا أمر آخر ، وهو أن الحديث المذكور لما اختلف لفظه على وجهين أحدهما ليس نصا في الدلالة كما قدمناه احتمل أن تكون الرواية في الواقع به ، ومن رواه بالوجه الآخر رواه بالمعنى بحسب فهمه ، إلا أن وروده من الطرق الأخرى بذلك اللفظ توهن هذا الاحتمال ، وعلى تقدير ثبوته فهو من ابن الزبير ، وهو أعرف بفهم مرويه ؛ لأن عبد الرزاق روى عن ابن جريج قال : أخبرني سليمان بن عتيق وعطاء عن ابن الزبير أنهما سمعا يقول « صلاة في المسجد الحرام خير من مائة صلاة فيه » ويشير إلى مسجد المدينة ، وقد قال ابن عبد البر : إن رجال إسناد حديث ابن عمر علماء أجلاء ، ورواه ابن وضاح عن ابن الزبير من كلام عمر بن الخطاب بنفسه ، قال ابن حزم : وسنده كالشمس في الصحة ، وروى ابن أبي خيثمة عن أبيه حدثنا مسلم عن الحجاج عن عطاء عن عبد الله بن الزبير قال : الصلاة في المسجد الحرام تفضل على مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بمائة ضعف ، قال : فنظرنا فإذا هي تفضل على سائر المساجد بمائة ألف صلاة ، قال ابن عبد البر وابن حزم : فهذان صحابييان جليلان يقولان بفضل المسجد الحرام على مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يخالف لهما من الصحابة ؛ فصار كالإجماع منهم على ذلك .

وفي ابن ماجه من حديث جابر مرفوعا « صلاة في مسجدى أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه » وفي بعض النسخ « من مائة صلاة فيما سواه » فعلى الأول معناه فيما سواه إلا مسجد المدينة ، وعلى الثانى معناه من مائة صلاة في مسجد المدينة لما تقدم عن جابر .

قلت : وقد روى يحيى حديث الصحيحين المتقدم عن جبير بن مطعم بلفظ « إن صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد غير الكعبة » وفي رواية النسائى وغيره « إلا مسجد الكعبة » ولهذا ذهب بعضهم إلى أن المراد من المسجد الحرام الكعبة ، وبه قال العمرانى من أصحابنا وغيره ،

وروى البزار عن عائشة حديث « أنا خاتم الأنبياء ، ومسجدي خاتم مساجد الأنبياء ، أحق المساجد أن يزار وتُشدَّ إليه الرواحل المسجد الحرام ومسجدي ، وصلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام » وروى ابن ماجة مرفوعاً برجال ثقات إلا أبا الخطاب الدمشقي فهو مجهول « صلاة الرجل في بيته بصلاة ، وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة ، وصلاته في المسجد الذي يجمع فيه بخمس مائة صلاة ، وصلاته في المسجد الأقصى بخمسين ألف صلاة ، وصلاة في مسجدي بخمسين ألف صلاة ، وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » وهو يقتضي أن الصلاة بمسجد المدينة مساوية لمسجد بيت المقدس ، وأنهما معا على النصف من الصلاة بالمسجد الحرام ، وهو يخالف لما في الصحيح ، مع أن مفهوم العدد ليس بحجة ؛ فلا ينفى ما ثبت من الزيادة لمسجد المدينة على مسجد بيت المقدس سيما بالطريقة التي قدمناها

وفي الطبراني — وهو حسن ، وفي بعض رجاله كلام — عن أبي الدرداء مرفوعاً « الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، والصلاة في مسجدي بألف صلاة ، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة » ورواه ابن خزيمة في صحيحه بنحوه ، والبزار وحسنه ، وقال المجد : أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب ، قال : ولا نعلم حديثاً يشتمل على فضيلة الصلاة بالمساجد الثلاثة خصوصاً^(١) سواه مما يصح عند الاعتبار . معناه

قلت : لم أره في الترمذي ، وقد ساقه ابن عبد البر محتجاً به ، وهو غير مانع مما قدمناه من كون الصلاة بمسجد المدينة أفضل من ألف صلاة بمسجد بيت

(١) المساجد الثلاثة : هي الأقصى ، ومسجد المدينة ، والمسجد الحرام ، و« خصوصاً » أراد به بيان فضل الصلاة في كل مسجد منها على انفراده من غير أن يذكر زيادة الصلاة فيه على الصلاة في غيره من المساجد .

المقدس ؛ لأن العدد لا ينفي الزائد ، وكذا حديث الأوسط للطبراني رجال الصحيح عن أبي ذر : تذاكرنا ونحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أئماً أفضل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بيت المقدس ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه ، ولنعم المصلّي هو » وقد يقال في ذلك كما قيل في نظائره من احتمال أنه صلى الله عليه وسلم أخبر أولاً ببعض ذلك بحسب ما أوحى إليه ، ثم أعلم بالزيادة ، ويكون حديث الأقل قبل حديث الأكثر ، ثم تفضل الله بالأكثر شيئاً بعد شيء ، ومحصله ما قررناه من الأخذ بالزائد ، ويحتمل أن ينزل تلك الأعداد على اختلاف الأحوال^(١) ؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى غير نهاية

ونقل الزركشي في أعلام المساجد عن الكبير للطبراني بسند فيه مؤاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدي هذا بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة في المسجد الحرام بعشرة أمثالها مائة ألف صلاة ، وصلاة الرجل في بيت المقدس بألف صلاة ، وصلاة الرجل في بيته حيث لا يراه أحد أفضل من ذلك كله »

قلت : وهو ضعيف ، ولم يورده الهيثمي في مجمع^(٢) في فضل الصلاة في المساجد الثلاث وهذه المضاعفة المذكورة في هذه المساجد لا تختص بالفريضة ، بل تعم الفرض والنفل ، كما قال النووي في شرح مسلم إنه المذهب قال الزركشي : وهو لازم تعليل الأصحاب استثناء النفل بمكة في الأوقات المكروهة بمزيد الفضيلة

وقال الطحاوي من الحنفية : هو مختص بالفرض ، وفعل النوافل بالبيت

(١) اختلاف الأحوال : أي أحوال الناس من احتمال المشقة الشديدة ، والإخلاص

في العمل ، وطهارة الظاهرة والباطن من الدنيا وعلائقها

(٢) مجمع : هو مجمع الزوائد لابن حجر الهيتمي

أفضل ، وإليه ذهب ابنُ أبي زيد من المالكية ، وهو المرجح عندهم ، وفرق بعضهم بين أن يكون المسجد خاليا أم لا

فإن قيل : كيف تقولون إن المضاعفة تعم الفرض والنفل وقد تطابقت الأصحاب ونص الحديث الصحيح على أن فعل النافلة في بيت الإنسان أفضل ؟

قلت : لا يلزم من المضاعفة في المسجد أن يكون أفضل من البيت كما قاله الزركشي وغيره ، وغاية الأمر أن يكون في المفضول مزية ليست في الفاضل ، ولا يلزم من ذلك جعله أفضل ؛ فإن للأفضل مزايا إن كان للمفضول مزية ، ولهذا بحث التاج السبكي مع أبيه في صلاة الظهر بمنى يوم النحر إذا جعلنا منى خارجة عن محل المضاعفة: هل يكون أفضل من صلاتها في المسجد لأنه صلى الله عليه وسلم فعلها بمنى يومئذ أو في المسجد للمضاعفة ؟ فقال والده : بل في منى وإن لم يحصل بها المضاعفة ؛ فإن في الاقتداء بأفعال النبي صلى الله عليه وسلم ما يربو على المضاعفة ، على أن الحافظ ابن حجر ذكر ما يقتضى إثبات المضاعفة للتنفل في البيوت بالمدينة ومكة ، عملا بعموم قوله صلى الله عليه وسلم «أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة» فقال : وقد تقدم النقل عن الطحاوي وغيره أن ذلك - يعني التضعيف - مختص بالفرائض ؛ لحديث «أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة» ويمكن أن يقال : لا مانع من إبقاء الحديث على عمومه ؛ فتكون النافلة في بيت بالمدينة أو مكة تضاعف على صلاتها في البيت بغيرها ، وكذا في المسجدين ، وإن كانت في البيوت أفضل مطلقا

مرجع مضاعفة فضل الصلاة
ثم إن التضعيف المذكور يرجع إلى الثواب بتلك الأعداد ، لا إلى الإجزاء ، باتفاق العلماء كما نقله النووي وغيره ؛ فلو كانت عليه صلوات فصلى في أحد المسجدين صلاة لم تجزئه إلا عن واحدة ، وقد أوهم كلام أبي بكر النقاش في تفسيره

خلاف ذلك ؛ فإنه قال : حسبت الصلاة في المسجد الحرام فبلغت صلاة واحدة بالمسجد الحرام عمر خمسة وخمسين سنة وستة أشهر وعشرين ليلة ، اهـ . وهذا مع قطع النظر عن التضعيف بالجماعة والسواك ونحوه ، لكن هل تجمع التضعيفات أولا؟ محل بحث

هل يختص
التضعيف
بالصلاة؟

قلت : وينبغي أن لا يختص هذا التضعيف بالصلاة ، بل سائر أنواع الطاعات كذلك قياسا على ما ثبت في الصلاة ، كما صرحوا به في مسجد مكة المشرفة ، وصرح به فيما يتعلق بالمدينة صاحب الانتصار أبو سليمان داود من المالكية ، ثم رأيت في كلام الغزالي في الإحياء كما قدمناه في فضل الخصال ، ويشهد له ما في الكبير للطبراني عن بلال بن الحارث قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رمضان بالمدينة ^(١) خير من ألف رمضان فيما سواها من البلدان ، وجمعة بالمدينة خير من ألف جمعة فيما سواها من البلدان » ونقل المجد عن أبي الفرج الأموي أنه أخرجه بسنده عن ابن عمر

قلت : ورواه ابن الجوزي في شرف المصطفى عن ابن عمر أيضا بلفظ « صيام شهر رمضان بالمدينة كصيام ألف شهر فيما سواها ، وصلاة الجمعة بالمدينة كألف صلاة فيما سواها »

وروى البيهقي عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواها إلا المسجد الحرام ، والجمعة في مسجدي هذا أفضل من ألف جمعة فيما سواها إلا المسجد الحرام ، وشهر رمضان في مسجدي هذا أفضل من ألف شهر رمضان فيما سواها إلا المسجد الحرام » ورواه أيضا عن ابن عمر بنحوه

(١) المراد صيام رمضان كما ورد في الحديث الآخر الذي سيرويه المؤلف بعد هذا بقليل ؛ فالكلام على حذف مضاف ، وكذلك قوله « وجمعة » المراد به « صلاة الجمعة » إلا أن يراد بلفظه الجمعة صلاتها ؛ فإن أريد به ذلك لم يحتج إلى تقدير المضاف ..

وهذه الأحاديث وإن كانت ضعيفة فإذا ضمت إلى ما قدمناه من القياس على الصلاة ثم الاستدلال ، وقد قدمنا في حدود مسجده صلى الله عليه وسلم الخلاف المذكور في المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « صلاة في مسجدي هذا » ، وترجيح أن ذلك يتناول ما زيد فيه .

وروى أحمد والطبراني في الأوسط ورجاله ثقات عن أنس بن مالك حديث « من صلى في مسجدي أربعين صلاة » زاد الطبراني « لا تقوته صلاة كتب له براءة من النار ، وبراءة من العذاب ، وبريء من النفاق » . تقدم هذا الحديث بدون زيادة الطبراني ، وهو عند الترمذي بغير هذا اللفظ .

وروى ابن المنذر وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من حين يخرج أحدكم من منزله إلى مسجدي فَرَجُلٌ تَكْتُبُ حَسَنَةً وَرَجُلٌ تَحُطُّ عَنْهُ خَطِيئَةٌ » .

وقال البيهقي بعد ذكر حديث فضل مسجد قباء ما لفظه : ورواه يوسف بن طهمان عن أبي أمامة بن سهل عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وزاد « ومن خرج على طهر لا يريد إلا مسجدي هذا — يريد مسجد المدينة — ليصلي فيه كانت بمنزلة حجة » وقد أسند ذلك ابن زبالة ومن طريقه ابن النجار عن سهل أيضاً ، وفي إسناده ابن طهمان أيضاً ، وهو ضعيف عند البخاري وابن عدي ، وذكره ابن حبان في الثقات ، ولفظ ابن زبالة « مَنْ خَرَجَ عَلَى طَهْرٍ لَا يَرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ فِي مَسْجِدِي حَتَّى يَصْلِيَ فِيهِ كَانَ بِمَنْزِلَةِ حُجَّةٍ » وأُسْنَدُهُ وَيَحْيَى عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ حَدِيثٌ « مَنْ دَخَلَ مَسْجِدِي هَذَا يَتَعَلَّمُ فِيهِ خَيْرًا أَوْ يَعْلَمُهُ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَنْ دَخَلَهُ لَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحَادِيثِ النَّاسِ كَانَ كَالَّذِي يَرَى مَا يَعْجِبُهُ وَهُوَ لَغَيْرِهِ » وفي رواية لها عن عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه « مَنْ دَخَلَ مَسْجِدِي هَذَا لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا لِيَعْمَلَ خَيْرًا أَوْ يَتَعَلَّمَهُ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِ »

في سبيل الله ، ومن دخله لغير ذلك من أحاديث الناس كان بمنزلة من يرى ما يعجبه وهو في يدَي غيره .

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مَنْ جاء مسجدي هذا لم يأتِه إلا خيراً يتعلمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله ، ومن جاءه لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره » ورواه الطبراني من حديث سعد مرفوعاً بمعناه ، إلا أنه قال « من دخل مسجدي ليتعلم خيراً أولي علمه » ورواه ابن حبان في صحيحه بلفظ الطبراني لكن من حديث أبي هريرة .

وأُسند ابن زبالة عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دخل مسجدي هذا لصلاة أو لذكر الله أو يتعلم خيراً أو يعلمه كان بمنزلة المجاهد في سبيل الله » ولم يجعل ذلك لمسجد غيره ، وعند يحيى أيضاً عن كعب أنه قال « ما من مؤمن يغدو أو يروح إلى المسجد لا يغدو أو لا يروح إلا ليتعلم خيراً أو يعلمه أو يذكر الله أو يذكر به إلا كان مثله في كتاب الله كمثل الجهاد في سبيل الله ، وما من رجل يغدو أو يروح إلى المسجد لا يغدو ولا يروح إلا لأخبار الناس وأحاديثهم إلا كان مثله في كتاب الله كمثل الرجل يرى الشيء يعجبه ويرى المصلين وليس منهم ، ويرى الذاكرين وليس منهم » ، وعنده أيضاً عن أبي سعيد المقبري عن الثقة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا إخال إلا أن لكل رجل منكم مسجداً في بيته » قالوا : نعم يا رسول الله ، قال « فوالله لو صليتم في بيوتكم لتركتم مسجد نبيكم ، ولو تركتم مسجد نبيكم لتركتم سننه ، ولو تركتم سننه إذا لزلتم » .

وفي الصحيح من حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في غزوة خيبر « مَنْ أكل من هذه الشجرة — يعني الثوم — فلا يقربن مسجداً » .

قال الكرماني : قال التيمي : قال بعضهم : النهي إنما هو عن مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، من أجل ملائكة الوحي ، والأكثر على أنه عام ، انتهى . وقد حكى ابن بطال القول بالاختصاص عن بعض أهل العلم ووهاه^(١) ، والله أعلم .

الفصل السادس

في فضل المنبر المنيف ، والروضة الشريفة

روينا في الصحيحين حديث عبد الله بن زيد المازني رضي الله عنه « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » زاد البخاري من حديث أبي هريرة ، « ومنبري على حوضي » .

وروى أحمد وأبو يعلى والبزار وفيه على بن زيد وقد وثق عن جابر بن عبد الله مرفوعاً « ما بين بيتي إلى منبري روضة من رياض الجنة ، وإن منبري على ترعة من ترع الجنة » .

وروى أحمد برجال الصحيح عن سهل بن سعد مرفوعاً « منبري على ترعة من ترع الجنة » وفيه تفسير التربة بالباب ، وقيل : التربة الروضة تكون على المكان المرتفع خاصة ، وقيل : الدرجة .

ورواه يحيى عن أبي هريرة وغيره بلفظ « على رتعة من رتع الجنة » وكذا هو في رواية لرزين ، وظنه بعضهم تصحيفاً فكتب في هامشه « صوابه ترعة » وليس كذلك ، بل معناه صحيح ؛ إذ الرتع الاتساع في الخصب ، والرتعة بسكون التاء وفتحها - الاتساع في الخصب ، وكل مخصب مرتع

وفي الحديث : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » ، وروى البزار عن معاذ ابن الحارث نحوه .

(١) وهاء : جعله واهياً أى ضعیفاً .

وفي الكبير للطبراني من طريق يحيى الحماني وهو ضعيف عن أبي واقد الليثي مرفوعاً « قوائم منبري رَوَاتِبُ في الجنة » ورواه ابن عساكر وابن النجار ويحيى عن أم سلمة ، وقال المجد : أخرجه عنها النسائي ، وفي رواية لابن عساكر « وضعت منبري هذا على تُرْعَةٍ من تُرْعِ الجنة » .

وأُسند يحيى عن أبي المعلى الأنصاري وكانت له صحبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر « إن قدمي على ترعة من ترع الجنة » .
وعن أبي سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على منبره « أنا قائم الساعة على عقر حوضي ^(١) » وفي رواية له « إني على الحوض الآن » .

وأُسند ابن زبالة عن نافع بن جبير عن أبيه حديث « أَحَدُ شِقَى المنبر على عقر الحوض ، فمن حلف عنده على يمين فاجرة يقطع بها حق امرئ مسلم فليتبوأ مقعده من النار » قال : وعقر الحوض من حيث يصب الماء في الحوض .

وفي سنن أبي داود من حديث جابر مرفوعاً « لا يحلف أحد عند منبري هذا على يمين آثمة ولو على سواك أخضر إلا تَبَوَّأَ مقعده من النار ، أو وجبت له النار » ، ورواه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححوه .

وروى النسائي برجال ثقات عن أبي أمامة بن ثعلبة مرفوعاً « مَنْ حَلَفَ عند منبري هذا يميناً كاذبة استحلَّ بها مال امرئ مسلم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه حَرْفًا ولا عدلاً » .

وفي الأوسط للطبراني وفيه ابن كهيعة عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً « منبري على تُرْعَةٍ من تُرْعِ الجنة ، وما بين المنبر وبين عائشة روضة من رياض الجنة » .
وفي الصحيحين حديث ابن عمر « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة » .

(١) عقر الحوض : المكان الذي منه يصب الماء في الحوض ، وسيفسره بذلك المؤلف في الحديث التالي ، وسيفسر عقر الحوض بتأخره في ص ٤٢٩ .

وروى أحمد برجال الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد حديث « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ، ومنبري على حوضي » .

وروى البزار برجال ثقات عن سعد بن أبي وقاص حديث « ما بين بيتي ومنبري ، أو قبري ومنبري ، روضة من رياض الجنة » وفي الأوسط للطبراني وفيه متروك عن أنس بن مالك حديث « ما بين حُجْرَتِي وَمُصَلَّائِي روضة من رياض الجنة » وفي رواية لابن زبالة من طريق عائشة بنت سعد عن أبيها « ما بين منبري والمصلي » وفي رواية « ما بين مسجدي إلى المصلي روضة من رياض الجنة » ورواه أبو طاهر بن المخلص في انتقائه ويحيى في أخبار المدينة بلفظ « ما بين بيتي ومُصَلَّائِي روضة من رياض الجنة » قال جماعة : المراد به مصلي العيد ، وقال آخرون : مُصَلَّاهُ الذي يصلي فيه في المسجد ، كذا قاله الخطابي .

قلت : ويؤيد الأول أن في النسخة التي رواها طاهر بن يحيى عن أبيه يحيى عقب الحديث المذكور ما لفظه : قال أبي : سمعت غير واحد يقولون : إن سعدا لما سمع هذا الحديث من النبي صلى الله عليه وسلم بنى داره فيما بين المسجد والمصلي ، وكذا ما سيأتي في مصلي العيد من رواية ابن شبة عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص . قلت : وهو شاهد لما سيأتي من عموم الروضة لجميع مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما زيد فيه من جهة المغرب .

وروى عبد الله بن أحمد في زوائد المسند برجال الصحيح إلا أن فيهم فليحا — وقد روى له الجماعة، وقال الحاكم : اتفاقُ الشيخين عليه يقوى أمره، وقال الساجي : ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال الدارقطني : فليح يختلفون فيه ، وقال بعضهم : إنه كثير الخطأ — عن عبد الله بن زيد المازني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بين هذه البيوت — يعني بيوته — إلى منبري روضة من رياض الجنة ، والمنبر على تَرْعَةٍ من تَرْعِ الجنة » .

معنى كون المنبر
على الحوض

وقد اختلف في معنى ذلك؛ فقال الخطابي: معنى قوله «ومنبري على حوضي» أن قصد منبره والحضور عنده للملازمة الأعمال الصالحة يورد الحوض ويوجب الشرب منه، وهذا قول الباقي، والثاني: أن منبره الذي كان يقوم عليه صلى الله عليه وسلم يُعيدُ الله كما يعيدُ سائر الخلائق، ويكون على حوضه في ذلك اليوم، واعتمد ذلك ابن النجار، وحكى ابن عساكر القول بأن المراد منبره بعينه الذي كان في الدنيا، ثم قال: وهو أظهر، وعليه أكثر الناس، فتبع شيخه ابن النجار في ذلك، والثالث أن المراد منبر يخلقه الله تعالى له في ذلك اليوم، ويجعله على حوضه.

قلت: ويظهر لي معنى رابع، وهو أن البقعة التي عليها المنبر تعاد بعينها في الجنة، ويعاد منبره ذلك على هيئة تناسب ما في الجنة؛ فيجعل المنبر عليها عند عُقْرِ الحوض، وهو مؤخره، وعن ذلك عبر بترعة من ترع الجنة، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأئمة للترغيب في العمل في هذا المحل الشريف ليفضي بصاحبه إلى ذلك، وهذا في الحقيقة جمع بين القولين الأولين، وسيأتي في الزيارة ما ذكره ابن عساكر من أن الزائر يأتي المنبر الشريف، ويقف عنده، ويدعو

معنى أن
الروضة من
رياض الجنة

واختلفوا أيضاً في معنى ما جاء في الروضة الشريفة، قال الحافظ ابن حجر: محصل ما أول به العلماء ذلك أن تلك البقعة كروضة من رياض الجنة في نزول الرحمة وحصول السعادة بما يحصل فيها من ملازمة خلق الذكر، لا سيما في عهده صلى الله عليه وسلم؛ فيكون مجازاً، أو المعنى أن العبادة فيها نُؤدَّى إلى الجنة، فيكون مجازاً أيضاً، أو هو على ظاهره، وأن المراد أنها روضة حقيقة بأن ينقل ذلك الموضع إلى الجنة؛ ثم قال: وهذه الأقوال على ترتيبها هذا في القوة، وهو محتمل لقوية الأول أو الأخير، والأخير أقواها عندي، وهو الذي ذهب إليه ابن النجار، ونقله البرهان ابن فرحون في منسكه عن ابن الجوزي وغيره عن مالك، فقال: وقوله «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة» حمله مالك رحمه الله على ظاهره، فنقل عنه ابن الجوزي وغيره أنها روضة من رياض الجنة تنقل إلى الجنة، وأنها ليست

كسائر الأرض تذهب وتُفنى ، ووافقته على ذلك جماعة من العلماء ، انتهى ، ونقله الخطيب ابن حمالة عن الداروردي ، وصححه ابن الحاج في مدخله ؛ لأن العلماء فهموا من ذلك مزية عظيمة لهذا الحل

ثم رأيت في كلام الحافظ ابن حجر ترجيحَه في موضع آخر ، فقال في الكلام على الحوض : والمراد بتسمية ذلك الموضع روضة أن تلك البقعة تنقل إلى الجنة فتكون روضة من رياضها ، أو أنها على الحجاز لتكون العبادة فيه تؤمن به دخول العابد روضة الجنة ، ثم قال : وهذا فيه نظر ؛ إذ لا اختصاص لذلك بتلك البقعة ، والخبر مسوق لزيد شرف تلك البقعة على غيرها ، انتهى قلت : وأحسن من ذلك ما ذهب إليه ابن أبي جمرَةَ من الجمع بين هذا وما قبله . ومنه استنبطنا ما قدمناه في أمر المنبر : فيه لم يُعوَّل على ذكر المعنى الأول وقبل بعد ذكر المعنيين الأخيرين : الأظهر — والله أعلم — الجمع بين الوجهين ؛ لأن لكل منهما دليلاً يُعَصِّدُه ^(١) ، أما الدليل على أن العمل فيها يوجب الجنة فلما جاء في فضل مسجدِها من المضاعفة ، وهذه البقعة زيادة على باقي بقعِهِ ، وأما الدليل على كونها بعينها في الجنة فلا يخبره صلى الله عليه وسلم بأن المنبر على الحوض ، لم يختلف أحد من العلماء أنه على ظاهره ؛ وأنه حق محسوس موجود على حوضه .

قلت : وفيه نظر ؛ لما قدمناه

قال : وقد تقرر في قواعد الشرع أن البقعة المباركة مافائدة بركتها لنا والإخبار بذلك إلا تميرها بالطاعات ؛ قال : ويحتمل وجهها ثالثاً ؛ وهو أن تلك البقعة نفسها روضة من رياض الجنة كما أن الحجر الأسود من الجنة ؛ فيكون الموضع المذكور روضة من رياض الجنة الآن ؛ ويعود روضة في الجنة كما كان ؛ ويكون للعامل بالعمل فيه روضة في الجنة ؛ قال : وهو الأظهر ؛ لعلو مكانته عليه السلام ؛ وليكون بينه

(١) يعصده : يقويه ويؤيده .

وبين الأبوة الإبراهيمية في هذا شبه ، وهو أنه لما خص الخليل بالحجر من الجنة خص الحبيب بالروضة منها .

قلت : وهو من النفاسة بمكان ، وفيه حمل اللفظ على ظاهره ؛ إذ لا مقتضى لصرفه عنه ، ولا يقدح في ذلك كونها تُشاهد على نسبة رياض الدنيا فإنه مادام الإنسان في هذا العالم لا ينكشف له حقائق ذلك العالم لوجود الحجب الكثيفة والله أعلم .

وتخصيص ما أحاطت به البينية المذكورة بذلك إما تعبد وإما لكثرة ترده صلى الله عليه وسلم بين بيته ومنبره وقرب ذلك من قبره الشريف الذي هو الروضة العظمى كما أشار إليه ابن أبي جمره أيضا .

وقال الجلال محمد الراساني الريمي : اتفقوا على أن هذا اللفظ معقول المعنى ، مفهوم الحكمه ، وإنما اختلفوا في ذلك المعنى ماهو ، فقليل : اللفظ على حقيقته ، وإن ذلك روضة من رياض الجنة بمعنى أنه بعينه نُقل من الجنة ، أو أنه سينقل إليها ، وقيل : مجاز معناه أن العبادة فيه تؤدّي إلى الجنة ، أو لما ينزل فيه من الرحمة وحصول المغفرة ، كما سمي مجالس الذكر رياض الجنة في حديث « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا »^(١) وفي رواية لأبي هريرة « قلت : ما رياض الجنة ؟ قال : المساجد ، قلت : وما الرتع ؟ قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر » .

وقال ابن عبد البر : لما كان صلى الله عليه وسلم يجلس في ذلك الموضع ويجلس الناس إليه للتعلم شبهه بالروضة ؛ لكريم ما يجتنى فيه ، وأضافها إلى الجنة لأنها تؤول إلى الجنة ، كقوله « الجنة تحت ظلال السيوف » أي أنه عمل يُدخل الجنة .

وقال الخطابي : روضة من رياض الجنة بالطاعة فيه ، كقوله « عائد المريض

(١) قال ابن الأثير (النهاية : ٦٤/٢) « ومنه الحديث إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، أراد برياض الجنة ذكر الله ، وشبه الخوض فيه بالرتع في الحصب » هـ .

في مَحْرَفَةِ الْجَنَّةِ^(١) « أى يرجى له بذلك مَحْرَفَةُ الْجَنَّةِ؛ فأطلق اسم المسبب على سببه كقوله « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

هذا ما نقله الخطيب ابن حمله من المعاني ، ثم تعقب الأخير بأنه لا يبقى حينئذ لهذه الروضة مزية ، وقد فهم الناس من ذلك المزية العظيمة التي بسببها فضلها مالك على سائر البقاع

وقد تعقب الجلال الريمى الخطيب في ذلك ، وقال : أظهر المعاني تضعيف أجر الطاعات ، وتعليم الناس وجوه الخير ؛ لاتفاق الخطابي وابن عبد البر عليه ، وهما عمدة الأمة في فقه الحديث ، ولأن النظائر تؤيده ، وأما المعنيان الآخران فلم يعزهما الخطيب إلى أحد ، فدل على ضعفهما ، ولم يذكر عياض القول بأن هذا الموضع بعينه نقل من الجنة ، وذكر ما عداه ، فدل على شذوذه ؛ لأن مثل هذا طريقه التوقيف كما جاء في الركن والمقام ، على أن القول به يؤدي إلى إنكار المحسوسات أو الضروريات ، وجواب ما ذكره الخطيب أن المزية ظاهرة ، وهو أن العمل في النظائر المتقدمة يؤدي إلى رياض الجنة ، والعمل في هذا المحل يؤدي إلى روضة أعلى من تلك الرياض .

قلت : إنما حمّله على هذا ذهابه إلى أن اسم الروضة يعم جميع مسجده صلى الله عليه وسلم ، وأنه إذا ثبت لما زيد فيه حكم المضاعفة تعدى ذلك إليه ، فاختر كون التسمية بذلك مجازية ، ووضع في ذلك كتاباً سماه « دلالات المسترشد » ، على أن الروضة هي المسجد « وقد صنف الشيخ صفي الدين الكازروني المدني مصنفاً في الرد عليه ، وقد لخصتهما مع سلوك طريق الإنصاف بينهما في كتابي الموسوم « بدفع التعرض والإنكار ، لبسط روضة المختار » وسندكر الصواب في ذلك ، واستدلّاه على ضعف القول بأن ذلك الموضع بعينه نقل من الجنة بأن عياضاً لم يذكره عجيب لا احتمال أنه لم يطلع عليه ، وقوله « إن ذلك طريقه التوقيف

(١) في النهاية « عائد المريض على مخارف الجنة حتى يرجع » والمخارف : جمع مخرف أو مخرفة - بفتح الراء فهما - وهو الحائط من النخل : أى أن العائد فيما يحوز من الثواب كأنه على نخل الجنة يخترق عمارها ، وقيل : المخارف جمع مخرفة ، وهى سكة بين صفيين من نخل يجتنى من أيهما شاء .

كما جاء في الركن « فنقول : أى توقيف أعظم من إخبار الصادق المصدوق بذلك ؟ وهو الخبر بأمر الركن والمقام ، والأصل في الإطلاق الحقيقة ، فكيف سلمه في الركن والمقام ولم يسلمه هنا ؟ والذي فهمه العلماء من الحديث أن هذا الموضع روضة ، سواء كان به ذا كرون ومصلون أم لم يكن ، بخلاف حلق الذكر مثلاً ، فإن ذلك يزول عنها بقيامهم ، فالروضة ما هم فيه بخلاف هذه ، ولهذا فسر الرتّع هناك بالذكر ، والمراد في حديث « الجنة تحت أقدام الأمهات » أن لزوم خدمتهن تؤدي إليها ، وقوله « إن القول بذلك يؤدي إلى ما ذكره » عجيب ، وقد قدمنا السبب المانع من شهود ذلك على حقيقته ، وأى حسن أحسن من القول بأن ذلك روضة من الجنة أكرم الله به نبيه ؟ ويؤيده أحاديث المنبر المتقدمة وماسياتي في أحدٍ وعيرٍ ؛ إذ لم يقل أحد إن المراد أن المتعبد عند أحدٍ يُفَضَّى به ذلك إلى الجنة ، والمتعبد عند عيرٍ يُفَضَّى به ذلك إلى النار ، وأما قوله في بيان المزية « إن العمل في ذلك الحِلُّ يؤدي إلى روضة أعلى » فليس في الحديث وصفه بأنه أعلى الرياض ، بل أطلق ذلك ، فإذا ثبت ذلك لغيره فلا خصوصية ، بل قد يقول الذهاب إلى تفضيل مكة : إن العمل فيها يؤدي إلى روضة أعلى وأفضل ، ولظهور مزية تلك البقعة على غيرها بذلك استدل به بعض الأئمة على تفضيل المدينة على مكة بإضافة حديث « لَقَابُ قَوْسٍ ^(١) أَحَدُكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » وتعقبه ابن حزم بأن جعلها من الجنة إنما هو على سبيل المجاز ، إذ لو كانت حقيقة لكانت كما وصف الله الجنة « إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى » قال : وإنما المراد أن الصلاة فيها تؤدي إلى الجنة كما يقال في اليوم الطيب : هذا يومٌ من أيام الجنة .

قلت : لا يلزم من ثبوت عدم الجوع والعُرْي لمن حل في الجنة ثبوته لمن حل

(١) قاب القوس : مقداره ، وفي القرآن الكريم : (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى)

في شيء أخرج منها ؛ إذ يلزمه أن ينفي بذلك عن حجر المقام كونه من الجنة حقيقة ، ولا قائل به ، ومسألة عموم الروضة لجميع مسجده صلى الله عليه وسلم ذات خلاف ؛ فقد قال الأقشهري : سئل أبو جعفر بن نصر الداودي المالكي عن قوله « ما بين بيتي ومنبري روضة » فقال : هو روضة كله ، ونقل الريمي عن الخطيب ابن حمة أنه قال : قوله « ما بين بيتي » مفرد مضاف قد يفيد العموم في بيوته ، ثم ذكر بيان مكان بيوته ، ثم قال : ولهذا قال السمعاني في أماليه : لما فضل الله مسجداً رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرفه وبارك في العمل فيه وضعفه سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم روضة من رياض الجنة ، فتراى جعل المسجد كله روضة ، والمشهور أن المراد بيت خاص ، وهو بيت عائشة رضي الله عنها ؛ للرواية الأخرى « ما بين قبري ومنبري » قال ابن خزيمة : أراد بقوله ما بين بيتي الذي أقبر فيه ؛ إذ النبي صلى الله عليه وسلم قبر في بيته الذي كانت تسكنه عائشة ، قال الخطيب : فعلى هذا تسميتُ - يعني الروضة - حائط الحجرة من القبلة والشمال من جهة الحجرة ، ولا تزال تقصر إلى جهة المنبر ، أو توجد المسامطة مستوية فليُنظر ، هذا كله كلام الخطيب .

قلت : فتلخص من ذلك ثلاثة آراء : الأول : أنها المسجد الموجود في زمنه صلى الله عليه وسلم ، الثاني : أنها ما سامت^(١) المنبر والحجرة فقط ، فتتسع من جهة الحجرة وتضيّق من جهة المنبر لما تقدم في مقداره ، وتكون منحرفة الأضلاع لتقدم المنبر في جهة القبلة وتأخر الحجرة في جهة الشام ، فتكون كشكل مثلث ينطبق ضلعاها على قدر المنبر ، الثالث : أنها ما سامت^(١) كلا من طرفي الحدين ، فتشمل ما سامت المنبر من مقدم المسجد في جهة القبلة وإن لم يسامت^(١) الحجرة ، ويشمل ما سامت الحجرة من جهة الشمال وإن لم يسامت^(١) المنبر ، فتكون مربعة ، وهي الأروقة الثلاثة : رواق المصلى الشريف ، والرواقان بعده ، وذلك هو مسقف مقدم المسجد في زمنه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه قد تحرر لنا في هذه العمارة التي أدركنها

(١) سامت الشيء الشيء : قابله ووازاه

أن صف أسطوان الوُفود - وهي التي كانت إلى رحبة المسجد كما سيأتي - واقعٌ خلف الحجرة سواء، حتى إن الأسطوانة التي تلي مر بعة القبر في صفها الداخلة في الزور بعضها داخل في جدار الحجرة الشامي كما سيأتي بيانه .

وأما أدلة هذه الأقوال فقد استدل الرمي للأول بأشياء غلبها ضعفٌ مبناه على أن إطلاق الروضة من قبيل المجاز لما في ذلك من المضاعفة ونحوه، وأحسنها ما أشار إليه الخطيبُ ابن حنبل وأيده الرمي بأشياء، فقال: قوله « بيتي » من قوله « ما بين بيتي » مفرد مضاف، فيفيد العموم في سائر بيوته صلى الله عليه وسلم، وقد كانت بيوته مُطيفة بالمسجد من القبلة والمشرق - وفيه بيت عائشة - والشام كما سيأتي عن ابن النجار وغيره، ولم يكن منها في جهة المغرب شيء، فعرف الحد من تلك الجهة بالمنبر الشريف، فإنه كان في آخر جهة المغرب بينه وبين الجدار يسير؛ لأن آخره من تلك الجهة الأسطوانة التي تلي المنبر، والمنبر على ترعة من ترع الجنة، فقد حدد الروضة بحدود المسجد كلها .

قلت: وهو مُفَرَّع على ما ذكره ابن النجار في تحديد المسجد من جهة المغرب، وقد مشيت عليه في توألفي قبل أن أقف على ما قدمته في حد المسجد، وقد مشى على ذلك الزين المراغي فقال: ينبغي اعتقاد كون الروضة لا تختص بما هو معروف الآن، بل تتسع إلى حد بيوته صلى الله عليه وسلم من ناحية الشام، وهو آخر المسجد في زمنه صلى الله عليه وسلم؛ فيكون كله روضة، وهذا إذا فرعنا على أن المفرد المضاف^(١) للعموم، وقد رجحه في كتب الأصول جماعة، ثم ذكر ما تقدم .

قلت: وفاتهم الجميع الاستدلال بحديث زوائد مسند أحمد المتقدم بلفظ « ما بين هذه البيوت » يعني بيوته « إلى منبري روضة من رياض الجنة » والعجب أن المعتنين بأمر الروضة لم يذكروه، مع أن فيه غنية عن التمسك بكون

(١) هو قوله في الحديث « بيتي » والمراد به عموم أنه يشمل كل بيوته صلى الله عليه وسلم، ولهذا كانت رواية « ما بين هذه البيوت إلخ » يغني عن الرجوع إلى هذه القاعدة

المفرد المضاف يفيد العموم ، فقد ناقش الصنفى الكازرونى فى ذلك بأشياء : منها أن رواية « ما بين قبرى ومنبرى » بينت المراد من البيت المضاف . قلت : ليته قال رواية « ما بين المنبر وبيت عائشة » لأنه يلزم عليه أن يكون الروضة بعرض القبر فقط ، والتخصيصُ بذلك بعيد ، ومن قال « إن المراد من البيت القبر » ليس مراده والله أعلم إلا أن رواية القبر لعدم إبهامها تعين البيت ، ولعله مراد الصنفى ، ولهذا قال الطبرى : وإذا كان قبره صلى الله عليه وسلم فى بيته اتفقت معانى الروايات ، ولم يكن بينها خلاف ، انتهى ، ولك أن تقول : رواية « قبرى » ورواية « حجرة عائشة » من قبيل إفراد فرد من العام ، وذكره بحكم العام ، وهو لا يقتضى التخصيص على الأصح ، بل يقتضى الاهتمام بشأن ذلك الفرد ، على أن القرطبي قال : الرواية الصحيحة « بيتى » ويروى « قبرى » وكأنه بالمعنى ، والله أعلم . ومنها : أن القرافى حمل إطلاق عموم أسم الجنس على ما يقع منه على القليل والكثير كالماء والمال ، بخلاف ما لا يصدق إلا على الواحد كالعبد والبيت والزوجة فلا يعم ، ولهذا قال عبدى حر أو امرأتى طالق لا يعم سائر عبيده ونسائه ، قال : ولم أره منقولاً . قلت : قل التاج السبكي : خالف بعض الأئمة فى تعميم اسم الجنس المعروف والمضاف^(١) ، والصحيح خلافه ، وفصل قوم بين أن يصدق على القليل والكثير فيعم ، أو [لا]^(٢) فلا ، واختاره ابن دقيق العيد ، انتهى .

فقد جعل مباحثه القرافى وجهاً ثانياً مفصلاً ، وذلك يابى حمل إطلاق المطلقين عليه ، فما بحثه منقول ، لكن الصحيح خلافه ، وما استدلل به من عدم عموم عبدى حر وامرأتى طالق جوابه من أوجه ذكرناها فى دفع التعرض ، وأحسنها ما أشار إليه الأسنوى من أن عدم العموم فى ذلك لكونه من باب الأيمان ، والأيمان يسلك فيها مسلك العرف ، انتهى . ونقل الأزرقى فى نفائسه عن ابن

(١) فى جميع الطبوعات « المعروف » تطبيع ، والمراد باسم الجنس المعروف المقترن بالآلف واللام مثل : الماء ، والحل ، والزيت

(٢) كلمة « لا » هذه ساقطة من الأصول كلها ، ولا يتم الكلام بدونها .

عبد السلام أنه قال : الذى تبين لى طَلَّاقُ الجميع وعَتَقُ الجميع ، وفى كتب الحنابلة نص أحمد على أنه لو قال مَنْ له زوجتان أو عبيدٌ «زوجتى طالق ، أو عبدى حر» ولم ينو^(١) مُعَيَّنًا ، وقع الطلاق والعَتَقُ على الجميع ، تمسكا بالقاعدة المذكورة ، فقد جرى ابن عبد السلام والحنابلة على مقتضى ذلك ؛ فهذه الطرق من أحسن الأدلة ، ولكن على شمول الروضة لما بين المنبر والبيوت الشريفة فهو رأى آخر ، وقد قدمنا من الحديث ما يصرح به ، وَيُؤَيِّدُهُ ما أشار إليه الرِّمَى من أن المقتضى لكون ذلك روضة كثرة تردده صلى الله عليه وسلم فيه ، وكان يصلى قبل تحويل القبلة فى طرفه الذى يلي الشام ، وَمَتَّحَّجْدُهُ كما سيأتى فى جهة المشرق إلى الشام أيضاً ، ومنبره الشريف فى نهاية هذا الموضع المحدود من جهة المغرب ، ومصلاه الشريف بمقدمه وبه الأساطين الآتية ذوات الفضل .

وأما الرأى الثانى فدليله التمسكُ بظاهر لفظ البيئَةِ الحقيقية ، وحمل البيت على حجرة عائشة رضى الله عنها ، ويضعفه أن مقدم المصلى الشريف يلزم خروجه عن اسم الروضة حينئذ ؛ لخروجه عن موازاة طرفى المنبر والحجرة ، مع أن الظاهر أن معظم السبب فى كون ذلك روضة تشرفهُ بجبهته الشريفة ، على أنى لم أر هذا القول لأحد ، وإنما أخذته من تردد الخطيب ابن حملة المتقدم .

وأما الرأى الثالث فهو ظاهر ما عليه غالب العلماء وعامة الناس ، وَوَجْهُهُ حَمْلُ البيت على ما فى الرواية الأخرى من ذكر حجرة عائشة ، وجعل ما تقدم فى أمر خروج مقدم المصلى الشريف دليلاً على أن المراد من البيئية ما حاذى واحداً من الطرفين ، وأن المراد بمقدم المسجد المنتهى من جهة مؤخر الحجرة الشريفة لصف أسطوان الوفود كما قدمناه ، وفى كلام الأشمهرى إشارة له ، وهذا إنما علمناه فى العمارة التى سنذكرها ، ولم يكن معمولاً قبل ذلك ، ولهذا قال المجد فى الباب الأول فى فصل الزيارة من كتابه ما نقله : ثم يأتى - يعنى الزائر - إلى الروضة المقدسة ،

(١) يريد لم ينو زوجة معينة من الزوجتين أو الزوجات ، ولا عبداً معيناً من العبدن أو العبيد

وهي ما بين القبر والمنبر طولا ، ولم أر مَنْ تعرض له عرضاً^(١) ، والذي عليه غلبة الظنون أنه من المحراب إلى الأسطوانة التي تُجَاهَهُ ، وأنا لا أوافق على ذلك ، وقد بينته في موضعه من هذا الكتاب ، وذكرت أن الظاهر من لفظ الحديث يقتضي أن يكون أكثر من ذلك ؛ لأن بيت النبي صلى الله عليه وسلم بجميع مرافق الدار كان أكثر من هذا المقدار ، انتهى .

ولم يذكر في الموضع الذي أحال عليه شيئاً ، وقوله «من المحراب إلى الأسطوانة التي تجاهه» كأنه يريد به الأسطوان الخلق وما حاذها ؛ فتكون الروضة على ذلك التقدير الرواق الأول منها فقط ، وهو غلط ؛ لأن الحجرة الشريفة متأخرة عن ذلك الجهة الشام ؛ وصَفُ الأسطوان المذكور مُحَاذٍ لطرف جدارها القبلي . وقال ابن جماعة : قد تحرر لي طول الروضة ، ولم يتحرر لي عرضها ، يريد أن طولها من المنبر إلى الحجرة ، وهو كما قال ابن زبالة ثلاثة وخمسون ذراعاً وشبراً ، وقال في موضع آخر : أربعة وخمسون ذراعاً وسدس .

قلت : وما ذكره أولاً أقرب إلى الصواب كما اختبرناه ، فإن ذرعتُ بحبل من صفحة المنبر القبليّة إلى طرف صفحة الحجرة القبليّة فكان ثلاثة وخمسين ذراعاً .

وذكر ابن جماعة ذراعاً أقل من هذا ، وكأنه ذرَعَ على الاستقامة ، ولم يعتبر الذَّرْعَ من الطرفين المذكورين ، فقال : وذرعت ما بين الجدار الذي حول الحجرة الشريفة وبين المنبر فكان أربعاً وثلاثين ذراعاً وقيراطاً بذراع العمل . قلت : وذلك نحو اثنين وخمسين ذراعاً بذراع اليد الذي قدمنا تحريره ، وأما قول من قال « إن طول الروضة اليوم ينقص عن خمسين ذراعاً بثلاثي ذراع » فلا وجه له إلا أن يكون اعتبر بذراع اليد المفرط الطول ، والله أعلم .

وأما نهاية الحجرة فلم تكن معلومة لابن جماعة وغيره ، وعليها يتوقف بيان

(١) يريد أنه لم يقف في كلام أحد على بيان مقدار عرضه ومبدئه ومنتهاه .

العرض ، ولهذا قال الرمي : لا ندرى الحجرة في وسط البناء المحيط بها أم لا ؟ ولا ندرى إلى أين ينتهي امتدادها ؟ وغالب الناس يعتقدون أنها في محاذة أسطوان على رضى الله عنه ، ولهذا جعلوا الدرازين الذي بين الأساطين ينتهي إلى صفها ، واتخذوا الفرش لذلك فقط ، والصواب ما قدمناه ؛ فقد انجلى الأمر والله الحمد .

الفصل السابع

في الأساطين المنيفة

الأسطوان
الخلق

منها الأسطوان الذي هو علم على المصلى الشريف ، ويعرف بالخلق ، وقد قدمنا قول ابن زبالة « الخلق نحو من ثلثيها » وقول ابن القاسم « إن المصلى الشريف حيث الأسطوان الخلق » وبيننا أن المراد أنها أقرب أسطوان إليه ، وأن الجذع الذي كان يخطب إليه صلى الله عليه وسلم ويتكى عليه كان هناك ، وأن الأسطوان الموجود اليوم متقدم على الحل الأول ، وأن الحل الأصلي هو موضع كرسى الشمعة التي عن يمين الإمام الواقف في المصلى الشريف ، فمن أراد التبرك بذلك فليصل هناك .

وروى ابن زبالة عن يزيد بن عبيد أنه كان يأتي مع سامة بن الأكوع إلى سبحة الضحى ، فيعمد إلى الأسطوان دون المصحف فيصلى قريبا منهما ، فأقول : ألا تصلى ههنا ؟ وأشير له إلى بعض نواحي المسجد ، فيقول : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى هذا المقام ، وهذا الحديث في الصحيحين ، ونفط البخاري « كنت آتى مع سامة بن الأكوع ، فيصلى عند الأسطوان التي عند المصحف ، فقلت : يا أبا سامة أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة ، قال : فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى الصلاة عندها » ونفط مسلم عن سامة أنه كان يتحرى موضع المصحف بسبح^(١) فيه ، وذكر أن النبي صلى الله عليه

(١) يسبح : يصلى ، والسبحة ؛ بالضم : صلاة النافلة ، والمراد هنا سبحة الضحى ،

كما ورد في رواية ابن زبالة ، وقال ابن الأثير « وقد تكرر ذكر السبحة في الحديث كثيرا ، فمنها الحديث : اجعلوا صلاتكم معهم سبحة ، أى نافلة » اهـ

وسلم كان يتحرى ذلك ، وقد قدمنا في الكلام على المصلى الشريف ما يبين أن المراد هذه الأسطوانة .

أسطوان
القرعة

ومنها أسطوان القرعة ، وتعرف بأسطوان عائشة رضى الله عنها ، وبالأسطوان المخلوق أيضاً ، وبأسطوان المهاجرين .

روينا في كتاب ابن زبالة عن إسماعيل بن عبد الله عن أبيه أن عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وثالثاً كان معهما دخلوا على عائشة رضى الله عنها فتذاكروا المسجد ، فقالت عائشة : إني لأعلم سارية من سوارى المسجد لو يعلم الناس ما فى الصلاة إليها لاضطربوا عليها بالسهم^(١) ، فخرج الرجلان وبقى ابن الزبير عند عائشة . فقال الرجلان : ما تخلف إلا ليسألها عن السارية ، ولئن سألتها لتخبرته ، ولئن أخبرته لا يعلمنا ، وإن أخبرته كعمد لها إذا خرج فصلّى إليها ، فاجلس بنا مكاناً نراه ولا يرانا ، ففعلوا ، فلم يذنب أن خرج مسرعاً فقام إلى هذه السارية فصلّى إليها متيامناً إلى الشق الأيمن منها ، فعلم أنها هى ، وسميت أسطوانة عائشة بذلك ، وبلغنا أن الدعاء عندها مستجاب ، هذا لفظ ابن زبالة .

وفى الأوسط للطبرانى عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن فى مسجدى لبقة قبل هذه الأسطوانة لو يعلم الناس ما صلوا فيها إلا أن تطير لهم قرعة ، وعند عائشة جماعة من أبناء الصحابة فقالوا : يا أم المؤمنين وأين هى ؟ فاستعجبت عليهم ، فكثروا عندها ساعة ثم خرجوا وثبت عبد الله بن الزبير فقالوا : إنها ستخبره بذلك المكان ، فأرقبوه فى المسجد حتى

(١) السهمان : جمع سهم ، والسهم فى الأصل القدح الذى يضرب به فى الميسر ثم سمي به ما يفوز به الفالج ، وكثر ذلك حتى سمي كل نصيب سهماً ، والمراد من قولها « لاضطربوا عليها بالسهمان » أنهم كانوا لا يسمحون لأحدهم بالصلاة عندها إلا إذا ضربوا عليها بالسهم فخرج لأحدهم سهم بالصلاة فيها ؛ لحرص كل واحد على الصلاة عندها

تنظروا حيث يصلى ، فخرج بعد ساعة فصلى عند الأُسْطوانة التى صلى إليها عامر ابن عبد الله بن الزبير ، فقبل لها : أُسْطوانة القُرْعة .

قال عتيق : وهى الأُسْطوانة التى [هى] واسطة بين القبر والمنبر : عن يمينها إلى المنبر أُسْطوانتان ، وبينها وبين القبر أُسْطوانتان ، وبينها وبين الرحبة أُسْطوانتان ، وهى واسطة بين ذلك ، وهى تسمى أُسْطوانة القرعة ، هذا لفظ الأوسط .

وقال ابن زبالة : حدثني غير واحد من أهل العلم منهم الزبير بن حبيب أن الأُسْطوان التى تدعى أُسْطوان عائشة هى الثالثة من المنبر ، والثالثة من القبر ، والثالثة من القبلة ، والثالثة من الرحبة ، أى قبل زيادة الرواقين الآتى ذكرها المتوسطة للروضة أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى إليها بضع عشرة المكتوبة ثم تقدم إلى مُصَلَّاه الذى وَجَّاه المحراب فى الصف الأوسط ، أى الرواق الأوسط ، وأن أبا بكر وعمر والزبير بن العوام وعامر بن عبد الله كانوا يصلون إليها ، وأن المهاجرين من قریش كانوا يجتمعون عندها ، وكان يقال لذلك المجلس مجلس المهاجرين ، انتهى .

وقد ذكر ابن النجار هذه الرواية عن الزبير بن حبيب ، وزاد : وقالت عائشة فيها: لو عرفها الناس لاضطربوا على الصلاة عندها بالسهمان ، فسألوها عنها فأبت أن تسميها ، فأصغى إليها ابن الزبير فسارتهُ بشيء ، ثم قام فصلى إلى التى يقال لها أُسْطوان عائشة ، قال : فَظَنَّ مَنْ مَعَهُ أَنَّ عائشة أخبرته أنها تلك الأُسْطوانة ، فسميت أُسْطوان عائشة ، قال : وأخبرنى بعض أصحابنا عن زيد ابن أسلم قال : رأيت عند تلك الأُسْطوانة موضع جبهة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رأيت دونه موضع جبهة أبى بكر ، ثم رأيت دونه موضع جبهة أبى بكر موضع جبهة عمر ، ويقال : الدعاء عندها مستجاب ، هذا لفظ رواية ابن النجار عقب ما قدمناه من رواية ابن زبالة . وزاد فيما ذكره ابن زبالة عقب قوله « إن النبي صلى الله عليه وسلم صلى إليها المكتوبة بضع عشرة ، ثم تقدم إلى مصلاه

اليوم « مالمعه : وكان يجعلها خلف ظهره ، قلت : ولم أره في كلام غيره ، والظاهر أن مراده أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستند إليها إذا جلس هناك ، لا أنه يجعلها خلف ظهره إذا صلى ؛ لما ذكره عن زيد بن أسلم من أنه رأى موضع جبهة النبي صلى الله عليه وسلم عندها ، ووصف هذه الأسطوانة بالخلقة يؤخذ ما تقدم عن ابن زبالة من قول أبي هريرة « وكان مصلاه صلى الله عليه وسلم الذي يصلي فيه بالناس إلى الشام من مسجده أن تضع موضع الأسطوانة المخلقة خلف ظهرك ثم تمشي إلى الشام » إلى آخر ما تقدم . قلت : وهذه الأسطوانة بصف الأساطين التي خلف الإمام الواقف بالمصلى الشريف ، وهي الثالثة من القبلة وكانت الثالثة أيضا من رحبة المسجد كما تقدم ، وذلك قبل أن يزداد في مسقف مقدم المسجد الرواقن الآتي بيانهما في رحبته ، وهما صارت خامسة من الرحبة .

أسطوانة التوبة

ومنها أسطوانة التوبة ، وتعرف بأسطوانة أبي لبابة بن عبد المنذر أخى بنى عمرو بن عوف الأوسى أحد النقباء ، واسمه رفاعة ، وقيل غير ذلك ، سميت به لأنه ارتبط إليها حتى أنزل الله توبته كما قدمناه في عزوة بنى قريظة .

وقال الأقسهري : اختلف أهل السير والتفسير في ذنب أبي لبابة ، فقال قوم : كان من الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، وقال ابن هشام تبعه لابن إسحاق : سببه قضية بنى قريظة واستشارتهم إياه ، وأسند يحيى عن عبد الرحمن بن يزيد قصته معهم ، وأنهم قالوا له : أنزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه ، وهو الذبح . وفي رواية أخرى أنه لما جاءهم قام إليه الرجال ، وأجهش إليه النساء والصبيان بمكون في وجهه ، فرق لهم ، فكان منه ما تقدم ، قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله . قال يحيى في الرواية المتقدمة : فلم يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومضى إلى المسجد ، وارتبط إلى جذع في موضع أسطوانة التوبة ، وأنزل الله عز وجل فيه « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » وفي رواية : فربط نفسه في السارية ، وحلف لا يحل

نفسه حتى يحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تنزل توبته ، قال : فجاءت فاطمة رضى الله عنها تحمله ، فقال : لا ، حتى يحلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنما فاطمة بضعة منى ، وفى رواية لابن النجار أن أبا لبابة عاهد الله تعالى أن لا يظأ بنى قريظة أبدا ، وقال : لا يرانى الله فى بليد خنت الله ورسوله فيه أبدا ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما بلغه خبره - وكان قد استبطأه - «أما لو جاءنى لاستغفرت الله له ، فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » فأنزلت توبته ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت أم سلمة ، قالت : فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من السَّحَرِ يضحك ، فقلت : مِمَّ تضحك أضحك الله سنك ؟ قال : تيب على أبى لبابة ، قلت : ألا أبشره بذلك يا رسول الله ؟ قال : بلى إن شئت ، فقامت على باب حجرتها قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك ، قال : فثار الناس إليه ليطلقوه ، قال : لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يُطْلَقْنِي بيده ، فلما مر عليه خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

وروى البيهقى فى الدلائل عن سعيد بن المسيب قصة أبى لبابة فى بنى قريظة ، وأنه تخلف فى غزوة تبوك ، فلما قفل^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه يسلم عليه ، فأعرض عنه ، ففزع^(٢) أبو لبابة ، فارتبط بسارية التوبة التى عند باب أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم سبعا بين يوم وليلة فى حر شديد لا يأكل فيهن ولا يشرب قطرة .

وروى مالك بن أنس عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم أن أبا لبابة ارتبط إليها بسلسلة ربوض ، والربوض : الثقيلة^(٣) ، يضع عشرة ليلة ، حتى ذهب سمعه

(١) قفل : رجع (٢) فزع : خاف أشد الخوف (٣) قال ابن الأثير «وفى

حديث أبى لبابة أنه ارتبط بسلسلة ربوض ، هى الضخمة الثقيلة اللازقة بساحبها ، وفعل من أبنية المبالغة يستوى فيه المذكور والمؤنث » اهـ

فما يكاد يسمع ، وكاد بصره يذهب ، وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة وإذا أراد أن يذهب لحاجته حتى يفرغ ثم تأتي به فترده في الرباط كما كان . وأورد الزمخشري قصة أبي لبابة في تفسير قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تحمقوا نوا الله والرسول » الآية ، وقال فيها : قال أبو لبابة : فما زالت قد كأتى حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله ، فنزلت : أي الآية المتقدمة ، فشد نفسه على سارية من - وارى المسجد وقال : والله لا أذوق طعاما ولا شرابا حتى أموت أو يتوب الله عليّ ، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ، ثم تاب الله عليه ، وذكر في القصة أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه فخله فقال : إن من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالي ، فقال عليه السلام « يُجْزِئُكَ الثَلَاثُ أَنْ تَتَصَدَّقَ بِهِ »

ونقل ابن النجار عن إبراهيم بن جعفر أن السارية التي ربط إليها ثمامة ابن أثال الحنفي هي السارية التي ارتبط إليها أبو لبابة ، ونقل ذلك أيضا عن ابن شبة

وروى البيهقي عن ابن عباس في قوله تعالى « وآخِرُونَ اعترفوا بذنوبهم » الآية ، قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فلما حضر رجوع النبي صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسوارى المسجد ، فلما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم قال : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك ، الحديث ، وفيه توبة الله عليهم وأنه صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم وأطلقهم

وروى ابن زبالة عن عمر بن عبد الله بن المهاجر عن محمد بن كعب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي نوافله إلى أسطوانة التوبة وفي رواية له عن عمر بن عبد الله ، لم يذكر ابن كعب ، أنه قال في أسطوانة التوبة : كان أكثر نافلة النبي صلى الله عليه وسلم إليها ، وكان إذا صلى الصبح

انصرف إليها ، وقد سبق إليها الضعفاء والمساكين وأهل الضر وضيغان النبي صلى الله عليه وسلم والمؤلفة قلوبهم ومن لا مبيت له إلا في المسجد ، قال : وقد تحلقوا حولها حلقاً بعضها دون بعض ، فينصرف إليهم من مُصَلَّاه من الصبح ، فيتلوا عليهم ما أنزل الله عليه من ليلته ، ويحدثهم ويحدثونه ، حتى إذا طلعت الشمس جاء أهل الطَّوْلِ والشرف والغنى فلم يجدوا إليه مجلساً ، فتأقَّتْ أنفسهم إليه وتآقت نفسه إليهم ، فأنزل الله تعالى « واصْبِرْ نَفْسَكَ مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » إلى منتهى الآيتين ، فلما نزل ذلك فيهم قالوا : يا رسول الله اطرُدْهُمْ عَنَّا ، ونكون نحن جلساءك وإخوانك ولا نفارقك ، فأنزل الله عز وجل « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » إلى منتهى الآيتين .

وفي العُتْبِيَّة عن مالك وَصَفُ أسطوان التوبة بالخلقة ، وقد قدمنا في الكلام على المصلى الشريف ما ذكره ابن زبالة من خلقها وخلق غيرها من الأساطين .

وروى ابن زبالة خبر مالك بن أنس المتقدم عن عبد الله بن أبي بكر بنحو ما تقدم ، وقال فيه : وهي الأسطوان المخلق نحو من ثلثيها ، تُدْعَى أسطوان التوبة ، منها حلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة حين نزلت توبته ، وبينها وبين القبر أسطوان .

وأُسند أيضاً عن ابن عمر أنه كان يقول في الأسطوان التي ارتبط إليها أبو لبابة : هي الثانية من القبر ، وهي الثالثة من الرحبة .

قلت : كانت الثالثة من الرحبة قبل تجدد الأسطوانتين المشار إليهما في أسطوانة القرعة بسبب تجدد الروايتين الآتي ذكرهما ، وهذه الأسطوانة إلى جانب الأسطوانة المتقدم ذكرها من جهة المشرق ؛ فهي الرابعة من المنبر ، والثانية من

(١) الضيفان : أحد جموع ضيف ، ومن جموعه أضياف وضيوف

القبر ، والثالثة من القبلة ، والخامسة في زماننا من رحبة المسجد ، وفيها اليوم هيئة محراب من الجِصّ تتميز به عن سائر الأساطين ، لكنه أزيل في الحريق الثاني

وفهم البدر ابن فرحون من رواية ابن عمر المتقدمة أنها التي تلى هذه الأسطوانة في جهة المشرق ، وهي اللاصقة بالشباك اليوم كما سيأتي ، فقال : إن أسطوان التوبة هي اللاصقة بالشباك على ما قاله عبد الله بن عمر ، وتبعه مالك بن أنس ، وما قيل إنها غيرها فغلط أوجبه أشياء يطول ذكرها ، انتهى كلامه .

قلت : بل الصواب ما قدمناه في بيانها ، ومنشأ ما فهمه عدّه للأسطوانة اللاصقة بجدار القبر ، فحمل قول ابن عمر أنها الثانية من القبر ، وقول مالك بينها وبين القبر أسطوان على الأسطوانة اللاصقة بالشباك اليوم ، وقد علم من كلامهم في أسطوان القرعة أنهم لا يمدّون اللاصقة بجدار القبر لما تقدم من قولهم فيها : إنها الثالثة من المنبر والثالثة من القبر ، ولو عدوا اللاصقة بجدار القبر لكانت الرابعة من القبر ، وأيضاً فاللاصقة بجدار القبر أخذتها عمر بن عبد العزيز ، ولم يدرك ذلك ابن عمر ، وأوضح من ذلك أن ابن زبالة قال : إن بين أسطوان التوبة وبين جدار القبر الشريف عشرين ذراعاً ، وقد اعتبرت ذلك من الأسطوانة التي ذكرناها فكان كذلك .

وقال أيضاً فيما قدمناه عنه : « إن ذرع ما بين مُصَلَّى النبي صلى الله عليه وسلم وبينها سبع عشرة ذراعاً » وقد قدمنا في المصلى الشريف ما يقتضى صحة ذلك عند اختبارنا لما بينهما مع بيان أن المصلى الشريف في طرف الحفر الذي يلي المغرب ، وإن جعل المصلى الشريف على تلك الهيئة حادث ، وفي نسخة من ابن زبالة « تسع عشرة ذراعاً » بتقديم التاء ، فإن صحت^(١) فقد علمت أنه لم يكن المصلى الشريف في عهد ابن زبالة على هذه الهيئات ، بل كانت الأرض مستوية ،

(١) يريد إن صحت هذه النسخة من الرسم ، ولم تكن خطأ من الناسخ فإن لها وجهاً يجعلها غير متخالفة مع النسخة الأخرى

فكأنه اعتبر الذراع من ابتداء طرف المصلّى الشريف الغربى ، ومنه إلى الأسطوان المذكور تسع عشرة ذراعا بتقديم التاء ، وأما ذَرْعُ ما بين المصلّى الشريف والأسطوانة التى يعنىها البدر فخمسة وعشرون ذراعاً ، فلا يصح إرادتها بوجه .

وأسند ابن زبالة ويحيى فى بيان مُعْتَكَفِ النَّبِىِّ صلى الله عليه وسلم عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف طَرَحَ له فراشه ووضع له سرير وراء أسطوانة التوبة » .

وروى ابن ماجه عن نافع أن ابن عمر أراه المكان الذى كان يعتكف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم روى عن نافع عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف طَرَحَ له فراشه ووضع له سرير وراء أسطوانة التوبة » . قال البدر بن فرحون : ونقل الطبرانى فى معجمه عن ابن عمر رضى الله عنهما أن ذلك مما يلى القبلة « يستند إليها »^(١)

قلت : ررواه البيهقى بسند حسن ، ولفظه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف يُطَرَحُ له فراشه أو سريره إلى أسطوانة التوبة مما يلى القبلة يستند إليها » ونقل عياض عن ابن المنذر أن مالك بن أنس كان له موضع فى المسجد ، قال : وهو مكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهو المكان الذى كان يُوضَعُ فيه فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف ، كذا قال الأوبسى .

ومنها : أسطوان السرير ، أسند ابن زبالة ويحيى فى بيان معتكف النبى صلى الله عليه وسلم عقب ذكر ما تقدم من وضع فراشه وسريره وراء أسطوان التوبة عن محمد بن أيوب أنه « كان للنبى صلى الله عليه وسلم سرير من جريد فيه سعفه^(٢) يوضع بين الأسطوان التى تُجَاهُ القبر وبين القناديل ، كان يضطجع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(١) هذه الجملة « يستند إليها » من تنمة وصف ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعله

(٢) السعف - بتع السين والعين جميعاً - جمع سعفة ، وهى أغصان النخيل إذا كانت رطبة ، كذا قال ابن الأثير ، والظاهر من هذا الحديث أن السعف هو الخوص ، وأن الجريد هو العصن .

قلت : وهذه الأسطوانة هي اللاصقة بالشباك اليوم في شرقي أسطوان التوبة وابن فرحون يجعلها إياها كما تقدم ، ويؤيده ما تقدم في أسطوان التوبة من أن سريرته صلى الله عليه وسلم كان يوضع إليها ، إلا أن يجاب بأنه كان يوضع مرة عند هذه ومرة عند تلك ، بدليل أنه تقدم في أسطوان التوبة أن وضع ذلك كان مما يلي القبلة يستند إليها ، وذكر في هذه أنه « كان يوضع بينها وبين القناديل » وذلك في جهة شرقيها .

وقال البدر ابن فرحون : رويناه بالسند الصحيح إلى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان إذا اعتكف يُطَرِّحُ له وسادة ، ويوضع له سرير من جريد فيه سَعْفَه ، يوضع له فيما بين الأسطوان التي وُجَّاه القبر الشريف وبين القناديل ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضطجع عليه » قال أبو وحره - بحاء مهلة - السعدى وهو يذكر السرير ويمدح آل الزبير اقرب مجلسهم منه :

وإذا غدا آلُ الزبير غدا الندى وإذا انتدَى فإليهم ما ينتدى
وإذا هم راحوا فإيهم هم وأهل السرير وأهل صدر المسجد
ومنها : أسطوان المحرس^(١) ، ويسمى أسطوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

أسطوان
المحرس

قال يحيى : حدثنا موسى بن سلمة قال : سألت جعفر بن عبد الله بن الحسين عن أسطوان علي بن أبي طالب ، فقال : إن هذه المحرس^(١) ، كان علي بن أبي طالب يجلس في صفحتها التي تلي القبر مما يلي باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحرسُ النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الجمال المطري وتبعه مَنْ بعده : وهو مقابل الخوخة التي كان النبي

(١) المحرس : اسم مكان من « حرسه يحرسه » لما سيأتي من أن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه كان يجلس إلى هذه الأسطوانة ليحرس النبي صلى الله عليه وسلم

صلى الله عليه وسلم يخرج منها إذا كان في بيت عائشة إلى الروضة للصلاة ، وهي خلف أسطوان التوبة من جهة الشمال .

قلت : هي الأسطوان الذي يصلي عندها أمير المدينة يجعلها خلف ظهره ، ولذا قال الأقشهري : إن أسطوان مُصَلَّى على كرم الله وجهه اليوم أشهر من أن تخفى على أهل الحرم ، ويقصد الأمراء الجلوس والصلاة عندها إلى اليوم ، وذكر أنه كان يقال لها مجلس القلادة لشرف من كان يجلس فيه ، وذلك إنما هو في أسطوان الوفود لما سيأتي .

ومنها : أسطوان الوفود ، قال المطري : هي خلف أسطوان المحرس من جهة الشمال ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إليها لوفود العرب إذا جاءته ، وكانت مما يلي رحبة المسجد قبل أن يزداد في السقف القبلي الرواقان ، وكانت تعرف أيضاً بمجلس القلادة ، يجلس إليها سَرَوَاتُ الصحابة وأفاضلهم رضوان الله عليهم .

وقال الأقشهري ، ومن خطه نقلتُ : وأما الأسطوان الذي كان يجلس إليها صلى الله عليه وسلم لوفود العرب إذا جاءته ، فقال : إذا عَدَدَتِ الأسطوان التي فيها مقام جبريل عليه السلام كانت هي الثالثة ، انتهى ، وكأنه سقط من خطه فاعدد فقال ، وقد أخذه من تحفة ابن عساكر ، وقد رأيت في نسخة معتمدة منها موضع بياض بعد « فقال » .

وهذا مطابق لما تقدم عن المطري ؛ لأن الأسطوان التي فيها مقام جبريل هي مربعة القبر كما سيأتي ، وبينها وبين أسطوان الوفود المذكور أسطوان .

وقال ابن زبالة : حدثنا غير واحد من أهل العلم منهم عبد العزيز بن محمد أن الأسطوان التي إلى الرحبة التي في صف أسطوان التوبة بينها وبين أسطوان التوبة مصلى على بن أبي طالب ، وأنه المجلس الذي يقال له مجلس القلادة ، كان يجلس فيه سَرَاةُ الناس قديماً .

وأورده المجد، وزاد في آخره : وإنما سمي القلادة لشرف مَنْ كان يجلس إليها من بنى هاشم وغيرهم .

أستوان
مربعة القبر

ومنها أستوان مربعة القبر ، وسيأتي أنه يقال له أيضاً أستوان مقام جبريل عليه السلام ، وقد تقدم فيما نقله الأقسهرى في أستوان الوفود ما يشهد له .

وأسند ابن زبالة ويحيى عن سليمان بن سالم عن مسلم بن أبي مريم وعيره : كان باب بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المربعة التي في القبر ، قال سليمان : قال لي مسلم : لا تنس حظك من الصلاة إليها ؛ فإنها باب فاطمة رضى الله عنها الذي كان على يدخل عليها منه .

قلت : وهي في حائر عمر بن عبد العزيز عند منحرف الصفة الغربية منه إلى جهة الشمال ، في صف أستوان الوفود ، بينهما الأستوانة اللاصقة بالشباك التي ترفق أستوان الوفود ، وسيأتي لها مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

ومن فضلها ما أسنده يحيى عن أبي الحمراء قل : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين صباحاً يحيى إلى باب على وفاطمة وحسن وحسين حتى يأخذ بمصاوتي^(١) الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » وفي رواية له : رابطت بالمدينة سبعة أشهر كيوم واحد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي باب على كل يوم فيقول : الصلاة ، الصلاة ، ثلاث مرات « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » وقد حرم الناس الصلاة إلى هذه الأستوان لإدارة الشباك الدائر على الحجرة الشريفة وغلق أبوابه .

أستوان
التهجد

ومنها : أستوان التهجد ، أسند يحيى عن عيسى بن عبد الله عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخْرِجُ حَصِيْرًا كُلَّ لَيْلَةٍ إِذَا انْكَفَتَ النَّاسُ^(٢) فَيُطَرِّحُ وراء بيت على ، ثم يصلي صلاة الليل ، فرآه رجل فصلى بصلاته ، ثم

(١) عضادتا الباب — بكسر أوله — خشبتان من حانئيه .

(٢) انكفمت الناس : انصرفوا إلى منازلهم .

آخر فصلی بصلاته ، حتى كثروا ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا بهم ، تأمر بالحصير فطوى ثم دخل ، فلما أصبح جاءوه فقالوا : يا رسول الله ، كنت فصلی الليل فنصلي بصلاتك ، فقال : إني خَشِيتُ أن ينزل عليكم صلاة الليل ثم لا تقوون عليها ، قال عيسى بن عبد الله : وذلك موضع الأسطوان التي على طريق باب النبي صلى الله عليه وسلم مما يلي الزوراء .

قلت : صَحَّفَ بعضهم هذه اللفظة فقال : مما يلي الدور^(١) ، ورأيت بخط الأتقشهرى : لعله مما يلي دوره ، انتهى . والظاهر أن الرواية مما يلي الزور - بالزاي - يعني الموضع المزور في بناء عمر بن عبد العزيز خلف الحجرة كما سيأتى ، والله أعلم .

قال عيسى : وحدثني سعيد بن عبد الله بن فضيل قال : مرّ بي محمد بن الحنفية وأنا أصلى إليها ، فقال لي : أراك تلزم هذه الأسطوانة ، هل جاءك فيها أثر ؟ قلت : لا ، قال : فالزمها فإنها كانت مُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل .

قلت : تقدم في حدود المسجد النبوى ما يقتضى أن الموضع المذكور كان خارج المسجد تجاه باب جبريل قبل تحويله إلى محله اليوم ، وهو موافق لما سيأتى عن المؤرخين في بيان موضع هذه الأسطوانة ، والمعروف من حاله صلى الله عليه وسلم أن قيامه في غير رمضان إنما كان في بيته ، وهذا الموضع ليس منه ، وفيما سبق مع أحاديث قيام رمضان ما يوهم أن القصة المذكورة كانت فيه ، ففي صحيح البخارى عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتخذ حجرة ، قال : حسبت أنه قال : من حصير ، في رمضان فصلى فيها ليالى فصلى بصلاته نس - الحديث » ورواه مسلم عنه بلفظ أن النبي صلى الله عليه وسلم « اتخذ حجرة في المسجد من حصير ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ليلا ، حتى اجتمع إليه ناس ، فذكره نحوه » وفي رواية لأبي عوانة عن زيد « اتخذ حجرة من

(١) وقع في المطبوعات « دوره » بهاء في آخره ، تطبيع .

حصير في المسجد في رمضان - الحديث . ولعلها القبّة التي كان يعتكف صلى الله عليه وسلم فيها في رمضان ، فقد روى الطبراني في الكبير عن أبي ليلى قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكف في قبة من خوص ، وفي الكبير والأوسط عن مُعَيْقِب قال : « اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة من خوص بابها من حصير والناس في المسجد » وأسند يحيى عن أبي حازم مولى الأنصار قال : « اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد في رمضان في قبة على بابها حصير » ، وعن ابن عمر قال : بنى النبي صلى الله عليه وسلم بيتاً من سعف في المسجد في آخر شهر رمضان يصلي فيه .

وقال المطري في بيان موضع هذه الأسطوانة : هي خلف بيت فاطمة رضي الله عنها ، والواقف إليها يكون باب جبريل المعروف قديماً بباب عثمان على يساره ، وحولها الدرايزين : أي لاصقاً بهما يميناً ويساراً ، وهو الشباك الدائر على الحجرة الشريفة وعلى بيت فاطمة رضي الله عنها ، وقد كتب فيها بالرخام : هذا مُتَهَجِّدُ النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) .

وقال ابن النجار : هذه الأسطوانة وراء بيت فاطمة من جهة الشمال ، وفيها محراب إذا توجه المصلي إليه كانت يساره إلى باب عثمان المعروف اليوم بباب جبريل .

قلت : وقد جدد محرابها في هذه العمارة التي أدر كناها أولاً ، وزيد في رخامه فوق المحراب الأول ، وكتبوا في ذلك بالرخام بروز الأمر بتجديد عمارة الحجرة الشريفة من السلطان الأشرف قايتباي - أعز الله أنصاره ! - وأن ذلك على يد الخواجه الجنب الشمسى بن الزمن ، وتاريخ العمارة المذكورة ، كل ذلك مكتوب بالرخام في أعلى محراب الأسطوانة المذكورة ، ثم لما جاء الحريق الحادث

(١) متهجد النبي : موضع تهجده .

بعد تمام هذا التأليف أزال ذلك كله ، ثم اقتضى رأيهم عند بناء الدعائم التي اتخذوها للقبه المحاذية لأعلى الحجرة والعقود التي خلفها إبدال هذه الأسطوانة بدعامة اتخذوها فيها محرابا .

وهذه الأسطوانة آخر الأساطين التي ذكر لها أهل التاريخ فضلا خاصا ، وإلا فجميع سَوَارِي المسجد الشريف لها فضل ؛ ففي البخاري من حديث أنس قال : لقد أدركت كبار أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يبتدرون السواري عند المغرب ، قال ابن النجار : فعلى هذا جميع سَوَارِي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم يستحب الصلاة عندها ؛ لأنه لا يخلو أن كبار الصحابة صلّوا إليها ، والله أعلم .

الفصل الثامن

في الصفة وأهلها ، وتعليق الأقباء لهم بالمسجد

وصف الصفة
وموضعها

قال عياض : الصفة - بضم الصاد وتشديد الفاء - ظلة في مؤخر مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، يأوي إليها المساكين ، وإليها ينسب أهل الصفة على أشهر الأقاويل .

وقال الحافظ الذهبي : إن القبلة قبل أن تُحوَّل كانت في شمالي المسجد ، فلما حُوِّلت القبلة بقي حائط القبلة الأعلى مكان أهل الصفة .

وقال الحافظ ابن حجر : الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مُظَلَّلٌ أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل ، وكانوا يكثرون فيه ويقولون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر .

وقد سرّد أسماءهم أبو نعيم في الحلية فزادوا على المائة ، وقد أخرج أبو نعيم في الحلية من مرسل الحسن قال : بُنِيَتْ صُفَّةٌ في المسجد لضعفاء المسلمين .

وقال المجد نقلا عن الدارقطني : الصفة هي ظلة كان المسجد في مؤخرها ،

ثم قال المجد : وذكر ابن جُبَيْر في رحلته عند ذكر قباء قال : وفي آخر القرية تَلَّ مشرف يعرف بعرفات يدخل إليه على دار الصفة حيث كان عمار وسمان وأصحابهما المعروفون بأهل الصفة ، وكأن هذا وهم ، والله أعلم .

قلت : يظهر من قول عياض فيما قدمناه عنه « على أشهر الأقوال » أن في ذلك خلافاً ؛ فيكون ما ذكره ابن جبیر أحد الأقوال ، لكنه مرجوح أو مؤول بأن مَنْ ذكر من أهل الصفة اتخذوا تلك الدار بعد ، فاشتهرت بذلك .

وقد روى ابن سعد في مرسل يزيد بن عبد الله بن قسيط : كان أهل الصفة

أهل الصفة

ناساً فقراء لا منازل لهم ، فكانوا ينامون في المسجد لا مأوى لهم غيره .

وروى البيهقي عن عثمان بن اليمان قال : لما كثرت المهاجرون بالمدينة ولم يكن لهم دار ولا مأوى أنزلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، وسد بهم أصحاب الصفة ، فكان يجالسهم ويأنس بهم .

وأُسند يحيى عن فضالة بن عبيد قال : كنا نصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبر قوم من قانتهم من الخصاص^(١) ، حتى يقول الأعرابي : مجانين ، وهم أهل الصفة ، فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فوقف عليهم ، فقال : لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فقراً وحاجة .

وفي صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكر أن أصحاب الصفة كانوا ناساً فقراء ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال مرة : مَنْ كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس - الحديث . وفيه من حديث أبي هريرة قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة مامنهم رجل عليه رداء إما إزار وإما كساء قد رباطوه ، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته .

(١) الخصاص - بفتح الخاء المعجمة - الفقر والحاجة ، وفي القرآن الكريم

(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .

وفيه من حديث أبي هريرة أيضا أنه كان يقول : والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشدُّ الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدتُ يومًا في طريقهم الذي يخرجون منه ، فرأى أبو بكر فسأله عن آية من كتاب الله ما سأله إلا ليستتبعني ، فر ولم يفعل ، ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رأيته وعرف ما في نفسي وما في وجهي ، ثم قال : أباهر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : الحق ، فمضى فتبعته ، فدخل فاستأذن ، فأذن لي ، فدخلت فوجدنا لبنًا في قدح ، فقال : من أين هذا اللبن ؟ فقالوا : أهده لك فلان أو فلانة ، قال : أباهر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي ، وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئًا ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها ، فسألتني ذلك ، فقلت : وما هذا اللبن في أهل الصفة ؟ كنتُ أحمق أن أصيب من هذا اللبن شريرة أتقوى بها ، فلما جاؤا أمرني فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا ، فاستأذنوا فأذن لهم ، فأخذوا كمالهم من البيت ، قال : يا أبا هريرة ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : خذ فأعطهم ، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروي ثم يردُّ عليَّ القدح فأخذه فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروي ، ثم انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم ، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلى فتبسم ، وقال : يا أباهر ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : بقيتُ أنا وأنت ، قلت : صدقت يا رسول الله قال : أقعد فاشرب ، فقعدت فشربت ، فقال : اشرب ، فشربت ، فما زال يقول اشرب حتى قلت : لا والذي بعثتك بالحق ما أجدُّ له مسلكًا ، قال : فأرني ، فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة .

وقد وقع لأبي هريرة رضى الله عنه قصة أخرى فى تكثير الطعام مع أهل الصفة وأخرج ابن حبان من طريق مسلم بن حيان عن أبيه عنه قال : أتت على ثلاثة أيام لم أطعم ، فجئت أريد الصفة ، فجعلت أسقط ، فجعل الصبيان يقولون : خر أبو هريرة ، حتى انتهيت إلى الصفة ، فوافيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بقصعة من ثريد ، فدعا عليها أهل الصفة وهم يأكلون منها ، فجعلت أطاول كي يدعوني ، حتى قاموا وليس فى القصعة إلا شئ فى نواحيها ، فجمعه صلى الله عليه وسلم فصارت لقمة ، فوضعها على أصابعه فقال لى : كل باسم الله ، فوالذى نفسى بيده ما زلت آكل منه حتى شبع .

وروى أبو نعيم فى الحلية من حديث معاوية بن الحكم فقال : بينا أنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصفة ، فجعل يوجه الرجل مع الرجل من الأنصار ، والرجلين والثلاثة ، حتى بقيت فى أربعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم خامسنا ، فقال : انطلقوا بنا ، فقال : يا عائشة عشنا - الحديث .

وروى أيضا من طريق نعيم الجمر عن أبي هريرة : كنت من أهل الصفة ، وكنا إذا أمسينا حضرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل أو أكثر ، فيبقى من بقى عشرة أو أقل أو أكثر ، فيؤتى النبى صلى الله عليه وسلم بعشائه فيتعشى معهم ، فإذا فرغنا قال : ناموا فى المسجد . وروى ابن شبة عن طلحة البصرى قال : كان من قدم المدينة فكان له بها عريف نزل على عريفه ، ومن لم يكن له بها عريف نزل الصفة ، فكنت فيمن نزل الصفة ، فوافقت رجلين كان يجزى علينا فى كل يوم مدين من تمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فناداه رجل من أهل الصفة : يا رسول الله أخرج التمر بطوننا وتحرفت علينا الحرف ، فقال

النبي صلى الله عليه وسلم إلى منبره فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر ماله من قومه حتى إن كان ليأتي على وعلى صاحبي بضعة عشر يوماً مالهنا طعام إلا البرير^(١) ، قدمنا على إخواننا من الأنصار وجل طعامهم التمر ، فواسونا ، ولو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم ، ولكن لعلكم ستدركون زماناً أو من أدركه منكم يلبسون فيه مثل أستار الكعبة ويغدي ويراح عليكم بالجفان .

مبدأ
تعليق الأبناء

وقال ابن النجار : روى أهل السير أن محمد بن مسلمة رأى أضيافاً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، فقال : ألا نفرق هذه الأضياف في دور الأنصار ، ونجعل لك في كل حائط قنواً ليكون لمن يأتيك من هؤلاء الأقوام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بلى ، فلما جدد ماله^(٢) جاء بقنوه فجعله في المسجد بين ساريتين ، فجعل الناس يفعلون ذلك ، وكان معاذ بن جبل يقوم عليه ، وكان يجعل حبلاً بين الساريتين ثم تعلّق الأبناء على الحبل ، وتجمع العشرين وأكثر فيهم عليهم بعضاً من الأبناء فيأكلون حتى يشبعون ، ثم ينصرفون ويأتي غيرهم فيفعل بهم مثل ذلك ، فإذا كان الليل فعل لهم مثل ذلك .

قلت : بَوَّبَ البخاري للتسمية وتعليق القنوه في المسجد ، ولم يذكر في الباب تصريحاً بتعليق القنوه ، فأشار بذلك إلى ما رواه النسائي عن عوف بن مالك الأشجعي قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه عصا ، وقد علّق رجل قنوه حشف ، فجعل يطمن في ذلك القنوه ، ويقول : لو شاء رب هذه الصدقة تصدق بأطيب من هذا ، إن رب هذه الصدقة يأكل حشفاً يوم القيامة ، وليس على شرط البخاري ، وإن كان إسناده قوياً ، فأشار إليه بالتبويب ولم يذكره كعادته .

وروى ابن زبالة عن إبراهيم بن محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه أن ناساً كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم لا شيء لهم ، فقالت الأنصار :

(١) البرير — بفتح الباء بزنة رغيف — تمر الأراك .

(٢) جدد ماله : قطعه ، وماله هو التمر .

يا رسول الله ، لو عجلناك قنوا من كل حائط لهؤلاء ، قال : أجل فافعلوا ، ففعلوا ، فجرى ذلك إلى اليوم ، فهي الأقناء التي تعلق في المسجد عند جدار النخل فيعطاهما المساكين ، وكان عليها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل .
وقال يحيى : حدثني هرون بن موسى عن غير واحد من أهل المدينة أن الناس أصابتهم في ثمارهم عاهة من العاهات في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما على أحدكم لو بعث بقمون من نخله للمساكين ، فبعث ذلك الناس ، واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأقناء معاذ بن جبل ، فكان يمد حبلا بين جذعين ويعلق عليه الأقناء ، فرفع الله تلك العاهة ، فصارت سنة ، ولم تزل الأئمة عليها إلى اليوم .

وروى يحيى أيضاً عن عاصم بن سويد قال : سمعت أبا يقول : عويم بن ساعدة أتى بقمون إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنسى الناس به أهل العالية وأهل السافلة .

وأخرج ثابت في الدلائل أن النبي صلى الله عليه وسلم « أمر من كل حائط بقمون يعلق في المسجد » يعني للمساكين .
وفي رواية له : وكان عليها معاذ بن جبل : أي على حفظها ، أو على قسمتها ، والله أعلم .

الفصل التاسع

في الحجرة الشريفة ، وبيان إحاطتها بالمسجد الشريف إلا من جهة المغرب قد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم لما بنى مسجده الشريف بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة رضي الله عنهما على نعت بناء المسجد من لبن وجريد النخل .
قال ابن النجار : وكان لبيت عائشة مصراع واحد من عرعر أو ساج^(١) ، قال :

(١) العرعر — بوزن جعفر — هو شجر السرو ، والساج : شجر يعظم جداً ، وخشبه أسود رزين لا تسكد الأرض تبليه ، ومنبته بلاد الهند .

ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه بنى لمن حُجراً ، وهي تسعة أبيات ، وهي ما بين بيت عائشة رضي الله عنها إلى الباب الذي يلي باب النبي صلى الله عليه وسلم ، انتهى . ومراده بالباب الذي يلي باب النبي صلى الله عليه وسلم الباب الذي في الجهة المقابلة له من المغرب ، وهو المعروف الآن بباب الرحمة ، وإنما حملنا كلامه على ذلك لأنه وقع في كلامه استعمال الباب الذي يليه بمعنى الباب الذي يقابله ، ولأنه قال عقبه : قال أهل السير : ضرب النبي صلى الله عليه وسلم الحجرات ما بينه وبين القبلة والشرق إلى الشام ، ولم يضرها في غربيه ، وكانت خارجة من المسجد مديرة به إلا من المغرب ، وكانت أبوابها شارعة في المسجد ، انتهى .

وكان الخطيب ابن حملة فهم من هذا اختلافاً في مواضع الحجر ، فقال : قيل كانت كلها في جهة المشرق ، وقيل : في جهات المسجد ما عدا المغرب .

قلت : ويرجح ما قررناه ما رواه ابن الجوزي في شرف المصطفى بسنده إلى محمد بن عمر قال : سألت مالك بن أبي الرجال : أين كانت منازل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فأخبرني عن أبيه عن أمه أنها كانت كلها في الشق الأيسر إذا قمت إلى الصلاة إلى وجه الإمام في وجه المنبر هذا أبعدها ، ولما توفيت زينب أدخل — أي النبي صلى الله عليه وسلم — أم سلمة بيتها ، انتهى ، ووجه المنبر ووجه الإمام يعني إذا قام على المنبر بجهة الشام في جهة الباب المعروف الآن بباب الرحمة قبل أن ينقل إلى محله اليوم ، وهو يقتضي أنه لم يكن من الحجر شيء في جهة القبلة ، إلا أن تكون الرواية إلى وجه الإمام وفي وجه المنبر فيوافق ما تقدم عن أهل السير .

وأُسند ابن زبالة عن محمد بن هلال قال : أدركت بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كانت من جريد مستورة بمسوح الشعر^(١) مستطيرة في القبلة وفي

(١) المسوح : جمع مسح — بالكسر — كساء من شعر كثوب الرهبان ، ويجمع على أمساح أيضاً ، وانظر حديث عطاء الخراساني في ص ٤٦١ الآتية .

المشرق والشام ، ليس في غربي المسجد شيء منها ، وكان باب عائشة مواجهة الشام ، وكان بمصرع واحد من عرعر أوساج .

وأُسند يحيى من طريق الواقدي عن عبد الله بن يزيد الهذلي قال : رأيت بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حين هدمها عمر بن عبد العزيز كانت من لبن^(١) ، ولها حجر من جريد مطروقة بالطين ، عدت تسعة أبيات بحجرها ، وهي ما بين بيت عائشة إلى الباب الذي يلي باب النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزل أسماء بنت حسن اليوم .

قلت : وقوله « إلى الباب الذي يلي باب النبي صلى الله عليه وسلم » قد تقدم ما يؤخذ منه أن المراد به باب الرحمة ، وقوله « إلى منزل أسماء إلى آخره » يقتضي أن البيوت المذكورة كان بعضها خارجاً عن سمت^(٢) المسجد ؛ لأن بيت أسماء المذكور كان في مقابلة الباب الذي كان يلي باب النساء من شاميه ، ويبعد أن يكون المسجد النبوي ممتداً إلى تلك الجهة في زمنه صلى الله عليه وسلم ، لكن سيأتي في بيت فاطمة رضي الله عنها ما يصرح بأن بيتها كان ينتهي إلى الباب المذكور ؛ فيحتمل أن المسجد كان ممتداً إليه ، ويحتمل أن بعض البيت المذكور لم يكن في محاذة المسجد ، على أن البخاري روى في صحيحه حديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وعنده أزواجه فرجعن ، فقال لصفية بنت حيي : لا تعجلي حتى أنصرف معك ، وكان بيتها في دار أسامة ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم معها — الحديث » .

وفي رواية له عن صفية قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً ، فأتته أزوره ليلاً ، فحدثته ثم قت ، فانقلبت ، فقام معي ليقبني ، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ، فمر رجلان من الأنصار — الحديث .

وفي رواية له أنها جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوره وهو معتكف

(١) اللبن — يفتح فكسر — الطوب النبيء

(٢) سمت المسجد : طريقه .

في المسجد في العشر الأواخر من رمضان ، ثم قامت تنقلب ، فقام معها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا بلغ قريباً من باب المسجد عند باب أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم مر بهما رجلان من الأنصار - الحديث ، وهو يقتضي أن صفية لم يكن مسكنها في الحجر المحيطة بالمسجد .

ولم يتعرض ابن شبة لاتخاذ أسامة لدار ، وذكر أن أباه اتخذ دارين إحداها دخلت في المسجد لما زيد فيه ، ولعلمها المرادة والله أعلم .

ولنرجع إلى بقية ما أسنده يحيى عن عبد الله بن زيد ، قال : ورأيت بيت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وحجرتها من اللبن ، فسألت ابن ابنها ، فقال : لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم دومة الجندل بنت حجرتها بابن ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى اللبن ودخل عليها أول نسائه ، فقال : ما هذا البناء ؟ فقالت : أردتُ يا رسول الله أن أ كُفَّ أبصار الناس ، فقال : يا أم سلمة إن من شر ماذهب فيه مالُ المسلم البنيان ، قال الواقدي : فحدثت بهذا الحديث معاذ بن محمد الأنصاري ، فقال : سمعت عطاء الخراساني في مجلس فيه عمران بن أبي أنس يقول وهو فيما بين القبر والمنبر : أدركت حُجُرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود^(١) ، فحضرت كتاب الوائد ابن عبد الملك يقرأ يأمرنا بهدم حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت يوماً كان أكثر باكيًا من ذلك اليوم . قال عطاء : فسمعت سعيد بن المسيب يقول : والله لوددت أنهم تركوها على حالها يَنْشَأُ ناشئ من المدينة ويقدم قادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، ويكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر فيها ، قال معاذ : فلما فرغ عطاء الخراساني من حديثه قال عمران بن أبي أنس : كان فيها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد ، وكانت خمسة أبيات من جريد مُطَيَّنة لا حجر لها على أبوابها مسوح الشعر ، ذرعت السائر فوجدته

(١) انظر ص ٥٥٩ السابقة .

ثلاثة أذرع في ذراع وعظم الذراع ، فأما ما ذكرت من كثرة البسكاء فلقد رأيتني في المسجد وفيه نفر من أبناء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو أمامة بن سهل وخارجة بن زيد وإنهم ليكون حتى أخضَلَ لحام الدمع ، وقال يومئذ أبو أمامة : ليتها تركت حتى ينقص الناس من البنيان ويروا مارضى الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ومفاتيح خزائن الدنيا بيده .

وروى رزين عن عبد الله بن يزيد الهذلي قال : رأيت بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حين هدمها عمر بن عبد العزيز يدخلها في المسجد مبنية بالبن حوله خجر من جريد ممدودة إلا حجرة أم سلمة ، وذكر نحو ما تقدم باختصار .
و قال ابن الجوزي في الوفاء : قال محمد بن عمر : كانت لحارثة بن النعمان منازل قرب المسجد وحوله ، وكما أحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلاً^(۱) نزل له حارثة عن منزله حتى صارت منازل كلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه .

قلت : وظاهره يخالف ما تقدم من أنه صلى الله عليه وسلم بنى أولاً بيتين لزوجتيه ، وأنه لما تزوج نساءه بنى لمن حجرا ، وظاهره أنه كان كلما أحدث زوجة أحدث لها بناء حجرة ، فيحمل ما هنا على أن حارثة كان ينزل له عن مواضع المساكن ، وكان صلى الله عليه وسلم يبنيهما .

ونقل الزركشي عن الشمس الذهبي أنه قال : لم يبلغنا أنه صلى الله عليه وسلم بنى له تسعة أبيات حين بنى المسجد ، ولا أحسبه فعل ذلك ، إنما كان يريد بيتا واحدا حينئذ لسودة أم المؤمنين ، ثم لم يحتج إلى بيت آخر حتى بنى لعائشة رضي الله عنها ، في شوال سنة اثنين ، فكأنه صلى الله عليه وسلم بناها في أوقات مختلفة ، انتهى .

وهو مقتضى ما قدمناه ، غير أنه مخالف لما قدمناه في بيت عائشة رضي الله عنها ، لما تقدم أنه بناه مع بناء المسجد ، وهو الظاهر ؛ لأنها كانت حينئذ زوجته ،

(۱) أهل الرجل هنا : زوجته ، يريد كلما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم .

غير أنه لم يَبْنِ لها فتأهب لذلك بأن بنى لها حجرتها .

وذَكَرَ الأَقْشَرِيُّ أَنَّ ابْنَ عَبْدِ الْبَرِّ رَوَى مِنْ طَرِيقِ الزَّيْبِرِ بْنِ بَسَّارٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خَبْرًا طَوِيلًا فِي قُدُومِهَا الْمَدِينَةَ قَالَتْ فِيهِ : ثُمَّ إِنَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ، فَزِلْتُ مَعَ آلِ أَبِي بَكْرٍ ، وَنَزَلَ آلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْنِي مَسْجِدَهُ وَأَبْيَاتًا حَوْلَ الْمَسْجِدِ ، فَأَنْزَلَ فِيهَا أَهْلَهُ ، فَكَثُنَّا أَيَّامًا ، ثُمَّ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَبْنِيَ بِأَهْلِكَ ؟ قَالَ : الصَّدَاقُ ، فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَوْقِيَّةً وَنَشَأَ^(١) فَبَعَثَ بِهَا إِلَيْنَا ، وَبَنَى لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِي هَذَا الَّذِي أَنَا فِيهِ ، وَهُوَ الَّذِي تَوَفَّى فِيهِ وَدُفِنَ فِيهِ .

قلت : وَلَمْ أَرَ فِي كَلَامِ الْمُؤَرِّخِينَ مَنْ تَعَرَّضَ لِلْمَشْرَبَةِ الَّتِي اعْتَزَلَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا آلَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا ، وَمَقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِبَيْتِهَا مِنْ بَيْتٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ لِيَتَأْتِيَ عَدَمَ الدُّخُولِ عَلَيْهِنَّ ، وَالَّذِي فِي الصَّحِيحِ قَوْلُ حَفْصَةَ : هُوَ ذَا فِي الْمَشْرَبَةِ ، وَفِي رِوَايَةٍ تَسْمِيَتُهَا عَلِيَّةً ، وَفِي رِوَايَةٍ غُرْفَةً ، وَقَدْ بَوَّبَ عَلَيْهِ الْبُخَارِيُّ بِابِ هَجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ فِي غَيْرِ بَيْوتِهِنَّ ، وَفِي رِوَايَةٍ « هُوَ فِي خَزَانَتِهِ فِي الْمَشْرَبَةِ » وَفِي رِوَايَةٍ « فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَشْرَبَةٍ يَرْقَى عَلَيْهَا بِعَجَلَةٍ » وَفِي رِوَايَةٍ « فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبَاحِ غُلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدَ عَلَى أَسْكُفَّةِ الْمَشْرَبَةِ^(٢) مَدَلَ رِجْلِيهِ عَلَى تَقِيرٍ مِنْ خَشَبٍ وَهُوَ جَذَعٌ يَرْقَى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَنْحَدِرُ »

وَقَالَ السَّهِيلِيُّ : قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : كُنْتُ أَدْخُلُ بَيْوتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا غُلَامٌ مُرَاهِقٌ وَأُنَالُ السَّقْفَ بِيَدِي ، وَكَانَ لِكُلِّ بَيْتٍ حَجْرَةٌ ، وَكَانَتْ حَجْرَةٌ مِنْ أَكْسِيَّةٍ مِنْ خَشَبٍ عَرَّعَرًا .

(١) النَّشْ — بَفَتْحِ النَّوْنِ وَتَشْدِيدِ الشَّيْنِ — نَصْفُ الْأَوْقِيَّةِ ، وَهُوَ عَشْرُونَ دَوْرَهَا . وَيَطْلُقُ النَّشْ عَلَى النِّصْفِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

(٢) الْأَسْكُفَّةُ — بَضْمِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ السَّيْنِ وَضَمِّ الْكَافِ وَتَشْدِيدِ الْقَاءِ مَفْتُوحَةً — الْحَشْبَةُ الَّتِي يَطَأُ عَلَيْهَا الدَّخَلُ مِنَ الْبَابِ .

وورد أن بابہ صلی اللہ علیہ وسلم کان یقرع بالأظافر : أى لا حاق له .
وقال مالک : کان المسجد یضیق عن أهله ، وحجّر أزواج النبی صلی اللہ علیہ
وسلم لیست من المسجد ، ولکن أبوابها شارعاً فی المسجد ^(١) .

وقال ابن سعد : أوصت سودة ببيتها لعائشة رضی اللہ عنہا ، وباع أولیاء
صفیة بنت حبی بيتها من معاوية بمائة ألف وثمانین ألف درهم ، واشترى معاوية
من عائشة منزلاً بمائة ألف وثمانین ألف درهم ، وقیل : بمائتی ألف ، وشرط لها
سكنها حیاتها ، وحمل إليها المال ، فقامت من مجلسها حتی قسمته ، وقیل : بل
اشتراه ابن الزبير من عائشة ، وبعث إليها خمسة أجمال تحمل المال ، وشرط لها
سكنها حیاتها ، ففرقت المال .

وأسند ابن زبالة عن هشام بن عروة قال : إن ابن الزبير لیعتقد بمكرمتین
ما یعتقد أحد بمثلهما : أن عائشة أوصته ببيتها وحجرتها ، وأنه اشترى حجرة سودة .
قلت : وهذا یقتضى أن الحجر الشریفه كانت علی ملك نسائه صلی اللہ علیہ
وسلم ، ویؤیده ما تقدم من تصرف أم سلمة وبنائها لحجرتها فی غیبه صلی اللہ
علیہ وسلم ، ویعارضه ما تقدم من أن زینب بنت خزیمه لما توفیت أدخل النبی
صلی اللہ علیہ وسلم أم سلمة بیتها ، وقد أضيفت البيوت فی القرآن العظیم مرة .
صلی اللہ علیہ وسلم ومرة إلیهن ، والظاهر أن الإضافة الأولى هی الحقیقیة ؛ لما تقدم
من أن النبی صلی اللہ علیہ وسلم بناها ، ولأنه کان یجب علیہ إسكانهن ، غیر أن
لهن فیها بعده حق السكنی لحبسهن لحقه صلی اللہ علیہ وسلم .

وقال الزبير بن المنیر : إن غرض البخاری حیث ترجم بقوله « باب ماجاء
فی بیوت أزواج النبی صلی اللہ علیہ وسلم » وما نسب من البيوت إلیهن وقول اللہ
عز وجل « وَقَرْنَ فِی بُیُوتِكُنَّ » « ولا تدخلوا بیوت النبی إلا أن یؤذن لکم »
أن یبین أن بهذه النسبة تحقیق دوام استحقاقهن البيوت ما بقیين ؛ لأن نفقتهن
وسكنانهن من خصائص النبی صلی اللہ علیہ وسلم ، والسرفیه حبسهن علیہ ، انتهى

(١) شارعاً فی المسجد : مفتوحة فیہ .

وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ قَدْ مَلَكَ بَعْضُهُنَّ بَيْتَهَا ، أَوْ مَلَكَنَّ كُلَّهُنَّ كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ .

قال الطبري : قيل : كان النبي صلى الله عليه وسلم مَلَكَ كلاً من أزواجه البيت التي هي فيه فسكنَّ بعده فيهن بذلك التملك ، وقيل : إنما لم يُنَازَعَنَّ في مساكنهن لأن ذلك من جملة مؤنتهن التي كان النبي صلى الله عليه وسلم استثناء لهن مما كان بيده أيام حياته حيث قال : ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة ، قال الطبري : وهذا أرجح ، ويؤيده أن ورثتهن لم يرثوا عنهن منازلهن ، ولو كانت البيوت ملكاً لهن لانتقلت إلى ورثتهن ، وفي ترك ورثتهن حقوقهم منها دلالة على ذلك ، ولهذا زيدت بعدهن في المسجد لعموم نفعه للمسلمين ، انتهى .

وقد يناقش فيما ذكره من عدم إرث ورثتهن لمنازلهن ؛ إذ لا يلزم من عدم نقله انتفاءه مع أن في قصة إدخال بيت حفصة في المسجد وما وقع من آل عمر في أمر طريق بيت حفصة ما يشهد لأن ورثتهن ورثوا ذلك ، ويحتمل أن إدخال الحجر في المسجد كان بعد شرائها من الورثة ، وقد تقدم عن ابن سعد ما يشهد لذلك ، وقد قال في طبقاته أيضاً : أخبرنا إسرائيل عن جابر عن عمر قال : مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يوص إلا بمسكن أزواجه وأرض ، انتهى . وهذا يحتمل الوصية للأزواج بذلك ، ويحتمل غيره ، والله أعلم .

وادعى المذهب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد حبس عليهن بيوتهن ، ثم استدل به على أن من حبس داراً جاز له أن يسكن منها في موضع ، وتَعَقُّبُهُ ابن المنير بمنع أصل الدعوى ، وقد ترجم ابن شبة لعلم دور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وذكر عن جماعة منهن اتخاذ دور في أماكن متفرقة من المدينة ، فتلك غير الحجر المذكورة ، والظاهر أن اتخاذهن لذلك كان بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

الفصل العاشر

في حجرة فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها
أسند يحيى عن عيسى بن عبد الله عن أبيه أن بيت فاطمة رضي الله عنها في
الزور الذي في القبر، بينه وبين بيت النبي صلى الله عليه وسلم خَوْخَة .
وأسند عن عمر بن علي بن عمر بن علي بن الحسين قال : كان بيت فاطمة
في موضع الزور مخرج النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت فيه كُوَّةٌ ^(١) إلى بيت عائشة
رضي الله عنها، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى المخرج اطلع من
الكوة إلى فاطمة فلم يخبرهم، وأن فاطمة رضي الله عنها قالت لعلي : إن ابني
أُمَسِيًّا عليلين فلو نظرت لنا أَدَمًا ^(٢) نستصبح به ^(٣)، فخرج علي إلى السوق فاشتري لهم
أَدَمًا، وجاء به إلى فاطمة فاستصبحت، فدخلت عائشة المخرج في جوف الليل
فأبصرت المصباح عندهم، وذكر كلاما وقع بينهما، فلما أصبحوا سألت
فاطمة النبي صلى الله عليه وسلم أن يَسُدَّ الكوة، فسدها رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

وأسند يحيى عقب ذلك حديث عائشة « قلت : يا رسول الله ندخل كنيفك
فلا نرى شيئاً من الأذى، فقال : الأرض تبلع ما يخرج من الأنبياء من الأذى
فلا يرى منه شيء » فأشعر صنيع يحيى أن المراد من المخرج موضع الكنيف،
وأفهم ذلك أن المخرج المذكور كان خلف حجرة عائشة رضي الله عنها، بينها
وبين بيت فاطمة رضي الله عنها، وذلك يقتضي أن يكون محله في الزور، أعني
الموضع المزور شبه المثلث في بناء عمر بن عبد العزيز في جهة الشام .
وبشهاد لذلك ما أسنده يحيى عن مسلم عن ابن أبي مريم أن عرض بيت

(١) كوة - بضم الكاف أو فتحها وتشديد الواو مفتوحة - الحرق في الحائط .

(٢) الأدم : أراد به هنا الزيت، وأصله كل ما يؤكل مع الخبز

(٣) نستصبح به : نستغني، ومعناه الحرفي نطلب به الصباح

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأستوانة التي خلف الأستوان المواجهة الزور ، قال : وكان بابه في المربعة التي في القبر .

وقد أسند أبو غسان كما قاله ابن شبة عن مسلم بن سالم بن مسلم بن أبي مريم قال : عَرَّسَ على رضى الله عنه بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأستوان التي خلف الأستوان المواجهة الزور ، وكانت داره في المربعة التي في القبر ، قال سليمان : وقال مسلم : لا تنسَ حظك من الصلاة إليها ؛ فإنه باب فاطمة التي كان على يدخل إليها منه ، وقد رأيت حسن بن زيد يصلى إليها .

وقد ذكرنا في فضل أستوان مربعة القبر ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم « كان يأتي باب على كل يوم » وفي رواية « عند صلاة الصبح » وفي رواية يحيى « إلى باب على وفاطمة وحسن وحسين حتى يأخذ بعضادتي الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت » وفي رواية فيقول « الصلاة الصلاة الصلاة ، ثلاث مرات ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وذكرنا أيضاً أن أستوان التهجد خلف بيت فاطمة رضى الله عنها .

وروى الطبراني من حديث أبي ثعلبة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة ، ثم يأتي أزواجه ، وفي لفظ : ثم بدأ ببيت فاطمة ، ثم يأتي بيوت نسائه .

وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة في سفر وصنعت فاطمة مسكتين^(١) من ورق وقلادة وقرطين ، وسترت باب البيت لقدم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليها ، ووقف أصحابه على

(١) مسكتين : ثنية مسكة - بالتحريك ، والمسكة : السوار يتخذ من قرون الأوعال ، وقيل من جلود دابة بحرية ، والمراد هنا السوار مطلقاً ؛ لأنه ذكر أنهما من فضة .

الباب لا يدرون أيقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عُرِفَ الغَضَبُ في وجهه ، حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر ، فنزعت قرطبيها وقلادتها ومسكتيها ونزعتِ الستر وبعثت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتك السلام ، وتقول لك : اجعل هذا في سبيل الله ، فلما أتاه قال : قد فعلت فداها أبوها ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء ، ثم قام فدخل عليها .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قومٌ عُرَاةٌ كانوا غُرَاةً بالروم ، فدخل على فاطمة وقد سترت سترا قال : أَبِسْرُكُ أن يترك الله يوم القيامة ؟ فأعطنيه ، فأعطته ، فخرج به فشقه لكل إنسان ذراعين في ذراع .

وعن علي رضي الله عنه قال : زارنا النبي صلى الله عليه وسلم ، فبات عندنا والحسن والحسين نأتمان ، واستسقى الحسن ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم إلى قرربة لنا فجعل يعصرها في القدح ثم جعل يصبُّه ^(١) ، فتناول الحسين فمنعه ، وبدأ بالحسن ، فقالت فاطمة : يا رسول الله كأنه أحبُّ إليك ، قال : إنما استسقى أول ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني وإياك وهذان وهذا الراقد يعني عليا يوم القيامة في مكان واحد ، وعن أبي سعيد الخدري أيضاً مثله .

وعن علي قال : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعملنا له خزيرة ^(٢) ، وأهدت لنا أم أيمن قعباً من لبن وصحفة من تمر ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكلنا معه ، ثم وضأت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمسح رأسه وجهته بيده ، ثم استقبل القبلة فدعا بما شاء ، ثم أكبَّ إلى الأرض بدموع

(١) وقع في المطبوعات كلها «يعببه» تحريف ما أثبتناه

(٢) خزيرة: هي لحم يقطع صفاراً ويصب عليه ماء كثير ، فإذا نضج ذر عليه الدقيق .

غزيرة^(١)، يفعل ذلك ثلاث مرات، فتهيئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسأله، فوثب الحسين على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبكى، فقال له: بأبي وأمي ما يبكيك؟ قال: يا أبت رأيتك تصنع شيئاً ما رأيتك تصنع مثله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بني سررتُ بكم اليوم سروراً لم أسرَّ بكم مثله قط، وإن حبيبي جبريل عليه السلام أتاني وأخبرني أنكم قتلتم، وأن مصارعكم شتى، فأحزنتني ذلك، ودعوت الله تعالى لكم بالخيرة.

وقال ابن النجار: وبيت فاطمة اليوم حوله مقصورة وفيه محراب، وهو خلف حجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

قلت: المقصورة اليوم دائرة عليه وعلى حجرة عائشة رضي الله عنها كما سيأتي بيانه، والمحراب الذي ذكره خلف حجرة عائشة من جهة الزور بينه وبينه موضع تحترمه الناس ولا يدوسونه بأرجلهم، يذكر أنه موضع قبر فاطمة رضي الله عنها كما هو أحد الأقوال الآتية فيه، وقد اقتضى ما قدمناه أن بيت فاطمة رضي الله عنها كان فيما بين أربعة القبر وأسطوان التهجد، وأنه عرَّس بها إلى الأسطوان الذي إليه المحراب الموجود اليوم في بيتها؛ لأن الأسطوان المواجه للزور هو الأسطوان الذي في صف المربعة اللاصق بالجدار الداخل من الحجرة الشريفة، كان بعضه في حائطها الشامي، وأدخل كله فيه في العمارة التي أدركتها، وخلفه الأسطوانة التي التقى عندها زاويتا الزور، وخلفها الأسطوانة التي إليها المحراب المذكور؛ فيصدق عليها ما تقدم في كلام ابن شبة نقلاً عن رواية أبي غسان من أن علياً رضي الله عنه عرَّس بفاطمة إلى الأسطوان التي خلف الأسطوان المواجه للزور، لكن قال ابن شبة قبل ذلك ما لفظه: واتخذ علي بن أبي طالب بالمدينة دارين إحداهما دخلت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي منزل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كان يسكن، وموضعها من المسجد بين دار

(١) غزيرة: كثيرة

عثمان بن عفان التي في شرقي المسجد وبين الباب المواجه دار أسماء بنت حسن ابن عبد الله بن عبيد الله بن عباس في شرقي المسجد ، والأخرى دار عليّ التي بالبقيع ، وهي بأيدي ولد عليّ على حوز الصدقة ، اهـ .

وقوله « بين دار عثمان » أي ما يحاذيها ، وقوله « وبين الباب المواجه دار أسماء » أي ما يحاذيه أيضا ، وسيأتى أن هذا الباب كان بعد باب النساء مقابلا لرباط النساء المعروف اليوم برباط السبيل ، وهو بعيد من وجوه : أحدها : ما تقدم في أسطوان التهجد من أنه كان خلف بيت فاطمة .

الثاني : أنهم متفقون على أن باب جبريل المقابل لدار عثمان كان موجودا في زمنه صلى الله عليه وسلم ، فكيف يصح كون دار علي في ذلك الموضع .

الثالث : أن عمر بن الخطاب أول من زاد في المسجد وأحدث باب النساء ، وهو فيما بين باب جبريل والباب الذي ذكره ابن شبة ، وبيت فاطمة إنما أدخله في المسجد الوليد ، وسند كرم ما اتفق عند إدخاله في زيادة الوليد .

وقد يقال : إن الشارع كان بين المسجد النبوي وبين بيت فاطمة من جهة مؤخره ، فيتأتى مع ذلك اتخاذ عمر لباب النساء من غير تعرض لبيت فاطمة ، وكذا يقال في باب جبريل : إنه كان في محاذة موضعه اليوم ، لكن كان الشارع بينه وبين بيت فاطمة من تلك الجهة . ويؤيد ذلك أنهم لما حفروا للدعامة الغربية التي إليها باب الحجرة الشامي عند بناء القبة والعقود التي حولها بالحجرة الشريفة بعد الحريق الذي أدركناه وجدوا في محاذة باب جبريل أمام باب الحجرة المذكور درجا تحت الأرض آخذة لجهة الشام ، وقد سبق في حدود المسجد النبوي ما يقتضي أن جداره في المشرق كان هناك ، فترجح عندي أن تلك الدرج كانت لباب جبريل عليه السلام ، وأنه كان هناك قبل تحويله ، والله أعلم

الفصل الحادى عشر

فى الأمر بسدّ الأبواب الشارعة فى المسجد الشريف

و بيان ما استثنى من ذلك .

قال البخارى : باب قول النبى صلى الله عليه وسلم سُدُّوا الأبواب إلا باب أبى بكر ، قاله ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد وَصَّله البخارى فى الصلاة بلفظ سدوا عنى كل خوخة ، فكأنه ذكره هنا بالمعنى ، ثم أسند البخارى فى الباب حديث أبى سعيد الخدرى قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وقال : إن الله خَيْرَ عبدا بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله . قال : فبكى أبو بكر ، فتعجبنا لبكائه أن يخبر^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خَيْرٍ ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الخير ، وكان أبو بكر أعلمنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أَمَنَ الناس على فى صحبتهم وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين فى المسجد بابٌ إلا سدَّ إلا باب أبى بكر ورواه مسلم من طريق مالك بن أنس بنحوه ، وقال : لا يبقين فى المسجد خوخة إلا خوخة أبى بكر .

والخوخة : طاقة فى الجدار تفتح لأجل الضوء ، ولا يشترط علوها ، وحيث تكون سفلى يمكن الاستطراق منها لاستقراب الوصول إلى مكان مطلوب ، وهو المقصود هنا ، ولهذا أطلق عليها باب ، وقيل : لا يطلق عليها باب إلا إذا كانت تغلق وفى حديث ابن عباس المشار إليه فى الصلاة أن ذلك فى مرضه صلى الله عليه وسلم الذى مات فيه ، ولمسلم من حديث جندب : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بخمس ليال ، وذكر الحديث .

(١) « أن يخبر » أى لأن يخبر ، ومعناه فتعجبنا لبكائه من أجل أن يخبر النبى

صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله - إلح

وروى عبدُ الله بن أحمد برجال ثقات عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار ، سُدُّوا كل خَوْخَةٍ في المسجد غير خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ .

وروى الطبراني بإسنادٍ حسنٍ عن معاوية رضي الله عنه نحوه ، وفيه أن ذلك بعد أن صُبَّ عليه صلى الله عليه وسلم من سبع قرب من آبار شتى ، ولفظه : انظروا هذه الأبواب الشَّوَارِعَ ^(١) في المسجد فسدوها إلا ما كان من باب أبي بكر . وروى أبو يَعْلَى - ورجاله ثقات - عن عائشة نحوه أيضا .

وفي طبقات ابن سعد : أخبرنا قتيبة بن سعيد البلخي ثنا الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن أعظم الناس على مَنَّا في صحبته وذات يده أبو بكر ، فأغلقوا هذه الأبواب الشارعة كلها في المسجد إلا باب أبي بكر .

وقال قتيبة بن سعيد : قال الليث بن سعد : قال معاوية بن صالح : فقال فاس : أغلق أبوابنا وترك باب خليله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بلغني الذي قلتم في باب أبي بكر ، وإني أرى على باب أبي بكر نورا ، وأرى على أبوابكم ظلمة .

وفيها أيضا : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني الزبير بن موسى عن أبي الحويرث قال : لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأبواب تسد إلا باب أبي بكر قال عمر : يا رسول الله دَعْنِي افْتَحْ كَوَّةً أنظر إليك حين تخرج إلى الصلاة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا .

قال الخطابي وابن بطلال : في هذا الحديث إشارة قوية إلى استحقاق أبي بكر رضي الله عنه للخلافة ، ولا سيما وقد ثبت أن ذلك كان في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي أمرهم فيه أن لا يؤمهم إلا أبو بكر

(١) الشوارع : جمع شارع ، ومعناه نافذ ، أي الأبواب النافذة في المسجد

قال الحافظ ابن حجر : وقد ادعى بعضهم أن الباب كناية عن الخلافة ، والأمر بالسد كناية عن طلبها ، كأنه قال : لا يطلبن أحد الخلافة إلا أبا بكر فإنه لا حرج عليه في طلبها ، وإلى هذا جَنَحَ ابن حبان ، وقوى بعضهم ذلك بأن منزل أبي بكر كان بالسُّنَح^(١) من عَوَالِي المدينة فلا يكون له خَوْخَة إلى المسجد

قال الحافظ ابن حجر : وهذا الاستناد ضعيف ؛ لأنه لا يلزم من كون منزله كان بالسُّنَح^(١) أن لا يكون له دار مجاورة للمسجد ، ومنزله الذي كان بالسُّنَح^(١) هو منزل أصهاره من الأنصار ، وقد كان له إذ ذاك زوجة أخرى ، وهى أسماء بنت عميس ، بالاتفاق ، وأم رومان على القول بأنها كانت باقية يومئذ ، وقد ذكر عمر بن شبة في أخبار المدينة أن دار أبي بكر التى أذن له فى إبقاء الخوخة منها إلى المسجد كانت ملاصقة للمسجد ، ولم تزل بيد أبي بكر حتى احتاج إلى شيء يعطيه لبعض مَنْ وفَدَ عليه فباعها فاشتريتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم .

قلت : وسيأتى بقية ما ذكره فى إدخالها فى المسجد فى زيادة عمر رضى الله عنه وقال ابن شبة أيضا فى ذكر دور بنى تيم : اتخذ أبو بكر رضى الله عنه دارا فى زُقَاقِ البقيع قبالة دار عثمان الصغرى ، واتخذ منزلا آخر أيضا عند المسجد ، وهو المنزل الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : سدوا عني هذه الأبواب إلا ما كان من باب أبي بكر .

قال أبو غسان : أخبرني محمد بن إسماعيل بن أبي فديك أن عمه أخبره أن الخوخة الشارعة فى دار القضاء فى غربى المسجد خوخة أبي بكر الصديق التى قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : سدُّوا عني هذه الأبواب إلا ما كان من خوخة أبي بكر الصديق ، واتخذ أبو بكر أيضا بيتا بالسُّنَح^(١) ، اه كلام ابن شبة . وقال الجمال المطرى : وأما خوخة أبي بكر رضى الله عنه فإن ابن الفجار قال : قال أهل السير : إن باب أبي بكر كان غربى المسجد ، ونقل أيضا أنه كان قريب المنبر ،

(١) السُّنَح - بضم السين وسكون النون ويقال : بضم السين والنون جميعاً - موضع بعوالى المدينة فيه منازل بنى الحارث بن الخزرج

ولما زادوا في المسجد إلى حده في الغرب نقلوا الخوخة^(١) وجعلوها في مثل مكانها أولاً، كما نقل باب عثمان إلى موضعه اليوم .

قال المطري : وباب خوخة أبي بكر اليوم هو باب خزانة لبعض حواصل الحرم ، إذا دخلت من باب السلام كانت على يسارك قريباً من الباب . قلت : وهذه الخزانة جعل في جهتها عند عمارة المدرسة الأشرفية ثلاثة أبواب، ومحل الخوخة من ذلك الباب الثالث من على يسارك إذا دخلت من باب السلام، وتعرف قديماً بخزانة النورة لوضعها فيها للعمارة .

وكلامه في ذلك يوافق ما ذكره ابن زبالة فإنه قال : وحدثني محمد بن إسماعيل عن إسحاق بن مسلم أن الخوخة التي إلى جنب باب زياد في غربى المسجد الشارعة في رحبة القضاء هي يُمْنَى خوخة أبي بكر ، لما زيد في المسجد نُحِيَّتْ فجعلت يمينها : أى في موازاتها من جهة اليمين ، ورحبة القضاء خلف الخوخة المتقدم وصفها من جهة الحصن العتيق المتخذ مدرسة للسلطان الأشرف بعد الحريق الذي أدركناه .

قال الحافظ ابن حجر : وقد جاء في سد الأبواب التي حول المسجد أحاديث يخالف ظاهرها ما تقدم : منها حديث سعد بن أبي وقاص قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب الشارعة في المسجد ، وترك باب على ، أخرجه أحمد والنسائي وإسناده قوى ، وفي رواية للطبراني في الأوسط رجالها ثقة : فقالوا يا رسول الله سدت أبوابنا ، فقال : ما أنا سددها ولكن الله سدها ، وعن زيد ابن أرقم قال : كان لنفر من الصحابة أبواب شارعة في المسجد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سدُّوا هذه الأبواب إلا باب على ، فتكلم ناس في ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني والله ماسدت شيئا ولا فتحتة ، ولكن أمرت بشيء فاتبعته ، أخرجه أحمد والنسائي والحاكم ورجاله ثقات .

(١) الخوخة - بفتح الخاء وسكون الواو - باب صغير كالنافذة الكبيرة، وتكون بين بيتين ينصب عليها باب ، قاله ابن الأثير .

قلت : لفظ رواية أحمد : عن زيد بن أرقم قال : كان لنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبواب شائعة في المسجد ، قال : فقال يوماً : سُدُّوا هذه الأبواب إلا باب عليّ ، فتكلم أناس في ذلك ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه وقال : أما بعد فإنني قد أمرتُ بسدِّ هذه الأبواب غير باب عليّ ، فقال فيه قائلكم ، وإني والله ما سدّدتُ شيئاً ولا فتحتهُ ، الحديث .

وعن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبواب المسجد فسُدَّتْ إلا باب عليّ ، وفي رواية : وأمر بسد أبواب المسجد غير باب عليّ ؛ فكان يدخل المسجد وهو جنب ليس له طريق غيره ، أخرجهما أحمد والنسائي ، ورجاهما ثقات .

وعن جابر بن سمرة قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب كلها غير باب عليّ ، فربما مر فيه وهو جنب ، أخرجه الطبراني .

وعن ابن عمر : كنا نقول في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرُ الناس ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ولقد أعطى علي بن أبي طالب ثلاث خصال لأن يكونَ لي واحدةٌ منهن أحبُّ إليّ من حمرِ النّعم : زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وولدت له ، وسدَّ الأبواب إلا بابه في المسجد ، وأعطى له الراية يوم^(١) خيبر ، أخرجه أحمد ، وإسناده حسن .

وأخرج النسائي من طريق العلاء بن عرار — بمهمات — قال : قلت لابن عمر : أخبرني عن علي وعثمان ، فذكر الحديث ، وفيه : وأما علي فلا تسأل عنه أحداً ، وانظر إلى منزله من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد سدَّ أبوابنا في للمسجد وأقر بابه ، ورجاله رجالُ الصحيح ، إلا العلاء وقد وثقه يحيى بن معين وغيره .

(١) أي بعد أن قال قبل إعطائها إياه : « لأعطي الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله »

قال الحافظ ابن حجر : وهذه الأحاديث تقوى بعضها بعضاً ، وكل طريق منها صالحة للاحتجاج ، فضلاً عن مجموعها ، وقد أورد ابن الجوزي هذا الحديث في الموضوعات ، وأخرجه من حديث سعد بن أبي وقاص وزيد بن أرقم وابن عمر مقتصرًا على بعض طرقهم ، وأعلّله ببعض من تكلم فيه من رواته ، وليس ذلك بقادح لما ذكرت من كثرة الطرق ، وأعله أيضاً بأنه يخالف للأحاديث الصحيحة الثابتة في باب أبي بكر ، وزعم أنه من وضع الرافضة قابلوا به الحديث الصحيح في باب أبي بكر .

قال الحافظ ابن حجر : وقد أخطأ في ذلك خطأ شنيعاً ؛ فإنه سلك رد الأحاديث الصحيحة بتوهم المعارضة ، مع أن الجمع بين القصةين ممكن . وقد أشار إلى ذلك البزار في مسنده فقال : وَرَدَّ من روايات أهل الكوفة بأسانيد حسان في قصة علي ، وورد من روايات أهل المدينة في قصة أبي بكر فإن ثبتت روايات أهل الكوفة فالجمع بينهما بما دل عليه حديث أبي سعيد الخدري — يعني الذي أخرجه الترمذي — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل لأحد أن يطرق هذا المسجد جنباً غيري وغيرك ، والمعنى أن باب علي كان إلى جهة المسجد ، ولم يكن ليئته باب غيره ؛ فذلك لم يؤمر بسده .

ويؤيد ذلك ما أخرجه إسماعيل القاضي في أحكام القرآن من طريق المطلب ابن عبد الله بن حنطب أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأذن لأحد أن يمر في المسجد وهو جنب. إلا لعلي بن أبي طالب ؛ لأن بيته كان في المسجد ، ومحصل الجمع أن الأمر بسد الأبواب وقع مرتين ؛ نفي الأولى استثنى علياً لما ذكره من كون بابه كان إلى المسجد ولم يكن له غيره ، وفي الأخرى استثنى أبا بكر ، ولكن لا يتم ذلك إلا بأن يحمل ما في قصة علي على الباب الحقيقي ، وما في قصة أبي بكر على الباب المجازي ، والمراد به الخوخة كما صرح به في بعض طرقه ،

وكانهم لما امرؤوا بسد الأبواب سدوها وأحدثوا خوفا يستقربون الدخول إلى المسجد منها ، فأمرؤا بعد ذلك بسدها .

فهذه طريقة لا بأس بها في الجمع بين الحديثين المذكورين ؛ وبها جمع بينهما الطحاوي في مشكل الآثار ، والسكلا بآذی في معانی الأخبار ، وصرح بأن بيت أبي بكر كان له باب من خارج المسجد وخوخة إلى داخل المسجد ، وبيت علي لم يكن له باب إلا من داخل المسجد ، انتهى ما أورده الحافظ بن حجر في ذلك .

قلت : والعبارة تحتاج إلى تنقيح ؛ لأن ما ذكره بقوله « ومحصل الجمع » طريقة أخرى في الجمع غير الطريقة المتقدمة ؛ إذ محصل الطريقة المتقدمة أن البابين بقياً ، وأن المأمورين بالسد هم الذين كان لهم أبواب إلى غير المسجد مع أبواب من المسجد ، وأما علي فلم يكن بابه إلا من المسجد ، وأن الشارع صلى الله عليه وسلم خصه بذلك ، وجعل طريقه إلى بيته المسجد لما سبق ، فباب أبي بكر هو المحتاج إلى الاستثناء ، ولذلك اقتصر الأكثر عليه ، ومن ذكر باب علي فإنما أراد بيان أنه لم يسد ، وأنه وقع التصريح بإبقائه أيضاً ، والطريقة الثانية تعدد الواقعة ، وأن قصة علي كانت متقدمة على قصة أبي بكر رضي الله عنهما .

و يؤيد ذلك ما أسنده يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن عبد الله بن مسلم الهلالي عن أبيه عن أخيه قال : لما أمر بسد أبوابهم التي في المسجد خرج حمزة بن عبد المطلب يجر قطيفة له حمراء ، و يناه تذر فإن يبكي يقول : يا رسول الله أخرجت عمك وأسكنت ابن عمك ، فقال : ما أنا أخرجتك ولا أسكنته ، ولكن الله أسكنه ، فذكر حمزة رضي الله عنه في القصة يدل على تقدمها .

وروى البزار وفيه ضعف قد وثقوا عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انطلق فرهم فليسدوا أبوابهم ، فانطلقت فقلت لهم ،

ففعّلوا إلا حمزة ، فقلت : يا رسول الله قد فعلوا إلا حمزة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل لحمزة فليحول بابه ، فقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أن تحول بابك ، فحول ، فرجعت إليه وهو قائم يصلى ، فقال : ارجع إلى بيتك .

وروى البزار بإسنادٍ قال الهيثمى : فيه من لم أعرفه ، عن علي رضى الله عنه قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ، فقال : إن موسى سأل ربه أن يطهر مسجده بهارون ، وإني سألت ربي أن يطهر مسجدي بك وبذريتاك ، ثم أرسل إلى أبي بكر أن سدّ بابك ، فاسترجع ثم قال : سمع وطاعة ، فسد بابه ، ثم أرسل إلى عمر ، ثم أرسل إلى العباس بمثل ذلك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أنا سدّدتُ أبوابكم وفتحت باب على ، ولكن الله فتح باب على وسد أبوابكم »

قلت : ذكرُ العباسِ بَدَل حمزة هنا وفيما سيأتى فيه نظر ؛ لأنه يقتضى تأخر ذلك ؛ لأنه إنما قدم المدينة عام الفتح

وأُسند ابن زبالة وبجي من طريقه عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينما الناسُ جلوس في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ خرج مُنادٍ فنادى : أيها الناسُ سدّوا أبوابكم ، فتحسحس^(١) الناس لذلك ولم يقم أحد ، ثم خرج الثانية فقال : أيها الناس سدّوا أبوابكم ، فلم يقم أحد ، فقال الناس : ما أراد بهذا ؟ فخرج فقال : أيها الناس سدّوا أبوابكم قبل أن ينزل العذاب ، فخرج الناس مبادرين ، وخرج حمزة بن عبد المطلب يجر كساءه حين نادى سدّوا أبوابكم ، قال : ولكل رجل منهم باب إلى المسجد أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم ، قال : وجاء على حتى قام على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما يقيمك ؟

(١) تحسحس الناس لذلك : توجعوا ، يقال : حسست لهذا الأمر أحس -

من باب ضرب - وحسست وتحسحست : أى توجعت له ورققت وتحركت

ارجع إلى رَحْلِكَ ، ولم يأمره بالسد ، فقالوا : سدَّ أبوابنا وترك باب علي وهو أخذنا^(١) ، فقال بعضهم : تركه لقربته ، فقالوا : حمزة أقرب منه ، وأخوه من الرضاة وعمه ، وقال بعضهم : تركه من أجل ابنته ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم بعد ثلاثة فحمد الله وأثنى عليه حمرا وجهه - وكان إذا غضب احمر عرق في وجهه - ثم قال : أما بعد ذلكم فإن الله أوحى إلى موسى أن اتخذ مسجدا طاهرا لا يسكنه إلا هو وهارون وأبناء هارون شبرا وشبيرا ، وإن الله أوحى إلى أن اتخذ مسجدا طاهرا لا يسكنه إلا أنا وعلى وأبناء علي حسن وحسين ، وقد قدمت المدينة ، واتخذت بها مسجدا ، وما أردت التحول إليه حتى أمرت ، وما أعلم إلا ما علمت ، وما أصنع إلا ما أمرت ، فخرجت على ناقتي ، فلقيني الأنصار يقولون : يا رسول الله انزل علينا ، فقلت : خلوا الناقة فإنها مأمورة حتى نزلت حيث بركت ، والله ما أنا سدت الأبواب وما أنا ففتحتها ، وما أنا أسكنت عليا ، ولكن الله أسكنه .

وروى أحمد بإسناد حسن عن سعد بن مالك قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب الشارعة في المسجد ، وترك باب علي رضي الله عنه ، ورواه أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط ، وزاد : قالوا : يا رسول الله سدت أبوابنا كلها إلا باب علي ، قال : ما أنا سدت أبوابكم ، ولكن الله سدها .

وأسنده يحيى عنه بلفظ : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأبواب فسدت إلا باب علي ، فقال العباس : يا رسول الله سدت أبوابنا إلا باب علي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا سدتها ولا أنا ففتحتها .

وعن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سدوا أبواب المسجد إلا باب علي ، فقال رجل : أترك لي قدر ما أخرج وأدخل ، فقال رسول

(١) أخذنا : أصغرنا سنا

اللہ صلی اللہ علیہ وسلم : لم أؤمر بذلك ، قال : أترك بقدر ما أخرج صدری
یا رسول اللہ ، فقال رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم : لم أؤمر بذلك ، وانصرف ،
قال رجل : فبقدر رأسی یا رسول اللہ ، فقال رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم : لم
أؤمر بذلك ، وانصرف واجداً^(۱) با کیا حزینا ، فقال رسول اللہ صلی اللہ علیہ
وسلم : لم أؤمر بذلك ، سدوا الأبواب إلا باب علی .

ورواه الطبرانی عن جابر مختصراً ، وفيه ناصح بن عبد اللہ ، وهو متروک ،
ولفظ الطبرانی : أمر رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم بسد الأبواب كلها غیر باب علی
رضی اللہ عنہ ، فقال العباس : یا رسول اللہ اترك لی قدر ما أدخل أنا وحدی
وأخرج ، فقال : ما أمرت بشیء من ذلك ، فسدّها كلها غیر باب علی ، قال :
وربما مر وهو جنب .

وأُسند ابن زبالة ويحيى من طريقه عن عمرو بن سهل أن رسول اللہ صلی اللہ
عليه وسلم أمر بسد الأبواب الشوارع في المسجد ، قال له رجل من أصحابه :
یا رسول اللہ دَع لي كُوَّةً أنظر إليك منها حين تغدو وحين تروح ، فقال : لا والله
ولا مثل ثقب الإبرة .

قلت : وقد اقتضى ذلك المنع من الخوذة أيضاً ، بل ومما دونها ، عند الأمر
بسد الأبواب أولاً ، فإن صح ذلك فيحمل الإذن بعده في اتخاذ الخوخ ، ثم كانت
قصة أبي بكر بعد ذلك .

وفي طبقات ابن سعد : أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثني عبد الرحمن بن الواقفي
عن صالح بن حسان عن أبي البداح بن عاصم بن عدي قال : قال العباس بن
عبد المطلب : یا رسول اللہ ما باللك فتحت أبواب رجال في المسجد ، وما باللك
سدّدت أبواب رجال في المسجد ؟ فقال رسول اللہ صلی اللہ علیہ وسلم : یا عباس
ما فتحتُ عن أمری ولا سدّدت عن أمری ، والله أعلم .

(۱) واجداً : غضبان ، وجد يجد وجداً وموجدة : أي غضب ، وفي حديث
الإيمان « إني سائلك فلا تجد علي » أي لا تغضب من سؤالی

الفصل الثاني عشر

في زيادة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المسجد

سيأتي في الفصل الرابع عشر من رواية البخاري وأبي داود عن ابن عمر أن أبا بكر رضي الله عنه لم يَزِدْ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، وزاد فيه عمر ، وسيأتي في رواية لأبي داود أن سَوَارِيَّ المسجد نَحَرَتْ في خلافة أبي أبي بكر ، فبناها بجذوع النخل ، وهو لا ينافي رواية أنه لم يزد فيه ، وقال أهل السير : لم يزد أبو بكر في المسجد شيئاً لأنه اشتغل بالفتح ، فلما ولي عمر قال : إني أريد أن أزيد في المسجد ، ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغي أن يزداد المسجد » ما زدت فيه شيئاً .

وفي تاريخ الياقعي أن زيادته فيه كانت في سنة سبع عشرة ، وذكر غيره أنه زاد في هذه السنة في المسجد الحرام ، ولم يتعرض لتاريخ زيادته في مسجد المدينة .

وأُسند ابن زبالة عن أنس قال : لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى أبو بكر لم يحول المسجد ، فلما ولي عمر جعل أساطينه من لَبْنٍ^(١) ، ونزع الخشب ، ومده في القبلة ، وكان حد جدار عمر من القبلة ، على أول أساطين القبلة التي إليها المقصورة : أي التي كانت بين صف الأساطين التي تلي القبلة على الرواق القبلي .

والذي في صحيح البخاري وسنن أبي داود كما سيأتي أن عمر رضي الله عنه زاد في المسجد ، وبنَّاه على بنائه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بِاللَّبْنِ^(١) والجريد ، وأعاد عمده خَشْباً ، وهذا مخالف لما في رواية ابن زبالة من أن عمر جعل أساطينه من لَبْنٍ^(١) ، والمُعْوَلُ عليه رواية الصحيح .

وروى أحمد عن نافع أن عمر رضي الله عنه زاد في المسجد من الأسطوانة

(١) اللبن - بفتح فكسر - الطوب النيء الذي لم يحرق بالنار .

إلى المقصورة ، ، وقال عمر : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغى أن تزيد فى مسجدنا » ما زدت .

وأُسند يحيى عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنهما قال : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينبغى أن تزيد فى المسجد » ما زدت فى المسجد شيئاً .

وفى رواية له أن ابن عمر قال : إن الناس كثروا فى عهد عمر ، فقال له قائل : يا أمير المؤمنين لو وسَّعت فى المسجد ، فقال عمر : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إني أريد أن أزيد فى قبلة مسجدنا » ما زدت فيه .
وأُسند ابن زبالة عن مسلم بن حباب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً وهو فى مصلاه فى المسجد « لو زدت فى مسجدنا » وأشار بيده نحو القبلة ، فأدخلوا رجلاً وأجلسوه فى موضع مصلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رفعوا يَدَ الرجل وخفَّضوها حتى رأوا أن ذلك نحو ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم رفع يده ، ثم مدوا مِقْطاً^(١) فوضعوا طرفه بيد الرجل ، ثم مدوه ، فلم يزاوا يقدمونه ويؤخرونه حتى رأوا أن ذلك فيه ، أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزيادة ، فقدم عمر القبلة ، فكان موضع جدار عمر فى موضع عيدان المقصورة .

وقال ابن سعد : أنا يزيد بن هارون ، أنا أبو أمية بن يعلى عن سالم أبى النضر قال : لما كثرت المسلمون فى عهد عمر رضى الله عنه وضاقت بهم المسجد فاشتري عمر ما حول المسجد من الدور إلا دار العباس بن عبد المطلب وحُجَرَ أمهات المؤمنين ، فقال عمر للعباس : يا أبا الفضل ، إن مسجد المسلمين قد ضاقت بهم ، وقد ابتغيت ما حوله من المنازل توسع به على المسلمين فى مسجدهم إلا دارك وحُجَرَ أمهات المؤمنين ، فأما حُجَرَ أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها ، وأما دارك فبعتها بما شئت من بيت مال المسلمين أوَّسَّع بها فى مسجدهم ، فقال العباس : ما كنت لأفعل ، قال : فقال له عمر :

(١) المقاط - بكسر الميم ، بزنة الكتاب - جبل صغير شديد القتل يكاد يقوم من شدة قتله ، قاله ابن الأثير ، وقد وقع فى المطبوعات «مدوا مقطاً» بدون ألف .

بين عمر
والعباس

أختر مني إحدى ثلاث : إما أن تبيعنيها بمأشئت من بيت المال ، وإما أن أخطك حيث شئت من المدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين ، وإما أن تصدق بها على المسلمين فتوسع في مسجدهم ، فقال : لا ، ولا واحدة منها ، فقال عمر : اجعل بيني وبينك مَنْ شئت ، فقال : أبي بن كعب ، فانطلقا إلى أبي فقصا عليه القصة ، فقال أبي : إن شئتما حدثكما بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : حَدَّثْنَا ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله أوحى إلى داود أن ابني لي بيتاً أذكر فيه ، فخط له هذه الخطة خطة بيت المقدس ، فإذا تربيعها بزواية بيت رجل من بني إسرائيل ، فسأله داود أن يبيعه إياها ، فأبى ، فحدث داود نفسه أن يأخذه منه ، فأوحى الله إليه : أن يادأود أمرتك أن تبني لي بيتاً أذكر فيه ، فأردت أن تدخل في بيتي الغضب ، وليس من شأني الغضب ، وإن عقوبتك أن لا تبنيه ، قال : يارب فمن ولدي ، قال : فمن ولدك ، فأخذ عمر بمجامع أبي بن كعب فقال : جئت بك بشيء فجئت بما هو أشد منه ، لتخرجن مما قلت ^(١) ، فجاء يقوده حتى دخل المسجد ، فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أبوذر ، فقال أبي : نشدتُ الله رجلاً سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه إلا ذكره ، فقال أبوذر : أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال آخر : أنا سمعته ، يعني من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأرسل أبا ، قال : فأقبل أبي على عمر فقال : يا عمر أتتهمني على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : والله يا أبا المنذر ما أتهمتك عليه ، ولكن أردت أن يكون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهراً ، قال : وقال عمر للعباس : اذهب فلا أعرض لك في دارك ، فقال العباس : أما إذ قلت ذلك فإني قد تصدقت بها على المسلمين أوسع عليهم في مسجدهم ،

(١) كان عمر - رضي الله تعالى عنه - شديد الحرس على ألا يروى أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عن ثبت ، وله في ذلك حوادث كثيرة ، ومقصده بقوله « لتخرجن مما قلت » أن يجيئه بمن يشهد له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال ذلك .

فأما وأنت تخاصمني فلا ، قال : فخط له عمر داره التي هي اليوم ، و بناها من بيت مال المسلمين .

وفي سنن البيهقي قبل كتاب الرجعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما أراد عمر رضي الله عنه أن يزيد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت زيادته على دار العباس رضي الله عنه ، فأراد عمر أن يدخلها في المسجد ويعوضه منها : فأبى ، وقال : قطيعة^(۱) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاختلعا ، فجعل بينهما أبي بن كعب رضي الله عنه ، فأتياه في منزله ، وكان يسمى سيد المسلمين ، فأمر لهما بوسادة ، فألقيت لهما فجلسا عليها بين يديه ، فذكر عمر ما أراد ، وذكر العباس قطيعة^(۲) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبي رضي الله عنه : إن الله عز وجل أمر عبده ونبيه داود أن يبنى له بيتا ، قال : أي رب ، وأين هذا البيت ؟ قال : حيث ترى الملك شاهرا سيفه ، فرآه على الصخرة ، وإذا ما هناك يومئذ أندر^(۳) لغلाम من بني إسرائيل ، فأتاه داود عليه السلام فقال : إني قد أمرت أن أبنى هذا المكان بيتا لله تعالى ، فقال له الفتى : الله أمرك أن تأخذ مني بغير رضاي ؟ قال : لا ، فأوحى الله إلى داود إني قد جعلت في يدك خزانة الأرض فأرضه ، فأتاه داود عليه السلام فقال : إني قد أمرت برضاك ، فلك بها قنطار من ذهب ، فقال : قد قبلت ، فيا داود هي خير أم القنطار ؟ فقال : بل هي ، قال : فأرضني ، قال : فلك بها ثلاث قناطير ، فلم يزل يشدد على داود حتى رضي منه بتسع قناطير ، قال العباس رضي الله عنه : اللهم لا آخذ لها ثوابا ، وقد تصدقت بها على جماعة المسلمين ، فقبلها عمر ، فأدخلها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وهذا يُفهم أن داود صلوات الله وسلامه عليه بنى بيت المقدس ، وأنه

(۱) قطيعة رسول الله : أي أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعها إياها ، والإقطاع يكون تملكا يستبد به وينفرد ، ويكون غير تملك كعارية وإباحة وما أشبه ذلك ، وظاهر من كلام العباس رضي الله عنه أنه كان ملكه هذه البقعة .

(۲) الأندر والبدر بمعنى ، وهما في لغة أهل مصر الجرن .

أول مَنْ بناه ، والرواية المتقدمة تقتضى أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه هو الذى بناه ، ويؤيده ما روى الطبرانى من حديث رافع بن عميرة مرفوعا قال : قال الله عز وجل لداود : اننِ لى بيتا فى الأرض ، وإن داود عليه السلام بنى المسجد ، فلما تم السور سقط ثلثاه ، فشكا ذلك إلى الله تعالى ، فأوحى الله إليه إنه لا يصلح أن يبنى لى بيتا ، وذكر قصة غير ما تقدم ، فشق ذلك على داود ، فأوحى الله تعالى إليه : إني سأقضى بناءه على يد أبنك سليمان .

وروى النسائى من حديث عمرو بن العاص مرفوعا بإسناد صحيح أن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل الله تعالى خللا ثلاثا - الحديث .

وسواء كان البانى له داود أو سليمان عليهما السلام بشكل عليه ما فى الصحيحين عن أبى ذر : سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع على الأرض ، فقال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى ، قلت : وكم بينهما ؟ قال : أربعون عاما ، ووجه الإشكال كما ذكره ابن الجوزى أن إبراهيم عليه السلام بنى الكعبة وبينه وبين سليمان أكثر من ألف سنة ، وقد مشى ابن حبان على ظاهر الحديث المذكور ، فقال : فيه رد على من زعم أن بين داود وإبراهيم ألف سنة ، ولو كان كما قال لكان بينهما أربعون سنة ، وهذا عين الحال ؛ للاتفاق على طول الزمان بين إبراهيم وموسى عليهما السلام ، ثم إن نص القرآن أن قصة داود فى قتل طالوت كانت بعد موسى بمدة .

وأجاب ابن الجوزى بأن الإشارة فى حديث الصحيحين إلى أول البناء ، ووضع أساس المسجد ، وليس إبراهيم أول من بنى الكعبة ، ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس ؛ فقد روى أن أول من بنى الكعبة آدم . ثم انتشر ولده فى الأرض ، فجائز أن يكون بعضهم قد وضع بيت المقدس بعد ذلك بأربعين سنة ، ثم بنى إبراهيم الكعبة بنص القرآن .

وذکر ابن ہشام فی کتاب التیجان أن آدم علیہ السلام لما بنی البیت أمرہ جبریل علیہ السلام بالمسیر إلی بیت المقدس وأن یبنیہ ، فبناہ ونسک فیہ ^(١) .

وأجاب بعضهم بأن داود وسليمان عليهما السلام إنما كان لهما من المسجد الأقصى تجديدُهُ لا تأسيسه ، والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق عليهما السلام بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا القدر

ويشكل على ذلك ذكر القصة المتقدمة ؛ لأنه حينئذ لا يحتاج إلى شراء أرضه ، نعم قال الخطابي : يشبه أن يكون المسجد الأقصى وُضِعَ قبل داود وسليمان ، ثم زاد فيه ووسَّعاه فأضيف إليهما بناؤه ، فيحتمل حينئذ أن القصة المتقدمة وقعت فيما وقع الأمر بزيادته فيه ، ويؤيد ذلك ما رواه الحاكم في مستدركه من حديث أنى يحيى الضرير زيد بن الحسن البصري حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده عن عمر بن الخطاب أنه قال للعباس رضي الله عنهما: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : نزيد في المسجد ، ودارك قريبة من المسجد ، فأعطناها نزيدها فيه ، وأقطع لك أوسع منها ، قال : لا أفعل ، قال : إذا أغلبك عليها ، قال : ليس لك ذلك ، قال : فأجعل بيني وبينك من يقضى بالحق ، قال : ومن هو ؟ قال : حذيفة بن اليمان ، قال : فجاؤا إلى حذيفة رضي الله عنه ، فقصوا عليه ، فقال حذيفة : عندي في هذا خبر ، قالوا : وما ذاك ؟ قال : إن داود النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يزيد في بيت المقدس ، وقد كان بيت قريب من المسجد ليمتيم ، فطلب إليه فأبى ، فأراد أن يأخذه منه ، فأوحى الله عز وجل إليه إن أنزلة البيوت عن الظلم أبغيتي ، قال : فتركه ، فقال له العباس : فبقي شيء ؟ قال : لا ، قال : فدخل عمر المسجد فإذا ميزاب للعباس شارع في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسيل ماء المطر منه ، فقال عمر بيده فقلع الميزاب ، فقال : هذا الميزاب لا يسيل في مسجد رسول الله

(١) نسك فيه : النسك - بضم النون والسين جميعاً - العبادة والطاعة وكل ما تقرب به إلى الله تعالى ، وما أمرت به الشريعة ، والناسك : العابد ، وأصل مأخذه من النسيكة ، وهي سبيكة الفضة المصفاة ، كأنه سمي بذلك لأنه صفي نفسه لله تعالى .

صلى الله عليه وسلم ، فقال له العباس : والذي بعث محمدا بالحق إنه هو الذي وضع هذا الميزاب في هذا المكان ونزعته أنت يا عمر ، فقال عمر رضى الله عنه : ضَع رجلك على عنقي لترده إلى ما كان ، ففعل ذلك العباس ، ثم قال العباس رضى الله عنه [قد أعطيتك الدار تزِيدها^(١)] في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزادها عمر في المسجد ، ثم قطع للعباس دارا أوسع منها بالزوراء ، وقال الحاكم : هذا الحديث كتبناه [عن أبي جعفر وأبي على الحافظ^(١)] ولم يكتبه إلا بهذا الإسناد ، والشيخان لم يحتجا بعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، قال : وقد وجدت له شاهدا من حديث أهل الشام ، ثم ساقه من طريق شعيب الخراساني عن عطاء الخراساني عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما أراد أن يزيد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعت منازعة على دار العباس ، فذكر نحوه .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن عبد الله بن أبي بكر قال : كان للعباس بيت في قبلة المسجد ، وكثر الناس ، وضاق المسجد ، فقال عمر للعباس : إنك في سعة فأعطني بيتك هذا أوسع به في المسجد ، فأبى العباس ذلك عليه ، فقال عمر : إني أئتمك وأرضيك ، قال : لا أفعل ، لقد ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عاتقي وأصلح ميزابه بيده فلا أفعل ، قال عمر : لا أخذته منك ، فقال أحدهما لصاحبه : فأجعل بيني وبينك حكما ، فجعل بينهما أبي بن كعب ، فأتياه فاستأذنا على الباب ، فحبسهما ساعة ثم أذن لهما وقال : إنما حبستكما أني كنت كما كانت الجارية تغسل رأسي ، فقص عليه عمر قصته ، ثم قص عباس قصته ، فقال : إن عندي علما مما اختلفتما فيه ، ولأفضين بينكما بما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعته يقول : إن داود لما أراد أن يبني بيت المقدس وكان بيت ليتيمين من بني إسرائيل في قبلة المسجد

(١) هذه الزيادة عن كتاب المستدرک لأبي عبد الله الحاكم (ج ٣ ص ٣٣٢ طبع حيدرآباد سنة ١٣٤١) وفي موضعها بياض في أصول كتابنا هذا .

فأراد مهما البيع فأبى عليه ، فقال : لآخذنه ، فأوحى الله عز وجل إلى داود : إن أغنى البيوت عن المظلمة بيتي ، وقد حرمت عليك بنيان بيت المقدس ، قال : فسلیمان ، فأعطاه سليمان ، فقال عمر لأبي : ومن لي بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هذا ؟ فقال أبي لعمر : أتظن أني أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لتخرجن من بيتي ، فخرج إلى الأنصار فقال : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ؟ فقال هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ، حتى قال ذلك رجال ، فلما علم ذلك عمر قال : أما والله لو لم يكن غيرك لأجزت قولك ، ولكني أردت أن أستثبت .

في رواية ليحيى عن أبي الزناد أن عمر بن الخطاب لما زاد في المسجد دعا من كان له إلى جانبه منزل فقال : اختاروا مني بين ثلاث خصال : إما البيع فآمن ، وإما الهبة فأشكر ، وإما الصدقة على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابه الناس ، وكان للعباس دار عن يمين المسجد ، فدعاه عمر ، فقال : يا أبا الفضل اختر مني بين ثلاث خصال ، وذكر نحو ما تقدم ، فقال العباس : ما أجيبك إلى شيء مما دعوتني إليه ، فقال عمر : إذا أهدمها ، فقال العباس : مالك ذلك ، وذكر التحاكم إلى أبي ، وقصة بيت المقدس مع مخالفة في ذكر قصته لبعض ما تقدم .

وفي رواية له عن ابن عمر أن عمر رضي الله عنه كلف العباس في داره ، وكانت في ما بين موضع الأسطوان المربعة التي تلي دار مروان بن الحكم ، قطعة كان قطع له النبي صلى الله عليه وسلم ، فكلمه عمر رضي الله عنه يَدْخِلُهَا في المسجد ، وأعطاه بها ثمننا حسنا ، وقال : يا أبا الفضل إن الناس قد شكوا ضيق مسجدهم ، وأحبوا الاتساع ، فأبى العباس أن يبيعه ، فقال عمر : أنا أعطيك خيرا منها في أي نواحي المدينة شئت ، فأبى العباس ذلك ، فقال عمر : فتصدق على الناس ، فأبى

فقال عمر : لآخذنه ، فقال العباس : ايس ذلك لك ، قال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا ، فجعل ابي بن كعب ، فأتياه فحبسهما ساعة ثم أذن لهما ثم قال : إن جاريتى كانت تغسل رأسى ، فأيكما يستعدى على صاحبه ؟ فقال عمر : أنا ، جعلناك حكما بيننا ، وما رأيت من أمرٍ لزمنا ، فقال أبى : ماتقول يا أبا الفضل ؟ قال : أقول ذلك ، فذهب عمر يتكلم ، فقال أبى : تكلم يا أبا الفضل ، دعه يابن الخطاب يتكلم لمكانه من نبي الله صلى الله عليه وسلم ، فتكلم العباس فقال : هذه خِطَّة خَطَّها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابتنيتها وبنها رسول الله صلى الله عليه وسلم معى ، وهو والله شدَّ هذا الميزاب الذى يصبُّ فى المسجد ، وذكر القصة أيضا ، وأن العباس قال : أما إذ قضيت به لى فهو صدقة على المسلمين أما والله يا عمر لقد هدمت الميزاب وما شدته إلا ورجلاى على عاتقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال عمر : فوالله لا تشدُّه إلا ورجلاك على عاتقى ، قال : ثم هدم الدار ووسَّع فى المسجد وغيَّر جذوعا كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أسفلها قد أكلته الأرَاضة .

وقد أورد رزين فى كتابه خبر ابن عمر المتقدم ، ولفظه : عن نافع عن ابن عمر قال : إن الناس كثروا فى عهد عمر رضى الله عنه ، فقالوا له : يا أمير المؤمنين لو وسَّعت لنا فى المسجد ، فزاد فيه عمر ، فكلّم عمر العباس فى داره ، وكانت لاصقةً بالمسجد ، وقال له : أعطيك خيرا منها وتصدّق بها على الناس ، فأبى العباس ، وقال : خَطَّها لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ووضع ميزابها بيده ، فقال عمر : فأبى آخذها ، قال العباس : ليس لك ذلك ، فجعل بينهما أيبا ، فحبسهما ساعة ثم أذن لهما فقصَّا عليه خبرها ، فقال : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لما أراد داود عليه السلام أن يبنى بيت المقدس كان لتييمين من بنى إسرائيل بيتٌ فى الموضع الذى خط أن يبنى المسجد عليه ، يُقال لهما : بيعاهُ منى

(١) الحِطَّة - بالكسر - الأرض يخطها الإنسان لنفسه ، بأن يعلم عليها علامة ويخط عليها خطا ليعلم أنه قد احتازها ، قاله ابن الأثير .

ورغبهما في الثمن ، فباعاه ثم قالاه : الذي أخذت منا خير أم الذي أعطيتنا ؟ قال الذي أخذت ، قالوا : فإننا لا نجيز البيع ، فزادها حتى كان ذلك منهما ومنه سبع مرات ، فقال : أزيد كما كذا وكذا على أن لا تسألاني ، فقالاه : نبيعك بحكمنا ولا نسألك ، قال : افعلوا ، فطلبامنه مالا كثيرا ، فتعاضم ذلك داود^(١) ، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى داود : إن كنت إنما تعطيهم ما من مالك فأنت أعلم ، وإن كنت إنما تعطيهم ما من رزقنا فأعطيهم ما حتى يرضوا فإن أغنى البيوت عن مظلمة بيتي ، وقد حرمت عليك بناءه ، فقال داود : يارب فأعطه سليمان ، فقضى به أبي للعباس . فقال العباس : أما إذ قضيت لي به فهو صدقة على المسلمين ، فذهب عمر فهدم الميزاب فأسف العباس لما وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال : والله لقد وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن رجليه لعل عاتق^(٢) ، فقال عمر للعباس : والله لتردنه ورجلاك على عاتق^(٢) ، فردده ، ثم قال عمر للعباس : أهدم الآن بيدك وقد روى أن نزع الميزاب كان قبل ذلك لأجل أنه كان يسكب الماء داخل المسجد للزوقه به^(٣) ، انتهى لفظ رواية رزين .

وروى يحيى بسند جيد عن سفيان ابن عيينة عن موسى بن أبي عيسى قال : كان في دار العباس ميزاب^١ يصب في المسجد ، فجاء عمر فقلعه ، فقال العباس : إن النبي صلى الله عليه وسلم الذي وضعه بيده ، فقال عمر للعباس : لا يكن لك سلم^٢ إلا ظهري حتى ترده مكانه .

وروى ابن إسحاق عن أسباط بن محمد عن هشام بن سعد عن عبد الله بن عباس قال : كان للعباس ميزاب على طريق عمر ، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة وقد كان ذبح^١ للعباس فرخان ، فلما وافى الميزاب صب فيه ماء من دم الفرخين ،

(١) تعاضم ذلك : رآه عظيما ، يريد أنه استكثر المقدار الذي طلبا .

(٢) للزوقه به : يعني أنه واقع في لصق المسجد ، والزاي والسين والصاد حروف يقع بعضها موقع بعض .

فأصاب عمر ، فأمر عمر بقلعه ، ثم رجع فطرح ثيابه ، ثم لبس غيرها ، ثم جاء
فصلى بالناس ، فأتاه العباس فقال : والله إنه الموضع الذى وضعه رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، فقال عمر للعباس : فأنا أعزم عليك^(۱) لما صعدت على ظهري
حتى تضعه فى الموضع الذى وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم [فيه^(۲)] ،
ففعل ذلك العباس .

ورواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث هشام بن سعد عن عبيد الله بن
عباس أخى عبد الله فذكره ، وكذا رواه ابن سعد ، وقال ابن أبى حاتم : إنه سأل
أباه عنه ، وقال : هو خطأ ، وأخرجه ابن سعد من طريق موسى بن عبيدة عن
يعقوب أن عمر خرج فى يوم جمعة ، فذكره بفحوه .

وروى يحيى عن أبى مصعب الزهرى الفقيه قال : حدثنا يوسف بن الماجشون
عن الثقة أنه كان فى دار مروان ميزابٌ يصبُّ على الناس إذا خرجوا من المسجد
فى المطر ، وكانت دار مروان للعباس بن عبد المطلب ، فأمر عمر بن الخطاب بذلك
الميزاب فنزع ، فجاءه العباس بن عبد المطلب فقال : أما والله لو وضع رسول الله
صلى الله عليه وسلم بيده ، قال : فأعاده عمر حيث كان ، وقال : والله لا تعيده إلا
وأنت على رقبتى ، فأعاده العباس يومئذ على رقبة عمر .

قلت : وهذه الدار بقية من التى وقع النزاع المتقدم فيها ، ونسبتها إلى مروان
لما سياتى أنها دخلت فى داره ، وروى أنها مرتبدها ، فكان هذا الميزاب كان فى
تلك البقية ، فيجمع بين الروايات بأنه كان للدار المذكورة ميزابان : ميزاب يصب
فى المسجد ، وميزاب يصب فى الطريق ، واتفق فى كل منهما قصة ، ويؤيد ذلك
ما رواه يحيى فى زيادة عثمان رضى الله عنه عن الأعمش قال : بنى عباس بن عبد المطلب
داره التى إلى جنب المسجد ، فجعل يرتجز يقول :

(۱) أعزم عليك : أشدد عليك وأوجب وأؤكد

(۲) كلمة « فيه » ساقطة من المطبوعات كلها .

بنيتهما باللبن والحجارة * والخشببات فوقهما مطاره

* ياربنا بارك لأهل الدار^(١) *

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم بارك في هذه الدار ، قال : وجعل العباس ميزابها لاصقاً بباب المسجد يصب عليه ، فطرحه عمر بن الخطاب ، فقال عباس : أما والله ما شدّه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنه لعلّ^(٢) منكبي ، فقال له عمر : لا جرّم والله لا تشده إلا وأنت على منكبي^(٢) ، فشده عمر ، وابتاع عثمان بن عفان تلك الدار فزادها في المسجد إلا ثلاثة عشر ذراعاً أو أربعة عشر ذراعاً ، فقال : لا أدري كان ابتاع البقية أم لا ؟ .

قلت : فالذي يظهر أن العباس أبقى لنفسه بقية الدار بعد أخذ ما احتيج إلى زيادته منها ، وأنه كان في تلك البقية ميزاب ، فلما أحدث عمر الباب الذي عند دار مروان كما سيأتى صار الميزاب يصب على الباب في طريق المسجد ، ثم اشترى عثمان من تلك البقية ما احتاج إلى إدخاله في زيادته .

وروى ابن أبي الدنيا قصة دار العباس هذه مطولة ، وقال : إن العباس قال لعمر : أما والله ما شدّه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا معه ، كحلتى والله على عاتقه حين شده ، قال : وبعضُ الناس يقول : بل العباسُ حمل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال محمد بن عتبة - يعنى راويه - : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع قدميه على رقبة أبيه أو عمه ، ولكنه حمل العباس على عاتقه ، وقولُ يحيى في رواية ابن عمر المتقدمة « وكانت - يعنى دار العباس - فيما بين الأسطوان المربعة التى تلى دار مروان بن الحَكَم » أى والباب الذى يلى دار مروان لدخول بعضها فى دار مروان . قال الزين المراغى : وسيأتى بيان المربعة ، أى فى زيادة عثمان رضى الله

(١) الدارة ، والدار : بمعنى واحد .

(٢) المنكب - بفتح الميم وكسر الكاف - وهو ما بين الكتف والعنق .

عنه ، وقد ذكر هناك تبعاً للمطري أنها الأسطوانة التي في صف الأساطين التي تلي القبلة ، وقد رفع أسفلها مربعا قدر الجلسة .

قلت : والتي تليها أربعة أيضا ، وهي التي تلي دار مروان ؛ فهي المراد هنا كما قدمنا الإشارة إليه في تحديد المسجد النبوي ، وهي الخامسة من المنبر في جهة المغرب ، فيكون ابتداء زيادة عمر رضى الله عنه من جهة المغرب من الأسطوانة المذكورة ، خلاف قول المطري والمراغى إن المربعة التي ذكرها قبل هذه منتهى زيادة عمر رضى الله عنه ، وكيف يكون منتهى زيادته مع كونها مبتدأ دار العباس التي هي أول الزيادة ؟ وأيضا فذرع ما بين الأسطوان التي ذكرها والحجرة الشريفة نحو تسعين ذراعا ، وقد قال يحيى في رواية ابن عمر أيضا « إن المسجد كان طوله أى من القبلة إلى الشام على عهد عمر رضى الله عنه أربعين ومائة ذراع وعرضه عشرون ومائة ، وطول السقف أى ما بينه وبين الأرض أحد عشر ذراعا » انتهى . وكيف يصح أن يكون الأسطوان المذكور نهاية زيادته ؟ بل ابتداء زيادته من الأسطوان التي تليها ، فيكون زيادته بعد الأسطوان المذكورة في جهة المغرب عشرين ذراعا ، لما قدمناه من رواية أن المسجد كان عرضه مائة ذراع فزيادته عشرون ، وذلك نحو أسطوانين ، فيكون نهاية المسجد في زمنه من تلك الجهة الأسطوانة السابعة من غربى المنبر ، ومن المشرق الحجرة الشريفة ، لأنه لم يزد في تلك الجهة شيئا ، ومن القبلة صف الأساطين التي تلي القبلة ، وكانت إليها المقصورة الآتى ذكرها ، وقد احترقت ، ومن بقاياها خشبة في سفلى الأسطوان التي في هذا الصف عن يسار مستقبل المحراب العثماني ، مثبتة تلك الخشبة في الأسطوان المذكور مما يلي الأرض ، وقد زالت في الحريق الثاني ؛ فزيادة عمر رضى الله عنه من جهة القبلة الرواق المتوسط بين الروضة ورواق القبلة ، وذلك نحو عشرة أذرع ، وأما الشام فيستفاد من كون المسجد كان طوله في زمنه أربعين

ومائة ذراع ، وأن منها في جهة القبلة نحو عشرة أذرع أنه يمتد في زمنه بعد الحجرين المتقدم ذكرهما في حدود المسجد الأصلي اللذين في صحنه نحو ستين ذراعا ؛ لأننا قدمنا أن من مقدم المسجد الأصلي إليهما نحو السبعين فقط .

و بقي أمر آخر لم أر من نبه عليه ، وهو أن حُجَرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كان بعضها في جهة الشام كما تقدم ، ومقتضى ما قدمناه من رواية ابن سعد — وهو ظاهر ما سيأتى في زيادة الوليد — أن عمر رضى الله عنه لم يَدْخُلْ منها شيئا في المسجد ، وإنما أدخلها الوليد ، فكان عمر ترك ما كان منها في جهة الشام قائما على حاله ، وصار المسجد حوالها .

وقال السيد القرافى في ذيله : واشترى عمر أيضا نصف موضع كان خطه النبي صلى الله عليه وسلم لجعفر بن أبي طالب وهو بالحبيشة دارا بمائة ألف فزاده في المسجد .

قلت : سيأتى من رواية يحيى أن الذى شَرَى ذلك عثمان رضى الله عنه ، كذا في النسخة التى رواها ابن ابنه الحسن بن محمد عنه ، ثم رأيت فى النسخة التى رواها ابنه طاهر عنه ما ذكره القرافى ، ولم يذكر ابن زبالة ويحيى وغيرها إدخال عمر دار أبى بكر رضى الله عنه فى المسجد ، ويتعين أن يكون عمر هو الذى أدخلها ؛ لما سبق فى الفصل قبله من أن باب خَوْخَتِها كان غربى المسجد ، وأن الخوخة المجمولة فى محاذاتها عند إدخال الدار هى الخوخة الموجودة اليوم غربى المسجد ، وهذا لا خلاف فيه عند المؤرخين ، ولهذا قال ابن الفجار نقلا عن أهل السير : كانت خَوْخَةُ أبى بكر فى غربى المسجد ، فعلمنا بذلك أن دار أبى بكر كانت فى غربى المسجد ، وأن عمر رضى الله عنه أدخلها ، لكن قال الحافظ ابن حجر : إن ابن شبة ذكر فى أخبار المدينة أن دار أبى بكر التى أُذِنَ له فى إبقاء الخوخة منها إلى المسجد كانت مُلَاصَّةً للمسجد ، ولم تزل بيد أبى بكر حتى احتاج

إلى شيء يُعطيه لبعض مَنْ وفد عليه ، فباعها ، فاشتريتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم ، فلم تزل بيدها إلى أن أرادوا توسيع المسجد في خلافة عثمان ، فطلبوها منها ليوسعوا بها المسجد ، فامتنعت وقالت : كيف بطريقى إلى المسجد ؟ فقيل لها : نعطيك دارا أوسع منها ونجعل لك طريقا مثلها ، فسلمت ورضيت .

قلت : هذه القصة إنما ذكرها ابن شبة في دار حفصة التي في قبلة المسجد ^(١) ، وذكر معها شراءها لدار أبي بكر المذكورة بصيغة تقتضى التضعيف ، واقتضى ذلك أن دار أبي بكر كانت في قبلة المسجد على تلك الرواية الضعيفة ، وأن طريق آل عمر اليوم منها ، فنسب إليه الحافظ ابن حجر الجزم به ^(٢) ، وليس الأمر كذلك كما سوضحه إن شاء الله تعالى في الفصل الرابع عشر .

وقال يحيى في روايته المقدمة : وجعل أساطينه من جذوع نخل وسقفه بالجريد ذراعين فوق المسجد سترة حائطه ثلاثة أذرع ، وعبر ابن النجار عن ذلك بقوله : وسقفه جريد ذراعان ، وبنى فوق ظهره سترة ثلاثة أذرع ، انتهى . والذي يظهر أن في عبارة يحيى خللا ، وتبعه عليه ابن النجار ، وأن المراد ما ذكره رزين في هذه الرواية بعينها ، فإنه قال فيها : وجعل عمر سترة المسجد فوقه ذراعين أو ثلاثة ، فكان لفظ « أو » سقط قبل قوله ثلاثة أذرع .

وقال يحيى ورزين عقب ذلك : وكان بنى أساسه بالحجارة إلى أن بلغ قامه ، زاد يحيى : وكان لبنه ضرب به بالبقيع ، وجعل له ستة أبواب : بابين عن يمين القبلة ، وبابين عن يسارها ، وبابين خلف القبلة ، ولم يغير باب عائكة - أى المعروف بباب الرحمة - ولا الباب الذى كان يدخل منه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو فتح الباب الذى عند القبر ، فهذان البابان من الشق الأيسر : أى

(١) يريد في جهة القبلة منه .

(٢) الجزم به : أى القطع به وعدم التردد فيه .

المشرق ، وفتح الباب الذى عند دار مروان بن الحكم ، وفتح بابين من مؤخر المسجد ، انتهى .

وقوله : « إنه لم يغير باب عاتكة ، ولا الباب الذى كان يدخل منه النبي صلى الله عليه وسلم » مُسَلَّم فى الباب الذى كان يدخل منه النبي صلى الله عليه وسلم . قال المراغى تبعاً للمطري : وهو باب جبريل ؛ لأنه لم يزد فى جهة المشرق شيئاً ، وأما باب عاتكة ففيه نظر ؛ لأنه زاد من جهة المغرب كما تقدم ، فالمراد بكونه لم يغير أنه أخره فى محاذة الباب الأول ، وهذه الرواية تقتضى أن الباب المعروف اليوم بباب النساء لم يكن موجوداً فى زمن عمر رضى الله عنه ؛ لأن الاستفادة مما ذكره أن الباب الذى زاده فى جهة المشرق جعله عند القبر ، ولعله تصحيف ؛ لأنه إذا لم يزد من جهة المشرق شيئاً كيف يحدث باباً عند القبر ويترك الجهة التى زادها من جهة الشام بغير باب ؟ والمنقول كما سيأتى أن إحداث الباب الذى عند القبر إنما هو فى زيادة الوليد ، وسيأتى فى سبب تسميته باب النساء أن عمر رضى الله عنه قال حين بنى المسجد : هذا باب النساء ، كما رواه يحيى ؛ فتبين أن باب النساء هو الباب الباقي فى جهة المشرق على عهد عمر رضى الله عنه ، وأنه الذى أحدثه ، وسيأتى فى زيادة عثمان عند ذكر اقتصاره على الأبواب التى جعلها عمر ما هو كالصریح فى ذلك ، والله أعلم .

وفى البخارى تعليقا عن أبي سعيد قال : أمر عمر ببناء المسجد ، وقال : أكن الناس من المطر ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس^(١) .

وروى ابن شبة ويحيى من طريق عبد العزيز بن عمران عن مايح بن سليمان عن ابن أبي عمرة قال : زاد عمر بن الخطاب فى المسجد من شاميه ، ثم قال : لوزدنا فيه حتى نبلغ به الجبانة كان مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زاد

(١) أكن الناس فيه : أى أسترهم فيه ، و«إياك أن تحمر أو تصفر» يريد لا تجعل فيه ألواناً من الطلاء ، فتشغل الناس بالنظر إليه عن الخشوع الواجب للصلاة .

يحيى : وجاء الله بعمار، وعبد العزيز هو ابن أبي ثابت ، تركوه ، كانت كتيبه قد احترقت فحدث من حفظه فاشتد غلظه .

وروى يحيى من طريق ابن زباله وهو ضعيف : حدثني محمد بن إسماعيل عن ابن أبي ذئب قال : قال عمر بن الخطاب : لو مدَّ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذى الحليفة لكان منه ، ورواه ابن شبة من طريق أبي غسان المدنى بدل ابن زباله ، وعلى كل حال هو مُفَضَّل^(١) .

وروى ابن شبة ويحيى والديلمى فى مسند الفردوس بسند فيه متروك عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو بنى هذا المسجد إلى صنعاء كان مسجدى ، وكان أبو هريرة يقول : لو مد هذا المسجد إلى باب دارى ما عدّوت أن أصلى فيه ، ثم قال يحيى : وحدثنا هرون بن موسى نبأ عمر بن أبي بكر الموصلى عن ثقات من علمائه قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مسجدى ، وما زيد فيه فهو منه ، ولو بلغ بمسجدى صنعاء كان مسجدى .

قلت : وهو منقطع ، لكن اجتماع هذه الروايات تقوى ما قدمناه فى آخر الفصل الثانى عن مالك رحمه الله من أن المضاعفة الواردة فى المسجد النبوى تعم ما زيد فيه ، والله أعلم .

الفصل الثالث عشر

فى البطيحاء التى بناها عمر رضى الله عنه بناحية المسجد ، ومنعه من إنشاد الشعر ورفع الصوت فيه ، وما جاء فى ذلك .

روى ابن شبة ويحيى بسند جيد عن سالم بن عبد الله أن عمر - يعنى ابن الخطاب - اتخذ مكانا إلى جانب المسجد يقال له « البطيحاء » وقال : مَنْ أراد

(١) المفضل من الحديث : نوع من النقط ، وهو - فى الأشهر - الذى يسقط من روايته اثنان على الولاء فأكثر ، وذلك بأن يروى تابع التابعى حديثا يقفه على التابعى ، فيسقط منه الصحابى والرسول صلى الله عليه وسلم ، مثلاً .

(٨ - وفاة الوفاء ٢)

أن يلفظ^(١) أو يرفع صوتا أو ينشد شعرا فليخرج إليه، وَلَفْظُ يَحْيَى : أن عمر بن الخطاب بنى في ناحية المسجد رحبة تدعى البطيحاء ، ثم قال : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْفِظَ^(١) أو ينشد شعرا أو يرفع صوتا فليخرج إلى هذه الرحبة ، زاد ابن شبة عقيب روايته من طريق محمد بن يحيى : قال محمد : وقد دَخَلْتُ تلك البطيحاء في المسجد فيما زيد فيه بعد عمر رضى الله عنه .

وذكر ابن شبة في موضع آخر ما يبين أن البطيحاء كانت في جهة شرقى المسجد مما يلي مؤخره زمنَ عمر رضى الله عنه ، فإنه قال : اتخذ خالد بن الوليد داره التي كانت بالبطيحاء ، إلى آخر ما سيأتى عنه ، مع بيان أنها الرباط المعروف اليوم برباط السبيل في شرقى المسجد .

وروى ابن شبة أيضا بسند جيد عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه كان إذا خرج من الصلاة نادى في المسجد : إياكم واللفظ^(١) ، ويقول : ارتفعوا في أعلى المسجد

ورواه يحيى بلفظ : كان إذا خرج إلى الصلاة

ووى ابن شبة بسند جيد إلا أن فيه عنقنة ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة أن عمر رضى الله عنه سمع ناسا من التجار يذكرون تجارتهم والدنيا في المسجد ، فقال : إنما بنيت هذه المساجد لذكر الله ، فإذا ذكرتم تجارتكم ودنياكم فاخرجوا إلى البقيع

وروى أيضا عن شيخه سليمان بن داود قال : حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع صوت رجل في المسجد ، فقال : أتدرى أين أنت ؟ كأنه كره الصوت

وعن عبد الرحمن بن حاطب قال : كان بين عثمان وطلحة تلايح في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ عمر رضى الله عنه ، فأتاهم وقد ذهب عثمان

(١) لفظ يلفظ لفظا - بوزن فرح يفرح فرحا - ضج وصوت صوتا لا يفهم معناه

وبقي طلحة ، فقال : أفي مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقولان الهُجْرَ ومالا يصلح من القول ؟ قال : فجئنا طلحة على ركبتيه وقال : إني والله لأنا المظلوم المشتوم ، فقال : أفي مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقولان الهُجْرَ ومالا يصلح من القول ؟ ما أنت مني بنّاج ، فقال : الله الله يا أمير المؤمنين ، فوالله إني أنا المظلوم المشتوم ، فقالت أم سلمة من حُجْرَتِها : والله إن طلحة هو المظلوم المشتوم ، قال : فكفَّ عمرُ رضى الله عنه

وعن السائب بن يزيد قال : كنت مضطجعا في المسجد ، فخصّصني رجل^(١) ، فرفعتُ رأسي ، فإذا عمر رضى الله عنه فقال : اذهبْ فأتني بهذين الرجلين ، فجئت بهما ، فقال : مَنْ أتما ؟ أو من أين أتما ؟ قالا : من أهل الطائف ، قال : لو كنتما من أهل البلد ما فارقتماي حتى أوجعكما جُلدا ، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم !

وعن طارق بن شهاب أن عمر رضى الله عنه أتى برجل في المسجد وقد أخذ في شيء ، فقال : أخرجه من المسجد فاضرباه ، أو أضربوه

وروى يحيى عن نافع أن عمر بينما هو في المسجد عشاء إذ سمع ضحك رجل ، فأرسل إليه فقال : من أنت ؟ فقال : أنا رجل من ثقيف ، فقال : أمن أهل البلد أنت ؟ فقال : بل من أهل الطائف ، فتوَعَّده فقال : لو كنت من أهل البلد لنكَّلت بك ، إن مسجدنا هذا لا تُرفع فيه الأصوات

وعن ابن سيرين أن ابن مسعود سمع رجلا يرفع صوته في المسجد ، فسبَّه ، فقيل له : ما كنت فجأشا ، فقال : أمرنا بهذا

وروى ابن زبالة ويحيى عن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب مرَّ بحسان ابن ثابت وهو ينشد في المسجد ، فلحظ إليه ، فقال حسان : قد كنتُ أنشد وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال : أنشدك الله هل سمعت

(١) حصبي : رمانى بالحصباء ، وهى صغار الحمى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أَجِبْ عَنِّي ، اللَّهُمَّ أَيِّدْ بِرُوحِ الْقُدُسِ » قال : اللَّهُمَّ نَعَمْ ، وقد رواه البخاري في الصحيح بنحوه ، وفي رواية ليحيى عقيب قوله « قد كنت أنشد فيه من هو خير منك » فأنصرفَ عمر وقد عرف أنه يريد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية ذكرها الحافظ ابن حجر فقال : كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ، وفي الترمذي من طريق أبي الزناد عن عروة عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَنْصِبُ لِحْسانَ منبراً في المسجد ، فيقوم عليه يهجو الكفار

وأما ما رواه ابن خزيمة في صحيحه والترمذي وحسنه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تناشد الأشعار في المساجد ، قال الحافظ ابن حجر : صحيح إلى عمرو ، فمن يصحح نسخته يصححه ، وفي هذا المني عدة أحاديث ، لكن في أسانيدھا مقال ، والجمع بينها وبين ما تقدم أن يُحمَل المنهي على تناشد أشعار الجاهلية والمبطلين ، وهو مرادُ عمر بقوله : من أراد أن ينشد شعراً فليخرج إلى هذه ، يعني البطيحاء ، والمأذون فيه ما سلم من ذلك ، وقيل : المنهي عنه ما إذا كان غالباً على المسجد حتى يتشاغل به مَنْ فيه ، وأبعد بعضهم فأعمل أحاديث المنهي ، وادعى نسخ الإذن ، ولم يوافق على ذلك . وروى ابن زبالة عن علي بن زيد بن جدعان قال : أنشد كعب بن زهير رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد أبياتا

* بَانَتْ سَعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولٌ ^(۱) * والله أعلم

الفصل الرابع عشر

في زيادة عثمان بن عفان رضي الله عنه

روينا في صحيح البخاري وسنن أبي داود عن نافع أن عبد الله - يعني ابن عمر - أخبره أن المسجد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

(۱) هذا صدر مطلع قصيدة كعب ، وعجزه * متم إثرها لم يفد مكبول * .

مُبْنِيًا بِاللِّبْنِ ، وَسَقَفَهُ الْجَرِيدَ ، وَعَمَدَهُ خَشَبَ النَّخْلِ ، فَلَمْ يَزِدْ فِيهِ أَبُو بَكْرٌ شَيْئًا ، وَزَادَ فِيهِ عُمَرُ وَبَنَاهُ عَلَى بَنَائِهِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاللِّبْنِ وَالْجَرِيدِ ، وَأَعَادَ عَمَدَهُ خَشَبًا ، ثُمَّ غَيَّرَهُ عُثْمَانُ فَزَادَ فِيهِ زِيَادَةً كَبِيرَةً ، وَبَنَى جِدَارَهُ بِالْحِجَارَةِ الْمَنْقُوشَةِ وَالْقَصَّةِ^(۱) ، وَجَمَعَ عَمَدَهُ مِنْ حِجَارَةٍ مَنْقُوشَةٍ ، وَسَقَفَهُ بِالسَّاجِ

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ أَيْضًا - وَسَكَتَ عَلَيْهِ - عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : إِنْ مَسَجِدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ سَوَارِيهِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جُذُوعِ النَّخْلِ ، أَعْلَاهُ مُظَلَّلٌ بِجَرِيدِ النَّخْلِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَنَحَّرَتْ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَبَنَاهَا بِجُذُوعِ النَّخْلِ وَبِجَرِيدِ النَّخْلِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَنَحَّرَتْ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَبَنَاهَا بِالْأَجْرِ ، فَلَمْ تَزَلْ ثَابِتَةً حَتَّى الْآنَ ، هَكَذَا رَأَيْتُهُ فِي أَصُولٍ مُتَعَدِّدَةٍ مُعْتَمَدَةٍ مِنَ السَّنَنِ ، وَأَوْرَدَهُ الْجَدُّ بِلَفْظٍ : ثُمَّ إِنَّهَا تَنَحَّرَتْ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ - بَدَلَ أَبِي بَكْرٍ - وَلَمْ أَرَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ النُّسخِ .

وَفِي هَذَا الْخَبَرِ مَا يَقْتَضِي أَنَّ السَّبَبَ فِي بِنَاءِ عُثْمَانَ لِلْمَسْجِدِ كَوْنُ الْجُذُوعِ الَّتِي هِيَ السَّوَارِي تَنَحَّرَتْ ، وَأَنَّ عُثْمَانَ بَنَاهَا بِالْأَجْرِ لَا الْحَجَرِ ، فَلَعَلَّ الْبَعْضَ كَانَ فِي زَمَنِهِ مَبْنِيًا بِالْأَجْرِ وَهُوَ بَعِيدٌ ، وَمَاتَ قَدَمٌ مِنْ رِوَايَةِ الصَّحِيحِ أَصَحَّ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ أَرَادَ بِنَاءَ الْمَسْجِدِ ، فَكَرِهَ النَّاسُ ذَلِكَ ، وَأَحْبَبُوا أَنْ يَدَّعَاهُ عَلَى هَيْئَتِهِ ، فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَنْ بَنَى « مَسْجِدًا لِلَّهِ » بَنَى اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهُ

وَفِيهِ وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ الْخَوْلَائِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ عُثْمَانَ عِنْدَ قَوْلِ النَّاسِ فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ : إِنَّكُمْ قَدْ أَكْثَرْتُمْ ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، الْحَدِيثُ

وَقَوْلُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُولَى إِنَّ عُثْمَانَ أَرَادَ بِنَاءَ الْمَسْجِدِ يَبِينُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ حِينَ بَنَى الْمَسْجِدَ حِينَ أَرَادَ بِنَاءَهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَدْ تَكَرَّرَ مِنْ عُثْمَانَ

(۱) الْقَصَّةُ - بَفَتْحِ الْقَافِ وَتَشْدِيدِ الصَّادِ مَفْتُوحَةً - الْجَسْ ، وَاسْمُ مَوْضِعٍ قَرِبَ الْمَدِينَةِ بَدَى الْقَصَّةَ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ بِهِ قِصَّةٌ : أَيْ جَسْ .

لتكرار كلامهم قبل البناء وبعده ، وهو الأقرب ، وقوله « وأحبوا أن يدَّعه على هيئته » أى بجذوع النخل واللبن كما فعل عمر رضى الله عنه لموافقته لفعله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال البغوى فى شرح السنة : لعل الذى كره الصحابة من عثمان بناؤه بالحجارة المنقوشة ، لا مجرد توسيعه ، اهـ . ويؤيده ما سيأتى من أن الناس شكَّروا إليه ضيق المسجد ؛ فقوله « لما أراد عثمان بناء المسجد » أى على الهيئة التى بناه عليها ، ويؤخذ من هذا إطلاق البناء المرغَّب فيه فى حق من جدَّد ووسَّع ؛ لأنَّ عثمان لم يبن المسجد كله إنشاءً ، وقوله « إنكم أكثرتم » أى الكلام بالإنكار ونحوه

وروى يحيى عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال : لما ولى عثمان بن عفان سنة أربع وعشرين كلَّه الناس أن يزيد فى مسجدهم ، وشكَّوا إليه ضيقه يوم الجمعة ، حتى إنهم ليُصَلُّون فى الرحاب ، فشاور فيه عثمان أهل الرأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأجمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه ، فصلَّى الظهر بالناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ، إني قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزيد فيه ، وأشهد لسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة ، وقد كان لى فيه سَأَفٌ وإمام سبقنى وتقدمنى عمر بن الخطاب ، كان قد زاد فيه وبنَّاه ، وقد شاورتُ أهل الرأى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمعوا على هدمه وبفائه وتوسيعه ، فحسَّنَ الناسُ يومئذ ذلك ودعوا له ، فأصبح فدعا العمال وباشَرَ ذلك بنفسه ، وكان رجلاً يصوم الدهر ويصلى الليل ، وكان لا يخرج من المسجد ، وأمر بالقَصَّة المنخولة تعمل ببطن نخل ، وكان أول عمله فى شهر ربيع الأول من سنة تسع وعشرين ، وفرغ منه حين دخلت السنة لهِلال المحرم سنة ثلاثين ، فكان عمله عشرة أشهر .

قلت : قوله أولا « لما ولي عثمان سنة أربع وعشرين » إلى قوله « فأصبح ودد العمال » يفهم أنه في تلك السنة ، وقوله أخيراً « وكان أول عمله إلى آخره » ياباه ، وما ذكره أخيراً هو الصواب المذكور في كلام غيره ؛ فيحمل ما ذكره أولاً على أنه لم يشرع في المشاورة والعمارة عقب كلام الناس له ، بل استمر تلك السنين ، وربما تكرر الكلام فخطبهم في السنة التي وقعت فيها العمارة .

وقد روى رزين الخبر المذكور عن المطلب المذكور بلفظ : لما ولي عثمان وكان سنة أربع من خلافته كله الناس أن يزيد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكوا إليه ضيقه ، فشاور عثمان أهل الرأي ، فأشاروا عليه بذلك ، وذکر نحو ما تقدم ، وينبغي حمله أيضاً على أن الكلام وقع من الناس سنة أربع من خلافته وتأخرت العمارة إلى سنة تسع وعشرين - بتقديم المثناة الفوقية على السين - وإلا فهو مخالف لما تقدم ؛ لأن عثمان رضي الله عنه ولي غرة الحرم افتتاح سنة أربع وعشرين ، فسنة أربع من خلافته هي سنة سبع وعشرين - بتقديم السين على الموحدة - والأول هو الأصح ؛ فقد روى يحيى وابن زبالة أن عثمان زاد في المسجد قبل أن يقتل بأربع سنين ، وعثمان قتل في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين .

وقال الحافظ ابن حجر : كان بناء عثمان للمسجد سنة ثلاثين على المشهور ، وقيل : في آخر سنة من خلافته ؛ ففي كتاب السير عن الحارث بن مسلم عن ابن وهب : أخبرني مالك أن كعب الأحبار كان يقول عند بنيان عثمان المسجد : لوددت أن هذا المسجد لا ينجز^(۱) ؛ فإنه إذا فرغ من بنيانه قتل عثمان ، قال مالك : فكان كذلك .

قال الحافظ ابن حجر : ويمكن الجمع بأن الأول كان تاريخ ابتدائه ، والثاني تاريخ انتهائه .

(۱) لا ينجز : لا يتم بناؤه ولا يكمل ، مخافة ما يقع بعده تمامه .

قلت : قد تقدم ما يردُّ هذا الجمع ، وأن الفراغ منه كان في سنة ثلاثين ، لكن يمكن أن عثمان رضى الله عنه أحدث فيه عمارة أخرى آخر سنة من خلافته وقد وصل ابن شبة ما نقله مالك عن كعب ؛ فروى بسنده من طريق الأعمش عن أبي صالح قال : قال كعب ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم يُبْنَى : والله لوددت أنه لا يفرغ من برج إلا سقط رج ، فقيل له : يا أبا إسحاق أما كنت تحدثنا أن صلاة فيه أفضل من ألف صلاة في غيره إلا المسجد الحرام ، قال : بلى ، وأنا أقول ذلك الآن ، ولكن فتنة نزلت من السماء ليس بينها وبين أن تقع إلا شبر ، ولو فرغ من بناء هذا المسجد وقعت ، وذلك عند قتل هذا الشيخ عثمان بن عفان ، فقال رجل : وهل قاتله إلا كقاتل عمر ، قال : بل مائة ألف أو يزيدون ، ثم يحل القتل ما بين عدن أبين إلى دروب الروم ^(١) .

وروى يحيى عن أفلح بن حميد عن أبيه قال : لما أراد عثمان أن يكلم الناس على المنبر وبشاورهم قال له مروان بن الحكم : فذاك أبي وأمي ، هذا أمر خير لو فعاته ولم تذكر لهم ، فقال : ويحك ! إني أكره أن يروا أني أستبدُّ عليهم بالأمور ، قال مروان : فهل رأيت عمر حيث بناء وزاد فيه ذكر ذلك لهم ؟ قال : اسكت ، إن عمر اشتدَّ عليهم فخافوه ، حتى لو أدخلهم في جحر ضب دخلوا ، وإني لنتُّ لهم حتى أصبحت أخشاهم ، قال مروان بن الحكم : فذاك أبي وأمي لا يسمع هذا منك فيجتراً عليك .

وعن عبد الرحمن بن سفيانة قال : رأيت القصةَ تحمل إلى عثمان وهو يبني مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من بطن نخْل ، رأيتَه يقوم على رجله

(١) عدن أبين - بفتح الهمزة والياء وسكون الباء بينهما - مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند ، لا ماء بها ولا مرعى ، وشربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو يوم ، قاله ياقوت ، والدروب : جمع درب ، وهو الطريق الموصل إلى بلاد الروم .

والعمالُ يعملون فيه حتى ثأتي الصلاة فيصلي بهم ، وربما نام ثم رجع ، وربما نام في المسجد .

وعن خارجة بن زيد قال : هدم عثمان بن عفان المسجد وزاد في قبلته ، ولم يزد في شرقيه ، وزاد في غربيه قدر أسطوان ، وبناه بالحجارة المنقوشة والقصة وعُسب النخل والجريد ، وبيضه بالقصة ، وقدر زيد بن ثابت أساطينه فجعلها على قدر النخل ، وجعل فيه طيقان مما يلي المشرق والمغرب ، وذلك قبل أن يقتل بأربع سنين ، وزاد فيه إلى الشام خمسين ذراعاً .

وعن محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي عن أبيه قال : زاد عثمان في المسجد قبل أن يقتل بأربع سنين فزاد من القبلة ، فوضع جداره على حد المقصورة اليوم ، وزاد فيه من المغرب أسطواناً بعد المربعة ، وزاد فيه من الشام خمسين ذراعاً ، ولم يزد من المشرق شيئاً ، وزعم المطري وتبعه المراغي أن المراد بهذه المربعة المتقدم وصفها في تحديد المسجد النبوي في زيادة عمر رضى الله عنه ، وهى الأولى من المربعتين اللتين بليان القبلة في صف الأسطوان الرابع من المنبر في جهة المغرب ، وجعلها نهاية زيادة عثمان إلى الأسطوانة التي تليها في المغرب المقابلة للطراز المتقدم وصفه ، فقالوا : أراد بالمربعة الأسطوانة التي تليها في المغرب التي في القبلة التي رفع أسفلها مربعاً قدر الجلسة ، وهى منتهى زيادة عثمان من المغرب ، وقبالة الأسطوانة التي زادها عثمان في الحائط القبلي طرازاً آخر من العصاة السفلى إلى سقف المسجد ، وهو حد زيادة عثمان ، انتهى .

ومحصله أن زيادة عثمان هى الرواق الكائن بين الأسطوانتين المذكورتين ، ولم أر من سبقهما لذلك ، وقد قدمنا في تحديد المسجد النبوي ما يقتضى أن الطراز المذكور في موازاة حد المسجد النبوي على الراجح ، وأن زيادة عمر وعثمان رضى الله عنهما من بعد ذلك في جهة المغرب ، وأن عمر رضى الله عنه جعل المشرق

إلى المغرب مائة وعشرين ذراعاً ، وأن من المربعة التي ذكرنا أنها نهاية زيادته إلى الحجرة الشريفة ينقص عن تسعين ذراعاً ، وإلى محاذاة الطراز نحو المائة ؛ فيبقى لعمر في جهة المغرب بعد الطراز رواقان آخران ؛ فيكون نهاية المسجد في زمنه الأسطوانة السابعة من المنبر ، وفي صف السابعة من المنبر أسطوان أسفله مربع لكنه ليس مرتفعاً عن الأرض بقدر الجلسة ، بل تربيعه على وجه الأرض ، وقد زال تربيعه في العمارة الحادثة بعد الحريق الثاني ، وليس هو في صف الأساطين التي تلي القبلة ، بل في صف الأساطين التي خلف محراب الحنفية ؛ فانظروا أن هذه المربعة هي المرادة هنا ؛ فيكون لعثمان رضي الله عنه في جهة المغرب الرواق الذي بعدها ؛ فيكون نهاية المسجد في زمنه الأسطوانة الثامنة من المنبر في جهة المغرب ، ويدل على صحة ذلك ما سيأتي أن الوليد زاد بعد عثمان رضي الله عنه في جهة المغرب أسطوانين ، ولم يزد أحد بعد لوليد في جهة المغرب شيئاً ، والباقي من الأسطوانة الثامنة من المنبر أطولتان فقط في جهة المغرب ، فهما زيادة الوليد ، وهناك أسطوان مربع مرتفعة قدر الجلسة أيضاً أمام الأسطوانة بوجاه الداخل من باب السلام ، الظاهر أنها جمعت علامة لنهاية زيادة عثمان رضي الله عنه ، وابتداء زيادة الوليد ، وإن قلنا بأن نهاية المسجد النبوي المربعة الأولى التي تلي القبلة كما سبقت الإشارة إليه فحينئذ يكون لعمر رضي الله عنه منها إلى جهة المغرب أسطوانتان فيكون نهاية زيادة الأسطوانة السادسة من المنبر ، وفي صفها أسطوان مربع قدر الجلسة أيضاً أمام الأسطوانة الثامنة اليوم ، وتكون زيادة عثمان رضي الله عنه إلى الأسطوانة التي بعدها في جهة المغرب وهي السابعة ، وتبقى للوليد منها إلى جدار المسجد ثلاثة أساطين ، وسيأتي في عمارته رواية تقتضي ذلك ، على أن الذي أفهمه من كلام متقدمي المؤرخين كما قدمناه في حدود المسجد أن المربعة حيث أطلقت في جهة المغرب فالمراد بها الأسطوانة المقابلة لمربعة القبر في جهة المغرب

عند ركن صحن المسجد قبل زيادة الرواقين الآتي بيانهما ، وهى المئمة اليوم ،
وفى ركنى الصحن الشاميين أسطوانتان على هياتهما أيضاً ، وتشمينها حادث كما تقدم
بيانه ، ويعبرون عنها بالمر بعة الغربية ، وهى السادسة من المنبر ؛ فيترجح بذلك
أنها نهاية زيادة عمر وابتداء زيادة عثمان رضى الله عنه ، ولو كان كما زعم المطرى
ومن تبعه لكان بعد نهاية زيادة عثمان رضى الله عنه فى المغرب خمس أساطين ،
فيكون كلها للوليد ، ولا قائل بذلك ، وفيما قدمناه فى تحديد المسجد النبوى
كفاية فى رد ما قالاه .

وروى يحيى عن عبد الله بن عطية بن عبد الله بن أنيس قال : بنى عثمان
المسجد بالحجارة المنقوشة والقصة ، وجعل عُمْدَه حجارة منقوشة ، وبها عمد الحديد
فيها الرصاص ، وسقفه ساجا ، وجعل طوله ستين ومائة ذراع ، وعرضه خمسين
ومائة ذراع ، وجعل أبوابه ست أبواب على ما كان على عهد عمر رضى الله عنه :
باب عاتكة ، أى المعروف بباب الرحمة ، والباب الذى يليه أى يقرب من محاذاته
فى المشرق ، وهو باب النساء ، وباب مروان : أى المعروف بباب السلام ، والباب الذى
يقال له باب النبى صلى الله عليه وسلم : أى المعروف بباب جبريل ، وبابين فى مؤخر المسجد .
قلت قوله « وجعل طوله ستين ومائة ذراع » مخالف لما تقدم من كونه زاد فيه
من جهة الشام خمسين ذراعاً ؛ لأنه قد تقدم أن عمر رضى الله عنه جعل طول المسجد
أربعين ومائة ذراع ، فلو زاد فيه عثمان خمسين ذراعاً لكان طوله فى زمنه تسعين
ومائة ذراع ، على أن الأقرب أن طوله فى زمن عثمان كان ستين ومائة ذراع ،
لما سيأتى فى الزيادة بعده . وقوله « وعرضه خمسين ومائة ذراع » مخالف لما تقدم
من كونه لم يزد من جهة المغرب سوى أسطوانة واحدة ، ولم يزد فى جهة المشرق
شيئاً ، بل هذه الرواية خطأ ؛ للاتفاق على أن عثمان رضى الله عنه لم يزد من جهة
المشرق شيئاً ؛ فيكون نهايته فى زمنه الحجرة الشريفة ، وذرع المسجد اليوم من
جداره الغربى إلى جدار الحجرة الشريفة لا يبلغ خمسين ومائة ذراع ، بل ينقص
عن ذلك أكثر من سبعة أذرع ، ثم تبقى زيادة الوليد من جهة المغرب ،

وهی متفق علیها ایضا ؛ فالصواب أنه لم یزد من المغرب سوى أسطوانة ، وأن عرض المسجد فی زمنه نحو مائة وثلاثین ذراعا ، والله أعلم .

وروی یحییٰ کما فی النسخة التي رواها ابنه عن أبي الحسن المدائنی أنه قال فی حدیث ساقه : إن النبی صلی الله علیه وسلم خط لجعفر بن أبي طالب دارا وهو بأرض الحبشة ، فاشتری عثمان نصفها بمائة ألف ، فزادها فی المسجد . قلت : تقدم فی زیادة عمر رضی الله عنه نقل مثل ذلك عن فعل عمر رضی الله عنه ؛ فيحتمل أن كلا منهما شرى نصف ذلك وأدخله مرتبا ، والله أعلم .

وروی ابن زبالة عن عبد الله بن عمر بن حفص قال : مدَّ عمر بن الخطاب جدار القبلة إلى الأساطین التي إليها المقصورة اليوم ، ثم زاد عثمان بن عفان حتى بلغ جداره اليوم ، قال : فسمعت أبي يقول : لما احتيج إلى بیت حفصة قالت : فكيف بطريقی إلى المسجد ؟ فقال لها : نعطيك أوسع من بيتك ، ونجعل لك طريقا مثل طريقك ، فأعطاها دار عبید الله بن عمر ، وكانت مرْبِداً^(۱) .

قلت : وهذه العبارة محتملة لأن القائل « نعطيك إلى آخره » عمر أو عثمان رضی الله عنهما ، ويرجع الثاني أنه أورده فی سياق زیادة عثمان رضی الله عنه ، وأنه روى عقبه عن عبد الرحمن بن سعد عن أشياخه أن عمر قدم جدار القبلة إلى المقصورة ، ثم قدمه عثمان إلى موضعه اليوم ، وأخل بقية دار العباس بن عبد المطلب مما يلي القبلة والشام والمغرب ، وأدخل بعض بيوت حفصة بنت عمر مما يلي القبلة ، فقام المسجد على تلك الحال حتى زاد فيه الوليد .

قلت : تقدم فی زیادة عمر رضی الله عنه أن الحافظ ابن حجر نقل عن

(۱) المرید - بزنة منبر - الموضع الذي تحبس فيه الإبل والغنم ، واشتقاقه من « ربد بالمكان » إذا أقام فيه . و « ربهه بربهه » إذا أخبسه .

ابن شبة أن دار أبي بكر التي أذن له في إبقاء الخوخة منها إلى المسجد اشتريتها حفصة أم المؤمنين ، فلم تزل في يدها إلى أن أرادوا توسيع المسجد في خلافة عثمان ، فطلبوها منها ليوسّع بها في المسجد ، فامتنعت وقالت : كيف بطريقى إلى المسجد ؟ فقيل لها : نعطيك داراً أوسع منها ونجعل لك طريقاً مثلها ، فسلمت ورضيت ، والذي ذكره ابن شبة في علم دور أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سنذكره عنه في الدور التي كانت حول المسجد من أن حفصة اتخذت دارها التي في قبلة المسجد لها خوخة في المسجد ، فورثها عبد الله بن عمر ، وذكر ما سيأتى في أصل هذه الدار من كونها كانت مرّ بَدْءاً كما سيأتى ، ثم ذكر لحفصة داراً أخرى ، ثم قال : وأخبرني مخبر قال : كان بيت أبي بكر الذي أذن له النبي صلى الله عليه وسلم في إبقاء خوخته بيد عبد الله بن عمر ، وهو البيت الذي على يمينك إذا دخلت دار عبد الله من الخوخة التي في المسجد ، فلما كان هناك خوخة في جوف الخوخة التي هي الطريق المبوب ، فتلك الخوخة خوخة أبي بكر ، قال : وكانت حفصة ابتاعت ذلك المسكن من أبي بكر ، والدار الذي ذكرت فوق هذه الشارعة على باب دار عبد الله إلى جنب دار هشام ، فباع أبو بكر رضى الله عنه ذلك المسكن وتلك الدار من حفصة بأربعة آلاف درهم ، ونقدها عنها عثمان بن عفان ، وإنما باع ذلك أبو بكر لناس قدموا عليه من بنى تميم فسألوه .

ثم قال ابن شبة : حدثنا محمد بن يحيى عن عبد الله بن عمر بن حفص قال : سمعت أبي يقول : لما احتيج إلى بيت حفصة قالت : وكيف طريقى في المسجد ؟ فقيل لها : نعطيك أوسع من بيتك ونجعل لك طريقاً مثل طريقك ، فأعطاه دار عبد الله بن عمر ، وكانت مرّ بَدْءاً ، انتهى . والذي يقتضيه قوله « وأخبرني مخبر » تضعيف هذه الرواية .

وقد روى في ذكر دور بني تميم كما قدمناه أن دار أبي بكر المذكورة كانت شارعاً في دار القضاء في غربى المسجد ، وقد صدر كلامه بأن أصل دار حفصة إنما هو المرْبَدُ ، وختم كلامه بذلك . وقوله « لما احتيج إلى بيت حفصة » المراد به سكنها ، هو الذى كان شارعاً في المسجد في زمنه صلى الله عليه وسلم كما سيأتى بيانه ، والله أعلم .

وتقدم في زيادة عمر رضى الله عنه ما رواه يحيى من أن عثمان رضى الله عنه شَرَى دار العباس فزادها في المسجد إلا ثلاثة عشر ذراعاً أو أربعة عشر ذراعاً ، فقال الراوى : لا أدري أكان اتباع البقية أم لا ، وحملناه على أن المراد بدار العباس ما بقى منها بعد ما زاده عثمان رضى الله عنه ، والظاهر أن تلك البقية هى التى دخلت في دار مروان . وقد ذكر ابن زبالة ويحيى وابن النجار اتخاذ مروان لداره عقب ذكر زيادة عثمان رضى الله عنه ؛ فيحتمل أنه اتخذها في حال زيادة عثمان رضى الله عنه أو بعده ، وهو الظاهر ؛ لأنهم ذكروا أنه اتخذها خَوْخَةً في المسجد من جهة القبلة ، ثم قال : أخشى أن أمنعها ، فجعل لها باباً عن يمينك حين تدخل ، ثم جعل الباب الثالث الذى على باب المسجد ، كما سيأتى ، والله أعلم .

الفصل الخامس عشر

في المقصورة التى اتخذها عثمان رضى الله عنه في المسجد

وما كان من أمرها بعده

روى ابن زبالة وابن شبة عن عبد الرحمن بن سعد عن أشياخه أن أول من عمل المقصورة بَلَيْنِ عثمان بن عفان ، وأنه كانت فيه كَوِّى ينظر الناسُ منها إلى الإمام ، وأن عمر بن عبد العزيز هو الذى جعلها من ساج حين بنى المسجد .

وروى الأول أيضا عن عيسى بن محمد بن السائب ومحمد بن عمرو بن مسلم بن السائب بن خباب وعمر بن عثمان بن عبد الرحمن أن عثمان بن عفان أول من وضع المقصورة من لبن ، واستعمل عليها السائب بن خباب ، وكان رزقه دينارين في كل شهر ، فتوفي عن ثلاثة رجال : مسلم ، وبكير ، وعبد الرحمن ، فتواثروا في الدينارين ، فجريا في الديوان على ثلاثة منهم إلى اليوم ، قال ابن زبالة : وقال مالك بن أنس : لما استخلف عثمان بعد مقتل عمر بن الخطاب عمل عثمان مقصورة من لبن ، فقام يصلي فيها للناس خوفا من الذي أصاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكانت صغيرة

وروى يحيى هذا كله في زيادة عثمان رضى الله عنه ، ثم روى في زيادة الوليد عن عبد الحكيم بن عبد الله بن حنطب قال : أول من أحدث المقصورة في المسجد مروان بن الحكم ، بناها بالحجارة المنقوشة ، وجعل لها كوى ، وكان بعث ساعيا^(١) إلى تهامة ، فظلم رجلا يقال له دب ، فجاء دب إلى مروان ، فقام حيث يريد أن يقوم مروان ، حتى [إذا] أراد أن يكبر ضربه بسكين فلم يصنع شيئا ، فأخذه مروان فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : بعثت عاملا فأخذ ذودي بمرة^(٢) ، وتركنى وعيالى لا يجد شيئا ، فقلت : أذهب إلى الذى بعثك فاقتله ؛ فهو أصل هذا ، فجاء ما ترى ، فحبسه مروان حينما في السجن ، ثم أمر به فاغتيل سرا ، فكانت المقصورة .

ورواه ابن شبة بنحوه ، إلا أنه سمي الرجل في موضع دبا ، وفي آخر ذبابا ، وقال : بعثت عاملا ، فأخذ منى بقرة ، فتركنى وعيالى لا يجد شيئا ، وأنا امرؤ خبيث النفس ، فقلت : أذهب إلى الذى بعثه فاقتله فهو أصل هذا ، فجاء ما ترى ، فحبسه مروان في الحبس حينما ، ثم أمر به فاغتيل سرا ، وعمل المقصورة .

(١) الساعى : الذى يجي الزكاة .

(٢) الذود - بفتح الدال وسكون الواو - الجماعة من الإبل من ثلاثة إلى عشرة

ويقال : من اثنين إلى تسعة ، ومعنى « أخذها بمرة » أنه أخذها كلها .

قلت : وجزم بذلك في العتبية فيما حكاه ابن رشد في بيانه ، فقال في كتاب الصلاة : مسألة قال مالك : أول من جعل المقصورة مروان بن الحكم حين طعنه اليماني ، قال : فجعل مقصورة من طين ، وجعل فيها تشبيكا ، انتهى . قال ابن رشد في شرح ذلك : وَجْهُ قَوْلِهِ هَذَا الْإِعْلَامُ أَنَّ الْمَقْصُورَةَ مُحَدَّثَةٌ لَمْ تَكُنْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا عَلَى عَهْدِ الْخُلَفَاءِ بَعْدَهُ ، وَإِنَّمَا أَحْدَثَهَا الْأُمَرَاءُ لِلْخَوْفِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، فَاتَّخَذَهَا فِي الْجَوَامِعِ مَكْرُوهًا^(١) ، انتهى .

وفي شرح مسلم للنووي أن أول من اتخذ المقصورة في المسجد معاوية رضي الله عنه حين ضربه الخارجي ، انتهى .

وأفهم كلام ابن زبالة أنها كانت في زمن عمر بن عبد العزيز مرتفعة عن أرض المسجد ؛ لأنه ذكر في زيادة المهدي أنه أمر بالمقصورة فهدمت وخفضت إلى مستوى المسجد ، وكانت مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد ، فأوطأها مع المسجد ، وكأن المراغى فهم أن المراد بذلك سقف المقصورة لا أرضها ، فإنه قال في زيادة المهدي : وخفض سقف المقصورة ، وكانت مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد فأوطأها مع المسجد ، انتهى .

ورأيت لفظة « سقف » مُلْحَقَةً بِحُطَّة ، والظاهر أن ذلك هو المراد ، وذكر المطري ما يقتضي أن المهدي جعلها من خشب على الرواق القبلي بأجمعه ، وهو مراد ابن جبير بقوله في رحلته - بعد أن ذكر أن في الجهة القبليّة من المسجد خمس بلاطات - يعني أروقة ، قال : والبلاط المتصل بالقبلة من الخمس المذكورة تحويه مقصورة تَكْنُفُهُ طَوْلًا^(٢) من غرب إلى شرق ، والمحراب فيها ، انتهى .

وقد احترقت هذه المقصورة في حريق المسجد الأول ، والله أعلم .

(١) وجه الكراهة أنها شيء لم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما هو ظاهر .
(٢) تكنفه : تحيط به .

الفصل السادس عشر

فی زیادة الولید بن عبد الملک علی ید عمر بن عبد العزیز

نقل رزین أن المسجد بعد أن زاد فيه عثمان رضى الله عنه لم يزد فيه على ولا معاوية رضى الله عنهما ، ولا يزيد ولا مروان ، ولا ابنه عبد الملك شيئاً ، حتى كان الوليد بن عبد الملك — وكان عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة ومكة — بعث الوليد إلى عمر بن عبد العزيز بمال وقال له : مَنْ باعك فأعطه منه ، ومن أبى فاهدم عليه وأعطه المال ، فإن أبى أن يأخذه فاصرفه إلى الفقراء ، انتهى وقال ابن زبالة : حدثني عبد العزيز بن محمد عن بعض أهل العلم قال : قدم الوليد بن عبد الملك حاجاً ، فبينما هو يخطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ حانت منه التفاتة فإذا بحسن بن حسن بن علي بن أبي طالب في بيت فاطمة في يده مرآة ينظر فيها ، فلما نزل أرسل إلى عمر بن عبد العزيز فقال : لا أرى هذا قد بقي بعد ، أشرت هذه المواضع ، وأدخل بيت النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد ، وأسدده .

وروى يحيى من طريق ابن زبالة وغيره عن عبد العزيز بن محمد بنحوه .
وروى أيضاً عن موسى بن جعفر بن أبي كثير قال : بينما الوليد يخطب على المنبر إذ انكشفت الككة^(۱) عن بيت فاطمة عليها السلام ، وإذا حسن بن حسن يُسرح لحيته ، وهو يخطب على المنبر ، فلما نزل أمر بهدم بيت فاطمة رضى الله عنها قال يحيى : وحدثني عبد الله بن محمد بن عبد الله بن حسن بن علي رضى الله عنهما مثله ، وزاد فيه أن حسن بن حسن وفاطمة بنت الحسين أبوا أن يخرجوا منه ، فأرسل إليهم الوليد بن عبد الملك : إن لم تخرجوا منه هدمته عليكم ، فأبوا أن يخرجوا ، فأمر بهدمه عليهم وهما فيه وولدهما ، فنزع أساس البيت وهم فيه ،
(۱) الككة — بكسر الكاف وتشديد اللام — ستر مربع يحاط كالبیت يتوقى فيه من البعوض ونحوه .

فلما نزع أساس البيت قالوا لهم : إن لم تخرجوا قَوْضْنَاهُ^(۱) عليكم ، فخرجوا منه حتى أتوا دار على نهارا .

وروى ابن زبالة عن منصور مولى الحسن بن علي قال : كان الوليد بن عبد الملك يبعث كل عام رجلا إلى المدينة يأتيه بأخبار الناس وما يحدث بها ، قال : فأتاه في عام من ذلك ، فسأله ، فقال : لقد رأيت أمرا لا والله مالك معه سلطان ولا رأيت مثله قط ، قال : وما هو ؟ قال : كنت في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا منزل عليه كَلَّةٌ ؛ فلما أقيمت الصلاة رفعت الكلة وصلى صاحبه فيه بصلاة الإمام هو ومن معه ، ثم أرخيت الكلة ، وأتى بالغداء فتغدى هو وأصحابه ، فلما أقيمت الصلاة فَعَلَ مثل ذلك ، وإذا هو يأخذ المرأة والكحل وأنا أنظر ، فسألت ، فقليل : إن هذا حسن بن حسن ، قال : وبحك ! فما أصنع هو بيته وبيت أمه ، فما الحيلة في ذلك ؟ قال : تزيد في المسجد وتدخل هذا البيت فيه ، قال : فكتب إلى عمر بن عبد العزيز يأمره بالزيادة في المسجد ويشترى هذا المنزل ، قال : فعرض عليهم أن يبتاع منهم فأبوا ، وقال حسن : والله لانا كل له ثمننا أبدا ، قال : وأعطاهم به سبعة آلاف دينار أو ثمانية ، فأبوا ، فكتب إلى الوليد بن عبد الملك في ذلك ، فأمره بهدمه وإدخاله ، وطرح الثمن في بيت المال ، ففعل ، وانتقلت منه فاطمة بنت حسين بن علي إلى موضع دارها بالحرّة فابتنّتها .

قلت : وسيأتي بقية هذا الخبر في ذكر بثرها ، إن شاء الله تعالى .

قال ابن زبالة : وحدثني غير واحد من أهل العلم منهم : إبراهيم بن محمد الزهري عن أبيه عن عبد الرحمن بن حميد ، ومحمد بن إسماعيل عن محمد بن عمار عن جده ، ومحمد بن عبيد الله عن عبيد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمر بن حفص وعبد العزيز بن محمد عن عبيد الله بن عمر بن حفص ، وسليمان بن محمد بن أبي سبرة

(۱) قَوْضْنَاهُ : هدمناه ، وأصله تقويض الحيام ، وهو نقضها وإزالتها عن مكانها إلى مكان آخر .

ومحمد بن طلحة عن عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان ، وبعضهم يزيد على بعض ، أن عمر بن عبد العزيز لما جاءه كتاب الوليد بهدم المسجد والزيادة فيه بعث إلى رجال من آل عمر ، فقال : إن أمير المؤمنين كتب إلى أن أبتاع بيت حفصة ، وكان عن يمين الخوخة : أي خوخة آل عمر ، وكان بينه وبين منزل عائشة الذي فيه قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق ، وكانتا يتهديان^(١) الكلام وهما في منزلهما من قرب ما بينهما ، فلما دعاهم قال : إن أمير المؤمنين قد أمرني أن أبتاع هذا المنزل وأدخله في المسجد ، قالوا : ما نبيعه بشيء ، قال : إذا أدخله في المسجد ، قالوا : أنت وذاك ، فأما طريقنا فإننا لا نقطعها ، فهدم البيت وأعطاهم الطريق ووسّعها لهم حتى انتهى بها إلى الأسطوان ، وكانت قبل ذلك ضيقة قدر ما يمر الرجل منحرفاً . قال عبد العزيز بن محمد : فكنت أسمع عبيد الله بن عمر يقول : لا أخرجني الله من الدنيا حتى أراها قد سدت ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يلقى الصور الصور .

قلت : وسنورد بقية هذا الخبر .

وروى يحيى في قصة هذه الدار عن مالك بن أنس في جملة خبر أن الحجاج قال لعبيد الله بن عبد الله بن عمر : بعني منزل حفصة ، قال : لا والله ما كنت لأخذ لبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمناً أبداً ، قال : إذا والله أهدمه ، قال : والله لا تهدمه إلا على ظهري ، فأمر الحجاج صائحاً صاح في الناس بالعتل والمساحي والفوس^(٢) ، فقام عبد الله فدخل بيت حفصة ، وجاء الغوغاء بالعتل والفوس ، فأمرهم الحجاج بهدمه ، فصعدوا ليهدموه وعبيد الله فيه ، فجاءت بنو عدي إلى عبيد الله فقالوا له : ما أضعفك ! هو يتأسف على قتل أبيك ويَزَعُ عن قتلك^(٣) ، فأخرجوه ، فهدمه الحجاج ، وكتب إلى الوليد يعلمه ما صنع ، وامتناع عبيد الله

(١) انظر هذه العبارة في ص ٥٤٣ .

(٢) العتل : جمع عتلة - بالتحريك - وهو عمود من حديد تهدم به الأبنية ، والمساحي : جمع مسحاة ، والفوس : جمع فأس ، وأصله فؤوس ، فلما سهل الهمزة اجتمع واوان فحذف إحداها . (٣) في الخلاصة « وينزع عن قتلك »

من الثمن ، فكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره يعرض على عبيد الله الثمن ، فإن أوى جعل له مكرمة بدآه فى المسجد ، فجعل له عمر الخوخة التى فى قبة المسجد التى إلى دار حفصة اليوم ، وهو يقتضى أن الذى هدم دار حفصة هو الحجاج . وعن جعفر بن وردان عن أبیه قال : لما استعمل الوليد عمر بن عبد العزيز على المدينة أمره بالزيادة فى المسجد وبنیانه واشترأ ما حوله من المشرق والمغرب والشام ، فلما خلص إلى القبة قال له عبيد الله بن عبد الله بن عمر : لست أبيع هذا ، هو من حق حفصة ، وقد كان النبی صلى الله علیه وسلم یسكنها ، فقال له عمر : ما أنا بتارككم أو أدخلها المسجد ، فلما كثر الكلام بينهما قال له عمر : أجعل لكم فى المسجد باباً تدخلون منه ، وأعطيكم دار الدقيق ^(١) مكان هذا الطريق ، وما بقى من الدار فهو لكم ، ففعلوا ، وأخرج بابهم فى المسجد وهو الخوخة التى فى المسجد تخرج فى دار حفصة بنت عمر ، وأعطاهم دار الدقيق ^(٢) ، وقدم الجدار فى موضعه اليوم ، وزاد فى المشرق ما بین الأسطوان المربعة إلى جدار المسجد اليوم ، ومعه عشرة أساطین من مربعة القبر إلى الرحبة إلى الشام ، ومده فى المغرب أسطوانین ، وأدخل فيه حُجرات أزواج النبی صلى الله علیه وسلم ، وأدخل فيه دور عبد الرحمن بن عوف الثلاث التى كان يقال لها القرائن اللاتى يقول فيهن أبو قطيفة بن الوليد بن عتبة بن أبى معیط :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا بقیعُ المصلّى أو كعهدى القرائنُ
وقد سمعنا من يقول : القرائن كانت جناباً ^(٣) ثلاثاً لعبد الرحمن بن عوف ، انتهى
قلت : وأخبار المؤرخین متطابقة على أن حُجَرَ أزواج النبی صلى الله علیه وسلم
أدخلت فى المسجد بأمر الوليد ، وقد قدمنا فى الفصل التاسع قول عطاء الخراسانى :
أدرکت حُجرات أزواج النبی صلى الله علیه وسلم من جريد على أبوابها المسُوح
من شعر أسود ، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ يأمر بإدخال حُجَرَ

(١) فى المطبوعات « دار الرقيق » بالراء .

(٢) جنابذ : جمع جنبة — بضم كل من الجيم والباء وبينهما نون ساكنة —

وهى القبة ، وفى الحديث فى صفة الجنة « فيها جنابذ من لؤلؤ » .

أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فما رأيت يوماً كان أكثر باكيًا من ذلك اليوم ، قال عطاء : فسمعت سعيد بن المسيب يقول : والله لو ددت أنهم تركوها على حالها ، لكن نقل الزين المراغي عن السهيلي أنه نقل أن الحاجر والبيوت خلطت بالمسجد في زمن عبد الملك بن مروان ، قال : ويرده تصريح رزين وغيره بصد ذلك .

قلت : ولعل مراد من نسب ذلك إلى عبد الملك أنه جعلها للمسلمين يصلون فيها لضيق المسجد من غير هدم لها ، وقد كان الناس يصلون فيها قبل إدخالها في المسجد في يوم الجمعة ، فقد نقل مالك رحمه الله عن الثقة عنده أن الناس كانوا يدخلون حُجَرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يصلون فيها يوم الجمعة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان المسجد يضيق عن أهله ، قال : وحُجَرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليست من المسجد ، ولكن أبوابها شارة في المسجد ، انتهى . وأما بقية خبر ابن زبالة المتقدم فقد قال عقب ذلك : ثم سام^(١) عمر بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عوف بدارهم ، فأبوا ، فهدمها عليهم وأدخلها في المسجد ، قال عبد الرحمن بن حميد : فذهب لنا متاع في هدمهم ، وأدخل حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مما يلي المشرق ومن الشام ، وأخل القرائن دور عبد الرحمن بن عوف ، وأدخل دار عبد الله بن مسعود التي يقال لها دار القراء ، وأبيات هاشم بن عُثْبَةَ بن أبي وقَّاص ، وأدخل فيه من المغرب دارا كانت لطلحة بن عبيد الله ، ودارا كانت لأبي سبرة بن أبي رُهم كانت في موضع المربعة التي في غربى المسجد ، وداراً لعمار بن ياسر كانت إلى جنب دار أبي سبرة ، وبعض دار العباس بن عبد المطلب ، فأعلم ما دخل منها في المسجد ، فجعل منابر سواربها التي تلي السقف أعظم من غيرها من سوارب المسجد ، وأدخل دارا كانت لخارق مولى العباس ابن عبد المطلب .

(١) سام : أصل المساومة المجازية على السلعة بين البائع والمشتري ، وتقول : سامه يسومه ، وسأومه ، واستام السلعة .

قلت: قوله «وأدخل إلى آخره» وإن كان مبنياً لما لم يسم فاعله، لكن إirاده هنا يقتضى أن ذلك كله فى زيادة الوليد المذكورة، وفيه نظر؛ لما تقدم من أن عثمان رضى الله عنه زاد فى المسجد أسطوانا بعد المربعة، فيكون زيادة الوليد بعد ذلك فى جهة المغرب، فلا يصح إدخاله لدار أبى سبرة؛ لقوله إنها كانت فى موضع المربعة، إلا أن يريد بالمربعة هنا الأسطوانة التى عن يمينك إذا دخلت من الباب الذى يلى دار مروان، وهو باب السلام، وهى الثانية من الباب المذكور، فإنها أول زيادة الوليد؛ لقوله فى رواية يحيى المتقدم «ومده فى المغرب أسطوانين» لكن قال ابن شبة نقلاً عن ابن أبى يحيى: إنه كانت لأبى سبرة بن أبى رهم دار موضعها عند الأسطوان المربعة التى فى المسجد الليمانية الغربية، وكانت جديدة، وكانت هناك دار لعمار بن ياسر، فأدخلنا فى المسجد، انتهى. وهو ظاهر فى أن المراد بالمربعة الأسطوان المثمنة اليوم التى قدمنا وصفها فى زيادة عثمان رضى الله عنه، وقوله «وبعض دار العباس بن عبد المطلب» ظاهر أيضاً فى أن الوليد أدخل من دار العباس شيئاً، ولعله مما كان بقى منها وأدخله مروان فى داره، فيستفاد منه أن الوليد أدخل بعض دار مروان وهو ظاهر؛ لما قدمناه من أن دار مروان كانت ملاصقة للمسجد فى جهة المغرب ولها خوخة فيه، ولا شك أنه اتخذها قبل زيادة الوليد، فإن وفاة مروان كانت فى سنة خمس وستين بعد أن أقام فى الخلافة عشرة أشهر.

ولنرجع إلى تكميل خبر ابن زبالة المتقدم، قال: قالوا: وكتب الوليد بن عبد الملك إلى ملك الروم «إنا نريد أن نعلم مسجد نبينا الأعظم، فأعنا فيه بعمل وفُسَيْفَساء^(١)»، قالوا: فبعث إليه بأحمال من فسيفساء وبضعة وعشرين عاملاً، وقال بعضهم: بعشرة عمال، وقال: قد بعثت إليك بعشرة يعدلون مائة، وبثمانين ألف دينار عَوْناً له.

(١) الفسيفساء: قطع صغيرة ملونة من الرخام وغيره يؤلف بعضها إلى بعض ثم تتركب فى حيطان البيوت من داخل، ويقال: هذه الكلمة رومية وليست بعربية

قلت : روى ذلك يحيى أيضاً ، وذكر في رواية أخرى عن قدامة بن موسى أن ملك الروم بعث إليه بأربعين ، يعنى عاملاً من الروم ، وأربعين من القبط ، وأربعين ألف مثقال ذهب . وفي رواية لرزين : فبعث إليه ثلاثين عاملاً ، وأربعين من الروم ، ومثلهم من القبط ، وبثمانين ألف مثقال ، وبأحمال من الفُسيْفساء ، وبأحمال من سلاسل القناديل ، انتهى .

وانرجع إلى تكميل خبر ابن زبالة له أيضاً ، قال عقب ما تقدم : وبعث بهذه السلاسل التي فيها القناديل ، قالوا : وهدمه عمر بن عبد العزيز سنة إحدى وتسعين - أى بتقديم التاء الفوقية على السين - وبناء بالحجارة المنقوشة المطابقة وقَصَّة^(١) بطن نخل ، وعمله بالفُسيْفساء والمرمر ، وعمل سقفه بالاساج وماء الذهب ، وهدم حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فأدخلها في المسجد ، ونقل آبن المسجد وابن الحجرات فبنى به داره التي بالحرة فهو فيها اليوم له بياض على اللبني ، قال : فبينما أولئك العمال يعملون في المسجد إذ خلا لهم المسجد فقال بعض أولئك العمال من الروم : ألا أبول على قبر نبيهم ، فتهياً لذلك فنهاه أصحابه ، فلما هم أن يفعل اقتلع فالتقى على رأسه ، فانتثر دماغه ، فأسلم بعض أولئك النصارى ، وعمل أحد أولئك الروم على رأس خمس طاقات في جدار القبلة في صحن المسجد صورة خنزير ، فظهر عليه عمر بن عبد العزيز فأمر به فضربت عنقه ، وقال بعض أولئك العمال الذين عملوا الفُسيْفساء : إنا عملناه على ما وجدنا من صور شجر الجنة وقصورها ، انتهى خبر ابن زبالة .

وفي خبر يحيى المتقدم عن قدامة بن موسى أن عمر بن عبد العزيز أخرج النورة التي تعمل بها الفُسيْفساء سنة ، وحملوا القَصَّة^(١) من بطن نخل منخولة ، وعمل الأساس بالحجارة والجدار بالحجارة المطابقة والقَصَّة^(١) ، وجعل عمد المسجد من حجارة حشوها عمد الحديد والرصاص ، وكان طوله مائتي ذراع وعرضه في مقدمته مائتين وفي

(١) القصة - بفتح القاف وتشديد الصاد - الجص .

مؤخره ثمانين ومائة ، وهو من قبل كان مقدمه أعرض ، انتهى .

وما ذكره في ذرع عرض المسجد غير صحيح ؛ لما سيأتى عن ابن زبالة في الفصل الحادى والثلاثين أنه ذكر في موضع آخر أن عرض المسجد من مقدمه في زمنه مائة وخمسة وستون ذراعاً ، وعرضه من مؤخره مائة وثلاثون ذراعاً ، وسيأتى أيضاً أن الذى حررناه أن عرضه اليوم من مقدمه في جهة القبلة مائة ذراع وسبعة وستون ذراعاً ونصف ، وأن عرضه من مؤخره في جهة الشام مائة وخمسة وثلاثون ذراعاً ، ولا شك أن المسجد لم ينقص من عرضه شيء ، فهذا الذرع المذكور في هذه الرواية غير صحيح ، وقد نقله ابن النجار عن أهل السير ، وتعقبه المطرى بنحو ما ذكرناه .

وروى ابن زبالة عن محمد بن عمار عن جده قال : لما صار عمر بن عبد العزيز إلى جدار القبلة دعا مشيخة من أهل المدينة من قریش والأنصار والعرب والموالى فقال لهم : تعالوا احضروا بنيان قبلكم ، لا تقولوا غير عمر قبلتنا ، فجعل لا ينزع حجراً إلا وضع مكانه حجراً ، فكانت زيادة الوليد بن عبد الملك من المشرق إلى المغرب ستة أساطين ، وزاد إلى الشام من الأسطوان المربعة التى فى القبر أربع عشر أسطواناً منها عشر فى الرحبة وأربع فى السقايف الأولى التى كانت قبل ، وزاد من الأسطوان التى دون المربعة إلى المشرق أربع أساطين فى السقايف ، فدخل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، وبقي ثلاث أساطين فى السقايف . قلت : فاستفدنا من ذلك أن الستة أساطين^(١) التى زادها فى المشرق والمغرب ليس منها فى جهة المغرب سوى اثنتين ، وأن أربعة منها فى جهة المشرق ؛ فيكون ابتداء زيادته فى المشرق من الأسطوان اللاصق اليوم بالشباك الدائر حول

(١) الستة أساطين : هذا التعبير خطأ فى العربية ، لا يقول بصحته بصرى ولا كوفى ، والبصريون يوجبون أن يقال «ست الأساطين» والكوفيون يحيزون هذا الذى أوجهه البصريون ، ويحيزون وجهاً آخر وهو «الست الأساطين» بإدخال لام التعريف على العدد وعلى المعدود جميعاً ، والعدد يقع فى هذا الكتاب مضطرباً .

الحجرة الشريفة على ما قدمناه في تحديد المسجد النبوي ، وذلك هو المراد بقوله « من الأسطوان التي دون المربعة إلى المشرق » وقوله « وبقي ثلاث أساطين » أي من الأربعة المذكورة « في السقايف » أي المسقف الشرقي كما هو اليوم ، لكن في رواية يحكي المتقدمة أنه زاد في المشرق ما بين الأسطوان المربعة أي مربعة القبر إلى جدار المسجد يعني الشرقي ؛ فعلى هذا يكون له في المشرق ثلاثة أساطين فقط ؛ فيحتمل أن يكون له في المغرب ثلاث أيضاً ، وقوله « وزاد إلى الشام من الأسطوان المربعة التي في القبر - إلى آخره » معناه أنه لما أحدث المسقف الشرقي جعل ابتداءه مما يلي رحبة المسجد مربعة القبر ، وجعل في صفها إلى جهة الشام أربع عشر أسطواناً منها عشر في الرحبة وأربع في السقايف التي كانت قبل : أي في المسقف الشامي ، فيكون قد صيّر المسقف الشامي رحبة ، وجعل المسقف الشامي بعد أربع عشر أسطواناً ، فهذا معنى زيادته لهذا العدد .

ويستفاد منه أن جدار المسجد من جهة الشام في زمنه كان بعد ثمان عشرة أسطوانة ، من مربعة القبر ؛ لأنك إذا ضمنت أربع أساطين للسقايف التي أحدثها بدل الأولى إلى الأربع عشرة المذكورة بلغ ذلك ، فيكون محل الجدار المذكور قريباً مما يوازي الأسطوان التي قبل المسقف الشامي بأسطوان فيما يليه من الرحبة ، وذلك موافق لما تقدم من أنه جعل طوله - يعني من القبلة إلى الشام - مائتي ذراع ، فيتحرر من ذلك أن زيادته من جهة الشام على ما ذكر من الذراع في زمن عثمان رضي الله عنه أربعون ذراعاً ، ويحتمل أن يكون معنى قوله « وزاد إلى الشام من الأسطوان المربعة التي في القبر أربع عشرة أسطوانة » أن المسجد ينتهي في جهة الشام في زمنه بعد أربع عشرة أسطواناً من المربعة إلى جهة الشام ؛ فيكون الجدار الشامي في موازاة الأسطوانة الخامسة من طرف الدكاك التي هي المسقف الشامي ، وهناك أسطوان في الصف الأوسط من المسقف الشرقي مربع أسفله قدر الجلسة ؛ فعلى هذا يكون علامة لذلك ، لكنه مخالف لما تقدم من أنه جعل طوله مائتي ذراع ، بل يكون طوله على هذا التقدير نحو مائة وثمانين ذراعاً ، وذلك هو

ما تقدم في طوله زمن عثمان رضى الله عنه ، فيكون هذا الاحتمال مردوداً ، ولكن سيأتى في زيادة المهدي ما يقتضيه ، والله أعلم .

وروى يحيى عن محمد بن إسماعيل بن أبي فديك عن يثق به من مشايخ البلد أن عمر بن عبد العزيز أمر حين بنى المسجد بأسفل الأساطين فجعل قدر سترة اثنين يصليان إليها وقدر مجلس اثنين يتساندان إليها .

وعن صالح بن كيسان قال : لما جاء كتاب الوليد من دمشق لهدم المسجد صار خمس عشرة ، فجرد في ذلك عمر بن عبد العزيز ، قال صالح : واستعملني على هدمه وبنائه ، فهدمناه بعمال المدينة ، فبدأنا بهدم بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى قدم علينا الفعلة الذين بعث بهم الوليد ، وقال ابن زبالة فيما رواه عن محمد ابن عمار عن جده : وكان في موضع الجنائز - أى شرقى المسجد في زمان الوليد ابن عبد الملك - نخلتان إذا أتى بالموتى وضعوا عندهما فيصلى عليهما ، فأراد عمر بن عبد العزيز قطعهما حين ولى عمل المسجد للوليد بن عبد الملك ، وذلك في سنة ثمان وثمانين ، فاقتتل فيهما بنو النجار من الأنصار ، فابتاعهما عمر بن عبد العزيز فقطعهما . قلت : ولا ينافى ذلك ما تقدم من أن عمر هدم المسجد في سنة إحدى وتسعين ؛ لجواز أن يكون ولايته لذلك سنة ثمان وثمانين ، واستمر في تحصيل الأهبة وشراء الأماكِن وتخمير النورة^(١) إلى سنة إحدى وتسعين .

وفما رواه يحيى عن حفص بن مروان عن أبيه أن عمر مكث في بنائه ثلاث سنين .

قلت : فعلى هذا يكون قد فرغ منه في آخر سنة ثلاث وتسعين ، وهى السنة التى عُزل فيها عمر عن المدينة ، وفيه رد لقول من زعم أن هدمه كان في سنة ثلاث

(١) النورة : من الحجر الذى يحرق ويسوى منه الكلس ، وقيل : إن هذه الكلمة ليست عربية فى الأصل ، واشتقاقها يشبه اشتقاق العربى ، يقال : اتور الرجل ، وانتار ، إذا تطلّى بالنورة .

وتسعين ، لكن في رواية لابن زبالة ما يقتضى أن البداءة في هدم المسجد وعمارته كانت في سنة ثمان وثمانين ؛ فإنه قال فيها : وابتدأ عمر بن عبد العزيز بناء المسجد سنة ثمان وثمانين ، وفرغ سنة إحدى وتسعين ، وفيها حج الوليد .

قال : ولما فرغ عمر بن عبد العزيز من بنيان المسجد أرسل إلى أبان بن عثمان ، فحمل في كساء خز حتى انتهى به إليه ، فقال : أين هذا البناء من بنيانكم ؟ فقال : بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس ، قال : وقال الوليد حين رأى خَوْخَةَ آل عمر : صانعتهم لمكان الخوخة ، هكذا في النسخة التي وقعت لنا ، ولعلها لمكان الخوْلة ؛ لأن المطري قال : إن الوليد قال له : صانعت أخوالك ، وقد كانت أم عمر بن عبد العزيز منهم .

وروى يحيى عن جعفر بن وردان عن أبيه ما يقتضى أن المخاطبَ لأَبَانَ بن عثمان هو الوليد ؛ فإنه قال : فلما قدم الوليد حاجا جعل يطوف في المسجد وينظر إليه ويصيح بعمر : ها هنا ، ومعه أبان بن عثمان ، فلما استنفد الوليد النظر إلى المسجد التفت إلى أبان وقال : أين بناؤنا من بنائكم ؟ قال أبان : إنا بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس .

قلت : وكان قد اعتنى عمر بتحسينه ؛ فقد روى يحيى عن النضر بن أنس قال : كان عمر بن عبد العزيز إذا عمل العاملُ الشجرة الكبيرة من الفُسَيْفِساء فأحسن عملها نَفْلَهُ^(١) عمر ثلاثين درهما ، وذكر هو وابن زبالة ما كان فيه من الكتابات داخله وخارجه وعلى أبوابه فتركناه لزواله .

وروى ابن زبالة عن إبراهيم بن محمد الزهرى عن أبيه قال : ولما قدم الوليد ابن عبد الملك المدينة حاجا بعد فراغ عمر بن عبد العزيز من المسجد جعل يطوف في المسجد وينظر إلى بنيانه ، فقال لعمر بن عبد العزيز حين رأى سقف المقصورة :

(١) نفله : أراد أعطاه زيادة عن أجره ، وأصله النفل — بالتحريك — وهو العطاء ، واستعمل في الشرع لما يعطيه الإمام للمقاتلين من الغنائم .

ألا عملت السقف كله مثل هذا ، قال : إذاً يا أمير المؤمنين تعظم النفقة جداً ، قال : وإن ، قال : وكان نفقته في ذلك أربعين ألف دينار .

وروى ابن النجار هذا الخبر عن أهل السير بهذا اللفظ ، إلا أنه قال : فقال : يا أمير المؤمنين إذاً تعظم النفقة جداً ، قال : وإن ، قال : أتدرى كم أنفقت على عمل جدار القبلة وما بين السقفين ؟ قال : وكم ، قال : خمسة وأربعون ألف دينار ، وقال بعضهم : أربعون ألف دينار ، قال : والله لكأنك أنفقتها من مالك ، وقيل : كانت النفقة في ذلك أربعين ألف مثقال ، انتهى .

وذكر يحيى رواية ابن زبالة المتقدمة من غير طريقه ، وقال عقب قوله : « وكانت النفقة في ذلك أربعين ألف دينار » قال : ثم انتهى إلى القبر فقال ابن الوليد لعمر بن عبد العزيز : من هذا في القبر ؟ قال : رسول الله وأبو بكر وعمر ، قال : فأين أمير المؤمنين عثمان ؟ قال : فأعرض عنه ، فألح عليه ، فقال : دفن في حال تشاغل من الناس وقد أسىء أدباك (۱) .

وروى ذلك ابن زبالة أيضاً ، وراد فقال : وسمعت بعض أهل العلم يقول : السائل بكار بن عبد الملك ، وكان ضعيفاً .

وقال ابن شبة : حدثنا أيوب بن عمر بن أبي عمرو ، قال : أخبرني موسى ابن عبد العزيز قال : قال عمر بن عبد العزيز لى : أتكأ الوليدُ على يدي حين قدم المدينة ، فجعل يطوف المسجد ينظر إلى بنائه ، ثم أتى بيت النبي صلى الله عليه وسلم فوقف عليه ، ثم أقبل على فقال : أمعه أبو بكر وعمر ؟ قلت : نعم ، قال : فأين أمير المؤمنين عثمان ؟ قال : فالله أعلم إني لظننت أنه لا يبرح حتى يخرجهما ، فقلت : يا أمير المؤمنين إن الناس كانوا حين قُتل عثمان في فتنة وشغل فذاك الذي منعهم من أن يدفنوه معهم ، فسكت .

وروى يحيى أنه جعل المقصورة من ساج ، قال : وكانت قبل من حجارة ، وأن الواقدي قال : حدثني عبد الله بن يزيد قال : كان عمل القبط مقدم المسجد ،

(۱) كذا ، والعبارة ليست على ما ينبغي .

وكانت الروم تعمل ماخرج من السقف جوانبه ومؤخره ، فسمعت سعيد بن المسيب يقول : عمل هؤلاء أحكم ، يعنى القبط .

الفصل السابع عشر

فما اتخذ عمر في المسجد في زيادة الوليد من المحراب والشرفات والمنائر ، واتخاذ الحرس ، ومنعهم من الصلاة على الجناز فيه

أسند يحيى عن عبد المهيمن بن عباس عن أبيه قال : مات عثمان رليس في المسجد شرفات ولا محراب ، فأول من أحدث المحراب والشرفات عمر بن عبد العزيز ، وعن القاسم وسالم أنهما نظرا إلى شرفات المسجد فقالا : إنها من زينة المسجد ، وأسند أيضا من طريق ابن زبالة ورأيته فيه أن عمر بن عبد العزيز هو الذى عمل الرصاص على طنف^(١) المسجد والميازيب التى من الرصاص ، فلم يبق من الميازيب التى عمل عمر بن عبد العزيز غير ميزابين : أحدهما فى موضع الجناز ، والآخر على الباب الذى يدخل منه أهل السوق الذى يقال له باب عاتكة ، ولم يكن للمسجد شرفات حتى عملها عبد الواحد بن عبد الله النصرى ، وهو والى على المدينة ، سنة أربع ومائة ، انتهى .

فهذا يقتضى أن عمر بن عبد العزيز لم يحدث الشرفات فى زيادة الوليد ، بل ولا فى زمن خلافته بعده ؛ لأن وفاته كانت فى رجب سنة إحدى ومائة .

وفى سنن البيهقى عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ابنوا المساجد واتخذوها جماء » وعن ابن عمر : نهانا - أو نهيننا - أن نصلى فى مسجد مشرف .

قال أبو عبيد : الجم التى لا شرف لها ، حكاه فى شرح المذهب .

قال الزين المراغى : وليس للمسجد شرفات منذ حريقه ، وقد جددت له

(١) طنف - بوزن قفل أو عنق أو جبل أو فلس - مائتا من الجبل ، وإفريز

الحائط ، وما أشرف خارجا عن البناء ، والسقيفة تشرع فوق باب الدار .

شرفات سنة سبع وستين وسبع مائة في أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد صاحب مصر ، انتهى .

شرفات المسجد

والمراد بالشرفات المذكورة ما على ما أحاط بجدران صحن^(١) المسجد من جوانبه الأربعة ، وبينها فرج شبه طاقات الشباك ، وهي المرادة فيما حكاه البدر بن فرحون عن القاضي فخر الدين بن مسكين الفقيه الشافعي أنه كان يجلس في مُصَلَّاه حتى تطلع الشمس فيصلي الضحى ، وأنه رأى الناس يرتقبون بصلاتهم الشيخ أبا عبد الله بن فرحون ولد البدر ، قال : وكان يقوم إذا وصلت الشمس في الحائط الغربي إلى تحت الشبايك الصغار ، قال : فاجتمعت به ، وكنت به جاهلاً ، فقلت له : رأيتك تقوم للضحى قبل وقتها ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنها حتى ترتفع الشمس وتبيض ، فالتفت إلى وقال : بعد اليوم تؤخر كما قلت ، وسكت عني . قلت : وإنما ذكرت ذلك لأن كثيراً من الناس اليوم يشرعون في الصلاة عند وقوع الشمس على رؤس الشرارييف ، وذلك قبل ارتفاع الشمس كرمح ، والله أعلم

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن محمد بن عمار عن جده ، قال : جعل عمر بن عبد العزيز لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بناه أربع منارات في كل زاوية منه منارة .

المنارات التي عملها عمر بن عبد العزيز

قال كثير بن حفص : وكانت المنارة الرابعة مُطَلَّة على دار مروان ، فلما حج سليمان بن عبد الملك أذن المؤذن ، فأطل عليه ، فأمر سليمان بتلك المنارة فهدمت إلى ظهر المسجد ، وبابها على باب المسجد ، وفي نسخة يحيى « وبابها على المسجد مما يلي دار مروان من قبل المسجد »

قلت : فكان المسجد بعد ذلك له ثلاث منارات فقط ، وهو المراد من قول

(١) كذا ، وأصله « بجدران صحن المسجد » فإن ثبتت الكلمة على ما في الأصل فهي جمع جدر الذي هو جمع جدار .

ابن زبالة في موضع آخر : والمسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث منارات طول كل منارة ستون ذراعا ، وقال في موضع آخر : وطول المنارة الشرقية اليمانية في السماء خمس وخمسون ذراعا ، والمنارة الشرقية الشامية خمس وخمسون ، والمنارة الغربية الشامية ثلاث وخمسون ، وعرض المنارات ثمان أذرع في ثمان أذرع ، اهـ .

وذكر ابن جبير في رحلته ما يقتضي أن المنارتين الشاميتين كانتا صغيرتين ، بخلاف الشرقية اليمانية ، فإنه قال : والمسجد المبارك ثلاث صوامع إحداها في الركن الشرقي المتصل بالقبلة ، والاثنان في ركني الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على هيئة بُرْجَيْن ، والصومعة الأولى المذكورة على هيئة الصوامع

قلت : فكان الشاميتين غيرتا بعد ابن جبير ؛ فإنهما اليوم على هيئة الشرقية اليمانية المعروفة اليوم بالرئيسية ؛ لاختصاص الرئيس بها ، وكان طول المنارة الرئيسة في زماننا أولا من رأس هلالها إلى أسفلها خارج المسجد بالبلاط سبعة وسبعين ذراعا ، بتقديم السين ، ثم سقط منها نحو ثلثها بسبب الصاعقة التي نشأ عنها حريق المسجد الثاني كما سيأتي ، فاقتضى الحال هدم جميعها ، ثم أعيدت فكان طولها اليوم أزيد من مائة ذراع ، فصارت أطول المنارات ، ثم ظهر منها خلل بعد ، فبعث السلطان الأشرف الشجاعى شاهين الجمالى وأمره بهدمها ، فهدمها غير محكم ، فحفر أساسها إلى الماء ، وأعادها متقنة جدا في عرض جدارها الشرقي من موضع الجنائز شرقي المسجد ، وزاد في ارتفاعها أيضا حتى بلغ زيادة عن مائة وعشرين ذراعا ، وطول المنارة الشرقية الشامية وهي المعروفة بالسنجارية تسعة — بتقديم التاء على السين — وسبعون ذراعا ، وطول الشامية الغربية المعروفة بالخشبية اثنان وسبعون ذراعا — بتقديم السين فيهما — كل ذلك من أعلى الهلال إلى الأرض الخارجة عن المسجد ، وبه يعلم أن المنارات التي كانت في زمن ابن زبالة ليست هي الموجودة اليوم .

قال المطرى : ولم يزل المسجد على ثلاث منارات إلى أن جددت المنارة

الرابعة ، وذكر في موضع آخر تجديدها ، فقال بعد ذكر خوخة مروان المتقدم ذكرها في ركن المسجد الغربى : إنه شاهد الخوخة المذكورة عند بناء المنارة الكبيرة المتجددة في سنة ست وسبع مائة ، أمر بإنشائها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون

قال المطرى : وكان باب الخوخة عليها ، وهو من ساج ، فلم يَبْلَ إلى هذا التاريخ ، كان مروان يدخل من داره إلى المسجد منها ، وقد انسدت - يعنى الخوخة - بمحائط المنارة الغربى ، اهـ

قلت : وقد ذكر البدر بن فرحون بناء هذه المنارة فإنه أدرك ذلك ، وذكر أنه لم يوجد عند الحفر أثر لما ذكر من وجود منارة قبلها ، فقال ما ملخصه : إنه لما حج سيار وبيبرس كليهما شيخ الخدام شبل الدولة كافور المظفرى المعروف بالحريرى في بناء المنارة التى بباب السلام اليوم ، فأنعم^(١) ، ثم خشى أنهما يشتغلان عن ذلك ويستثقلان النفقة ، فقال : أنا لأطلب منكم مالا ، عندى من قناديل الذهب والفضة ما يقوم بها وزيادة ، فأنعم^(٢) له بإرسال الصنائع : وأمر بالحفر لها فى مكانها اليوم ، فلم ينزلوا إلا قليلا إذ وجدوا باب مروان بن الحكم أسفل من أرض المسجد بقدر قامة ، ثم وجدوا تحصيب المسجد فى أيام مروان بالرمل الأسود يشبه أن يكون من جبل سلع ، ثم نزلوا فى الأساس حتى بلغوا الماء ، ثم أمر الحريرى مَنْ كان بالمدينة يتعانى البناية كالشيخ إبراهيم البنا والشيخ على الفراش الحجار وغيرها ممن ليس له فى البناية كبير قدم ، فدكوا الأساس ، فلما حضر الصنائع فى الموسم قال مقدمهم للشيخ : لاتبنى حتى تنقض ذلك ، فإننا لآمن عاقبته ، فامتنع الشيخ ، فرجع إلى مصر من حينه ، فقال الشيخ لمن كان معه من المعلمين : اعملوا أنتم ، فعملوها على ما هى عليه اليوم ، وعم نفعها ؛ لأنها متوسطة المدينة حتى إن رئيس المؤذنين محمد بن إبراهيم قال لى : لو تركت لى هذه المأذنة لكفيت

(١) أنعم : المراد أنهما استجابا له ، يقال : « أحسنت إلى وأنعمت » أى زدت على الإحسان ، ويقال : معنى أنعم دخل فى النعم ، كما يقال : « أشمل » أى دخل فى الشمال .

المدينة ، وهو حق ؛ فإن امتداد المدينة وقوة عمارتها من جهة المغرب ، يعنى فى محاذة المنارة المذكورة .

قال : وكان بعض المؤرخين يذكر أنه كان هناك مأذنة مُشْرِفة^(۱) على دار مروان ، فهدمها غيرة على أهله من مؤذنيها ، فلم يوجد لذلك صحة ولا أثر البتة ، انتهى ما ذكره ابن فرحون .

قلت : وجواب ما ذكره أخيراً أن تلك المنارة تحتل أن تكون على باب المسجد وسطحه مما يلي دار مروان ، وليس لها فى الأرض أساس ، ويدل على ذلك قوله فى الرواية المتقدمة : وبابها على المسجد ، أو على باب المسجد ؛ فلا يلزم من عدم وجود أثرها عند الحفر عدم وجودها أصلاً ورأساً فى تلك الجهة ، ولم يتعرضوا لذرع هذه المنارة ، وكانت أطول منارات المسجد . وقد ذَرَعُوا من أعلى هلالها إلى الأرض ، فكان ذلك خمسة وتسعين ذراعاً - بتقديم البناء على السين - لكن صارت المنارة الرئيسية المجددة بعد الحريق أطول منها كما سبق ، والله أعلم .

ويظهر من سياق ما تقدم أن أول جعل المنارات فى المسجد كان فى زيادة الوليد ، ويشهد لذلك ما رواه ابن إسحاق وأبو داود والبيهقى أن امرأة من بنى النجار قالت : كان بيتى من أطول بيت حول المسجد ، وكان بلال يؤذن عليه الفجر كل غداة ، فيأتى بسحر ، فيجلس على البيت لينظر إلى الفجر ، فإذا رآه تمطى ، ثم قال : اللهم إني أحمدك وأستعينك على قریش أن يقيموا دينك ، قالت : ثم يؤذن .

وروى خالد بن عمرو عن أبي بَرَزَةَ الأسلمى قال : من السنة الأذان فى المنارة والإقامة فى المسجد .

(۱) مشرفة : أى مطلة ؛ لأنها فى جهتها .

وروى غيره أن الأذان في زمنه صلى الله عليه وسلم كان على أسطوانة في دار عبد الله بن عمر التي في قبلة المسجد .

قال ابن زبالة : حدثني محمد بن إسماعيل وغيره قال : كان في دار عبد الله بن عمر أسطوان في قبلة المسجد يؤذن عليها بلال يرقى إليها بأقتاب^(۱) ، والأسطوان مر بعة قائمة إلى اليوم يقال لها المطار ، وهي في منزل عبيد الله بن عبد الله بن عمر . قلت : والظاهر أنها المرادة بقوله في الرواية المتقدمة في قصة الخوخة التي جعلت بدل طريق بيت حفصة : ووسمها لهم حتى انتهى بها إلى الأسطوان . وقال الأفشهرى ، ومن خطه نقلت : عن عبد العزيز بن عمران قال : كان في دار عبد الله بن عمر أسطوان في قبلة المسجد يؤذن عليها ، وهي مر بعة قائمة إلى اليوم . قال الأفشهرى : وهي بقية إلى يومنا هذا ، قال ، يعنى عبد العزيز : وكان يقال لها المطار .

وأسند يحى من طريق عبد العزيز بن عمران عن قدامة العمرى عن نافع عن ابن عمر ، قال : كان بلال يؤذن على منارة في دارة حفصة بنة عمر التي تلى المسجد ، قال : وكان يرقى على أقتاب^(۱) فيها ، والأسطوان في البيت الذي كان بيد عبيد الله بن عمر الذي يقال له بيت عبد الله بن عمر ، وقد كانت خارجة من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن فيه ، وليست فيه اليوم ، والظاهر أنه تجوز في تسمية الأسطوان منارة ، وعبد العزيز بن عمران كان كثير الغلط ؛ لأن كتبه احترقت ؛ فكان يروى من حفظه ، فتركوه ، ثم الظاهر أن عمر وعثمان رضى الله عنهما لم يتخذا في المسجد منارة ، وإلا لنقل .

عثمان أول

من خلق

المسجد ورزق

المؤذنين

وروى يحيى عن جابر بن عبد الله قال : كان أول من خلق المسجد ، ورزق المؤذنين^(۲) ، وجلس على الدرجة الثالثة من المنبر بعد النبي صلى الله عليه وسلم عثمان رضى الله عنه .

(۱) الأقتاب : جمع قتب ، وأصله إكاف صغير على قدر - نام البعير يوضع عليه

(۲) رزق المؤذنين : جعل لهم رزقا على الأذان .

وروی ابن زبالہ عن موسی بن عبیدہ أن عمر بن عبد العزیز استأجر حرساً
للمسجد لا یحترف فیہ أحد .

وعن کثیر بن زید قال : نظرت إلى حرس عمر بن عبد العزیز یطردون
الناس من المسجد أن یصلی علی الجنائز فیہ .

وعن عثمان بن أبی الولید عن عروۃ بن الزبیر أنه قال له : تضرعون الناس فی
الصلاة فی المسجد علی الجنائز ؟ قال : قلت : نعم ، قال : أما إن أبابکر قد صلی
علیہ فی المسجد .

قلت : و ذکر یحیی ما یقتضی أن الحرس كانوا قبل زمن عمر بن عبد العزیز
یمنعون الناس من الصلاة علی الجنائز فی المسجد ؛ فإنه روى عن ابن أبی ذئب عن
المقبری أنه رأى حرس مروان بن الحكم یخرجون الناس من المسجد یمنعونهم أن
یصلوا فیہ علی الجنائز .

قلت : وأما ما كان من ذلك فی زمنه صلی الله علیہ وسلم فقد روى ابن شبة
عن صحابی سقط اسمه من النسخة التي وقفتُ علیها حديثاً محصله أن النبی صلی
الله علیہ وسلم لما قدم المدينة كان إذا احتضر المیت آذَنُوهُ فحضره واستغفر له ، حتی
إذا قبض انصرف النبی صلی الله علیہ وسلم وَمَنْ مَعَهُ ، وربما قعدَ ومن معه فربما
طال حَبْسُ ذلك علی رسول الله صلی الله علیہ وسلم ، قال : فلما خشينا مشقة ذلك
علیہ قال بعض القوم لبعض : لو كنا لا نُؤذِنُ النبی صلی الله علیہ وسلم بأحدٍ
حتى يُقْبَضَ ، فإذا قبض آذناه^(۱) ، فلم یکن علیہ فی ذلك مشقة ولا حبس ، ففعلنا
ذلك ، وكنا نُؤذنه بالمیت بعد أن یموت فیاتیہ فیصلی علیہ ، وربما انصرف ،
وربما مكث حتی یدفن ، فكنا علی ذلك حیثنا ، فقلنا : لو لم نُشَخِّصْ^(۲) رسول الله
صلی الله علیہ وسلم وحملنا جنازتنا إلیه حتی یصلی علیها عند بیتہ كان ذلك أرفق
به ، ففعلنا ، فكان ذلك الأمر إلى الیوم .

(۱) آذناه : أعلمناه وأخبرناه . (۲) أشخصه يشخصه : أرعجه

الصلاة على
الجنائز في
المساجد

وعن ابن شهاب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هلك الهالكُ شهده يصلى عليه حيث يدفن، فلما نُقِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وِبدَنَ (١) نُقِلَ إليه المؤمنون موتاهم فصلى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجنائز عند بيته في موضع الجنائز اليوم، ولم يزل ذلك جارياً.

قال ابن شبة : وحدثني محمد بن يحيى قال : حدثني من أثق به أنه كان في موضع الجنائز نخلتان إذا أتى بالموتى وُضِعَا عندهما فصلى عليهما، فأراد عمر ابن عبد العزيز حين بنى المسجد قَطْعَهُمَا، فاقتلت فيهما بنو النجار، فابتاعهما عمر فقطعهما.

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عمر في قصة اليهوديين « فرجاً قريباً من موضع الجنائز عند المسجد » فدل ذلك على أن الموضع المذكور كان معروفاً بذلك.

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة أنها أمرت أن يمر بجنازة ابن أبي وقاص في المسجد فتصلى عليه، فأنكر الناس ذلك عليها، فقالت : ما أَسْرَعَ ما نسيَ الناسُ ! ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سُهَيْل بن البيضاء إلا في المسجد، وفي رواية لها : والله لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابْنَيْ بيضاء في المسجد سُهَيْل وأخيه.

قلت : ويفهم منه أن ذلك نادر، وأن الكثير من فعله صلى الله عليه وسلم ما تقدمت الإشارة إليه.

وروى يحيى بسند جيد عن عبد الله بن عمر أنه صلى على عمر بن الخطاب في المسجد، وفي رواية أخرى له عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن عمر بن الخطاب صلى على أبي بكر في المسجد، وأن سُهَيْباً صلى على عمر بن الخطاب في المسجد، ويتبين في رواية أخرى أن ذلك كان عند المنبر، وقد روى ذلك ابن أبي شبة، وقال في رواية : وضعت الجنازة في المسجد تُجَاهَ المنبر.

(١) بدن : سمن

قال الحافظ ابن حجر : وهذا يقتضى الإجماع على جواز ذلك ، وقد تقررت المذاهب فى ذلك .

وقال ابن النجار عقب ذكر ماتقدم عن عمر بن عبد العزيز فى ذلك : والسنة فى الجنائز باقية إلى يومنا هذا ، إلا فى حق العلويين ومن أراد الأسراء من الأعيان وغيرهم ، والباقون يصلّون عليهم خلف الحائط الشرقى من المسجد ، إذا وقف الإمام على الجنائز هناك كان النبى صلى الله عليه وسلم عن يمينه . انتهى .

قلت : وقد انتسخ ما ذكره ابن النجار ، وصار يصلّون على الجنائز كلها فى المسجد ، ويخص الأعيان بانصلاة عليهم بالروضة الشريفة بين القبر والمنبر ، وغيرهم يصلّون عليه أمام الروضة بعد أن يوقف بالجنائز بين يدي النبى صلى الله عليه وسلم أمام الوجه الشريف إلى عام اثنين وأربعين وثمانمائة فى دولة السلطان الظاهر جقمق ، فوردت مراسيمه على شيخ الحرم فارس بالأمر بمنع جناز الشيعة من المسجد ، فمنع المنسوبون للشيعة من إدخال جنازهم إلى المسجد إلا الأشراف العلويين ، وجرى الأمر على ذلك إلى يومنا هذا ، لا يدخل المسجد إلا جناز الأشراف وأهل السنة ، وحاول بعض أهل المدينة إدخال بعض الشيعة غير الأشراف فقام فى ذلك بعض أمراء الترك ومنع منه ، وكان صاحبنا العلامة أحد شيوخ المالكية الشيخ شهاب الدين أحمد بن يونس القسنطينى يُذكر الصلاة على الموتى بالروضة الشريفة ومقدم المسجد ؛ لكون رجل الميت تصيران إلى جهة الرأس الشريف ، حتى إنه أوصى أن يصلّ عليه خارج المسجد فى موضع الجنائز ، وأكثر قبل وفاته من الاستفتاء فى ذلك ، وأرانى خطوط جماعة من علماء الشام وغيرها من الشافعية وغيرهم يتضمن موافقته على ذلك ، وفى كلام بعض الشافعية : ينبغى أن تكون الصلاة بالمسجد خلف الحجرة الشريفة أو شرقها ، والتمس منى الكتابة فى ذلك ، فكتبت بما حاصله أن الله تعالى قد أوجب على هذه الأمة

الشيعة
غير الأشراف

تعظيم نبيها صلى الله عليه وسلم وتوقيره وسلوك الأدب التام معه ، ولا شك أن الميت إذا وُضِعَ في مقدم الروضة أو المسجد كما يوضع اليوم وإن لم تكن رجلاه في محاذاة الرأس الشريف حقيقة ؛ لأن الرأس الشريف في محاذاة صف أسطوان التوبة والمخلقة: أي حذاء الأسطوانات التي تكون خلف المصلي على الميت ، لكن تكون رجلاه في محاذاة الجهة المذكورة ، وقد تصدق المحاذاة مع البعد ، ولو رأينا شخصا اضطجع بذلك المحل من الروضة وجعل رجله لتلك الجهة الشريفة لأنكرنا ذلك عليه ، وما ننكره على الأحياء لا ينبغي أن نفعله بالأموات ، وقد تأملت كتب المذاهب الأربعة فلم أر فيها تعرضا لذكر السنة في جهة رجل الميت ، بل ذكر الشافعية فيما إذا حضرت جنازة وصلى عليها الإمام دفعة وجهين : أصحابهما وضع الجميع صفا بين يدي الإمام في جهة القبلة ، زاد أبو زرعة العراقي في شرح البهجة : والأولى جعلها عن يمينه ، والثاني يوضع الجميع صفا واحدا رأس كل إنسان عند رجل الآخر ، ويجعل الإمام جميعهم عن يمينه ، ويقف في محاذاة الأخير ، هذا إذا اتحد النوع ، فإن اختلف النوع تعين الوجه الأول ، ذكره في أصل الروضة ، ويؤخذ منه استحباب جعل رجل كل ميت عن يمين الإمام على الوجه الثاني ، وإلا فلا يكون الجميع صفا عن يمينه ، وأما على الوجه الأول فيؤخذ ذلك أيضا مما تقدم عن أبي زرعة ، ولعل مأخذه فيه ما ذكر في الثاني ، وإذا ثبت ذلك في الجماعة فالواحد كذلك ؛ فيكون الأولى جعل رجله عن يمين الإمام ، ولكن الذي عليه الناس جعلهما على يساره .

ورأيت في كتب المالكية ما يقتضي أن ذلك هو الأولى ، وأن الناس مَضُوا على ذلك .

وقد ظهر لي أن السر في ذلك أن السلف — كما يؤخذ مما قدمناه — إنما كانوا يصلون على الجنازة خارج المسجد في شرقيه في الموضع المعروف بذلك ، والواقف

هناك يكون القبر الشريف عن يمينه ، فأوا - والله أعلم - أن الأدب جعل الرجلين عن يسار الإمام صَرَفاً لهما عن تلك الجهة الشريفة ، ثم توارثوا ذلك ، واستمر العمل عليه ، فلما ترك ذلك وصلوا على الجنائز في المسجد مَشَوْا على ما اعتادوه من جعل رجلي الميت عن يسار الإمام مع الغفلة عن ذلك ، وإذا لم تثبت سنة في جعل رجلي الميت عن يسار الإمام فينبغي جعلهما عن يمينه في هذا المحل الشريف ، استعمالاً لكمال الأدب .

وقد قال لي الشيخ فتح الدين بن تقي الدين الكازروني - وكان يُعَدُّ من فضلاء الشافعية - وقد ذاكرته بذلك : إذا أنامت فليجعل رجلاي عن يمين الإمام ، ففعل به ذلك رحمه الله ، على أن الموضع الذي يلي الأرجل الشريفة من المسجد هو من موضع الجنائز في زمنه صلى الله عليه وسلم فيما يظهر ، ويدل عليه ما أتفق لابي النجار لما أراد عمر بن عبد العزيز قَطَعَ النخلتين عند عمارته للمسجد ؛ فلو صلى فيه اليوم على مَنْ يدخل به المسجد من الجنائز لكان أولى ؛ فإنه يتأتى فيه كون الرجلين عن يسار الإمام والرأس في جهة الأرجل الشريفة ، ويكون أفضل لما جرت به العادة من الخروج بالميت من باب جبريل ، وأوفق لفعل السلف في الصلاة على موتاهم هناك ، ولم يوافق على شيء من ذلك المتمسكون بالعادات ، وقد ذكرت نص ما أجبته به في ذلك مبسوطاً استطراداً في كتابي «دفع التعرض والإنكار ، لبسط روضة المختار» والله أعلم .

الفصل الثامن عشر

في زيادة المهدي

نقل ابن زبالة بحجي أن المسجد لم يزل على حالة ما زاد فيه الوليد إلى أن هم أبو جعفر المنصور بالزيادة فيه ، ثم توفي ولم يزد فيه ، حتى زاد فيه المهدي ،

لكن ذكر يحيى في حكاية ما كان مكتوباً في جدار القبلة مالفظه : ثم إلى جنب هذا الكتاب - أى ما كتب في زمن المهدي - كتاب كتب في ولاية أبي العباس ، يعنى السفّاح ، وصل هذا الكتاب أى كتاب المهدي إليه ، وهو : أمرَ عبدُ الله عبدُ الله أميرُ المؤمنين بزيّنة هذا المسجد وتزيينه وتوسعته مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ابتغاء رضوان الله وثواب الله ، وإن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعاً بصيراً ، انتهى .

وهو يقتضى أن أبا العباس السفّاح - وهو أول خلفاء بني العباس - زاد في المسجد أول ولايته ، وولايته سنة اثنتين وثلاثين ، ووفاته سنة ست وثلاثين ومائة ، وسنشير إلى محمل ذلك آخر الفصل .

ولفظ ما نقله ابن زبالة عن غير واحد من أهل العلم - منهم عبد العزيز بن محمد ومحمد بن إسماعيل - قالوا : لم يزل المسجد على حال ما زاد فيه الوليد بن عبد الملك حتى ولى أبو جعفر عبدُ الله - يعنى المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس - فهمم بالزيادة ، وأراد ، وشاور فيه ، وكتب إليه الحسن بن زيد يصف له ناحية مودع الجناز ، ويقول : إن زيد في المسجد من ناحيته الشرقية توسّط قبرُ النبي صلى الله عليه وسلم المسجد ، فكتب إليه أبو جعفر : إني قد عرفت الذي أردت ، فاكفف عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فتوفى أبو جعفر ولم يزد فيه شيئاً ، ثم حج المهدي - يعنى ابن أبي جعفر - سنة ستين ومائة ، فقدم المدينة مُنصَرَفَةً عن الحج ، فاستعمل عليها جعفر بن سليمان سنة إحدى وستين ومائة ، وأمر بالزيادة فيه ، وولى بناءه عبد الله بن عاصم بن عمر بن عبد العزيز وعبد الملك بن شبيب الفسائي ، فمات ابنُ عاصم ، فولى مكانه عبد الله بن موسى الحمصي ، وزاد فيه مائة ذراع من ناحية الشام ، ولم يزد في القبلة ولا في المشرق والمغرب شيئاً ، وذلك عشر أساطين في صحن المسجد إلى سقائف النساء ، وخمس سقائف النساء الشامية .

وروى يحيى ذلك من طريق ابن زبالة وغيره ، وقال في رواية له عقب قوله واستعمل عليها جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس : وأمره بالزيادة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وولاه بناءه هو وعبد الله بن عاصم بن عمر بن عبد العزيز بن مروان وعبد الملك بن شبيب الغساني من أهل الشام ، فزيد في المسجد من جهة الشام إلى منتهاه اليوم ، وكانت زيادته مائة ذراع ، ولم يزد فيه من المشرق ولا المغرب ولا القبلة شيئاً .

قلت : ما روياه من أنه زاد في مؤخر المسجد مائة ذراع يخالفه ما تقدم في زيادة الوليد أنه جعل طوله مائتي ذراع ؛ لأنه يقتضي أن يكون طول المسجد بعد زيادة المهدي ثلاثمائة ذراع ، وطول المسجد اليوم على ما صرح به ابن زبالة مائتا ذراع وأربعون ذراعاً ، وقد اختبرته فزاد على ذلك ثلاثة عشر ذراعاً كما سيأتي ، ومع ذلك فهو مؤيد لما قدمناه من الاحتمال المتبادر إلى الفهم في الرواية المتقدمة في زيادة الوليد المقتضى لأن نهاية المسجد من جهة الشام في زمنه كانت بعد أربع عشر أسطوانة من مربعة القبر ، ومنها إلى آخر المسجد أربع وعشرون أسطوانة فإذا أسقطنا من ذلك أربع عشرة للوليد بقي عشرة أساطين وقدرها نحو مائة ذراع ، وهذا معنى قوله في الرواية المتقدمة « وذلك عشر أساطين في صحن المسجد إلى سقائف النساء » أي إلى آخر سقائف النساء ، وهي المسقف الشامي ، وقوله « وخمس في السقائف » أي من العشرة المذكورة ، مع أنه يقتضي أن المهدي جعل المسقف المذكور خمس أساطين ، وهذا كان في ذلك الزمان كما سنوضحه ، وهو اليوم أربع فقط ، وقد قدمنا ترجيحاً أن المراد مما ذكر في زيادة الوليد أنه جعل أربع عشرة أسطوانة في الرحبة بما فيها من أربع أساطين في السقائف التي كانت أولاً ، وأنه جعل السقائف الشامية في زمنه بعد الأربع عشرة المذكورة ؛ لموافقة ما ذكره في ذرع المسجد في زمنه ولما ذكر في زيادة عثمان

رضي الله عنه من أنه جعل المسجد مائة وستين ذراعاً ، فإن ذلك يقتضي أن يكون نهايته في جهة الشام يقرب من أربعة عشر أسطوانة من المربعة المذكورة ، فيتحصل من ذلك أن زيادة الوليد على ما ذكر في زيادة عثمان رضي الله عنه أربعون ذراعاً ، وأن زيادة المهدي نحو خمسة وخمسين ذراعاً فقط ؛ فيكون للمهدي نحو ستة أساطين في مؤخر المسجد ، لكن سيأتي في ذكر أبواب المسجد ما يقتضي أن الباب الذي كان يواجه دار خالد بن الوليد كان مكتوباً عليه : زيادة المهدي ، وكذا الباب الذي بعده في الشام عليه ما يقتضي ذلك ، وكذا البابان المقابلان لهما في جهة المغرب ، دون ما قبل ذلك من الأبواب ، وذلك يقتضي ترجيح رواية أنه زاد في المسجد مائة ذراع ، وقد رأيت في المسقف الشرقي أسطوانة هي التاسعة من جدار المسجد الشامي مربع أسفلها مرتفع عن الأرض بقدر الجلسة ، وهي محاذية لما وصفوه من الباب المقابل لدار خالد بن الوليد ، فإن صحت هذه الرواية فهي علامة على ابتداء زيادة المهدي ، والله أعلم .

وقال ابن زبالة ويحيى في روايتهما المتقدمة أيضاً : وكان - يعني المهدي - قبل بنيانه قد أمر به ، فقدّروا ما حوله ، فابتيع ، وكان مما أدخل في المسجد من الدور دار مليكة

قال ابن زبالة : وأخبرني إبراهيم بن محمد الزهري عن أبيه قال : كانت دار مليكة لعبد الرحمن بن عوف ، وإنما سميت دار مليكة لأن عبد الرحمن أنزلها مليكة ابنة خارجة بن سنان ، فغلب عليها أسمها ، ثم باعها بنو عبد الرحمن بن عوف من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فباعها عبد الله حين بناء المسجد ، فأدخل بعضها في المسجد ، وبعضها في رحبة المسارب ، وبعضها في الطريق ، قالوا : وأدخل دار شرحبيل بن حسنة ، وكانت صدقة ، فابتاعوا دوراً ومنازل فأوقفوها صدقة وبقيت منها بقية ، فابتاعها منهم يحيى بن خالد بن برمك فدخلت في الحش حش طلحة

قلت : وقد ذكر ابن شبة دار مليكة وقال : فباعها عبد الله من معاوية رضى الله عنه ؛ فصارت فى الصوافى ؛ فأدخلها المهدي فى المسجد ، وذكر دار شرحبيل هذه فى ترجمة علم دور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة : أى غير الحجر ، فقال : قال أبو غسان : اتخذت أم حبيبة بنت أبي سفيان رضى الله عنها الدار التى يقال لها دار آل شرحبيل ، فوهبتها لشرحبيل بن حسنة ، فلم تزل ابنيه حتى باعوا صدرها من المهدي فزادها فى مؤخر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة إحدى وستين ومائة ، ثم ذكر ما سنورده فى ذكر الدور المطيفة بالمسجد .

وقال ابن زباله عقب ما تقدم : وأدخل بقية دار عبد الله بن مسعود التى يقال لها دار القرءاء ، ودار المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف ابن زهرة .

قلت : ذكر ابن شبة هذه الدار فى دور بنى زهرة ، فقال : واتخذ مخرمة ابن أهيب بن نوفل داراً ، وهى فى زاوية المسجد عند المنارة الشرقية اليمانية ، فاشتري المهدي بعضها فأدخله فى رحبة المسجد القُصيا وفى الطريق ، وبيعت بقيتها فصارت لرجل من آل مطرف ثم صارت لبعض بنى برمك ثم صارت صافية اليو ، انتهى .

وقوله « المنارة الشرقية اليمانية » تحريف والصواب الشامية .

قال ابن زباله ويحيى عقب ما تقدم : وفرغ من بنيان المسجد سنة خمس وستين ومائة ، وقد كان هم بسد خوخة آل عمر ، وأمر بالمقصورة فهدمت وخفضت إلى مستوى المسجد ، وكانت مرتفعة ذراعين عن وجه المسجد ، فوطأها مع المسجد ، فكلّمه آل عمر فى خوختهم حتى كثر الكلام بينهم ، فأذن لهم ففتحوها وخفضوها فى الأرض شبه السرب ؛ فصارت فى المسجد : أى خارج المقصورة عليها شبك حديد ، وزاد فى المسجد تلك الخوخة ثلاث درجات ؛ وهى على ذلك إلى اليوم .

ويؤخذ مما ذكره ابن زبالة من الكتابة على أبواب المسجد في زمن المهدي أنه زَخَرَفَهُ بِالْفُسْفُوسِ^(١) كما فعل الوليد، وبشهد لذلك بقية من الفسيفساء كانت فيما زاده في مؤخر المسجد عند المنارة الغربية الشامية ، وفيما يقرب منها من الحائط الغربي ، ولم أر في كلام أحد من مؤرخي المدينة أن المسجد الشريف زيد فيه بعد المهدي ، لكن قال الزين المراغي ما لفظه : وقيل : إن المأمون زاد فيه ، وأتقن بنيانه أيضاً في سنة اثنتين ومائتين .

قال السهيلي : وهو على حاله ، ورزين ينكر ذلك ، ويمكن الجمع بأنه جرده ولم يزد ، انتهى .

قلت : ولم أر في كلام رزين تعرضاً لحكاية ذلك حتى ينكره ، وهذا بعيد جداً ؛ لأن من أدرك زمن المأمون من مؤرخي المدينة لم يتعرض لشيء من ذلك ، نعم رأيت في المعارف لابن قتيبة بعد ذكر زيادة المهدي ما لفظه : وزاد فيه المأمون زيادةً كثيرةً ووسعه ، وقرأت على موضع زيادة المأمون : أمرَ عبد الله بعمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين ومائتين ، وذكر أشياء من الأمر بالعدل وتقوى الله ، وهذا لا دلالة فيه على زيادة المأمون في المسجد ؛ لاحتمال أنه وقع في زمنه عمارة من غير أن يزيد فيه ، على أن في كلام يحيى وغيره في حكاية ما كان مكتوباً في المسجد ما يدل على كتابة مثل ذلك لمن تجددت ولايته من الخلفاء فقط ، والله أعلم .

الفصل التاسع عشر

فما كانت عليه الحجرة الشريفة الحاوية للقبور المنيفة في مبدأ الأمر قد قدمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بنى المسجد بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة رضي الله عنهما على نعت بناء المسجد من لبنٍ وجريد النخل ، قال ابن الفجار : وكان لبيت عائشة رضي الله عنها مصراع واحد من عَرَعَرٍ أوساج ، وتقدم أيضاً

(١) الفسيفساء : انظر ص ٥١٨ من هذا الجزء .

في الفصل التاسع عن جماعة ممن أدرك بيوت النبي صلى الله عليه وسلم لما أدخلت في المسجد أنها كانت من جريد مستورة بمسوح الشعر ، وأن عمران بن أبي أنس قال : كان فيها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد ، الخبر المتقدم

أول من بنى
جدارا على
بيت عائشة

قلت : وكان بيت عائشة رضى الله عنها أحد الأربعة المذكورة ، لكن سيأتي من رواية ابن سعد أنه لم يكن عليه حائط زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن أول من بنى عليه جداراً عمر بن الخطاب ، وليحمل على أن حجرة الجريد التي كانت مضافة له ، أبدلها عمر بجدار ، جمعا بين الروايات ، وتقدم أيضا قول عبد الله بن يزيد الهذلي : ورأيت حُجْرَ أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حين هدمها عمر بن عبد العزيز مبنية باللبن حولها حجر من جريد ممدودة ، إلا حجرة أم سلمة ، وقول الحسن البصري : كنت أدخل بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مُراهق ، وأنال السقف بيدي ، وكان لكل بيت حجرة ، وكانت حُجْرُهُ من أكسية من شَعَرٍ مربوطة في خشب غُرْغَرٍ

قلت : والظاهر أن ما يستر به الحجر المذكورة هو المراد في حديث كشفه صلى الله عليه وسلم لسَجْفٍ^(١) حجرتي ، كما في الصحيح ، والسجف لغة : الستر وفي التحفة لابن عساكر عن داود بن قيس أنه قال : أظن عرض البيت من الحجرة إلى باب البيت نحو من ست أو سبع أذرع ، وأظن سمكه بين الثمان والتسع نحو ذلك ، ووقفت عند باب عائشة فإذا هو مستقبل المغرب ، وهو صريح في أن الباب كان في جهة المغرب ، وسيأتي ما يؤيده .

وكذا ما روى في الصحيح من كشفه صلى الله عليه وسلم سَجْفَ الباب^(٢) في مرضه وأبو بكر رضى الله عنه يؤم الناس ، وترجيل عائشة رضى الله عنها شعره وهو في معتكفه وهي في بيتها كما تقدم في حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف يُدْنِي إلى رأسه فأرجله^(٣) ، وفي رواية النسائي : يَأْتِنِي وهو

(١) السجف - بكسر السين وفتح - ومثله السجاف - بزنة الكتاب - الستر

(٢) أرجله : أسرح شعره

معتكف في المسجد ، فتيكى على عتبة باب حجرتي ، فأغسل رأسه وأنا في حجرتي وسأثره في المسجد ، لكن سبق أيضا ما يقتضي أن الباب كان مستقبل الشام ، وهو ضعيف أو مؤول ، أما ضعفه فلما تقدم من أن بيت فاطمة رضي الله عنها كان ملاصقا له من جهة الشام وأن أربعة القبر كانت باب على ، ويحتمل أن بعضه من جهة الشام كان ملاصقا بيت فاطمة دون بعضه ، فيتأتى ذلك ، ويدل له ما قدمناه في بيت فاطمة رضي الله عنها من أن الموضع المزور في بناء عمر ابن عبد العزيز كان مخرجا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأما تأويله فبأحد أمرين كما أشار إليه الزين المراغي : أحدهما تخلفه على أنه باب شرعته عائشة رضي الله عنها لما ضربت حائطها بينها وبين القبور المقدسة بعد دفن عمر رضي الله عنه ، لا أنه الباب الذي كان في زمانه صلى الله عليه وسلم ، وفيه بعد ؛ لأنه سيأتي ما يؤخذ منه أن الحائط الذي ضربته كان في جهة المشرق ، ثانيهما لأنه كان له بابان ؛ إذ لا مانع من ذلك ، وهذا محمل ما رواه ابن عساكر عن محمد بن أبي فديك عن محمد بن هلال أنه رأى حنجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من جريد مستورة بمسوح الشعر ، فسألته عن بيت عائشة ، فقال : كان بابه من جهة الشام ، قلت : مصراعا كان أو مصراعين ؟ قال : كان باب واحد ، قلت : من أي شيء كان ؟ قال : من عرعر أو ساج ، وهذا مستند ابن عساكر في قوله : وباب البيت شامي ، ولم يكن على الباب غلق مدة حياة عائشة ، اهـ

ثم ظفرت في طبقات ابن سعد بما يصرح بأن الحجرة الشريفة كان لها بابان ؛ فإنه روى من طرق أنهم صلوا على النبي صلى الله عليه وسلم بحجرتي ، وروى في أثناء ذلك عن أبي عسيم قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : كيف نصلي عليه ؟ قالوا : ادخلوا من دا الباب أرسالا^(۱) فصلوا عليه ، واخرجوا من الباب الآخر ، والله أعلم

(۱) أرسالا: جمع رسل - بفتح كل من الراء والسين - وهي الجماعة

وكان بيتُ حفصة بنت عمر رضى الله عنها ملاصقا لبيت عائشة رضى الله عنها من جهة القبلة

ونقل ابن زبالة فيما رواه عن عبد الرحمن بن حميد وعبيد الله بن عمر بن حفص وأبي سبرة وغيرهم أنه كان بين بيت حفصة وبين منزل عائشة الذى فيه قبر النبي صلى الله عليه وسلم طريق، وكانتا يتهاديان الكلام وهما فى منزليهما^(١)، من قُرْبِ ما بينهما، وكان بيت حفصة عن يمين الخبوخة

قلت : فهو موقف الزائرین اليوم داخل المقصورة وخارجها ، كما ذكره المطرى ، وتقدم فى حدود المسجد النبوى أن جدار الحجرة مما يلي المسجد كان فى حد القناديل التى بين الأساطين اللاصقة بجدار القبر ، وبين الأساطين المقابلة لها ، وهى التى إليها المقصورة الدائرة على الحجرة من جهة المغرب ، وأن المسجد زيد فيه من تلك الجهة شئ من الحجرة ، وأن الظاهر أن ما ترك فى المسجد من الحجرة كان من مرافقها كالدھليز للباب ، وأن ما بنى عليه من ذلك هو صفة بيت عائشة رضى الله عنها التى وقع الدفن بها

هذا ما تحصل لى من كلام متقدمى المؤرخين ، خلاف ما اقتضاه كلام متأخريهم ، من أن جدار الحجرة الذى [فى] جوف الحائز الدائر عليها اليوم هو جدارها الأول ، وإليه ينتهى حد المسجد ، وأن جدار الحائز الذى جعله عمر بن عبد العزيز إنما جعله فيما يلي الحجرة من المسجد ، وقد قدمنا من كلام ابن زبالة والمحاسبي نقلا عن مالك ما يرد ذلك ، والله أعلم

الفصل العشرون

فما حَدَّثَ من عمارة الحجرة بعد ذلك ، والحائز الذى أدير عليها روى ابن زبالة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ما زِلْتُ أَضَعُ خماري^(٢)

(١) انظر هذه العبارة فى ص ٥١٥ من هذا الجزء

(٢) الخمار - بكسر الخاء - غطاء الوجه ، ومعنى وضعه أنها تركه ولا تلبسه

وَأَتَفَضَّلَ فِي ثِيَابِي^(١) حَتَّى دُفِنَ عَمْرٌ؛ فَلَمْ أَزَلْ مُتَحَفِظَةً فِي ثِيَابِي حَتَّى بَنَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقُبُورِ جِدَارًا

وَعَنِ الْمَطْلَبِ قَالَ : كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْ تَرَابِ الْقَبْرِ ، فَأَمَرْتُ عَائِشَةَ بِجِدَارٍ فَضَرِبَ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَتْ فِي الْجِدَارِ كُوفَةٌ فَكَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهَا ، فَأَمَرْتُ بِالْكُوفَةِ فَسَدَّتْ

وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ : أَخْبَرَنِي مُوسَى بْنُ دَاوُدَ قَالَ : سَمِعْتُ مَالَكَ بْنَ أَنَسٍ يَقُولُ : قَسَمَ بَيْتَ عَائِشَةَ بِاثْنَيْنِ : قَسَمَ كَانَ فِيهِ الْقَبْرُ ، وَقَسَمَ كَانَ تَكُونُ فِيهِ عَائِشَةُ وَبَيْنَهُمَا حَائِطٌ ؛ فَكَانَتْ عَائِشَةُ رُبَّمَا دَخَلَتْ حَيْثُ الْقَبْرُ فَضُلًّا^(١) ، فَلَمَّا دُفِنَ عَمْرٌ لَمْ تَدْخُلْهُ إِلَّا وَهِيَ جَامِعَةٌ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا

وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ أَيْضًا : أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْنُ عَبَادٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ : سَمِعْتُ عَمْرُو بْنَ دِينَارٍ وَعَبِيدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي يَزِيدٍ قَالَا : لَمْ يَكُنْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَائِطٌ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ بَنَى عَلَيْهِ جِدَارًا عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قَالَ عَبِيدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي يَزِيدٍ : كَانَ جِدَارُهُ قَصِيرًا ، ثُمَّ بَنَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ وَقَالَ الْأَقْشَهْرِيُّ : قَالَ أَبُو زَيْدٍ بْنُ شُبَّةٍ : قَالَ أَبُو غَسَّانَ بْنُ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ ابْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ - وَكَانَ عَالِمًا بِأَخْبَارِ الْمَدِينَةِ وَمِنْ بَيْتِ كِتَابَةِ وَعِلْمٍ - : لَمْ يَزَلْ بَيْتُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي دُفِنَ فِيهِ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ظَاهِرًا حَتَّى بَنَى عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَيْهِ الْحِطَّارَ^(٢) الْمَزُورَ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ حِينَ بَنَى الْمَسْجِدَ فِي خِلَافَةِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ مَزُورًا كِرَاهَةً أَنْ يُشَبَّهَ تَرْبِيعُهُ تَرْبِيعَ الْكَعْبَةِ ، وَأَنْ يَتَّخِذَ قِبْلَةً فَيَصِلَ إِلَيْهِ

قَالَ أَبُو زَيْدٍ : قَالَ أَبُو غَسَّانَ : وَقَدْ سَمِعْتُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَزْعُمُ

(١) فضلا - بضم كل من الفاء والضاد - أي مقتصرة على ثياب المهنة ،

وتفضلت : اقتصرت في لباسها على ذلك

(٢) الحطار - بكسر الحاء ، بزنة الكتاب - الحائط وكل ما حال بينك

وبين شيء .

أن عمر بنی البیت غیر بنائه الذی کان علیه ، وسمعت من یقول : بنی علی بیت النبی صلی الله علیه وسلم ثلاثة أجدر ، فدور القبر ثلاثة أجدر : جدار بناء بیت النبی صلی الله علیه وسلم ، وجدار البیت الذی یزعم أنه بنی علیه یعنی عمر بن عبد العزیز ، وجدار الحِطار الظاهر ، انتهى ما نقله الأشمري .

قلت : ولم یوجد علی الحجرة الشریفه عند انکشافها فی العمارة الّتی أدركناها غیر جدار واحد جوف الحِطار الظاهر .

وقال ابن سعد : أخبرنا أحمد بن محمد بن الولید الأزرقی المکی قال : حدثنا مسلم بن خالد قال : حدثنی إبراہیم بن نوفل بن سعید بن المغيرة الهاشمی عن أبيه قال : انهم — دم الجدار الذی علی قبر النبی صلی الله علیه وسلم فی زمان عمر بن عبد العزیز ، فأمر بعمارتہ ، قال : فإنه لجائس وهو یبني إذ قال لعلی بن حسین : قم یا علی فقم البیت^(۱) ، یعنی بیت النبی صلی الله علیه وسلم ، فقام إلیه القاسم بن محمد قال : وأنا أصلحك الله ، قال : نعم وأنت فقم ؛ ثم قال له سالم بن عبد الله : وأنا أصلحك الله ، قال : اجلسوا جميعا ، وقم یا مزاحم ، فقمه ، فقام مزاحم فقمه ، قال مسلم : وقد أثبت لی بالمدينة أن البیت الذی فیہ قبر النبی صلی الله علیه وسلم بیت عائشة ، وأن بابہ و باب حجرته تُجَاه الشام . وأن البیت كما هو سقفه علی حاله ، وأن فی البیت جرة وخلق رخالة ، انتهى .

وروی ابن زباله ویحیی من طریقہ عن غیر واحد منهم إبراہیم بن محمد بن عبد العزیز الزهري عن أبيه قال : جاف^(۲) بیت النبی صلی الله علیه وسلم من شرقیه ، فجاء عمر بن عبد العزیز ومعه عبد الله بن عبید الله بن عبد الله بن عمر ، فأمر ابن وردان أن یکشف عن الأساس ، فبینا هو یکشفه إلی أن رفع یدہ وتنجى^(۳) واجما ، فقام عمر بن عبد العزیز فزعا ، فقال عبد الله بن عبید الله : أيها الأمير لا یرُوعَنَّک فتانک قدما جدک عمر ابن الخطاب ضاق البیت عنه فحفر له فی الأساس ، فقال : یا ابن وردان^(۴) غطّ ما رأيت ، ففعل .

(۱) قم البیت یقوله — مثل شده یشده — أى کنسه ، والفحامة کالکساء ورناءومعنی

(۲) جاف : أى ظهرت له رائحة ، وقد جاء فی بعض الروایات أن هرة ماتت داخله

(۳) تنجوا : ابتعدوا

(۴) لعل ابن وردان کان یعمل مع أبيه فتارة یسند العمل إلیه وتارة یسنده إلی أبيه

(۱۱ — وفاء الوفا ۲)

وروی ایضاً عن المطلب أنه لما سقط الجدار من شق موضع الجنائز أمر عمر بقباطى فحيطت^(۱)، ثم ستر بها، وأمر أبا حفصة مولى عائشة وناسامعه فبنوا الجدار، فجعلوا فيه كوة، فلما فرغوا منه وروموه دخل مزاحم مولى عمر فقمّ ماسقط على القبر من التراب والطين، ونزع القباطى، وكان عمر يقول: لأن أكون وليت ما ولى مزاحم من قمّ القبور أحبّ إلى من أن يكون لى من الدنيا كذا وكذا، وذكر مرغوباً من الدنيا.

وروى يحيى من طريقه أيضاً عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال: كنت أخرج كل ليلة من آخر الليل حتى آتى المسجد، فأبدأ بالنبي صلى الله عليه وسلم، فأسلم عليه، ثم آتى مُصَلَّائى فأجلس به حتى أصلى الصبح، فخرجت فى ليلة مطيرة حتى إذا كنت عند دار المغيرة بن شعبه لقيتنى راحة لا والله ما وجدت مثلها قط، فجلست المسجد فبدأت بقبر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا جداره قد انهدم، فدخلت فسلمت على النبي صلى الله عليه وسلم، ومكثت فيه ملياً، وذكر صفة القبور كما سيأتى عنه، قال: فلم ألث أن سمعت الحسن، فإذا عمر ابن عبد العزيز قد أخبر فجاء، فأمر به فستر بالقباطى^(۱)، فلما أصبح دعا وردان البناء فقال له: أدخل فدخل فكشف فقال: لا بد لى من رجل يناولنى، فكشف عمر بن عبد العزيز ساقية يريد يدخل، فكشف القاسم بن محمد، فكشف سالم بن عبد الله، فقال عمر: مالكم؟ فقالوا: ندخل والله معك، قال: فلبث عمر هنيهة ثم قال: والله لا تؤذيهم بكثرتنا اليوم، أدخل يا مزاحم فناولته، فقال عمر: يا مزاحم كيف ترى قبر النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: متطاطيا، قل: فكيف ترى قبر الرجلين؟ قال: مرتفعين، قال: أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورواه رزين عن عبد الله المذكور باختصار، وخالف سياق يحيى فى وصف القبور كما سيأتى التنبيه عليه، وقال فيه: فأخبرت بذلك عمر، فجاء فأمر به فستر بالقباطى^(۱)، وذكره بنحوه.

(۱) القباطى: ثياب كانت تصنع فى مصر

وفي العتبية: قال مالك : انهدم حائط بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فيه قبره ، فخرج عمر بن عبد العزيز واجتمعت رجالات قریش ، فأمر عمر ابن عبد العزيز فستر بثوب ، فلما رأى ذلك عمر بن عبد العزيز من اجتماعهم أمر مَزَاحِمَا أن يدخل ليخرج ما كان فيه ، فدخل فقام ما كان فيه من لبنٍ أوطین ، وأصلح في القبر شيئاً كان أصابه حين انهدم الحائط ، ثم خرج وستر القبر ثم بنى ، انتهى .

وروى البخارى في الصحيح من حديث هشام بن عروة عن أبيه ، قال : لما سقط عنهم الحائط زمان الوليد بن عبد الملك أخذوا في بنائه ، فبدت لهم قدم ، ففرعوا وظنوا أنها قدم النبي صلى الله عليه وسلم ، فما وجدوا أحداً يعلم ذلك ، حتى قال لهم عروة : لا والله ما هي قدم النبي صلى الله عليه وسلم ، ما هي إلا قدم عمر . ويستفاد مما تقدم أن السبب في هذا البناء سقوط الجدار المذكور بنفسه ، ولعله بسبب المطر المشار إليه في الرواية المتقدمة .

ويخالفه ما رواه أبو بكر الأجرى من طريق شعيب بن إسحاق عن هشام ابن عروة قال : أخبرني أبي قال : كان الناس يصلون إلى القبر ، فأمر به عمر ابن عبد العزيز فرفع حتى لا يصل إليه أحد ، فلما هدم بدت قدم بساق وركبة ، ففرع عمر بن عبد العزيز ، فأتاه عروة فقال : هذا ساق عمر وركبته! فسرى^(١) عن عمر بن عبد العزيز .

ومن طريق مالك بن مغول عن رجاء بن حيوة قال : كتب الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان قد اشترى حُجَر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، أن اهديمها ووسع بها المسجد ، ففعل عمر في ناحية ، ثم أمر بهدمها ، فما رأيت باكياً أكثر من يومه ، ثم بناها كما أراد ، فلما أن بنى البيت على القبر وهدم البيت الأول ظهرت القبور الثلاثة ، وكان الرمل الذي عليها قد انهار ،

(١) سرى عن عمر : ذهب عنه ما كان أصابه من الفتن

ففرغ عمر بن عبد العزيز ، وأراد أن يقوم فيسويها بنفسه ، فقلت له : أصلحك الله ! إنك إن قمت قام الناس معك ، فلو أمرت رجلاً أن يصلحها ، ورجوت أن يأمرني بذلك ، فقال : يامزاحم - يعنى مولاه - قم فأصلحها .

ونقل الأفشهرى عن الرشيد أبى المظفر الكازرونى شارح المصابيح أنه قال : سألت جمعا من العلماء عن سبب ستر القبور عن أعين الناس : أى بالبخاذ جدار لا باب له ، فذكر بعضهم أنه لما مات الحسن بن على أوصى أن تحمل جنازته ويحضر بها قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يرفع ويقبر فى البقيع ، فلما أراد الحسين أن يجيز وصيته ظن طائفة أنه يدفن فى الحضرة ، فمنعوه وقائلوه ، فلما كان عبد الملك أو غيره سَدُّوا وسترُوا .

وقال أبو غسان فيما حكاه الأفشهرى : أخبرنى الثقة عن عبد الرحمن بن مهدى عن منصور بن ربيعة عن عثمان بن عروة قال : قال عروة : نازلت^(١) عمر بن عبد العزيز فى قبر النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يجعل فى المسجد أشد المنازلة ، فأبى ، وقال : كتاب أمير المؤمنين لا بد من إنفاذه ، قال : فقلت : فإن كان لا بد فاجعل له حوجوا (أى وهو الموضع المزور خلف الحجرة) .

وروى ابن زبالة عن محمد بن هلال وعن غيره واحد من أهل العلم أن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فيه قبره صلى الله عليه وسلم ، وهو بيت عائشة الذى كانت تسكن ، وأنه مُرَبَّع مبنى بحجارة سود وقصة الذى يلى القبلة منه أطوله ، والشرقى والغربى سواء ، والشامى أنقصها ، وباب البيت مما يلى الشام ، وهو مسدود بحجارة سود وقصة ، ثم بنى عمر بن عبد العزيز على ذلك البيت هذا البناء الظاهر ، وعمر بن عبد العزيز زوّاه لأن يتخذة الناس قبلة نخص فيه الصلاة من بين مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قاتل الله اليهود اتَّخَذُوا قبور أنبيائهم مساجد » وقال « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد - الحديث » قالوا : والبناء الذى حول البيت بيت رسول الله صلى قبرى وثناً يعبد - الحديث » قالوا : والبناء الذى حول البيت بيت رسول الله صلى

(١) نازلت عمر أشد المنازلة : غالبته فى الزول ، كل منابر يده راغباً فى ذلك أشد الرغبة

الله عليه وسلم بينه وبين البناء الظاهر اليوم مما يلي المشرق ذراعان، ومما يلي المغرب ذراع، ومما يلي القبلة شبر، ومما يلي الشام فضاء كله، وفي الفضاء الذي يلي الشام مكن مكنور^(١) ومكيل خشب، قال عبد العزيز بن محمد: يقال إن البنائين نسوه هناك، انتهى. وروى يحيى عن أبي غسان محمد بن يحيى قال: سمعت من يقول في الحظار الذي على قبر النبي صلى الله عليه وسلم مكن مكن وخشبة وحديدة مسندة، قال محمد بن يحيى: وقال عبد الرحمن بن أبي الزناد: هو مكن تركه العمال هناك، وقال محمد بن يحيى - يعني أبا غسان - فأما أنا فإني أطلعت في الحظار فلم أرى شيئاً، فزعم لي زاعم أنه قد رأى ثم المكن شيئاً موضوعاً مع المكن، وأما أنا فلم أره، ولم أعلم أحداً يدرى من أخذه، ولم أر للبيت الذي في الحظار باباً ولا موضع باب، وقد أخبرني ابن أبي فديك أنه رأى باب بيت النبي صلى الله عليه وسلم مما يلي الشام، انتهى. وقد حكى الأقشهري عن أبي غسان أيضاً نحو ذلك.

قلت: ولم نر للبيت عند انكشافه في العمارة التي أدركناها باباً ولا موضع باب، ولم يوجد في الفضاء الذي يلي الشام من الحظار المذكور مكن^(١) ولا غيره مما ذكر، وسيأتي في الفصل الثالث والعشرين أن ابن عاث ذكر أنهم وجدوا عند عمارة حائط سقط بالحجرة قعماً انكسر عند سقوط الحائط، وأنه حمل إلى بغداد، فإن صح فلعلة المراد، وفيما قدمناه إشعار بأن موضع القبور الشريفة كان مسقفاً تحت سقف المسجد كما سيأتي التصريح به، ولهذا لما انكشف سقف المسجد رأوا ما بين الحظار الظاهر والحجرة: ولم يروا جوف الحجرة، ويدل له ما سيأتي عن أبي الجوزاء قال: قُحِطَ أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة، فقالت: فانظروا قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، ففعلوا، فمُطِرُوا، الخبر الآتي، لكن سيأتي في الفصل الرابع والعشرين عن ابن رشد أنه قال في بيانه: إن الثقة أخبره أنه لا سقف له في زمنه تحت سقف المسجد، وكنت أظن أن ذلك بعد حريق المسجد، فإن

(١) المكن - بوزن المنبر - الإحانة التي تفصل فيها الثياب، ويجمع على مراكن

كلام المؤرخين الآتى متطابق على أنه لا سقف للحجرة بعد الحريق إلا سقف المسجد ، ثم تبين أن زمن ابن رشد كان قبل الحريق بمدة مديدة^(۱) ؛ لأن وفاته سنة عشرين وخمسمائة ، ثم أطلعنا في العمارة التى أدركناها على وجود سقف جعل بعد الحريق وعلى آثار السقف الذى كان قبله كما سيأتى بيانه ، والله أعلم .

الفصل الحادى والعشرون

فما روى من الاختلاف فى صفة القبور الشريفة ، بالحجرة المنيفة وما جاء من أنه بقى بها موضع قبر ، وأن عيسى بن مريم عليه السلام يدفن بها ، وما جاء فى تنزل الملائكة حافين بالقبر الشريف ، وتعظيمه ، والاستسقاء به .

اعلم أن ابن عساکر ذكر فى تحفته الاختلاف فى صفة القبور الشريفة ، فذكر فى ذلك سبع روايات ، وسبقه إلى ذلك شيخه ابن النجار ، لكنه ذكر مستأقظ .

رواية نافع فى وضع القبور الأولى : ما رواه عن نافع بن أبى نعيم أن صفة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقبر أبى بكر وقبر عمر ، قبر النبى صلى الله عليه وسلم أمامها إلى القبلة مقدماً ، ثم قبر أبى بكر حذاء منكبى^(۲) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقبر عمر حذاء منكبى أبى بكر ، وهذه صفته :

النبى صلى الله عليه وسلم

أبو بكر رضى الله عنه

عمر رضى الله عنه

(۱) مدة مديدة : أى طويلة ممتدة

(۲) المنكب - بوزن المسجد - الموضع الذى يجتمع فيه رأس الكتف والعضد

قلت : وهذه الرواية هي التي عليها الأكثر ، وتقل الزين المراغي أن رزينا ويحيى جزأها ، وهو كذلك في كلام رزين ، ورواها عن عبد الله بن محمد بن عتيل فقال عقب خبره المتقدم في قصة سقوط جدار الحجرة : ورأيت القبور ، فإذا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمام ، وقبر أبي بكر خلفه ، وقبر عمر خلف قبر أبي بكر ، ورأس أبي بكر عند منكبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر عند منكبي أبي بكر ، وأما يحيى فلم أر في كلامه الجزم بذلك ، بل رأيت حكي اختلاف الروايات كغيره ، ولفظه في حكاية هذه الرواية : حدثنا هرون بن موسى قال : سمعت أبي يذكر عن نافع بن أبي نعيم وغيره من المشايخ ممن له سنّة وثقة أن صفة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر ما تقدم ، ورأيت في نسخة من كتاب يحيى تصوير القبور الشريفة على هذه الصفة ، وقال : إنها صفة القبور الشريفة فما وصف بعض أهل الحديث عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها ، ثم ذكر ما سيأتي في الصفة السادسة .

وروى ابن سعد في طبقاته في ذكر أبي بكر رضي الله عنه من طريق الواقدي عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي سبرة عن عمر بن عبد الله بن عروة أنه سمع عروة والقاسم بن محمد نقولان : أوصى أبو بكر عائشة أن يدفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما توفي حفر له ، وجعل رأسه عند كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألصق اللحد بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبر هناك . ثم روى من طريق الواقدي أيضاً عن ربيعة بن عثمان عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : رأس أبي بكر عند كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر عند حَقْوَي أبي بكر .

قلت : وفي هذه مخالفة يسيرة لما تقدم بالنسبة إلى عمر رضي الله عنه .

رواية
القاسم بن
محمد

الثانية : روى أبو داود والحاكم من طريق القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها : يا أمة اكشفي لي عن قبر النبي

صلی اللہ علیہ وسلم وصاحبیہ، فکشفت لی عن ثلاثة قبور لا مُشرِفة ولا لاطیة، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء . زاد الحاكم : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدماً ، وأبا بكر رأسه بين كتفي النبي صلى الله عليه وسلم ، وعمر رأسه عند رجلي النبي صلى الله عليه وسلم . قال ابن عساكر : وهذه صفته .

النبي صلى الله عليه وسلم
عمر رضي الله عنه
أبو بكر رضي الله عنه

قلت : وقد صحح الحاكم إسناد هذه الرواية ، والله أعلم .

الثالثة : ما رواه الزبير بن بكار عن ابن زبالة قال : حدثني إسحاق بن عيسى عن عثمان بن نسطاس قال : رأيت قبر النبي صلى الله عليه وسلم لما هدم عمر بن عبد العزيز عنه البيت مرتفعاً نحواً من أربع أصابع عليه حصباء إلى الحمرة ماهي ، ورأيت قبر أبي بكر وراء قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأيت قبر عمر أسفل منه ، وصوره لنا كما صور له عثمان .

رواية عثمان
ابن نسطاس

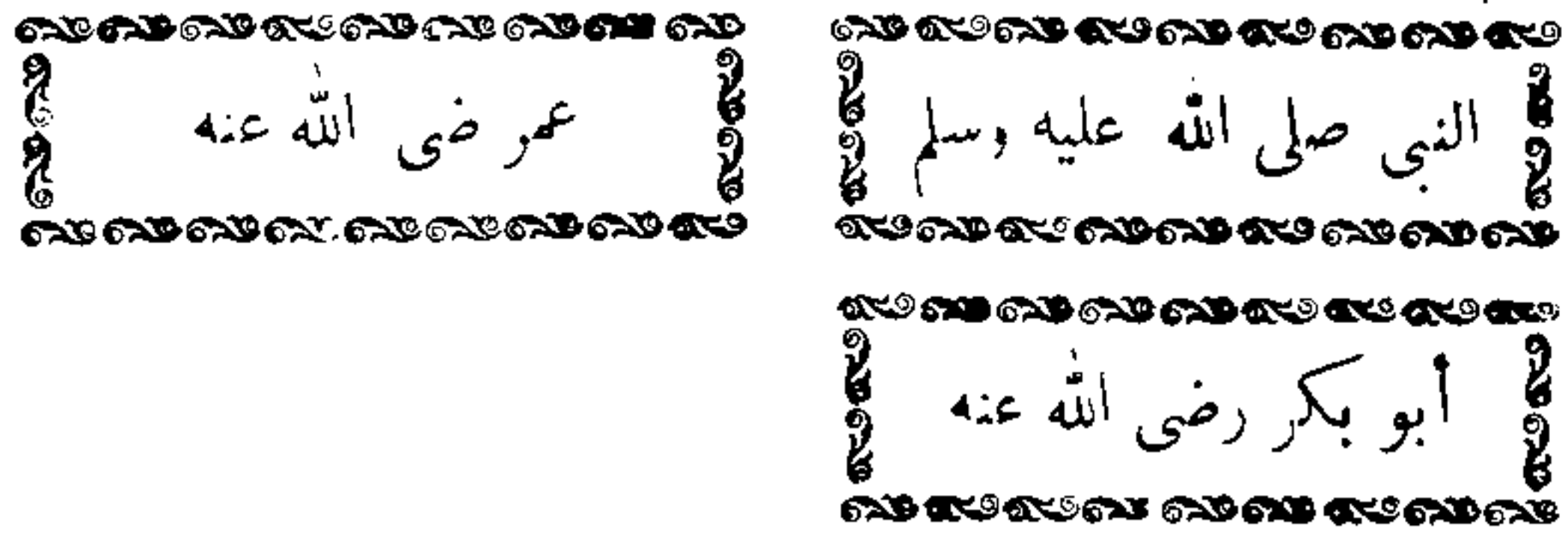
قلت : ولم يكن في النسخة التي وقفتُ عليها من ابن زبالة تصويرٌ ، وصوّر ذلك ابن عساكر هكذا :

النبي صلى الله عليه وسلم
أبو بكر رضي الله عنه
عمر رضي الله عنه

قلت : وابن زبالة ضعيف ، وإسحاق بن عيسى هو ابن بنت داود بن أبي هند، صدوق يخطيء، وعثمان بن نسطاس هو عثيم مصغر بن نسطاس بكسر النون المدني أخو عبيد مولى آل كثير بن الصلت، مقبول حيث يتابع، وإلا فلين الحديث. وقد ذكر الحافظ

ابن حجر أن أبا بكر الآجری روى هذا الخبر فى كتاب صفة قبر النبی صلی الله علیه وسلم من طریق إسحاق بن عیسی المذکور عن ابن نسطاس ، وليس فيه ذكر تصویر ، ولم يذكر الحافظ ابن حجر الواسطة بین الآجری وإسحاق بن عیسی ، وهذه الرواية مع ما فيها من الضعف قابلة للتأویل بردها إلى الرواية التى قبلها ، وإن كان الت تصویر بأباه ؛ لجواز حمله على التقريب ، والله أعلم

الرابعة : روى ابن زبالة عن المنکدر بن محمد عن أبيه قال : قبر النبی صلی الله علیه وسلم هكذا ، وقبر أبی بكر خلفه ، وقبر عمر خلفه عند رجلى النبی صلی الله علیه وسلم ، وصورة ابن عساكر هكذا :



قلت : ويمكن رد هذه الرواية مع ضعفها إلى الثانية ؛ لأن قوله « وأبو بكر خلفه » صادق بأن يكون رأسه عند منكبي النبی صلی الله عليه وسلم

الخامسة : روى يحيى بإسناد فيه إسماعيل بن عبد الله بن أبي أويس عن أبيه - وإسماعيل صدوق ، لكن أخطأ فى أحاديث من قبل حفظه ، وأبوه صدوق يهيم ، وبقية رجاله ثقات - عن عمرة عن عائشة رضى الله عنها وصفت لنا قبر النبی صلی الله عليه وسلم وقبر أبی بكر وقبر عمر ، وهذه القبور فى سهوة فى بيت عائشة ، رأس النبی صلی الله عليه وسلم مما يلي المغرب ، وقبر أبی بكر رأسه عند رجلى النبی صلی الله عليه وسلم ، وقبر عمر خلف النبی صلی الله عليه وسلم ، وبقي موضع قبر ، وهذه صفة قبورهم على ما وصف ابن أبي أويس عن يحيى بن سعيد وعبد الله بن أبي بكر عن عمرة عن عائشة ، ولم يصور يحيى لذلك شيئا وروى ابن زبالة نحو ذلك وقد ذكره من طريق ابن عساكر ، ثم قال : وهذه صفته

رواية عمرة
عن عائشة

أبو بكر رضي الله عنه

النبي صلى الله عليه وسلم

عمر رضي الله عنه

قلت : ويردها ما روى من أن رجلى عمر رضي الله عنه ضاق عنها الحائط
فحفر لهما في الأساس

وفي الصحيح كما سبق قول عروة « ما هي إلا قدم عمر »

السادسة : روى ابن زبالة عن القاسم بن محمد قال : دخلت على عائشة
فقلت : يا أمة أريني قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، فكشفت لي
عن قبورهم ، فإذا هي لا مرتفعة ولا لاطية ، مبطوحة ببطحاء حمراء من بطحاء
العرصة ، فإذا قبر النبي صلى الله عليه وسلم أمامهما ، ورجلا أبي بكر عند رأس
النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر عند رجله
قال ابن عساكر : وهذه صفتها :

رواية أخرى
عن القاسم
بن محمد

النبي صلى الله عليه وسلم

عمر رضي الله عنه

أبو بكر رضي الله عنه

قلت : وهذه الرواية مع ضعفها معارضة بما تقدم في الرواية الثانية عن القاسم
ابن محمد المذكور ، وتلك أصح ، وما سيأتى في صفة الحجرة الشريفة يأبى ذلك
أيضا ، وقد رأيتها في نسخة من كتاب يحيى رواه ابنه طاهر عنه على هذه الصورة :

النبي صلى الله عليه وسلم

عمر رضي الله عنه

أبو بكر رضي الله عنه

وقال : إنها عن القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها ، ثم قال ابن فراس
أحذروا النسخة المذكورة عن طاهر بن يحيى : سألت طاهر بن يحيى أن يصور
لى بخطه صفة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبر أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ،
فصور لى بيده هذه الصورة ، انتهى

السابعة : ما روى يحيى من طريق ابن زباله فى الخبر المتقدم فى الفصل قبله رواية عبد الله
ابن محمد
ابن عقيل
فى قصة سقوط جدار الحجرة الشريفة فى تلك الليلة المظيرة عن عبد الله بن محمد
ابن عقيل ، قال عقب قوله فيما تقدم « فدخلت فسلمت على النبي صلى الله عليه وسلم
ومكثت فيه ملياً ، ورأيت القبور فإذا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبر أبى بكر
عند رجله ، وقبر عمر عند رجلى أبى بكر ، وعليهما حصى من حصبا العرصة »
قال ابن عساكر : وهذه صفته :

النبي صلى الله عليه وسلم

أبو بكر رضى الله عنه

عمر رضى الله عنه

قلت : وهذه الرواية نقلها رزين عن عبد الله بن عقيل ، وساقها باللفظ السابق ،
إلا أنه قال : ورأيت القبور ، فإذا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمام ،
وذكر ما قدمنا عنه فى الرواية الأولى ، وهو مخالف لما فى هذه الرواية ، وهو أولى
بالاعتماد ؛ لأن هذه الرواية ضعيفة مع بُعدها مما سيأتى فى وصف الحجرة الشريفة ،
سيا على ما سبق من قسم عائشة رضى الله عنها الحجرة بانهين ، ولها شاهد لكنه
ضعيف أيضاً ، وهو ما فى طبقات ابن سعد عن مالك بن إسماعيل - أظنه مولى
لآل الزبير - قال : دخلت مع مضعّب بن الزبير البيت الذى فيه يعنى قبر رسول

اللہ صلی اللہ علیہ وسلم وأبی بکر وعمر رضی اللہ عنہما ، فرأیت قبورہم
مستطیلة . انتهى

وفی رواية للآجری ما یوہم صفة ثامنة ؛ فإنه ذکر عقب الخبر المتقدم عن رجاء
ابن حیوة فی إدخال الحجرۃ فی المسجد ما لفظہ : قال رجاء : فكان قبر أبی بکر
وسطہ ، ولم یدکر فیہ عمر رضی اللہ عنہ ، فإن الضمیر فی قوله « وسطہ » إن کان
للبيت فواضح ، وإن کان للنبي صلی اللہ علیہ وسلم فہذہ صفة أخرى ، لكن ینبغی
تأویلہا أيضا علی التجوز فی لفظ الوسط لیوافق رواية غیرہ

وأما ما أخرجه أبو یعلیٰ عن عائشة : أبو بکر عن یمینہ ، وعمر عن یسارہ ؛
فستدہ ضعیف أيضا ، ويمكن تأویلہ كما قالہ الحافظ ابن حجر

وحینئذ فلم یبق إلا الروایتان الأولیان فہما اللتان یتردد بینہما فی الترجیح ،
والأولی ہی المشہورة ، ومقتضى تصحیح الحاکم لإسناد الثانية ترجیحہا ، وهی
أصح الروایات ، وقد اشتملت علی أن القبور لم تكن مُسنَّمة^(۱) وقد قال یحییٰ :
حدثنی ہرون بن موسیٰ - قلت : ولا بأس بہ - قال : حدثنی غیر واحد من
مشایخ أهل المدينة أن صفات القبور الشریفة مسطوحة علیہا بطحاء من بطحاء
العرصة حمراء

وروی ابن زبالة من طریق عمرة عن عائشة قالت : رجع قبر رسول اللہ
صلی اللہ علیہ وسلم ، وجعل رأسہ مما یلی المغرب

وأما ما فی صحیح البخاری عن سفیان التمار أنه رأى قبر النبی صلی اللہ علیہ
وسلم مُسنَّما^(۱) ، زاد أبو نعیم فی المستخرج : وقبر أبی بکر وعمر رضی اللہ عنہما كذلك ،
ورواه ابن سعد عنہ بلفظ : رأیت قبر النبی صلی اللہ علیہ وسلم وأبی بکر وعمر
مُسنَّمة^(۱) ، فلا یعارض ما قدمناہ ؛ لأن سفیان وُلد فی زمان معاویة فلم یر القبر
الشریف إلا فی آخر الأمر ، فیحتمل - كما قال البیهقی - أن القبر لم یکن فی الأول

(۱) سنم البناء : جعلہ علی ہیئة سنام البعیر ، والتسنیم یقابل التسطیح

مسنما ، ثم سئم لما سقط عن الجدار ؛ فقد روى يحيى عن عبد الله بن الحسين قال : رأيت قبر النبي صلى الله عليه وسلم مسنما في زمن الوليد بن هشام . وفي رواية أخرى عنه أن القبر جثوة^(۱) مرتفعة مُسنمة غير شديدة الارتفاع ، عليها قزع من حصي وتربة طيبها الله عز وجل . وروى ابن سعد من طريق جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان نبيث^(۲) قبر النبي صلى الله عليه وسلم شبرا .

ويؤيد التسطیح مارواه مسلم من حديث فضالة بن عبيد أنه أمر بقبر فسوى ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها .

وقد تقدم في الرواية الرابعة أنه بقي بعد القبور الشريفة موضع قبر ، ويؤيده ما روى أن عائشة رضی الله عنها أرسلت إلى عبد الرحمن بن عوف حين نزل به الموت : أن هلمَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أخويك ، فقال : ما كنت مضيقا عليك بيتك ، الخبر الآتي في ذكر قبره ، وكذلك ما سيأتي في إذنها للأحسن أن يدفن عندها ، ومنع بني أمية له . وكذلك ما في صحيح البخاري عن هشام بن عروة أن عائشة أوصت عبد الله بن الزبير : لا تدفني معهم : أي النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، وادفني مع صواحي بالبقيع لا أزكي به أبدا . وقد أخرجه الإسماعيلي وزاد فيه : وكان في بيتها موضع قبر ، ولسكن في الصحيح أن عمر بن الخطاب رضی الله عنه لما أرسل إلى عائشة فسألها أن يدفن مع صاحبيه قالت : كنت أريده لنفسى فلا وثرته اليوم على نفسى .

قال الحافظ ابن حجر : فسكان اجتهداها في ذلك تغيّر ، أو لما قنت ذلك لعمر كان قبل أن يقع لها قصة الجمل ، فاستحيت بعد ذلك وإن كانت زوجته صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة كما قاله عمار أحد من حاربها ، انتهى .

وقال ابن التين : كلامها في قصة عمر يدل على أنه لم يبق ما يسمع إلا موضع قبر واحد ، فهو يغاير قولها « لا تدفني عندهم » فإنه يشعر بموضع للدفن ، والجمع

(۱) الجثوة - بتثنية الجيم - الحجارة المجموع بعضها إلى بعض

(۲) البيثة : أراد أن ماحوله من التراب كان بهذا القدر

بينهما أنها كانت تظن أولاً أنه لا يسع إلا قبراً واحداً ، فلما دفن [عمر] ظهر لها أن هناك وسعاً لقبر آخر ، أو أن الذي آثرته به المكان الذي دفن فيه من وراء قبر أبيها بقرب النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لا ينفي وجود مكان آخر في الحجرة .

وروى يحيى بسنده إلى عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله ابن سلام عن أبيه عن جده قال : يدفن عيسى بن مريم مع النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ويكون قبره الرابع .

وفي سنن الترمذى من طريق أبي مودود عن عثمان بن الضحاك عن محمد ابن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده قال : مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى بن مريم يدفن معه ، قال : فقال أبو مودود : وقد بقى في البيت موضع قبر ، قال الترمذى : هذا حديث غريب ، وفي بعض النسخ : حسن غريب ، هكذا قال عثمان بن الضحاك ، والمعروف الضحاك بن عثمان المدنى ، انتهى كلام الترمذى .

وفي رواية للطبرانى عن عبد الله بن سلام قال : يدفن عيسى بن مريم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ؛ فيكون قبراً رابعاً ، وهو من رواية عثمان بن الضحاك ، وقد وثقه ابن حبان وضعفه أبو داود .

وذكر الزين المرائى أن ابن الجوزى روى في المنتظم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ينزل عيسى بن مريم إلى الأرض ، فيتزوج ويولد له ، فيمكث خمسا وأربعين سنة ، ثم يموت فيدفن معى في قبرى ، فأقوم أنا وعيسى بن مريم من قبر واحد بين أبى بكر وعمر .

وقال ابن النجار : قال أهل السير : وفي البيت موضع قبر في السهوة الشرقية ، قال سعيد بن المسيب : فيه يدفن عيسى بن مريم .

والسهوة : بيت صغير منحدر في الأرض قليلاً شبيه بالخندق والخزانة ، وقيل :

هو كالصفة يكون بين يدي البيت ، وقيل : هو شبيه بالرف والطاق يوضع فيه الشيء ، ولعل المراد بذلك الموضع الذي ضربت عليه عائشة جدارا وسكنت به كما سبق .

وسند كرفيا استقر عليه بناء الحجرة أنه عقد على نحو ثلثها الشرقي عقد ، فصار ذلك المحل مميزا عن بقية البيت ، وكان قبله في البناء ما يشهد لجدار آخر من الشام إلى القبلة في تلك الجهة ، فلعله الموضع المذكور .

الملائكة
يحفون بالقبر

وروى يحيى وابن النجار عن كعب الأحبار قال : ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر ، يضربون بأجنحتهم ، ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا أمسوا عرجوا ، وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة ، صلى الله عليه وسلم .

وفي صحيح الدارمي نحوه من رواية عائشة رضي الله عنها ، وقال فيه : سبعون ألفا بالليل وسبعون ألفا بالنهار ، ذكره في باب ما أكرم الله به نبيه صلى الله عليه وسلم بعد موته ، رواه البيهقي في شعبه .

لا ينبغي رفع
الصوت في
المسجد

وقد تقدم قول عمر رضي الله عنه « إن مسجدا هذا لا ترتفع فيه الأصوات » وقال أبو بكر رضي الله عنه : لا ينبغي رفع الصوت على نبي حيا ولا ميتا .

وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن غير واحد منهم عبد العزيز بن أبي حازم ونوفل بن عمار قالوا : إن كانت عائشة تسمع صوت الوتد يوتد والمسمار يضرب في بعض الدور المطيفة بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، فترسل إليهم لا يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وما عمل على مصراعي داره إلا بالمناصع ، توقيا لذلك .

وفي الوفاء لابن الجوزي من طريق أبي محمد الدارمي بسنده عن أبي الجوزاء

قال : قُحِطَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ قَحْطًا شَدِيدًا ، فَشَكُوا إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ :
فَانْظُرُوا قَبْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَاجْعَلُوا مِنْهُ كُوءَةً إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى لَا يَكُونَ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ سَقْفٌ ، فَفَعَلُوا ، فَطَرَوْا حَتَّى كَبَدَتِ الْعُشْبُ وَسَمِنَتِ الْإِبِلُ حَتَّى
تَفْتَقَتْ مِنَ الشَّحْمِ ، فَسَمِيَ عَامُ الْفَتْقِ .

سنة أهل المدينة
في أعوام
الجدب

قال الزين المراغى : واعلم أن فتح الكُوءة عند الجذب سنة أهل المدينة
حتى الآن ، يفتحون كوة في سفلى قبة الحجرة : أى القبة الزرقاء المقدسة من جهة
القبلة ، وإن كان السقف حائلًا بين القبر الشريف وبين السماء .

قلت : وسنتهم اليوم فتح الباب المواجه للوجه الشريف من المقصورة
المحيطة بالحجرة ، والاجتماع هناك ، والله أعلم .

الفصل الثانى والعشرون

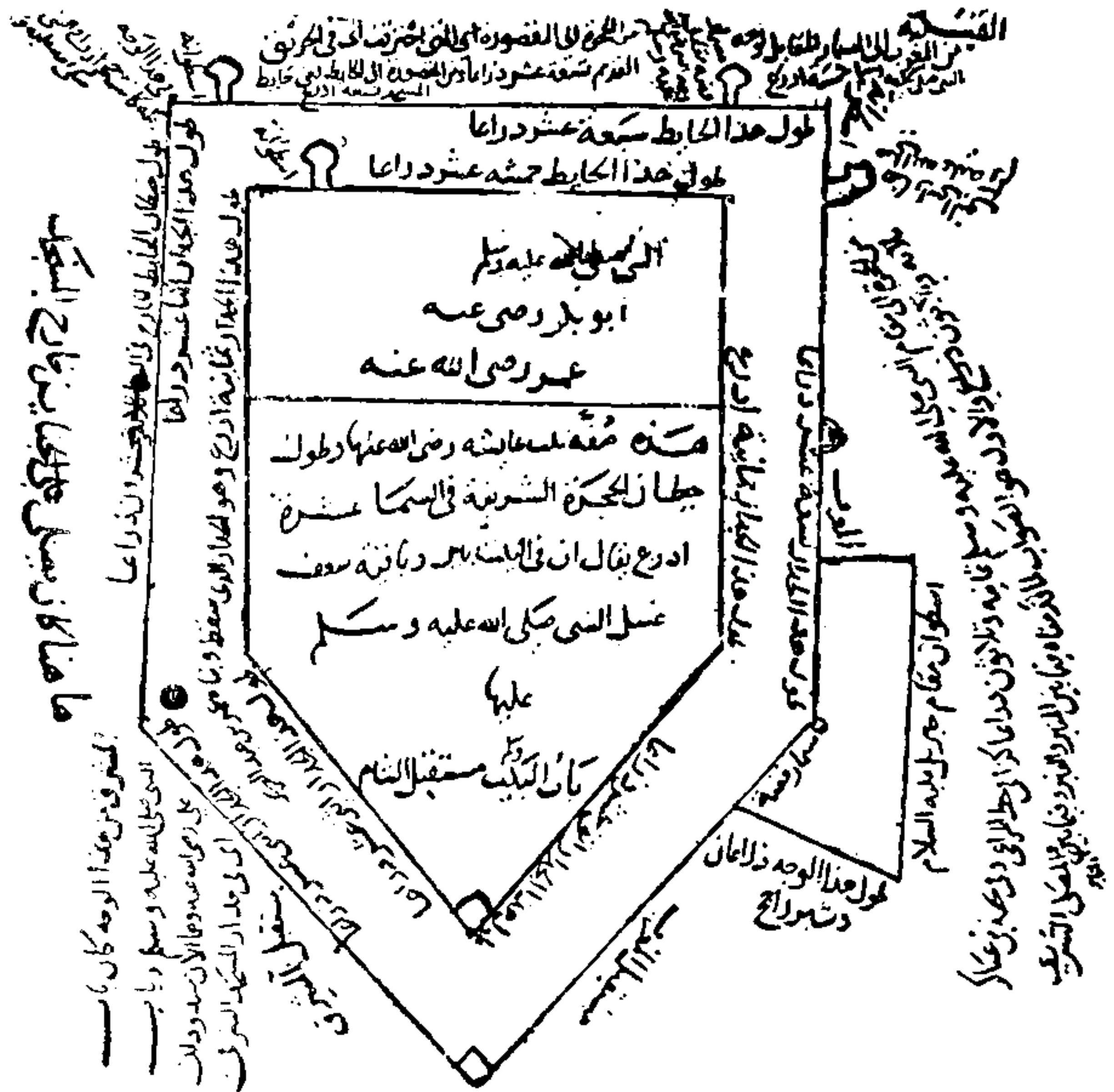
فما ذكروه من صفة الحجرة الشريفة ، والحائز الخمس الدائر عليها ، وبيان
ما شاهدناه مما يخالف ذلك .

قال الأقسهرى ، فيما رواه من طريق ابن شبة : قال أبو غسان - يعنى محمد
ابن يحيى - : وأما الحِظار الظاهر والبيت الذى فيه فإنى اطلعتُ فيه من بين سقفى
المسجد حتى عاينت ذلك الحِظار الذى على البيت وما فيه ، وصورته وما فيه ،
وذرعته على ما فيه من الذرع ، وذلك حين انكسر خشب سقف المسجد فكشف
السقف من تلك الناحية لعمارتها ، وأبو البحتري بن وهب بن رشد يومئذ على
المدينة ، وذلك فى جمادى الأولى من سنة ثلاث وتسعين ومائة .

وقال أبو زيد - يعنى ابن شبة - فهذه صورته ، ثم صورها الأقسهرى فى كتابه
المسمى « بمنسك القاصد الزائر » بهذه الصورة :

ومائة ، فوجد فيه سبعين خشبة مكسورة ، فأدخل مكانها خشبا صحاحا ، اه
وكأنه لم يشاهد ذلك كما شاهده أبو غسان ، وعبارة يحيى في ذكر هذه العمارة :
وقد كان خشب من خشب المسجد فوق القبر مما يليه انكسر في ولاية أبي
البحترى ، فأمر بكشف السقف ، وذكر ما تقدم عن ابن زبالة ، على أن ابن زبالة
ويحيى أشارا في كتابيهما إلى تصوير الحجرة والحائز الدائر عليها ، لكن الصورة
ساقطة من النسخة التي وقعت لنا

وقد صور ذلك ابن النجار في كتابه ، وأظنه أخذه من نسخة وقعت له من
ابن زبالة مشتملة على تلك الصورة ، وتبعه عليها ابن عساكر في « تحفة الزائر »
والمراغى في تاريخه ، وهى بعيدة مما وجدنا عليه صورة الحجرة الشريفة ؛ فلنبدا
بتصويره ، ثم تصوير الصورة التي شاهدناها ، ثم الصورة التي استقرّ بناء الحجرة
الشريفة عليها ، وقد تبعت في حكاية تصوير ابن النجار ما صنعه المراغى ؛ فإني
نقلته من خطه ، فقال : وجعل عمر بنيان الحجرة الشريفة على خمس زوايا لئلا يستقيم
لأحد استعبالها بالصلاة ؛ لتحذيره صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وهذه صورتها
وصورة الحائز حولها كما ضبطه ابن النجار ، والله أعلم .



هاهنا بيت فاطمة الزهراء رضي الله عنها

وهذا التصوير ينافي ما تقدم من رواية ابن زبالة وغيره أن البيت مربع مبنى بحجارة سود وقصة

ثم بنى عليه عمر بن عبد العزيز هذا البناء الظاهر الخمس ؛ لأنه صورة في البيت خمسا أيضا كما ترى ، وهو خلاف الذي شاهدناه عند انكشافه في البصرة التي أدركناها ، فرأيناه مربعا مبنيا بالأحجار السود المنحوتة لونها يقرن من لون أحجار الكعبة الشريفة ، ولها من الهيبة والأنس مالا يدرك إلا بالادوية ، ولم نجد بين الجدار الخارج والداخل من جهة المغرب فضاء أصلا ، ولا مغرز لمربعه ، ولم نجد للبيت الداخل بابا أصلا ، ولا موضع باب ، لا في الجهة الشامية ولا في غيرها ، ووجدنا الفضاء الذي خلف البيت الشريف من جهة الشام ، بينه وبين البناء الظاهر ، شكله مثلث ، ومساحته نحو ثمانية أذرع بذراع اليد المتقدم تحريره ،

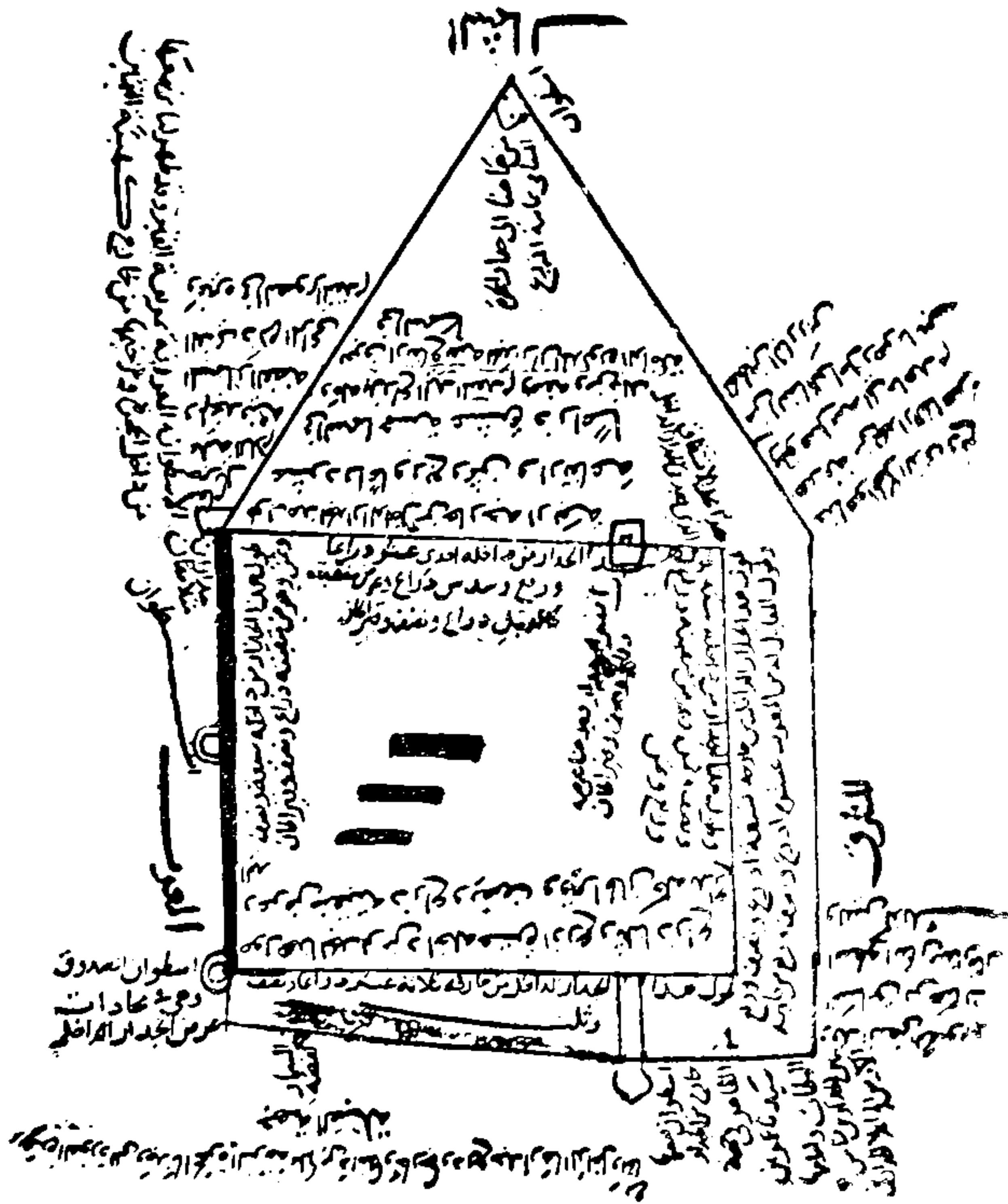
وذلك من جدار البيت الشامي إلى زاوية البناء الظاهر المقابلة له ، وهي الزاوية الشمالية التي ينحرف عنها صفحتا الشكل المثلث المذكور ، وهناك أسطوانة ملاصقة لجدار البيت الشامي في صف أسطوانة مربعة القبر وأسطوانة الوفود ، وبعض الأسطوانة المذكورة داخل في الجدار المذكور ، وقد طوق على أعاليها بأطواق من الحديد ، وأدعمت بجذع من جذوع النخل رأسه في أعاليها ورأسه الآخر في زاوية البناء الظاهر الشمالية المتقدم ذكرها ، والظاهر أن ذلك جعل بعد الحريق لتشقق الأسطوانة المذكورة وتأثير النار فيها ، وهي الأسطوانة التي تقدم ذكرها في التصوير الأول المأخوذ من كلام ابن شبة عند نهاية جدار البيت الشامي مما يلي المشرق ، لسكنا لم نجد لها كذلك ، بل قريبة من وسط الجدار الشامي ، غير أن متولى العمارة ومن كان معه أخبروني أنهم وجدوا عند نقض جدار البيت الشامي من داخله رأس جدار في محاذاة الأسطوانة المذكورة يشهد الحال أنه كان آخذا من الشام إلى ما يحاذيه من القبلي ، فكأنه كان نهاية الحجرة الشريفة من جهة المشرق ، وكأنه لما تهدم زيد فيها ذلك القدر ، قالوا : ولا يخفى على الناظر أن بقية الجدار الشامي مما يلي المشرق لم يُبْنَ مع الجانب الآخر منه ، بل هي مُلصقة إلى رأس الجدار المذكور بحيث لم يدخل أحجار أحدهما في الآخر ، ولا هي مرتبطة كما هو عادة البناء الواحد ، ورأيت أنا ما يقابل هذا الجانب من الجدار القبلي مما يلي المشرق ؛ فرأيت ما يشهد بإحداث بنائه بحيث إنه مبني بالحجارة غير الوجوه كنسبة الجدار الشرقي ، بخلاف بقية جدارات الحجرة الشريفة فإنها كلها من داخلها وخارجها مبنية بالحجارة الوجوه المنحوتة ، وإنما لم أشاهد ما قدمته مما حكى لي في أمر الجدار الشامي لأني اجتنبت حضور الهدم احتياطا لنفسي ، وظهر بذلك أن البيت الشريف كان من جهة المشرق على ما صورته ابن شبة ، ثم حدث ذلك بعده ، ولم ينبه عليه أحد من المؤرخين ، ويحتمل أن ذلك الجدار هو الذي أحدثته عائشة رضي الله عنها بينها وبين القبور الشريفة ؛ فقد تقدم عن ابن سعد روايته عن مالك بن أنس قال : قسم بيت

عائشة بائنين ، قسم كان فيه القبر ، وقسم كان تكون فيه عائشة و بينهما حائط .
قلت : فهذا الاحتمال هو الذى يترجح عندى ، والله أعلم .

ووجد بين جدار البيت الشرقى وبين الجدار الظاهر الشرقى فضاء مختلف
كالزقاق الرقيق ، فعند ابتدائه من جهة الشام نحو ذراع اليد يمر فيه الرجل
منحرفا ، فإذا قرب من جهة القبلة تضاعف بحيث لا يمر فيه إلا الصغير منحرفا ،
وسعته هناك نحو ثلث الذراع .

وقد نقل ابن شبة أنه كان ثلاثة أذرع ؛ فهذا مؤيد لما قدمناه من حدوث
التغيير فى الجدار الشرقى الداخل ، ورؤيته تقضى بذلك دون بقية الجدران .

ووجدنا بين جدار البيت القبلى والجدار الظاهر القبلى فضاء مختلفا أيضا
كالزقاق الرقيق ؛ فأوله من جهة الشرق نحو ذراع اليد ، فإذا قرب من الوجه
الشريف تضائق بحيث يصير نحو شبر ثم أقل من ذلك إلى ملتقى الحائطين فى
جهة المغرب ، وهذا الفضاء لا يمكن المرور فيه ؛ لأن الأسطوانة التى فى البناء
الظاهر عند مواجهة مواقف الزائر لسيدنا عمر رضى الله عنه بعضُها بارز فى الفضاء
المذكور ، وفى محاذاتها بناء بنحو عرضها قد سُدَّ ما بين الجدارين من الفضاء ،
وكأنه جعل لإدعام الجدار من أجل الانشقاق الآتى ذكره ، أو لمنع المرور هناك ،
جزى الله فاعله خيرا !



وأما طول جدران الحائز الظاهر من كل زاوية إلى الأخرى من خارجه فطول
الجدار القبلي من زاويته التي تلي القبلة من المغرب إلى زاويته التي تلي المشرق
سبعة عشر ذراعا ، بتقديم السين ، ينقص يسيرا ، وذلك موافق لما تقدم في
تصوير ابن النجار . وطول الجدار الغربي من القبلة إلى طرف مقام جبريل ستة
عشر ذراعا ونحو نصف ذراع ، ومنعطف مقام جبريل هناك الشام ، وذراع منعطفه
ذراعا ونصف ذراع ، وجملة ذلك تسعة عشر ذراعا ؛ فهو المراد مما تقدم في تصوير
ابن النجار ، لكنه يوم أن وجه مقام جبريل غير داخل في التسعة عشر ذراعا

التي ذكرها للجدار الغربي ، وليس كذلك . وطول الجدار المنعطف من مقام جبريل إلى الزاوية الشمالية اثنا عشر ذراعا ونصف ذراع راجح . وطول الجدار الشرقي من القبلة إلى الزاوية التي ينحرف منه إلى جهة الشمال اثنا عشر ذراعا ونصف ذراع راجح . وطول الجدار المنعطف من الجدار المذكور عند الزاوية المذكورة إلى الزاوية الشمالية نحو أربعة عشر ذراعا ، وفيما ذكرناه من الذرع في الثلاثة الجدر الأخيرة مخالفة لما تقدم في تصوير ابن النجار ومن تبعه .

وأما طول الحائز الظاهر في السماء فثلاثة عشر ذراعا وثلث ذراع ، ويرجح من بعض الجوانب يسيرا ، وعرض منقبته ذراع وربيع ثمن .

ونقل الأقبهري أن ابن شبة نقل عن أبي غسان أن طول الحِظَار الذي على البيت - يعني الحائز المذكور - من جهة ارتفاعه ثلاثة عشر ذراعا غير سدس . قلت : وقد رأيت بأعلاه سترة من آجرٍ قدر نصف ذراع يشهد الحال أنها محدثة لإحداث السقف الآتي ذكره للحجرة الشريفة بعد حريق المسجد الأول ؛ فلا مخالفة بين ما وجدناه وبين ما ذكره أبو غسان .

وأما ارتفاع الجدار الداخل في السماء فقِسْمُهُ من خارجه من جهة الشام فكان خمسة عشر ذراعا ، وارتفاع تلك الأرض التي في شامى الحجرة بين الجدارين على أرض الحجرة ذراع ونحو ربع ذراع ، ومع ذلك فالحائز الخارج أرجح من الداخل بيسير أو مُساوٍ له ، وسبب ذلك علو الأرض الخارجة عن هذا الحائز على الأرض الداخلة بين الحائزين بأرجح من ذراع ونصف ، مع أن الأرض الداخلة بين الحائزين من جهة الشام التي هي كهيئة المثلث وجدت مجدولة بالحجارة والقصة بحيث لم يَتَأْتْ لهم حفر أساس فيها ، والله الحمد على ذلك .

وأما ما تقدم فيما نقلناه من خط المراغي - وهو موجود في كلام ابن النجار وابن عساكر - من أن طول حيطان الحائز الخارج في السماء ثلاثة وعشرون ذراعا ، فهذا مخالف لما شاهدناه ولما قدمناه عن أبي غسان ، وكأنهم أرادوا بهذا ذرع

ما بين الأرض المحيطة بالحجرة وبين سقف المسجد ، وهذا البناء لم يبلغ به عمر ابن عبد العزيز سقف المسجد اتفاقاً ، بل فوقه شباك من خشب متصل ذلك الشباك بسقف المسجد كما يظهر عند رفع الكسوة ، وكأن ابن النجار توهم أن الحائط المذكور متصل بالسقف ؛ لأنه قال : وبني عمر بن عبد العزيز على حجرة النبي صلى الله عليه وسلم حائزاً من سقف المسجد إلى الأرض ، وصارت الحجرة في وسطه وهو على دورانها .

وينبغي حمل كلامه على أن المراد أنه بناء من سقف المسجد إلى الأرض بما جعل عليه من الشباك ، وكذلك يحمل ما ذكره في ذرعه ؛ لأن الشباك المذكور له ذكر في كلامه ، فإنه ذكر ما سيأتي من أن الجمال الأصفهاني جدد تأزير الحجرة بالرخام ، ثم قال : وعمل لها مشبكاً من خشب الصندل والآبنوس ، وأداره حولها مما يلي السقف : أي على رأس الجدار المذكور .

قلت : ولعله أول من أحدث هذا الشباك ؛ لأنه ذكر له ^(١) في كلام متقدمي المؤرخين ، والله أعلم .

وقال ابن النجار : واعلم أن على حجرة النبي صلى الله عليه وسلم أي على سقفها ثوباً مشمِعاً مثل الخيمة ، وفوقه سقف المسجد ، وفيه - أي فيما تحت المشمع المذكور - خَوْخَةٌ عليها مرق أي طابق مقفول ، وفوق الخوخة في سقف السطح خوخة أخرى فوق تلك الخوخة ، وعليها مرق مقفول أيضاً ، وبين سقف المسجد وبين سقف السطح أي السقف الثاني لسطح المسجد فراغ نحو الذراعين .

قلت : أما المرق الذي ذكره في سقف المسجد الذي يلي الحجرة الشريفة فقد أدركناه موجوداً عليه قفل من حديد ومشمع جده متولى العمارة التي أدركناها إلى أن احترق المسجد في زماننا ، وعملت القبة التي جعلت بدلاً عن القبة الزرقاء .

(١) كذا ، ولعل أصل الكلام « لأن له ذكر في كلام - إلخ »

وأما المرق الذي ذكره في سقف الحجرة تحت المشمع الذي أشار إليه فهذا كان قبل حريق المسجد الأول ، ولم يوجد في السقف الذي عمل بدله بعد الحريق مرق ، نعم وجد عليه ستارة من المحابس اليمنية مبطنة ، وسنذكر وصفه إن شاء الله تعالى عند ذكر العمارة المتجددة في زماننا ، على أن الذي يقتضيه كلام المطري ومَنْ بعده أنه ليس ثمَّ غير طابق واحد في سقف المسجد ، فإنه قال : وعلى سقف الحجرة بين السقفين - أى سقفي المسجد - ألواح ، وقد سُمِّر بعضها على بعض ، وسمِر عليها ثوب مشمع ، وفيها طابق مقفل إذا فتح كان النزول منه إلى ما بين حائط بيت النبي صلى الله عليه وسلم وبين الحائط الذي بناه عمر ابن عبد العزيز .

قلت : وليس ما ذكره في وصف هذا الطابق بصحيح ؛ لأن النزول منه يكون على وسط الحجرة سواء كما شاهدناه ، مع أن المطري ومَنْ تبعه اتفق كلامهم كما سيأتي على أن سقف الحجرة بعد الحريق إنما هو سقف المسجد ، وهو خلاف ما وجدنا الأمر عليه أيضاً ، والله أعلم .

الفصل الثالث والعشرون

في عمارة اتفقت بالحجرة الشريفة على ما نقله الأقشهرى عن ابن عاث ، وما وقع من الدخول إليها عند الحاجة له وتأزيرها بالرخام .

قال الأقشهرى ، ومن خطة نقلت مالفظة : أخبرنا الشيخ الراوية أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى الشاطى قال : حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله القضاعى الحافظ قال : حدثنا صاحبنا الرجال أبو عمر أحمد بن أبى محمد هارون بن عاث النفري قال : حدثت بالمدينة الشريفة ، أو قال بمدينة السلام ، بأنهم سمعوا منذ سنين قريباً من الأربعين هَدْءَ في الروضة الشريفة أى الحجرة فإنه يعبر عنها بذلك ، فسكتب في ذلك إلى الخليفة ، فاستشار الفقهاء ، فأفتوا أن يدخلها رجل فاضل من القومة على المسجد ، فاختاروا لذلك بدرا الضعيف ، وهو شيخ فاضل

يقوم بالليل ويصوم النهار ، وهو من فتيان بني العباس ، فدى حتى دخل الروضة
أى الحجرة ، فوجد الحائط الغربى قد سقط ، وهو حائط دون الحائط الظاهر ،
فصنع له آبن من تراب المسجد ، فبناه وأعاده على هيئته كما كان ، ووجد هناك
قعباً من خشب قد أصابه وقوع الحائط فكسره ، فحمل إلى بغداد مع شيء من
تراب الحائط ، وكان يوم وصول ذلك بغداد يوماً مشهوداً تجتمع لاستقباله الناس ،
وازدهموا على رؤيته ، وعطلت الصناعات والبيع ، وكانت رحلة ابن عاث سنة
ثلاث عشرة وستمئة ، وقد قال « قريباً من أربعين سنة » فيكون ذلك سنة سبعين
وخمسمائة أو ما دون ذلك ، وهكذا ذكره في رحلته ومنها نقلته ، ويكون ذلك
في دولة المستضيء بالله بن المستنجد بالله ، انتهى كلام الأقمهرى .

ولعل هذا الحائط المنهدم في هذه العمارة إنما هو الشرقى من الجدار الداخل ،
وأطلق عليه اسم الغربى بالنظر إلى الجدار الخارج الذى يليه ، فتكون هذه الواقعة
هى التى اتفق فيها بناء الجدار المتقدم وصفه ، ووقع فيها تقديمه عن محله الأول ،
وأبقوا رأسه كما تقدمت الإشارة إليه ، وهو إنما بنى بالحجر ، ولا يتأتى هناك بناء
باللبن إلا فى السترة التى جعلت على رأس الجدار ، فاعلمه أراد باللبن المتخذ من
تراب المسجد هذا ، لسن فى كلام ابن النجار ونقله من بعده وأقره ، ما يقتضى
أنه لم يقع دخول إلى الحجرة الشريفة من سنة أربع وخمسين وخمسمائة إلى زمانه ،
وقد توفى سنة ثلاث وأربعين وستمئة ، فإنه قال فى كتابه « الدرة الثمينة » مالفظة :
واعلم أن فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة سمعوا صوت هدة فى الحجرة ، وكان
الأمير قاسم بن مهنى الحسينى ، فأخبروه بالحال ، فقال : ينبغى أن ينزل شخص
إلى هناك ليبصر ما هذه الهدة ، فافتكروا فى شخص يصلح لذلك ، فلم يجدوا
لذلك إلا عمر النسائى شيخ شيوخ الصوفية بالموصل ، وكان مجاوراً بالمدينة ،
فذكروا ذلك له ، فذكر أن به فتقا والريح والبول يحوجه إلى دخول الغائط مراراً ،
فألزموه ، فقال : أمهلونى حتى أروض نفسى ، وقيل : إنه امتنع من الأكل

والشرب وسأل النبي صلى الله عليه وسلم إمساك المرض عنه بقدر ما يبصر ويخرج، ثم إنهم أنزلوه في الجبال من الخوخة إلى الحظير الذي بناه عمر، ودخل منه إلى الحجرة ومعه شمعة يستضيء بها فرأى شيئاً من طين السقف قد وقع على القبور، فأزاله وكسّ التراب بلحيته، وقيل: إنه كان مليح الشيبة، وأمسك الله تعالى ذلك الداء قدر ما خرج من الموضع وعاد إليه، وهذا ما سمعته من أفواه جماعة، والله أعلم بحقيقة الحال في ذلك.

وعبارة المراغي تبعاً للمطري في النقل عن ابن النجار: فأنزلوه بالجبال من بين السقفين من الطابق المذكور، ونزل بين حائط النبي صلى الله عليه وسلم وبين الحائز ومعه شمعة يستضيء بها، ومشى إلى باب البيت، ودخل من الباب إلى القبور المقدسة، فرأى شيئاً من الردم، إما من السقف أو من الحيطان إلى آخره.

قلت: وهذا لا يطابق ما ذكره ابن النجار وعليه رتب المراغي إشكاله الآتي بيانه.

ثم قال ابن النجار: وفي شهر ربيع الآخر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة في أيام قاسم أيضاً وجدوا من الحجرة رائحة منكورة، وكثر ذلك حتى ذكره للأمير، فأمرهم بالنزول إلى هناك، فنزل بيان الأسود الخصى أحد خدام الحجرة، ومعه الصفي الموصلي متولى عمارة المسجد، ونزل معهما هارون الشاذي الصوفي بعد أن سأل الأمير في ذلك، وبذل له جملة من المال، فلما نزلوا وجدوا هراً قد هبطاً ومات وجيئاً، فأخرجوه، وكان في الحائر بين الحجرة والمسجد.

وقال المراغي وغيره في النقل عن ابن النجار: فوجدوا هراً قد سقط من الشباك الذي في أعلى الحائز، ووقع بين الحائز وبين النبي صلى الله عليه وسلم. وقال ابن النجار: وكان نزولهم يوم السبت الحادي عشر من ربيع الآخر، ومن ذلك التاريخ إلى يومنا هذا لم ينزل أحد إلى هناك، فاعلم ذلك، انتهى.

فهذا يخالف ما نقله الأقسهرى عن ابن عاث ؛ لاقتضائه أن تلك الواقعة فى سنة سبعين وخمسمائة أو ما قاربها ، والظاهر أن القضية واحدة ، ولم نجد من دونها فنقل كل منهما بحسب ما بلغه .

وقال الزين المرائى عقب ذكره للواقعة الأولى التى حكاه ابن النجار المتضمنة للدخول إلى القبور الشريفة ما لفظه : وينبغى تأمل هذا النقل ؛ لأن الوصول إلى القبور الشريفة متعذر ، إن كان الجدار الذى أحدثته عائشة المتقدم ذكره باقياً ، فإن جاء نقل بإزالته وإمكان الاستطراق معه من باب أو نحوه فهو واضح ، وإلا ففيه نظر .

قلت : نظره إنما يتوجه على ما قدمه من أن النزول كان إلى ما بين الحائطين وأنه مشى إلى باب البيت ، وليس فى كلام ابن النجار تعرض لشيء من ذلك ، بل مقتضى ما قدمناه عنه من أن الحجرة الشريفة بها ممرق ، وبسقف المسجد مثله أن النزول إنما هو من العلو إلى سقف الحجرة ، ثم منه إليها ؛ فلا نظر ، على أن الجدار الذى أشار إليه وأن عائشة بنته ولم نجد له أثراً إلا ما تقدمت الإشارة إليه من رأس جدار الحائط الشامى مقتضى لأنه كان هناك جدار من الشام إلى القبلة ، وكذلك الباب لم نجد له أثراً كما قدمناه .

وأما تأزير الحجرة بالرخام فليس له ذكر فى كلام ابن زبالة ، وله ذكر فى كلام يحيى ؛ فإنه روى ما حاصله أن بيت فاطمة الزهراء لما أخرجوا منه فاطمة بنت حسين وزوجها حسن بن حسن وهدموا البيت بعث حسن بن حسن ابنه جعفرأ ، وكان أسنً ولده ، فقال له : اذهب ولا تبرحن حتى يبنوا فتنظر الحجر الذى من صفته كذا وكذا هل يدخلونه فى بنيانهم ، فلم يزل يرصدُهم حتى رفعوا الأساس وأخرجوا الحجر ، فجاء جعفر إلى أبيه فأخبره ، فخر ساجداً وقال : ذلك حجر كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى إليه إذا دخل إلى فاطمة ، أو كانت فاطمة تصلى إليه ، الشك من يحيى .

وقال على بن موسى الرضى : ولدت فاطمة عليها السلام الحسن والحسين على

ذلك الحجر .

قال يحيى : ورأيت الحسين بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين ولم أر فينا رجلاً أفضل منه إذا اشتكى شيئاً من جسده كشف الحصى عن الحجر فيمسح به ذلك الموضع ، ولم يزل ذلك الحجر نراه حتى عَمَرَ الصانعُ المسجدَ ففقدناه عندما أزر القبر بالرخام ، وكان الحجر لاصقاً بجدار القبر قريباً من المربعة .

قال بعضُ رواة كتاب يحيى : الصانع هذا هو إسحاق بن سلمة ، كان المتوكل وجهه به على عمارة المدينة ومكة .

قلت : وكانت خلافة المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وتوفي في شوال سنة سبع وأربعين ، وكان هذا مأخذ بن النجار في قوله إن المتوكل في خلافته أمر إسحاق بن سلمة وكأن على عمارة الحرمين من قبله أن يؤزّر الحجرة بالرخام ففعل .

ثم في خلافة المقتدى سنة ثمان وأربعين وخمسة جده جمال الدين وزير بني زُكَي ، وجعل الرخام حولها قامّة وبَسْطَة .

قلت : ولم يذكر أحد من المؤرخين تجديداً لهذا الرخام بعد ذلك ، وقد جده في زماننا متولى العمارة الآن ذكراً الجناب الشمس الحسنى الخواجه بن الزمن بأمر المقام الشريف السلطاني قايتباي عز نصره ، ووجد في الصفحة القبليّة عند ابتدائها من جهة المغرب في اللوح السماقي اللون الثاني في تلك الجهة من الألواح الملونة التي يحيط بها الرخام الأبيض البارز قطعةً أوسع من الدنار ملصقة في ظاهر اللوح المذكور بالجص ، فأشيع أنها جوهرة نفيسة ذات لمعان ، ثم إن متولى العمارة أراينها فإذا هي حَجَرٌ عسلي اللون يميل حمرة إلى الصفرة ، قال : وأظنه حجر اليرقان ، وقد خشي عليه متولى العمارة إن أعيد لصقاً كهيئته الأولى ، فأمر بنقر الرخامة المذكورة وتنزيله فيها ، ففعلوا ذلك ، وأعادوا تلك الرخامة إلى محلها .

ولم أر من نبه على ابتداء حدوث الرخام الذي حول الحجرة الشريفة بالأرض والظاهر أنه حدث عند حدوث تآزيرها بالرخام ؛ لما تقدم من كلام يحيى في أمر

الحجر الذى كان يتبرك به من أن الحسين بن عبد الله كان يكشف عنه الحصى ،
وأنه لم يدخل فى البناء ، وأنه فقدته عند تآزير الحجرة بالرخام ، فدل ذلك على
أنه رخم الأرض أيضاً ، وإلا لما استتر الحجر المذكور .
وأما ترخيم المصلّى الشريف فلا أدري متى زمن حدوثه ، وله ذكر فى رحلة
ابن جبیر .

وأما الرخام الذى بالحراب العثمانى وما حوله فالقديم منه - أعنى بعد الحريق
الأول - ترخيم الحراب وشىء يسير عن جنبتيه ، وفى دولة السلطان الملك الظاهر
جَمَمَق فى أول عشر الستين وثمانمائة أمر بعمل الوزرة التى فى الجدار القبلى ،
فاتصل ذلك بترخيم الحراب المذكور ، وقد جدد غالب ذلك فى العمارة التى
أدركناها أيضاً ، وأبدل الطراز الأول الذى كان بأعلى الوزرة وكان محمراً بماء
الذهب بالطراز الموجود اليوم ، ثم زال ذلك كله فى حريق المسجد الثانى ، ثم
أعيد مع زيادة فيه مما يلى المنارة الرئيسية ، ومع ترخيم ما حول الحجرة الشريفة
وتآزيرها بالرخام ، ومع ما سبق من عمل محراب المصلّى الشريف وترخيمه ،
ورخموا أيضاً الدعائم المواجهة للوجه الشريف التى أحدثوها عند عمارة القبة
الثانية من داخل المقصورة وخارجها ، وجميع ما يوجد من الرخام بالمسجد اليوم
من عمل سلطان زماننا الأشرف قايتباى ، أعز الله أنصاره ، وضاعف اقتداره !
والله أعلم .

الفصل الرابع والعشرون

فى الصندوق الذى فى جهة الرأس الشريف ، والمسمار الفضة المواجه للوجه
الشريف ، ومقام جبريل من الحجرة الشريفة ، وكسوتها ، وتخليقها
أما الصندوق فلم أعلم ابتداء حدوثه ، وكذلك القائم الحلى فوقه ، إلا أنه
قد ظهر لنا فى هذه العمارة التى أدركناها أنه كان موجوداً قبل حريق المسجد الأول ؛
لأن متولى العمارة كان قد قلعه لاقتضاء رأيه قَلَعَ حلية الفضة التى كانت على
القائم الخشب الذى فوق الصندوق ليخبركم صَوْنَهَا ، وزاد ذلك فضة وتمويهها

بالذهب، وأصلح حلية الصندوق أيضا، وكان ذلك سببا لإصلاح أصل الأسطوانة التي كان بها، فلما قلعوا الصندوق المذكور ظهر فيه قوائم صندوق عتيق، وفي تلك القوائم أثر الحريق، وكأنهم جددوا عليه صندوقا، وجعلوا ذلك المحترق في جوفه، وقد أعيد كذلك

وقد ذكر المجد الشيرازي هذا الصندوق والقائم فقال: وفي الصفحة الغربية من الحجرة الشريفة صندوق آبنوس مختم بالصندل مصفح بالفضة مكوكب بها، هو قبالة رأس النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه أسطوان، وفوق الصندوق قائم من خشب مجدد، وأما الصندوق فطوله خمسة أشبار وعرضه ثلاثة أشبار وارتفاعه في الهواء أربعة أشبار

قلت: وقد ظفرت بذلك كله في كلام ابن جبير في رحلته، غير ما يتعلق بالقائم المذكور، ومن ذلك أخذ المجد وصف القائم بكونه مجددا، وكانت رحلة ابن جبير عام ثمانين وخمسائة، فاستفدنا بذلك وجود ذلك الصندوق قبل الحريق في ذلك الزمان، وما ذكره من أن الصندوق المذكور قبالة الرأس الشريف فيه تجوز؛ لأنه قد ظهر لنا في هذه العمارة أنه في محاذة الجدار الداخل القبلي، وسيأتي أن الوجه الشريف إلى الجدار؛ فالرأس الشريف متأخر عن الصندوق المذكور يسيرا

ومستند المجد وغيره في هذا الإطلاق ما روى جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه عن أبيه عن جده أنه كان إذا جاء يُسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وقف عند الأسطوانة التي تلي الروضة، ثم يسلم، ثم يقول: ها هنا رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمراد به ما قدمناه، والله أعلم

وذرع الصندوق المذكور في الارتفاع ذراع ونصف وربع بذراع اليد، وأعلى القائم فوقه محاذ لرأس الوزرة الرخام، وطول القائم المذكور ثلاثة أذرع، وهو خمس صفحات ألصق بعضها على بعض وجعلت محيطه بماظهر من الأسطوانة التي

الصندوقُ بأصلها فوقه ؛ فإن بعض الأسطوانة في البناء الملاصق لها من الخائز المذكور ولو أحاطت الصفحات بجميع الأسطوانة لكانت أكثر من خمس ، وكانت شكلها مئمنًا ، وهو مختم بالخشب الأسود الهندي ، معصَّب بصفائح الفضة المموَّهة طولًا وعرضًا بأحسن صناعة ، وصفائحُه الطولية من الفضة أربع ، والمقاطعة لها من جهة العرض خمس ، وفي رأسه من أعلاه حلقة رقيقة كالزريق ، وزنة ما عليه من الفضة زيادة على ألفي قفلة ، وأخذوا لأجل تمويهه من حاصل المسجد أربعين مثقالًا من الذهب كما أخبرني به متولى العمارة

وأما الصندوق فلم يغير ، وكله مغطى بالفضة ، وقد احترق في حريق المسجد الثاني ، ووجدوا حلته من الفضة ، فجددوا صندوقًا في محله ، وجعلوا موضع القائم الذي كان فوقه رخامًا مكتوبًا فيه البسملة والصلاة والتسليم على النبي صلى الله عليه وسلم والترضى عن أصحابه وغير ذلك

وأما المسمار المواجه للوجه الشريف فقد تقدم أن بينه وبين أول الصفحة الغربية من المغرب خمسة أذرع ، وقد اعتبرت ذلك فنقص يسيرًا نحو سدس ذراع ، وكأنه لاختلاف الأذرع ، ولم أعلم ابتداء حدوث التعليم بهذا المسمار أيضًا ، والمذكور في كلام المتقدمين إنما هو التعريف بأن يجعل القنديل على رأسه ، لكن قال المطري : إن ما ذكر من القيام تحت القنديل تجاه الحجرة الشريفة للسلام كان قبل احتراق المسجد الشريف ؛ فإنه لم يكن يقابل وجه النبي صلى الله عليه وسلم إلا قنديل واحد ؛ ولما جدد جعل هناك عدة قناديل ، وإنما علامة الوقوف تجاه الوجه الكريم اليوم مسمار فضة في رخامة حمراء ، انتهى . وهو يوم حدوث التعليم به بعد الحريق ، وليس كذلك ؛ لأن ابن النجار ذكر التعليم به كما يأتى ، ولم يدرك الحريق ، ولأن ابن جبير ذكره في رحلته وهو أقدم من ابن النجار فقال عند وصف الحجرة الشريفة : وفي الصفحة القبليّة أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم مسمار فضة هو أمام الوجه الكريم ، فتقف الناس أمامه للسلام ، انتهى . وأيضاً فقد روى ابن الجوزى في « منير الغرام الساكن » أن ابن أبي مليكة كان يقول : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقُومَ وَجْهَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فليجعل القنديل الذى فى القبلة عند القبر على رأسه ، ثم قال ابن الجوزى : و ثم ما هو أوضح علما من القنديل ، وهو مسمار من صُفْر فى حائط الحجرة ، إذا حاذاه القائم كان القنديل فوق رأسه ، انتهى .

وقال يحيى فى كتابه : كان ابن أبى مليكة يقول : إذا جعلت القنديل على رأسك والمرمرة المدخولة فى جدار القبر قبالة وجهك استقبلت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وكأن هذا المسمار فى موضع تلك المرمرة ، ولهذا قال ابن النجار : إن اليوم هناك علامة واضحة ، وهى مسمار من فضة فى حائط حجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، إذا قابله الإنسان كان القنديل على رأسه ، فيقابل وجه النبى صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

ولم أر لهذا المسمار ذكرا فى كلام مَنْ صَنَّف فى المناسك قبل ابن جماعة ، والذى فى مناسك ابن الصلاح أخذا من الإحياء ذكر القنديل ، وجعله حذاء رأس الزائر ، ونقله عن ابن أبى مليكة ، واقتضى كلامه أن الواقف هناك يكون بينه وبين السارية التى عند رأس القبر عند زاويته الغربية وهى أسطوان الصندوق نحو أربعة أذرع ؛ فهو قريب مما تقدم فى التعليم بالمسمار المذكور ، وإن لم يصرح به ، لكن قال الأقسهرى ومن خطه نقلت : أخبرنا الإمام العالم رضى الدين أبو أحمد إبراهيم بن محمد بن أبى بكر إمام مقام إبراهيم الخليل بمكة توفى فى تاسع شهر ربيع الأول من عام اثنين وعشرين وسبعائة والشيخ الوزير أبو عبد الله محمد بن أبى بكر محمد بن عيسى المومنانى قالا : أخبرنا الإمام أبو عمرو عثمان ابن عبد الرحمن بن الصلاح السهروردى قال : ثم يأتى الزائر الضريح المقدس فيستدبر القبلة ويستقبل جداره نحو ثلاثة أذرع أو أربعة أذرع من الجدار وجاه المسمار الذى فى الجدار القبلى من الحجرة المشرفة ، هذا ما نقلته من خط الأقسهرى بحروفه ، ولم أره فى كلام ابن الصلاح ، والذى نقله ابن عساكر فى تحفته عن

ابن الصلاح وهو من تلامذته إنما هو ما قدمناه ، وروايته عن إبراهيم الطبري عن ابن الصلاح تخطيط ؛ فإن وفاة ابن الصلاح في سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، والذي أدركه إنما هو والد إبراهيم المذكور ، وهو المعروف بالرضي الطبري ، فإن مولد الوالد المذكور سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، فإنما أدرك من زمن ابن الصلاح عشر سنين ، فكيف يكون ولده راويا عن ابن الصلاح بلا واسطة؟ .

وقال الأقسهري عقب ما تقدم عنه : وقد سقط هذا المسمار سنة عشرين وسبعمائة ، ولم يرد إلى موضعه إلا في رجب عام أربع وعشرين وسبعمائة .

قلت : وقد أخرج في هذه العمارة من موضعه عند ترخيم جدار الحجرة الشريفة ، ثم أعيد في محله الأول بعينه في الرخامة الحمراء التي كان بها ، ثم سقط من محله في الحريق الثاني ، وجدد مسمار آخر في محله ، ولا يختلف أحد ممن أدركناه بالمدينة الشريفة في أن ذلك الموضع تجاه الوجه الشريف ، وهو الذي يقتضيه الحال عند مشاهدة الحجرة الشريفة من داخلها ، غير أني رأيت في كلام يحيى ما يوهم خلاف ذلك ، فإنه ذكر أن الموضع الذي يواجه الوجه الشريف هو ما بين الأسطوانة المتوسطة في قبلة جدار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، بين هذا الموضع وبين الأسطوانة شبران وثلاث أصابع متفرجة من الحفيرة إلى الوسطى ، وإن كل من أدركه من أهل بيته كانوا إذا وقفوا للسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وقفوا قريبا من هذا الموضع ، وكانت ثم علامة قد تعلموا بها حُفيرة ولم تنزل ثم عملت إلى أن عمر الصانع المسجد في ولاية أمير المؤمنين المتوكل فإنه أزرر القبر بالرخام فذهبت العلامة منذ ذلك . وقال : إن موسى بن جعفر قال : من وقف في هذا الموضع منحرفا واضعا شق وجهه الأيمن استقبال وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان على بن الحسين يقف ثم ، انتهى .

قلت : الأسطوانة الوسطى التي يشير إليها هي البارزة في الصفحة القبليّة من جدار القبر ، يقف قريبا المسلم على عمر رضي الله عنه ، وبينها وبين المسمار المذكور

نحو ثلاث أذرع أو أزيد ، وقد قال : إن الموضع الذى ذكره بينه وبين الأسطوانة المذكورة شبران وثلاثة أصابع ، فيكون بعيداً من المسار المذكور بنحو الذراعين وقد شاهدنا الأسطوانة المذكورة من داخل الحجرة فرأيناها قريبة من نهايتها ، بحيث إن من دفن هناك ووجهه فى محاذاة الموضع الذى ذكره يحى كانت رجلاه فى جدار الحجرة الشرقى كما نقل ذلك فى دفن عمر رضى الله عنه ، فيبعد كل البعد كون الوجه الشريف فى محاذاة ذلك الموضع ، على أن ما نقله عن موسى ابن جعفر يقتضى أن استقبال الوجه الشريف للواقف فى الموضع الذى ذكره إنما يكون مع الانحراف ووضع شق الوجه الأيمن على جدار القبر ، وعلى هذا فيستقبل الزائر جهة المغرب حتى يحصل ذلك ، وذلك لأن الحائط القبلى منحرف كما أشرنا إليه فى التصوير المتقدم ، فلا يقتضى ذلك أن المستقبل للمحل الذى عيّنه من غير وضع وجهه يكون مقابلاً للوجه الشريف ، وإنما يُسَامِتُ الواقفُ الوجه الشريف إذا حاذى المسار المتقدم وصفه ، وكأن يحى يرى أن الزائر يلصق خده بجدار القبر على الهيئة السابقة ، فيصير محل المسار المذكور أمامه ، ولذلك أورد عقب ما تقدم عنه قصة أبى أيوب الأنصارى الآتى ذكرها فى التزامه القبر .

واعلم أن تشبيك باب المقصورة التى حدثت إدارتها على ماحول الحجرة الشريفة قد يمنع من مشاهدة المسار المذكور إلا لمن يتأمل ذلك من تشبيكه ، وذلك يشغل قلب الزائر ، وقد تحرر لنا أن ما يقابله من ذلك هو الصرعة الثانية من باب المقصورة القبلى الذى على يمين مستقبل القبر الشريف ، فمن حاذى هذه الصرعة كان محاذياً لذلك ، وهذا المسار مموّه بالذهب رأسه مستدير ، وقد أحدث متولى العمارة مسباراً آخر رأسه فضة ، لكنه فى أول هذه الصفحة القبلىة مما بلى المغرب قريباً من جهة الصندوق المتقدم وصفه ، ورأس هذا المسار مُكَوِّك كالقبة ، فلا يشتبه بالمسار المتقدم ، وأحدث أيضاً مسارين آخرين فى ابتداء الصفحة الغربية مما بلى القبلة قريباً من مسماره المتقدم ، وما علمت السبب فى

إحداث ذلك ، وقد زالت هذه المسامير الثلاثة المحدثه بالحريق الثاني .

وأما الموضع المعروف بمقام جبريل عند مر بعة القبر فقد تقدم أنه كان هناك مسار في منحرف المربعة إلى الزاوية الشمالية من الحجرة علامة عليه ، فلم نجده هناك ، وسألت عنه الخدام والمرخين فقالوا : إنهم لم يجدوا هناك شيئاً ، وتسمية ذلك الموضع بمقام جبريل تقدم مستنده في الكلام على أسطوان مر بعة القبر ، ولم أدر لم سمي بذلك ، إلا أن ابن جُبَيْر ذكر هذا المحل من الحجرة الشريفة ، وقال : وعليه سِتْر مُسْتَبَل يقال : إنه كان مهبط جبريل عليه السلام ، انتهى . لكن ترجم ابن شبة في كتابه لمقام جبريل ثم قال : قال أبو غسان : علامة مقام جبريل عليه السلام التي يُعْرَف بها اليوم أنك تخرج من الباب الذي يقال له باب آل عثمان ، فتري على يمينك إذا خرجت من ذلك الباب على ثلاثة أذرع وشبر وهو من الأرض على نحو من ذراع وشبر حَجَرًا أَكْبَر من الحجارة التي بها جدار المسجد ، قال : فكان مالك بن أنس يقول ، وسقط ما بعد ذلك من كتاب ابن شبة فلم أَذِر ما هو ، لكن يستفاد من ذلك حكاية خلاف في مقام جبريل : هل هو داخل المسجد عند المربعة المذكورة أو خارجه عند باب آل عثمان وهو المعروف اليوم بباب جبريل ؟ ولعل ذلك سبب تسمية الباب المذكور بذلك ، كما ستأتى الإشارة إليه .

وقال ابن زبالة : أخاف المسجد من شرقيه في سلطان محمد بن عبد الله عبد الله بن سليمان الربعي من ولد ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب من ناحية موضع الجنائز ، فأمر به فبنى ، وتعلم مقام جبريل عليه السلام بحجر ونقش فيه خاتم سليمان ومُشَق لأن يعرف به مقام جبريل ، ومقام جبريل يمتد داخل في المسجد ، فبلغ ذلك مالك بن أنس ، فتكلم فيه وأنكره وعابه ، فغير وجعل مكانه حجر طويل مُضْمَت لا عَمَ فيه مخالف لحجارة المسجد ، انتهى ؛ فيحتمل أن يريد بقوله « ومقام جبريل يمتد داخل في المسجد » الموضع المتقدم ذكره من

الحجرة الشريفة ، ويحتمل أن يريد أن الباب قد قدم عن محله الأول في محاذاته ، فصار مقام جبريل داخل المسجد في محاذة ذلك ، ويرجح هذا أن الظاهر أن الأصل في مقام جبريل ما قدمناه في غزوة بني قريظة من رواية صاحب الاكتفاء أن جبريل عليه السلام أتى في ذلك اليوم على فرسٍ عليه الأمانة حتى وقفَ بباب المسجد عند موضع الجنائز ، وإن على وجه جبريل لأثر الغبار ، اه ؛ فلذلك سمى الباب المذكور بباب جبريل ؛ إذ لم يكن حينئذ المسجد باب في ناحية الجنائز غيره .

وفي رواية البيهقي عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم عندنا ، فسلم علينا رجل ونحن في البيت ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فزَعَا ، فقامتُ في أثره ، فإذا بدخية الكلبى ، فقال : هذا جبريل عليه السلام يأمرنى أن أذهب إلى بنى قريظة ، والله أعلم .

وأما كسوة الحجرة الشريفة فقد ذكر ابن النجار ما قدمناه في تأزير الحجرة كسوة الحجرة الشريفة بالرخام وعمل الجواد الأصهبانى في الشباك المتخذ من خشب الصندل النبوية المتقدم وصفه على جدارها ، ثم قال : ولم تزل الحجرة الشريفة على ذلك حتى عمل لها الحسين بن أبى الهيجاء صهرُ الصالح وزير الملوك المصريين ستارة من الديبقي الأبيض ، وعليها الطروز والجامات المرقومة بالإبريسم الأصفر والأحمر ، ونيطها وأدار عليها زنارا من الحرير الأحمر ، والزنار مكتوب عليه سورة (يس) بجمهرها ، وقيل : إنه غرم على هذه الستارة مبلغاً عظيماً من المال ، وأراد تعليقها على الحجرة ، فمنعه عاصم بن مهنى أمير المدينة وقال : حتى تتأذن الإمام المستضىء بأمر الله .

فبعث إلى العراق يستأذن في تعاقبها ، فجاءه الإذن في ذلك ، فعلقها نحو العامين ، ثم جاءت من الخليفة ستارة من الإبريسم البنفسجى عليها الطروز للامات البيض المرقومة وعلى دَوْرَان جاماتها مكتوب بالرقم : أبوبكر ، وعمر ،

وعثمان، وعليّ، وعلى طرازها اسم الإمام المستضيء بأمر الله، فشيلت تلك ونفذت إلى مشهد على بن أبي طالب بالكوفة، وعلقت هذه عوضها، فلما ولى الإمام الناصر لدين الله نفذ ستارة أخرى من الإبريسم الأسود، وطرزها وجاماتها من الإبريسم الأبيض، فعلقت فوق تلك، فلما حجت الجهة أم الخليفة وعادت إلى العراق عَمِلَت ستارة من الإبريسم الأسود أيضاً على شكل المذكورة ونفذتها فعلقت على هذه، ففي يومنا هذا على الحجرة ثلاث ستائر بعضهن على بعض، انتهى.

وهو يقتضى أن ابن أبي الهيجاء أول من كسا الحجرة في خلافة المستضيء بأمر الله، وكانت خلافته في سنة ست وستين وخمسمائة، ومات سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وفي كلام رزين ما يقتضى مخالفته؛ فإنه قال في ضمن كلام نقله عن محمد ابن إسماعيل مالفظه: فلما كانت ولاية هرون أمير المؤمنين وقدمت معه الخيزران أمرت بتخليق مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخليق القبر وكتبه الزنانير وشبائك الحرير، انتهى.

وقد رأيت في العُتبية ما يصلح أن يكون مستنداً في أصل الكسوة، فإنه قال في أوائلها: قيل لمالك: قلت إنه ينبغي أن ينظر في قبر النبي صلى الله عليه وسلم كيف يكسون سقفه، فقيل: يجعل عليه خيش، فقال: وما يعجبني الخيش، وإنه ينبغي أن ينظر فيه، انتهى.

قال ابن رشد في بيانه: كره مالك كشف سقف قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأى من صونه أن يكون مغطى، ولم ير أن يكتفى من ذلك بالخيش، وكأنه ذهب إلى أن يغطى بتغطية البيوت المسكونة. ولقد أخبرني من أثق به أنه لاسقف له اليوم تحت سقف المسجد، انتهى.

وقد يضم إلى ذلك أنه إنما جاز كسوة الكعبة لما فيه من التعظيم، ونحن مأمورون بتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم، وتعظيم قبره من تعظيمه، وهذا أولى

بالجواز مما سيأتي عن السبكي في مسألة القناديل من الذهب حيث سلك بها هذا المسلك ، وليس في كلام ابن زبالة ويحيى تعرض لأمر كسوة الحجر ، ولعله لأنها إنما حدثت بعدها ، مع أن ابن زبالة ذكر ما قدمناه في كسوة المنبر الشريف وجعل الستور على الأبواب ، ونقل أن كسوة الكعبة كان يؤتى بها المدينة قبل أن تصل إلى مكة ، فتتشر في مؤخر المسجد ، ثم يخرج بها إلى مكة ، ولم يذكر للحجرة كسوة .

ثم ذكر تخليق الحجر والمسجد فقال : وقدمت الخيزران أم موسى أمير المؤمنين المدينة في سنة سبعين ومائة ، فأمرت بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم فخلق ، وولى ذلك من تخليقه مؤسسة جاريتهما ، فقام إليها إبراهيم بن الفضل ابن عبيد الله بن سليمان مولى هشام بن إسماعيل فقال : هل لكم أن تسبقوا من بعدكم وأن تفعلوا ما لم يفعل من كان قبلكم ؟ قالت له مؤسسة : وما ذلك ؟ قال : تخلقون القبر كله ، ففعلوا ، وإنما كان يخلق منه ثلثاه أو أقل ، وأشار عليهم فزادوا في خلق أسطوان التوبة والأسطوان التي هي علم عند مصلى النبي صلى الله عليه وسلم فخلقوها حتى بلغوا بهما أسفلهما ، وزادوا في الخلق في أعلاهما ، انتهى ولو كان لكسوة الحجر وجود في زمانه لتعرض له .

واعلم أن في عشر السنين وسبعمائة في دولة السلطان الصالح إسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون اشترى قرية من بيت مال المسلمين بمصر ، ووقفها على كسوة الكعبة المشرفة في كل سنة ، وعلى كسوة الحجر المقدسة والمنبر الشريف في كل خمس سنين مرة ، هكذا ذكره التقي الفاسي في شفاء الغرام .

وذكره الزين المراغي إلا أنه قال في الوقف على كسوة الحجر : في كل ست سنين مرة ، تجعل من الديباج الأسود المرقوم بالحرير الأبيض ، ولها طراز منسوج بالفضة المذهبة دائر عليها ، إلا كسوة المنبر فإنها بتقصيل أبيض . قلت : وما ذكره من المدة المذكورة بالنسبة إلى الحجر كأنه كان معمولاً به

في زمانهما ، وأما في زماننا فيمضي عشرُ سنين ونحوها ولا تعمل ، نعم كلما ولى ملك بمصر فإنه يعتنى بإرسال كسوة .

وذكر الحافظ ابن حجر في الكلام على كسوة الكعبة أن الصالح هذا اشترى حصة من بلد يقال لها سنديس ، اشترى الثلثين منها من وكيل بيت المال ، ووقفها على هذه الجهة ، ولم يتعرض لكسوة الحجرة ، فلعل الثلث الثالث الذي لم يذكره يتعلق بكسوة الحجرة لما قدمناه ، ويحتمل أن ما يرد من الكسوة من جهة الملوك ، لا من وقف ، وعادتهم إذا وردت كسوة جديدة قَسَمَ شيخُ الخدام الكسوة العتيقة على الخدام ومن يراه من غيرهم ، ويحمل إلى السلطان بمصر منها جانبا ، وحكم بيع كسوة الحجرة كحكم بيع كسوة الكعبة ، وقد اختلف العلماء في ذلك قديما ، وفي المسألة عندنا وجهان .

وقال الحافظ صلاح الدين خليل العلأى : إنه لا يتردد في جواز ذلك الآن ؛ لأن وقف الإمام للضيعة المتقدمة على الكسوة كان بعد استقرار هذه العادة والعلم بها ، فينزل لفظ الواقف عليها ، انتهى ، والله أعلم .

الفصل الخامس والعشرون

في قناديل الذهب والفضة التي تعلق حول الحجرة الشريفة ، وغيرها من معاليقها .

اعلم أنى لم أر في كلام أحد ذكر ابتداء حدوث ذلك ، إلا أن ابن النجار قال ما لفظه : وفي سقف المسجد الذى بين القبلة والحجرة على رأس الزُّوَار إذا وقفوا مُعَلَّقٌ نيفٌ وأربعون قنديلا كبارا وصغارا من الفضة المنقوشة والسادجة ، وفيها اثنان بللور ، وواحد ذهب ، وفيها قر من فضة مغموس في الذهب ، وهذه تنفذ من البلدان من الملوك وأرباب الحشمة والأموال ، انتهى .

قلت : واستمر عمل الملوك وأرباب الحشمة إلى زماننا هذا على الإهداء إلى الحجرة الشريفة قناديل الذهب والفضة .

القناديل

ورأيت بخط شيخنا العلامة ناصر الدين العثماني أشياء نقلها من خط قاضي طيبة الزين عبد الرحمن بن صالح يتضمن ما كان يَرَدُّ في كل سنة من ذلك ؛ فذكر في سنة خمسة عشر قنديلا ، وفي أخرى ثلاثة عشر ، وفي أخرى عشرة ، وفي أخرى إحدى وعشرين .

قلت : وفي زماننا هذا يَرَدُّ في غالب السنين ما يزيد على العشرين ، ولا ضابط لذلك ؛ فإنه يرد من نذور من ناس مختلفين ، وكأن هذه القناديل كانت إذا كثرت رفعوا بعضها ووضعوه بالحاصل الذي في وسط المسجد ، فاجتمع فيه شيء كثير ، فاتفق على ما ذكره الحافظ ابن حجر في سنة إحدى عشرة وثمانمائة أن فوض السلطان الناصر فرج لحسن بن عجلان سلطنة الحجاز ، فاتفق موت ثابت ابن نغير ، وقرر حسن مكانه أخاه عجلان بن نغير المنصوري ، فثار عليهم جواز ابن هبة بن جواز الجازي الذي كان أمير المدينة ، وأرسل إلى الخدام بالمدينة يستدعيهم ، فامتنعوا من الحضور إليه ، فدخل المسجد الشريف ، وأخذ ستارتي باب الحجرة ، وطلب من الخدام تسعة آلاف درهم على أن لا يتعرض لحاصل الحرم ، فامتنعوا ، فضرب شيخهم ، وكسر قفل الحاصل ، هكذا رأيت في « أنباء الغمر » للحافظ ابن حجر .

والذي رأيت في محضر عليه خطوطُ غالب أعيان المدينة الشريفة ما حاصله : أن جواز بن هبة المذكور كان أمير المدينة ، فبرزت المراسيم الشريفة بتولية ثابت ابن نغير إمرة المدينة وأن يكون النظر في جميع الحجاز لحسن بن عجلان ، ولم يصل الخبر بذلك إلا بعد وفاة ثابت بن نغير ، فأظهر جواز بن هبة الخلاف والعصيان وجمع جموعا من المفسدين وأباح نهب بعض بيوت المدينة ، ثم حضر مع جماعة إلى المسجد الشريف ، وأهان من حضر معه من القضاة والمشايخ وشيخ الخدام باليد واللسان ، وشهر سيفه عليهم ، وكسر باب القبة حاصل الحرم الشريف ، وأخذ جميع ما فيها من قناديل الذهب والفضة التي تُحمَل على تعاقب السنين من سائر

الآفاق تقرّباً إلى الله ورسوله وأشياء نفيسة وختمات شريفة وزيت المصابيح وشموع التراويح وأكفان ودراهم يوارى بها الطرحاء ، وقطع مكاتيب الأوقاف وغسلها ، وقصد الحجرة الشريفة ، وأحضر السلم لإنزال كسوة الضريح الشريف والقناديل المعلقة حوله ، فلم يُقدّر له ذلك ومنعه الله منه ، وأخذ ستر أبواب الحجرة الشريفة من خزانة الخدام ، وتعطل في ذلك اليوم وليلته والذي يليها المسجد الشريف من الأذان والإقامة والجماعة ، وأخذ جماعته وأقاربه في نهب بيوت الناس ومصادرتهم ، وأخذ جمال السواني ، وارتحل هارباً عقب ذلك ، ولما اتصل بحسن ابن عجلان ما فوض إليه من أمر الحجاز استدعى بعجلان بن نغير وأقامه في إمرة المدينة ، وعرفه ما برزت به المراسيم أولاً في ولاية أخيه ، انتهى .

وذكر الحافظ ابن حجر أنه أخذ من الحاصل المذكور إحدى عشر خوشخانا وصندوقين كبيرين وصندوقاً صغيراً بما في ذلك من المال وخمسة آلاف شقة من البطاين ، وصادر بعض الخدام ، ونزع عنها ؛ فدخل عجلان بن نغير ومعه آل منصور فنودي بالأمان ، ثم قدم عقبه أحمد بن حسن بن عجلان ومعه عسكر ، يعني من مكة .

قلت : ورأيت بخط شيخنا العلامة ناصر الدين المراغي قائمة ذكر أنه نقلها من خط قاضي طيبة الزين عبيد الرحمن بن صالح صورتها : الذي كان في القبة ، وأخذه جمار بن هبة ، هو من القناديل الفضة ثلاثة وعشرون قنطاراً وثلاث قنطار ، غير الذي في الرفوف ، والصندوقين الذهب ، ثم ذكر تفصيل ذلك في ثمان عشرة وزنة ، ثم كتب ما صورته : خوشخانه مختومة لم تفتح ، والظاهر أنها ذهب ، وزنة القناديل التي في الرفوف أربع قناطر إلا ثلث ، وتسع قناديل ذهب بالعدد في صندوق ، وصندوق صغير مقفول ، انتهى .

وبلغنا أنه دفن غالب ذلك ، ثم أخذه الله أخذاً ويلاً فقتل هو ومن اطلع معه على دفن ذلك ، فلم يعلم مكانه إلى اليوم .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر قتله في سنة اثنتى عشرة وثمانمائة فقال : وفيها قتل جاز بن هبة بن جاز بن منصور الحسيني أمير المدينة ، وقد كان أخذ حاصل المدينة ونزع عنها ، فلم يمهّل وقتل في حرب جرت بينه وبين أعدائه ، انتهى . قلت : إنما بيته بعض عرب مطير فاغتاله وهو نائم .

ورأيت في القائمة المتقدم ذكرها التي نقلها شيخنا المتقدم ذكره ما صورته : وزن ما في الحجرة من قناديل الذهب تسع قناطير ، وورد بعد ذلك من أم السلطان قنديل زنته ألف مثقال ، وورد من أخت السلطان قنديل زنته ألف وحمسمائة ، وأربع قناديل كبار في الواحد منهم أربعة صغار ، وفي الثاني اثنان صغار ، وفي الثالث عدة قناديل معفوسة ، وفي الرابع قنديل ، زنة الجميع ثلاثة آلاف وسبعمائة وعشرون مثقالاً ، وعلى يد الطواشي صندل قنديلين صغار ، ومعلق بعد ذلك عدة قناديل لم تكتب ، انتهى .

والظاهر أنه سقط بعد قوله « من قناديل الذهب » لفظ « والفضة » وفي هذه القائمة أيضاً أن بالقبة - يعني بعد قصة جاز المقدمة - من قناديل الفضة مائة رطل وسبعة عشر رطلاً وضعها ييسق بيده ، انتهى .

ثم إن الأمير غرير بن هباز بن هبة الحسيني الجمازي أخذ جانباً من الحاصل المذكور في سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، زاعماً أنه على سبيل القرض ، وامتنح بعض قضاة المدينة لسبب ذلك ، ثم حمل غرير المذكور إلى القاهرة محتفظاً به ، ومات بها مسجوناً .

ولم نزل هذه القناديل في زيادة حتى عدا عليها في ليلة السابع والعشرين من ذي الحجة سنة ستين وثمانمائة برغوث بن بتير بن جريس الحسيني ؛ فدخل الدار المعروفة بدار الشباك بجانب باب الرحمة ليلاً ، ولم يكن بها ساكن ، وتسوّر جدار المسجد ، ودخل بين سبقي المسجد الشريف من شباك هناك ، ومشى حتى بلغ ما يحاذي سقف الحجرة الشريفة ، فأخذ من تلك القناديل شيئاً كثيراً ، وكأنه تردد لذلك المرة بعد الأخرى ، ولم يشعر أهل المسجد ونظاره بشيء من ذلك ،

غير أن أمة لبعض جيران الدار المذكورة رأت من سطح دارهم شخصين في أعلى دار الشباك يتعاطيان شيئاً له حجم كبير وصوت صليل ، فلما أصبحت أخبرت بواب المسجد فلم يعبأ بذلك نخلو تلك الدار ، وبعده ذلك الأمر عن الأفكار ، ولكن الله أراد هتك المذكور وحلول النعمة به ، فأنهى بعض الناس إلى أمير المدينة أن المذكور معه شيء كثير من المال غير معهود ، فأمسكه الأمير وضيق عليه بالسجن ، فأنجلس ليلاً ، ثم شاع بالمدينة بيع شبائيك من الفضة والذهب ، فكثرت القال والقال ، ثم في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وستين استفاض أن يرغوثاً بالينبع ومعه قطع من ذهب القناديل ، فافتقد النظارة الحجرة الشريفة ، فرأوا أكثر القناديل مأخوذاً ، فعلموا الحال ، لكن لم يعلموا الكيفية ، واتهمت ابنة السراج النفطي بمالأة يرغوث على ذلك وأنه إنما تسور من بيت أبيها لكونه متصلاً بالمسجد في قبلته ، وأظهر الله براءتها بعد ذلك ، وكان بالمدينة إذ ذاك زين الدين استدار الصحبة ، فعقد مجلساً لذلك ، واجتمع أعيان أهل المدينة ، وكتبوا إلى أمير الينبع بالقبض على يرغوث وإرساله ، فقبض عليه ، فاعترف أنه فعل ذلك هو ودبوس بن سعد الحسيني الطفيلي ، وجعل أن دخوله من بيت المرأة المتقدم ذكرها ، وأن بعض الخدام واطأه على ذلك ، ثم أظهر الله الحق ، وأن دخوله إنما كان من دار الشباك ، وأن شريكه المعين له على ذلك دبوس المذكور ، ولم يرَ أميرُ يَنبع إرساله إلى المدينة ، بل تركه عنده منتظراً الأوامر السلطانية ، ثم إن أمير المدينة أمسك دبوساً وبعض أقاربه ، فأنكر هو ، وأقر عليه بعض جماعته وأحضروا جانباً من الذهب والفضة ، ثم هرب يرغوث من الحبس بالينبع ، ثم ساقه الله إلى المدينة ، فلما وصل دُلَّ عليه أميرها ، فأمسكه وحبسه مع دبوس وذويه ، فهربوا ، ثم أظفر الله بهم ، ولم يغب منهم إلا دبوس ، وبرزت المراسيم بقتل مَنْ نَجراً على هذه العظيمة ، فقتل أمير المدينة يرغوثاً وآخر معه من أقاربه يسمى ركاباً ، وصلبهما ، ثم ظفر بدبوس وقتله أيضاً .

وأخبرت عن برغوث أنه قال : كنت كلما توجهت في حال هَرَبِي لغير جهة المدينة كأني أجد من يصدُّني عن ذلك ، وإذا قصدت جهة المدينة تيسرت لي وكان شخصاً يَقُودني إليها حتى دخلتها .

وأما عدة القناديل الموجودة في زماننا هذا بالحجرة الشريفة فقد ضبطت في أول سنة إحدى وثمانين وثمانمائة بأمر السلطان الأشرف لشيخ الحرم الأمير انيال والقضاي الزكوي ؛ فكان عدة معاليق الذهب ثمانية عشر قنديلا وبعض قنديل ، وأربع مشنات ، ومغرافان ، وسواران ، وزنة ذلك سبعة آلاف قفلة وستائة وخمسة وثلاثون ، من ذلك قنديل كبير في جهة الوجه الشريف زنته أربعة آلاف وستائة قفلة ، أهدها سلطان الكلاجه شهاب الدين أحمد ، وعدة معاليق الفضة ثلاثمائة قنديل وأربعة وأربعون قنديلا ، وثرية كبيرة ، زنة ذلك ستة وأربعون ألف قفلة وأربعمائة وخمسة وثلاثون قفلة ، وكانت ضبطت قبل ذلك في سنة اثنتين وستين وثمانمائة على يد الأمير برد بك التاجي فتحرَّر من النظر بين المقدارين أن الزائد على ما ضبط في التاريخ المتقدم من الذهب ألف قفلة ومائة وخمسة وخمسون ، ومن الفضة ثلاثة عشر ألف قفلة وسبعمائة وخمسة وثمانون قفلة ، فذلك القدر هو الوارد من عام ثلاث وستين إلى آخر عام تسع وسبعين ، وهناك من المعاليق أيضاً غير ما تقدم قنديل من بلور بتابوت من فضة ، وقناديل نحاس أربعة ، وفولاذ واحد مُكفَّت بالذهب مشبك مكتوب عليه أن الناصر محمد ابن قلاوون علقه من يده إلى عام حجه ، ثم ورد في سنة ثمانين في مشيخة الشيخ انيال ولم يدخل في الجملة المتقدمة قنديلان من الذهب زنتهما مائة وخمسة وعشرون قفلة ، ومن الفضة اثنان وثلاثون قنديلا زنتها ألف ومائتان وخمسة وسبعون قفلة ، وفي سنة إحدى وثمانين قنديل ذهب زنته مائة واثنان وأربعون قفلة ، وأربعة وعشرون قنديلا من الفضة زنتها تسعمائة وخمسون قفلة ، وفي سنة اثنتين وثمانين من الفضة أحد وثلاثون قنديلا زنتها ألف وخمسمائة وخمسون قفلة ، ولم يرد شيء .

من الذهب ، وفي سنة ثلاث وثمانين من الذهب قنديل واحد زنته عشرون قفلة ، ومن الفضة خمسة وعشرون قنديلا زنتها ألف ومائة وخمسة وثلاثون قفلة ، وفي سنة أربع وثمانين من الفضة تسعة عشر قنديلا زنتها سبعمائة وخمسة وأربعون قفلة ، ولم يرد شيء من الذهب ؛ فجُمِنة ما ورد في ولاية الأمير انيال في المدة المذكورة من الذهب أربعة قناديل جملة زنتها مائتان وسبعة وثمانون قفلة ، ومن الفضة مائة قنديل وتسعة وعشرون قنديلا جملة زنتها خمسة آلاف وستمائة وخمسة وخمسون قفلة ، وما شرعوا في عمارة الحجره الشريفه الآتي ذكرها في سنة إحدى وثمانين وثمانمائة رفعوا جمع المعاليق التي كانت حولها ، ووضعت بالقبة التي بصحن المسجد بأمر متولى العمارة الجذاب الشمسي ، ولم يزل بها إلى تاريخه ، ولم يكن اليوم حول الحجره الشريفه من المعاليق إلا ما تجدد في آخر سنة إحدى وثمانين إلى آخر سنة أربع وثمانين ، ثم حسن متولى العمارة للسلطان صرف ذلك في مصالح المسجد والمدينة الشريفه ، فحمل بعضه من الحاصل المذكور إلى مصر قبيل الحريق الثاني ، ثم وجدوا ما سقط لسبب الحريق من القناديل التي كانت معلقة بحالها ، ثم صرف متولى العمارة بعض ذلك في تذهيب السقف المَعَادَة بعد الحريق ، ثم وضع بهذه القبة ما تجمد من مصاريف خب السباط المجدد ، فاجتمع بها نحو ثلاثة عشر ألف دينار ، فاتفق أن أمير المدينة حسن بن زبيرى المنصورى حضر بجماعة مع الاستعداد بالأسلحة والسيوف المسلولة ؛ فدخل المسجد الشريف على تلك الحالة وقت الظهر من سادس ربيع الأول عام أحد وتسعمائة ، وأمر خازن دار الحرم الشريف بإحضار مفاتيح الحاصل المذكور ، فامتنع من ذلك ، فضربه ضرباً مُبرِّحاً ، ثم عمَدَ إلى باب الحاصل المذكور وأحضر فأساً وكسره وأخذ جميع ما فيه من النقد والقناديل والسبايك ، فحمل منه ثلاثة أحمال على فرسين وبغل وغرابر تسع على ظهور المحالين ، ثم ذهب إلى حصنه وأحضر الصياغ وسَبَّكَ تلك القناديل وذكر أنه صنع ذلك رغبة عن إمرة المدينة ؛ لأن ولايته كانت بطريق النيابة عن السيد

الشریف محمد بن برکات لتفویض السلطان الأشرف إلیه أمر الحجاز وأن المشار إلیه صار يأخذ خصمة مما یحمل له من الإقطاع ومن الصدقات ، وغطل علیه أهل مصر بعض إقطاعه ، فحمله ذلك علی ما سبق .

وأما حکم هذه المعالیق ونحوها من تحلیة الصندوق المتقدم ذکره والقائم الذی حکم معالیق المسجد النبوی بأعلاه فحکم معالیق الکعبة الشریفة وتحلیتها ، وقد تکلم السبکی فی حکم قنادیل الکعبة وحثیثها والقنادیل التي حول الحجرة الشریفة ، وألف فی ذلك کتابا سماه « تنزل السکينة ، علی قنادیل المدينة » فأورد حدیث البخاری وغيره فی کنز الکعبة وما تضمنه من إقرار النبی صلی الله علیه وسلم له بمحلها ، ثم أبی بکر بعده ، ورجوع عمر رضی الله عنه لذلك لما ذکره به ابن شیهة ، وقال : هما المرآن یقتدی بهما ، قال : فهذا الحدیث عمدة فی مال الکعبة ، وهو ما یهدی إلیها أو ما یُنذر لها وما یوجد فیها من الأموال .

قال ابن بطال : أراد عمر إنفاقه فی منافع المسلمین ، ثم لما ذکر أن النبی صلی الله علیه وسلم لم يتعرض له أمسک ، وإنما ترک ذلك والله أعلم لأن ما جعل فی الکعبة وسُبل لها یجرى مجرى الأوقاف ؛ فلا یجوز تغییره عن وجهه ، وفی ذلك تعظیم للاسلام وترهیب للعدو .

قلت : قد تعقب ذلك الحافظ ابن حجر باحتمال أن یکون النبی صلی الله علیه وسلم إنما ترکه رعاية لقلوب قریش ، كما ترک بناء الکعبة علی قواعد إبراهیم ، ویؤیده ما وقع عند مسلم فی بعض طرق حدیث عائشة رضی الله عنها ولفظه « لولا أن قومك حدیثو عهدی بکفر لأنفقتُ کنز الکعبة فی سبیل الله ، ولجعلت بابها بالأرض » الحدیث ، فهذا التعلیل هو المعتمد

قلت : لكن قد یقال : حیث ترکه النبی صلی الله علیه وسلم لهذه العلة ثم ترکه أبو بکر ثم عمر بعد اهتم به ورجوعه عن ذلك ثم من بعده فهو إجماع علی ترکه ؛ فلا تتعرض له ؛ لما یترتب علیه من الشناعة والله أعلم

قال السبكي : ولا يغلط في أن ذلك يصرف إلى فقراء الحرم ، فإنما يكون ذلك إذا كان الإهداء إلى الحرم أو إلى مكة ، أما إذا كان للكعبة نفسها فلا يصرف إلا إليها ، كأن تعرض لها عمارة فحينئذ ينظر : فإن كانت تلك الأموال قد أرصدت لذلك صرفت فيه ، وإلا فيختص بها الوجه الذي أرصد له ، فالمرصد للبخور مثلا لا يصرف للسترة

قال : وأما القناديل التي فيها والصفائح التي عليها فلا يصرف منها شيء ، بل تبقى على حالها ، وقول عمر « لقد هممت أن لا أدع فيها صُفرا ولا بيضا » محتمل للنوعين ، ولم ينقل إلينا صفتها التي كانت ذلك الوقت ، ومن قال أول من ذهب البيت في الإسلام الوليد لا ينبغي أن يكون البيت ذهب في الجاهلية وبقى إلى عهد عمر

قلت : قد نقل التقي الفاسي عن خط الحافظ رشيد الدين بن المنذرى في اختصاره لتاريخ المسبحي ما لفظه : وفيها — أى سنة خمس وستين — استتم ابن الزبير بناء الكعبة ، ويقال : إنه بناها بالرصاص المذوب المخلوط بالورس ، وجعل على الكعبة وأساطينها صفائح الذهب ومفاتيحها ذهبا ، اهـ . فإن صح فهو أولى ما يحتاج به

ثم نقل السبكي عن الرافعي أنه قال : لا يجوز تحلية الكعبة بالذهب والفضة وتعليق قناديلها . ثم نقل أن في تحلية الكعبة والمساجد بالذهب والفضة وتعليق قناديلها وجهين مرويين في الحاوى وغيره : أحدهما : الجواز ، تعظيما كافي المصحف ، وكما يجوز ستر الكعبة بالديباج ، وأظهرها المنع ؛ إذ لم ينقل ذلك عن فعل السلف ، ثم استشكل كلام الرافعي فقال : وأما التسوية بين الكعبة والمساجد فلا ينبغي ؛ لأن للكعبة من التعظيم ما ليس للمساجد ، بدليل جواز سترها بالحرير إجماعا ، وفي ستر المساجد به خلاف ، فحكاية الخلاف فيها مشكل . وترجيح المنع أشكل ، وكيف وقد فعل ذلك في صدر هذه الأمة ، وقد تولى عمر بن عبد العزيز

عمارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوليد وذَهَبَ سَقْفَهُ بأمره من غير مراجعة ، بل لما ولى الخلافة بعد ذلك أراد أن يزيل ما في جامع بنى أمية من الذهب فقليل له : إنه لا يتحصل منه شيء يقوم بأجرة حَكِّهِ ، فتركه . والصفائح التي على الكعبة يتحصل منها شيء كثير ، فلو كان فعلها حراما لأزالها في خلافته ، فلما تركها ومعه جميع من يحج كل عام وجب القطع بجوازها ، وهذا في تحلية الكعبة بالصفائح ، ولا منع من جريان الخلاف في التمويه لإزالة المالية ، ولا من إجراء الخلاف في سائر المساجد تمويهها وتحلية ، على أن القاضي حسين جَزَمَ بحل تحلية المسجد بالقناديل من الذهب ونحوها ، وأن حكمها حكم الحل المباح ، وهذا أرجح مما قال الرافعي ؛ لأنه ليس على تحريمها دليل ، والحرام من الذهب إنما هو استعمال المذكور له ، والأكل والشرب ونحوها ، وليس في تحلية المسجد بالقناديل ونحوها شيء من ذلك ، لكن لا أقول إنه ينتهي إلى حد القرُبة في سائر المساجد ، وتعليل الرافعي لما قاله بأن ذلك لم ينقل عن فعل السلف عجيب ؛ إذ لا يقتضي ذلك التحريم ، ومن حرم اتخاذ الآنية وهو الأصح فإنما حرمه لأن النفس تدعو إلى الاستعمال المحرم ، وذلك إذا كانت له ، وأما إذا جعلها للمسجد فلا تدعو النفس لذلك ، فكيف يحرم وهي لا تسمى أواني ؟

قال : ورأيت الحنابلة قالوا بتحريمها للمسجد ، وجعلوها من الأواني أو مَقِيسَةٍ عليها ، وليس بصحيح ، ومن يقول بجواز التحلية والقناديل في سائر المساجد فلا شك أنه يقول بها في المساجد الثلاثة بطريق الأولى ، ومن منع فلم يصرح في المساجد الثلاثة بشيء ، لكن عموم كلامهم يشملها ، وينبغي ترتيب الخلاف : ففي المساجد غير الثلاثة وجهان أصحهما الجواز ، ومسجد بيت المقدس أولى بالجواز ، والمسجد أن مسجد مكة ومسجد المدينة أولى منه ، ثم المسجدان على الخلاف في تفضيلهما ، وقد يقال إن مسجد المدينة أولى لمجاورة النبي صلى الله عليه وسلم وقصد تعظيمه بما في مسجده من ذلك ، هذا كله بحث ، والمنقول ما تقدم .

وهذا في الاتخاذ من غير وقف ، فإن وقف المتخذ من ذلك فقد قطع القاضي حسين والرافعي بأنه لا زكاة فيه ، وقد رجح الرافعي فيها التحريم . فكيف يرجح ذلك ؟ إذ مقتضاه صحة وقفها ، فاعل مراد الرافعي إذا وقفت على قصد صحيح وإذا فرغنا على صحة وقفها . قال : وهذا حكم المساجد في ذلك . وأما الحجرة الشريفة فتعلق القناديل فيها أمر معتاد من زمان ، ولا شك أنها أولى بذلك من غيرها ، والذين ذكروا الخلاف في المساجد لم يذكروها . وكم من عالم وصالح قد أتى للزيارة ولم يحصل من أحد إنكار لذلك .

فهذا وحده كافٍ في جواز ذلك مع ما تقدم ، واستقراء الأدلة فلم يوجد فيها ما يدل على المنع . قال : فنحن نقطع بالجواز ، والحجرة الشريفة هي بيت عائشة وما حوله ، وأشار إلى بيان أن ما حوله إما منه أو من بقية الحجر المدخلة في المسجد .

قال : والمدفن الشريف بالحجرة له شرف على جميع المساجد وعلى الكعبة ؛ فلا يلزم من المنع في المساجد والكعبة المنع هنا .

قال : ولم نر أحدا قال بالمنع هنا ، فما وقف من ذلك ! كراما لذلك المكان صح وقفه ، وإن اقتصر على إهدائه صح أيضاً كأنه دى للكعبة ، وكذلك المذكور له ، وقد يزاد هنا فيقال : إنه مستحق للنبي صلى الله عليه وسلم والنبي صلى الله عليه وسلم حي ، وإنما يحكم بانقطاع ملكه بموته عما كان في ملكه وجعله صدقة بعده .

وأما هذا النوع فلا يمتنع ملكه له ، وهو الذي في أذهان كثير من الناس حيث يقولون : هذا للنبي صلى الله عليه وسلم .

نم أورد ما رواه يحيى بن الحسين بسنده من الخبر الآتي في إجمار المسجد عن عبد الله بن محمد بن عمار عن أبيه عن جده قال : أتى عمر بن الخطاب بمجمرة من فضة فيها تماثيل ، فدفعها إلى سعد أحد المؤذنين ، وقال : أجمربها في الجمعة وفي

شهر رمضان ، فكان سعد يجمع بها بين يدى عمر بن الخطاب ، الخبر الآتى .
ثم قال : عبد الله بن محمد بن عمار بن سعد القرظ صغفه ابن معين ، وكذا
الراوى عنه ، ومحمد بن عمار حسن له الترمذى ، فلو سلم ممن دونه كان جيداً ،
ومقتضى اشتراط الفقهاء الاحتواء فى الجمرة عدم تحريم هذا الصنيع ، لكن
العرف دال على عد ذلك استعمالاً ، فإما أن يكون الحديث ضعيفاً ، وإما أن
يكون احتمال ذلك لأجل المسجد تعظيماً له ، فتكون القناديل بطريق الأولى ؛ إذ
لا استعمال فيها .

قال : ولا يجوز صرف شيء من قناديل الحجرة فى عمارتها . ولا فى عمارة
المسجد ؛ لأنها إنما أعدت للبقاء ، وليس قصد بها جهات إلا ذلك ، سواء وقفها
أو اقتصر على إهدائها .

قال : وقد سئلت عن جواز بيعها لعمارة المسجد النبوى ، فأنكرته واستقبحته ،
وكيف يبلغ ملوك الأرض أنابعا قناديل نبينا لعمارة حرمة ونحن نفديه بأنفسنا فضلاً
عن أموالنا ؟ وما برحت الملوك يفتخرون بعمارته .

قلت : وقد تعقبه جماعة ، والمحل قابل للمناقشة ، وليس ذلك من غرضنا ،
غير أنا نقول : ستر الكعبة بالديباج قام عليه الإجماع ، وأما التحلية بما ذكر
فلم يثبت عن من يحتج بفعله ، وترك عمر بن عبد العزيز يحتمل أعتاداً ليس هذا
محل بيانها .

وقد نقل الشيخ الموفق الإجماع على تحريم استعمال أواني الذهب ، والقناديل
من الأواني بلا شك ، واستعمال كل شيء بحسبه ؛ فاستعمال ما ذكر بتعليقه
للزينة ، وقد سلم تحريم اتخاذ الأبنية منها أيضاً .

وقد ذكر الجلال الكازرونى المدنى أشياء أئد بها كلام السبكي : منها أن
الله تعالى قال « فى بيوت أذن الله أن ترفع » قال : وهى بيوت النبى صلى الله

عليه وسلم ، قاله مجاهد . ومعنى ترفع تعظم ويرفع شأنها وتزين ، وتزيينها تعليق قناديل الذهب فيها ، وتطهر من الأنجاس والأقذار وتطيب .

قلت : قوله «ومن تعظيمها تعليق ذلك فيها» هو محل النزاع ؛ لأن من حرم ذلك لا يسلمه ، والله أعلم .

ومنها : أنه روى عن عثمان تعليق قناديل الذهب بالمسجد النبوى .
قلت : ولعله من اختلاف أعدائه عليه ، ولم أره مسطوراً في تأليف ، ولو كان له أصل لذكره مؤرخو المدينة

ومنها : أن عمر بن عبد العزيز فعله في بنيانه للوليد ولم يذكر عليه .
قلت : ولم أره في تأليف أيضاً .

ومنها : أنه روى أن سليمان بن داود عليه السلام بنى مسجد بيت المقدس ، وبالغ في زينته وتعليق القناديل فيه ، وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ .
قلت : لم ينقل تعليق داود عليه السلام لقناديل الذهب به ، ولو صح ذلك فالنسخ في شرعنا تحريم الآنية ، وهذا آنية ، وما تقدم عن السبكي في كونه ليس بآنية ممنوع .

ومنها : ما رواه الثعلبي في حديث إتيان المساجد يوم القيامة ، وفيه « وأتمتها يسوقونها ، وعمارها ومزينوها ومحلوها متعلقون بها » الحديث .

قلت : أخذ ذلك من رواية القرطبي عن الثعلبي ، كما رأيت في بعض النسخ ، وقد راجعت القرطبي أيضاً في ذلك فرأيت أنه روى الحديث المذكور من طريق الثعلبي ، وليس فيه « ومزينوها ومحلوها » بل لفظه « وعمارها متعلقون بها » .

ومنها : ما رواه سعيد بن رََبَّان - بالموحدة المشددة - قال : حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أبي هند قال : سَمَلَ تَمِيمٌ يعني الداريّ من الشام إلى المدينة قناديل وزيتاً ومقطاً وقنديلاً أو قنديلين من الذهب ، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة ، فأمر غلاماً يقال له أبو البراد ، فقام فبسط المقط وعلق القناديل ،

وصب فيها الماء والزيت ، وجعل فيها القُتْلَ ، فلما غربت الشمس أمر البراد فأسرجها ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، فإذا هو بها تَزْهَرُ ، فقال : من فعَلَ هذا ؟ قالوا : تميم الداري يا رسول الله ، فقال : نورت الإسلام ، وحليت مسجده ، نور الله عليك في الدنيا والآخرة ! - الحديث .

قلت : قد أخذ ذلك من تفسير القرطبي ، كما رأيت في بعض النسخ ، وفي بعضها إسقاط عمروة للقرطبي ، وقد راجعت تفسير القرطبي فرأيت أنه أورد الحديث المذكور بحروفه ، وليس فيه قوله « وقنديلا أو قنديلين من الذهب » ولا قوله « وحليت مسجده » .

ومنها : ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما دخل الشام تلقاه معاوية بعساكر وجنود كثيرة وخيول مسومة وأسلحة مُخَوَّصة بالذهب والفضة وابوس الحرير والديباج وزينة حسنة كزينة فارس والروم ، فقال عمر : ما هذا يا معاوية ؟ وما هذه الزينة والفخار ؟ لقد أتيت أمراً إمرأاً وارتقيت مرّاً تقى صعباً ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا غَيِّظَ كفارنا ، ومقهرة لأعدائنا ، وإن فرأى منهم لترتعد ، وإن قوائمهم لتتخوّر من ذلك ، وإنا لنجد بذلك المظهر عليهم والذلة والصغار فيهم ، وأشربوا في قلوبهم الرُّغْبَ حين يرون مساجدنا مُحَلَّاة بالذهب وسقوفها مُنْقَطَعة بقناديل الذهب - الخبر ، وفيه أن عمر سكت عنه .

قلت : الخبر ذكره المؤرخون ، ومثله لا تقوم الحجة به ، ولم أرفه الزيادة المتعلقة بتحلية المساجد ، وقد رأيت في بعض النسخ نسبة ذلك للذهبي في تاريخ الإسلام ، وأسقط العزّو في نسخة أخرى ، فليراجع ذلك من تاريخ الإسلام ، فإن لم يكن فيه هذه الزيادة فالذى يظهر لي أن بعض المتعصبين ألحق هذه الأشياء في الروايات المتقدمة ليتم بها الاستدلال ، فإن المسألة وقع فيها تعصبات ، وكان الجمال الكازروني إنما أراد إفادة أصل وضع القناديل ، وذكر ما يشعر بهذا الأمر ، فلما رأى ذلك المتعصب أن الاستدلال لا يتم إلا بذلك ألحقه ، ولم يشعر أنه

لو كان ذلك موجودا لم يكن فيه حجة لعدم اتصال السند الصحيح في ذلك.
ومن تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله لم يخفَ عليه أن كل ذلك
لم يكن يعجبه في حياته ، هذا الذي اعتقده ، والله أعلم .

الفصل السادس والعشرون

في الحريق الأول القديم المستولى على تلك الزخارف المحدثنة بالحجرة الشريفة
والمسجد وسقفهما ، وما أعيد من ذلك ، وما تجدد من توسعة المسقف القبلي بزيادة
الرواقين فيه ، وغير ذلك .

سبب الحريق
وتاريخه

قال المؤرخون : احترق المسجد النبوي ليلة الجمعة أول شهر رمضان من
سنة أربع وخمسين وستمائة في أول الليل ، ونقل أبو شامة أن ابتداء حرقه كان
من زاويته الغربية من الشمال ، وسبب ذلك - كما ذكره أكثرهم - أن أبا بكر
ابن أُوَحد الفَرَّاش أحدَ القَوَّام بالمسجد الشريف دخل إلى حاصل المسجد هناك
ومعه نار ، فغفل عنها إلى أن عُلِقَتْ في بعض الآلات التي كانت في الحاصل ،
وأُنْجِزَه طِفْئُهَا ، ثم احترق الفَرَّاش المذكور والحاصل وجميع ما فيه .

وقد صَنَّفَ الْقُطْبُ الْقُسْطَلَانِي في ذلك وفي النار المتقدم ذكرها في الفصل
الثالث من الباب الثاني وهي نار الحجاز التي ظهرت بالمدينة الشريفة في ذلك العام
كتابا سماه «عروة التوثيق ، في النار والحريق» ذكر فيه بدائع من حكم الله تعالى
في حدوث ذلك ، وقد كان القطب بمكة حين وقع ذلك ، وقد نبه فيه على
ما يوافق ما تقدمناه عن المؤرخين .

فقال : كتب إلى الصادق في الخبر ، وشافهني مَنْ شَاهَدَ الْأَنْرَ ، أن السبب
في حريق المسجد الشريف دخول أحد قَوَّامَة المسجد في المخزن الذي في الجانب
الغربي من آخر باب المسجد لاستخراج قناديل لمناظر المسجد ، فاستخرج منها
ما احتاج إليه ، ثم ترك الضوء الذي كان في يده على قَفَص من أقفاص القناديل

وفيه مشاق ، فاشتعل فيه ، وبادر لأن يطفئه فغلبه وعَلِقَ بِحُصْرٍ وَبَسُطَ وَأَقْفَاصَ
وقصب كان في المخزن ، ثم تزايد الالتهاب وتضاعف إلى أن علا إلى سقف
المسجد ، انتهى .

وفي العبر للذهبي أن حرقه كان من مسرحية القوّام .
قال المؤرخون : ثم دبت النار في السقف بسرعة آخذة قبـله ، وأعجلت
الناس عن إطفائها بعد أن نزل أمير المدينة فاجتمع معه غالب أهل المدينة فلم يقدرُوا
على قطعها ، وما كان إلا أقل من القليل حتى استولى الحريقُ على جميع سقف
المسجد الشريف واحترق جميعه حتى لم تَبْقَ خشبة واحدة .
قلت : لعل مرادهم لم تبق خشبة كاملة ؛ لما قدمناه من مشاهدة بقايا خشب
كثير عند إخراج الهدم الذي كان بالحجرة .

قال القطب القسطلاني : وتَلَفَ جميعُ ما احتوى عليه المسجد الشريف من
المنبر النبوي والأبواب والخزائن والشبابيك والمقاصير والصناديق وما اشتملت
عليه من كتب وكسوة الحجرة وكان عليها إحدى عشرة ستارة .

حكمة الله في
الحريق

ثم ذكر القطب حِكْمًا لذلك وأسراراً ، ـ ـ ـ تكون تلك الزخارف لم تُرَضِّهِ
صلى الله عليه وسلم ، وككون القلوب لما لاحظت المساجد الثلاثة بعين التعظيم
ولا يجوز في ذلك أن تنزل فوق قدرها ، بل لابد أن يعتقد أن صفة قهره تعالى
وعظمته مستولية على الجميع ؛ فهو الواحد القهار ، فوق الحريق في الكعبة وبيت
المقدس قديماً ، ثم وقع بهذا المسجد في هذا الزمان عقب ظهور المعجزة العظيمة
في ظهور نار الحجاز التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم وحماية جيرانه منها لما
التجؤا إليه وانطفأها عند الوصول إلى حرمة كما سبق ، وربما خطر ببال العوام
أن حبس النار عنهم ببركة الجوار مُوجب لحبسها عنهم في الآخرة ، فاقتضى
الحال التبيين بذلك .

ونظم الأفشهرى أبياتاً مضمونها أن تسليط النار كان على تلك الزخارف

المنهى عنها ، وأن ما كان حقا فيبقى ، وما كان زورا فبالنار يحرق ، قال : وأنشدني الحافظ الصالح الشيخ إبراهيم بن محمد الكفائي رئيس المؤذنين هو وأبوه قال :
وجد بعد الحزيق في بعض جدران المسجد بيتان وهما :

لم يحترق حَرَمُ النَّبِيِّ لِرَيْبَةٍ يَخْشَى عَلَيْهِ وَمَا بِهِ مِنْ عَارٍ
لَكِنَّا أَيْدِي الرُّوَافِضِ لَأَمَسَتْ تِلْكَ الرَّسْمُومُ فَطَهَّرَتْ بِالنَّارِ
قلت : وأوردها المجد بلفظ :

لم يحترق حرم النبي لحادثٍ يُخْشَى عَلَيْهِ وَلَا دَهَاءَ الْعَارِ
لَكِنَّا أَيْدِي الرُّوَافِضِ لَأَمَسَتْ ذَاكَ الْجَنَابَ فَطَهَّرَتْهُ النَّارُ
وأورد بعدها بيتين آخرين هما :

قل للروافض بالمدينة ما بكم لقيادكم للذم كل سفيه
ما أصبح الحرم الشريف محرقا إلا لسبكم الصحابة فيه

قلت : وهذا لأن الاستيلاء على المسجد والمدينة كان في ذلك الزمان للشيعة وكان القاضي والخطيب منهم ، حتى ذكر ابن فرحون أن أهل السنة لم يكن أحد منهم يتظاهر بقراءة كتب أهل السنة

قال المؤرخون : ولم يسلم سوى القبة التي أحدثها الناصر لدين الله لحفظ ذخائر الحرم مثل المصحف الكريم العثماني وعدة صناديق كبار متقدمة التاريخ صنعت - يعني تلك الصناديق - بعد الثلاثمائة ، وهي باقية إلى اليوم ، يعني في زمانهم ، وذلك لكون القبة المذكورة بوسط صحن المسجد وبركة المصحف الشريف العثماني وكانت عمارة القبة المذكورة - على ما ذكره ابن فرحون - سنة ست وسبعين وخمسمائة

قالوا : وبقيت سَوَارِي المسجد قائمة كأنها جُدُوع النخل إذا هبت الرياح تتمايل ، وذاب الرصاص من بعض الأساطين فسقطت ، ووقع السقف الذي كان على أعلى الحجرة على سقف بيت النبي صلى الله عليه وسلم فوقها جميعا في الحجرة

الشريفة وعلى القبور المقدسة . وعبارةُ الذهبي وتبعه التقى السبكي : فوق بعضُ سقفِ الحجرة ، وكل ذلك قبل ان ينام الناس ، وأصبحوا يوم الجمعة فعزلوا موضعا للصلاة ، وكتب بذلك للخليفة المستعصم بالله أبي أحمد عبد الله بن المستنصر بالله في شهر رمضان ، فوصلت الآلات صحبة الصنائع مع ركب العراق في الموسم ، وابتدئ بالعمارة أول سنة خمس وخمسين وستمائة .

الشروع في
العمارة بعد
الحريق

قال المطري : ولما شرعوا في العمارة قصدوا إزالة ما وقع من السقوف على القبور الشريفة فلم يجسروا على ذلك ، واتفق رأى صاحب المدينة يومئذ - وهو الأمير منيف بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهني الحسيني - ورأى أكابر أهل الحرم الشريف من المجاورين والحدّام أن يطالع الإمام المستعصم بذلك ليفعل ما يصل به أمره ، فأرسلوا بذلك ، وانتظروا الجواب ، فلم يصل إليهم جواب لاشتغال الخليفة وأهل دولته بإزعاج التتار لهم ، واستيلائهم على أعمال بغداد في تلك السنة ، فتركوا الرّدم على ما كان عليه ، ولم ينزل أحد هناك ، ولم يتعرضوا له ولا حركوه .

وعبارة المجد الشيرازي : فتركوا الردم على ما كان عليه ، ولم يجسر أحد على التعرض لهذه العظيمة التي دون مرامها تزل الأقدام ، ولا يتأتى من كل أحد بادئ بدئه الدخول فيه والإقدام .

قلت : وقد كنت في تعجب عظيم من أهل ذلك الزمان في تركهم لذلك ، وألفت كتابا سمّيته « الوفا ، بما يجب لحضرة المصطفى » بينت فيه أن الواجب في سلوك الأدب مع هذا النبي العظيم والقيام بما وجب على الأمة من تعظيمه وتعظيم قبره الشريف هو إزالة ذلك عنه وقمّه من حجرتة الشريفة ، حتى اتفقت العمارة الآتية بيانه ، ولم يكن تأليني السابق سببا في شيء من ذلك كما سيأتى بيانه ، حتى إنى لم أطلع عليه متولى العمارة إلا بعد هدمه لشيء من جدار الحجرة ، فلما نقبوا الجدار الظاهر شاهدت بين الجدارين في الفضاء الذي خلف الحجرة

أمراً مهولاً من الهدم الذي خصّ ذلك الموضع ، فإنه كما سيأتى كان فيه نحو القامة ، فعلمت أن أهل ذلك الزمان لم يتركوه إلا لعلمهم بأن إزالته لا تنأتى إلا بانتهاك الحرمه ، فتوقفوا فى ذلك ، فجزاهم الله تعالى خيراً ، وما كنت أعتقد إلا أنه أمر خفيف يتأتى قمه مع رعاية الأدب ، فوجدته أمراً مهولاً معظّمه رَدَمُ سقف المسجد الأعلى وما بين السقفين من البناء الذى على رؤوس السوارى وغير ذلك ، ولذلك استخرتُ الله تعالى فى عدم حضور ذلك عند إخراجہ ، ووقفتُ بين يَدَيِ النبى صلى الله عليه وسلم وسألت منه المددَ فى أن يوقنى الله تعالى لما يرضيه فى ذلك ، فحفظنى الله من حضور ذلك .

وقال المطرى عقب قوله ولم يتعرضوا له ولا حركوه : إني أعادوا سقفا فوقه على رؤوس السوارى التى حول الحجرة الشريفة ؛ فإن الحائط الذى بناه عمر ابن عبد العزيز حول بيت النبى صلى الله عليه وسلم بين هذه السوارى التى حول بيت النبى صلى الله عليه وسلم لم يبلغ به السقف .

قلت : تبع المطرى على ذلك مَنْ جاء بعده ، فتوافقوا على أنهم لم يجعلوا للحجرة بعد الحريق سقفا ؛ لأن السقف الذى على رؤوس السوارى هو سقف المسجد ، فاقتضى ذلك أنهم جعلوا سقف المسجد سقف الحجرة ، وذكروا أنهم أداروا الشباك على رأس جدار عمر بن عبد العزيز حتى بلغوا به سقف المسجد ؛ وأول شيء ابتدأوا به من سقف المسجد ما حاذى الحجرة الشريفة منه ، وفيه مخالفة لما شاهدناه فى العمارة الآتى بيانها ، فإنهم وجدوا عليها سقفا مربعا على جدارها الداخل ، ويتصل بالخارج من المشرق والمغرب ، وهو دوين رأس الجدار الخارج بنحو شبر ، ثم تبين عند كشفه آثار السقف المنهدم وأن أخشابه كانت فى الجدار الداخل ، ولم يعيدوا هذا السقف المجدد موضع الأول ؛ لأنه لا يتأتى إلا بهدم سترته وإصلاح أما كن لرؤوس الخشب ، فتركوا ذلك تأديبا واحتراما ، ووضعوا ذلك السقف على أعلى سترة الجدار ، وبنوا فوقه سترة لطيفة ، وجعلوا

على ذلك السقف سـتارة من المحابس اليمنية المبطنة بقماش أزرق مربوطة بمقط في الشباك الذي بأعلى الحائز الظاهر ، وليس ذلك السقف مطينا ، وهو سقف محكم من ألواح نخينة جداً من الساج الهندي ، وسمروا بعضها إلى بعض على قوائم من خشب ، وجعلوه أربع قطع كل قطعة كالباب العظيم ، وجعلوا عند ملتقى كل قطعتين من تلك القطع مقصاة من حديد ، وكَلَّبُوا بعضها إلى بعض تكليباً محكماً ، وجعلوا تحته ثلاث جزم من الساج الهندي تحمله ، وأوصلوا أطراف تلك الألواح بالجدار الظاهر كما تقدم ، ولم يجعلوا في تلك الألواح دهانا ولا نقوشا ولا كتابة ، غير أن النجار الذي صنع السقف المذكور كتب اسمه على طرفه نقرا ، وكذلك سقف المسجد الحاذي للحجرة الشريفة مما يلي هذا السقف جميعه من الساج النقي ليس عليه دهان ولا نقوش وفي وسطه طابق عليه قفل فوته أنطاع ومشمع ، ولم يزل موجودا إلى أن عملت القبة الثانية بعد الحريق الثاني ، وجعلوا على جدار الحجرة الداخل من جهة الشام ألواحاً من رأس الجدار إلى سقف المسجد .

والعجب أنهم عند رفع هذا السقف وجدوا جزمتين من الأخشاب التي تحته قد تآكلتا ولم يبق إلا جزمة واحدة ، ومع ذلك كانت كافية في حمله ، فجزى الله تعالى أهل ذلك الزمان خيراً ، والظاهر أن ذلك فعل عند إعادة سقف المسجد الذي ذكره المطري .

وانرجع إلى ما ذكره عقب ما تقدم عنه ، قال : وسقفوا في هذه السنة - وهي سنة خمس وخمسين - الحجرة الشريفة وما حولها إلى الحائط القبلي وإلى الحائط الشرقي إلى باب جبريل عليه السلام المعروف قديماً بباب عثمان ، ومن جهة المغرب الروضة الشريفة جميعها إلى المنبر الشريف .

ثم دخلت سنة ست وخمسين وسبعمائة فكان في الحرم منها وافعة بغداد واستيلاء التتار عليها وقتلهم الخليفة المذكور مع أهلها .

قلت : وهي من أعظم الوقائع ، وقد ذكرتها في كتابي « الوفا » وأشرت

إليها في الفصل الثالث من الباب الثاني عند ذكر نار الحجاز ، وذكرت ما أفاده الذهبي من استيلاء الحريق على بغداد أيضاً حتى تربة الخلفاء ، وكانوا في العام قبله قد أشرفوا على الفرق ، فسبحان الملك العظيم .

قال المطري عقب ما تقدم : فوصلت الآلات من مصر ، وكان المتولى عليها حينئذ الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعز عز الدين أيبك الصالحى ، ووصل أيضاً آلات وأخشاب من صاحب اليمن يومئذ وهو الملك المظفر شمس الدين يوسف بن منصور عمر بن علي بن رسول ، فعملوا إلى باب السلام المعروف قديماً بباب مروان ، ثم عزل صاحب مصر المذكور - يعنى فى آخر سنة سبع وخمسين فى ذى القعدة منها - وتولى مكانه مملوك أيبه الملك المظفر سيف الدين قطز المعزى ، واسمه الحقيقى محمود بن ممدود ، وأمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، وأبوه ابن عمه أسر عند غلبة التتار ، فبيع بدمشق ، ثم انتقل بالبيع إلى مصر ، وتملك فى سنة ثمان وخمسين .

قلت : إنما ولى فى يوم السبت ثامن عشر ذى القعدة من سنة سبع ، وفى شهر رمضان من سنة ثمان كانت وقعت عين جالوت التى أعز الله فيها الإسلام وأهله على يديه ، ولم يستكمل فى ملكه السنة بكاملها ، بل قتل بعد الواقعة بشهر وهو داخل إلى مصر ، فكان العمل بالمسجد الشريف تلك السنة من باب السلام إلى باب الرحمة المعروف قديماً بباب عاتكة ، ومن باب جبريل إلى باب النساء المعروف قديماً بباب رَيْطَة بنة أبى العباس السفاح ، وتولى مصر آخر تلك السنة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى ، ويعرف بالبندقدارى ، فعمل فى أيامه باقى سقف المسجد الشريف من باب الرحمة إلى شمالى المسجد ، ثم إلى باب النساء ، وكمل سقف المسجد كما كان قبل الحريق سقفاً فوق سقف .

قلت : وذكر المؤرخون أن الظاهر ركن الدين المذكور لما ولى حصل منه الاهتمام بذلك ؛ فجهز الأخشاب والحديد والرصاص ، ومن الصنائع ثلاثة وخمسين

صانعا وما يمونهم ، وأنفق عليهم قبل سفرهم ، وأرسل معهم الأمير جمال الدين محسن الصالحى وغيره ، ثم صار يمدهم بما يحتاجون إليه من الآلات والنفقات ، ثم لم يزل المسجد على ذلك حتى جددوا السقف الشرقى والسقف الغربى - أى الذى عن يمين صحن المسجد وشماله - فى سنتى خمس وست وسبعائة فى أوائل دولة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى ، فجعلوا سقفاً واحداً نسبة السقف الشمالى أى سقف الدكاك فإنه جعل فى عمارة الملك الظاهر كذلك .

ثم فى سنة تسع وعشرين وسبعائة أمر السلطان الملك الناصر محمد المذكور بزيادة رواقين فى المسقف القبلى متصلين بمؤخره ، فاتسع مستقفه بهما وعم نفعهما . قلت : ثم حصل فيهما خلل فجدهما الملك الأشرف برسبأى فى ذى القعدة سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة على يد مقبل القديدى من مال جوالى قبرص ، على ما أخبرنى به بعض مشايخ الحرم ، ورأيت مکتوباً كذلك باللوح التى كانت بظاهر العقود من المسقف القبلى مما بلى رحبة المسجد ، وهو سقف واحد فى مؤازرة سقف المسجد الأسفل ، ولذلك صار سقف مقدم المسجد القديم مرتفعاً من أعلاه على هذين الرواقين وغيرهما من بقية المسجد ، وله باب يدخل إليه من بين السقفين شارع فى مبدأ الرواقين المذكورين مما بلى المشرق ، وجدد الأشرف المذكور أيضاً شيئاً من السقف الشامى مما بلى المنارة السنجارية ، ثم حصل خلل فى سقف الروضة الشريفة وغيرها من سقف المسجد فى دولة الظاهر جقمق فجدد ذلك فى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وما قبلها على يد الأمير بردبك الناصر المعمار وغيره . ثم فى دولة مولانا السلطان الملك الأشرف قايتبأى أدام الله تعالى نبيه ونصره أنهى إليه احتياجُ سقوف المسجد الشريف للعمارة فبرز أمره الشريف بذلك كما ستأتى الإشارة إليه للجناب الخواجهكى الشمسى شمس الدين بن الزمن أعزه الله بعز طاعته ، فحضر لذلك فى أثناء سنة تسع وسبعين صُحبة أمير جدة ورتب أمر العمارة وسافر صحبته أيضاً ، فهدموا عقود المسجد التى تلى رحبته من

جهة المشرق وسقف الرواق الذي كان عليها ؛ لاقتضاء نظرهم ذلك ، ونقضوا بعض أساطينه فوجد بعضها لارصاص فيه ، وبعضها فيه رصاص ، ثم أعادوا ذلك في سنتهم ، وهدموا أيضاً جانباً من سور المسجد الشريف مما يلي المشرق من جهة المنارة الشرقية المعروفة بالسنجارية من باب سُمّها ، وهو الباب الثاني جوف بابها الظاهر ، إلى ما يوازي حرف الدكاك من القبلة . وذلك آخر المسقف الشامي ، ومقدار ذلك سبعة وعشرون ذراعاً بذراع اليد المتقدم وصفه ، هدموا ذلك من أعلاه إلى أسفله ، وبلغوا به دك الأس القديم ، وظهر في أصل جدار المنارة المذكورة انشقاق وكانت تضطرب عند الهدم بحيث خشي سقوطها ، فسكبوا في ذلك الشق كثيراً من الجص المذاب حتى امتلأ ، وكان ما هدموه من سور المسجد وعقوده مبنياً بالجص السكب ، فذكر مهندس العمارة أن الجدار إنما اختل لأن السباح له تأثير في إذابة الجص ، واقتضى رأيه أن يؤسسه بالطين والنورة المخلوطة بناعم الحصباء ، ففعلوا ذلك في الجدار المذكور كله وفي العقود المذكورة أيضاً ، وكحلوا أطراف وجوه الأحجار بالجص من داخل المسجد وخارجه ، ورفعوا السقف الكائن أمام المنارة المذكورة إلى جنب ما هدموه من الجدار المذكور ، وأعادوا ذلك من سنتهم أيضاً . ثم اتفقت أمور اقتضت تأخير العمارة ، فتمطلت في سنة ثمانين . ثم ورد الخواجا الشمسي ابن الزمن إلى المدينة الشريفة صحبة أمير جدة في جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وأقام لمباشرة العمارة بنفسه ، فرفعوا سقف الروضة الأعلى وما اتصل به مما حول القبة الزرقاء الآتي ذكر عملها بأعلى الحجرة الشريفة في سقف المسجد الأعلى ، ورفعوا أيضاً شيئاً مما يلي ذلك من جهة ما يوازي غربي المنبر الشريف لتكسر كثير من أخشابه ، وكان ذلك السقف مع بقية سقف مقدم المسجد على عبارات من خشب موضوعة على أبنية فوق رؤوس السراي بعرض تلك السوازي ، كما أن السقف الأسفل المشاهد مما يلي المسجد موضوع على عبارات كذلك فوق رؤوس السوازي ، فاقتضى رأى متولى العمارة

إبدال تلك الأخشاب بعقود من آجر كهيئة القناطر التي حول رحبة المسجد ، ورأى أن ذلك أبقي وأحكم من الأخشاب ، مع أن عبارات السقف الأسفل كما قدمناه على رؤوس السواري بأصل تلك العقود ، ولكنه رأى الإحكام في ذلك ، ففعله في القطعة التي رفعها من السقف المذكور فقط ، ووضع أخشاب ذلك السقف على تلك القناطر ، فارتفع بسببه ذلك المكان من السقف الأعلى على بقية ما حوله منه ، وصار الماشي بين السقفين في تلك الجهة يمشي منتصباً أو منحنيًا قليلاً ، وكان لا يتأتى قبل ذلك المشي هناك إلا مع انحناء كثير ، وتلك القناطر موضوعة على ما يحاذي صف الأساطين التي هي قبلة الروضة والمصلى الشريف من أولها من جهة المشرق إلى الأسطوانة التي تلي المنبر من جهة المغرب وعلى ما يحاذي الصف الثاني وهو صف أسطوان عائشه رضي الله عنها في موازاة الصف المتقدم ذكره من المشرق إلى المغرب ، وعلى ما يوازي الصف الثالث وهو صف أسطوان المحرس من المشرق إلى المغرب أيضاً ، وأما ما يوازي صف أسطوان الوفود فقد كان عليه بناء حائط حاجز لما بين السقف الأسفل والأعلى فيه باب يدخل منه إلى ما بين السقفين ، فهدموا ذلك الحائط ، وأحكموا بناءه ، وجعلوا أطراف الخشب عليه أيضاً ، فهذه الثلاثة الأروقة هي التي ارتفع سقفها الأعلى على ما حوله من الأساطين اللاصقة بالمقصورة إلى الأساطين التي تلي المنبر وصار سقف الرواقين اللذين بين الروضة والجدار القبلي مع سقف ما يحاذي الحجرة الشريفة إلى الجدار الشرقي وسقف ما كان غربي المنبر من مقدم المسجد كله منخفض عن ذلك .

ووجدوا أخشاباً كثيرة متفرقة نحو الأربعين من السقف الأعلى أيضاً قد تكسرت ، فزرقوا بدلها ، ووضعوا إلى جانب بعضها أخشاباً مزرقه ، وسمروها من غير كشف للسقف ، وقاموا السقف الأسفل الذي بالرواق الشرقي مما يلي الأرجل الشريفة ، وجانباً من سقف رواق باب جبريل إلى باب النساء ، وسقف

الرواق الأوسط الذى يلى الرواق الذى سبقت عمارتهم إياه فى العام الماضى ، وأعادوا ذلك ، وقلعوا السقف الأسفل المحاذى لموقف الزائر من تجاه الوجه الشريف وكان من أقدم السقف ، ومع ذلك تعبوا فى قلعه أكثر من غيره لإتقانه وإحكامه فإنه من عمل الأقدمين ، وأظهروا اسم الظاهر بيبرس عليه ، ثم أعادوه وأصلحوه شيئاً فى المسقف الشامى وغيره ، وجددوا أيضاً دهان بعض السقف التى حول الحجرة داخل المقصورة التى تعرف اليوم بالحجرة من غير قلع لتلك السقف . ثم احترق ذلك كله فى جملة حريق المسجد الثانى الآتى ذكره فى الفصل التاسع والعشرين ، وجعلوا سقف المسجد عند إعادته سقفاً واحداً جميعه كما سيأتى .

الفصل السابع والعشرون

فى اتخاذ القبة الزرقاء التى جعلت على ما يحاذى سقف الحجرة الشريفة بأعلى سقف المسجد ، تمييزاً لها ، وإبدالها بالقبة الخضراء والمقصورة الدائرة بالحجر الشريفة .

أما القبة المذكورة فاعلم أنه لم يكن قبل حريق المسجد الشريف الأول القبة الزرقاء وما بعده على الحجرة الشريفة قبة ، بل كان حول ما يوازي حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فى سطح المسجد حظير مقدار نصف قامة مبنية بالآجر تمييزاً للحجرة الشريفة عن بقية سطح المسجد ، كما ذكره ابن النجار وغيره ، واستمر ذلك إلى سنة ثمان وسبعين وستمائة فى أيام الملك المنصور قلاوون الصالحى ، فعملت تلك القبة ، وهى مربعة من أسفلها مثمثة من أعلاها بأخشاب أقيمت على رؤوس السوارى ، وسمر عليها ألواح من خشب ، ومن فوقها ألواح الرصاص ، وفيها طاقة إذا أبصر الشخص منها رأى سقف المسجد الأسفل الذى فيه الطابق ، وعليه المشمع المتقدم ذكره ، وحول هذه القبة على سقف المسجد ألواح رصاص مفروشة فيما قرُب منها ، ويحيط به و بالقبة درابزين من الخشب جعل مكان الحظير

الآجر ، وتحتة أيضاً بين السقفين شبك خشب يحكيه محيط بالسقف الذي فيه الطابق ، وعليه المشمع المتقدم ذكره ، ولم أرفى كلام مؤرخى المدينة تعرض لمن تولى عمل هذه القبة .

ورأيت فى « الطالع السعيد الجامع أسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » فى ترجمة الكمال أحمد بن البرهان عبد القوى الربعى ناظر قوص أنه بنى على الضريح النبوى هذه القبة المذكورة ، قال : وقصد خيراً وتحصيل ثواب ، وقال بعضهم : أساء الأدب بعلو التجارين ودق الخطب ، قال : وفى تلك السنة وقع بينه وبين بعض الولاة كلام ، فوصل مرسوم بضرب الكمال ، فضرب ، فكان من يقول إنه أساء الأدب [يقول :] إن هذا مجازاة له ، وصادره الأمير علم الدين الشجاعى ، وخرب داره ، وأخذ رخامها وخزائنها ، ويقال : إنهم بالمدرسة المنصورية اه .

ويؤيد ما نقله عن بعضهم ما رواه أبو داود فى سننه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « خَرَجَ فرأى قبة مُشْرِفة ، فقال : ما هذه ؟ قال له أصحابه : هذه لفلان ، رجلٍ من الأنصار ، قال : فسكت وحملها فى نفسه ، حتى إذا جاء صاحبها رسول الله صلى الله عليه وسلم سلم عليه فى الناس فأعرض عنه ، صنع ذلك مراراً ، حتى عرف الرجل الغضب فيه والإعراض عنه ، فشكا ذلك إلى أصحابه ، فقال : والله إنى لأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : خرج فرأى قبتك ، قال : فرجع الرجل إلى قبته فهدمها حتى سَوَّاهَا بالأرض ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، فلم يرَها ، قال : ما فعلت القبة ؟ قالوا : شكا إلينا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها ، فقال : أما إنَّ كلَّ بناء وَبَّالٌ على صاحبه إلا مالا إلا مالا » أى إلا مالا بد منه

وقد جُدِّدَت هذه القبة فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون ، فاخْتَلَّت الألواح الرصاص عن وضعها ، فخشوا من كثرة الأمطار ، فجُدِّدَت

وأحكمت في أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد في سنة خمس وستين وسبعمائة ، قاله الزين المراغى

وقد ظهر في بعض أخشابها خلل في سنة إحدى وثمانين وثمانمائة فعصدها متولى العمارة الشمس بن الزمن بأخشاب سميت معها ، وقلع ما حولها من ألواح الرصاص التي على أعلى السطح بينها وبين الدرابزين المتقدم ذكره ، فوجدوا تحت ذلك أخشابا قد تأكلت من طول الزمان وندأوة مياه الأمطار فأصلحوا ذلك وأعادوه بعد أن أضافوا إليه كثيرا من الرصاص من حاصل المسجد ومما أحضر من مصر ، وجددوا الدرابزين المحيط بها أيضا ، وقد كانت مياه الأمطار تتسرب من بين تلك الألواح وتصل إلى سقف الحجرة الشريفة ، فإن آثار المياه قد وجدت هناك ، وأثرت في الشباك الذى بأعلى حائز عمر بن عبد العزيز بحيث تأكل بعضه ، فأصلحه متولى العمارة أيضا ، وأثرت الأمطار أيضا في الستارة التي على سقف الحجرة الشريفة بحيث تأكل بعضها ، ثم احترق ذلك كله في حريق المسجد الثانى ، فاقضى رأيهم تأسيس القبة البيضاء الموجودة اليوم على دعائم بأرض المسجد وعقود من الآجر ، وجعلوا تلك الدعائم في موازاة الأساطين التي كان بينها درابزين المقصورة الآتى وصفها ، وزادوا من جهة الشام دعائم بعضها عند المثلث الذى بالحجرة الشريفة من بناء عمر بن عبد العزيز ، وزادوا هناك أسطوانا ، وعند التأسيس لذلك وجدوا عند صفحة المثلث الشرقية قبرا بدا لحدّه وبعض عظامه ، وإن صح القول بدفن فاطمة رضى الله عنها في بيتها كما ستأتى الإشارة إليه فهو قبرها ، وأبدلوا بعض الأساطين بدعائم ، وأضافوا إلى بعضها أسطوانة أخرى ، وقرنوا بينهما ليتأتى لهم العقد عليها ، وحصل فيما بين جدار المسجد الشرقى وبين تلك الدعائم ضيق لاتحاد بعض تلك الدعائم هناك ، فخرجوا بجدار المسجد الشرقى في البلاط الذى بلى الجدار المذكور نحو ذراع ونصف ، فإنهم هدموا ذلك الجدار ، وأعادوه إلى باب جبريل عليه السلام ، ولم ينقلوا باب جبريل عن محله

ثم إن القبة المذكورة تشققت من أعاليها ولم ينفع الترميم فيها ، فقوض السلطان للشجاعى شاهين الجمالى النّظر فى أمرها وأمر المنارة الرئيسية أيضا عند توليته شيخ الحرم الشريف ، فاقضى رأيه بعد مراجعة أهل الخبرة هدم أعالي المنارة المذكورة واختصار قليل منها ، فاتخذ أخشابا فى طاقاتها وجعل عليها سقفا يمنع ما يسقط عند الهدم للحجرة الشريفة ، ثم هدم أعاليها وأعاد بناءها أحكم من البناء الأول ، بحيث حمل لها الجبس الأبيض من مصر وجعله فى بنائها ، فجاءت محسنة محكمة ، وأزيل ذلك السقف عند تمامها ، وذلك فى عام اثنتين وتبعين وثمانمائة

المقصورة
الدائرة على
الحجرة

وأما المقصورة الدائرة على الحجرة الشريفة بين الأساطين حول جدار الحجرة الظاهر وحول بيت فاطمة رضى الله عنها فقد أحدثها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، وذلك أنه لما حج سنة سبع وستين وستمائة أراد أن يجعل على الحجرة الشريفة درابزينا من خشب - وهو المقصورة المذكورة - فقاس ما حول الحجرة الشريفة بيده وقدره بحبال وحملها معه ، وعمل الدرابزين ، وأرسله فى سنة ثمان وستين ، وأداره عليها ، وعمل له ثلاثة أبواب قبلها وشرقا وغربا ، ونصبه بين الأساطين التى تلى الحجرة إلا من ناحية الشام فإنه زاد فيه إلى متهجد النّبي صلى الله عليه وسلم

ثم زيد لهذه المقصورة باب رابع أحدث عند زيادة الروافين المتقدم ذكرها فى سنة تسع وعشرين وسبعائة ، وهو من جهة الشمال فى رحبة المسجد ، وكان عليه قبل الحريق الأول سقف مرتفع يحيط به رفر ، ثم أحدث هذا الباب ، وأمامه من جهة رحبة المسجد سقف لطيف أيضا نحو ستة أذرع دوين السقف المتقدم وجعل له رفر أيضا يمنع الشمس ، وبسط تحته الرخام الملون شبه الرخام الذى تقدم ذكره حول حائز عمر بن عبد العزيز بالأرض داخل هذه المقصورة ، وذلك فى دولة الظاهر جقمق سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة

قال الزين المرائي : وأعلم أن الذي عمله الملك الظاهر - أي ركن الدين - من الدرايزين نحو القامتين ، فلما كان في سنة أربع وتسعين وستمائة زاد عليه الملك العادل زين الدين كتبغا شباكاً دائراً عليه ، ورفعته حتى وصله سقف المسجد ، انتهى .

وقد جدد متولى العمارة المتقدم ذكره بعض هذه المقصورة أيضاً مما يلي الروضة الشريفة في العمارة الأولى ، ثم احترقت في الحريق الثاني ، فجعلوا بدلها شبابيك من النحاس في جهة القبلة ، وعلى أعلاها شبكة من شريط النحاس كالزرد ، بين أخشاب متصلة بالعقود المحيطة بالحجرة الشريفة ، وجعلوا لبقيتها من جهة الشام وما اتصل بها من المشرق والمغرب مشبكاً من الحديد المشاجر ، وبأعلاه شريط النحاس أيضاً ، وأحدثوا مشبكاً من الحديد المشاجر أيضاً لم يكن قبل ذلك ، جعلوه فاصلاً بين الرحبة التي خلف مثلث الحجرة الشريفة وبينها ، وبها بعض المثلث المذكور ، وبه بابان أحدهما عن يمين المثلث ، والآخر عن يساره ، وصار هذا المشبك متوسطاً بين مشبك الحجرة الشامي وما يقابله . وقد صارت هذه المقصورة تعرف بالحجرة الشريفة ، وأبوابها بأبواب الحجرة ، وما يعلق بسقفها بقناديل الحجرة كما تقدم في عبارة السبكي .

وفي كلام البدر ابن فرحون ما يقتضي أنه كان ثم مقصورة متصلة بهذه المقصورة من جهة المغرب ، ثم أزيلت ، ولفظه : وقد تساهل من كان قبلنا فزادوا على الحجرة الشريفة مقصورة كبيرة عملت وقاية من الشمس إذا غربت ، وكانت بدعة وضلالة تصلى فيها الشيعة ؛ لأنها قطعت الصفوف ، واتسمت بمن ذكر من الصفوف ، وندم على ذلك واضعها ، واقد كنت أسمع بعض يقف على بابها ويؤذن بأعلى صوته « حى على خير العمل » وكانت مواطن تدريسهم ، وخلوة علمائهم حتى قبض الله لها من سعى فيها فأصبحت ليلة منخلعة أبوابها ، مقوسة أخشابها ، متصلة صفوفها ، وأدخل بعضها في الحجرة الشريفة - يعني ما اشتمل عليه الدرايزين

المذكور - وجعل فيها الباب الشامي ، وكان ذلك مع زيادة الرواقين اللذين زادهما الملك الناصر ، انتهى .

وذكر لي بعض مشايخ المدينة نقلاً عن أدركه من المشايخ أن هذه المقصورة كانت في شامي أسطوان الوفود إلى جهة باب الحجرة الشامي ، والشعبة اليوم يصلون في ذلك الموضع ، ومقتضى ما قدمناه عن ابن النجار في بيت فاطمة رضى الله عنها - حيث قال : وبيتها اليوم حوله مقصورة ، وفيه محراب ، وهو خلف حجرة النبي صلى الله عليه وسلم - وجود مقصورة هناك قبل حريق المسجد ، فعمل ذلك مستند الظاهر ركن الدين في إحداث ذلك .

وقد ذكر المطري ما صنعه الظاهر من هذه المقصورة ، ثم قال : وظن الملك الظاهر أن ما فعله تعظيماً للحجرة الشريفة ، فحجر طائفة من الروضة المقدسة مما يلي بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنع الصلاة فيها ، مع ما ثبت من فضلها وفضل الصلاة فيها ، فلو عكس ما حجره وجعله خلف بيت النبي صلى الله عليه وسلم من الناحية الشرقية وألصق الدرابزين بالحجرة مما يلي الروضة لكان أخف ؛ إذ الناحية الشرقية ليست من الروضة ولا من المسجد المشار إليه ، بل مما زيد في المسجد أيام الوليد ، قال : ولم يبلغني أن أحداً من أهل العلم والصلاح ممن حضر ولا ممن رآه بعد تحجيره أنكر ذلك ، أو تفتن له وألقى له بالاً ، وهذا من أهم ما ينظر فيه .

قال الزين المراغى عقبه : ينبغي أن يعلم أن للظاهر سلفاً في ذلك ، وهو ما حجره عمر بن عبد العزيز على الحجرة الشريفة من جهة الروضة أيضاً ، لكنه قليل ، انتهى .

قلت : وهذا بناء على ما تقرر عنده من أن جدار الحجرة الذي داخل المائز هو نهاية المسجد في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وقد قدمنا في حدود المسجد ما يرد

ذلك ، ولو سلم أن ذلك نهاية المسجد وأن عمر بن عبد العزيز اتخذ الجدار المذكور فيه فذلك لمصلحة حفظ القبر الشريف ، ولجعل بنائه على هيئة لا يتأتى معها استقبال القبر الشريف كما قدمناه ، وهذه المقصورة بضد ذلك ، والله أعلم .

وقال البدر بن فرحون في ترجمة ولي الله سيدى الشيخ على الواسطى مالفظة :
حكى لى جمال الدين - يعنى المطرى - أن الشيخ بعث إلى الملك الناصر يقول له :
أنا أضمن لك على الله تعالى قضاء ثلاث حوائج إن قضيت لى حاجة واحدة ،
وهى إزالة هذا الشباك الذى على الحجرة الشريفة ، يعنى هذه المقصورة ، فبلغه
ذلك ، فتوقف ولم يفعل .

قال البدر بن فرحون : وليته فعل ؛ فإن الشباك الذى يدور على الحجرة قطع
جانبا من المسجد ، وحجر كثيراً من الروضة ، وفى كل زمان يجدد ويعمر بما
يتقوى به ويتأيد ، وأدخل فيه قطعة كبيرة لما أزيلت المقصورة ، يعنى المتقدم
ذكر إزالتها .

وقال المجد الشيرازى ، عَقِبَ ذكره لما تقدم عن المطرى : والذى ذكره
مَوْجَّهً ، غير أن أحد الأبواب مفتوح دائماً لمن قصد الدخول والزيارة ، فيمكن
من أراد الصلاة الدخول والوقوف مع الصف الأول فى الروضة ، ولا يخفى أن فى
تقريب الدرابزين من الحجرة إخراجاً للبناء عن وضعه اللائق ، وأيضاً فيه تضيق
عظيم على الزائرين ، لاسيما عند زحام الواسم ؛ فإنه مع هذا الاتساع ينخلق
المكان بالخلق ، فكيف لو ضيق بحيث يتصل الدرابزين بجدار الحجرة؟ لا يقال :
إنه كان يتسع من جهة المشرق للزائرين ؛ لأن الناس إنما يقصدون هذه الجهة
لكون الرأس الشريف هناك ، وليكون الابتداء بالتسليم على النبي صلى الله
عليه وسلم دون أن يتخطوا الشيخين رضى الله عنهما ، فتأمل ذلك فإنه صحيح .
قال : وهذه الكيفية لا مزيد عليها فى الحسن ، ولم يتعطل شىء من الروضة بسبب

ذلك ، بل بسبب كسل المصلين ، وقد رأيت جماعة من الخدام يصلون داخل الدرابزين أيام الجمعة ، انتهى .

قلت: وما ذكره صحيح بالنسبة إلى زمنه ؛ فإن الباب المذكور كان مفتوحاً في سائر الأوقات . وقد نبه على ذلك ابن جماعة في منسكه ، محاولاً غلقه في المواسم فقط ، فقال : إن هذا الدرابزين حجر طائفة من الروضة الشريفة مما يلي بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وصار ما بين الحجرة والدرابزين مأوى للنساء بأولادهن الصغار في أيام المواسم ، وربما قذر الصغار فيه ، وقد تحدّثتُ مع الملك الناصر رحمه الله لما حج وزار سنه اثنتين وثلاثين وسبعمائاً في غلق الدرابزين أيام الموسم ، فسكت لما ذكرته ، ولم يجبني بشيء ، وهذا من أهم ما ينظر فيه ، انتهى . فحدث بعد ذلك غلق الأبواب كلها دائماً ، ولا يفتح منها شيء إلا في وقت إسراج القناديل ومحوه ، ولا يدخل لذلك إلا بعض الخدام والفراسين أو بعض من له وجهة بإذن شيخ الخدام ، فيدخل للزيارة ليلاً ، وتحقيق بسبب ذلك تعطيل تلك البقعة ، وحرّم الناس التبرك بأسطوان السرير ؛ فإن محله في شرقي أسطوانه كما تقدم ، وكذلك الوقوف للزيارة في موقف السلف بينها وبين الحجرة الشريفة أو على نحو أربع أذرع من جدار القبر على ما يأتي بيانه ، وكذلك التبرك بمِرْآة القبر ومقام جبريل كما قدمناه ، وبيت فاطمة رضي الله عنها ، فإن ذلك كله في جَوْف المقصورة ، بل كانت هذه المقصورة سبباً لما هو أعظم من ذلك وأطم ، وهو ابتناء دعائم القبة المتقدم ذكرها بأرضها ، فإنها صارت عند العوام بل وعند من لا إحاطة له بأحوال المسجد أنها ليست من المسجد ، بل من الحجرة ، فعاملوها معاملة غير المسجد ، ولما وقعت المفاوضة في عملها صرّحتُ بتحريم ذلك ، فأشار بعضهم بعمل القبة المذكورة على رؤوس الأساطين من غير بناء ، ثم رجعوا عن ذلك وأنا غائب بمصر .

وسبب غلق الأبواب المذكورة أن النجم بن حجي قاضي الشام لما حج في

الموسم الشامي رأى ازدحام الناس بذلك المحل وما أشار إليه ابن جماعة فيما تقدم عنه ، فأفتى بعلقها ، وخالفه الولي العراقي عند قدومه مع الحاج المصري فأفتى بفتحها. وأخبرني بعض مشايخ الحرم أن ذلك كان في سنة اثنين وعشرين وثمانمائة وأن الحال استمر على ما أفتى به الولي العراقي ، فلما ولي النجم بن حجي ديوان الإنشاء تسبب في روز المراسيم السلطانية بالأمر بالعلق سنة ثمان وعشرين ، واستمر ذلك إلى اليوم ، كذا أخبرني به بعض مشايخ الحرم . ورأيت حاشيةً على كلام المجد بخط الحافظ جمال الدين بن الخياط النيني ، ولفظها : ومما أحدث في دولة الملك الأشرف برسبای صاحب مصر والشام بعد الثلاثين وثمانمائة سُمِّرَت أبواب الدرايزين المذكور ، وصار الناس يزورون من وراء الدرايزين من غير دخول أحدٍ إلى الحجرة الشريفة ، قصدوا بذلك زيادة الحرمة ، وتنزيه المشهد الشريف عن كثرة اللامسين بالأيدي وغيره ؛ فإن كثيراً من جهال العرب وغيرهم يلصقون ظهورهم بصندوق القبر الشريف وجداره ، قاصدين بذلك التبرك ، والخير كله في استعمال الأدب ، انتهى .

قلت : والصواب المتعين وجوب فتح بعض تلك الأبواب ، خصوصاً في غير أيام الموسم ، وليس الطريق في إزالة المفسدة المذكورة غلق تلك الأبواب وتعطيل تلك البقعة ، بل وقوف الخدام عند ذلك المحل ، ومنع مَنْ يتعاطى فيه مالا يليق بالأدب ، على أن ذلك لم يحسم المادة ؛ لأن تلك الأمور - أعني لمس الجهال ووضعهم الظهور - يفعل اليوم بهذا الدرايزين ، ولا شك أن الجدار الذي كان يفعل به ذلك ليس هو نفس القبر ، بل ولا جدار الحجرة كما قدمناه ، بل جدار آخر دائره ، كما أن هذه المقصورة دائرة به ؛ فإن كان ذلك يقتضى تعطيل ذلك المحل ، فليعطل من أجله المسجد بأجمعه ، وتعطيل المسجد أو شيء منه حرام فلا يرتكب لدفع مكروه مع إمكان دفعه بغيره ، وما يقال من أنه ربما وجد في بعض المواسم هناك قدر ؛ فقد كان شيخنا شيخ الإسلام فقيه العصر شرف الدين المناوي يقول

في جوابه : لاشك أن ذلك المحل من المسجد ، فإن كان وجود القدر فيه مقتضيا لتعطيله وصيانته بالعلق فليعلق المسجد بأجمعه ، فإن حكم الكل واحد من حيث وجوب صَوْنِه واختصاص ما تقرب من المحل الشريف بمزيد التعظيم حاصل بالجدار الكائن عليه ، وطريقُ التعظيم المنعُ من ذلك كما قدمناه ، على أن لمسَ جدار القبر وتقبيله ليس مما أجمع على كراهته كما سنوضحه إن شاء الله تعالى في باب الزيارة .

ولما قدم مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي أعز الله أنصاره المدينة الشريفة للزيارة سنة أربع وثمانين وثمانمائة واجتمعتُ به بالروضة الشريفة أردت أن أتكلم معه في فتح بعض تلك الأبواب في غير أيام الموسم ، فرأيتُه قد تعاظَمَ دخول هذه المقصورة لما عرض عليه ذلك . وقال : لو أمكنني الوقوف للزيارة في أبعد من هذا الموضع فعلت ، ورأى أن ذلك هو التعظيم ، فعلمت أنه لا يوافق على ما أريده ، والله أعلم .

الفصل الثامن والعشرون

فما تجدد من عمارة الحجرة الشريفة في زماننا على وجه لم يخطر قط بأذهاننا ، وما حصل بسببه من إزالة هدم الحريق الأول من ذلك المحل الشريف ، ومشاهدة وضعه النيف ، وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة في هذه العمارة .

اعلم أن بعض سُقف المسجد التي تقدم تجديدها كان قد ظهر تكسُّر بعض أخشابه في هذه الدولة الأشرفية - أعز الله أنصارها ، وأعلى في سلوك العدل منارها - فورد المدينة المقر الأشرف السيفي شاهين الجمالي مُنصَرَفَه من جدة المعمورة ، فأروه ذلك ، وأروه الحائز الخمس الدائر على الحجرة الشريفة لانشقاق فيه قديم يظهر إذا رفعت الكسوة عند منتهى الصفحة الشرقية وانعطافها إلى الزاوية الشمالية ، فرفعوا عنه الكسوة ، وأحضروا بعض أرباب الخبرة بسبب ذلك ، فاختلف

النقل عن حضر ذلك في كونه ضروريا أو غير ضروري ، فاجتمعت بالمشار إليه بسبب ذلك ، فذكر لي أن الذي تحرر أنه ليس بضروري ؛ لأنه شق في طول الحائط لافي عرضه ، وهو قديم مملوء بالجلس ، والحائط ليس عليه سقف يثقله فنخشى عليه ، فأعجبني كلامه .

ثم أنهى في سنة ثمان وسبعين لمولانا السلطان الأشرف احتياج المسجد الشريف للعمارة ، وسقوط منارة مسجد قباء ، وكان الجناب الخواجكي الشمسي ابن الزمن مغرما بمثل ذلك ، وسبق له بالمدينة الشريفة عمارة لمدرسته المعروفة بالزمنية على يد بعض جماعته ، فقوض إليه السلطان أمرَ عمارة المسجد النبوي ، فكان ماتقدم من مجيئه إلى المدينة الشريفة في أثناء سنة تسع وسبعين ، وتقريره أمر العمارة ، ثم توجه إلى مصر المحروسة ، فكان من أمر العمارة ما قدمناه .

ثم رغب في أمر العمارة المقر الشريف شرف الدين الأنصاري تغمده الله برحمته فقوض له ذلك ، وحضر صحبة الحاج إلى مكة المشرفة ، وأقام بها مدة حتى يتكامل حصول آلات العمارة ، فتوفي بها ليلة سابع عشر صفر عام أحد وثمانين وثمانمائة بعد شكوى خفيفة .

ثم وردت المراسيم الشريفة بتفويض أمر العمارة للجناب الشمسي بن الزمن وكان بجدة المعمورة فورد المدينة الشريفة صحبة شاد جدة في جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين ، وأحضر معه جماعة من أرباب الصنائع ، وأقام لينظر في أمر العمارة بنفسه ، فكان ماتقدم من إصلاح السقف الأعلى وعمارة غيره من السقف المتقدم ذكرها ، وإحكام القبة الزرقاء المحاذية للحجرة الشريفة بسقف المسجد ، وإصلاح حلية الصندوق الكائن بأصل الأسطوان التي في جهة الرأس الشريف والقائم المجدد فوقه .

ولما نزعوا القائم العتيق وما تحته من الصندوق وجدوا ماتحت ذلك من أحجار الأسطوانة المذكورة متشطبا ، وأحجارها قطع مجوفة كالخرز ، وكذا كل أساطين المسجد

العتيقة ، وفي جوفها الرصاص وعمد الحديد ، وأهل المدينة يسمون كل قطعة منها خريزة ، ويسمونها أيضا فلسكة ، فاقتضى رأيهم تعميق ما على رأس الأسطوان المذكور من أخشاب السقف ، فجعلوا مرمية من الأخشاب حول الأسطوان المذكور ليكسروا الخرز المشقق من ذلك الأسطوان ، وهن ست ، ثم يعلقون ما صبح من الأسطوان إلى أن يدخلوا مكان ذلك بدله ، ثم شرعوا في كسر تلك الخرز ونزعها ، فتعسر ذلك عليهم ، وحصل بسببه دق عنيف ، حتى كانت جدران الحجرة تهتز له لاتصالها بالأسطوان المذكور ، فحصل بسبب ذلك كلام من الناس ، ولكن بعد كسر بعض الخرز وإخراجه ، وكانوا يعالجون في إخراج الرصاص أيضا علاجا أعظم من العلاج في الحجر ، ففقدوا مجلسا ، وطلبني متولى العمارة للحضور فيه ، فترددت لأنه بلغني أن بعض الناس أوغَرَ صدره مني وقرر عنده أني حريص على أن لا تكون هذه العمارة على يده ، وكنت أرى منه محبة وميلا ثم تنكر بعض التنكر ، وعلمت أن الرجوع عن إصلاح الأسطوان المذكورة غير ممكن لكسر بعضها وإخراجه ، فعلمت فوات وقت النظر ، فأجبت الرسول بذلك ، ولم أحضر معهم مع علمي بأن بعض أهل المجلس كان مغري بمخالفة ما أشير به ، وإن كان في غاية الوضوح ، سامحه الله ، ثم افترقوا على إتمام ذلك ، فمكثوا أياما يعالجونه حتى تم ، وأعادوا مكان تلك الخريزات الست مثلها من خرز أسطوان نقضوه من أساطين مسجد قباء ، فكان ذلك بقدر تلك الخرز سواء ، وأحكموا إعادتها بالرصاص وعمد الحديد أحسن إحكام .

وقد كنت أستبعد قدرتهم على ذلك ، وأتعجب من قيام بقية الأسطوان من أعلاه ، مع رفع أسفله ، وكونه كالجبل من الحجر والرصاص ، ولكن ساعدهم المدد الحمدي في ذلك مع حسن معرفة المعلم المباشر لسبك الرصاص .

ثم كان ما تقدم من إعادة الصندوق المذكور والقائم فوقه إلى محلها ، ونقض الرخام المؤزر به جدار الحجرة الظاهر وتجديده كما تقدم ، وعند قلع رخام الصفحة

الآخرة من الزاوية الشمالية إلى الصفحة الشرقية مع ما يابها من صفحة المشرق عند منعطفها ظهر الشق المتقدم ذكره وهو انشقاق قديم سدَّ الأقدمون خَلَلَه يكسّر الآجر وأفرغوا فيه الجص وبيضوه بالقَصَّة فانشقَّ البياض من رأس وَزَرَة الرخام إلى رأس الجدار المذكور ، فأرادوا اختبار ما تحت البياض ليعلموا قدره ، فمَشَرُوا البياض عنه ، وأخرجوا ما في خَلَله من الجص والآجر ، فظهر من خَلَله بناء الحجرة المربع الذي هو جوف البناء الخمس المذكور فظهر منه ملتقى حائطه الشمي وحائطه الشرقي ، وظهر هناك شق أيضا في جدار الحجرة الداخل عند ملتقى الجدارين المذكورين تدخل اليد فيه ، وهو قديم أيضا ، وقد سدَّه المتقدمون ، ثم اتَّسع قليلا على دوام الأيام .

فلما كان عشية السبت ثالث عشر شعبان عَقَدُوا مجلسا في جوف المقصورة عند الجدار المذكور ، حضره القضاة والمشايخ والخدام وشيخهم الأمير إينال ، وطلبوني لذلك المجلس ، فترددت في الحضور لما قدمته ، ثم توضأت وصليت صلاة الاستخارة وسألت الله أن يلهمني السداد والصواب ، وحضرت فوجدت الأمر قد اتفق عليه ، وشاهدت ما قدمته من وصف ذلك ، ورأيت على ذلك البناء الداخل من الهيبة والأنس ما لا يوصف ولا يدرك إلا بالذوق ، وتحرَّرت لي أن سبب انشقاق الجدار الظاهر انشقاق الجدار الداخل وميلانه نحو الجدار الظاهر وكأن الأقدمين لما رأوا انشقاق الجدار الداخل — ولعل رؤيتهم لذلك والله أعلم عقب الحريق عندما أحدثوا السقف المتقدم وصفه على الحجرة الشريفة — أَدْعَمُوا الجدار الداخل بأخشاب جعلوها بين الجدار الداخل والخارج عند رأسهما في شرقي الحجرة ، فمال الجدار الظاهر من أعلاه بحيث صار أعلاه لا يوازي أسفله ، وخرج بسبب ذلك عن الاستقامة ، فحدث فيه الشق المذكور ، ورأيت الحاضرين بين ساكت ومشير ، فترجح عندي سلوك رأي ابن عباس رضي الله عنهما في أمر الكعبة ، حيث أشار بترميمها فقط ، ورأيت أن ما يطلب هنا من الأدب أَوْجَبُ مما يطلب هناك ، فحاولت إِدْعَام البناء الظاهر ببناء ، فلم أوافق عليه ، فسألت

مهندس العمارة - وكان أعرف الحاضرين بهذا الأمر - هل تحققت الآن إشراف هذا الجدار على السقوط وأنه لا يتأتى تأخير ، أم يحتمل التأخير مدة إذا رم بالجص والآجر كما كان أولاً فيؤخر إلى أن يصير غير محتمل للتأخير ؛ فإنه لا يفعل هنا إلا ما تدعو إليه الضرورة في الحال؟ فقال : الترميم شيء وقطع الفرط شيء آخر ، ثم سأل متولى العمارة عن كيفية ما يكتب ليطالع به المسمع الشريفة ، فقال له القاضي الزكوى قاضى الشافعية وأحد الناظرين سماحه الله تعالى : سَرَّح العمال غداً للهدم وكتابة المحضر علينا ، وخافت متولى العمارة بالإنكار عليه في إحضارى ، وحثته على الإعراض عن كلامى .

ثم إن متولى العمارة ذكر لى أنه رأى رؤيا فهم منها الهدم ، فصمَّ عليه ، ورأيت عنده من شجاعة الجنان وثبات الجأش فى هذا الأمر ما لا يوصف ، وبلغنى أن بعض الناس ذكر له أن ما سبق من كلامى دليل على ما كان قد ألقاه إليه من حرصى على أن لا تكون هذه العمارة على يده ، وأن لا ينفوز بهذه المنقبة العظيمة التى لم يسبق إليها ، وَمَنْ يَسْمَعْ يَخْلُ ، ولكنى أشهد الله برسوئه على أنى لم أرد سوى محض الوفاء بما أوجبه الله علينا من الأدب مع حبيبه صلى الله عليه وسلم ومن بذل النصيحة .

ثم فى صبيحة الرابع عشر من شعبان المذكور شرعوا فى هدم المحل الشريف المتقدم ذكره من الجدار الظاهر ، فهدموا جانباً من الصفحة الشرقية وجانبها مما يليها من الصفحة المنحرفة منها إلى جهة الزاوية الشمالية ، وسعة ذلك خمسة أذرع بذراع اليد ، وذلك من بعد نحو أربعة أذرع من الأرض إلى رأس الجدار المذكور ، فظهر حينئذ هدم الحريق الذى فى الفضاء الكائن بين جدارى الحجرة الشريفة ، ورأينا فيه كثيراً من الأخشاب المحترقة قد سلم من بعضها قدر الذراع ونحوه .

ثم فى خامس عشر الشهر المذكور حضروا لتنظيف ذلك ، وتوجه متولى

العمارة لشيخنا العارف بالله تعالى سيدى شهاب الدين الأبيشيطى قدس الله روحه ،
وسأله فى الحضور للتبرك به ، فحضر من خارج الجدار ، وامتنع من الدخول وقرأ
الفاتحة ، وقال : نظفوا على بركة الله ، ثم انصرف وقال لى بعد ذلك : ذكروا لنا
أن هدم ذلك ضرورى ، فقلنا لهم : الضرورى يعمل ، فلما دخلوا لإزالة ذلك
شاهدت أمرا مهولا من ردم الحريق بحيث لم يأت إزالته إلا بالعتل والمساحى ،
وتحققت بسبب ذلك عذر من أدرك زمن الحريق فى عدم إزالة ما بالحجرة الشريفة
منه كما قدمناه ، وكان ارتفاعه فى ذلك الحل نحو القامة ، وهو ردم من السقف
الأعلى وجص وآجر من الجدار الذى كان بأعلى سقف المسجد لتمييز الحجرة الشريفة
عن غيرها ، كما تقدم بيانه ، ومما كان على رؤوس الأساطين ومما احترق من أخشاب
ذلك ، فاشتغلوا بتنظيفه وتزاحم الناس عليه فاستمروا فى ذلك حتى بلغوا فى تنظيفه
الأرض القديمة ، بحيث ظهر تحصيل ذلك الحل بحصاء تشبه ما فى المسجد ،
غير أنها قد اسودت من نداوة الأرض ، واعتبرت التفاوت بين الأرض
المرخمة خارج الجدار الظاهر والأرض المذكورة بداخله ، فكانت الأرض
المذكورة - أعنى الداخلة بين الجدارين - أخفض من الخارجة بذراع
وثلث بذراع اليد ، وظهر من وصف البناء الداخلى ما قدمناه فى الفصل الثانى
والعشرين من كونه مربعا بأحجار منحوتة عليها أبهة عظيمة ، وأن الصفحة
الغربية منه ملاصقة للصفحة الغربية من البناء الظاهر ، وليس بينهما ولا مغرز
إبرة ، وأنه لا باب فيه ولا موضع باب ، وفى الصفحة الشمالية لاصق بها الأسطوان
التي قدمنا وصفه ، وأن بعضه داخل فى الصفحة المذكورة ، وقد أثر فيه الحريق
كما قدمناه حتى تشطب بعضه سيما فى أعاليه وهو فى صف أربعة القبر يليها من
جهة المشرق .

وتبين حينئذ ما فى الجدار الداخلى من الانشقاق المتقدم وصفه فى شماليه
ما يلى المشرق ، فأدخلوا فيه شمعة ، فشاهدوا فيما يقابله من الجدار القبلى ما يلى

المشرق أيضاً انشقاقاً مثله ، وتبين لى أن البناء المتقدم وصفه بين الجدارين القبليين فى موازاة الأسطوانة الظاهرة فى الجدار القبلى التى يقف عندها المسلم على عمر رضى الله عنه إنما جعل إدعائاً للجدار المذكور لما حدث به ذلك الانشقاق ، وظهر ما أدموا به من الأخشاب بين الجدار الداخلى والخارج فى جهة المشرق على ما قدمناه ، فتردد متولى العمارة فى نقب الجدار الشامى لإحكام ذلك الشق وترميم الشق المقابل له .

ثم عزم على هدم الجدار المذكور - أعنى جدار الحجرة الداخلى من جهة الشام - بأجمعه ، فبدأ برفع السقف الذى وجد على الحجرة نفسها كما قدمناه ، وحينئذٍ ظهر لهم ساحة الحجرة الشريفة ، وستر الله تعالى القبور الشريفة عن الأعين بالردم ، ثم علمت أن هذ الموطن يطلب فيه من التثبيت والأدب التام مالا يطلب فى غيره ، فانصرفت عازماً على أن لا أحضر معهم ما داموا فى تعاطى الهدم وأن أحضر معهم فى البناء . ثم أفاضوا فى عقد قبة سفلية على جدار الحجرة الداخلى رعاية الإتيان والإحكام فكرهت ذلك لعلمى أنه يجر إلى هدم معظم الحجرة مع ما فيه من تغيير الهيبة الأولى

ثم فى حادى عشر شعبان المذكور أجمعوا أمرهم على ذلك ، فشرعوا فى هدم الجدار الشامى والشرقى من البناء الداخلى ، فوجدوا فى الجانب الذى يلى المغرب من الجدار الشامى ، وكذا فيما يقابله من القبلى ، وكذا فى الغربى عند ما هدموا أسفل السترة المبنية على السقف المحترق بين فصوص الأحجار وأعلاها مع رأس الجدر المذكورة لبناً غير مشوى طولُ اللبنة منه أرجح من ذراع وعرضه نصف ذراع ، وسمكه ربع ذراع ، وطولُ بعضه وعرضه وسمكه واحد وهو نصف ذراع ، ولم يجدوا مثل ذلك فى الجدار الشرقى ، ولا فيما يليه من الشامى والقبلى ، وقد عاب بعضُ الناس على الأقدمين فى وضعهم ذلك فى الجدار ، ونسبهم به إلى التقصير ، وربما قال : إن

البنائين زمن الوليد لما أمر ببناء المسجد على يد عمر بن عبد العزيز كانوا كفارا ، وإن ذلك من غشهم ، وهذا جهل من قائله .

وقد قدمنا من شرح حال بناء الحجرة ما فيه كفاية ، وتقدم أن عمر بن الخطاب أو ابن الزبير هو الباني للحجرة على ما رواه ابن سعد ، ولو سلم أن تلك البناية في ولاية عمر بن عبد العزيز للعمارة المتقدمة فهو أتقى لله من أن يُهمل قبر نبيه بيد الكفار حتى يغشوا في بنائه بمثل ذلك . وقد ظهر لي في ذلك أن السلف لما بنوا الحجرة الشريفة بالأحجار لقصد الإحكام والبقاء ، وكان ما عدا الأساس منها مبنياً باللبن في عهده صلى الله عليه وسلم كما يؤخذ مما قدمناه ، فرأوا أن لا يخلو بناؤهم من بركة ذلك اللبن ، فوضعوا منه ما رأوا فيه الصلابة بين الأحجار المبنية بالقصة ، ولولا إتقان ذلك البناء لما مكث هذه المدة المديدة ، والعجب أن الخلل والانشقاق لم يحصل إلا في الناحية الخالية منه ، وقد قدمنا أن الذي يظهر أن تلك الناحية سقطت وأعيدت ، واختلاف البنائين شاهد بذلك ، حتى إن الجدار الشرقى لم يكن مبنياً بالحجارة الموجهة إلا من داخله دون خارجه ، وعرض منقبته أقل من عرض بقية الجدر . ولما بلغوا في هدم الجدار الشامى أرض الحجرة الشريفة شرعوا في تنظيف الرّدم السائر للقبور الشريفة ، وذلك في صبيحة الثالث والعشرين من شعبان المذكور ، ومكثوا في ذلك إلى غروب الشمس مع كثرتهم حتى بلغنى أن الحجرة الشريفة امتلأت بهم ، ولم يخصصوا مكاناً دون مكان ، فظنوا أن القبر الشريف النبوى قريباً من وسط الحجرة ، وليس كذلك كما سنبينه ، ووضعوا ما أخرجوه من الردم عند طرف المسقف الغربى في زاويته المتصلة بمسقف الدكاك ، وبني عليه متولى العمارة تلك الدكة البارزة هناك . ثم وفى القضاى الزكوى بما وعد به متولى العمارة من كتابة المحضر ، وكتب فيه أهل المدينة ، ولم أكتب فيه ، واعتذرت بأنه لم يسبق لى عادة بمثل ذلك ، وبعثوا به إلى مصر المحروسة ، فلما كان في صبيحة الخامس والعشرين من الشهر المذكور بعث إلى

متولى العمارة لأتبرك بمشاهدة الحجرة الشريفة بعد تنظيفها ، وصار قائل يقول :
 ظهر القبر الشريف ، وقائل يقول : لم يجدوا لجميع القبور الشريفة أثراً ، فحسني
 داعى الشوق وغلبة الوجد ، واستحضرت ما وقع لبعض السلف من سؤاله لعائشة
 رضى الله عنها أن تُريه القبورَ الشريفة ، وغير ذلك مما سبق ومما سيأتى فى باب
 الزيارة ، ووصف السلف للقبور الشريفة ، وذكرهم ذرع الحجرة الشريفة وكيفيتها
 كما تقدم ، فعزمت على الإقدام ، وتمثلت بقول بعضهم :

ولو قيل للمجنون أرض أصابها غبارُ ترى ليلى لجدَّ وأسرعاً
 لعلَّ يرى شيئاً له نسبة بها يُعَلِّلُ قلباً كاد أن يتصدعا

فتطهرت وتوجهت لذلك مستحضراً عظيم ما توجهت إليه ، وموقع المثل
 بيت أوسع الخلق كرماً وعفوا ، وذلك هو المعول عليه ، واستحضرت قول بعضهم :

عَصَيْتُ فَقُلْ لِي كَيْفَ أَلْقَى مُحَمَّدًا وَوَجْهِي بِأَثْوَابِ الْمَعَاصِي مَبْرَقِ

ثم أنشدت الذى يليه :

عَسَى اللَّهُ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ وَقُرْبِهِ يُدَارِكُنِي بِالْعَفْوِ فَالْعَفْوِ أَوْسَعُ

وسألت الله أن يمنحني حسنَ الأدب فى ذلك المحل العظيم ، ويلهمنى
 ما يستحقه من الإجلال والتعظيم ، وأن يرزقنى منه القبول والرضى ، والتجاوز
 عما سلف ومضى ، فاستأذنت ودخلت من مؤخر الحجرة ، ولم أتجاوز ذلك المحل ،
 فشِمِمْتُ رائحة ما شمت فى عمرى رائحةً أطيب منها ، ثم سلمت بوجلٍ وحياءٍ ،
 على أشرف الأنبياء ، ثم على ضجيعيه خلاصة الأصفياء ، ودعوت بما تيسر من
 الدعوات ، وتشفعت بسيد أهل الأرض والسموات ، واستنزلت به فى بيته من
 الأزمات ، واغتنمت هذه الفرصة فى جميع الحالات ، والله در القائل :

تَمَتَّعْ إِنْ ظَفِرْتَ بِنِيلِ قَرَبٍ وَحَصَّلْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنْ ادِّخَارِ

فقد وسعت أبوابُ التدانى وقد قرَّبتُ للزوار دارى

وقد هبت نسيّات لنجد فطبت واشرب بكاسات كبار
فما وقت يمر بمستعاد وما دار الأعزّة بالقرار
فودّع أرض نجد قبل بعد فما نجد لمرتحل بدار
أقول لمن يمر بأرض نجد ويظفر من رباها بالدار
تزود من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار
وقل أيضاً ماغنم صفاء على معنى يلوح لدى اعتبار
إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شرب ليلى بالنهار
ولا تشرب بأقداح صغار فإن الوقت ضاق على الصغار

فلما قضيت من ذلك الوطر ، متعت عيني من تلك الساحة بالنظر ، لأتحف
بوصفها المشتاقين ، وأنشر من طيب أخبارها في المحبين ، فتأملت الحجرة الشريفة
فإذا هي أرض مستوية ، وتناولت من ترابها بيدي فإذا فيه ندّاة وحصباء
كالحصباء المتقدم وصفها بين الجدارين يظهر عند فحصه بالأصابع ، ولم أجد للقبور
الشريفة أثراً ، غير أن بأوسط الحجرة موضعاً فيه ارتفاع يسير جداً ، توهموا أنه
القبر الشريف النبوي ، فأخذوا من ترابه للتبرك فيما زعموا ، ومنشأ ذلك الوهم
جهل من كان هناك بأخبار الحجرة الشريفة ، وذلك المحل ليس هو القبر النبوي
قطعا ، وأعله قبر عمر رضي الله عنه ؛ لأن الشافعي رضي الله عنه قد نص على أن
النبي صلى الله عليه وسلم إنما لحده في جدار القبلة .

قال الشافعي ، فيما نقله عنه الأقشهرى رداً على من قال إن النبي صلى الله
عليه وسلم أدخل قبره معترضا : هذا من فحش الكلام في الأخبار ؛ لأن قبر
رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قريباً من الجدار ، وكان اللحد تحت الجدار ،
فكيف توضع الجنازة على عرض القبر حتى سلّ معترضا ؟ فدلّ على أن هذا
النقل غير صحيح ، انتهى .

وروى ابن عساكر عن جابر رضي الله عنه قال : رُشّ قبر النبي صلى الله عليه وسلم

وكان الذي رش الماء على قبره بلال بن رباح بقربة بدأ من قبل رأسه حتى انتهى إلى رجله ثم ضربه بالماء إلى الجدار ، لم يقدر على أن يدور من الجدار لأنهم جعلوا بين قبره وبين حائط القبلة نحواً من سَوَاطِط .

وقال ابن سعد في طبقاته : أخبرنا شريح بن النعمان عن هشيم قال : أخبرني رجل من قریش من أهل المدينة يقال له محمد بن عبد الرحمن عن أبيه قال : سقط حائط قبر النبي صلى الله عليه وسلم في زمن عمر بن عبد العزيز - وهو يومئذ على المدينة في ولاية الوليد - فكنت في أول مَنْ نهض ، فنظرت إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا ليس بينه وبين حائط عائشة رضى الله عنها إلا نحو من شبر ، فمرفت أنهم لم يَدْخُلُوهُ من قبل القبلة ، وعلى تقدير أن يكون ثمَّ موضع بين القبر الشريف وبين جدار القبلة بحيث يتأتى إدخاله صلى الله عليه وسلم من ناحية القبلة فلا يكون ذلك الموضع محل القبر الشريف ؛ لبعده من جدار القبلة جداً . وفيما رواه ابن زبالة ويحيى من خبر عبد الله بن محمد بن عقيل في قصة سقوط جدار الحجرة الشريفة المتقدم ذكره أن عمر بن عبد العزيز قال لمزاحم لما دخل : يا مزاحم كيف ترى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : متطاطيا ، قال : فكيف ترى قبر الرجلين ؟ قال : مرتفعين ، قال : أشهد أنه رسول الله . وقد قدمنا من وصف داخل الحجرة وذكر ذرعها ما فيه كفاية .

وقد تأملت التفاوت بين أرض الحجرة الشريفة وبين أرض الفضاء الخارج بين الجدار الشامي الداخل وزاوية الجدار الخارج فوجدت أرض الحجرة أنزل منه بنحو ذراع ونصف ، وتقدم أن أرض الفضاء المذكور أخفض مما حول الحجرة من المسجد بذراع وثلاث ، فيكون التفاوت بين داخل أرض الحجرة وأرض المسجد نحو ثلاثة أذرع .

وتأملت آثار رَدَم الحريق في الجدران فرأيت في بعضها نحو ثلاثة أذرع ، وفي بعضها نحو ذراعين ، وأخبرني المبشرون لإخراجه بذلك أيضاً .

ثم هدموا من الجدار القبلى مما يلي المشرق جانبا نحو أربعة أذرع وشئ ،
حتى بلغوا به أرض الحجرة .

وهدموا أيضاً جانبا من الجدار الغربى مما يلي الشام حتى بلغوا به الأرض
أيضاً ، وذلك نحو خمسة أذرع منه ، فعَلُوا ذلك ليتأتى لهم إحكام القبة التى
أجمعوا أمرهم عليها ، ولم يبق من أركان الحجرة الشريفة سوى مجمع جدار القبلة
وجدار المغرب .

ثم إنهم هدموا من علو ما بقى من الجدارين المذكورين نحو خمسة أذرع ،
ولم يبق من بناء الحجرة الأصلى إلا ما فضل منهما .

ووجدوا عند هدم مبدأ الجدار القبلى من أعلاه ميزابا قد احترق بعضه من
جهة ما كان فى بناء الجدار ، وبقى منه نحو الذراع ، وهو من عَرَّعَ له رائحة
ذكية ، وسعة مجرى الماء فيه نحو أربعة أصابع أو خمسة ، كأنه كان ميزابا للحجرة
الشريفة قديماً فحرص الأقدمون على ما بقى منه بعد الحريق ووضعوه بين السترة
التي أحدثوها لأجل السقف وبين رأس الجدار ، فجزاهم الله خيراً .

ولما أعيد بنا الحجرة حَرَصْتُ على أن يُعَادَ فيها ، فوعدنى متولى العمارة
بذلك ، فلما كان عند ختم البناء سألته عنه ، فذكر لى أنه جعله فى البناء الآتى
ذكره فى أعلى الجدار الشامى بين ما بقى من كَبِنِ الحجرة وليس عليه بطين
ذلك اللبن .

ثم عند الشروع فى إعادة بناء الحجرة اقتضى رأيهم إدخال الأسطوان المتقدم
وصفه خلف جدار الحجرة الشامى لتشققه فزادوا فى عرض ذلك الجدار من الرحبة
المثلثة الشكل المتقدم وصفها بين الجدارين ، وكان الشروع فى إعادة بناء الحجرة
فى سابع عشر شعبان المذكور ، فابتدؤا بالجدار المذكور ، وأوصلوه بالجدار الغربى ،
وأعادوا ذلك بأحجار الحجرة التى نقضوها منها ، ثم رأوا أن إحكام القبة التى
عزموا عليها يقتضى تريع محلها ، بحيث لا يزيد طوله على عرضه . وقد قدمنا فى

ذرع الحجرة ما يقتضى عدم ذلك ، فمقدوا قبوًّا على نحو ثلث الحجرة الذى يلي المشرق والأرجل الشريفة ، وجعلوا الجدار الخارج من جهة المشرق متصلاً بجدار الحجرة الداخل ، فأدخلوا ما كان بينهما فى جدار القبو المذكور إلى نهاية ارتفاعه ، وكذا فعلوا فيما كان بين الجدار القبلى الداخل والخارج ، سدُّوه أيضاً بالبناء حتى لم يبق حول البناء الداخل فضاء إلا ما بقى من الرحبة المثلثة الشكل فى جهة الشام وصار علو القبة المذكور فضاء أيضاً بين القبة وبين الجدار الظاهر فى جهة المشرق وعقدوا القبة المذكورة على ما بقى من الحجرة ، وهو ما يلى المغرب منها فى جهة الرأس الشريفة ، وحاول بعض الناس أن يكون عقد القبة بالآجر ، فكرهت ذلك لما لا يخفى ، فاجتنبه متولى العمارة جزاء الله تعالى خيراً ، وعقدَها بالأحجار المنحوتة من الحجر الأسود ، وكلها بالأبيض ، وأخبرونى أن ارتفاع القبة المذكورة من داخل أرض الحجرة الشريفة إلى محدب القبة المذكورة - وهو أعلاها المغروز فيه هلالها - اثنا عشر ذراعاً بذراع العمل ؛ فيكون بالذراع المتقدم وصفه ثمانية عشر ذراعاً وربع ذراع .

ومن أرض الحجرة أيضاً إلى نهاية القبو الذى بنى عليه أحد حوائط القبة المذكورة ثمانية أذرع وشيء بذراع العمل ، وذلك نحو أحد عشر ذراعاً بالذراع المتقدم وصفه ، وارتفاع حائط القبة الشرقى - وهو الذى يلى القبو المتقدم وصفه - عن طرف القبو الذى بنى عليه الحائط المذكور ذراعاً وثلثان بذراع العمل ، وذلك ذراعان ونصف راجح بالذراع المتقدم وصفه ، وصار ما بين حائط القبة المذكور وبين حائط الحجرة الظاهر فى جهة المشرق - أعنى سطح القبو المذكور وما اتصل به - كما كان بين الجدارين ، وأدخل فى عرض الجدار رحبة واحدة تحيط بها من المغرب حائط القبة المتقدم وصفه ، ومن المشرق حائط الحجرة الظاهر ، ومن القبلة حائط الحجرة الظاهر أيضاً ، ومن الشام سترة بنيت له فيما بين جدار القبة الذى يليه وجدار الحجرة الظاهر فى المشرق .

وذَرَع هذه الرحبة المذكورة بسطح القبو المذكور طولا من القبلة إلى الشام سبعة أذرع ونصف سدس ذراع بذراع العمل ، وذلك أحد عشر ذراعا بالذراع المتقدم وصفه .

وذَرَعُها عرضا مختلف : فما يلي القبلة ذراعان ونصف بذراع العمل ، وما يلي الشام نحو الثلاثة .

وأما جدار القبة الشامي فقد تقدم أنهم زادوا في عرضه من الرحبة خلفه وجعلوه أيضاً متفاوت العرض ؛ فجعلوا ما يلي المشرق منه - وهو الموضع المحاذي للأسطوانة التي وقعت الزيادة في العرض لأجل إدخالها وإدغامها بذلك - أزيد من الجهة التي تلي المغرب منه بنحو نصف ذراع ؛ فإنهم جعلوا عرض الجدار في هذه الجهة من أسفل عقد القبة نحو ثلاثة أذرع بذراع اليد ، وعرضه في الجهة الأخرى دون ذلك بنحو نصف ذراع ، بحيث صارت جهة الأسطوان المذكور بارزة عن بقية ذلك الجدار في الرحبة المذكورة كما سيأتي تصويره .

وقد جعلوا على رأس هذا الجدار بناء يسيرا مما بقى من اللبن الذي أخرج من بعض جدار الحجرة كما تقدم وصفه ، بعد أن تفرق اللبن المذكور ، وأخذ الكثير منه .

وتركوا في نحو وسط هذا الجدار خَوْخَةً ، فلما لم يبق إلا هي أدخلوا منها شيئاً كثيراً من الحصباء جاءوا بها من عَرَصَةِ العقيق من جنس حصباء المسجد بعد غسلها بالماء لِيَضَعُوهَا على القبور الشريفة ، وكنت قد ذكرت لبعضهم أن موضع القبر الشريف النبوي مما يلي الجدار القبلي ، وأنه يستنبط مما قدمناه في مسار الفضة المحاذي للوجه الشريف أن أول القبر الشريف من جهة المغرب على نحو ذراعين بذراع اليد من الحائط الغربي ؛ لأننا إذا أسقطنا عرض الجدارين الغربيين - وهما الجدار الداخل والخارج ، وهو نحو ثلاثة أذرع مما بين المسار وأول الجدار الظاهر الغربي وهو نحو خمسة أذرع كما تقدم - كان الباقي نحو

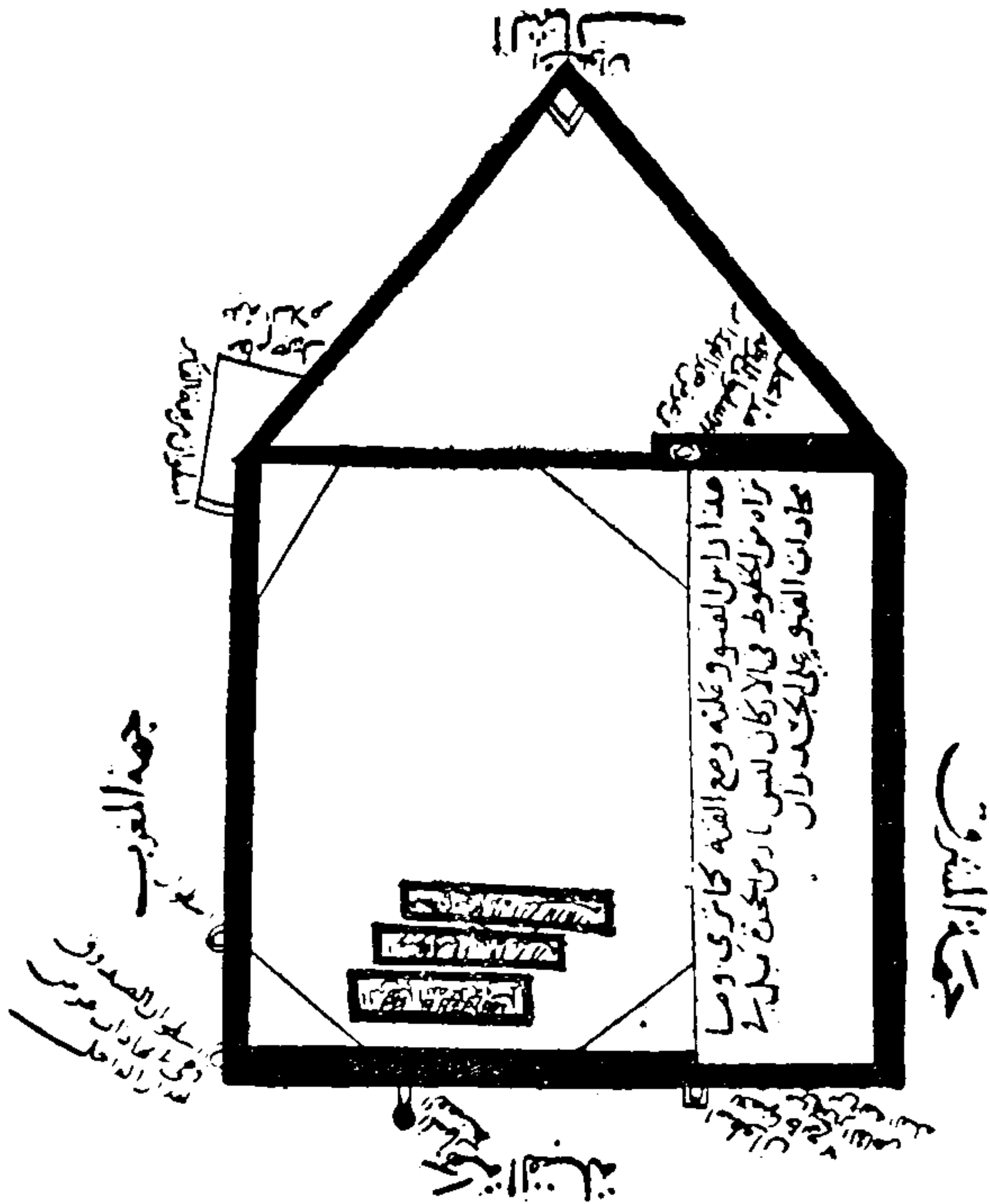
الذراعین إلى الرأس الشریف ، فاستحسن ذلك ، فحضر معهم لما دخلوا من الخَوْخَة المذكورة لوضع الحَصْبَاء على القبور الشريفة ، فوضعوا ذلك على المحل الشریف المذكور كما وصفت ، وأخذوا بالهيئة المشهورة في كيفية القبور الشريفة من أن رأس أبي بكر رضى الله عنه خلف مَنْكِبِ النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر رضى الله عنه خلف مَنْكِبِ أبي بكر ، فوضعوا الحَصْبَاء عليهما كذلك وكان بعض المباشرين لذلك حَنَفِيًّا - وهو صهر متولى العبارة - فجعلها مُسَنَّةً ، وذلك بعد أن أكتروا في الموضع المذكور من البَخُور بالعود والعنبر وغيرها من أنواع الروائح ، وعَرَفُ المحل الشریف على ذلك كله راجح فَأُحْم ، والله در القائل : بطيب رسول الله طابَ نَسِيمُهَا فَمَالِيسُكَ مَا لِكَافُورِ مَا لِمَنْذَلِ الرَّطْبُ وَأَتَى جماعة من الناس من تلك الخَوْخَة أوراقا كتبوا فيها التشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم ومَارِبٍ يسألونها بالحجرة الشريفة ، ثم سدوا الخَوْخَة المذكورة ، وأحكموا بناءها كبقية الجدار ، وبيضوا القبة المذكورة وجميع جدرانها من خارجها بالحص ، وجاءت حسنة فَأَصَّ عليها أنسُ المحل الشریف ، وَنَصَبُوا بأعلاها هلالا من نحاس يظنه الرائي ذهباً ، وهو قريب من سقف المسجد الأول ؛ فإن القبة المذكورة تحته ، ثم سدوا ما بقى من نقب الجدار الظاهر ، وحضرت معهم في ذلك الوقت ، وحضرت أيضا بعض بناء الحجرة الشريفة ، وتبركت بالعمل فيه ، ولم أحضر غير ذلك طلبا للسلامة ، وأنشدت في ذلك المحل الشریف قصيدتى التى تطلعت بها على واسع كرم الجناب الرفيع الحبيب الشفيع الحال بذلك المحلى المنيع ، التى أولها :

قف بالديار لحي في ذرى الحرم وحى هذا المحييا من ذوى إضم-

وكان الفراغ من ذلك وختمُ بناء الجدار الظاهر في يوم الخميس المبارك سابع شوال من السنة المذكورة ، وأصرفوا في ذلك وفي غيره من عمارات المسجد وإعادة مَنَارَةِ مسجد قباء وتجديد بعض سقفه وإحكام مصرف المياه التى كانت تجمع

حول المسجد عند كثرة الأمطار ما لا جزيلا ، ومن أعظم ذلك نفعاً ما جعل
لمصرف المياه المذكورة كما سيأتي وصفه فقد عم نفعه ، وذلك كله في الصحائف
الشريفة السلطانية الأشرفية ، أعز الله أنصارها ، وأعلى في سلوك العدل منارها ،
على يد متولى العماره الجنب الشمسى المتقدم ذكره ضاعف الله تعالى حسناته .

وهذا تصوير ما استقر عليه الأمر من هذه العماره في صورة الحجرة المشرفة
والقبور الشريفة بها :



ثم حدث بعد الحريق الثانى عند إنشاء القبة الثانية التى جعلوها بدلا عن
القبة الزرقاء المتقدم ذكرها تأسيس دعامة وعقد في جهة المغرب عند مقام جبريل

عليه السلام متصل بجدار الحجرة الظاهر من أعلاه وأسطوان وعقد في مقابلة ذلك في المشرق متصل بالجدار الظاهر أيضاً في جهة المغرب .

الفصل التاسع والعشرون

في الحريق الحادث في زماننا بعد العمارة السابقة وما ترتب عليه .
ألفقته هنا مع إلحاق ما تقدمت الإشارة إليه في الفصول السابقة ؛ لحدوثه بعد الفراغ من مسودة كتابنا هذا لأنى توجّهتُ إلى مكة المشرفة للاعتبار أول شهر رمضان عام ست وثمانين وثمانمائة ، فورّد على بها عدة كتب من الصادقين في الخبر ، وشافهني من شاهد الأمر والأثر ، بما حصل من الخطب العظيم ، والرزء الجسيم ، باحتراق المسجد النبوى أول الثلث الأخير من ليلة الثالث عشر من شهر رمضان ، وذلك أن رئيس المؤذنين وصدر المدرسين الشمسى شمس الدين محمد ابن الخطيب قام يَهْلُلُ حينئذٍ بالمنارة الشرقية اليمانية المعروفة بالرئيسية ، وصعد المؤذنون بقية المنار ، وقد تراكم الغيمُ فحصل رعد قاصف أيقظ النائمين ، فسقطت صاعقة أصاب بعضها هلال المنارة المذكورة ، فسقطت في المسجد وله لهب كالنار ، وانشق رأس المنارة ، وتوفى الرئيس المذكور حينئذٍ صَعَقاً فَقَدَ مَنْ كَانَ عَلَى بَقِيَةِ المنار صوته ، فنادوه فلم يجب ، فصعد إليه بعضهم فوجده ميتاً ، وأصاب ما نزل من الصاعقة سقف المسجد الأعلى بين المنارة الرئيسية وقبة الحجرة النبوية فنقبه نقبا كالترس ، وعلقت النار فيه وفي السقف الأسفل ، ففتح الخدام أبواب المسجد قبل الوقت المعتاد وقبل إسراجه ، ونودى بالحريق في المسجد ، فاجتمع مير المدينة وأهلها بالمسجد الشريف ، وصعد أهل النجدة منهم بالمياه لإطفاء النار ، وقد التهب سريعا في السقفين ، وأخذت لجهة الشمال والمغرب ، فعجزوا عن إطفائها ، وكلما حاولوه لم تزد إلا التهابا واشتعالا ، فحاولوا قطعها بهدم بعض ما أمامها من السقف ، فسبقتهم لسرعتها ، وتطبق المسجد بدخان عظيم ، فخرج غالب مَنْ كَانَ به ، ولم يستطيعوا المكث ؛ فكان ذلك سبب سلامتهم ، وهرب مَنْ كَانَ

بسطح المسجد إلى شماليه ، ونزلوا بما كان معهم من حبال الدلاء التي استَقَوْا بها الماء بخارج المسجد على الميضاة والبيوت التي هناك وما حول ذلك ، وسقط بعضهم فهلك ، ونزل طائفة منهم إلى المسجد من الدَّرَج فاحترق بعضهم ولجأ بقيتهم إلى صحن المسجد مع مَنْ حالت النار بينه وبين أبواب المسجد ممن كان أسفل ، ومنهم صاحبنا الشيخ العالم صدر المدرسين الشمسي شمس الدين محمد بن المسكين المعروف بالعوفي ، فمات بعد أيام لضيق نفسه بسبب الدخان مع تَوَعُّك سابق ، رحمه الله تعالى ! واحترق من الخدام الزيني شند نائب خازن دار الحرم ، تفعمده الله برحمته ! ومات جماعة تحت هَدْم الحريق من الفقراء وسُودَان المدينة ، وجملة من مات بسبب ذلك بضع عشرة نفسا ، وكانت سلامة من بقي بالمسجد على خلاف القياس ؛ لأن النار عظمت جدا حتى صارت كبحر لجى من نار ، ولها زفير وشهيق وألْسُنٌ تصعد في الجو ، وصار لفحها يؤثر من البعد حتى أثرت في النخلات التي بصحن المسجد ، وعلق منها شيء بالمنارة الرئيسية فاحترقت ، ووصلت النار لثياب الرئيس شمس الدين محمد رحمه الله تعالى فاحترقت بعد موته ، وصارت النار ترمى بشرر كالقَصْرِ فتسقط بالبيوت المجاورة للمسجد ، ومع ذلك فلا تؤثر فيها ، حتى سقط بعض الشرر على سَعَف فلم يحترق ، وحمل بعض خزائن الكتب من تحت سقف المسجد إلى صحنه فأصابها الشرر فأحرقها .

ونقل عن جَمْع كثير أنهم شاهدوا حينئذٍ أشكال طيور بيض كالإوزَ يحومون حول النار كالذى يكفها عن بيوت الجيران .

وأخبر أمير المدينة الشريفة السيد الشريف زين الدين فيصل الجازى أن شخصا من العرب صادق الكلام رأى في المنام ليلة ثانی عشر من شهر رمضان أن السماء فيها جَرَاد منتشر ، ثم عقبته نار عظيمة ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم النار وقال : أُمْسِكُهَا عن أمتي ، فجزاه الله عن أمته - خصوصا عن جيرانه - أَفْضَلَ ما جزى نبيا عن أمته

وحكى أيضا عن بواب رباط السبيل أنه ذكر مثل تلك الرؤيا عن غيره ،
كتب لى بذلك صاحبنا العلامة شيخ المحدثين بالحرم النبوى الشيخ شمس
الدين بن شيخنا العلامة ناصر الدين العثماني أمتع الله به

هذا مع ما حصل لأهل المدينة الشريفة من الدهشة العظيمة والحيرة
لما شاهدوا من هول هذه النار ومنظرها الفظيع ، حتى أيقن بعضهم بالهلاك ،
وانتقل بعض أهل الدور منها لما وصل إليهم الشرر ، وخرج بعضهم من باب
المدينة الذى يلى البقيع ، وبعضهم من بابها الذى يلى المصلى ، وظنوا أن النار
محيطه بهم . قال الشمس العثماني : وصار لجميع المدينة من جميع جهاتها بالسكاء
ضجيج ، وبالدهاء ضجيج ، قال : وأمر هذه النار عجيب ، وليس الخبر كالمعاينة ،
وصار المسجد كالتنور ، ولم يمض إلا أقل من عشر درج وقد استولى الحريق على
جميع سقف المسجد وحواصله وأبوابه وما فيه من خزائن الكتب والربعات
والمصاحف ، غير ما وقعت المبادرة لإخراجه أولا وهو يسير ، وغير القبة التى بصحن
المسجد ، وسبق ذكر سلامتها فى الحريق الأول ، وكنت تركت كتبى بالخلوة
التي كنت أقيم بها فى مؤخر المسجد ، فكتب إلى باحتراقها ، ومنها أصل هذا
التأليف وغيره من التأليف والكتب النفيسة نحو ثلاث مائة مجلد ، فمن الله تعالى
على ببرد الرضى والتسليم ، وفراغ القلب عن ذلك ، حتى ترجحت هذه النعمة
عندى على نعمة تلك الكتب لما كنت أجده قبل من التعلق بها ؛ فله الحمد والشكر
على ذلك . هذا ، مع ما من الله به على من غيبتى عن هذا الأمر الممّول ؛ فإن
وقوعه كان فى ليلة الوصول إلى الحرم المكي ، ولم يتفق لى منذ سكنت المدينة
الخروج منها فى رمضان ، بل كنت أأزم المسجد النبوى فيه من أوله إلى آخره
ليلا ونهارا ، فكان ذلك سبب النجاة من هذا الأمر

ولما اشتعلت النار فى السقف المحاذى للحجرة الشريفة ذاب الرصاص من
القبة التى بسقف المسجد الأعلى ، واحترقت أخشابها وما يحاذيها من السقف الأسفل

والشباك الدائر على حائز عمر بن عبد العزيز الذي تعلق الكسوة بأعلاه ، وسقط ما سقط من ذلك على القبة السفلى التي تقدم تجديدها ، فلما أصبحوا بدأوا بطنق ما سقط على القبة المذكورة ، واستمروا في ذلك إلى آخر النهار ، فسلمت القبة المذكورة مع أن بعضها من الحجر الأبيض الذي يُسرع تأثره بالنار ، وذلك من المعجزات النبوية ؛ لأن كثيرا من أساطين المسجد الشريف سقطت لما ذاب بعض رصاصها وتهشمت وهي من الحجر الأسود ، ومع ذلك تفتت كأنه أحجار النورة ، وعدة ما سقط منها مائة و بضع وعشرون أسطوانا ، وما بقى منها فقد أثرت فيه النار أثرا بينا ، وسلمت الأساطين اللاصقة بجدار الحجرة أيضا ؛ فالحمد لله على حماية الحجرة المنيفة ، الحاوية للقبور الشريفة ، واحترقت المقصورة التي كانت حول الحجرة الشريفة والمنبر الشريف وما كان أمام المصلى المنيف بالروضة الشريفة من الصندوق وما عليه من المحراب المتقدم وصفه ، وسقطت أكثر عقود المسجد ، وما بقى منها فهو آيل إلى السقوط ، وسقط علو المنارة الرئيسية ، ثم خشوا من سقوط بعض ما بقى منها فهدموا نحو ثلثها ، وكتبوا إلى سلطان مصر مولانا الأشرف سلطان الحرمين الشريفين قايتباي أيد الله أنصاره بذلك سادس عشر رمضان ، واقتضى رأى نائب الناظر سد أبواب حواصل المسجد حتى القبة التي بوسطه المرصد فيها زيت مصابيح ، وترك الردم على حاله حتى ترد الأوامر الشريفة فتضرر الناس بذلك ، فاتفقت الآراء على تنظيف مقدم المسجد ماعدا ما جاور الحجرة الشريفة خوفا على ما سقط من حلية قناديلها ، مع أنها يسيرة كما يؤخذ مما سبق ، فجعلوا على ذلك حاجزا من الآجر ، ونقلوا هدم مقدم المسجد إلى ما يلي باب الرحمة من مؤخره ، وعمل في ذلك أميرُ البلد والقضاة والأشراف وعامة الناس حتى الكثير من النساء والأطفال تقربا إلى الله تعالى بغير أجره ، ولم يتأخر عن ذلك إلا المخدّرات من النساء .

وبَنَوْا في محل المنبر منبراً من آجر ، وصَلُّوا بالمصلى النبوي من حينئذ ، وعملوا

لأبواب المسجد غير باب جبرائيل خوفاً يدخل منها ، وسدوا ما زاد على ذلك ، ونصب الخدام خياماً بالمسجد إذ لم يبق به ظل ، وصار بعض أهل الخير يُسْرِج قناديلَ متعددة من عنده في المسجد مع توفر الزيت بمحاصله ، لكن تعذر ذلك بسبب سدّه ، واستمرت النار فيما لم ينقل هدمه من المسجد حتى فيما حول الحجرة الشريفة وموقف الزائرین تُجَاه الوجه الشريف ، وأخبر بعضهم بمشاهدة الدخان يتصاعد من ذلك المحل الشريف بعد مدة ، وفي أثناء شوال أخبر قاضي المالكية شمسُ الدين السخاوي حفظه الله تعالى أنه رأى في النوم من يقول له : أطفئوا النار من الحجرة الشريفة ، يعني الموضع الذي تركوا تنظيفه حولها ، فتفقّدوا ذلك فوجدوا النار في ثمانية مواضع ، فأطفئوا ذلك ، ثم رأوا أن مادة هذه النار لا تنقطع إلا بتنظيف الرّدم ، فاجتمعت الآراء على ذلك بعد توقّف تام من نائب الناظر ، وعيّنوا لتعاطيه من يثقون به من الخدام والفقهاء والفقراء ، وكان الصواب المبادرة لذلك أولاً ، ولكن على كل خير مانع ، ولا يدرى أحد أسرار ما الله في عباده صانع ، ولما نظفوا ذلك وجدوا حلية الصندوق المَجْمُول في جهة الرأس الشريف وجانباً من الكُسوة وبعض البُسْط سالماً لسقوط الردم عليه ، ووجدوا القناديل التي كان التخوّفُ في تنظيف ذلك المحل لأجلها ، وأداروا على الحجرة الشريفة جداراً من الآجر في موضع المقصورة المحترقة ، وجعلوا فيها شبائيك وطاقاتٍ وأبواباً ، وقام بمصروف ذلك بعضُ النساء المباركات وغيرها ، وسامح البناؤون بنصف أجرهم مع توفر المصروف بحاصل المسجد الشريف ، وأحضرت تلك المرأة أبيضاً وغيرها كسوة للحجرة الشريفة من القماش الأبيض فجعلت عليها .

وفي ذلك كله عبرة تامة وموعظة عامة لأولى الأبصار ، وهو منذر بأسر عظيم ، ولهذا اختص به هذا المحل المذسُوبُ إلى النذير صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت أن أعمال الأمة تُعرَضُ عليه صلى الله عليه وسلم ، فلما ساءت منا الأعمال

المعرضة ناسب ذلك الإنذار بإظهار عنوان النار المجازي بها في موضع عرضها ، ولم أزل في وجل مما يعقب ذلك حيث لم يحصل الاتعاظ والانزعاج ، وقد قال تعالى : « وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا » ، وقال تعالى « ذَلِكَ الَّذِي يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِيَ فَاتَّقُونَ » وكأن لسان القدرة ينادي : ألا تتعظون بما ترون وتسمعون ؟ ألا تنتهون وتنزجرون ؟ ألا ترون إلى هذا المحل الشريف مع عظيم نسبه وعلو رتبته ومكانته لما تلوث بآثاركم معشر المذنبين ، وتدنس بأقذاركم كافة الغافلين ، أرسلت عليه بحراً من الفار السماوية تطهره من تلك الآثار ، وتزجركم عن التمادي على الإصرار ، وموالة أتباع الأوزار ، وتشهد بصائركم عموم القدرة ، فترسلون من الأبصار سوابق العبرة ، تأسفا على ما اجترحتموه قبل هذه العبرة ، فمن لم ينته بهذا الزاجر الفعلي عن إصراره ، ولم يقتبس من هذه النار العظيمة قبساً يهتدى بأنواره ، فليَنظُرْ فيما حدث عقيب حريق المسجد القديم ، ويتفكر في ضعفه عن احتمال العذاب الأليم ، حمّانا الله من ذلك ، وسلك بنا أجمعين أحسن المسالك .

ومن العجائب أنه لم يأت إخراج ردم هذا الحريق بعد نقله لمؤخر المسجد حتى حضر الحجاج من سائر الآفاق للزيارة ، وشاهدوا هذه العبرة العظيمة ، ورأوا ما اجتمع من الردم كالأكام والتلول الجسيمة ، ثم قبيل دخول الحاج مكة بالقعدة الحرام من العام الثاني أرسل الله سيلاً عظيماً بمكة المشرفة ملأ ما بين الجبلين وعلاً جدار أبواب الملى ، ودخل جوف الكعبة الشريفة ، وارتفع فيها أزيد من قامة وهدم دوراً كثيرة يقال إنها تزيد على ألفي دار ، وذهب بسبب ذلك من الأموال والأنفس ما لا يحصى إلا الله تعالى ، حتى أنهم ضبطوا من وجد تحت الردم بالمسجد الحرام فقط عند تنظيفه فكانت عدتهم نحو الثمانين ، وقيل أزيد من مائة ، ولم أقف فيما نقل من سيول الجاهلية والإسلام على مثل ذلك ، ولما نظفوا ذلك الردم - وهو أتربة ونقض هدم حملها السيل - لم يأت إخراجه قبل وصول

الحجاج وصار ذلك كالآرام والتلول العظيمة في المسجد الحرام ، فحضر الحجاج كلهم وشاهدوا ذلك ، فسبحان مَنْ بيده الخلق والأمر لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .
ولما وصل خبر الحريق لرودس من بلاد النصارى أظهروا بذلك فَرَحًا واستبشاراً ، وتظاهروا بالزينة وضرب النواقيس ، فلم يمض ذلك اليوم إلا وقد أرسل الله عليهم زلزالاً عظيمة هَدَمَتْ عليهم جانباً من سور البلد والكنيسة وكثيراً من دورهم ، وهلك منهم بذلك خلائق لا يُحْصَوْنَ ، ودامت الزلازل عليهم ، أياماً ، شاهدتُ ذلك في كتب وردت من ثغر إسكندرية بخط مَنْ يعتمد عليه ، وذكروا أن الخبر لهم بذلك أهلُ المراكب الواردة من رودس المذكورة ، وأنهم سافروا والزلازل مستمرة بها ، وهم يخرجون الموتى من تحت الهدم بعد انتقال مَنْ بقى إلى خارج البلد ، فتأمل هذه المعجزات النبوية ، والآيات الربانية .

ولما وصل القاصد إلى مصر المحروسة ، واتصل علم الحريق المذكور بسلطانها ، عَظُمَ ذلك عليه ، وبرزت أوامره الشريفة بالمبادرة إلى تنظيف المسجد الشريف ، ورأى أن في تأهيل الله تعالى له لعامة ذلك مزيد التشريف ، وكال التعريف ، وأنه كَرَامَة من الله تعالى أكرمه بها ، وذخيرة يرجو الفوز بسببها ، فاستقبل أمر العمارة بهمة تعلو الهمم العلية ، ورَسَمَ بإبطال عمائرہ المسكية ، وبتوجه شادها السيفى الأمير سنقر الجمالى صُحْبَة الحاج الأول بزيادة على مائة صانع من البنائين والنجارين والنشارين والدهانين والحجارين والنحاتين والحدادين والمرحّمين وغيرهم ، وكثير من الحمير والجمال ، وصحبته وصحبة أخيه المقر الأشرفى الشجاعى شاهين والأمير قاسم الفقيه شيخ الحرم الشريف مبلغ عشرين ألف دينار ، وشرع السلطان فى تجهيز الآلات والمُؤَن حتى كثرت فى الطُّور واليَنْبُع والمدينة الشريفة .

ثم جَهَّز متولى العمارة الأولى بالمدينة الشريفة - وهو الجناب العالى الخواجهكى الشمسى شمس الدين بن الزمن - فى أثناء ربيع الأول وصحبته أكثر من مائتى

جمل ومن مائة حمار وأزيد من ثلثمائة من الصنائع أهل الصنائع الأولى وغيرهم من
الحمالين والمبيضين والسباكين والجباسين، وأمصرفوا لهم شيئاً من الأجرة قبل سفرهم،
وقد صارت أحمال المؤن متواصلة قل أن تنقطع برأ وبحراً، واستقبلوا أمر العمارة
بجد واجتهاد، فهدموا المنارة الرئيسية التي أصابها الحريق إلى أساسها، وهدموا
من سور المسجد من ركن المنارة التي بباب السلام إلى آخر جدار القبلة وما يليه
من المشرق إلى باب جبريل، وما يلي المنارة من المغرب أيضاً إلى باب الرحمة،
وأعادوا المنارة الرئيسية وسور المسجد المذكور، وزادوا في عرضه يسيراً، ووسعوا
المحراب العثماني، وسقفوا مقدم المسجد سقفاً واحداً، بعد أن قصروا أساطينه
وجعلوا عليها عقوداً من الآجر فوقها أخشاب السقف، وكانت الأساطين المذكورة
قبل ذلك واصله إلى سقف المسجد كهيئة ما بقي من أساطينه في بقية المشرق والمغرب
والشام، وجعلوا على المحراب العثماني قبة على رؤوس الأساطين، بعد أن قرنوا إلى
كل أسطوانة ثانية، وجمعوا في بعضها بين خمس أساطين؛ ليتأتى لهم عقد القبة
المذكورة، وأزالوا الأسطوانة التي كانت في مُحَاذَاة الأسطوانة التي إليها المصلّى
النبوي بينها وبين المحراب العثماني، وجعلوا على ما يُحَاذِي الحجرة الشريفة وما
حوله قبة عظيمة على دعائم بأرض المسجد وعقوداً من الآجر بدلا عن القبة الزرقاء
التي كانت قبل الحريق، وكانت تلك على رؤوس السواري كما سبق في الفصل
السابع والعشرين، وقد منّا هناك ما حصل من ضيق المسجد من جهة المشرق بسبب
إبتناء بعض تلك الدعائم هناك، فخرجوا بجدار المسجد الشرقي - أعني ما حاذى
ذلك منه - بنحو عرض الجدار في البلاط الشرقي، وأبقوا الباب المعروف بباب
جبريل في محله.

ثم أحدثوا أسطواناً في جانب مثلث الحجرة ليشتدّ به العقد الذي عليه القبة
في تلك الناحية، وحفروا لذلك أساساً عظيماً ظهر بسببه القبر المنسوب في أحد
الأقوال لفاطمة الزهراء رضي الله عنها، وزادوا دعامين وعقداً إلى جانب الأسطوانتين

اللتين في جهة الوجه الشريف ، ولم يبالوا بما حدث بسبب ذلك من الضيق في
الموضع المواجه للوجه الشريف داخل المقصورة وغيره لخشيتهم من سقوط القبة
المذكورة ، وكانوا قد وجدوا في جدار المنارة الرئيسية عند هذمها خزانة وضع
الأقدمون بها أوراق المصاحف المحترقة في الحريق الأول وسدّوا عليها ، فأخرجوا
تلك الأوراق ووضعوها في أعلى القبة المذكورة عند ختمها ، فبدأ في القبة تشقق ،
فقال لهم : إن ذلك بسبب وضع الأوراق المذكورة بها ؛ لأن الله تعالى يقول
« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله » فأخرجوا
تلك الأوراق منها ، فقضيت العجب من ذلك .

ومن الغريب أني كنت قد عزمّت على التوجه إلى أرض مصر لزيارة والدتي
وأهلي قبل الشروع في العمارة المذكورة ، فلم أحضر شيئاً من ذلك ، ومن الله تعالى
بالوصول إلى الوالدة والأهل ، فتوفيت الوالدة بعد قدومي بعشر ليالٍ ، وكانت
مدة غيبتني عن أهلي ستة عشر سنة ، ثم من الله تعالى بالعود إلى المدينة الشريفة
بعد تعويض ما تدعو الحاجة إليه من الكتب المحترقة ، فوجدتهم قد عمروا القبة
المذكورة ومقدم المسجد وعقدوا العقود المتصلة بهذه القبة من المشرق والشام ،
وجعلوها قبواً بدل السقف ، واتخذوا فيما بين الحجرة الشريفة والجدار القبلي قبة
لطيفة ، وحولها ثلاثة أضرحة تسمى مجاريد ، وجعلوا بين عقود هذه القباب وبين
المنارة الرئيسية التي أعادوها بادهنج للضوء والهواء ، وكان باب المنارة المذكورة
من جهة المغرب ، فنقلوه إلى جهة الشام ، وأحدثوا أمامه أربع درجّات بأرض
المسجد ، وإلى جانبها خزانة ، وجعلوا موضع بابها الأول خلوة للخطيب يجلس
بها إلى أن يخرج للخطبة يوم الجمعة ، وكان جلوسه في الأعصار الخالية هناك مع
وجود باب المنارة به ، واتخذوا أيضاً قبتين أمام باب السلام من داخله ،
وبنوا الباب المذكور بالرخام الأبيض والأسود وزخرفوه زخرفة عظيمة ، وكذلك
القباب المذكورة ، وخفضوا أرض مقدم المسجد حتى ساوت أرض المصلى

الشریف ، واتخذوا له محراباً في محل الصندوق الذي كان هناك وزخرفوه بالرخام وكذا المحراب العثماني زخرفة عظيمة ، وأعادوا ترخيم الحجرة الشريفة وما حولها وترخيم الجدار القبلي ، وأزالوا البناء الذي عمله أهل المدينة في موضع المقصورة المستديرة بالحجرة الشريفة ، وأبدلوا ما يلي القبلة من ذلك بشبابيك من النحاس ، وبأعلاها شبكة من شريط النحاس كهيئة الزرد ، وجعلوا لبقيتها مما يلي الشام مشبكاً مشاجراً من الحديد وفاصلاً عن يمين مثلث الحجرة ويساره فيه بابان كما سبق بسط كل ذلك في محله ، وعملوا المنبر ودكة المؤذنين من رخام ، وجعلوا فيما يلي باب الرحمة وباب النساء إلى مؤخر المسجد دكتين إحداها بالسقف الغربي والأخرى بالسقف الشرقي ، وجعلوها أخفض من الدكاك الشامية يسيراً ، وردموها من أتربة المسجد ، واتخذوا فيما أعادوه من الجدار الشرقي خزاناً للكتب وطاقت كباراً كالأبواب المقنطرة في أعلى الجدار وطاقت متسعة مستديرة أيضاً تكثيراً للضوء ، ولم يكن بأعلى الجدار المذكور أولاً غير شبك واحد ، وجعلوا نظير تلك الطاقات في الجدار القبلي أيضاً ، وبنو الجدار من ابتداء تلك الطاقات بالآجر ، وسبب الاحتياج إلى ذلك أن أساطين مقدم المسجد الشريف كانت واصله إلى سقفه كما سبق ، ولم يكن بذلك قناطر من العقود سوى ما يلي الرحمة من الرواقين اللذين جدّدهما الناصر كما سبق ، وكان الساقط من الأساطين بمقدم المسجد هو الأكثر لسقوط العقود التي كانت بين السقفين عليها وقت الحريق واشتعال النار المذيبة للرصاص الذي بين خرز الأساطين ، فاقضى رأيهم إعادة تلك الأساطين قصيرة وتكميلها إلى السقف بعقود القناطر ، فأخذت القناطر حصة من الضوء ، فعوضوا ذلك بتلك الطاقات ، وأكد عندهم فتحها أخذ متولى العمارة للدور التي في قبلة المسجد المعروفة بدور العشرة ليحملها مدرسة للسلطان ، وعرض الجدار القبلي يسيراً منها ، وجعل فيها فتحات لشبابيك متعددة أيضاً ، ثم صرف الله تعالى عزمه عن ذلك وسد فتحات الشبابيك

المذكورة كلها بفصوص الأحجار كنسبة بناء الجدار ، وسدًا أيضًا الطاقات التي بالجدار القبلي إلا ما يحاذي القبة التي على المحراب العثماني ، فجعل لها ولما بقي من الطاقات قمریات من الزجاج وشبكات من شريط النحاس .

ثم استبدل متولى العمارة الرباط المعروف بالحصن العتيق وما في شاميه من المدرسة الجوبانية والدار التي كانت تعرف بدار الشباك - وذلك كله فيما بين باب الرحمة و باب السلام - عند هدم هذا الجانب من الجدار الغربى ليتخذ في ذلك مدرسة ورباطا لسلطان زماننا الأشرف أدام الله تعالى تأييده وتسديده ، واتخذ في الجدار المذكور فتحاتٍ لشاييك كثيرة في ثلاث طبقات عدتها ثلاثون فتحة ، لأن الفتحة الثالثة من على يسار الداخل من باب السلام في موضع باب خوخة أبي بكر الصديق الآتى ذكرها في أبواب المسجد ، جعلوه بابا ينفذ إلى المسجد ، وكذا الفتحتان اللتان بينها وبين باب السلام جعلوا لهما بابين إلى المسجد فقط ، وصارت هذه الأبواب الثلاثة في المسجد دون المدرسة من أصل حاصل المسجد الذى كان هناك ، والفتحة الخامسة - وهى الثالثة من خوخة أبي بكر - جعلوها بابا ينفذ من المسجد إلى أسفل المدرسة ، وجعلوا على الفتحات التى فى الطبقة العليا شبكة من شريط النحاس شبه الزرد ؛ لأنها جعلت لمجرد الضوء ، وقد تكلم الناس مع متولى العمارة فى أمر الشباييك واتخاذها بجدار المسجد الشريف القبلى قبل انتقاله إلى هذه الجهة ، وكثر الكلام فى ذلك ، فكاتب السلطان فاستفتى علماء مصر فى ذلك فأفتاه جماعة منهم بذلك ، فقلدهم فيه ، وعوض ما فات من المصاحف والربعات ، وبعث بعض ذلك على يدى بحيث اجتمع من ذلك أكثر مما فات ، وكذلك الكتب بعث بجانب منها ووعد بإرسال ما يحتاج إليه ، وكان من التوفيق بعثه للأمير الكبير الفخرى قاسم الفقيه ناظرا على المسجد الشريف وشيخا لخدمته ، وهو محب للعلم وأهله ، مُفرِّم بتلاوة القرآن الشريف ، لم يرد على طريقته مثله فى هذا الباب ؛ فصار يباشر أمر الربعات والمصاحف بنفسه .

ومما يملكه ، واتخذ لها كرايى صغاراً يوضع عليها بالروضة الشريفة في أوقات الصلوات النهارية ، فيقرأ هو والناس فيها ؛ فم نفعها .

ولما قارب المسجد التمام أخذوا في عمارة الرباط والمدرسة المذكورين ، وأسسوا لهما منارة في فاحيتهما التي تلى باب الرحمة ، وشرعوا أيضاً في عمارة رباط آخر بدل رباط الحصن العتيق ، وفي حمام قبالة الرباط المذكور استأجروا أرض الحمام من الناظر على الميضاة التي بباب السلام فإنها منها ، وشرعوا أيضاً في عمارة سبيل وفرن وطاحون ومطبخ لدشيشة ووكة ذات حواصل في الدور التي اشتروها قبل ذلك للسلطان من دور العباسا وما يلي ذلك في جهة القبلة ، وذلك أن السلطان أعز الله تعالى أنصاره بعد رجوعه من الحج شرع في شراء أمان كن وجعلها وقفاً ليحمل ريعها إلى المدينة الشريفة ليفرق منه على أهلها ويعمل منه سباط كسباط الخليل عليه السلام ، وأبرز لذلك ستين ألف دينار كما ذكرناه في الفصل الثالث والثلاثين ، فاتخذوا هذه الأمان كن لذلك ، وهو أمر لم يسبق إليه ، فسح الله تعالى في أجله ، وبلغه من الخير غاية سؤاه وأمله ، ولم يكن بالمدينة الشريفة حمام قبل ذلك من مدة مديدة ، وكذا الطاحون ، وإنما يستعملون الأرحاء التي تدار بالأيدى .

ثم كتب إلى بعض الثقات بتكامل تحصيل تلك الأمان كن ، وأن متحصلها سبعة آلاف إردب وخمسمائة إردب من الحب في كل سنة ، وأن السلطان أدام الله نصره أنجز وقفها وشرع في عمارة أمان كن بمصر تقوية للوقف ، ورسم بإبطال المكوس بالمدينة وتعويض أميرها .

وقد كملت سقف المسجد النبوى كلها في أواخر شهر رمضان عام ثمان وثمانين وثمانمائة ، وتمت عمارة المسجد الشريف عقب ذلك ، ولم يبق - - - - - سوى اليسير من العماثر السابق ذكرها وإكمال ترخيم المدرسة الأشرفية .

وفي عام تسع وثمانين حضر جماعة من الدّهانين بعث بهم السلطان الأشرف

أعز الله أنصاره من مصر لمحو ما بلغه أنه جعل في بعض سقف المسجد الشريف من الدهان بالنيلة وإبداله باللازورد ، وجَهَّزَ معهم أساقيل لذلك ، فعملوه على أحسن وجه ، ثم جهز المقر الأشرف عين الأعيان ونخبة الزمان بهاء الدين أبا البقاء ابن الجيعان عظم الله شأنه وأسبغ عليه نعمه وإحسانه في ركب مع جماعة من خَوَاصِهِ ، فوصل إلى المدينة الشريفة سابع ذى القعدة الحرام من العام المذكور ، ومعه أحمال من كتب العلوم الشرعية موقوفة بالمدرسة الأشرفية ، وأحمال كثيرة من الحبِّ والدقيق والقدور النحاس التي جعلت برسم السَّمَط المتقدم ذكره ، وبقايا آلات العمارة مما جهز في المراكب الشريفة إلى ينبع ، فقرر أمر السَّمَط ، فصرف لكل شخص من المقيمين من الحب ما يكفيه على حسب عدة عياله ، لكل نفرٍ سُبْعُ إردب مصرى بتقديم السين على الموحدة ، وسَوَّى في ذلك بين الصغير والكبير والحر والعبد ، وجعل للآفاقين ما يكفيهم من الخبز وطعام الجنيشة في كل يوم ، وقرر أمر المدرسة ، وصرف للمرخمين وغيرهم من أرباب الصنائع مصروف بقية عملهم ، وأحسن النظر في ذلك حتى زاد جماعةً منهم من ماله وتلطف بهم وأحسنَ ، فانطلقت الألسُن بالدعاء له ، أحسن الله له الجزاء ، وجعل نصيبه من خيري الدار بن من أوفر الأجزاء .

وقد قارن هذه العمارة من السعد وتسهيل الأمور ما لا يوصف ، ويسر الله تعالى لهم من آلات العمارة ما لم تكن نظن حصولة بنواحي المدينة الشريفة ، خصوصا أخشاب الدَّوْم ، فقطعوا من الموضع المعوف بالشقرة ومن الصويدة ومن الفرع وغير ذلك ما لا يحصيه إلا الله تعالى ، وكذلك أخشاب السَّمر .

وقد أخبرني بعض المباشرين لهذه العمارة الميمونة أن المصروف فيها وفيما شرعوا فيه من عمارة المدرسة وتوابعها نقدا وأثمان آلات وبهائم وغير ذلك مائة وعشرون ألف دينار ، ومع ذلك فلم يتم بعد .

ثم بعد أن من الله تعالى بإتمامها بلغ السلطان الأشرف أن متولى العمارة تسمع

في استعمال مؤن غير صالحة ، وأن القبة التي سبق اتخاذها على أعلى ما يحاذي
الحجرة الشريفة قد تشققت ثم رمت ثم تشققت . ولم يفد الترميم فيها ، وأن
المنارة الرئيسية قد مالت ، مع أمور أخرى ، فتغير خاطره على متولى العمارة ،
ثم انتخب لذلك المقر الشجاعى شاهين الجمالى لما اشتمل عليه من الفضل والنبلى
وإصابة رأى ، وفوض إليه أيضاً مشيخة الحرم ونظره ونظر السباط ، فورد المدينة
الشريفة في موسم عام أحد وتسعين وثمانمائة ، وجمع الناس للنظر في ذلك ،
وراجع فيه أهل الخبرة ، فاقضى الحال هدم المنارة الرئيسية وهدم أعلى القبة
المذكورة ، وهدم المنارة المذكورة ظهر أن الخلل من عدم المبالغة في حفر
أساسها ، فحفر أساسها حتى بلغ به الماء ، واتخذ لها أحجاراً من الحجر الأسود
مُتَقَنَةً ، وأحكم بناءها مع الحسن الفائق ، بحيث لم يُرَ قبلها بالمدينة الشريفة مثلاً ،
وجعل بابها من المغرب في محله الأول ، وأطل تلك الدرج المحدثه بأرض المسجد
على ما سبق ، وأما القبة فاتخذ في الطاقات المحيطة بجوانبها سقفا يمنع من سقوط
ما يهدم منها إلى أرض الحجرة الشريفة ، ثم شرع في هدمها وإعادة بنائها ، بحيث
لم يرفع كسوة الحجرة الشريفة ولم يتخذ المسجد طريقاً للعمال في ذلك ، بل اتخذ
أساقيل يمشى عليها إلى سطح المسجد في ناحيته الشرقية ، واتخذ حاجزاً لحل المنارة
يحول بينها وبين المسجد بحيث يظن الظان أن المسجد لا عمارة به ، وصانه أيضاً
من الامتهان بعمل أرباب الصنائع ، فجزاه الله تعالى خير الجزاء ، وجعل ثوابه
على ذلك من أوفر الأجزاء .

وقد جاءت القبة حسنة مع الإتقان ، حتى إنه استصحب في هذه العمارة
الجبنس من مصر المحروسة ، واستعمله في البناء ، وحرّص على إتقان الآجر ،
وزاد العمال فيه على عاداتهم ، ولم يوفق متولى العمارة قبله لشيء من ذلك ،
سامحه الله ، وكل ميسّر لما خلق له .

وقد ذكر ابن النجار ما كان عليه الخلفاء من الاهتمام بعمارة المسجد النبوى

فقال : ولم يزل الخلفاء من بنى العباس ينفذون الأمراء على المدينة الشريفة ، ويمدّونهم بالأموال لتجديد ما ينهدم من المسجد النبوى ، فلم يزل ذلك متصلاً إلى أيام الناصر لدين الله ، أى الخليفة فى زمنه ، قال : فإنه ينفذ فى كل سنة من الذهب العين الإمامى ألف دينار لعمارة المسجد ، وينفذ عدة من النجارين والبنائين والنقاشين وأرباب الحرف ، وتكون مادتهم مما يأخذونه من الديوان ببغداد من غير هذه الألف ، وينفذ من الحديد والصناع والرصاص والحبال والآلات شيئاً كثيراً ، ولا تزال العمارة مُتصلة فى المسجد حتى إنه ليس به موضع أصبع إلا وهو عامر ، انتهى .

قلت : وعقب وفاة ابن النجار ييسر انتقل أمرُ المدينة الشريفة إلى ملوك مصر ، ولم يزل ملوكها يهتمون بعمارة هذا المسجد الشريف ، ومن أعظمهم همّة فى ذلك ، وأحَبُّهم فى سلوك هذه المسالك ، سلطانُ زماننا الملك المالك لصفوة الممالك الأشرف أبو النصر قايتباى ، أعزَّ الله أنصاره ، وضاعف اقتداره ؛ فلذلك أجرى الله على يديه هذه العمارة ، وآثره بهذه الأثارة ، ومن تأمل ما قدمناه فى الفصل السادس والعشرين فى الحريق الأول عن المؤرخين من عمل سقف المسجد على يد مَنْ سبق وطول مدته وصفته ، وأحاط علماً بما أسلفناه عن سلطان زماننا فى عمارته ، حكم يقيناً بملوهمته ، وفخار منقبتة ومراتبته ، واختصاصه بما لم يُفَرَّ به مَنْ سبقه ؛ فكان هو سابقاً ، وإن عد فى الزمان لا حقاً ، وقد ذكرنا ماله بالحجاز الشريف من الآثار الجميلة ، وبعض مناقبه الجليلة ، فى الفصل الثالث والثلاثين فى خَوْخَةِ آل عمر رضى الله عنه لما خصه الله به من حَسَمِ مادة المفاصد المترتبة عليها فى زماننا ، وأمره بسدّ طابقتها ، شكر الله صنيعه ، وحَصَّنَه من العُدَاة بِحُصُونِهِ السَّيِّعَةِ

خاتمة

فما نقل من عمل نور الدين الشهيد لخدق حَوْلَ الحجرة الشريفة مملوء
بالرصاص ، وذكر السبب في ذلك ، وما ناسبه

أعلم أني قد وقفتُ على رسالة قد صَنَّفها العلامة جمال الدين الأسنوي في
المنع من استعمال الولاية للنصارى ، وسماها بعضهم « بالانتصارات الإسلامية »
ورأيت عليها بخط تلميذه شيخ مشايخنا زين الدين المراغى ما صورته « نصيحة
أولى الألباب » ، في منع استخدام النصارى كتاب « لشيخنا العلامة جمال الدين
الأسنوي ، ولم يسمه ، فسميته بحضرته ، فقرئ عليه ، انتهى . فرأيت أنه ذكر فيها
ما لفظه : وقد دعيتهم أنفسهم - يعني النصارى - في سَلْطَنَةِ الملك العادل نور الدين
الشهيد إلى أمر عظيم ظنوا أنه يتم لهم ، ويأبى الله إلا أن يتم نور ولوكره
الكافرون ، وذلك أن السلطان المذكور كان له تهجد يأتي به بالليل ، وأوراد
يأتي بها ، فنام عقب تهجده ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه وهو يشير
إلى رجلين أشقرين ويقول : أُنْجِدْنِي أَنْقِدْنِي مِنْ هَذَيْنِ ، فاستيقظ فزعاً ، ثم
توضأ وصلى ونام فرأى المنام بعينه ، فاستيقظ وصلى ونام فرآه أيضاً مرة ثالثة ،
فاستيقظ وقال : لم يبق نَوْمٌ ، وكان له وزير من الصالحين يقال له جمال الدين
الموصلى ، فأرسل خلفه ليلاً ، وحكى له جميع ما اتفق له ، فقال له : وما قُودك ؟
أخرج الآن إلى المدينة النبوية ، وأبكم ما رأيت ، فتجهَّز في بقية يلمته ، وأخرج
على رَوَاحِلَ خفيفة في عشرين نفرًا ، وصحبته الوزير المذكور ، ومال كثير ،
فقدم المدينة في ستة عشر يوماً ، فاغتسل خارجها ودخل فصَلَّى بالروضة ، وزار ،
ثم جلس لا يدري ماذا يصنع ، فقال الوزير وقد اجتمع أهل المدينة في المسجد :
إن السلطان قصَّد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحضر معه أموالاً للصَّدَقة ،
فاكتبوا مَنْ عندكم ، فكتبوا أهل المدينة كلهم ، وأمر السلطان بحضورهم ،

وكل من حضر ليأخذ يتأمل فيه الصفة التي أراها النبي صلى الله عليه وسلم له فلا يجد تلك الصفة ، فيعطيه ويأمره بالانصراف ، إلى أن انقضت الناس ، فقال السلطان : هل بقي أحد لم يأخذ شيئاً من الصدقة ؟ قالوا : لا ، فقال : تفكروا وتأملوا ، فقالوا : لم يبق أحد إلا رجلين مغربين لا يتناولان من أحد شيئاً ، وهما صالحان غنيان يكثران الصدقة على المحاويج ، فانشرح صدره وقال : عليّ بهما ، فأتى بهما فآراهما الرجلين اللذين أشار النبي صلى الله عليه وسلم إليهما بقوله : أنجذني ، أنجذني من هذين ، فقال لهما : من أين أنتم ؟ فقالا : من بلاد المغرب ، جئنا حاجين فاخترنا المجاورة في هذا العام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أضدقاني ، فصمما على ذلك ، فقال : أين منزلهما ؟ فأخبر بأنهما في رباط بقرب الحجرة الشريفة ، فأمسكهما وحضر إلى منزلهما ، فرأى فيه مالا كثيرا وختمتين وكتباً في الرقائق ، ولم ير فيه شيئاً غير ذلك ، فأتى عليهما أهل المدينة بخير كثير وقالوا : إنهما صائمان الدهر ملازمان الصلوات في الروضة الشريفة وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم وزيارة البقيع كل يوم بكرة وزيارة قباء كل سبت ، ولا يرُدَّان سائلاً قط بحيث سدّا خلة أهل المدينة في هذا العام المجدب ، فقال السلطان : سبحان الله ! ولم يظهر شيئاً مما رآه ، وبقي السلطان يطوف في البيت بنفسه ، ورفع حصيرا في البيت ، فرأى سردابا محفورا ينتهي إلى صوب الحجرة الشريفة ، فارتأى الناس لذلك ، وقال السلطان عند ذلك : أضدقاني حالكما وضربهما ضربا شديدا ، فاعترفا بأنهما نصرانيان بعثتهما النصارى في زى حجاج المغاربة ، وأمالوهما بأموال عظيمة ، وأمروهما بالتحيل في شيء عظيم خيلته لهم أنفسهم ، وتوهموا أن يمكنهم الله منه ، وهو الوصول إلى الجناب الشريف ويفعلوا به ما زينته لهم إبليس في النقل وما يترتب عليه ، فنزلا في أقرب رباط إلى الحجرة الشريفة ، وفعلا ما تقدم ، وصارا يحفران ليلا ، ولكل منهما محفظه جلد على زى المغاربة ، والذي يجتمع من التراب يجعله كل منهما في محفظته ، ويخرجان لإظهار زيارة البقيع ،

فِي دَنِيَانِهِ بَيْنَ الْقُبُورِ ، وَأَقَامَا عَلَى ذَلِكَ مَدَّةً ، فَلَمَّا قَرَّبَا مِنَ الْحَجَرَةِ الشَّرِيفَةِ أُرْعَدَتِ
السَّمَاءُ وَأَبْرَقَتْ ، وَحَصَلَ رَجِيفٌ عَظِيمٌ بِحَيْثُ خِيلَ انْقِلَاعُ تِلْكَ الْجِبَالِ ، فَقَدِمَ
السلطانُ صَبِيحَةً تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَاتَّفَقَ إِمْسَاكُهُمَا وَاعْتِرَافُهُمَا ، فَلَمَّا اعْتَرَفَا وَظَهَرَ حَالُهُمَا
عَلَى يَدَيْهِ ، وَرَأَى تَأْهِيلَ اللَّهِ لَهُ لِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ بِكَيْ بَكَاءٍ شَدِيداً ، وَأَمَرَ بِضَرْبِ
رِقَابِهِمَا ، فَقَتَلَا تَحْتَ الشَّبَاكِ الَّذِي يَلِي الْحَجَرَةَ الشَّرِيفَةَ ، وَهُوَ مِمَّا يَلِي الْبَقِيعَ ، ثُمَّ
أَمَرَ بِإِحْضَارِ رَصَاصٍ عَظِيمٍ ، وَخَفَّرَ خَنْدَقاً عَظِيماً إِلَى الْمَاءِ حَوْلَ الْحَجَرَةِ الشَّرِيفَةِ
كُلِّهَا ، وَأَذِيبَ ذَلِكَ الرِّصَاصَ ، وَمَلَأَ بِهِ الْخَنْدَقَ ، فَصَارَ حَوْلَ الْحَجَرَةِ الشَّرِيفَةِ
سُوراً رِصَاصاً إِلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مُدْكَهِ ، وَأَمَرَ بِإِضْعَافِ النَّصَارَى ، وَأَمَرَ أَنْ
لَا يَسْتَعْمَلَ كَافِرٌ فِي عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَأَمَرَ مَعَ ذَلِكَ بِقَطْعِ الْمَكُوسِ جَمِيعِهَا ، انْتَهَى
وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ الْجَمَالِ الْمَطْرِيِّ بِإِخْتِصَارٍ ، وَلَمْ يَذْكُرْ عَمَلَ الْخَنْدَقِ حَوْلَ
الْحَجَرَةِ وَسَبَّكَ الرِّصَاصَ بِهِ ، لَكِنْ كَبِّنَ السَّنَةَ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا ذَلِكَ مَعَ مُخَالَفَةِ
لِبَعْضِ مَا تَقَدَّمَ ، فَقَالَ فِي الْكَلَامِ عَلَى سُورِ الْمَدِينَةِ الْمَحِيطِ بِهَا الْيَوْمَ : وَصَلَ السُّلْطَانُ
نُورُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ زَنْجِي بْنِ أَقْسَنْدَقٍ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ إِلَى الْمَدِينَةِ
الشَّرِيفَةِ بِسَبَبِ رُؤْيَا رَأَاهَا ذَكَرَهَا بَعْضُ النَّاسِ وَسَمِعْتُهَا مِنْ الْفَقِيهِ عِلْمُ الدِّينِ يَعْقُوبَ
ابْنَ أَبِي بَكْرٍ الْمُحْتَرَقِ أَبُوهُ لَيْلَةَ حَرِيقِ الْمَسْجِدِ عَنْ حَدِيثِهِ مِنْ أَكْبَارٍ مَنْ أَدْرَكَ أَنَّ
السُّلْطَانَ مُحَمَّدًا الْمَذْكُورَ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ
وَهُوَ يَقُولُ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ : يَا مُحَمَّدُ أَنْقِذْنِي مِنْ هَذَيْنِ الشَّخْصَيْنِ الْأَشْقَرَيْنِ نَجَاهَهُ ،
فَاسْتَحْضَرَ وَزِيرَهُ قَبْلَ الصَّبْحِ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ : هَذَا أَمْرٌ حَدَّثَ فِي مَدِينَةِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ لَهُ غَيْرُكَ ، فَتَجَهَّزْ وَخَرُجْ عَلَى عَجَلٍ بِمَقْدَارِ أَلْفِ رَا حِلَّةٍ
وَمَا يَتْبَعُهَا مِنْ خَيْلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، حَتَّى دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا وَالْوَزِيرُ
مَعَهُ ، وَزَارَ وَجَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ لَا يَدْرِي مَا يَصْنَعُ ، فَقَالَ لَهُ الْوَزِيرُ : أَتَعْرِفُ الشَّخْصَيْنِ
إِذَا رَأَيْتَهُمَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَطَلَبَ النَّاسَ عَامَةً لِلصَّدَقَةِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِمْ ذَهَباً كَثِيراً
وَفُضَّةً ، وَقَالَ : لَا يَبْقَيْنَ أَحَدٌ بِالْمَدِينَةِ إِلَّا جَاءَ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا رَجُلَانِ مَجَاوِرَانِ مِنْ

أهل الأندلس نازلان في الناحية التي قبلة حُجرة النبي صلى الله عليه وسلم من خارج لمسجد عند دار آل عمر بن الخطاب التي تعرف اليوم بدار العشرة ، فطلبهما للصدقة فامتنعا وقالا : نحن على كفاية ما نَقْبَل شيئاً ، فجدَّ في طلبهما ، فجاء بهما ، فلما رآهما قال للوزير : هما هذان ، فسألهما عن حالهما وما جاء بهما ، فقالا : لمجاورة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اضدقاني ، وتكرر السؤال حتى أفضى إلى مُعاقبتهما فأقرَّ أنهما من النصارى ، وأنهما وصَّلا لى ينقلا من في هذه الحجرة الشريفة باتفاق من ملوكهم ، ووجدتهما قد حَفَرَا نَقْباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلى ، وهما قاصدان إلى جهة الحجرة الشريفة ، ويجعلان التراب في بئر عندهما في البيت الذى هما فيه ، هكذا حدثني عن حدثه ، فضرب أعناقهما عند الشباك الذى فى شرقى حجرة النبي صلى الله عليه وسلم خارج المسجد ، ثم أحرَقَا بالنار آخر النهار وركب متوجها إلى الشام ، انتهى .

وقد ساق المجدُّ هذه الواقعة على الوجه الذى ذكره المطرى فقال : ومن الحوادث فى المسجد الشريف ما نقله جماعة من مشايخ المدينة وعلمائها ، وذكر ما تقدم ، وكذلك الزين المراغى ذكر ما تقدم عن المطرى نقلاً عنه ، وزاد أن وزير السلطان نور الدين الذى استحضره وذكر له القصة هو الموفق خاند بن محمد ابن نصر القيسرى الشاعر ، قال : وكان موفقاً ، انتهى .

وماخذه فى ذلك - كما رأيت فى حاشية بخطه على كتابه - أن الذهبى قال فى ترجمة الموفق هذا : موفق الدين ، أبو البقاء ، صاحب الخط المنسوب ، وكان صَدْرًا ، نبيلًا ، وافر الحشمة ، وزرَّ للسلطان نور الدين ، توفى بحلب سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، انتهى .

وقد خالف الزين فى ذلك ما قدمناه عن شيخه الأسنوى من تسمية الوزير المذكور بجمال الدين الموصلى ، ولا يلزم من كون الموفق وزرَّ للسلطان نور الدين أن يكون هو الوزير عند وقوع الرؤيا المذكورة ؛ لاحتمال أنه وزرَّ له بعد ذلك

أوقبله ، وجمال الدين الموصلى هذا هو الجواد الأصفهاني ، وقد تقدم ذكره في ترخيم
الحجرة ، ووصفه بأنه وزير بنى زَنْكِي ؛ لأنه كان وزيراً والد نور الدين الشهيد
الذى هو زَنْكِي ثم وزير لولده غازى ، وأدرك دولة نور الدين الشهيد وزمان هذه
الواقعة ؛ فالظاهر أنه وزير له ، وأنه المراد فى هذه الواقعة .

والعجب أنى لم أقف على هذه القصة فى كلام مَنْ ترجم نور الدين الشهيد
مع عظمها ، وهى شاهدة لما ذكره الإمام الياقنى فى ترجمته من أن بعض العارفين
من الشيوخ ذكر أنه كان فى الأولياء معدوداً من الأربعين وصالح الدين نائه
من الثلاثمائة ، انتهى .

وقال ابن الأثير : طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا ،
فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز مدكاً أحسن سيرة من الملك العادل
نور الدين ، انتهى .

وقد اتفق بعد الأربعمائة من الهجرة ما يقرب من قصة رؤيا نور الدين الشهيد
المتقدمة على ما نقله الزين المرافى عن تاريخ بغداد لابن النجار ، قال : أخبرنا
أبو محمد عبد الله بن المبارك المقرئ ، عن أبى المعالى صالح بن شافع الجبلى ، أنبأنا
أبو القاسم عبد الله بن محمد بن محمد المعلم ، ثنا أبو القاسم عبد الحليم بن محمد المغربى
أن بعض الزنادقة أشار على الحاكم العبيدى صاحب مصر بنقل النبى صلى الله
عليه وسلم وصاحبيه من المدينة إلى مصر ، وزين له ذلك ، وقال : متى تم لك
ذلك شدّ الناس رحالهم من أقطار الأرض إلى مصر ، وكانت منقبة لسكانها ،
فاجتهد الحاكم فى مدة وبني بمصر حائزاً ، وأنفق عليه مالا جزيلاً . قال : وبعث
أبا الفتوح لنُبشِ الموضع الشريف ، فلما وصل إلى المدينة الشريفة وجلس
بها حضر جماعة المدنين وقد علموا ما جاء فيه ، وحضر معهم قارىء يعرف بالزلبانى ،
فقرأ فى المجلس « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم » إلى قوله « إن كُنتُمْ
مُؤْمِنِينَ » فهاج الناس ، وكادوا يقتلون أبا الفتوح ومن معه من الجند ، وما منعهم
من السرعة إلى ذلك إلا أن البلاد كانت لهم .

ولما رأى أبو الفتوح ذلك قال لهم : الله أحقُّ أن يُخَشَى ، والله لو كان على من الحاكم قَوَات الروح ما تعرضتُ للموضع ، وحصل له من ضيق الصدر ما أزعجه كيف نهض في مثل هذه المحزنة ، فما انصرف النهارُ ذلك اليوم حتى أرسل الله ريحاً كادت الأرضُ تزلزلُ من قوتها حتى دحرجت الإبل بأقتابها والخيل بسروجها كما تدحرج الكرة على وجه الأرض ، وهلاك أكرها وخلق من الناس ، فانشرح صدر أبي الفتوح وذهب رَوْءُهُ من الحاكم لقيام عُذْرِهِ من امتناع ما جاء فيه . قلت : ونقل ابن عذرة في كتاب «تأسي أهل الإيمان ، فيما جرى على مدينة القيروان» لابن سعدون القيرواني ما لفظه : ثم أرسل الحاكم بأمر الله إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم من ينبش قبر النبي ، فدخل الذي أراد نبشه داراً بقرب المسجد وحفر تحت الأرض ليصل إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فأروا أثواراً ، وسمع صائح : إن نبيكم ينبش ، ففتش الناس فوجدوهم وقتلوهم ، انتهى .

ومما يناسب ذلك ما ذكره الحب الطبري في الرياض النضرة في فضائل العشرة ، قال : أخبرني هرون بن الشيخ عمر بن الزعب - وهو ثقة صدوق مشهور بالخير والصلاح والعبادة - عن أبيه ، وكان من الرجال الكبار - قال : كنت مجاوراً بالمدينة وشيخُ خدام النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذاك شمسُ الدين صواب اللطى ، وكان رجلاً صالحاً كثير البر بالفقراء والشفقة عليهم ، وكان يبي وبيته أنس ، فقال لي يوماً : أخبرك بعجيبه ، كان لي صاحبٌ يجلس عند الأمير وياقني من خبره بما تمشُ حاجتي إليه ، فبينما أنا ذات يوم إذ جاءني فقال : أمر عظيم حدث اليوم ، قلت : وما هو ؟ قال : جاء قوم من أهل حلب وبذلوا للأمير بذاً كثيراً ، وسألوه أن يمكنهم من فتح الحجرة وإخراج أبي بكر وعمر رضي الله عنهما منها ، فأجابهم إلى ذلك ، قال صواب : فاهتمت لذلك هما عظيماً ، فلم يشب أن جاء رسول الأمير يدعوني إليه ، فأجبت ، فقال لي : يا صواب يدقُ عليك الليلة أقوام المسجد ، فافتح لهم ، ومكنهم مما أرادوا ولا تعارضهم ، ولا تعترض

عليهم ، قال : فقلت له : سَمَّاءَ وطاعةً ، قال : وخرجت ولم أزل يومى أَتَجَمَعُ خَلْفَ الحجرة أبكى لا ترقأ لى دَمعة ولا يشعر أحد ما بى ، حتى إذا كان الليل وصلينا العشاء الآخرة وخرج الناس من المسجد وغلقنا الأبواب فلم نَنشَبْ أن دُقَّ الباب الذى حذاء باب الأمير ، أى باب السلام ، فإن الأمير كان سَكَنه حينئذ بالحِصن العتيق .

قل : ففتحت الباب ، فدخل أربعون رجلاً أعدُّهم واحداً بعد واحد ، ومعهم المساحى والمكاتل والشموع وآلات الهدم والحفر . قال : وقصدوا الحجرة الشريفة ، فوالله ما وصلوا المنبر حتى ابتلعتهم الأرض جميعهم بجميع ما كان معهم من الآلات ، ولم يبق لهم أثر . قال : فاستبطأ الأمير خبرهم ، فدعانى ، وقال : يا صواب ألم يأتِكَ القوم ؟ قلت : بلى ، ولكن اتفق لهم ما هو كيت وكيت ، قال : انظر ما تقول ، قلت : هو ذلك ، وقم فانظر هل ترى منهم باقية أو لهم أثر ، فقال : هذا موضع هذا الحديث ، وإن ظهر منك كان يقطع رأسك ، ثم خرجت عنه ، قال الحبُّ الطبرى : فلما وعيت هذه الحكاية عن هرون حكيته لجماعة من الأصحاب فيهم مَنْ أثنى بحديثه فقال : وأنا كنت حاضراً فى بعض الأيام عند الشيخ أبى عبد الله القرطبي بالمدينة والشيخ شمس الدين صواب يحكى له هذه الحكاية سمعتها بأذن من فيه ، انتهى ما ذكره الطبرى .

قلت : وقد ذكر أبو محمد عبد الله بن أبى عبد الله بن أبى محمد المرجانى هذه الواقعة باختصار فى تاريخ المدينة له ، وقال : سمعتها من والدى ، يعنى الإمام الجليل أبا عبد الله المرجانى ، قال : وقال لى : سمعتها من والدى أبى محمد المرجانى سمعها من خادم الحجرة ، قال أبو عبد الله المرجانى : ثم سمعتها أنا من خادم الحجرة الشريفة ، وذكر نحو ما تقدم ، إلا أنه قال : فدخل خمسة عشر - أو قال عشرون - رجلاً بالمساحى والنفاف ، فما مشوا غير خطوة أو خطوتين وابتلعتهم الأرض ولم يُسم الخادم ، والله أعلم .

الفصل الثلاثون

في تحصيب المسجد الشريف

وذكر البزاق فيه، وتخليقه، وإجماره، وذكر شيء من أحكامه

أول
تحصيب
المسجد النبوي
روى أبو داود في سننه عن أبي الوليد قال: سألت ابن عمر عن الحصباء الذي في المسجد، فقال: مُطْرُفَا ذَاتِ لَيْلَةٍ، فَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ مُبْتَلَةً، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَأْتِي بِالْحَصْبَاءِ فِي ثَوْبِهِ وَيَبْسُطُهُ تَحْتَهُ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ قَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا؟ وَهُوَ صَرِيحٌ فِي جَعْلِ الْحَصْبَاءِ فِي الْمَسْجِدِ فِي زَمَنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ويؤيده ما رواه أصحاب السنن من حديث أبي ذر: إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَإِنَّ الرَّحْمَةَ تَوَاجَهَهُ، فَلَا يَمْسَحُ الْحَصْبَاءَ، وَكَذَا مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ حَذِيفَةَ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ مَسْحِ الْحَصَى، فَقَالَ: وَاحِدَةٌ أَوْ دَعْ، وَكَذَا مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ أَبُو بَدْرٍ: أَرَاهُ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنْ الْحَصَاةُ تُنَاشِدُ الَّذِي يَخْرُجُهَا مِنَ الْمَسْجِدِ، لَكُنْ قَدْ سَأَلَ الدَّارِقُطَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ فَذَكَرَ أَنَّهُ رَوَى مُوقِفًا عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ، وَقَالَ: رَفَعَهُ وَهُمْ مِنْ أَبِي بَدْرٍ.

وروى يحيى عن بعض السلف أنه كان إذا خرج بالحصاة من المسجد في ثوبه أو نعله أمر بردها إلى المسجد.

وروى ابن شبة عن سليمان بن يسار قال: الْحَصَاةُ إِذَا أَخْرَجْتَ مِنَ الْمَسْجِدِ تَصِيحُ حَتَّى تَرُدَّ إِلَى مَوْضِعِهَا.

وذكر البرهان ابن فرحون أن مالكاً سئل عن الرجل يخرج من المسجد فيجد شيئاً من حصي المسجد قد تعلق بوجهه، أيلزمه ردُّه إلى المسجد؟ فقال: لَا يَلْزِمُهُ ذَلِكَ، وَأَرُخَّصَ لَهُ فِي طَرَحِهِ، فَقَالَ السَّائِلُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّهُمْ يَقُولُونَ

إذا أُخْرِجَتِ الحِصَاةُ مِنَ الْمَسْجِدِ تَصِيحٌ حَتَّى تَرُدَّ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ :
دَعَهَا تَصِيحُ حَتَّى يَنْشَقَّ حَلَقُهَا ، فَقَالَ : أَوَلَهَا خَلَقَ ؟ قَالَ : فَمِنْ أَيْنَ تَصِيحُ ؟
وَرَوَى ابْنُ شُبَّةٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ لِنَفِيعٍ فِي الْحِصَاةِ : رُدَّهَا وَإِلَّا خَاصَمَتَكَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ

وَحَكَى الْأَقْشَهْرِيُّ عَنْ شَيْخِ الْخُدَّامِ ظَهِيرِ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَشْرَفِيِّ قَالَ :
أَتَانِي عَامَ خَمْسَةِ عَشَرَ وَسَبْعِمِائَةَ رَجُلٌ مِنَ الشَّامِ فِي مَوْسَمِ الْحَاجِّ وَقَالَ : كُنْتُ
حَاجَّجْتُ عَامَ أَوَّلَ وَحَمَلْتُ شَيْئًا مِنْ تَرَابِ الْمَسْجِدِ وَحَصْبَائِهِ ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَادُ فِي
الْمَنَامِ يَقُولُ لِي : رُدَّنِي إِلَى مَوْضِعِي ، عَذَّبَنِي عَذْبُكَ اللَّهُ ، فَهَا أَنَا أَتَيْتُ بِهِ ،
قَالَ : فَأَخْرَجَ صُرَّةً فِيهَا مَا ذَكَرَهُ ، فَصَيَّبْنَاهَا فِي الْمَسْجِدِ ، انْتَهَى .

وَالَّذِي يَقْتَضِيهِ كَلَامُ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ تَحْصِيبَ الْمَسْجِدِ إِنَّمَا حَدَثَ فِي زَمَانِ عُمَرَ
ابْنِ الْخَطَّابِ ؛ فَقَدْ رَوَى يَحْيَى عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَزْهَرِيِّ قَالَ : قَالَ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ حِينَ بَنِيَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا نَدْرِي
مَا نَفْرَشُ فِي مَسْجِدِنَا ، فَقِيلَ لَهُ : افْرَشِ الْخَصْفَ وَالْحَصِرَ ، قَالَ : هَذَا الْوَادِي
الْمُبَارَكُ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ « الْعَقِيقُ وَادٍ مُبَارَكٌ » قَالَ :
فَحَصَبَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَرَوَى ابْنُ زُبَّالَةَ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : قَدِمَ سَفْيَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّقْفِيُّ
عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَسْجِدُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مُحْصُوبٍ ،
فَقَالَ : أَمَا لَكُمْ وَادٍ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : بَلَى ، قَالَ : فَأَحْصِبُوهُ مِنْهُ ، فَقَالَ عُمَرُ : أَحْصِبُوهُ
مِنْ هَذَا الْوَادِي الْمُبَارَكِ ، يَعْنِي الْعَقِيقَ .

قَالَ الْمَطْرِيُّ : رَمْلُ الْمَسْجِدِ الشَّرِيفِ - أَيْ الَّذِي يُحْصَبُ بِهِ - يَحْمَلُ مِنْ
وَادِي الْعَقِيقِ ؛ مِنَ الْعَرِصَةِ الَّتِي تَسِيلُ مِنَ الْجَمَاءِ الشَّمَالِيَةِ إِلَى الْوَادِي ، وَلَيْسَ بِالْوَادِي
رَمْلٌ أَحْمَرٌ غَيْرَ مَا يَسِيلُ مِنَ الْجَمَاءِ ، وَهُوَ رَمْلٌ أَحْمَرٌ يُغَرِّبُ ثُمَّ يَفْرَشُ فِي
الْمَسْجِدِ ، انْتَهَى .

وروى ابن زبالة من طريق الضحاك عن بشر بن سعيد أو سليمان بن يسار — شك الضحاك — أنه حَدَّث أن المسجد كان يرش في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وزمان أبي بكر وعامة زمان عمر ، وكان الناس يتنخمون فيه ويهضقون حتى عاد زلماً ، حتى قدم ابن مسعود الثقفي ، فقال لعمر : ألس قرابكم واد ؟ قال : بلى ، قال : فمر بحصباء تطرح فيه فهو أكف ، للمخاط والنخامة ، فأمر عمر بها ، وهذه الرواية مع ضعفها قد اشتملت على أنهم كانوا يهضقون في المسجد .

وفي الصحيحين عن أنس مرفوعاً « البزاق في المسجد خطيئة ، وكفارتها دفنها » . وقد رواه ابن زبالة ، وروى أيضاً عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى نخامة في المسجد فقال : « مَنْ فعل هذا جاء يوم القيامة وهي في وجهه » . وعن عبد الله بن قسيط مرفوعاً « لا يبصق في مسجدي هذا » .

وحديث ابن عمر رواه البزار وابن خزيمة في صحيحه ، وروى أحمد عن أبي أمامة أنه صلى الله عليه وسلم قال « البصاق في المسجد سيئة ، ودفنه حسنة » . ورواه ابن شعبة بمعناه

وروى أيضاً عن أبي هريرة قال « إن المسجد لينزوى من النخامة كما ينزوى الجلد من النار » ولهذا جزم النووي في التحقيق وشرح المذهب بتحريمه . ووقع في عبارة بعض أصحابنا التعبير بالكرامة ، وحملها بعضهم على كراهة التحريم ، وقال بعض العلماء : إنما يكون البزاق في المسجد خطيئة لمن لم يدفنه لأنه يقدر المسجد ويتأذى به .

قال القرطبي : ويدل على صحة هذا التأويل حديث أبي ذر الذي رواه مسلم وغيره « ووجدت في مساوي أعمالها — أي الأمة — النخامة تكون في المسجد لا تدفن » فلم يثبت لها حكم السيئة بمجرد إيقاعها في المسجد ، بل بذلك وبقائها غير مدفونة .

قلت : الرواية الأولى بينت أن الفعل خطيئة ، وأن الدفن يكفرها كما يكفر

الجلد معصية الزنى ، فلتحمل الرواية الأخرى عليها ؛ لأن الإخبار فيها عما استقر عليه الأمر ، لكن روى ابن شبة من طريق الفرّج بن فضالة عن أبي سعيد قال : رأيت واثلة بن الأسقع دخل مسجد دمشق فصلّى فيه ، فبزق تحت رحله اليسرى ثم عَرَكَهَا ، فلما انصرفت قلت له : أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تَبْزُقُ في المسجد؟ فقال: هكذا رأيت النبي صلى الله عليه وسلم صَنَعَ.

ورواه أبو داود من الطريق المذكورة بنحوه ، وفرّج بن فضالة ضَعَفَهُ الدارقطني وغيره ، وقواه أحمد ، واقتصر الحافظ ابن حجر في التقریب على تضعيفه . وروى ابن شبة أيضاً بإسناد فيه ضعف عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ دَخَلَ مَسْجِدِي هَذَا فَبَزَقَ أَوْ تَنَخَّمَ فَلْيَحْفَرْ فَلْيَبْعِدْ وَلْيَدْفِنْهُ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيَبَزُقْ فِي ثَوْبِهِ حَتَّى يَخْرُجَ بِهِ » وهذا لو صح كان حجة لهذا المذهب .

فإن قيل : يعضده حديث البخاري عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم « رَأَى نُحْمَةً فِي الْقِبْلَةِ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رَوَى فِي وَجْهِهِ ، فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ ، فَقَالَ : إِنْ أَحَدُكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ ، أَوْ إِنْ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ ، فَلَا يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قَبْلَ قِبْلَتِهِ ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ ، ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ فَبَصَقَ فِيهِ ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ ، فَقَالَ : أَوْ يَفْعَلْ هَكَذَا » وكذا ما رواه ابن شبة بإسناد جيد عن أبي نضرة أن النبي صلى الله عليه وسلم « رَأَى نُحْمَةً فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ ، فَغَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى كَادَ يَدْعُو عَلَى صَاحِبِهَا ، ثُمَّ قَالَ : لَا يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ فِي قِبْلَتِهِ ؛ فَإِنْ رَبَّهُ مُسْتَقْبِلُهُ ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ فَإِنْ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ الْيَسْرَى ، فَإِنْ كَانَ عَلَى يَسَارِهِ أَحَدٌ فَلْيَبْزُقْ فِي ثَوْبِهِ » وفي رواية « فَإِنْ كَانَ عَنْ يَسَارِهِ أَحَدٌ يَكْرَهُ أَنْ يَبْزُقَ نَحْوَهُ فَلْيَبْزُقْ فِي ثَوْبِهِ ، وَبَزَقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثَوْبِهِ وَحَكَّ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ » فاقْتَضَى ذَلِكَ جَوَازَ الْبَصَاقِ فِي الْمَسْجِدِ فِيمَا عَدَا الْقِبْلَةَ وَالْيَمِينَ حَالَةَ الصَّلَاةِ ، وَهُوَ مُقَيَّدٌ بِالْدَفْنِ مَا سَبَقَ .

قلنا : مَسَاقُ الْحَدِيثِ لِبَيَانِ أَدَبِ الْمُصَلِّي فِي كَيْفِيَةِ الْبُصْقِ ، مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لِكَوْنِهِ فِي مَسْجِدٍ ، وَالْبُصَاقُ فِي الْمَسْجِدِ قَدْ بَيَّنَّهُ مَنْطُوقُ الْحَدِيثِ السَّابِقِ ؛ فَلَا يُتْرَكُ بِهَذَا ، وَأَفَادَ الْقَفَالُ فِي فَتَاوِيهِ - وَقَدْ ذَكَرَ حَدِيثَ النِّخَامَةِ فِي الْمَسْجِدِ - فَائِدَةً حَسَنَةً فَقَالَ : هَذَا الْخَبَرُ مَحْمُولٌ عَلَى مَا إِذَا نَزَلَتِ النِّخَامَةُ مِنَ الرَّأْسِ ، أَمَا إِذَا كَانَتْ مِنَ الصَّدْرِ فَهِيَ نَجَسَةٌ ؛ فَلَا يَجُوزُ دَفْنُهَا فِي الْمَسْجِدِ .

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ يَوْمًا إِذْ رَأَى نِخَامَةً فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ ، فَتَغَيَّظَ عَلَى النَّاسِ ، ثُمَّ حَكَّهَا ، وَأَحْسَبُهُ قَالَ : فِدَعَا بَزْعُفْرَانَ فَلَطَّخَهُ بِهِ ، وَقَالَ : إِنْ اللَّهُ قَبَلَ وَجْهَ أَحَدٍ فَلَا يَبْزُقَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ .

وَرَوَى ابْنُ شُبَّةَ عَنْ شَيْخِهِ خَلَادِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رَوَادٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِو أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى صَلَاةَ ذَاتِ يَوْمٍ ، فَرَأَى فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ نِخَامَةً ، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ أَخَذَ عِودًا فَحَكَّهَا ، ثُمَّ دَعَا بِمَخْلُوقٍ فَخَلَقَ مَكَانَهَا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلَا يَتَقَبَّلْ أَمَامَهُ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ ؛ فَإِنَّهُ يَسْتَقْبِلُ الرَّبَّ عِزَّ وَجَلَّ بِوَجْهِهِ .

وَرَوَى ابْنُ شُبَّةَ أَيْضًا بِسَنَدٍ جَيِّدٍ إِلَى أَبِي الْوَلِيدِ قَالَ : قُلْتُ لِابْنِ عَمْرِو : مَا بَدَأَ الزَّعْفَرَانُ - يَعْنِي فِي الْمَسْجِدِ - فَقَالَ : رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِخَامَةً فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ : مَا أَقْبَحَ هَذَا ! مَنْ فَعَلَ هَذَا ؟ فَجَاءَ صَاحِبُهَا فَحَكَّهَا وَطَلَّاهَا بِزَعْفَرَانٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَذَا أَحْسَنُ مِنْ ذَلِكَ .

وَرَوَاهُ يَحْيَى بِلَفْظٍ : قُلْتُ لِابْنِ عَمْرِو : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَلَا تُخْبِرُنِي مَا كَانَ بَدَأَ هَذِهِ الصَّفْرَةَ الَّتِي فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، صَلَّى بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا انْصَرَفَ رَأَى نِخَامَةً فِي الْقِبْلَةِ ، وَذَكَرَهُ ، وَقَالَ : فَسَارَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ ، فَكَانَ هَذَا بَدَأَهُ .

وَرَوَى النَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مبدأ تخليق
المسجد

نخامة في قبلة المسجد ، فغضب حتى احمرَّ وجهه ، فقامت امرأة من الأنصار فحكَّتْها ، فجعلت مكانها خلوقاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحسنَ هذا !.

وروى ابن شبة أيضاً بسندٍ جيد عن أبي نضرة أن ذلك الذي بَرَزَ في قبلته جاء بشيء من زَعْفَرَانٍ فطَلَى ذلك المكان ، فأعجب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

وروى أيضاً بسند لا بأس به قال : أبصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط المسجد بُزَاقاً ، فحكَّه على خرقة ، وأخرجه من المسجد ، فجعل مكانه شيئاً من طيب أوزعفران أو ورْسٍ .

وعن إبراهيم بن قدامة عن أبيه أن عثمان بن مظعون تفل في القبلة ، فأصبح مكتئباً ، فقالت له امرأته : مالي أراك مكتئباً ؟ قال : لا شيء إلا أني تفلت في القبلة وأنا أصلي ، فعمدت إلى القبلة فغسلتها ثم عملت خلوقاً فحنتها ، فكانت أول من خلَّق القبلة .

وروى أيضاً رجال ثقات عن جابر عن عبد قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجدنا هذا وفي يده عُرْجُون ابن طاب ، فرأى في قبلة مسجدنا نخامة فحكَّها بالعُرْجُون ، ثم أقبل علينا فقال : أيكم يحب أن يُعْرِضَ الله عنه ؟ قلنا : لا أيُّنا يا رسول الله ، قال : فإن أحدكم إذا قام يصلي فإن الله قبَّلَ وجهه فلا يبصق قبل وجهه ولا عن يمينه ، وليبصق قبل يساره تحت رجله اليسرى ، فإن عجلت به بادرة فليقل هكذا بثوبه ، ثم طَوَى بعضه على بعض ، أروني عبيراً ، فقام فتى من الحى يشتد إلى أهله فجاء بخلوق في راحته ، فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم على رأس العرجون ثم لطح به على أثر النخامة ، قال جابر رضي الله عنه : فمن هنالك جعلتم الخلق في مساجدكم .

وقد رواه أبو داود بنحوه . وجابر هو من بني حَرَامٍ بطن من بني سَلَمَةَ ،

ومسجدهم كان بمنازلهم التي في غربي بطنحان ومساجد الفتح ، وليس هو مسجد القبلتين كما وقع المطري وجماعة حتى جعلوا أمر الخلق له لما سنيده .

وسياقي ما رواه ابن زبالة من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد بني حرام بالقاع ، وأنه رأى في قبلته نخامة ، وكان لا يفارقه عرجون ابن طاب يتخضر به ، وذكر الحديث الآتي ، وفيه « فكان أول مسجد خلق » وروى أبو داود وابن حبان في صحيحه عن أبي سهلة السائب بن خلاد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً أمّ قوماً فبصق في القبلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ : لا يصلي لكم ، فأراد بعد ذلك أن يصلي لهم فمنعوه وأخبروه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : نعم ، وحسبت أنه قال : إنك آذيت الله ورسوله .

وفي رواية أوردتها المجد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى النخامة في الحراب قال : مَنْ إمام هذا المسجد ؟ قالوا : فلان ، قال : قد عزّلته ، فقالت امرأته : لم عزّلتك النبي صلى الله عليه وسلم من الإمامة ؟ فقال : رأى نخامة في الحراب ، فعمدّت إلى خلق طيب فخلقت به الحراب ، فاجتاز رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مَنْ فعل هذا ؟ فقالوا : امرأة الإمام ، قال : وهبت ذنبه لامرأته ورددته إلى إمامته .

قلت : واختلاف هذه الروايات صريح في أنها وقائع متعددة ؛ فلا تعارض فيها ، نعم هي متضمنة للرد على ما رواه ابن شبة عن جابر بن عبد الله قال : كان أول مَنْ خلق المسجد ورزق المؤذنين عثمان رضي الله عنه ، وتقدم في الفصل الرابع من رواية يحيى عن جابر بنحوه ، إلا أن يحمل على أن المراد أنه اتخذ له الخلق من بيت المال .

ونقل ابن زبالة عن ابن عجلان أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله

على المدينة أن لا يخلق إلا القبلة ، وأن يغسل الأساطين ، قال : فلم تكن الأساطين تخلق في ساطانه .

وقدمت الخيزران أم موسى في سنة سبعين ومائة ، فأمرت بالمسجد فخلق وولى ذلك من تخليقه مؤنسة جاريتها ، فقام إليها إبراهيم بن الفضل بن عبد الله مولى هشام بن إسماعيل فقال : هل لكم أن تسبقوا من بعدكم وأن تفعلوا ما لم يفعل من كان قبلكم ؟ قالت له مؤنسة : وما ذلك ؟ قال : تخلقون القبر كله ، ففعلوا ، وإنما كان يخلق منه ثلثاه أو أقل ، وأشار عليهم فزادوا في خلوق أسطوان التوبة والأسطوان التي هي علم عند مصلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فخلقوها حتى بلغوا بهما أسفلهما ، وزادوا في الخلق في أعلاهما .

وروى بعضهم عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي) الآية ، قال : طهرا بيتي نظفاه وبخراه وخلقاه .

تجمر المساجد وروى يحيى بن طريق ابن زبالة وغيره عن علي بن حسن بن حسن بن حسن - وكان من خيار الناس - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بإعمار المسجد ، قال : ولا أعلمه إلا قال : يوم الجمعة .

وروى ابن ماجه عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وجمروها في الجمع .

وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قالت : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور ، وأن تنظف وتطيب .

وروى يحيى بن طريق محمد بن يحيى عن محمد بن إسماعيل عن أبيه أنه قدم

على عمر بن الخطاب بسَفَط من عُودٍ ، فلم يسمع الناس ، فقال عمر : أجمروا به المسجد لينتفع به المسلمون ، فبقيت سُنة في الخلفاء إلى اليوم ، يؤتى كل عام بسَفَط من عود يحمر به المسجد ليلة الجمعة ويوم الجمعة عند المنبر من خلفه إذا كان الإمام يخطب .

وعن سعد القرظ قال : قدم على عمر بعود ، فقسمه بين المهاجرين ، ثم قسم للمسجد حظا ، فكان يحمره في الجمع ، فجرى ذلك إلى اليوم ، وولاه سعد القرظ ؛ فكان الذي يحمر .

وقد تقدم من رواية يحيى أيضا في الكلام على حكم قناديل الحجرة أن عمر أتى بمِجْمرة من فضة ، وأنه دفعها إلى سعد جد المؤذنين وقال : أجمر بها في الجمعة وشهر رمضان ، وكان سعد يحمر بها في الجمعة ، وكانت توضع بين يدي عمر ابن الخطاب .

وروى ابن زبالة عن نعيم الجمر عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال له : تُحَسِّن تطوف على الناس بالجمرة تجمرهم ؟ فقال : نعم ، فكان عمر يحمرهم يوم الجمعة .

وفي مسند أبي يعلى الموصلى عن ابن عمر أن عمر كان يحمرُ مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جمعة .

قال أصحابنا : ويستحب فرش المسجد ، وقد ترجم البخارى للصلاة على فرش المسجد الحجرة ، وروى عن ميمونة أنها كانت تصلى عليها ، وقال ابن زيد : الحجرة هي السجادة ، وقال الطبرى : هي مُصَلَّى صغير ينسج من سعف النخل ويرسل بالخيوط ، وقال البخارى في صحيحه : وصلى أنس على فراشه ، وقال : كنا نصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم فيسجد أحدا على ثوبه ، وقال يحيى : حدثنا أبو مُصْعَب قال : حدثنا مالك عن عمه أبي إسماعيل بن مالك عن أبيه أن طُنْفِسة لعقيل بن أبي طالب كانت تُطْرَح يوم الجمعة إلى جدار المسجد الغربى ، فإذا غشى الطنفسة

كلها ظل الجدار خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : ثم يرجع بعد صلاة الجمعة فقيل قائله الضحى ، ورواه ابن زبالة أيضاً ، وروى يحيى عن عطاء بن أبى رباح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تفقدوا معالمكم عند أبواب مساجدكم . وعن موسى بن يعقوب أن النبی صلى الله عليه وسلم اتبع غبار المسجد بحريدة . ورواه ابن أبى شبة عن يعقوب بن زيد ، ولفظه : أن النبی صلى الله عليه وسلم كان يتبع غبار المسجد بحريدة .

وقد ذكرنا فى آخر الكلام على فضل المسجد شيئاً مما جاء فى النهى عن قرءان المسجد لمن أكل الثوم أو البصل ، وذكرنا فى زيادة عمر رضى الله عنه فى الكلام على الباطيحاء ما جاء فى النهى عن رفع الصوت فيه ، وما يتعلق بإشاد الشعر فيه ، وذكرنا فى زيادة الوليد ما يتعلق بالصلاة على الجنائز فيه ، وروى ابن شبة عن شبة بن قصاب مرسل أن النبی صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأى أحدكم القملة فى ثوبه وهو فى المسجد فليحفر لها فليدفنها ، وليبصق عليها ، فإن ذلك كفارتها . ورواه ابن زبالة ثم روى عن محمد بن المنكدر قال : أخبرنى من رأى أها هريرة يذفن قملة فى المسجد ، وروى يحيى عن يوسف بن ماهك قال : رأيت عبيد بن عمير أخذ من ثوب ابن عمر قملة فدفنها فى المسجد ، وعن أبى بكر بن المنكدر قال : رأيت عمى محمد بن المنكدر يأخذ القملة وهو فى المسجد فيقتلها فى المسجد فيبزيق عليها ، وعن جعفر بن محمد قال : لا بأس بأن يدفن القملة فى المسجد .

قلت : وهذه الأشياء لا تقوم الحجة بها . وقد روى أحمد فى مسنده عن أيوب قال : وجد رجل فى ثوبه قملة فأخذها ليطرحها فى المسجد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تفعل رُدّها فى ثوبك حتى تخرج من المسجد » وروى ابن شبة بسند جيد عن يحيى بن أبى كثير اليماني عن الحضرمي أن النبی صلى الله

عليه وسلم قال : إذا أبصر أحدكم القملة وهو يصلي في المسجد فليصرها في ثوبه ولا يقتلها في المسجد . وروى يحيى عن ابن عمر قال : إذا وجد أحدكم القملة في ثوبه وهو في المسجد فليجعلها في ثوبه حتى يخرج بها . قال النووي : فإن قتلها لم يجز إلقاؤها في المسجد ؛ لأنها ميتة ، وكره مالك قتلها في المسجد ، ونقل ابن العماد عن كتب المالكية أنه يحرم طرح القمل حيا ، بخلاف البرغوث ؛ لأن البرغوث يعيش بأكل التراب ، بخلاف القمل ففي طرحه تعذيبه بالجوع ، انتهى .

وقد جاءت أحاديث في النهي عن البيع والشراء وإنشاد الضالة في المسجد ، وروى ابن أبي عدي الحافظ من حديث علي بن أبي طالب قال : صليت العصر مع عثمان أمير المؤمنين ، فرأى خياطاً في ناحية المسجد ، فأمر بإخراجه ، فقيل له : يا أمير المؤمنين إنه يكنس المسجد ، ويفلق الأبواب ، ويرش أحياناً ، فقال عثمان : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : جنبوا صنائعكم من مساجدكم .

قلت : ومن المنكرات في زماننا ما يتساهل فيه المتكلمون في أمر العمارة من استعمال النشارين والنجارين والحجارين بالمسجد النبوي للعمل في آلاته واكتساب أولئك العمال بذلك ، مع ما يتولد من ذلك من الدق العنيف وتشعيث المسجد بما ينشر من النشارة والنجارة وغير ذلك ، مع إمكان عمل ذلك خارج المسجد الشريف والإتيان به مهياً . وقد قدمنا أن عائشة رضي الله عنها كانت تسمع الود أو المسمار يضرب في بعض الدور المطيفة بالمسجد فترسل إليهم : لا تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن علياً ما صنع مصراعى داره إلا بالمناصع توقياً لذلك ، وفي خبر رواه المقدسي في « مثير الغرام » عن كعب الأحبار أن سليمان عليه السلام قال للعفريت الذي أحضره لقطع الرخام لعمارة بيت المقدس : هل عندك من حيلة أقطع بها الصخر ؟ فإني أكره صوت الحديد في مسجدنا هذا ، والذي أمرنا الله به من ذلك هو الوقار والسكينة ، فقال : ابتغ لي وكر عقاب فإني

لا أعلم في السماء طيراً أشد منه ، لا أكثر حياة ، فوجدوا وكر عقاب ، فغطى عليه ترساً غليظاً من حديد ، فجاءه العقاب فلم يقدر عليه ، فخلق في السماء متطلعاً فلبث يومه وليلته ثم أقبل ومعه قطعة من السامور ، ففترقت له الشياطين حتى أخذوه منه ، فأتوا به سليمان عليه السلام ، فكان يقطع به الصخر ، انتهى .

وكذلك إدخالهم البغال والحمير الحاملة لتلك الآلات مع إمكان حمل الرجال لها من باب المسجد ، والله الموفق

وإذا سمع شخص مَنْ ينشد ضالة في المسجد فليقل له : أيها الناشد غيرك الواحد ، وما أشبهه مما ورد ، إلا أن يسأل الإنسان جلساءه فليس بذلك بأس ، ولا يبلغ بذلك الصوت كما نقله ابن زبالة عن مالك ، ومن باع فيه قيل له : لا أَرْجَحَ الله تجارتك ، كما ورد مرفوعاً . قال الزين المراغي : والقياس أن يقال للسائل فيه : لا فَتَحَ الله عليه ، كما قاله بعض شيوخنا . وفي العُتْبِيَّة أن مالكا كره المَراوَح في المسجد ، ويجوز النوم فيه من غير كراهة عندنا ، وكرهه بعضهم لغير الغريب الذي لا مَوْضِع له غيره ، وروى في ذلك أحاديث .

وأُسند أحمد بن يحيى البلاذري عن أبي سعيد مولى أبي أسيد قال : كان عمر بن الخطاب يَعْصُ في المسجد بعد العشاء ، فلا يرى أحداً إلا أخرجه إلاًرجلاً قائماً يصلي ، فمر بنفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم أبي بن كعب فقال : مَنْ هؤلاء ؟ فقال أبي : نفر من أهلك يا أمير المؤمنين ، قال : ما خَلَفَكُم بعد الصلاة ؟ قالوا : جَلَسْنَا نذكر الله ، فجلس معهم ، ثم قال لأدناهم : خذ في الدعاء فدعا ، فاستقرأهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إلى وأنا بجانبه ، فقال : هاتِ ، فحُصِرَتْ وأخذني الحجل ، فقال : قل ولو أن تقول : اللهم اغفر لنا ، اللهم ارحمنا ، ثم أخذ عمر في الدعاء ، فما كان أحد أكثر دُمعة ولا أشد بكاء منه ، ثم قال : تفرقوا الآن ، انتهى .

الحدث في
المسجد

ولا يحرم إخراج الريح من الدبر في المسجد ، لكن الأولى اجتنابه ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم « فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » قال الزركشي : وقال بعض المتكلمين على الحديث من القدماء : الحدث في المسجد خطيئة يُحَرَّمُ بها الحدث استغفار الملائكة ودعاءهم المرجو بركته .

وروى ابن عدى في الكامل من طريق حمزة بن أبي حمزة الضبي عن أبي الزبير عن جابر قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يمر باللحم في المسجد ، قال ابن عدى : وهذا منكر بهذا الإسناد ، لا يرويه عن أبي الزبير غير حمزة ، وحمزة يضع الحديث .

قلت : وقد روى ابن شبة نحوه ، غير أنه منقطع الإسناد ، ويغنى عنه ما ورد من النهي عن اتخاذ المسجد طريقاً ، والله أعلم .

القراءة في
المصحف
بالمسجد

وقال مالك : لم تكن القراءة في المصحف بالمسجد من أمر الناس القديم ، وأول من أحدثه الحجاج بن يوسف . وقال أيضاً : أكره أن يقرأ في المصحف في المسجد ، وأرى أن يقاموا من المساجد إذا اجتمعوا للقراءة .

قلت : الذي عليه السلف والخلف استحباب ذلك ، وفي الصحيح « إنما بنيت - يعني المساجد - لذكر الله والصلاة وقراءة القرآن » وهو عام في المصاحف وغيرها ، وقد روى ابن شبة عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : إن أول من جمع القرآن في مصحف وكتبه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ثم وضعه في المسجد ، فأمر به يقرأ كل غداة . وعن محرز بن ثابت مولى سلمة بن عبد الملك عن أبيه قال : كنت في حرس الحجاج بن يوسف ، فكتب الحجاج المصاحف ، ثم بعث بها إلى الأمصار ، وبعث بمصحف إلى المدينة ، فكره ذلك آل عثمان ، فقليل لهم : أخرجوا مصحف عثمان يقرأ ، فقالوا : أصيب المصحف يوم مقتل عثمان . قال محرز : وبلغني أن مصحف عثمان صار إلى خالد بن عمرو بن عثمان ، قال : فلما استخلف المهدي بعث بمصحف إلى المدينة ؛ فهو الذي يقرأ فيه اليوم ،

وعزل مصحف الحجاج فهو في الصندوق الذي دون المنبر ، انتهى .

بعث المصاحف
إلى المساجد

وقال ابن زبالة : حدثني مالك بن أنس قال : أرسل الحجاج بن يوسف إلى أمهات القرى بمصاحف ، فأرسل إلى المدينة بمصحف منها كبير ، وهو أول من أرسل بالمصاحف إلى القرى ، وكان هذا المصحف في صندوق عن يمين الأسطوانة التي عملت علماً لمقام النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يفتح في يوم الجمعة والخميس ، ويقرأ فيه إذا صليت الصبح ، فبعث المهدي بمصاحف لها أثمان فجعلت في صندوق ونحى عنها مصحف الحجاج ، فوضعت عن يسار السارية ، ووضعت منابر لها كانت تقرأ عليها ، وحمل مصحف الحجاج في صندوقه فجعل عند الأسطوانة التي عن يمين المنبر ، انتهى .

قلت ولا ذكر لهذا المصحف الموجود اليوم بالقبة التي بوسط المسجد المنسوب لعثمان رضي الله تعالى عنه في كلام أحد من متقدمي المؤرخين ، بل فيما قدمناه ما يقتضي أنه لم يكن بالمسجد حينئذ ، بل ولا ذكر له في كلام ابن النجار ، وهو أول من أرتخ من المتأخرين ، وقد ترجم لذكر المصاحف التي كانت في المسجد ، ثم ذكر ما قدمناه عن ابن زبالة ثم قال : وأكثر ذلك دتر على طول الزمان ، وتفرقت أوراقه ، قال : وهو مجموع في يومنا هذا في جلال في المقصورة أي المحترقة إلى جانب باب مروان . ثم ذكر أن بالمسجد عدة مصاحف بخطوط ملاح موقوفة مخزونة في خزائن ساج بين يدي المقصورة خلف مقام النبي صلى الله عليه وسلم . قال : وهناك كرسي كبير فيه مصحف مقفل عليه نفذ به من مصر ، وهو عند الأسطوانة التي في صف مقام النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى جانبه مصحفان على كرسيين يقرأ الناس فيهما ، وليس في المسجد ظاهر سواهما ، انتهى . ولم أر نسبة المصحف الموجود اليوم لعثمان رضي الله عنه إلا في كلام المطري ومن بعده عند ذكر سلامة القبة التي بوسط المسجد من الحريق كما قدمناه . نعم ذكر ابن جبير في رحلته ما حاصله أن أمام مقام النبي صلى الله عليه وسلم - وقد عبر عنه بالروضة

الصغيرة - صندوقاً ، وأن بين المقام وبين الحجرة - أى بجانب المقام من جهة المشرق - محل كبير عليه مصحف كبير فى غشاء مقفل عليه هو أحد المصاحف الأربعة التى وَجَّه بها عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى البلاد ، انتهى .

وهذا المصحف الذى أشار إليه ينطبق فى الوصف على المصحف الذى ذكر ابن النجار أنه نفذ به من مصر ، ولم يصفه بما ذكره ابن جبير من نسبه لعثمان ، مع أن ابن جبير مُصَرِّح بأنه من المصاحف التى بعث بها عثمان إلى الآفاق ، لأنه الذى قتل وهو فى حجره ، وقد قال ابن قتيبة : كان مصحف عثمان الذى قتل وهو فى حجره عند ابنه خالد ، ثم صار مع أولاده وقد دَرَجُوا . قال : وقال لى بعض مشايخ أهل الشام : إنه بأرض طُوس ، انتهى .

وقال الشاطبي ما حاصله : إن مالكا رحمه الله قال : إنما يكتب المصحف على الكتابة الأولى ، لا على ما استجدته الناس . قال : وقال : إن مصحف عثمان رضى الله عنه تغيب فلم يجد له خبراً بين الأشيخ . وقال أبو عبيد القاسم ابن سلام فى كتابه فى القراءات : رأيت المصحف الذى يقال له الإمام مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، استخرج لى من بعض خزائن الأمراء ، وهو المصحف الذى كان فى حجره حين أصيب ، ورأيت آثار دمه فى مواضع منه . ورده أبو جعفر النحاس بما تقدم من كلام مالك . قال الشاطبي : وأباه المنصفون لأنه ليس فى قول مالك « تَغَيَّب » ما يدل على عدم المصحف بالكلية بحيث لا يوجد ؛ لأن ما تغيب يرجى ظهوره .

قلت : فيحتمل أنه بعد ظهوره نقل إلى المدينة ، وجعل بالمسجد النبوى . لكن يُوهن هذا الاحتمال أن بالقاهرة مصحفاً عليه أثر الدم عند قوله تعالى : (فسيفكيهم الله - الآية) كما هو بالمصحف الشريف الموجود اليوم بالمدينة ، ويذكرون أنه المصحفُ العثماني ، وكذلك بمكة ، والمصحف الإمام الذى قتل عثمان رضى الله عنه وهو بين يديه لم يكن إلا واحد ، والذي يظهر أن بعضهم

وضع خُلُوقًا على تلك الآية تشبيهاً بالمصحف الإمام ، ولعل هذه المصاحف التي قدمنا ذكرها مما بعث به عثمان رضى الله عنه إلى الآفاق ، كما هو مقتضى كلام ابن جبير فى المصحف الموجود بالمدينة ، وفى الصحيح من حديث أنس فى قصة كتابة عثمان رضى الله عنه للقرآن من الصحف التى كانت عند حفصة « وأنه أمر بذلك زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها فى المصاحف ، وأنه أرسل إلى كل أفق بمصحف كما نسخوا » .

مصحف عثمان
الذى أرسلها
إلى الآفاق

واختلف فى عدة المصاحف التى أرسل بها عثمان إلى الآفاق ؛ فالمشهور كما قال الحافظ ابن حجر أنها خمسة . وأخرج ابن أبى داود فى كتاب المصاحف من طريق حمزة الزيات قال : أرسل عثمان أربعة مصاحف ، وبعث منها إلى الكوفة بمصحف ، فوقع عند رجل من مراد فبقى حتى كتبت مصحفى عليه . قال ابن أبى داود : وسمعت أبا حاتم السجستاني يقول : كتب سبعة مصاحف ، [وأرسلها] إلى مكة ، وإلى الشام ، وإلى اليمن ، وإلى البحرين ، وإلى البصرة ، وإلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً ، انتهى .

وليس معنا فى أمر المصحف الموجود اليوم سوى مجرد احتمال ، والله أعلم .

نعلق المصاييح
فى المسجد

ويستحب تعليق المصاييح فى المسجد ، وقد قدمنا ما يقتضى أن تيمم الدارى أول من فعل ذلك فى زمن النبی صلى الله عليه وسلم . وقيل : أول من فعله عمر بن الخطاب ، لما جمع الناس فى التراويح على إمام واحد . وروى ابن زبالة عن يوسف ابن مسلم قال : كان زيت قناديل المسجد يحمل من الشام ، حتى انقطع ذلك فى ولاية جعفر بن سليمان الأخيرة على المدينة ، فجعله على سوق المدينة . قال : ثم لما طرح ما يؤخذ من العنب عن الناس فى ولاية داود بن عيسى على المدينة سنة ثمان وتسعين ومائة أخرج من بيت المال .

قال : ولم يزل رزقُ صاحب زيت المسجد ثلاثة دنانير تجرى عليه فى كل شهر من بيت المال ، وغليه فيها ما تكسر من القناديل ، انتهى :

وقال ابن النجار . وفي يومنا هذا يصل الزيت من مصر من وقوف هناك ،
ومقداره سبعة وعشرون قنطاراً بالمصرى ، ويصل معه مائة وستون شمعة بين كبار
وصغار ، وعلبة فيها مائة مثقال ندّ لتجمير المسجد ، انتهى .

قلت : وفي زماننا يُحمّل له من الزيت من مصر والشام زيادة على مائة قنطار
بعضها من أوقاف تحت نظر قاضى الشافعية بمصر وبعضها تحت نظر الإمام بمصر ،
والله أعلم .

الفصل الحادى والثلاثون

فيما احتوى عليه المسجد من الأروقة والأساطين

والبالوعات والسقايات والدروع ، وغير ذلك مما يتعلق به من الرسوم
وصف عام

قال ابن جبير : إن المسجد النبوى مستطيل يحفه من جهاته الأربع بلاطات
مستديرة به ، ووسطه كله صحن ، فجبهة القبلة منها — يعنى المسقف القبلى — خمس
بلاطات ، يعنى أروقة ، وقد قدمنا أنه زيد فيه رواقان آخران فصار سبعة أروقة
أخذة من المشرق إلى المغرب ، قال : والجهة الشامية خمسة أروقة أيضاً .

قلت : وهذا موافق لما قدمناه فى زيادة المهدي عن ابن زبالة من أنه جعل
خمس أساطين فى السقائف الشامية ، وقدمنا أن الموجود به اليوم أربع فقط ،
وذلك أربعة أروقة ، وكانه لما زيد بعد الحريق الأول الرواقان فى مسقف القبلة
اختصروا رواقاً من المسقف الشامى فأدخلوه فى صحن المسجد ، ولم أر من
نبه على ذلك من المؤرخين ، وهذا المسقف هو المسمى اليوم بالدكاك ؛ لارتفاعه
على بقية أرض المسجد ، ولم أعلم وقت حدوث ذلك ، ولم يتعرض ابن جبير
لذكر ارتفاعه مع ذكره لما دون ذلك ، وقد كانت رحلته قبل حريق المسجد الأول
فلعل ذلك ، مما حدث بعده ، كما حدثت الدكتان اللتان بجنبتي المسجد فى الحريق
الثانى كما سبق .

وحدث في زماننا قبيل ذلك عند طرف الدكاك القبلي مما يلي المغرب دكة بارزة هناك ، وهى الدكة التى وضع بها ما أخرج من جوف الحجرة الشريفة من الهدم فى العمارة التى أدركناها .

وفى كلام ابن زبالة ما يؤخذ منه تسمية المسقف الشامى بسقائف النساء .

قال ابن جبير : والجهة الشرقية ثلاثة أروقة آخذة من القبلة إلى الشام ، والجهة الغربية أربعة كذلك ، هذا ما ذكره ابن جبير إلا أنه عبر فى الجميع بالبلاطات بدل الأروقة ، وكذا صنع ابن عبد ربه فى العقد ، وهو مطابق لما عليه المسجد اليوم ، إلا ما أشرنا إليه فى المسقف القبلي والشامى .

قال ابن جبير : ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع إزارا على إزار ، أى وزرة فوق أخرى ، مختلف الصنعة واللون ، مجزّع أبدع تجزيع ، والنصف الأعلى من الجدار منزل كله بفصوص من الذهب المعروف بالفُسَيْفَسَاء قد أنتج الصناعات فيه نتائج من الصنعة غريبة تضمنت تصاویر أشجار مختلفات الصفات مائلة الأغصان بشمرها ، والمسجد كله على تلك الصنعة ، لكن الصنعة فى جدار القبلة أخفّل ، والجدار الناظر إلى الصحن من جهة القبلة كذلك ، ومن جهة الشام أيضاً ، والغربي والشرقي الناظران إلى الصحن مُجَدَّدَان أيضاً ومُقرَّنان قد زينا برسم يتضمن أنواعا من الأصبغة ، إلى ما يطول وصفه ، انتهى .

جدران المسجد

ووصف ابن عبد ربه فى « العقد » ما فى جدار القبلة من وزّرات الرخام وطرر الذهب والفُسَيْفَسَاء ، ثم قال : وحيطان المسجد كلها من داخله مزخرفة بالرخام والذهب والفُسَيْفَسَاء أولها وآخرها .

وذكر أيضاً أن رؤوس الأساطين مذهبة عليها أٌكُفٌ منقشة مذهبة ، وكذلك أعتاب الأبواب مذهبة أيضاً .

قلت : وقد زال ذلك كله بسبب الحريق الأول ، وبقي من آثاره شيء يسير فى مؤخر المسقف الغربى بجدار المسجد مما يلي الدكاك ، وشيء يسير بالمأذنة الغربية

الشمالية مما يلي بابها فيه شيء من الفسيفساء . وأما جدار القبلة فليس به اليوم إلا لوح يتضمن صور أشجار عن يمين مستقبل الحراب الشريف ، وهو من الآثار القديمة ، وكان يقابله في جهة يسار المستقبل لوح مثله سقط قريباً ، ثم زال ذلك كله في الحريق الثاني . وبالجدار المذكور اليوم وَرَرة رخام أول مَنْ أحدثها بعد الحريق الأول الظاهر جَعَمَق كما قدمناه مع بيان أن الحراب العثماني وما حوله كان مرخماً قبل ذلك ، وبقية المسجد مبيض أحسن بياض .

وفي جدار القبلة عصابتان من طراز تقدم ذكرهما أيضاً ، وكان قد انقشر من العليا منهما شيء يسير ، فقلع متولى العمارة التي أدركناها ذلك وما حوله ، وجعله طرازاً باسم سلطاننا الأشرف قايتباي أعز الله أنصاره ، ووصله ببقية العصابة المذكورة . وتقدم أيضاً ذكر الطراز الآخر من جهة السقف إلى قرب العصابة المذكورة ، وبيان أن الذي ترجَّح عندي أنه جعل لتمييز المسجد النبوي عما زيد فيه ، وقد زال ذلك كله بعد الحريق الثاني ، وأعادوا منه ترخيم جدار القبلة كما سبق

عدد أساطين
المسجد

وأما عدد الأساطين فذكر ابن زبالة أنها مائتان وستة وتسعون أسطواناً ، منها في جدار القبر الشريف ستة . وذكر ابن النجار أيضاً ما يؤخذ منه ذلك . وقال ابن جبير : عدتهما مائتان وتسعون أسطواناً ، ولا مخالفة بينهما ؛ لأن ابن جبير لم يعتبر الأساطين الست التي في جدار القبر الشريف ، وليس فيه خلل إلا بأسطوان واحد ؛ لأن الذي اقتضاه تحريرنا أن جملة الأساطين التي كانت في ذلك الزمان بما في جدار القبر مائتان وخمسة وتسعون أسطواناً ؛ لأن المسقف الغربي أربعة صفوف ، فإذا اعتبرت من الجدار القبلي إلى الجدار الشامي كان كل صف ثمانية وعشرين أسطواناً ، فجملة هذا المسقف مائة أسطوان واثنا عشر أسطواناً ، والمسقف الشرقي ثلاثة صفوف كل صف منها ثمانية وعشرون أيضاً إلا الصف الأوسط فإنه ينقص أسطواناً كما ظهر لنا عند انكشاف الحجرة ؛ لأن

الأسطوانة الملتصقة إلى جدار الحجرة الشامي الذي في جوف الجدار الظاهر التي تقدم أن متولى العمارة أدخلها في عرض ذلك الحدار في الصف المذكور إنما يقابلها فيه الأسطوان الداخل بعضها في الجدار الظاهر من جهة القبلة ، وكان مقتضى وضع الأساطين في مقابلة بعضها بعضاً من كل جانب أن تكون بينهما أسطوانة أخرى في موازاة الأسطوانة التي بين أربعة القبر وأسطوان الصندوق الداخلة في الجدار الظاهر ، لكن لم يأت ذلك ؛ لكونها تكون حينئذ في جوف الحجرة الشريفة ، فسقط بسبب ذلك في هذا الصف أسطوان ، وخفي ذلك على من لم يشاهد الحجرة الشريفة . وحينئذ فجملة أساطين المسقف الشرقي من جدار القبلة إلى الجدار الشامي ثلاثة وثمانون أسطواناً ، والباقي بعد ذلك في المسقف القبلي ما يوازي صحن المسجد فقط ، وهو خمسة صفوف كل صف عشرة أساطين فجملة ذلك خمسون أسطواناً ، والباقي أيضاً في المسقف الشامي خمسة صفوف تقابل ذلك وجملتها خمسون أسطواناً ، فجملة أساطين المسجد بما دخل في جدار القبر مائتان وخمسة وتسعون أسطواناً - بتقديم التاء - وفي مؤخر المسقف الغربي أسطوانتان ملتصقتان إلى الجدار الغربي لم تدخل في هذه العدة .

وأما عدد أساطين المسجد اليوم فقد تقدم أنه زيد في المسقف القبلي من ناحية صحن المسجد رواقان ونقص من المسقف الشامي من ناحية الصحن رواق ، فيزيد على ما تقدم عشرة أساطين ، وذلك خارج عن الأساطين التي أخذت لأجل السقف البارز في رحبة المسجد أمام الباب الشامي من المقصورة المستديرة على الحجرة الشريفة .

وحدث في العمارة المتجددة بعد الحريق إسقاط أسطوان كانت بين الأسطوان التي إليها المصلى النبوي وبين المحراب العثماني ، وضم بعض أساطين أخرى إلى الأساطين التي هناك ، وفيما حول الحجرة الشريفة ، وإبدال بعضها بدعائم على ما سبقت الإشارة إليه في الفصل التاسع والعشرين مع ما حدث من التغيير في أساطين

المسقف القبلي، وكانت أساطين المسجد كلها - كما قال ابن جبير في وصفها - أعمدة متصلة بالسماك دون قسي ينهطف عليها، فكأنها دعائم قوائم، وهي من حجر منحوت قطعاً ملامة مثقبة، يوضع أنثى في ذكر، أي بأعمدة الحديد، ويفرغ بينها الرصاص إلى أن يتصل عموداً قائماً، ويكسى بغلالة جيار، ويبلغ في صقلها ودلكها، فتظهر كأنها رخام أبيض.

قلت: وأراد بالقسي ما نسميه اليوم بالقناطر المعقودة حول صحن المسجد، وأما الأساطين الداخلة في الأروقة فإنها متصلة بالسقف، سوى الرواقين اللذين يليان رحبة المسجد من المسقف القبلي، ثم جعل المسقف القبلي كنسبتهم بعد العمار المتجددة بعد الحريق الثاني كما سبق.

وقد عبر ابن النجار - تبعاً لمن قبله - عن تلك العقود بالطاقات، فقال: وأما طاقاته أي المحيطة بالصحن ففي القبلة إحدى عشرة طاقة، وفي الشامي مثلها، وفي المشرق والمغرب - أي كل جانب منهما - تسع عشر طاقة، وبين كل طاق وطاق أسطوان، ورأس الطاقات مسدود بشبايك من خشب.

قلت: وهو موافق لكلام ابن زبالة فيما يلي المشرق والمغرب، يخالف له فيما يلي القبلة والشام؛ فإنه قال: وعدد طاقاته مما يلي القبلة اثنتا عشرة طاقة، ومما يلي الشام اثنتا عشرة، ومما يلي المشرق تسع عشرة، ومما يلي المغرب تسع عشرة، فذلك اثنتان وستون طاقة، انتهى.

وهذا لا يتم إلا على تقدير أن يكون المسقف الغربي ثلاثة أروقة فقط كالسقف الشرقي، فتكون العقود التي تلي القبلة والشام اثني عشر، وما تقدم في عدد الأساطين ينافيه؛ فالصواب ما ذكره ابن النجار.

وعدد قناطره المحيطة برحبته اليوم من جهة القبلة والشام موافق لما ذكره ابن النجار؛ فإنها من كل جانب إحدى عشرة، غير أن باب المقصورة الشامي وما أحدث له من السقف أمامه سد واحدة من تلك القناطر القبليّة.

وأما عدد قناطره من المشرق والمغرب فقد نقصت واحدة من كل جهة ؛ لما تقدم من زيادة الرواقين بالمسقف القبلي ، ونقص رواق من المسقف الشامي ، فصار عدد القناطر في كل جانب منهما ثمانى عشرة قنطرة .

والمسدود اليوم بالشبابيك من رؤوس القناطر إنما هو رؤوس القناطر القبلية وبعض ما يليها من القناطر الشرقية ، ثم زال ذلك في الحريق الثاني ، وقد ذكر ابن زبنة عن محمد بن إسماعيل قال : أدركت المسجد كان يضيق عن الناس يوم الجمعة حتى يصلى بعضهم في دار القضاء ، وهى يومئذ مبنية ، وفى دار ابن مكل ، وفى دار النجسين ، وفى دار عاتكة ، قال : فما قدم أبو جعفر المنصور المدينة سنة أربعين ومائة أمر بستور فستر بها صحن المسجد على عمد لها رؤوس كقريات القسطنطين ، وجعلت في الطيقان - أى القناطر المتقدم ذكرها - فكانت الريح تدخل فيها ، فلا يزل العمود يسقط على الإنسان ، فغيرها وأمر بستور هى أكنف من تلك الستور وبحال ، فأتى بها من جدة من حبال السفن القنبر ، وجعلت على سبيلك حبالها اليوم ، فكانت تحمل على الناس كل جمعة ، فلم يزل كذلك حتى خرج محمد بن عبد الله بن حسن يوم الأربعاء ليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين ومائة ، فأمر بها فقطعت درارح لمن كان يقاتل معه ، فتركت حتى كان زمان هرون أمير المؤمنين فأحدث هذه الأستار ، ولم يكن يعنى صحن المسجد بستر زمان بنى أمية .

قلت : وهذا شئ قد انقطع قديما لعدم الاحتياج إليه لما قال الناس بالمدينة ، حتى إن كثيراً من الأروقة لا يمتلىء بالناس .

وبالمسجد اليوم ستارة بالقرب من باب الحجرة الشامي ترخى على ما يليه من القناطر الشرقية لتقى من يجلس هناك من خدام المسجد حر الشمس .

وقال ابن زبالة ويحيى : وكان ماء المطر إذا كثر في صحن المسجد يغشى السقائف التى فى القبلة ، وكانت حصباء تلك الناحية تسيل إلى صحن المسجد ،

فجعل بين القبلة والصحن لاصقاً بالسواري حجاب من حجارة من المربعة التي في
غربي المسجد إلى المربعة التي في شرقيه على القبر ، فمنع الماء من الصحن أن يغشى
القبلة ومن حصباء القبلة أن يصير إلى الصحن . وعبارة يحبي : فأمر أبو البحتري
بحجارة فجعلت رداً لذلك الماء الذي كان يدخل والحصباء التي كانت تسيل فيما
بين المربعة التي كانت عند القبر والمربعة التي في غربي المسجد ، وجعل ذلك
لاصقاً بالسواري .

قلت : والمراد أنه جعل أحجار الحجاب المذكور فيما بين السواري التي تلي
رحبة المسجد من المشرق إلى المغرب ، وقد كانت مربعة القبر أول السواري
المذكورة من جهة المشرق ؛ لأنها في صف أسطوان الوفود كما قدمناه ، وذلك
الصف كان آخر المسقف القبلي ، وكانت المربعة الغربية في آخر السواري
المذكورة مما يلي المغرب ، وهي الأسطوان المثمثة اليوم التي بينها وبين ركن
صحن المسجد الغربي اليوم أسطوانتان بسبب زيادة الرواقين المتقدم ذكرهما في
مؤخر المسقف المذكورة ، وهذا الحجاب المذكور قد اندفن اليوم فلا يظهر منه
شيء ، والظاهر أنه كان بين السواري المطيفة بصحن المسجد من المشرق والمغرب
حجاب مثل ذلك ، وكانت بقاياها ظاهرة فيما يلي الدكاك من المسقفين المذكورين
قبل حدوث ما سبق من الدكاك بهما ، والمسقف القبلي اليوم أرضه عالية على
ما يليه من الصحن يسيراً ؛ فلا يغشاه مياه الأمطار ، لكن وطأه متولى العمارة
بعد الحريق الثاني حتى ساوى به أرض المصلى الشريف كما سبق فاحتاج إلى
عمل حجاب من الأحجار بين السواري التي تلي رَحْبَةَ المسجد من جهة القبلة
وما حولها .

وأما عدد البالوعات بصحن المسجد فقد ذكر ابن زبالة ويحيى أن به أربعاً
وستين بالوعة لماء المطر عليها أرحاء لها صمائم من حجارة يدخل الماء من خلالها
قلت : ولا يظهر به اليوم غير بالوعة واحدة لها فوّهتان ، وهي عند الحجرين

عدد البالوعات
المسجد

المتقدم ذكرهما في تجديد المسجد ، وإخذى الفوهتين إلى جانب الحجرين من القبلة ، والثانية إلى جانبهما من جهة الشام ، ويجتمعان في بئر واحدة هناك ، وعليهما حجران كالأرحاء ، وفي أسفل ما على فوهتهما من ذلك مشبك يدخل الماء من خلاله لينع نزول الحصباء هناك ، ومع ذلك فقد بحروها في العمارة المتقدم ذكرها أولاً ، فخرج منها شيء كثير من الحصباء .

سقايات المسجد

وأما السقايات التي كانت به فذكر ابن زبالة أنه كان في صحن المسجد في زمنه تسع عشرة سقاية ، وذلك في صفر سنة تسع وتسعين ومائة ، منها ثلاث عشرة أحدثتها خالصة ، وهي أول من أحدث ذلك ، ومنها ثلاث سقايات لزيد البربري مولى أمير المؤمنين ، ومنها سقاية لأبي البحتري وهب بن وهب ، ومنها سقاية لشجن أم ولد هارون أمير المؤمنين ، ومنها سقاية لسبيل أم ولد جعفر بن أبي جعفر . وقد أورد ذلك ابن النجار مترجماً عليه بذكر السقايات التي كانت في المسجد ، ثم قال : وأما الآن فليس في المسجد سقاية إلا في وسطه . قال : وفيه بركة كبيرة مبنية بالآجر والجص والخشب ينزل إليها بدرج أربع في جوانبها ، والماء ينبع من فوارة في وسطها تأتي من العين ، ولا يكون الماء فيها إلا في أيام المواسم إذا جاء الحاج ، وبقية السنة تكون فارغة . عملها بعض الأمراء بالشام ، واسمها شامة . قال : وعملت الجهة أم الخليفة الناصر لدين الله في مؤخر المسجد سقاية كبيرة فيها عدة من البيوت ، وحفرت لها بئراً ، وفتحت لها باباً إلى المسجد في الحائط الذي يلي الشام ، انتهى .

قلت : الذي يظهر من كلام ابن زبالة أنه أراد بالسقايات ما يجعل لأجل الشرب ، وظاهر ما ذكره ابن النجار أن المراد بذلك ما يجعل للوضوء . وذكره لما عملته أم الخليفة الناصر لدين الله صريح في ذلك ، فإنه يعني بذلك الميضاة التي بابها في حائط المسجد الشامي ، وكان لها باب آخر من خارج سداً قديماً ، وهو ظاهر فيما يلي المسجد من المغرب .

وقوله « فيها عدة بيوت » أى عدد الأخلية التى بها.
وقوله أولاً « فأما الآن فليس فى المسجد سقاية إلا فى وسطه » الظاهر أنه يريد السقاية التى كانت للشرب بوسط المسجد .

وقد ذكرها البدر ابن فرحون فقال : ولقد كان فى وسط المسجد سقاية يحمل إليها الماء من العين بناها شيخ الخدام فى ذلك الوقت ، ووقف عليها أوقافاً من ماله وكانت متقدمة على النخل تقديرها خمسة عشر ذراعاً فى مثلها ، وجعل فى وسطها مصرفاً للماء مرخماً ، ونصب فيها مواجير الماء وأزياراً ودوارق وأكوازاً ، وحجَّرها بالخشب والجريد ، وجعل لها غلّقا من حديد ، واستمرت السنين العديدة ، فكثر الشرف فيها ، والتراحم عندها ، وصار يدخلها من يتوضأ فيها فر بما يزيل فيها الأذى ، من استقرب المدى ، ثم تعدى الحال وزاد شرها . وذكر فتنة اتفقت للخدام مع بعض الأشراف بسببها ، قال : فلما غلبت مفسدتها على مصلحتها أزيلت عن اجتماع من القاضى شرف الدين الأميوطى والشيخ ظهير الدين ، انتهى .

وأما البركة التى ذكرها ابن النجار فإنها مذكورة فى كلام المطرى ، واقتضى كلامه نسبتها لابن أبى الهيجاء ، فإنه ذكر ما سيأتى عنه فى الكلام على العين الزرقاء من أن ابن أبى الهيجاء فى حدود الستين وخمسمائة أمدَّ منها شعبة وأوصلها إلى الرحبة التى عند المسجد من جهة باب السلام ، يعنى سوق المدينة اليوم . ثم قال : وكان قد جعل منها شعبة صغيرة تدخل إلى صحن المسجد ، وجعل لها منهلأ بدرج عليه عقْد يخرج الماء إليه من فوارة يتوضأ منها مَنْ يحتاج إليه ، فحصل بذلك انتهاك حرمة المسجد الشريف من كشف العورات والاستنجاء فى المسجد ، فسُدَّت لذلك ، انتهى .

قلت : وقد رأيت آثار درجها فى غربى النخيل التى بصحن المسجد قريبا منها ، وليس بالمسجد اليوم شىء من السقايات إلا ما يحمل إليه من الدوارق المسبَّلة فيشربها الناس فى أوقات مخصوصة ، إلا أن خزانة الخدام الآتى ذكرها

لا يزال بها ماء لأجل شربهم . ثم لما عمر سلطان زماننا الأشرف مدرسته التي بين باب الرحمة وباب السلام جعل فيها سبيلا مما يلي باب الرحمة له شبك إلى المسجد .

حواصل
المسجد

وأما الحواصل والخزائن التي بالمسجد الشريف ففيه القبة التي بصحنه ، وقد مر ذكرها ، وغالب ما يوضع فيها اليوم زيت وقود المسجد ، وتقدم أن المصحف المنسوب إلى عثمان رضي الله تعالى عنه موضوع بها . وبالمسجد أيضا أمام كل من المنارات الأربع خزانة ، إلا أن ما أمام المنارتين القبليتين من ذلك أصلي ، بخلاف المنارتين الشاميتين فإنه محدث ، ولذلك قال البدر ابن فرحون : وما أحق بالإزالة ما أحدث بالمنارتين الشاميتين ؛ إذ قدم بابهما على بابيهما الأصليين ، وجعل ما بين البابين في كل منارة خلوة اقنطع بها جانب من المسجد كبير لاشك في تحريمه ، انتهى .

وفي جهة المغرب أيضا إلى جانب باب المنارة الشمالية الغربية المعروفة بالخشبية- سميت بذلك لأن حد الخشبتين كان يؤذن بها- خزانة صغيرة يضع بعض الخدام فرشهم فيها ، وربما أقام بها من يريد الاعتكاف بالمسجد ويلبها في جهة المغرب أيضا حاصلان كبيران يوضع فيهما القناديل الزجاج و بعض آلات المسجد ، وفي الأول منهما مما يلي الخزانة المذكورة وضعت كتب ، وكنت أجلس به للمطالعة والاعتكاف فإنه من المسجد ، واتفق لي في سبب الإقامة به أمر ليس هذا محل ذكره .

ويقابل ذلك في جهة المشرق مما يلي المنارة المعروفة بالسنجارية خلوة كبيرة فيها فرش الخدام أيضا ، وإلى جانبها خزانتان إحداها بيد من تكون له النوبة من الفراشين يضع فيها فوانيس المسجد ونحوها ، والثانية بيد الخدام أيضا ، وفي جهة المشرق قريبا من باب جبريل بينه وبين باب النساء خزانة يضع فيها الخدام الماء لشربهم وبعض فرشهم وأمتعتهم ، وهي المذكورة في كلام ابن جبير حيث

قال : وفي الجهة الشرقية بيت مصنوع من عود هو موضع مبيت بعض السدنة الحارسين للمسجد المبارك ، قال : وسدنته فتيان أحايش وصقالبة ظراف الهيئة نظاف الملابس والشارات ، انتهى ، وإلى جانب الخزانة المذكورة صندوق يوضع فيه ما يستخرج من القبة من الزيت للوقود في كل ليلة .

وفي غربي المسجد بين باب الرحمة وباب السلام حاصل يوضع فيه النورة ، يعرف بابه بخوخة أبي بكر رضى الله تعالى عنه ، فإنها كانت في محاذاته كما تقدم ، فلما زيد في المسجد جعلوا هناك خوخة في المسجد تحاذي الخوخة الأولى وقد جعل لذلك ثلاثة أبواب عند عمارة المدرسة الأشرفية ، ومحل الخوخة من ذلك الباب الثالث من على يسارك إذا دخلت من باب السلام

وأما عدد قناديله فذكر ابن زبالة أنها مائتان وتسعون قنديلا في زمانه ، قناديل المسجد وجملتها في زماننا مائتا قنديل وستة وخمسون قنديلا ، هذه الدائمة ، ونحو المائة قنديل يسرجونها في بعض الأوقات ، ويجعلون في كل قنطرة من القناطر التي تلي صحن المسجد من مقدمه وجنبتيه ثلاثة قناديل ، ويقتصرون في بعض الأوقات على واحد في كل قنطرة كما في القناطر التي في مؤخر المسجد ، سيما إذا قلَّ عندهم الزيت ، وحدث بعد الحريق الثاني زيادة سلاسل كثيرة معدة لتعليق القناديل بها ، وبصحن المسجد أربعة شاعيل اثنان في جهة القبلة واثنان في جهة الشام ، وكل واحد كالأسطوانة ، وبأعلاه مسرجة عظيمة تشعل في ليالي الزيارات المشهورة ، ولا أدري ابتداء حدوث ذلك ، ويزيدون تنانير وبزاقات في مقدم الروضة وما حولها ، ويحتفلون بذلك سيما في ليلة سبع وعشرين من رمضان ، ويسرجون في كل ليلة منه نحو أربعين شمعة ، ويضعونها على شمعدانات كبار في قبلة الروضة والحجرة ، وفي غربي المنبر ، وبعضها في محراب الحسينية الآتي ذكره

وللمسجد فوائيس عديتها ستة ، يطوف بها الخدام به . صلاة العشاء الآخرة

لإخراج الناس من المسجد عند غلق أبوابه ، ولا يدعون به إلا الخدام ومن له نوبة من أرباب وظائفه .

وذكر البدر ابن فرحون في ترجمته شبل الدولة كافوراً المظفرى شيخ الخدام المعروف بالحريرى أن من آثاره الحسنة تبطيل الطوف بالشعل من جريد النخل وتبديلها بالفوانيس التى يطوفون بها اليوم كل ليلة ، وذلك أنهم كانوا قبل الحريرى وصدرًا من ولايته يأخذ عبيد الخدام وبعض الفراشين شعلا من سعف النخل فيطوفون بها عوض الفوانيس اليوم يحزرون بها كأشد ما يكون من الجرى ، فإذا وصلوا باب النساء خرجوا بها وخطبوا ما بقى معهم منها ، وكانت تسود المسجد وتسود بابه أيضاً ، وفيها من البشاعة مالا يخفى ، فأمر بالفوانيس عوضها رحمه الله تعالى .

وبصحن المسجد نخيل مغروسة ، ولم أدر ابتداء حدوث ذلك ، إلا أن ابن جبير قال في رحلته عند ذكر القبة التى بصحن المسجد مالفظة : ويازائها فى الصحن خمس عشرة نخلة ، انتهى .

فى صحن
المسجد نخيل
مغروسة

وقال البدر ابن فرحون : إن أول من أدرك من مشايخ الخدام الشيخ عزيز الدولة ، قال : وفى أيامه غرس كثير من هذا النخل الذى بالمسجد اليوم ، وكان منه شئ قبل العزيزى ، ومات أكثره ، انتهى .

وذكر المجدب عزيز الدولة وقال : إن غرس أكثر هذا النخل كان فى زمانه ، ثم قال : وكأنه لم يتعرض أحد لإنكار هذه البدعة إجلالا لشأنه ، أو خوفاً من لسانه ، أو تمكيناً له من الاقتداء بمن غرسه قبله وخنق فى عنقه من هذا المنكر حبله ، وقد أجمعت تلك النخيل لهبوب عاصفة هبت فى أواخر مشيخة ياقوت الرسولى ، ثم أعيد الغراس ، ووقع الإنكار من بعض الناس ، لكن لم يصادف كلامه محلا من الإشارة والإفادة ، ولعله سوغ محلا على احتمال أنه لم يغرس

أولا إلا بنوع من الاستحقاق ، لكن لا يخفى ما في اعتماد الاحتمال البعيد من قلة التقى .

قلت : وقد أراد طوغان شيخ أن يزيد فيه سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ، فأنكرت ذلك ، وقام بعض أهل الخير في المنع منه ، فبطل ذلك والله الحمد .
ولم يزل المسجد النبوي بإمام واحد يصلى بالناس في مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ويتقدم أيام الموسم إلى الحراب العثماني ، حتى سعى طوغان شيخ المذكور في إحداث محراب للحنفية في دولة الأشرف إينال ، فقام أهل المدينة في منعه ، وساعدهم على ذلك من أرباب الدولة المصرية صاحب الشيم المرضية جمال الدين يوسف ناظر الخواص الشريفة ، تغمده الله برحمته ، فلم يتم لطوغان المذكور ذلك ، فلما توفي المشار إليه أعاد طوغان السعى في الدولة المذكورة ، فبرزت المراسيم به بعد الستين وثمانمائة^(١) ، واستمر إلى زماننا فيصلى إمامه الصلوات الخمس عقب انصراف إمام الحراب النبوي ، وهو إمام الشافعية ، إلا في التراويح فيصليان معاً ، وهذا الأمر دبَّ إلى المدينة الشريفة من مكة المشرفة .

وقد قال الزركشي : إن السبب في حدوث ذلك بها أن الإمام كان في ذلك الوقت مبتدعاً ، فعندما امتنع الناس من إقامة الجماعة مع إمامهم الذي أقاموه سمحوا للناس في اتخاذ أئمة لأنفسهم ، واستمر الأمر عليه ، وكذا جرى مثله في بيت المقدس وجامع مصر قديماً ، انتهى .

وقد بينا حكم ذلك في كتابنا الموسوم « بدفع التعرض والإنكار ، لبسط روضة المختار » .

وقال ابن زبالة ويحيى : وعرض منقبة جدار المسجد مما يلي المغرب ذراعان عرض جدار المسجد ينقصان شيئاً ، وعرض منقبته مما يلي المشرق ذراعان وأربعة أصابع ، وإنما زيد فيه لأنها من ناحية السيل .

قلت : وهذا لأن السيل كان يغشى المسجد من تلك الجهة ، ولهذا سقط

(١) هذا التاريخ لا يناسب ما قبله ، فاعله « بعد التسعين وثمانمائة »

جدار الحجرة الشرقى كما قدمناه ، وسقط أيضاً جدار المسجد من الناحية المذكورة كما قدمناه من قول ابن زبالة « أخاف المسجد من شرقيه فى سلطان محمد ابن عبد الله الربعى من ولد ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب من ناحية موضع الجنائز فأمر به فبنى » انتهى .

وقد قدمنا فى زيادة الوائد ما رواه يحيى من طريق ابن زبالة فى ذرع عرض المسجد ، وبيننا وساده ، والصواب ما ذكره ابن زبالة فى أواخر الكلام على المسجد؛ فإنه ذكر ذرع مسجد النبى صلى الله عليه وسلم الأول عرضاً وطولاً ، ثم قال : وذرع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم ذرع عرضه من مقدمه فى القبلة بين المشرق والمغرب مائة وخمسة وستون ذراعاً ، وذرع مؤخره إلى الشام بين المشرق والمغرب مائة وثلاثون ذراعاً ، ينقص مؤخره عن مقدمه خمسة وثلاثين ذراعاً ، وطوله من اليمن إلى الشام مائتان وأربعون ذراعاً .

قلت : وقد حررت ذرعه فكان عرضه من مقدمه فى القبلة مائة ذراع وسبعة وستين ذراعاً ونصفاً ، فيزيد على ما ذكره ابن زبالة ذراعين ونصفاً ، وذلك لاختلاف الأذرع أو لرخاوة الحبل الذى وقع القياس به ، ونحو ذلك . وكان عرضه من مؤخره فى الشام مائة وخمسة وثلاثين ذراعاً فيزيد على ما ذكره خمسة أذرع .

وكان طوله من القبلة إلى الشام مائتى ذراع وثلاثة وخمسون ذراعاً ، فيزيد على ما ذكره ابن زبالة ثلاثة عشر ذراعاً .

وقد ذكر ابن النجار ما يوافق ذرعنا هذا مع مخالفة بسيرة فقال : طول المسجد اليوم من قبلته إلى الشام مائتا ذراع وأربعة وخمسون ذراعاً وأربعة أصابع ، ومن شرقيه إلى غربيه - يعنى فى مقدمه - مائة ذراع وسبعون ذراعاً صافية ، انتهى .

قال ابن زبالة : وطول رحبة المسجد - يعنى محله - من اليمن إلى الشام مائة

وخمسة وستون ذراعاً ، وعرضها بين المشرق والمغرب ثمان وتسعون ذراعاً ، انتهى .
وذكر ابن النجار أن طولها مائة وتسعة وخمسون ذراعاً وثلاثة أصابع ،
وعرضها سبع وتسعون ذراعاً راجحة .

قلت : وطول رحبة المسجد اليوم من القبلة إلى الشام مائة ذراع واثنتان
وخمسون ذراعاً ونصف ذراع ، فإذا أضفنا لذلك عرض الرواق الذي زيد في
الرحبة على ما قدمناه من أنه زيد فيها رواقان من ناحية ونقص رواق من ناحية
والرواق نحو تسعة أذرع فيكون جملة ذلك مائة وأحد وستين ذراعاً ونصفاً ،
وذلك نحو ما ذكره ابن النجار .

وأما عرض الرحبة اليوم من مقدم المسجد فخمسة وتسعون ذراعاً بتقديم البناء
على السنين ، والله تعالى أعلم .

وذكر ابن النجار أن طول المسجد في السماء خمسة وعشرون ذراعاً ، ومراده
ارتفاعه من أرضه إلى أعلى شرفاته ؛ لأنه ذكر في موضع آخر ما يقتضي أن
ارتفاعه من أرض المسجد إلى سقفه أحد وعشرون ذراعاً ، فيكون سمت السقف
والحائط الذي عليه الشرفاء ريف حول صحن المسجد أربعة أذرع ، ولدى بين
أرض مقدم المسجد وسقفه بعد خفض أرضه عقب الحريق الثاني اثنان وعشرون
ذراعاً ، وتقدم في زيادة عمر رضى الله عنه ما يقتضى أنه كان بينهما في زمانه أحد
عشر ذراعاً ، ولم أقف على ذكر ما جعله عثمان رضى الله تعالى عنه بينهما ، وذرع
ما بين الأرض المحيطة بالمسجد من خارجه وأعلى سترة جداره من جهة المغرب
ثمانية وعشرون ذراعاً ؛ فهذا سمك المسجد من خارجه ، والله أعلم .

وقد تقدم ذكر منابر المسجد وذرعها في زيادة الوليد

الفصل الثانى والثلاثون

أبواب المسجد
فى أبواب المسجد وماسد منها ، وما بقى ، وما يحاذيها من الدور قديما وحديثا
تقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل للمسجد الشريف ثلاثة أبواب .
بابا فى مؤخره ، والباب الذى يدعى باب عاتكة ويقال له باب الرحمة ، والباب
الذى كان يدخل منه النبى صلى الله عليه وسلم وهو باب آل عثمان

وقد اقتضى كلام المؤرخين أن هذين البابين لم يحولا عن مكانهما ، بل
لما زيد فى المسجد من جهتهما جعل فى محاذة محلهما الأول

وقد قدمنا فى زيادة عمر رضى الله عنه أنه جعل الأبواب ستة : بابين عن
يمين القبلة ، وبابين عن يسارها ، وبابين خلف القبلة ، وأنه لم يغير باب عاتكة
ولا باب عثمان ، بل زاد فى جهة باب عاتكة الباب الذى عند دار مروان وهو
باب السلام ، وزاد بعد باب عثمان الباب المعروف بباب النساء ، فهذان البابين
هما المزيديان فى المغرب والمشرق .

وسبق أيضا أن عثمان رضى الله تعالى عنه أقر هذه الأبواب على حالها ،
ولم يزد فيها شيئا .

ولم يذكر ابن زبالة ولا يحيى ولا رزين ما زاده الوليد من الأبواب ،
ولا ما زاده المهدي حين زاد فى المسجد ، إلا أن ابن النجار قال : وأما أبواب
المسجد فكانت بعد زيادة المهدي فيه ، وذكر تسعة عشر بابا غير باب خوخة
أبى بكر رضى الله عنه ، كما سيأتى ، وبين أما كتبها كما سنشير إليه .

وقال المطرى وتبعه المراغى والمجد : لما بنى الوليد بن عبد الملك المسجد ووسعه
جعل له عشرين بابا ، وذكر الأبواب المذكورة بعينها مع الخوخة المذكورة ،
وهذا وهم ؛ لأن المنقول فى هذه الأبواب أنها إنما كانت فى زيادة المهدي ، وهى
التي استقر عليها الحال فى أمر المسجد ، وأيضا فما سيأتى فى وصف الأبواب التي

في جهة الشام وما يليها من جهة المشرق والمغرب لا يتصور أن يكون في زمن الوليد ؛ لما تقدم من أن المهدي هو الذي زاد ذلك ، والمطري موافق عليه ، فكيف يذكر وصف تلك الأبواب فيما نسبته للوليد ، وسيأتي أيضاً أن أحد هذه الأبواب - وهو باب زياد - إنما فتحه زياد في ولاية أبي العباس المنصور .

والحاصل من كلام مَنْ كان قبل المطري من المؤرخين أن الذي استقر عليه أمر المسجد بعد انتهاء زياداته في أمر الأبواب عشرون باباً ، مع عدد الخوخة المذكورة ؛ فإنها كما سيأتي كانت شارعاً في رحبة دار القضاء ، ولا ينافي ذلك قول ابن زبالة : وفي المسجد - يعني في زمنه - أربعة وعشرون باباً ؛ لأنه قال في تفصيلها : منها ثمانية من ناحية المشرق ، ومما يلي القبلة : باب يدخل منه الأمراء من ناحية باب مروان إلى المقصورة ، وعن يسار القبلة الباب الذي تدخل منه المقصورة من موضع الجنائز ، وعن يمين القبلة باب بجذائه سواء في الطرف الآخر أي في مقابلته يدعى باب بيت زيت القناديل ، ذكروا أن مروان عمله ، وخوخة آل عمر تحت المقصورة ، ومما يلي المغرب ثمانية أبواب منها الخوخة التي تقابل يمين خوخة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ومما يلي الشام أربعة ، انتهى كلام ابن زبالة ؛ فغيره لم يعد الباب الذي كان في القبلة شارعاً في دار مروان ؛ لأنه باب دار ، وكذا خوخة آل عمر ؛ لأنها للدار لا للمسجد ، وكذا باب زيت القناديل ؛ لأنه باب خزانة للمسجد لا يدخل منه عامة الناس ، وكان موضعه عند زاوية الجدار الغربية مما يلي القبلة وجدوه عند عمارة المنارة التي بباب السلام وسد بجدارها

وأما الباب الذي ذكره عن يسار القبلة فيؤخذ من كلامه أنه كان في المشرق مقابلاً لباب زيت القناديل وأنه خاص بالمقصورة ، ولو كان باباً عاماً لعد في الأبواب التي في جهة المشرق ، وقد ظهر هذا الباب عند هدم المنارة الشرقية بعد الحريق الذي أدركناه ، وهو باب صغير وجد مسدوداً عند زاوية

جدار المسجد الشرقية ، وكان الدخول كان منه إلى الخزانة التي تحت المنارة الشرقية اليمانية ثم منها إلى المقصورة ، ولهذا لما بسط ابن زبالة الكلام على أبواب المسجد في موضع آخر لم يذكر هذه الأبواب الأربعة ، بل اقتصر على العشرين فلذلك ما ذكره وغيره فيها وما زاده المطري في بيانها مما يعرف بمحلها ثم نفرد خوذة آل عمر بالكلام عليها ، فنقول :

الأول : وهو مبتدأ أبواب جهة المشرق مما يلي القبلة ، باب النبي صلى الله عليه وسلم ، سمي بذلك لكونه في مقابلة حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها التي بها قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، لا لكونه دخل منه ؛ إذ لا وجود له في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وقد سد عند تجديد الحائط المشرق ، وجعل مكانه شبك يقف الإنسان عنده من خارج ، فيرى الحجرة الشريفة ، كذا قاله المطري ومن بعده ، وسيأتي ما يخالفه

باب النبي
صلى الله عليه
وسلم

الثاني : باب على رضي الله عنه ، كان يقابل بيته الذي خلف بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد سد أيضاً عند تجديد الحائط ، وما ذكرنا من أن باب النبي صلى الله عليه وسلم مقدم على هذا الباب للقبلة صرح به المطري ومن تبعه ، وهو الذي تقتضيه المناسبة التي ذكروها للتسمية بذلك ، لكن صرح ابن النجار بخلافه ، فقال في عدد أبواب جهة المشرق : باب على ، ثم باب النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم باب عثمان ، ثم باب مستقبل بدار ربيعة ، إلى آخر الترتيب الآتي ، ومأخذه في ذلك أن ابن زبالة ويحيى ذكر ما كان مكتوباً على جدارات المسجد فقالا : وفي الزيادة الشرقية في جوف المسجد بين باب على و باب النبي صلى الله عليه وسلم مكتوب ، وذكر ما كان مكتوباً

باب على

ثم قالوا : وبين باب النبي صلى الله عليه وسلم و باب عثمان مكتوب ، وذكر ما كان مكتوباً

ثم ذكرنا أيضاً في الكتابة من خارج الجدار على الأبواب نحو هذا ، وقالوا

أيضاً : إن في القبلة من خارج المسجد في موضع الجنائز حيث يصلى على الموتى عند باب على بن أبي طالب مكتوب بعد البسملة (إن في خلق السموات والأرض - الآية) فافتضى ذلك أن باب على هو أول أبواب هذه الجهة ، وأن باب النبي صلى الله عليه وسلم هو الثاني منها ، والذي حمل المطري ومن تبعه على مخالفة ذلك ما قدمناه عنه من رعاية تلك المناسبة ، ويحتمل أن بيت على رضى الله عنه كان ممتداً في شرقي حجرة عائشة رضى الله عنها إلى موضع الباب الأول فسمى باب على بذلك ، ويدل له ما تقدم عن ابن شبة في الكلام على بيت فاطمة رضى الله عنها من أنه كان فيما بين دار عثمان التي في شرقي المسجد وبين الباب المواجه لدار أسماء ، ويكون تسمية الباب الثاني بباب النبي صلى الله عليه وسلم لقربه من بابه ، والله أعلم.

باب عثمان
(باب جبريل)

الثالث : باب عثمان ، وهو الباب الذي وضع قبالة الباب الذي كان يدخل منه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد قدمنا عن ابن زبالة ويحيى أن الباب الذي كان يدخل منه النبي صلى الله عليه وسلم هو باب آل عثمان ، ولذا أطلق عليه في رواية ليحيى في زيادة عثمان أنه باب النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ظهر درج عند باب مقصورة الحجرة الشامي في مقابلة الباب المذكور بسبب الحفر للدعامة التي هناك ، والظاهر أنه درج الباب المذكور قبل تحويله ؛ لكونه في موازاة جدار المسجد لأول كما يؤخذ مما سبق من حدوده ، وسمى بذلك لمقابلته لدار عثمان بن عفان . وسيتأتى منها كانت من الطريق التي تسلك إلى البقيع التي عن يسار الخارج من هذا الباب إلى الطريق التي في شامي المدرسة الشهابية ، والذي يقابل هذا الباب اليوم من دار عثمان رباط أنشأه جمال الدين محمد بن أبي المنصور الأصفهاني المعروف بالجواد وزير بني ركن.

قال المطري : وقفه على فقراء المعجم ، وجعل له فيه تربة في شبك في جهة الشباك المتقدم ذكره في مقابلة المعبر الشريف . ولما مرض وهو في السجن قال للشيخ أبي القاسم الصوفي : كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر ، يعني أنه فرح بأن يأتيه الموت وهو على تلك الحالة ، وقال له : إن بيني وبين أسد

الدين شركوه - يعنى عم صلاح الدين بن أيوب - عهداً أن مَنْ مات قبل صاحبه حمله صاحبه الحى إلى المدينة الشريفة فدفنه فيها فى التربة التى عملها ، فإن أنا مت فامض إليّ فذكره ، فلما توفى سار الشيخ إلى أسد الدين فى هذا المعنى ، فأعطاه مالا صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة الشريفتين ، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية ، ومن بقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل وقدم مدينة تكون فى الطريق ، وينادى بالصلاة عليه فى البلاد ، فلما كان فى الحلة اجتمع الناس للصلاة عليه ، فإذا شاب قد ارتفع على موضع عالٍ ونادى بأعلى صوته :

سرى نَعْسُهُ فوق الرقاب ، وطلما سرى جودُهُ فوق الركاب ونائلُهُ
يَمُرُّ على الوادى فَتُذْنِي رمالُهُ عليه ، وبالنادى فتثنى أرامِلُهُ
فلم يُرَ بِأَكْثَرِ من ذلك اليوم ، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة ، وصلوا عليه بالحرم ، وحملوه إلى المدينة فصلوا عليه ودفنوه بترتبه المذكورة .
وكانت وفاته فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وكان له آثار حسنة سيما بالحرمين الشريفين ، وعمل للمدينة الشريفة السور الآتى ذكره ، وسندكر هناك شيئاً من ترجمته .

وفى قبلة رباطه من دار عثمان أيضاً تربة اشترى أرضها أسد الدين شيركوه ابن شاذى عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى ، وحمل إليها هو وأخوه نجم الدين أيوب والد صلاح الدين بعد موتها ودفنا فيها سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وتوهم الذهبى أنهما دفنا بالبقيع فجزم به فى العبر .
وبقية دار عثمان من القبلة دار إلى جانب هذه التربة موقوفة على خدام الحرم الشريف يسكنها مشايخهم ، وهذه دار عثمان الكبرى المقابلة لهذا الباب ، وسيأتى ذكر داره الصغرى التى فى موضعها رباط المغاربة . ويعرف هذا الباب أيضاً بباب جبريل عليه السلام .

قلت : ولم يبينوا سبب تسميته بذلك ، ولعل سببها ما سبق فى الفصل الرابع والعشرين من قول أبى غسان : إن علامة مقام جبريل التى يعرف بها اليوم أنك

تخرج من الباب الذي يقال له باب آل عثمان فتري على يمينك إذا خرجت من ذلك الباب على ثلاثة أذرع وشبر وهو من الأرض على نحو من ذراع وشبر حجراً أكبر من الحجارة التي بها جدار المسجد ، مع ما قدمناه أيضاً من أن الأصل في ذلك أن جبريل عليه السلام في غزوة بني قريظة أتى على فرس عليه الأمانة حتى وقف بباب المسجد عند موضع الجنائز ، ولم يكن ثم حينئذ غير الباب المذكور وروى ابن زبالة عن المطلب بن عبد الله أن حارثة بن النعمان مرّ والنبي صلى الله عليه وسلم مع جبريل في موضع الجنائز ، فمر ولم يسلم ، فقال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : أهو ممن شهد بدرًا ؟ قال : نعم ، قال : فكيف هو في أمّتك ؟ أيرون لهم به ؟ قال : نعم ، قال : ما زالت الملائكة الذين شهدوا بدرًا معك يريهم ، قال : فجاء حارثة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل رأيت الرجل الذي كان معي ؟ قال : نعم وشبهته بدحية الكلبي ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : فإنه جبريل ، وقد قال لو سلم لرددنا عليه ، فقال : ما منعتني من السلام إلا أني رأيتك تحدثُ معه فكهرت أن أقطعه عنك ، وروى البيهقي في الدلائل عن حارثة بن النعمان قال : مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل جالس في المقاعد ، فسلمت عليه ومررت ، فلما رجعنا وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم قال لي : هل رأيت الذي كان معي ؟ قلت : نعم ، قال : فإنه جبريل عليه السلام ، وقد ردّ عليك السلام .

وكان مكتوباً على هذا الباب من خارجه بعد البسملة (لقد جاءكم رسول من أنفسكم - الآيتين) .

الرابع : باب ريطة بفتح الراء ابنة أبي العباس السفاح ، كان يقابل دارها ، ويعرف بباب النساء ، وسبب تسميته بذلك ما رواه أبو داود من طريق عبد الوارث عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو تركنا هذا الباب للنساء ، قال : نعم ، فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات . ثم قال أبو داود عقبه : وقال غير عبد الوارث : قال قال عمر ، وهو أصح ، ثم رواه من طريق إسماعيل

باب ريطة
(باب النساء)

عن أيوب عن نافع عن ابن عمر « قال قال عمر » بمعناه ، قال : وهو أصح . ثم رواه أيضاً من طريق بكير عن نافع قال : إن عمر بن الخطاب كان ينهى أن يدخل من باب النساء ، وهذا هو المعتمد ؛ لما تقدم من أنه لم يكن في زمنه صلى الله عليه وسلم في شرقي المسجد غير باب آل عثمان . وقد روى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن ابن عمر قال : سمعت عمر حين بنى المسجد يقول : هذا باب النساء ، فلم يدخل منه ابن عمر حتى لقي الله ، وكان لا يمر بين أيدي النساء وهن يصلين . ودار ربطة التي كانت مقابلة لهذا الباب قال المطري : كانت دار أبي بكر الصديق ، ونقل أنه توفي فيها ، وهي الآن مدرسة للحنفية بناها ياركوح أحد أمراء الشام ، وعمل له فيها مشهداً نقل إليه من الشام ، والطريق إلى البقيع بينها وبين دار عثمان ، نقل ذلك ابن زبالة .

قلت : وما ذكره من نسبة الدار المذكورة لأبي بكر الصديق سيأتي مستنده مع بيان مافيه .

وفي أعلى هذا الباب من خارجه لوح من الفسيفساء مكتوب فيه آية الكرسي من بناء المسجد القديم ، وقد زال عند الحريق الثاني .

باب خامس

الخامس : باب كان يقابل دار أسماء بنت الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم ، كانت من جملة دار جبلة بن عمرو الساعدي ، ثم صارت لسعد بن خالد بن عمر بن عثمان ، ثم صارت لأسماء المذكورة ، وهي اليوم رباط للنساء ، وقد سُدَّ هذا الباب أيضاً عند تجديد الحائط الشرقي من المنارة الشرقية الشمالية إلى هذا الباب المذكور في أيام الناصر لدين الله سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، كذا قاله المطري ومن تبعه ، وظاهر كلام ابن جبير أن سُدَّ هذا الباب وغيره من الأبواب كان قبل الثمانين وخمسمائة ؛ لأن رحلة ابن جبير كانت قبل الثمانين كما قدمناه ، وقد قال فيها : والمسجد المبارك تسعة عشر باباً أي غير خوخة أبي بكر لم يبق منها مفتوحاً غير أربعة ، في المغرب منها اثنان ، وفي المشرق

اثنان، انتهى. لكنه قال بعد ذلك: وفي القبلة باب واحد صغير مغلق، يعني باب دار الإمارة. ثم قال: وفي المغرب خمسة مغلقة أيضاً، وفي المشرق خمسة أيضاً مغلقة، وفي الشام أربعة مغلقة أيضاً، انتهى. فتبين أنها كانت في زمنه غير مسدودة لكنها مغلقة، فيكون سدّها حدث في التاريخ الذي ذكره المطري، والله أعلم.

السادس: باب كان يقابل دار خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، وقد دخل باب سادس في بناء الحائط المذكور، والدار المذكورة اليوم رباط الرجال، ومعها في جهة الشمال دار عمرو بن العاص كما سيأتي بيانه، ويعرف الرباط المذكور اليوم برباط السبيل، وكذا رباط النساء المتقدم ذكره يعرف بذلك أيضاً، والرباطان المذكوران بناهما القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري رحمه الله تعالى. وذكر ابن زبالة ويحيى أنه كتب على نجاف هذا الباب من داخل «مما أمر به المهدي محمد أمير المؤمنين مما عمل البصريون سنة اثنتين وستين ومائة ومبتدأ زيادة المهدي في المسجد.

قلت: وكتابة ذلك عليه تقتضي أنه الذي أحدثه وما بعده، وأنه أول زيادته كما تقدم.

السابع: باب كان يقابل زقاق المناصع، دخل أيضاً في الحائط بعد تجديده، باب سابع وزقاق المناصع كان بين دار عمرو بن العاص وأبيات الصوافي، وعبر عنها المطري بدار موسى بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي لأمر توهّمه من كلام ابن زبالة كما سنوضحه إن شاء الله تعالى، والزقاق اليوم ينفذ إلى دار الحسن بن علي العسكري، وتعرف اليوم بحوش الحسن، وكان الرفاق المذكور ينفذ إلى المناصع خارج المدينة، وهو كان متبرزاً للنساء بالليل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وأبيات الصوافي هذه التي عبر عنها المطري بدار موسى ابن إبراهيم سيأتي أن بعضها اليوم رباط للرجال أنشأه القاضي الفاضل يحيى الدين

أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي البَيْسَانِي ، ودخل هذا الباب أيضاً في الحائط عند تجديده .

باب ثامن

الذمن : باب كان يقابل أبيات الصوافي دخل في الحائط أيضاً عند تجديده ، وأبيات الصوافي تقدم أن بعضها الذي يلي دار عمرو بن العاص هو رباط الفاضل ، وبعضها الآخر وهو الذي كان يقابل هذا الباب هو المعروف اليوم بدار الرسام التي وقفها الشيخ صفي الدين السلامي على أقاربه ثم على الفقراء ، وفي شاميهما الباب الذي يدخل منه إلى رباطي النخلة ، وهما رباطا السلامي ، وقد عبر المطري عن ذلك بقوله « وهي - يعني أبيات الصوافي - في دور كانت بين موسى بن إبراهيم الخزومي وبين عبيد الله بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم » قال : وموضع هذه الدور اليوم دار اشتراها الشيخ صفي الدين أبو بكر بن أحمد السلامي رحمه الله ووقفها على قرابته السلايين ، انتهى .

وسياتي أن أبيات الصوافي هي الدور التي كان فيها قهطم ، ونها كانت بين دار عمرو بن العاص ودار موسى بن إبراهيم الخزومي المشتركة بينه وبين عبيد الله بن الحسين ، وأن هذه الدار المشتركة كانت أول الدور في جهة المشرق مما يلي الشام ، فأبيات الصوافي هي دار قهطم ، وفي موضعها ما قدمناه من رباط الفاضل ودار السلامي . وأما الدار المشتركة ففي موضعها اليوم الميضاة المعطلة وبيت الرئيس إبراهيم الذي بين الميضاة والزقاق الذي يلي دار المضيف كما سياتي بيانه ، ودار المضيف هي آخر الدور التي في جهة الشام ، والدار المشتركة كانت ملاصقة لها ، وسياتي بيان منشأ ما وقع للمطري ، وهذا الباب آخر الأبواب التي كانت في جهة المشرق .

أبواب المسجد الشامية

وقد طوى المطري الكلام على الأبواب الشامية ، فقال : وفي شمالي المسجد

أربعة أبواب سدت أيضاً عند تجديد الحائط الشمالى ، وليس فى شمال المسجد اليوم باب إلا باب سقاية عمرتها أم الإمام الناصر .
وسبب عدم كلام المطرى على الأبواب الشامية أن ابن زباله لم يذكر ما يقابلها من الدور ، لكن ظهر لى أنه يؤخذ من كلامه وكلام ابن شبة فى الدور المطيفة بالمسجد ، فلنذكر ما استفدنا منهما فى ذلك ، فنقول :

التاسع : باب كان فى دبر المسجد ، وهو أول أبواب الشام مما يلى المشرق ،
وكان يقابل دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف ، وهى دار جد عبد الرحمن التى كان يُنزَلُ بها ضيفان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتى ، وبقية دار ابن مسعود ، وفى موضعها الدار المعروفة بدار المضيف وما فى غربها من رباط الظاهرية

العاشر : باب كان يقابل دار أبى الغيث بن المغيرة ، وفى موضعها اليوم
الرباط المعروف برباط الظاهرية والشرشورة

الحادى عشر : باب كان يقابل ما يلى دار أبى الغيث من أبيات خالصة
مولاة أمير المؤمنين ، وموضع ذلك المارستان الذى أنشأه أبو جعفر المنتصر بالله
سنة سبع وعشرين وستمائة

الثانى عشر : باب كان فى مقابلة بقية أبيات خالصة ، وفى موضع ذلك
اليوم بيت وزقاق يتوصل منه إلى الرباط الذى أنشأه الشيخ شمس الدين الشسترى ،
وهذا الباب آخر الأبواب التى كانت فى جهة الشام ، وكلها اليوم مسدودة كما
تقدم ، وما يوجد اليوم من الدور والأبنية الملاصقة لجدار المسجد المذكور كلها
جاذئة كما يؤخذ من كلام متقدمى المؤرخين ، ولم أقف على ابتداء حدوث ذلك

الثالث عشر : وهو أول أبواب المغرب مما يلى الشام باب كان يقابل دار
منيرة ، وكانت من دور عبد الرحمن بن عوف ، ثم صارت لعبد الله بن جعفر بن
أبى طالب ، ثم صارت لمنيرة مولاة أم موسى ، وفى موضعها اليوم الدار التى

صارت لشيخنا العارف بالله سيدى عبد المعطى المغربى نزىل مكة المشرفة ، ثم انتقلت للسيد الشريف العلامة محيى الدين قاضى الحنابلة بالحرمين الشريفين ، وما فى قبلتها إلى الباب الذى يدخل منه إلى دور القياشين التى للخواجا قاوان ، وهذا الباب مسدود كما هو مشاهد من خارج المسجد .

الباب الرابع عشر

الرابع عشر : باب كان يقابل دار منيرة أيضاً كما صرح به ابن زباله ويحيى ، ووهم الجد فعمله الذى بعده ، وموضع ما يقابله اليوم من دار منيرة الدار الموقوفة على الخدام التى فى قبلة الزقاق الذى يدخل منه إلى دور القياشين ، وهذا الباب مسدود اليوم كما يظهر من خارج المسجد أيضاً ، وبذلك يعلم أن محلها من ذلك الجدار لم يحدد .

الباب الخامس عشر

الخامس عشر : باب كان يقابل دار نصير صاحب المصلى وهو مولى المهدي ، وكانت هذه الدار منزلاً لسكينة بنت الحسين بن على رضى الله عنهم ، وفى موضعها اليوم الدار التى عن يسار الداخل من زقاق دور القياشين والدار التى تعرف اليوم بدار تميم الدارى ، وقد آلت إلى ثم وقفتها ، وهى الآن منزلى ، ولم أقف على أصل فى تسميتها بذلك ، وهذا الباب فى مقابلة الدار المعروفة بدار تميم من دار نصير ، وهو مسدود اليوم ، وبقيت منه قطعة تظهر من خارج المسجد ، ودخل باقيه عند تجديد الحائط من باب عاتكة إليه .

الباب السادس عشر

السادس عشر : باب كان يقابل دار جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ، وقد دخل فى داره هذه فارغاً أطم حسان بن ثابت كما قاله ابن زباله ، وفى موضعها اليوم المدرسة الكبرجية التى أنشأها السلطان شهاب الدين أحمد سلطان كبرجة من بلاد الهند فى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ، وهذا الباب دخل فى الحائط عند تجديده ، وأسقطه المطرى مع أنه مذكور فى كلام ابن زباله ويحيى ، وما أسقطه زاد بدله باباً لا وجود له فى كلام من قبله ، على ما سيأتى التنبيه عليه .

السابع عشر : باب عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية ، كان يقابل
 دار عاتكة المذكورة ، ثم صارت هذه الدار ليحيى بن خالد البرمكى والد جعفر ،
 ودخلت في دار جعفر المتقدم ذكرها ، وتوهم الزين المراغى من نسبتها لجعفر بن
 يحيى ومن كون أطم حسان دخل في دار جعفر بن يحيى أنها محل أطمه ، وليس
 كذلك لما قدمناه ، وفي موضعها اليوم دار من أوقاف الخدام في قبلة المدرسة
 الكبرجية تواجه يمين الخارج من باب المسجد المذكور ، وقد استبدلها الشيخ
 الزينى بن مزهر بإزالة ديوان الانشآت وما غربيها من الدور، واتخذ ذلك مدرسة
 ورباطا وأروقة على يد صاحبنا العلامة الشيخ نور الدين الحلى نفع الله به ، ويعرف
 هذا الباب قديماً أيضاً بباب السوق ، كما يؤخذ مما سيأتى في باب زياد ، لأن سوق
 المدينة كانت في المغرب في جهته . ويعرف قديماً أيضاً بباب الرحمة ؛ فإن يحيى
 ذكر في بناء النبي صلى الله عليه وسلم لمسجده أنه صلى الله عليه وسلم جعل له ثلاثة
 أبواب : باب في مؤخره ، وباب عاتكة الذى يدعى باب عاتكة ويقال باب
 الرحمة ، هذا لفظه . وأطبق على وصفه بذلك مَنْ بعده من المؤرخين ، حتى صار
 في زماننا هو الأغلب عليه ، ومع ذلك فلم أر فى كلام أحد بيان السبب فى تسميته
 بذلك ، وسألت عنه مَنْ لقيته من المشايخ فلم أجِدْ عند أحد منهم علماً من ذلك ،
 ثم ظهر لى معناه بحمد الله تعالى ، وذلك أن البخارى روى فى صحيحه عن أنس
 ابن مالك أن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة من باب كان نحو دار القضاء ورسولُ
 الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب ، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً ،
 ثم قال : يا رسول الله ، هل سكَّتِ الأموالُ ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغثنا ، ورفعَ
 رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ،
 قال أنس : ولا والله ما نرى فى السماء من سحاب ولا قزعة ، وما بيننا وبين
 سَلْع من بيت ولا دار ، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، ولما توسطت
 السماء انتشرت ثم أمطرت ، فلا والله ما رأينا الشمس سبعة ، ثم دخل رجل من

ذلك الباب في الجمعة - يعني الثانية - ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب - الحديث - بطوله ، وسنبين في باب زياد - وهو الذي يلي هذا - أن دار القضاء كان محلها بين باب الرحمة وباب السلام ، وقد تقرر أنه لم يكن للمسجد في زمنه صلى الله عليه وسلم في هذه الجهة إلا الباب المعروف بباب الرحمة ؛ فظهر أن هذا الرجل الطالب لإرسال المطر وهو رَحْمَةٌ إنما دخل منه ، وقد أنتج سؤاله حصول الرحمة ، وأنشأ الله السحاب الذي كان سببا فيها من قبله أيضا ؛ لأن سلما في غربي المسجد ، فسمى والله أعلم بباب الرحمة لذلك ، لكن في رواية البخاري عن أنس أيضا أن رجلا دخل يوم الجمعة من باب كان وُجَّاه المنبر ، ومقتضاها أنه دخل من الباب الذي كان في شامي المسجد ؛ لقرب إطلاق مواجته للمنبر عليه ، لكن ذلك الباب ليس نحو دار القضاء ، فليجمع بين الروایتين بأن الواقعة متعددة كما اقتضاه كلام بعضهم ، أو بأنه وقع التجوز في إطلاق كون ذلك الباب وُجَّاه المنبر ، أو بأن باب الرحمة كان كما قدمناه في آخر جهة المغرب مما يلي الشام ، فجاء ذلك الداخل من جهته ودخل منه ، ثم رأى أن قيامه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر لا يتم إلا بتخطي الصفوف ، فخرج إلى الباب الآخر المواجه للمنبر ، فغلب إطلاق باب الرحمة على الباب الذي في جهة مجيئه ؛ لاعتضاده بما تقدم من مجيء السحاب من قبله ، والله أعلم

باب زياد
(باب القضاء)

الثامن عشر: باب كان يعرف بباب زياد ، وقد سد أيضا عند تجديد الحائط الذي هو فيه ، وكان بين خَوْخَةَ أَبِي بكر الآتي ذكرها وبين الباب الذي قبله ، وسمى بذلك لما رواه ابن شبة عن محمد بن إسماعيل بن أبي فديك عن عمه قال : كانت رَحْمَةُ القضاء لعمر رضى الله عنه - يعني داراله - وأمر حفصة وعبد الله ابنيه رضى الله عنهما أن يبيعاها عند وفاته في دين كان عليه ، فإن بلغ ثمنها دينه وإلا فاسألوا فيه بنى عدى بن كعب حتى يَقْضَوْه ، فباعوها من معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما ، وكانت تسمى دار القضاء ، قال ابن أبي فديك : فسمعت

عمي يقول : إن كانت لتسمي دار قضاء الدين ، قال : وكان معاوية اشتراها عند ولايته ، فلم تزل حتى قدم زياد بن عبد الله المدينة سنة ثمان وثلاثين ومائة ، فهدمها وجعلها رحبة للمسجد ، وفتح فيها الباب الذي إلى جنب الخوخة الصغيرة ، وجعل هدمها على أهل السوق ، قال محمد بن إسماعيل بن أبي فديك : فأخذ مني في هدمها أربعة دوانق ، قال ابن أبي فديك : وأخبرني أيضا كما أخبرني عمي عبيد الله بن عمر بن عبد الله بن عبد الله بن عمر قال : وأشار لي عبيد الله إلى صندوق في بيته وقال : في هذا الصندوق إبرة آت من ذلك الدين . وروى أيضا عن عبد العزيز بن مروان أن دار القضاء كانت لعبد الرحمن بن عوف ، قال : وهي اليوم رحبة لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غربيه مما يلي دار مروان . وروى عن سَهْمَةَ بنت عاصم أنها إنما سميت دار القضاء لأن عبد الرحمن اعتزل فيها ليالي الشوري حتى قضى الأمر فباعها بنو عبد الرحمن من معاوية ، فصارت بعد في البصوافي ، وكانت الدواوين فيها وبيت المال ، فهدمها أبو العباس أمير المؤمنين وصيّرها رحبة للمسجد ، فهي اليوم كذلك

وروى ابن زبالة خبر ابن أبي فديك الأول مقتصرًا عليه من طريق محمد ابن إسماعيل - يعني ابن أبي فديك - عن ابن عمر أن عمر توفي وترك عليه ثمانية وعشرين ألفا ، فدعا عبد الله وحَفْصَةُ فقال : إني قد أصبْتُ من مال الله شيئًا ، وأنا أحبُّ أن ألقى الله وليس في عنقي منه شيء ، فبيعا فيه حتى تقضياه ، فإن عجز عنه مالي فسَلَا فيه بنى عَدِي ، فإن بلغ وإلا فلا تَعُدُّوا قرشا ، فخرج عبد الله بن عمر إلى معاوية فباع منه دار عمر التي يقال لها دار القضاء ، وباع ماله بالغابة ، فقضى دينه ؛ فكان يقال « دار قضاء دين عمر » وهي رحبة القضاء .

قال محمد بن إسماعيل : فهدم زياد بن عبيد الله إذ كان واليا لآلئ العباس على المدينة في سنة ثمان وثلاثين ومائة دار القضاء ، وكانت تُكْرَى من تجار أهل

المدينة ، فهدمها زياد وجعلها رحبة للمسجد ، وفتح الباب الذى إلى جنب الخوخة -
الخبر المتقدم .

قلت : وما تضمنه هذا الخبر من تاريخ هدم الدار وعمل الباب المذكور فيها
ربما يخالف ما ذكره ابن زبالة ويحيى فيما كتبنا على أبواب المسجد ، فإنهما قالوا :
وعلى باب زياد فى لوح من ساج مضروب بمسامير مكتوب من خارج ، ثم ذكرنا
من جملة المكتوب : أمر عبد الله عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله بعمل مسجد
رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمارة هذه الرحبة توسعة لمسجد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ومن حضره من المسلمين فى سنة إحدى وخمسين ومائة ابتغاء وجه الله
والدار الآخرة ، إلى آخر ما ذكرناه .

قلت : وزیاد هذا هو زياد بن عبيد الله بن عبد المدان الحارثى خال السفاح ،
وكانت ولايته على المدينة ومكة من قبل أبى العباس المنصور فى سنة ثمان وثلاثين
ومائة ؛ فقول ابن أبى فديك فى رواية ابن شبة « فلم يزل حتى قدم زياد بن عبيد الله
سنة ثمان وثلاثين » مُبَيَّنٌّ لتاريخ قدومه فقط ، وقوله « فهدمها » يعنى فى مدة
ولايته ؛ فليس فيه تعرض لأن الهدم كان فى ذلك التاريخ ؛ فلا يخالف ما كتب
على الباب المذكور ، وليحمل أيضاً قوله فى رواية ابن زبالة « فهدم زياد بن
عبيد الله إذ كان والياً فى سنة ثمان وثلاثين ومائة » على أن المراد بيان ابتداء
ولايته ، لا تاريخ الهدم ، جُمعا بين الكلامين ، والرواية الأولى أقرب إلى
التأويل من هذه .

وقد ذكر ابن زبالة فى روايته المتقدمة عن محمد بن إسماعيل أنه قال : إن
زياد بن عبيد الله جعل السُّتُورَ على الأبواب الأربعة : باب دار مروان أى
المعروف بباب السلام ، والخوخة أى المَجْمُولة فى محاذة خوخة أبى بكر الصديق
رضى الله عنه ، وباب زياد أى المذكور ، وباب السوق أى وهو باب الرحمة
كما يؤخذ من كلام يحيى .

وقال المجد في ترجمة دار القضاء : هي دار مروان بن الحكم ، وكانت لعمر ابن الخطاب فبيعت في قضاء دينه ، وقد زعم بعضهم أنها دار الإمارة ، وهو محتمل لأنها صارت لأمير المدينة .

قلت : دار مروان هي الآتية في قبلة المسجد ، وليست هذه بلا شك ، ولعل المراد أن مروان ملك دار القضاء فنسبت إليه ، وهو غير معروف ، إلا أن الحافظ ابن حجر نقل عن ابن شبة أنها صارت لمروان وهو أمير المدينة ، قال : فاعلم ذلك شبهة من قال « إنها دار الإمارة » فلا يكون غلطاً ، وقال في المشارق : وقد غلط فيها بعضهم فقال يعني دار الإمارة .

قلت : والذي رأيته في ابن شبة إنما هو صيرورتها لمعاوية كما قدمناه ، مع أن المشهور قديماً بدار الإمارة إنما هي دار مروان التي في قبلة المسجد ، وتقدم أن الأمراء كانوا يدخلون من باب منها إلى المقصورة ، وتوهم البرهان ابن فرحون أنها رحبة دار القضاء ، فقال : قال ابن حبيب : وما كان مَنْ مَضَى - يعني من القضاة - يجلسون في رحاب المسجد ، بل إما عند موضع الجنائز ، يريد خارج باب جبريل ، وإما رحبة دار مروان وهي التي تسمى رحبة القضاء ، وقد جعل ذلك في هذا الوقت مِيضَاة ، انتهى . وهو وَهَمٌ ؛ لأن الذي جعل مِيضَاة هو نفس دار مروان كما سيأتي ، وبالجملة فلا خلاف في كون دار القضاء هي الرحبة التي كانت في غربي المسجد إلى باب مروان .

ويؤخذ مما تقدم أن هذه الرحبة كانت في محاذة باب زياد وما بعده إلى باب السلام .

ويؤخذ مما سيأتي في الدور المُطِيفَة بالمسجد أنها كانت ممتدة إلى باب الرحبة أيضاً ، وهو مقتضى ما أخبر به بعض مشايخ المدينة أنه لم يزل يسمع أنه لم يكن بين باب الرحمة وباب السلام دار تلاصق المسجد .

قلت : فموضع هذه الرحبة اليوم دار الشباك الملاصقة لباب الرحمة ، وما يليها من المدرسة الجوبانية والحصن العتيق .

ودار الشباك أنشأها شيخ الخدام كافور المظفرى ، المعروف بالحريرى ، بعد السبعائة ، وجعل لها شباكاً إلى المسجد ، وليس حول المسجد دار لها شباك فى جدار المسجد إلا هى ، والذي يظهر أن باب زياد كان فى موضع شباكها أو إلى جانبه القبلى

وأما المدرسة الجوبانية فابتنها جوبان أتاك العساكر المغلية فى سنة أربع وعشرين وسبعائة ، وجعل له فيها تربة ملاصقة لجدار المسجد بين دار الشباك والحصن العتيق ، وهى - أعنى التربة - من جملة رحبة القضاء ، واتخذ فيها شباكاً فى جدار المسجد ، وهو مسدود اليوم ، ولم يدفن فيها بعد أن حمل إليها فى تابوت سنة ثمان وعشرين وسبعائة من بغداد بأمر السلطان أبى سعيد فدخلوا به مكة وطافوا به حول البيت كما فعل بالجواد الأصفهاني ، وذلك صحبة الحاج العراقى ، فلما وصلوا به المدينة منعهام أميرها من ذلك حتى يشاور السلطان الناصر ، كذا قاله بعضهم ، وقال الصلاح الصفدى : لما بلغ الملك الناصر أمر تجهيزه ليدفن فى المدينة جهز الهجن إلى المدينة ، وأمرهم أن لا يمكن من الدفن فى تربته ، فدفن فى البقيع .

وذكر لى بعضُ الناس أن علة المنع من دفنه بتربته أنه إذا وضع فيها للقبلة كانت رجلاه إلى الجهة الشريفة ؛ لأن تربته فى غربى المسجد ، بخلاف الجواد وغيره ممن دفن فى شرقى المسجد ، فإن رؤسهم إلى جهة الأرجل الشريفة ، والله أعلم .

وأما الحصن العتيق فإنه كان منزلاً لأسراء المدينة ، ثم انقل إلى السلطان غياث الدين سلطان بنجالة أبى المظفر أعظم ابن السلطان اسكندر ، وابتناه مدرسة

في سنة أربعة عشرة وثمانمائة ، وتوفي في تلك السنة ، ويقال : إن غيره سبقه إلى جعله رباطاً قبل ذلك .

ثم اقتضى رأى متولى العمارة بعد الحريق الحادث في زماننا استبدال دار الشباك المذكورة وما يليها من الجوبانية وجميع الحصن العتيق عند هدم ما يلي ذلك من جدار المسجد الغربي ، وعمل ذلك مدرسة ورباطاً للسلطان الأشرف فيما بين باب السلام و باب الرحمة كما سبق في الفصل التاسع والعشرين .

واعلم أن المطري زاد هنا بابا بدل الباب الذي أسقطه قبل باب عاتكة فقال : إنه كان بين باب عاتكة وخوخة أبي بكر الآتية بابان سُدّا عند تجديد الحائط ، وتبعه على ذلك مَنْ بعده ، والذي اقتضاه كلام ابن زبالة ويحيى وابن النجار أنه ليس بين باب عاتكة وبين الخوخة سوى باب زياد ، ولهذا لما أسقط ابن النجار ذكر الخوخة من الأبواب وجعل أبواب هذه الجهة سبعة قال : الخامس باب عاتكة ، السادس باب زياد ، السابع باب مروان ، انتهى . وبه يُعلم أن الصواب ما قدمناه ، والله أعلم .

خوخة
تجاه خوخة
أبي بكر

التاسع عشر : الخوخة المجمولة تُجَاه خوخة أبي بكر رضى الله عنه لما زيد في المسجد ، وهو معنى ما تقدم عن ابن زبالة حيث قال في عدد الأبواب : ومما يلي المغرب ثمانية أبواب ، ومنها الخوخة التي تقابل معنى خوخة أبي بكر .

قلت : وكانت شارة في رَحْبة دار القضاء كما قدمناه من كلام ابن زبالة وقدّمنا أيضا في زيادة عمر رضى الله عنه عن أبي غسان قال : أخبرني محمد بن إسماعيل بن أبي فديك أن عمه أخبره أن الخوخة الشارة في دار القضاء في غربى المسجد خوخة أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، أى المجمولة في محاذاة خوخته . قال ابن زبالة في ذكر الكتابة على أبواب المسجد : وليس على الخوخة لا من داخل المسجد ولا من خارجه كتابة ، وقد قدّمنا أن لهذه الخوخة اليوم بابا مما يلي المسجد ، وأنه باب حاصل يعرف بحاصل النورة ، وهى معروفة بخوخة أبي بكر ،

ويؤخذ مما تقدم أن ذلك الحاصل من دار القضاء ، وبابه اليوم هي الفتحة الثالثة من الفتحات التي على يسار الداخل من باب السلام ، جعل بابا في موضع الخوخة يدخل منه للمسجد ، وبعده شبك ، ثم باب يدخل منه المدرسة الأشرفية .

باب مروان : العشرون : باب مروان ، سمي بذلك لملاصقته لداره التي كانت في قبلة المسجد مما يلي الباب المذكور ، وبعضها ينعطف على المسجد من جهة المغرب ، وفي موضعها اليوم الميضاة التي أنشأها المنصور قلاوون الصالحى عام ست وثمانين وستمائة ، ويعرف الباب المذكور أيضا بباب السلام ، وباب الخشوع ، قله المطرى . وفي رحلة ابن جبير أنه يعرف بباب الخشية ، اه . والزوار غالبا إنما يدخلون منه ؛ لكونه أقصد إلى طريقهم من باب المدينة ، فلا يخفى مناسبة تسميته بذلك كله

قل المطرى : ولم يكن في القبلة حتى إلى اليوم باب إلا خوخة آل عمر ، أو خوخة مروان عند داره في ركن المسجد الغربى ، شاهدناها عند بناء المنارة الكبيرة المستجدّة ، كان يدخل من داره إلى المسجد منها ، وقد انسدت بحائط المنارة الغربى

قال الزين المراغى : وينبغى الاعتراض على من أطلق أن مروان كان يدخل منها للمسجد ؛ لأن مروان قتلته زوجته أم خالد بن يزيد آمنة بنت علقمة ، ويقال : فاختة بنت هاشم ، وقيل : مات مطعوناً ، وقيل : مسموماً ، في نصف رمضان سنة خمس وستين

وكانت مدة خلافته تسعة أشهر ، وذلك قبل أن يزيد ولد ولده الوليد بن عبد الملك بن مروان في المسجد بنحو من ثلاثين سنة ، ولا شك أنها خوخة آل مروان ؛ فالصواب أنه كان يدخل من مثلها ، لا منها ، وكأن هذا الباب هو المراد بقول ابن زبالة : وباب في قبلة المسجد يخرج منه السلطان إلى المقصورة

قلت : أما ما ذكره المطري من أنه لم يكن في قبلة المسجد باب — يعني فيما مضى إلى زمنه — إلا خوخة آل عمر؛ فردود بما قدمناه عن ابن زبالة ؛ فإنه فصل الأبواب الزائدة على العشرين فجعل منها الباب الذي كان في القبلة يدخل منه الأمراء من ناحية دار مروان ، ثم ذكر البابين اللذين عن يمين القبلة وعن يسارها يدخل منهما إلى المقصورة ، والباب الذي عن يمين القبلة هو هذا الذي أدركه المطري ؛ فلا يصح ما ذكره الزين المراغي من حمل كلام ابن زبالة في الباب الذي ذكره في القبلة عليه ؛ لأنه قد غاير بينهما ، وأما استدراك المراغي على القول بأن مروان كان يدخل من الباب الذي ذكره المطري فصحيح ، وقد تقدم عن ابن زبالة أنه يسمى باب بيت زيت القناديل . والذي يظهر كما قال المراغي أنه جعل في مقابلة باب اتخذه مروان هناك أيضا ؛ لأن ابن زبالة روى أن مروان لما بنى داره جعل لها خوخة في القبلة ، ثم قال : أخشى أن أمنعها ، أي لكونها في القبلة ، فجعل لها بابا على يمينك حين تدخل : أي وهو الباب المتقدم وصفه ، ثم قال : أخشى أن أمنع المسجد ، فجعل الباب الثالث الذي يلي باب المسجد ، يعني الملاصق لباب السلام من خارجه ، وفي موضعه اليوم السقاية المقابلة لباب مدرسة الحصن العتيق ، وهذا سبب المناسبة في تسمية رحبة القضاء برحبة دار مروان ؛ لمقابلتها لبابه هذا .

وروى ابن زبالة عن إسحاق بن مسلم أن عمر بن عبد العزيز لما بنى المسجد أراد أن يجعل في الأبواب حلقا ، ويجعلها في الدروب ؛ لئلا يدخلها الدواب ، فعمل الحلقة التي في باب المسجد مما يلي دار مروان ، ثم بداله فتركها .

قلت : المراد بذلك السلسلة الحديد المجهولة بجنبتى عقد باب السلام تمنع الدواب من الدخول . وفي باب الرحمة اليوم آثار سلسلة كانت هناك ، وسلسلة باب السلام ترفع في أيام الموسم ؛ لأنه اتفق في سنة أربع وخمسين وثمانمائة ازدهام الناس عندها فهلك جماعة ، وكان أمام باب السلام من داخله درابزين شبيه

بالدرازين الذى كان من داخل باب جبريل ، وكان الناس لا ينزعون نعالهم إلا عنده ، وكذلك كان مثله أمام باب الرحمة من داخله أيضا ؛ فجعل الأمير بردبك المعمار أيام عمارته لظاهر جَعْمَق هذه الأحجار المصفوفة إفريزا عند طرف عقد باب السلام مما يلي باب الحصن العتيق ، وجعل ما أمام الباب مما يحاذى العقد المذكور رحبة بالمسجد، وصار الناس ينزعون النعال عندها، وعمل عند عقد باب الرحمة مثل ذلك ، ورفع ذلك الدرازين ، وكان ما بين الدرازين و باب الرحمة منخفضا عن أرض المسجد فسواه بأرض المسجد كما هو اليوم ، فاحتاج إلى رفع عتبة ، فزاد العتبة المتخذة فوق العتبة الأصلية ، وقصر شيئا من أسفل الباب ، وذلك ظاهر فيه اليوم ، وحصل بذلك صيانة للمسجد ، واتخذ أيضا الرحبة التى أمام باب النساء ، ورفع الدرازين الذى كان من داخله ، واتخذ لباب جبريل الرحبة التى أمامه ، ولم يرفع الدرازين ؛ لأن الناس لم يكونوا يمشون بنعالهم إليه ، ثم أزيل درايزينه أيضا عند عمارته بعد الحريق الثانى ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل الثالث والثلاثون

فى خَوْخَة آل عمر رضى الله تعالى عنه المتقدم ذكرها ، وما يتعين من سَدِّهَا فى زماننا .

أعلم أنها اليوم هى التى يُتَوَصَّلُ إليها من الطابق الذى بالرواق الثانى من أروقة القبلة ، وهو الرواق الذى يقف الناس اليوم فيه لزيارة أمام الوجه الشريف بالقرب من الطابق المذكور . والذى يتخلَّص مما قدمناه فى زيادة عثمان رضى الله عنه والوليد والمهدى أن الأصل فى ذلك أنه لما احتيج لدار حَفْصَة - يعنى حجرتها - قالت : كيف بطريقى إلى المسجد، فقبل لها : نعطيك أوسع من بيتك ، ونجعل لك طريقا مثل طريقك ، فأعطيت دار عبید الله بن عمر ، أى التى صارت إليه بعد حَفْصَة ، وكانت مَرَبْدًا ، هذا ما رواه ابن زبالة .

تحديد موضع
خوخة آل عمر

وقد قدمنا في زيادة الوليد من رواية ابن زبالة أن عمر بن عبد العزيز بعث إلى رجال من آل عمر ، وأخبرهم أن أمير المؤمنين كتب إليه أن يبتاع بيت حفصة ، وكان عن يمين الخوخة أى من داخل المسجد ، فقالوا : ما نبيعه بشئ ، قال : إذا أدخله في المسجد ، قالوا : أنت وذاك ، فأما طريقنا فإننا لانقطعها ، فهدم البيت ، وأعطاهم الطريق ووسّعها لهم

وقدما أيضا ما رواه يحيى عن مالك بن أنس من أن الحجاج الثقفي هو الذي ساوم عبيد الله بن عبد الله بن عمر في هذا البيت وهدمه . وفي رواية ليحيى أن عمر بن عبد العزيز لما وصل في العمارة إلى دار حفصة قال له عبيد الله : لست أبيع هذا هو حق حفصة ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسكنها ، فقال عمر : ما أنا بتارككم أو أدخلها المسجد ، فلما كثر الكلام بينهما قال لهم عمر : أجعل لكم في المسجد بابا تدخلون منه ، وأعطيكم دار الرقيق ، وما بقى من الدار فهو لكم ، ففعلوا

وقال المطري : إن الوليد لما حج وطاف في المسجد رأى هذا الباب في القبلة فقال لعمر : ما هذا الباب ؟ فذكر له ما جرى بينه وبين آل عمر في بيت حفصة ، وكان جرى بينه وبينهم فيه كلام كثير ، وجرى الصلح على ذلك ، فقال له الوليد : أراك قد صانعت أخوالك .

وقد قدمنا من رواية ابن زبالة الإشارة إلى هذا ، وقدما من روايته أيضا عن عبد العزيز بن محمد أنه كان يسمع عبيد الله بن عمر يقول : لا أماتني الله حتى أراى سدها .

وتقدم أن تلك الخوخة لم تزل طريق آل عمر إلى دارهم حتى عمل المهدي المقصورة على الرواق القبلي .

قال المطري : فمنعهم الدخول من بابهم ، فجرى في ذلك أيضا كلام كثير تقدمت الإشارة إليه ، اصطلمحوا على سد الخوخة من أعلاها في جدار المسجد ،

وأن يخفضوها في الأرض ويجعلوا على أعلاها في موضع الباب الأول شبك حديد في القبلة ، وحفروها كالسرب ، فتخرج خارج المقصورة في الرواق الثاني من أروقة القبلة ، ولها ثلاث دَرَجَات عند بابها في جَوْف السرب بالمسجد ، وهو الطابق الموجود اليوم ، وعليه قفل من حديد ، ولا يفتح إلا أيام قدوم الحاج للزيارة ، قال المطري : وهي طريق آل عمر إلى دارهم التي تسمى اليوم دار العشرة ، وإنما هي دار آل عبد الله بن عمر ، انتهى .

قلت : وعلى هذا السرب من خارج المسجد باب في جدار المسجد أيضا ، وأمامه دهليز يتوصل منه إلى شارع فيه دور كثيرة سنشير إلى بعضها في ذكر الدور المطيعة بالمسجد .

وقد اختلقوا لتلك الدور أسماء ، حتى قالوا في بعضها : هو بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعضها نسبوه إلى فاطمة ابنته رضى الله تعالى عنها . ويتخذ بعض أهل تلك الدور على ما بلغنى كُحْلًا في نقرة من الجدار ويقولون للحجاج : هذه مكحلة فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها ، ويشيرون أيضا إلى رَحَا عندهم فيقولون : هذه رَحَا فاطمة الزهراء ، أخبرني بذلك من لَبَّسُوا عليه الأمر وأخبروه بهذه الأكاذيب حتى أعطاهم شيئا . ويجلس عند ذلك الطابق بالمسجد شخص ليس هو اليوم من ذرية آل عمر ؛ لأن مَنْ كَانَ بيدهم مفتاح هذا الطابق من آل عمر قد انقرضوا ، وبقيت منهم زوجة هذا الشخص الذي يجلس عند هذا الطابق ، ثم توفيت وتركت أولاداً منه ، فاستمر المفتاح بيده ، فيستنيب مَنْ يجلس عند هذا الطابق ويفتحة أيام الموسم ، ويقف عنده جماعة يُزَوِّرون الحجاج ويأخذون من الداخلين منه شيئا شبيها بالمكس ؛ فإن الجالس عنده لا يمكن أحدا من الدخول منه إلا ببذل شيء يرضيه ، وما حال الحاج الغريب إذا رأى مثل هذا الباب بدرج تحت الأرض في المسجد وقيل له : إنه يصل إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم وبيت ابنته ؟

اتخاذ بعض
الناس بابا
وسيلة للتدجيل

وقد اشتهر ذلك عند أهل المدينة حتى إن أحداً منهم لا ينكره ، فيود الغريب المسكين لو بذل روحه في الوصول لذلك ، وربما لم يكن معه شيء ، فيتجشم المشقة في الوصول لذلك ، فقد أخبرني صاحبنا الشيخ المبارك أبو الجود بركات الجيماني أنه قدم المدينة قديماً قبل أن يجاور بها ، قال : فلم أملك نفسي أن دخلت في هذا الطابق فطبقة الجالس عنده على ظهري حتى كاد يقصمه لأنه لم يُعْطَ شيئاً . وأخبرني هو وغيره ممن أثق به أنه يقع في أسفله من الازدحام واختلاط النساء بالرجال مالا يوصف مع ضيقه ، حتى إن الماشي فيه يحتاج إلى الانحاء .

وأخبرني بعضهم أنه رأى فيه منكرأ شنيعاً ، وهو أن بعض الأحداث يمشي خلف النساء مع الازدحام ، وكون المشي على تلك الهيئة ؛ فيقع ما لا يرضى الله ولا رسوله بين يديه صلى الله عليه وسلم . وكيف يتحدى الناس على إقرار ذلك الآن ؟ وهو ليس إلا لجرد ما ذكرناه ، فإنه كان باباً للدار ، ولأن مَنْ هو بيده لا يملك شيئاً من تلك الدور ، ولو كان مالِكها فليس وضعه لسوى دخول أهل تلك الدور منه ، فإنه لم يجعل إلا ليدخل منه آل عمر إلى المسجد ، لا لأن يأخذوا فلوساً على من يخرج من المسجد ماراً منه ، فقد كانوا منزهين عن ذلك . ثم لو سلمنا أن تلك الدور مستحقة لازيارة فزيارتها متيسرة من خارج المسجد ، وكيف يتخذ المسجد طريقاً ، ويخص منه ما يكون بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم على تلك الحالة المنكرة لأجل شيء خسيس من الدنيا ؟ ونحن نفديه صلى الله عليه وسلم بأنفسنا فضلاً عن أموالنا ، وقد أمر صلى الله عليه وسلم بسد الأبواب التي كانت شائعة في المسجد إلا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ وإلا باب عليّ كما قدمناه ، مع أن أهل تلك الأبواب إنما كان قصدهم بها التوصل إلى المسجد ، فكيف يبقى باب بين يديه صلى الله عليه وسلم لا نفع له إلا أخذ شيء من الحطام على المرور منه ؟ هذا ما لا يرضاه مؤمن يرى تعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

ثم إن هذا الطابق له قفل ، وما حوله من الخشب فيه نوع تنوء ، فقد رأيت من لا أحصيه من الخلق يتعثرون به ، وربما سقط بعضهم لوجهه ، ثم إنه إذا كثر الدوس عليه في ليالي الزيارات كليلة النصف من شعبان ونحوها يرتج تحت الأرجل حتى تزلزل الأرض زلزالها ، وذلك يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قدمنا أن عائشة رضي الله عنها كانت تسمع الوتد يوتد والمسمار يضرب في بعض الدور المطيفة بالمسجد فترسل إليهم لا تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالوا : وما عمل على مضر أعني داره إلا بالمناصع - وهو متبرز النساء ليلاً خارج سور المدينة - توقياً لذلك .

وروى يحيى في كتابه عن محمد بن يحيى بن زيد النوفلي عن أبيه عن الثقة عنده أن عائشة رضي الله عنها ذكرت أن بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم دعت نجاراً فعلق ضبة لها ، وأن النجار ضرب المسمار في الضبة ضرباً شديداً ، وأن عائشة رضي الله عنها صاحت بالنجار وكلمته كلاماً شديداً وقالت : ألم تعلم أن حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ميتة كحرمة حياً ؟ فقالت الأخرى : وماذا سمع من هذا ؟ قالت : إنه ليؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت هذا الضرب اليوم ما يؤذيه لو كان حياً .

حج السلطان
قايتباي

ولم أزل منذ قدمت المدينة أنكر هذا الأمر بالقلب واللسان وكتابة البنان ، ولكن لم أجد على ذلك معيناً ؛ لرسوخ الطباع العامة في التمسك بالعوائد الماضية من غير روية ، وقد نهيت على إنكار ذلك في كتابي « الوفا » بما يجب لحضرة المصطفى « صلى الله عليه وسلم » ، ثم شافهت في أمره مولانا الهمام ، سلطان ممالك الإسلام ، ذا الشجاعة التي شاعت عجائبها ، والشهامة التي ذاعت غرائبها ، سلطان الإسلام والمسلمين ، ووجهة القاصدين والآملين ، السلطان الملك الأشرف قايتباي ، جعل الله الممالك منظومة في سلك ملكه ، وأقطار الأرض جارية في حوزة ملكه ؛ فإنه لما حج سنة أربع وثمانين وثمانمائة بدأ بالمدينة النبوية لزيارة

التربة المصطفوية على الحال بها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات ، فقدمها طلوع
 الفجر من يوم الجمعة الميمون الثاني والعشرين من ذى القعدة الحرام ، فلبس
 لدخولها حلل التواضع والخشوع ، وتحلى بما يجب لتلك الحضرة النبوية من الهيبة
 والخضوع ، فترجّل عن جواده عند باب سورها ، ومشى على أقدامه بين رباها
 ودورها ، حتى وقف بين يدي الجناب الرفيع ، الحبيب الشفيع ، صلى الله عليه وسلم ،
 ونجاه بالتسليم ، وفاز من ذلك بالخط الجسيم ، ثم ثنى بضعيفه رضى الله تعالى
 عنهما بعد أن صلى بالروضة الشريفة التحية ، وعفّر وجهه في ساحتها السنية ،
 وعرض عليه الدخول إلى المقصورة المستديرة حول جدار القبور الشريفة ، المعروفة
 اليوم بالحجرة المنيفة ، فتعاطم ذلك ، وقال : لو أمكننى أن أقف في أبعد من هذا
 الموقف وقفت ، فالجناب عظيم ، ومن ذا الذى يقوم بما يجب له من التعظيم ؟ ثم
 صلى صبح الجمعة في الصف الأول بين فقراء الروضة عند أسطوان المهاجرين بالقرب
 من مصلاى ، كان بينى وبينه إمامه شيخ الشيوخ الإمام العلامة نادرة الزمان
 وعين الأعيان برهان الدين الكركى ، فسبح الله في أجله ، وأدام النفع به ، ولم
 يكن بينى وبينه سابق معرفة ، حتى إنى لم أبدأه بسلام ولا كلام ، وكذلك
 السلطان أعزه الله أنصاره وضاعف اقتداره ، لم أتعرف إليه ، ولم يكن ذلك في
 خلدى ولا عزمت عليه ، ثم توجه السلطان بجماعته لزيارة عم رسول الله صلى الله
 عليه وسلم حمزة بن عبد المطلب ومن يليه من شهداء أحد رضوان الله عليهم ،
 فمشى مترجلاً كعادته ، حتى خرج من باب المدينة ، ولم يزل ذلك دأبه ، فلم يركب
 بالمدينة جواداً حتى خرج منها ، فلما كان وقت صلاة الجمعة حضر في ذلك
 المصلى فكان بينى وبينه إمامه المشار إليه أيضاً ، ثم قرأ شخص على شيخ الحديثين
 العلامة شمس الدين ابن شيخنا أبى الفرج العثماني مجلس ختم البخارى ، وكان
 الإمام المشار إليه تفرّس في الاتصاف بطلب العلم ، ففاتحنى الكلام في بعض
 المسائل العلمية المتعلقة بذلك ، فجاريته فيها ، فرأيت كماله واضح البرهان ،

وفضله ظاهر العنوان ، مع كمال الإنصاف في البحث ، فانتسجت المودة حينئذ ،
ثم قام الإمام المشار إليه ، واستمر السلطان جالسا ، ثم بدأنا بالملاطفة ، وشرفنا بالمحادثة ،
وخاضن في شيء من العلم ، فرأيت من تواضعه وحلمه وثقوب فهمه مافاق الوصف ،
فأنشدته قول بعضهم :

كانت مُسْأَلَةُ الركبَانِ تخبرني عن أحمد بن سعيد أطيبَ الخبر
ثم التقينا ، فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصرى

وأنهيت إليه أمر الطابق المذكور ، وقلت في نفسي : لعل الله تعالى أرسل
هذا السلطان المسعود وجمعني به من غير قصد ليفوز بتزيه الحضرة الشريفة من
ذلك ، ويكون ذلك في صحائفه ، وقد قدمنا ما حاوله الملوك المأضون من سدّه
مع أن المفسد التي قدمناها لم تكن موجودة في زمنهم ، وإنما تركوه كما
قدمناه لما منع ، ولا مانع من سده اليوم بحمد الله تعالى ، فوعد بذلك . ثم وقع
الاجتماع بالإمام المشار إليه فكلّمته في ذلك ، وقلت له : بلغني أن مَن بيده مفتاح
الطابق المذكور يجتمع له في كل سنة نحو عشرة دنائير من هذا الطابق ، ولى
معلوم في جهة هذا قدره في كل سنة ، فأنا أنزل عنه لمن بيده ذلك المفتاح تطيباً
لخاطره ، فذكر ذلك للسلطان ، فقال : نحن نرضيه من عندنا ، ثم إنه نصره الله
تعالى حضر لصلاة المغرب ، ففضل بالبداة بالكلام ، ولم يكن إمامه حاضراً ،
ولكنه سبق منه التريية التامة عنده ، فسألني عن الآية المنقوشة في المصلى
الشريف ، وهي قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك في السماء - الآية) هل نزلت
قبل المعراج وفرض الصلاة أم بعد ذلك ؟ وكيف كان الاستقبال قبل نزولها ؟
فشرعت في الجواب ، فأقيمت الصلاة في أثناء ذلك ، فلما قضى صلاته تنفل بست
ركعات ، ثم أقبل على طالبا للجواب ، فذكرت له تاريخ نزولها بالمدينة ، وما فيه
من الخلاف ، وأن فرض الصلاة ليلة في المعراج كان بمكة ، وما ذكره في أمر

استقبال بيت المقدس ، وما حكي من الخلاف في تعدد نسخ القبلة ، وصلاته صلى الله عليه وسلم بمكة بين الركنين اليمانيين جاعلاً الكعبة بينه وبين بيت المقدس ، إلى غير ذلك من الفوائد التي قدمناها في محلها من كتابنا هذا ، واستمرت معه كذلك حتى صلينا العشاء الآخرة ، فحصل منه في ذلك المجلس من الإكرام ما أرجوه به كمال المجازاة من صاحب الحضرة الحبيب الشفيع صلوات الله وسلامه عليه .

وفرق بالمدينة الشريفة مالا جزيلاً ستة آلاف دينار أو أكثر ، ودفع إلى على يد إمامه المشار إليه من ذلك جزءاً وافراً ، وتكلمت معه في رفع مكوس المدينة وتعويض أميرها عن ذلك شيئاً ، فأفهم الوعد به ، وسألني عن أمر دار العباسا التي اشترت له ، وكانت سبباً في قتل القضائي الزكوى تغمده الله تعالى برحمته لعدم السياسة في أخذها ، فأخبرته بحقيقة الحال ، فقال : لم لم تكتب إلى بهذا ؟ فاعتذرت له بعذر قبله ، وتبرأ من جميع ما فعلوا فيها ، ووعد بما يكون فيه صلاح أمرها ، ثم وفي بذلك بعد عوده ، فزادهم مبلغاً كثيراً رَضُوا به ، وتفضل بالتشريف بطلب الكتابة إليه بما يكون فيه صلاح أحوال المدينة والتنبيه على من يَرُدُّها من المحتاجين .

ثم توجه في الرابع والعشرين من الشهر المذكور مصحوباً بالسلامة إلى مكة المشرفة ماشياً على أقدامه بين فقراء المدينة وفقهائها حتى خرج من باب المدينة ، فوقف هناك ، وقرأنا له الفاتحة ، ثم ركب جواده ، أدام الله تأييده وحرصه من الردى ، وأنار له طرق الحق والهدى .

ثم قدمت مكة صحبة الحاج الشامي فوجدته قد سلك بها مسلك التواضع أيضاً ، وتصدق فيها بمال جزيل أكثر مما تصدق بالمدينة الشريفة .

ولما اجتمعت بإمامه المشار إليه بمكة المشرفة تذاكرنا الصدقة الشريفة

بالمدينة الشريفة وعمومها ، وما حصل بها من النفع ، فذكرت له أن أربعة من فقراء المغاربة لم يأخذوا شيئاً لملازمتهم لرباطهم ، وعدم إتيانهم لمن كان يفرق ، وأن شخصاً آخر مستحقاً كنت أود لو حصل له أكثر مما دفع له ، فبلغ ذلك السلطان ، فلما كان في أوسط أيام منى توجهت لوداع الإمام المشار إليه ، فشارك بموادعة السلطان ، فقلت له : أخشى أن يتوهم أن الحجى لقصد آخر ، فقال : لا بد من موادعته ، فتوجهنا إليه فحصل منه من الإكرام ما أطلب له الجزاء عليه من أكرم الأكرمين ، ثم قال : أنتم ذكرتم للإمام كيت وكيت ، فلم ينس ماتقدم ذكره من أمر جماعة الفقراء ، فقلت له : نعم ، فأمر لهم بمائة دينار أقسمها عليهم لكل واحد عشرون ديناراً ، ثم قال : هل بقي أحد ؟ فقلت له : ما أستحضر أحداً ، ورأيت له اهتماماً تاماً بتعميم جيران الحضرة الشريفة ، ووداعنى قائماً وسأل عن أمر الطابق المذكور لما قدمنا مكة ، وأمر بأن لا يفتح ، وأن يسد بعد ذلك ، فلما بلغ ذلك شيخ الخدام بالمدينة الشريفة منع من فتحه عند قدوم الحاج المصرى فى هذا العام ، ولكن بقى سده ، فإن الطريق فى قطع الشر قلع أصوله ، وقد وعد بسده .

وقف السلطان قايىبى لأهل المدينة المنورة
ثم إن السلطان أيدى الله تعالى رجع إلى مصر مصحوباً بتأييد الله ونصره ، فبلغنا أنه أبرز بعد وصوله ستين ألف دينار ليشتري بها أما كن تكون أوقافاً يُحمل ريعها إلى الحضرة الشريفة ، ويعمل بها سماط كسماط الخليل عليه السلام ، وهذا أمر لم يسبقه إليه أحد من ملوك الإسلام ، والمستول من الله تعالى أن ييسر له ذلك .

وقد ألقنا فى الفصل التاسع والعشرين ما برزت به المراسيم الشريفة من إبطال المكوس ، وتعويض أمير المدينة الشريفة عنها ، وأنه وقف أما كن كثيرة يتحصل منها نحو سبعة آلاف وخمسمائة إردب من الحب كل سنة لعمل السماط

المذكور ، وليصرف من ذلك كفاية أرباب البيوت بالمدينة الشريفة ، ثم وصول البهائي أبي البقاء بن الجيعان عظم الله شأنه بجملة من ذلك والصرف والتقرير وعمل السماط على الوجه السابق ، والمرجو من الله تعالى دوام ذلك له ؛ فإن الله تعالى قد أجرى على يديه من الخيرات ما لم يجتمع لأحد من الملوك قبله : فمن ذلك ما تقدم من العمارة بالمسجد النبوي والحجرة الشريفة ، وإبطال هذا الطابق المتقدم وصفه ، ومن العجب أن مَنْ كان بيده هذا الطابق توجه إليه بمصر وسأل أن يمكن من فتحه ، فلم يجبه لذلك ، وقرر له في الذخيرة بضعة عشر ديناراً كل سنة عوضاً عما كان يحصل له منه ، ثم وردت المراسيم الشريفة بالإخبار بذلك ، والأمر بسده ، ولكن شقَّ على بعض أهل الحظوظ النفسية تمام هذا الأمر والمتسبب فيه الفقير الحقير ، فتسبب في تأخيره ، فمات شيخ الخدام إينال الإسحاق ولم يسده ، فلما قدمت مصر عام سبع وثمانين وثمانمائة أنهيت للسلطان أن الطابق لم يسد ، وخشيت أن يغضب بسبب ذلك على بعض الناس ، فاعتذرت بأن موجب التأخير وفاة شيخ الحرم ، فبرزت مراسيمه الشريفة لشيخ الحرم ومتولى العمارة الشمس بن الزمن بسده بالبناء ، بحيث لا يفتح أبداً ، وكان المعاكس في هذا الغرض قد أمال متولى العمارة إليه مع ما سبق في الفصل الثامن والعشرين من إيغار صدره مني ، وكان هذا الطابق قد احترق وارتدم بعد أمر السلطان بسده في حريق سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وأثرت النار في قبوه تأثيراً عظيماً ، فأعادته متولى العمارة وأحكمه ، وجعل له باباً ، فلما وردت عليه المراسيم الشريفة بما سبق على يدي أجاب بأنه يراجع السلطان في ذلك لأن تلك الدور صارت له .

ثم إن شيخ الحرم أنهى إلى السلطان ذلك ، فبرزت المراسيم الشريفة بسده واللوم على تأخيره مع تكرار الأمر بذلك ، فأمره متولى العمارة بتأخير ذلك ليراجع السلطان فيه ، وقال : إنه يجعل تلك الدور مزارات لitim له ما أراده من بقاء ذلك

الطابق ، وتعجب الناس من إقدامه عليه ، ثم بلغ السلطان ذلك مع أمور يطول شرحها؛ فغضب غضباً شديداً وبرز مرسومه بسده والوعيد التام على تأخيرته ، فسده شيخ الحرم بالبناء المحكم من خارج المسجد ، ونزع باب طابقه ، وردمه بالأتربة حتى ساوى أرض المسجد ، ولم يبق له أثر ، وذلك في رابع ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، وسرَّ أهل الخير بذلك ، وتضاعفت أدعيتهم للسلطان نصره الله تعالى . وهذا من أعظم محاسنه .

ومن ذلك إجراء عين خليص بعد انقطاعها مرة بعد أخرى ، وهي من أحسن مَنَاهِل الخبز وأعذبها ، وكذلك بركة الروحاء .

من آثار
قائمتها
بالحرمين
الشريفين

ومن ذلك عمارة مسجد الخيف بعد أن تهدم بأجمعه ، وإنشاء المنارة والسبيل اللذين عند بابه ، وإجراء المعلوم لمن يؤذّن بتلك المنارة ولمن يؤم بالمسجد المذكور .

ومن ذلك إحداث الظل بمقدم مسجد نَمْرَةِ المنسوب لإبراهيم الخليل ، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، وقد كان الحجاج يقاسون به شدة من حر الشمس في ذلك اليوم ، فالله تعالى يظله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .

ومن ذلك إجراء عين عَرَفَةَ من بطن نَعْمَان ، بعد أن دثرت وانمحت معالمها واندرست ، وعمارة بركها ومجاريها ، حتى فاضت الأنهار بأقاصيها وأدانيها ، وأوصلها إلى مسجد نَمْرَةِ ، وأنشأ به صهريجاً يجتمع فيه الماء ، فأذهب بذلك عن الحج الأعظم الظها ، وقد كنت أرى الفقراء في كل سنة في ذلك اليوم لا يسألون غالباً إلا الماء ، وكان من أعز الأشياء هناك ، فلم يبق له طالب ، والله الحمد ، سقاه الله بذلك من حوض الكوثر .

ومن ذلك المدرسة والرباط اللذان عمرهما بمكة المشرفة ، ولا نظير لهما فيها .
ومن ذلك حجه في هذا العام ، فإن ذلك لم يقع لأحد من ملوك مصر من

نحو مائة وخمسين سنة ، وكان آخر من حج منهم الملك الناصر محمد بن قلاوون ، حج ثلاث حجات : أولاها سنة عشر وسبعائة ، وثانيها سنة عشرين ، وثالثها سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة ، ولم يحج أحد بعد ذلك من سلاطين مصر ، وأرجو أن يفسح الله في أجل سلطاننا هذا حتى يدرك ذلك ، ويتم له ما نواه من الخير بالخدمة النبوية .

وقد أنشأ بشغر إسكندرية برجاً عظيماً لم يسبق إليه ، وشحنه بالأسلحة والجند . ولما توجهت إلى زيادة بيت المقدس رأيت له فيه وفيما بين مصر وبينه من الآثار العظيمة ما لم أره من غيره من الملوك من المدارس والمساجد والقناطر ، وهذا المحل لا يحتمل بسط ذلك ، وإنما ذكرنا من آثاره الجميلة ما يتعلق بالحجاز لأنه محل الغرض .

وهو ملك مطاع ، محظوظ ، صبور ، غير عجل ، كثير الحياء والوقار والمهابة ، إذا حاول أمراً لا يشرع فيه ، بل يتأني كثيراً ، ويعظم أهل العلم ويجلهم . وإنما أمتعنا بذكر ذلك هنا ليكون سبباً في حث الواقف على ذلك على الدعاء لهذا الملك السعيد بإنجاح المطالب ، ونيل المآرب ، ولتنبعث همه من جاء بعده من الملوك على أن يقتدى به في الخير فيصنع مثل ما صنعه ، ونسأل الله تعالى أن يفسح في أجله ، فقل أن يأتي بعده مثله .

الفصل الرابع والثلاثون

فما كان مُطِيفاً بالمسجد الشريف من الدور ، وما كان من خبرها ، وجل ذلك من منارل المهاجرين رضي الله تعالى عنهم .

روى ابن سعد في طبقاته عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطَّ الدور بالمدينة ، فخط لبني زُهْرَةَ في ناحية مؤخر المسجد ، فكان لعبد الرحمن بن عوف الحش ، والحش : نخل صغار لا يسقى .

رسول الله
يخط دور
المدينة

وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط الدور ؛ فخط لبني زهرة في ناحية مؤخر المسجد ؛ فجعل لعبد الله وعتبة ابني مسعود هذه الخطة عند المسجد .

وقال ياقوت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة أقطع الناس الدور والرِّبَاع ؛ فخط لبني زهرة في ناحية من مؤخر المسجد ، وكان لعبد الرحمن بن عوف الحش المعروف به ، وجعل لعبد الله وعتبة ابني مسعود الهذليين الخطة المشهورة بهم عند المسجد ، وأقطع الزبير بن العوام بَقِيعاً واسعاً ، وجعل لطلحة بن عبيد الله موضع دوره ، ولأبي بكر الصديق موضع داره عند المسجد ، وأقطع كل واحد من عثمان بن عفان وخالد بن الوليد والمقداد وغيرهم مواضع درهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَطِّع أصحابه هذه القطائع ، فما كان في عقائن الأرض فإنه أقطعهم إياه ، وما كان من الخطط المسكونة العامة فإن الأنصار وهبوه له فكان يقطع من ذلك ما شاء ، وكان أول من وهب له خططه ومنازله حارث بن النعمان وهب له ذلك وأقطعه صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

فأول الدور الشوارع حول المسجد من القبلة دار عبد الله بن عمر بن الخطاب التي فيها الخوخة المتقدم وصفها ، وليست الدار المذكورة اليوم بيد أحد من آل عمر كما قدمناه ، وقد منا أن موضع هذه الدار كان مرّ بدّاً أعطيته حفصة رضي الله تعالى عنها بدل حجرتها لما احتيج إلى إدخالها في المسجد ، وفي رواية أن آل عمر أعطوا بدلها دار الرقيق وما بقي منها .

دار آل
عمر بن
الخطاب

وقال ابن غسان ، فيما نقله ابن شبة : وأخبرني مخبر أن تلك الدار - يعني دار آل عمر - كانت مربداً يتوضأ فيه أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما توفي استخلصته حفصة رضي الله عنها بثلاثين ألف درهم ، فورثها عنها عبد الله بن عمر ؛ فهي التي قال فيها عبد الله في كتاب صدقته : وتصدق عبد الله بداره التي عند المسجد التي ورث من حفصة .

قال : وأخبرني مخبر قال : كان بيت أبي بكر الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم « سدوا عني هذه الأبواب - الحديث » بيد عبد الله بن عمر ، وهو البيت الذي على يمينك إذا دخلت دار عبد الله من الخوخة التي في المسجد ، فتلقاك هناك خوخة في جوف الخوخة التي هي الطريق مَبَوَّبة ، فتلك الخوخة خوخة أبي بكر .

قال : وكانت حفصة ابتاعت ذلك المسكن من أبي بكر مع الدار التي فوق هذه ، أي التي في قبلتها كما سنبينه ، قال : وتصدقت بتلك الدار على ولد عمر . قلت : هذه الرواية الأخيرة ضعيفة كما قدمناه ؛ ولذلك لم يبين قائلها ، ولأنه في دور بني تميم لما ذكر دار أبي بكر التي ورد فيها الحديث المذكور لم يذكر هذه الرواية ، بل اقتصر على الرواية المشهورة في أنها في غربي المسجد ؛ فإن الخوخة الواردة فيها الحديث هي الشارع في رحبة دار القضاء ، ولذلك لما زادوا في المسجد أرادوا محاسناتها ، فجعلوها خوخة شارع هناك ، ولم يجعلوها كبقية أبواب المسجد ، ولأنه جزم في دور أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بأن عائشة رضي الله عنها اتخذت الدار التي يقال لها دار عائشة بين دار الرقيق وبين دار أسماء بنت أبي بكر فتصدقت بها .

قلت : فإن كانت دار الرقيق هي بيت حفصة فبيت عائشة إلى جنبه ، والمعروف عند الناس أن البيت الذي على يمين الخارج من خوخة آل عمر المذكورة هو بيت عائشة رضي الله عنها ، فلعل الاشتباه في نسبته إلى أبي بكر رضي الله عنه نشأ من ذلك ، مع أن الذي اقتضاه كلام المؤرخين أن البيت المذكور عن يمين الخوخة هو بيت آل عمر ، وأن دار عائشة ليست في هذا المحل ، وهذه الدار المذكورة - أعني التي على يمين الداخل من الخوخة - وقف ناظره شيخ الخدام ، وبلغني أن واقفها اشترط أن لا يسكنها متزوج ، وبابها اليوم

شارع فی القبلة ، ولها شباك عن يمين الخوخة لعله كان فی موضع بابها الأول لما كانت الخوخة شارعاً فی الدار المذكورة ، وأما البيت الذی عن يسار الخوخة فوقه أيضاً ناظره شیخ الخدام ، وبابه ليس شارعاً عند الخوخة ، بل بعيد منها فی المغرب ، وهو آخر الدور الآتی ذكرها ، ومقتضى ما سیأتی عن ابن شبة وابن زبالة أن الدار المعروفة اليوم بدار عائشة والدارین اللتین إلى جانبها الغربی فی قبلة المسجد من جملة دار آل عمر ؛ لأنهما قالوا : فی الدور الشوارع من القبلة دار عبد الله بن عمر ، ثم دار مروان الآتی ذكرها ، وأما الدار الثانية التي تقدمت الإشارة إليها فی كلام أبی غسان من دور حفصة فوق هذه فقد ذكرها بقوله : وكانت لحفصة الدار التي بین زقاق عبد العزيز بن مروان الذی أدخل فی دار مروان دار الإمارة و بین زقاق عاصم بن عمر بابها شارع قبالة دیر أطم بنی النجار الذی يدعى فويرعا ، فتصدقت بها علی ولد عمر ؛ فهي بأيديهم صدقة منها .

قلت : وهذا الوصف منطبق اليوم علی دار قاضی الشافعية أبی الفتح بن صالح وما لا صقها من جهة الشام ؛ لأن زقاق عاصم هو الزقاق الشارع باب هذه الدار فيه الآخذ منها إلى جهة القبلة والميضأة ، ولأن فويرعا كان فيما بينها و بین المدرسة الشهابية كما سیأتی بيانه ، وعلى هذا فزقاق عاصم هو الذی فی شاميه ، دخل بعضه فيما حاذی دار مروان ، وبقي منه ما يفرق بین دار آل عمر هذه والدار التي لها الخوخة ، والله أعلم .

دار مروان
ابن الحكم
ثم يلي دار عبد الله بن عمر ذات الخوخة فی قبلة المسجد من غربيه دار مروان بن الحكم ، قال ابن زبالة : وكان بعضها للنحام - یعنی نعیم بن عبد الله من بنی عدی - وبعضها من دار العباس بن عبد المطلب ، فابتاعها مروان فبناها وجعل فيها داراً لابنه عبد العزيز بن مروان ، ثم ذكر خبر أبوابها المتقدم ذكره فی أبواب المسجد .

وروى ابن زبالة في ذيل زيادة عثمان بن عفان رضى الله عنه في المسجد ، عن غير واحد منهم محمد بن إسماعيل عن أبيه أنه كانت فيها نخلات ، فابتاع مروان من آل النحام كل نخلة وموضعها بألف درهم ، وكن ثمانيا أو أثنى عشرة ، فرأى الناس أن مروان قد أغلى ، فلما وجب له البيع عقرهن وبنها دارا فغبطه الناس .

ونقل ابن شبة عن بعضهم أن دار مروان بن الحكم التي ينزلها الولاية إلى جنب المسجد - يعنى الدار المذكورة - كانت مربدا لدار العباس التي دخلت في المسجد ، فابتاعها مروان ، فسمعت من يقول : كانت القبة التي كانت في دار مروان وحجرتها التي تلى المسجد عن يسار مَنْ دخل الدار للنحام أخى بنى عدى بن كعب ، وكانت فيها نخلات ، فابتاعها مروان من النحام بثلاثمائة ألف درهم ، وأدخلها في داره ، فذلك الموضع ليس من المربد الذى ابتاع من العباس

وذكر ابن شبة في موضع آخر أن دار مروان صارت في الصوفاى ، أى لبيت المال .

قلت : وفي موضعها اليوم كما قدمناه الميضاة التي في قبلة المسجد عند باب السلام ، وما في شرقها إلى دور آل عمر ، قال ابن زبالة وابن شبة : وإلى جنبها - يعنى دار مروان - في المغرب دار يزيد بن عبد الملك التي صارت لزبيدة ، وكان في موضعها دار لآل أبي سفيان بن حرب ، كانت أشرف دار بالمدينة بناء وأذهب في السماء . ودار كانت لآل أبي أمية بن المغيرة ، فابتاعها يزيد ، وأدخلها في داره ، وهدمها ، وكان بعض أهل المدينة وفد على يزيد بن عبد الملك وقد فرغوا من بناء داره ، فسأله عنها ، فقال : ما أعرف لك أصلحك الله بالمدينة دارا ، فلما رأى ما في وجهه قال : يا أمير المؤمنين ، إنها ليست بدار ، ولكنها مدينة ، فأعجب ذلك يزيد .

قلت : وفي موضع هذه الدار اليوم ما يقابل الميضة في المغرب من دار
الأشراف العباسا والدار الملاصقة لها في المغرب المشترأتين للسلطان ، وقد أضافوا
إليهما ما في قبلتهما من الدور .

دار رباح
ودار المقداد

وقد ذكر ابن شبة أن رباحا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ دارا
على زاوية دار يزيد بن عبد الملك الغربية اليمانية ، وأن المقداد بن الأسود حليف
بني زهرة اتخذ دارا بين بيت رباح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين
زقاق عاصم ، فتكون هذه الدار على زاوية دار يزيد الشرقية اليمانية ، وبها من
جملة ما اشترى للسلطان اليوم . وبين الميضة وبين هذه الدور زقاق لعلة متصل
بزقاق عاصم بن عمر ، إلا أن ابن زبالة وابن شبة لم يذكرهما ، قالا : ثم وجاه
دار يزيد دار أويس بن سعد بن أبي سرح العامري . قال ابن شبة في هذه الدار :
أخبرت أنها كانت لمطيع بن الأسود فنقل بها العباس إلى الدار التي بالبلاط
يقال لها دار مطيع ، وزاده عشرة آلاف درهم ، ثم باعها العباس من عبد الله بن
سعد بن أبي سرح بثلاثين ألف درهم ، فسكنها بنو أخيه : فهي الدار التي
يقال لها دار أويس عند دار يزيد بن عبد الملك بالبلاط ، وقد سمعنا من يذكر
أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطع مطيعا داره تلك ، فالله أعلم أي ذلك كان .

قلت : وموضع دار أويس اليوم المدرسة الباسطية التي أنشأها القاضي
عبد الباسط سنة بضع وأربعين وثمانمائة ، وما في شرقها من مؤخر المدرسة المعروفة
اليوم بالحصن العتيق المتقدم ذكرها ، فذلك كله يواجه دار يزيد المذكورة ،
ويفضل بينهما بلاط باب السلام .

دار مطيع
ابن الأسود

قالا : ثم إلى جنب دار أويس - أي في المغرب - دار مطيع بن الأسود
العدوي ، أي المتقدم ذكر قصتها وأنها كانت للعباس رضي الله تعالى عنه ، قال
ابن شبة : ويقال لها دار أبي مطيع ، وعندها أصحاب الفاكهة ، وزاد في قصتها
أنه بلغه أيضا أن حكيم بن حزام ابتاعها هي وداره التي من وراءها بمائة ألف

درهم ، فشركة ابن مطيع ، فقاومه حكيم ، فأخذ ابن مطيع داره بالثمن كله وبقيت دار حكيم في يده ربحا ، ف قيل لحكيم : خذك ، فقال : دار بدار ومائة ألف درهم ، وكان يقال لدار أبي مطيع العنقاء ، قال لها الشاعر :

* إلى العنقاء دار أبي مطيع *

وبين يدي دار أبي مطيع أبيات ليزيد بن عبد الملك فيها الغسالون ، يقال : إن يزيد كان ساوَمَ آلَ مطيع بدارهم ، فأبوا أن يبيعوها ، فأخذت عليهم تلك البيوت ، فسَدَ وجه دارهم ، فهي تدعى أبيات الضرار ، وهي مما صار للخيزران .

قلت : وموضع دار أبي مطيع اليوم الدار التي في غربي المدرسة الباسطية التي اشتراها وكيل الخواجا ابن الزمن ، وفي غربيها سوق المدينة اليوم ، وهو من البلاط ، وموضعه عندها هو المراد بقول ابن شبة : وعندها أصحاب الفاكة ، فكان الفاكة كانت تباع فيه حينئذ .

وأما دار حكيم التي ذكر أنها من ورائها فمحلها اليوم الدار التي في شامي هذم الدور التي عندها درج العين بالسوق المذكور ، قال ابن شبة في دور بني أسد : واتخذ حكيم بن حزام داره الشارع على البلاط إلى جنب دار مطيع ابن الأسود ، بينها وبين دار معاوية بن أبي سفيان ، يحجز بينها وبين دار معاوية الطريق ، ومراده بالبلاط الموضع الذي به سوق المدينة اليوم أمام المدرسة الزمنية الممتد منها إلى الشام .

وقوله « يحجز بينها - أي دار حكيم ودار مطيع - وبين دار معاوية الطريق » أي البلاط المذكور ؛ فالظاهر أن دار معاوية هذه هي المقابلة لها بين الدارين في المغرب ، وهناك في مقابلتها اليوم رباط جدد أنشأه الفخرناظر الجيوش بمصر سنة تسع عشرة وسبعمائة بابه شارع في سوق المدينة اليوم ودار خربة .

وقال ابن شبة أيضا في دور بني عدى بن كعب : اتخذ العمان بن عدى داره

التي صارت لمحمد بن خالد بن برمك وبنائها ، وفي الشارع عند الخياطين بالبلاط عند أصحاب الفاكة ابتاعها من آل النحام وآل أبي جهم ، وكانت صارت لهم موارث ، انتهى .

ومحل هذه الدار إما الدار الخربة التي إلى جانب الرباط الشارع في السوق ، أو المدرسة الزمنية ، والله أعلم .

وانرجع إلى ذكر الدور المطيفة بالمسجد .

قال ابن شبة : وفي غربي المسجد دار عبد الله بن مكل الشارع في رحبة القضاء ، وهي مما يتشاءم به ، وذلك مما نشأ عن بنائها .

دار عبد الله
ابن مكل

وقال في دور بني زهرة : كان عبد الرحمن بن عوف وهبها لابن مكل ، فباعها آل من المهدي ؛ فهي بأيدي ولده اليوم خراب إلى جنب المسجد ، أي قبل أن تبنى رحبة القضاء .

قال : وهي التي يقولون : إن أهلها قالوا : يا رسول الله ، اشتريناها ونحن جميع ففترقنا ، وأغنياء فافتقرنا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أتركوها فهي ذميمة .

وقال ابن زبالة : هي التي يجلس إلى رُكَّعِهَا^(۱) صاحبُ الشرط ، وإليها أصحاب الفاكة ، وهم يهابون بناءها ويتشاءمون بها ؛ فهي على حال ما اشترت عليه .

وقد تَرَجَّم في الموطأ لما يتقى من الشؤم ، وروى فيه عن يحيى بن سعيد أن امرأة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، دار سكنناها والعدد كثير والمال وافر فقل العدد وذهب المال ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دَعُوهَا ذَمِيمَةٌ » ورواه البزار بنحوه عن ابن عمر ، إلا أنه قال فيه : إن قرما جاؤا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وزاد فيه : فقالوا: يا رسول الله كيف ندعُها ؟ قال « يبعوها أو هبوها » .

(۱) رُكَّعِهَا أي جانبها .

وقال البزار : أخطأ فيه صالح بن أبي الأخضر ، والصواب أنه من مُرَمَّلَات عبد الله بن شداد ، وروى الطبرانی نحوه عن سهل بن حارثة الأنصاري ، وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب وثقه ابن حبان وغيره وضعفه جماعة .

قلت : وفي موضع دار ابن مكل اليوم المدرسةُ المعروفة بالجوبانية من بابها إلى آخر رباطها الذي في غربها ، بل يؤخذ مما سبق عن ابن زبالة من جلوس أصحاب الفاكهة إليها كانت تمتد إلى سوق الصواغين اليوم ؛ لما تقدم من بيان أصحاب الفاكهة ، ولما سيأتى في الدار التي بعدها .

دار النحام

وفي المغرب أيضاً دار النحام العدوى . وعبارة ابن زبالة وابن شبة : وفي غرب المسجد دار ابن مكل ودار النحام ، الطريقُ بينهما قدر ستة أذرع .

وقال ابن شبة في دور بني عدى : واتخذ النحام نعيم بن عبد الله داره التي بابها وجاه زاوية رحبة دار القضاء ، وشرقيها الدار التي قبضت عن جعفر بن يحيى ابن خالد بن برمك التي كانت بيت عاتكة بنت يزيد بن معاوية فهي بيد ولده على حوز الصدقة .

قال : وأخبرني مخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم حازها له قطعة منه .

قلت : ودار جعفر المذكورة هي المواجهة لباب الرحمة ؛ فلم بذلك أن دار النحام هذه كانت في مقابلة باب المدرسة الجوبانية المتقدم ذكرها في بيان رحبة القضاء عند ذكر باب زياد ، وأن الطريق التي بين دار النحام ودار ابن مكل هي البلاط الآخذ من باب الرحمة إلى السوق ، وعلم بذلك أن رحبة القضاء كانت تمتد من جهة باب الرحمة إلى باب الجوبانية .

دار جعفر ابن يحيى

ثم إلى جنب دار النحام دار جعفر بن يحيى التي دخل فيها بيت عاتكة بنت يزيد بن معاوية . وأطم حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه المسمى بفارغ .

قلت : وقد تقدم بيان محلها في باب الرحمة ، وأنه اليوم هو البيت المواجه

لباب الرحمة ، وهو كان موضع بيت عائكة ، وما في شاميه من المدرسة الكبرجية وهو موضع الأطم .

دار نصير

ثم إلى دار جعفر بن يحيى دار نصير صاحب المصلى ، كانت بيتا لسكينة بنت الحسين بن على رضى الله عنهم ، ثم إلى جنبها الطريق إلى دار طلحة بن عبيد الله ستة أذرع .

قلت : وقد تقدم في أبواب جهة المغرب أن في محل دار نصير اليوم الدار المعروفة بتميم الدارى ، والتي في شاميهما إلى الطريق التي تدخل منها إلى دور القياشين التي صارت للخواجا قاوان ، وهذه الطريق هي المرادة هنا ، وتلك الدور هي دور طلحة بن عبيد الله ، وفي شرفها دار منيرة الآتى ذكرها .

قال ابن شبة في دور بنى تيم : واتخذ طلحة بن عبيد الله داره بين دار عبد الله بن جعفر التي صارت لمنيرة وبين دار عمر بن الزبير بن العوام ، ففرقها ولده من بعده ثلاثة أدور ، فصارت الدار الشرقية اللاصقة بدار منيرة ليحيى ابن طلحة ، وصارت التي تليها لعيسى بن طلحة ، وصارت الأخرى لإبراهيم ابن محمد بن طلحة .

قلت : ودار عمر بن الزبير التي في غربى دار طلحة ملاصقة لدار عروة ابن الزبير ، قال ابن شبة : اتخذها الزبير وتصدق بهما عليهما وعلى أعقابهما ، وهما متلازقتان عند خوخة القوارير ، انتهى .

وفي نهاية الطريق إلى دور القياشين خوخة كانت شارة في المغرب عند سوق العطارين ، الظاهر أنها المراد بخوخة القوارير .

دار منيرة مولاة أم موسى

ثم إلى جنب الطريق إلى دور طلحة دار منيرة مولاة أم موسى ، كانت لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

قلت : وقد بينا محلها في أول أبواب المسجد من جهة المغرب ، ويستفاد منه أنها كانت من طريق دور القياشين إلى ما يحاذى نهاية المسجد .

ثم إلى جنبها خوخة آل يحيى بن طلحة .

قلت : وهناك اليوم زقاق لطيف خلف القرن المحاذى لقرب مؤخر المسجد من المغرب ، يعرف بزقاق عاتقيني ، هو المراد بذلك ؛ لأن بعض الدور التي فيه يسلك منها إلى دور القياشين التي هي دور طلحة .

ثم إلى جنب خوخة آل يحيى بن طلحة حش طلحة بن أبي طلحة الأنصاري وهو اليوم خراب صوافي عن آل ابن برمك .

قلت : والظاهر أن في محله اليوم القرن المتقدم ذكره وما حوله . وقد قدمنا في زيادة المهدي ما ذكره ابن شبة في إدخاله صدر دار آل شرحبيل ابن حسنة التي كانت لأم حبيبة رضي الله تعالى عنها في مؤخر المسجد . قال ابن شبة عقب ذلك : ثم باعوا بقيتها من يحيى بن خالد بن برمك فهدمها حين هدم حش طلحة ، ثم صارت برّاحا في الصوافي ، ثم بنى في موضعها الناس بأكثر من أصحاب الصوافي ؛ فعلم بذلك أن حش طلحة كان ينعطف على المسجد من جهة الشام ، وسيأتي في ذكر البلاط ما يصرح بذلك ، والظاهر أن بقية دار شرحبيل من الحش المذكور هو ما حاذى الميضاة التي في شامي المسجد من المغرب ، بدليل ما سيأتي ، والله أعلم .

ثم إلى جنب حش طلحة الطريق خمسة أذرع .

قلت : وهذه الطريق هي التي في شامي الميضاة المتقدم ذكرها ، يتوصل منها إلى رباط الشيخ شمس الدين الششتري .

ثم إلى جنب الطريق أبات خالصة مولاة أمير المؤمنين ، وهي دار حباب أبات خالصة مولى عتبة بن غزوان .

قلت : وفي موضعها اليوم دار أحد رئيسي مؤذني المسجد ، وما يليها من المارستان الذي أنشأ المنتصر بالله ، وما يليه من رباط الظاهرية ، كما تقدم في ذكر أبواب المسجد .

دار حمید بن عبد الرحمن بن عوف ، وہی صدقہ .
ثم إلى جنب أبيات خالصة دار أبي الغيث بن المغيرة بن حميد بن عبد الرحمن

وذكر ابن شبة في دور بني زهرة أن من دور عبد الرحمن بن عوف التي
اتخذها الدار التي يقال لها الدار الكبرى دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف
بحسب طلحة .

قال : وإنما سميت الدار الكبرى لأنها أول دار بناها أحد من المهاجرين
بالمدينة ، وكان عبد الرحمن يُنزل فيها ضيفان رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فكانت أيضاً تسمى دار الضيفان ، فسرق فيها بعض الضيفان ، فشكا ذلك
عبد الرحمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بنى فيها النبي صلى الله عليه وسلم
بيده فيما زعم الأعرج ، وهي بيد بعض ولد عبد الرحمن بن عوف .

قلت : وهي غير دار عبد الرحمن بن عوف المعروفة بدار مليكة التي تقدم
أنها دخلت في المسجد .

وفي شامي المسجد اليوم مما يلي الشرق دار تعرف بدار المضيف ، فلعل تسميتها
بذلك لكونها في موضع دار الضيفان المذكورة ، لكن ذكر الدار الآتية بعدها
قبل جهة المشرق يبعد ذلك ، فكان الجانب الغربي من دار المضيف وما حوله
في المغرب من الساباط وبعض رباط الظاهرية في موضع الدار المذكورة .

ثم إلى جنب دار أبي الغيث بقية دار عبد الله بن مسعود ، كانت لجعفر
ابن يحيى ، وقد قبضت صافية عنه .

قلت : قد قدمنا أنها كانت تدعى دار القراء ، وأن بعضها دخل في زيادة
الوليد ، وبقيتها في زيادة المهدي ، فكان المراد بعض بقيتها ، بدليل ما هنا ،
ومع ذلك فأنا أستبعد أن يبقى منها بقية في جهة الشام ، سيما إذا كان المهدي قد
زاد مائة ذراع .

ثم يضاف لذلك ما زاده الوليد منها ، وعرض الرحبة التي في شامي المسجد ،

وأيّ دار يكون طولها هذا المقدار فضلا عن أن يبقى بعد ذلك منها بقية؟ وموضع ما وصفوه اليوم هو ما يلي المشرق من الدار المعروفة بدار المضيف المتقدم ذكرها، والله أعلم .

دار موسى
المخزومي

قال ابن زبالة وابن شبة : ثم من المشرق دار موسى بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي ، كان ابتاعها هو وعبيدُ الله ابن حسين بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، فتقاوماها ، فظن عبيدُ الله أن موسى لا يريد إلا الربح ، فأسلمها عبيد الله فصارت لموسى .

قلت : وظاهر ذلك أن الدار المذكورة أول جهة المشرق مما يلي الشام ، وفي موضعها اليوم - كما قدمناه في ذكر أبواب المسجد - بيتُ بعض رئيسي المؤذنين الذي يلي دار المضيف ، وما يليه من الميضاة المعطلة اليوم ، وبين ذلك وبين دار المضيف زقاق يعرف بخرق الجمل يتصل إلى الدور الملاصقة لسور المدينة ، وأعله المعروف قديما بزقاق جمل ؛ فإن ابن شبة ذكر أن فاطمة بنت قيس اتخذت دارا بين دار أنس بن مالك وبين زقاق جمل ، ودارُ أنس بن مالك ذكر أنها في بني جديلة ، وهي في شامى سور المدينة .

ثم إلى جنب دار موسى أبياتُ قهطم دار موسى ودار عمرو بن العاص ، وهي - يعني دار عمرو - صدقة من عمرو ، وهي اليوم صوافى : أي أبيات قهطم ، هذه عبارة ابن شبة .

وعبارة ابن زبالة « وإلى جنبها أبيات فيها قهطم ، وهو صوافى » .

والطريق بين دار موسى بن إبراهيم وبين دار عمرو بن العاص السهمى ، وهي اليوم لهم صدقة .

قلت : وأبيات قهطم هي التي سماها ابن زبالة في ذكر الكتابة على أبواب أبيات الصوافى المسجد أبيات الصوافى ، وسمى الطريق التي ذكرها هنا بزقاق المناصع ، لكن

کلام ابن شبة يقتضى كون أبيات قهطم المذكورة بين دار موسى وبين دار عمرو بن العاص ؛ فتكون الطريق المذكورة بين أبيات قهطم وبين دار عمرو ابن العاص ، فلنحمل كلام ابن زبالة على ذلك ، ويكون قوله « والطريق بين دار موسى » يعنى وما يليها من أبيات قهطم وبين دار عمرو بن العاص .

وقد قدمنا أن فى محل أبيات الصوافى رباط الفاضل والدار المعروفة بدار الرسام وقف السلامى والباب الذى يدخل منه إلى رباط السلامى ، وموضع دار عمرو بن العاص اليوم مؤخر رباط السبيل الذى يسكنه الرجال ، وهو مما يلى الشام منه ، والطريق التى بينه وبين رباط الفاضل هى زقاق المناصع ، وليست اليوم نافذة كما تقدم ؛ ويؤخذ مما قدمناه فى زيادة المهدي أنه كان عندها رحبة تسمى برحبة المشارب ، والله أعلم .

دار خالد
ابن الوليد

ثم إلى جنب دار عمرو دار خالد بن الوليد . قال ابن شبة وابن زبالة : وهى بيد بنى أتوب بن سلمة - يعنى ابن عبد الله بن الوليد بن المغيرة - زاد ابن زبالة : أن أيوب بن سلمة اختصم فيها هو وإسماعيل بن الوليد بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة ، يقول أيوب : هى ميراث وأنا أرضها دونكم بالقعد ، أى لأنه أقرب عصوبة ، ويقول إسماعيل : هى صدقة ، أى فیدخل فيها القريب وإن بُعد ، فأعطىها أيوب ميراثاً بالقعد ، انتهى

وهذا لأن أيوب المذكور كما ذكر ابن حزم وارث آخر من بقى من ولده خالد بن الوليد ، قال : لانقرض ولد عمه خالد بن الوليد كلهم . قال : وكان قد كثر ولد خالد بن الوليد حتى بلغوا نحو أربعين رجلاً ، وكانوا كلهم بالشام ، ثم انقرضوا كلهم فى طاعون وقع فلم يبق لأحد منهم عقب ، انتهى . وروى ابن زبالة عن يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه قال : شكنا خالد بن الوليد ضيق منزله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له « ارفع البناء فى السماء وسَلِ الله السَّعة » ورواه ابن شبة ، إلا أنه قال : فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « اتسع

في السماء » وذكر من رواية الواقدي أن خالد بن الوليد حبس داره بالمدينة لا تباع ولا توهب .

قلت : وفي موضعها اليوم مقدم رباط السبيل المتقدم ذكره ، وذلك يدل على صغرها ، بخلاف غيرها من الدور ، ولذلك شكاً ضيقها ، والله سبحانه وتعالى أعلم .
ثم إلى جنبها دار أسماء بنت الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، وكانت من دار جبلة بن عمر الساعدي .

دار أسماء
بنت حسين

قلت : وقد قدمنا ذكر حالها ، وبيان محلها ، في خامس أبواب المسجد .
ثم إلى جنبها دار ربيعة بنت أبي العباس ، وكانت من دار جبلة ودار أبي بكر الصديق ، قاله ابن زبالة .

دار ربيعة

قلت : مراده أنه أدخل في دار ربيعة من شرقيها ما يليها من دار أبي بكر الصديق [لا] أن دار أبي بكر كانت على سمتها في محاذة المسجد ، كما توهمه المطري فجعل دار ربيعة هي دار أبي بكر ، وأنها المدرسة المقابلة لباب النساء كما قدمناه عنه ، والصواب أن دار أبي بكر كانت خلف المدرسة المذكورة في جهة المشرق ؛ لأن ابن شبة قال في دور بني تميم : اتخذ أبو بكر رضي الله تعالى عنه داراً في زقاق البقيع قبالة دار عثمان رضي الله عنه الصغرى ، وذكر أن دار عثمان الصغرى هي التي بنحو زقاق البقيع إلى جنب دار آل حزم الأنصارين . وذكر في خبر مقتل عثمان رضي الله عنه ما يقتضي أن هذه الدار الصغرى كانت متصلة بداره الكبرى الآتي ذكرها ، وأن قتلته تسوروا ودخلوا عليه منها . وفي موضعها اليوم الرباط المعروف برباط المغاربة ، ويعرف برباط سيدنا عثمان ؛ فلم بذلك أن دار أبي بكر كانت في مقابلة ذلك من جهة الشام ؛ فتكون في محل الدور التي في شرقي المدرسة المذكورة إلى ما يحاذي الرباط المذكور ، ولا يبعد أن يكون بعضها دخل في المدرسة المذكورة ، ودار أبي بكر هذه هي المرادة بما رواه ابن سعد في طبقاته عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه مرض مرضه الذي

الذى مات فيه وهو نازل يومئذٍ في داره التى قَطَعَ له النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاه دار عثمان بن عفان ، أى الصغرى . والله أعلم .

ثم الطريق بين دار رَيْطَةَ وبين دار عثمان - يعنى العظمى - خمسة أذرع ، قاله ابن زبالة وابن شبة . ونقل المطرى عن ابن زبالة أن الطريق بينهما سبعة أذرع ، والذى ذكره ابن زبالة ما قدمناه ، وهى اليوم نحو ذلك ، ويعرف بطريق البقيع .

ثم دار عثمان رضى الله عنه . وروى ابن سعد فى طبقاته عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : لما أقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الدورَ بالمدينة خَطَّ لعثمان بن عفان داره اليوم ، ويقال : إن الخُوخَةَ التى فى دار عثمان اليوم وجاه باب النبى صلى الله عليه وسلم التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج منها إذا دخل بيت عثمان ، هذا لفظ ابن سعد .

قلت : وهذه الدار هى التى عبر عنها ابن شبة بقوله « واتخذ عثمان رضى الله عنه داره العظمى التى عند موضع الجنائز فتصدق بها على ولده فهى بأيديهم صدقة » وقد قدمنا أن فى محلها اليوم رباط الأصفهاني وتربة أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين بن أيوب ومعه فيها والد صلاح الدين أيضاً ، والدار التى يسكنها مشايخ الخدام .

ثم بعد دار عثمان فى القبلة الطريق خمسة أذرع ، أو نحو ذلك ، ثم منزل أبى أيوب الأنصارى الذى نزل به النبى صلى الله عليه وسلم ، وابتاعه المغيرة بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ، وجعل فيه ماء الذى يسقى فى المسجد .

قلت : قد قدمنا فى الفصل الرابع عشر من الباب الثالث شرح حال هذه الدار ، وأن الملك المظفر شهاب الدين غازى اشترى عَرَصَتَهَا وبنّاها مدرسة ووقفها على المذاهب الأربعة .

دار جعفر
الصادق

ثم إلى جنب منزل أبي أيوب دار جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم التي يُسْتَقَى فيها الماء ، التي تصدق بها جعفر ، وكانت لحارثة بن النعمان الأنصاري .

قلت : في موضعها اليوم العرصة الكبيرة التي في قبلة المدرسة الشهابية ، وفيها محراب قبلة مسجد جعفر الصادق وأثر محاريب ، وهي الآن ملك الأشراف المنايفة ، ثم انتقلت منهم لاشجاعى شاهين الجمالى شيخ الحرم . ابتناها مسكننا له .

دار حسن
ابن زيد

وقبالتها - أى في المغرب - دار حسن بن زيد بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم ، وهو أطم كان حسن ابتاعه فخاصمه فيه أبو عوف النجّارى ، فهدمه حسن ، فجعله دارا .

قلت : وهو الأطم الذى يدعى بفويرع ، وفي موضع هذه الدار اليوم بيت الأشراف المنايفة الذى عليه مآبأط متصل بالمدرسة الشهابية ، والبيت الذى في قبلته وما في غربيها إلى دار القضاة بنى صالح .

دار فرج الخصى

والطريق خمسة أذرع بينها - أى بين دار حسن المذكورة - وبين دار فرج الخصى أبي مسلم مولى أمير المؤمنين ، وكانت دار فرج من دور إبراهيم بن هشام ، وهي قبلة الجنائر ، كان فيها سرب تحت الأرض يسلكه إبراهيم إلى داره دار التماثيل التي كان ينزل بها يحيى بن حسين بن زيد بن علي .

قلت : أما الطريق المذكورة فهي الآخذة من باب المدرسة الشهابية إلى بيت بنى صالح ، ودار فرج المذكورة هي الرباط المعروف برباط مَرَاغَة ، والطريق المذكورة بينه وبين دار المنايفة ، وأما دار التماثيل التي كان يتوصل إليها ابن هشام بالسرب المذكور فلم يبينها ابن زبالة ولا ابن شبة ، غير أنه كان شخص شرع في عمارة الميضاة التي بباب السلام المتقدم ذكرها في دار مروان فوجد سربا تحت الأرض مقبواً عند ركنها القبلى مما يلي المغرب ، وعنده باب الخربة المعروفة

بدار الخرازین ، وشرعوا فی عمارتها - أی دار الخرازین - بدلا من رباط الحصن العتيق . وقد دخلتها قبل هدمها ، فرأيت فيها صناعات غريبة فی البناء من صناعات الأقدمین ، فترجّح عندی بقرينة وجود السرب عندها ووجود ذلك بها أنها المرادة بدار التماثيل ، والله أعلم .

ثم إلى جنب دار فرج الخصى دار عامر بن عبد الله بن الزبير بن العوام ، وكان ابن هشام - حين بنى داره - أخذ بعض حق عامر ، فقال له عامر : فأين طريقى ؟ قال : فى النار ، قال عامر : تلك طريق الظالمين .

قلت : وموضعها اليوم البيت الموقوف الذى بيد الخدام ، وهو عن يسار الخارج من خوخة آل عمر ، ويسمونه اليوم بيت النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم ترجع إلى دار عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنه من حيث ابتدأت . قلت : وذكر ابن شبة فى دور بنى هاشم أن حمزة بن عبد المطلب رضى الله تعالى عنه اتخذ الدار التى صارت لآل فرافصة الحنفيين ولآل وردان حبر زقاق عاصم بن عمر ، اه .

وقد تقدم فى ذكر سدّ الأبواب إلا ما استثنى ما يقتضى أن حمزة رضى الله تعالى عنه كان له طريق إلى المسجد ، وتقدم بيان زقاق عاصم ؛ فتحصل من ذلك أن دار حمزة رضى الله تعالى عنه كانت فى قبلة المسجد ، وهى غير معلومة المحل ، والله أعلم .

الفصل الخامس والثلاثون

فى البلاط ، وبيان ما ظهر لنا مما كان حوله من منازل المهاجرين وقد بَوَّبَ البخارى فى صحيحه لمن عَقَلَ بعيره على البلاط أو باب المسجد ، وأورد فيه حديث جابر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ، فدخلت إليه ، وعَقَلْتُ الجمل فى ناحية البلاط ، وبَوَّبَ أيضا للرجم بالبلاط ، وأورد فيه

تحديد مكان
البلاط

حديث اليهوديين اللذين زَنَيَا ، قال ابن عمر : فرجما عند البلاط . وفي رواية لابن عمر : قَرَّجَمَا قَرِيبَا مِنْ مَوْضِعِ الْجَنَازَةِ .

وعند أحمد والحاكم من حديث ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجرم اليهوديين عند باب المسجد .

وفي الحديث أن عثمان رضى الله تعالى عنه أتى بماء فتوضأ بالبلاط .

وهذا كله مقتضى لأن البلاط كان قديماً قبل ولاية معاوية رضى الله عنه .

وفيما قدمناه ما يبين أنه كان في شرقي المسجد في ناحية موضع الجنائز ، وظاهر كلام ابن زبالة وابن شبة أن أول حدوثه في زمن معاوية رضى الله عنه ؛ فإنهما رَوَيَا عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ : بَلَّطَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ الْبَلَّاطَ بِأَمْرِ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانَ مَرْوَانُ بَلَطَ مَرَّةً أُبَيَّهَ الْحَكَمَ إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَكَانَ قَدْ أَسْنَى وَأَصَابَتْهُ رِيحٌ ، فَكَانَ يَجْرُ رِجْلِيهِ فَيَمْتَلِئَانِ تَرَابًا ، فَبَلَطَهُ مَرْوَانُ بِذَلِكَ السَّبَبِ ، فَأَمَرَهُ مُعَاوِيَةَ بِتَبْلِيطِ مَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا قَارِبَ الْمَسْجِدَ فَفَعَلَ ، وَأَرَادَ أَنْ يَبْلَطَ بِقَيْعِ الزَّبِيرِ فَخَالَ ابْنُ الزَّبِيرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَقَالَ : تُرِيدُ أَنْ تَنْسَخَ اسْمَ الزَّبِيرِ ، وَيُقَالَ : بَلَّاطُ مُعَاوِيَةَ ؟ قَالَ : فَأَمْضَى مَرْوَانُ الْبَلَّاطَ ، فَلَمَّا حَازَى دَارَ عُثْمَانَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ تَرَكَ الرَّحْبَةَ الَّتِي بَيْنَ يَدَيْ دَارِهِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُثْمَانَ : لَبْنُ لَمْ تُبَلَّطْهَا لِأَدْخِيلْنَهَا فِي دَارِي ، فَبَلَطَهَا مَرْوَانُ .

واقصر عياض في بيان البلاط على ما في غربي المسجد منه ، فقال : البلاط

موضع مبلط بالحجارة بين المسجد والسوق بالمدينة ، انتهى .

وقد تبع في ذلك أبا عبيد البكري ، وفيه نظر ؛ لأن مقتضى الأحاديث

المتقدمة إرادة ما في شرقي المسجد منه ، ومع ذلك فهو في شرقي المسجد وغربه

والشام .

وقال ابن شبة : حدثنا محمد بن يحيى قال : حدثنا مَنْ يوثق به من أهل العلم

أن الذي بلط حوالى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة معاوية بن أبي

سفيان رضى الله عنهما ، أمر بذلك مروان بن الحكم ، وولى عمله عبد الملك بن مروان ، وبلط ما حول دار عثمان بن عفان الشارعة على موضع الجنائز .

حدود البلاط وحَدُّ ذلك البلاط الغربى : ما بين المسجد إلى خاتم الزوراء عند دار العباس ابن عبد المطلب بالسوق . وحده الشرقى إلى دار المُغِيرَة بن شُعْبَة رضى الله عنه التى فى طريق البقيع من المسجد . وحده اليمانى إلى حد زاوية دار عثمان بن عفان الشارعة على موضع الجنائز . وحده الشامى وَجْه حش طلحة خلف المسجد ، وهو فى المغرب أيضا إلى حد دار إبراهيم بن هشام الشارعة على المصلى .

وللبلاط أسراب ثلاثة تصب فيها مياه المطر ؛ فواحدٌ بالمصلّى عند دار إبراهيم ابن هشام ، وآخر على باب الزوراء عند دار العباس بن عبد المطلب بالسوق ، ثم يخرج ذلك الماء إلى ربيع فى الجبانة عند الخطابين ، وآخر عند دار أنس بن مالك فى بنى جَدِيلَة عند دار بنت الحارث ، اهـ

ويؤخذ من ذلك أن البلاط كان من المغرب فيما بين المسجد وبين الدور المطيفة به .

ويمتد البلاط الآخر من باب الرحمة إلى أن يصل إلى الصواغ وسوق العطارين اليوم ، ويستمر كذلك إلى حد سوق المدينة الأول عند أحجار الزيت ومشهد مالك بن سنان ؛ فهناك خاتم الزوراء عند دار العباس ، وهو خاتم البلاط ، وذلك ما بين مشهد مالك بن سنان والدور المواجهة له كما سنبينه فى ذكر سوق المدينة ، وهو موجود اليوم فى تلك الجهة .

ويمتد أيضا البلاط الآخذ من باب السلام إلى أن يصل إلى المدرسة الزمنية ، وينعطف لجهة الشام حتى يتصل بالبلاط الممتد من باب الرحمة لجهة سوق الصواغ والعطارين ، وهذا الجانب منه هو الذى تقدمت الإشارة إليه بأن عنده أصحاب الفاكهة .

وفي طبقات ابن سعد عن محمد بن عمرو في دار حكيم بن حزام المتقدم ذكرها فيه أنها عند بلاط الفاكهة عند زقاق الصواغين ، انتهى .

ثم يمتد البلاط الآخذ من باب السلام في الاستقامة من المدرسة الزمنية فيمر بالموضع المعروف اليوم بسويقة ، فيجاوز باب المدينة المعروف بباب سويقة حتى يصل إلى المصلى ، وهذا معنى قوله « وهو في المغرب أيضاً إلى حد دار إبراهيم ابن هشام الشارعة على المصلى » .

وهذه الناحية من البلاط الغربي هي المسماة بخط البلاط الأعظم ، وما كان عن يمين الماشي في هذا البلاط قاصداً باب السلام فهو الذي يعبر عنه بميمنة البلاط الأعظم ، وما كان عن يساره فهو الذي يعبر عنه بميسرة البلاط الأعظم .
وأما البلاط الشرقي فحده من القبلة ظاهر عند زاوية الدار التي يسكنها مشايخ الخدام من دار عثمان وزاوية رباط مراغة .

ومن المشرق يمتد في زقاق البقيع إلى خارج باب رباط المغاربة عند ما يعطف من آخر الدور التي قدمنا أنها في محل دار أبي بكر رضى الله عنه المقابلة لرباط المغاربة ، ولعل دار المغيرة بن شعبة هي التي تواجهك حين تعطف هناك ، ثم تكون على يسارك وأنت ذاهب إلى البقيع في مقابلة الرباط المعروف برباط الصادر والوارد ، ولعل البلاط كان متصلاً بها .

وقد قال ابن شبة في دور بني عبد شمس : إن عثمان رضى الله تعالى عنه اتخذ أيضاً دار المغيرة بن شعبة التي بالبقيع فعارض المغيرة إلى دار عثمان بن عفان التي يقال لها دار عمرو بن عثمان التي بين دار المغيرة بن شعبة اليوم وبين دار زيد ابن ثابت من الأنصار ، انتهى .

فدار المغيرة التي ناقل بها عثمان ليست المرادة ؛ لأنه قال فيها « إنها بالبقيع » وذكر في هذه التي حدد بها البلاط أنها بزقاق البقيع .

وأيضاً قد قدمنا قول محمد بن عقيل في خبره في سقوط جدار الحجرة « حتى

إذا كنت عند دار المغيرة بن شعبة لقيتني رائحة لا والله ما وجدت مثلها قط » فإنه يدل على قرب دار المغيرة من المسجد .

وأيضاً فمن الشائع بين الناس اليوم نسبتهم إلى عثمان رضي الله تعالى عنه الدار التي في شرقي الدار التي قلنا لعلها دار المغيرة بينها وبينها سباط ، ولعلها التي كانت لعثمان وتناقل بها المغيرة إلى داره التي بالبقيع ، وقد قال في وصفها « إنها بين دار المغيرة اليوم ودار زيد بن ثابت » فتكون دار زيد بن ثابت هي التي تلي ذلك في المشرق أيضاً على يسار الذهاب إلى البقيع ، وما عن يمينه مما يلي رباط المغاربة دور آل حزم من الأنصار .

وقد قل ابن شبة : إن عتبة بن غزوأن حليف بني نوفل بن عبد مناف اتخذ داره التي بالبقيع إلى شرقي دور آل حزم الأنصار ؛ فتكون على يمين الذهاب إلى البقيع بعد دور آل حزم .

فأما البلاط الشامي فمحله ظاهر بين المسجد والدور التي قدمناها في شاميه ، لكن حدث فيه دور لاصقة بالمسجد بعد سد الأبواب التي في تلك الجهة كما قدمناه .

وأما ما ذكره ابن شبة من أن الماء الذي يصب في السرب الذي بالمصلى والسرب الذي عند دار العباس يخرج إلى ربيع في الجبانة عند الخطابين فالمراد أنه يخرج إلى الربيع المذكور في شامى سوق المدينة عند سوق الخطابين قرب ثنية الوداع ، لما سيأتى في ترجمة الجبانة .

وقوله « إن السرب الآخر عند دار أنس بن مالك في بني جديلة عند دار بنت الحارث » فأما دار أنس فلم يتحرر لي معرفتها ، غير أنه سيأتى في بئر - وكانت في داره - ما ترجح عندنا في محلها ؛ فيؤخذ منه أن داره كانت عند البئر المعروفة اليوم بالرباطين خلف الحديقة المعروفة بالرومية في شامى سور المدينة . وأما دار بنت الحارث فلم أعلم محلها ، وعلى ما ذكرناه في دار أنس تكون

فی محل الحديقة المعروفة بالرومية أو ما حولها . ودار بنت الحارث هذه لها ذكر
فی أما كن كثيرة ، وكان النبی صلی اللہ علیہ وسلم یُنزلُ بها الوفود ، وجعل بها
أشرى بنی قریظة حتی خندق لهم الخنادق بالسوق وقتلوا .

وروی ابن زبالة عن محمد بن أبی بکر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : جاء
النبي صلی اللہ علیہ وسلم إلى نفرٍ من أصحابه من قریش والأنصار وهم فی دار بنت
الحارث ، فلما رأوه أوَسَعُوا له - الحديث .

وبنت الحارث : اسمها رَمْلَة . وهذه الأسراب الثلاثة لا يعرف منها
شیء اليوم .

وقد علا الكِبْسُ على كثير من البلاط ، ولم يبق ظاهرا منه إلا ما حول
المسجد النبوی وشیء من جهة بیوت الأشراف ولاة المدينة . وله بلاليع یجتمع
الماء فیها ، فإذا كثرت الأمطار تجتمع حول المسجد لامتلأ تلك البلاليع ، فیصير
أمام أبواب المسجد كالغدران الکبار ، خصوصاً فی شرقی المسجد ، فحفر الشمس
ابن الزمن متولی العمارة الشریفة البلاءة التي فی شرقی المسجد وتتبع ما حولها ،
فوجد سرباً تحت الأرض آخذاً من شرقی المسجد إلى جهة زقاق المناصع ،
وتتبعه حتی وصل إلى الحوش المعروف اليوم بحوش الحسن ، فوجد الناس قد بنوا
هناك ، ولم يتمكنوا من تتبعه إلا بهدم الأبنية فتركوه ، وهذا هو السرب الذي
تقدم أنه كان یخرج عند دار أنس بن مالك فی بنی جديلة .

ثم إن متولی العمارة حفر سرباً لتلك البلاليع التي عند أبواب المسجد ،
وأوصلها بالسرب الذي یسير فيه وسخ العين ؛ فحصل بذلك غاية النفع ، وصار
الماء لا یقف بعد ذلك بأبواب المسجد ، ووجد البلاط الأول على أكثر من
فصف قامه من الأرض فيما یلی الصاغة وسوق العطارین ، وكذا فی شامی المسجد .
وأما الدور المطیفة بالبلاط الأعظم - وهو الآخذ من باب السلام إلى المصلى -
ففی قبة منازل بنی زریق ، وسیأتی من كلام ابن شبة نقلاً عن أبی غسان أن

ذَرَعَ ما بين مسجد النبي صلى الله عليه وسلم الذي عنده دار مروان وبين المسجد الذي يصلى فيه العيد بالمصلى ألف ذراع ، وقد ذَرَعْنَاهُ فكان كذلك ، لكن الذي يظهر أن البلاط لم يكن متصلاً بمسجد المصلى ؛ لأنه ذكر أن نهايته دار ابن هشام ، ولم تكن الدور متصلة بنفس المسجد .

فأول الدور المطيعة بهذا البلاط مما يلي المصلى في ميسرته دار إبراهيم ابن هشام الحزومي .

بيان الدور
للطيفة بالبلاط

وفي ميمنته في قباتها جانحا إلى المغرب دارُ سعد بن أبي وقَّص ، والطريق بينهما . ودار سعد هذه قال ابن شبة : إنها هي التي في دبر دار جبي ، ولها فيها طريق مسلة .

قال : وسمعت من يقول : كانتا داراً واحدة لسعد ، وإن عمر بن الخطاب كان قاسمه إياها ، وكانت دار جبي قسيمة هذه الدار حين قاسمه ماله مقدَّم سعد من العرق ، فاشترى دار جبي عثمان بن عفان ، ثم صارت لعمر بن عثمان ، وكانت جبي أرضعت عمراً فوهبها لها ، فكانت بيدها ، حتى سمعت نقيضا في سقف بيتها فقالت لجاريتهما : ما هذا ؟ قالت : السقف يسبح ، قالت : ماسبح شيء قط إلا سجد ! فخرجت ، فاضطربت خباء بالمصلى ، ثم باعت الدار من بعض ولد عمر بن الخطاب . قال : وسمعت من يقول : إن عثمان نفسه أقطعها إياها .

ثم يليها في ميمنة البلاط المذكور دار لسعد بن أبي وقاص أيضاً ، وكانت لأبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فناقله أبو رافع إلى داريه بالبقال ، وكانتا داراً لسعد .

وفي ميسرة البلاط في مقابلة هذه الدار دار لسعد أيضاً ، والطريق بينهما : عشرة أذرع ، ودور سعد صدقة .

وقد ذكر ابن شبة كتابَ وقفها . وبقى من دوره دار أخرى قال ابن شبة :

واتخذ سعد أيضاً داراً بالمصلى ، بين دار عبد الحميد بن عبيد الكنانى وبين الزقاق الذى يسلك فى بنى كعب عند الحمارين ، وفتح فى طائفة من أدنى داره باباً فى الزقاق ، حتى صارت كأنها داران .

قلت : وسيأتى ذكر منازل بنى كعب ، وذكر الحمارين ، ويعلم من مجموع ذلك أن زقاق الحمارين كان فى قبلة البيوت التى بالمصلى والبيوت التى فى قبلة البلاط بينى زرق .

ثم يلى دار سعد التى كانت لأبى رافع ميمنة البلاط المذكور دار آل خراش من بنى عامر بن لؤى ، وتعرف بدار نوفل بن مساحق بن عمرو العامرى وفى دبرها من جهة القبلة كُتِّبَ عروة رجل من اليمن ، كان يعلم . وفى كتاب عروة مسجد بنى زريق ، وعنده دار رفاعه بن رافع . ودار آل خراش هذه هى التى عنها ابن شبة بقوله : وقال — يعنى أبا غسان — : وحدثنى عبد العزيز أن رافع بن مالك الزرقى قتل بأحد فدُفن فى بنى زريق ، قال : وقيل : إن موضع قبره اليوم فى دار آل نوفل بن مساحق التى فى بنى زريق فى كتاب عروة ، وصارت للعباس بن محمد . ثم يلى دار آل خراش فى الميمنة أيضاً دار الربيع التى يقال لها دار حفصة ، وهى مولاة لمعاوية بن أبى سفيان ، كانت تسكنها فنسبت إليها قبل ، وكانت هذه الدار قطيعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبى العاص الثقفى ، فابتاعها من ولده معاوية بن أبى سفيان وكانت معها لعثمان أيضاً دار آل خراش المتقدمة إلى جنبها ، ويقال : إنه ابتناها فى قطيعة النبى صلى الله عليه وسلم إياه أيضاً . وفى الميسرة فى شامى الدارين المذكورين مقابلاً لهما دار نافع بن عتبة بن أبى وقاص التى ابتاعها الربيع مولى أمير المؤمنين من ولد نافع ، وتعرف أيضاً بدار الربيع . وفى دبر الدار المتقدمة التى يقال لها دار حفصة من القبلة دار عُبْد بن زَمْعَة ، قال ابن شبة : واتخذ عُبْد بن زَمْعَة داره التى فى كتاب عروة إلى حدها الشامى ، فتكون دار حفصة بينها وبين البلاط باباً لازقاً فى كتاب

عروة ، أى فى غربها . وفى قبلة دار عبّد بن زمعة دار ابن مشنوّ ، قال ابن شبة أيضا : واتخذ عبد الرحمن بن مشنوّ داره التى فى كتاب عروة حدّها من الشام دار عبد بن زمعة ، وحدّها من المشرق كتاب إسحاق الأعرج بابها لاصق فى كتاب عروة أى فى غربها أيضا ، وهى صدقة منه . وفى قبلة دار ابن مشنوّ دار عمار بن ياسر فإنها حد دار ابن مشنوّ من القبلة ، قال ابن شبة : واتخذ عمار بن ياسر داره التى فى بنى زريق ، وكانت من دور أم سلمة زوج النّبي صلى الله عليه وسلم ، وبابها وجّاه دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أى الذى فى شرقها ، وكانت أم سلمة أعطته إياها ، ولها خوّة شارع فى كتاب عروة أى فى المغرب وهى خوّة عمار نفسه ، انتهى ؛ فهذه الدور الثلاثة مصطفىة فى القبلة خلف دار حفصة المذكورة ، وخلف الدار الآتية بعدها ، وبينهن من المغرب كتاب عروة ومسجد بنى زريق ، ومن المشرق زقاق دار عبد الرحمن بن الحارث الآتى ذكره .

وذكر ابن شبة ما حاصله أن دار الأرقم بن أبى الأرقم الخزومى فى بنى زريق ، فيما بين دار ابن أمّ كلاب الشارع على المصلى إلى دار رفاع بن رافع الأنصارى قبالة مسجد بنى زريق .

ثم يلى دار الربيع التى يقال لها دار حفصة فى ميمنة البلاط دار أبى هريرة رضى الله تعالى عنه . ثم يليها فى الميمنة أيضا زقاق دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وداره هى التى تقدم أنها تقابل دار عمار بن ياسر فى الشرق ، وبينها وبين البلاط الداران الآتى ذكرهما ، وهذا الزقاق سيأتى له ذكر فى رجوعه صلى الله عليه وسلم من صلاة العيد .

وكذا دار أبى هريرة هذه ، قال ابن شبة : اتخذ أبو هريرة الدّوسى دارا بالبلاط بين الزقاق الذى فيه دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وبين خط البلاط الأعظم ، فباعها ولده من عمر بن بزيع .

والذى ظهر لى بعد التأمل فيما ذكره ابن شبة فى هذه الدور — بقرينة

ما سنذكره إن شاء الله تعالى — أن زقاق عبد الرحمن بن الحارث هو أول زقاق يلقاك عن يمينك إذا دخلت من باب المدينة اليوم تريد المسجد ، وظهر لي أيضا أن دار هشام والدار الثانية التي تليها في الميسرة وبعض الثالثة كن من خارج سور المدينة ، وكذلك ما يقابل ذلك في الميمنة من داري سعد وبعض دار آل خراش .

ثم يلي زقاق عبد الرحمن بن الحارث في ميمنة البلاط دار عبد الله بن عوف . ثم يليها في الميمنة زقاق أبي أمية بن المغيرة ، قال ابن شبة في دور بني زهرة : واتخذ عبد الله بن عوف بن عبد عوف دارا بالبلاط بين زقاق دار عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وبين زقاق دار أبي أمية بن المغيرة ، ويقال لها : دار طلحة بن عبد الله بن عوف ؛ فهي صدقة بأبدي ولده إلا شيئا خرج منها صار لبكار بن عبد الله بن مصعب الزبيري . ويلي دار أبي أمية التي نسب إليها الزقاق المذكور في قبلتها دار الحويط بن عبد العزى بينها وبين دار سعيد بن عمرو بن نقييل ، وهما شارعتان في خط الحارين الشارع إلى دار ابن عتبة بيني زريق شرق دار أبي أمية ، وفي شرقيها أيضا دار صهيب بن سنان ، وكانت لأُم سلمة رضي الله تعالى عنها ، وكل هذه الدور في بني زريق .

وانرجع إلى جهة الميسرة فنقول : وفي الميسرة في مقابلة دار أبي هريرة وبعض التي قبلها دار حويط بن عبد العزى ، وهي غير داره السابقة ، وتلك ليست في البلاط كما قدمناه ، قال ابن شبة في دور بني عامر بن لؤي : واتخذ حويط بن عبد العزى داره التي بين دار عامر بن أبي وقاص وعتبة بن أبي وقاص ، بالبلاط منها البيت الشارع على خاتمة البلاط بين الزقاق الذي إلى دار آمنة بنت سعد وبين دار الربيع مولى أمير المؤمنين ، وهي صدقة منه على ولده ، انتهى . ولم يذكر لعتبة ابن أبي وقاص دارا بالمدينة . والذي انتقل إلى المدينة واتخذها دارا إنما هو ابنه نافع ، وداره هي المتقدم ذكرها التي صارت للربيع ؛ فهي المرادة .

وقال في بيان دار عامر بن أبي وقاص الزهري : واتخذ عامر بن أبي وقاص داره التي في زقاق حلوة بين دار حُوَيْطِب بن عبد العزّي وبين خط الزقاق الذي فيه دار آمنة بنت سعد بن أبي سرح، انتهى .

فيتلخص من ذلك أن دار حُوَيْطِب المذكورة في شرق دار الربيع المتقدمة في الميسرة وإلى جانبها خاتمة البلاط ، وهو اليوم الزقاق الذي بين سور المدينة وبين البيوت المقابلة له ولمشهد سيدنا مالك بن سنان على يسارك عندما تدخل من باب المدينة ، وأن من دار حُوَيْطِب بيتا خلفها من جهة جانبها الغربي شارعا على خاتمة البلاط المذكورة ، وخلفه من جهة الشام الزقاق الذي فيه دار آمنة ، وتكون دار عامر بن أبي وقاص خلف دار حُوَيْطِب من جهة جانبها الشرقي ، ويكون زقاق حلوة في شرقيهما ، واعلم المعروف اليوم بزقاق الطول ؛ لانطباق الوصف المذكور عليه ، وسيأتى لزقاق حلوة ذكر في الآبار

ثم في الميسرة أيضا دار عبد الله بن مخزّمة قال ابن شبة في دور بني عامر بن لؤي : اتخذ عبد الله بن مخزّمة داره التي في البلاط الشارع بابها قبالة دار عبد الله بن عوف التي فيها بنو نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخزّمة، وخرج عنهم بعضها فهو في يد ورثة عمر بن بزيع مولى أمير المؤمنين .

ولنرجع إلى جهة الميمنة فنقول : ثم إلى زقاق دار أبي أمية في الميمنة من شرقيه دار خالد بن سعيد الأكبر بن العاص التي يقال لها دار سعيد بن العاص الأصغر ابن سعيد بن العاص ، ويقال لها دار ابن عتبة ، وإنما ورثها عبد الله بن عتبة عن عمه خالد بن سعيد . ويفابلها في الميسرة دار أم خالد التي لآل خالد بن الزبير بن العوّام ، ورثوها عن أمهم أم خالد بن سعيد بن العاص ، وقيل : إنهما قطيعة من النبي صلى الله عليه وسلم . ثم يلي دار خالد بن سعيد في الميمنة دار أبي الجهم ، ثم دار نوفل بن عدى ، ثم دار آل المنكدر التميمي . قال ابن شبة في دور بني عدى : واتخذ أبو الجهم داره التي بين دار سعيد بن العاص التي يقال لها دار ابن عتبة وبين دار نوفل ابن عدى بابها شارع في البلاط .

قلت : وهذه الدار هي المرادة بما رواه مالك في الموطأ عن عمه أبي سهل بن مالك بن أبي عامر عن أبيه : كنا نسمع قراءة عمر بن الخطاب ونحن عند دار أبي جهنم بالبلاط ، وكذا بما رواه البيهقي عن موسى بن عقبة أن رجال بني قريظة قتلوا عند دار أبي جهنم التي بالبلاط ، ولم يكن يومئذ بلاط ، فزعموا أن دماءهم بلغت أحجار الزيت التي كانت بالسوق .

وقال ابن شبة في دور بني أسد : واتخذ نوفل بن عدي بن أبي حبيش دارين : إحداهما التي بالبلاط عند أصحاب الرباع بين دار المنكدر التيمي وبين دار آل أبي جهنم العدويين ، والدار الأخرى في بني رزيق وجاه الكتاب الذي يقال له كتاب آل زيان بين منزل أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الذي صار لبني عبيد بن عبد الله بن الزبير وبين حد الزقاق الذي عند الحمارين ، دبرهما دار هانيء التي بأيدي آل جبر ، انتهى .

وهذه الأمور التي ذكرها في الدار الثانية حول ما خلف دار سعيد بن العاص المسماة دار ابن عتبة من جهة القبلة ، والزقاق الذي ذكره هناك عند الحمارين يمتد في المغرب إلى المصلّى في قبلة دور سعد بن أبي وقاص .

وقد ذكر ابن شبة أيضاً أن دار رؤيشد الثقفي التي يقال لها القمقم في كتاب ابن زيان هي التي حرقها عليه عمر بن الخطاب في الشراب ، وكان رؤيشد حماراً ، وفي غربي هذه الدار أدنى دار علي بن عبد الله بن أبي فروة ، وشرقيها الطريق بينها وبين بيوت آل مصبح ، ويمانيها دار الأوبسيين التي لسكن خالد بن عبد الله الأوبسي ، وشاميها قبلة بيوت آل مصبح التي بينها وبين دار موسى بن عيسى ، وبيوت آل مصبح ذكرها في دور بني عامر بن لؤي فقال : واتخذ ابن أم مكتوم داراً هي البيوت التي للمصباحين بين دار آل زمعة بن الأسود وبين شرقي القمقم ، انتهى . وهذه الأمور أيضاً حول الدور المتقدمة في بني رزيق .

وقوله في دار نوفل الأولى وهي المقصودة لأنها التي في ميمنة البلاط وأنها

عند أصحاب الرباع ، لم أعلم المراد به ، غير أن في طبقات ابن سعد أن دار حُوَيْطَب ابن عبد العزى المتقدم ذكرها في الميسرة عند أصحاب المصاحف ، فإنه قال في ترجمته : وله دار بالبلاط عند أصحاب المصاحف ، فلعن المراد بالرباع المصاحف ؛ لأن المصحف يسمى ربعة ؛ فيستفاد منه أن هذه الناحية من البلاط ميمنة وميسرة تسمى بذلك ، لكن قال ابن شبة في دور العباس بن عبد المطلب ما لفظه : وقد سمعت مَنْ يذكر أن دار فضالة بن الحكم بن أبي العاص التي بالبلاط الخربة التي عند أصحاب الرباع على يمين مَنْ سلك إلى بني جديلة كانت مَرَبَدًا للعباس رضى الله عنه ، ويقال : إنها كانت مَرَبَدًا لنعم الصدقة ، انتهى .

وهو يقتضى أن أصحاب الرباع ليسوا في البلاط الأعظم ، لأنه ليس فيه مَسْلَك إلى بني جديلة ، وإنما يتوصل منه إلى بني جديلة بعد إتيان البلاط الآخر الذى هو موضع سوق المدينة اليوم عند درج العين ، وقد تقدم أن ذلك يسمى بموضع الفاكية ، والله أعلم .

هذا ما علمته من الدور التي بهذا البلاط ، وفي الاقتصار عليها كفاية ؛ لأن المقصود المهم لنا من ذلك ما يتعلق ببيان مسجد بنى زُرَيْق ، وبطريق النبي صلى الله عليه وسلم في ذهابه إلى المصلى ورجوعه منها كما سيظهر لك .

وأما البلاط الممتد في المغرب إلى سوق المدينة القديم فكان عند خاتمة دار العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه كما تقدم .

وقال ابن شبة في دور العباس : ومنها الدار التي بالزُّوراء سوق المدينة عند أحجار الزيت ، أقطعها له عمر بن الخطاب ، قال : وقد بلغنى أن دار طلحة بن عمر بالبلاط كانت مَرَبَدًا لدار العباس هذه ، فابتاعها عمر من بعض بنيهِ . ويقوى ذلك أن المنصور أبا جعفر ابتاع تلك الدار من ولد طَلْحَةَ بن عمر بأربعمائة ألف دينار .

ثم ذكر للعباس دارا أخرى ليست في البلاط ، لكنها في شامى هذه الدار ،

فقال : ومنها الدار التي إلى جنب دار آل قارط حلفاء بني زُهرة ، بينها وبين خطة بني ضَمرة ، وهي التي كان عبد الله بن عباس يسكن وجعلت المحررة هناك لطعام كان ابن عباس يطعمه .

قلت : وإنما ذكرنا هاتين الدارين لماسيأتى من ذكرهما في الدار التي أخذ بها هشام بن عبد الملك سوق المدينة .

ويستفاد مما سيأتى في ترجمة أحجار الزيت أن دار العباس التي عند خاتمة البلاط المذكور كانت بقرب مشهد سيدنا مالك بن سنان في شرقيه ، وسيأتى أنه دفن عند مسجد أصحاب العباء ، أى الذين يبيعون العبي ، وهناك كانت أحجار الزيت .

الفصل السادس والثلاثون

فما جاء في سوق المدينة الذي تصدق به النبي صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، وذكر دار هشام بن عبد الملك التي أخذ بها السوق .

الرسول
ينشئ السوق

روى عمر بن شبة عن عطاء بن يسار قال : لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل للمدينة سوقاً أتى سوق بني قَيْنُقَاع ، ثم جاء سوق المدينة فضر به برجله وقال : هذا سوقكم ؛ فلا يضيق ، ولا يؤخذ فيه خراج .

وروى ابن زبالة عن يزيد بن عبيد الله بن قسيط أن السوق كانت في بني قَيْنُقَاع حتى حول السوق بعد ذلك .

أسواق المدينة
في الجاهلية

وقال ابن شبة : قال أبو غسان : وكان بالمدينة في الجاهلية سوق بزبالة من الناحية التي تدعى يثرب ، وسوق بالجسر في بني قَيْنُقَاع ، وبالصفاصف بالعصبة سوق ، وسوق يقوم في موضع زقاق ابن حيين كانت تقوم في الجاهلية وأول الإسلام ، وكان يقال لذلك الموضع : مزاحم .

وروى ابن شبة أيضاً عن صالح بن كيسان قال : ضرب رسول الله صلى الله

عليه وسلم قبة في موضع بقيع الزبير فقال : هذا سوقكم ، فأقبل كعب بن الأشرف فدخلها وقطع أطناها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا جرم لأنقلها إلى موضع هو أغْيَظُ له من هذا ، فنقلها إلى موضع سوق المدينة ، ثم قال : هذا سوقكم ، لا تتحجروا ، ولا يضرب عليه الخراج .

وعن أبي أسيد أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني قد رأيت موضعاً للسوق ، أفلا تنظر إليه ؟ قال : فجاء به إلى موضع سوق المدينة اليوم - أي في زمنهم - قال : فضرب النبي صلى الله عليه وسلم برجله وقال : هذا سوقكم ؛ فلا ينقص منه ، ولا يضربنَّ عليه خراج .

وروى ابن زبالة عن عباس بن سهل عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بني ساعدة فقال : إني قد جئكم في حاجة تُعطوني مكانَ مقابركم فأجعلها سوقاً ، وكانت مقابرهم ما حازت دار ابن أبي ذئب إلى دار زيد بن ثابت ، فأعطاه بعضُ القوم ، ومنعه بعضهم ، وقالوا : مقارنا ونخرج نساءنا ، ثم تلاؤموا فلحقوه وأعطوه إياه . فجعله سوقاً .

قلت : وسيأتي ما يبين أن دار ابن أبي ذئب ودار زيد بن ثابت كانتا في شرقي السوق ، الأولى عند أثنائه مما يلي الشام ، والثانية عند أثنائه مما يلي القبلة ؛ فليست المقابر المذكورة سوق المدينة كله ، بل بعضه . وقد قدمنا في منازل بني ساعدة أن ابن زبالة نقل أن عرض سوق المدينة ما بين المصلَّى إلى جرار سعد ، وهي جرار كان يسقي الناس فيها الماء بعد موت أمه ، وقد منّا أن الذي يترجح أن المصلَّى حده من جهة القبلة ، وأن جرار سعد حده من جهة الشام ؛ فتكون جرار سعد قرب مَذِيَّةِ الْوَدَاعِ ، وقد قوى الآن ذلك عندي جداً ، لما سيأتي في ذكر دار هشام .

وروى ابن شبة أيضاً وابن زبالة عن محمد بن عبد الله بن حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصدَّق على المسلمين بأسواقهم .

وروى ابن زبالة عن خالد بن الياس العدوي قال : قرئ علينا كتابُ عمر ابن عبد العزيز بالمدينة : إنما السوق صدقة فلا يضر بنّ على أحد فيه كراء .
وعن ابن أبي ذئب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ على خيمة نند موضع دار المنبعث فقال : ما هذه الخيمة ؟ فقالوا : خيمة لرجل من بني حارثة كان يبيع فيها التمر ، فقال : حرقوها ، فحرقوا . قال ابن أبي ذئب : وبلغني أن الرجل محمد بن مسلمة .

وروى ابن شبة عن أبي مردود عبد العزيز بن سليمان أن عمر بن الخطاب رأى كبيرَ حدّاد في السوق ، فضربه برجله حتى هدمه ، وقال : أتنتقصُ سوق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وروى ابن زبالة عن حاتم ابن إسماعيل عن حبيب قال : مر عمر بن الخطاب على باب معمر بالسوق ، وقد وضع على بابه جرة ، فأمر بها أن تُقلع ، فخرج إليه معمر فقال : إنما هذه جرة يسقى فيها الغلامُ الناس ، قال : فنهاه عمر أن يحجر عليها أو يحوزها . قال : فلم يلبث أن مرّ عليها وقد ظلل عليها ، فأمر عمر بالجرة والظل فنزعهما .

وعن عبد الله بن محمد قال : كان الراكبُ ينزل بسوق المدينة فيضع رَحْله ، ثم يطوف بالسوق ورَحْله بعينه يُبصره ، لا يغيبه عنه شيء .
وروى أيضاً قصة أخذ معاوية رضي الله تعالى عنه لدار النقضان من صحن سوق المدينة .

وروى أيضاً عن محمد بن طلحة وغيره قال : أحدث إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة في سلطان هشام بن عبد الملك ، وهو يومئذ والٍ له على المدينة ، داراً أخذ بها سوق المدينة ، وسدّها وجوه الدور الشوارع في السوق ، وكتب إلى هشام يذكر له عليها وعظيم قدرها ، فكتب إليه هشام يأمره بإمضائها وإمضاء عين السوق ، وكان أحدثها في سكك أهل

المدينة ، ودخلت في بعض منازلهم ، فكتب إليه أن أمضها وإن كانت في بطونهم .

قلت : ونقل ابن شبة عن أبي غسان أنه قال : كان الذي هاج هشام بن عبد الملك على بناء داره التي كانت بالسوق أن إبراهيم بن هشام بن إسماعيل كان خال هشام بن عبد الملك ، وكان ولاه المدينة ، فكتب إليه إبراهيم ، فذكر أن معاوية بن أبي سفيان بنى دارين بسوق المدينة يقال لإحدهما دار القطران والأخرى دار النقصان ، وضرب عليهما الخراج ، وأشار عليه أن يبني دارا يدخل فيها سوق المدينة ، فقبل ذلك هشام ، وبنها ، وأخذ بها السوق كله ، انتهى . وقال ابن زبالة عقب ما تقدم : فابتدأ الدار من خاتمة البلاط أي الذي عند دار العباس بالزوراء بقرب مشهد مالك بن سنان رضى الله عنه ، فيكون هذا الجدار في شرقي السوق ، وهذا أول الجدار المذكور مما يلي القبلة ، وما سيأتي فيه دال على أنه استمر يمدد إلى جهة الشام ، وليس ابتداء هذا الجدار من القبلة أول السوق لما سيأتي ، بل بقي منه بقية في جهة القبلة إلى المصلى سيأتي ذكرها .

قال ابن زبالة عقب ذكره لا ابتداء الدار من خاتمة البلاط : فمضى بها حتى سد بها وجه دار العباس بن عبد المطلب ، أي التي عند خاتمة البلاط ودار نخلة ، وكانت لآل شيبه بن ربيعة ، وإنما سميت دار نخلة لنخلة كانت فيها . ثم دار معمر العدوي التي كان يجلس صاحب السوق بفنائها . ثم دار خالد بن عقبة التي بفنائها أصحاب الرقيق .

وجعل لبني ساعدة طريقا مبوبة ، ثم أخذ وجه دار ابن جحش . ثم وجه دار ابن أبي فروة التي كانت لعمر بن طلحة بن عبيد الله ، ثم وجه دار ابن مسعود ، ثم وجه دار زيد بن ثابت ، وجعل للطريق منفذا مبوبا . ثم وجه دار جبيرة ابن مطعم التي فيها أصحاب العباء . ثم وجه دار القارظيين . ثم وجه دار العباس ابن عبد المطلب ، أي الثانية التي كان عبد الله بن عباس يسكنها ، وجعل لبني

ضَمْرَة طريقاً مَبُوباً . ثم وجه دار ابن أبي ذئب . ثم دار آل شويفع . ثم صدقة الزبير ، وجعل لبنى الدليل طريقاً مَبُوباً .

قلت : وهذا الطريق عند نهاية هذا الجدار الشرقي مما يلي الشام قرب ثنية الوداع ، والطرق المذكورة قَبْلَهُ كلها في الجدار المذكور خططها في المشرق . ثم بين ابن زبالة ما يقابل هذا الجدار في المغرب مبتدئاً بما يقابله من جهة القبلة ، ثم إلى الشام فقال عقب ما تقدم :

ثم أخذ بها من الشق الآخر ، فأخذ وجه الزوراء ووجه دار ابن بصله الكنانى . ثم على الطاقات حتى ورد بها خيام بنى غفار ، وجعل لخرج بنى سلامة من زقاق ابن جبير باباً مَبُوباً عظيماً يغلق . ثم مضى بها على دار النقصان ودار نورة ، وجعل لسكة أسلم باباً مَبُوباً . ثم مضى بها على دار ابن أزهر ودار ابن شهاب ودار نوفل بن الحارث حتى جاوز بها دار حجارة ، وكانت لعبيد الله بن عباس ابن عبد المطلب ، حتى إذا جاوز بها دار حجارة جعل لها باباً عظيماً يقابل الثنية .

قلت : يعنى ثنية الوداع ، وهذا الباب في جهة الشام كما صرح به ابن شبة فقال ، عقب ما تقدم : وجعل لها باباً شامياً خلف شامى زاوية دار عمر بن عبد العزيز بالثنية . ثم جعل بينها وبين دار عمر بن عبد العزيز عرضاً ثلاثة أذرع ، ثم وضع جداراً آخر وُجَّاهَ هذا الجدار . ثم قاد الأساس بينه وبين الدور كلها ثلاثة أذرع حتى الزقاق الذى يقال له زقاق ابن جبير ، جعل عليه باباً ، وجعل على الزقاق الذى يقال له زقاق بنى ضمرة عند دار آل أبي ذئب باباً . ثم جعل على الزوراء خاتم البلاط أى باباً ؛ فيستفاد منه جعل باب هناك ، وايس فى كلام ابن زبالة تعرض له .

ثم إن ابن زبالة ذكر ما بقى من شقى الدار الغربى والشرقى مما يلي القبلة إلى المصلى ، فقال عقب كلامه السابق : ثم ساقها من الشقين جميعاً الغربى والشرقى فسَدَّ بها وجوه الدور ، وأخذ بها السوق فسَدَّ بها من الشق الشرقى وجه دار

قطران ، وكانت من دور معاوية . ثم وجه دار ابن جودان وتلك الدور .
ومن الشق الغربی دار حجارة لكثير بن الصلت ، وكانت قبله لربيعة
ابن دراج الجحی . ثم وجه الربعة التي فيها دار آل أبي عثمان حلفاء أزهري
ابن عبد عوف . ثم جعل للسكة منفذا . ثم وجه دار التمارين ، وكانت لمعاوية
ابن أبي سفيان ، وقبله لسعيد بن عبد الرحمن بن يربوع .
فلما بلغ ابن هشام بالدار التمارين وقف ، وجعل لها هنالك بابا عظيما
يقابل المصلى .

وقال ابن شبة عقب قوله فيما تقدم « وجعل على الزوراء خاتم البلاط »
ما لفظه : ثم مدَّ الجدار حتى جاء به على طيقان دار القطران الأخرى الغربی ،
حتى جاء بها إلى دار ابن سباع بالمصلى التي هي اليوم لخالصة ، فوضع ثم بابا
أى بالمصلى .

قال : ثم بنى ذلك بيوتا ؛ فجعل فيه الأسواق كلها ، فكان الذي ولى ابن
هشام أى على بنائها سعد بن عبد الرحمن الزرقى من الأنصار ، فتم بناؤها إلا شيئا
من بابها الذي بالمصلى .

ونقلت أبوابها إليها معمولة من الشام ، وأكثرها من البلقاء ، انتهى .
وقال ابن زبالة ، عقب كلامه السابق : وفعل ذلك فى بقیع الزبير ، وضرب
عليه طاقات ، وأكراها ، وسد بها وجوه دورهم ، وجعل للسكك منفذا يغلق .
قلت : ومراده أنه جعل فى فضاء بقیع الزبير دارا كدار السوق ، ولا يتوهم
من ذلك أن بقیع الزبير من جملة السوق ؛ لما سيأتى فى ترجمته .

قال ابن زبالة : وجعل لدار السوق حوانيت فى أسفلها ، وعلاى تكرى
للسكن ، وحملت أبوابها من البلقاء ، فمنها بقية بالمدينة مكتوب فيها البلقاء .

قال : فبینا الناس لا يدرون بموت هشام إلى أن جاء ابن المكرم الثقفى من
الشام بريدا بموته رسولا للوليد بن يزيد ، وبيشروهم بالعطاء ، فصاح حين دخل

هدم الدار التي
وضعت مكان
السوق

الثنية : ألا إن هشاماً الأحول قد مات ، فوثب الناسُ على الدار فهدموها ، وعلى
عين السوق فقطعوها .

وعبارة ابن شبة : فلم تزل - أي تلك الدار - على ذلك حياة هشام بن
عبد الملك ، وفيها التجار ، فيؤخذ منهم السكراء ، حتى توفي هشام ، فقدم بوفاته
ابن مكرم الثقفي ، فلما أشرف على رأس ثنية الوداع صاح : مات الأحول ،
واستخلف أمير المؤمنين الوليد بن يزيد ، فلما دخل دار هشام تلك صاح به الناس :
ما تقول في الدار ؟ قال : اهدموها ، فوقع الناس فهدموها ، وانتهت أبوابها
وخشبها وجريدها ، فلم يمض ثلاثة حتى وضعت إلى الأرض .

فقال أبو معروف أحد بني عمرو بن تميم :

ما كان في هدم دار السوق إذ هدمت سوق المدينة من ظلم ولا حيف
قام الرجال عليها يضربون معاً ضرباً يفرق بين السور والتحف
ينحطُّ منها ويهوى من مناكها صخر تقلب في الأسواق كالخلف
وذكر ابن زبالة هذه الأبيات عن أبي معروف ، إلا أنه زاد قبلها ثلاثة أخرى
فقال : وقال أبو معروف :

قل للوليد أبي العباس قد جمعتُ أيمان قومك بالتسليم في الصحف
مازأت ترمي ويرمي الناسُ عن هدَفٍ حتى وضعت نصال النبل في الهدف
أعطاك ربُّك طبعاً من قلوبهم نصحاً تبين قبل الظن والخلف
ما كان في هدم دار السوق إذ هدمت الأبيات المتقدمة

بيت
أم كلاب

وروى ابن زبالة من طريق جعفر بن محمد عن أبيه قال : أمر رسول الله صلى
الله عليه وسلم راوية الخمر التي أهدى له الدوسي فأهريقها بالسوق عند بيت أم كلاب
حيث يهراق الشراب اليوم ، وسيأتي في ترجمة أحجار الزيت قول ابن أبي فديك :
أدركت أحجار الزيت ثلاثة مواجهة بيت ابن أم كلاب ، وهو اليوم يعرف بيت

(٢٤ — وفاء الوفا ٢)

بنی أسد ، انتهى ، وكأنه غیرُ بیت ابن أم کلاب الذی له ذکر فی بنی زریق ، فهذا السوق هو المراد بما ورد من أنه صلی الله علیه وسلم خرج بأسرى بنی قریظة إلى سوق المدينة فخنّدقَ بها خنادق ، ثم ضرب أعناقهم فی تلك الخنادق ، ويظهر مما قدمناه ومما سیأتی فی ترجمة الزوراء أن مقدم سوق المدينة مما یلی خاتمة البلاط وما حول ذلك كان یسمى بالزوراء .

وروی ابن شبة عن بعضهم أنه قال : أدركت سوقاً بالزوراء یقال له سوق الحرص ، كان الناس ینزلون إليها بدرج .

قلت : ورأيت فی الأم للشافعی رضی الله تعالی عنه ما یقتضی تسمية سوق المدينة بالبطحاء ؛ فإنه روى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان رسول الله صلی الله علیه وسلم یخطب يوم الجمعة ، وكان لهم سوق یقال لها البطحاء ، كانت بنو سلیم یجلبون إليها الخیل والإبل والغنم والسمن ، فقدموا فخرج إليهم الناس - الحديث .

وروی ابن شبة من طریق عروة عن عائشة رضی الله عنها قالت فی حديث سافه : كان یقال لسوق المدينة بقیع الخیل ، وهذا الحديث تقدم من رواية ابن زبالة فی ذکر دُعائه صلی الله علیه وسلم للمدينة وسؤاله نقلَ و بائها ، وفيه : ثم عمد إلى بقیع الخیل - وهو سوق المدينة - فقام فيه ووجهه إلى القبلة ، فرغ يديه إلى الله فقال : اللهم حَبِّبْ إلینا المدينة - الحديث .

والبقيع هنا بالموحدة التحتية ؛ فهو المراد بقول ابن عمر فی حديثه الذی رواه الأربعة والحاكم : إني أبيع الإبلَ بالبقيع بالدنانير ، وأخذ مكانها الدراهم - الحديث ولما خفی هذا على كثير من الناس قال بعضهم : إن الظاهر أن المراد النقيع بالنون أي حمى النقيع ، قال : لأنه أشبه بالبيع من البقيع الذی هو مدفن ، وقال النووى : ليس كما قال ، بل هو بقیع الغرقد - بالباء - ولم یکن ذلك الوقت كثرت فيه القبور ، انتهى ، ولم یذكر أحد من مؤرخی المدينة أنه كان بقیع الغرقد سوق ، مع اعتنائهم

بذكر أسواق المدينة في الجاهلية والإسلام ؛ فالمعتمد ما قدمناه ، والمسمى بالبقيع هنا ما يلي المصلى من سوق المدينة ، ويسمى بقيع المصلى أيضاً كما سيأتي ، ولهذا روى أحمد والطبراني عن أبي بريدة بن نيار قال : انطلقنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بقيع المصلى فأدخل يده في طعام ثم أخرجها فإذا هو مغشوش ، أو مختلف ، فقال : لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّنَا ، ورواه الطبراني أيضاً عن أبي موسى قال : انطلقت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سوق البقيع ، فأدخل يده في غرارة ، فأخرج طعاماً - الحديث - ، فعبر عن بقيع المصلى بسوق البقيع .

وروى ابن زبالة أيضاً في ذكر سوق المدينة عن محمد بن طلحة قال : رأيت عثمان بن عبد الرحمن وإسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد ومحمد بن المنكدر ، وزيد بن حصيفة يقومون بفناء بركة السوق اليوم قبل أن تكون ، يقومون مستقبين فسألت عثمان بن عبد الرحمن عن ذلك ، فقال : قد اختلف علينا في ذلك ؛ فقائل يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو هنالك ، وقائل يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم هنالك فينظر إلى الناس إذا انصرفوا من العيد ، قال : وكان عامر بن عبد الله بن الزبير يقف عند التبانين فيدعو ، وسيأتي في ذكر المصلى ما رواه الشافعي في الأم من طريق عبد الرحمن التيمي عن أبيه عن جده أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم رَجَعَ من المصلى يوم عيد فسلك على التمارين من أسفل السوق ، حتى إذا كان عند مسجد المصلى الذي هو عند موضع الدار التي بالسوق قام فاستقبل فَجَّ أسلم فدعا ثم انصرف .

قلت : وهذا بين أن بركة السوق في شامى فَجَّ أسلم ، وسيأتي في منازل بركة السوق أسلم ما يبين أن منازلهم في شامى الثنية التي عليها حصن أمير المدينة اليوم ، وتقدم في ذكر دار السوق حيث قال فيها في جهة المغرب : وجعل لسكة أسلم باباً ما يبين ذلك ، وحينئذ فبركة السوق هي المنهل الذي ينزل إليه بالدرج عند مشهد النفس

الزكية من عين المدينة على يسار المار إلى ثنية الوداع ، وفي كلام ابن زبالة ما يروى .
إلى أن الذي أحدث العين هناك إنما هو إبراهيم بن هشام ، وسيأتي في ترجمة
أحجار الزيت أن النبي صلى الله عليه وسلم استسقى عند أحجار الزيت قريباً من
الزوراء ، والله أعلم .

وروى ابن شبة عن أبي هريرة أنه كان يقول : لا يذهب الليل والنهار حتى
يخسف برجل بصحن هذا السوق ، قال ابن أبي فديك : وكنت أسمع من المشايخ
أنه قال والله أعلم : إن ذلك يكون على باب بيت البرادين ، ويقال : هو بفناء
دار ابن مسعود .

وعن عبد الرحمن بن الحارث بن عبيد عن جده قال : خرجت مع أبي هريرة
حتى إذا كنا عند دار ابن مسعود قال : يا أبا الحارث ، إن حبي أبا القاسم صلى الله
عليه وسلم أخبرني أنه ربّ يمين بهذه البقعة لا يصعد إلى الله ، قال : قلت له :
أنى ذلك يا أبا هريرة ؟ قال : أما أنى أشهد ما كذبت ، قلت : وأنا أشهد .

وروى ابن زبالة عن عبد الرحمن بن يعقوب أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء
السوق فرأى حنطة مصبرة فأدخل يده فيها ، فناله بلل في جوفها ، فقال : ما هذا ؟
لصاحب الطعام ، قال : أصابني مطر فهو هذا البلل الذي ترى ، قال : ألا جعلته
على رأس الطعام حتى يراه الناس ؟ مَنْ غَشَّ فليس مني ، مَنْ غَشَّ فليس مني ،
وأصل الحديث رواه أبو داود وغيره ، وانقطعه : أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ برجل
يبيع طعاماً ، فسأله كيف تبيع ؟ فأخبره ، فأوحى إليه أن أدخل يدي فيه ، فأدخل
يده فإذا هو مبلول ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس منا من غش .

وعن ابن المغيرة قال : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل يبيع طعاماً في السوق
بسعر هو أرفع من سعر السوق ، فقال : تبيع في سوقنا بسعر هو أرفع من سعرنا ؟
قال : نعم يا رسول الله ، قال : صبراً واحتساباً ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال :

أبشروا فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد في سبيل الله ، وإن المحتكر في سوقنا كالمُلحد في كتاب الله .

قلت : وقوله «بسر هو أرفع» أى بزيادة في السعر وهو المبيع ، ويدل لذلك ما رواه ابن شبة عن ابن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلمتعة قال : كان أبي وعثمان بن عفان شريكين يجلبان التمر من العالية إلى السوق ، فمر بهم عمر بن الخطاب ، فضرب الغرارة برجله وقال : يا ابن أبي بلمتعة زد في السعر وإلا فأخرج من سوقنا .

وروى ابن زبالة عن القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب مرَّ بحاطب بن أبي بلمتعة وهو بسوق المصلى وبين يديه غرارتان فيهما زبيب ، فسأله عن سعره ، فسعر له مدين بدرهم ، فقال عمر : قد حدثت بيعير مقبلة من الطائف تحمل زيباً وهم إذا وضعوا إلى جنبك غداً اعتبروا بسعرك ، فإما أن ترفع في السعر ، وإما أن تدخل زيبك في البيت فتبيعه كيف شئت ، فلما رجع عمر حاسب نفسه في الظهر ، ثم خرج فأتى حاطباً في منزله فقال : إن الذى قلت لك ليس بعزيمة منى ولا قضاء ، وإنما هو شيء أردت به الخير فحيث شئت فبيع .

الفصل السابع والثلاثون

في منازل القبائل من المهاجرين ، ثم اتخاذ السور على المدينة .

قال عمر بن شبة : نزل بنو غفار بن مليل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناف منازل بني غفار ابن كنانة القطيعة التي قطع لهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وهى ما بين دار كثير بن الصلت التي تعرف بدار الحجارة السوق إلى زقاق ابن حنين إلى دار أبي سبرة إلى منازل آل الماجشون بن أبي سالة ، وبهذه الخطة مسجد بني غفار صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم وهو خارج من منزل أبي رهم بن الحصين الغفارى .

قلت : ودار كثير بن الصلت هذه تقدم بيانها في غربي السوق مما يلي القبلة شامي المصلى ، وأما زقاق ابن حبين ، ففي غربي السوق أيضا مما يلي الشام بالقرب من حصن أمير المدينة ، وابن حبين كان مولى للعباس بن عبد المطلب . وأما دار أبي سبرة فلم أعرفها ؛ فالظاهر أنها كانت في جهة غربي سوق التمارين . وأما منازل آل الماجشون ، فذكر هو في موضع آخر أنها في زقاق الجلادين ، وسيأتي في منازل بني كعب أنه شارع على المصلى ، والله سبحانه وتعالى أعلم . واتخذ سباع بن عرفة الغفاري خطة بالمصلى وهي الدار التي يقال لها دار عبد الملك بن مروان بالمصلى وجهها شارع قبالة الحجامين .

قلت : وذلك في شامي المصلى مما يلي السوق والمغرب لأن ابن شبة قال : إن أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب اتخذ دارا بالمصلى في موضع الحجامين ، ثم ابتاعها معاوية ، فزادها في مصلّى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أدخلها بعد هشام بن عبد الملك في داره التي أخذ بها السوق ثم هدمت . ونزل سائر بني غفار محلّتهم وهي السائلة من جبل جهينة إلى بطحان وما بين خط دار كثير بن الصلت ببطحان إلى بني غفار ؛ فنزلت بنو غفار منزلهم من خط دار كثير بن الصلت إلى أن يُفَضَّى إلى جهينة .

قلت : وجبل جهينة لم أعرفه ، فإما أن يكون أراد به ما يلي جبيل سلع في مقابلة المصلى ونسبه إلى جهينة لنزولهم عنده ، وهناك سائلة تسيل من سلع إذا حصل المطر ، وإما أن يكون أراد به أحد الجبلين اللذين في غربي مساجد الفتح لما سيأتي في منازل جهينة . وأما دار كثير بن الصلت ببطحان فقد ذكر في موضع آخر ما يبين أنها كانت على شفير وادي بطحان بالعدوة الغربية ، وأن عقبة بن أبي معيط لما جلده عثمان بن عفان في الشراب حلف لا يساكنه إلا وبينهما بطن وادٍ ، فناقَلَ كثير بن الصلت بداره هذه إلى دار الوليد بن عقبة التي في قبلة مصلى العيد الذي يصلى به الإمام اليوم ، والله أعلم .

ونزل بنو أبي عمرو بن نعيم بن مهان من بني عبد الله بن غفار شاميّ وغرب
بني مبشر بن غفار ، ومعهم بنو خفاجة بن غفار .

ونزل بنو ليث بن بكر ما بين خط بني مبشر بن غفار إلى خط بني كعب بن
عمر بن خزاعة الذي يسلكك إلى دور العطفانيين .

قلت : يؤخذ مما سيأتى في منازل بني كعب أن منازل بني كيث كانت في
قبلة خط بني مبشر ، وشاميّ بني كعب ؛ فتكون جهة منازل بني ليث في شاميّ
التمارين وغربهم ، ولعل قول ابن زبالة في دار السوق في جهة المغرب قبل ذكر
دار التمارين ثم جعل للسكة منفذا يريد به طريق بني ليث ومن يشركهم في ذلك .
وقد قال ابن شبة في دور بني مخزوم : واتخذ أبو شريح الخزاعي حليف بني مخزوم
دارا غربها شارع على بطحان ، وشاميها شارع إلى الزقاق الذي يدعى زقاق بني
ليث ، والله أعلم .

ونزل بنو أحمـر بن يعمر بن ليث ما بين مسجدهم إلى سوق التمارين ، واتخذوا
المسجد الذي في محلّتهم يدعى مسجد بني أحمـر .

ونزل بنو عمر بن معمر بن ليث ما بين مسجدهم الذي يدعى مسجد بني كدل
إلى بطحان إلى منزل بني مبشر بن غفار إلى زقاق الجلادين الذي فيه دار الماجشون
إلى دار أبي سبرة بن خلف إلى التمارين

ونزل آل قسيط بن يعمر بن ليث ما بين شاميّ بني كعب من منازل آل
نضلة بن عبید الله بن خراش إلى خط كتاب النصر إلى الشارع إلى المصلی
إلى بطحان .

ونزل بنو رجيل بن نعيم بطرف المصلی بين غربی دار كثير بن الصلت
أى التى هى قبلة المصلی إلى دار آل قلیع الأسديين الشارعة على بطحان .

ونزل بنو عتوارة بن ليث — وهم بنو عضيدة — ما بين طرف دار

الوليد بن عقبة اليماني ببطحان إلى الحرّة إلى زقاق القاسم بن غنام من دار الوليد
أبن عقبة .

منازل بني
ضمرة بن بكر
ونزل بنو ضمرة بن بكر إلا بني غفار محلّتهم التي يقال لها بنو ضمرة ، وهي
شرقي ما بين دار عبد الرحمن بن طلحة بن عمر بن عبید الله بن معمر بالثنية إلى
محلة بني الدّيل بن بكر إلى سوق الغنم الشارع إلى دار ابن أبي ذئب العامري ،
واتخذوا في محلّتهم مسجدا .

منازل بني
الدّيل
ونزل بنو الدّيل بن بكر في محلّتهم - وهي ما بين ضمرة إلى الدار التي يقال لها
دار الخرق - حدّها زقاق الحضارمة ، ويدعى الخط العظيم لها بني ضمرة ، إلى
جبل في مربد أبي عمار بن عبيس من بني الدّيل يقال له المستندر إلى دار الصّلت
أبن نوفل النوفلي التي بالجبانة .

قلت : الجبل الذي ذكر أنه يسمى بالمستندر هو الجبل الصغير الذي في
شرقي مشهد النفس الزكية بمنزلة الحاج الشامي ؛ لا تطابق الوصف المذكور عليه ،
والله أعلم .

ونزل أبو عمر بن عوّيف من بني الحارث بن عبد مناف بن كنانة على بني
ليث بن بكر فاتخذوا الدار التي يقال لها دار أبي نمر ، وهي في خط بني أحر بن
ليث المتقدم ذكره .

منازل
ابني أفصى
منال ز أسلم ومالك ابني أفصى - نزل بنو أسلم ومالك ابني أفصى بن حارثة بن
عمرو بن عامر منزّلين ؛ فنزلت بنو مالك بن أفصى وأمية ومهم ابني أسلم ما بين
خط زقاق ابن حنين مولى العباس بن عبد المطلب الشامي من زاوية يقصان التي
بالسوق إلى خط جهينة إلى شامي ثنية عثث .

قلت : قد علم مما سبق في دار السوق أن زقاق ابن حنين في غربي سوق
المدينة ، وسيأتي في ترجمة ثنية عثث أنها منسوبة إلى جبل يقال له سليع عليه بيوت

أسلم بن أفضى؛ فهي الثنية التي عند الجبيل الذي عليه حصن أمير المدينة اليوم ،
والمراد من بيوت أسلم منزل هؤلاء ، والله أعلم .

ونزلت سائر أسلم ، وهم آل بريدة بن الخصيب وآل سفيان - ما بين زقاق
الحضارمة إلى زقاق القبلة .

قلت : وذلك في شرقي مؤخر سوق المدينة ممسلي الشام ، وفي جهة زقاق
الحضارمة اليوم حديقة تعرف بالحضرمية شامي سور المدينة ، وفي شاميتها جهة
زقاق القبلة .

ونزلت هذيل بن مدركة ما بين شامي سائلة أشجع وزاوية دور يحيى بن
أبن عبد الله بن أبي مريم إلى دار حرام بن مزيلة بن أسد بن عبد العزى بالثنية
زاويتها اليمانية ، وذلك مجتمعا ومجتمع أسلم .

منازل مزينة ومن حل معها
ومن حل معها
أبن لاطم بن عثمان بن عمرو ، إلا بني عامر بن نور بن لاطم بن عثمان ، وعثمان
نفسه الذي يقال له مزينة ، وهي أمه - ما بين زاوية بيت القروى المطل على
بطحان الغربية إلى زاوية بيت ابن هبار الأسدي الذي صار لبني سمعان الشرقية
إلى خط بني زريق إلى دار الطائفي التي بشق بطحان الشرقي .

ونزل معها في هذه الحلة بنو شيطان بن يربوع من بني نصر بن معاوية بن
بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس وبنو سليم بن منصور
وعدوان بن عمرو بن قيس .

وعن شرقي خطة مُزينة هذه سليم بن منصور إلى دار خلدة بن مخلد الزرقى ،
وأدنى دار أم عمرو بنت عثمان بن عفان إلى بيوت نفيس بن محمد مولى بني المعلى في
بني زريق من الأنصار ، إلى أن تلقى بني مازن بن عدى بن النجار ؛ فمؤلا
الذين نزلوا مع مُزينة ، ودخل بعضهم في بعض ، وإنما نزلوا جميعا لأن دارهم في
البادية واحدة .

قلت : فمنازل مَزِينَة وَمَنْ حَلَّ معها في غربى مصلى العيد اليوم إلى عُدْوَة بطحان الشرقية ثم في قبلة الدور التي بالمُصَلِّي ثم في قبلة بنى رزيق إلى بنى مازن ابن النجار .

وقد نزلت بنو ذكوان من بنى سليم مع أهل راتج من اليهود ، ما بين دار قدامة إلى دار حسن بن زيد بالجَبَّانة .

قلت : ودار قدامة هي المرادة بقول ابن شبة في دور بنى جُمَح « واتخذ قدامة ابن مظعون الدار التي فيها المجزرة على فوهة سكة بنى ضمرة ودبر دار آل أبى ذئب على يمينك وأنت ذاهب إلى بنى ضمرة » والله أعلم .

ونزل بنو أوس بن عثمان بن مَزِينَة بطَرْف السورين ، ما بين دار أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق إلى مُفَضَّى السورين إلى الحمارين ، الزقاق الذى فيه قصر بنى يوسف مولى آل عثمان إلى البقال .

قلت : وهذه الأمور بقرب البقيع ، كما سيأتى في تراجمها .

ونزل بنو عامر بن ثور بن ثعلبة بن هُدْبَة بن لاطم ما بين بيت أم كلاب الذى في خط بنى رزيق الشارع على المصلى إلى دار مدراقيس الطيب إلى دار عمرو بن عبد الرحمن بن عوف ودار عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام ودار هشام ابن العاص المخزومى .

قلت : ودار مدراقيس الطيب لها ذكر في دور بنى محارب بن فهر .

قال ابن شبة : واتخذ مَعْمَر بن عبد الله بن عامر داراً في بنى زُرَيْق بين الدار التي يقال لها دار مدراقيس الطيب ودار أم حسان التي صارت لعمر بن ابن عبد العزيز العمرى ، وهذه الأماكن في قبلة ماتقدم مما يلي الدور التي في قبلة البلاط في الميمنة وما حولها ، ولعل دار أم حسان المذكورة هي الموضع المعروف اليوم بدار حسان في قبلة الدور التي بالبلاط المُوَالِيَة لدرب سويقة ، والله أعلم .

منازل جهينة وبلى - ونزل جهينة بن زيد بن السود بن الحارث بن قضاة
وبلى بن عمرو بن إلخاف بن قضاة ما بين خط أسلم الذي بين أسلم وجهينة ،
إلى دار حرام بن عثمان السلمي الأنصاري التي في بني سلمة إلى الجبل الذي يقال
له جبل جهينة إلى يمانى ثنية عثمت التي عليها دار ابن أبي حكيم الطيب .
قلت : ذكر دار حرام بن عثمان في بني سلمة يرجح أن المراد بجبل جهينة
أحد الجبلين اللذين في غربي مساجد الفتح ، وهناك منازل بني حرام من بني
سلمة ، وقد تقدم بيان ثنية عثمت ، وأنها منسوبة إلى الجبل الذي عليه حصن
أمير المدينة اليوم ، والله أعلم .

منازل قيس ابن عيلان - نزلت أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن
قيس الشعب الذي يقال له شعب أشجع ، وهو ما بين سائلة أشجع إلى ثنية الوداع
إلى جوف شعب سلع ، وخرج إليهم النبي صلى الله عليه وسلم بأحمال التمر فنثره
لهم ، واتخذت أشجع في محلها مسجدا .

قلت : وما ذكره منطبق إما على شعب سلع الذي في شرقيّه ، فتكون
منازلهم بين خط أسلم الذي في شامي ثنية عثمت وبين جبل سلع وهكذا إلى ثنية
الوداع ، وإما على شعب سلع الذي في شاميّه ، وقال عروة بن الزبير : قدمت
أشجع في سبعمائة يقودهم مسعود بن ربيعة فنزلوا شعبهم ، فخرج إليهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم بأحمال التمر ، فقال : يا معشر أشجع ، ما جاء بكم ؟ قالوا :
يا رسول الله جئناك اقرب ديارنا منك ، وكرهنا حرّ بك ، وكرهنا حرب قومنا
لقلتنا فيهم ؛ فأنزل الله تعالى (أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يِقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا
قَوْمَهُمْ - إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : سَبِيلًا) .

ونقل ابن شبة في تأديب عمر بن الخطاب الرعية في أمر دينهم أن رجلا
من أشجع يقال له ببيعة كان غازيا ، فبلغه أن جعدة بن عبد الله السلمي يحدث

النساء ، وأن جوارى يَخْرُجْنَ إلى سَلْع فيحدثهن ، ثم يعقل الجارية ويقول :
قومي في العقال فإنه لا يبصر على العقال إلا حَصَان ، فتقوم ساعة ثم تسقط ، وربما
تكشفت ، فكتب الأشجعي إلى عمر :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا	فَدَى لَكَ مِنْ أَخِي ثَقَّةً إِزَارِي
فما قلص تُقْمَنَ مَعْقَلَاتِ	قَفَا سَلْعٍ لِمُخْتَلَفِ النَّجَارِ
قلائصُ من بني سعد بن بكرٍ	أَوْ اسْلُمَ أَوْ جُهَيْنَةَ أَوْ غِفَارِ
يُعَقِّلُهُنَّ جَعْدَةَ مِنْ سُلَيْمٍ	مَعِيدَا يَبْتَغِي سَقَطَ الْعَذَارِي
قلائصنا هـ ذاك الله إنا	شَغِلْنَا عَنْهُمْ زَمَنَ الْحِصَارِ
يُعَقِّلُهُنَّ أبيضُ شَيْظَمِي	فَبئسَ مُعَقِّلُ الذُّودِ الطَّوَارِي

فدعا عمر بجعدّة فقال : أنت لعمرى كما وصف أبيض شيطمي ، وسأله فأقرّ
فضربه مائة مفعولا ، وغرّبه إلى الشام ، فكلم فيه ، فأذن له على أن لا يدخل
المدينة ، ثم أذن له أن يجمع ، ثم أذن له أن يدخل في الجمعة مرتين .

وقال ابن إسحاق : الذي كتب بالشعر رجل من هوازن يدعى خَيْثَمَة .

منازل بني جشم ونزلت بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن
خَصَفَة بن قيس محلتها التي يقال لها بنو جشم ، وهي ما بين الزقاق الذي يقال
له زقاق سفين إلى الأساس الذي يقال له أساس إسماعيل بن الوليد إلى خَوْخَة
الأعراب إلى دور ذكوان مولى مروان بن الحكم .

قلت : ولم أعرف شيئا مما ذكره ، غير أنه ذكر في دور بني جَمَح أن محمد بن
حاطب اتخذ الدار التي تدعى دار قدامة في بني زريق شرقيها الدار التي
يقال لها دار الأعراب ، فلعل خوخة الأعراب وما ذكر معها في تلك الجهة ،
والله أعلم .

ونزلت بنو مالك بن حماد وبنو زنيم وبنو سكين من فزارة بن ذبيان بن

بغض بن ذئب بن غطفان المحلة التي يقال لها بنو فزارة ، وهي إلى حمام الصعبة إلى سوق الخطابين الذي بالجبانة ، ولم ينزلها أحد من بني عدى بن فزارة .

قلت : والذي علمنا جهته من ذلك سوق الخطابين بالجبانة قرب مسجد الراية وثنية الوداع كما سيأتي في ترجمة الجبانة ، والله أعلم .

منازل بني كعب
ابن عمرو
وإخوتهم

منازل بني كعب بن عمرو ، وإخوتهم من بني المصطلق .

نزل بنو كعب بن عمرو بن عدى بن عامر ما بين يمانى بنى ليث بن بكر إلى دار شريح العدوى إلى موضع التمارين بالسوق إلى زقاق الجلادين الشارع على المصلى يمنة ويسرة إلى بطحان إلى زقاق كدام ، وكدام : سقاط كان هناك ، إلى دار ابن أبي سليم الشارع على شامى المصلى .

ونزلت بنو المصطلق بن سعد بن عمرو وأخوه كعب بن عمرو رهط جويرية بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرة حرّة بنى عضدة إلى أدنى دار عمر بن عبد العزيز إلى الدار التي يقال لها دار الخرازين .

قلت : وذلك بالحرّة الغربية .

سعة المدينة
في عهد النبي

ومن تأمل ما ذكر في دور المهاجرين ومنازل القبائل منهم - مع ما سبق في منازل الأنصار - رأى أمراً عظيماً فيما كانت من عمارة المدينة وسعتها ، واتصال بعضها ببعض ، وآثار ما كان من العمارة شاهد بذلك اليوم ، واسم المدينة صادق على ذلك كله ، وسيأتي في ترجمة قباء أنها كانت مدينة كبيرة متصلة بالمدينة الشريفة ، أي بما بينها من الفخيل ، ولهذا لم تكن الجمعة تقام بغير المسجد النبوي ، ولو كانت قباء وغيرها من القرى المنفصلة اليوم منفصلة في زمنه صلى الله عليه وسلم وبها تلك القبائل من الناس لوجب إقامة الجمعة في كل قرية بها أربعون كما تقرر في موضعه ، فقد كانت كلها في حكم البلد الواحد ، فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

اتخاذ سور
المدينة

ولما طَرَقَ المدينة الشريفة الخرابُ في أطرافها جعلوا لها سوراً ، قال المجد
الفيروزبادي : سور المدينة الشريفة بَنَاهُ أولاً عَضُدُ الدولة بن بُويْه بعد الستين
وثلاثمائة في خلافة الطائع لله بن المطيع لله ، ثم تهدم على طول الزمان وتخرَّب
لخراب المدينة ، ولم يبق إلا آثاره ورُسْمُهُ .

وقال المطري في الكلام على مسجد جهينة : إن ناحية جُهَيْنَةَ معروفة
غربي حصن صاحب المدينة والسور القديم ، بينها وبين جبل سَلْع ، وعندها
أثرُ باب للمدينة معروف بدرب جهينة إلى تاريخ كتابه ، وهو سنة ست
وستين وسبعائة .

قلت : قد قدَّمنا ما يخالف ما ذكره في ناحية جهينة ؛ لأننا وإن لم نَرَ البابَ
الذي أشار إليه ، لكن رأينا آثار السور القديم قبلي جبل سَلْع ، وقرب الحصن
المذكور . ويظهر من حاله أن غالب منازل جُهَيْنَةَ وغيرها من المنازل المتقدمة
كانت في جوفه ، وأنه كان في جهة المغرب على شفير بطحان بالعدوة الشرقية ؛ لأن
الأقشهرى نقل في روضته عن صاحب سور الأقاليم أنه قال : المدينة أقلُّ من
نصف مكة ، وهي في حرَّة سَبِيخَةِ الأرض ، وبها نخل كثير ، ومياه نخيلهم
وزرعهم من الآبار يسقى منها العبيد ، وعليها سور ، والمسجد في نحو من وسطها .
ثم ذكر صفة المسجد والقبر الشريف ، ثم قال : ومُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم
الذي كان يصلي فيه الأعياد من غربي المدينة داخل الباب ، انتهى . فكون
المُصَلَّى داخل الباب شاهداً لما ذكرنا ، وقد صرح بنحوه الإمام أبو عبد الله
الأسدي فإنه ذكرَ المساجد الخارجة عن المدينة ، ثم ذكرَ المساجد التي بالمدينة
فقال : وداخل المدينة مُصَلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال المطري بعد ذكره لما تقدم من باب هذا السور القديم : ونقل ابنُ
خلكان أن سور هذا الباب القديم بناه عَضُدُ الدولة بن بُويْه بعد الستين وثلاثمائة
من الهجرة في أيام الطائع لله ابن المطيع ، ثم تهدم على طول الزمان وخرب لخراب

المدينة ، ولم يبق إلا آثاره حتى جدد لها جمال الدين محمد بن أبي منصور - يعني سور آل زنكى الجواد الأصبهاني ور بر بنى زنكى - سوراً محكماً حول المسجد الشريف على رأس الأربعين وخمسمائة من الهجرة ، ثم كثر الناس من خارج السور ، ووصل السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة إلى المدينة الشريفة بسبب رؤيا رآها ، وذكر ما قدمناه عنه فى خاتمة الفصل التاسع والعشرين .

ثم قال : إنه لما ركب متوجهاً إلى الشام صاح به مَنْ كان نازلاً حول السور واستغاثوا وطلبوا أن يبني عليهم سوراً يحفظ أبنائهم وماشيتهم ، فأمر ببناء هذا السور الموجود اليوم ، فَبَنَى فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وكتب اسمه على باب البقيع ؛ فهو باقٍ إلى تاريخ هذا الكتاب .

قلت : وهو باقٍ على باب البقيع إلى أن كتبنا كتابنا هذا ، وصورته فى صفحات الحديد المصفح بها الباب : هذا ما أمرَ بعمله العبدُ الفقير إلى الله تعالى محمود بن زنكى بن أفسنقر ، غفر الله له ، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة . وهذا لا يدل على أنه أنشأ السور .

وعبارة البدر بن فرحون عند ذكره لمحاسن نور الدين الشهيد رحمه الله ما لفظه : وبنى أيضاً سورَ بعلبك ، وكمل بناء سور المدينة ، وهو سورُها الموجود اليوم ، واسمه مكتوب على باب البقيع ، وأما السور الذى داخل المدينة فإنما أحدثه الوزير جمال الدين محمد بن أبي منصور ، وكان وزيراً لوالد الملك العادل يعنى زنكى ثم استوزره بعد زنكى ولده غازى بن زنكى يعنى أخا الملك العادل ؛ فهذا يقتضى أن الملك العادل إنما كمل بناء السور الموجود اليوم فقط ، ويبعده ما ذكره من بناء الجواد لسوره ؛ فإنه لو كان السور المذكور موجوداً لكان هو أكمله ولم ينشئ سوراً غيره ، ومدة بناء السورين المذكورين متقاربة كما يعلم مما قدمناه .

من آثر الجواد
الأصفهاني

وقال المجد : إن الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن بن أبي شامة قال في كتابه ما صورته : ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعا - يعني وزير الموصل جمال الدين الجواد - أنه بنى سوراً على مدينة النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب ، وكان أهلها في ضنك وضرر معهم .

قال ابن الأثير : رأيت بالمدينة إنسانا يصلي الجمعة ، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له ، فسألناه عن سبب ذلك ، فقال : يجب على كل مسلم بالمدينة أن يدعو له ؛ لأننا كنا في ضر وضيق ونكد عيش مع العرب ، لا يتركون لأحدنا ما يواريه ويشبع جوعته ، فبنى علينا سوراً احتميناً به ممن يريدنا بسوء ، فاستغفينا ، فكيف لا ندعوه ؟ قال عقبه : قلت : وهذا السور الذي بناه جمال الدين هو السور الثاني ، والسور الذي بناه الملك العادل نور الدين هو السور الثالث ، أي بحسب الزمان ، وعلى كل منهما اسمُ بانيه على الأبواب ، وأما السور الأول الذي بناه عضد الدولة فلم يبق منه أثر يعرف به مكانه ، انتهى . هكذا نقلته من تاريخ المجد . وبقوله انتهى ظهر أن قوله قلت إلى آخره من كلام ابن أبي شامة ، ويحتمل أن يكون من كلام ابن الأثير .

وقال المجد عقبه : قال : وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته « اللهم صنْ حريمَ مَنْ صانَ حرَمَ نبيك بالسور محمد بن علي بن أبي منصور » فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخراً ، فكيف وقد أصابت صدقته تخوم الأرض شرقاً وغرباً وبرا وبحراً ؟ .

وأما شدةُ عنايته بأهل المدينة فكانت عظيمة ، قال ابن الأثير : حكى لي بعضُ الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر التتاي شيخ شيوخ الموصل قال : أحضرني الشيخُ فقال لي : انطلقْ إلى مسجد الوزير بظاهر الموصل واقعدْ هناك ، فإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك ، ففعلت ، فإذا قد أقبل جمع كثير من الجمالين يحملون أحمالاً من النصافي والخام ، وإذا نائب جمال الدين قد جاء

مع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجلال ، فقال لى : تأخذ هذه وتسير إلى الرحبة وتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان ، فإذا حضر لك فلان العربى فتوصل إليه هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه ، فإذا أوصلك إلى فلان العربى توصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب ، وهكذا إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فتوصل إلى وكيلى فلان هذه الأحمال ، وهذه الكسوات والمال الذى عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة ، ثم تأخذ الباقي الذى عليه اسم مكة فتسير إليها فيتصدق به وكيلى بموجب الجريدة الأخرى ، فسيرنا بذلك إلى وادى القرى ، فرأينا هناك جمالا كثيرة تحمل الطعام إلى المدينة ، وقد منعهم خوف الطريق ، فلما رأونا ساروا معنا إليها فوصلناها والحيلة بها كل صاعين بدينار مصرى ، والصاع - أى فى ذلك الزمان - خمسة عشر رطلا بالبغدادى ، فلما رأوا المال والطعام اشتروا كل سبعة أصع بدينار ، فاقبلت المدينة بالدعاء له .

قلت : وقد قدمنا كيفية نقله إلى المدينة الشريفة بعد موته ودفنه بترابته التى برباطه المجاور للمسجد الشريف عند ذكر باب عثمان وهو باب جبريل لمقابلته له ، وتقدم ذكره أيضاً فى ترخيم الحجرة الشريفة .

ومن أعماله الحسنة تجديد مسجد الخيف ، وإجراء عين عرفة ، وبناء جدار الحجرة وترخيمه ، وتجديد باب الكعبة ، وكان النعش الذى حمل فيه هو باب الكعبة القديم ، وفيه يقول أبو المجد بن قسيم :

أَغْرُ تُبْصِرُ مِنْهُ النَّاسَ فِي رَجُلٍ وَاللَّيْثَ فِي بَشَرٍ ، وَالْبَذَرَ فِي غُصْنٍ
سَمَّا بِهِمَّةَ فِي الْمَكْرَمَاتِ إِلَى عَلِيَاءَ تَقْصُرُ عَنْهَا هِمَّةُ الزَّمَنِ

إلى أن قال فيه :

صَانِ الْمَدِينَةَ تَسْوِيرًا وَصَوْرَهَا فِي الْحُسْنِ غَادَةَ مُلْكِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ

(٢٥ — وفاء الوفا ٢)

وصان بالمال أهلها فـا بَقِيَتْ هزلأ، إلاً تَشَكَّتْ كثرَة السَّنِ
ولسور المدينة اليوم أربعة أبواب غير باب حصن أمير المدينة المعروف باب
السر، وهو باب عظيم كله من الحديد
أبواب السور وأما الأبواب الأربعة :

فأحدها : الباب الذي غربى المدينة فى جهة المصلى عند منزلة الحاج المصرى ،
ويعرف بدرب المصلى ، ودرب سويقة ، وذَرْعُ ما بينه وبين عتبة باب السلام
ستمائة ذراع وخمسة وأربعون ذراعا ، وكان عليه باب مُتَقَنَّ أَحْرَقَهُ بعضُ صبيان
الأمير ضغيم سنة عزله ، فأخذ أمير المدينة باب الحوش الذى عمره الأمير ضغيم
وجعله عليه ، ثم عَمِلَ له باب مُتَقَنَّ كالأول فى عمارة المسجد المتجددة بعد
الحريق الثانى .

ثانيها : الباب الذى فى جهة المغرب أيضاً عند رحبة حصن أمير المدينة يعرف
بالدرب الصغير .

ثالثها : الباب المعروف بالدرب الكبير ، و بالدرب الشامى .

رابعها : الباب المعروف بدرب البقيع فى شرقى المدينة ، ويعرف بدرب الجمعة ،
وعليه باب متقن مغشًى بصفائح الحديد ، والظاهر أنه باقى من زمن نور الدين
الشهيد لما قدمناه من الكتابة عليه .

وذَرْع ما بينه وبين عتبة باب المسجد المعروف بباب جبريل أربع مائة ذراع
وثلاثة وثلاثون ذراعا .

وفى قبلة سور المدينة موضعُ بابٍ مسدود اليوم ، وكان يعرف بدرب السوارقية
ولم يزل الملوك يهتمون بعارة سور المدينة ، ويصلحون ما وَهَى منه .

وقد ذكر الزين المراغى أنه جُدِّد فى سنة خمس وخمسين وسبعمائة فى أيام
الملك الصالح صالح أحد أولاد الناصر محمد بن قلاوون .

وذكر البدر ابن فرحون أن الأمير سعد بن ثابت بن حماد ابتداء في سنة
إحدى وخمسين وسبعمائة عمل الخندق الذي حوّل السور المذكور ، ومات
ولم يكمله ، وأكملهُ الأمير فضل بن قاسم بن حماد في ولايته بعده ، والله سبحانه
وتعالى أعلم .

تم - بحمد الله تعالى وحوله - الجزء الثاني من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار
المصطفى » صلى الله عليه وسلم . ويليه - إن شاء الله - الجزء الثالث ، وأوله « الباب
الخامس ، في مُصَلَّى النَبِيِّ صلى الله عليه وسلم في الأعياد » نسأله - جَلَّتْ قدرته -
أن يُعين على إكماله ، بمنه وفضله وتيسيره ، إنه لا ييسر إلى الخير سواه .

فهرس الموضوعات الواردة في الجزء الثاني

من كتاب « وفاء الوفا ، بأخبار دار المصطفى »

لنور الدين علي بن أحمد السمرودي ، المصري ، المدني

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٣٨٧	فاتحة الجزء الثاني	٤٢٢	مرجع مضاعفة فضل الصلاة
٣٨٨	الجزء الفصل الرابع في خبر الجذع الذي كان النبي يخطب إليه	٤٢٣	هـ - هل يختص تضعيف الأجر بالصلاة؟
—	الروايات الواردة في حنين الجذع	٤٢٦	الفصل السادس ، في فضل المنبر المنيف والروضة الشريفة
٣٩١	صانع المنبر	—	ما ورد من الأحاديث في ذلك
٣٩٣	موضع الجذع	٤٢٩	معنى كون المنبر على الحوض
٣٩٤	شهرة حديث حنين الجذع	—	معنى كون الروضة من رياض الجنة
—	الموضع الذي دفن فيه الجذع	٤٣٤	خلاصة الأقوال في تحديد الروضة
٣٩٥	بدعة أحدثها الناس بسبب الجذع	٤٣٩	الفصل السابع ، في أساطين المسجد
—	عود إلى الاختلاف في صانع المنبر	—	الأسطوان المخلق الذي هو علم على مصلى الرسول (ص)
٣٩٨	أراد معاوية نقل منبر النبي إلى الشام	٤٤٠	أسطوان القرعة
٣٩٩	رفع المنبر ست درجات	٤٤٢	أسطوان التوبة
٤٠٠	عدد درجات المنبر	٤٤٧	أسطوان السرير
٤٠١	مساحة المنبر ، ووصفه ، ومآله	٤٤٨	أسطوان المحرس
٤١٢	كسوة المنبر	٤٤٩	أسطوان الوفود
٤١٣	الفصل الخامس ، في فضائل المسجد النبوي	٤٥٠	أسطوان مربعة القبر
—	المسجد الذي أسس على التقوى	—	أسطوان التهجد
٤١٥	فضل مسجد رسول الله		
٤١٦	فضل الصلاة في المسجد النبوي		
٤٢١	هل فضل الصلاة في المساجد الثلاثة خاص بالفرض ؟		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٤٥٣	الفصل الثامن ، في الصفة وأهلها ، وتعليق الأقناء لهم	—	معنى الصفة ، وتحديد موضعها
٤٥٤	أهل الصفة	٥٢٦	أول من أحدث المحراب والشرفات
٤٥٧	مبدأ تعليق الأقناء	—	شرفات المسجد ، ووصفها
٤٥٨	الفصل التاسع ، في الحجرة الشريفة ، وبيان إحاطتها بالمسجد إلا من جهة الغرب	—	المغارات التي عملها عمر بن عبد العزيز
٤٦٣	المشربة التي اعتزل الرسول فيها لما آلى من نسائه شهرا	٥٣٠	عثمان أول من خلق المسجد ورزق المؤذنين
٤٦٦	الفصل العاشر ، في حجرة فاطمة	٥٣١	اتخاذ حرس للمسجد
٤٧١	الفصل الحادي عشر ، في الأمر بسد الأبواب الشارعة في المسجد	٥٣٢	الصلاة على الجنائز في المساجد
٤٨١	الفصل الثاني عشر ، في زيادة عمر بن الخطاب في المسجد النبوي	٥٣٥	الفصل الثامن عشر ، في زيادة المهدي العباسي التي زادها في المسجد النبوي
٤٨٢	بين عمر بن الخطاب والعباس بن عبد المطلب وقد طلب عمر دار العباس ليدخلها في المسجد	٥٤٠	الفصل التاسع عشر ، فيما كانت عليه الحجرة الشريفة الحأوية للقبور المنيفة أول الأمر
٤٩٣	الفصل الثالث عشر ، في البطيحاء التي بناها عمر بناحية المسجد ، ومنعه من إنشاد الشعر ورفع الصوت فيه	٥٤١	أول من بنى جدارا على بيت عائشة
٥٠٠	الفصل الرابع عشر ، في زيادة عثمان ابن عفان في المسجد النبوي	٥٤٣	الفصل العشرون فيما حدث من عمارة الحجرة والحائز الذي أدير عليها
٥١٠	الفصل الخامس عشر ، في ذكر المقصورة التي اتخذها عثمان في المسجد ، وما آل أمرها إليه	٥٥٠	الفصل الحادي والعشرون ، فيما روى من الاختلاف في صفة القبور الشريفة بالحجرة ، وموضع كل منها ، ورسم كل صفة منها
٥١٣	الفصل السادس عشر ، في زيادة الوليد بن عبد الملك على يد عمر بن عبد العزيز	٥٥٧	بقي في الحجرة موضع قبر رابع
٥٢٥	الفصل السابع عشر ، فيما اتخذ عمر	٥٥٩	الملائكة يحفون بالقبر
		—	لا ينبغي رفع الصوت في المسجد
		٥٦٠	سنة أهل المدينة في أعوام الجديع
		—	الفصل الثاني والعشرون ، فيما ذكروه من صفة الحجرة الشريفة والحائز الخمس الدار عليها ، وبيان ما شاهدوه المؤلف

ص	الموضوع	ص	الموضوع
۵۶۹	الفصل الثالث والعشرون ، في عمارة اتفقت بالحجرة وما وقع من الدخول إليها عند الحاجة وتأزيها بالرخام	۶۴۸	وضعه المنيف ، وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة في هذه العمارة خاتمة فيما نقل من عمل نور الدين الشهيد لحنق حول الحجرة الشريفة مملوء بالرصاص ، وسبب ذلك ، وما ناسبه
۵۷۴	الفصل الرابع والعشرون ، في الصندوق الذي في جهة الرأس الشريف ومسمار الفضة الذي يواجه الوجه الشريف ، ومقام جبريل من الحجرة الشريفة ، وكسوتها ، وتخليقها	۶۵۵	الفصل الثلاثون ، في تحصيب المسجد الشريف ، وذكر البزاق فيه ، وتخليقه ، وإجماره ، وذكر شيء من أحكامه
۵۸۱	كسوة الحجرة النبوية ، ومبدأ أمرها ووصفها	۶۵۹	مبدأ تخليق المسجد
۵۸۴	الفصل الخامس والعشرون ، في قناديل الفضة التي تعلق حول الحجرة وغيرها من معاليقها	۶۶۲	تخليق القبر
۵۹۱	حكم معاليق المسجد النبوي	—	الأمر بتجميم المساجد
۵۹۸	الفصل السادس والعشرون ، في الحريق الأول المستولي على تلك الخزاف المحدث بالحجرة الشريفة والمسجد وسقفهما ، وما أعيد منها	۶۶۳	فرش المسجد
۵۹۸	سبب الحريق وتاريخه	۶۶۷	الحدث في المسجد
۵۹۹	حكمة الله في ذلك الحريق	—	القراءة في المصحف بالمسجد
۶۰۱	الشروع في العمارة بعد الحريق	۶۶۸	بعث المصاحف إلى المساجد
۶۰۸	الفصل السابع والعشرون في اتخاذ القبة الزرقاء على ما يحاذي سقف الحجرة الشريفة بأعلى المسجد	۶۷۰	مصاحف عثمان التي أرسلها إلى الآفاق
—	ابتداء اتخاذ القبة الزرقاء	—	تعليق المصاحف في المسجد
۶۱۱	المقصورة الدائرة حول الحجرة	۶۷۱	الفصل الحادي والثلاثون ، فيما احتوى عليه المسجد من الأروقة والأساطين والبالوعات والسقايات
۶۱۷	الفصل الثامن والعشرون ، فيما تجدد من عمارة الحجرة الشريفة في زمان المؤلف ، وما حصل بسببه من إزالة هدم الحريق الأول ومشاهدة	—	وصف عام
		۶۷۲	وصف جدران المسجد
		۶۷۳	عدد أسطین المسجد
		۶۷۷	عدد بالوعات المسجد
		۶۷۸	سقايات المسجد
		۶۸۰	حواصل المسجد
		۶۸۱	عدد قناديل المسجد

ص	الموضوع	ص	الموضوع
۶۸۲	كان في صحن المسجد نخيل مفروسة	۷۲۵	دار النحام العدوى ، ودار جعفر ابن يحيى
۶۸۳	أئمة المسجد وأرزاقهم	۷۲۶	دار نصير ، ودار منيرة مولاة أم موسى
—	عرض جدر المسجد	۷۲۷	حش طلحة ، وأبيات خالصة
۶۸۶	الفصل الثاني والثلاثون ، في أبواب المسجد وما سد منها وما بقي وما يحاذيها من الدور قديما وحديثا	۷۲۸	دار حميد بن عبد الرحمن بن عوف
—	عدد أبواب المسجد وذكرها بابا بابا	۷۲۹	دار موسى الخزومي ، وأبيات الصوافي
۷۰۶	الفصل الثالث والعشرون ، في خوذة آل عمر رضى الله عنه	۷۳۰	دار خالد بن الوليد
—	تحديد موضع هذه الخوذة	۷۳۱	دار أسماء بنت حسين ، ودار ربيعة
۷۰۸	انحاذ بعض الناس بابا وسيلة للتدجيل وما آل إليه أمر هذا الباب	۷۳۲	دار عثمان بن عفان ، ودار أبي أيوب
۷۱۰	حج السلطان قايتباي وزيارته	۷۳۳	دار جعفر الصادق ، ودار حسن بن زيد ، ودار فرج الحمى
۷۱۴	وقف السلطان قايتباي لأهل المدينة	۷۳۴	دار عامر بن عبيد الله بن الزبير بن العوام
۷۱۶	بعض آثار قايتباي بالحرم — بين الشريفين	—	الفصل الخامس والثلاثون ، في البلاط ، وبيان ما كان حوله من منازل المهاجرين
۷۱۷	الفصل الرابع والثلاثون ، فيما كان مطيفا بالمسجد الشريف من الدور ، وما كان من خبرها ، وجل ذلك من منازل المهاجرين	—	تحديد مكان البلاط
—	تخطيط الرسول لدور المدينة	۷۳۶	حدود البلاط
۷۱۸	دار آل عمر بن الخطاب	۷۴۰	بيان الدور المحيطة بالبلاط
۷۱۹	بيت لأبي بكر الصديق صار لآل عمر	۷۴۷	الفصل السادس والثلاثون ، فيما جاء في سوق المدينة الذي تصدق به النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر
۷۲۰	دار مروان بن الحكم		
۷۲۲	دار رباح ودار المقداد ودار مطيع		
۷۲۳	دار حكيم بن حزام		
۷۲۴	دار عبد الله بن مكمل		

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٧٥٤	البطحاء ، وبيع الخيل	دار هشام بن عبد الملك التي أخذ	
٧٥٥	بركة السوق	بها السوق	
٨٥٧	الفصل السابع والثلاثون. في منازل القبائل من المهاجرين ، ثم اتخاذ السور على المدينة	— النبي صلى الله عليه وسلم ينشئ السوق	
٧٦٨	من مآثر الجواد الأصفهاني اتخاذ سور المدينة	— أسواق المدينة في الجاهلية	
		٧٥٣ هدم الدار التي وضعت مسكان السوق	
		— بيت أم كلاب	

وقد تمت فهرست الجزء الثاني من كتاب « وفاء الوفا » والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على سيدنا محمد خير خلق الله وأكرمهم عليه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ؟

